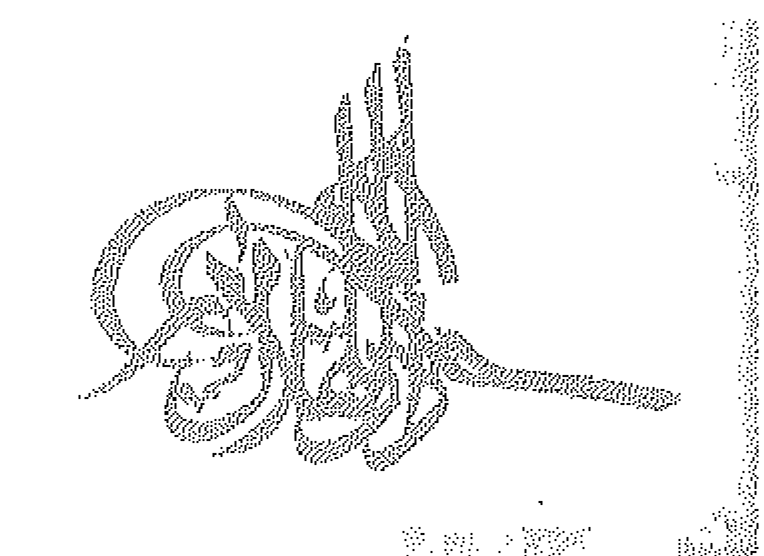

Bibliotheca Alexandrina
0136251



كتاب
الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة : مكرم محمد احمد
رئيس التحرير : مصطفى نبيل
مدير التحرير : عايد عياد

مركز الإدارة :
دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٣٦٢٥٤٥٠ ، سبعة خطوط .

KITAB ALHILAL

العدد ٤٦١ - رمضان ١٤٠٩ - مايو ١٩٨٩
No . 461 MAY 1989

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشة الفنان
محمد أبوطالب

مذكرات
الزعيم أحمد عرابى

« كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية ، المشهورة بالثورة العرابية ، فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريتين ، وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديتين »

بقلم
زعيم الثورة العرابية
أحمد عرابى

•

دار الهلال

مذكرات عرابى

عرض وتعليق :
د . أحمد عبدالرحيم مصطفى

كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المشهورة بالثورة العرابية فى عامى ١٢٩٨ و ١٢٩٩ الهجريتين وفى ١٨٨١ و ١٨٨٢ الميلاديتين

كانت الثورة المصرية المعروفة بالعرابية وليدة الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية التى مرت بها مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر ، فرغم أهمية الإصلاحات التى حققها محمد على إلا أن عهده كان شديد الوطأة على المصريين الذين أثقلت كواهلهم فى عهده وعهد خلفائه بألوان لا حصر لها من الضرائب ، وناءوا تحت وطأة السخرة والكرباج ولم يتوفر لهم الأمن على أملاكهم وأرواحهم وكانوا يشغلون أوضاعا دونية بالنسبة إلى الأجانب من كل لون سواء منهم الأتراك والشراكسة الذين جعلت منهم الأسرة الحاكمة ركيزة لحكمها وأوسعت لهم فى المناصب والأملاك والنفوذ أو من الأوروبيين الذين تمتعوا بالوضع الممتاز الذى أضفته عليهم الامتيازات الاجنبية ونفوذ الدول الأوروبية .

فى غضون ذلك نما الوعى لدى المصريين نتيجة للتعليم الحديث والاحتكاك بأوروبا والحضارة الأوروبية وظهور الصحافة الوطنية مما جعلهم يتطلعون إلى تحسين أوضاعهم والاشتراك فى حكم بلادهم .

وساعد على يقظة الرأى العام ازدياد التدخل الأجنبى فى شئون البلاد نتيجة للديون التى اقترضها كل من سعد باشا (١٨٥٤ - ٦٣) وإسماعيل باشا (١٨٦٣ - ٧٩) ونمو الحركة الامبريالية الأوربية التى سال لعابها على موقع مصر الجغرافى الهام - فكانت مقدمات الثورة التى تزعمها أحمد عرابى ونسبت اليه .وفرغ من كتابة مذكراته عنها فى ٢٦ يولية ١٩١٠ ، أى قبيل وفاته .

وقد كتب عرابى هذه المذكرات بعد أن عاد من منفاه فى سيلان واطلع على ما كتب عن الثورة ولم يجد فيه التزاما بالحقيقة . ومن ثم كان هدفه من كتابة مذكراته "تمحيص للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمغتريات الباطلة" ، والمطلع على مذكرات عرابى يلمس منذ اللحظة الأولى مدى إحساسه بالظلم والتفرقة ، اللذين تعرض لهما بعد أن انخرط في سلك القوات المسلحة المصرية . فقد تلقى تعليما تقليديا فى كتاب قريته "هرية رزنة" ثم التحق بالأزهر بعض الوقت وانخرط فى القوات المسلحة جنديا عاديا ورقاه محمد سعيد باشا ملازما من تحت السلاح وخلال سنتين رقاه عدة مرات إلى أن شغل رتبة البكباشى فكان بذلك أول مصرى يصل إلى هذه الرتبة . وقد قربه سعيد اليه ، وكثيرا ما كان يشركه معه فى ترتيب المناورات الحربية وينيبه عنه فى "تلقينها لأكابر الضباط بحضرته" ، كما أهداه تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية ويقول فى ذلك : **"ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا الى حكومة شورية دستورية فكان ذلك سببا لمطالعتى كثيرا من التواريخ العربية"** . والغريب فى ذلك أن نابليون كان حاكما أوتوقراطيا يميل إلى المشورة دون أن يلتزم بآراء الآخرين ، ومن ثم فليس صحيحا ما يرويه الكتاب من أن بدايات الحكم النيابى فى مصر ترتبط بالمجالس والدواوين التى أنشأها نابليون فى مصر وكان يستهدف منها إيجاد صلة ما بين الحاكم والمحكوم .

ويشير عرابى إلى أن إيمانه بالحكومة الشورية الدستورية ازداد فيه تأصلا بعد أن استمع الى خطبة القاها سعيد باشا وأثار فيها روح الوطنية المصرية وألمح إلى أنه يتجه الى تربية المصريين

لكى يستغنوا عن الأجانب .

وربما كان تبنى سعيد لعرابى وغيره من الضباط المصريين الذين رقاهم من تحت السلاح مرتبطا بطموحه إلى تحقيق استقلال مصر عن الدولة العثمانية بمساعدة الدول الأوروبية وبخاصة فرنسا . فرغم أن عدد سكان مصر كان لايتجاوز حينئذ الأربعة ملايين وأن عدد الأتراك فيها كان يتراوح مابين ثمانية وعشرة آلاف ، ورغم أن تسوية ١٨٤٠ ـ ٤١ نصت على ألّا يتعدى عدد الجيش المصرى ١٨,٠٠٠ مقاتل ، فقد تخطى سعيد هذا العدد إلى مايربو على الضعف وسعى إلى استمالة المصريين ذوى النفوذ بأن يخلع عليهم بعض المزايا التى كان يتمتع بها الأتراك والشراكسة وبخاصة بعد أن سرح القوات التى شكلها عباس الأول وتخلص من الضباط الذين عينهم سلفه وأنشأ قوة يأتمر عليها ضباط وتولى هو اختيارهم .

وفى عهد إسماعيل لم يحصل عرابى على أية ترقية وتعرض لعدة مضايقات ألحقها به الأتراك والشراكسة الذين كانوا لا يزالون يتمتعون بنفوذ كبير ولا ينفكون يتهمون عرابى بإثارة الشغب . لهذا نجده يندد بالظلم الذى تعرض له وسائر المصريين فى هذا العهد تنديده باستبداد الحاكم وفساده ، ويشير إلى الإهمال والمحسوبية اللذين لمسهما خلال الحملة التى وجهها إسماعيل فى عام ١٨٧٦ ضد الحبشة ومنيت بهزائم فادحة يستعرضها عرابى ويعزوها إلى وجود الأجانب (من أوروبيين وأمريكان) الذين شغلوا مراكز قياديه فى القوات المسلحة المصرية . ولا ينفك عرابى يسجل سخطه على استبداد إسماعيل وفساده وألوان الظلم التى تعرض لها المصريون فى عهده مشيرا إلى الأزمات التى تعرضت لها مصر فى أواخر عهده إلى أن خلع فى عام ١٨٧٩ ثم رحل عن البلاد فى يخته المحروسة الذى رحل فيه حفيده فاروق فى يولية ١٩٥٢ ، ثم يتطرق إلى أوائل عهد الخديو توفيق وإلى التطورات التى أدت إلى مظاهرة عابدين الأولى فى أوائل عام ١٨٨١ وهى المظاهرة التى يذكر أنها كانت تستهدف إقامة حكم نيابى وهو مالا تؤيده المصادر الأخرى التى رجعنا اليها والتى تجمع على أن مطالب الضباط الوطنيين فى أوائل عام ١٨٨١ لم

تتعد التخلص من وزير الحربية الشركسى عثمان رفقى وإصلاح أوضاع الجيش بما يحقق إنصاف المصريين من ضباط وجنود ، وأطرف مافى الجزء الأول من المذكرات ما يرويه عرابى (ص ٥٧ ـ ٥٨) من أن الشراكسة الموجودين في مصر حينئذ كانوا يسعون إلى إعادة الحكم المملوكى الذى كانت قد تقطعت به الأسباب وتخطاه الزمن . كما يشير إلى تآمر هؤلاء الشراكسة لاغتيال الضباط "الفلاحين" الذين نجوا من هذه المؤامرات ومدوا أيديهم إلى مختلف العناصر الساخطة على الاستبداد والتدخل الأجنبى مما مهد للمطالبة العامة باسقاط حكومة رياض باشا المستبدة وإقامة حياة نيابية .

وفى سبتمبر ١٨٨١ جرت مظاهرة عابدين الثانية التى قامت بها وحدات الجيش المصرى الموجودة فى القاهرة أو بالقرب منها وظهر فيها عرابى بمظهر الزعيم الشعبى . واضطر الخديو توفيق الذى لم يكن له سند فى الجيش إلى قبول المطالب الوطنية وبذلك تمهد السبيل لفترة جديدة فى تاريخ مصر الحديث ، ويشير عرابى إلى أن توفيق الذى أرغم على تقديم التنازلات للمطالب الوطنية أرسل فى نوفمبر ١٨٨١ مندوبا إلى استانبول لكى يبلغ السلطات العثمانية بأن الحركة الوطنية المصرية كانت تستهدف إقامة خلافة عربية تضم كل الناطقين بالضاد فتشمل الحجاز واليمن والعراق ومصر والشام وطرابلس الغرب وغيرها ـ ويصف ذلك الزعيم بأنه "بهتان عظيم" .

أما الحزب الوطنى المصرى الذى تأسس فى أواخر عهد إسماعيل وظهر إلى العيان فى أوائل عهد الثورة فقد نشرت جريدة التايمز اللندنية كتابا ادعت أنه مرسل اليها من عرابى متضمنا برنامج هذا الحزب ومطالبه وأمانيه ومساعيه وتناقلته بعض الصحف ووكالات الأنباء ولكن كذبته جريدة الوقائع المصرية التى سيطر عليها الثوار كما كذبه صديق العرابيين المستشرق ولفرد بلنت بقوله إنه هو الذى كتبها ووافق الوطنيون عليها وقام هو بإرسالها إلى جريدة التايمز باسمه وبإمضائه . ولا يزال الدور الذى قام به بلغت خلال الثورة بحاجة إلى مزيد من الدراسة خاصة وقد اتهمته الدوائر الفرنسية خلال الثورة بأنه

كان مدسوسا عليها من قبل الأجهزة البريطانية وأنه رغم ماذهب إليه فى كتابه التاريخ السرى للاحتلال الانجليزى لمصر من مساعدته للثورة بإخلاص فإنه فى بعض مراحلها قدم نصائح للثوار ساعدت على احتدام الموقف . وله أوراق خاصة محفوظة فى بريطانيا نرجو أن يطلع عليها الباحثون الذين ربما يجد فيها بعضهم مايلقى الأضواء على دوره الحقيقى .

أما الجزء الثانى من المذكرات فإنه يتناول معارك القتال داخل مصر ، كما تشغل محاكمة العرابيين حيزاً كبيرا فيه ، وفى نهايته يستعرض عرابى حياته فى المنفى .

وكان قد نشر من هذه المذكرات قبل عام ١٩٥٢ قبل أن يسقط النظام الملكى . وسعى العهد الجديد إلى إنصاف عرابى والثورة التى تزعمها ، وبادرت "دار الهلال" إلى نشرها كاملة وقدم اللواء محمد نجيب للجزء الأول من هذه المذكرات . والقارىء للجزئين يحس بأن من نشروهما عمدوا إلى اختصار بعض التفاصيل التى ربما رؤى أنها قد لا تهم القارىء العادى . كما أن بعض المعلومات التى تناولها الجزءان بحاجة إلى تحقيق وإيضاح ولو أن بإمكان القارىء المدقق أن يستكمل الصورة من المؤلفات العربية والإفرنجية التى ألفت فى تاريخ مصر الحديث بوجه عام وفى تاريخ الثورة العرابية بوجه خاص ، خاصة وأن بعضها يعتمد على الوثائق التى تكشفت بمرور الزمن - على المذكرات التى نشرت تباعا ومنها مذكرات بعض زعماء الثورة أو بعض خصومها .

وأخيرا يسعدنى أن أقدم للطبعة الثانية من مذكرات عرابى التى أرجو أن تطلع الناشئة على وجهات نظر هذا الزعيم الوطنى الذى غمط حقه إلى وقت قريب ووجهت إليه سهام النقد والتجريح نتيجة إما لتملق الحكام من أسرة محمد على أو لتحميله مسئولية الاحتلال البريطانى للبلاد ، وهو الاحتلال الذى رزح على مصر والمصريين مدة تزيد على السبعين عاما .

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة صاحب المذكرات

الحمد لله الناشر فى الخلق فضله . الباسط فيهم بالجود يده . نحمده فى جميع اموره . ونستعين به على رعاية حقوقه . ونشهد أن لا اله غيره . وأن محمدا عبده ورسوله . أرسله بأمره صادعا . وبذكره ناطقا . فادى أمينا . ومضى رشيدا . وخلف فينا راية الحق من تقدمها مرق . ومن تخلف عنها زهق . ومن لزمها لحق

أحمده تعالى الذى جعل الحمد ثمنا لنعمائه . ومعاذا من بلائه . وسبيلا الى جنانه . وسببا لزيادة احسانه . والصلاة على رسوله نبى الرحمة وسراج الأمة . وامام الأئمة . المنتخب من طينة الكرم . وسلالة المجد الأقدم . وعلى آل بيته مصابيح الظلم . وعصم الأمم . ومنائر الدين الواضحة . ومثاقيل الفضل الراجحة . صلاة تكون أداء لفضلهم . ومكافاة لعملهم . وجزاء لطيب فرعهم وأصلهم . ما أنار فجر . وهدى نجم

أما بعد ، فانى قد أطلعت على كثير من الجرائد والتواريخ العربية والافرنجية الموضوعة فى النهضة المصرية المشهورة

بالثورة العرابية • فلم أجد فيها ما يقرب من الحقيقة ، أو يشفي غليل روادها من أبناء الأمة .

لذلك رايت أن أكتب الناس كتابا يهتدون به الى تلك الحقيقة الموموقة ، تمحيصا للتاريخ من درن الأهواء الفاسدة والمفتريات الباطلة . وسميتــه « كشـف الستار عن سر الأسرار في النهضـة المصرية المشهورة بالثورة العرابية في عامي ١٢٩٨ و١٢٩٩ الهجريتين وفي ١٨٨١ و١٨٨٢ الميلاديتين » قياما بالواجب على لأبناء وطني الأعزاء ، وتصحيحا للتاريخ ، وخدمة عامة للانسانيـة وبنيها . وصـدرته بنسبي وبتاريخ حياتي ليعـلم انى عربي شريف الأرومة ، مصري الموطن والنشأة والتربية . وهاك نشأتي ونسبي الشريف المتصل بسيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وآله وسلم .

أحمد عرابي المصري



نشأتى

نسبى الشريف

انا السيد احمد عرابى بن السيد محمد عرابى بن السيد محمد وافى بن السيد محمد غنيم بن السيد ابراهيم بن السيد عبد الله بن السيد حسن بن السيد على بن السيد سليم بن السيد ابراهيم بن السيد سليمان بن السيد حسين بن السيد على بن السيد حسن بن السيد ابراهيم مقلد بن السيد محمود بن السيد أحمد بن السيد حسن السجاعى ابن السيد صالح بن السيد صالح البلاسي (نسبة الى بلاس وهى قرية صغيرة ببطائح العراق وهو أول من هبط مصر من اجدادنا وتزوج من السيدة صفية شقيقة السيد احمد الرفاعى الصيادى) بن السيد على بن السيد عبد الرحمن ابن السيد عمر بن السيد عبد الرحمن بن السيد على بن السيد صالح الأكبر بن السيد محمد بن السيد على الحافظ ابن السيد قاسم بن السيد عبد السميع بن السيد عبد الفتاح بن السيد حسين الأصغر بن الامام على الرضا بن الامام موسى الكاظم بن الامام جعفر الصادق بن الامام محمد الباقر بن الامام على الزاهر زين العابدين بن الامام الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بن الإمام على بن ابى طالب كرم الله وجهه . وأمى السيدة فاطمة بنت السيد سليمان بن السيد زيد تلتقى مع والدى عند السيد ابراهيم مقلد :

أولئك آبائى فجئنى بمثلهم   اذا جمعتنا يا جرير المجامع

نشاتى الأولى

كان والدى السيد محمد عرابي شيخا جليلا رئيسا على عشيرته عالما ورعا موصوفا بالعفة والأمانة . وكانت ولادتى فى ٧ صفر سنة ١٢٥٧ ﻫ ببلدتنا التى تدعى « هرية رزنة » بمديرية الشرقية بضواحي مدينة « بو بسط » المشهورة الآن بتل بسطة وهى بلدة قديمة موجودة قبل زمن تغلب الملك شيشاق بن نمرود الأشورى (رأس العائلة الثانية والعشرين) على مصر . لا كما يهرف البعض بما لا يعرف ويدعى أنها من منشآت محمد على باشا . وما يزال فيها كثير من ذرية الفرس كعائلة كيوان وعائلة الدويتدار (دراز) وعائلة (تمراز) مما يدل على قدمها . وهى واقعة فى شرقى مدينة الزقازيق على بعد ميلين . وأما الزقازيق ، فهى منشأة فى زمن محمد على (باشا) بعد انشاء قناطر التقسيم على بحر مويس (أو المعز لدين الله الفاطمى) وواقعة على مقربة من تل « بسطة » . وتعلمت القرآن الشريف وبعض العلوم الدينية فى المكتب الذى أنشأه والدى وفى الجامع الأزهر ، وقد تعلم فى ذلك المكتب كثير من أبناء بلدتنا ، حتى بلغ عدد المتعلمين فيها نحو نصفها . ومنهم العالم الأزهرى واللغوى الشهير الشيخ محمد حسين الهراوى والطبيب النطاسى عبد الرحمن (بك) الهراوى والكيمياوى الشهير عبد العزيز (باشا) الهراوى . وكان والدى قد أمر بترتيب درس فقه فى المسجد الذى جدده للعامة بعد عصر كل يوم ، وبعد صلاة العشاء ، فتفقه عامة أهل البلد فى دينهم وصحت عبادتهم ، وحسن حالهم بفضل قيام المرحوم والدى على تعليم قومه وأهل بلده ، ثم توفى رحمه الله تعالى واجزل ثوابه فى ٢١ شعبان سنة ١٢٦٤ (بالكولره) أى الهواء الأصفر بالغا من العمر ٦٣ سنة . فغدوت يتيما فى الثامنة من عمرى .

وكانت تربيتى فى حجر والدتى وتحت رعاية أخى الأكبر السيد محمد عرابى الى أن تولى المرحوم سعيد باشا ولاية مصر فى ١٤ شوال سنة ١٢٧٠ هجرية حيث أصدر امره بانتظام أولاد عمد البلاد ومشايخها فى سلك العسكرية حيث كان طلبى والحاقى بالعسكرية فى١٥ربيع أول سنة١٢٧١ هـ

دخولى العسكرية وأسفارى

فى التاريخ المذكور آنفا دخلت العسكرية وكان ذلك فى عهد محمد سعيد باشا الذى كان محبا لتقدم المصريين . فترقيت بالامتحانات أمام رجال العسكرية الى رتبة ملازم ثانى فى ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧٥ والى رتبة ملازم أول فى ١٧ جماد الثانى سنة ١٢٧٥ والى رتبه يوزباشى فى ١٣شعبان من السنة المذكورة والى رتبة ضاغقولغاسى فى ٢٣ ربيع آخر سنة ١٢٧٦ والى رتبة بكباشى فى ١٥ شعبان من السنة المذكورة والى رتبة قائمقام بك فى ٢٤ صفر سنة ١٢٧٧ وهى الرتبة التى لم يصل اليها أحد قبلى من العنصر المصرى . ثم ترقيت بعد ذلك فى عهد محمد توفيق باشا الى رتبة أميرالاى فى رجب سنة ١٢٩٦ والى رتبة اللواء فى ربيع آخر سنة ١٢٩٩

وكانت مدة الأمير سعيد باشا كلها أسفار وتمرينات حربية من الاسكندرية الى مريوط ، ومنها الى دمنهور ، ثم الى القاهرة ، ثم الخنقاه فالعباسية ، فطره ، ثم الى بنى سويف ، فجبل الطير بمديرية المنيا ، الى قنا ، فسهل باب الملوك الى اسنا ، وكنت يومئذ عاملا فى الجيش فسعدت بالتوجه بمعيته رحمه الله الى المدينة المنورة لزيارة النبى صلى الله عليه وعلى آله

وفى مدة الخديو اسماعيل انتدبت لترتيب عساكر من اهالى القلاع الحجازية المحالة ادارتها على الحكومة المصرية

للمحافظة عليها بالنيابة عن الدولة العلية ، فسافرت في ٢٤ شعبان سنة ١٢٩٢ هـ من القاهرة الى بندر السويس ، وفي أول رمضان من السنة المذكورة توجهت خلى ظهر الجمال الى قلعة (نخل) بكسر النون والخاء وليس معي مساعد ولا كاتب ولا أجر لي على ذلك العمل الشاق بل كانت جميع المصاريف اللازمة لي ولخدمي وللحمالة الذين رافقونا من مالي الخاص لأن الحكومة كانت لا تعطي رجال العسكرية أجر سفريات كرجال الملكية

فلما وصلت الى (نخل) رتبت العساكر اللازمة لها من أهلها وأرسلت العساكر المصرية التي كانت فيها الى القاهرة بطريق البحر الأحمر وأنشأت في قلعة (نخل) مكتبا لتعليم الأطفال القراءة والكتابة وشيئا من القرآن الكريم وعهدت بمباشرة تعليمهم الى وكيل القلعة وفقيه البلد . ثم توجهت الى قلعة العقبة فوصلتها بعد ثلاثة أيام . ثم الى قلعة (المويلح) ثم الى قلعة (ظبا) ثم الى قلعة (الوجه) ورتبت في كل من هذه القلاع ما يلزمه من العساكر من أبنائه للمحافظة عليه وأنشأت فيه كذلك مكتبا لتعليم الأولاد تحت مراقبة وكلاء القلاع المذكورة ثم أرسلت جميع العساكر القديمة إلى مصر بطريق البحر الأحمر كذلك

وبعد اتمام تلك المأمورية على الوجه الأكمل قفلت عائدا الى مصر بحرا الى مدينة (القصير) ثم برا الى مدينة قنا ثم بحرا الى مدينة أسيوط ثم بطريق السكة الحديدية الى الجيزة فالقاهرة . وكان انجاز هذه المأمورية في مدة خمسة وأربعين يوما

وبعد وصولي الى القاهرة بعشرة أيام توجهت الى مصوع حيث كنت مأمورا للحملة الحبشية مكلفا بايصال الذخيرة والميرة الى الجيش أينما كان . فمكثت هناك الى انتهاء تلك الحركة المشؤومة التي بسببها بيعت حصص الحكومة في

قنال السويس (سرا بدون اشهار مزاد عنهـا) للحكومة الانجليزية بمبلغ زهيد قدره أربعـــة ملايين من الليرات الانجليزية • ولو انها عرض بيعها على الدول الاوربيـــة لبلغ ثمنها ما ينيف على خمسين مليونا من غير مبالغـة • على أنه لم يصرف من قيمة تلك الحصص درهم على الحملـة الحبشية بل استأثر بها الخديو اسماعيل لنفســـه سلبا ونهبا ! !

اسعد أيامي

مما تقدم يعلم اني دخلت العسكرية نفرا بسيطا في ١٥ ربيع أول سنة ١٢٧١ هـ وترقيت بسرعة غريبـــة جزاء ما بذلت من جهد عنيف ، حتى نلت رتبة قائمقام الآلاى في ٢٤ صفر الخير سنة ١٢٧٧ وكانت تلك المدة عبارة عن ستة أعوام الا عشرين يوما هى أيام سعودى وخلو فكرى من الأكدار الدنيوية ، فقد كنت فيهـــا عزيزا مكرما عند حضرة محمد سعيد باشا وكثيرا ما كان يشركني معه في ترتيب المناورات الحربية وينيبنى عنه فى تلقينها الى أكابر الضباط بحضرته ، وعلى مسمع منه رحمه الله تعالى •ولشدة اعجابه بى أهدانى (تاريخ نابليون بونابرت باللغة العربية طبع بيروت) وهو بادى الغيظ على أن تمكن الفرنساويون من التغلب على البلاد المصرية، والتحريض على وجوب حفظ الوطن من طمع الأجانب

ولما طالعت ذلك الكتاب شعرت بحاجة بلادنا الى حكومة شورية دستورية ، فكان ذلك ســـببا لمطالعتي كثيرا من التواريخ العربية • وازداد هذا الشعور فى تأصلا عندما سمعت خطبة ألقاها المرحوم سعيد باشا في مأدبة أدبهـــا بقصر النيل للعلماء والرؤساء الروحانيين وأعضاء العـــائلة الحاكمة وأعاظم رجال الحكومة ملكيين وعسكريين بعدتناول الطعام فى سرادق كبير

خطبة سعيد باشا

قال مرتجلا : « أيها الاخوان .. اني نظرت في أحوال هذا الشعب المصري من حيث التاريخ فوجدته مستعبدا لغيره من أمم الأرض . فقد توالت عليه دول ظالمة كثيرة كالعرب الرعاة (الهكسوس) والأشوريين والفرس حتى أهل ليبيا والسودان واليونان والرومان ، هذا قبل الاسلام . وبعده تغلب على هذه البلاد كثير من الدول الفاتحة كالأمويين والعباسيين والفاطميين من العرب ، ومن الترك ، والأكراد والشركس . وكثيرا ما أغارت فرنسا عليها حتى احتلتها في أوائل هذا القرن في زمن (بونابرت)

« وحيث اني أعتبر نفسي مصريا فوجب على أن أربي أبناء هذا الشعب وأهذبه تهذيبا حتى أجعله صالحا لأن يخدم بلاده خدمة صحيحة نافعة ويستغني بنفسه عن الأجانب . وقد وطدت نفسي على ابراز هذا الرأي من الفكر الى العمل »

فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والعظماء غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا . وأما المصريون فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحا واستبشارا . وأما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر في أساس نظام « مصر للمصريين »

وفي سنة ١٢٧٨ هـ رأى الأمير محمد سعيد (باشا) أن الحكومة مدينة لمعامل ألمانيا وفرنسا بنحو ثلاثة ملايين من الجنيهات ثمن بناء حوض للسفن بالسويس ومدافع كروب من ألمانيا ، وملابس ومهمات حربية وأسلحة جديدة من فرنسا . فاستعظم هذا الدين وأمر بصرف عساكر الجيش الى بلادهم وبيع ما في الخزائن الأميرية من الأمتعة الثمينة . وبيع جميع المعامل والورش القديمة الكائنة بالعاصمة والمحافظات والمديريات . وبيع الأطيان المتروكة ، وغير

ذلك للوصول الى سداد هذا الدين . كما أمر باعطاء من يرغب في الخروج من خدمة الحكومة أرضا معاشا له ولأولاده من بعده وباحالة الضباط الى المديريات والمحافظات مستودعين بنصف مرتباتهم . وأمر بتخصيص ما يلزم لهم من الرواتب على الأراضي الزراعية ، فخص كل فدان قرش واحد وربع القرش علاوة على المال لحين تسديد الدين المطلوب من الحكومة . ثم تجمع العساكر والضباط ثانية وتلغى الضريبة المؤقتة . وقد استمر الأمر على ذلك الى أن توفى رحمه الله

وفي أوائل سنة ١٢٧٩ هـ سافر سعيد (باشا) الى أوربا لمعالجة نفسه من داء السرطان . وهناك كتب وصيته الى قائمقامه في مصر (وهو اسماعيل (باشا) الذى جلس على الأريكة الخديوية من بعده) قال فيها :

« بما ان الضباط الوطنيين المترقين من تحت السلاح قد اشتغلوا بملازمة نسائهم ، وتركوا دروسهم العسكرية، ولو تركناهم على هذه الحال التى لا تعود عليهم الا بالوبال لفقدوا العافية والنظر . وصاروا عبرة لمن اعتبر ، وبما اننا نحن الذين ربيناهم وأظهرناهم ، فلا يصح لنا تركهم في هذه الحال التى ذكرناها لذلك اقتضت ارادتنا جمعهم من بلادهم وعدم تمكينهم من نسائهم حتى ولا بالنظر اليهن والتشديد عليهم بمداومة تدريس القوانين ليلا ونهارا في قصر النيل »

ثم توفى المرحوم محمد سعيد (باشا) في ليلة ٢٧ رجب سنة ١٢٧٩هـ وتولى اسماعيل (باشا) ولاية مصر في التاريخ المذكور وعزل في ٦ رجب سنة ١٢٩٦ هـ بناء على طلب دول أوربا عزله من الحضرة السلطانية لما تحقق لديهم من سوء الادارة والتبذير في عهده وشدة الطمع والجشع اللذين لا حد لهما ولا نهاية . فكان عزله رحمة من الله بالمصريين

النشأة الثانية

ما تحملته من المظالم

تولى اسماعيل (باشا) ولاية مصر فأمر بجمع العساكر وترتيب الآلايات وكان ترتيبي قائمقاما على الآلاى البيادة السادس مع أميرالاى بكرى (بك) ولم يكن بهذه الرتبة من العنصر الوطنى بالآلايات غيرى ، ولسوء حظى ترقى أمير الألاى الثانى المدعو خسرو (بك) الى رتبة اللواء (باشا) لا بعلمه ومعارفه ، بل لكونه جركسيا ومن الخارجين على الدولة العلية مع ابراهيم باشا بن محمد على باشا فى تلك الفتنة الدهماء التى دكدكت سياج الاسلام، وفضحت عورة المسلمين ، وكسرت شوكة الدولة العلية (الحامية لجميع الموحدين) • وقد تعين المذكور أميرا على اللواء الثالث المكون من الآلاى الخامس والسادس • وعندما تكامل حشد العساكر اجتمعت الآلايات البيادة والسوارى فى ميدان (طره) بسفح جبل المقطم وأقيمت تمرينات حربية حضرها الخديو اسماعيل وجميع رؤساء العسكرية •ولشد ما أدخلت السرور على الخديو حتى دعا جميع الضباط العظام من رتبة البكباشي فما فوقها الى مأدبة فخمة فوق ظهر سفينته البخارية • ولم يكد يأخذ القوم مجلسهم حتى وجدوا على المائدة عدة زجاجات مملوءة بأنواع المشروبات الخمرية المحرمة والكؤوس المختلفة !

وتلك حالة لم يسبق لنا رؤيتها لأنها غير المألوف والمعروف عندنا : ثم تقدمت الأطعمة فأكل المدعوون طعاما شهيا لذيذا وشرب من أراد الشرب منهم من تلك الخمور وتعفف من كره • وبعد الفراغ من تناول الطعام أعلن الخديو سروره وشكره لضباط الجيش على ما أبدوه من النشاط وحسن الترتيب فى أثناء التمرينات الحربية • وأمر لكل واحد من الباشوات بخمسمائة فدان ، ولكل من أمراء

الآلايات بمائتى فدان ، ولكل واحد من القائم مقامات بمائة وخمسين فدانا من زيادة المســـــاحة التى توجد فى بلاد مديريتى الغربية والمنوفية

خرجت الأوامر من المعية الخديوية الى المديريتـــين المذكورتين بتسليم الأراضى المذكورة الى أصحاب الرتب المختلفة ، ولكن عند الشروع فى استلام تلك الأطيان ظهر الظلم وتجسم بأكمل معانيه . فقد كان يتوجه كل واحد من المندوبين من طرف المنعم عليهم بأمر من المديرية الى بلد يختارها من أحسن البلاد تربة . ويطلب تحديد المقـــدار المعين قطعة واحدة فى أخصب حوض من الأراضى المملوكة لأربابها فيجاب الى طلبه ، ثم يحال المالكون الضعفاء عـلى الحيضان الأخرى التى توجد بها زيادة المســـاحة وقد لا توجد . حيث يخصص مقدار الأرض المأخوذة منهم على جميع الأفدنة الموجودة فى البلد ، فيخص الفدان الواحد قيراطان أو ثلاثة أو أربعة . فتؤخذ من الكل وتجمـــع فى جهة وتعطى لأولئك المساكين بدلا من أراضيهم التى كانوا يملـكونهـا . وقد تكون هـــذه الأراضى من أردأ أنواع الأرض

وتلك أول مظلمة من المظالم الكثيرة التى وقعت فى عهد اسماعيل باشا ..!

وقد حمانى الله من الوقوع فى شرك هذه المآثم على غير ارادة منى وذلك أن خسرو باشا أمير اللواء الآنف الذكر كان رجلا جاهلا متعصبا لجنسه تعصـــبا زائدا عن حد المعقول . وكان قد أخبر ناظر الجهادية اســـماعيل باشا سليم (الرومى الأصل) بأنى صلب الرأى شرس الأخلاق لا أنقاد لأوامره ولا أحفل بما يصدر منها عن ديوان الجهادية (الحربية) . (وما بى والله من شراسة ، ولكنى جبلت على حب العدل والانصاف وبغض الظلم والاجحاف) . وطلب

منه وقف تسليمى الأطيان المنعم بها على لحين تحقيق ما افتراه من الكذب • فعرض ناظر الجهادية الأمر على الخديو مشافهة ، وصدر بناء على ذلك أمر المعية لمديرية الغربية بعدم تسليمى تلك الأطيان حتى يصدر لها أمر آخر

ثم أمر ناظر الجهادية بتحقيق ما نسب الى ، فألف لذلك مجلس عسكرى برئاسة حسنين باشا الطوبجى وعضوية محمد بك أمين أمير الآلاى الخامس وقائمقام الآلاى المذكور رشيد بك راقب وغيرهم من الجركس والترك

وحقيقة هذه المسألة أن هذا اللواء المتعصب لجنسه المتفانى فى الحقد على العنصر الوطنى كان يكره أن يكون تحت أمرته رجل شريف مثلى يتفانى فى نصرة الحق على الباطل • فعمل على اقصائى من مركزى ليتسنى له ترقية المدعو مصطفى سليم أحد بكباشية الأورطة التى تحت ادارتى ـ الى رتبة القائمقام وترتيبه بدلا منى لكونه من أبناء الجركس ، ولكونه صهر جاهين كنج باشا قومندان اللواء الأول • واتفق فى ذلك الوقت امتحان الضباط الأصاغر لترقيتهم ، فى مجلس برئاسة خسرو باشا هذا وبحضورى كعضو فيه أيضا • وبعد ظهور نتيجة الامتحان والاقرار على ترقية المستحقين كتبت العرائض عند الباشا المذكور ، وختمت من أرباب الامتحان • ولما عرضت على ختمت على عرائض من تقرر ترقيتهم،وأبيت الختم والتصديق على ترقية ملازم ثانى يدعى حسين أفندى لانه لم يجب فى الامتحان باجابة حسنة ، بينما كان آخر يدعى حسين أفندى أيضا أجاب فى الامتحان جوابا حسنا وتقرر فعلا ترقيته بمجلس الامتحان ، ولكن تأخر هذا وتقدم ذاك بدلا منه بسبب المحسوبية ، ولكونه كان ملازما لخدمة البكباشى مصطفى أفندى سليم

فلما أبيت التوقيع على العريضة المذكورة طلب الى الباشا المشار اليه الموافقة على ختم العريضة لأجل خاطر البكباشي المذكور . فرفضت ذلك كل الرفض وطلبت ترقية المستحق ، فأبى ذلك وتأخر الاثنان عن الترقي بعد جدال عنيف

وكانت هذه الحادثة سبب الوشاية بي عند ناظر الجهادية . وقد أوعز الباشا الى البكباشي المذكور بأن يختلق مكيدة يوقعني فيها لأحال الى المحاكمة العسكرية ، ومع أنه ثبتت براءتي من هذه المكيدة فقد حكم المجلس المذكور بحبسي ٢١ يوما محاباة لخسرو باشا وناظر الجهادية . فاستأنفت الحكم وطلبت احالتي الى المجلس العسكري الأعلى الذي تقرر فيه الغاء هذا الحكم وحفظ الأوراق لفساد التهمة وثبوت تزويرها .

وهنا وقع الخلاف بين ناظر الجهادية اسماعيل باشا سليم ، وكان « مملوكا روميا » وبين رئيس المجلس العسكري الأعلى علي باشا سري ، وكان أرنؤوديا ، بسبب حكم هذا المجلس بالغاء حكم المجلس الابتدائي . وكان ناظر الجهادية يريد تأييد الحكم الابتدائي تصديقا لما أخبر به الخديو سابقا في المأدبة . فسعى لدى الخديو في رفتنا ورفتي من الآلاي وتم له ما أراد . ولكن الله ليس بغافل عما يعمل الظالمون . ففي الاسبوع الذي رفتت فيه من الآلاي صدر أمر الخديو بالغاء أورطة اللواء الثالث الذي كان تحت أمرة خسرو باشا وتفرقت تلك الفرقة على الآلايات الأخرى . ورفت البكباشي مصطفى سليم رفتا شنيعا مدة عشر سنين . ثم أصيب حسين باشا الطوبجي بفالج أودى بحياته . وكذلك أصاب محمد بك أمين الذي وافق على المحاباة فالج كصاحبه . أما أمين بك القبرصلي ناظر قلم تركي بديوان الجهادية وهو رجل رومي . فقد

أصابه الله بقارعة قبل موته لميله مع الظالمين حيث زور أمرا خديويا ماليا فضبط وسجن ثم ضرب نفسه بمدية طالبا للانتحار • فعولج وأرسل الى السودان ومات قبل وصوله• وأما ناظر الجهادية فقد هلك فى حرب كريد ، ولكن ليس شهيدا ، بل أكل فريكا من قمح فانعقدت أمعاؤه ، وقضى نحبه وأرسل الى مصر ودفن فى قرافة الامام الشافعى • وأرسل خسرو باشا الى السودان • وهكذا كل من اشترك فى تلك الظلامة أصيب بمصيبة عظيمة

عودتى الى الخدمة بعد انقضاء المحنة

ولما كان رفتى من الآلاى بأمر ناظر الجهادية وبطريقة استبدادية ظالمة شكوت أمرى الى الخديو اسماعيل باشـا والتمست طلب أوراق القضية وفحصها بديوان المعيـة والصافى بوجه العدل لأن (العدل ان دام عمر ، والظلم ان دام دمر) وطلبت من راغب باشا النظر فى ظلامتى، وكان حينذاك باشمعاونا للخديو ، وله نفوذ تام فى جميع المصالح الأميرية • فوعدنى خيرا • وفى الحال كتب لديوان الجهادية يطلب جميع الأوراق المتعلقة بالدعوى المذكورة ، وبناء على ذلك أرسلت جميع الأوراق الخاصـة بمسألتى الى ديوان المعية،ففحصها ابراهيم باشا خليل رئيس قلم العرضحالات، وعمل عنها نتيجة أوضح فيها تلفيق القضية وفسادها •ثم عرضت النتيجة على الخديو ، ولكنه لم يبـد رأيه فيها • فمكثت على هذه الحالة مدة ثلاث سنوات ، وأنا أتردد على المعية بلا فائدة • وفي ربيع أول سـنة ١٢٨٣ هـ كتبت عريضة استرحام ثانية للخديو، فصدرت ارادة سنيةمآلها ان العرضحال المقدم منى عرض على الخديو وانه عفا عنى• وبناء على ذلك صدر أمره باستخدامى عند ظهـور خدمة مناسبة

مما تقدم يعلم انه لم يقع منى خطأ يصح صدور عفو عنه ، وانما كان الغرض من ذكر العفو التمهيد ،لاضاعة مرتباتى مدة رفتى والتخلص من مظنة الظلم وضياع الحقوق ، فكانت هذه المرحمة خالية من العدل الحقيقى ٠

وعلى ذكر العدل أذكر ما وقع ليعقوب سامى باشا فى عهد سعيد باشا ، وذلك انه كان معاونا بضبطية مصر بعد حضوره من حرب القرم فى سنة ١٢٧١ هـ برتبة صاغقولغاسى ، فوقع بينه وبين الضابط عبده باشا خلاف لعدم موافقته على أغراضه الدنيئة انتهى برفته من غير ذنب وكان عبده باشا رجلا شريرا لا يعبأ بفضيحة الحرائر ٠ فرفع سامى باشا شكواه الى سعيد باشا فصدر أمره رحمه الله بتحقيق تلك الشكوى فى ديوان الداخلية ، ولما ظهر من النتيجة أنه رفت ظلما أمر سعيد باشا برفت عبده باشا من الخدمات الأميرية لظلمه والزامه بمرتبات يعقوب باشا سامى من تاريخ رفته واعادة المظلوم الى وظيفته كما كان ٠ فأين هذا العدل المحض من تلك المرحمة الخالية من العدالة!

احالتى الى الوظائف الملكية

لما أخذت أمر الخديو السابق ذكره توجهت الى ناظر الجهادية اسماعيل باشا سليم وناولته اياه فقرأه ، وقال : « الحمد لله على ذلك ، فقد كنت خدعت ، وصدقت قول خسرو باشا ، وتسرعت فى الأمر وعرضته على الخديو ،ولم أستطع بعد ذلك تكذيب نفسى عنده ، وأنا آسف على ما حصل مع علمى بما انت عليه من الذكاء والفطنة والاستقامة ، فأرجو منك يا ولدى قبول اعتذارى » فقلت : « عفا الله عما سلف والذى أرجوه الآن هو احالتى على مفتش الأقاليم » وكان ذلك اتقاء لشر أعدائى السالف ذكرهم ٠ فأجابنى الى طلبى ٠ ولما عرضت أمر الاحالة على

المرحوم اسماعيل صديق باشا رحب بى وأكرمنى وأمر فى الحال بتعيينى فى مأمورية مؤقتة هى المحافظة على النيل بمديرية الشرقية • وبلغ نيل ذلك العام ٢٧ ذراعا فبذلت جهدى فى أخذ الاحتياطات اللازمة لرد طغيان الماء وحفظ البلاد من الغرق ، وبعد انقضاء زمن النيل أحيل على عهدتى انجاز بناء قنطرة فمالاسماعيلية بحرى قصر النيلوالقنطرة البولاقية ثم انجاز سد فم رياح الترعة الاسماعيلية بالقرب من شبرا وانجاز قطع الاحجار بجهات العباسية والبساتين وطره والمعصرة وشحن الاحجار اللازمة لذلك وللقناطر الخيرية ولجميع مديريات الوجه البحرى

وفى سنة ١٢٨٤ هـ أحيل على عهدتى انجاز بناء كوبرى قشيشمه العظيم على خط السكة الحديدية قبلى الواسطى وطوله ٥١٤ متر • وكوبرى الرقة بحرى الواسطة وكوبرى أطواب على فرع الفيوم ثم السكة الحديدية من المنيا الىبندر ملوى • وبعد اتمام تلك الاعمال المهمة على أكمل وجه مع مراعاة الاقتصاد فى النفقات أقمت وليمة من مالى الخاص دعوتاليها رؤساء مصلحة السكةالحديدية ورؤساء الهندسة والعمال ورجال مديرية بنى سويف احتفالا بأول قطار يمر على الكوبرى المذكور وكان يوما مشهودا • وبمراجعة الحساب كان الوفر فى المال ٢٥٠٠٠ جنيه مصرى عن طلب المقاولين الأجانب الذين حاولوا أخذ تلك الاشغال • وبسبب توفير هذا المبلغ وسرعة انجاز البناء والتركيب واحكام الأعمال على أحسن ما يرام كوفىء ناظر الدائرة الخاصة قاسم باشا رسمى بخمسة آلاف جنيه م • ولميكن سوى واسطة للمخاطبات بينى وبين مصلحة السكة الحديدية • وكوفئت أنا على تلك الأعمال الشاقة الجليلة بالتقاعد والراحة من غير معاش لحين ظهور خدمة أخرى

فيا لله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس

الحساسة الشريفة • وما أكثر العجائب فى الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة ••!

عودتى الى الخدمة العسكرية

وفى أوائل سنة ١٢٨٧ عين قاسم باشا المذكور ناظرا للجهادية وهو رجل رومى بارع فى الاشغال الحربية والملكية نشيط فى كل أعماله • وكان يعرف قدر أعمالى واقتدارى مدة انشاء الكبارى الســـــابق ذكرها • فطلبنى وكلفنى بالرجوع الى خدمة الجهادية، فأجبته الى ذلك وترتبت قائمقاما فى ٣ جى ألاى بالاسكندرية • وفى سنة ١٢٨٨ هـ انتقلت الى رئاسة الآلاى الثاني البيـــاده ، ولكن برتبتي من غير ترق • وفي أواخر سنة ١٢٩٠ هـ توجهت بالآلاى المذكور الى رشيدبطريق البر على شاطىء البحر الأبيض المتوسط• وفى أوائل السنة المذكورة أحيل ديوان نظارة الحربية الى عهدة الأمير حسين كامل باشا بن اسماعيل باشا الخديوى• وصار فتح فرقة ثانية وثالثة فى الجيش مكملة من الاسلحة الثلاثة أعنى بياده وسوارى وطوبجية وصار ترقي الضباط اللازمين لذلك استعدادا للحملة الحبشية المشؤومة • وبعد اختيار المختارين للفرقة الثانيـــة من الذين ترقوا بحضرة الأمير حسين قال للذين تأخروا عن التــرقى : « اجتهدوا أيها الضباط في التعليم والتمرين حتى تدركوا ما وصــل اليه اخوانكم الذين ترقوا »

والله يشهد وفطاحل الجهادية ان المتأخرين فى التـــرقى هم أساتذة الذين ترقوا في العلوم الحربية • وهم أرقى أخلاقا وأدبا كحسين مظهر أفندى البكباشى الذى ترقى فى عهد توفيق باشا الى رتبة باشا وقتل فى حمـــلة (هكس الانجليزى) عند محاربة المهدى السودانى • وعلى فهيــم البكباشى • ومتولى حافظ البكباشى • ومحمد على أفنــدى البكباشى• ومحمد الدرى أفندى البكباشى • وسعيدناصف

أفندى البكباشى ، (وقد قتلوا فى الحمـــــلات الحبشية والسودانية) • ولكن الغرض يعمى ويصم •• ثم التفت الأمير الىّ وقال بلهجة الآسف :

« انى طلبت من أفندينا ترقيتك الى رتبة الميرالاى فقـال انك من بتوع سعيد باشا » • فقاطعته الكلام وقلت : «انى لست بتاع أحد بل خـــادم الحكومة والوطن وبلدى هرية رزنة بمديرية الشرقية • ولكن بتاع سعيد باشا هو راتب باشا لأنه ملكه » فقال لا تفتر همتك فى تأدية واجباتك ، وانى سأبذل جهدى فى ترقبتك عند ترتيب الفرقة الثالثة• فشكرت له وخرجت وأنا شاعر بأنى لن أنال خيرا فى عهد والده لأنى متحقق من أن خسرو باشا وراتب باشا ورؤساء الجراكسة يعارضون فى ترقيتى بكل ما فى قدرتهم • وقد سمعت من أحد أمرائهم (وهو رجل معتدل غير متعصب لبنى جنسه على ما فيه من غلظة) أنه حضر مجلسا لأولئك الجراكسة حيث تذاكروا فى اختيار الذين يريدون ترقيتهم الىالفرقة الثالثة • فعرض عليهم ترقيتى الىرتبة الأميرالاى مراعاة للحق والانصاف فأبوا عليه ذلك فقال لهم : « ربما ترقى قهرا عنكم يوما ما اذا لم يرتق برضائكم واختياركم• وأنتم تعلمون أنه أقدم القائمقات وأعلمهم • وفيكم من كان تحتأمرته • فالأولى بكم أن لا تعرضوا أنفسكم للانتقاد»• ولكنهم لم يزدادوا الا عتوا ونفورا

ولما ترتبت الفرقة الثانية والثالثة وتم ترقى الضباط ، لم يقدر ناظر الجهادية الأمير حسين كامل باشا على الوفاء بوعده لاصرار السردار راتب باشـــا على رفض ترقيتى • ومن الغريب أن الآلاى الذى تحت ادارتى ظل خاليـــا من ضابط من رتبة الأميرالاى مدة ثمانية أعوام • وكنت أنا القائم بوظيفة الأميرالاى بأحسن نظام وأكمل تربية وأدق تعليم وأحسن هيئة عسكرية : فما أوضح هذا الظلم المبين

فى الحملة الحبشية

بدء الحملة

فى سنة ١٢٩٢ هـ بدأت الحملة الحبشية بالسفر الى مصوع بعد قتل الثلاث أورط التى قام بهـا أراكيل بك الأرمنى محافظ مصوع . وكان معه يومئـذ البكباشى على رائف والبكباشي احمد فوزى والبكباشى احمد سعيد قومندان الطوبجية والبكباشى عمر رشدى أركان حرب . فأغار على حدود الحبشة من جهـــة ستهيت وفرق العساكر فرقا صغيرة وسار بهم الى اقليم أسمره . فأحاط بهم الاحباش وأفنوهم عن آخرهم ومثلوا بالقتلى . وجبوا مذاكير من سلموا من القتل من العساكر المصرية . وكذلك ذبحت الفرقة التى أرسلت مع مسنجر بك الانجليزى الى تجـــره ومنها الى الملك منليـــك ملك (شوا) بطريق قبيـــلة الحنفلى بقصد الهجوم على الأحبـاش والتغلب على بلاد يوحنـا بمساعدة منليك الذى صار أمبراطورا بعد قتل يوحنا بيد الدراويش السودانيين : فلما قرب مسنجر بك من حدود (شوا) قام شيخ قبائل الحنافل برجاله وباغت العساكر المصرية ليلا وهم نيام فذبحهم عن آخرهم وأخذ أسلحتهم وذخائرهم وجميع ما معهم من الهدايا الثمينة المرسلة الى منليك . فلما جاءت هـذه الأخبـار الى مصر عظم الأمر واشتد غضب الخديوى اسماعيل باشا . فأمر بارســال الجيش المصرى المركب من ثلاثة فرق الى الحبشة بطريق البحر الاحمر الى مصوع وعهد بقيادة الجيش الى راتب باشا سردار العساكر المصرية، وأمر هذا القائد العام أن يكون مقيدا برأى أركان حربه الجنـــرال لورنج وهو أميريكانى .

لا يعرف الفنون العسكرية ؛ وانما كان رئيس فرقه فى الحرب الامريكيــة من ضــمن الفرق الغــير المنتظمــة اى (المتطوعين) . وكان اكثر رجال اركان الحرب الذين معه من بنى جنسه ، فكان هذا الترتيب سبب الفشل الذى حاق بالمصريين فى تلك الحملة . وقد عسكرت العساكر المصرية بقرية حرفيقوا فى جنوب مصوع على بعد خمسة أميــال وقرية أم كللو غربى مصوع على بعد ســـتة أميال وقرية حطملوا فيما بين مصوع وأم كللو . ولعــــدم وجود ماء لهذا الجيش العرمرم اشتغل كل فريق بحفــر الآبار فلم يجدوا ماء الا ما يكفيه ثلاثة أيام ثم يصير الماء ملحا

ولما كنت مأمور الحملة وفى عهدتى عشرة آلاف حيوان من الجمال والخيل والبغال . (وأغلبها اخذ من المصريين غصبا بلا (ثمن) وكذلك العلف من الشعير والفول والذرة والتبن (الذى أخذ من المصريين بلا عوض غير الوعود الكاذبة بخصم الاثمان من الضرائب المطلوبة منهم . وتلك الضرائب لا نهاية لها ولا يمكن لأى حاسب أن يعرف ما له وما عليه لكثرة الضرائب غير القانونية) ولعدم وجود الماء الكافى لهــذه الحيوانات ، أمرت بحفر بئر فى قرية أم كلو لبعدها عن البحر . وبعد حفرها ظهر ينبوع ماء عذب سائغ شرابه وماؤه كثير لا ينقطع ولا يتغير . فأمرت ببنائها بالحجر بناء قويا . وبناء حوض بجانبها امتداده ثلاثون مترا وعرضه متران لشرب البهائم المذكورة . وأقمنــا على البئر ساقيــة حديدية أستحضرت من مصر وأجرينا الماء فى مواسير استحضرت لهذا الغرض من مصر أيضا الى جزيرة مصوع حيث عمــل فيها حوض كبير مستدير لسقيا أهل البلد ومســتخدمى المحافظة ولا ريب فى أنها باقية أثرا عظيما يعرفه سكان تلك البلاد الذين أصبحوا فى راحة عظيمة من عنــاء طلب الماء من الخيران البعيدة ، أى مجارى السيل

مكث الجيش مقيما فى مضاربه مدة ثلاثة اشهر بغير عمل ولا تدريب . وفى تلك المدة كان الخديو يرسل كثيرا من الطرشي (أى المخلل) والفجل والبصل والكوات خشيه حدوث داء (الاسكربوط) وكان جميع الرؤساء من امراء الآلايات والبشوات من العنصر الجركسي الا واحدا يدعى محمد بك جبر وكان مصريا . وهذا لا راى له فى الأمر . وقد كانوا يحسبون للحبش ألف حساب ويتهيبون من لقائهم . ويظنون أن طول المكث فى مصوع وما حولها يحمل الحكومة المصرية مصاريف باهظة تعجزها عن القيام بنفقات الجيش اللازمة له الى النهاية فترجعهم الى مصر بلا قتال . وهذا الفكر الضئيل سمعته من أحد الأمراء المشار اليهم وهو ناقم مشفق من النتيجة

الزحف على بلاد الحبشة

قلق الخديو اسماعيل من طول المكث فى مصوع ونواحيها وشدد على القائد العام راتب باشا ورئيس أركان حربه بسرعة الزحف على البلاد الحبشية والانتقام منها لما وقع منهم من الأعمال الوحشية والتمثيل بالقتلى والأسرى كما ذكر . وقد أرسل ابنه حسن باشا ليشهد الحركات الحربية ويتدرب فيها ولا وظيفة له فى الجيش غير ذلك . فانقطعت وتيرة كل تقاعس ، وصدرت الأوامر بالشروع فى الزحف وأمرني رئيس الجيش راتب باشا بأن أسلم كل آلاى خمسين جملا لحمل ذخيرتهم الحربية وخيامهم ومؤونتهم . فقلت له: « انه من الضرورى أن يكون مع كل آلاى عشرة جمال خالية من الحمل حتى اذا ضعف بعض البهائم عن السير استبدل بغيره » : فقال لى : « لا تفعل ذلك ودع كل دابة تتأخر بحملها لا ترجع » . فتعجبت لذلك الأمر ، ولكن لم أراجعه . ولكى يتحقق من نفاذ أمره أمر اثنين من معاونيه

ـ أحدهما يدعى عبد الله الكردى البكباشى ، والآخر يدعى رجب صديق البكباشى الجركسى ـ بأن يقفا فى باب الممر عند الشروع فى السير ولا يتركا دابة تمر بدون حمل

سافرت الفرقة الأولى بقيادة أمير اللواء عثمان رفقى باشا وسافر معها راتب باشا القائد العام وأركان حربه ليلا فى أول يوم من شهر أغسطس سنة ١٨٧٦ . وفى ضحوة ذلك اليوم سرت على آثارهم بحملة قدرها خمسمائة دابة محملة مؤونة وعلفا ، وأورطة من العساكر بقيادة البكباشى فرج عبد العال المشهور (بالدكر) . فلما بعدنا عن مركز أم كلو بنحو ستة أميال وجدت الجمال والخيل والبغال السابق ارسالها مع الفرقة الأولى منتشرة على رؤوس الجبال وبطون الأودية بأحمالها . بعضها يرتع ويرعى وبعضها مشتبك فى شجر السلم وشجر الأبنوس وشجر أم غيلان . وبعضها خلع أحماله من الجبخانة والبقسماط والتبن والشعير والفول . فلما رأيت ذلك هالنى الأمر وقلت فى نفسى هذا ما خشيت وقوعه ، وهذا ما أراده القائد العام برفضه ما عرضته عليه من قبل . فأمرت الحملة بالوقوف عن التقدم وأمرت قائد الأورطة الحامية للحملة بسرعة جمع الدواب المنتشرة بأحمالها . وفى أثناء ذلك مر علينا الأمير حسن باشا بن الخديو بمن معه من معاونيه وخدمه ، وشاهد ذلك بنفسه . فلما سألنى عن تلك الحالة أخبرته بحقيقتها . فتركنى وسار ليلحق بالفرقة الأولى . وعند جمع البهائم المنتشرة بأحمالها وجدنا نحن خمسين حملا من البقسماط مبعثرا هنا وهناك ، وتبين أن فرقة الجمالة التى أتت من سواكن هى التى ألقت أحمالها وفرت بجمالها . ومن حسن الحظ أن كان بالحملة خمسون جملا خاليا من الأحمال كاحتياطى . فحملناها الميرة ، ثم واصلنا السير الى الأمام . وكنا نجد بين فترة وأخرى بغلا محملا

جبخانة أو جملا متروكا بحمله فنأخذه معنا ، حتى انتهينا الى أرض مسبعة بعد اجتيازنا عقبة (نيقوص) حيث وجدنا فى مجرى السيل منها حفائر ماء فبتنا فيها وسقينا الدواب . وهى على بعد ثلاثين ميلا من أم كلو . وماؤها عذب وهواؤها لطيف وفيها ينبت شجر (القفل) ولأوراقه رائحة زكية . وفى اليوم الثانى توجهنا الى خور (بعرظا) فوصلناها بعد العصر . وقد استقبلنا كثير من عساكر الفرقة الأولى التى كانت قد عسكرت على شاطىء هذا الخور ، وشكوا الينا الجوع لعدم اعطائهم القوت الكافى حيث كان لا يصرف للنفر أكثر من مائة درهم من البقسماط ، ومائة درهم من اللحم البقرى فى اليوم الواحد

فصرحت لهم بالأكل حتى يشبعوا على أن لا يأخذوا معهم شيئا وأقمنا هناك حتى أتت الفرقة الثانية بعد ثلاثة أيام، وقامت الفرقة الأولى الى (قياخور) ثم قامت الفرقة الثانية بعد ذلك الى قياخور أيضا ، ومنها الى (قرع) بفتح الراء وصدر لنا الأمر باتخاذ (بعرظا) مركزا متوسطا للحملة والمؤن والذخائر الحربية بين مصوع وقرع . وعسكر القائد العام بالفرقة الأولى وقائدها راشد باشا راقب فى قرع واختط فيها قلعة خفيفة . وكذلك فعل عثمان رفقى باشا بفرقته فى قياخور . وأقاموا على ذلك أربعين يوما ويوما بلا عمل . فلم يستكشفوا ما حولهم من الأودية والخيران والجبال المنقطعة ، حتى ولم يضع رئيس أركان الحرب رسما لذلك لمعرفة أبعاد المواقع المناسبة لاتخاذها ميدانا حربيا ، وفى تلك المدة كانت الذخيرة ترسل يوميا الى قرع لاتخاذها مركزا عاما استعدادا لامداد الجيش اذا تقدم الى مدينة (عدوى) عاصمة مملكة الملك يوحنا حتى صارت زكائب البقسماط فى داخل الاستحكام كالبروج المشيدة العظيمة، ومع ذلك كان القائد العام يأمر بمشترى كثير من الدقيق

والشعير من سوق الأحباش . كل هذا والعساكر لا يعطى لهم الا نصف المرتب من البقسماط مع أن النفر كان يعطي بأمر أركان الحرب مائة درهم من اللحم البقــرى أى ثلاثة أمثال المقرر له من اللحم ، حتى فشـــا فى الجيش داء (الدوسنتاريا) أى الاسهال الشــديد مع الزحير المؤلم . ولولا جودة الهواء لهلكت العساكر من الجوع والاسهال

وكان أحد القسس الفرنســـاويين المبشرين فى بلاد الأحباش يتردد كل يوم على رئيس أركان الحرب الجنــرال لورنج الأمريكى مستطلعا أحوال الجيش المصرى حتى علم بمقداره واتفق معه على الحركة الحربية التى تكون ســـببا لهلاك الفرقة المصرية عند الصـــدمة الأولى ، وكان يبلغ معلوماته فى كل يوم الى الملك ، فحشد هذا الملك جيشه وكان عدده ينيف على الثلاثمائة ألف من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حسب عادتهم فى الدفاع عن كيان بلادهم . وأتى على مقربة من الجيش المصرى المعسكر فى قرع ، وفى ١٢ سبتمبر من السنة المذكورة قمت بآخـر حملة من مركز بعرظا وكان معنا ثلاث أورط بقيـــادة أمير الالواء راشد باشا كمال حتى وصلنا الى عقبة (بمبا) وهى عقبة صعبة الرقى مرتفعة عن سطح البحر بمقـــدار ثلاثة آلاف قدم لا يمكن للراكب أن يجتازها على ظهر جواده أو مطيته بل لا مناص له من أن يتـــرجل ويمشى على قدميه لصعوبة الرقى والهبوط، ولا تمر الدواب فيها الا الواحدة بعد الأخرى . فاجتزناها بكل صعوبة بعد أن سقط بعض الجمال بأحماله من أعلى العقبـــة الى حضيض الوادى . ثم تابعنا السير حتى وصلنا الى خور عدرسا (والخور عبارة عن مجرى السيل فى منخفض من الوادى) ، فبتنا هناك حيث وجدنا على شاطئه غابات من نخل البلح قيل انها من آثار عساكرالسلطان سليم الذين أكلوا التمر وألقوا بنواته

فى شاطىء الخور المذكور : وفى يوم ١٣ منه قمنا من تلك المحطة وسرنا الى الأمام حتى وصلنا الى (سهل عالا.) وهو سهل واسع كثير الأشجار وهناك سمعنا دوى المدافع المتتابع وعلمنا بوقوع الحرب . فأسرعنا فى السير حتى وصلنا الى قلعة السلطان سليم الكائنة على سفح جبل قياخور بعد غروب الشمس بساعتين . وكانت قد انقطعت أصوات المدافع . فحططنا الرحال وهيأنا الطعام للعساكر والعلف للدواب وبعد الاستراحة استأنفنا السير ليلا ، فارتقينا عقبة قياخور فى ساعتين ووصلنا الى فرقة قياخور التى كان رئيسها أمير اللواء عثمان باشا رفقى . فتقدمنا منه وهو جالس يصطلى النار الموقدة أمامه من شدة البرد. وسألناه عن الحالة فأجابنا وهو فى حيرة واندهاش عظيمين. بأن فرقة قرع هلكت عن آخرها (وكانت مركبة من سبع أورط بيادة وبطاريتين طوبجية) فأحزننا هذا الخبر المفجع وجلسنا معه الى نصف الليل حيث جاءت اشارة ضوئية بأن راتب باشا وحسن باشا ابن الخديو وجميع رجال أركان الحرب الأمريكيين وصلوا الى مركز الفرقة سالمين ، وأما راشد باشا راقب والأميرالاى محمد جبر وبقية الضباط والعساكر فقد استشهدوا فى المعركة ومن سلم منهم أخذ أسيرا ، ولم يبق فى المركز الا أورطة واحدة من العساكر المستجدة كان لا يزيد سن أحدهم عن خمس عشرة سنة . وفى يوم ١٤ من الشهر المذكور أطلق الأحباش قنابل المدافع المصرية التى اغتنموها بالأمس على مركز العساكر المصرية ، ثم هجموا هجوما شديدا على القلعة المذكورة وتسلقوا جدرانها بشجاعة عظيمة وكانوا يدوسون قتلاهم وجرحاهم ولا يبالون بالموت ، الا أن عساكر الأورطة المستجدة وضباطهم وراتب باشا ومن معه من المعاونين أبلوا بلاء حسنا فى ذلك اليوم وردوا الأحباش

على أعقابهم خاسئين مدحورين • وقد شوهد راتب باشا وهو يصب نارا حامية بيده على الأحباش الذين حاولوا الصعود الى قمة القلعة • وكان على الروبى اليكباشي السواري يطوف القلعة مرارا يحثهم ويشجعهم على المقاومة والمدافعة عن الشرف والنفس حتى ملئت الخنادق وما حولها بجثث الأحباش ، وكان عدد القتلى منهم يزيد عن عشرين ألفا ، ولما رأى الأحباش من هذه الورطة ما رأوا مما لم يكن لهم في حسابٍ ضعفت نفوسهم وندموا على هجومهم وتحولوا بعددهم وعديدهم ومن معهم من الأسرى المصريين من قرع الى مركز آخر داخل بلادهم

خيانة أركان الحرب الأمريكيين الموظفين فى الجيش المصرى

يذكر المطلع على ما سبق أن أحد المبشرين الفرنساويين كان يتردد فى كل يوم على الجنرال لورنج رئيس أركان الحرب ، الذى وضع الخديو اسماعيل ثقته فيه • وكان القسيس المشار اليه ينقل أخبار الجيش الى الملك يوحنا ، ويعرفه بما دار بينه وبين الجنرال المذكور من الاتفاق • فلما علم الجنرال بأن الملك يوحنا فرغ من ترتيب جيشه على مقربة من قياخور طلب من القائد العام الخروج من قلعة قرع في صباح يوم ١٣ سبتمبر سنة ١٨٧٦ م فخرجت سبعة أورط بيادة وبطاريتان طوبجية الى النقطة التى اتخذت ميدانا للقتال ، وهى على بعد ميلين من قياخور • وكان ترتيب الأورطة البيادة على شكل طابور والطوبجية على اليمين • ووراءهم جبل وأمامهم خور عميق لا ماء فيه كأنه خندق طبيعى • وكان هذا الخور ملتفا حول الجبل من الميمنة والميسرة • فظنوا أنهم بهذا الخور فى حرز منيع من هجوم العدو عليهم • وكان (مكلس بك الطليانى) من أركان

الحرب قد توجه من قبل بالأورطة الأولى من آلاى عثمان بك غالب وبكباشيها أحمد أفندى شعبان وعسكر خلف الجبل المذكور بحيث لا يرى ميدان القتال ولا يعلم سبب وضع أورطته خلف ذلك الجبل.

واستعد جميع أركان الحرب الأوربيين والأمريكيين للملحمة فألقوا جانبا طرابيشهم الرسمية ولبسوا قبعاتهم ثم ربطوا في أعناقهم مناديل بيضاء اشارة الى أنهم مسيحيون ليأمنوا على أنفسهم الخطر عند اختلاط الجيشين على حسب الاتفاق مع القسيس السابق ذكره

وبعد أن أخذ كل من الجيشين مكانه ورتب رجاله • ابتدأ جيش الحبش باطلاق المدافع • وكان معه ثمانية مدافع كانت أهديت الى الملك يوحنا من رئيس الحملة الانجليزية مكافأة له على مساعدته الانجليز فى محاربة الأحباش فى عهد الملك (تيودور) الذى انتحر فى قلعة (مجدلة) بعد انخذال جيشه • وخلفه يوحنا فى ملك الحبش مع انه لم يكن من بيت الملك بل كان رئيسا للاشقياء وقطاع الطرق • وكان معه كذلك ستة مدافع مصرية غنمها فى هجومه على اراكيل بك كما سبق بيانه • فأخذت الطوبجية المصرية فى قذف الأحباش بنار حامية • وعندئذ قسم الملك يوحنا جيشه الى ثلاثة أقسام فذهب قسم الى خور يخفيه عن عدوه ثم دار على يمين المصريين بالأسلحة البيضاء • وقسم ذهب الى شمال المصريين فى خور أيضا ومعه الحراب والسيوف • وقسم مسلح بالبنادق قصد القلب مستترا بالاشجار الملتفة والخيران المتشعبة • جرى كل هذا تحت نيران المدافع • ولم تكد تقرب الأحباش من العساكر المصرية حتى أطلقوا عليهم نارا شديدة • ثم اشتبك الجيشان فى قتال عنيف هجمت فيه ميسرة الحبش على ميمنة المصريين بالسلاح الأبيض من خلفهم بقوة عظيمة فأفنوا رجال الطوبجية فى

طرفة عين، واختلطوا بالآلاى الأول اختلاطا هائلا فانهزمت العساكر المصرية وسلموا ظهورهم لحراب العدو واندفعوا الى الشمال بدون انتظام

وأحاطت الأحباش بأورطة أحمد أفندى شعبان التى خلف الجبل على حين غرة • فقاتل برجال أورطته قتال الأبطال حتى فرغت ذخيرتهم الحربية • ثم قاتلوا بالسونكى (أى حراب البنادق) حتى ضعفت قواهم وخارت عزائمهم واشتد بهم العطش فأفناهم العدو عن آخرهم • وكان رصاص بنادق الأورطة المذكورة يصل الى خط القتال فأصاب كثيرا من المصريين من بينهم المرحوم راشد باشا راقب رحمه الله تعالى • أما محمد جبر حكمدار الآلاى الأول ، فقد انضم إلى أورطة البكباشى محمد أفندى على الذى ثبت فى مكانه ، ورتب أورطته على شكل قلعة وقاتل الحبش بشجاعة مدهشة حتى فرغت ذخيرتهم الحربية فاستعملوا حراب بنادقهم حتى خارت قواهم واختلط بهم الأحباش حتى أفنوهم جميعهم رحمهم الله تعالى

وأما باقى الأورط فكانت مندفعة فى هزيمتها كالسيل الجارف والسيف يعمل فى أعناق رجالها من خلفهم • ومن ألقى بنفسه فى الخور المذكور قتله الحبش من القسم المعين للميسرة • وما زالوا كذلك حتى أفنوهم عن آخرهم الا من كان على رأسه قبعة أو فى عنقه منديل من أركان الحرب أو من أسرع به جواده كراتب باشا وحسن باشا بن الخديو

واغتنم الأحباش الاسلحة والذخائر الحربية والأموال وملابس العساكر وما معهم من حلى وساعات ونقود ، بعد أن قتلوا من قتلوا وأسروا من أسروا

□

ومما يحمر له الوجه خجلا مرور الأحباش فى أثناء

هجومهم أمام فرقة قياخور بحيث تصل اليهم مقـــذوفات المدافع المصرية وتمنعهم من التقدم ومع ذلك لم تطلق عليهم مقذوفة واحدة ولم تخرج البيادة الى الميدان لتســـــاعد اخوانهم وتنقذهم من الفناء المحدق بهم

وأدهى من ذلك أن البكباشى خسرو أفندى كان طليعة بأورطة خارج القلعة ، فلما رأى تقدم الأحبـاش أراد أن يعترضهم فمنعه عثمان باشا رفقى قومندان نقطة قياخور من ذلك وأمر برجوعه ودخوله القلعة وهم ينظـــرون الى اخوانهم حتى تم فناؤهم . مع أنه كان فى امكان عســاكر قياخور الهجوم على ميسرة الأحباش وتبديد شـــملهم لو أدوا واجباتهم الحربية

لقد كان ترتيب الأحباش على هيئة مقعر حربى لا يتأتى لأعظم قائد حربى أن يأتي بأحسن منه • وكان وضـــع العساكر المصرية على الهيئة المذكورة من غير وضع حاميات للأجنحة لصد العدو عن الميمنة والميسرة ، فكانوا كمـــن أوقع نفسه فى مضيق لا مخرج له منه الا بالقتل أو الاسر. وتلك نتيجة مخالفة أمر الله تعالى حيث يقول : « ولا تأمنوا الا لمن تبع دينكم » وانتهت تلك الحملة التى سببها الطمع بالخيبة والفشل • ثم العودة الى مصر بعد عقد الصلح مع الملك يوحنا بمعرفة البكباشى على أفندى الروبى الذى رجع الى مصر وترقى الى رتبة أميرالاى

ثم أوفده الخديو بعد ذلك الى يوحنا ملك الأحباش بهدايا ثمينة • وفى مدة اقامته عند الملك المذكور كان الأحبــاش يشترون منه الريال (أبو طيره) بجنيه ذهب من النقود المسلوبة من القتلى والأسرى وحصل منهم بهذه الطريقـة على مبلغ وافر لأنهم لم يكونوا يعرفون العمـــــلة الذهبية ولا قيمتها

ولماتم خذلان الحملة المصرية رجعت الى مصـــوع وتركت

البلاد الحبشية التي كانت احتلتها ، ثم عادت الى مصر فلم تلق فيها غير وجوه عابسة • وكان الخديو قد عزم على محاكمة القائد العام والباشوات وأمراء الآلايات ، ولكن اتفق اذ ذاك أن هجم حسن شركس مملوك المرحوم السلطان عبد العزيز على مجلس الوزراء فى الآستانة العلية وأطلق عليهم الرصاص من مسدسه فقتل أحمد باشا القيصرلى وغيره ثم قبض عليه وحوكم وقتل

فخشى الخديو أن يصيبه مثل ما أصاب القيصرلى اذا أصر على محاكمة قادة جيشه الجراكسة ، فغير عزمه وبش فى وجوههم ووضع بيده النياشين فوق صدورهم • ثم كانت الحرب البلقانية بين الدولة العلية وبين الصرب والبلغار ورومانيا وروسيا • فأمدت مصر الدولة العلية بعساكرها تحت قيادة حسن باشا بن الخديو وراشد باشا حسنى وانتهت تلك الحرب بمعاهدة (استفانوس) ثم بمعاهدة برلين المشهورة • ثم رجعت العساكر المصرية الى مصر

مكيدة اسماعيل وعزل الوزارة المختلطة

فى أوائل سنة ١٢٩٦ الهجرية صدر لنا أمر بالحضور من رشيد الى العاصمة وتسليم الاسلحة والمهمات وصرف العساكر الى بلادهم ، فحضرنا وكنا ثلاثة آلايات بيادة ، فسلمنا المهمات فى يوم وصولنا ، وفى صباح اليوم الثانى ذهبت الى منزل محمد بك النادى الذى كان قد حضر بآلايه من رشيد معنا • فما استقر بنا الجلوس حتي جاء أحد ضباط آلايه برتبة يوزباشي يدعى أحمد أفندى نجم ، وأخبرنا بأن تلاميذ الحربية وبعض الضباط أحاطوا بالمالية، فجاءت عساكر برنجى آلاى وأطلقت النار عليهم فشغلنا ذلك وأرسلنا أحد الضباط ليأتينا بحقيقة الأمر • ولما عاد أخبرنا بحقيقة تلك الحركة وهى ان الخديو اسماعيل باشا

اضطرب وقلق قلقا شديدا من ضغط الوزارة المختلطة التى كانت برئاسة نوبار باشا وعضوية رياض وعلى مبـــارك والسير ولسن الانجليزى ودى بولونيير الفرنساوى وأراد أن يتخلص منها ويسقطها فأوعز الى جاهين باشا كنـــج (صنيعته المشهور) بخلق تلك الحركة الصبيانية ، وهذا حمل صهره لطيف بك سليم الضابط بالمدرســة الحربية على أخذ التلاميذ والذهاب الى المالية بمن ينضم اليهم من الغوغاء فيصيحوا متظاهرين بالتظلم من عدم صرف مرتباتهم المتأخرة من مدة عشرة أشهر ، وينســبوا ذلك التأخير الى الوزارة المذكورة ويطالبوا بسقوطها تخلصا من الأوربيــين الذين كثر استخدامهم فى مصالح الحكومة المهمة ذات الايراد العظيم كالجمارك وميناء الاسكندرية والســـكة -الحديدية والتلغرافات والدائرة السنية ومصلحة الدومين وصـندوق الدين ومصلحة المساحة وما شاكل ذلك • (وكانت كل مصلحة من هذه المصالح تعتبر نفسها كأنها حكومة مستقلة) فذهب لطيف بك ومن معه من الضـــباط الذين أضاع صوابهم الفقر والجوع الى المالية وصاحوا قائلين اصرفوا لنا حقوقنا من هذه الأموال المتراكمة فى خزينة المالية • وقد صفع بعضهم ولسن ونوبار وحقر رياض باشا وعلى مبارك • وعندما خرجت تلك الألعوبة من مركزها وتعاظم خطرها جاء الخديو بنفسه الى المالية ومعه أميرالاى الحـرس الخديو على بك فهمى المشهور (بالذئب المصرى) بأورطة من آلايه وحال بين المالية وبين أولئك المتجمهرين من التلاميذ والغوغاء • وأمر الخديو بضرب الرصاص على المتجمهـرين حين رأى عبد القادر باشا حلمى رئيس معاونيـــه مضروبا بسيف على يده من أحد الضباط الذين تطاول عليهـــم ، وضربهم وكزا ببندقية أحد العســاكر • الا أن الأميرالاى المذكور أظهر حزما ونظر فى عواقب الأمور فأمر العساكر

باطلاق أسلحتهم فى الفضاء . ولولا ذلك لكانت النتيجة وبالا على الخديو ، ومن معه لأنه أمر بقتـــل أناس كثيرة يطلبون حقا لهم مهضوما . ثم انصرف المتجمهرون حانقـين وهاج الضباط فى جميع الآلايات ، واتفقوا على وجـوب عزل هذا الخديو ، واعتلاء ولى عهده توفيق باشا مسـند الخديوية المصرية . فلما علم الخديو بذلك ذهب الى مركز كل آلاى على حدته وطيب خواطر الضباط ووعدهم بصرف حقوقهم المتأخرة وعزل الوزارة المذكورة ، ثم عزلها فعلا وعهد بالرئاسة الى اسماعيل باشا راغب

من ظلم الخديو اسماعيل

لما تخلص الخديو اسماعيل من ضغط الوزارة المختلطة خشى تعصـب أوربا عليه وانتقامهـا منه ، فأسند تلك الألعوبة الصبيانية الى والى محمد بك النـادى وعلى بك الروبى من أمراء الجيش . وقد طلبنا رئيس التشريفـات عبد القادر باشا حلمى وأخبرنا بأن الخديو علم بأننا هيجنا التلاميذ والضباط وأغويناهم على الاحاطة بالماليـة ، وانه سيجرى تحقيق ذلك ، فان ثبتت ادانتنا عوقبنا بالعقاب الواجب . ثم صار يهددنا تارة ويعدنا بالسـلامة تارة أخرى . فأجبناه بأننا حضرنا أمس من رشيد وكنا مشغولين بتسليم الاسلحة والمهمات الى مخـازن الحربية وصرف العساكر الى بلادها حسب الأمر الصادر الينا . ولا علم لنا بتدبير تلك الحركة أصلا فكيف يتصور منصف اننـا نستطيع اهاجة تلاميذ الحربية وغيرهم على ذلك العمـل الخارج عن حدود الحكمة والروية فى ليلة واحدة .. فتبسم ضاحكا لأنه يعلم ان الحركة كانت بارادة الخـديو وتدبير جاهين باشا كما ذكر آنفا .. وكذلك طلبنا مأمور الضبطية محمود سامى باشا البارودى وأخبرنا بما أخبرنا به عبـد

القادر باشا حلمي فأجبناه بمثل ما أجبنا به من قبـــله وانصرفنا ، وقد آنست فيه تأففا من الظلم والاســـتبداد وميلا مع العدل والدستور • ثم عقد مجلس عسكرى فوق العادة تحت رئاسة الجنرال ستون الأمريكى رئيس أركان حرب وعضوية حسن أفلاطون باشا ومحمد باشا المرعشلى رئيس هندسة الاستحكامات ، وكانوا كلهـــم يعرفون الحقيقة • فلما سئلت بالمجلس المذكور أجبت بنفى التهمة عنا ، وأبنت أن ترتيب حركة الاحاطة بالمالية يقتضى لهمدة لا تقل عن شهر • وفى تلك المدة كنا فى رشيد • والمدارس الحربية ليست تابعة لنا ، ولا هى مقيمة معنا ولا كان أحد من ضباط آلاينا موجودا فى تلك الحركة ، على انه لو فرض وجود أحد منهم فيها فهو غير ملوم لأن نساء الضـــباط وأولادهم فى العباسية بلا مأوى ولا دراهم فى أيديهـــم ينفقون منها على عائلاتهم • ولا خبز ولا تعيين يصرف لهم • ثم انتهى التحقيق وأسدل عليه الستار

وكنت طلبت من السردار راتب باشا صرف جراية وتعيين لتلك العائلات التى أحضرت من رشيد فلم يصغ الى ولم يهتم بطلبى ولكن طلب بعد ذلك جميع ضباط الآلايات من رتبة البكباشى فصـــاعدا الى سراى عابدين ، وكان الاجتماع عظيما فى القـاعة الكبرى بالدور الأعلى ، وجاء الخديو يتلطف بكل واحد منهم ويعـــده خيرا • وفى ذلك الاجتماع كان ترتيبى وترتيب النـــادى بك والروبى بك بمعية الخديو بوظيفة ياوران • فتكلفنـــا ما يلزم لزى الياوران من النفقات الطائلة على غير جدوى

أمور يضحك السفهاء منهـا ويبكى من عواقبهـا اللبيب

ثم بعد أسبوع تعـــين على الروبى بك رئيسا لمجلس مديرية الدقهلية وتعين محمد النـــادى بك قائدا للآلاى الثانى البيادة المستجد وأرسل الى الاسكندرية بآلايه •

وتعينت قائدا للآلاى الرابع المستجد أيضا ولكن برتبة القائمقام . ولما تم حشد عساكر الآلاى المذكور طلبني ناظر الجهادية وأمرني بالذهاب الى راغب باشا . فلما توجهت اليه قال لى : « ان أهالى مديرية جرجا واسيوط انتخبوك نائبا عنهم فى تسليم سبعمائة ألف أردب قمح وفول وشعير الى بنك (منشا وقطاوى وبنك ايجيون وابراهيم بيجه) بالاسكندرية » فقلت له : « ولمَ انتخبونى لذلك ؟» . قال : « لأمانتك » فقلت : « وكيف ذلك وهم لا يعرفوننى ؟ » فقال : « انهم سألوا عنك وعرفوك ».

والحقيقة هى أن الحكومة كانت تداينت من البنكين المذكورين بنصف مليون جنيه مصرى لسداد بعض أقساط دين بنك (رتشلد) على أن يتسلما سبعمائة ألف أردب من غلال جميع مديريات الوجه القبلى من الفيوم الى قنا واسنا . (بدعوى ان هذا الدين على الأهالى بضمانة الحكومة) وما كان انتخابى لتأدية تلك المهمة من الأهالى حقيقة بل كانت رغبة من الخديو لابعادى عن مركز الآلاى كما صار ابعاد الروبى الى المنصورة والنادى الى الاسكندرية فتوجهت الى الاسكندرية وأنجزت المطلوب بكل أمانة واستقامة حتى أعجب مديرا المصرفين المذكورين بشدة تمسكى بالعدل والانصاف وارتاحا الى ماقمت به من الاستلام والتسليم . وقد توفر للحكومة نحو ٢٠٫٠٠٠ أردب فرق كيل وفرق معدلات ولو شئت لأغمضت عينى وسلمت الرسائل كما وردت لمخازن التجار وربحت ما يساوى قيمة الوفر أو ما يقرب من ذلك ، ولكن هو الشرف لا يعادل بمال

وفى ٧ رجب سنة ١٢٩٦ هـ سمعنا ضرب المدافع بالاسكندرية اعلانا بعزل اسماعيل وولاية توفيق باشا الأريكة الخديوية . وقد شاهدت خروج الخديو المعزول من

مصر منفيا ونزوله من منزل الفحومات وأدوات السكة الحديدية الذى نزل منه من قبل حليم باشا منفيا (وهو ابن محمد على رأس العائلة الحاكمة) فانظر الى آثار قدرة الله سبحانه وتعالى ، واعلم انه يكال لك بالكيل الذى تكيل به ، ومن حفر حفرة لأخيه وقع فيها ...

سافر اسماعيل الى نابولى (وهى ثغر من ثغور ايطاليا) مطرودا ، كما سافر حليم باشا الى دار السعادة مطرودا ، ولكن شتان بين من طرد ظلماً ومن طرد عدلا

عهد استبداد وفساد

انتهت مدة اسماعيل باشا الخديو وهى سبع عشرة سنة كانت وبالا على المصريين لشدة نزقه وطمعه وسوء تصرفه وعدم انصافه . لم أر فيها خيرا ولا ترقيت رتبة فى عهده، كما قال بعض الخراصين ولا أقسمت على الدفاع عنه . ولا صحت حول قصره ولا انتهرنى أصلا . ولا هو قال أن صوتى أكثر قرقعة من الطبل ، وأقل نفعا منه ،. فليتق الله المتبجحون الكذابون الذين تقولوا ما تقولوه .وافتروا ما افتروه فألزموا صاحب تاريخ « مصر للمصريين » سليم النقاش بأن يخلط مفترياتهم وبهتانهم بحقائق كتابه على غير ارادة منه ، فجاء كتابه مشوها فيه الغث والثمين والصدق والكذب . ولكن الحق ظاهر وله أعلام . والباطل بين وله أعلام

ويستطيع كل عاقل منصف أن يفهم من عباراته الحقائق ولا يعبأ بما يجده فيها من الأكاذيب والاباطيل ، فانها ما وضعت الا ارضاء لذوى النفوذ من خصومى ، حلفاء الظلم والجور ، ونصراء الاستبداد والاستعباد . وهو أقرب التواريخ لمعرفة حقائق النهضة القومية المصرية ، وأقرب منه وأصح رواية تاريخ المستر ولفرد بلنت الذى ظهر حديثا

باللغة الانجليزية ٠ وكذلك تاريخ المســـتر (برودلى) المحامى عنا فى سنة ١٨٨٢ م الذى ألفه مدة وجـــوده فى القاهرة (وهى ثلاثة أشهر لغاية انتهاء المحاكمة)

ولكن هنـــاك أسرارا لا يعرفها أحد من الناس غيرى ، فأحببت أن أظهـرها للناس قبل موتى قياما بالواجب على لأبناء وطنى المحبوبين : ولقـد تحملت مدة ولاية اسماعيل الجائرة بكل صبر وثبـات تحت ضغط الظلم والاستبداد ، ومكثت برتبة القائمقام مدة تسع عشرة سنة أنظر الى صغار الضباط الذين كانوا تحت ادارتى فى عهـدى سعيد باشا واسماعيل باشا وهم يترقون دونى ، فترقى بعضـــهم الى رتبة الأميرالاى وبعضهم الى رتبة أمير اللواء ، وبعضـــهم الى رتبة الفـريق ، لا بعلم علموه من دونى ولا بفهم خارق للعـــادة ولا بشجاعة أبرزوها فى ميادين القتال ، ولكن لكونهم من مماليك أو أبناء مماليك العـــائلة الخديوية ، فاصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجوارى الحســـان والأراضى الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة وحبـــاهم بالأموال الكثيرة والحلى الثمينـــة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم ٠٠! !

فى تولية توفيق باشا

تولية الخديو توفيق

فى ٧ رجب سنة ١٢٩٦ هـ الموافق ٢٦ يونيه سنة ١٨٧٩ م تولى محمد توفيق باشا الخديوية المصرية ، واعتلى أريكتها فى ظروف صعبة وأحوال مرتبكة بسبب سوء الادارة الماضية والمصاعب التى طرأت على أحوال الديار المصرية قبل توجيه الولاية اليه :

وكان من أهم أسباب الاختلال إذ ذاك عسر المالية وتداخل الأجانب فى أمور البلاد واستئثارهم بها على عهد الوزارة المختلطة (من الأوربيين والمصريين) فى آخر مدة اسماعيل باشا • واشتداد وطأتهم وطموح أبصارهم الى ما أوجب استحكام الضغائن فى صدور رجال الجيش واستياءهم من الأجانب بسبب قطع مرتباتهم • ومن أهمها أيضا ما كان من بعض الأجانب أو أكثرهم من استخفافهم بالأهالى والاعراض عن مصالحهم وتدخلهم فى الادارات وأمور البلاد اجحافا بحقوق الأمة • فكان ذلك سببا فى اتفاق نبهاء الأمة ورجال الجيش المصريين على انقاذ البلاد من تداخل الأوربيين خوفا من زيادة الاستئثار ولجأوا الى ما اصطلحوا عليه كوسيلة لحفظ حقوقهم ، واتخذوه كواسطة للحصول على استقلالهم فى العمل ، وادارة أمور بلادهم بأنفسهم

وفى ٧ رجب سنة ١٢٩٦ هـ وصل الى مصر تلغراف الباب العالى مشعرا بتولية محمد توفيق باشا

وقد أرسل الخديو تلغرافا الى الباب العالى جوابا على التلغراف المؤذن بارتقائه الى عرش الخديوية ، وختمه بقوله : « بدأت بظليل ظل الحضرة السنية

الملوكانية بمباشرة أمور الخديوية عالما علم اليقين أن سلامة الخديوية المصرية وسعادتها وموفقية عبدكم الكاملة يحصلان بالثبات على قدم العبودية والتابعية للسلطنة السنية »

وورد من بيت « روتشلد » تلغراف تهنئة للخديو الجديد بارتقائه الى كرسى الخديوية ، متضمنا أن هذا التغيير قد أزال الكثير من المصاعب التى حالت دون نفـــاذ شروط الميثاق المبـــرم بين الحكومة المصرية ، وبين البيت المذكور متعلقا بقرض الأملاك الموهوبة

الخديو اسماعيل يسرق

وفى ١١ رجب سنة ١٢٩٦ هـ سافر الخديو الســـابق اسماعيل باشا من القاهرة الى الاسكندرية حيث أقلتـــه الباخرة « المحروسة » الى « نابولى » بايطاليا وكانت معـــه أوراق مالية « بون » بمبلغ ثلاثة عشر مليونا من الجنيهات، كما صرح بذلك ابنه الخديو توفيق بحضورى وحضـــور خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى والشيخ عبد الرحمن الابيارى امام المعية فى أثناء تناول طعام الافطار على المائدة الخديوية فى شهر رمضان سنة ١٢٩٦ هـ ، اذ قال :

« يا ليته ترك للحكومة ولو ستة ملايين لاصلاح شأنها »

ولما وصل الخديو اسماعيل المعزول الى محطة مصر وقف الخديو توفيق مودعا والده وعيناه مغرورقتان بالدموع . فعانقـــه والده ثم قال له : « لقد اقتضت ارادة سلطاننا المعظم أن تكون يا أعز البنين خديو مصر . فأوصـــيك باخوتك وسائر الآل برا . واعلم أنى مسافر وبودى لو استطعت قبل ذلك أن أزيل بعض المصاعب التى أخاف أن توجب لك الارتباك . على انى واثق بحزمك وعزمك فاتبع رأى ذوى شوراك وكن أسعد حالا من أبيك »

ثم سار القطار الخصوصى حتى وصـــل الى الاسكندرية

ثم ركب الزورق المعد له وتبعته زوارق المشيعين الى أن صعد فوق السفينة المحروسة ، وهنا نظر الى الثغر نظرة المودع الآسف فغلبه الدمع فبكي وأبكى كل من كان معه من أنجاله وآل بيته .

موعظة وتذكرة

من غريب التقادير الالهية أن مصطفى فهمي باشا كان قد انتدبه الخديو اسماعيل لمرافقة اسماعيل باشا صديق حين سفره الى دنقلة في سفينة بخارية بطريق النيل • فاستصحب معه رفاصا بخاريا آخر وعند وصوله الى المعصرة ودعه ورجع الى القاهرة متأثرا مدهوشا من ذلك الظلم العظيم الذى تم بقتل الرجل خنقا في دنقلا بلا تحقيق ولا بحث ••• ولما آذنت ساعة رحيل الخديو اسماعيل باشا من مصر شيعه مصطفى باشا فهمى كذلك في رفاص بخارى حتى وصل باب البوغاز ثم رجع بعد تأدية واجب الوداع لمولاه ، فانظر الى عظيم قدرة الله سبحانه وتعالى

وزارة شريف باشا

قدمت وزارة راغب باشا استعفاءها فقبلة الخديو وتشكلت الوزارة الجديدة على الوجه الآتى :

محمد شريف باشا : للرئاسة والداخلية والخارجية
اسماعيل أيوب باشا : للمالية
عثمان رفقى باشا : للجهادية
مصطفى فهمى باشا : للاشغال
محمود سامي باشا : للمعارف
مراد حلمى باشا : للحقانية

المرتبات السنوية للبيت الخديوى

وأول عمل اهتم به مجلس النظار هو تعيين رواتب الخديو وأهل بيته على ما يأتى بيانه :

جنيه مصرى	
۱۰۰٫۰۰۰	للخديو توفيق
۳٥٫۰۰۰	لوالدته
۲۰٫۰۰۰	لزوجته
۳۰٫۰۰۰	للخديو السابق
۲٥٫۰۰۰	لزوجته
۳٦٫۰۰۰	لزوجاته الباقيات بمصر
۱۸٫۰۰۰	لتوحيده هانم
۱۸٫۰۰۰	لحسين باشا كامل
۱۸٫۰۰۰	لحسن باشا
۳۰۰٫۰۰۰	المجموع ثلثمائة ألف جنيه

السم في الدسم

الفرمان الشاهاني وتدخل أوربا

وفي يونيو سنة ۱۸۷۹ م ورد تلغراف من باريس ينبىء بأن الباب العالى أرسل الى دول أوربا منشورا يبين فيه كيفية تنازل اسماعيل باشا والغاء الفرمان الصادر سنة ۱۸۷۳ م . ويؤكد مع ذلك انه عازم أن يحفظ لمصر مالها من امتيازات الاستقلال الإدارى . فأوجس أولياء مصر من هذا الأمر خيفة،واختلفت فيه أقوالهم حتى ورد بالتلغراف ثانيا أن الدول اتفقت على معارضة منشور الباب العالى باثبات ذلك الفرمان وتأييد ما منح به من الحقوق والامتيازات للحكومة المصرية . فانتفت الأوجال بذلك ، وأيقن الناس أن الدولة العلية ستعدل عن هذا القصد . ثم ورد تلغراف آخر ينبىء بأن الباب العالى أصدر منشورا ثانيا يتعلق بفرمان سنة ۷۳ حاصله أن السلطان رأى أن يثبت لخديو مصر الحقوق والامتيازات الممنوحة في ذلك الفرمان

لا بوساطة الدول ولكن من تلقاء نفسه • وأعقبه تلغراف آخر من الآستانة يقول انه اذا لم يقرر السلطان أحكام الفرمان الصادر فى سنة ١٨٧٣ م فى الفرمان الذى سيبعث به الى الخديو الجديد يتعين على فرنسا وانجلترا اذ ذاك أن تطلبا الاستقلال التام للحكومة المصرية • وجاء فى تلغراف من باريس أيضا أن انجلترا وفرنسا تمهلان الباب العالى فى ابلاغ صورة الفرمان لهما الى يوم الاثنين وهو الفرمان المثبت لخديوية توفيق باشا ، فاذا مضت هذه المهلة ولم يبلغهما الفرمان فانهما تعزمان على المناداة باستقلال مصر

وفى أغسطس سنة ١٨٧٩ ورد تلغراف من لندره بأن السير لايارد والمسيو افرين سفيرى انجلترا وفرنسا فى الآستانة طلبا من الباب العالى أن يعرض تولية توفيق باشا على الدول لكى يكون بمثابة معاهدة دولية • وانه فى عزم انجلترا وفرنسا أن تضعا قضايا الفرمان المتعلقة بتحديد حقوق الباب العالى موضع البحث وأن ترفضا كل ما من شأنه أن يخالف سلطة السلطان أو يناقض المعاهدات السالفة

وفى ٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ ورد تلغراف من لندن ينبىء بأنه قد كتب من الآستانة أن فؤاد بك مسافر منها الى القاهرة غداة غد ليسلم فرمان التثبيت الى توفيق باشا

وفى صبيحة يوم الاثنين ٢٣ شعبان سنة ١٢٩٦ الموافق ١١ أغسطس سنة ١٨٧٩ حضر الخديو الى القاهرة ومعه وزراؤه (ما عدا شريف باشا الذى تخلف فى الاسكندرية لاستقبال الفرمان وحامله) ليشهدوا جميعا تلاوة الفرمان السلطانى فى سراى القلعة

وفى الساعة الثانية عشرة من صباح يوم الخميس ٢٦ شعبان سنة ١٢٩٦ الموافق ١٤ أغسطس سنة ١٨٧٩ انتظم موكب الفرمان • وفى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة

أطلقت المدافع تبشيرا بقدوم الفرمان يحمله علي بك فؤاد ، فاستقبله النظار حتى دخل القاعة ثم لبس طلعت باشا كركا وتناول الفرمان فصعد به على كرسي وتلاه • ولما فرغ من تلاوته دخل الخديو قاعة التشريفات فوفد عليه المهنئون

وفي الساعة الرابعة قام الخديو وتبعه النظار فصدحت الموسيقى بالأنغام المألوفة وأطلقت المدافع تعظيما له واجلالا

استعفاء وزارة شريف باشا

بعد أن استقرت وزارة شريف باشا في الأحكام شرعت في توجيه عنايتها الى تسوية الدين السائر وغيره على وجه يضمن للدائنين حقوقهم ويحفظ للحكومة مصلحتها فوالت انعقاد جلساتها لهذه الغاية • وقد تقرر في احدى جلساتها رفع مشروع تأسيس حكومة دستورية شورية الى الخديو تنفيذا لأمره الصادر في ١٤ رجب سنة ١٢٩٦ كما تقرر انه اذا أبى الخديو عليهم تنفيذ ذلك المشروع استعفوا من مناصبهم جميعا على أن لا يقبل أحد منهم الانتظام في وزارة أخرى تفضل الحكومة المطلقة على الحكومة الدستورية • ولما رفع المشروع المذكور الى الخديو رفض قبوله متعللا بعدم موافقة قنصلي انجلترا وفرنسا ، فاستعفت الوزارة وقبل استعفاؤها •• ثم تشكلت الوزارة الجديدة على الوجه الآتي:

ذو الفقار باشا : للحقانية والداخلية
مصطفى فهمي باشا : للخارجية
عثمان رفقي باشا : للجهادية
حيدر باشا : للمالية
علي ابراهيم باشا : للمعارف
محمد مرعشلي باشا : للاوقاف
محمود سامي باشا : للاشغال

أما رئاسة هذه الوزارة فكانت للخديو . ولقد كان فراغ نظارة الداخلية على أهميتها موجبا للظنون المختلفة والآراء المتنوعة . ثم صدر أمر الخديو تلغرافيا الى رياض باشا بأن يعود الى القطر المصرى على أول* باخرة ترد اليه

وزارة رياض باشا

وفى ١٧ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ و ٣ سبتمبر سنة١٨٧٩ وصل رياض باشا الى الاسكندرية ومنها الى القاهرة ، ثم توجه لمقابلة الخديو توا . وفى ٥ شوال سنة ١٢٩٦ و ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ صدر أمر الخديو الى رياض باشا بتأليف وزارة جديدة بعد أن قدم الوزراء استعفاءهم

تسوية مسالة الدين المصرى والمالية

وفى يوم الخميس ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٩م . الموافق ١٨ رمضان سنة ١٢٩٦ هـ . أصدر الخديو أمرا باعادة تعيين المستر بارنج والمسيو دى بلنيير بصفة مفتشين

ولما عين رياض باشا رئيسا لمجلس النظار أصدر اليهما اعلانات على صورة ترجمة الخطاب الصادر من الخديو اسماعيل للمستر ولسن حين كان نائب رئيس لجنة التفتيش باستحسان التقرير المقدم من تلك اللجنة

وقد رفعت الوزارة الى الخديو لائحة منطوية على بيان تدبير جديد لتسوية مشكلة الدين السائر

وفي ١٥ابريل سنة ١٨٨٠ صدر قانون التصفية الدولية المصرية وهو يتناول تنظيم الديون وكيفية سدادها . وهى الدين المتاز والموحد كدين الدائرة السنية والدين السائر وهى معروفة للجميع

حادثة قصر النيل

المطالبة بمجلس النواب

لما ارتقى توفيق باشـــا الى الأريكة الخديوية المصرية ، وسافر الى الاسكندرية ،ظفرت برتبـــة أميرالاى وعينت ياورا خديويا من ضمن ياورانه ، وأميرا على الآلاى البيادة الرابع الكائن مركزه بالعباسية بمدينة القاهرة

وكان عثمان باشا رفقى وقتئذ ناظرا للجهادية ، وهـو رجل جاهل متعصب لجنسه ، غافل عما ينتج من سياسة التفريق والاستخفاف بالعنصر الوطنى من احراج الصدور، فسولت له نفسه أن يمنع ترقى المصريين العـــاملين فى الآلايات تحت السلاح • ثم شرع فعلا فى سن قانون فحواه الحكم بعدم الترقى من تحت السلاح • وصـــدرت أوامره بذلك ليتمكن من النكاية بأبناء الوطن وحرمانهم من الرتب وجعلهم أنفارا تحت تسلط التـــرك والجركس • ويكون لهؤلاء الحظ الأوفر والنصيب الأكمل من الارتقـــاء الى الدرجات السامية والرتب الشريفة

ثم أصدر أمرا ثانيا باحالة عبد العال بك حلمى أميرالاى الآلاى السودانى الى ديوان الجهادية ليكون معاونا فيـه ، وكان عمره اذ ذاك أربعين سنة • وعين خورشيد بك نعمان بدلا منه لكونه من جنسه الجركسى وكان يبلغ الخامســـة والستين من عمره ، وهو ضعيف لا قدرة له على الحركات العسكرية • وأصدر أمرا آخر برفت أحمد بك عبد الغفار قائمقام السوارى ، وكان فى الأربعين من سنه أيضـــا • وأقام فى مكانه ضابطا آخر جركسيا

وفى ليلة ١٤ صفر سنة ١٢٩٨ هـ دعيت الى وليمة بمنزل

نجم الدين باشا لمناسبة عودته من أداء فريضة الحج . فلما وصلت الى منزل الداعى وجدته غاصا بأمراء الجيش وغيرهم، فجلست بجوار محمد بك نجيب الجريدلى . وكان بجانبه اسماعيل باشا كامل الفريق (وهو جركسى الأصل ولكنه كان يتظاهر بحب العدل والانصاف) فأفضى الباشا الى نجيب بك بما صار من طيش ناظر الجهادية . وأنه نصح له بأن يعرض عن ذلك الاجحاف الظاهر ، فلم يصغ اليه . فأخبرنى محمد بك نجيب بما سمع همسا فى أذنى ، وكنت أجهل قبل ذلك تلك الأوامر الظالمة . فقلت لاسماعيل باشا كامل : « أحق هذا ؟ » فقال : « نعم وقد تسلمت الأوامر الى الكتاب للاجراء بمقتضاها » فقلت له : « ان هذه لقمة كبيرة لا يقوى عثمان رفقى على هضمها » .

وبعد تناول الطعام جاءنى ضابط وأخبرنى بأن كثيرا من الضباط ينتظروننى بمنزلى فتوجهت اليهم فى الحال ، فوجدت من ضمنهم الأميرالاى عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى السودانى بمركزه فى طره ، والبكباشى خضر أفندى من الآلاى المذكور أيضا ، وعلى بك فهمى أميرالاى الحرس الخديوى بقشلاق عابدين ، والبكباشى محمد أفندى عبيد من الآلاى المذكور كذلك . والبكباشى ألفى أفندى يوسف من الآلاى الرابع البيادة حكمداريتى . والقائمقام أحمد بك عبد الغفار من الآلاى السوارى وغيرهم . وكانوا جميعا فى هياج عظيم ، اذ بلغهم صدور أوامر ناظر الجهادية قبل ارسالها اليهم . فلما رأونى أفضوا الى بما سمعته من نجيب بك واسماعيل باشا كامل من قبل . فقلت لهم : « قد سمعت هذا من غيركم فماذا تريدون؟ » قالوا : «وليس الأمر كذلك فقط بل انه قد كثر اجتماع العنصر الجركسى فى منزل خسرو باشا الفريق وهم يتذاكرون فى تاريخ دولة المماليك فى كل ليلة بحضور عثمان باشا رفقى

ويلعنون خيري بك لتسليمه واذعانه للسلطان سليم • ويقولون انه قد حان الوقت لرد بضاعتهم اليهم • وأنهم لا يغلبون من قلة • وظنوا أنهم يملكون مصر ويستبدون بها كما فعل أولئك المماليك من قبلهم » • ثم عقب الضباط بأنهم قد تحققوا صدق تلك الأنباء ممن يوثق بخبره • فقلت : « وماذا تريدون اذن ؟! » فقالوا : «انما جئناك لنرى رأيك » • فقلت : « رأيي أن تتريثوا وتهدئوا روعكم وتعتمدوا على رؤسائكم وتفوضوا اليهم النظر في مصالحكم • وهم يتخذون من بينهم رئيسا لهم يثقون به كل الوثوق ويسمعون قوله ويطيعون أمره ويحفظونه بمعاضدتكم اذا أرادت الحكومة به شرا » .

فقالوا : « انا فوضنا اليك هذا الأمر ، فليس فينا من هو أحق به وأقدر عليه منك.» • فقلت : « كلا بل انظروا غيري وانا أسمع له وأطيع وانصح له جهدى » فقالوا : « انا لا نبغي غيرك ولا نثق الا بك » فأبنت لهم ان الأمر عصيب ولا يسع الحكومة الا قتل من يتصدى له فقالوا : « نحن نفديك ونفدى الوطن العزيز بأرواحنا » • فقلت لهم: « اقسموا لى اذا على ذلك » فاقسموا • وفي الحال كتبت عريضة الى رئيس النظار مصطفى رياض باشا مقتضاها الشكوى من تعصب عثمان رفقي باشا لجنسه واجحافه بحقوق الوطنيين • وطلبت فيها :

أولا ـ عزل ناظر الجهادية المذكور • وتعيين غيره من أبناء الوطن عملا بالقوانين التى بأيدينا

ثانيا ـ تاليف مجلس نواب من نبهاء الأمة تنفيذا للأمر الخديوى الصادر عقيب ارتقائه الأريكة الخديوية

ثالثا ـ ابلاغ الجيش العامل الى ١٨٫٠٠٠ تطبيقا للفرمان السلطاني

رابعا ـ تعديل القوانين العسكرية بحيث تكون كافلة

للعدل والمساواة بين جميع الموظفين بصرف النظر عن اختلاف الأجناس والمذاهب .

ثم تلوت العريضة المذكورة على مسامع الحاضرين فوافقوا عليها . وأمضيتها بختمي وختم على بك فهمي وعبد العال بك حلمي . وبعد ذلك صار ترتيب ما يلزم لحفظ الخديو والعائلة الخديوية والوزراء اذا حدث أي حادث من الضباط الجراكسة . مع ترتيب ما يلزم لحفظ البنوك وبيوت التجار الأجانب والوطنيين من مطامع الرعاع . وكذلك ما يلزم لحفظنا من بطش الحكومة اذا أرادت الايقاع بنا ، وارفض الاجتماع على ذلك . وما دفعنا الى طلب انشاء مجلس النواب الا تبرم الأمة بأمثال ما حصل للمرحوم اسماعيل صديق باشا في عهد الخديو اسماعيل . مع أنه كان حائزا لرتبة المشير التي من مزاياها حفظ حائزها ولو باستعمال السلاح . وما حصل للسيد حسن موسى العقاد بسبب كلمة عدل أراد بها مساواة الأهالي الذين دفعوا للحكومة ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ من الجنيهات باسم المقابلة و ٥٫٠٠٠٫٠٠٠ باسم الاسهم ـ بالاجانب أصحاب الديون . وما حصل لغيرهما من القتل والخنق والتعذيب من غير حق ولا محاكمة ، بل لمحض الظلم والاستبداد ، وكذلك لعلمنا أن ذلك المجلس سوف يكون لسان الأمة لدى الحكومة فيرشدها الى سبل حفظ الأرواح الطاهرة والأعراض الكريمة والأموال العزيزة من العبث بها .

مقابلتي لرياض باشا

وفي غد ذلك اليوم ذهبت الى ديوان الداخليـــة ومعي رفيقاي على بك فهمي وعبد العال بك حلمي ، وقدمنـــا العريضة المذكورة الى وكيل الداخلية خليـــل باشا يكن وطلبنا اليه عرضها على رئيس النظار رياض باشا . فذهب إليه ثم عاد وأخبرنا بأن الرئيس يريد أن يرانا فلما قابلناه

طيب خاطرنا وقال سأنظر فى الأمر • وبعد أسبوع ذهبت مع الأميرين المذكورين الى بيت الرئيس ، وسألناه عما تم فى أمر عريضتنا • فأجابنا بقوله :

« ان أمر هذه العريضة مهلك • وهى أشد خطـــرا من عريضة أحمد فنى الذى أرسل الى السودان (وأحمد فنى هذا كان كاتبا بديوان المالية طلب المساواة مع غيره من خدم الديوان المذكور ، فعوقب بارساله الى السودان حيث توفى) فأجبته : « بأننا لم نطلب الا حقا وعدلا وليس فى طلب الحق من خطر • وأنا لنعتبرك أبا للمصريين ، فما هذا التلويح والتخويف ؟ » فقال : « ليس فى البلاد من هو أهل لأن يكون عضوا فى مجلس النواب » • فقلت له : « أنك مصرى وباقى النظار مصريون والخديو أيضا مصرى • أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا فان فيها العلماء والحكماء والنبهاء • وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضـــوا فى مجلس النواب أفلا يمكن انشاء مجلس يستمد من معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالا يخدمون الوطن بصائب فكرهم ، ويعضدون الحكومة فى مشروعاتها الوطنية ؟ » فدهش ، وكأنما كبر لديه ما سمعه منا • ثم قال : « سننظر بدقة فى طلباتكم هذه » فانصرفنا على ذلك .

وقفى أنا وزملائى

وفى غرة ربيع أول سنة ١٢٩٨ هـ انعقد بعابدين مجلس تحت رئاسة الخديو حضره جميع الباشوات المستخدمون والمتقاعدون من الترك والجركس • وقرروا فيه ايقافنا نحن أمراء الآلايات الثلاثة الذين وقعوا على العريضة الآنفـــة الذكر • ومحاكمتنا أمام مجلس فوق العادة • فلاحظ رئيس النظار رياض باشا انه اذا صار ايقافنا وجب ايقاف ناظر الجهادية أيضا ، والا تفاقم الخطر وخيفت نتائج جرأتنا • فلم

يوافق الخديو على ذلك ، وقال : « ان ناظر الجهادية يضمن حفظ النظام » ، فأكد ناظر الجهادية استعداده لحفظ النظام والقبض علينا بسهولة . ثم دعى أحمد خيرى باشا رئيس الديوان الخديو وتلا بالمجلس أمرا عاليا مآله :

« ان الأمراء الثلاثة أحمد عرابى ، وعلى فهمى ، وعبد العال حلمى مفسدون . وانه لذلك يقتضى ايقافهم من الخدمة ومحاكمتهم على افسادهم ومجازاتهم بالعقاب الصارم فى مجلس عسكرى فوق العادة ، تحت رئاسة ناظر الجهادية . ويكون من أعضائه استون باشا رئيس أركان حرب (وهو أمريكانى) ولارمى باشا ناظر المدارس الحربية (وهو فرنساوى) وغيرهما من البشاوات الجركس » فوقع عليه الخديو وسلمه الى ناظر الجهادية عثمان باشا رفقى ثم ارفض المجلس

وفى مساء ذلك اليوم أرسل ناظر الجهادية المذكور تذاكر يدعونا بها للحضور الى ديوان الجهادية بقصر النيل فى صباح يوم ٢ ربيع أول سنة ١٢٩٨ هـ للاحتفال بزفاف جميلة هانم شقيقة الحضرة الخديوية . فأدركنا انه يريد أن يخدعنا ، ويبطش بنا كما فعل محمد على باشا بأمراء المماليك ، حينما دعاهم الى وليمة بالقلعة وبطش بهم كما هو واضح بالتاريخ . اذ لم يكن زمن الزفاف المحكى عنه قد حان بعد . فكانت تلك الحيلة سابقة لأوانها ، ولذلك أخذنا حذرنا وهيأنا ما يلزم لنجاتنا ، ثم ذهبنا فى الوقت المعين الى ديوان الجهادية بقصر النيل ووجدناه غاصا بجميع الجراكسة من رتبة الملازم فما فوقها الى رتبة الفريق . وكانت فى أيدى شبانهم الطبنجات وكلهم فى فرح ومرح

فانعقد المجلس المؤلف من البشاوات السابق ذكرهم . وتلى علينا الأمر الخديوى المؤذن بايقافنا ومحاكمتنا . ثم نزعت عنا سيوفنا وساقونا الى السجن فى قاعة بقصر

النيل .. وكان مرورنا بين صفين من الضـــباط الجركس المسلحين بالطبنجات

ومر خسرو باشا كبير الجراكسة بباب السجن وصار يهزأ بنا ويسخر منا بقوله (أيه زمبللى هرف لر) يعنى فلاحين شغالين بالمقاطف احتقارا للمصريين . ولما أقفـل علينا باب الغرفة تأوه رفيقى على بك فهمى وقال : « لانجاة لنا من الموت وأولادنا صغار » . ثم اشتد جزعه حتى كاد يرمى بنفسه فى النيل من نافذة الغرفة ، فشجعته متمثلا بقول الامام الشافعى رضى الله عنه :

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخـرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت أظنها لا تفرج

فلا والله ما كانت الا هنيهة حتى جاءت أورطتان من آلاى الحرس الخديوى وأحدق رجالهما بديوان الجهـادية وأسرع بعض الضباط والعساكر فأخرجونا من السجن . ففر ناظر الجهادية ورجال المجلس وغيرهم من المجتمعين ، وقصدوا جميعا الى سراى عابدين

ولما أفرج الله عنا أسرعت الى العساكر فحذرتهم وتوسلت اليهم بأن لا يمدوا أيديهم بسوء الى أحد من الجراكسة ولا الى غيرهم من الضباط لأنهم اخواننا . ولئن آثروا أنفسهم علينا ، فاننا لا نريد الا النصفة والمساواة . ونظرت فاذا بجانبى اسماعيل باشا كامل فعانقته أمام العساكر . وقلت ان هذا الباشا جركسى ، ولكنه أخى حرام علينا دمه وماله وعرضه ، وكذلك غيره من الجراكسة . فانصرفوا على بركة الله تعالى الى مراكزهم ، فانصرفوا طائعين

كيف خرجنا من السجن

لما صار سجننا عين ناظر الجهـادية ثلاثة من أمـراء الآلايات بدلا منا وأرسل معهم ثلاثة من اللواءات (باشاوات)

لتسليمهم الآلايات التي كانت تحت امرتنا • فعين الاميرالاى محمود بك طاهر للآلاى الرابع بدلا منى ، وكان معه اللواء طه باشا لطفى لأجل تسـليمه الآلاى المذكور على مقتضى أحوال الجيش • وعين الأميرالاى خورشيد بك نعمان أميرا للآلاى السوداني بدلا من عبد العال بك حلمي ، وكان معه خورشيد باشا طاهر لتسليم الآلاى المذكور • وعين الفريق راشد باشا حسنى لتسليم آلاى الحرس الخديوى الى القائمقام خورشيد بك بدلا من على بك فهمى .

وعندما علم ضباط آلاى الحرس الخديوى بما لحقنا من الاهانة والسجن وتعيين غيرنا بدلا منا هاجوا وماجوا وثارت الحمية في رؤوسهم وفي الحال امر محمد أفندى عبيـد البكباشى بضرب نوبة طابور للعساكر • فاعترضه خورشيد بك بسمى القائمقام المعين حديثا وهدده بقطع راسه وقال له أنا أمير الآلاى • فلم يلتفت اليه وأمر بعض العساكر بوضعه تحت الحفظ • وكانت الجنود قد اصـطفت تحت السلاح فأخذهم وقصد قصر النيل لانقاذنا من السجن • فاعترضه أيضا راشد باشا حسنى الفريق ولكن لم يجـد ذلك نفعا • وكان الخديو مشرفا على العسـاكر من شرفة (السلاملك) فأمر (بروجى قرهقول السراى) بأن يضرب (نوبة) حضور الضباط عند الخديو • فلم يذهب اليه أحد ووقفت الأورطة الأولى حكمدارية البكباشى أحمد أفنـدى فرج في ساحة عابدين ومعها بيرق الآلاى • وكان وقوفها في هيئة طابور لاجل حفظ الخديو مما عسى أن يطـرأ من الامور • واستمرت الأورطتان الأخريان في سيرهما الى أن وصلتا الى قصر النيل • فأصدر البكباشى محمد عبيد أمره الى حكمدار الأورطة الثالثة على افندى عيسى البكباشى بأن يذهب بأورطته الى الجهة الخلفية من قصر النيل وذهب هو بأورطته الى الجهة الأمامية • ثم عين فرقة من العسـاكر

لاقتحام الديوان الذى أوصدت أبوابه ومنافذه للبحث عنا واخراجنا من السجن • فوقع الرعب فى قلوب أمراء الجهادية الموجودين بالديوان وأعضاء المجلس المعينين لمحاكمتنا من الاوربيين والجركس • وطلب كل منهم النجاة لنفسه ، وفي جملتهم عثمان باشا رفقى ناظر الجهادية

وهكذا كان الشكر والفخر للبطل المقدام والشجاع الهمام محمد أفندى عبيد الذى كان انقاذنا من الهلاك على يديه • وللبطل المقدام على أفندى عيسى البكباشى • وللوطني الغيور أحمد أفندى فرج البكباشي • ولجميع ضباط آلاى الحرس الخديوى وعساكره الذين خلدوا لهم ذكرا جميلا

وكذلك الشــــهم الهمام والبطل المقدام البكباشى خضر أفندى خضر فانه ما كاد يعلم بأمر سجننا ، عند حضـــور خورشيد باشا طاهر والاميرالاى الجديد خورشيد بك نعمان وأحمد بك حمدى الياور الخديوى لاجـــل تسليم الآلاى السودانى الى خورشيد نعمان بدلا من عبد العال بك حلمى حتى انتظر جلوسهم فى المحـــل المخصص لاقامة القائمقام فرج بك (الذكر) ثم قام من المجلس وأحضر بلــــوكا من العساكر وجعلهم خفراء على الامراء المذكورين • وأمر بأن لا يسمح لأحد منهم بالخروج من مكانه مطلقا • ثم أمر بعد ذلك بضرب نوبة طابور فخرج الآلاى الى الميدان • ولما تم انتظامه أخبر الضباط والصف ضباط والعساكر بما صار من سجننا واهانتنا • فأججت نيران الغيرة فى صدورهم وطلبوا أن يسرع بهم لانقاذنا من السجن قبل فوات الوقت وتفاقم الامر • فأسرع بهم وهو فى مقدمتهم من (طره) قاصدين ديوان قصر النيل

وأما البكباشى ألفى أفندى يوسف فانه نكث بعهده الذى عاهدنا عليه من أول يوم فلم يعد الى بيته الا بعد أن ذهب الى خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وأخبره بما تقــرر

بيننا فى اجتماعنا الأول • وكذلك أخبر على باشا مبارك بكل ما تم الاتفاق عليه بيننا

وعندما توجه طه باشا لطفى ومحمـــــود بك طاهر الى العباسية لاستلام الآلاى الرابع حكمداريتنا لم يقم الالفى يوسف هذا بما أقسم عليه بل نكص على عقبيه وحنث فى يمينه جبنا وخيانة وغدرا ونذالة ، كمـا غدر وحنث فى يمينه محمود بك طاهر المذكور حين عاهدنا عـــلى طلب الاصلاح قبل حادثة قصر النيل

بعد خروجنا من سجن قصر النيل

فر ناظر الجهادية عثمان رفقى وجميع أمراء الجراكســـة وأعضاء المجلس السابق ذكره الى سراى عابدين ليحتموا بالخديو بعد أن أحبطت وطنية الجند مكرهم • ولما استقر بهم المقام تشاوروا فى الأمر فقال استون باشا الأمريكى: « ان ما حصل من آلاى الحرس يعتبر تمردا عسكريا • ومن الواجب حصره بالطوبجية والبيادة • وأمر ضباطه بتسليم الأمراء الثلاثة • فان أبوا تطلق عليهم المدافع والبنادق حتى يضطروا الى التسليم » فاستحسن الجميـع ذلك الرأى الا اسماعيل باشا كامل الفريق فانه عارضــــه وقال : « انى أعتقد أن جميع الآلايات البيادة والطوبجية والسوارى على رأى واحد فلن يجدى هذا الكلام نفعا » • فقال الجنــــرال استون : « اذا كان الأمر كذلك فالآلاى السودانى يكفى لاكراه آلاى الحرس على التسليم » فعارضه اسماعيل باشا كامل ثانية بقوله : « ان آلاى السودان أشد تحمسا من باقى الآلايات » • فلما سمع الخديو معارضة الباشـــا المذكور غضب غضبا شديدا وأمر خورشـــيد باشا طاهر تلغرافيا باحضار الآلاى السودانى من (طره) بغاية السرعة وتكون معه الجبهخانه اللازمة • فجاءه الرد من ناظر محطة

طره بأن البكباشي خضر أفندى خضر ألقى فى السجن كلا من خورشيد باشا طاهر والأميرالاى خورشيد بك نعمان، وأحمد بك حمدى الياور الخديوى والقائمقام فرج الذكر . وصرف الجبخانة اللازمة للعساكر ، ثم قام بهم من مدة ساعة بخطوة سريعة بطريق البحر قاصدا قصر النيل لاخراج الأمراء الثلاثة المسجونين ...

وهنا تحقق الخديو من صدق اسماعيل باشا كامل ووجاهة اعتراضه وعمت الدهشة جميع الحاضرين . ثم أمر الخديو بارسال بعض الياوران لمقابلة البكباشي خضر أفندى خضر واخباره بأن الأمراء الثلاثة خرجوا من السجن . وابلاغه أمر الخديو القاضي برجوعه بالآلاى من حيث أتى ..وضرورة اخلاء سبيل الأمراء الذين سجنهم بطره . ولما قابله رسل الخديو قال لهم : «انى لا أعود الا بعد أن أراهم بعينى رأسى». فعرضوا عليه أن الخديو يكافئه بالمال والرتب العالية اذا هو سمع ورجع . وأنذروه بكل عقاب اذا هو أبى . فلم يصغ اليهم واستمر فى سيره حتى وصل الى ساحة عابدين .فاستقبله آلاى الحرس المذكور بالتعظيم العسكرى وهو حامل السلاح . وأما نحن فلما خرجنا من السجن تقدم الهمام يوسف أفندى فهمى الملازم وغيره وذهبوا مع عساكر آلاى الحرس الخديوى الى قشلاق عابدين .وتوجهت أنا العاجز الى مركز الآلاى المذكور . وجمعت الضباط والصف ضباط وألقيت عليهم كلمة أوصيتهم فيها بملازمة الهدوء والسكينة وقلت لهم : « اننا لا نطلب الا العدل والمساواة مع اخواننا الجراكسة والأتراك ، وأن لا يكون المصرى محتقرا فى نظر الأجناس الأخرى . ونريد كذلك مجلسا نيابيا لحفظ حقوق آبائنا واخواننا وأبنائنا من ظلم المستبدين الظالمين . وأن تنقح القوانين العسكرية حتى تكون كافلة للمساواة فى الترقيات والمكافآت ، وزيادة

المرتبات والماهيات التي مضى عليهـــا ثمانون عاما ومرتب النفر العسكرى فيها لا يزيد على ١/٤ ١٩ قرش وفيهم من له زوجة وأولاد ووالدة يتضورون جوعا لسوء حظ عائلهم»

ثم كتبت الى وكيل دولة فرنسا السياسى البـــارون (دورنج) وكنت لا أعرف اسمه ولا اســـم غيره من وكلاء الدول الأوربية راجيا أن يخبر عنى جميـــع وكلاء الدول المتحابة وخصوصا قنصل جنرال دولة انجلتـــرا بأنه قد حصل خلاف بيننا وبين حكومتنا، وأننا نؤمل منهم التوسط فى اصلاح ذات البين

وأمضينا بعد ذلك ليلتنا فى القشلاق على أتم ما نكون من التيقظ والاحتراس • وأما القناصل فقد ذهبـــوا الى عابدين وأشاروا على الخديو باجابة طلباتنا حسما للنـزاع ومنعا من الخطر • بناء على ان الحكومة عاجزة عن تنفيـــذ أغراضها فينا

وفى صباح ٣ ربيع الأول سنة ١٢٩٨ هـ • الموافق ٢ فبراير ١٨٨١ م • ذهب جميـــــع الباشوات الى الخديو وتشاوروا فى أمر تلك الأزمة • فقال ناظر الأوقاف محمود باشا سامى المشهور (بالبارودى) : « انى أرى العساكر على الطاعة بدليل هتافهم باسم الخديو • وأن الموســيقى تعزف بالسلام الخديو ، فلو أجيبت طلباتهم لانحســـمت المسألة بسلام »

وبناء على ذلك تقرر تعيين محمود سامى باشـــا وخيرى باشا رئيس الديوان الخديوى لمفاوضـــتنا فيما يلزم من الاصلاح • فحضرا وسألانا عما نريده • فأجبناهما بأننـــا على الطاعة ولا نريد الا الاصلاح • فقـــال خيرى باشا : « وما هو الاصلاح ؟ » فقلنا : « هو ما أوضحناه بعريضتنا • ورغبتنا هى أن يبدأ بعزل ناظر الجهادية عثمان رفقى باشا ثم يشرع فى تنفيذ باقى الطلبات »

فذهبا وأخبرا الخديو ثم عادا وأخبرانا بأن الخديو ، قبل طلباتكم وعزل ناظر الجهادية • فاختاروا ناظرا غيره • فقلنا « لا خيرة لنا • وانما نريد ناظرا وطنيا يعينه الخديو » • فقال خيري باشا : « ان الخديو فوض اليكم اختياز الناظر حتى لا تشكوا فيما بعد »

فقلنا : « انا نرضى بتعيين محمود سامي باشا هذا ناظرا للجهادية » • فذهبا وبلغا الخديو ذلك • وبناء عليه صدرت الأوامر بتعيين محمود سامي باشا البارودي ناظرا للجهادية مع بقاء نظارة الأوقاف في عهدته كما كانت ، واعادة كل منا الى آلايه ، للعمل على نبذ الفوارق العصبية والجنسية • والتمسك بعروة الاخاء والمساواة ، ثم أخذ بعد ذلك في سن القوانين العسكرية وتعديلها وتنقيحها

دسائس الخديو ورجاله

حدثت عقيب حادثة قصر النيل في أوائل فبراير سنة ١٨٨١ الى وقت سقوط وزارة رياض في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ عدة دسائس أوعز بها الخديو ورجاله أدت الى توتر الحالة واشتداد الأزمة بين الخديو وحكومته وزعماء الجيش• أذكر منها (١) :

الدسيسة الأولى :

أوعز يوسف باشا كمال وكيل الدائرة الخديوية ـ وهو رجل جركسي الأصل ـ الى باشجاويش جركسي أيضا متزوج من جارية من السراي وملتحق بالآلاي السوداني ، بأن يستميل أفراد الآلاي المذكور الى التمرد على ضباطهم• ثم يجيء اليه بمن يقبل الاشتراك في ذلك التمرد من

(١) -اكتفينا هنا بأربع دسائس من ثلاث عشرة دسيسة ذكرها أحمد عرابي في هذه المذكرات كأمثلة لما كان يحاك لزعماء الجيش والوطن من دسائس في ذلك العهد.

الصف ضباط والعساكر ليصرف له مبلغ ثمانية جنيهات ويزوجه من جارية من جوارى السراى • فقام الباشجاويش المذكور بما عهد اليه وتيسر له أن يستميل ثمانية أشخاص من السودانيين • وبينما هم ينشرون الفتنة بين جنود الآلاى اذ اتصل خبرهم ببعض الضباط فتداركوا الأمر بضبطهم • وقد اتضح من التحقيق أن الباشجاويش هو الذى أغرى الجنود السودانية • وانه ذهب بهم الى وكيل الدائرة الخديوية الذى صرف لكل منهم ثمانية جنيهات وشجعهم على القيام بتلك الدسيسة ، وبناء على ذلك حكم مجلس الآلاى بسجن الباشجاويش الجركسى مدة ستة أشهر مكبلا بالحديد وأعفى الصف ضباط السودانيين • فوافق عليه الأميرالاى عبد العال بك حلمى وأرسله الى الجهادية حيث صادقت عليه أيضا

الدسيسة الثانية :

أغرى أحد غلمان الخديو (جركسى) غلاما آخر (جركسيا) كان فى وصاية عبد العال بك حلمى (لأنه ابن زوج حرمه المتوفى) بقتله فدس له السم فى اللبن ، ولولا أن رأت خادمته (تشريف) ذلك العمل الجنائى الفظيع ، ونبهت اليه فى حينه ، لكانت النتيجة شرا ووبالا على الجميع • وقد عوقب المجرم بالسجن.

الدسيسة الثالثة :

لما رأى الخديوى أن محمود باشا سامى لا يوافق نظار الحكومة على دس الدسائس والمكائد التى كانوا يحاربوننا بها أمر بعزله واستبدل به صهره داود باشا يكن • وكذلك أمر بعزل مأمور ضبطية المحروسة أحمد باشا الدرمللى لموافقته على طلباتنا الوطنية • وتعيين عبد القادر باشا حلمى بدلا منه • ولما استقر داود باشا فى نظارة الجهادية توجهنا اليه وهنأناه بما ناله من الالتفات الخديوى •

وطلبنا اليه أن يجعل فاتحة أعماله السعى فى تصديق الخديو على قوانين الاصلاحات العسكرية التى تمت بالقومسيون ، فوعدنا بذلك ولكن ما عتم أن نشر على جميع الآلايات منشورا أمر فيه ألا يجتمع الضباط مع بعضهم فى المنازل أو فى أحياء المدينة ٠ وألا يتركوا مراكز الآلايات ليلا ولا نهارا ، وأنه اذا وجد اثنان منهم فأكثر مع بعضهم فى المدينة فسيجرى ضبطهم بمعرفة رجال الضبطية وسجنهم فيها ٠ ثم أخذ يذهب بنفسه ليلا الى مراكز الآلايات ليرى هل تنفذ أوامره أم لا

ولما كانت تلك الأوامر مخالفة للقوانين العسكرية ومهينة للشرف العسكرى فقد ردت اليه تلك الأوامر من أمراء الآلايات

أما مأمور الضبطية عبد القادر باشا حلمى فانه أرخى عنان الجواسيس حول منازلنا وفى الطرقات ليفتكوا بنا غيلة وغدرا ٠ ففكرنا فى وضع حد لتلك الدسائس الدنيئة التى اشتغل بها وزراء الحكومة ومأموروها ٠ وذهبنا الى راغب باشا الذى عرف بحسن السياسة ، وكمال الاقتدار على تذليل المصاعب ، لنستنير برأيه وأوضحنا له الموقف بحذافيره ٠ فسألنا عمن يمكن جمعه من العساكر وعن مقدار الاسلحة والذخائر الحربية الموجودة بالمخازن والآلايات ٠ ثم أشار علينا بارسال بلوك من العساكر لقتل الخديو ٠ وأظهر استعداده لأن يقودنا بعد ذلك بما أوتيه من الحكمة واصالة الرأى ! !

فعلمنا مبلغ حكمته واستعذنا بالله من شر رأيه ، لأننا لم نرد الا الاصلاح بالتى هى أحسن ٠ ولأن ذلك العمل الفظيع كان ضد مبادئنا على خط مستقيم

الدسيسة الرابعة :

أمر كومحلى ابراهيم أغا توتنجى الخديو أحد الشوبكجية

المدعو محمد حسن الحبشي باخفاء تراكيب الشـــوبكات المجوهرة التي كانت معدة للضيوف في التشريفات ليظهر لأوربا أن أمـــوال الخديو في خطر الضـــياع • وليلصق عار ذلك العبث بعســـاكر الحرس • ولما بلغ الأميرالاى على بك فهمى ذلك الأمر توجه بنفســـه الى السراى ، وأخذ في التحقيق الى أن اعترف له محمد حسن المذكور بكل ما كان من أمر المكيدة • وأرشـده الى محل وجود تلك الشوبكات فاستخرجت من (مجرور المراحيض) ولما أردنا اجراء تحقيق رسمى لاظهار براءة رجال الحرس أسرع الخديو بارسال ابراهيم أغا الشوبكجى المذكور الى الآستانة خفية • كما أمر بارسال محمد حسن الىسواكن حيث لقى المسكين حتفه جزاء صدقه وأمانته

وكذلك نفيت الست عائشة (الكوديا) التى كانت تبخر الخديو وملابسه وتتلو عليه (العزائم والتمائم) الى جدة جزاء نصحها له بالكف عن الدسائس ، والتماسها موافقته ومساعدته في اجراء الاصلاحات الوطنية بصفاء نيةوخلوص طوية • ثم أمر برفت زوج ابنتها من خدمته،ولما طلقالرجل زوجه أعيد الى خدمته كما كان

ولما كثرت دسائس الخديو توفيق وبان ختله وعزمهعلى اغتيالنا أخذنا حذرنا منهوسهرنا على احباط تلكالدسائس المنكرة • وكان السير مالت (قنصل انجلترا بمصر) كثير التردد على الخديو ليلا ونهـــارا دون غيره من وكلاء الدول الأوربية • فأوجسنا من ذلك خيفة على مصـــير بلادنا وخشينا من مطامع انجلترا التى كانت ترمى الى التهـــام وادى النيل أسوة بما فعلته فرنسا بتونس الخضراء حتى يتم التوازن الذى تدعيه أوربا ، فعرضنا تفاصيل مخاوفنا على جلالة أمير المؤمنين ليحيط علما بما كان جاريا فىمصر• ولكى لا يتورط في تصديق ما قد يصل اليه من دسائس

أعداء البلاد • وذيلنا العريضة المذكورة بامضائى وامضاءات اخوانى على بك فهمى وعبد العال بك حلمى وأحمد بك عبد الغفار بالنيابة عن الجيش • وأحمد بك أبو مصطفى وأحمد بك الصيباحى وعثمان باشا فوزى وغيرهم من وجوه الأمة بالنيابة عن جميع المصريين

بعد حادث قصر النيل

وبعد حادثة قصر النيل طلبنا الخديو قبل سفره الى مصيفه بالاسكندرية وأمرنا بالمحافظة على الأمن العام فى البلاد • كما أمرنا بالذهاب الى جميع قناصل الدول لتأمينهم على رعاياهم واعطائهم كلمة الشرف بحفظ أرواحهم وأموالهم . فصدعنا بأمره وأبلغنا القناصل بأننا قد كفلنا استتباب الأمن والراحة فى البلاد • وطمأنا خواطرهم على رعاياهم • ثم بعثنا بناء على ذلك التعهد الرسمى الى جميع الآلايات البيادة والسوارى والطوبجية وفروع الجهادية والبحرية بأن يخلدوا الى الهدوء والسكينة

حادثة عابدين

مماطلة

لما رجع الخديو الى المحروسة من مصيفه صدر أمر من ناظر الجهادية الجديد داود باشا يكن الى الآلاى الثالث البيادةحكمدارية ابراهيم بكحيدر بالتوجه الىالاسكندرية • والى آلاي الاسكندرية حكمدارية حسين بك مظهر بالحضور الى المحروسة • فاضطرب ضباط الآلاى الثالث وذهبت بهم الظنون والشكوك كل المذاهب وقالوا ان الحكومة لم تقصد من ذلك الاجراء سوى الانتقام منهم • وكان قد تردد على الألسنة ان فى النية اغراقهم فى كوبرى كفر الزيات كما حصل للأمير حليم باشا والأمير أحمد باشا بن ابراهيم باشا فى عهد سعيد باشا • ولما جمع ابراهيم بك حيدر حكمدار الآلاى ضباطه وأخبرهم بأمر الجهادية رفضوا جميعا الاذعان له • فكتب الى الجهادية يحيطها علما بذلك

ولما رأينا كثرة الدسائس وشدة الضغط من الحكومة وعدم التصديق على القوانين العسكرية التى تم تنظيمها ، وعدم الشروع فى تأليف مجلس النواب الذى وعدنا الخديو بانشائه أيقنا ان الحكومة تماطلنا فى تنفيذ الطلبات الوطنية وصممنا على تجديدها فى صورة مظاهرة وطنية شاملة للعسكرية والأهالى الذين أنابونا عنهم فى المجادلة عن حقوقهم وتأمينهم على الأنفس والأموال والاعراض • وعند ذلك قمت بمخاطبة جميع الآلايات البيادة والسوارى والطوبجية الموجودة فى القاهرة بواسطة فن الاشارة العسكرية للاستعداد للحضور الى ميدان عابدين فىالساعة

العاشرة عربى من يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ لعرض طلباتنا العادلة على الحضرة الخديوية

وكتبت الى ناظر الجهادية ليخبر الخديو بأن جميع الآلايات ستحضر الى ساحة عابدين فى الساعة المذكورة لعرض طلبات عادلة تتعلق باصلاح البلاد وضمان مستقبلها. ثم كتبت الى قناصل الدول مؤكدا لهم ان لا خوف البتة من تلك المظاهرة على رعاياهم لانها متصلة الغاية بأحوال البلاد الداخلية .

ولما وصل كتابى الى ناظر الجهادية أسرع بعرضه على الخديو الذى استدعى رياض باشا رئيس النظار فى الحال وفاوضه فى الأمر . ثم بعث الينا بطه باشا لطفى لنعدل عن القيام بالمظاهرة . وذهب الخديو بعد ذلك ومعه رياض باشا وخيرى باشا رئيس ديوانه الى مركز آلاى الحرس بقشلاق عابدين وجمع الضباط والعساكر وأخذ ينصح لهم بقوله: « أنتم أولادى وحرسى الخصوصى فلا تتبعوا التعصب الذميم ولا تقتدوا بأعمال الآلايات الأخرى » فأجابوه بالسمع والطاعة . ثم أمر على بك فهمى حكمدار آلاى الحرس بأن يوزع عساكره على نوافذ السراى وأبوابها من الداخل ليتخذوها متاريس لهم عند الاقتضاء ، ففعل . أما طه باشا فانه قابلنا وسألنا عن قصدنا فأخبرناه بما عزمنا عليه من عرض طلبات عادلة لا بد منها لضمان حرية الأمة وسعادتها. فرجع ليخبر مولاه بما رأى وسمع . وبعد توزيع عساكر آلاى الحرس على السراى كما أسلفنا توجه الخديو الى القلعة وبمعيته رياض باشا وخيرى باشا ليحاول منع الآلاى الثالث من الذهاب الى ساحة عابدين . وعند وصوله وجد الآلاى المذكور واقفا تحت السلاح ينتظر الأمر بالسير . فطلب الضباط ووبخهم . ثم أمسك بتلابيب البكباشى فوده أفندى حسن وقال له : « أمثلك يعارض أوامر الحكومة

ويسعى في وقف اجراءاتها ؟ » وهنا هاج العساكر وماجوا وأمر اليوزباشى محمد أفندى السيد البروجية بضرب نوبة « سونكى ديك » فأسرع العساكر الى تركيب السونك فى رؤوس البنادق وأحاطوا بالخديو ومن معه صارخين بقولهم (أترك البكباشى) . فتركه وقال : « مر العساكر بأن ينفرجوا عنا يا بكباشى » فأمرهم بالرجوع الى حالتهم الأولى . ثم تركهم الخديو وسار بمن معه من طريق الجبل قاصدا العباسية ليمنعنى من القيام بما عزمت عليه . فلما وصل الى مركز الآلاى طلبنى فلم يجدنى . وأخبره اليوزباشى حكمدار الخفر بأنى توجهت بالآلاى حكمداريتى وآلاى الطوبجية حكمدارية اسماعيل بك صبرى بمدافعه وجباخانته الى عابدين منذ ساعة . فقفل راجعا الى السراى

وكان عبد العال بك حلمى حكمدار الآلاى السودانى قد قام مع آلايه . ولما وصل الى ساحة المنشية أمر العساكر بالاستراحة وتنظيف ملابسهم من الأتربة . وهناك بلغه خبر ذهاب الخديو الى القلعة فأخذ بلوكين من العساكر وصعد الى القلعة ليستكشف الأمر الذى أوجب الخديو أن يترك مركزه فى الوقت المعين لاستعراض الآلايات عليه والمطالبة بالاصلاحات اللازمة للجهادية وللأمة جميعا

فلما وصل الى مركز الآلاى الثالث واستعلم عن سبب مجىء الخديو أحيط علما بما حصل . وكان الوقت قد حان فنزل من القلعة وخلفه الآلاى الثالث يقوده البكباشى فوده حسن لأن الأميرالاى ابراهيم بك حيدر قد ترك الآلاى وذهب الى بيته حتى لا يشترك فى تلك المظاهرة هلعا وجبنا ونذالة

الجيش فى ساحة عابدين

كان أول من حضر الى ميدان عابدين الآلاى السوارى بقيادة أحمد بك عبد الغفار . ثم حضرت بالآلاى العباسية

ومعي آلاى الطوبجية يقوده اسماعيل بك صبرى . وكانت بطاريات المدافع تتخلل أورطة البيادة أثناء المسير . وكان ذلك في يوم الجمعة الواقع فى ١٥ شوال سنة ١٢٩٨ هـ و ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ م . وهناك أخبرني بعض الضباط ان آلاى الحرس الخديوى (حكمدارية على بك فهمى) وزع داخل السراى وهو على استعداد للدفاع عنها اذا مست الحاجة ومعه كمية وافرة من الجباخانة . فبعثت بالملازم محمد أفندى على الى الحكمدار المذكور ليستدعيه الى . فلما حضر سألته عن سبب وضع العساكر في أبواب السراى ومنافذها من الداخل وما هو القصد من ذلك ؟ فقال : « ان السياسة خداع » فطلبت منه أن يجمع آلايه ويأخذ محله في الميدان . فأمر بخروج الآلاى جميعه وأخذ المحل المعين له في الدائرة . ثم صار ترتيب آلاى الطوبجية والسوارى والبيادة على شكل مربع . وحضر بعد ذلك الآلاى الثاني من قصر النيل يقوده أحمد أفندى صادق اليوزباشي ومعه أحمد أفندى عبد السلام ورسول أفندى اليوزباشى لامتناع الأميرالاى محمد بك شوقي والبكباشية عن مرافقتهم . ثم جاء الآلاى الثالث من القلعة بقيادة فوده أفندى حسن والآلاى السوداني بقيادة عبد العال بك حلمى . وأورطة المستحفظين يقودها القائمقام ابراهيم بك فوزى

حديثي مع الخديو

فلما كمل اجتماع الجيش فى عابدين كان الميدان غاصا بجماهير المتفرجين من الوطنيين والأجانب ونوافذ البيوت المجاورة للسراى وأسطحتها ملأى بالمتفرجين والمتفرجات

وأما الخديو فانه لما عاد من العباسية دخل السراى من الباب الشرقى المسمى (بباب باريز) وصعد الى الايوان ثم نزل منه ومشى فى الميدان وحواليه المستر كوكسن

(قنصل انجلترا فى الاسكندرية) والجنرال جولد سميث (مراقب الدائرة السـنية) ونفر من جاوشية المزاملة الخديوية • حتى اذا ما توسط الساحة طلبنى فتوجهت اليه لأعرض مطالب الأمة وكنت راكبا جوادى وسيفى فى يدى ومن خلفى نحو ثلاثين ضابطا • فلما دنوت منه صاح بى أن ترجل وأغمد سيفك • ففعلت • ثم أقبلت عليه وفى تلك اللحظة أشار عليه المستر كوكسن بأن يطلق غدارته على فالتفت اليه، وقال : « أفلا تنظر الى من حولنا من العساكر » ثم صاح بمن خلفى من الضباط أن اغمدوا سيوفكم وعودوا الى بلكاتكم • فلم يفعلوا وظلوا وقوفا خلفى ودم الوطنية يغلى فى مراجل قلوبهم والغضب ملء جوارحهم • ولما وقفت بين يديه مشيرا بالسلام خاطبنى بقوله : « ما هى أسباب حضورك بالجيش الى هنا ؟ » فأجبته بقولى : « جئنا يا مولاى لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة ، وكلها طلبات عادلة» فقال : « وما هى هذه الطلبات ؟ » فقلت : « هى اسقاط الوزارة المستبدة ، وتأليف مجلس نواب على النسـق الأوربى ، وابلاغ الجيش الى العدد المعين فى الفـرمانات السلطانية ، والتصديق على القوانين العسكرية التى أمرتم بوضعها » • فقال : « كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها ، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا » • فقلت : « لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، فوالله الذى لا اله الا هو اننا سـوف لا نورث ، ولا نستعبد بعد اليوم ! »

وكنت أرى الجنرال جولد سميث كلما سمع جملة من كلامى رجع القهقرى خطوات ، ثم يعود الى محله فى الدائرة المحاطة بالضباط والجاويشية • فأشار المستر كوكسن على الخديو بالرجوع الى السراى زاعما أنه يخشى عليه سوء اذا زادت المخاطبة عن ذلك الحد

كدنا نعزل الخديو

وبعد رجوع الخديو الى داخل السراى عاد المستركوكسن ومعه المستر كلفن المراقب المالى الانجليزى ، وخاطبنى بالنيابة عن الخديو كرسول من طرفه • قال :

« ان طلب اسقاط الوزارة وطلب تأليف مجلس النواب من حقوق الأمة لا من حقوق الجيش ، ولا لزوم لطلب زيادة الجيش لأن المالية لا تساعد على ذلك »

فقلت :

« اعلم ياحضرة القنصل ان طلباتى المتعلقة بالأهالى لم أعمد اليها الا لأنهم أقامونى نائبا عنهم فى تنفيذها بوساطة هؤلاء العساكر الذين هم اخوانهم وأولادهم • فهم القوة التى ينفذ بها كل ما يعود على الوطن بالخير والمنفعة •وانظر الى هؤلاء المحتشدين خلف العساكر فهم الأهالى الذين أنابونا عنهم في طلب حقوقهم • واعلم علم اليقين اننا لا نتنازل عن طلباتنا ولا نبرح هذا المكان ما لم تنفذ »

فقال القنصل : « علمت من كلامك انك ترغب فى تنفيذ اقتراحاتك بالقوة وهذا أمر ينشأ عنه ضياع بلادكم وتلاشيها »

فقلت :

« كيف يكون ذلك ومن ذا الذى يعارضنا فى أحوال داخليتنا • فاعلم أننا سنقاوم من يتصدى لمعارضتنا أشد المقاومة الى أن نفنى عن آخرنا »

فقال القنصل : « وأين هى قوتكم التى ستدافع بها ؟ »

فقلت : « عند الاقتضاء يمكن أن يحشد مليون من العساكر يدافعون عن بلادهم يسمعون قولى ويلبون اشارتى »

فقال القنصل :

« وماذا تفعل اذا لم تجب الى ما تطلب ؟ »

فقلت : « أقول كلمة أخرى »
فقال : « وما هى ؟ »
فقلت : « لا أقولها الا عند اليأس والقنوط » ..!

اجابة مطالبنا

ثم انقطعت المخابرات ساعة تقرر فى غضونها اجابة مطالبنا وتنفيذها بالتدريج . ثم اسقطت الوزارة وطلب الى الخديو قبول تعيين حيدر يكن رئيسا للوزارة الجديدة . فلم أوافق على ذلك لانه من أقربائه وعرضت تعيين محمدشريف باشا . وبناء على ذلك استدعى شريف باشا من الاسكندرية بالتلغراف

وبعد صدور أمر الخديو باجابة مطالبنا توجهت اليه وشكرت له ارضاءه ضمير الأمة ، فاقسم بأنه مرتاح لما فعل ، وانه وافق على تلك الطلبات بنية صافية . فكررت له الشكر والدعاء . ثم أمرت فانصرفت الآلايات الى مراكزها ما عدا آلاى السودان فانه قضى ليلته فى ضيافة آلاى الحرس بقشلاق عابدين

وفى يوم ١٠ سبتمبر سنة ١٨٨١ توجهت الى سراى شريف باشا وهنأته برياسة الوزارة الجديدة ، وطلبت منه أن يعنى بانتخاب من يؤازرونه فى سرعة تأليف مجلس النواب . ونشر الحرية فى البلاد . ورغبت اليه فى تعيين محمود سامى باشا ناظرا للجهادية . ومصطفى فهمى باشا ناظرا للخارجية لما أعلمه من ميلهما الى العدل والحرية . فأبى وقال : « انى لا أقبل أن يكون فى وزارتى محمود سامى ولا مصطفى فهمى لانهما لم يوفيا بالعهد الذى تعاهدنا عليه من قبل . فقد اتفقنا على انه اذا رفض الخديو الموافقة على تأليف مجلس نواب استقالت وزارتنا ولا يشترك أحد منا بعد ذلك فى الوزارة الجديدة ولكنهما

نكثنا بالعهد وقبلا الدخول فى وزارة رياض باشا التىقامت بعد وزارتنا والتى سقطت بالأمس • لذلك لا أستطيع أن أشتغل معهما » • فقلت له : « ان لكل وقت حكما وانى أثق بحبهما للحرية والعدل والمساواة • وفضلا عن ذلك فان الجيش لا يطمئن لغير محمود سامي باشا » • فقال : « أفلا ترضون أن أكون ناظرا للجهادية ، فانى قد تربيت معكم فى العسكرية » • فقلت : « لقد اخترناك رئيسا للوزارة ولا بد من مراعاة ميول رجال الجيش » فلما أصر على عدم قبولهما فى وزارته تركته ، ورجعت الى أشغالى من غير أن يتم شىء فى أمر الوزارة

وزارة شريف باشا

وفى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨١ قابلته مرة أخرى ، وقلت أنه لا يمكن ترك البلاد بلا وزارة فأصر على الرفض• فقلت له : « ان لم تؤلف الوزارة اليوم فسنطلب غيرك • ولا تظن أن ليس بالبلاد سواك • ففيها بحمد الله العلماء والحكماء ولم يكن اختيارك لعدم وجود غيرك لهذا المركز الخطير » فاغرورقت عيناه بالدموع ولم يحر جوابا • ثم خرجنا من عنده وبعد قليل جاءنا الشيخ بدراوى عاشور (وكيل زراعته الذى نال رتبة باشا فى زمن الاحتلال حين كان شريف باشا رئيسا للنظار أيضا) وقال ان الباشا قبل ما عرضته عليه وأنه يريد مقابلتى • فذهبت اليه مع محمود سامي باشا حيث أعلن لنا تأليف الوزارة على الوجه الآتى :

شريف باشا : رئيسا للنظار وناظرا للداخلية ـ محمود سامي باشا : ناظرا للجهادية والبحرية ـ حيدر باشا : ناظرا للمالية ـ اسماعيل أيوب باشا : ناظرا للاشغال ـ مصطفى فهمي باشا : للخارجية ـ زكى باشا : ناظرا

للاوقاف والمعارف ـ قدري باشا : ناظرا للحقانية

ثم رفع الى الخديو تقريرا ضمنه الكلام على السياسة التي ستجرى عليها وزارته والاعمال التى ستباشرها . فأجاب عليه الخديو بالموافقة

▭

وفي يوم الأحد الواقع فى ١٤ شوال سنة ١٢٩٨ وفد على شريف باشا كثير من وجوه البلاد وأعيانها نذكر منهم سليمان باشا أباظه وشريعي باشا وسلطان باشا وأمين بك الشمسي ومنشاوى بك والشيخ على الليثى وعبد السلام بك المويلحي والشيخ أحمد محمد والشيخ الصباحي وابراهيم أفندي الوكيل وقدموا لدولته تقريرين أولهما كضمانة وكفالة لتعهداتنا ودليل على اشتراكهم معنا فى الطلبات الوطنية التى نحن متضامنون عليها وهذه صورته:

« نحن الواضعون أسماءنا أدناه علماء ومشايخ وأعيان وعمد مصر واسكندرية والثغور والوجهين البحرى والقبلى لاعتقادنا التام بحسن صفات وغيرة أعضاء مجلس النظار الذين صار انتخابهم بمعرفة دولتكم بالحكومة المصرية . واظهارا لصداقتنا التامة ولخلوص نية الجيش نحن ضامنون ومتكفلون بصدق وصحة التعهدات التى من مقتضاها تمام الانقياد لأوامر دولتلو شريف باشا » اه

أما الثاني وعليه ١٦٠٠ توقيع فهو يتضمن طلب تأليف المجلس النيابى وفقا للارادة الخديوية وهذه صورته :

« لما كان لا ينتظم نظام العالم ولا يقوم قوام الهيئة الاجتماعية الا بالعدل والحرية حتى يكون كل انسان آمنا على نفسه وماله حرا فى أفكاره وأعماله مما فيه سعادته وحسن حاله . وهذا لا يتأتى الا بايجاد حكومة شورية

عادلة لا تشوبها شوائب الاستبداد ولا تتطرق اليها طوارق الفساد • اتخذت الممالك المتمدنة العادلة مجالس ملية من نبهاء أممها ينوبون عنها فى حفظ حقوقها تجاه هيئة حكوماتها ويكون الواسطة الحقيقية فى تنفيذ ما تصدره الحكومات من الأحكام العادلة • وعلى هذه القواعد ولأجل هذه المقاصد كان قد اتخذ لحكومتنا مجلس نواب فى العهد السابق • وبما أن مقاصد خديوينا المعظم جميعها خيرية ونياته سليمة فطلبا لحفظ بلادنا من بوائق الدهر تجاسرنا بعرض هذا راجين من المراحم الداورية صدور الأمرالكريم بتشكيل مجلس نواب لأمتنا المصرية يكون له ما لمجالس الأمم الأوربية المتمدنة من الحقوق الشرعية ازاء هيئة الحكومة • وبذلك تكون الحضرة الفخيمة الخديوية قد خولتنا نعمة لا تعادلها نعم وتصير حكومتها العادلة أنموذجا شريفا يبرهن على حسن نتائج العدل والحرية أمام العالم • واننا على يقين من قبول التماسنا هذا وفقا لارادة ولى النعم أدام الله اجلاله »

الجيش هو القوة المنفذة

وفى يوم الجمعة ٢٢ شوال سنة ١٢٩٨ توجهت مع بعض الضباط لمقابلة شريف باشا وتهنئته برياسة الوزراء بالنيابة عن الجيش فقلت له : « أعرض لدولتكم اننا جميعا واثقون بصداقتكم وخلوص طويتكم لمحبة الوطن وأهله وجازمون بأن الصفات التى تحليتم بها ستكون سببا فى وقاية بلادنا واستتباب الراحة العمومية فيها • واننا لنعلم واجباتنا والفروض التى توجبها علينا وظائفنا العسكرية وأعظمها حفظ البلاد ومن فيها • ولذلك فاننا نعترف بأننا القوة المنفذة لما يصدر من الأوامر التى تكون ان شاء الله فى خير البلاد وصلاح العباد • الا أن لنا حقوقا معلومة يمنحها لنا القانون فنرجو من الله سبحانه وتعالى أن يحسن

الينا بنوالهْ بمساعدتكم • ونسأله سبحانه أن يوافقنا جميعاً لما فيه الخير والصلاح آمين » ثم أمن الحاضرون فرد علينا بقوله :

« في علمكم ما قال الأقدمون : آفة الرياسة ضعف السياسة • ولا حكومة الا بقوة ولا قوة الا بانقياد الجنود انقيادا تاما وامتثالهم امتثالا مطلقا

« كل حكومة عليها فرائض وواجبات من أهمها صيانة الوطن وحفظ الأمن العمومي فيه وهذا وذاك لا يتأتيان الا بطاعة رجال الجيش • فترددى أولا في قبول الرياسة ما كان الا تجافيا عن تأسيس حكومة غير قوية تخيب بها الآمال ويزيد معها الاشكال فأكون عرضة للملامة بين اخواني في الوطن وبين الأجانب • وحيث أغاثتنا الالطاف الالهية وحصل عندى اليقين بانقيادكم ، فقد زال الاضطراب من القلوب ورتبت الهيئةالجديدة من رجال ذوى عفةواستقامة • فأوصيكم بملاحظة الدقة في الضبط والربط لأنهما من أخص شؤون العسكرية وأساس قواها • واعرفوا انكم مقلدون أشرف وظيفة وطنية فقوموا بأداء واجباتها الشريفة وعلى القيام بأداء كل ما يزيدكم فخرا وسؤددا وفقنا الله واياكم »

وفي ٢٨ شوال سنة ١٢٩٨ الموافق ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨١ قدم شريف باشا الى الخديو تقريرا بقوانين الاصلاحات العسكرية التى كانت من ضمن طلباتنا في يوم حادثة عابدين المشهورة

الوفد العثماني

في ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ ورد تلغراف من الآستانة ينبىء بأن جلالة السلطان عقد عزمه على ارسال وفد الى القطر المصرى من غير أن يشاور الوزراء في الأمر • وأنه

عين على نظامى باشا رئيسا للوفد المذكور • وعلى فؤاد بك معتمدا ثانيا • وأحمد راتب باشا وصفر أفندى وهما من ياوران الحضرة السلطانية • وأنهم قد سافروا جميعا فى يوم ٢ اكتوبر قاصـــدين الإسكندرية • فوقع ذلك النبأ موقع الدهشة والاستغراب لدى جميع الدول الأوربية • لأنه لم تسبقه مقدمات ولا مخابرات مع تلك الدول • وقد توجه كل من قنصل فرنسا الجنرال وقنصل انجلتـــرا (السير مالت) الى الخديو وأخبراه بأنهما لا يعلمان شيئا عن أسباب قدوم الوفد العثمانى • وأكدوا له بأن الوفد المذكور لا يمكنه أن يعبث بشىء من حقوقه

وفى يوم الخميس ١٣ ذى القعده سنة ١٢٩٨ وصـــل الوابور الهمايونى (طليعت) الى مينـــاء الاسكندرية فى منتصف الساعة السادسة مقلا حضرة صاحب الدولة عـلى نظامى باشا وحضرة صاحب العطوفة على فؤاد بك وقدرى بك وصفر أفندى وسيف الله أفنـــدى من ياوران الحضرة الشاهانية • فأطلقت مدافع السلام من وابور محمد عـلى وطابية رأس التين • كما أديت التحيـــة من بقية المراكب المصرية الراسية فى الميناء • وتوجه ذو الفقـــار باشا سر تشريفاتى خديوى ومعه المحافظ ومأمور الضـبطية وفريق آلايات الاسكندرية ووكيل البحرية الى الوابور (طليعت) وبلغوا حضرات القادمين سلام الخديو • ثم نزلوا الى البر وذهبوا الى سراى رأس التين للاستراحة من متاعب السفر

وبعد أن ارتاحوا ركبوا إلى محطة السكة الحديدية ، حيث شيعهم فيها حضرات الذين استقبلوهم من قبل • وكان فى انتظارهم قطار خاص أقلهم فى منتصف الســاعة الرابعة بعد الظهر الى القاهرة فوصلوها فى الساعة الثامنة مساء• وكان فى استقبالهم فى محطة مصر سعادة طلعت باشـا باشكاتب الديوان الخديوى وغيره من المأمورين • فبلغهـم

طلعت باشا سلام الخديو ثم ركبوا الى قصر النزهة بجهة شبرا وكان قد أعد لنزولهم فيه مدة اقامتهم فى مصر

وفى الساعة الرابعة العربية من صبيحة يوم الجمعة توجهوا الى سراى الاسماعيلية لزيارة الجناب الخديو ، فقوبلوا عند وصولهم بغاية التعظيم • وكان على سلم السلاملك سعادة طلعت باشا وسعادة خيرى باشا والتشريفاتية وياوران الحضرة الخديوية • فساروا بهم الى حيث الجناب العالى الذى حياهم وأكرم مثواهم

وفى منتصف الساعة العاشرة ركب الخديو عربته وتوجه الىقصر النزهة ليرد لهم الزيارة ثم عاد الى سراىالاسماعيلية

زيارة على نظامى باشا للآلاى الثانى بقصر النيل

توجه على نظامى باشا المندوب السلطانى لزيارة الآلاى الثانى بقصر النيل ، فلما وصل اليه استقبله حكمدار الآلاى طلبه عصمت بك بعساكره حاملى السلاح • وبعد آداء التعظيم اللازم دخل ديوان الجهادية مع ناظرها محمود باشا سامى والأميرالاى طلبه بك عصمت ثم خاطب طلبه بك بقوله : « أخبر حضرات الضباط الكرام انى عسكرى دخلت العسكرية وتربيت فيها الى أن نلت الرتب البيبامية• فقد كنت قائد جيش عظيم ثم تفضل على مولانا وسيدنا السلطان الأعظم بترقيتى الى وظيفة سر ياورانه بمعنى انى نائب عن مقامه السامى فى تنفيذ أحكامه العالية • فانكم تعلمون أن الجندحامية الملك وعونالخليفة على تنفيذ أوامره• وقد قضيت فى العسكرية اثنين واربعين عاما وهذا هو الشرف الذى اعتز به فانه لا شرف للانسان الا خدمة الملة بنفسه وروحه • وبصفة كونى سر ياورا شاهانيا أخبر حضرتكم أن مصر قلب الدولة العلية وهى بين أعين مولانا وسلطاننا المعظم نخشى عليها ما نخشاه على أنفسنا وديارنا

فانها من الأراضى السلطانية ، والجناب الخديو العالى هو نائب السلطان فالناظر اليه ناظر للسلطان »

فأجابه طلبه بك عصمت بقوله :

« أقدم لدولة السر ياور الأعظم احتراما يليق بمقامه السامى وأعرض على مسامعه ان الجيش المصرى الشاهانى يعترف لمولانا وامامنا سلطان الملة الاسلامية بالسلطة والسيادة على مصر ، وانى بالاصالة عن نفسى وبالنيابة عن اخوانى الأمراء واخوتى العساكر المصرية أقدم لمولانا السلطان الأعظم خضوعنا واعترافنا بسيادة جلالته ، كما انى أعترف مع جميع اخوانى بحفظ ناموس مولانا الخديوى وامتيازاته السلطانية ونخضع له خضوع الأبناء لآبائهم ونقر بسيادته علينا ونيابته عن المقام الشاهانى ، وليس بيننا وبين مقامه السامى ما يوجب اضطرابا أو يحدث قلقا أو يحرك ذكرا فى السياسة وغيرها ، وانى أقدم لدولتكم العلية هذا الخطاب ، وأنا معتقد بأنى أخاطب وكيل الحضرة السلطانية ، وانا نشكر عنايتها وسعيها واجتهادها فى دفع أفكار السياسيين عنا بما ألفناه من رحمتها وحنوها ورأفتها بنا »

فرد عليه على نظامى باشا بقوله :

« كذا تكون أمراء الجيوش ، وانى قد سررت بما علمته من حسن نيتكم وطهارة بواطنكم وحبكم للجناب الخديو السامى ، وقد تأكد عندى أن تظاهركم العسكرى لم يكن لاضرار ولا افساد »

فقال طلبه بك :

« سيدى .. ان تظاهرنا كان لحفظ البلاد ووقاية شرف أميرنا ومولانا الخديو ، ومع النوازل التى رأيناها قد أحاطت بأوطاننا فاننا رأينا رئيس النظار السابق يبذل جهده فى تقليل الجند وتبديده ، فعلمنا أنه يريد بالبلاد شرا ، إذ

لا يخفى على فطنة دولتكم أن الملك لا يحفظ الا بحامية الجند والجند ان لم يكن كافيا لحفظ الحدود ورد العدو كان كعدمه . وبلادنا مع كثرة الأجانب فيها واحتياجهـــا لحفظ الأمن ومراقبة الأعداء لا يقوم بحفظها الا قوة عظيمة من الجند . وقد عارضنا فى تقليل القوة العسكرية فاستبد علينا رئيس النظار وأبى الا تنفيذ أغراضه ، فضلا عن أننا رأيناه يمشى في غير طريق الوطنية ولا يفعل الا ما يشاء . وهذا ما يضر بالوطن وصالح الدولة العلية ويمس شرف مولانا الخديو

« وقد كررنا طلب حقوقنا وحقوق الأمة ، فلم نجد غير أذن صماء وعين عمياء ، فاضطرنا الخوف على بلادنا وأميرنا للقيام بالجند ووقوفنا في ساحة عابدين . وقدمنا طلبنـــا للجناب الخديو بوساطة أخينا الأكبر ونائبنا جميعا (أحمد بك عرابى) . فتفضل علينـــا بالاجابة وسلم الرئاسة العظمى لصاحب الدولة والهمة العلية دولتلو محمد شريف باشا وهو خير كفؤ لذلك . ونحن الآن راضون عن الهيئة الحاضرة معترفون بسيادة مولانا السلطان الأعظم خاضعون لأميرنا الخديو . ولم يبق عندنا شىء سوى خدمة الوطن العزيز بحياتنا

« وكما أن الدولة العلية ترى مصر قلب الدولة فكذلك نحن نرى الدولة محل سطوتنا ومركز آمالنا ودار الخلافة الاسلامية . واننا نرجو أن تجتمع كلمة المسلمين فى سائر الأقطار وتتحد قلوب المؤمنين لتكون يدا واحدة فى وقاية دولتنا من جميع النوازل أعاذها الله منها . ولا نشك فى أن اخواننا المسلمين يجدون فى بث الاتحاد بينهم وجمـــع الكلمة على تأييد ملكنا وسلطاننا المعظم خلد الله سلطانه »

ولما أتم كلامه وقف على نظامى باشا وصافح طلبه بك ومن معه من الضباط وأثنى عليهم ثناء جميلا . ثم جلس مع ناظر الجهادية محمود سامى باشا نحو نصـــف ساعة

وذهب بعد ذلك فزار شيخ الجامع الأزهر ونقيب الاشراف والشيخ عليش شيخ السادة المالكية • وكانوا يباهون جميعا بما فعلته الجهادية وما وصلت اليه الحالة بفضل رجالها

وقد مكث رجال الوفد فى مصر بضعة عشر يوما أقيمت لهم فى خلالها المآدب الفاخرة • أما الخديو فقد أكد لهم بأن الجيش على طاعته ، وان ليس فى مصر ما يوجب الاضطراب

وفى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٨١ سافر الوفد الشاهانى الى الاسكندرية مقتنعا بما رأى وسمع • وفى صباح اليوم التالى أقلته البارجة (طليعت) الى الآستانة • وقد أطلقت المدافع ايذانا بسفرهم واجلالا

سفر الآلاى السودانى الى دمياط
وسفرى بالآلاى الرابع الى رأس الوادى

لما ورد من الآستانة تلغراف ٣ اكتوبر سنة ١٨٨١ المار ذكره علم الجميع أن مجيء الوفد الشاهانى هو لتحقيق التمردالعسكرى الذى أشاعته أوربا لتجعلهوسيلة لتتداخل فى افساد ما تم من الاصلاحات فى القطر المصرى • ولقد هاجت الأفكار واضطربت خواطر رجال الاستبداد وأوجس الخديو من جراء ذلك شرا • فاتفق مع الوزارة الجديدة على أن لا يسمح لرجال الوفد المذكور بمقابلتنا ، وأن يعترف الخديو بأن لا تمرد ولا عصيان فى الجيش ، وأن الجيش على طاعته ولا موجب للاضطراب • وانه يلزم ارسال الآلاى السودانى الى دمياط ، والآلاى الرابع حكمداريتى الى رأس الوادى

هذا ما تم الاتفاق عليه بين الخديو والوزارة • وقد أخبرنا ناظر الجهادية محمود سامى باشا بكل ذلك فوافقنا عليه مبدئيا تطمينا للنفوس وتسكينا للقلوب ، ولكن على

شرط صدور أمر الخديو بانتخاب النواب قبل سفرنا .

ثم نبهنا على عبد العال بك بالتأهب للسفر الى دمياط وأن يأخذ معه موسيقى الآلاى الثاني البيادة

سفر الآلاى السوداني

سافر عبد العال بك حلمي بالآلاى السوداني الى محطة السكة الحديدية مارا وسط المدينة ، وكان قد سبقه اليها معظم ضباط الجيش وضباط البوليس للقيام بواجب التوديع . وكان عدد الحضور غير قابل للعد والاحصاء . ولما وصل الآلاى المذكور الى المحطة أخذ عناني بك من أعيان القاهرة ينثر الورد والرياحين على رؤوس العساكر . وقد سقى الناس شرابا سكريا فى ذلك اليوم اكراما للجيش المنقذ للبلاد من هاوية الاستبداد ، وكنت حينئذ مع ناظر الجهادية محمود سامى باشا فى جملة المودعين .

وتلا كل من محررى جريدتى الطائف والمفيد (السيد عبد الله نديم والسيد حسن الشمسى) خطابا تضمن المدح والثناء علينا وعلى هيئة الجيش .

وهذا هو خطاب السيد عبد الله نديم :

« حماة البلاد وفرسانها

« من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم اليه من الشرف وما كتب لكم فى صفحات التاريخ من الحسنات . فقد ارتقيتم ذروة ما سبقكم اليها سابق ولا يلحقكم فى ادراكها لاحق الا الله وتعنى حماية البلاد وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنهم . فلكم الذكر الجميل والمجد المخلد يباهي بكم الحاضر من أهلنا ويفاخر بما آثركم الآتى من أبنائنا . فقد حيى الوطن بحياة طيبة بعد أن بلغت الروح التراقى . فان الامة جسد والجند

روحه ولا حياة للجسم بلا روح : وهذا وطنكم العزيزأصبح يناديكم ويناجيكم ويقول :

اليكم يرد الأمر وهو عظيم — فانى بكم طول الزمان رحيم
اذا لم تكونوا للخطوب وللردى — فمن أين يأتى للديار نعيم
وان الفتى ان لم ينازل زمانه — تأخر عنه صاحب وحميم
فردوا عنان الخيل نحو مخيم — تقلبه بين البيوت نسيم
وشدوا له الأطراف من كل وجهة — فمشدود أطراف الجهات قويم
اذا لم تكن سيفا فكن أرض وطأة — فليس لمغلول اليدين حريم
وان لم تكن للعائذين حماية — فأنت ومخضوب البنان قسيم

« ولقد ذكرت باتحادكم وحسن تعاهدكم ما كان من رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم عند تغيب سيدنا عثمان فى أهل مكة من مبايعة أهل الشجرة على حفظه وصيانته صلى الله عليه وسلم • فصاروا يعنونون بالعشرة المبشرين بالجنة • وأنتم قد تعاهدتم على حفظ الاوطان وبقاء سطوة مولانا الخديو وتأييد ملكه • وتبايعتم على الدفاع ووقاية أهليكم من كل ما يذهب بالثروة أو يضعف القوة أو يخدش الشرف فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به • وذلك هو الفوز العظيم »

سفر الآلاى الرابع

وفى ٨ اكتوبر سنة ١٨٨١ تأهبت للسفر الى رأس الوادى • وكان قد صدر الأمر العالى بانتخاب النواب قبل ذلك بأربعة أيام • فمررت بالآلاى المذكور فى وسط مدينة القاهرة المحروسة من باب النصر والموسيقى العسكرية تعزف فى مقدمة الآلاى على حسب العادة الى أن بلغنا مسجد سيدنا وولى نعمتنا الامام الحسين • فوقف الآلاى مقابلا للمسجد تعظيما واجلالا لسبط الرسول عليه الصلاة والسلام • ثم دخلت الى المقام الحسينى مع بعض الضباط

وأمرنا بيرق الآلاى على الضريح الشريف • وسألنـــا الله جل شأنه أن يوفقنا لما فيه خير البلاد ونفع العبـاد • ثم خرجنا وسرنا بالآلاى على الهيئة السالف ذكرها وكانت الشوارع ممتلئة بالمودعين والمتفرجين الى أن بلغنا محطـة السكة الحديدية • وكان قد سبق اليها جميع ضباط الجيش المصرى ورؤسائه وكثير من الذوات والتجار وعامة الناس وبالجملة فان هذا الاحتفال كان فى ذلك اليوم مما لم يسبق له مثيل فى مصر ، فقمت فى الحاضرين خطيبا قبل سفرنا وقلت ما يأتى :

« سادتى واخوانى

« بكم ولكم قمنا وطلبنا حرية البلاد وقطعنـــا غرس الاستبداد ولا ننثنى عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها • وما قصدنا بسعينا افسادا ولا تدميرا ، ولكن لما رأينا أننا بتنا فى اذلال واستعباد ولا يتمتع فى بلادنا الا الغرباء • حركتنا الغيرة والوطنية والحمية العربية الى حفظ البـــلاد وتحريرها ، والمطالبة بحقوق الأمة • وقد ساعدتنا العناية الالهية ومنحنا مولانا وأميرنا الخديو ما طلبناه من سقوط وزارة المستبد علينـــا السائر بنا فى غير طريق الوطنية • وتمتعنا بمجلس الشورى لتنظر الأمة فى شئونها وتعرف حقوقها كباقى الأمم المتمدنة فى العالم • ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ما حصلت على الحرية الا بالتهور واراقة الدماء وهتك الأعراض وتدمير البـــلاد ونحـــن اكتسبناها فى ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلبا أو نضيع حقــا أو نخدش شرفا ، وما أوصلنا الى هذه الدرجة القصوى الا الاتحاد والتضافر على حفـظ شرف البلاد • فالآن ننادى بصوت واحد « فليعش الخديو واهب الحرية • فليعش الجيش المصرى طالب الحـــرية :• فلتعش الحرية فى مصر خالدة مؤبدة

« نحن الآن فى نعمة جليلة وعزة جميلة • وقد فتحنا باب الحرية فى الشرق ليقتدى بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة • ويجانب حدوث ما يكدر صفو الراحة • ولقد ألقينا مقاليـــدنا الى وزرائنا الكرام ورئيسهم الشهم الهمام شريف النفس عظيم القدر وبين أيديهم عقبات ومصاعب فلا نزدهم ارتبـــاكا بتخاذلنا • بل نلزم وحدة الإتحاد ونحافظ على البلادونسير معهم فى طريق الاصلاح أينما ساروا • وانا قائمـون الى رأس الوادى إمتثالا لأمر رئيسنا الوطنى الحر القائم بخدمة الوطن وأهله سعادة محمود باشا سامى ناظر جهاديتنا • ليعلم الجميع ان قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق • وان الطمأنينة عادت كما كانت وعدنا الى ما نشأنا عليه من طاعة مولانا الخديو وخضوعنا له ولوزرائه الفخام • فلا تأخذكم الأراجيف واشاعات أعداء الوطن وثقوا بسعى أميرنا ورجاله

« وأخص اخوانى رجال الجيش بحفظ وحدة الاتحادوعدم الإصغاء الى الوشاة والحساد • فانكم تعلمون أننا جاهدنا فى هذا الأمر أعواما طوالا حتى ربطنا القلوب والفنـــا النفوس • وبيننا من الأعداء من يسعى فى تفريق كلمتنا واضرام نار الفتنة بيننا • فاردعوهم بلســـان التقريع واحفظوا لنا ما عاهدناكم عليه • فالبلاد محتاجة الينا وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات والا ضاعت مبادئنا ووقعنا فى شرك الاستبداد بعد التخلص منه.

« تعلمون أنكم كما قمتم وأنقذتم أمراءكم الثـــلاثة بل اخوانكم من السجن ، بل من القتل • كذلك قمنا لكم وبكم فانقذنا الوطن من الاستبداد ورفعناه الى عرش الحرية .

وما الفخر بالعظم الرميم وانما فخار الذى يبغى الفخار بنفسه

« ونحن نفتخر بالأبناء • فقدفتح لنا الآباء الفتوح ونحن حفظناها • فاجعلوا عروة الاتحاد بينكم وثيقة • وانى سائر

باخوانكم الى رأس الوادى فالمستودعكم الله جميعا وأقبل أخى على بك فهمي بالنيابة عن الجيش كله وأخى محمد أفندى عبيد بالنيابة عن جميع المودعين من أمتنا الشريفة المحبوبة»

فقام السيد عبد الله نديم • وكان قد عاد من دمياط فخطب الحاضرين بمعنى ما خطبت • وكان مصطفي بك عنانى وبعض الأهالى ينثرون الزهور والرياحين على رؤوس العساكر ويقدمون لهم الحلوى ويسقون الناس شرابا سكريا لذيذا

ولما قرب وقت مسير القطار صحت مودعا جميع المشيعين • ثم سار بنا القطار قاصدا مدينة الزقازيق يصحبنا السيد عبد الله نديم

وكنا في أثناء المسير كلما وقفنا في محطة يستقبلنا الأهالى بالفرح والسرور ومزيد الاحتفاء والاجلال ، فيخطب السيد عبد الله نديم فيهم بمثل ما سلف ذكره • واستمرت مظاهر الاحتفالات على هذا المنوال الى أن دخل القطار محطة الزقازيق (مركز مديرية الشرقية) فاستقبلنا فيها جمهور الأهالى والتجار يتقدمهم أمين بك الشمسى وهتفوا لنا وللجيش بالدعاء وعلى وجوههم علامة الفرح والسرور • ولما وقف القطار نثروا على العساكر الورد والأزهار العطرية وسقوهم الأشربة السكرية

ثم خرجت من القطار وسلمت على جموع المستقبلين وألقيت عليهم الخطاب الآتى :

« سادتى واخوانى

« أنا أخوكم في الوطنية واسمى أحمد عرابى ولدت في بلدة (هرية رزنة) من بلاد الشرقية هذه • فمن عرفنى منكم فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فقد عرفته بنفسى • وها أنذا واقف بين أيدى الأهل والخلان • وقد بلغكم

ما تطلبناه من قطع عرق الاستبداد وتحرير البلاد وأهلها، وبعناية الله سبحانه منحنا مولانا الخديو هذه الأمنية فنحن لم نخرج من العاصمة عصيانا ولا تظاهرا بعدوان . وانما سرت بالجيش ووقفت بين يدى الخديو وقفة الطالب الراجي كرم مولاه . فلا تعولوا على الأراجيف واشاعات أهل الفساد . واعلموا أن البلاد محتاجة الى الخدمة بالقوة والفكر والعمل . أما القوة فنحن رجالها ولا ننثنى عن عزمنا وفى الجسم نفس . وأما الفكر فهو منوط بأميرنا الأعظم ووزرائه الكرام وهم لا يهنأ لهم عيش الا اذا طاب لنا ولا يدركون الراحة الا بأمننا . فهم يسهرون الليل ويقضون النهار فى سلوك السبل المؤدية الى حفظ الأمة وسلامتها من العوارض . وأما العمل فهو منوط بكم فان القوة والفكر يعطلان بفقد ثروة تربتنا الطيبة المباركة . وقد طلبنا لكم مجلس الشورى لتكون الأمور منوطة بأهلها والحقوق محفوظة لذويها . وهذه نعمة كبرى نشكر الله عليها كما نشكره على نجاة الوطن وأهله من رق العبودية واستنشاق نسيم الحرية . ونحمده على سلامة باطن أميرنا المعظم وخديوينا الأفخم أيده الله »

ثم قام بنا القطار قاصدا رأس الوادى . وبعد استقرارنا فيه بيومين دعانا الفاضل أمين بك الشمسى رئيس تجار الزقازيق الى وليمة شائقة اكراما لنا واحتفالا بنا وبضباطنا ورجالنا . فألقيت على جماهير المودعين من أعيان المديرية المذكورة خطابا هذا نصه :

« سادتى واخوانى الأعزاء

« أحيى أسماعكم باسم مولانا وأميرنا الخديو الساعى فى عمران الوطن وقطع عروق الاستبداد منه . وأذكركم بمدة حجبت عنا فيها أنوار الحرية واستعبدتنا فيها الظلمة حتى صرنا نتألم ولا يرحمنا أحد . وأصبحت أموالنا وأرزاقنا

معرضة للنهب والسلب تتخطفها أيدي المستبدين الذين تمكنت القسوة من قلوبهم والفوا الظلم وكرهوا العدل والانصاف حتى كانت عاقبة أمرهم أن أصبح الناس في قيد الفقر وذل الفاقة • والقطر معرضا للاخطار مهيأ لامتداد أيدي الطامعين اليه• فعز ذلك على اخوانكم وأولادكم في الجهادية حماة البلاد • وتحركت فينا الحمية العربية والغيرة الوطنية فتعاهدنا على حفظ البلاد ووقاية أميرنا من كل سوء • وسرت بهذا الجيش ووقفت بساحة عابدين أمام مولانا الخديو حفظه الله • وقد أشتدت شوكة جيش البغى وقويت معارضته ، « هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا »

ثم قام صديقي الأعز الهمام صاحب الغيرة والعزم القوى السيد عبد الله نديم بين الصفوف ينادي :

« وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما • فان بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفيء الى أمر الله » ، فكان معى ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الروع والارتجاف • وأخذ الكل يردد هذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها الا من فمه فى تلك الساعة

ثم قام وألقى خطبة غراء كثر فى أثنائها هتاف الاستحسان من الحاضرين • وفى اليوم الثاني دعيت لوضع أساس المدرسة الأميرية بالزقازيق، فتوجهت ووضعت حجر الزاوية فيها باسم الحضرة الخديوية • وتلوت على الحاضرين خطبة ذكرت لهم فيها فوائد التعليم ومنافعه • وفضل العالم على الجاهل والبصير على الأعمى • وحرضتهم على الاهتمام بأمر تعليم أولادهم ليكونوا مستعدين لخدمة بلادهم فى المستقبل

وفى ٢٠ اكتوبر أرسل الينا نوبار باشا مندوبا من طرفه يدعى أحمد قبودان البكرى من موظفى بوغاز الاسكندرية،

ليشكرنا على انقاذ الوطن من ظلم الظالمين وجور المستبدين، ويعرض علينا أنه مستعد لأن يقود حركتنا الوطنية بصائب رأيه اذا دعوناه الى رياسة الحكومة واعتمدنا عليه وسلمنا أمورنا اليه . فعجبنا لذلك وأجبناه بأن مبدأنا هو أن تكون « مصر للمصريين » . وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الاكرام . وانا لا نجهل الادوار التي لعبها نوبار باشا في مسألة تغيير قواعد فرمان الوراثة الخديوية . وفي مسألة تأليف المجالس المختلطة في مصر ، تلك المجالس التي صرف عليها ١٢ مليونا من الجنيهات من أموال المصريين المساكين على يده وبسعيه ، وكان هو أكبر مساعد للمستبدين وله الحظ الأوفر من تلك الغنائم

عودتي الى القاهرة

بلغ الحكومة من جواسيسها أني أتجول في أنحاء مديرية الشرقية لبث مبادئي وأفكاري في نفوس عمد البلاد ومشايخ العربان ، حاضا على وجوب مؤازرتي في مشروعاتي الوطنية . وان كثيرا من المظلومين يأتون لى شاكين من ظلم الظالمين . فأوجست خيفة من ذلك وقررت طلبي الى العاصمة فأجبت طلبها . ثم عرضت علي وظيفة وكيل نظارة الجهادية ورتبة اللواء (باشا) فقبلت وكالة الجهادية مع بقاء الآلاي في عهدتي ورفضت رتبة الباشا حتى لا أدنس سمعتي وحتى لا يقال بأني انما أشتغل لمصلحتي الخصوصية لا للمصلحة العمومية

ولما استلمت منصبي الجديد كثر وفود المتظلمين على من أرجاء البلاد وأكنافها حتى كانت ساحة منزلي لا تسع الزائرين والمتظلمين وكان كثير من الاوربيين ومكاتبي الجرائد الافرنكية والوطنية يحضرون الى منزلي لاستطلاع سياستي . والوقوف على مكنونات أفكاري بحيث كنت في

تعب دائم ليلا ونهارا • وفى تلك المدة حضر الى منـــزلى الرجل الكريم المتفانى فى حب الحق والعدل والحرية ، محب الشرقيين عموما والمصريين خصوصا (المستر ولفرنسكاون بلانت) • وكان معه صاحبه العلامة القس لويس الصابونجي (صاحب جرنال النحلة) وعرض على قبول صداقتـه لى فقبلت منه ذلك • فمد يده الى ومددت يدى اليه • وتصافحنا وتعاقدنا على الصداقة والاخلاص وكنت أظن أننا بواسطته وبفخامة مركزه فى قومه وشدة غيرته على الحرية ، نتمكن من تذليل الصعوبات التى يلقيها قناصل الانجليز هنا فى طريق حريتنا ونجاح بلادنا ، بدعوى الانسانية والعـــدل والانصاف بين الأمم والشعوب وهذا ما يدعى الغربيـون زورا وتضليلا دائما وهى كلمات محبوبة يدسون بها السم فى الدسم ليتمكنوا بها من الاستيلاء على مشارق الأرض ومغاربها طمعا وجشعا

وكذلك حضر لزيارتنا كاتم أسرار ملكة الانجليز محب الحرية (السير وليم جريجورى) • الرجل الأرلندى الذى كان قد تولى حكومة جزيرة سيلان مرتين اجابة لرغبة أهل تلك البلاد • وسألنا عن مقاصدنا فأكدنا له أن لا خوف على رعايا الدول المتحابة ، فهم آمنون على أنفسهم وأموالهم بضماننا وكفالتنا • وأنا لا نريد الا الحرية وقطع عروق الاستبداد • وقد تم لنا ذلك بتأليف مجلس نيابى، وبرضاء واستحسان الخديو• وقد التمست من الخديو فى تلك المدة بواسطة ومساعدة ناظر الجهادية ورئيس النظار الافراج عن المسجونين ظلما فى مدة الاستبداد فأجيب التماسى • وكان من ضمن أولئك المسجونين أحمد بك أبو ستيت من مديرية سوهاج • والسيد حسن موسى العقاد من أعيان العاصمة • وكانا منفيين الى السودان ظلما وعدوانا • ولما قدم السيد حسن موسى العقاد أقام الافراح وأولم ولائم كثيرة لضباط

الجيش وأعيان العاصمة تعد من ليالى مصر المشهورة

وفي تلك المدة أيضا أنشئت جرائد وطنية صادقة منها جريدة الحجاز ومحررها السيد ابراهيم سراج المدني • وجريدة المفيد ومحررها السيد حسن الشمسي • ولسان الأمة ومحررها السيد عبد الله نديم • وكان موضوعها سياسيا تهذيبيا للذب عن حقوق الأمة

وفي أوائل شهر يناير سنة ١٨٨٢ خلوت بالمغفور له محمود باشا سامي ناظر الجهادية فأطنب في الثناء على لقيامي بنشر راية الحرية في مصر وملحقاتها من بعد مضي خمسة آلاف سنة على المصريين وهم يرسفون في قيود الاستبداد • ثم أقسم أنه مستعد لأن يضحي حياته ويجود بآخر نقطة من دمه في تنفيذ رغبتي • ويجرد حسامه وينادي باسمي خديويا لمصر اذا رغبت في ذلك

فقلت له : « مه يا محمود باشا • فاني لا أريد الا تحرير بلادي ولا أرى سبيلا لنوالنا ذلك الا بالمحافظة على الخديو كما صرحت بذلك مرارا وتكرارا • وليس بي طمع أصلا في الاستئثار بالمنافع الشخصية • ولا أريد انتقال الأريكة الخديوية الى عائلة أخرى لما في ذلك من الضرر ، مع علمي بأنك تنتسب الى الملك الأشرف (سبرباى) • فقال : «وأنا لا أقول لك الا حقا ، وأنت أحق بهذا الأمر مني ومن غيري» فشكرته على ثقته بي وتم الحديث

مجلس النواب

الأمر العالى بتأليف المجلس

رفع رئيس النظار شريف باشا فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ الموافق ١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ الى الجناب الخديوى تقريرا بشأن انشاء مجلس نواب وانتخاب أعضائه . وذلك بنـاء على الطلب المقدم منا والمذيل بامضاءات ألف وستمائة مصرى لتأليف مجلس نيابى ، فصدر الأمر العالى الآتية صورته:

« نحن خديو مصر

« بناء على التقرير المرفوع الينا من رئيس مجلس نظار حكومتنا بتاريخ ١١ ذى القعـدة سنة ١٢٩٨ الموافق ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ المرفوق صورته بأمرنا هذا . وبعد الاطلاع على لائحة مجلس شورى النواب الصادرة بتاريخ ٢١ رجب سنة ١٢٨٣ وبناء على موافقة رأى مجلس نظارنا نأمر بما هو آت :

المادة الأولى : يصير انتخاب النواب بالصفة والشروط الموضحة بتلك اللائحة ، وافتتاح مجلس الشورى يكون فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ غرة صفر سنة ١٢٩٩ اتبـاعا للمادة ١٦ من اللائحة المذكورة

المادة الثانية : ناظر داخلية حكومتنا مكلف بتنفيذ أمرنا هذا

ـ صدر بسراى الجزيرة فى ١١ ذى القعـدة سنة ١٢٩٨ الموافق ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١

الامضاء : محمد توفيق

بأمر الحضرة الفخيمة الخديوية رئيس مجلس النظار وناظر الداخلية .

الامضاء : محمد شريف

ولقد صادف المشروع بعد صدور التقرير والأمر العالى السابقين استحسانا يجل عن الحصر والوصف في البلاد . فلم يكن المرء يلقى الا وجوها طلقة وثغورا باسمة . وكان أهم ما استوجب الاستحسان قول رئيس الوزراء : « ان مشاورة أهل الرأى والسداد من وجوه البلاد فيما تحتاج اليه من الاصلاح هو الواسطة الوحيدة للحصول على الفائدة المقصودة . وان هذا المأخذ مطابق لرأى عمد الأهالى بالنيابة عن عمومهم » . وكان ذلك عند الأمة دليلا على قرب الصلة وارتفاع الحجاب بينها وبين الحكومة

أما اللائحة التي ورد عنها الكلام فى تقرير شريف باشا وجاء فى شأنها : أن مجلس النواب سيجتمع بمقتضاها ولكن هيئة النظار ستتحد معه فى البحث فيما يجب تعديله وتنقيحه منها مع مراعاة حقوق الحضرة الخديوية وحالة القطر ، فقد كان فى الكلام عنها فى ذلك التقرير موضعان للاستحسان . الأول : تعديل اللائحة بمعنى تقريبها من جانب الحرية بقدر تبعيدها من حد التقييد . والثانى : مراعاة الحقوق الخديوية وحالة القطر بمعنى احترام تلك الحقوق وحفظ المناسبة بين أحوال البلاد وأحكامها

ولما كان قد ورد فى التقرير المذكور أن الانتخاب الجديد سيكون بمقتضى اللائحة الاساسية الصادرة عام ١٢٨٣ هـ . وكان قد تقادم العهد على تلك اللائحة وعلى نظام مجلس النواب المسنون فى ذلك العام ، فقد تاق الناس أثر صدور الأمر الخديوى بتأليف المجلس النيابى الى الوقوف على ذلك النظام ليعلموا منه مجرى الانتخاب ، وماهية مجلس النواب

فى دوره الأول . فنشرته جريدة المحروسة حينذاك . وكان فى اليقين أن الحضرة الخديوية توافق عليه بعد أن يرفع اليها وتضعه موضع الاجزاء . على انه بالنظر لما ورد فى تقرير الوزير بصراحة لا تحتمل التأويل، أن المجلس الجديد وان جرى تأليفه بمقتضى اللائحة القديمة الا أنه سينظر فى أحكام تلك اللائحة ليعدلها من طريق توسيع الحقوق ومنح الحرية لنواب الأمة ، كان المجلس الجديد بهذا الاعتبار مجلس تنظيم وتشريع يضع لنفسه قانونا جلى الأحكام

انتخاب النواب

وفى ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ صدر منشور نظارة الداخلية الى جميع المديريات والمحافظات بانتخاب النواب وهذه صورته :

« انه اجابة لاستدعاء أهالى القطر وبناء على التماس مجلس النظار قد أصدرت الحضرة الخديوية أمرها السامى بتاريخ ١١ ذى القعدة سنة ١٢٩٨ الموافق ٤ اكتوبر سنة ١٨٨١ بافتتاح مجلس شورى النواب فى ١٥ كيهك سنة ١٥٩٨ وبتكليف ناظر الداخلية باتخاذ كافة الوسائل اللازمة ليكون انتخاب حضرات النواب على حسب النصوص والشروط المدونة فى لائحة مجلس شورى النواب . فعملا بالأمر المشار اليه السابق نشره مع صورة التقرير المقدم منا للاعتاب السنية قد عينا يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨١ لاجتماع المنتخبين (بكسر الخاء) أى الذين ينتخبون النواب . واجتماعهم يكون بالمديريات والمحافظات

« وليكن معلوما لحضرتكم أن الواجب عليكم انما هو تسهيل انتخاب النواب المومأ اليهم . ومراعاة نصوص اللائحة بحيث يكون ذلك على حسب آراء أهالى القطر ورغبتهم . وبدون أن تتدخلوا فى الانتخاب لمساعدة أى

شخص كان • اذ أن المشايخ هم نائبو الأهالى ولهم دون غيرهم أن ينتخبوا من يعتمدون عليه ويثقون به ليكون نائبا عنهم بالمجلس المذكور • ا هـ

وبعد أن صدر هذا المنشور توجهت الأنظار الى ماسيكون من أمر الانتخاب لمجلس النواب • وأخذت النصائح تبذل لأرباب الانتخاب بأن ينتخبوا نوابا يكونون وكلاء عنهم فى كل ما يقولون وما يفعلون • وينتقوا حكاما مصلحين يضعون لبلادهم نظامات وقوانين تكون بعد التقرير مرعية الاجراء • ويختاروا من يضرب عليهم الضرائب ويعدل لهم الرسوم وينظر فى أمر الودائع •ويعينوا من أنفسهم جماعة تدل آثارهم على مكانتهم من المدنية ومقامهم فى الوجود السياسى • وأن ينظروا الى المنتخب من حيث ما يترتب على انتخابه من الأثر فى خير البلاد ، لا من حيث ما يرى منه أول النظر •. وغير ذلك من النصائح والارشادات • ثم شرع عمد البلاد ومشايخها فى انتخاب النواب على مقتضى القانون وبذل الجهد فى انجاز الأعمال الانتخابية

ومرت أيام الانتخاب بما كانت فيه من الأعمال الانتخابية العظيمة، فكانت موضوعا للاهتمام والمذاكرة فى كل مجمع وطنى • ولقد أشرنا بتعيين محمد سلطان باشا رئيسا لمجلس النواب لما نعهده فيه من صحة الوطنية • وبتعيين عبد الله باشا فكرى رئيسا لمكتب المجلس مع بقائه وكيلا لنظارة المعارف • وبتعيين أديب أفندى اسحق (اللبناني) كاتبا ثانيا له مع بقائه ناظرا لقلم الانشاء والترجمة •. وكان مكان انعقاد المجلس فى ديوان الاشغال

افتتاح مجلس النواب

لما تم انتخاب النواب فى الوجهين القبلى والبحرى عين يوم الاثنين ٥ صفر بسنة ١٢٩٩ و ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨١

لافتتاح هذا المجلس • ولم تطلع شمس ذلك اليوم حتى ازدحم مكان الاجتماع بكثير من الناس ووقفت أورطة من الآلاى الأول على جانبى الطريق من سلم القاعة الى الباب تحت حكمدارية البطل المغوار محمد أفندى عبيد • وعند حضور الجناب الخديوى صدحت الموسيقى بالسلام ونادى الجند (أفندى مزجوق‌يشا) وبعد أن تبوأ مقعده تمثل بين يديه محمد باشا سلطان رئيس المجلس وأبلغه استعداد النواب لسماع مقاله الافتتاحى فقام على قدميه وقال :

« أبدى لحضرات النواب مسروريتى من اجتماعهم لأجل أن ينوبوا عن الأهالى فى الأمور العائدة عليهم بالنفع • وفى علم الجميع انى من وقت ما استلمت زمام الحكومة عزمت بنية خالصة على فتح مجلس النواب ولكن تأخر للآن بسبب المشكلات التى كانت محيطة بالحكومة • فأما الآن فنحمد الله تعالى على ما يسر لنا من دفع المشكلات المالية بمساعدة الدول المتحابة ، ومن تخفيف أحمال الاهالى على قدر الامكان فلم يبق مانع من المبادرة الى ما أنا متشوق لحصوله وهو مجلس النواب الذى أنا فاتحه فى هذا اليوم باجتماعكم • وأنتم تحيطون علما ان جل مقاصدى ومساعى حكومتى هو راحة الأهالى ورفاهيتهم وانتظام أمورهم بتعميم العدالة بينهم وتأمين سكان القطر على اختلاف أجناسهم • وهذا منهجى واضحا مستقيما وعليه سيرى منذ توليت أمركم محبا للتربية ونشر العلوم والمعارف • فعلى المجلس أن يكون مساعدا للحكومة فى هذه الأمور كلها خالصا مخلصا فى خدمة الوطن منحصرة أفكاره ومذاكراته فى المنافع العمومية مع مراعاة قرار لجنة التصفية وسائر تعهدات الحكومة مع الدول • سالكا المسلك المعتدل والمنهج القويم الذى هو أهم شئ فى هذا الوقت الذى هو عصر الترقى والتمدن • فالواجب علينا الاعتدال والتأنى وحسن التبصر •

وأن نكون يدا واحدة فى اتمام الأعمال النافعة متوسلين بعناية الله تعالى وامداد رسوله الكريم ومتمسكين بقوة ارتباطنا بالحضرة الشاهانية والدولة العلية أدامهما الله . ونسأل الله النجاح انه ولى التوفيق » ا ه

شريف باشا فى المجلس

عكف مجلس الشورى بعد ذلك على الاهتمام بشؤونه الداخلية ورتب أقلامه وانتخب رؤساءها . ثم توجهت الأنظار الى اللائحة الأساسية الجديدة التى عزم مجلس النظار على ارسالها اليه ليضعها موضع النظر

وفى عصر يوم الاثنين الواقع فى ١١ صفر سنة ١٢٩٩ و ٢ يناير سنة ١٨٨٢ توجه محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار الى مجلس النواب لتقديم اللائحة الاساسية التى أعدها له مع سائر النظار ، فقدمها وخطب فى ذلك خطابا أثر فى أذهان النواب . وقد جاءت هذه اللائحة مشتملة على أحكام حرة وحدود مطلقة يكون بمقتضاها للنواب حق النظر فى القوانين والمصروفات العمومية . وأن لا ينفذ قانون ولا يعتبر نظام ما لم يقرر فى مجلسهم مع تخويلهم الحرية التامة فى ابداء آرائهم وقراراتهم . وقد تألفت لجنة من أعضاء المجلس للنظر فى اللائحة وانصرفت آمال الناس الى أن هذه اللجنة تسارع الى النظر فيها ليتم للمجلس فى وقت قصير تقريرها . ويؤخذ بعد ذلك فى الاهتمام بالمصالح العمومية والمنافع الوطنية

وها نحن ننشر فقرات من الخطاب التاريخى الذى ألقاه شريف باشا فى مجلس النواب :

« أيها السادة النواب

« انى لا أقدر أن أعبر لحضراتكم عن سرورى بالحضور

بينكم فى هذا اليوم الذى أعده مبدأ لعصر جديد ان شاء الله يعود على القطر بالتقدم والنجاح

« حضراتكم تعلمون انه منذ ثلاث سنوات تراءى لى ان الطريقة الوحيدة لخلاص البــلاد من الورطات التى كانت محيطة بها هى توسيع نطاق الشورى واشتراك رأى نواب الأهالى مع الحكومة في نظر كل أمر مهم تعود منه المنفعــة وكنت قدمت مشروعا لمجلس النواب الذى كان موجــودا وقتئذ ، وهو أجرى فيه تغييرات لم يتيسر للحكومة النظر فيها ، ثم طرأت حوادث سياسية ومالية ليست خافية عليكم ترتب عليها تعويق اتمام المشروع والحمد لله قد زالت العوائق واني لأعد نفسي سعيدا حيث ان أفكارى فى هذا الخصوص ما كانت الا نتيجة مقاصد الحضرة الخديوية ، وهذه الأفكار قد طابق عليها عموم الأهالى ولهذا حصل انتخاب حضراتكم واجتمعتم فلنهنيء القطر على ذلك ونهنيء أنفســنا وندع للذات الشاهانية وللحضرة الخديوية ببقائهما مصدرا لكل خير

« ولما كانت لائحة النواب التى اجتمعتم على مقتضاها لا تلائم أفكارنا جميعا كما أوضــحت ذلك من منذ ثلاث سنوات وكررته بالمعروض الذى رفعته أخيرا للســدة الخديوية عن طلب اجتماع مجلسكم هذا فقد اشتغلت مع رفقائي بتحضير لائحة موافقة لمقاصد العمــوم ، وقد تمت وها أنا الآن أقدمها لحضراتكم للنظر فيها

« ومع كون هذه أول مرة اجتمع فيها مجلس نواب حر كان يلزم ان السلطة التى تعطى له لا تكون مطلقة بالكلية حتى يحكم المستقبل باطلاقها بالتدريج شيئا فشيئا لكن حيث ان مقصدنا جميعا واحد وهو خير البــلاد والحكومة معتقدة بكفاءة النواب وعلمهم بحقوقهم وواجباتهم ومحبتهم

للوطن فقد أعطت لكم الحرية التامة في ابداء آرائكم وحق المراقبة على أفعال مأموري الحكومة من أي درجة وأي صنف كانوا وتصرح لكم بنظر الموازين العمومية وابداء رأيكم فيها ونظر كافة القوانين واللوائح ، وقد التزمت الحكومة بعدم وضع أي ضريبة ولا نشر أي قانون أو لائحة ما لم يكن بتصديق واقرار منكم وكذلك تعهدت بأن تجعل النظار مسئولين لديكم عن كل أمر يترتب عليه اخلال بحقوقهم والغاية ، فانه لم يحجز عليكم فى شيء ما ولم يخرج أمر مهم عن نظركم ومراقبتكم ... » (١)

وتوالى بعد ذلك انعقاد اللجنة المتشكلة للبحث في اللائحة المذكورة وتعديل بعض أحكامها فقررت أكثر بنودها ثم وقع خلاف بين النواب والنظار فى شأن ما يتعلق بالميزانية من بنود هذه اللائحة ومضت على ذلك بضعة أيام تنوعت فى خلالها الآراء والأقوال حتى كان يوم الأربعاء الواقع فى ٢٧ صفر سنة ١٢٩٩ و ١٨ يناير سنة ١٨٨٢ فقدمت اللجنة اللائحة الأساسية لرئيس مجلس النظار على يد رئيس مجلس النواب فأمر باستنساخها وتوزيعها على النظار لتكون موضوع مذاكراتهم فى الجلسة الآتية ، وكانت اللجنة قد حفظت العدد الكثير من بنودها وعدلت ما رأت لزوم تعديله

وبعد مذاكرة النظار فيها رأوا أن يعدلوا بنودها المتعلقة بالميزانية فأصر النواب على ألا يقبلوا البتة تعديلا فى لائحتهم الأساسية التى وضعتها لجنتهم المؤلفة لذلك ، واشتد الخلاف بين مجلس النظار ومجلس النواب ، حتى أدى ذلك الى استقالة وزارة محمد شريف باشا

---

(١) ملاحظة : جاء بالمذكرات بيان واف بعد هذا الخطاب عن اللائحة الاساسية لمجلس النواب في ذلك الحين ، وهي لا تختلف كثيرا عن لائحة مجلس النواب في العهد الأخير

عبث انجلترا وفرنسا

في خلال هذه الأحداث ورد على لسان البرق أن الدولتين انجلترا وفرنسا متفقتان على أن تبعثا الى الحكومة الخديوية كتابا تعلنان فيه انهما تساعدانها بالفعل اذا استمر الاضطراب في القطر المصرى أو مس السلطة الخديوية شيء

وقد تحقق ذلك فان وكيلي الدولتين السياسيين توجها الى سراى عابدين في ١٩ صفر سنة ١٢٩٩ الموافق ١٠ يناير سنة ١٨٨٢ وقدما للخديو مذكرة مشتركة وردت اليهما بصفة خطاب من وزارة الخارجية الى القنصل الجنرال بمصر وهذه ترجمتها :

« حضرة القنصل الجنرال

« كلفناكم غير مرة أن تخبروا الجناب الخديوى وحكومته عن رغبة حكومتي فرنسا وانجلترا في مساعدته ومساعدة حكومته للتغلب على المصاعب المتنوعة التى تزيد الارتباك والقلق في القطر المصرى ، فان الدولتين على وفاق وطيد واتحاد تام فيما يتعلق بمصر ، لا سيما بعد حدوث الحوادث الأخيرة أخصها صدور الأمر الخديوى بجمع مجلس شورى النواب مما أوجب المخابرة بين الدولتين واعادة النظر في شؤون اتفاقهما المذكور

« وبناء على ذلك نرجوكم أن تصرحوا الآن للجناب الخديوى ان حكومتي فرنسا وانجلترا تريان وجوب تأييد جنابه في الخديوية وفقا للاحكام المقررة للفرمانات السلطانية التى قبلتها الدولتان قبولا رسميا ، باعتبار انها وحدها تكفل الآن وبعد الآن استمرار السلم والسكون ، وتوجب توسيع نطاق الثروة والعمارة في البلاد المصرية مما فيه مصلحة الحكومتين المذكورتين المتفقتين على الاشتراك في

السعي الى دفع كل ما من شأنه أن يحدث في مصر ارتباكا أو يخل بنظاماتها وأحوالها ، سواء كان هذا الخلل وهذا الارتباك ناشئين عن أسباب خارجية أم داخلية.

« ولا ريب عندنا ان هذا التصريح العلني المبين لمقاصد الحكومتين يمنع حدوث ما عساه أن يطرأ على حكومة الجناب الخديوى من الاخطار ، وان حدث فالحكومتان لا تترددان في دفعه ولا تحجمان عن صده

« وفي أمل الدولتين ان الجناب الخديوى يعرف كنه المعرفة ما في هذا التصريح ، فتحقق له الثقة والقوة اللتين لا بد له منهما لادارة أمور القطر المصري »

فأثرت هذه المذكرة في النفوس تأثيرا عظيما واضطرب منها الجند وأعضاء مجلس النواب ومأمورو الحكومة، ورابهم منها أمور كثيرة وأيقنوا ان المراد منها مزيد التدخل وجعل البلاد تحت حماية انجلترا وفرنسا ثم توجه ناظر الجهادية محمود باشا سامى الى النظار وفاوضهم في الأمر وأبلغهم انفعال الضباط والعساكر من هذه المذكرة ثم سار واياهم الى الخديو ، فبسطوا لديه الأمر والرأى والتمسوا المداركة بما يذهب الآثار التى نشأت عنها فاستقر الرأى على اشعار الباب العالى به

وقد اعترض الباب العالى على هذه المذكرة بمذكرة مثلها بعثت بها وزارة الخارجية العثمانية الى الدولتين المتفقتين على يد سفيرى الدولة العلية لديهما وهذه صورتها :

« يا حضرة السفير

« تعلمون ان قنصلى دولتى انجلترا وفرنسا الجنرالين قدما للجناب الخديوى المذكرة المتفق عليها بين الدولتين بناء على الافادات الواردة لهما من جانب دولتيهما ، وقد أثبت لنا هذا العمل بالنظر الى الفرمان الذى أصدره الباب العالى

متعلقا بولاية مصر وبالنظر الى اجراءات الوفد العثمـانى الملوكى الذى أرسل الى مصر من عهد قريب ان التأكيدات التى كررت حكومة الباب العالى اصدارها لم ينظر اليهـا بالعين التى تستحق أن ينظر اليها بها ، ومن أجل هـذا لا نتمالك من اخفاء سوء الأثر الذى حصل لنا من جـراء هذا العمل ونرى بعد ذلك من واجب الضرورة أن نصرح للحكومة التى تنوبون عنا لديها ببعض ملاحظاتنـا فى معارضة هذه المذكرة لتنظر فيها بعين العدل والانصاف

« ان الحكومة السلطانية موجهة عنايتها أبدا الى المحافظة على الامتيازات الممنوحة لمصر حرصا على الراحة العمومية وجلبا للسعادة والرفاهية فى الولاية المذكورة ، وذلك جل ما نرغب فيه ونرى فيه مصلحة لها . وفى ظننا انه يستحيل ابداء أقل الأدلة على ما ينافى ذلك والاستشهاد بأى حادث داخلى متعلق بمصر يكون داعيا لاصدار مثل تلك المذكرة

« بناء على ذلك لا نرى شيئا مما يقضى باسـتصواب ما أجرته الدولتان من تقديم تلك المذكرة لسمو توفيـق باشا ، وفضلا عن ذلك فان مصر جزء ملازم من ممالك الحضرة السلطانية والسلطة المعطاة للخديو لحفظ الراحة العمومية عند اللزوم والمحافظة على سعادة حال البلاد ولادارة القطر على محور حسن وتأييد هذه السلطة هى من حقوق الباب العالى وحده ومن اختصاصاته دون سواه فكان من اللازم طبعا عندما اتضح وجوب اجراء مثل هذه الاجـراءات أن يؤخذ بادى بدء رأى الدولة المتبـوعة وبواسطتها وحدها ترسل التصريحات اللازمة وبواسطتها أيضا دون سواها ينتظر الحصول على التأكيدات المأمولة

« ومما تقدم يعلم انه يحق لنا أن نرى مخابرة الدولتين مع الخديو غير حقة ولا عادلة وقد صار الباب العالى مضطرا

أن يحاول الوقوف على الأسباب التى لجأت حكومة فرنسا للاشتراك مع حكومة بريطانيا فى مسألة مجحفة بحقوق سلطته على مصر وقد أرسلت هذه الملاحظات الى سفارة الباب العالى بلندره وسفارته بباريس

« والآن أفوض سعادتكم يا حضرة السفير أن تخابروا فى هذا المعنى حضرة وزير الخارجية وتشرحوا له الشرح الذى ترونه موافقا فى هذا الشأن وذلك لكى تظهروا لحضرته شدة اضطرارنا الى الحصول على هذا التصريح الشافى الكافى لأن يخرج الحكومة السلطانية من ضنك المقام الذى وجدت فيه الآن أثر ما حدث بمصر

التوقيع : عاصم باشا »

تحسين حالة الموظفين

فى ٢٤ ذى القعدة التمسنا من رئيس النظار شريف باشا امعان النظر فى تحسين حالة موظفى المصالح الملكية ومستخدميها وترقيتهم ورفتهم أسوة برجال الجيش ، فرفع الرئيس المشار اليه الى الخديو تقريرا جاء فيه :

« مولاى .. أعرض لسدتكم العلية انه قد تشكل بمقتضى أمركم العالى الصادر بتاريخ ٢٠ ابريل سنة ١٨٨١ قومسيون كلف بتحضير القوانين المتعلقة بتسوية حالة الضباط الجهادية البرية والبحرية وترقيهم فنظمها وعرضها لمقامكم السامى فحفت بالقبول لديكم وفازت بالتصديق عليها من فخامتكم

« هذا وحالة المستخدمين الملكية تستحق أيضا التفات الحكومة اليها فانه ينبغى أن توضع قوانين بعد مطالعة أحكامها وامعان النظر فيها بغاية الدقة ومزيد الاعتناء تتبين فيها الشروط التى يلزم مراعاتها فى قبول المستخدمين من

أى رتبة كانوا بالمصالح الملكية وترقيهم ورفتهم ليكونوا آمنين مما عسى أن يحصل فى أى وقت من الاجراءات الاستبدادية التى يترتب عليها منع تقدمهم وتعويق ترقيهم فانها تلغى الحقوق المكتسبة بمزيد الشرف وتمام الفخار . وان الحكومة بواسطة تأييدها حالتهم يحق لها أن تعتمد تمام الاعتماد على ما يأتون به من المساعدة والمعاونة فى أمر ترتيب المصالح وتنظيمها الموجهة عنان اجتهادها نحوه الآن

« فلهذه الأوجه قد تراءى لمجلس نظار حكومتكم السنية لزوم احالة تحضير القوانين السابقة الذكر على عهدة قومسيون يتعين لهذا الشأن ... »

وقد أصدر الخديو أمرا بتأليف لجنة لهذا الغرض كان من أعضائها محمد زكى باشا ناظر المعارف ، ومحمد سلطان باشا ، وبطرس باشا غالى ، وأحمد بك نشأت ، ويعقوب بك أرتين

ولما وافق الخديو على سن قوانين عادلة تضمن حقوق الموظفين الملكية وتسوية حالتهم ارتاحت الخواطر الى هذا الترتيب وطابت به النفوس ولهجت الألسنة بذكر فوائد القانون ، وقالت انه ما دام وافيا وكافلا لأن يعين للرؤساء حدودهم ويبين للعمال حقوقهم ، ويكف يد المظالم عن جميع الداخلين فى خدمة الحكومة كبارا وصغارا ، فلا خوف من اختلال الاشغال وفساد الأعمال وانصراف النفوس الى الشهوات واتباع الأغراض فان القانون بمنزلة أصبع يفقأ عيون الرقباء ، ويد قوية تكره أهل العسف على عدم الخروج من الدائرة التى خطت ويمنع صنيعة الأمير ومحسوب الخطير من الدخول فى خدمة الحكومة ما لم تتوفر فيه اللياقة المطلوبة والعفة المرغوبة

وانصرفت الأفكار كذلك الى لزوم تنظيم المحاكم الاهلية فتوجهت عناية الوزراء الى ترتيب مشروعها لما له من العلاقة باستقامة سائر الأمـــور ، ولأنه هو الموجب لثقة الأمة بالحكومة

ففى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٨١ الموافق ٢٥ ذى الحجـــة سنة ١٢٩٨ صدر الأمر الخديوى بلائحة ترتيب المحـــاكم المذكورة

الفرية الكبرى

الوفد المصرى فى الآستانة

وفى أواسط شهر نوفمبر سنة ١٨٨١ أرســـل ثابت باشا الى الآستانة مندوبا من قبل الخديو · وكان ذلك على أثر عودة الوفد العثمانى الى الآستانة وكانت مهمـــة ثابت باشا تفهيم رجال الدولة العلية بأن القصد من الحركة المصرية الوطنية هو انشاء خلافة عربية تضم تحت لوائها كل ناطق بالضاد ، فتشمل بلاد الحجاز واليمن والعراق ومصر والشام وطرابلس الغرب وغيرها ·· سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم ·!

صندوق ادخار لضباط الجيش

وتقرر فى ديوان الجهادية (وزارة الحربية) انشـــاء صندوق ادخار للضباط جميعا على اختلاف رتبهم يجعل فيه من ماهياتهم ٥ فى المائة يشترى بمجموعها سندات ماليـــة مصرية ثم تضم الفائدة الى الأصل فى عام ويشترى بالكل سندات ، وهكذا فى كل سنة ويبلغ ما يجتمع من ذلك فى العام ٢٥٠٠٠ جنيه ما عدا الفائدة · وقصد بذلك الشروع فى استهلاك الدين المصرى ، وكذلك أنشىء صندوق للادخار

فى الدائرة السنية لمستخدميها • وعمل لذلك قانون تم تنظيمه فى ١٤ يناير سنة ١٨٨٢ وجميع مصالح الحكومة حذت حذو الجهادية فى الادخار لمشترى سندات الدين المصرى

الورق الموحد

وتقرر فى مجلس النظار فى أواخر شهر يناير بناء على ما رئى من هبوط أسعار الورق الموحد أن تغتنم نظارة المالية هذه الفرصة وتشترى من أوراق الدين المذكور جانبا للاستهلاك بقيمة ٤٠٠ ألف جنيه وصدرت الأوامر اللازمة لذلك ، وعدل الربح الذى تناله المالية من هذا الأمر بنحو ١٢٠ ألف جنيه • وكانت النقود متوافرة فى خزائن المالية فرئى أن يصير استخدامها فى ما يعود على الحكومة بالفائدة

الحزب الوطنى

نشرت جريدة التيمس كتابا ادعت انه مرسل اليها من أحمدعرابى باشا وانهيتضمن برنامج الحزب الوطنىالمصرى ومطالبهوأمانيه ومساعيه الىغير ذلك، فتناقلت بعضالجرائد وشركات التلغراف خبر هذا الكتاب ، فكذبته جريدة الوقائع المصرية ثم كذبه المستر « ولفرد بلنت » بقوله : « ان اللائحة المشتملة على أفكار الحزب الوطنى التىنشرتها جريدة التيمس لم ترسل اليها من أحمد عرابى باشا بصفة رسالة بقلمه وامضائه ، كما زعم تلغراف روتر والتيمس ، بل باجتماعى معه ومع زملائه من رجال الجيش المصرى وبعض علماء الأمة المصرية • وقد رأيت أن أفكارهم لاتخرج عن هذه اللائحة ، وبعد أن كتبتها عرضتها عليهم فقالوا هذه هى أفكار الحزب الوطنى بالجيش ، فلما وافقوا عليها

أرسلتها الى جريدة التيمس باسمى وامضـــائى لا باسم عرابى باشا »

وقد جاء فى هذه اللائحة : (١)

أولا : يرى الحزب الوطنى محافظته على العلاقات الودية الحاصلة بين الحكومة المصرية والباب العالى واتخاذ ذاك الباب ركنا يستند عليه في أعماله ويعتقد أن جلالة السلطان عبد الحميد مولاهم وخليفة الله فيأرضه وامام المسلمين،ولا يريد قطع هذه الصلات والعلاقات ما دامت الدولة العليـــة فى الوجود ، ثم يعترف باستحقاق الباب العالى لما يأخذه من الخراج وما يلزمه من المساعدة العسكرية اذا طرأت عليــه حرب أجنبية وهذا بمقتضي القوانين والفرمانات الشاهانية كما يعتقد هذا الحزب انه يحافظ على امتيـــازاته.الوطنية بكل ما في وسعه ويقاوم من يحاول اخضاع مصر وجعلها ولاية عثمانية

ثانيا : هذا الحزب يخضع للجناب الخديوى الحـالى وهو مصمم على تأييد سلطته ما دامت أحكامه جارية على قانون العدل والشريعةحسب ما وعد به المصريين فى شهرسبتمبر سنة ١٨٨١ وقد قرن هذا الخضوع بالعزم الأكيد على عدم عودة الاستبداد والاحكام الظالمة التى أورثت مصر الذل ، وبالالحاح على الحضرة الخديوية بتنفيذ ما وعدت به من الحكم الشورى واطلاق عنان الحرية للمصريين ويطلبون منهـــا الاستقامة وحسن السلوك فى جميع الأمور وهم يساعدونه قلبا وقالبا كما انهميحذرونه من الاصغاء الى الذينيحسنون اليه الاستبداد والاجحاف بحقوق الأمة

ثالثا : رجال هذا الحزب يعلمون ان استمرار المراقبــة الأوربية هى الكفالة العظمى لنجاح أعمالهم مع قبولهم تلك الديون الأجنبية حرصا على شرف الأمة ، وان كانت تلك

(١) نشرنا مقتبســات مهمة من هذهاللائحة لطولها

الأموال لم تصرف في مصلحة مصر ، بل صرفت فيمصلحة حاكم ظالم كان لا يسأل عما يفعل

ثم انهم يرون ان النظام الحالى لم يكن الا وقتيا والا فانهم يؤملون أن يستخلصوا ماليتهم من أيدى أرباب الديون شيئا فشيئا حتي يأتي يوم تكون مصر فيه بيد المصريين وهم لا يخفى عليهم شيء من الخلل الحاصل فى المراقبة ومستعدون لاذاعته فانهم يعلمون ان كثيرا من المستخدمين في قلم المراقبة لا يقدرون على القيام بوظائفهم ولا يراعون حق الشرف والاستقامة

رابعا : رجال الحزب الوطني يبتعدون عن الاخلاط الذين شأنهم احداث القلاقل في البلاد ، اما لمصلحة شخصية تحسنن بها أحوالهم أو خدمة للاجانب الذين يسوءهم استقلال مصروهؤلاء الاخلاط كثيرون في البلاد، والمصريون يعلمون ان الصمت على حقوقهم لا يخولهم الحرية فى بلاد ألف حكامها الاستبداد ، وكره الحرية ، فان اسماعيل باشا لم يمكنه من الظلم والاستبداد الا سكوت المصريين ، وقد عرفوا الآن معنى الحرية الحقيقية فى هذه السنين الأخيرة فعقدوا خناصرهم على توسيع نطاق التهذيب ورجوا أن يكون ذلك بوساطة مجلس الشورى (الذى انعقد حينذاك) وبوساطة حرية المطبوعات بطريقة ملائمة وتعميم التعليم ونمو المعارف بين أفراد الأمة

خامسا : الحزب الوطنى حزب سياسى لا دينى فانه مؤلف من رجال مختلفي الاعتقاد والمذاهب ، ومن يحرث أرض مصر ويتكلم بلغتها منضم لهذا الحزب

سادسا : آمال هذا الحزب محصورة فى اصلاح البلاد ماديا وأدبيا ولا يكون ذلك الا بحفظ الشرائع والقوانين وتوسيع نطاق المعارف واطلاق الحرية السياسية التى يعتبرونها حياة للأمة

وزارة محمود سامى البارودى

سقوط وزارة شريف باشا

مر بنا الكلام على ما كان من تفاقم الخلاف بين مجلس النواب ومجلسى النظار فيما يتعلق ببنـــود الميزانية من اللائحة الاساسية وقلنا ان اشتداد هذا الخلاف كان سببا فى استعفاء وزارة شريف ثم أرجأنا اتمام الكلام على سقوط هذه الوزارة الى أن نفرغ من ايراد أهم الأمور التى جرت فى عهدها مما جاء مثبتاً فى الفصل السابق فهاك الآن بقية البيان

يوم الثلاثاء الواقع فى ١١ ربيع أول سنة ١٢٩٩ أعاد مجلس النظار اللائحة الأساسية بافادة مآلها ان وكيـلى الدولتين فرنسا وانجلترا يريان أن لا حق لمجلس النواب فى تقرير الميزانية ، ولكنهما مع ذلك يقبلان المخابرة فى هذا الشأن بشرط أن يستقر الاتفاق بين النواب والحكومة على سائر بنود اللائحة

وبناء على ذلك طلبت الحكومة من النواب أن يصدقوا على اللائحة، كما عدلها مجلس النظار ، وأن يترك البند المتعلق بالميزانية ، وأن يبدى النواب رأيهم النهائى فى أمر الميزانية لتجعله الحكومة أساسا للمخابرة مع الدولتين

فلما وصلت هذه الافادة مع اللائحة الى النواب اجتمعوا فى منزل محمد سلطان باشا رئيس المجلس المذكور فقضوا عدة ساعات فى التداول والتشاور وقرروا فيها عدم قبول افادة الحكومة المذكورة.

وفى ١٢ ربيع أول سنة ١٢٩٩ عقدوا مجلسا غير عادى تقرر فيه احالة اللائحة والافادة المذكورتين الى اللجنة التى

كانت مكلفة بتنقيح اللائحة وأن يشترط على هذه اللجنة اعادة النظر فى اللائحة وتعديلها وتقديم الجواب على الافادة قبل ظهر يوم -١٣- منه فاستمرت اللجنة الى ما بعد الغروب تقرأ التغييرات وتطالع التعديلات التى أدخلها مجلس النظار على اللائحة فصدقت على بعضها وأبت الموافقة على البعض الآخر

وفى صباح يوم الخميس عين النواب لجنة منهم مؤلفة من خمسة عشر عضوا لتتوجه الى الخديوى طالبة انفاذ ما قرروا واستعفاء الوزارة فمرت فى طريقها على منزل شريف باشا ، وطلبت منه جوابا نهائيا ، فأبى فذهبت الى الخديوى ، وسألته اما قبول اللائحة أو تغيير الوزارة ، فأمهلها الى صباح السبت وانصرفت

ثم ذهب شريف باشا وقنصلا الدولتين الى الخديو وكان شريف باشا مصرا على موافقة رأى القنصلين المذكورين ، ولم يوافق على لائحة النواب ، فاستعفى فى الحال

وزارة محمود سامى

فاستدعى الخديو لجنة النواب وكلفها أن تختار رئيسا للوزارة فامتنع أعضاؤها وقالوا ان هذا من حقوق الجناب الخديوى ، فألح عليهم كثيرا ، ولكنهم ثبتوا على الامتناع وانصرفوا

وفى صباح يوم الجمعة الموافق ١٤ ربيع الأول سنة ١٢٩٩ طلبهم الخديوى اليه وكلمهم مكررا عليهم تعيين من يختارونه لرئاسة النظار ، فلم يعدلوا عن المسلك الذى سلكوه بالأمس ، وأخيرا قالوا اننا نريد وزارة تنفذ لائحة النواب ، فعين محمود سامى باشا وأظهروا الرضاء والاستحسان فاستدعاه الخديوى اليه وقلده الرئاسة وكلفه أن يؤلف الوزارة فجاء منزله وعقد مجلسا مؤلفا من لجنة

النواب وجرت المذاكرة بينه وبينهم فوقع الاختيار على الأشخاص الآتية أسماؤهم :

محمود سامى باشا : للرئاسة والداخلية ـ أحمد عرابى بك : للجهادية والبحرية ـ على صادق باشا : للمالية : مصطفى فهمى باشا : للخارجية ـ عبد الله باشا فكرى : للمعارف ـ سليمان باشا أباظه : للحقانية ـ حسن باشا الشريعى : للاوقاف ـ محمود فهمى بك : للاشغال

وقد أعلن ذلك للقناصل رسميا (١)

وقد اجتمع عقب ذلك ضباط الجيش فى سراى قصر النيل، وأظهروا الفرح والسرور بالوزارة الجديدة، وشكروا الخديو على ذلك ، وهنأوا محمود سامى باشا برئاسة النظار ، واطمأنت قلوبهم بتقليدنا وزارة الجهادية والبحرية

ثم قام السيد عبدالله نديم وخطب خطبة فى ثمرة الاتحاد ونتيجة التحالف والتعاون والحرية المعتدلة وحب الوطن وكان لذلك احتفالات عظيمة . ووفد على الخديو وفد من أهل الاسكندرية فرفعوا اليه شكرهم وأعربوا عن سرورهم بما حدث من تأليف وزارة وطنية حرة ثم ورد من وجوه دمياط وأعيانها جميعا عريضة للخديو ومحضر لرئاسة النظار وآخر لرئيس النواب يظهرون فيها انهم ونوابهم يد واحدة وفكر واحد ويشكرون للخديو انفاذه لرأى النواب وقد استنابوا عنهم فى تقديم تلك المحاضر الشيخ أمين أبو يوسف ، وبعد أن استقر محمود باشا سامى فى منصب رئاسة النظار أرسل منشورا الى جميع المديرين والمحافظين فى الديار المصرية للسهر على الأمن والنظام وسياسة البلاد بالعدالة والمصلحة

وفى يوم الاثنين الواقع فى ٦ فبراير سنة ١٨٨٢ عقد

---

(١) يلى ذلك الخطابات الرسمية لتأليف الوزارة بين الخديو ورئيس الوزراء ، وهى موجودة فى مصادرها فلا حاجة لذكرها هنا

مجلس النظار جلسة دارت المذاكرة فيها على لائحة النواب وفي يوم الثلاثاء ٧ منه وفد على مجلس النواب ناظر المعارف وناظر الاوقاف وقدما اللائحة كما استقر عليها رأى مجلس النظار فقبلها النواب قبولا اجماعيا وصدر قرارهم بذلك ·

وفي يوم الأربعاء ٨ فبراير حضر رئيس النظار محمود سامي باشا الى مجلس النواب ومعه اللائحة مقررة فقوبل فيه بالتعظيم ، وسر النواب بنفوذ رأيهم فشكروا الوزارة الجديدة على ذلك ثم وقف محمود سامي باشا وألقى خطابا جامعا قوبل بالموافقة والتأييد

فقام سلطان باشا رئيس المجلس وأجاب على خطاب رئيس الوزراء سامي باشا فبين فوائد الاتحاد والألفة والغيرة والهمة وشكر للوزارة تلبيتها لمجلس الأمة في تقرير لائحته الاساسية

وبعد ذلك انطلق النواب الى الخديو فشكروه على تشكيل الوزارة التي لبت الأمة الى ما طلبت ثم آبوا الى رئاسة النظار فشكروا أيضا للوزارة اهتمامها بأمر مجلسهم ثم زاروا كل ناظر في نظارته وبعد ذلك انصرفوا مستبشرين

وبعد التصديق على لائحة مجلس النواب أقيمت الاحتفالات العديدة سرورا بالتصديق عليها فاحتفلت جمعية المقاصد الخيرية احتفالا اجتمع فيه النظار والأمراء والعلماء وضباط الجهادية وأعيان مصر وشبانها حتى ضاقت قاعة الحفلة بالحضور فقام السيد عبد الله أفندى نديم وافتتح الخطابة فاقتدى به كل من أديب أفندى اسحاق اللبناني وابراهيم أفندى اللقاني ومصطفى أفندى ماهر (مصطفى ماهر باشا) والشيخ محمد عبده والسيد حسن أفندي الشمسي وفتح الله أفندى صبرى واستمرت الخطب تتلى في تلك الحفلة الى الساعة الثالثة بعد نصف الليل · وأقيمت عدة حفلات أخرى في مدن القطر

انصاف ضحايا الحرب

بعد أن أسند الى مسند نظارتى الجهادية والبحرية شرعت فى تنفيذ القوانين والاصلاحات العسكرية الجـــديدة التى صدر الأمر الخديوى باعتمادها واعتبارها قانونا فابتدى بصرف استحقاق ورثة المتوفين فى الحروب وغيرها الذين لم يلتفت الى شكواهم من أمد بعيد تنفيذا لقانون المعاشات الجديد ، وبذلك فتحت بيوتا كثيرة بعد أن أخنى على أهلها الدهر ، ووقعوا فى الفقر المدقع والاحتياج الشديد

ولما كانت القوانين واللوائح المصرية حبـــرا على ورق لا حياة لها ، بل هى تموت بمجرد جفـــاف مدادها شأن الحكومات المستبدة فقد أصدرنا أمرنا بتأليف لجنة عسكرية من أعضائها قاسم بك فتحى حكيمباشى الجهادية وغيره من الأطباء لفرز الضباط العاملين والمستودعين لمعاملتهم بحسب ما نص بقانون المعاشات فأتمت اللجنة عملها وقدمت كشفا لديوان الجهادية بشأن نحو ثلثمائة ضابط تجاوزوا السن المحدد لكل رتبة فى القانون المذكور ، وفيهـــم كثير من شيوخ الترك والجركس فأحيلوا جميعا على المعاش

مؤامرة الضباط الجراكسة

فى ١٠ جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ أخبرنى طلبه باشا عصمت حكمدار اللواء الأول بأن راشد أفندى أنور أخبره بأن بعض ضباط الجراكسة تحالفوا على إغتيال حياة ناظر الجهادية ورؤساء الضباط الوطنيين وجميع النظار ، ثم ذكر أسماء بعض المتآمرين ، وحيث ان راشد أفندى هذا ثقة فيما يرويه، وانه مشهور بالصلاح والتقوى، عرضت الأمر على هيئة النظار ، ثم على الخديو ، فتقرر لزوم تحقيق هذه المؤامرة فى مجلس حربى

وبناء على ذلك تألف مجلس حربى من عشرين عضـــوا

منهم : مرعشلى باشا ومحمد رضا باشا وخورشيد طاهر باشا تحت رئاسة الفريق راشد باشا حسنى الجركسى وقد اخترته رئيسا لهذا المجلس لاعتداله ونزاهتـــه وصلاحه وتقواه ، حتى يكون التحقيق خاليا من الأغراض وتكون الأحكام عادلة لا يشوبها شىء من الظلم.

ثم شرع المجلس فى التحقيق بسؤال من علمت أسماؤهم فدلوا على ١٨ ضابطا مشتركين معهم فى المؤامرة ، فأمر المجلس بالقبض عليهم ، لاستنطاقهم ، وفى خلال القبض عليهم وجد مع بعضهم آلات نارية غير الاسلحة الأميرية ، وهؤلاء اعترفوا باشتراك غيرهم معهـــم فى تلك المكيدة ، وعرفوا عنهم وفى جملة الذين عرفوا عنهم عثمان باشارفقى الذى كان سببا فى كل هذا الشقاء ، ويوسف بك نجاتى، ومحمود بك فؤاد

وفى ٢٠ من الشهر المذكور بلغ عدد الذين قبض عليهم بارشاد بعضهم أربعين رجلا ونيفا وبسؤال يوســـف بك نجاتى وغيره اعترفوا بأن راتب باشـــا هو المؤسس لتلك المؤامرة فى بيت أحمد أفندى راشد الملازم أول بحـــارة الروزنامجه القديمة بحضور كل من محمود أفندى طلعت الملازم ، ويوسف بك نجاتى أميرالاى سوارى ، ومحمـــد أفندى نيازى وأمين أفندى شكرى ، وسليم أفندى شوقى اليوزباشى ، وعمر أفندى رحمى المعاون بضبطيـــة مصر ، ومحمد افندى شفيق الملازم ، ومحمد أفندى فؤاد الملازم بالمخالفات ، وأحمد أفندى فهيم الملازم ، وخليـــل أفندى حسنى الملازم ، ورشوان أفندى نجيب الملازم أول ، وأحمد أفندى وصفى الملازم بالمخالفات • وانهم تحالفوا على المصحف الشريف وجعلوا مقصد الجمعية سرا لا يطلعون عليه الأصاغر فى أول الأمر

ثم اجتمع محمود أفندى طلعت البكباشى (شقيق راتب

باشا) وأفهموا الاصاغر من الضباط الجركس انهم سيقدمون تقريرا الى الخديو يطلبون به بعض حقوق ليس الا وأخفوا عنهم المقصد الاعدامي ، وعلى هذا تناقلوا الكلام فيما بينهم حتى بلغت الجمعية مائة وخمسين رجلا جمعت أسماؤهم بقائمة سلمت لاحمد أفندى راشد صاحب المنزل الذى تجتمع فيه الجمعية وهو الذى كان يختم عليها ، غير ان السر الحقيقى كان خفيا ، حتى توجه خليل أفندى حسنى من الاسكندرية الى العاصمة فجمع جملة من الضباط وقال لهم انى كنت عند على باشا شريف ، وقال لى اهتموا ونحن نساعدكم (كذا) ثم صاروا يجتمعون بمنزل عبد الله أفندى الكردى البكباشي ورجب أفندى ناشد البكباشي وقد انضم اليهم حسن أفندى حلمى الكردى البكباشي وعلى أفندى ناصف الصاغ المصرى وسليم أفندى صائب اليوزباشي المصرى الذى كان من ضمن التسعة عشر ضابطا المتآمرين من ضباط الآلاى السودانى . وتكلموا فى تأسيس الجمعية وانتشارها ثم اتفقوا على اجتماعهم ليلة جمعة يعينون فيها رجب أفندى ناشد البكباشى الجركسى وحسن أفندى حلمى البكباشي الكردى وعبد الله الكردى البكباشي رؤساء منوطين برأس كل واحد منهم خمسين رجلا يحلفهم على انهم يكونون روحا واحدة وجسدا واحدا ، اذا قتل أحدهم قاتل الجميع على دمه ، حتى يموتوا ، فاذا اتسع نطاق الجمعية ونجحت أعمالها، عينت الرؤساء من ذوى الرتب السامية مثل محمود بك طاهر ومحمد بك نجيب ومحمد بك شوقى . وهكذا كلما عظمت ، فوضت الرئاسة الى عظيم من الذوات . ثم قالوا ان على باشا شريف معضد لهذا الحزب ومؤيد له ، وتكلموا مع كثير من الضباط بهذا السر ثم اتفقوا جميعا على الاجتماع فى مقام السيدة زينب رضى الله عنها ليتحالفوا هناك على اجراء أعمالهم واظهار السر الخفى ، وهو اعدام

من يعارضهم أو يوقف حركتهم ، خصوصا ناظر الجهادية (أحمد عرابى) اذا عارضهم فى مقصدهم • ثم قالوا ان عبد الله أفندى الكردى عرضت عليه رئاسة الجمعية ، فقال ان قلبه يرتجف من هذا الاجتمـــاع ، ويخشى أن يكون كاجتماع التسعة عشر ضابطا اذ كان واحدا منهم ، فأبى لذلك قبول الرئاسة الا اذا تمكنت الجمعية من انفاذ أغراضها وعظم شأنها ، فانه يمكن اذ ذاك أن يســتحضر لهم قدر اربعمائة أو خمسمائة من الباشبوزق بواسطة حسين بك القرهشوللى ، وبعد ذلك تداولوا فى أخبار بعض الذوات بمقصدهم ، ليكونوا معهم ، فتوجه عبد الله أفندى الكردى ، وبعد أن زار كثيرين فى بيوتهم حضر وقال ان الذوات لم يستحسنوا هذا العمل ، ثم انفصـــل عن الجمعية وكادت تنحل عروتها لولا حضور رجب أفندى ناشد ، وحســن أفندى حلمى المذكورين ، وجمعهما أعضاء الجمعية ، الذين عقدوا الجلسة فى منزل أحمد أفندى فهيم حيث اتفق الجميع على انهم يأخذون من تكلموا معهم الى مقــام السيدة زينب ليطلعوهم على السر الاعدامى ويتحالفوا على ابرازه .

هذا ملخص ما ذكر عن اعتراف الجميع بالجلسة العلنية التى عقدت بحضورهم جميعا بعد أن سئل كل منهم عــلى انفراده .

ثم صدر حكم المجلس الحربى فى ٣٠ ابريل سنة ١٨٨٢ على الضباط وعددهم ٤٠ ضابطا فى جملتهم عثمان باشا رفقى بالنفى المؤبد الى أقاصى السودان مع التجــريد من الرتب العسكرية والامتيازات ونياشين الافتخار على شرط أن يكونوا متفرقين فى الجهات التى ينفون اليها ولا يجوز أن يكونوا فى مركز الحكمدارية وصدر الحكم كذلك على اثنين من الملكية بالنفى على الصورة التى تقدم بيانها مع التجريد من الحقوق المدنية .

وحكم على راتب باشا الذى عد محركا لهذه القضية بالتجريد من الرتب العسكرية والامتيازات والنياشين وعدم العود الى مصر واذا عاد فينفى على مقتضى الصورة السالفة

وقد اعتبر ان الخديو السابق (اسماعيل) هو الباعث على هذه الحركة مستعينا فى بثها بالمرتبات التى تصرف له من خزينة الحكومة ، فلذلك تقرر أن يكون للخديو ولمجلس النظار النظر فى أمر قطع مرتباته أو تقليلها ثم رفع هذا الحكم لمجلس النظار ثم للخديو للتصديق عليه

وحيث أنى أرى تأليف القلوب خيرا من التفريق بين أعضاء الأمة والانتفاع بأولئك الضباط اذا ثابوا لعقولهم خيرا من فقدهم فى فيافى السودان المحرقة ، فقد توسلت لدى الخديو أن يبدل هذه الأحكام بأن يرسلوا الى الآستانة العلية ثم بعد مدة وجيزة يصدر عفو الخديو عنهم ، ويعودوا الى أولادهم ووطنهم الذى اتخذوه وطنا لهم ، فعجب الخديو والنظار لتلك الشفقة المتناهية، وصدر الأمر الخديوى بنفى المحكوم عليهم من القطر المصرى مع الترخيص لهم بالتوجه انى يشاءون برتبهم ونياشينهم ، فشكرت الخديو على قبول التماسى فى تلطيف الحكم عليهم ، ولم يذكر فى هذا الأمر شىء عن راتب الخديو السابق

وبناء على الأمر الخديوى صار ارسالهم جميعا الى الآستانة العلية برتبهم وامتيازاتهم ونياشينهم . وهناك شملتهم العناية السلطانية وأسكنتهم فى سراية ملوكية وأغدقت عليهم بالنعم الشاهانية والمرتبات الواسعة على نفقة الجيب السلطانى من وقت وصولهم الى أن صدر أمر الخديو بعودتهم الى مصر بعد تغلب الانجليز على المصريين

وبسبب هذه الحادثة حملت علينا الجرائد الانجليزية وخصوصا جريدة التيمس حملة منكرة ونسبت الينا اننا

كنا نعذب اخواننا بلا رحمة ولا شفقة فأرسلت الى بلاد الانجليز رسالة عن يد صديقنا المستر بلانت لنشرها في بلادهم اظهارا للحقيقة وازهاقا للباطل وسميتها اماطة الباطل عن وجه الحق المبين وهاك صورة الرسالة المذكورة محررة فى جزيرة سيلان بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٨٨٤ :ـ

« قد بلغنى ممن أثق بقوله ان أحد مخبرى الجرائد الانجليزية بمصر قد أعماه الذهب المصرى ، وأضله عن طريق الحق ، ولا ريب فى أن الذهب المصرى يعمى ويصم ، فبعد أن أفعم جيوبه من الذهب الوهاج ، وأفاض منه على أخيه وعائلته (بلوندرا) أوعز الى أخيه بأن يؤلف من الأباطيل كتابا يكون موضوعه تحسين أعمال الخديوى وتقبيح أعمالنا الوطنية الحقة، وينشر ذلك الكتاب المفترى ، ليستر بأباطيله وجه الحق عن بصائر نصراء الانسانية ، فألف أخوه كتابا وعنونه بعنوان (الخديو والباشوات) ، ولم يجد من المفتريات شيئا يذكره أكبر من كونه ينسب لنا أننا كنا نعذب الجراكسة فى مدة تحقيق قضية المؤامرة الجركسية بأنواع العذاب

« وبناء على ذلك رأيت من الواجب الضرورى أن أمزق ذاك الحجاب المظلم الذى كاد أن يكون مانعا بين نور الحق ونور البصائر ، فحررت رسالتى هذه رجاء عدم الاغترار بخزعبلات من لا حظ لهم فى الانسانية وسميتها « اماطة الباطل عن وجه الحق المبين »

الجراكسة

« الجراكس طائفة من الناس يعيشون بجبال القوقاز بآسيا بين بحر الخزر والبحر الاسود ، وهم موصوفون بالتوحش والخشونة ، وديانتهم الاسلام ، فهم بحكم الشرع اخواننا فى الدين . وبحكم الانسانية اخواننا فى الانسانية .. والشرع الشريف الاسلامى يحرم بيعهم واسترقاقهم ، ويدخل فى ذلك التحريم وطء نسائهم بطريق الاستعباد، لكن أمراء المسلمين الذين تغلبوا على البلاد كانوا جهلاء بأحكام الشرع فاستهانوا باحكامه ، ولزيادة ثروتهم ونفوذ كلمتهم اتبعوا الشهوات وتجرأو على اباحة ما حرم الله تعالى ، وأدتهم شراهتهم الحيوانية الى مشترى أولاد الجراكس ، وبناتهم ممن يسرقونهم من بلادهم . ولما كانت بنات الجراكس موصوفات بالجمال الفائق ورقة الطبع فقد وجدوا حظوة فى أعين أولئك الامراء، الذين استحلوا عفتهن المحرمة عليهم شرعا بدعوى انهن ملك ايمانهم . ثم بعد ذلك دعوهن سيدات أسلموا اليهن قيادة أنفسهم . وأما الذكور فقد اتخذوهم غلمانا أرقاء وعلموهم قليلا من القراءة والكتابة التركية والعربية فلما كبروا وشاخوا فى خدمة الممتلكين لهم أدخلوهم فى خدمة الحكومة بدون استعداد ولا معرفة ثم رقوهم الى الدرجات العالية والمناصب الرفيعة

بطريق الاحسان لا بطريق الاستحقاق ثم زوجوهم بنساء من فتياتهم (المملوكات) واحسنوا عليهم بالسرايات الرحبة العالية والاراضى الواسعة الخصبة ولا زالوا كذلك حتى تولوا اكبر وظائف الحكومة وصاروا ذوى ثروة عظيمة واشتروا الجوارى الحسان والغلمان من بنى جنسهم الجركس وفعلوا بهم كفعل ساداتهم الاول بهم ، فما تسمع باسم وزير الا وتجده مملوك الاصل وما ترى باشا او بك او رئيسا أو مديرا الا وهو مملوك جركسي أو رومي ، وما ترى قصورا مرتفعة الا وهي للمماليك ، ولا أرضا خصبة واسعة الا وهى للمماليك . كل ذلك ليستعين أولئك الامراء المتغلبين بهم على قهر أهل البلاد الخاضعة لهم واذلالهم ، حتى يتمكنوا من سلب أموالهم ونزف ثروتهم . فلما علمت الجراكسة الذين بجبال قافقاسيا أن ابناءهم صاروا رؤساء تلك الممالك ، فرحوا بذلك واتوا بأولادهم وبناتهم يلتمسون بيعهم رجاء الانتفاع بهم اذا بلغوا الى ماتقدم من الثروة والنفوذ. وهذا أمر مشاهد لا ينكره الا مكابر

« وعلى مقتضى ماذكر يكون المماليك هم الاحرار المالكين ، بل المستعمرين. لاهل البلاد ، وأهل البلاد الذين يقال عنهم أنهم أحرار هم العبيد الارقاء لأولئك المماليك ، فانعكست المرئيات حتى صار يتخيل أن الخير شر وأن الشر خير ، ولا حول ولا قوة الا بالله . ومن الغريب أن عقلاء الناس ونصراء الانسانية ينكرون بيع الفريق المتوحش من الانسان واسترقاقه ، ولا ينكرون استرقاق الاحرار للمتغلبين عليهم من الامراء والمماليك

امراء الحكومة المصرية

« امراء الحكومة المصرية هم عنوان تلك المنكرات ، وبجهلهم بأحكام الشرع الشريف وميلهم للشهوات النفسانية وشدة طمعهم تأنقوا فى سلب ما فى أيدى الناس ، واقتنوا المماليك وملكوهم زمام المصالح المصرية والسودانية ، وبهم استعبدوا أهل البلاد وسلبوا أموالهم ونزفوا مادة ثروتهم وقتلوا كثيرا من أعيانهم وخربوا كثيرا من بيوتهم حتى تحملت الخزينة المصرية من سوء ادارة أولئك الجهلاء الظالمين مائة مليون من الجنيهات الاسترلينية دينا للاوربيين واثنين وعشرين مليونا دينا للاهالي الوطنيين (المقابلة ١٧ والاسهم ٥ ملايين) . فما كان منها للاوربيين فهى مأخوذة به ومحاسبة عليه ، وما كان للوطنيين لقد ذهب هباء منثورا . يعلم ذلك كل من اطلع على قانون التصفية المصرى . فلما اشتد الخطب على الناس اخذوا يلتمسون لهم طريقة توصلهم الى الخلاص من أيدى أولئك الظالمين

وما زالت افكار نبهاء الامة تنبعث فى صدور العامة ، حتى تألفت القلوب و[illegible] كلمتهم الوطنية على خلاص أنفسهم وبلادهم بتعديل القوانين لحفظ الارواح والاعراض والحقوق المدنية . وكنت انا القائد لتلك الامة

-العظيمة في الافكار والاعمال فسرت بهم سيرة مرضية قصدت بها رفع الامة المصرية من هاوية الذل والهوان الى أوج السعادة والرفاهية بدون سفك قطرة دم مع المحافظة على مسند الخديو وسن بعض القوانين الجديدة التي من أحكامها وجوب المساواة بين العموم بدون مراعاة الجنسية ولاالفرق بين المصرى والتركي والجركسى بصرف النظر عن اختلاف المذاهب والنحل الدينية . يشهد بذلك ما حصل من الترقي لبعض المستحقين من الاقباط المصريين ، ومنهم من ترقي الى رتبة الباشا في تلك المدة واسمه بطرس باشا غالي ، على أن الاقباط في مصر كانوا مهانين مثل المسلمين ولم يبلغ أحد منهم رتبة الباشا الى ذلك التاريخ أصلا . وكذلك ما حصل من الترقي للمستحقين من الترك والجركس وغيرهم بدون فرق ولا تفاوت . واجتهدت في رد المظالم الى أهلها ونشر راية الحرية على أطلال الاقطار المصرية والسودانية مع المحافظة على المعاهدات الدولية . .واقمت نفسي حافظا عموميا لجميع الاجانب الاوربيين حتى يكونوا آمنين على ارواحهم واموالهم يشهد بذلك ما حررته لوكلاء الدول الاوربية وما تعهدت لهم به بحضور الخديو ودرويش باشا المندوب العثماني (١) »

٢٦ مايو ١٨٨٢ — احمد عرابي المصري

مؤامرة انجلترا وفرنسا

لما رأت دولة انجلترا نجاح الحزب الوطني في أعماله وعلمت بتأليف وزارة وطنية حرة وان تلك الوزارة صادقت على قانون مجلس النواب الأساسي ولائحة انتخاب أعضائه وصدر الأمر الخديوى بالتصديق عليهما ، كبر عليها هذا الأمر واستمالت اليها دولة فرنسا للاستعانة بها على اطفاء نور الحرية وطمس آيات العدالة التي ظهرت في وادى النيل الذى هو مطمح أنظار الدولتين المذكورتين منذ القدم

وبما ان الخديوى رمى بنفسه في أحضان الانجليز سرا قبيل عزل اسماعيل باشا لأنه كان متخوفا من والده واخوته ، وذلك بمقتضي عهد أخذ عليه مقتضاه أن يكون

---

(١) ذكر عرابي باشا في هذه الرسالة تفصيل المؤامرة الجركسية . وقد سبق ذكرها . ولهذا آثرنا حذفها

لانجلترا النفوذ الأول في الحكومة المصرية ، وان الخديوى لا يخالف لها أمرا • وعلى الحكومة الانجليزية أن تحفظ حياته وبلاده من الداخل والخارج • أوعز اليه السير «مالت» قنصل جنرال انجلترا أن يستنجد بالانجليز ليعيدوا له سلطته الاستبدادية ففعل •

وحينذاك اتفق اللورد «جرانفيل» ناظر خارجية الإنجليز مع المسيو « جمبتا » ناظر خارجية فرنسا على أن فرنسا تطلب من الانجليز التداخل فى المسألة المصرية بارسال أسطول مؤلف من سفن انجليزية وأفرنسية فطلبت ذلك ووافقت انجلترا على طلب فرنسا المخدوعة بسياسة «جمبتا» الذى باع مركز فرنسا فى مصر بثمن زهيد جدا مهما عظم

وبناء على ذلك ورد من باريس ان المسيو «دى فريسينيه» رئيس وزراء فرنسا اذ ذاك صرح فى جواب ألقاه على سؤال ان فرنسا تود حفظ استقلال القطر المصرى على الصورة المؤيدة بالفرمانات العديدة بحيث لا يطرأ عليه أقل تغيير وان اتحاد فرنسا وانجلترا يؤيد هذا الاستقلال • ثم قال ان الحوادث ربما تستلزم اتفاق جميع الدول الأوربية لتسوية المسائل المصرية ، ولكن بما أن الدول تعترف لفرنسا وانجلترا بأفضلية المصالح فى ذلك القطر فسيكون من الواجب عليهما أن يديرا سياستهما بحزم وثبات

وعلى أثر ذلك شاع ان سيأتى الى الاسكندرية أسطول فرنساوى وآخر انجليزى وان الباب العالى سيرسل الى مصر وفدا مؤلفا من بعض رجال الدولة وان الدول وفى مقدمتها الدولة العلية ستتداخل بالفعل فى أحوال مصر فأوجس الناس من هذه الأخبار خيفة ، وأيقنوا بقرب تعاظم المشاكل ودخول مصر فى طور جديد

ثم ورد تلغراف من باريس ينبىء ان الأسطول الفرنسوى الذى سافر من بيره على مقربة من جزيرة كريد سيجتمع

بالاسطول الانجليزى الآتى من كورفو ثم يسير الاثنان الى القطر المصرى ، فكان ذلك مثبتا للأنباء السابقة .

ثم ورد تلغراف من الآستانة يعلن ان الباب العالى أرسل الى الدول منشورا يعترض فيه على ارسال الدوارع الأجنبية الى القطر المصرى استنادا الى أن الأحوال الجارية اذ ذاك فيه لا تدعو الى مثل هذا التدخل ، فضلا عن انه يجب أن يعهد فى ذلك الى الدولة العثمانية

وفى ١٥ مايو سنة ١٨٨٢ وفد السير ادوارد مالت والمسيو سنكوفيش قنصلا فرنسا وانجلترا على الخديو لإخباره بصفة رسمية عن قدوم الاسطول وانه يصل الاسكندرية فى صباح ١٧ منه . ثم نشر السير مالت منشورا بعث به الى قناصل حكومته فى القطر المصرى يخبرهم فيه بما كان ويبين لهم السياسة التى يجب أن يتبعوها ويعلمهم ان وصول السفن ليس فيه ما يوجب تكدير العلائق ، فان قدومها انما هو بطريق المسالمة وبصفة ودية

وفى ١٩ مايو وفدت على ميناء الاسكندرية دارعة انجليزية . وفى ٢٠ منه دخلها دارعتان انجليزيتان وفى ٢١ منه دخلها سفينتان حربيتان ، وعلم فى ذلك اليوم ان كلا من الدول الأوربية (ما عدا انجلترا وفرنسا) سترسل سفينة أو اثنتين الى المياه المصرية على غير اشتراك مع الاسطولين الفرنسوى والانجليزى

سقوط وزارة محمود سامى

وبعد قدوم الاسطولين جاء قنصل فرنسا الجنرال منزل رئيس النظار وأعلن له طلب الدولتين فاستدعى الرئيس زملاءه النظار وتشاوروا فى الأمر وبعد المداولة اتفق رأيهم على أخذ رأى الخديوى فى هذا الحادث الجلل فتوجه اليه رئيس النظار محمود باشا سامى وناظر الخارجية مصطفى

باشا فهمي وأخبراه بما حدث ، فأجاب انه ينتظر في هذا الشأن تعليمات ترد اليه بعد يوم أو يومين ، وأخـــذت المخابرات بعد ذلك تجرى بين القنصلين والوزارة

وورد في جريدة التيمس حينذاك ان ارســال الدوارع إلى مياه مصر لم يقصد به الا تعزيز الخديوى وتأييدسلطته، فأول شيء يجب اجراؤه هو حمل عرابى باشا على التنحى عن الادارة والسياسة وقلب الوزارة ، واذا لم يكف ارسال الدوارع لبلوغ الغاية ترتب على ذلك استخدام القوة لاكراه عرابى باشا وأعوانه على تنفيذ مطالب الدولتين • ويتمذلك بارسال بعض الجنود الىالقطر المصرى ومجانبة لمساستقلال مصر يجب أن تكون تلك الجنود جنودا عثمانية ، واذا تمرد المصريون عليها عدت مصر عاصية على الدولة ، فيتـــرتب اذ ذاك على الدول أن تنظر في هذا الأمر وهو :

« الى أى حد يقضى بقاء استقلال السلطنة العثمانية على الدول الأوربية بعدم التدخل في المسألة المصرية بالنفوذ والقوة ؟ »

وقد تناقلت الجرائد هــذا المقال وعلقت عليه بالشروح والملاحظات فكان له ولها وقع شديد التأثير في النفوس • وفي خلال ذلك طلب الباب العالى من فرنسا وانجلترا أن تستردا أسطوليهما فأجابتاه انهما لا تسترجعانهما الا بعد أن تعود الى مصر راحتها ويستقر فيها النظام

وفي ٢٥ مايو تقدمت الدولتان الانجليــزية والفرنسية بالانذار الأخير للوزارة المصرية بطريقة رســمية ومضمون هذا الانذار طلب سقوط الوزارة وخروج عرابى باشا من القطر المصرى ، فتضــمن له الدولتان حفظ رتبه ومرتباته ونياشينه واقامة عبد العال باشا حلمى وعلى باشا فهمىفى الأرياف بجهات لا يخرجان منها فتضمن الدولتان رتبهما ونياشينهما ورواتبهما • وطلبت الدولتان تسريح صفوف

العساكر ، فلا يبقى منها الا القدر اللازم لحفظ الحدود القبلية

فلما تلقى النظار هذا الانذار اجتمعوا في منزل رئيس النظار محمود باشا سامي وقرروا بالاتحاد ان هذا الانذار يعتبر تدخلا مغايرا للمحالفات الدولية والحقوق الوطنية ، بل يعد اعتداء محضا ، اذ لا علاقة للدول الأجنبية معنا • ومن الواجب رفضها • ثم رأوا عرض الأمر على الخديو لأخذ رأيه فتوجه اليه رئيس النظار وناظر الخارجية وعرضا عليه قرار النظار برفض الانذار المذكور رفضا باتا ، فأجابهما الخديو بأنه تقدم له نسخة من هذا الانذار وقبله ، فعرضا عليه بأن هذا خلاف عظيم بين الوزارة والخديو يستلزم استدعاء مجلس النواب للنظر في مصلحة بلادهم ، وطلبا من الخديو صدور أمره بجمع مجلس النواب فأبى عليهما ذلك • ثم رجعا وأخبرا زملاءهما بما صمم عليه الخديو ، فقرروا بالاجماع استدعاء مجلس النواب أولا وعرض الخلاف عليه .

وقد عقد مجلس النواب وعرض عليه هذا الخلاف ، ثم قدم النظار استعفاءهم في يوم ٢٦ مايو سنة ١٨٨٢ محتجين على انذار الدولتين فرنسا وانجلترا فقبل الخديو استعفاءهم بفرح وسرور •!!

لا نرضى بغير عرابى

وبعد استعفاء الوزارة أصدر الخديو منشورا الى جميع الجهات وهذه صورته :

« بما ان هيئة النظار الحاضرة استعفت وصار قبول استعفائها ، فليكن معلوما ذلك لديكم لتصرفوا جهدكم واقتداركم فى المحافظة التامة منكم ومن مأمورى المديرية الموكلة لادارتهم وتلزموا الدقة والانتباه لحسن سير الاشغال

والمصالح المتعلقة بكم ، كما انه من حيث ان المراكب الحربية الأجنبية التى حضرت الى الاسكندرية لم يكن حضورها الا بوجه سلمى فقط • ولم يكن هناك شىء آخر خلاف ذلك فليس هناك لزوم لارسال أحد من عساكر الامدادية الذين صار طلبهم أخيرا بمعرفة الجهادية • بل ان الموجود منهم تحت الحضور من البلاد يتنبه بصرف النظر عن حضور، واعلان المراكز والأقسام بالتنبيه على مشايخ وعمد البلاد بهذا المضمون للعلم بعدم الاقتضاء لجمع عساكر ، وانتباه كل لاشغاله وزراعته بدون اشتغال فى غير ذلك • هذا وان الأمور المهمة التى كان قد جرى العرض عنها لنظارة الداخلية يجب أن يعرض عنها من الآن لمعيتنا الى أن تتشكل هيئة نظارة جديدة كما هو مطلوبنا

محمد توفيق »

وفى ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ عقد عند الخديو احتفال عظيم حضره النواب والأعيان والعلماء

وقد خاطب الخديو هذا الجمع العظيم بقوله :

« ان السياسة اقتضت استعفاء الوزارة وقبول انذار الدولتين فرنسا وانجلترا • وانى حفظت لنفسى رئاسة الجهادية وادارة المصالح الادارية لحين تشكيل وزارة جديدة»

وبعد خروجهم جاء للمعية تلغراف من ضباط الآيات اسكندرية بأنهم لا يرضون البتة غير عرابى باشا ناظرا للجهادية ، وان مضت ١٢ ساعة ولم يرجع الى منصبه كانوا غير مسئولين عما يحدث مما لا يستحب وقوعه

حوادث الثورة

خضوع الخديو لانجلترا وفرنسا

انتهى بنا الكلام فى الصفحات السابقة الى قبول الخديو توفيق انذار فرنسا وانجلترا العدائى ، واستعفاء الوزارة محتجة على قبول ذلك الانذار بعد رفضها له ، وبعد استدعائها لأعضاء مجلس النواب ، واستقلال الخديو بادارة البلاد ورئاسة الجهادية ، ومعارضة طلبة باشا عصمت وكبار العلماء ومن حضر من مجلس النواب للخديو ، فلنأت الآن على سرد الحوادث التى أعقبت ذلك الخلاف :

ما طير البرق خبر استعفاء الوزارة واحتجاجها على قبول الخديو لانذار انجلترا وفرنسا حتى بلغ الاضطراب فى جميع بلاد القطر مبلغا عظيما وأخذ القلق من النفوس مأخذا جسيما فكثر اللغط وزادت بواعث الخوف ثم حضر الى العاصمة جميع أعيان البلاد ومستخدمى الحكومة وقدموا لنا مئات من العرائض بواسطة مديريهم محتجين فيها على عمل الخديوى هذا ومتطلبين أحد امرين : اما رفض اللائحة المذكورة ، واما عزل الخديوى الذى قبل تداخل الاجانب فى أحوال البلاد الداخلية

فلما احس الخديو بذلك بعث الى الحضرة السلطانية بالتلغراف يخبرها أن الوزراء استعفوا محتجين على قبول لائحة الدولتين وان الجند غير راض بما حصل . فورد تلغراف من الباب العالى حاصله ان الحضرة السلطانية أمرت بتأليف لجنة عثمانية تأتى الى مصر بعد ثلاثة أيام للنظر فى الحالة

ولما تعاظم الخوف حضر لمنزلى جميع قناصل الدول ما عدا قنصلى انجلترا وفرنسا يطلبون مني التأمين على رعاياهم ، فأجبتهم بأنى قد استعفيت ولا صفة لى تخولنى تحمل هذه المسئولية العظيمة فقالوا ان الجيش لا يخالف ارادتك وانت رئيس الحركة الوطنية ، فلا نأمن على رعايانا وانفسنا الا باعطائك لنا كلمة شرف بحفظ رعايانا ، فلأجل طمانينتهم وتسكين روعهم ، كتبت تلغرافا الى جميع مراكز العسكرية بصفة انى رئيس الجزب الوطنى ، ارغب اليهم فيه أن يلازموا الهدوء والسكينة وأن يحافظوا على راحة الجميع ، وخصوصا رعايا الدول الاجنبية ، وأن يعاملوهم بحسن المعاملة وكمال المجاملة

المطالبة بعزل الخديو

وفى ليلة السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ دعيت الى منزل محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب فذهبت اليه ومعى اخوانى على باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى ومحمد عبيد بك وغيرهم من الضباط . فلما وصلنا الى المنزل المذكور وجدناه غاصا بأعضاء مجلس النواب ، ومعهم قاضى قضاة مصر الشيخ عبد الرحمن افندى نافذ والشيخ عبد الهادى الابيارى امام المعية ، وتم الاتفاق على ملازمة الراحة والسكون ، وأن يطلب من الخديو أن يرفض الانذار الثنائى ويأمر برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ، أو يعزل عزلا . وفى اثناء ذلك حضر بحديقة المنزل جماعة من الضباط والنبهاء من الملكية وغيرهم ، وصاحوا بقولهم : « اعزلوا الخديو الذى دعا الاجانب للتدخل فى أمرنا وتهديدنا بأساطيلهم » !

ثم خرجت بمن معى من الضباط وتوجهنا الى منزل محمود باشا سامى فوجدنا كثيرا من الذوات هناك ينتظرون

ما عسى أن يحدث من مخبآت الدهر ، فقابلنا عبد الله باشا فكري الذى كان استاذا ومربيا للخديو فى صغره ، وقال لنا :

ــ هل قتلتموه ؟ !

فقلت له : « من تعنى ؟ » . فقال : « أعنى الخديو .. الم يقتل ؟ » . فقلت له : « اننا لا نقتل احدا بغير حكم شرعى ، فلا يليق بك أن تتكلم بهذا الكلام » . ثم توجه كل منا الى منزله

وفى صباح يوم السبت ٢٧ مايو سنة ١٨٨٢ حضر لى رئيس مجلس النواب سلطان باشا وحسن باشا الشريعى وسليمان باشا اباظة وسلمونى امر الخديو القاضى برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ، واخبرونى بانهم لما وفدوا على الخديو وجدوا جميع القناصل فى حضرته ما عدا قنصلى فرنسا وانجلترا ، وانهم طلبوا من الخديو صدور امره برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية لاجل اطمئنان الجميع، فكان القناصل مع النواب على راى واحد ، وحينذاك فرح الضباط والجنود وجميع الوطنيين

وبعد ذلك توالى اجتماع قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين بالخديو ليلا ونهارا . ثم انى اصدرت منشورا الى قناصل الدول تكفلت لهم فيه بتأييد الأمن والراحة لجميع سكان القطر المصرى وطنيين واجانب مسلمين وغير مسلمين ، وطلبت من الخديو لزوم جمع العساكر لاستكمال الالايات على مقتضى القدر المقرر فى الفرمانات السلطانية ، فاجابنى بالموافقة على ذلك وصدر أمر الجهادية بجمع عساكر الامدادية نمرة ٢ ونمرة ٣ استعدادا لما عسى أن يطرأ من الحوادث

وقد جاء فى الأمر الخديوى الذى صدر برجوعى الى نظارة الجهادية والبحرية ما يأتى :

« ولو انكم استعفيتم ضمن هيئة النظار التى استعفت لكن مراعاة لحفظ الأمن والراحة استصوبنا بقاءكم فى نظارة الجهادية والبحرية ، واصدرنا أمرنا هذا لكم لتعلموه وتبادروا باجراء ما فيه انتظام احوال العسكرية الكافلة لحفظ الأمن العمومي على الوجه المرغوب كما هو مقتضى ارادتنا »

تدخل انجلترا وفرنسا

وردت الى سفيرى فرنسا وانجلترا فى الاستانة أوامر من حكومتيهما بأن يعرضا على الباب العالى أن يتداخل باسم اوربا فى القطر المصري تداخلا غير مطلق بل معين الحدود وأن يكون ابتداء هذا التداخل بارسال مأمور على سفينة واحدة حربية يحض الضباط المصريين على امتثال أمر الخديو والخضوع لارادته ويصدق على تصرفه فى أعماله

فاجتمع الوزراء فى الاستانة ، وتذاكروا فى تدخل الباب العالى فى القطر المصرى وقرروا انه اذا دعت الحاجة الى ذلك فلا يكون التداخل الا بمقتضى سيادة الحضرة السلطانية على القطر المصرى التى تعترف بها اوربا وليس على الوجه المقيد كما عرض السفيران

وثبت أن فرنسا وانجلترا ارسلتا الى الباب العالى مذكرة مشتركة تطلبان بها ان يؤمر عرابى باشا وسائر زعماء الحزب العسكرى أمرا قطعيا بالذهاب الى الاستانة وعرضت فرنسا ان يعقد مؤتمر فى الاستانة يكون أساس أعماله تأييد الحالة المقررة للقطر المصرى فوافقتها انجلترا على ذلك . وطلبت ألمانيا وأوستريا والروسيا وإيتاليا من الباب العالى أن يوافق على لائحة فرنسا وانجلترا . وبلغت حكومة انجلترا الباب العالى أن ما تريده هو نشر العلم العثمانى فى القطر المصرى وارسال المعتمد السلطانى على مدرعة حربية

عثمانية . وأثبت المسيو فريسينيه رئيس وزارة فرنسا في مجلس النواب الفرنسي أن لا شيء يدعو الى تدخل الجنود الفرنسية في القطر المصري لأن اتفاق الدول الأوربية وحده يتكفل بحل المشاكل المصرية على وجه سلمي بدون أن تنشأ المصاعب في مصر وأوضح المستر جلادستون رئيس وزراء انجلترا في مجلس العموم أن انجلترا ترى من الواجب عليها أن تؤيد الخديوي توفيق باشا في منصبه على حسب تعهدها له وتعهده لها ، لما أظهره من أدلة الصداقة والاخلاص الجامعة اليها مظاهر الأمانة ..!

الوفد العثماني الثاني

في ٢ يونيو سنة ١٨٨٢ عين درويش باشا معتمدا عثمانيا ليأتي الى القطر المصري ويحقق تلك التهويلات الانجليزية الفرنسية فسافر من الاستانة ووصل ثغر الاسكندرية في سابع الشهر المذكور على السفينة الشاهانية (عز الدين) ومنها حضر الى العاصمة للنظر في الخلاف الواقع بين الخديو والأمة المصرية

وكان قد اكتمل في مياه الاسكندرية الى ذلك التاريخ عدد من السفن الحربية التي ارسلتها انجلترا وفرنسا وقدمت لها أيضا سفن أخرى مختلطة من سفن الدول لحماية رعاياهم

وكانت مدينة الاسكندرية مكتظة بالناس من الواردين اليها من الأجانب والوطنيين ، فتعاظمت المخاوف وازداد ارتعاد الفرائص بحيث كان الناظر لا يرى الا وجوها علتها صفرة الخوف وقلوبا واجفة تملكها الرعب

طمع الانجليز في وادي النيل

ولما رأينا كثرة تردد السير مالت قنصل انجلترا الجنرال

على الخديو ليلا ونهارا واستسلام الخديو بما يوحى به اليه علمنا أن انجلترا طامحة للاستيلاء على وادى النيل الخصيب عملا بقاعدة التوازن الدولى لتضارع بعملها هذا عمل فرنسا فى استيلائها على ولاية تونس الخضراء ، كتبنا بذلك للحضرة السلطانية وحيث لم يكن لنا واسطة فى الاستانة تبلغ عنا مقاصدنا للسدة الشاهانية اتخذنا الشهم المقدام على راغب قبودان أحد شبان البحرية المصرية رسولا وكلفناه بابلاغ عريضتنا الى الحضرة السلطانية بواسطة الشيخ محمد ظافر شيخ السادة الشاذلية وشيخ الحضرة السلطانية فصدع بالأمر وأوصل الرسالة الى الشيخ المذكور . وكذلك بلغ احمد راتب باشا ما أوصيناه به بعد عودته من مأموريته الحجازية الى دار السعادة

فكتب لنا الشيخ ظافر بما صدر به النطق الشريف وكذلك فعل احمد راتب باشا وكان الحامل لهذين الخطابين السيد احمد أسعد افندى وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانية الذى حضر أخيرا بمعية درويش باشا

الانجليز يوقدون الفتنة

لما كبر على الانجليز نجاح المصريين فى أعمالهم الوطنية ارادوا أن يشوهوا أعمالنا فى نظر أوربا فأخذوا يفكرون فى احداث أمر يوجب التدخل الاجنبى بالقوة الحربية فدعا المستر كوكسن قنصل انجلترا فى الاسكندرية جميع قناصل الدول واظهر لهم أن المصريين فى هياج شديد من وجود الأساطيل الحربية فى الثغر ويخشى من هجوم الرعاع على الأوربيين واخذهم على غرة ، وان الحزم يقضى عليهم بالمداولة فيما يجب اتخاذه من التدابير والوسائل الآيلة الى حفظ ارواحهم ووقاية اموالهم فعقدوا لذلك عدة اجتماعات وأخيرا قرروا باجماع الرأى أن يحشدوا عددا عظيما من

الافرنج وأن يهيئوا له الأسلحة اللازمة ويجعلوه قائما على قدم الاستعداد لدفع الشر عند حدوثه واستشاروا فى ذلك أميرى الأسطولين الفرنسى والانجليزى ، فوافقاهم على ذلك ثم ورد الى دار القنصلية الانجليزية كمية وافرة من الأسلحة والجبه خان ، وعلمت الضابطة بذلك فهاجت الأفكار وتوجس الناس شرا

ثم كتب قناصل الاسكندرية الى القناصل الجنرالية بمصر بما عزم الأوربيون عليه وانفذوا اليهم (بودنكى) قنصل أسوج ونروج الجنرال معتمدا من قبلهم ليعقدوا معهم مخابرة فى هذا الشأن . فلم يفز عملهم هذا بالرضى والاستصواب ولم يحز قبولا بل انكره عليهم أكثر القناصل الجنرالية كما استدل على ذلك من تلغراف بعث به المستر مالت وكيل انجلترا السياسى فى القاهرة الى المستر كوكسن قنصلها بالاسكندرية

وما زال الاجانب يتأهبون ويستعدون لايقاد نار الفتنة والناس فى هرج ومرج وخوف شديد من حادث يطرأ حتى كان اليوم الحادى عشر من شهر يونيو سنة ١٨٨٢

مذبحة الاسكندرية

كانت النكبة مهيأة على نحو ما ذكرنا . وحدث أن رجلا مالطيا من رعية الحكومة الانجليزية ركب حمارا ونزل بجهة قسم اللبان وترك صاحب الحمار من غير أن يوفيه أجره فتعلق به الحمار وطلب حقه فطعنه المالطى بسكين وألقاه صريعا يتخبط فى دمه ، ثم دخل الى منزل هناك ، فاجتمع كثير من الحمارة يريدون ضبط القاتل ، فاطلق عليهم الرصاص من منافذ البيت الذى لجأ اليه ، ثم جاء مالطى آخر وأراد تفريق الحاضرين بضربهم بالعصى فضربوه ، وألقوه على الارض صريعا . ثم تكاثر رعاع الأوربيين ، وضربوا الوطنيين

بمسدساتهم ولما كان الوطنيون عزلا من السلاح دافعوا عن أنفسهم بالعصى ، وكان فيهم الحمارة والحمالون واجتمع عليهم العرب والسودانيون والصعايدة فكثرت الغوغاء واشتد اللجب وعلت الضوضاء وسلت الخناجر وأطلق الرصاص واختلط الوطنيون بالاوربيين ، ولما كثر القتل فى الوطنيين انهالوا على الاوربيين من كل جهة وصوب يضربونهم بالعصى والنبابيت حتى قتلوا منهم نحو مائة نفس وكذلك قتل من الوطنيين بالسلاح نحو هذا العدد . وامتدت الفتنة الى الشارع المعروف بشارع السبع بنات وشارع المحمودية وغيرهما من شوارع المدينة

وكان اكثر الأوربيين متفرقين فى جهات الرمل قصد التنزه واستنشاق النسيم اللطيف هربا من حر المدينة ولم يكن فى المدينة منهم آلا رعاع القوم من المالطيين وغيرهم المهياون لايقاد نار الفتنة بمعرفة السير مالت والمستر كوكسن من جهة ، والخديوى وعمر باشا لطفى محافظ الثغر من جهة اخرى بدليل تلغرافات الجفرة المتبادلة بين الخديوى وعمر لطفى فى ذلك اليوم كما ثبت ذلك لدى اللورد شرشهيل حين طلب من مجلس البرلمان الانجليزى محاكمة الخديوى ومعاقبته على ذلك — وبدليل تأخر المحافظ عمر لطفى ومأمور الضبطية السيد بك قنديل عن تدارك اطفاء تلك الفتنة حتى تأججت نيرانها

وقد تمارض مأمور الضبطية المذكور ، وادعى انه حدث له شلل فى ذراعه الأيسر ولزم فراشه ليتخلص من المسئولية وليرضى عمر لطفى والخديوى بعدم اجراء ما يلزم اتخاذه من التحوطات لمنع حدوث تلك الفتنة قبل انتشارها

وفى الساعة الخامسة بلغ خبر تلك الحادثة اسماعيل باشا كامل قومندان الايات الاسكندرية ، فأسرع بارسال الآلاى الخامس والآلاى السادس الى ساحة المنشية وهو فى مقدمتهم ،

ثم وزع البلوكات فى جميع شوارع الثغر وامرهم بتفريق الجموع وعند ذلك حضر المحافظ عمر لطفي ووكيل الضبطية حسن صادق وساعدا قومنــدان الالايات فى تعيين النقط والمراكز التى يلزم حفظها بالعساكر

وعنـد غروب الشمس هدأت الفتنة وسكن الاضطراب وتوجه كل من الثائرين الى محله . وانقضى الليل ولم يحدث فيه شيء يذكر غير أن الخوف كان ملء القلوب

ولما بلغت مصر أخبار تلك الحادثة اضـطرب لهـا أهل العاصمة ونزلت على أسماعهم نزول الصاعقــة ، فبادرنا بارسال وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى ومعـه الألاى البيادة الثانى بأمرة خليل بك كامل والألاى الرابع بأمرة عيد بك محمد وبطاريتين طوبجية والاى سوارى حكمدارية احمد بك عبد الغفار ليلا الى الاسكندرية تحت قيادة طلبة باشا عصمت وأمرنا وكيل الجهـادية باعادة الأمن الى نصــابه باشتراكه مع المحافظ فى ذلك

وعلى أثر ذلك تألفت لجنة لتحقيق هذه الحادثة من وكيل نظارة الجهادية يعقوب باشا سامى وبطرس باشا غالى ويأور الجناب الخديوى ويأور درويش باشا ومندوب قناصل الدول الاجنبية تحت رئاسة محافظ الاسكندرية عمر باشا لطفى فالتأمت بالاسكندرية وشرعت فى أعمالها وقررت فى الحال التدابير التى تعود بها الطمأنينة وتعم السكينة . ولكن القلق كان قد استولى على قلوب الجميع وصار سكان المدينة فى اضطراب مستمر حتى بات الناس لا يعلمون اى الاخبــار صحيح وأيها مكذوب . وفى جملة ما تناقلته الرواة يومئذ أن الأوربيين يتأهبون للهجوم على المسلمين وأنهم يعدون العدد والسلاح فاجتمع رؤساء الجند بالاسكندرية ، وقرروا أن يخبروا قناصل الدول بما رأوه ملطفا للهياج فكتبوا اليهم بما يأتى :

« اذا لم يعن القناصل جميعا بتسكين الهياج وابعاد أسباب الاضطراب والتنبيه على رعاياهم بعدم اجراء ما يوجب حصول المكاره فلا يكون من السهل تأييد الراحة العمومية والمحافظة على النظام والامن فى البلاد »

ولما وصل هذا القرار الى قناصل الدول تشاوروا فى الأمر ثم اتفقوا على نشر الاعلان الآتى تعريبه :

« يا ابناء جلدتنا الاعزاء

«وقع امس بالاسكندرية وقائع مهمة ولكن الجهادية المصرية أعادت الراحة وتعهد رؤساؤها بالمحافظة عليها ، ونحن بهم واثقون فضلا عن كوننا متوافقين مع المأمورين الملكيين والجهاديين على ما يجب اجراؤه من التدابير اللازمة المؤدية الى وقاية الراحة العمومية وصيانتها — فنتقدم اليكم أن تساعدونا بحكمتكم على القيام بهذا الواجب العمومى فلا تتقلدوا اسلحة نارية ، والزموا منازلكم ما استطعتم واجتنبوا اسباب المشاجرات والمنازعات

وحرصا على المصلحة العمومية قد حصل التوافق بين جميع القناصل الموقعين على ذيل هذا الاعلان — على أن يكون لقواصة القنصليات جميعا من أية تابعية كانوا الاختصاصات المعروفة للبوليس ، وسائر رجال الشرطة فنكلفكم ان تمتثلوا لهم

« كتب بالاسكندرية فى ١٢ يونيو سنة ١٨٨٢ » التوقيعات

سفر الخديو للاصطياف

وفى يوم الثلاثاء ١٣ يونيو سنة ١٨٨٢ بارح الخديو مصر متوجها الى الاسكندرية للاصطياف فيها على حسب العادة وقد ركبت على يساره من سراى الاسماعيلية الى محطة مصر . وفى الساعة الثانية بعد الظهر وصل الخديوى الى الاسكندرية

وفى حال وصول الخديو الى الاسكندرية زاره قناصل الدول ما عدا قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرالين فانهما بقيا فى مصر خلافا لسائر القناصل ، فأبدى الخديو أسفه

الشديد على ما حدث بالاسكندرية ووعدهم أن يصرف عنايته بالا تحدث فى المستقبل حادثة مثلها وخاطبهم ايضا درويش باشا بمثل هذا الكلام وزاد عليه قوله انه يثق وثوقا تاما بحسن نية الجهادية ورجالها ونبالة مقاصدهم وانه على يقين من أنهم يحافظون على الراحة العمومية ما استطاعوا الى المحافظة والوقاية سبيلا

دسائس الخديو توفيق

وكانت الأفكار قد هدأت والقلوب اطمأنت بفضل سهر العسكرية على اعادة الأمن والراحة فى أرجاء الاسكندرية غير ان الخديوى أسر الى السير أوكلان كولفن المراقب العمومى الانجليزى أنه غير واثق باستمرار الأمن والراحة وانه يعتبر مهمة درويش باشا كأنها قد انتهت ولم تفلح ، وانه لا يرى بدا من وجوب مجيء جنود « انجليزية » لاعادة الراحة والطمأنينة لا جنود عثمانية كما ذكر فى تاريخ مصر «للنقاش» لأنه لا يصح ان يطلب جنودا عثمانية من عامل انجليزى مثل كولفن . وما شاع هذا التصريح الصادر من الخديوي حتى اشتد قلق الناس وعظم خوفهم وعلموا من بعض قناصل الدول الكبيرة ان الخطر قريب قائم عند الأبواب وانه لا بد من حدوث وقائع تنخلع لها القلوب الثابتة فزاد الخوف وكثر عدد المهاجرين النازحين . ثم كتب بعض القناصل كتابات رسمية يحضون بها رعاياهم على المهاجرة

ولما شاعت هذه الأخبار وعرف الناس انها صادرة من وكلاء الدول السياسيين ايقنوا انه لا بد من وقوع أمر هائل وحدوث شيء مهم فركن الأجانب الى الفرار مسارعين ينزحون من كل جهة وصوب ، ثم تجدد القال والقيل واستؤنف اشتداد الخوف فى مصر واسكندرية وسائر مدن ؛

القطر المصرى وضاقت قطرات السكك الحديدية عن المسافرين والمهاجرين.

ولما رأينا ذلك نشرنا منشورا فى يوم الخميس الموافق ١٥ يونيو سنة ١٨٨٢ الصق فى شوارع العاصمة والاسكندرية والمحافظات والمديريات قصد استمالة الخواطر الى الهدوء والسكينة والاعتقاد باستتباب الراحة وهذا نص المنشور المذكور حرفيا :ـ

« ناظر الجهادية احمد باشا عرابى يعلن كل سكان القطر المصرى من المصريين والاوربيين رسميا أن الحضرة الخديوية الفخيمة كفلت الامن والراحة فى جميع جهات القطر أمام حضرات قناصل الدول المتحابة وتكفل ناظر الجهادية أيضا بصيانة الارواح والاموال وحفظ سكان البلاد على اختلاف طبقاتهم ومعتقداتهم وتابعيتهم وقد انتقل الجناب الخديوى الى اسكندرية بعائلته لدفع الاوهام من الافكار واطمئنان القلوب . وبقى ناظر الجهادية بمصر لمراقبة الاحوال وصيانة البلد وكتب لامراء العسكرية فى سائر الجهات ببث الراحة والسهر على حفظ الامن وصيانة النفوس. وعلى هذا فديوان الجهادية يعلن الجميع بهذا حفظا للافكار من الاراجيف والاشاعات الكاذبة »

ووفد من مصر الى الاسكندرية أكثر قناصل الدول كما سبق بيانه وبقى السير مالت وكيل انجلترا والمسيو سنكوفتش وكيل فرنسا فى العاصمة حتى ورد الى الاول منهما تلغراف من لندرة يأمره بالمجىء الى الثغر وأن يرافق الخديو أينما ذهب وحيثما توجه ، فأتى الى الاسكندرية صادعا بأمر حكومته وتبعه أيضا المسيو سنكوفتش قنصل فرنسا الجنرال

وزارة راغب باشا

وفى ذلك الوقت بدت علائم الشقاق بين الدول الأوربية ، فانحازت دولة ألمانيا وأوستريا وايتاليا وروسيا الى الباب العالى وانفردت الدولتان الغربيتان (فرنسا وانجلترا) فى سياستهما ثم حصل بعض الفتور فى صلات هاتين الدولتين

حتى توهم الناس ان انجلترا ستنفرد وحدها فى المسألة المصرية وتكون سائر الدول الباقيات معارضات لها . وأيد هذا الوهم ما كان فى تلك الأنباء من تدخل قنصلى ألمانيا وأوستريا بمساعدة درويش باشا وسعيهما لدى الخديوى فى تأليف وزارة جديدة يكون عرابى باشا من أعضائها ويبقى فيها ناظرا للجهادية والبحرية ونصحهما له بأن حال البلاد لا تصلح والقلاقل لا تحسم والطمأنينة لا تحصل الا بتأليف وزارة على الصفة التى تقدم ذكرها وألحا عليه بذلك

وأذعن الخديو واستدعى شريف باشا ثم مصطفى باشا ثم غيرهما وكلف كلا منهم بتأليف الوزارة فأبوا جميعا لما علموه من مقاصد الحكومة الانجليزية ، ثم استدعى اسماعيل راغب باشا ، وكلفه تأليف وزارة تحت رئاسته وأن يكون ناظرا للخارجية أيضا

وفى ١٦ يونيو سنة ١٨٨٢ صدر أمر الخديو بذلك وتم تأليفها فى ٢٠ يونيه على هذه الصورة :

اسماعيل راغب باشا	ناظر الخارجية ورئيس النظار
احمد رشيد باشا	« الداخلية
عبد الرحمن بك رشيد	« المالية
احمد عرابى باشا	« الجهادية والبحرية
على ابراهيم باشا	« الحقانية
سليمان أباظة باشا	« المعارف
محمود الفلكى باشا	« الأشغال
حسن الشريعى باشا	« الأوقاف

وفى ٢١ من الشهر السالف المذكور شرعت الوزارة الجديدة فى الأشغال ثم عقدت جلستها ونظمت لائحتها وفيها بيان المنهج الذى يجب ان تسير على مقتضاه وقد عنيت

باعادة الأمن الى نصابه بين المصريين والأجانب
وفى ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ كتب راغب باشا رئيس الوزارة الى قناصل الدول ينبئهم ببرنامج الوزارة الذي رفعه الى الخديوى بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٩٩ الموافق ١٨ يونيو سنة ١٨٨٢ فأجابوا كلهم (ما عدا وكيلى فرنسا وانجلترا) على كتابه بما أوضحوا فيه أنهم راضون عما كان مسرورون بانحسام المشاكل وانهم قائمون على قدم الاستعداد لمساعدة الوزارة الجديدة على تذليل المصاعب وحسم الفتن وازالة العراقيل السياسية والادارية الى غير ذلك مما دل على رضائهم ورضاء دولهم عن تشكيل الوزارة على تلك الهيئة .. وأما وكيلا فرنسا وانجلترا فقد أجابا بما توجبه عليهما الاصطلاحات الرسمية فى مثل هذه الحال كأنهما قالا فى جوابهما للوزارة وصلنا كتابكم واحطنا علما بما فيه

مؤتمر الدول بالاستانة

عقدت الدول مؤتمرها فى الاستانة فى ٢٤ يونيو سنة ١٨٨٢ من غير أن يكون للدولة العلية معتمد فيه . وفى جلسته الاولى وقع المعتمدون على البروتكول الآتى تعريبه :

« ان الحكومات التى وقع وكلاؤها بالنيابة عنها على ذيل هذا البروتكول ، تتعهد أنها لا تعضد البتة اغتنام أرض ما ، ولا الحصول على امتياز ما ، ولا أن يكون لرعاياها من الامتيازات المتجرية ما لا يستطيع أن يناله غيرهم من رعايا اى الدول فى مصر . وذلك فى أية مسألة حصل التوافق عليها بسعيها واشتراكها فى المخابرات لتنظيم أمور تلك البلاد »

التوقيع

الروسيا	فرنسا	أوستريا	المانيا	انجلترا
أونو	دى نوايل	كايس	هرشفلا	دوفرين

وبعد التوقيع على هذا البروتكول أخذ المؤتمرون يتداولون فى المسألة وقد ذكر فى الكتاب الأزرق صورة رسالة تلغرافية بعث بها اللورد دوفرين سفير انجلترا بالاستانة الى اللورد غرنفيل وزيرخارجيتها يشتمل على بيان ماجرى فى المؤتمر حتى يوم ٢٦ يونيو وقد حشى هذا البيان بالأكاذيب (١)

مراوغة ساسة الانجليز

وفى أثناء المخابرات التى كانت جارية بين الدول لعقد المؤتمر على النحو الذى تقدم بيانه كانت انجلترا تتأهب للحرب بحشد الجنود واعداد المهمات وكان اكثر الناس يتوهمون أن ذلك انما صدر منها على سبيل التهديد والارهاب للمصريين ولتنال اغراضها بدهائها فأحست الدول الأوربية بما وراء الأكمة ولكنها لم تجسرعلى مقاومة الانجليز ومعارضتهم علنا ، لا سيما بعد أن صرح اللورد سالسبرى فىمجلس نوابالانجليز أن الانجليز وحدهم قادرون علىنوال مآربهم وتحصيل ما يطلبون رضيت الدول أم لم ترض ، وكانت الدول تحاول اقناع الانجليز بأن لا يستبدوا فى الأمر وحدهم وأن يستشيروا غيرهم ويشركوهم معهم فى العمل فكانوا ينفرون من ذلك ولا يعترفون لغير الفرنسيس بحجة التدخل فى المسألة المصرية اذا اشتعلت نار الحرب واشتد أوارها وهم وان كانوا قد عرضوا على الدول أن تشترك معهم فى المؤتمر الا أن سياستهم كانت فى الباطن على غير ذلك المنهاج

وقد عرضوا على الباب العالى أن يرسل جنوده الى مصر ولكنهم اشترطوا عليه شروطا لا يمكن الرضى بها ، منها أن

(١) نصت المذكرات على هذا البيان المملوء بالاكاذيب وتحريض الدول على الثورة العرابية ، وقد نشر فى صحف ذلك الحين

تكون رئاسة الجيش العثمانى لقمندان الجيش الانجليزى وتحت تصرفه

وكانت انجلترا على وفاق تام مع الفرنسيس فيما اذا وقعت الحرب فانها كانت موقنة ان فرنسا تنسحب من الاشتراك فيخلو لها الجو

وكانت فى كل يوم تعرض على الدول الأوربية أن تشترك معها فى ارسال جنودها الى مصر ، وما كان ذلك الا تظاهرا بما كان مخالفا لمساعيها الخفية ، وشاهدنا على ذلك قول المستر باجت سفير انجلترا بايطاليا فى الكتاب الذى بعث به الى اللورد غرنفيل وزير الخارجية الانجليزية بتاريخ ٢٧ يونيو سنة ١٨٨٢

ويتضح من هذا الكتاب أن الدول الأوربية كانت شديدة الحذر من انفراد انجلترا فى المسألة المصرية تحاول اقناعها بلزوم اشتراك الدول معها ولا تستطيع معارضتها بالعنف ، ويتبين ايضا أن أهم مسائل ذلك الوقت كانت مسألة برزخ السويس وصيانته واستبقاء الخديوى توفيق باشا أو استبداله

وكانت هذه المخابرات جارية بين وزارات اوربا والناس فى مصر لا يعلمون بما سيتم عليه الراى ولا يعرفون أى الأخبار يصدقون . وكان اختلاف الروايات موجبا لزيادة تشويش الأذهان وعلى الأخص ما شاع فى ذلك الحين من وقوع الخلاف الشديد بين الدولتين الغربيتين فرنسا وانجلترا ، فذهب الناس حينئذ الى أن فرنسا لا توافق انجلترا على نيتها الا على شريطة أن يخلع الخديو توفيق باشا ويستبدل به عمه حليم باشا ، وايدوا هذا القول بما شاع حينئذ من أن الحضرة السلطانية راغبة فى ذلك الاستبدال ، وانها تظهر كل يوم ميلها الى حليم باشا وتقربه منها وهو يعدها بالخضوع والانقياد لأوامرها ونواهيها . بخلاف توفيق باشا الذى

وافق انجلترا على سياستها وتخلف عن تنفيذ الأوامر السلطانية ، والعمل بها ، وخالفها بعدم ذهابه الى الاستانة غب ورود الفرمان العالى المؤذن بتعيينه خديويا لمصر ، فقد كان عليه أن يتوجه الى دار السعادة تبعا للرسوم المألوفة ليتقلد من يد الحضرة الشاهانية وظيفته السامية الى غير ذلك مما رجح فى عقول كثيرين من المصريين صحة وقوع الخلاف بين انجلترا من جهة وفرنسا والباب العالى من جهة اخرى حتى صار فى معتقدهم أن انجلترا لا تستطيع مقاومة الدولتين المشار اليهما متحالفتين فلا بد لها اذاً من الرجوع بخفى حنين ، فتخسر مقامها فى مصر وتعود من حيث أتت

وكان الجميع فى ذلك الحين يترقبون ورود الاخبار من الاستانة ليقفوا على ما كان من أعمال المؤتمرين وما سيقر عليه رأي الدولة العثمانية . وكانت انجلترا أثناء هذه الأحوال تسعى بدسائسها ودهائها فى الانفراد بمصر وبحشد الجند وتعد ما يلزم للقتال والناس فى غفلة يتوهمون أنها انما تفعل ذلك من قبيل التهديد ليس الا

□

وفى يوم ٢٥ يونيو سنة ١٨٨٢ وفد على راغب باشا رئيس مجلس النظار المستر كارتريت وخابره فى أمر مياه الاسكندرية وطلب اليه أن يعتني بوقاية المستر كورتس وجماعته عمال شركة المياه وصيانتهم وأن يتخذ الوسائل الفعالة الآيلة لحمايتهم ودفع كل مضرة عنهم ، والا فانهم يهاجرون فيمن هاجر تاركين المدينة من غير ماء ، فأجابه راغب باشا بأنه لا يستطيع اتخاذ مثل هذه الوسائل الخصوصية لوقاية شخص واحد فى حالة كون الحكومة المصرية متعهدة بوقاية جميع الأوربيين وصيانتهم

وكان المستر كارترايت لا يرسل من الاسكندرية كتابا ولا يبعث برسالة برقية الى الاستانة أو الى لوندرة ، من غير أن يملأها بأخبار كاذبة ، مجسما حالتى الخوف والاضطراب فى البلاد المصرية وغيرها من الترهات التى يعلم الله مبلغ نصيبها من الصدق. وفى ٢٦ يونيو أرسل الى اللورد غرنفيل كتابا من نوع ما نوهنا عنه وهذا تعريبه :

« سيدى اللورد

« أرسلت اليوم تلغرافا ثانيا الى اللورد دوفرين بالاستانة ، بينت له فيه أحوال هذه البلاد فى وزارة راغب باشا الجديدة وأكدت له أن ما يذيعه البعض من تداعى نفوذ عرابى وأحزابه الى السقوط ان هو الا محض هذيان لا يلتفت اليه ، فان نفوذهم فى ازدياد مستمر لا يماثله فى سرعة التقدم غير تعاظم الخوف عند ذوى البصيرة والنقد من انتهاء الأمر الى حد يعسر معه اصلاح الخراب المالى والمتجرى الذى الم بالبلاد . فقد نقص دخل الحكومة كثيرا ونقصت ايضا واردات الجمارك والسكك الحديدية نقصا فاحشا واشتد الخوف من ان الكوبون الذى سيستحق فى شهرى اكتوبر ونوفمبر لن يمكن صرفه فى وقته المعين . وقد أوجبت نفقات الجهادية منذ الآن استقراض مبالغ تعتبر دينا سائرا جديدا على الحكومة . كل هذا مع نقص الدخل ووقوف حركة الاعمال وتعطل التجارة ، ويضاف الى ذلك ايضا ما استولى على قلوب الموظفين الاجانب من الخوف والقلق حتى ان ادارة السكة الحديدية ومكاتب البريد الأميرية والتلغراف امست لا تستطيع الاستمرار فى أعمالها الا بشق الأنفس ، وفوق هذا وذاك نرى الفعلة وسفلة القوم من الأهالى فى فقر مدقع بسبب وقوف حركة الاعمال ، ولم يبق فيما اظن الا واسطة واحدة لمنع حدوث ما يخشى وقوعه فى داخلية البلاد . . ويجب الا يكتفى بانفاذ الخديو من عرابى وجماعته احزاب

بجهادية بل يجب المبادرة فى انقاذ مالية مصر وتجارتها من خراب يتعذر اصلاحه اذا استمرت الاحوال سائرة على هذا المنوال» اه . وكل هذا كذب وبهتان لانصيب له من الحقيقة

وقد كتب المستر كارترايت الى اللورد غرنفيل عن النبأ البرقى الذى ورد الى الاسكندرية فى ٢٦ يونيو من بنهـا العسل المفيد بأن أحد اليونانيين قتل فيها وانه يقال أن قاتله أحد الفلاحين



ضرب الاسكندرية

الانجليز يتأهبون للقتال

وفى تلك الأثناء كانت دولة الانجليز باذلة مجهوداتها فى استمالة الدول الى موافقتها على طلبها المتعلق بمسألة مصر والانفراد فيها صارفة عنايتها الى حملهن على تركها وشأنها فى مصر وكانت تتأهب للقتال بحشد الرجال واعداد المدافع والميرة والذخائر وكان عمالها فى القطر المصرى يرصدون حركات الجهادية وأعمالهم ويتجسسون أخبارهم ويستطلعون أسرارهم . وكان المستر جورج فيس قنصل انجلترا بمصر شديد الرغبة فى الوقوف على مقدار العساكر المصريين ومبلغ قوتهم وما عندهم من المهمات الحربية ، وقد كتب الى السير أدوارد مالت القنصل الجنرال بتاريخ ٢٥ يونيو بهذا الصدد ما تعريبه :

« سيدى

« لقد علمت من مصدر أركن اليه وأعول عليه أن الجهادية قررت أنه اذا نشبت الحرب وولج الانجليز أبواب القاهرة تنقل اذ ذاك عائلات الضباط منهم الى القلعة ويتحصنون فيها فيدافعون عن أنفسهم ، وقد شرعوا الآن فى اجراء التدابير اللازمة لذلك وصرفوا فى الأيام الثلاثة الأخيرة معظم عنايتهم الى هذا الأمر فملأوا الشون والمخازن ميرة وذخيرة ، واحضروا كميات وافرة من الدقيق ، وعددا عظيما من الثيران والبقر والغنم والخيل ، وهم فى كل يوم يبتاعون ما يجدون من ماشية وعلف ، ولا يزال الماء المنصرف للقلعة من مستودعات شركة المياه بمصر جاريا اليها . وما عدا ذلك ، فقد اعتنوا باصلاح آلات بئر يوسف ، ليجعلوا ماءها

احتياطيا اذا حدث ما يبعث على انقطاع ماء الشركة عنهم ، وهم من اليوم يستقون منها ، وقد خزنوا كذلك فى شونة التعيينات وتخبز بولاق ٣٥٠,٠٠٠ أقة من البقسماط ولا تزال أفران البقسماط تشتغل الليل والنهار . والمسموع انه يخرج منهـا فى كل يوم خمسة آلاف أقة . واذا قدرنا نصيب الشخص الواحد فى اليوم بنصف أقة من الخبز ، يكون مجموع ما عندهم من البقسماط كافيا لثلاثة عشر ألف جندى فى ستين يوما . (وهذا المستر يهرف بما لا يعرف)

« أما محصنات القلعة فهى عبارة عن ٤٢ مدفعا قديما من المدافع التى كانت تستعمل فى السفن المصرية فى عهد محمد على باشا ولهذه نحو ٢١,٠٠٠ حشوة ومع ذلك فان هدم القلعة سهل من جهة جبل المقطم حيث أنشئت فى أعاليه (من جهة القلعة) استحكامات متينة وضع فيها ستة مدافع من مثل المدافع التى تقدم ذكرها- ولهـذه المدافع الستة ٣٠٠٠ حشوة

« ولديهم ايضا من المدافع المعروفة بمدافع الجبال عدد ٤٩٧ مدفع ٨/٧ سنتيمترات و ٧/٥ سنتيمترات من صنع كروب ومن هذه المدافع ١٢٠ مدفعا وضعت فى مراكزها ، ولكن ليس لديهم مما يلزم لها من الخيل والرجال الا مايكفى لخمسة وستين أو سبعين مدفعا فقط ، ومع ذلك لا أظنهم أهلا لادارة أعمالها اذا دهمهم خصومهم مفاجاة اذ ليس عندهم من جنود المدافع المدربين الذين يمكن الاتكال عليهم اكثر من العدد اللازم لخمسة بطاريات او ستة فقط

« وعلمت أن لديهم ٥٠٠ حشوة لـكل مدفع من مدافع الجبال وأن لهم فى العباسية مدفعا واجدا من طراز كروب مصنوعا من الفولاذ يبلغ محيط دائرته ١٤ ابهاما (بوصة) ومدفعا آخر من مدافع ارمسترنج زنته فيما اظن ٢٥ طنا

« أما الاسلحة الصغيرة فلديهم مما يصلح للعمل منهـا

٠٠٠ر٣٠ بندقية من بنادق ريمنكتون ونحو عشرين الفا من بنادق انفلد ، وعنـــدهم من الفشنك نحو ٢٠ مليـــونا لبنادق ريمنكتون و ٧ ملايين لبنادق انفلد ومن الفشنك المعد لبنادق ريمنكتون ونحو ١٣ مليونا من صنع معامل هوخام ولودلوف وهى صالحة للاستخدام . اما البـــاقى وقدره ٧ ملايين فمن صنع المصريين ومعاملهم الوطنية وقد علاه الصدأ حتى اكله او كاد فهى لذلك غير صالحة للاستعمال ولا فائدة منها »

التوقيع : يورج

الدول تقرر تدخل تركيا وهى ترفض !

تقرر فى المؤتمر الدولى المنعقد بالاستانة ما ياتى : ـ .

« بعد أن اعترفت الدول الأوربية بوجوب المسارعة الى معالجة حالة مصر الحاضرة بالدواء الناجع قررت فى المؤتمر الذى عقده وكلاؤها ان يلجأ الى سيادة الجناب السلطانى ويطلب منه ان يتـــدخل فى امر مصر وان يساعد الخـــديو بارسال قوة بالبر كافية من الجند لاعادة الأمن والنظام الى البلاد وانقاذ مصر من الفوضى التى تمكنت منها ونشأ عنها اهدار الدماء وخراب الوف من بيوت الاجانب والمسلمين (كذب واختـــلاق) وتضرر كثـــير من مصـــالح الاجانب والوطنيين

« وسيكون من شان الجنود العثمانيـــة بمصر ان تؤيد وجوب احترام الحقوق السلطانية عليها وتعيد للخديو سلطته ويكون من شأنها أيضا الشروع فى اصـــلاح حال العسكرية بمصر وفقا لأصول يتفق عليها فيما بعد اتفاقا عموميا ، على شريطة ان لا يكون هذا التدخل موجبا لمس الترقيات النافعة التى نفذت فى نظام مصر المدنى والادارى والقضائى على غير مخالفة ما تقضى به الفرمانات السلطانية

« والدول الأوربية واثقة كل الوثوق بالتجائها الى الجناب السلطاني ببقاء ما هو مقرر لمصر على حاله فى مدة وجود الجنود العثمانية ومعتقدة ان حقوق مصر والامتيازات الممنوحة لها بمقتضى الفرمانات السابقة لا تمس البتة ولا يمس ايضا شيء من الأصول المقررة لادارة الأحكام فيها ولا من العهود والمواثيق الدولية » ولا من أعمال التسوية التى نجمت عنها وتقررت فى شأنها

« أما مدة استقرار الجيش العثمانى فتكون ثلاثة أشهر فى مصر ما عدا اذا طلب الخديو تمديدها الى اجل تتفق على تحديده الدولة العلية مع الدول الأوربية وحكومة مصر وتعين قيادة هذا الجيش بالاتفاق فى الرأى مع الجناب الخديو أما مصاريف هذه التجريدة فتكون على نفقة مصر وستعين مقاديرها باتفاق يحصل بين الدولة العلية والدول الست الأوربية وحكومة مصر

« واذا أجابت الحضرة السلطانية دعوة الدول كما هو المأمول فكيفية تنفيذ الأحكام السابقة الذكر تتم بتوافق يحصل عليه بعد الآن بين الدولة العثمانيةوالدول الست الأوربية »

وقد كتب كل من السفراء الى حكومته يسألها ابداء رايها فى هذا القرار تلغرافيا فى ٦ يوليو وزادوا على ذلك بأن قالوا :

« ومن راينا (أى السفراء المؤتمرين) أن يكون تقديم هذا القرار للحكومة العثمانية بصفة رسمية اذا وافقت عليه حكوماتنا وان يقدمها كل منا باسم دولته » ، ثم زادوا بقولهم : « هذه نتيجة مخابراتنا نعرضها على حكوماتنا ، ولا نجتمع بعد الآن حتى يرد الى كل منا افادات شافية من حكومته مبينة رأيها فى هذه المسألة »

انجلترا تختلق اسبابا للتدخل

وقد وافقت الدول على تقديم هذا القرار ، ولكن الباب العالى رفضها لمخالفتها للحقوق الدولية ، فاتخذت انجلترا ذلك حجة وذريعـة لأن تتدخل بالقوة فأوعزت سرا الى وكلائها ورجالها فى القطر المصرى ان ينزعوا الى وجود أسباب ولو طفيفة لمباشرة القتال ، وكان ذلك من أيسر الأمور لديهم ، فان الأميرال سيمور زعم يومئذ ان الجهادية تحصن القلاع فى الثغر ، وقال ان ذلك التحصين مناف لحقوقه

وجاء تلغراف من الصدر الأعظم الى الخديو توفيق باشا يذكر به ان « باشكاتب السفارة الانجليزية حضر الى الباب العالى ، واخبر أن الجهادية المصرية تهدد الأساطيل الانجليزية فى ثغر الاسكندرية بتحصين القلاع واقامة الحصون وفى ذلك تهديد للدونمة الانجليزية ، فان لم تكف الجهادية عن تقوية الاستحكامات وتمسك عن تعزيز حصونها من غير ابطاء ، اضطر الأميرال سيمور الى اطلاق مدافعه على الاسكندرية فيدكها دكا ويهدمها عن آخرها »

وقد أرسل الخديو توفيق باشا هذا التلغراف الى لاجيب عليه ، فكتبت اليه « بأن مصر لم تعتـد على الانجليز ولم تهدد اساطيلها الحربية بل هى التى تهددنا بمراكبها الحربية وكل ما فى الأمر ان الجارى فى الاستحكامات انما هو ترميم المختل منها على حسب العادة السنوية، واذا كانت الدونمة الانجليزية متخوفة من استحكاماتنا ولم ترد شرا بنا فلتقلع من ميناتنا وتعود الى بلادها بسلام، وانى ليدهشنى احجام الباب العالى عن اجابة السفارة الانجليزية بذلك »

ثم ان الأميرال سيمور كتب الى قومندان الاسكنـدرية يهدده باطلاق مدافعه على المدينة فيهدمها عن آخرها ان لم تكف الحكومة عن تقوية الاستحكامات وغيرها من التحفزات ، فأجابه القومندان المذكور طلبة باشا عصمت بقـوله « ان

لا صحة لما تقول وان الجهادية لم تهتم بتحصين الاستحكامات لأنها محصنة ، وانما جارى فيها بعض ترميمات عادية »

اتفاق الانجليز مع الخديو

ولما شاع هذا الخبر فى المدينة ايقن الناس بقرب وقوع القتال ، وأوعز كل من قنصلى فرنسا وانجلترا الجنرال الى رعاياه أن اخرجوا من مصر ، وهاجروا منها سريعا فتسابق الأوربيون الى الرحيل ، ولم يبق منهم فى المدينة الا القليل ، حتى أن الخديو استدعي اليه المستر كولفن مراقب المالية الانجليزى ، واتفق معه على أن يبارح سراى راس التين ويتوجه بعائلته الى سراى الرمل فى يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ لأن ضرب الاسكندرية سيكون فى صباح يوم ١١ منه

هذا ما حصل الاتفاق عليه ، وطلب الخديو من المستر كولفن أن يبلغ ذلك الى اللورد غرنفيل ليخابر خارجية انجلترا . وقد تمارض المستر مالت قنصل انجلترا الجنرال وانتقل الى البحر فى٢٢يونيو ، واقام فى الباخرة (مونجوليا) من بواخر الشركة الشرقية ثم سافر الى برنديزى . وحذا حذوه وكيله المستر كالفر بالحجة عينها ، واقتفى اثرهما المستر بورج قنصل مصر

وقد أوعز المستر كولفن الى المستر كارترايت بأن يخبر اللورد غرنفيل بما جرى بينه وبين الخديو ففعل وأرسل فى اليوم نفسه رسالة برقية الى وزارة انجلترا الخارجية ضمنها ما دار بينه وبين الخديو ، وأردفه بقوله « واظن انه لا خوف على حياة الخديو ، ولاسيما اذا لم تطل مدة القتال ، ومن رأيى أن أنذر درويش باشا بأن الحكومة الانجليزية تعده مسئولا عن حياة الخديو ، وأن التبعة تعود عليه اذا أصيب الخديو بسوء يوم اطلاق المدافع ، وقبل نزوله الى البحر » اه

وقد بلغ الاضطراب منتهاه وأيقن النـاس بدنو الساعة آسفين على ما سيحل بالاسكندرية من هول الخطب متكدرين لما ستسفر عنه من الخراب والتدمير ، ورأى كل من قناصل الدول الاجنبية أن سيحيق برعاياهم خطب كبير ، فحاولوا ابعاد الخطر المحدق بالمدينة ، واجتمعوا فى ٧ يوليو للتداول فى الأمر ، وكلفوا المستر كارترايت بالحضور معهم فأبى ، فعقدوا عندئذ مجلسهم ، ولم يحضر فيـه أحد من قبـل انجلترا وبالتداول والتشاور قرروا أن يرسلوا الى الأميرال الرسالة الآتية :

من قناصل الدول الأوربية بالاسكندرية
إلى الأميرال سيمور

« ان لرعايانا مصالح مهمة فى الاسكندرية ، ولهم فيهـا أملاك واسعة ، وعقارات كبيرة ، والمتخلفون منهم عن المهاجرة كثيرون وهو ما دعانا الى أن نتقدم اليكم ونسألكم ان هل اقتنعتم من جواب الحكومة المصرية على سؤالكم المتعلق بتحصين القلاع أم لا ؟ فان كان الثانى فاننا نستطيع تعديل الجواب المذكور بما يرضيكم ويقنعكم ، واذا كنتم لا ترضون بذلك ولا تريدون أن تقتنعوا لأمر ما ، فنرجوكم أن تنبئونا عن المهلة التي تتركونها لرعايانا قبـل الشروع فى القتـال ليتمكنوا من الرحيل

« واننا نخطركم بأن اطلاق المدافع سينشأ عنـه كيف كانت الحال ضرر عظيم ، يحيق بسكان المدينة من نصارى ومسلمين ، ولا بد أن تنهدم به أبنية عديدة للأوربيين ، وبودنا لو انكم ترفعون الى حكومتكم ملاحظاتنا هذه قبل أن تنفذوا أوامرها » التوقيعات

فرد عليهم الأميرال سيمور بهذه الرسالة :

« تلقيت اليوم الكتاب الذى اتفقتم على ارساله الى ،

وتفضلتم فيه بالاستعلام مني وتكرمتم وعرضتم أن تتوسطوا في الأمر بحيث أحصل بواسطتكم على جواب يرضيني فاشكر لكم كثيرا هذه العناية ، واجيب على خطابكم بقولي اني انفذ ارادتكم اذا كان لدى الموما اليـــه من النفوذ والسلطـــة ما تستطيعون به أن تجعلوه صادقا فى اجراءاته ، وان يبطل عاجلا أشغال التحصين وتعزيز الاستحكامات التى شرع فيها ، ولا ارى جواب الموما اليه (بالكتابة) كافيا لحملي على الاقتناع بما يقول وعلى الوقوف بما اكد لى فى جوابه من انه يجيب طلبى ، ومهما كانت عبارة هذه الكتابة فانها لا تكفيني بالنظر الى المصالح المهمة التى عهد بها الى

« واخبركم اني ما اعلنت قط بعزمى على رمي الاسكندرية بنار المدافع ، واذا اقتضت الحاجة ، فانى أوجه قوتى على القلاع والاستحكامات فقط ، وبذلك لا أرى موجبا لخوفكم من انهدام منازل الأوربيين وغيرهم ، وسأرفع الى حكومتى امر الملاحظة التى ابديتموها فى العبارة الأخيرة من خطابكم وتبهتموني اليها

« واذا استمرت الجهـــادية فى أشغال تحصـــين القـــلاع والاستحكامات ، فانى انفذ فى الحال ما كتبت اليهم به محافظا على كل حرف من حروف تلك الكتابة ، وكيف كانت الحال فانى قبل الشروع فى العمل اعلن عنه ولا اباشر اطلاق المدافع الا بعد ٢٤ ساعة من تاريخ الاعلان

« كتب فى السفينة (انفسيبل) بمياه الاسكندرية فى ٧ يوليو سنة ١٨٨٢

التوقيع : بوشان سيمور »

ولما وصل هذا الجواب الى قناصل الدول اجتمعوا ثانية واخذوا يحاولون ارضاء الأميرال سيمور ، ولـكن ذهبت اتعابهم ادراج الرياح

عدوان الانجليز

لما تمكنت انجلترا من اقناع فرنسا وباقي الدول الأوربية بأنها تنفرد بالعمل فى قتال المصريين اختلقت لذلك أسبابا لا ظل لها من الحقيقة وذلك أن المستر كارترايت كتب الى ناظر خارجية انجلترا اللورد غرنفيل ما يأتى :

« سيدى اللورد

« أرفع الى حضرتكم أن الأميرال سيمور علم اليوم بأن قد وضع مدفعان فى القلعة المعروفة بقلعة (السلسلة) الكائنة تجاه الميناء الجديدة علاوة على المدافع الموجودة فيها (والله يشهد انهم لكاذبون فان قلعة السلسلة لم يجر بها شىء من الترميمات فضلا عن وضع مدافع أخرى فيها) فلم يعد فى امكانه تحمل هذه الأمور والصبر عليها ، ولذلك عزم على اطلاق المدافع فى فجر الثلاثاء الآتى (١١ يوليه) . وسأخبر القناصل الجنرالية والخديو ودرويش باشا بهذا العزم فى هذا اليوم ، ثم أجرى من التدابير ما يلزم لكى يتمكن الباقون فى الاسكندرية من النزول الى السفن والالتجاء اليها

« كتب فى السفينة (هليكون) بميناء الاسكندرية فى ٩ يوليو سنة ١٨٨٢

التوقيع كارترايت »

وفى مساء اليوم المذكور أعلن المستر كارترايت القناصل جميعا عن عزم الأميرال فأوعزوا الى رعاياهم بالمهاجرة فى الحال ، وشاع الخبر بين السكان وطنيين واجانب وصاروا يتسابقون الى محطة السكة الحديد زرافات ووحدانا الى داخل البلاد منتشرين فى المدن والأرياف وهرول بعض الاجانب الى البحر لاجئين الى السفن الراسية فى المرافىء ولم ينقض اليوم العاشر من شهر يوليو حتى خلت المدينة

من السكان واقفرت من أهلها أو أوشكت ولم يبق فيها الا الجند والحامية ونفر قليل من الأجانب وبعض الأهالى

وفى مساء اليوم نفسه توجه المستر كارترايت الى سراى راس التين ، وأعلن للخديو بصفة رسمية عن عزم الأميرال على مباشرة القتال صباح الثلاثاء ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم اشار عليه بأن يترك سراى رأس التين ويلجأ الى سراى الرمل ، وبعد ذلك قصد درويش باشا فلم يجده فكتب اليه بصفة رسمية ايضا يطلب اليه بأن يحافظ على حياة الخديو وانه مسئول ما عساه يصيب الخديو

وفى صباح اليوم العاشر أرسل الأميرال كتابة الى طلبة باشا قومندان موقع الاسكندرية مؤقتا ورئيس حاميتها ، طلب فيها انزال جميع المدافع المتسلحة بها طوابى استحكامات الاسكندرية من طابية المكس الى طابية برج السلسلة ، ويدعى زورا بأنه شاهد مراكب شراعية مشحونة بالاحجار تفرغ مشحوناتها فى بوغاز الميناء بقصد سد البوغاز وحبس المراكب الانجليزية . وانه ان مانع فى انزال المدافع امر باطلاق مدافع الأسطول على المدينة والإستحكامات صباح باكر فيدمرها تدميرا ، ويقول فيه أيضا : « أرسلنا كتابات رسمية الى كل من درويش باشا المندوب السلطانى العالى ، وراغب باشا رئيس الوزارة المصرية أعلن لهما فيها عن خروج رجال الوكالة الانجليزية من القطر المصرى اشارة الى قطع العلائق والصلات الودية »

فسرعان ما عم الخوف كل من بقى فى المدينة وأيقن الناس بحلول الدمار وصاروا فى انتظار النار والرعب ملء افئدتهم ، فاخذت السفن والمراكب الراسية فى الميناء فى الخروج منها وذهب الأسطول الفرنسى قاصدا بورت سعيد تاركا الأسطول الانجليزى وشأنه يتصرف فى الادعاء على المصريين

بما يوحيه اليه الأميرال سيمور ، وبما يروق فى أعين رجال الحكومة الانجليزية من الظلم والعدوان

وفى صباح يوم ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ انعقد مجلس فوق العادة من النظار وغيرهم من الذوات الاختيارية تحت رئاسة توفيق باشا الخديو بحضرة المندوب السلطانى درويش باشا وقدرى بك سكرتيره والسيد احمد أسعد وكيل الفراشة النبوية عن الحضرة السلطانيـــة المرسل مع درويش باشا للنظر فى المسألة المصرية التى ابتدعتها المطامع الانجليزية .

ولما تلى كتاب الأميرال سيمور المرسل الى طلبـــة باشا قومندان المدينة تقرر بالمجلس المذكور بانه لا يمكن اجابة طلب الأميرال سيمور ، لما فى ذلك من الخزى والعار الذى يلحق بالمصريين إلى الأبد حيث ان الاستحكامات والطوابى المذكورة ما انشئت الا لحفظ الثغور ، والعساكر ما وجدت الا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم ان يخربوا معاقلهم بايديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم ان يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية الى آخر رمق من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن . ولـــكن قفلا لبـــاب الشر وقطعا لاحتجاجات الاميرال سيمور رئيس الدونمة الانجليزية ، رؤى ان يرسل له وفد مؤلف من عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية وقاسم باشا وكيل البحرية السابق ومحمد كامل باشا وكيـــل البحرية حينذاك وتكران بك باشكاتب مجلس النظار ويتلطفوا معه فى المقال ، ويوضحوا له بان المصريين ليسوا اعداء للانجليز ، وانه لا يمكن سد البوغاز بالاحجار كما قيل ، وانه يمكن ضبط المراكب المشحونة بالاحجار عند شروعها فى العمل ان وجدت —

واما انزال المدافع فهذا امر لا يمكن قبوله لمـــا فيـــه من مخالفة قوانين البحرية ولما يتبع ذلك من الاهانة والذلة .

وانما يمكن اجابة لطلبه وفضا للاشكال تنزيل ثلاثة مدافع من ثلاث طوابى احداها طابية المكس والثانية طابية صالح والثالثة طابية برج السلسلة وأن يكتفى بذلك ردا لشرف الدوننمة كما يزعم

فذهب الوفد وبلغ الرسالة ثم رجع واخبر بأن الأميرال المذكور لم يقبل بما عرض عليه ، وصمم على وجوب انزال جميع المدافع كما طلب ، وانما تكرم بان عافى عساكره البحرية من معاناة مشقة انزال المدافع وتخريب الطوابى وسمح للعساكر المصرية بأن يعانوا هذه الأعمال ، ويخربوا معاقلهم بايديهم . وزاد على ذلك بأنه يطلب من الحكومة المصرية أمرا صريحا باعطائه طابية المكس وما وراءها من الأراضى ، وطابية العجمى وطابية باب العرب لاتخاذها معسكرا للعساكر الانجليزية ، وانه اذا لم يجب الى طلباته المذكورة باشر القتال عند طلوع الشمس فى يوم غد . وحيث ان طلباته غير قانونية ولا يمكن قبولها بوجه من الوجوه خصوصا وان الفرمان السلطانى يحجر على الخديو التصرف فى اعطاء قيد شبر من الأراضى المصرية وملحقاتها الى دولة أجنبية . فلذا تقرر رفض طلبات الأميرال واعلان حكومة الباب العالى بذلك ، حيث أنها صاحبة البلاد المصرية . ويكون أخطارها تلغرافيا مع الاستعداد للحرب بشرط ان لا يبتدأ بها من جهتنا الا بعد اطلاق ثلاثة (جلل) من جهة العدو المعتدى . وفى حالة وقوع الحرب حقيقة تعلن الاحكام العرفية فى جميع البلاد المصرية . وبعد ذلك ارفض المجلس ثم انتقل الخديو ودرويش باشا ومن معهما من راس التين الى سراى الرمل فى اصيل اليوم المذكور عملا برأى المستر كارترايت كما سبق الذكر

وهاك أسماء أعضاء المجلس المنعقد تحت رئاسة الخديو :

محمد توفيق باشا (خديو مصر) ـ المشير درويش باشا (رئيس الوفد السلطانى) ـ قدرى بك (سكرتير الوفد المذكور) ـ السيد أحمد أسعد (عضو بالوفد المذكور) ـ اسماعيل راغب باشا (رئيس النظار وناظر

الخارجية) ـ أحمد رشيد باشا (ناظر الداخليــة) ـ عبد الرحمن بك رشدى (وزير المالية) ـ أحمد عرابى باشا (وزير الجهادية والبحرية) ـ على ابراهيم باشا (وزير الحقانيــة) ـ سليمان أباظة باشا (وزير المعارف) ـ محمود الفلكى باشا (وزير الاشــغال) ـ حسين الشريعى باشا (وزير الاوقاف) ـ اسماعيل حقى أبو جبل باشا (من الشيوخ) ـ محمد سعيد باشا (من الشيوخ) ـ قاسم باشا وكيل الحقانية سابقا (من الشيوخ) ـ محمد كامل باشا (وكيل البحرية) ـ محمد سلطان باشا (رئيس مجلس النواب) ـ محمد المرعشلى باشا ـ محمود فهمى باشا

اكاذيب الانجليز

بعد امضاء القرار المذكور بوجوب الحرب صدرت أوامر الجهادية الى رؤساء الاستحكامات وأمراء الألايات وفروع الجهادية بالاستعداد للحرب والمدافعة عن البلاد ، وسهرنا طول الليل فى ترتيب ما يلزم اجراؤه للقتال

وفى اليوم التالى انتشر الخبر فى عواصــم أوربا ونقلتــه الأسلاك التلغرافية بأسرع من لمح البصر ، فارتجت له أفكار العالم واهتزت له جوانب الارض ، فرات وزارة خارجية انجلترا ، أن تلطف الخبر للدول الأوربية مخافة معارضتها لها فيما تريد اجراءه ، فكتبت الى وكلائها الخطاب الآتى :

« من اللورد غرنفيل وزير خارجية جلالة ملكة انجلتــرا

« الى وكلاء حكومة انجلترا لدى حكومات باريس وبرلين وفينا ورومة وبطرسبرج والاستانة

« تحرر فى النصف الثانى ، من اليوم العاشر لشهر يوليو سنة ١٨٨٢

« بناء على رسالتى التلغرافية المرسلة اليكم مساء أمس أخبروا الحكومات التى أنتم نائبون عن حكومتنا لديها بأن ما سيجريه الأميرال سيمور بالاسكندرية لا يكون الا من قبيل الدفاع والمحاماة عن الأسطول ، ولسوء الحظ لم نر بدا من ذلك غير أننا مع ذلك نصرح ان ليس لنا أرب خفى أو نية غير بينة

« وقد اتضح لنا من تقرير الأميرال ان حكام الاسكندرية قد استمروا على تحصين القلاع والاستحكامات مظهرين العدوان والبغضاء نحونا بالرغم من نواهى الحضرة الشاهانية وأوامرها الصادرة لهم بالكف عن التظاهر بالأمور العدائية وخلافا لارادة الخديو ، بل ونقيضا لما أبدوه لنا مرارا من مسالمتهم ومصافاتهم لنا »

وفى الرسالة التلغرافية المرسلة بهذا الصدد الى اللورد دوفرين بالآستانة زيادة هذا تعريبها :

« وهذا حرص منا على مصلحة الجناب السلطانى ، الذى خالف الثائرون أوامره ، ونبذوا مشوراته ووصاياه نبذ النواة »

وقد قدم وكلاء انجلترا هذا الكتاب الى حكومات أوربا ، وفى جملتهم اللورد دوفرين وكيلها بالآستانة الذى بعد أن قدم للباب العالى الصورة التى أرسلت اليه كتب الى اللورد غرنفيل ناظر خارجية دولته ما يأتى :

« من الآستانة فى ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢

« سيدى اللورد

« أرفع الى حضرتكم صورة الكتاب الذى عرضته على الباب العالى مبينا فيه عزم الأميرال سيمور على ضرب قلاع الاسكندرية اذا لم تستسلم له وهو :

« الى حكومة الباب العالى

« ان سفارة انجلترا تخبر الباب العالى انه بناء على استمرار حكام الاسكندرية فى تحصين قلاعها وتقوية استحكاماتها يعلن الأميرال سيمور فى صباح هذا اليوم بعزمه على رميها بنار المدافع بعد أربع وعشرين ساعة ، اذا لم تستسلم الحصون له وتكف عن التظاهر بالعدوان »

« كتب فى ترابيا (مقر سفارة الانجليز بالآستانة) فى ١٠ يوليو سنة ١٨٨٢ »

قال : « وبعد أن قدمت هذا الكتاب بصفة رسمية ذهبت الى المابين الهمايونى لأقف على أفكار الحضرة السلطانية ، وأرى اذا كان من الممكن العدول عن مباشرة القتال ، فأجابنى الجناب الشاهانى « ان حكومته تلقى الى فى بكرة الغد (أى عند الخامسة أفرنكية من الصباح) جوابا رسميا باتا على كتابى الذى تقدم ذكره » ثم طلب الى تأجيل اطلاق المدافع على الاسكندرية ، فأجبته : « انى أرفع هذا النبأ الى حضرتكم ، ولكنى لا أظن أن الأميرال سيمور يستطيع العدول عما صمم عليه اذا لم يمتثل رجال الحصون لاشارته وينفذوا طلبه »

التوقيع : دوفرين

وبعد ذلك أرسل اللورد دوفرين الى الأميرال سيمور تلغرافيا ما يأتى :

« لست أدرى ما هى الأوامر التى ألقيت اليك من حكومتنا ، وهل أنت مفوض بالتماهل عند اللزوم أم لا ؟ فاذا كان الأول فلا بأس من تأجيل العمل ثلاث ساعات أو أربعا ليتمكن اللورد غرنفيل فى خلالها من النظر فى جواب الحكومة العثمانية ، فربما كان كافيا لتعديل ما تقيد اجراؤه ، وذلك لأن هذا الجواب المنتظر لا يمكن وصوله الى قبل الساعة التى عينتموها لمباشرة القتال »

التوقيع : دوفرين

ضرب الاسكندرية

لا يجهل أحد نتيجة ما كان من أمر هذه المخابرات فان نار المدافع صبت على القلاع والحصون والترسانة وسراى رأس التين ، وبالجملة على جميع أرجاء المدينة صباح الثلاثاء الواقع فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ولم تجاوبها مدافع القلاع الا بعد أن أطلق الأسطول نحو ٢٠ طلقة من مدافعه ، ثم استمر القتال بين الأساطيل الانجليزية وقلاع الاسكندرية

بعد ذلك الى منتصف النهـــــــار ، ومن ثم أخذت نيران الاستحكامات فى التناقص والاضـمحلال حتى تم تدميرها قبيل الغروب

وحيث كانت استحكامات الاسكندرية قديمة كما هـو معلوم وجميعها مبنية بالأحجــار من مدة ٦٧ سنة أو ٧٠ سنة وقد باغتنا الانجليز بالعدوان على غير استعداد منــا ولا تأهب ، فقد كان تأثير شظايا الأحجار المتناثرة وضررها أكثر من تأثير مقذوفات العدو نفسها

أعمال الدفاع فى الاسكندرية

من المعلوم أن للاسكندرية عدة حصون وقلاع ومتاريس وأبراج مستديرة ولكن أكثرهامسلحة بالأسلحة القديمة التى لا تصلح لمقاومة الدوارع الانجليــــزية ، غير أن فى بعضها مدافع أرمسترونج وهى وحدها الأسلحة النـارية التى تصلح لخرق دروع السفن الانجليزية

بيان الحصون

كان فى الجبهة الغربية ازاء ممر مريوط حصن من أمنع الحصون بالاسكندرية وأهمها ، يسمى حصن مريوط وهو واقع فى الجزيرة المسماة بهذا الاسم ، فقد كان هذا الحصن مسلحا بأربعة مدافع ضخمة منها مدفعان من زنة (١٨ طنا وقطره ٨ أباهم) واثنان من زنة (١٢ طنا وقطره ٩ أباهم) وثلاثون مدفعا من المدافع الصغيرة وخمسة مدافع من مدافع الهاون

ووراء حصن مريوط ، أى فى الرأس الغربى من الفرضة حصن آخر يعرف بحصن (العجمى) وكان هذا الحصن مسلحا كحصن مريوط

وبعد هذا الحصن حصن المكس وهو على مرتفـــع من

الأرض ، وظيفته الدفاع عن مدخل الميناء ، وبين حصن مريوط وحصن المكس استحكامات معززة بالمدافع

وكان حصن المكس معززا باحدى وثلاثين قطعة من المدافع منها أربعة مدافع من ذوات العيار الأعظم (أرمسترونج)

وتمتد على طول خط المرفأ القديم الى الميناء عدة متاريس واستحكامات. وهي : طابية (القمرية) ، وفيها خمسة مدافع ، وطابية (أم كبيبه) وفيها ١٨ مدفعا ، ثم برج مستدير وفيه مدفعان وحصن (صالح) المسمى بطابية صالح وفيه ٢٤ مدفعا

أما الجهة الأخرى من المرفأ القديم ففيها قلعة الفنار ، وهي قلعة مشرفة على المينا الداخلية معززة بأربعة وعشرين مدفعا ، منها ٥ من طراز أرمسترونج قطر أحدها عشرة أصابع وزنته ١٨ طنا ، وقطر كل من الأربعة الأخر تسعة أصابع وزنته ١٢ طنا

وفي رأس التين عدة بطاريات مسماة باسمها مسلحة بسبعة عشر مدفعا أرمسترونج ، منها بعض قطع من ذوات العيار الكبير ، ومدفعان عظيمان من نوع المونكريف يتحركان صعودا وهبوطا

وفي الجهة الشرقية يوجد الحصن المعروف بطابية (اطه) وفيه ١٢ مدفعا منها ٣ أرمسترونج زنة كل منها ١٢ طنا وقطره ١٠ أصابع

وعند منتهى خط شبه الجزيرة يقوم الحصن المعروف بحصن (قايدباى) وهو مبني بالحجر ، وفيه ١٢ مدفعا وهذا الحصن يشرف على سطح البحر الواسع ووظيفته أن يكون متوليا حماية مدخل المينا الشرقية ، ويشترك معه فى هذه الحماية الحصن المعروف بحصن (نابليون) القائم على رأس شبه جزيرة ضيقة فى الجهة الأخرى من المينا

المذكورة ، ممتدا الى داخل البحر يحميه حصن مهم يعرف بطابية السلسلة

ويكتنف الاسكندرية من جهة اليابسة سورها الغربى القديم الباقى منه فى جهة باب رشيد بعض آثار تدل على شهرته ومنفعته في الدفاع ؛ وتحتاط بها عدة متاريس واستحكامات قائمة على مرتفعات متوجة بها وهي مطلة على بحيرة مريوط ومياه ترعة المحمودية الجارية بين هذه المرتفعات والبحيرة المذكورة • وكل هذه الأبنية من بقايا الحصون التى أنشأها الفرنسيون حوالى المدينة أيام الحملة الفرنساوية ، حيث كانت معززة من الخارج بكل من حصون كافاريللى المعروف بحصن نابليون (أو كوم الناضورة) وحصن كريتين أو (كوم الدكه) ومتراس كيلوباترا ، والحصنان الأولان وهما حصن كوم الناضورة وحصن كوم الدكه مرتكزان فى قلب المدينة اليوم لقيام الأبنية من حولهما ، ولكن أهميتهما الحربية مفقودة ، لعدم وجود أسلحة من أسلحة الحصون العظيمة فيهما • والحصن الأول منهما مطل على داخلية المرفأ القديم ، وهو عظيم شاهق الارتفاع ، فقد كان لا يوجد فيه من مدافع أرمسترونج الا مدفع واحد زنته ١٢ طنا وقطره ١٠ أصابع • وعند باب العرب استحكامات تعادل حصن المكس علوا وارتفاعا تقفل لسان الأرض الواقع بين البحر وبحيرة مريوط • وهى واقعة الى ما وراء المقطع القديم الذى خرقه الانجليز عام ١٨٠١ قبل خروجهم من مصر ليدخلوا به مياه البحر الى البحيرة فأغرقت يومئذ قرى كثيرة وتحولت به صحراء واسعة يابسة نافعة الى مستنقع ردىء مضر

هذه كانت حالة الاسكندرية من الحصون والاستحكامات قبل أن ترميها الانجليز بنيران أساطيلها فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢

ايضاح وبيان

من المعلوم ان أساطيل الانجليز داهمتنـــا بالحرب ولم نأخذ لها أهبتها ، ولم يكن يوجد بالاسكندرية من حاميات الحصون المصرية غير ٧٠٠ رجل فقط من رجال المـدافع ، فلذلك وزعت عساكر الطوبجية البـــرية مع ما يلزم من عساكر البيادة (المشاة) على الحصـــون والقلاع الموجودة على خط النار ، وكذلك وزعت عساكر الأربع آلايات البيادة على خط الاستحكامات من حصن السلسلة الى طابية المكس. فكان الآلاى الثانى حكمدارية خليل بك كامل شاغلا خط النار الموجود بين طابية المكس وباب العرب وطابية العجمى والآلاى الخامس حكمدارية مصطفى بك عبد الرحيم مشتغلا بمساعدة استحكامات الفنار ورأس التين والآلاى السادس حكمدارية سليمان بك سامى منوطا بمساعدة طابية صالح الى الترسانة ، والآلاى الرابع حكمدارية عيد بك محمـد بجهة (أم كبيبة) الى باب العرب وأمامه قومندان برنجى آلاى سواحل محمد بك أمين كان قائما بتنظيم القتال فى طابية الفنار ، ومعهم الشهم الغيور ســـيف النصر بك وكذلك البطل المغوار الزبير باشا رحمت ، وقومندان ٢جى أورطة سواحل اسماعيل بك صبرى كان يدير مركز القتال فى طابية (اطه)

وكان كل آلاى من الآلايات البيادة (المشاة) مؤلفا من ثلاثة آلاف رجل فيكون مجموع العساكر البيـــادة الذين وجدوا فى ثغر الاسكندرية يوم قتال الانجليز اثنى عشر الفا وسبعمائة من رجال طوبجية السواحل .

ومن المعلوم أن الجيش المصرى كان مؤلفا من ثمانيـــة آلايات من البيادة وثلاثة من الخيالة (الفرسان) وآلايين من

الطوبجية البحرية المخصصين بســاحات القتال وثلاثة آلايات من الطوبجية السواحل المخصصين لحماية الثغر ، وفرقة من رجال الهندسة ومجموع ذلك فى حالة استكمال الفرق والآلايات يبلغ « ستة وثلاثين ألفا » وفى مدة الحرب يبلغ « اثنين وسبعين ألفا » وذلك عدا العربان والمتطوعين فكان جملة الجراية التى تصرف لجميع العساكر والمتطوعين والخدم المشتغلين بالتجهيزات الحربية والذخائر والمــؤونة ١٢٠ ألف جراية أو ٩٠ ألف أقة

أما نوع الأسلحة فللمشاة منها بنادق بحراب من نوع (رمينكتون) وللفرســان سيوف وغدارات مسدسة وللطوبجية مدافع من الفولاذ مضلعة من طراز (كروب)

وفى القاهرة مسلحة كبيرة ومعمل للبنادق وآخر ببولاق لصب المدافع وفوريقة عظيمة لعمل البنادق والمدافع أنشئت فى طره ولكنها لم تكن قد كملت قبل نشوب الحرب وبناؤها باق للآن

نشوب القتال

أطلقت البارجة الكسندره مدفعها الأول في الســاعة السابعة والدقيقة أربعة من صباح ١١ يوليه سنة ١٨٨٢ وتلتها باقى المدرعات الانجليزية بطلقات عديدة ، وبعد ٥ دقائق أجابتها القلاع بنار شديدة حامية ، واستمر القتال على هذا الحال الى قبيل الغروب حتى تهدمت الاستحكامات وتعطلت المدافع من جراء مقذوفات المراكب الهائلة . ومن الأسف أن مقذوفات المدافع القديمة كانت لا تصــل الى المراكب الانجليزية ومدافع الارمسترونج لم تكن لهامساطر تعرف بها المسافات ، وتحكم الاصابة بواسطتها ، اللهــم الا مسطرة واحدة ، كانت فى محــل التعليم بالعباسية (بالبلجون) استحضرت ليلا ، وسلمت الى الشهم المقدام

سيف النصر بك قومندان طابية الفنار فكان يطلق المدافع بنفسه وينتقل من محل الى آخر ويحكم الاصابة بواسطة المسطرة المذكورة ، فكان معظـــم الدوارع التى تعطلت من جراء المقذوفات التى أحكم هو اطلاقها ، ولو كانت مدافع الارمسترونج كلها ذات مساطر لأمكنها تعطيل جميـــع الدوارع الانجليزية بما تقذفه من المقذوفات الصائبة

وفى أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنســـاء فى خدمة المجاهدين ومساعدتهم فى تقديم الذخائر واعطائهـم الماء وحمل الجرحى منهم وتضميد جراحهــــم ونقلهم الى المستشفيات

وكنا مع جميع النظار فى طابية كوم الدماس للاشراف على مواقع القتال فكتب راغب باشا رئيس النظار الى جميع مصالح الحكومة والمديريات والمحافظات يعلنهـــا بانتشاب الحرب بين الانجليز والمصريين ظلما وعدوانا بلا سببمعقول وانّ البلاد جميعها صــارت تحت الادارة العرفية والأحكام العسكرية

وحدث أن اشتعلت النار فى سراى رأس التين وكثير من بيوت الاسكندرية من تأثير مقذوفات العمـــارة الانجليزية نعرف منها بيت (اجيون) الكائن بجوار النبى دانيـــال وبيت الخواجه ابراهيم بيما وبيت الخواجه يوســـف نصر ومعمل الخواجه دهان وكثيرين غيرهم • فخصصت العساكر الطلمبات « آلات المطافىء » لاطفاء حريق سراى رأس التين وغيرها من المحلات التى شبت النار فيها

وقبيل غروب شـــمس ذلك اليوم حضر طه باشا لطفى وسليمان باشا أباظه وحســـين بك الترك من قبل الخديو ومحيى الدين بك ياور من قبـــل درويش باشا وهو ياور المندوب السلطانى المذكور ليبلغونا سلام الخديو ودرويش

باشا وثناءهما على صبر العساكر وثباتهم العجيب تجاه قوة الدوارع الهائلة

وقد استشهد فى ذلك اليوم من جميع الطوابى مائة رجل وامرأتان من المتطوعات اللواتى كن يضمدن جراح الجرحى ، وفى اليوم نفسه حضر محمود باشا سامى البارودى من القاهرة للاشتراك معنا فى الدفاع عن البلاد وبعد الغروب توجهنا مع النظار الى سراى الرمل وعرضنا على مسامع الخديو ودرويش باشا ما حصل فى ذلك اليوم وان الاستحكامات تخربت والمدافع تعطلت فحصلت المداولة فى هذا الشأن بالمجلس تحت رئاسة الخديو بحضور درويش باشا ورئيس مجلس النواب وتقرر فيه بأنه اذا عاودت المراكب الانجليزية الضرب فى صباح ١٢ يوليو فلا تجاوبها القلاع بل ترفع الراية البيضاء علامة للمخابرة مع الأميرال فى توقيف الحرب واعادة الصلات الودية حيث قد تحصل الأميرال سيمور على غرضه بتخريب القلاع وتعطيل المدافع ثم توجهت بعد ذلك مع راغب باشا رئيس النظار الى بيته الكائن على ترعة المحمودية وأرسلنا الأوامر اللازمة الى رؤساء القلاع والمعاقل وقضينا تلك الليلة فى المحل المذكور

وفى صباح يوم ١٢ يوليو جاءنا رسول من قبل الخديو يدعونا اليه فتوجهنا مع راغب باشا تلبية لدعوته • وكان فى الرمل فأخبرنا بأنه قد حضر قسم من العسكر الى السراى وسألنى عن سبب حضورهم فأجبته بأن لا علم لى بذلك ولعلهم حضروا لتقوية الحرس ، فقال لا لزوم لذلك ، فان فرقة الفرسان الموجودة هنا كافية ، فمرهم بالرجوع الى مكانهم ، فتوجهت الى القشلاق ووجدت أربعة بلوكات من آلاى سليمان بك سامى ومعهم الصاغ على أفندى أبو غنيمة (أوهشيمة) فسألته عن سبب حضوره بالعساكر الى سراى الخديو ، فقال ان حكمدار الآلاى سليمان بك أمره بذلك ،

فحضر لتقوية الحرس الخديوى ، فأمرته بالعودة الى آلايه مع عساكره لعدم الحاجة لتلك التقوية

سيمور يرفض الهدنة

وفى صباح اليوم المذكور أطلقت البوارج الانجليزية مدافعها على القلاع فرفعت هذه الراية البيضاء علامة للمخابرة وتقرر ارسال طلبه باشا عصمت الى الأميرال سيمور لابلاغه ما تقرر من ايقاف الحرب واكتفاء بما حصل من التخريب والدمار فذهب وقابل مندوب الأميرال فى الترسانة وأخبره بما ذكر ثم توجه المندوب المذكور برفاص صغير الى الأميرال المذكور وأخبره بما تلقاه من طلبه باشا فلم يقبل ولم يرجع بالجواب الا بعد العشاء فذهب طلبه باشا الى الخديو وأخبره بما كان من عدم قبول الأميرال واصراره على الرفض ۰ ثم عاد الينا وأخبرنا بما حصل ۰ وفى الساعة العاشرة من اليوم المذكور رجعت من سراى الرمل الى الاسكندرية مع راغب باشا ۰ فلما وصلنا الى قرب الباب الشرقى وجدنا المهاجرين من الأهالى رجالا ونساء وأطفالا مزدحمين ازدحاما شديدا ومختلطين بالعساكر الفارين الذين آل أمرهم الى الخذلان المعيب ، فتركوا ضباطهم ومواقعهم الحربية عندما رأوا رفع الراية البيضاء

ومن شدة الازدحام لم نتمكن من الوصول بواسطة العربة فتركت راغب باشا فيها وسرت ماشيا على قدمى أتخلل الناس حتى وصلت الى ساحة الباب الشرقى فوجدت بعض الضباط هناك من آلاى عيد بك محمد ومعهم نصف أورطة من العساكر وباقى الآلاى ذهب الى حيث ذهب الفارون وأخبرت ان عساكر الطوبجية تركوا الاستحكامات وتوجهوا الى بلادهم مع أهالى الاسكندرية وقد اقتدى بهم عساكر البياده

وكذلك بلغنى ان سليمان بك سامى هائج هياجا شديدا

وانه قد حضر ومن معه من العساكر الى المنشية وانه يريد حرق الاسكندرية قبل تركها للعـدو وان عساكره كسرت بعض الدكاكين وأخذت منها بعض الأقمشة فأرسلت اليه ابراهيم بك فوزى وعمر بك رحمى وغيرهما من الضباط لمنعه عما عزم عليه واخطاره بسرعة الحضور الينا بمن معه من العســـاكر • فحضر ولما سألته عما نسب اليه ، أنكره كل الانكار • ثم توجه الى عساكره وجمع ما وجده معهم من الأقمشة وأشعل فيها النار • ولما رأيت ذلك وبخته كثيرا وبرأت من عمله هذا الى الله وأشهدت عليه الأرض والسماء وجميع الحاضرين بأنه هو المسؤول عن عمله الفظيع دون غيره

وقع الرعب والفزع فى قلوب العساكر ودب فيهم دبيب الفشل واستولى عليهم الخذلان فتشتت أكثرهم لهـــول ما رأوا من تخريب الطوابى ولما رأيت ذلك ، وعلمـت انه لا يقدر على جمع الجيش بعد تفرقه وخذلانه الا القليل من القواد الموفقين حاولت أن أوفق الى جمـع شتاتهم فخرجت بمن أمكن جمعهم فى الغروب الى جهة حجر النواتية وهناك ضرب النفير نوبة جمع فتوارد بعض المنتشرين فى الفضاء

الخديو يلجأ للانجليز

وفى صباح ١٣ يوليو سنة ١٨٨٢ توجهت بمن اجتمع عندى من العساكر الى عزبة خورشـيد ثم الى كفر الدوار واتخذناها مركزا حربيا ثم كتبت الى محطات السكة الحديد والمديريات والمحافظات بسرعة ارجاع العساكر الى كفـر الدوار للمدافعة عن الوطن ومن ثم أخذنا فى انشـــاء استحكامات خفيفة وتحصين التلال القديمة وجعلنا الخط الأول من الاستحكامات عند عزبة خورشيد خلف الملاحة

وفى يوم ١٥ يوليو أمرنا بارسال قطار الخديو بالسـكة الحديد لركوب الخديو وعائلته من سراى الرمل وحضوره

الى عاصمة بلاده ، وقطار آخر لركوب الذوات والعساكر الذين بمعية الخديو ، فلما رأى الخديو ذلك أسرع في التوجه الى سراى رأس التين ومعه عائلته والذوات والنظار والعساكر تحت رحمة الانجليز ورعايتهم ، وقد وضح انحيازه الى العدو المحارب لبلاده ، وتم له ما أراد ، مما غاب عنا علمه !

وقد رفض الخديو الرجوع الى عاصمة بلاده، ولما وصل ومن معه الى سراى رأس التين استقبلهم الأميرال والضباط الانجليز في ردهة السراى الكائنة على رأس السلالم ثم أمر باحاطة السراى بالبوليس الانجليزى وقرر الأميرال سيمور وقنصل انجلترا الجنرال والمستر كولفن تعيين المستر أورستستين ترجمانا بينهم وبين الخديو • وكان من واجباته أن لا يفارق السراى وأن يراقب كل ما يجرى فيها ويقدم به بيانا ضافيا فكان يتناول الطعام مع الخديو فى الصباح والمساء على مائدة واحدة • وهكذا صار الخديو تحت رحمة الانجليز بمحض ارادته يأتمر بأمرهم ، وينفذ ارادتهم والأمر لله من قبل ومن بعد.

تحصينات كفر الدوار

لما جمعنا العساكر في كفر الدوار أنشأنا الاستحكامات وعززناها بالمدافع الحربية الممتدة من عزبة خورشيد الى كفر الدوار ، ومن ترعة المحمودية الى أرض الملاحة وحفرنا خندقا عرضه أربعة أمتار

وقد جعلنا خط الدفاع فى المقدمة عن عزبة خورشيد على طول الخط من المحمودية الى الملاحة أيضا وجعلنا ما وراء هذا الخط من التلال والمرتفعات مواقع محصنة بمدافع (كزوب) وكذلك التلال الموجودة بين المحمودية وسد أبى قير ، وقد تم اجراء هذه الأعمال الدفاعية بمعرفة المهندس الحربى العظيم محمود باشا فهمى ورجال الهندسة

الحربيين ، ومساعدة خمسة آلاف رجل من أهالى مديريات الغربية والمنوفية والبحيرة

وقد استحضرت الأخشاب اللازمة لسد ترعة المحمودية، وذلك لمضايقة الانجليز في الاسكندرية وحولت مياه النيل الى الأراضي المالحة الكائنة بين المحمودية وسد أبى قير ، الى الرمال أيضا لمنع العدو من الانتفاع بها أولا ، ثم لاحياء تلك الأراضى واصلاحها بماء النيل العذب

وقد سار اللواء خورشيد باشا طاهر من رشيد بالآلاى الرابع حكمدارية محمد بك أمين ، وتبوأ نقطة أبى قير لمنع هجوم الانجليز من تلك الجهة

هزيمة الانجليز فى أبى قير

وفى ٢٦ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من[١] خورشيد باشا طاهر قال فيه ما يأتى :ــ

« ظهر العدو من جهة الرمل بأورطتين مشاة وأورطتين سوارى ومعه مدفعان يحاول وضعهما على ربوة على بعد ١٥٠ متر من المستحكم الطبيعي الموجود أمام عساكرنا » ، فقابله كل من احمد افندى البيار البكباشى ومصطفى أفندى حسان البكباشي بالأورطتين بيادة وأورطتين سوارى ، وأرسلا خبراً الى خورشيد باشا المشار اليه ٦- فأسرع بثلاثة بلوكات من السوارى الى ميدان القتال فوجده كثير الرمال فأبطل ضرب نار البيادة وفتح السوارى فى هيئة (جرخاجية) وهجم على العدو وأصلاه ضربا مبرحا حتى الجاه الى التقهقر خلف الربوة التى كان يحاول وضع المدفعين عليها ، وهناك اختفى العدو فى النخيل وولى منهزما

« وقد أصيب حصان من خيلنا ، ولم يستشهد أحد من عساكرنا الأبطال ، وكان ابتداء القتال فى الساعة الاولى من النهار وانتهاؤه فى آخر الساعة الرابعة ، فمدة القتال ثلاث

ساعات ونصف أبلت فى خلالها رجالنا بلاء حسنا ولم تعرف خسائر العدو لرفعها من الميدان أولا فأولا »

هزيمة الانجليز
فى معركة عزبة خورشيد

وفى ٢٧ يوليو ظهر قطار مقل لعساكر انجليزية آتيا من سكة القبارى ، فلما قرب من المقدمة بمسافة (١٥٠٠ متر) أطلق عليه البكباشى محمد افندى حشمت مدفعا عظيما من نوع كروب ، فأصاب القطار وأوقف سيره ، فنزلت العساكر وتقدمت الى الأمام بقيادة الجنرال (اليزون) الذى رتب جيشه على أربع فرق تحت حكمدارية الميرالاى (طوسون) والماجور (سترنج) والقبودان (أدج) فى صورة قلب وجناحين ، فلما قربوا على مسافة ٨٠٠ متر اشتبكوا فى القتال مع أورطة محروت افندى البكباشى وأورطة المستحفظين حكمدارية محمد افندى فودة الذى اظهر من الشجاعة ما يقصر اليراع عن وصفه . ولما اشتد القتال بين الطرفين تقدم الرجل الشجاع احمد بك عفت حكمدار المقدمة ومعه أورطة سليمان افندى تعيلب ، وأورطة رزق افندى حجازى البكباشى ، وأصلوا العدو نارا حامية ، ثم قام فى الحال طلبة باشا عصمت قومندان فرقة كفر الدوار ، ومعه الالاى برنجى سوارى حكمدارية احمد بك عبد الغفار ، وحرك الأورط جهة المقدمة ، فتقارب الجيشان واختلط الفريقان وتقاتلوا بالسلاح الابيض وجها لوجه ، ولما اظلم الليل وضعفت قوة العدو قفل راجعا متقهقرا وعساكرنا فى أثره تأخذ عليه الطرق ، وتضيق عليه السبيل وتضربه حتى حال الظلام بين الفريقين . وكان ابتداء القتال فى الساعة التاسعة نهارا (على الحساب العربى) وانتهاؤه فى منتصف الساعة الثامنة . فمدة القتال ست ساعات

وعند تفقد عساكرنا وجد أن المستشهدين ٢٩ جنديا وصف ضباط واستشهد الملازم الشجاع احمد افنـدى على . وأما الجرحى فهم البكباشي محروت أفندى الذى توفى بسبب جراحه ، واثنان من الملازمين و ٦٥ جنديا وصف ضباط

ولقد أبدي كل من الضباط والعساكر من الشهامة والثبات فى هذه الموقعة ما يستحقون من أجله الثناء الجميل فى الدنيا وعظيم الأجر فى الآخرة

أما خسائر العدو فكانت عظيمة وقد ترك عساكر الانجليز بميدان القتال ١٧ جثة منها الملازم (ديز) وصار دفنه فى جسر المحمودية وقد شوهد الكثير من عساكر الانجليـــز يحملون قتلاهم وجرحاهم ،. وفى اليوم الثانى كانت ساحة القتال مشوهة بالدماء وآثار جر الموتى ظاهرة فيها

تلغراف الخديو بعد انحيازه الى الانجليز

فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من رأس التين الينا بكفر الدوار يقول فيه : « اعلموا ان ما حصل من ضرب المدافع من الدونمه الانجليزية على طوابى الاسكندرية وتخريبها ، انما كان السبب فيه استمرار الأعمـال التى كانت جارية بالطوابى ، وتركيب المدافع التى كلمـــا كان يصير الاستفهام عنها ، كنتم تخفونها وتنكرونها . والآن قد حصلت المكالمة مع الأمــــيرال فأفاد بأنه ليس للدولة الانجـليزية مع الحـكومة الخـديوية خصومة ولا عداء ، وان ما حصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهـــــديد والتحقير للدونمة ، وانه اذا كان بيد الحكومة الخديوية جيش منظم وممتثل ومؤتمن ، فهو مستعد لتســـليم مدينـــة الاسكندرية اليها ، وكذلك اذا حضرت عســـاكر شاهانية فالحكومة الانجليزية تحترمهم وتسلم المدينة اليهم ، فقد تحقق

من هذا ان الحكومة الانجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية ، وانه تقرر من جميع الدول المعظمة فى المؤتمر بانه لا يصير مس امتيازات الحكومة ولا حريتها ولا مس حقوق الدولة العلية ، بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت وأن يصير ارسال عساكر شاهانية لأجل استتباب الراحة فى مصر . فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وكافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لأجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشفهية على حسب أمرنا هذا ، وما استقر عليه رأى مجلس النظار »

جوابنا على ذلك

تلغرافيا فى ١٧ يوليو ١٨٨٢

« مولاى

« فى شريف علم مولاى المعظم ان المحاربة التى وقعت بيننا وبين الانجليز انما تسببت عن طلبات الأميرال الانجليزى وبلغت مسامع عظمتكم ، وعرضت على مجلس نظاركم « المنعقد تحت رياسة سموكم » بحضور كثير من ذوات البلاد المنتخبين ودرويش باشا نائب الحضرة السلطانية ؛ ولما تحقق عند جميعهم أن هذه الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن البلاد ، قر رأيهم على معارضة طلب الأميرال ولو أدى ذلك الى الحرب

« وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور لزوم زيادة ٢٥ ألف عسكرى وصدرت الأوامر الى المديريات بطلبهم ، وقرر المجلس أيضا أن لا تطلق المدافع الا بعد اطلاق ٥ طلقات من السفن الانجليزية . ولما ابتدأت السفن باطلاق النار على مدينة الاسكندرية لم نقابله الا بعد ٢٠ طلقة ، ولم يكن عندنا قبل وقت الضرب أدنى استعداد لاستمرار الأوامر بعدم الاستعداد . ثم أعلن حضرة رئيس مجلس

النظار وناظر خارجية حكومتكم الى جميع جهـات الادارة بأنه قد اشتبكت البلاد فى حرب مع الانجليز وانها صارت تحت الاحكام العسكرية كما هو حكم القـانون فى زمن الحرب

« فلهذه الأسباب يا مـولاى تكون حكومتكم الخديوية المصرية محاربة لدولة الانجليز بوجه الحق والشرع ، ولم يحصل من الحكومة ولا من عساكرها أدنى تحقير ولا ازدراء بالدونتمة كما هو معلوم لدى عظمتكم • وانما كان الحرب عدوانا من الانجليز على الحكومة التى لم يبد منها أدنى شىء يستوجب الحرب ، فان كان الأميرال أظهر فى مخابرته مع سموكم انه عدل عن المحاربة الى المسالمة ، فذلك بعد وقوع الحرب يعد طلبا للصلح وسعيا وراء تجديد العلاقات ؛ ولا يجوز أن يكون انكارا للحرب وتبرؤا من العـدوان بعـد وقوعهما ، ولا شك انى أوافق على أفكار سموكم فى الميل الى الصلح مع حفظ شرف البلاد والحكومة، وان كان الأميرال يريد تسليم المدينة لجيش حكومتكم المنظم بعد أن تخربت بمدافع السفن الانجليـزية هدما وحرقا ، فها هو جيشها المنظم الذى لم يقع منه أدنى أمر يخل بالنظام ، مسـتعد لأن يتسلمها بعد أن تبرح المراكب مياه الاسكندرية •ولو انها ضربت المدينة بمدافع سفنها • وللمحافظة على شرف حكومتكم الوطنية ينبغى الاسـتمرار على الاستعدادات العسكرية كما يوافق ذلك رأى سموكم أولا حتى تفـارق المراكب السواحل المصرية خوفا مما عساه أن يحدث من قبيل ما سبق ، فقد صارت الحادثة الماضية برهانا جليا على أن المسالمة بالوعد من الانجليز لا يمكن كمال الثقة به ، وانما هو لأجل اشتغالنا عن الاستعدادات ، واقتـراح مطالب تضر بصالح البـلاد . واننى كنت أتمنى أن أمثل بين يدى عظمتكم لابداء هذه الملاحظات لو كنتم فى عاصمة

بلادكم ، ولكن من الأسف أن تحقق عندنا تحيز سموكم الى العدو المحارب لبلادكم ، بدليل رفضكم العـــودة الى العاصمة وقت ارسال القطار الخديوى لسموكم، واختياركم الذهاب الى رأس التين ومعكم النظـــار وغيرهم من الذوات بعد علمكم بأن المدينة مشغولة بعساكر الانجليـــز اجابة لرأى المستر (كلفن)

« فان كنت يا مولاى حرا ، فيجب حضوركم الى عاصمة البلاد ، وان كنت أسيرا لدى الانجليز أو متحيزا اليهم ، فلا يمكن التسليم بقبول ما يكتبه العدو عن سموكم ، أو عن لسان رئيس النظار وزملائه والأمر لمن له الأمر

(الامضاء) ناظر الجهادية

أحمد عرابى

وارسلت كتابا الى وكيل الجهادية يعقوب سامى باشا فى ١٧ يوليو سنة ١٨٨٢ ، هذا نصه :

« لا يخفى على سعادتكم ما حل بالديار المصرية الشاهانية من البلاء الذى كان نتيجة الدسائس ، التى كانت عاقبتها جلب المراكب الانجليزية بقصد العدوان على بلادنا الاسلامية وعند حضورهم واقامتهم بثغـــر الاسكندرية ، أخذوا فى اقتراح التكليفات الباهظة علينا ، مثل امرهم لنا بتنزيل المدافع من الاستحكامات وأعطائهم ما وراء طابية المكس من الأراضى ليتخذوها معسكرا لهم ، وغير ذلك ، ولذا اجتمع مجلس فوق العادة بأمر الخديو مؤلف من حضرات النظـار وعدد غفير من الذوات المدربين تحت رئاسة الخديو • وبعد التذاكر فى اقتراحات الإنجليز ، قرر المجلس المشار اليه حفظ شرف الأمة وكرامتها بالمدافعة عن العرض والوطن ، وكان ذلك بحضور حضرة درويش باشا منـدوب الحضرة السلطانية

« وبعد أن تمت هذه المذاكرة فاجأتنا مراكب الانجليز

واخذتنا على غرة منا وضربت المدافع على مدينة الاسكندرية ، ولما تم عدد الطلقات ٢٠ طلقة وكانت المدافعة واجبة شرعيا، قابلناهم أيضا بالضرب واستمر الحرب بين الفريقين نحو ١٠ ساعات دمروا فى غضونها أغلب طوابى الثغر المذكور وأحرقوا مساكنه ففر جميع الأهالى من المدينة

« ولما حصلت المخابرة مع الأميرال فى الصلح والاكتفاء بما حصل ، أبى وتجبر وتوعدنا بحرق المدينة وتدميرها بعد ساعة ونصف ان لم تسلم اليه جميع الطوابى

« هذا وقد حصل الخذلان ودب الفشل بين قلوب العساكر، فتركوا مراكزهم وفروا الى مداخل البلاد ، ولذلك توجهنا بمن أمكن حجزهم من العساكر الى كفر الدوار واتخذناه مركزا للدفاع عن البلاد ، وأمرنا بسرعة جمع العساكر الفارين فحضروا عاجلا بواسطة السكة الحديد . ثم أرسلنا القطارات الخديوية لتقل الخديو ومن معه الى عاصمة البلاد فما كان منه الا أن التجأ بمن معه من الخدم والذوات وعساكر الحرس الى الاسكندرية وعند وصولهم الى رأس التين استقبلتهم الانجليز بالترحاب ، وفى الحال جردوا عساكرنا الذين كانوا حرسا على الخديو من السلاح وأخذوا خيولهم واستخدموهم خدما لهم مرشدين فى أنحاء المدينة التى خربوها وكانوا يقتلون كل ، قابلوه من الوطنيين ثم صدر أمر الخديو الى رئيس مخبز اسكندرية بارسال الخبز الى عساكر الانجليز ومنعه عن العساكر المصريين

« وقد تلقينا الآن التلغراف المرسل من الخديو وهو مرسل مع هذا لسعادتكم ومعه أيضا صورة الرد الذى أرسل منا اليه لكى تعقدوا مجلسا من الذوات والعلماء ومجلس النواب والأعيان وتطرحوا هذه الأحوال أمامهم للمذاكرة فيها ، والبت فى السير على خطة تقررونها ثم تحررون قرارا بما ترونه فى صالح البلاد وعما اذا كان

يجوز شرعا **وقوع ما حصل من الخديو من التحيز الى العدو المحارب لبلاده أم لا ؟**

« وبعد امضائه فيدونا للعمل بموجبـــه ، وداوموا على اهتمامكم بالتجهيزات العسكرية أفندم »



المؤتمر الوطنى

اجتماع الداخلية

بناء على الكتاب الذى أرسلناه الى وكيل الجهادية يعقوب باشا سامى ـ وهو المنشور فى الفصل السابق ـ دعا كثيرا من الذوات والأعيان وكان عدد الذين لبوا الدعوة نحو ٧٠ شخصا والاجتماع فى ديوان الداخلية ، وبعد المداولة والمذاكرة قرر الحاضرون وجوب الاستمرار فى اعداد التجهيزات الحربية واستدعاء النظار من الاسكندرية وهذا نص القرار :

« فى بداية الحرب بيننا وبين الانجليز كتب عطوفة رئيس النظار وناظر الخارجية الى جهات الادارة بأن الحرب انتشبت بيننا وبين الانجليز وصارت الاحكام عرفية ، وانه من اللازم الاستعداد للمقاومة، ثم وردت منه افادة تلغرافية بعد ذلك بأيام مقتضاها حصول الصلح والتنبيه على المصالح أن تسير سيرا مدنيا وانها خرجت من الأحكام العرفية • وبعد ذلك صدرت افادة من ناظر الجهادية الى جهات الحكومة يصرح ببقاء البلاد تحت الأحكام العرفية وان الحرب لم تزل قائمة بيننا وبين الانجليز وبوجوب الاستمرار على التجهيزات والاستعدادات الحربية ما دامت عساكر الانجليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها

« وصدرت ارادة سنية من الجناب الخديو لناظر الجهادية مقتضاها أن لا حرب بيننا وبين الانجليز ، وان السبب فى الحرب هو مداومة الاستعداد فى الطوابى الذى يعد تحقيرا لمراكب الانجليز • فضرب المراكب لاستحكاماتنا ولمدينة الاسكندرية ليس حربا ضد الحكومة ، وانما هو من قبيل

رد الشرف وليس هنالك حرب حقيقيـــة الى آخر ما جاء بالارادة •• فأجاب ناظر الجهادية بأن الحرب كانت بقرار من مجلس عام انعقد تحت رئاسة الحضرة الخديوية ، وأيد ذلك اعلان مجلس النظار الى آخر ما ذكر فى ذلك الجواب ثم وصل عرضحـال من مخبز حى القبـارى بالاسكندرية لسعادة ناظر الجهادية يشكو من صرف الخبز للعســاكر الانجليز ومنعه عن عساكرنا بأمر الخديو • وورد للنـاظر الموما اليه معلومات عن أعمال العساكر الانجليـــز فى الاسكندرية فدل على معاداتهم للمصريين وانهم محــاربون لهـم كمـا يؤخـذ من رسالاته . ثم أن ناظر الجهــادية المشار اليه طلب فى احدى رسالاته لوكيل الجهــادية بأن يشكل مجلسا عاما من علماء البلاد وأمرائها وأعيانهـــا ونوابها للنظر فى هذه الأمور المهمة • وبناء على ذلك انعقد مجلس ليلة غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ فى نظارة الداخلية مؤلف من سعادة وكيل الجهادية وسعادة وكيل الداخليـة حسين باشا الدرهمللى ووكيل الحقانية بطرس باشـا غالى وسعادة على باشا فهمى وناظر الدائرة السنية سعادة أحمد باشا نشأت • وكل من سعادة دانش باشا ومحمود سامى باشا ومحمد باشا رضا وحضرات باشكاتب المالية وأحمد بك رفعت رئيس المطبوعات ومأمور ضبطية مصر ابراهيم بك فوزى وعلى بك يوسف وأحمد بك فرج وحسين بك جاد

« وبعد المداولة قرر المجلس المذكور انعقـاد مجلس فى هيئة مؤتمر عام يشكل من أكابر العلمـــاء والرؤســاء الروحانيين من الطوائف المختلفة ومأمورى الحكومة الحائزين على الرتبة الثانية فما فوقها وأمراء العائلة الخديوية وأكابر الذوات المتقاعدين وأعيان التجار وأن يكون انعقـــاده فى نظارة الداخلية يوم الاثنين غرة رمضان سنة ١٢٩٩ هـ

« وفى الميعاد المذكور انعقد المجلس تحت رئاسة سعادة

وكيل الداخلية من عدد كثير من كل طبقة من الطبقات المذكورة ، وتليت عليهم الأوراق المتعلقة بالمسألة المتقدمة، وطلب منهم النظر فيها لكونهم أعيان البلاد وأصحاب الصالح المهم فيها ، فقرر رأى الجميع بعد المداولة على ما يأتى :

أولا ــ يلزم طلب حضور الخديو والنظار الى العاصمة ، ان كانوا أحرارا ولزوم الاستمرار على التجهيزات الحربية، ما دامت عساكر الانجليز فى مدينة الاسكندرية ومراكبهم فى مياهها

ثانيا ــ تعيين لجنة مؤلفة من مندوبين من طرف المجلس العام ليتوجهوا الى الاسكندرية ويبلغوا سمو الخديو وحضرات النظار قرار المجلس ثم يدعوهم الى العاصمة ، ان كانوا أحرارا !.»

وقد انتخب المجلس على باشا مبارك وزير الاشغال سابقا فى زمن الاستبداد رئيسا لهذه اللجنة وأعضاؤها رؤوف باشا حاكم السودان سابقا ، وأحمد بك السيوفى من الأعيان ، والشيخ سعيد الشماخى وكيل دولة مراكش فى مصر والشيخ على نايل والشيخ احمد كبوه من العلماء

وقد انتهت الجلسة فى الساعة الحادية عشرة بالتوقيت العربى من اليوم المذكور

الفصل الخامس

وفد المؤتمر الى الخديو

بناء على قرار المؤتمر السابق خرج الوفد المعين من الذوات الى معسكر كفر الدوار أولا ومنه توجهوا الى الاسكندرية على ظهور الخيل ومعهم الحرس اللازم ، وفى صباح ٢٣ يوليو اجتمعوا بالخديو والنظار وأخبروهم بمهمتهم • وعلى ذلك صار حجز على باشا مبارك وأحمد بك السيوفى بالاسكندرية ورجع محمد باشا رؤوف والشيخ

سعيد السماخى والشيخ نايل والشيخ احمد كبوه وكذلك اسماعيل باشا حقى أبو جبل لضعفه • وكان رجوعهم بمقتضى تصريح خصوصى من قائد الانجليز • وعند رجوعهم أخبرونا وبالتالى أخبروا المجلس بأن الخديو أسير عند الانجليز ولا يمكن رجوعه الى مصر

وبعد ذلك ورد الى أمر من الخديو توفيق بعزلى من نظارة الجهادية هذا نصه :

« الى أحمد عرابى باشا فى ٤رمضان سنة ١٢٩٩هـ و٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢

« ان سفرك الى كفر الدوار مصحوبا بالجند وخروجك من الاسكندرية بعد القتال ، وتعطيلك الخطوط الحديدية والبريد ، ومنعك لمهاجرى الاسكندرية من العودة الى أوطانهم واستمرارك على اعداد التجهيزات الحربية وعدم امتثالك لأوامرنا ، والقدوم الى الاسكندرية ، كل ذلك ألجأنا الى عزلك من وظيفتك فأنت بمقتضى هذا الأمر المرسل اليك معزول منذ الآن من نظارتى الجهادية والبحرية »

ثم أشفع هذا الاعلان بمنشور علق فى شوارع المدينة بين فيه الأسباب التى دعت الى عزلى وأوضح أن نزول العساكر الانجليزية الى المدينة ، لم يكن بقصد التبوؤ والاستيلاء ، فان المؤتمر القسطنطينى لا يوافق على ذلك ، بل سيعود الانجليز الى بلادهم بعد استتباب الأمن والراحة فى أنحاء البلاد المصرية واعادة سلطة الخديو المسلوبة

وقد أرسل هذا المنشور مع منشور آخر من الأميرال سيمور بالمضمون عينه يعترف فيه بأن العمارة الانجليزية تعود الى انجلترا بعد تأييد سلطة الخديو واعادته الى مركزه، وان لا مطمع للانجليز فى الاستيلاء على البلاد المصرية ،

وأرسلت تلك المنشورات الى رؤساء المراكز العسكرية وعمد البلاد ومشايخ العربان

وفي اليوم المذكور حضرت سفينة الى أبى قير وسلمت أمر الخديو المؤذن لى بعزلى ومنشور الخديو والأميرال الانجليزى الىخورشيد باشا طاهرحكمدار النقطة المذكورة، فأرسلها الينا بافادة من طرفه ، وعندما وصلتنا بعثناها برمتها الى رئيس المجلس بالقاهرة لفحصها واعطاء القرار من المجلس بما يراه

المؤتمر يعزل الخديو

انعقد المؤتمر العام فى ديوان الداخلية فى ٢٢ يوليو سنة ١٨٨٢ و ٦ رمضان سنة ١٢٩٩ وبعد تلاوة الأوراق المعروضة للتذاكر فىشأنها صدرت فتوى شرعية منالشيخ العارف بالله شيخ الاسلام والمسلمين السيد محمد عليش وشيخ الاسلام الشيخ حسن العدوى والشيخ الخلفاوى وغيرهم من العلماء بمروق الخديو توفيق باشا من الدين مروق السهم من الرمية لخيانته لدينه ووطنه وانحيازه لعدو بلاده وقر قرار المجلس بما يأتى :

« بعد تلاوة الأوامر الصادرة من الخديو توفيق باشا أولا وآخرا ، وفيها الأمر الصادر الى أحمد عرابى باشا وتلاوة منشورات عرابى باشا ، وبعد سماعنا ما عرضه وكيل الجهادية بصفته بهذه الوظيفة وكونه رئيس المجلس المشكل لادارة أشغال الحكومة على المجلس ، وهو : « هل وجود الخديو فى الاسكندرية هو ونظاره تحت محافظة عساكر الانجليز يقتضى عدم تنفيذ أوامره أم لا . واذا صدرت له أوامر من الخديو هل يعمل بها أم لا ؟ » . رأينا أن وجود العساكر الانجليزية فىالاسكندرية وبقاء مراكبهم الحربية فى السواحل المصرية ووقوف عرابى باشا لمدافعة

العدو يقضي وجوب بقاء الباشا المشار اليه فى نظـــارة الجهادية والبحرية مداوما على قيادة العسكر متبعا فيأوامره المتعلقة بالعسكرية وعدم انفصاله عن تلك الوظيفـــة •
ورأينا وجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر من نظـاره الموجودين معه فى الاسكندرية كيفما كانت ولأى جهـــة من الجهات وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف ويلزم عرض قرارنا هذا على الأعتاب الشاهانية بواسطة وكلاء النظارات

وبعدامضاء هذا القرار عرض مضمونه بواسطةالتلغراف على الحضرة السلطانية ، وصار ابلاغه الينا رسميا والزامنا بالمداومة على الدفاع واعطائنا لقب (حامى البلاد المصرية)

مراوغة على باشا مبارك

وفى ٢٠ ١رمضان سنة١٢٩٩ (١٨يوليو١٨٨٢) وردتلغراف من علىباشا مبارك رئيسالوفد الذى أرسل منالمجلسالعام الى الاسكندرية لمقابلة الخديو واستدعائه الى القاهرة بمن معه من النظار . قال فيه : « بحمد الله تعـــالى وصلنا الى الاسكندرية وأخذنا نسعى في الاشتغال بالمأمورية المحولة على عهدتنا من قبل المجلس المنعقد بالقـــاهرة • وفى علم سعادتكمأهمية مأموريتنا وما تحتاجه من المذاكرات،فلأجل الوصول الى الغاية المقصودة فى الزمن القليل ، يلزم أن تكون المخابرات بيننا وبين سعادتكم بواسطة التلغـــراف فربما ينتج منها فائدة للوطن وحفظه من الغـــائلات • ثم أعرض على سعادتكم انه قد تقرر تشكيل قومسيون يكون مركبا منا ومن بعض الذوات يجتمع مع قومسيون ممـــن تعينونه وتعتمدون عليه من أمراء العسكرية يجتمعون فى محل يصير تعيينه بالاتفاق للمذاكرة في الأحوال الحاضرة حتى نؤمل الحصول على نتيجة توافق الجميع وتزيل هـذه

النازلة عن وطننا العزيز فان راق لكم فلتعينوا المحل والذوات العسكرية وفيدونا بما ترونه أفندم »

فرددت على باشا بما يأتى :

« نحمد الله على وصول سعادتكم بالسلامة ، وبعد فاننا تشرفنا بورود تلغراف سعادتكم الذى به تطلبون منا تعيين قومسيون من العسكرية لانضمامه مع قومسيون يتشكل من سعادتكم وبعض الذوات للمذاكرة في الأحوال الحاضرة. وحيث انه من المعلوم لنا انه قد صار عقد مجلس حافل عمومى بمصر من ذوات العسكرية والملكية والعلماء والتجار والأعيان والرؤساء الروحانيين ، وكنتم سعادتكم من ضمن الموجودين به وما كان عقد هذا المجلس ألا للنظر في الأحوال الحاضرة ، واتخاذ التدابير اللازمة لوقاية البلاد . وقد قرر ذلك المجلس كما تعلمون سعادتكم بوجوب استمرار التجهيزات الحربية وبارسال سعادتكم مع من تعين معكم لمأمورية مخصوصة ومحدودة . ومن هذا ترى سعادتكم انه لا يوجد لى أدنى صفة أو حق لتعيين قومسيون من طرف ولا أدرى الغرض منه بعد قرار المجلس الذى عقد بالقاهرة على انى لست مستقلا بعمل أمر ما ، بل انى مطيع ومنقاد في أى حال لما تأمر به الأمة . ولهذا فانى متأسف لعدم امكانى اجابة طلب سعادتكم »

وفى ٢٣ رمضان سنة ١٢٩٩ الموافق ٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ صدر منشور من الخديو الى جميع المصريين وهذا نصه :

« نحن خديو مصر نعلن لجميع المصريين ان عرابى باشا قد ارتكب آثاما فظيعة جلبت خسائر لا وصف لها على مصر واهلها وجعلت الدول الاوربية ناقمة عليها ، فانها باتت الآن تعتبر المصريين أمة غير متمدينة . فهذه الجرائم والآثام منحصرة فى عصيان عرابى المذكور ، وتحريضه للقوم على السير تحت لواء العصيان وفى الدسائس التى نشأت عنها مذبحة الاسكندرية وغيرها من البلاد فأوقفت فيها حركة التجارة وعطلت اعمال الزراعة ثم فى عصيانه لاوامر جلالة السلطان الاعظم وهى الاوامر التى صدرت اليه

بالانقطاع من التظاهر بالعدوان فىالاستحكامات والحصون مما بات معلوم النتيجة من هلاك نفوس وتدمير قلاع وخراب أبنية

« وبعد ان بدد عرابى فى أقلمن ساعة شمل سكان الاسكندرية الذين نهبهم أضرم النار فيها ، وخرجمنها بجيشه قاصدا كفر الدوار ، حيث عسكر بقومه من غير علمنا وبغيرارادة منا ، فبعث ذلك على نزول الانجليز الى المدينة لاطفاء النار المضرمة فيهاومنع النهب والمحافظة على الراحة

« وفوق ذلك منع المهاجرين منالعودة الى أوطانهم وقطع ما بينهم وبين أهلهم وسائل الصلة والعلاقة ، وقطع الماء عن الاسكندرية وأعلن جهرا عصيانه بأكاذيبه الظاهرة ، فبذلكعد عاصيا ومستحقا لاشد العقوبات بمقتضى الشرع الشريف

« ولا يزال مع ذلك عاملا علىتعميم الخراب بمساعدة جنده والاهالى المتحزبين معه المنقادين لآرائه الوخيمة ، وقد تجاوز الحدود بعصيانه بما يفوق الوصف ، فقد استولىعلى أموال الضرائب وعزل كثيرين من موظفى الحكومة ، واستبدلهم بغيرهم فى حالة كونه معزولا من وظيفته معدا للعقاب الصارم الشديد

« ولقد رأينا ان قلوب كثير منرعيتنا لا تزال قاسية مائلة الى عرابى ، بالرغم من أوامرنا السابقة فلذلكأصدرنا هذا المنشور الآخر معلنين فيه ان كل شخص يعرف عنه انه ذو ضلع معءرابى وميلاليه ، عددناه عاصيا مستحقا لجزاء العصيان

« فرحمة بمصر وأهلها نستأنفالآن اعلاننا للمصريين عموما والجند خصوصا ان كل من أصر على عصيانه وانقياده الى عرابى كان مذنبا أمام الله غير مقبول العذر لدينا ، فنجرده مع ولده وذويه من جميع الرتب والرواتب ومعينات التقاعد وسائرالامتيازات التى كان متمتعا بها (حكم جائر استبدادى لأن الله سبحانهيقول : « لا تضار والدة بولدها ولا مولود بولده » ولكنه اغتر بقوة الانجليز) !

« وليعلم المصريون اننا نحن أميرهم ومولاهم وأن لايرتكبوا عصيانا علينا وليعلم كل منهم أيضا انه اذا أدىللعاصى عرابى أو لاتباعه أموال الضرائب كانت تأديته للمال غير محسوبة لدينا بل اننا نطالبه بها يوم تنقشع عن سماء مصر غيوم النكبات العرابية »

وجاء فى كتاب مصر للمصريين للنقاش فى صفحة ١٣٩ جزء ٥ ما يأتى :

« وبعد أن أصدر الخديو هذا المنشور بعث الى أركان حرب الانجليز بكتابة يهنئهم فيها على نجاحهم فى الوقائع الأخيرة ! »

وقد رددنا على هذا المنشور الجائر بمنشور أصدرناه

الى جميع فروع الحكومة ورؤساء الجيش ، وهو :

وفى ٢٨ رمضان سنة ١٢٩٩ الموافق ١٣ أغسطس سنة ١٨٨٢ أصدرنا منشورا الى رؤســــاء الجيش فى المراكز الحربية وللمديريات وجميع فروع الحكومة وهذا نصه :

« قد أوجب الله علينا اعداد ما نستطيعه من القـــوة لقتال الأمة الانجليزية التى اعتدت على البلاد طمعا وشرها، وبادأتنا بالحرب بغيا وعدوانا • وقد قام به أحسن قيــام على قدر شأن كل حر مخلص شهم عالى الهمة شريف الذمه من رجال البلاد عموما ونظراء سعادتكم من حضرات المديرين خصوصا • وبعناية الله واتحاد الجميع ذلك الاتحاد الذى هو أثر الغيرة الوطنية والحمية الانسانية ، قد أدركت البلاد في زمن يسير من عظيم القوة وجليل الاستعداد ما لم يخطر بالبال قبل الآن • ولا يخفى انه من أجل ما يجب القيام به الحرص الزائد على الدقيقة الواحدة ، بل اللحظة الواحدة من زمن المحاربة ، فلا تفوت الا وتكون قد صرفت فى حسن التدبير واصـــالة الرأى فى النكاية بالعدو ، رده الله على عقبيه خاسئا خاسرا

« وانه مما وجب اعداده لذلك هو زيادة الجند ٢٥ ألف عسكرى ، فبناء على ذلك وما تراءى من أن هذا العدد اذا شرع فى جمعه بحسب القرعة العسكرية ، فقد يجتمع من الشبان ما يلزم لتدريبهم وتمرينهم على حمل الســـلاح وحركات الدفاع وقت لا يحسن تقويته الا بأعظم ما يمكن من الفائدة لما مر

« وحيث ان خفراء البلاد المرتبين من الأهالى هم بالطبع أكثر من غيرهم تعودا وتمرنا على حمل الســلاح والحركات الدفاعية وأشد قوة وبأسا ، وأثبت جأشا لدى المقــاومات العدائية ، وقد يتيسر جدا جمع هذا العدد من هؤلاء الخفراء وحشـــده مع الجيش فى زمن وجيز وبحالة أقرب وأسهل مما لو جمع من غيرهم بالقرعة العسكرية ــ فعليه يجمـ

هذا العدد من المديريات ، بحيث تسرع فى جمعه من الخفراء المذكورين ــ وكل بلدة وما يخصهــا منــه ــ وقد خص مديرية سعادتكم من العــدد المذكور كذا نفرا ، فالقصد مزيد الاعتناء والاسراع فى جمع العدد الموما اليه بعد تخصيصه على بلاد المديرية من نفس الخفراء المذكورين، ثم يجرى تفهيم كل واحد منهم بأنه فى نظير تلبيته لدعوة هذه الخدمة الوطنية الشريفة مع المسرة والبشر شأن الحريص على شرف قومه فانه بعد انتهاء الحرب بنصرنا ، وظفــرنا بفضل الله تعالى ، يكون معافى من الخدمات العسكرية . ويصير ارسال الأنفار المذكورة بالافادات المقتضية كالجارى، أما الخفراء الذين يلزم ترتيبهم بدلا من المذكورين فيجــرى انتخابهم وتعيينهم فى محلات دركات أسلافهم فى الحال ، حسب ما يلزم ، واقتضى تحــريره ونشره للاجراء عــلى مقتضاه »

كرم المصريين ونجدتهم

قامت هذه الحرب الشعواء وليس فى خــزانة الحكومة درهم لأن المراقب الانجليزى المستر (كولفن) أخذ الأموال من خزينة المالية وأنزلها فى الدونئمة الانجليزية قبل اعلان الحرب بأيام ، وكذلك الأموال الموجودة فى صندوق الدين العمومى قد حملها أعضاء قومسيون الصندوق الى المراكب الحربية حيث أمنوا عليها

وفى ١٥ يوليو سنة ١٨٨٢ وردت اشارة تلغرافية من رئيس مخبز القبارى بأنه موجود بالمخبــز ٣٥٠ ألف أقة بقسماط ويخشى من أن عساكر الانجليز يأخذونهــا . فأخذت لاستحضار ذلك القائمقام محمد بك نسـيم لما توسمته فيه من الغيرة الوطنية وأمرته أن يأخذ قطارا بعربات فارغة لشحن البقسماط الموجود بمخبز القبارى ويأتى به الى كفر الدوار ، فصدع بالأمر ، وأخذ القطار وتوجه الى

القبارى باسكندرية ولكن ـ يا للأسف ـ خاب ظنى فيه ، فانه بعد وصوله الى الاسكندرية ترك القطـــار وتوجه الى رأس التين ، وأخبر الخديو بدخيـــلة أمره ، فأمر الخديو بحجز القطار ، وصرف البقسماط الى الجيش الانجليزى ، ومنعه عن عساكرنا ، وكان ذلك الشـــــاب الممتلىء غيرة ونشاطا ، أى محمد بك نسيم أول من ترك الجيش وانضم الى جانب الخائنين لوطنهم ، ثم اقتدى بعمله هذا القائمقام أركان حرب محمد بك لبيب والبكباشى عبد الرزاق نظمى الذى قتل بعد ذلك فى حرب الدراويش بسواكن

وبناء على ذلك تحرر من المجلس العـــام الى المديريات بتحصيل الأموال من الأهالى عن كل فدان عشرة قروش ، ومن شاء أن يتبرع بشىء اعانة لاخوانهم المجـــاهدين فى سبيل المدافعة عن وطنهم وحفظ كرامتهم وشرفهم ، يقبل منه مع اعلان الشكر

ولما أعلن ذلك جاءت الأمة على اختلاف مذاهبها ونحلهـا بالمال والغلال والخيل والجمال والأبقار والجواميس والاغنام والفاكهة والخضروات حتى حطب الحريق · فمنهم موسى بك مزار الرجل الوطنى البحت ، فقد تبرع بألف وثلثمـــائة ثوب بفتة وثلاثين عجل بقر عن طيب خاطر ، ومنهم والدة الخديو اسماعيل ، فقد تبرعت بجميع خيول عرباتهــــا ، وجاراها فى هذا المضمار باقى أفراد العـــائلة الخديوية · وكذلك حرم خيرى باشا رئيس الديوان الخديوى وحــرم رياض باشا وكثيرين غيرهم من الذوات، رجالا ونساء ، كل ذلك فضلا عما مدوا به الجيش من الأقمشة والأربطـــــة اللازمة لتضميد جراح العساكر وغيرهم · ومن الأهالى من تبرع بنصف ما يمتلكه من الغلال والمواشى ، ومنهـــم من خرج عن جميع مقتنياته ، ومنهم من عرض أولاده للدفاع عن الوطن لعدم قدرته على الدفاع بنفسه

وبالجملة فان الأمة المصرية عن بكرة أبيها قدمت من التبرعات وأظهرت من النخوة والغيرة ما لم يسبق له عهد في القرون الخالية ، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يجزى الأمة خير الجزاء وأن يرد لها حريتها واستقلالها .

الحق أقول أن الأمة المصرية على اختلاف مشاربها كانت شديدة التحمس والنهوض لقتال الانجليز الطامعين في بلادهم وكان نبهاؤها يعقدون الاجتماعات ويلقون فيها الخطب الحماسية والقصائد الدالة على كبر نفوسهم . ومن هؤلاء الخطباء والشعراء : الشيخ أحمد عبد الغني ، والشيخ سيد المرصفي ، والسيد عبد الله نديم ، والشيخ محمد أبو الفضل ، والشيخ محمد فتح الله وغيرهم ، ومن ذلك قصيدة للشيخ أحمد عبد الغني قال في مطلعها :

لعمرك ليس ذا وقت التصابي ولا وقت السماع على الشراب
ولكن ذا زمان الجد وافي وذا وقت الفتوة والشباب
ووقت فيه الاستعداد فرض لتنفيذ الأوامر من عرابي

وقال الشيخ على المليجي في خطبة له : « قد مرت بنا في الزمن السالف أيام غير صافية العيش للمسلم وما ذاك الا لعدم الحمية الاسلامية في حكامه الذين كانوا كالليل المظلم اذ كانوا منهمكين في ميادين حظهم الدنيوى ، وعن الدين غافلين وقد ظهرت الآن البشائر بعز المسلمين وسطوتهم حيث قد اعتدل حكام الوقت أيدهم الله بالأخذ في أسباب قوة الدين ورد ما ضاع من شوكتهم باذلين الهمة في التوصل الى ما يبعد الأمة عن التشويش ولما يكونون به آمنين اذ قد شرع رئيس المجاهدين أحمد عرابي المؤيد بنصر من عند ربه في المدافعة عن حوزة الأمة ورد من كانوا في تشويشها أول سبب وباع نفسه وجيشه للجهاد في سبيل الله .. »

وقال الشيخ محمود ابراهيم في خطبة له بأسيوط :

« أما بعد فان الانجليز قد طاشت عقولهم وعميت بصائرهم فلم يحسنوا الضروريات فساموا بسوق أموالنا وديارنا نفيسها ، وساقوا الينا من زيف المعارضات خسيسها، وقابلوا تحيتنا بخداع ، وفتشوا أكنافنا لغدر أضمروه ليوم النزاع ، ونحن لما جبلنا عليه من محاسن الايمان وفينا لهم بعقد الذمة والأمان فعاملناهم بالحسنى وجبرنا ما كان فيهم ضعفا ووهنا فلما صحت أبدانهم وعمرت أوطانهم لم يقنعوا بذلك بل طلبوا التصرف فينا تصرف المالك ، فنسأل الله أن يكون سعادة أحمد عرابى باشا هو المشار اليه فى حديث « يبعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » ، فان البشائر دلت عليه ليمزق البغاة كل ممزق ، ويحيى المندوب والمفروض للدين الموفق وتموت البدع التى اسود القطر بظلماتها ويختفى بلاء الظلم بأرجائها وحاش أن يجعل الله ديار أهل بيت نبيه فى ذمة كافرين جعل الله سعادة أحمد عرابى باشا وجنده الظافرين »

وجاء فى خطبة الشيخ محمد أبى الفضل التى ألقاها فى جامع الحنفى بالقاهرة : « قد تميز الغث من السمين ، واستبان أن الانجليز جاءوا محاربين يريدون — لا أمكنهم الله — سلب الأموال وهتك الحرم ، وقد جاءوا بمكر وخداع يصطادون بشباكهم الأوطان من غير قتال أو دفاع ، كما هو ديدنهم التبيح فى كل اقليم ، فيقظ لذلك العقلاء والشجعان وذبوا عن الأعراض والأوطان »

وقال الشيخ حميده الدمنهورى فى خطبة له :

« أعدوا لاعدائكم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ما ترهبون به عدو الله وعدوكم وكونوا لدين الله من المنتصرين تفوزوا برضى المولى اللطيف الخبير . وقوموا لمحاربة أعداء الله وأعدائكم الطغاة البغاة وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعملون بصير . الجهاد فرض الآن علينا وواجب لدخول الأعداء فى بلادنا

محاربين فمن أتى بواجب الجهاد أحرز فضله ومن تطوع خيرا فهو خير له . فالسعيد من سارع الى اغتنام الأجر من الله العلى الكبير .. »

وجاء فى خطبة أخرى للشيخ محمد أبو الفضل :

« ومصرنا هذه قد كادت أن تكون دار حرب لا دار سلام فقد أهين فيها الوطنى وعظم اللئام حتى صاروا رؤساء الدواوين فطغوا وبغوا وحق عليهم المثل السائر : وعلى الباغى تدور الدوائر، فحكموا بالبنود والقوانين فعظم البلاء واشتد وزاد الكرب واحتد وكان ما علمتم من الحركات وكم لله فى الحركات من بركات »

وقد نظم الشيخ أحمد سيف البارى قصيدة جاء فيها :

اذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابينا يمينا

ونظم الشيخ السيد المرصفى قصيدة أخرى كان مطلعها:

يا صاخ قم واشكر الهك واحمد
فالدين منصور على يد أحمد

وهكذا كانت المقالات الضافية الذيول والخطب المسهبة والقصائد تتلى وتلقى فى مجالس المصريين ومنتدياتهم من غير انقطاع تحميسا للأمة وتشجيعا لها ومن ذلك قول بعضهم معرضا بذكر ولسلى وسيمور في بيت السموءل :

وانا لقوم لا نرى القتال سبة اذا ما رآه ولسلى وسيمور

افتراء الشيخ حمزه فتح الله

من الأقوال المأثورة ما روى عن النبى (ص) انه قال : « لا تعلموا أولاد السفلة العلم » وهو قول حكيم ، لانهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العامة ، وآلة للتلبيس على الناس . ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير ، أو ابتسامة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لا يهتدون . ومصداق ذلك أن الشيخ حمزه فتح الله الادكاوى ، نسبة الى ادكو ،

وهى قرية صغيرة بين رشيد وأبو قير على ساحل البحر المتوسط أغلب أهلها حاكة ، وصيادون • والشيخ المذكور كان حائكا ابن حائك ثم تعلم العلم ، وبعد ذلك تركه ، وانقطع لفن الصحافة ، فأنشأ جريدة البرهان ، ثم ذهب مع الخديو الى الاسكندرية ، حيث تحيزه للانجليز ، وكتب مقالة مفتراة ، نشرتها جريدة الاعتدال التى أنشئت اذ ذاك وقد ضمنها من الأكاذيب والمؤتفكات ما يعجز عن الاتيان بها مسيلمة (الكذاب) قال فيها :

« ربنا لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا • عباد الله لستم تجهلون انني طالما ناديت فى جريدة البرهان ، بأن لاسبيل لنجاح الأمة الاسلامية سوى اقامة الدين المبنى على مكارم الأخلاق • والذى من مقتضياته حسن المعاملة ، والرفق بالذميين والمستأمنين والمعاهدين والمصالحين ؛ هم الأقسام الأربعة التي قدمنا ان جميع الأجانب فى البلاد الاسلامية لم تخرج عنها

« ومن مقتضياته أيضا اعداد ما يستطاع من القوة ومن رباط الخيل ، وانه لا ريب في انه يدخل فى القوة المدافع وغيرها من أنواع العدد الحربية الجديدة المناسبة لكل زمان ومكان ، وكذا جمع ما يتصور العقل ان فيه نكاية للخصم

« غير انه لسوء الحظ ، كأن تلك الآية الكريمة الآمرة باعداد ما ذكر ، انما نزلت على خصوص الأجانب فعملوا بها دوننا ، ورفضناها نحن كغيرها من شعائر ديننا ، وحدود ربنا تبارك وتعالى حتى بلغ من تضلع البغاة الجهال من الفنون الحربية ، وخبرتهم بطرق النكاية للعدو أن يقابلوا الآلات الانجليزية الحديثة العهد المصنوعة منذ أشهر وأسابيع بآلات عتيقة مضى عليها من الأجيال ما أكلهـا به الصدأ •• فأواه ثم أواه ••!

« ولكن هو الجهل حتى ينبح الكلب مولاه

« فلو اننا فرضنا المستحيل من كون هذه الحرب دينية والحالة هذه وانها بأمر الخليفـــــة الأعظم أو نائبة الخديو الأكرم لوجب شرعا مخالفة أمرهما بها لأنها حينئذ عبارة عن المخاطرة بالبلاد والعباد (يريد/الشيخ تسليم البـــلاد للعدو بلا قتال)

« وقد نهانا الله تعالى عن أن نلقي بأيدينا الى التهلكة فكيف وهذه الحرب كما قدمنا شيطانية ناشـــئة عن حب الذات والمصلحة الشخصية ، وعن الجنـــــون الذى أتى به الآن عرابى تخلصا من سوء العاقبة ، وان كانت أفعاله كلهــــا جنونا محضا من البداية للنهاية . على ان الحروب الدينية المرضية فى الحقيقة لله ورسوله لا تحتم نصر اربابهــا ، اذ لا يجب على الله تعالى شيء وتلك سنته عز وجل فى المرسلين والأنبياء أن تكون الحرب بينهم وبين أعدائهم سجالا ، أى تارة لهم وتارة عليهم ، وان كانت العاقبة لهم بلا ريب ، وذلك لتقتدى الأمم بأعمالهم فيبنون المسببات على الأسباب ، لأن للشرائع السماوية خصوصا الشريعة المحمدية المطهرة تشوقا زائدا لذلك أى لابتناء المسببات على أسبابها حرصا على الأمة أن تغلق باب الأسباب فيختل نظام هذا الوجود ويبطل العمران ، وان كان الكل بيد الله واليه وهو خلقكم وما تعملون

« فأما الآن قد سد باب الخوارق والمعجزات ، إذ قد ختمت النبوة بمحمد عليه الصـــــلاة والسلام (فاه الرجل بالحق بعد شططه)

« وأما الكرامة فلم ينصر بها الحسين عليه السلام ولا غيره من البضعة المقدسة مع الاجماع على كونهم على الحق (لنا بهم أسوة حسنة) ولعل عرابى يزعم انه أكرم عــــلى الله من الحسين وحزبه (كلا فان الفـــــرع لا يعلو على الأصل) ويا عجبا لهذا الجاهل كيف خاطر بدماء المسلمين وأعراضهم

وبلادهم (جهل الشيخ أن الحرب شرعية واجبة أقر بهـا مجلس عال تحت رئاسة الخديو توفيق باشا ودرويش باشا المندوب السلطانى فلا لوم على الجاهلين) اسـتنادا على خرافات المنام وأضغاث الأحلام (قد خرف الشيخ فلا لوم عليه) فاستمال بذلك عقول الجهال ، وفتح باب الحرب مع الأجانب بعد شدة نهى الخليفة الأعظم ونائبه الخديو الأكرم عنها ، ومع أنه ليس لديه من القوة سـوى ما ينشره من الأكاذيب (كذب الشيخ وافترى) • انك يا عرابى لمـا وقعت فى يدك ويد جهالك الآلات الحربيـة وصرتم نفس القوة التي من شأنها أن تكون عونا للحكام على تثبيت النظام وردع الأشرار وليس للحكومة اذ ذاك قوة أخرى تكسر بها شوكتكم امتلأت نفسك الخبيثة بالشرور (فتن الرجل وظهر خبثه) فطمعت فى المستحيل وما ليس اليه سـبيل واستعملت انت وحزبك للحصول على ذلك جميع الوسائل ولكنهم صاروا بعناية التوفيق كلما أوقدوا نارا لهذه الحرب أطفأها الله (أشرك الشيخ الضال وحرف الآية الكريمة لغير معناها • باع دنياه وآخرته بثمن بخس • لارعى الله الغنى من سبيل الخيانة والتزلف ، وحبذا الفقر مع الأمانة والقناعة) حتى اذا أغلقت فى وجوههم المطالب عمـدوا الى وسيلة أخرى الا وهى اتهام الجراكسة الكرام ظلمـا وعـدوانا بالمؤامرة على الفتك بعرابى فصار هو الخصـم والحكم ، واكراههم بأنواع العذاب على الاقرار بما نسب اليهم وبأن لهم فيه شركاء هم فلان وفلان لجملة من الأعيـان والعائلة الكريمة الخديوية ، بحيث أن سير الجهادية فى تحقيق هذه القضية كان يشبه سير الوحوش فى البـرية ، لأن تلك المؤامرة لو ثبتت على الجراكسة ولم تكن بقصد الفتـك بعرابى ، بل كانت بقصد الفتك بأمبراطور مثلا بالنسبة للأمور الدنيوية أو نبي مرسل بالنسـبة للأمور الدينية

لكان تحقيقها أخف من ذلك التحقيق (ذلك أمر غاب عن الشيخ صوابه وقد تورط فيه من غير أن يدعوه اليه أحد) • وأراك يا عرابى لو أصبت يوم حـرب الاسكندرية زورقا للانجليز فضلا عن سفينة ، مما زعمته أحزابك لكبرت نفسك عن دعوى النبوة فكنت تدعى الألوهية ، ولا تعدم من يؤمن بك من الجهـال • نعم أنك قد اكتسبت الشهرة الفاسدة بأعمالك ، غير ان لك فى ذلك أمثالا كثيرين منهم ابليس اللعين وعاقر الناقة الذى هو أشقى الأولين ، وابن ملجم أشقى الآخرين ، فان كان فى شهرة هؤلاء شرف لهم فأنت أيضا كذلك (وقع الشيخ فى أمثاله وأظهر فساد علمه ، وخبث طويته ومبلغ نصيبه من الآداب وكل اناء ينضح بما فيه) •• »

وقد أطال الشيخ حمـزه فى هـذه الأكاذيب وتلك الافتراءات فى عدة مقالات بجريدة البرهان

وكذلك حذا حذو الشيخ حمـزة المفتون المولع بالكذب والبهتان شاعر المتحيزين الى الأعداء وصنيعة المستبدين مصطفى باشا صبحى البوشناقى (من سلالة عائلة من أهل البوسنه وهى ولاية فى بلاد الروم) قال فى مطلع قصيدته التى سماها :

(صدق المقال فى مثالب البغاة الجهال)

تبـين عقبى غيه كل معتـدى

وأمسى العرابى وهو بالذل مرتدى

وهى ١٢٥ بيتا كلها سباب وشتائم نظمها خدمة للاستبداد جزاه الله بما يستحق

وكذلك فعل اثنان من مرتزقة الأدباء : أحدهما أديب اسحق اللبنانى طمعا فى الاستجداء ، والثانى قدرى بك الشامى الذى كان مع درويش باشا حتى لا يرجع الى بلاده

خاوى الوفاض • على ان الخديو اغدق عليه وعـــلى درويش باشا وولده بالذهب الكثير وخلع عليهم خلعات ثمينة ، قبل وقوع الحرب ، وفى أثناء تأدية أعمالهم



احتلال الانجليز
لقناة السويس

الخديو توفيق يساعد الانجليز على الاحتلال

في ١٤ يوليو سنة ١٨٨٢ ورد لنا تلغراف من المسيو دى لسبس مدير شركة القنال يستعلم عن رأينا فى القنال بالنسبة للحركات الحربية فأجبته فى التاريخ المذكور بالتلغراف أيضا اننا نعتبر القنال حرا للمنافع العمومية الدولية ، ولذلك فانا لا نتعرض له بضرر اذا أمكنه منع المراكب الحربية الانجليزية من خرق حرمة الحياد واحترامها لقانون الشركة ، والا فنكون أحرارا فى مقابلتهم بالمثل

فورد تلغراف فى اليوم المذكور يفيد انه ضامن ومتكفل بمنع الانجليز عن اختراق القنال ما دام فيه عرق ينبض ، فظننا ان فرنسا تدافع عن حقوقها وتحافظ على حرية القنال ، ولا تلدغ من جحر مرتين .

ولما أخذ الانجليز ينزلون فى السويس احتج المسيو دلسبس على ذلك ، فأصدر الخديو أمرا بأن أمير البحر وقائد القوة الانجليزية العام بما انهما أتيا مصر مأمورين باعادة الراحة والنظام اليها ، فهما لذلك مفوضان بالحلول فى جميع النقط التى يريان وجوب الحلول فيها بقصد قمع العصاة وقد توعد فى هذا الأمر من يخالف أحكامه بالقصاص الصارم

وقد بعث المسيو فكتور دى لسبس لأبيه المسيو فردناند دى لسبس تقريرا بتاريخ ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ على أثر تلك الأحوال هذه ترجمته :

« يا حضرة الرئيس

« فى تقاريرى السابقة انبأتكم باصرار الحكومة الانجليزية

على عدم الاكتراث بأنظمتنا وقوانيننا ، وبحلول الانجليز في مياه ترعة السويس بناء على أمر الأميرال هيويت

« وفي ١٣ أغسطس أرسلت اليكم تلغرافا مشتملا على بيان مسألة الانجليز في الترعة ثم توجهت الى السويس . ففي صباح ١٤ منه حصلت مقابلة بيني وبين الأميرال هيويت فبسطت له فيها ان رئيس ومدير ادارة الترعة لم يجب على رسالته لأسباب أجلها انه اعتبر الجواب عليها من موجبات وقوع سوء التفاهم والوحشة بينهما ، ولذلك كلفني أن أجتمع به وأشرح له مشافهة ما لا يشك بعده ان الانجليز يخرجون من الترعة مراعاة للعهود والمواثيق

« ولقد شافهته بهذا الكلام ولم ألق عناء في اقناعه بأنه تجاوز الحدود المقررة للدول المحاربة ، فان الأعمال التي قاموا بها لم تكن الا لتحمل المصريين على العبث بحقوق الدول في الترعة ، بعد أن رأيناهم الى الآن يحترمونها بالرغم من مظاهرات الانجليز . وقد قلت له انه اذا علم المصريون ان الانجليز حلوا على ضفاف الترعة بغية ادخار المؤونة فيها ترتب على ذلك خوفنا من سدها وقطع الماء عنها

« ثم سألني الأميرال أن ألقى اليه شروحا وتفاصيل كافية عن حيادة الترعة وحقوق كل من الشركة والحكومة المصرية وواجباتهما ، فقلت له بل ذكرته بأن الصفة التي لزمها المسيو فرديناند دى لسبس في انجلترا فيما يتعلق بشأن الترعة كانت تلقى من مصاعب المقاومة ما تحمل لأجله أمورا كثيرة حبا في جعل الترعة على الحياد ، وكيف أنه بمحاماته عن مبدأ هذا الحياد ، كانت الشركة تظهر نفسها حريصة على منافع انجلترا ومصالحها ، وذلك بمنعها عن الاتيان بأعمال تضر بالتجارة العمومية وتجارتها خصوصا . وقد اعلنت له أن الاحتجاج على الأعمال العديدة التي خرقت بها انجلترا حرمة النظامات الموضوعة لترعة

والمرعية الاجراء يجب ألا يؤخذ منه ان الشركة تقصد الأمة الانجليزية بعدوان ، ولكنها تقصد به المعارضة والممانعة فيما يوجب اقامة الحجر عليها ، سواء أكانت الدولة الجانحة اليه انجلترا أم غيرها

وقد أفهمته ان الخديو ليس في رغبته أن يخل بنظام الترعة وان شأن السفن المصرية في الترعة شأن السفن الغربية الأخرى . وفي الجملة ان البحرية الانجليزية لا تستطيع أن تأتي عملا مخلا بالحقوق المحترمة باسم الخديو وحكومته

« فشكرني الأميرال على ما أبديته له وقال لي انه سيكتب الى حكومته بما ألقيته على سمعه فيما يختص بحياد الترعة وشأن الشركة فيها

« وبعد زيارتي له بنحو ساعة من الزمان لم يبق في مياه الترعة جندي واحد قط من الجنود الانجليزية

« ثم عدت الى الاسماعيلية يوم ١٥ الشهر . ففي ١٦ منه ورد للمسيو دي روفيل رسالة من القبودان فيتزروى مآلها ان الأميرال هوسكنس ليس على علم صحيح بشأن الحكومة المصرية والشركة في ترعة السويس ، فدعاني المدير على أثر ذلك الى بور سعيد وكلفني أن أجتمع بالأميرال وأجعله على ما يروم من العلم اليقين بحقوق الحكومة المصرية والشركة في خليج السويس

« وفي ١٨ منه اجتمعت بالاميرال هوسكنس ، فلقيت منه غير ما لقيته من الأميرال هيويت فانه جعل في أذنيه صمما ، وأمالهما عما كان في كلامي من الصواب

« ولقد صرفت بجانبه أكثر من ساعة على هذا الحال محاولا اقناعه بأن مياه بحيرة التمساح وبور سعيد خاضعة كالترعة لحقوق الشركة ، وان جميع السفن الأجنبية بلا استثناء تعامل في بور سعيد والبحيرة المذكورة بمقتضى نظام الشركة المقرر

« فلم يصغ الأميرال لهذا المقال وفوق ذلك أنه كان يقطع على الحديث بين الدقيقة والأخرى ، ويقتصر على القول بأن المسيو دى لسبس عدو انجلترا وأن فى بور سعيد راية مصرية .

« ولقد بذلت الجهد فى اقناعه بأننا لسنا أعداء انجلترا وان وجود الراية المصرية فى مياه بور سعيد ليس من شأنه أن يجعل للبحرية الانجليزية أو بحرية أية دولة كانت حق خرق النظام وتجاوز الحدود . فكانت مساعى واجتهاداتى تذهب سدى .

« فمن ذلك يتضح ان الأميرال كان قد تقرر فى ذهنه اننا أعداء الانجليز وان مياه بور سعيد وبحيرة التمساح ان هى الا مياه مصرية يفعل فيها ما يشاء من غير معارضة

« وبعد أن انتهت هذه المخابرة بيننا رجعت الى الاسماعيلية وفى ليلة ١٨ من الشهر انقطع تلغرافنا بالقرب من السويس فاستدللنا من الآلات التى وجدناها فى الصباح ان الأيدى التى اشتغلت بقطع تلك الاسلاك انما هى أيد أوربية فعمد المسيو دى روفيل فى الحال الى اصلاحها واعادة المخابرات بواسطتها

« وبعد عودة الصلات التلغرافية الى مجراها السابق ورد تلغراف من المسيو شارترى مشتمل على نص رسالة بعث بها اليه الأميرال هيويت، مضمونها انه وفقا لتعليمات الحكومة الانجليزية أصبح مأمورا بمنع جميع السفن من الدخول فى الترعة وفى جملتها زوارق الشركة وباستخدام القوة عند الاقتضاء ، فى انفاذ هذه التعليمات

« فلما وقف المدير على نص هذه الرسالة بعث المسيو شارترى بمذكرة يقيم بها الحجة على رسالة الأميرال

« وفى نحو الساعة التاسعة من صباح ١٩ الشهر دخل الترعة زورق مسلح من زوارق السفن الحربية

وتصدى لما فيها من الزوارق البخارية تصديا مبينا على ما جاء في نص رسالة الأميرال . أما من جهة بور سعيد فلم يبد شيء من مثل ذلك

« وكانت التعليمات التي اعتمد عليها الأميرال منذرة بوقوع بحوادث هائلة

« ففي ليلة ١٩ طرأت على الاسماعيلية تلك الحوادث وجعلتها مشهدا للمخاوف

« وذلك انه بينما كان جمهور من الأوربيين مجتمعين في منزل المسيو بواليرى على أثر دعوة الى ليلة راقصة ، وكان الوقت اذ ذاك الساعة الثانية بعد منتصف الليل اذا بحركة في طرق المدينة تصم الآذان ، فمن اطلاق بنادق وسوق عساكر وجر مدافع الى غير ذلك مما كان حدوثه غير منتظر ، وكان أصحاب تلك الحركة هم الانجليز الذين أخذوا يخرجون الى المدينة غير مبالين بذعر السكان وقتلهم في الطرق بنار البنادق

« وقد حرنا فيما بعثهم على تلك الحركة الحربية اذ لم يكن أمامهم من عدو يطلقون عليه تلك النار ، فان معسكر المصريين كان في نفيشة التي تبعد عن الاسماعيلية مسافة ثلاثة كيلومترات ، أما المدينة فلم يكن فيها الا نفر قليلون من البوليس ، وهم قوم من أشد الناس ميلا الى السكينة ، فانهم قضوا الى الآن في الاسماعيلية سنين كثيرة ، ولم يكن همهم فيها الا تأييد الراحة والمحافظة على النظام

« وبعد خروج الانجليز بقليل دوت أصوات المدافع وذلك بأن أخذت السفينة أوريون والسفينة كاوليفور في اطلاق مدافعهما على نفيشة ثم استمر اطلاق البنادق متتاليا متتابعا في شوارع المدينة ، وعند بزوغ الفجر انقطع اندفاع رصاص البنادق في حارة الأوربيين ، وقد أصيب به رجل هولندى الأصل يدعى المسيو برونيس

« وبعد شروق الشمس انطلق الملاحون الانجليز الى القرية

العرب التى يقطنها فعلتنا الوطنيون ، وأخذوا يطلقون النار على النساء والاطفال فكانوا يفرون من وجوههم الى الصحراء ويملاون بصراخهم الفضاء

« وقد أسروا بعض رجال البوليس من غير أن يبدى أحد منهم أدنى مقاومة ، ولكن قتل أحدهم أثناء محاولته الفرار مع عائلته ،

« وعندما نزل الانكليز الىالبر قطعوا أسلاكنا التلغرافية المتصلة بالسويس وبور سعيد ، وحل القبودان فيتزروى فى مكتب الميناء وحجز على زوارقنا ، وقد أصبحت الاسماعيلية الآن من ضمن حصار مخيف وأمسينا لا ندرى بما هو جار فىبقية الخط • وقد أخذنا نهيىء مكانا لعائلات مستخدمي الشركة حيث تكون آمنة شر الخوف والرعب فان فى المدينة ٣٠٠ جندى فقط من ملاحى الانجليز ، ونحن نظن أن عساكر نفيشة يستطيعون أن يهجموا على المدينة فى الليل ويطردوهم منها ونرى من الحزم أن نرسل النساء والاطفال الى بحيرة التمساح ليقضوا فيها الليل • أما نحن فقد عزمنا على البقاء فى المدينة

« وقد منع القبودان فيتزروى النساء من السفر فكتبت اليه مستفهما عن سبب ذلك ، فبعث الى يقول انه يبيح للنساء السفر ، ولكن رجال المسيو دى لسبس يجب أن يبقوا فى المدينة ، فانه يتوقع أن يحمل عليه فى الليل وأن يحدث قتال فى الاسماعيلية ، فلذلك يروم ابقاءهم فى المدينة

« فلما ورد هذا الجواب آثر قسم عظيم منالعائلات البقاء فى المدينة على الجلاء عنها • أما القسم الآخر فالتجأ الى السفينتين الاسبانيتين « كارمين » و « الباتروش » وكان قائداهما (الدون كرلوس دويز) و (المسيو لونفيلد) قد

أرسلا الينا زوارق مخصوصة فتوجه عليهـا الى السفينتين من رام الالتجاء اليهما

« وانقضى الليل من غير أن يحدث شيء مزعج فيه ، وفى الصباح نهضنا من الرقاد وقصدنا الخروج الى الشـوارع والتجوال فى المدينة ، فاذا هى غاصة بالعساكر الانجليز البريين والبحريين

« وفى ٢١ الشهر نصب الانجليز أنفسهم سلكنا البرقى الكائن على خط بور سعيد • وبلغنا ان كثيرين من الجنود الانجليز نزلوا الى بور سـعيد وان الأميرال هوسكنس استولى على مكاتب الشركة فيها ، وطرد منها المسيو ديزا فادى ، وان سفنا كثيرة من السفن الحربية دخلت الترعة بدون أن تؤدى الرسوم اللازمة وان الانجليـز حلوا فى القنطرة بالقوة

« وفى صباح ٢١ أتى الاسماعيلية الأميرال بوشـان سيمور والجنرال ولسلى والأميرال هوسكنس وفيه حصلت مقابلة بينى وبين الأميرال سيمور أظهر لى فى غضونهـا رغبة فى عود الشركة الى شأنها المسلوب فى الترعة ، فقلت له اننا لا نقدر أن نستلم زمام عملنا السابق فى الخليج الا اذا كنا قادرين على ادارته بمقتضى حق الخدمة المقررة لنـا فى نظام الترعة وبعبارة أخرى رفع الحظر عن زوارقنا فى الاسماعيلية وأعيدت المخابرات التلغرافية بيننـا وبين السويس • وفى الجملة يجب أن يعـاد للشركة حق ادارة أعمالها ، كما كان سابقا من غير أن يكون للغير دخل فيها ، والا فالتبعة على الأميرال وأتباعه • فقبل الأميرال والجنرال ولسلى تحمل هذه التبعة

« وفى ٢١ و ٢٢ الشـهر رفعت الاسلاك التلغرافية بين الاسماعيلية والسويس ثم بلغنا ان المصريين اشتبكوا فى ٢٠ الشهر فى قتال عنيف مع الانجليز فقتـل من المصريين مائتان • أما عدد الانجليز الذين خرجـوا الى

الاسماعيلية فقد بلغ من ٢١ الى ٢٢ الشـــهر عشرين ألف مقاتل

« وفى ٢٢ منه انخفضت مياه الاسماعيلية ٢٥ سنتيمترا واستمر هذا الانخفاض فى الأيام التـــالية بمعـــدل ٤ سنتيمترات فى اليوم وهو ما دعى الى الظن بأن العرابيين قطعوا مياه الترعة

« وفى ٢٣ سلك الانجليز طريق القاهرة سائرين عـلى خط الترعة (الحلوة) وخط الطريق الحديدية ، وبعد أن حدث بينهم وبين المصريين بعض مناوشات بلغوا المحسمة وهناك تحققوا أن مياه الترعة لم تصب بأذى وعـلى فرض أنها قطعت من فوق المحســـمة ففى محتقنات القصاصين والاسماعيلية ما يكفى الترعة شهرين

« وفى ٢٤ عاد سير الأحوال فى الترعة الى عهده السابق

« وانى لا أنسى أن أذكر ان الانجليز كثيرا ما احتاجوا الى أدلاء السفن فطلبوا منهم بعض الخدمة فأبوا ما لم تسمح لهم الشركة باجابة الطلب

« وحاصل القول فى الختام أنه لم يلحق بأحد من رجال الشركة سوء أو أذى فى مدة هذه الأزمة

التوقيع (فيكتور دى لسبس)

خيانة الخديو توفيق

كل عاقل منزه عن الغرض يطلع على ما سبق توضيحه من أن الخديو أصدر أمره بأن أمير البحر وقائد القـــوة الانجليزية العام بما انهما آتيان مصر لاعادة الراحةوالنظام اليها فهما لذلك مفوضان بالحلول فى جميع النقـــط التى يريان لزوم الحلول فيها على قصد قمع العصاة وتوعده فى هذا الأمر لمن يخالف أحكامه بالقصاص الصـــارم ٠ ومن يطلع على تقرير المسيو فيكتور دى لسبس واعتراف الشيخ

حمزة فتح الله فى مقالتــه الأولى بأن الخديو ليس أول من انتصر بغير ذوى دينه ، بل أن له فى ذلك سوابق كثيرة — **يعلم علم اليقين أن الانجليز ما أتوا لقتال المصريين الا بطلب الخديو باتفاق سابق وان تقريره للحرب فى المجلس الأعلى الذى كان تحت رئاسته ما كان الا خديعة منه وأن تحيزه للعدو كان باتفاق أيضا حتى يصير قتـــال الانجليز مع المصريين باسمه ، وان النظار وغيرهم الذين اتبعوه كانوا قد خدعوا كما خدع الشيخ حمـــزه فتح الله وغيره من البسطاء . على ان كل من كان معه كانوا من رجال الاستبداد الذين لا ترضيهم الحرية والمساواة** الا اثنان منهم وهمـا : حسن باشا الشريعى وعبد الله باشا فكرى ، ولذلك سجنهما وأهانهما عند ابلاغه خبر هزيمة الجيش المصرى فى التـل الكبير انتقاما منهما ، لعدم استحسانهما انحيازه الى الانجليز وأمره بعزلنا واعلانه عصياننا بعد أن ترامى فى أحضان الأعداء المحاربين لبلاده . وقد أصدر النظار وهم مع الخديو توفيق فى قبضة الانجليز منشورا يصفوننى فيه بالعصيان على نحو ما وصفنى فى منشوراته ذلك الخديو الخائن للوطن

كتابى الى الباب العالى

وفى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ أرســلت الى باشكاتب المابين بما يأتى :

« كنت قد بسطت لعطوفتكم فى ٢ أغسطس وما بعــده أمر اعتداء الانجليز وتســلطهم فى جهتى الســويس والاسماعيلية على الترعة ، ومخالفتهم للعهود مخالفة لنظام الترعة ، وبسطت أيضا ما كان من الهمة التى بذلناها فى جعل الترعة على الحياد لانها نقطة وحيدة لاجتماع منـافع الأمم وممر تجارة العـالم أجمع . ولما كان قد قرب الآن ميعاد توجه المحمل الشريف والحجاج المسلمين الى جهـة

الحجاز كتب الى المسيو دي لسبس الموجود الآن بالاسماعيلية مستفهما عما اذا كانت انجلترا تمانع فى مرور عساكر المحافظة المعتادة على التوجه مع المحمل الشريف أم لا • فاجاب وكيل الجهادية بالتلغراف انه بالنظر الى الأحوال الحاضرة ، لا يمكنه أن يأخذ على نفسه تبعة ارسال المحمل الشريف • وبعد ورود هذا الجواب منع الانجليز سفن الدول من المرور بالقنال وقطعوا الأسلاك البرقية الكائنة بين السويس والاسماعيلية كما عرضنا ذلك بالتلغراف

« ثم انهم أدخلوا سفنهم الحربية مع العساكر بأسلحتهم، وقد أبنا الاحتياطات التى اتخذت لمقاومة العدو اذا نقدم الى داخلية البلاد ، وكان قومندان الخط الشرقى ووكيل محافظة الاسماعيلية ويوزباشى العساكر المستحفظة هناك، قد أفادوا أن من عزم الانجليز اطلاق مدافعهم على النقط العسكرية الكائنة فى داخل البلاد • ففى هذا الصباح علم من الأخبار الواردة ان الانجليز شرعوا عند الساعة التاسعة من ليل أمس فى اطلاق القنابل من جهة الاسماعيلية على نفيشة

« أما نحن فبالنظر الى احترامنا لعهود القنال بأن يكون على الحياد ، والى عدم تقويتنا لتلك النقطة وعدم وجود قوة عسكرية تقوم بشأن المحافظة على النقط فيما عدا (العساكر المستحفظة) وموالاة التحريض الشديد على عدم مس حقوق القنال — كل ذلك جعلنا فى مأمن تام من تحمل أية تبعة كانت

« ولما بدا من الانجليز هذا الاعتداء على ضفاف القنال قدم المسيو دى لسبس احتجاجا الى الأميرال الانجليزى ، وأرسل صورة الاحتجاج بالتلغراف الى الحكومة الفرنسية ، فاتصل خبره بوكلاء الدول فى عاصمة الحكومة المشار اليها ، فأعلموا دولهم بصفة رسمية • أما الانجليز

فلم يلتفتوا الى الاحتجاج ، بل أصروا على الاخلال بنظام القنال ، وفي هذا الشأن أرسل تلغراف الى المسيو دي لسبس بما يأتي :

« بما ان الانجليز خرقوا نظام حياد الترعة ، فقد صارت مصر مضطرة الى سدها وتعطيلها منعا لاعتداءاتهم، فاذا لم يرد اليناجواب شاف في مدة ٢٤ ساعة اضطررنا الى اتخاذ الاحتياطات اللازمة للدفاع »

« فمن التفاصيل التى تقدم سردها تعلمون ان الدولة الانجليزية التى كانت متخذة لها مقاما خطيرا لدى الخلافة الكبرى وفي دار السلطنة العظمى وكانت تزعم أنها أشد الدول محافظة على السلام ، وانها لا تحارب مصر،ولا تقصد بها شرا قد أوقعت المسلمين في اشكال عظيم

« ومن التعدى الذى قامت به أمس ظهر في الواقع تظاهرها بخلاف ما كانت تزعمه سابقا وتحقق أيضا انها مقاومة لجميع المصريين الأمة الخاضعة للدولة العثمانية ، وانها داست بأرجل المطامع منافع جميع الدول ، ولم تخش أحدا ورمت بنار الحرب أقليما عظيما

« فبما ان أعمال الانجليز وصلت الى هذه الدرجة فلم يعد في الامكان التراخي في اتخاذ الوسائط المقتضاة لدفع كيدهم ، وأما النتائج الوخيمة التى ستترتب عن ذلك فستكون عائدة على المعتدى الظالم

« وقد بسطت فيما مضى شرح الأحوال التى كانت جارية يوم تدوينها وارسالها فلكى يكون ما أعقبها غير خاف على شريف علم أمير المؤمنين بادرنا الى كتابتها وتقديمها لنادى عطوفتكم »

معارك القتال
في داخل القطر

هزمنا الانجليز في كفر الدوار

في يوم الاحد ٥ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٠ أغسطس سنة ١٨٨٢ رؤى العدو يرتب عساكره من الساعة السادسة فرتب طابه باشا قومندان الفرقة بكفر الدوار عساكرنا بهيئة مؤلفة من أربع أورط من الجهة الشرقية تحت حكمدارية عيد بك الأميرالاى والقائمقام أحمد بك عفت ، وأربع أورط من الجهة الغربية تحت حكمدارية الأميرالاى مصطفى بك عبد الرحيم والقائمقام سليمان بك سامي . وأما السوارى والعربان فتحت قومندانية أحمد بك عبد الغفار . وفي الساعة التاسعة العربية ظهر العدو مرتبا قولاته من ستة قولات من الجهة الشرقية وقولين من الجهة الغربية وقطارين من قطارات السكة الحديدية ، ثم ابتدأ الضرب بالمدافع من الطرفين واستمر ساعتين

وكانت عساكرنا تتقدم تحت نيران الطوبجية وعندما صار العدو تحت مقذوفات البيادة ابتدأ اطلاق النار من الطرفين فاحتدمت الحرب وتوالى اطلاق النار الى منتصف الساعة الأولى من الليل فلما رأى العدو ثبات عساكرنا واقدامهم بشجاعة وسرعة حركاتهم ولى منهزما فتبعته السوارى والعربان وأوقعت به قتلا وفتكا حتى أدخلته في نخيل الرمل — ولله در طوبجيتنا الذين أبلوا فيهم بلاء حسنا ، وأظهروا من المهارة ما جعل العدو يترك كثيرا من رجاله أشلاء في ميدان القتال

وفي ٦ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٨٨٢ حضر العدو بقولات من جهة الرمل وابتدأ باطلاق

المدافع فجاوبتها عساكرنا بالمثل وكانت مشاتنا تسير تحت نيران مدافعنا وقبل أن يصلوا الى مواقع المقذوفات تقهقر العدو واستمر اطلاق المدافع الى الغروف وعندما رأى العدو ان نيران مدافعنا لا تبقى ولا تذر انهزم وفر هاربا وعاد عساكرنا ولم يصب واحد منهم بسوء

وقد أصيب في هذه الواقعة كثير من رجال العدو كما تحقق ذلك من استكشافات هذا اليوم ، فقد ترك كثيرا من رجاله صرعى في ميدان أمس

وفي يوم الثلاثاء الموافق ٧ شوال و ٢٢ أغسطس ورد لنا تلغراف من طلبه باشا قومندان فرقة كفر الدوار قال فيه :

« بعد أن ظهر العدو رتب عساكره ـ من خطوط (جرخجية) ثم طوابير ثم قولات ـ تقدم حتى صار تحت نيران مقذوفاتنا فابتدأت الحرب في منتصف الساعة الحادية عشرة واشتغلت طوبجيتنا بمهارة عظيمة حتى بددته وشتتته تحت النخيل ثم ما زالت نيراننا تقفو أثره حتى انهزم شر هزيمة وقد رأيت قنابلها تفرقع في وسط طوابير العدو وقولاته فتهلك الكثير من رجاله ، وكانت أصوات عساكرنا مرتفعة بالتكبير والتحميد ومشاتنا تتقدم تحت نيران مدافعنا ، ولكن العدو لم يتمكن من الدخول في منطقة نيران البنادق لتأثير نيران مدافعنا فيه

« ولقد رأيت من مهارة طوبجيتنا واصابة مقذوفاتها ما أبهجني وملأني سرورا وزدت سرورا بهم عندما رأيت (جبخانة) العدو وقد التهبت وأصابت كثيرا من رؤسائهم ثم شاهدت في طابية الرمل كثيرا من الذوات وكبار الافرنج يشاهدون القتال ومعهم المنظارات

« وقد استنجد الانجليز فجاءتهم نجدة على قطار مخصوص، ولكنها لم تصل الا بعد الهزيمة فرجعت كما جاءت

وكان الوقت فى الساعة الواحدة ليلا .

فبشروا العموم بتأييد الله ونصره للعساكر المصرية وما يظهرونه من الثبات وتبديد العدو الباغى » اهـ

الخديو توفيق يساعد الانجليز

استقالت نظارة راغب باشا فى ٢٤ أغسطس واستقدم الخديو رياض باشا من أوربا حيث كان متغيبا فيها ، فقدم وبعد قدومه دعا الخديو محمد شريف باشا الى تأليف نظارة جديدة برئاســـته ، فلبى الدعوة وصدع بالأمر وألف النظارة على الوجه الآتى :

محمد شريف باشا	رئيس النظار وناظر الخارجية
مصطفى رياض باشا	للداخلية
عمر لطفى باشا	للجهادية والبحرية
حيدر باشا	للمالية
على مبارك باشا	للنافعة (الأشغال)
احمد خيرى باشا	للمعارف
فخرى باشا	للحقانية
أحمد زكى باشا	للأوقاف

وبعد ذلك اصدر الخديو منشورا الى أهالى القطر يحضهم على مساعدة الانجليز ويصرح فيه بأنهم نائبون عنه فى تأديب الجيش المصرى . وقد جاء فى هذا المنشور :

« ليس خافيا ما أقدم عليه أحمد عرابى وشيعته الضالة من الأفعال المغايرة والتشبثات الفوضوية التى أخلت بنظام القطر ، وأضعفت الثقة به بل اورثتــه الخسائر والأضرار الجسيمة ولا سيما بانضمام الجيش المصرى اليه واتحادهم معه فى البغى والمجاهرة بالعصيان لحكومتنا الخديوية حتى ارتبكت الأحوال وخيفت العواقب فبادرت الدول الى عقد

المؤتمر الدولى بالاستئناف للنظر فى المسألة وتقرير ما به حلها . وبالبحث والمذاكرة فى ذلك استقر رأيهم على اتخاذ الطرق التى يترتب عليها عودة سلطتنا الخديوية وتأديب هؤلاء الخارجين لتستتب الراحة وتزول أسباب المفاسد حرصا على عمران القطر واحترازا مما عسى أن يلم به من الدمار

« ولما كانت الدولة البريطانية الانجليزية لها فيه المنافع الكبرى ولا سيما بالنظر الى ترعة السويس التى هى طريقها الوحيد للخطة الهندية المهمة ، فقد أخذت على عهدتها وتحت امرتها التدخل الفعلى لقمع هؤلاء المفسدين ومحو آثار الفتن دون أن تمس حقوق السلطنة السنية ولا الامتيازات المصرية .ولتحققنا أن نيتها سليمة ومساعيها فى الظاهر والباطن ليس الا الاصلاح ولا غاية لها فى الاستيلاء على البلاد ولا الفتك بأهلها لعداوة دينية ولا غير ذلك مما يذيعه العصاة تنفيرا منهم للعامة وتبغيضا لهم فى الأمة الانجليزية على حسن مقاصدها المذكورة ، ولايزال العاصون على حالهم من المقاومة وتجسيم الحال المؤدى الى زيادة الخراب حتى اعتبرتهم السلطنة السنية عصاة مخالفين للأحكام الشرعية فاستدراكا للأمر ومراعاة للمصلحة العمومية قدرخصنا لحضرة القائد العمومى للجيش الانجليزى بالتجول نحو جموع العصاة واستعمال الوسائط القاهرة لتبديد شملهم وسرعة القبض على رؤسائهم لمحاكمتهم بما يستحقون من أشد العقاب

« وبما أن العساكر الانجليزية يعدون فى هذه الحالة نائبين عنا فى قطع دابر المفسدين وتطهير البلاد منهم حتى يستتب الأمن والراحة ويزول الشقاء عن العباد • ومن كانت هذه صفتهم فانهم جديرون بالمعاونة والمساعدة ولا يرتاب

أحد فيهم بوجه من الوجوه فينبغى أن لا يرهب منهم أحد ولا يظن فيهم سوءا أو مكروها وأن لا يعاملوا بما يستوجب المنافرة، بل على كل مصرى يحب وطنه ويخشى خرابه أن يعاملهم لقاء حسن نياتهم بالاكرام اللائق بهم ، ولا يتأخر أحد عن مساعدتهم فى تقديم ما ربما يحتاجون اليه من المؤونة بأثمانها السائرة التى هم مستعدون لأدائها فورا فمن فعل كذلك فقد وفى ما يجب عليه من حقوق الوطنية الصادقة واستوجب رضاء الله (كلا بل استوجب غضب الله وسخطه) ورضانا عنه فضلا عما يراه منهم من المكرمة ، ومن أبى وخالف وقابلهم بالمكابرة الوحشية التى لا تجديه نفعا ، فقد عرض نفسه للتهلكة التى نهى الله عنها ، وتحققنا انه من العصبة الباغية فأمره كأمرهم ..» .. الى آخر ما جاء فى هذا المنشور الكاذب الظالم ، غير الشرعى لأن مجلس الأمة العمومى ومؤتمرها الذى ضم نوابها وذوات بلادها قرر وقف الخديو وعدم نفاذ أوامره بسبب تحيزه للأعداء

خداع الانجليز

وفى ١٩ اغسطس سنة ١٨٨٢ أصدر الجنرال ولسلى منشورا للأمة المصرية كله خداع وبهتان وهذا نصه :-

« يعلن الجنرال ولسلى قائد الجيوش الانجليزية أن الدولة البريطانية لم تقصد بارسال التجريدة العسكرية الى القطر المصرى الا تأييد سلطة الجناب الخديو فجنودنا لذلك لا تقاتل الا من كان شاكى السلاح خالعا لطاعة الجديو أما سائر الأهالى الذى يكونون فى هدو وسكينة ، فيعاملون بالتؤدة ، ومقتضى الشعائر الانسانية فلا يمسهم اذى بل سيحترم دينهم وتصان مساجدهم وعائلاتهم . وما يلزم للجيش من زاد وغيره يؤدى بثمنه ، ولذلك ندعو الأهالى الى تقديم

ما لديهم مما يحتاج اليه الجيش . ثم ان الجنرال قائد الجيوش يسر كثيرا وينشرح صدرا من زيارة مشايخ البلاد وغيرهم ، ممن يؤدون المساعدة فى قمع العصيان والقاء القبض على العصاة الذين عقوا الخديو أمير البلاد وواليها الشرعى المعين من لدن الحضرة السلطانية

« الاسكندرية ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ ، الامضاء : الجنرال غازنت ولسلي . قائد الجيوش الانجليزية فى الديار المصرية »

معارك الخط الشرقي

وفى نفس اليوم الذي صدر فيه هذا المنشور ورد تلغراف من محافظة السويس بأن الانجليز أطلقوا مدافعهم علي المدينة ولما لم يجاوبهم أحد خرجوا الي البر واحتلوا المدينة وفعلوا مثل ذلك فى مدينة الاسماعيلية فى ليلة ٢٠ منه

وفى ٢١ اغسطس توجه الفريق راشد باشا حسني الى الخط الشرقى ومعه فرقة من البيادة والطوبجية والسوارى تحت امرة خالد باشا نديم ومحمد بك عبيد الميرلاى وعبد القادر بك عبد الصمد الميرلاى ، ثم صار وضع اورطة فى محطة فايد ، والاخرى فى نفيشة ، وجعلوا المركز العمومي فى المسخوطة ، وتوجه اليهم محمود باشا فهمي رئيس أركان حرب ، واخذوا فى انشاء استحكامات خفيفة فى المسخوطة بواسطة الأهالى المتطوعين وسد الترعة الحلوة

واقعة المحسمة

وفى ٩ شوال ١٢٩٩ و ٢٤ أغسطس سنة ١٨٨٢ نشب القتال مع الانجليز بين المسخوطة والاسماعيلية فاقتتل الفريقان قتالا شديدا اشترك فيها العربان حتي أخرجوا الانجليز من مراكزهم التي تحصنوا فيها عند محطة المحسمة ، وقد كابدت الأعداء خسائر جسيمة

وفى ١٠ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٥ اغسطس سنة

١٨٨٢ ورد تلغراف من رئيس أركان حرب الجيش بالمحسمة لوكيل الجهادية بمصر ، وهاك نصه :

« نهنيء سعادتكم بما حصل من الظفر فى هذا اليوم على العدو فى ميدان الحرب بين المسخوطة وبين الاسماعيلية ، وان جهة المسخوطة فى حذاء الاستحكامات الجارى تشغيلها. وسبب حركة العدو فى هذا اليوم هو بالنسبة لما أصابه من سد الترعة الحلوة وحجز المياه عن الاسماعيلية وبورت سعيد والسويس ورؤيته كثرة انفار العملية الموجودة فى أشغال الاستحكامات خرج يوم تاريخه صباحا من الاسماعيلية باربع أورط بيادة وأربع مدافع جبلية وكثير من السوارى ، ولم يكن موجودا فى خفر الاستحكامات الا اربعة بلوكات بيادة وبلوكان سوارى ومدفعان جبليان . وفى الحال توجه حضرة عبد القادر بك بالايه واورطة من آلاى على بك وحضرة محمد افندى الرشيدى بأورطة سوارى ، وبعد أن قابلتهم بلوكات الغفر والمدفعان والبلوكات السوارى أمدتهم العساكر ، وانتشرت العربان ، واستمر الحرب من الصباح الى ساعة تاريخه حتى تزلزلت أقدام العدو ورجع الى الخلف الى ان وصل الى تلول الاسماعيلية . فاقتفت اثره عساكرنا المنصورة ، ولم يزل سعادة راشد باشا حسنى وسعادة خالد باشا نديم وعبد القادر بك ومحمد بك عبيد فى ميدان المحاربة وما هم على قدم الحضور وسنعرض ما حصل للعدو من الخسائر فبشروا سعادتكم سعادة ناظر الجهادية والبحرية والمراكز العسكرية وجهات اللزوم بهذا الخبر السار ، أيدنا الله بفضله وكرمه انه على نصرنا قدير وبالاجابة جدير »

ولم تزل عساكرنا المنصورة تقفو أثره حتى بددت شمله وهزمته شر هزيمة ثم عادت الساعة الواحدة والنصف ليلا والوية النصر تخفق على رؤوسهم . وعندما بلغنى ما أيدنا

الله به من النصر المبين أرسلت تلغرافا أهنيء سعادة الشهم الهمام راشد باشا حسنى قومندان الجيش الشرقى

▭

وفي ١٠ شوال سنة ١٢٩٩ و ٢٥ أغسطس سنة ١٨٨٢ أطلق الانجليز مدافع سفنهم على عساكرنا فى المسخوطه قريبا من الاسماعيلية ، ثم هجم جيشهم برا بقوة كبيرة وكان هناك ستة آلاف من المتطوعين يشتغلون في الاستحكامات ، فلما نزلت عليهم مقذوفات العدو بقوة شديدة تشتتوا وتخللوا العساكر ، فعاقوهم عن الحركة وعلا صياحهم فى وجه العساكر ، فلم يتمكنوا من الضرب لامتلاء الميدان بهم ولم يجدوا بدا من الرجعة فرارا من تمكن العدو منهم ، وتركوا مركز المسخوطة ورجعوا الى التل الكبير . وأما محمود باشا فهمى ، فانه لم يرد أن يرجع مع العساكر وآثر الوقوع فى الأسر على البقاء فى الجيش لشدة ما هاله من منشور السلطان بعصياننا وطمعا فى قبوله لدى الخديو بسبب استسلامه الى الانكليز . ولذلك خالف خالد باشا وثبت فى موقفه مع خادمه حتى قبض عليه الانكليز بصفة كونه نفر بسيط

واقعة القصاصين الأولى

ولما بلغنا خبر هذه الواقعة قمنا من كفر الدوار الى رأس الوادى وكذلك قام اليها من مصر على باشا فهمى ومعه آلاى ١ جى بياده حكمدارية أحمد بك فرج وحضر من دمياط خضر بك خضر الى رأس الوادى ومعه أورطتان من العسكر السودانيين وجاء عيد بك محمد بآلايه من كفر الدوار وأحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بآلايات السوارى الى رأس الوادى أيضا وصار ترتيب الجيش ومواقع الاستحكامات . ثم عقد مجلس حربى تحت رئاستنا

وتقررت فيه هيئة الهجوم على العدو • وعرف الرؤساء كيفية ترتيب الجيش وسيره ، وأعطى لكل واحد منهم رسم الشكل الحربى مبينا فيه الدقيقة التى يلزم أن توجد الفرق فيها على خط النار أمام العدو ، حيث كان معسكرا فى القصاصين ، وكان الترتيب على هيئة شكل مقعر يكتشف العدو من كل جهة ، فكانت أورطة محمد أفندى الرملاوى فى الجناح الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة من السوارى ومدفعين وجانب من العربان • وفى هذا الجناح من يسار الترعة ١ جى آلاى بياده حكمدارية أحمد بك فرج وخلفه مدفعان • وفى القلب ثلاث أورط يتقدمها ٨ مدافع من الكروب وخلفها أورطة من البياده و ٦ مدافع • والجميع تحت حكمدارية على باشا فهمى ، والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت • وفى الجناح الأيسر ٦ أورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وأورطتان من البياده، ومدفعان تحت حكمدارية عيد بك • وقومندان هذا الجيش راشد باشا حسنى • وكذلك محمود باشا سامى البارودى حكمدار الجيش المعسكر فى الصالحية ، وهو مركب من ١٢ ألف عسكرى يقوم بجيشه ليلا بحيث يصل الى يسار جيش رأس الوادى عند مطلع الفجر ، ويحيط بميمنة العدو • والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته ، والعربان يقتحمون الترعة من خلفه ، وتقطع عليه خط الرجعة • وبذلك لا يتمكن العدو من الفرار • وقد كان مع العدو (الدوق أف كنوت) ثالث أنجال ملكة الانجليز

وفى ليلة الاثنين الواقع فى ١٣ شوال الموافق ٢٨ أغسطس سنة ١٨٨٢ سهر على باشا فهمى والضباط فى تهيئة العساكر ، وتعيين النقط واعطاء التعليمات الى الحكمدارية • وفى الصباح تقدم الجيش نحو العدو حتى يصل اليه واشتبك القتال بالمدافع أولا ثم بالبنادق ، وقد ثبت الجيش المصرى أمام العدو ثبات الابطال ، ثم امتد

القتال الى الليل والتحم سوارينا مع سوارى ألعدو التحاما هائلا ، فتراجع الفريقان ، وقد أسر أحمد بك عبد الغفار قرينه من جيش العـــدو الذى كان يقاتله ، وهو طلياني الأصل برتبة اليوزباشي

وقد نشر ذلك مفصلا فى جريدة الطائف بقلم السـيد عبد الله أفندى نديم الذى عاين هذه المعركة

وفد الخديو الى اهالى القطر

ولما بلغ الخديو هول هذه الواقعـــة أرســـل وفدا الى الاسماعيلية مؤلفا من محمد سلطان باشا وعمر لطفى باشا وفريد باشـا وزكي بك (ابن أخت يعقوب باشا سامي) وعثمان بك رأفت ومعهم مقادير عظيمة من نسـخ الجوائب المندرج فيها منشـــور السلطان بعصياننا ومنشور الخديو القاضي بمساعدة الانجليز وانه لا مطمع لهم فى بلادنا وقد انضموا الى زهراب بك المعين مع الجيش الانكليزى من قبل ليبثوا العيون والجواسيس على جيشنا وليتخابروا مع بعض الضباط المصريين الذين فسدت عقائدهم وضعفت عزائمهم ويوزعوا عليهم تلك المنشورات

وقد كلف بعض رجال الوفد المذكور بالتنقل فى البلاد الريفية ليدعوا العمد والاعيان لطاعة الانجليز ومساعدتهم اتباعا للمنشور الخديوى وقد انخدع وانضم اليهم فى هذه الخيانة السيد أفندى الفقى من مديرية المنوفيـــة وأحمد أفندى عبد الغفـــار عمدة تلا وغيرهم من المصريين الذين انخلعت قلوبهم من منشور السلطان المنـــدرج بالجوائب المشار اليها

اعلان السلطان بعصياننا

صدرمنشور سعيد باشا الصدر الأعظم بعصياننا وقدمه الباب العالى لمؤتمر الآســتانة اجابة لطلب اللورد دفرين

سفير انجلترا لدى الدولة العثمانية وهذا تعريبه :

« أولا ـ أن الدولة العلية السلطانية تعلن أن وكيلها الشرعي بمصر هو فخامتلو محمد توفيق باشا

« ثانيا ـ أن أعمال عرابى كانت مخالفة لارادة الدولة العلية ثم التمس جناب الخديو العفو فعفا عنه ونال أيضا من الحضرة السلطانية العفو العام

« ثالثا ـ أن الشرف الذى ناله أخيرا من الحضرة العلية السلطانية انما كان من تصريحه بالطاعة لأوامر مولانا السلطان المعظم الخليفة الاعظم

« رابعا ـ قد تحقق الآن رسميا أن عرابى باشا رجع الى زلاته السابقة واستبد برئاسة العساكر بدون وجه حق فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة لا سيما أنه تهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية

« خامسا ـ بناء على ما تقدم يحسب عرابى باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية

« سادسا ـ تصرف الدولة العلية السلطانية بالنظر الى عرابى باشا ورفقائه وأعوانه يكون بصفة أنهم عصاة

« سابعا ـ يتعين على سكان الأقطار المصرية حالة كونهم رعية مولانا وسيدنا الخليفة الاعظم أن يطيعوا أوامر الخديو المعظم الذى هو فى مصر وكيل الخليفة وكل من خالف هذه الأوامر يعرض نفسه لمسئولية عظيمة

« ثامنا ـ ان معاملة عرابى باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هى مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية »

وهذا المنشور مغاير لاحكام الشريعة الاسلامية الغـراء ومغاير لرضاء السـلطان الأعظم ،والسـادة الأشراف يتبرأون مما نسب اليهم تحككا مغايرا للحقيقة ، وانما هو ارضاء للانجليز فقط .!

ولما نشر منشور السلطان بعصياننا ومن معنا بجـرنال الجوائب ارضاء للانجليز، أرسل منه مئات الالوف الى الهند والأفغان والحجاز والعراق والترك ومصر والمغرب الأقصى وجميع بلاد الاسلام بواسطة الانجليز ووزعت منه نسـخ كثيرة على ضباط الجيش المصرى فى جميع المراكز بوساطة أبو سلطان باشا ومن معه من المخدوعين كما أسلفنا

تذمر بعض أمراء العسكرية وقالوا اننا اذا عصاة عـلى السلطان مخالفون لكتاب الله وسنة رسوله كما فعل محمد على باشا رأس العائلة الخديوية وابنه ابراهيم باشا ، ومن مات منا مات عاصيا لا أجر له مثل الذين ماتوا من المصريين

فى قتال الدولة العلية ، فنصحناهم بأن هذا المنشــــــور مخالف لاحكام الدين الاسلامى ، لاننا انما نقــــاتل أعداء المسلمين الذين يريدون أن يستولوا على بلادنا الاسلامية وان الجهاد فى سبيل حماية الدين والمــــال والوطن فرض واجب علينا ، وان سلطان المسلمين لا يسمح بمثل هـــذا المنشور وانما هو دسيسة انجليـــزية تمكنوا من انفاذها بواسطة الرشوة . ولو فرض وصدر مثل ذلك من سلطان المسلمين لوجب على المسلمين خلعه لمخالفته لأحكام الدين

. الا أن تلك النصائح لم تؤثر فى الذين يجهلون أحكام الدين مثل أحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى وعبد الرحمن بك حسن حكمدار ٢ جى آلاى سوارى ، وعلى بك يوسف أميرالاى ٣ جى بيـــــاده ولكنهم أظهروا قبـــول ما أوضحناه لهم وأسروا الغدر والخيانة والحساب على الله

معركة القصاصين الثانية

وفى ٢٤ شوال سنة ١٢٩٩ الموافق ٨ سبتمبر ســـــنة ١٨٨٢ عقد مجلس تحت رئاستنا حضره راشد باشاحسني قومندان الخط الشرقى ، وعلى باشا فهمى ، وجميع أمـــراء الآلايات الموجودين بمركز التل الكبير ، ومحمود باشـــا سامى قومندان مركز الصالحية وتقرر فيه الهجوم على الاعداء بمركز القصاصين حيث اتخذ معسكرا للانجليز حشـــدوا اليه جميع قواهم الحربية ، فكانوا يزيدون عن ٣٠ الفا . وفيهم الدوق (أف كنوت) ثالث أنجال الملكة (فيكتوريا) وقد تقرر أيضا أن يكون خط الجيش المصرى على شـــــكل مقعر ، أى على هيئة نصف دائرة تحيط بالعدو ويكون محمد أفندى الرملاوى بأورطته فى الجانب الأيمن للترعة الحلوة ومعه أورطة سوارى ومدفعان وعدد من العــــربان ، وفي الجانب الأيسر للترعة المذكورة ١ جى آلاى بياده حكمدارية

احمد بك فرج وخلفه ٦ مدافع • وفى القلب آلاى عيد بك محمد يتقدمه بطاريتان كروب ١٢ مدفع وخلفه بطارية ٦ مدافع تحت قومندانية على باشا فهمى والطوبجية تحت حكمدارية حسن بك رأفت • وفى الجناح الأيسر على بك يوسف بآلايه وخضر بك خضر ومعه أورطتان من السودان وبطارية من ٦ مدافع وستة أورط من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبدالغفار وقومندان الجيش راشدباشا حسنى • وأن يقوم قومندان مركزالصالحية محمود باشاسامى بجيشه المركب من الاسلحة الثلاثة وقدره ١٢ ألفا ليلا بحيث يصل الخط المعين للقتال عند مطلع الفجر ، ويقف على يسار جيش مركز راس الوادى ويحيط بميمنة العدو والقوة التى على يمين الترعة تحيط بميسرته والعرب يقتحمون الترعة من خلفه وتقطع عليه خط الرجعة

وعمل بهذا الترتيب رسم بطرف أركان حرب الجيش وأعطى لكل أمير من القواد نسخة يعمل على موجبها

وفى الثلث الأخير من الليل من مساء يوم الجمعة الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ و ٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ قام الجيش على هذا الترتيب فلما وصل قريبا من العدو أخذ كل محله على خط النار ولكن العدو كان عالما بما قر الرأى عليه ، فبادر جيشنا باطلاق النار واشتبك القتال بين الجيشين • وأما جيش مركز الصالحية فانه تأخر عن الميعاد المذكور والمحدد له ، ولما قرب من الجيش كان العدو متهيئا لقتاله فوجه اليه بطارية مدافع ، وأطلق عليه مقذوفاتها قبل أن يصل الى محله فتشتت الجيش المذكور وولى الادبار ،فمنهم من عاد الى الصالحية ، ومنهم من حضر الى مركز راس الوادى • وأما راشد باشا حسنى وعلى باشا فهمى ومن معهما من الجيش فقد ثبتوا ثبات الابطال الى آخر النهار ، وقد جرح راشد باشا حسنى فى قدمه برصاصة وعلى باشا

فهمى برصاصة أيضا فى ساقه وخسر كل من الجيشين خسارة كبيرة من ضرب البنادق والمدافع التى كانت مقذوفاتها كالمطر تنصب في الميدان ، وكانت هذه الواقعة أشد حرب انتشبت بيننا وبين الانجليز ، اذ كانت قوة الجيشين عظيمة وثباتهم نادر المثيل

ولما وصل الجيش أرسلنا الجرحى فى قطر مخصوص الى العباسية بمصر لمعالجتهم ومعهم القائدان العظيمان راشد باشا حسنى ، وعلى باشا فهمى ، ثم طلبنا على باشا الروبى قومندان مريوط ليتولى قيادة جيش راس الوادى ، فحضر فى عصر يوم الثلاثاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩ و ١٢ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وتوجه توا الى المقدمة فأمر بانتقال آلاى على بك يوسف وعبد القادر بك عبد الصمد من الجناح الأيسر الذى كان مستحكما مائلا الى الوراء على شكل زاوية منفرجة ليحمى المعسكر من هجمات العدو ووضعهما على استقامة الخط المستحكم الممتد من الترعة الحلوة الى الجهة الشرقية وأمرهما باتخاذ دروة خفيفة من التراب فى أثناء الليل فعمل عبد القادر بك عبد الصمد خط استحكام خفيف بعساكره حيث كان فى نهاية الجناح الأيسر . وأما على بك يوسف فانه جمع عساكر آلايه فى هيئة القول ، ولم يجر عمل شيء يقيهم من مقذوفات العدو اذا هجم على الجيش .

وتقدم أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن بعساكر السوارى الى الامام على بعد ألفين متر ليمنعوا تقدم العدو اذا أراد الهجوم على معسكرنا ولكن خاب الأمل فيهما فوامصيبتاه !..

معركة التل الكبير

فى يوم الاربعاء الموافق ٢٥ شوال سنة ١٢٩٩ و ١٣

سبتمبر سنة ١٨٨٢ كنت في صلاة الفجر ، اذ سمعت ضرب المدافع والبنادق بشدة فخرجت واذا بي أجد ضرب النار على طول خط الاستحكام ورأيت بطارية طوبجية سواري على مرتفع من الارض يبعد عن الخيمة التي كنت فيها بنحو ٦٠٠ متر وهي تصب مقذوفاتهـا على مركزنا العمومي ، وكان مركزنا المذكور خلف الاستحكامات بأربعة آلاف متر ولم يكن هناك الا الاهالي المتطوعين مع الشيخ محمد عبد الجواد وأخيه الشيخ أحمد عبد الجواد وجابر بك من بندر ببا بمديرية بني سويف وكانوا نحو ألفي نفر فدعوناهم للهجوم معنا على تلك البطارية فامتنعوا ودهشوا فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن ، فلم يجد كل ذلك نفعا لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ فتفرقوا فرارا فجاء ضابط من طرف علي باشا الروبي القومندان الجديد يخبرني باتخاذ مركز آخر ثم نظرت فوجدت الميدان مزدحما بالخيل والجمال والعساكر مشتتين مولين ظهورهم للعدو ، فذهبت الى القنطرة التي على الترعة هناك لأمنع العساكر من الفرار وصرت أناديهم وأحرضهم على الرجوع والثبات والصبر على قتال العدو وأذكرهم بالشرف الاسلامي والعرض والوطن ولم أغادر كلمة من شأنها تنشيط الاجسام الميتة وبث الشجاعة في قلب كل رعديد جبان ، فما كان من سميع ولا بصير ، بل ألقوا بأنفسهم في الترعة وسبحوا الى البر الغربي

فذهبت الى بلبيس لجمع المنهزمين هناك واتخاذ مركز آخر لمنع العدو من الوصول الى القاهرة ، وكان معي أخي السيد صالح عرابي وخادمي محمد ابراهيم وجاويش بروجي يدعى عطية محمد فقط . وكانت مقذوفات الطوبجية السواري تتساقط علينا من كل صوب حتى تركنا حدود التل الكبير

فلما وصلت الى بلبيس وجدت على باشا الروبى سبقنى اليها ، فسألته عما دهاهم ، فلم يزد على قوله (انه الخذلان) وكانت على أثرنا فرقة من خيالة العدو فهجموا علينا فأرخينا للخيل أعنتها حتى وصلنا محطة انشاص فوجدنا هناك قطارا فركبناه وأسرعنا الى القاهرة ، لاتخاذ الوسائل اللازمة لحفظها من الاعداء قبل وصولهم اليها

دسائس الخديو هى أسباب الخذلان

وأسباب هذا الخذلان انه فى خلال تلك الأيام كانت الرسائل تترى من قبل الخديو الى كبراء الضباط بالوعد والوعيد ، معلنة لهم ان الجيش الانجليزى لم يحضر الى مصر الا بأمر السلطان خدمة للخديو، وتأييدا لسلطته. وكانت تلك الرسائل توزع بواسطة محمد باشا سلطان رئيس مجلس النواب ومن معه من الذين كانوا مع الانجليز فى الاسماعيلية بأمر الخديو وبواسطة الجواسيس من المصريين كأحمد بك عبد الغفار عمدة تلا ، والسيد الفقى العضوين فى مجلس النواب عن مديرية المنوفية ، فأثروا على قلوب مثل على بك يوسف ٣ جى ميرالاى ، وأحمد بك عبد الغفار قومندان السوارى لشدة ضغط ابن عمه عليه ، وعبد الرحمن بك حسن ٢ جى آلاى سوارى ، وحسن بك رأفت قومندان الطوبجية. واستمر ذلك الى أن كانت ليلة الاربعاء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فأشاع على بك يوسف انه علم من الجواسيس ان الانجليز لا يخرجون فى هذه الليلة من مراكزهم ، ولذلك لم يفعل ما أمره به على باشا الروبى من عمل خط الاستحكام من الحجارة ، وجمع عساكره فى نقطة واحدة

وكانت العساكر الانجليزية قد سارت من أول الليل ، وفى مقدمتها بعض ضباط أركان حرب من المصريين الذين

انحازوا الى الخديو مع الانجليز · وأمامهم عربان الهنادى يرشدونهم الى الطريق ، واستمروا سائرين الى أن بلغوا المقدمة فى آخر الليل · وكانت من السوارى تحت حكمدارية أحمد بك عبد الغفار وعبد الرحمن بك حسن ، فبدل أن تنازل العدو القتال وتوقف سيره ، رجعت أمامه كأنها تقوده الى أن بلغوا محل آلاى على بك يوسف الذى كان خاليا من عساكره ، فمروا بين العساكر بلا مانع يمنعهم وأطلقوا النار على الاستحكامات من الخلف والامام ، ووقعوا بالجند على حين غفلة منهم ، اذ كانوا راقدين · فدهشت العساكر وتولاها الذهول حيث ضرب النار من خلفهم وأمامهم ، فألقوا أسلحتهم وفروا طالبين النجاة لأنفسهم ، الا برنجى آلاى بيادة حكمدارية أحمد بك فرج ، وآلاى محمد بك عبيد ، وآلاى عبد القادر بك عبد الصمد ، فانهم ثبتوا فى مراكزهم،وقاتلوا أعداءهم حتى النهاية،فاستشهد منهم من استشهد وجرح من جرح وصار الميدان ظلاما من دخان البارود واختلط الجند المنهزم بالحيوانات المنتشرة فى تلك الصحراء الواسعة ، واشتعلت النار بعربات السكة الحديدية التى بها الذخيرة الحربية وما جاورها من عربات المؤونة من جراء مقذوفات الطوبجية السوارى التى عمدت الى ضرب المركز العمومى

وهكذا تم استيلاء الانجليز على مركز التل الكبيرومهماته وذخائره وبه كانت نهاية الحرب والخسارة العظيمة بسعى الخديو ومن كان معه من المصريين الذين انحازوا اليه ، وقد نشأوا عبيد الاستبداد ، واستمرأوا عيش الاستعباد ، وبمساعدة المنافقين من عمد وأعيان المنوفية وعرب الهنادى بالشرقية الذين كافأهم الخديو جميعا ، والشيخ أحمد أبو سلطان وأخوته من عربان الهنادى القاطنين بالشرقية خصوصا ، فان الخديو أقطعهم ٥ آلاف فدان فى رأس

الوادى ، مكافأة لهم على خيانتهم للدين والوطن الذى نشأوا فى خيراته

ولما علم الخديو توفيق نبأ استيلاء الانجليز على التل الكبير وفد من كان فى الاسكندرية من الذوات والأجانب على الخديو يهنئونه بالفوز والنصر ، وصدحت الموسيقى الخديوية بأنغام التبشير بالظفر ، وعزفت بالسلام الخديو أمام سراى الحقانية ، فرفعت العساكر الانجليزية السلاح تعظيما واجلالا، وهتف الأوربيون بقولهم : «فليحى توفيق الأول» ثم ختم ذلك بالدعاء للخديو ، وملكة الانجليز ، والجنرال ولسلى الايرلندى ، والدولة الانجليزية وتفرق القوم بعد ذلك

شهادة احد قواد الانجليز

وقد جاء فى مذكرات الجنرال السير (باتلر) أحد قواد الجيش الانجليزى الذين شاهدوا الحرب الانجليزية المصرية سنة ١٨٨٢ ما يأتى :

« ان المدافع الانجليزية هى التى أحرقت مدينة الاسكندرية بعد أن هدمت القلاع ، وقد ظنت الوزارة الانجليزية انها بهدمها القلاع ستقمع الثورة ، ولكنها أخطأت فى ذلك، اذ ما انتهينا من تخريب الاسكندرية حتى كان عرابى بجيشه فى مرابط البلاد مستعدا لملاقاتنا وتحمس الوطنيون حين سمعوا بضرب الاسكندرية ، وانضموا الى العرابيين متفانين فى الدفاع عن بلادهم بعد هذا الاعتداء ، فظهر للحكومة الانجليزية من ذلك انها اذا أرادت أن تبطش بالوطنيين ، فلا يلزمها أقل من جيش كامل لمحاربتهم فى وسط البلاد وعند ذلك عرفت ان الاسكندرية لا يمكن أن تكون قاعدة حربية لنا . وظهر لها

ان الاسماعيلية خير بقعة يمكن أن يهجم منها ، وتستولى بواسطتها على القاهرة

« وقد كان من الأفيد لنا أن نترك الجيش المصرى ، ونذهب رأسا الى القاهرة عن طريق قنال السويس

« فلما رجعت الحكومة عن رأيها ونزل الجيش الى الأراضى المصرية من قنال السويس التقى الجيشان فى التل الكبير ، ولم يكن الجيش المصرى مستعدا أو متوقعا القتال فى هذه الليلة ، لأن جواسيس عرابى اشتراهم الانجليز ، وانفرد محمد سلطان باشا ولابسو الطرابيش الذين معه ، وانحدروا من جهة القنال بعيدا عن ساحة المعركة · فلما فاجأناهم تنبهوا مذعورين ولم يهرب منهم أحد ، بل قبض كل منهم على سلاحه ، وكلما اجتمع منهم عشرة كونوا فرقة ، وتقدموا نحو الانجليز يعملون فيهم النار

« وقد كان رميهم صادقا فكانت القنبلة تأتى بين الضابط ، وبين فرقته فتفرقهم ··· » .

ثم قال : « وكانت العساكر المصرية والخيل والجمال أشلاء منثورة بين المتاريس · ولما طلعت الشمس فى الأفق كنت ترى على اليمين القسم الأول من الجيش المصرى يعدو فى الصحراء وهو منظم فى تركيبه · وبعض القسم الثانى نازلا على المنحدر الى المحطة · وكان على شمالنا منتشرا على التل القتلى والاشلاء وجميع آلاتهم ومأكولاتهم ، وكانت الطلقات لا تزال مستمرة علينا من الهاربين ، ولكن القتال الحقيقى انتهى بعد ٣٥ دقيقة من أول طلقة ·· »

قال الجنرال باتلر : « ولى هنا كلمة يجب أن أقولها عن واقعة التل الكبير ، فاننا فاجأنا الجيش المصرى نائما وراء متاريسه ، ولكنه تنبه وحارب بنية صادقة وعزم ثابت ولم تعقه كل العوائق الكبرى التى وضعناها حواليه ·

فاننا لم نعطهم دقيقة واحدة ليتنبهوا من نومهم أو لينظموا أنفسهم ، فكان هجومنا عليهم كالصاعقة فوق النائم ، وقد كان قواد الجيش مثل أعضائه فلاحين لم يجربوا الحرب فى حياتهم ولم يعرفوا مناوراتها وفنونها (ذلك ظنه ومبلغ علمه) وقد خانهم الذين ائتمنوهم، ومع ذلك كان لا يجتمع منهم ١٠ أو ٢٠ أو ٥٠ الا وثبتوا فى المتاريس أو منحدرات التلول أو فى سطح الصحراء ! »

ولا أبلغ من شهادة القتلى والجرحى الذين كانوا ملقون أمامهم وهم ثابتون فى شجاعة

فعلى العشرة الآلاف الذين قتلوا من جنودنا فى هذه المعركة السلام ، ولا ينبغى لجندى مصرى أن ينبس بكلمة ضدهم ، فيكفيهم ما يقوله فيهم الماليون والمرابون وعبيد الاستعباد ، فقد ماتوا أشرف موت ، وستبكيهم مصر ولا تنساهم ! »

فدينا القاهرة بانفسنا

فى ظهر يوم الاربعاء الموافق ٢٨ شوال سنة ١٢٩٩و١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وصلت من التل الكبير الى القاهرة وتوجهت حالا الى ديوان الجهادية بقصر النيل ودعوت المجلس العمومي للحضور وعقد مجلس حافل من أمراء العائلة الخديوية وأمراء العسكرية والملكية وأعيان القاهرة وأخبرتهم بهزيمة الجيش المعسكر فى رأس الوادى ، ثم استشرت المجلس فيما يجب أن يعمل ، وهل يجب الاستمرار فى المدافعة ، أم يلزم التسليم لقضاء الله وقدره • فأجاب الأمير ابراهيم أحمد والأمير كامل باشا فاضل بوجوب الدفاع عن الوطن الى النهاية ، ثم قام ابراهيم باشا أحمد ، وقال : « ان مصر غاصة بالجند والمخازن ملأى بالمؤن والذخائر والاسلحة ، ومعدات الدفاع متوافرة ،

فالواجب علينا اذا الدفاع ما دام فينا بقية » فأجاب الجميع بالاستحسان ، ثم استقر الرأى على انشاء خط دفاعى في ضواحي المحروسة • وبناء على ذلك ذهبت الى العباسـية ومعي محمود باشا المرعشلي باشمهندس الاسـتحكامات ، ومحمود باشا رضا لواء الخيالة ، وحسن باشا مظهر لواء مأمور تشهيل ارسال الذخائر الحربية الى مركز الجيش ، وتقرر اتخاذ الخط الدفاعى أمام المطرية شرقي عين شمس يستند يمينه على الجبل ويمتد شمالا الى ترعة الاسماعيلية ثم ينعطف غربا على الترعة المذكورة الى النيل عند فم رياح الترعة المذكورة بالقرب من شبرا

ثم ذهبنا جميعا الى مركز الطوبجية وأردنا استعراض العساكر الموجودة هناك ، فلم نجد الا نحو ألف رجل من خفراء البلاد بدون ضباط ونحو أربعين نفرا من السوارى في مركز عساكر الخيال مع الأميرالاى أحمد بك نير • فقال الأميرالاى المذكور انه يقف فى وجه العدو ويقاتله برجاله الاربعين حتى يموت معهم (ولكن ما الفائدة وليس لدينا جيش يقوى على الدفاع)

فلما شاهدنا كل ذلك رأينا أن الأولى حقن الدماء وحفظ القاهرة من غوائل الخراب والدمار كما حصل فى الاسكندرية ما دامت المقاومة لا تجدى نفعا • وفضلنا تقديم أنفسنا فداء عن الأمة المصرية سيئة البخت ١٠٠ فرجعنا الى المجلس الآنف الذكر وأخبرناه بما عن لنا ، ثم قلنـــا حيث ان الانجليز يحاربوننا الآن باسم الخديو لانحيازه اليهم ، ففى امكانه توقيف هذه الحرب وعدم خراب القاهرة وغيرها ، وليصنع بنا بعد ذلك ما هو أهله من الغدر والخيانة !

فلم يجد أرباب المجلس المذكور أفضل من رفع عريضة باسمنا الى الخديو نعترف فيها بايقاف الحرب ونلتمس منه الوساطة لدى الانجليز بعدم دخولهم القاهرة حفظا لها من

الجواب بعد تقديم الطاعة له والخضوع . فحرروا العريضة وأرسلوها اليه بعد أن ذيلتهـا بامضائى مع بطرس باشا غالى ورؤوف باشا وعلى باشا الروبى ويعقوب باشا سامى رئيس المجلس العسكرى فى قطار خاص ، وكان ذلك فى يوم الخميس الموافق غرة القعدة سنة ١٢٩٩ و ١٤ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فلم يجدهم ذلك نفعا فان مساعيهـــم أخفقت وآمالهم خابت ، فان الخديو أبى قبـــول العريضة واجابة الالتماس وأمر بالقاء يعقوب باشا سامى وعلى باشا الروبى فى السجن فسجنا فى الاسكندرية ، وأما بطرس باشا غالى ورؤوف باشا فلم يسجنا وكذلك أمر بسجن حسن باشا الشريعى وزير الأوقاف ، وعبد الله باشــــا فكرى وزير المعارف فى الحكومة الحرة الوطنية ، وكانا مع باقى الوزراء فى رأس التـــين ، ولم يراقب فيهما الله ، مع ان عبد الله باشا فكرى كان آستاذا ومربيا له ، فى صغره ، ولكنـــه ما فعل ذلك بهما الا لعلمه بمقتهما له لانحيازه الى العدو المحارب للبلاد ومساعدته له ضد المصريين .

وفى مساء اليوم المذكور وصلت الخيالة الانجليـــز من الهنود مع الجنرال لوى وعسكرت فى مركز آلايات السوارى المصرية بالعباسية

وقد صدر أمر الخديو بسجنى وسجن جميع ضـــباط العسكرية وكبار العلماء والرؤساء والذوات والأعيان من جميع البلاد والعمد والمشايخ وغيرهم .

نحن اسرى حرب

وفى عصر يوم الجمعة الموافق ٢ القعدة سنة ١٢٩٩ و١٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ورد تلغراف من الجنـــرال لوى خيالة الانجليز بالعباسية الى ابراهيم بك فوزى مأمور ضبطيـــة القاهرة بأنه يريد مقابلتى فى العباسية ومقابلة طلبه عصمت

باشا ، وكان طلبه باشا قد ترك مركز كفر الدوار ، وحضر الى القاهرة حين علم بهزيمة جيش التل الكبير • فتوجهنا الى العباسية واجتمعنا بالجنرال المذكور فابتدرنا بقوله : « هل تقبلون أن تكونوا أسرى حرب لجلالة الملكة ؟» فقلنا له: « اننا نريد أن نحقن الدماء • ولو كان عندنا من القوى الحربية ما يمكننا بها اطالة زمن القتال والمدافعة عن البلاد ولقاتلناكم حتى يقضي الله بيننا • ولكن حيث ان الانجليز يقولون انه لا مطمع لهم فى الاستيلاء على بلادنا ، وما كان مجيئهم الى مصر الا ليؤيدوا السلطة الخديوية ، ويسلموا البلاد الى الخديو ، ثم يعودوا الى بلادهم ، فنحن قد كففنا عن القتال ، ورضينا بأن نسلم سيوفنا واثقين بعدالة الأمة الانجليزية بأن تعاملنا كأسرى حرب »

وسلمناه سيوفنا وقضينا تلك الليلة داخل غرفة من غرف قشلاق الطوبجية لا فراش فيها ولا غطاء ، وكان الجنرال فى غرفة أخرى مثلها

وفى عصر يوم السبت قمنا من العباسية بكوكبة من خيالة الهنود وضابط انجليزى الى قشلاق عابدين فوجدناه محتلا بآلاى حرس ملكة الانجليز حكمدارية تين وهو من بيت شريف في أحرار الانجليز ، فقابلنا الميرالاى المذكور، وقال لنا : « أنتما أسرى حرب عند جلالة ملكة الانجليز فلا بأس عليكما »

وأقمنا فى غرفة مقابلة للغرفة التى هو فيها وكان أميرا كريم السجايا يأتي الينا فى كل يوم ويعزينا على ما أصابنا، ويعترف بظلم الانجليز لنا ، وان الاستبداد لا يزال كامنا فى قلوب الانجليز أكثر من كل الأمم

وبعد ذلك وصلت جيوش الانجليز الى القاهرة أفواجا أفواجا وكانت نساء رجال حكام المصريين المستبدين يحيين عساكر الانجليز عند مرورهم فى الشوارع بلباسهم

الاحمر وأسلحتهم السوداء على عواتقهم بالزغاريت تقربا اليهم ، وشكرا لهم على اطفاء شعلة الحرية المصرية

سلطان باشا الخائن
وسجن ٣٠ ألفا من المصريين

وحضر محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب من الاسماعيلية الى القاهرة نائبا مفوضا عن الخديو ، وأمر بسجن جميع ضباط العساكر وجميع رجال الملكية ، والعلماء ، وخطباء المساجد ، والتجار والأعيان الا من كان منهم من الجواسيس والمنافقين على حسب ما هو مندرج بسجلات الخديو ، فسجنوا جميعا الا على بك يوسف وأحمد بك عبدالغفار وعبدالرحمن بك حسن مكافأة لهم على خيانتهم وغدرهم فى التل الكبير • وتوجه على بك يوسف الى القلعة مركز آلايه وسلم مفاتيحها الى فرقة من الانجليز بأمر محمد سلطان باشا نائب الخديو وكذلك صار سجن جميع الذين بالمديريات والمحافظات من المستخدمين والموظفين والعمد والاعيان والقضاه والمفتين وغيرهم من عامة الناس حتى غصت السجون بمن يربون على ٣٠ ألفا من المصريين

فى قوة الصالحية

ولما علم محمود باشا سامى البارودى حكمدار جيش الصالحية ومن معه من الضباط بهزيمة التل الكبير تركوا مركزهم ، وقاموا مع عساكرهم بقطارات السكة الحديدية الى المنصورة ، ومنها الى طنطا ، ثم الى اتياى البارود ،فكوم حماده فبولاق الدكرور • وهناك انحل النظام ، وخرجت العساكر عن الطاعة وتوجه كل منهم الى بلده

وكان محمود سامى باشا قد رأى ترك مدينة القاهرة والالتجاء بجيشه الى الصعيد ، ثم الى السودان ، اذا عجز عن الدفاع ولذلك كتب الى تلغرافا من المنصورة يطلب منى

اغراق مديريتى القليوبية والشرقية لتعطيل سير الجيش الانجليزى ، ثم الاستيلاء على جميع المراكب وشحنها ذخيرة وتعيينات وأخذها الى الصعيد مع الجيش

وحيث انى رأيت عدم موافقة رأيه لما تحققته من الخراب الذى يحيق بمديريتى القليوبية والشرقية ودمار عاصمة البلاد وسفك دماء الأبرياء على غير جدوى ، هذا فضلا عما رأيته من تحول الافكار وانخلاع القلوب ، واختلال النظام بالجيش بعد المنشور السلطانى الذى كان فى مصلحة الأعداء ، وبعد اعلان الخديو بأن الانجليز لم يقاتلوا المصريين الا تأييدا لسلطته ولا مطمع لهم فى البلاد الى غير ذلك مما سبق ايراده ، وافقت المجلس العمومى على ارسال وفد بعريضة منى الى الخديو كما ذكرنا ليأمر نصراءه الانجليز بالكف عن القتال وحفظ العاصمة من الخراب والدمار

ولا غرابة فى ذلك فان كثيرا من أعضاء المجلس (مجلس النواب) مثل محمد بك الشواربى وأحمد بك عبد الغفار والسيد الفقى ومحمد سلطان باشا من الذين انخدعوا وخدعوا وصاروا سهاما صائبة فى كبد المصريين كانوا يسارعون فى اتخاذ كل ما من شأنه نجاح الانجليز وفوزهم ارضاء للخديو

قوة كفر الدوار وابو قير ورشيد ومريوط

ولما علم طلبه باشا بهزيمة التل الكبير ترك مركز جيشه، وحضر الى القاهرة فى مساء ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وعندما علمت العساكر بذهابه تركوا أسلحتهم لضباطهم وذهبوا الى بلادهم ، وكذلك من كان هناك من العربان ، وأما الضباط فقدموا طاعتهم للخديو وسلموا أسلحة عساكرهم الى من حضر عندهم من الانجليز ، وذهبوا الى

الاسكندرية ، ثم أودعوا السجن هناك .

أما عساكر مراكز أبو قير ورشيد ومريوط، فقد سلموا الى من حضر عندهم من الانجليز أيضا بعد اخلاء سبيلهم . وأما الضباط فسيقوا الى الاسكندرية ، ثم أودعوا السجن بعدالاهانة والتهديد والتحقير بوساطة من انحاز الى الانجليز من خونة المصريين .

امتناع عبد العال باشا حلمى عن التسليم

وأما عبد العال باشا حلمي قومندان مركز دمياط ومحافظها اذ ذاك ، فانه لما علم بهزيمة مركز التل الكبير تشجع وأبى التسليم للانجليز ، وحاول أن يحمل الاهالى على الاعتقاد بأن عرابى باشا لم يزل بجيشه ثابتا أمام قوة الانجليز ، وانه لا بد من القتال والدفاع عن الوطن الى الفناء ، وأخذ فى الاستعداد الى يوم الخميس الموافق ٢١ سبتمبر الى أن توجهت قوة من الانجليز الى دمياط مع الجنرال السن ومعه أمر من الخديو بالتسليم ، وانه لا مطمع للانجليز فى البلاد ، وانما يحاربون لتأييد الخديو

فأخذ رأى من معه من الضباط ، فاجمعوا على التسليم والطاعة للخديو واستسلموا وذهب عبد العال باشا ومعه سليمان بك نجاتى ومحمد بك حلمي وغيرهما من الضباط العظام الى الجنرال المذكور ليقدموا طاعتهم للخديو . فأمر بارسال العساكر والمدافع والحيوانات الى طنطا ، وتسلم جميع الاسلحة والمهمات الحربية وأخلى سبيل العساكر بعد ذلك ثم قبض على عبد العال باشا وغيره من الضباط وأرسلوا جميعا الى سجن مصر تخفرهم العساكر الانجليزية

عودة الخديو الى القاهرة

وبعد استسلام عبد العال باشا حلمي وسجن جميع

الضباط وغيرهم حضر الخديو الى مصر فى ٢٥ سبتمبر سنة ١٨٨٢ فاستقبله على المحطة رجال الاستبداد وتقدم رياض باشا ومحمدسلطان باشا وغيرهما ليسلموا عليه. وأطلقت المدافع وصدحت الموسيقى . وبعد ذلك تقدم الشيخ عبد الهادى الابيارى ودعا له ، ثم تقدم رياض باشا ونطق بمثل هذا الدعاء مختوما بقوله : « فليعش الجناب العالى مؤيدا بالنصر والاجلال »

وبعد أن لبث فى المحطة زمنا قليلا سار فى مركبة خصوصية والى يساره الدوق أف كنوت نجل ملكة الانجليز، وأمامه الجنرال ولسلى والمستر مالت وسار وراءه الفرسان الانجليز وتبعه النظار رجال الاستبداد القدماء ، وأمراء العائلة الخديوية ، ومن حضر من رجال العهد القديم وكان نزوله فى سراى الاسماعيلية

وفى يوم الثلاثاء الموافق ٢٦ منه توجه الخديو الى سراى الجزيرة لاجراء رسوم التشريفات فيها فابتدأ اجراؤها فى الساعة الثالثة على الإصطلاح العربى من ذلك اليوم وكان أول المهنئين شقيقه محمود بك ومنصور باشا يكن صهره، ثم النظار ، ثم تلاهم الرؤساء الروحانيون ، ثم الدوق أف كنوت والدوق دونك والضباط الانجليز ما عدا الجنرال ولسلى ثم التجار الأوربيون ثم تظاهر المستبدون بعمل زينة فى حديقة الازبكية وفى منازلهم ثلاث ليال ، وقد حضر رياض باشا الزينة فى الحديقة فى احدى لياليها ، وكل من خيرى باشا ناظر المعارف وعلى باشا مبارك ناظر النافعة (الأشغال) وزكى باشا ناظر الاوقاف وغيرهم من المتملقين وأنصار الظلم والاستبداد والمخدوعين من أعضاء مجلس النواب الذين ساعدوا الأعداء فى التغلب على بلادهم !..

الخديو توفيق يستعرض الجيش الانجليزى

وفى أواخر شهر سبتمبر أخذ فى اعداد مقام للخديو فى ساحة عابدين وفوقه سرادق عظيم ليكون فيه أثناء عرض الجيوش الانجليزية عليه

ففى يوم السبت ٣٠ سبتمبر تم اعداده ورفعت فوقه الألوية وفرش بالبسط والاثاثات الثمينة • وفى الساعة ٤ بعد الظهر أقبل الخديو بالملابس الرسمية وعلى يساره محمد شريف باشا رئيس مجلس النظار ، وأمامه مصطفى رياض باشا ناظر الداخلية وعمر باشا لطفى ناظر الحربية والبحرية ، ومن خلفه بقية النظار وبعض العلماء والذوات الذين لم يسجنوا ورجال المعية ، وكلهم بالملابس الرسمية

وكان الجنرال ولسلى والدوق أف كنوت نجل الملكة على ظهور الخيل بجانب المقام المذكور ، وكثير من الضباط والياوران الانجليز تجاهه فرسانا

وفى أول الساعة الخامسة أخذت العساكر فى المرور واستمرت ساعة ونصفا الى أن تم مرور الجيش كله

وفى آخر الاستعراض أمر الخديو بعزل العلامة الشيخ محمد الانبابى شيخ الجامع الازهر ، وقد كان حاضرا معه فى الحفلة • وأمر برجوع الشيخ محمد العباسى المهدى الى مشيخة الازهر ، كما كان قبل الحكومة الحرة • وصدر أمر الخديو الى الداخلية فى ١٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ الموافق ٢ اكتوبر سنة ١٨٨٢ بشأن ذلك كما يأتى :

« أنه بناء على استعفاء حضرة الاستاذ الشيخ محمد الانبابى من وظيفة مشيخة الجامع الازهر ووثوقا بفضائل وعالمية حضرة الاستاذ الشيخ محمد العباسى المهدى قد اقتضت ارادتنا توجيه هذه الوظيفة لعهدته كما كانت قبلا علاوة على وظيفة الافتاء السادة الحنفية المتحلى بها سابقا •

وصدر أمرنا للمومأ اليه بذلك فى تاريخه ولزم اصدار هذا لدولتكم »

وأدب الخديو مأدبة شائقة فى سراى الجزيرة اكراما للضباط الانجليز فى ليلة كانت من الليالى المعدودة عندهم فى المسرات

وكافأ الخديو محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب بعشرة آلاف جنيه وبالنيشان المجيدى من الدرجة الأولى لما قام به من الخدم الجليلة نحو الانجليز وصدر أمره بذلك بقوله :

« حيث انه بالنظر الى ما أظهره سعادة محمد سلطان باشا من الصداقة لحكومتنا الخديوية ومعارضته للعصاة فى جميع أمورهم وعزائمهم بالمخاطرة بحياته (حيث كان فى الجيش الانجليزى يبث الغدر ويرتب الخيانة مع قواد الجيش المصرى) والى ما حصل له بسبب ذلك من الضرر والتعدى منهم على شخصه وأقربائه وموجوداته ومقدار جسيم من مزروعاته ، قد استحق المكافأة من الحكومة . فبناء على ما عرضه علينا مجلس نظارنا أمرنا بأن يعطى بوجه استثنائى لسعادته مبلغ عشرة آلاف جنيه من خزينة المالية محسوبا من المبلغ الاحتياطى لسنة ٨٢ تعويضا للأضرار التى لحقت به ومكافأة لسعادته على صداقته »

هدية سلطان باشا للانجليز

وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ وفد على نظارة الداخلية محمد سلطان باشا وأحمد بك السيوفى وغيرهما من المخدوعين ، وأبلغوا رياض باشا بأنهم على عزم أن يقدموا نوعا من الاسلحة الفاخرة المحلاة بالجواهر الثمينة هدية منهم للأميرال « سيمور » قائد الدوننمة الانجليزية ؛ وللجنرال « ولسلى » قائد الجيش الانجليزى وللجنرال

« لو » الذى كان أول قادم الى القاهرة بعد سقوط التل الكبير ، فاستحسن رياض باشا منهم تلك الأريحية ، ورخص لهم فى تقديم الأسلحة الفاخرة المذكورة للقواد المومأ اليهم .

وكانوا قد عزموا قبل ذلك على أن يؤلفوا لجانا فى كل جهة ينشئون فيها اكتتابا لجمع نقود كافية لانفاذ هذا القصد ، ولكنهم فشلوا فى ذلك ، واكتفوا بشراء الهدية من مالهم الخاص ، فأعطوا الجنرال « ولسلى » سيفا مجوهرا وكذلك الجنرال « لو » سيفا ، وأما الأميرال « سيمور » فأهدوه طبنجة مجوهرة بالماس مكافأة لهم على احتقارهم للأمة المصرية واذلالها !



المحاكمة

لجنة القاهرة المخصوصة

في ١٥ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٨٢ أصدر الخديو أمرا بتأليف لجنة مخصوصة في القاهرة لتحقيق قضية كل من كان يدافع عن الوطن ، سواء أكان من العسكريين أم من الملكيين أم من المشتركين في الدفاع أم من المحرضين عليه ، واعتبارهم جناة مدنيين

ومن أحكام هذا الأمر أن من واجبات هذه اللجنة أن ترفع الدعاوى على مرتكبي الجناية شخصا فشخصا ، وأن ترسل مندوبا من قبلها لاقامة الدعوى أمام المحكمة العسكرية ، وأن لها الحق في أن تطلب ضبط أى شخص بمقتضى طلب يقدم منها لناظر الداخلية وهو يجرى تنفيذ هذا الطلب

وقد تألفت هذه اللجنة على الوجه الآتى :

الرئيس : اسماعيل أيوب باشا (شركسى)

الأعضاء : على غالب باشا (شركسى) ـ يوسف شهدى باشا (شركسى) ـ محمد زكى باشا (أرناءودى) ـ سعد الدين باشا (رومى) ـ محمد حمدى بك العظم (سورى) ـ مصطفى بك راغب (تركى) ـ سليمان بك يسرى (كردى) ـ مصطفى بك خلوصى (فارسى) ـ محمد بك مختار (تركى)

المحكمتان العسكريتان

وأصدر الخديو أمرا آخر بتأليف محكمة عسكرية في القاهرة للحكم في الدعاوى التى تقدم لها من اللجنة

المخصوصة وأن تكون أحكام هذه المحكمة قطعية لا تستأنف تصدر مطابقة للقانون العسكرى العثمانى • وتألفت هيئة هذه المحكمة من الذوات الآتية أسماؤهم وجميعهم من رجال الاستبداد كرجال هيئة اللجنة السابق ذكرها

الرئيس : محمد رؤوف باشا (كردى)

الأعضاء : الفريق ابراهيم باشا (رومى) ـ الفريق اسماعيل كامل باشا (شركسى) ـ حسين عاصم باشا (شركسى) ـ اللواء خورشيد باشا (شركسى) ـ سليمان نيازى باشا (أرناؤدى) ـ عثمان لطيف باشا (شركسى) سليمان نجاتى بك (شركسى) ـ أحمد حسنين باشا (مصرى) .

وجاء فى مواد هذا الأمر القاضى بتأليف محكمة القاهرة أن أحكام هذه المحكمة لا تعتبر موضعا للعمل الا اذا كانت صادرة من ستة أعضاء على الأقل غير الرئيس ، ثم انه يجب أن تصدر بغالبية الآراء المطلقة

وأصدر أمرا آخر أيضا بتأليف محكمة عسكرية فى الاسكندرية للحكم فى الدعاوى التى تقدم لها من لجنتين مخصوصتين تألفتا فى الاسكندرية وطنطا على نحو تأليف لجنة القاهرة ، وأن تكون أحكام هذه اللجنة قطعية أيضا لا تستأنف صادرة طبقا للقانون العسكرى

الرئيس : عثمان نجيب باشا (شركسى)

الأعضاء : يوسف باشا (شركسى) ـ حسين واصف باشا (شركسى) ـ حسن رضوان باشا (تركى) ـ على بك وهبى (تركى) ـ حسين بك مظهر (تركى) ـ مصطفى باشا العرب (مصرى)

وذكر فى الأمر الصادر بتأليف هذه المحكمة أن تصدر أحكامها بغالبية الآراء المطلقة أيضا

وأما لجنة الاسكندرية فكانت مؤلفة على ما ترى

الرئيس : عبد الرحمن باشا رشدى (انكليزى مالطى)
الأعضاء : حماده بك ، قاضى بمحكمة الاستئناف (مصرى) ـ أجمد بليغ أفندى (نائب وكيل الخديو) ـ ابراهيم بك فؤاد (رئيس محكمة الجيزة) ـ كازيمرار (ناظر قسم قضايا نظارة الاشغال العمومية والحربية والبحرية)ـ المسيو كليار (أمين عموم الجمرك) ـ المسيو فاستيه دى مون جويون (وكيل خديو فى المحكمة المختلطة)

وأما لجنة طنطا فتألفت هيئة لجنتها على الوجه الآتى :
الرئيس : محمود باشا الفلكى
الأعضاء : لطيف بك سليم ـ شفيق بك منصور ـ جبرائيل أفندى كحيل نائب بقسم قضايا نظارتى المالية والداخلية ـ موسيو سكوتى ، نائب بقسم قضايا الحقانية والخارجية

الغاء الجيش المصرى

وصدر أمر الخديو بالغاء الجيش المصرى وصرف العساكر الى بلادهم ومحاكمة الضباط وكبار قادة الجيش المدافع عن البلاد بصفة كونهم عصاة

وأصدر مجلس الاسكندرية العسكرى أحكاما مختلفة على عدة أشخاص من العصاة على زعمهم ، فقضى بالاعدام على « ندى خطاب » أحد رجال الشرطة سابقا بدعوى انه غير هيئته بملابس ملكية وعين من قبل سعد بك جبل قائمقام البوليس السابق لأخذ أخبار الانكليز فى الاسكندرية ، وايصالها الى جيش المصريين ، فكان بذلك جاسوسا متنكرا

وحكم بالليمان سنة واحدة على أحد سائقى العربات لأنه اشترى مالا منهوبا ، وعلى آخر من الجند بجلده ١٥٠ جلدة على ظهره ، وأن يقيد بالحديد فى الليمان مدة ست سنوات ،

وقضى على عدة خفراء بالليمان أيضا

وقبض على كثير ممن اشتبه فيهم فى الاشتراك فى الحركة الوطنية وفي مقدمتهم السيد بك قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية وسليمان بك داود • وفى جملتهم بعض أعضاء جمعية الشبان فى الاسكندرية ، وكذلك قبض فى القاهرة على جميع الضباط والذوات مثل عثمان باشا فوزى وكيل دائرة زينب هانم ، ومصطفى باشا نائل ، وأحمد بك ناشد مدير الشرقية ، ومحمد أفندى الصدر ، والسيد حسن أفندى الشمسى ، ومحمود أفندى صادق ، وعبد الله باشا فكرى ، وحسن باشا الشريعى ، وأمين بك فكرى وغيرهم

ومن العلماء شيخ الاسلام والمسلمين الشيخ محمد عليش وولده الشيخ عبد الرحمن عليش ، والعلامة الشيخ حسن العدوى ، والشيخ أبو الفضل الجيزاوى ، والشيخ الخلفاوى ، والشيخ أحمد المنصورى ، والشيخ أحمد عبد الغنى وغيرهم من أكابر العلماء •

ومن كبار التجار أمثال السيد حسن موسى العقاد ومحمد حنظور بك وكيل مديرية الدقهلية ، ومن أعضاء مجلس النواب أمين بك الشمسى وأحمد بك أباظه ، وأحمد محمود العضو عن البحيرة ، ومحمد أفندى الشاذلى، ومحمد جلال، ومهنى يوسف عن المنيا وغيرهم • ومن القضاة الشيخ محمد جير ونائبه الشيخ سلمى ، والشيخ أمين أبو يوسف • ومن الأعيان ابراهيم بك الشريعى ويعقوب بك صبرى مدير الفيوم ، وأولاد أحمد بك أبو مصطفى ، والشيخ عبد المجيد الفقى وأحمد الفقى، والشيخ حسن الديب، والشيخ عبد الهادى رزق، ومحمد خطاب، وعلى أفندى محمد، ويحيى بك شتا ، وعلى مصرف ، وابراهيم بك خليل وغيرهم

وانتهز حكام المديريات من رجال الاستبداد فرصة

القبض على وجوه البلاد وأعيانها واستنزفوا ثروتهم حتى أثروا وامتلكوا الأراضى الواسعة . ومن ضن عليهم بماله كان جزاؤه الاعدام بدعوى انه من العصاة

الغاء القوانين العادلة

وصدر أمر الخديو بالغاء القوانين العادلة التى صدق عليها فى عهد الوزارة الوطنية الحرة وهى : قانون القواعد الأساسية فى النظامات العسكرية ، وقانون الترقى ، وقانون الضمائم والامتيازات ، والاعانات العسكرية ، وقانون الاجازات التى كانت من ضمن طلبات العسكرية قال فيه :

وبعد الاطلاع على الأوامر الصادرة فى ٢٦ شوال سنة ١٢٩٨ بالتصديق على قانون الاعانة والضمائم والامتيازات العسكرية البرية والبحرية والاجازات وتسوية حالة الضباط والمستودعين، والترقى ومعاشات تقاعد العسكرية

وبناء على ما عرض علينا من ناظر البحرية والحربية (عمر باشا لطفى) صارت هذه القوانين فى حكم الالغاء »

وصدر أمر آخر بالغاء الأمر الصادر بتقرير مرتبات الضباط والصف ضباط والعساكر البرية والبحرية . وان تعاد مرتباتهم جميعا الى ما كانت عليه قبل صدور الأمر المؤرخ فى ٢١ جمادى الأولى سنة ١٢٩٩ وأن تلغى جميع العلاوات التى أضيفت الى رواتب الاستيداع ومعاش التقاعد

انعامات على الضباط الانجليز

وأنعم الخديو على ٥٢ ضابطا من الضباط الانجليز بالنيشان المجيدى والنيشان العثمانى من رتب مختلفة ،

فأصاب واحد منهم النيشان المجيـــدى من الدرجة الاُولى واثنان النيشان العثمانى من الدرجة الثانية وخمســـة النيشان العثماني من الدرجة الثالثة وأربعة النيشان العثماني من الدرجة الرابعة ، وأربعة النيشان المجيدى من الدرجة الثانية وتسعة من الدرجة الثالثة وسبعة من الدرجة الرابعة وعشرة من الدرجة الخامسة

وكانت تلك النياشين من ضمن النياشين التى حضرت من الآستانة بطلب درويش باشا المندوب السلطانى لأجل اعطائها للضباط المصريين ، فضن بها الخديو عليهم وجاد بها على الضباط الانجليز

وقد ذكرنا تاليف لجان للتحقيق والمحاكمات وتعيـــين رؤسائها وأعضائها بالايضاح الوافى والبيـــان الشافى . والآن نثبت تلك المحاكمات وايرادها مع تقديم الأهم منها على المهم . وانقيادا لحكم هذه القاعدة نبتدىء بذكر محاكمتنا ونعقبه بذكر محضر على باشا فهمى فمحضر عبد العال باشا وهكذا الى أن نأتى على أهم هذه المحاكمات واحدة بعد أخرى ليتبين لمن يطلع عليها شدة وطأة الظلم والاستبداد عـــلى رجال العدل والحرية جزاء مدافعتهم عن بلادهم (١)

سجن الدائرة السنية

ولما ضاقت سجون القلعة والضابطية بمن سجنوا من الضباط وغيرهم من جميع الطبقات اتخذت الحكومة بنـــاية الدائرة السنية سجنا عموميا ، وأنشأت فيه مجلسا فخيما للمجلس العسكرى وآخر للجنة التحقيق

(١) اكتفينا فى هذا الجزء الثانى بذكر تفصيل محـــاكمة عرابى وبعض زملائه . وقد نشرت سائر محاكمات زعماء الثورة العرابية فى الجرائد فى ذلك الحين ، فعلى من يريدها أن يرجع إليها

وصار نقلنا من قشلاق عابدين الى سجن الدائرةالسنية المذكورة لأجل المحاكمة ، ومعى طلبه باشا عصمت ، وقد سجن كل منا في غرفة منفردا أسوة بمن فيها من المسجونين . ثم أغلقوا المنافذ علينا وسمروها ، ومنعوا عنا السراج ليلا بعد أن فتشونا وأخذوا ما معنا وأهانوا البعض منا خصوصا عبد العال باشا حلمى

محضر استجوابى

الاربعاء فى ٢٨ ذى القعدة سنة ١٢٩٩

حضرت أمام لجنة التحقيق ، واستجوبت على الوجه الآتى :

س — لما تولى خديوينا الأعظم مسند الحكومة المصرية أين كنت مستخدما ؟

ج — كنت معينا فى تسليم ٧٠٠ ألف أردب غلال واردة من مديريات الوجه القبلى الى محلات منشيه ونبيحه واجيون بالاسكندرية لسداد ٥٠٠ ألف جنيه دفعت فى أقساط الدين المطلوب من الحكومة

س — كنت تبع أى مصلحة ؟

ج — تبع نظارة الجهادية

س — هل كنت من المستودعين ؟

ج — لم أكن كذلك ، بل كنت فى الآلاى الرابع وتعينت للمأمورية المذكورة

س — ماذا كانت رتبتك ؟

ج — قائمقام فى مدة سعيد باشا

س — متى ترقيت لرتبة الميرالاى ؟

ج — فى ابتداء تولية الخديو الحالى

س ـ وفى أى آلاى تعينت ؟
ج ـ تعينت فى ٤ جى آلاى بيادة

حادثة قصر النيل

س ـ فى ١٥ صفر سنة ١٢٩٨ تقدم منكم عرضحال لدولتلو رياض باشا رئيس مجلس النظار فى ذلك الوقت فهل تتذكره ؟

ج ـ نعم أتذكره جيدا

س ـ هذا العرضحال لم يكن عليه أختام ، بل مقال فيه أنه من ضباط الجهادية ، وقدمته أنت وعلى فهمى وعبد العال ، فهل عندك توكيل من ضباط الجهادية بتقديمه ؟

ج ـ ذاك العرضحال تقدم منا بالنيابة عن جميع الضباط الوطنيين ، وعليه أختامنا ، وهذه مسألة صدر عنها العفو الخديوى فى أول فبراير سنة ١٨٨١ الموافق ٢ ربيع أول سنة ١٢٩٩

س ـ هل تعرف أن هذا ذنب حتى ان الحضرة الخديوية عفت عنه ؟

ج ـ لم يكن هذا ذنبا ...

س ـ نحن نسألك هل عندك توكيل أم لا ؟

ج ـ توكيلهم لى ولعبدالعال باشا وعلى باشا فهمى معلوم بداهة ، ولم نأخذ منهم بسندات

س ـ قل أسماء بعض الضباط الذين وكلوكم كى نسألهم

ج ـ لا لزوم للسؤال منهم ، فانى لما كنت ميرالاى كانت كلمتى نافذة على ضباط سائر الآلاى ، وهذا دليل على انهم أنابونى عنهم ، وانهم مؤتمنون طرفى

س ـ فى ذلك الوقت صدر أمر من الجناب الخديوى بتوقيفكم ، وتلى عليكم الأمر المذكور ، وامتثلتم وعلمتم منه

بتأليف مجلس عسكرى مركب من الجنـــرال استون ، وابراهيم باشا فريق السوارى ، ولارمى باشـــا ، وبلوم باشا ، وخورشيد باشا عاكف ورضـــا باشا ونجم الدين باشا للحكم فيما يختص بكم على مقتضى القانون ، فهـــل حصل ذلك أم لا ؟

ج ـ تلى علينا هذا الأمر ولكن يؤخذ منـــه أنه ليس الغرض الحكم علينا بمقتضى القانون فقط ، بل يستدل منه على موتنا أيضا

س ـ الأمر الذى صدر بشأن تشكيل المجلس المذكور موجود هنا ، فسنتلوه عليك ، وقل لنـــا من أين يؤخذ أن الغرض موتكم (وتلى علينا وها هى صورته)

(صورة الأمر الخديوى لناظر الجهادية عثمان باشا رفقى بتاريخ ٢٩ صفر سنة ١٢٩٨ نمرة واحد فى حقنا)

« بناء على الأفكار الفاسدة والحركات المضرة والمتوقعة من كل من أحمد عرابى بك ميرالاى ٤ جى بيادة ، وعبـــد العال بك حشيش ميرالاى ٦ جى بيادة ، وعلى بك فهـــمى ميرالاى ١ جى بيادة خلافا للقانون والنظـــام العسكرى قد تقرر بمجلس النظار المنعقد يوم تاريخـــه بسراى عابدين تحت رئاستنا بتوقيف الثلاثة ضباط المذكورين ، واحالة محاكمتهم على مجلس عسكرى تحت رئاسة الجنرال استون وأعضائه ابراهيم باشا فريق السوارى ، ولارمى باشا ، وبلوم باشا ولواء خورشيد باشا عاكف ، ولواء ســـوارى محمد باشا رضا . ومن الضباط المتقاعدين لواء نجم الدين باشا ، ولهذا أصدرنا أمرنا هذا لكم كى تجروا توقيـــف الثلاثة ضباط المذكورين مع أخذ الاحتياطات الكافية لعدم وقوع أدنى ما يخل بالنظام العمـــومى تحت كفالتكم . وبمعرفتكم يصير انتخاب وتعيـــين بدل الثلاثة ضـــباط المذكورين فى محلاتهم . ومن حيثيـــــة تأليف المجلس

العسكرى فوق العاده ومحاكمة الثلاثة ضباط المذكورين قد تحرر فى تاريخه لجناب الجنرال استون بما يلزم عن ذلك »

ج ـ حيث أن الخديو قال فى ذلك الأمر انه بناء على الأفكار الفاسدة والحركات المضرة الواقعة من أحمد عرابى وعبد العال وعلى فهمى ، فلا بد ان كل مجلس مصرى يحكم علينا بالموت . ومقال به أيضا مع أخذ الاحتياطات الكافية لعدم وقوع ما يخل بالنظام العمومى تحت كفالتكم ، فهذا التأكيد والتسديد لم يسبق له مثيل . ويستدل منه على أن الغرض اعدامنا . هذا فضلا عما شاهدناه ، فان الأمر قاصر على التوقيف ، ولم يذكر به السجن ، والذى حصل خلاف ذلك فانه أخذت سيوفنا ووضعنا بالسجن ، ووقف علينا أصاغر ضباط الشراكسة وبأيديهم الطبنجات، فرؤى لنا من جميع ما ذكر ان هذه الحالة الغرض منها اعدامنا

س ـ مذ كنتم فى السجن حضر ١ جى آلاى وأخرجكم منه ، وفى الغروب حضر ٦ جى آلاى حكمدارية عبد العال. والآلاى حكمداريتكم كان عازما على الحضور أيضا ، فهل حضورهم كان بناء على أوامر منكم وباتفاق قبل حصول الحبس أم حضروا من تلقاء أنفسهم ؟

ج ـ الآلاى حكمداريتى لم يقم من محله ولم يكن عنده تنبيه بالحضور . أما الآلايان الآخران ، فلم أعلم بناء على أى شىء حضروا . ولكن من حيث ان الضباط موكلونا للعرض بطلب المساواة والانصاف بين أصناف العسكرية ، فهم طبعا ملاحظون أحوالنا ، أولا فأولا ، ومتيقظون ، وهم دائما على حذر ، فلما رأوا ما حصل لنا من السجن أخبروا بعضهم بعضا وحضروا لخلاصنا

س ـ علم من التحقيق ان آلاى على فهمى لم يحضر الا بناء على تنبيه من قبل الواقعة بيوم ، وآلاى عبد العال

حضر فى يومها بناء على أمره بواسطة ارسـال واحد من طرفه ، وان عدم حضور آلايكم هو بالنظر لعدم امتثـال ألفي أفندى يوسف ، وخلاف ذلك لم تتحرك باقي الآلايات فماذا تقول ؟

ج ـ هذه المسألة مع ما فيها من الحيف والظلم توسلنا بقناصل الدول لتسوية ما بيننا وبين الحكومة من الخلاف، وصدر عنها عفـو عمومى وعاد كل منا الى آلايه ووعدنا باجابة طلباتنا وقد عزل عثمان رفقى ناظر الجهادية

حادثة عابدين

س ـ بعد اخراجكم من السجن بقصر النيـل بواسطة العسكر وحضوركم لعابدين كنتم تعلمون جيـداً انكم معزولون من آلاياتكم ، فلمـاذا بقيتم هناك مع العساكر وأصررتم على طلب عزل عثمان باشا رفقى من نظـارة الجهادية ، مع انه مرارا يعدكم الجناب الخديوى بالاجابة ونبه عليكم بالانصراف ولم تنصرفوا حتى تحصلتم على مرغوبكم؟

ج ـ قلت ان هذه المسألة تم فيها ما تم وصدر عنها عفو الخديو

س ـ حيث انه قيـل منكم انه صدر عن ذلك عفو من الحضرة الخديوية وتحصلتم على رفع ناظر الجهادية الذى كنتم متشكين منه فكان المأمول اذا مقابلة هذه النعمـة بالطاعة والانقياد التام لأوامر الحضرة الخديوية والسلوك الحسن ، فوقع منكم ضد المأمول وقبل انقضاء سبعة أشهر بعد هذا العفو أحضرتم آلاياكم وآلايات الاثنـين من الآلايات الذين اشتركوا معكم فى واقعة أول فبراير سنة ١٨٨١ وبعض الآلايات التى أمكنكم اغراؤها على ذلك وبطاريات الطوبجية بجبخاناتها . وقبل حضوركم لتلك الجهة ببضـع ساعات حررتم للقناصل ولنظـارة الجهادية على هذا التصميم الذى

تجاسرتم على اجرائه بالفعل ، فما أسباب ذلك ، ولماذا تجاسرتم على هذا الفعل ، وبدلا من قيامكم بأداء وظيفتكم التى هى حفظ الذات العلية هددتموها بالاسلحة التي أعطيت لكم لأجل حفظ تلك الذات السنية وحفظ الحكومة المصرية . وفيما بعد طلبتم من الحضرة الخديوية طلبات لم تكن من وظائفكم ولا من خصائصكم ، وأصررتم على عدم اعادة العساكر لمحلاتهم حتى تحصلتم على مطلوبكم بهذه الكيفية ؟

ج — ان الأسباب التى دعت لذلك هى عدم الاخذبالعدل والمساواة فى المعاملات شأن البلاد التى لم يكن فيها قوانين ولم يرع فيها الاجراء على مقتضاها ، فلذلك اعتمد أعيان البلاد على أبنائهم رؤساء العسكرية وتاقت أنفسهم الى تشكيل مجلس نيابى بالبلاد يحفظ لهم حقوقهم ويدفع عنهم ما ألم بهم من المظالم ؛ حيث ان كل من كانت له مظلمة منهم وتلقى فى مجلس من المجالس الاهلية ، فلا تنتهى ولا ينظر لها بعين الاعتبار . وربما تترك بالمجالس فوق العشرين سنة حتى يموت صاحب الدعوى كمدا بظلمه . ومن أمثلة المظالم ضياع حقوقهم المدفوعة فى المقابلة التى هى عبارة عن سد ١٧ مليون جنيه . ولم يصر معاملتهم فيها آسوة بالدائنين الأجانب الذين لهم ديون على الحكومة المصرية . وغير ذلك مما لا يمكن استيفاءشرحه فى هذا الجواب ، فاجتمعت اذا أفكار الناس على انه لامخلص لهم من تلك المظالم الا وجود مجلس نيابى من شأنه حفظ الارواح والحقوق والاموال . مع سن قوانين عادلة تكفل لهم حقوقهم ، فأجمعوا أمرهم على ذلك وتحرر منهم بذلك عرضحالات وختم عليها من نحو الألفين نفس من عمد وأعيان وتجار وغيرهم . ولخوفهم من البطش بهم أنابونى مع اخوانى الضباط فى عرض طلباتهم لكوننا اخوانهم وأبناءهم . وهم أهلونا يضرنا ما يضرهم ، وينفعنا ماينفعهم

فقمنا بالعساكر البيادة والطوبجية والسوارى الموجودين بمصر بدون أن يتخلف منهم أحد وتوجهنا الى ساحة عابدين بعد اعلام قناصل الدول بتلك الطلبات الشرعية الحقة التي لا ينكرها منصف أبدا . وكان توجه العساكر بغاية الأدب والسكون بصفة عرض جيش على الحضرة الخديوية نلتمس من حضرته الفخيمة منح الأمة المصرية التي نحن أبناؤها ووكلاؤها في طلب تلك الطلبات الحقة ، فمنحهـــا ذلك وانصرف الكل شاكرا لجنابه الفخيم على ذلك . والاعراضات المتقدمة من أعيان الأمة المصرية تقدم بعضها الى دولتــلو شريف باشا الذى صار تسميته بطلب الأمة رئيسا للنظار . ومع ذلك فقد صدر عفو الخديو أيضا عما حصل من القصور في هذه المسألة ، على ان تلك الطلبات جميعها هي من أقصى آمال الحضرة الخديوية ، وسابق التصريح بها في الدكريتو الصادر من فخامته في أول ولايته

س ــ لو فرض ان الحضرة الخديوية لم تسلم في هــذه الطلبات فماذا كان يحصل ؟

ج ــ لا لزوم للفرض والتقدير لاننا واثقون بكرم الخديو ووفائه بوعده في أول دكريتو صدر من جنابه ، كما ذكرنا في جوابنا المتقدم حيث ان ذلك من أقصى آماله

س ــ لم يوجد اذا وجه لتوجهكم بالعساكر والجبه‌خانة معهم والاحاطة بالسراى بتلك الكيفية المهولة

ج ــ البلاد التي لم يكن بها مجلس نيابي يحفظ للأمة حقوقها في كافة ممالك الارض يحصل فيها أكثر من ذلك بحيث يسفك فيها كثير من الدماء وهذا لا يخفى على كل متذكر لأن الحاكم المستبد لا يسلم في الشورى بسهولة . ونحن بحمد الله تعالى لم يحصل منا أدنى شيء يخل بالراحة بخصوص هذا الطلب ، وتقدم ان ما كان حضور العساكر الا بالنسبة للالتماس في هيئة عرض أنفسهم على الحضرة

الخديوية ومع ذلك فعفو الخديو شمل ما حصل فى تلك المسألة من القصور

س ـ تدعى ان الأمة أنابتك أنت والضباط فى طلب الطلبات التى ذكرتها ، فالأمة المصرية عبارة عن أربعة ملايين . ولا يتصور أنه صار توكيلكم أنت والضباط من طرف هذا القدر وحيث انك تدعى أيضا أنه تقدم اعراضات من نحو الألفين شخص من أهالى البلاد الى دولتلو شريف باشا مباشرة ، فيعلم عدم توكيلكم من طرف أحد من الأمة المصرية كما تدعون ، فان كان بيدكم والحالة هذه توكيل أبرزوه ، وخصوصا ان الأمة المصرية وأعيانها عموما موجودين ، فبين أسماء، ولو نحو عشرين من الاعيان الذين توبوكم حتى باستجوابهم تتضح الحقيقة .

ج ـ مهما كان تعداد أى أمة من الأمم عظيما، فانها تكون مرؤوسة برؤساء يسمونهم المشايخ والعمد ويطلق على هؤلاء الرؤساء الذين هم بعض الأمة لفظ الكل أعنى الأمة، وعلى ذلك فرؤساء البلاد النائبون عن الأهالى هم الطالبون لتلك الطلبات وهم المعرضون اعراضاتهم التى كان أغلبها بطرفى ذلك اليوم . ومن هؤلاء العمد والأعيان تركب مجلس النواب والدليل على انهم أنابونى فى طلب طلباتهم وجود نحو الألفين عمدة فى ذلك اليوم والحاحهم على دولتلو شريف باشا بقبول الرئاسة حال حضوره من الاسكندرية الى مصر ولوثوقهم بى ترامو بأجمعهم على الحضرة الخديوية يلتمسون منها بقائى فى نظارة الجهادية حين استعفت نظارة محمود باشا سامى . أفهل هذا لا يكون دليلا على توكيلهم اياى ووثوقهم بى؟ على انى ومن معى من الضباط والعساكر من أبناء البلاد الذين تشملهم تلك الحقوق الوطنية

س ـ وظيفتك كانت ميرالاى جهادى وقوانين العسكرية لا تسمح لك بالتداخل فى الأمور الادارية الاهلية فكيف

تداخلت فى ذلك وأغريت باقى الضباط الذين اتبعوك؟ هل الخديو ونظاره وباقى حكامه كانوا محجوبين عن الأهالى وما كان أحد يمكنه الوصول اليهم حتى تداخلتم فىأمورهم بهذه الكيفية ؟

ج ـ قدمنا بأجوبتنا المتقدمة ان من كان له حق أو حاجة وتحال على أى مجلس أو أى ديوان فيموت بغصته ، ولم يتحصل على شىء منها • فمن أجل ذلك ولشمولنا مع أهلينا بحقوق واحدة حصل ما تقدم ذكره بدون أن تسقط شعرة واحدة من رأس أى انسان • وما كنت لأغوى الناس بل كنت حافظا لنظامهم وموقفا لحركات أفكارهم الشديدة التضارب بعضها لبعض ، فهم الذين أنابونى لأسير بهم فى منهج الاستقامة حفظا للنظام العام • ولولا ذلك بل لولا وجودى لما أمكن توقيف ذلك التيار المنبعث من قلوب مختلفة وأفكار متضاربة ، وهذا شىء لا يخفى على كل ذى بصيرة اذ لو ترك ذلك التيار وشأنه من غير حافظ له لحصل من المضرات الكثيرة ما لا يخفى على أحد • ومع ذلك فما وقع من القصور فيما تقدم ذكره ، عمه العفو الخديوى

مسألة خلع الخديو

س ـ فى أول دفعة فى واقعة ١ فبراير سنة ١٨٨١ طلبتم عزل ناظر الجهادية وأصررتم على ذلك بطريقة خارجة عن القانون وتحصلتم على مقصودكم وعفى عنكم الجناب الخديوى كما قيل منكم • وفى واقعة يوم ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ أشهرتم السلاح وأحطتم بسراى الحضرة الخديوية بالمدافع وهددتموها وتحصلتم على طلبات خارجة عن وظائفكم وهى احداث مجلس النواب وسقوط وزارة دولتلو رياض باشا وما أشبه وقلتم ان الحضرة الخديوية عفت عنكم فى ذلك أيضا ، فبدلا من مقابلة هذه النعمة التى تحصلتم

عليها بالشكر ، لم يمر زيادة عن بضعة أشهر حتى توجهتم ذات ليلة لمنزل سعادة سلطان باشا رئيس مجلس النواب فى ذلك الوقت وبرفقتكم ضباط العسكرية المتعصبين معكم ، وهناك أمام من وجد من النواب والعلماء تلوتم خطبة فى القدح والذم فى الحضرة الخديوية وعائلته الشريفة ، وختمتم خطبتكم باعلان خلع جنابه العالى وقلتم ان من يكون معكم فى هذا الرأى يقوم واقفا، ولما لم ير واحد من الحاضرين القيام خلاف الضباط هددتهم أنت ومحمد عبيد حالة كونه شاهرا سيفه حتى حصل من ذلك اضطراب وغاغة بمنزل الباشا المشار اليه ، واندهشت أهل البلاد خصوصا وانك أمرت وقتها أحد الضباط الحاضرين وهو خليل بك كامل الميرالاى باستعداد آلايه للهجوم به على سراى الاسماعيلية محل اقامة الحضرة الخديوية ، فهل يجوز وقوع ذلك منكم بعد توصلكم الى كافة طلباتكم من الحضرة الخديوية وانغماركم باحسناناتها

ج ـ أى ليلة هذه وفى أى تاريخ حصل ذلك ؟

س ـ فى الليلة الثانية من سقوط وزارة محمود سامى التى كنتم من ضمنها بصفة ناظر الجهادية

ج ـ انى لم أطلب لنفسى شيئا قط ، بل تلك الطلبات كانت على حسب ما سبق ايضاحه • وانى دائما محترم وحافظ للحضرة الخديوية ولم يقع منى تهديد أصلا ، بل كنت كسور عظيم البنيان ، مانع لتيار تلك الافكار السريعة الانحدار • وكنت أظن أن تلك خدمة لا تغيب أهميتها عن أفكار أولى العدل والانصاف

أما تلك الليلة المعروفة بليلة أبى سلطان ، فالحق أقول انه لما تحقق للحضرة الخديوية استقامتى وحسن خدماتى وتأديتها بغاية الحرص والامانة منحنى رتبة اللواء بعد أن وجهت الى عهدتى نظارة الجهادية • كل ذلك دليل على حسن

رضائها الى أن انحلت نظارة محمود باشا سامي التى كنت من ضمنها لاسباب معلومة للعموم ، وكانت نتيجتهـــا ما حصل من المحاربة الشنيعة الظالمة ، وهي الاختلاف الذى وقع بين الوزارة المذكورة وبين الخديو في قبوله اللائحـــة المقدمة من قنصلى انجلترا وفرنسا وعدم قبولها بطـــرف الوزارة • وقد صار طلب أعضاء مجلس النواب للنظر فى هذه الاختلافات واناطته بتسويتها • ولما لم يجد ذلك نفعا حصل الاســـتعفاء ولزمت منزلى • فدعيت تلك الليلة الى بيت رئيس مجلس النواب ، حيث كان جميـــع أعضـاء المجلس موجودين فيه ومنتظرين حضورى • فلم أر بدا من التوجه اليه ، وبحضـــورى لحضرتهم كلفونى بأن أداوم على ملاحظة العسكرية وحفظ الراحة العمومية ، فأجبتهم بأنى استعفيت من نظارة الجهادية مع اخوانى النظار ، وقبـــل منا استعفاؤنا لدى حضرة الخـــديو ، فلا يمكننى أن ألزم نفسى بما لا يسوغ لى أجراؤه ، فأجابنى رئيس النـــواب ، ومن معه بأننا نحن نواب الأمة وقد كلفناك بهـــذه الخدمة الوطنية واننا متوجهون الى الحضرة الخديوية لنلتمس منهـــا بقاءكم فى نظارة الجهـــادية كما كنتم • ثم دار الكلام في الأسباب التى أوجبت الاستعفاء وما كان من أمر اللائحـــة المتقدمة من انجلترا وفرنسا وما يؤول اليه أمر البلاد اذا حصل قبولها وما كانت عليه البلاد قبل التداخل الأجنبى • فهذه هى المحاورات التى جرت والمعبر عنها بالخطبة • وكان جميع أعضاء مجلس النواب كارهين قبول تلك اللائحـــة وكارهين ما بنيت عليه من التداخل المضر بشرف البـــلاد واستقلالها • وأجمع رأيهم على عدم قبول تلك اللائحـــة وأعطوا قولهم بذلك

وكان من رأى الحاضرين عموما التسليم فى عزل الخديو ولا يسلمون في قبول اللائحة المذكورة أبدا • واشـــتدت

حركة الأفكار ومكث هذا التضارب الناشيء من تلك اللائحة مدة تزيد عن أسبوعين الى أن قبل سعادة راغب باشا رئاسة مجلس النظار ، وصدر من الحضرة الخديوية عفو عام عن جميع ما يتعلق بهذه المسألة وما قبلها لكثرة تشعب الأفكار وشدة الانفعال وتهييج الرأى العام • وبناء على هذا العفو تشكلت الوزارة المذكورة وكنت من ضمنها بمقتضى أمر خديوى • ثم لما ورد وابور (عز الدين) حاملا النيشان المجيدي من الدرجة الأولى الذى أحسنت به الحضرة السلطانية على لم أقبل أن أستلمه الا من يد الخديو ، وما ذلك الا اعلانا باحترامه وحرصا على رضائه •هذا هو الحق ولم يحصل صدور أمر الى خليل كامل ولا الى غيره كما ذكر • اذ انى كنت أعد نفسى انى حافظ أمين • وأما ما قيل غير ذلك فلا أصل له البتة

س ــ هذا الجواب لم يكن ردا للسؤال، فأفد صراحة هل ناديت بمنزل سلطان باشا بخلع الحضرة الخديوية ، وقلت من يكن معك يقم واقفا أم لا ؟

ج ــ على حسب فكرى هذا الجواب هو رد عما سئلت فيه • وانى أوضحت به انه حصل الاجماع على عدم التسليم في قبول اللائحة • ولما استقر الرأى على ذلك كنت جالسا فقمت وقلت من وافق على ذلك فليقم معنا ، فقام الكل ولم يتأخر أحد • والغرض من ذلك هو عدم التسليم فى قبول اللائحة المذكورة ، حتى بالفعل قام رئيس مجلس النواب ومن لزم معه من الأعضاء ، وتوجهوا الى سراى الاسماعيلية فى تلك الليلة نفسها ، وعرضوا طلب بقائى فى نظارتى الجهادية والبحرية والزامى بالأمن والراحة وفى غد تلك الليلة حضر لى رئيس المجلس المذكور وسعادة سليمان باشا أباظه ، وحسن باشا الشريعي وغيرهم وسلمونى ارادة خديوية ببقائى فى نظارتى الجهادية والبحرية ، فتوجهت

مسرعا لتأدية التشكرات لحضرة الخديو على ذلك

س ـ كان رأيك اذا مع رأى من استقر رأيهم من الحاضرين على عزل الجناب الخديو ؟

ج ـ مما توضح يعلم ان لشدة تأثير اللائحة المذكورة التى قبلها الجناب الخديو ما كان يمكن قبولها ولو أدى ذلك لخلع الخديو . وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأى

مؤتمر مجلس النواب

س ـ مذ كان محمود سامى رئيس مجلس النظار ومذ كنت أنت ناظر الجهادية قر رأيكم على طلب النواب واحضرتموهم بالفعل بدون أمر الحضرة الخديوية فلماذا أجريتم ذلك مع علمكم انه مخالف للائحة النواب ؟

ج ـ من مقتضى لائحة مجلس النواب انه اذا تراءى أمر مهم فى مدة غياب مجلس النواب فعلى مجلس النظار تدارك هذا الأمر تحت مسئوليتهم عنه عند انعقاد المجلس فى السنة التالية . ولم يكن أمر مهم أكبر من خلاف يقع فى مسألة بين الحضرة الخديوية وبين النظار . فلتدارك هذا الأمر وعدم خروجه من يد أهل البلاد استقر رأى مجلس النظار على طلب مجلس النواب لينظر فيما حصل الخلاف فيه أملا فى اصلاح الأمر قبل تعاظمه وعلى ذلك جرى طلب النواب

س ـ اعترفت اذا بطلب النواب بدون أمر الحضرة الخديوية لأن منطوق اللائحة لا يطابق تأويلكم

ج ـ أوضحنا بأن طلب النواب يفيد أمر الحضرة الخديوية وما كان الا اعتمادا على قانون مجلس النواب على أن ذلك جائز فى الحكومات المتمدنة اذا دهم البلاد أمر يخل بشأنها، ولم يكن أمر أكبر من خلاف يقع بين الحاكم وحكومته

س ـ ما هو الخلاف الذى وقع بين الحضرة الخديوية وبين

النظار وترتب عليه طلب النواب بمعرفتكم ؟

ج ـ هو قبول الخديو للائحة المقدمة من قنصلى انجلترا وفرنسا وعدم قبولها بطرف نظار حكومته

س ـ ماذا كان مضمون تلك اللائحة المقدمة من طرف الدولتين ؟

ج ـ كان مضمونها طلب سقوط النظارة واخراجى من بلادى الى أوربا واخراج وتبعيد علي باشا فهمى وغيرهما الى داخل القطر

س ـ هل في معلومكم ان الجناب الخديو قبل هذه اللائحة من قنصلى الدولتين المتقدم ذكرهما أم لا ؟

ج ـ تقدم بأجوبتي ما يدل على ذلك

س ـ كان الواجب اذا عليكم قبولها مثلما قبلها الجناب الخديو لكونكم تحت أوامره وهو المناط من طرف الدولة العلية بامتيازات مخصوصة باجراء الاحكام على حسب ما يتراءى له بدون أن يعارضه أحد فى داخل حكومته . فلماذا تجاسرتم على رد أوامره حيث انه قبلها ولا سيما ان خروجك من البلد حائزا شرفك ومرتباتك ما كان يترتب عليه ضرر

ج ـ صحيح كان أولى خروجي الى أوربا أو غيرها .ولكن أفكار الناس وقتها وحالة البلاد وشرف الأمة منعني من ذلك وأما ما ذكر من لزوم موافقة النظار للحضرة الخديوية لما لها من الامتيازات الخصوصية ، فذلك لا يكون أمرا لازما فى الحكومات الشورية ، خصوصا وان جنابه الكريم أوجب على نفسه جعل الحكومة شورية ، وأن يشترك مع نظاره ونواب البلاد فى الرأى .وحرص النظار على تلك الامتيازات وما رأوا في قبول تلك اللائحة من التداخل فى الأمور الادارية ومس الامتيازات المصرية لم يصر قبولها كما تقدم الايضاح بالاجوبة السابقة

ثم استصوبت اللجنة اعادتى الى السجن حيث حان وقت الغروب ، فى ٢٨ القعدة سنة ١٢٩٩

محمد مختار ـ مصطفى خلوصى ـ سليمان يسرى ـ مصطفى راغب ـ محمد جمدى العظم ـ سعد الدين ـ محمد زكى ـ يوسف شهدى ـ على غالب (أعضاء) اسماعيل أيوب (الرئيس)

اليوم الثانى لاستجوابى
الخميس ٢٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٩

بناء على ما تقرر بجلسة يوم الخميس ٢٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٩ طلب أحمد عرابى من السجن لاتمام استجوابه ولما حضر وجه اليه سعادة الرئيس الأسئلة المحررة بعد ، فأجابه عنها بما يأتى :

س ـ ألم ينصحك دولتلو درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية بقبول اللائحة والخروج من القطر

ج ـ ان اللائحة المذكورة تقدمت من طرف قنصلى انجلترا وفرنسا بناء عن رأى ارتاه أبو سلطان باشا كما هو واضح بها • وكان تقديمها باسم دولتيهما عقب حضور المراكب الحربية الى ثغر الاسكندرية • ولما حضر الوفد العثمانى تحت رئاسة دولتلو درويش باشا رأى البلاد المصرية فى غاية الهدوء والسكون ولم يكن بها أدنى شيء يستدعى ما يوجب تلك الارتكابات كما رأى الجيش المصرى فى غاية الطاعة والانقياد ملازما لخدماته وواجباته العسكرية وعرض عن ذلك للباب العالى بالآستانة وترتب على ذلك تشريفنا بالنيشان المجيدى السابق الذكر بتلغراف ورد لدولته من المابين الهمايونى قبل حضور النيشان المذكور • ولما أخبرنى دولته بذلك التزمت بعرض تشكراتى تلغرافيا بواسطة المابين على الحضرة السلطانية وتشرفت

بقبولها وأجابني تلغرافيا بحصول الممنونية والمحظوظيـة للحضرة السلطانية مما أديناه من حسن الخدمة والطـاعة و نقياد ، ثم انه قبل حصـول الضرب على الاسكندرية بأربعة أيام حضر النيشان المذكور بوابور مخصوص صحبته سليم بك قومندان الوابور (عز الدين) واستلمته من يد الحضرة الخديوية مع اظهار الخضوع والانقياد والشكر عـلى ذلك ، كما انه حضرت جملة نياشين برسم ضباط الجيش اعلانا على حسن طاعته وانقياده ، ولكن لم يسـع الوقت اعطاء النياشين لأربابها لمفاجأة الضرب على الاسكندرية ، وكان دولة المشار اليه أخبـرني انه يرى لزوم توجهي للآستانة تحت كنف ورعاية الذات الشاهانية ، فقلت له: « اني أود ذلك ، بل هو أعظـم شيء أتمناه ، ولكن تعلق الناس بي وازدحامهم علي في كل وقت بحيث انهم لايمكنونني من تناول غذائي الذي هو من ألزم لزومياتي المعاشية الا بمشقة ، أخشى أن يحولوا بيني وبين ذلك اذا علم لهم اني أريد السفر الى خارج القطر المصري لما يتوقعونه مما يحيق بهم من الضرر في المستقبل ، ويترتب على ذلك حـدوث فتنة داخلية وهي ما كنا نحذر الوقوع فيها . فعند انتهاء الأمر وانصراف المراكب الحربية من المياه المصرية يمكن نتخلص من هذا الأمر المحفوف بالمصاعب ، ونتـوجه الى الآستانة كما ترون دولتكم » هذا ما صـار عند مقابلتي بدولة المشار اليه

س — حيث انكم أحضرتم مجلس النواب بالفعـل للمحروسة للخلاف الذي قيل منكم أنه حاصل بينكم وبين الحضرة الخديوية ، فلماذا لم يفتح المجلس المذكور ويعرض الخلاف عليه كما صممتم على ذلك من قبل ؟

ج — بحضور جميع أعضاء مجلس النواب واخبارهم عن لزوم افتتاح المجلس رسميا للنظر فيما حصل من الخلاف

وأسبابه ، فتوجهوا للخديو وطلبوا صدور أمره بافتتاحه فلم يسمح لهم بذلك

س ـ زعمتم ان النواب موافقون لرأيكم ولرأى باقى النظار فى ذلك الوقت ، فلو كان هذا حقيقيا لأمكنكم بالاتحاد معهم فتح المجلس والنظر فى أحوال البلاد بدون رخصة من الحضرة الخديوية وحيث انه لم يصر افتتاحه بالفعل على حسب رأيكم ، فيعلم ان النواب لم يكونوا متحدين معكم جميعهم كما قلتم

ج ـ لا أظن ان أحدا من المصريين على اختلاف مذاهبهم يسمح بحصول تداخل أجنبى فى بلاده ، ومن ذا يعلم لكل ذى ذوق سليم ان الأمة المصرية بأجمعها لا تسمح بذلك التداخل ، ولكن ارتأى رئيس مجلس النظار أن يسلك طريقا سهلة لازالة الخلاف وتسوية الحالة . فاكتفى بعقد المجلس فى بيته . وقد نجح فى مسعاه بتشكيل نظارة راغب باشا التى صدر فيها عفو عام من الحضرة الخديوية شاملا كل من ينسب الى تلك المسائل الا مسألة اسكندرية التى حدثت فى يوم ١١ يونيو سنة ١٨٨٢

يمين الشيخ محمد عبده

س ـ مذ كان محمود باشا سامى رئيس مجلس النظار وكنت ناظر جهادية اجتمعتم ليلا معه ومع باقى الضباط من رتبة بكباشى فما فوق فى قشلاق عابدين ووضعتم مصحفا على ترابيزه ووضعتم أيديكم عليه ولقنكم الشيخ محمد عبده يمينا ، فما هى هذه اليمين وما أسبابها وما هو تاريخ حلفها

ج ـ هذه العبارة لا حقيقة لها وانما دائما فى كل مجتمع كان يحصل التذاكر بالاتفاق على تحرير البلاد وتحسين حالتها والسعى فى جلب المنافع اليها ودفع المضار عنها بواسطة تنسيق قوانين عادلة تكفل لكل انسان حقه حتى

يعيش أهل البلاد وأبناؤها في أرغد عيش مثل الأمم المتمدنة في كافة أرجاء المسكونة والسعي في منع جميع الاسباب التي تخل بالراحة العمومية أو تجلب على البلاد ما يشين باسمها في تاريخ العالم . بل لعتبر أهل البلاد جميعهم ومن فيها من الأجانب أخوة في الانسانية لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولا يتعرض أحد لهم بسوء . تلك هي المجتمعات التي كانت تحصل ، وليست في تاريخ مخصوص

س ـ انت تنكر حلف هذه اليمين ، فاذا حضر الشيخ محمد عبده وغيره ممن كان حاضراً وقال بحصول ذلك أمامك ، فماذا تقول ؟

ج ـ لم يحصل انكار شيء ، بل ان ما أوضحته بجوابي هو شامل لما كان يحصل في مجتمعاتنا مع تأكيده بالايمان الموثوق بها على عدم حصول الضرر لأمن الناس كما ذكر وكل ذلك حرصا على الراحة العمومية .

س ـ مذ كان محمود باشا سامي رئيس مجلس النظار قبل واقعة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ بأيام قليلة طلبت السيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية وحضر لطرفك ، فلماذا كان ذلك ؟

ج ـ لما حضر فرمان الرتبة التي أعطيت اليه طلبناه وسلمنا اليه ذلك الفرمان

س ـ ألم تنبه عليه بشيء في ذلك الوقت ؟

ج ـ لم أنبه عليه بشيء

س ـ ألم ينبه عليه أيضا بشيء محمود باشا سامي بحضوركم في مجلس النظار في خزنة قاعة الجلسات

ج ـ لم يحصل ذلك ولم أكن موجودا في الخزنة

حادثة الاسكندرية

س ـ لما حصلت واقعة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ وتعين

قومسيون لتحقيقها بالاسكندرية ، وكان من أعضائه وكيل الجهادية ، فبدلا من التنبيه عليه بالتمسك بالعـــــدل والإنصاف وعدم الميل لأى طرف كان ، نبهتم وأكدتم عليه بأن يجتهد فى ابعاد التهمة والشبهة بقـــدر الامكان عن الأهالى والعساكر مع معلوميتكم ومعلومية الجميع انعساكر المستحفظين باسكندرية كان لهم مدخل كبير فى هـــذه المقتلة ، فمن تنبيهاتكم بهذه الكيفية لوكيلكم أعنى وكيل الجهادية يعلم ان وقوع هذه الحادثة اما أن تكون بأمركم أو بتعليماتكم

ج ـ هذه العبارة مختلقة لا أصل لها وان وكيل الجهادية ليس محتاجا لتعليماتى ولا يمكنه أن يساعد على غير الحق مهما كانت الحالة ، وأما ما ذكر من أن يكون ذلك حصــل بتعليماتى فمن أنا حتى تكون لى تعليمات بمثل ذلك فى جهة لم أحضرها ولم أشاهدها ؟ بل من تدبر كيفية سيرنا فى مدة ثمانية عشر شهرا ، وعرف ما حصـــــل منى من التنبيهات والتأكيدات واعلانى لجميع الناس بحفظ الأمن العمومى علم علم اليقين انى أجتهد كل الاجتهاد فى حفظ الأرواح والاعراض والأموال حتى لا تسقط شعرة واحدة من رأس أى انسان حرصا على عدم تسويد صحيفة تاريخ المصريين • والحق انه لم يتنبه منا على وكيل الجهادية بشىء أبدا ، اذ هو غنى عنى فى مثل ذلك ، وكان طلبه على حين غفلة واستعجال

س ـ قلت انك لم تعط تنبيهات لوكيل الجهادية فى شأن هذه المسألة مع انه موجود جواب منك اليه مشتمل عـلى ذلك فسنتلوه عليك وقل لنا صدر منك أم لا ؟

(تلى علينا وها هى صورته)

« جهادية وكيلى سعادتلو أفندم

« بعد السلام على سعادتكم تعلمون أهمية مركز سعادتكم

الآن بالنسبة للجنة التحقيق فانه لا يخفى أن أعضاء اللجنة ليسوا جميعا ممن يهمهم شرف العسكرية والأمة وهذا يقضى بأخذ الاحتياطات الكلية فى سياق التحقيق واظهار منشأ الحركة ، فان المتداول على ألسنة الخاص والعام هنا ان الفاعل لهذا الأمر رجل مالطى من تبعة الانجليز تشاجر مع وطنى وضربه بسكين وان جماعة من الأروام اجتمعوا للدفاع عن الوطن ، فتكاثرت عليهم المالطية وبعض الأوربيين وضربت عليهم النار من الشبابيك ، وعظم الخطب بتعدى الأوربيين على أنفسهم ، وأن الوطنيين الذين حضروا فى وسط النقط انما كانوا يدافعون عن أنفسهم بالعصى . ولذلك لهجت الألسنة بأن بعض الأوربيين انتهبت بعض الدكاكين . ولم يكن للوطنيين يد في ذلك ، فليكن اجتهادكم فى الدفاع عن جانب الحكومة والأمة واظهار الفاعل الأصلى من الأجانب ، فقد قيل انّ المالطى المتسبب فى الفتنة كان قبل ذلك مستخدما فى قونصلاتو الانجليز . وهذه أمور نقدمها لتلاحظوها ولا تقبلوا كل ما يقال فى جانب الوطنيين والحكومة من غير تدقيق وبحث طويل وتحقيق تعرفون صدقه وعدم تصنيعه ، ولا تميلوا بجانبكم لأحد من أعضاء اللجنة خشية أن تخدعكم أو تستميلكم لأمر ظاهره الاصلاح وباطنه الفساد، ولنا وثوق تام بأفكاركم ، وانما كتبنا هذا من باب التنبيه والاتعاظ لاقوال وأفعال من معكم من رجال اللجنة ، هذا ما يقتضى من جهة اللجنة والتحقيق ، وأما ما يلزم للمراقبة العمومية فيلزم أن تلاحظوا البلد وأخبارها وتتثبتوا فيما تسمعونه وترونه وتبادروا باخبارنا أولا فأولا عن جميع الاعمال والاكتشافات والمنظورات والمحذورات التى ترونها مما يظهر لكم من الحوادث ، واعلموا ان الحزم فى الأمور يرشد بحسن العاقبة وصدق العزيمة يوصل الى المقصود .

والعاقل من احترس من صديقه قبل عدوه ، والرجل الحربي من لا يخدعه السياسيون ولا أعمال المنافقين . والله يرشدنا واياكم لما فيه حفظ العباد وسلامة البلاد

في ٢٨ رجب سنة ١٢٩٩

« ناظر جهادية وبحرية »

« أحمد عرابى »

ج ـ نعم صدر مني هذا الجواب الذى هو عبارة عن الأخذ بالحزم فى اظهار الحقيقة والعمل بالحق وليس فيه ما ينكر عليه

س ـ لما حصلت الواقعة المذكورة طلب محافظ البلد مرارا عديدة من الآلايات الموجودة هناك إمدادات ولم يجيبوا فى وقت الطلب حالا حتى تمكن الاشقياء من قتل أناس كثيرين خصوصا قتل جم غفير من الأوربيين أمام الضبطية والمشاع فى ذلك الوقت أن هذا من تداخل عساكر المستحفظين فى القتل . وحيث أنك كنت ناظر الجهادية فى ذلك الوقت ولا بد أنه بلغك ما قيل فى حق العساكر ، فان كان لم يكن لكم مدخل فى هذه الواقعة لماذا لم تتثبتوا فى التحرى والحصول على معرفة ضباط الآلايات الذين تأخروا فى اجراء مأموريتهم وعساكر المستحفظين الذين قيل انهم اشتركوا فى هذا الأمر بصرف النظر عن اللجنة التى تشكلت فى ذلك الوقت من طرف الحكومة بالاسكندرية للنظر فيما حصل من الأهالى المتهمين فى تلك الواقعة

ج ـ أن ما ذكر من نسبة عساكر الآلايات للتأخير عند طلبهم بمعرفة محافظ الاسكندرية لم يبلغني ولم أسمع به الا من فم سعادتكم في هذا الوقت ، بل المذكور فى الجرائد الأجنبية نفسها ان عساكر الآلايات أدت ما يجب عليها من الغيرة والشرف فى تدارك هذا الأمر وحفظ حالة البلد

ولذلك جميع الألسن كانت تثنى على عساكر الآلايات وضباطهم ، ولو كان لذلك أصل لكان المحافظ حرر للجهادية بما حصل من التقصيرات حتى على مقتضى تحرره تجرى محاكمة المتأخرين • وأما ما نسب للضبطية وعساكر المستحفظين فلا حق لسؤالنا عنه اذ آن ادارتهم ليست تابعة لنظارة الجهادية

مسئولية ضرب الاسكندرية

س ـ حيث انه صدر لك أمر من الحضرة الخديوية ومن الحضرة السلطانية بابطال التجهيزات والطوابى وزيادةوضع المدافع بها ، فلماذا لم تمتثل لهذه الأوامر واستمر العمل فى التجهيزات ، حتى ان جناب الأميرال سنيمور لما شاهد وضعمدافع زيادة عما كان موجودا طلب تنزيلها ولاصراركم على عدم الاصغاء للأوامر نشأ عن ذلك الضرب على طوابى الاسكندرية ؟

ج ـ انه على حسب العادة السنوية كنا نجرى ترميم بعض طوابى الاسكندرية ، ولما ورد تلغراف من الحضرة السلطانية الى الحضرة الخديوية بناء على تبليغات سفير انجلترا بالآستانة بابطال انشاء وتجديد استحكامات اسكندرية ، اذ يعد ذلك تهديدا للمراكب الحربيةالانجليزية وصدر أمر الخديو بذلك ، ففى الحال أوقفنا الترميمات وتعين من لزم من رجال المعية لمشاهدة وقف العمل • ولما تحقق ذلك كتب للآستانة بذلك من المعية ، ولم يكنحصل اصرار وعدم سماع كما قيل ، حتى أن الطوابى الموضحة بافادة الأميرال سيمور بأنه جار وضع مدافع بها قبل الضرب بيوم واحد لم يسبق وضع مدافع على بعضها منذ إنشائها فى مدة المرحوم محمد على باشا ومن ضمن ذلك طابية صالحالتى لم يكن بها شىء من الاسلحة الجديدة أبدا؛

وطابية باب العرب ، وطابية قائد بك التى هى على بعد زائد في وسط البحر

س ـ لغاية أى ساعة استمر الضرب من المراكب على الطوابى فى يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ، وأين كنتم فى اليوم المذكور ؟

ج ـ ضربت الاسكندرية فى ١١ يوليو الساعة ١٢عربي صباحا ، وعلى مقتضى قرار المجلس المشكل تحت رئاسة الحضرة الخديوية لم تصر مجاوبة المراكب من الطوابي الا بعد اطلاق نحو ١٥ طلقة وبعدها حصلت المجاوبة من الطوابى واستمر الضرب من الطرفين الى الساعة ١٠ونصف عربى من النهار ، وفى أثناء ذلك كنت فى طابية الدماس لارتفاعها ولمناظرة الجهات منها

س ـ هل بقيت فى الطابية المذكورة لغاية الساعة ١٠ ونصف حتى انتهى الضرب ؟

ج ـ نعم

س ـ من كان قومندان العساكر بالاسكندرية في أثناء واقعة ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ؟

ج ـ كان القومندان طلبه باشا عصمت

س ـ هل تعين لهذه الوظيفة بأمرك أو بأمر من كان ؟

ج ـ طلبه باشا كان قومندانا على العساكر البرية الذين توجهوا من مصر الى الاسكندرية عقب حادثة ١١ يونيوسنة ١٨٨٢ لأجل حفظ البلد وحيث وجد هناك ، وكانت مأموريته حفظ البلد فصار قومندانا على جميع العساكر البرية ، وأما الطوابى فكانت تحت قومندانية اسماعيل بك صبرى

س ـ لما توجه للمكالمة مع جناب الأميرال سيمور ،فبأى صفة توجه ، هل بصفة قومندان الثغر ؟

ج ـ بصفة كونه قومندان العساكر البرية

س ـ هل تعيينه بهذه الوظيفة منكم كان شـــفاهيا أو كتابة ؟

ج ـ كان شفاهيا ؟

س ـ في أي يوم رفع العلم الأبيض من الطوابى ، هل في أول يوم الضرب أو في ثاني يوم ؟

ج ـ في اليوم الثانى عند ابتداء الضرب

س ـ في أي ساعة ؟

ج ـ في الساعة الواحدة تقريبا

س ـ هل كان هذا بأمرك ؟

ج ـ رفع البيرق الأبيض عند اطلاق مدافع من المراكب الانجليزية كان بناء على قرار من مجلس النظار وغيرهم من الذوات تحت رئاسة الخديو بحضور دولتلو درويش باشا رئيس الوفد العثمانى

س ـ أين قضيت ليلة الأربعاء ؟

ج ـ في باب شرقى

س ـ فى غرفة من ؟

ج ـ في غرفة حكمدار الآلاى ، ولست متذكرا ان كانت غرفة سليمان بك سامي أو عيد بك

س ـ مع من ؟

ج ـ مع طلبه باشا عصمت

س ـ ألم يكن معكم أيضا فى تلك الليلة سليمان سامى وعمر رحمى ومحمود سامي وخلافهم ؟

ج ـ لم أكن متحققا من وجود أحد معنا فى تلك الليلة خلاف طلبه باشا

س ـ أين توجهتم فى ثانى يوم صباحا ؟

ج ـ حضر لى طلب من المعية فى الساعة ٢ تقريبا فتوجهت من باب شرقى للرمل

س ـ لأى شيء طلبت ؟

ج ـ طلبت لدى الخديو وسألني حينهـــا اذا كان رفع البيارق البيضاء صار أولا ، وعن الضرب الذى حصـل من المراكب ، فجاوبته انه صار رفع البيـــارق المذكورة ، واستمر الضرب من المراكب بعد رفعها من ٢٥ الى ٣٠ جله

س ـ هل حقيقة بعد رفع الأعلام البيضاء أطلقت ٢٥ جله من المراكب الانجليزية كما قيل منكم ؟

ج ـ نعم انما لم يكن اطلاق هذه الجلل من مركب واحدة بالتوالى ، بل من مراكب متعددة فى آن واحد

س ـ ما هو الزمن الذى مكثتموه فى الرمل ؟

ج ـ بقينا بالرمل الى الساعة ١٠ تقريبا حيث كان عقد مجلس النظار تحت رئاسة الخديو عن طلبـــات الأميرال سيمور بخصوص تسليم ثلاث قلاع الى العساكرالانجليزية لاتخاذها معسكرا للجيش الانجليزى، وتلك القلاع هى طابية المكس وطابية العجمى وطابية باب العرب وكان أرسل له حسب ما تقرر من لزم صحبة طلبه باشا لابلاغه ان الفرمان السلطانى لا يرخص للخديو بذلك وانه سيعرض للحضرة السلطانية عن تلك المقترحات

س ـ قيل فى أجوبتكم المتقدمة انكم توجهتم الى الرمل الساعة ٢ صباحا وبقيتم لغاية الساعة ١٠ أفلم تحضر من هناك فى أثناء هذه المدة لباب شرقى أو لجهة أخرى

ج ـ نعم فى منتصف تلك المسافة قبل انعقاد المجلس كنت توجهت صحبة سعادة راغب باشا رئيس النظـــار بعربته الى منزله ، وبعد مضى نحو ساعة أو ساعة ونصف عدنا سويا الى الرمل معا

س ـ القصد الافادة عما اذا كنتم حضرتم لباب شرقى قبل الساعة ١٠ أم لا ؟

ج ـ لم نحضر

س ـ علم من التحقيق انه فى يوم الاربعاء حضر لطرفكم

لباب شرقي سلطان باشا وسليمان باشــا أباظه وشريعي باشا وياور من طرف دولتلو درويش باشا وحسن حسني بك ياور من طرف الحضرة الخديوية وهؤلاء الذوات حضروا لكم معا بالباب المذكور ليطلبوا منكم رفع كوردون العساكر الذى أحطتم به سراى الرمل ، فحضــورهم لكم فى باب شرقي كان فى أى ساعة من ذلك اليوم وما أسباب وضعكم الكوردون حول سراى الرمل ما دام أصل الخفر المرتب للحضرة الخديوية كان موجودا هناك

ج ـ أظن آن حضور الذوات المذكورين كان فى الساعة ١١ حالة كونى مشتغلا بنفسي فى جمــع العساكر المشتتة بوقت خروجهم من الاسكندرية ، وفى الوقت المذكور الذى كنت فيه بالرمل سألنى الخديو عن عدم لزوم الاربعــة بلوكات البيادة التى حضرت فى ذلك اليوم الى الرمل لوجود الخفر الكفاية هناك ، وقال ان توجههم لتأدية خدمات لازمة أولى • وحيث اننى لا أعلم حقيقة الأمر ولا ما هي الاربعة بلوكات المذكورة ، توجهت عند خروجى من المعية لجهــة القشلاق المجاور لسراى الرمل ، وطلبت الضابط الموجود مع الأربعة بلوكات التى حضرت الى هناك ، فحضر الى ضابط برتبة صاغقول أغاسي ، وأظن ان اسمه علي هشــيمه من ٦ جى آلاى ، فقلت له : « ما سبب حضور العساكر الذين حضرت بهم ؟ » فأجابنى بأنه حضر بأمر حكمــدار الآلاى سليمان بك سامي ، فقلت له : « لأى ســبب ؟ » قال : « جئت لتقوية الخفر » فقلت له : « ان الخفر هناك كفــاية فخد العساكر وتوجه الى آلايك » وكنت راكبا عربة سعادة راغب باشا ، فلما قربت من الجبانة القريبة من باب شرقى وجدت العساكر والأهالى مختلطا بعضهم ببعض فى ازدحام شديد خارجين من جهــة وابور المياه ، فنزلت من العربة وصرت أتخلل الناس حتى وصلت الى باب شرقى وصرت

أوقف العساكر بنفسي وأمنعهم عن الخروج من الباب المذكور وأنهـــــاهم عن ذلك ، وما زلت كذلك حتى أتى حضرات الذوات المذكورين ، وأخبرونى بأن العســاكر منتشرة في هيئة الكوردون حول السراى • ومن الواجب رفع الكوردون المذكور ، فدهشت حين سمعت بهذه العبـارة • وكان قد حضر طلبه باشا الذى هو قومندان العساكر فنبهت عليـه بسرعة التوجه لرفع ذلك والوقوف على أسبابه وقد توجه مع من ذكروا

س ـ يفهم من جوابك أولا ان الصاغقول أغاسى لم يصغ لأوامرك حيث أنك قلت له خذ العساكر وتوجه الى آلايك وبعد ذلك عمل الكوردون حول السراى • ثانيا ان جنـاب الخديو نفسه أمركم باعادة الاربعة بلوكات المذكورة وانت بالرمل ، ومن جوابكم علم انكم حضرتم من الرمل الى قشلاق باب شرقي ولم تصرفهم •• ثالثا اتضح من التحقيقـــات ومن أجوبة بعض من حضر ذلك من الذوات لبـــاب شرقى انك لم ترض برفع الكوردون الا بعد تكرار الرجاء والحاح ياور دولتلو درويش باشا ، فمن هنا يعلم أن أصل وضع الكوردون كان بأمركم ، اذ أن وجودكم بصفة ناظر الجهادية ووجود العساكر فى جهة واحدة لا يجعل أحدا يتصور أن أميرالايات الآلايات وضباطهم يتجاسرون على فعل أمر مهم مماثل لذلك بدون أمرك

ج ـ الأمر المهم الممـــاثل لذلك كنت أتولاه بنفسى ولا أرتكن فيه على غيري • ولكن الإنســـان مهما كانت قوته لا يمكنه حصر وضبط أفكار جميع الناس الذين معـــه خصوصا فى مثل هذا الوقت الصعب الذي كثيرا ما تذهل فيه العقول فكيف يقال انه لا يتصور وقـوع أمر من أحد حكمدارية الآلايات بدون أمر منى مع انى لست بضابط لأفكاره كما ذكر

واني كما أوضحت لا علم لى بأصل ارســـال البلوكات الى محلاتها • وتركته وتوجهت لرؤية الاشغال الضرورية• وأما القول بأن المخبر لى برفع الكوردون كان مع الترجى والالحاح ، فهذا لا حقيقة له بل بمجرد ما أخبرت وتمالكت نفسى من الدهشة أرسلت حالا معهم قومندان العســـاكر طلبه باشا كما ذكر • وحتى بعد عودته وسؤاله عن الكيفية أخبرنى انه لم يوجد هناك كوردون أصلا وقيل له انهـــم تفرقوا قبل وصوله

وعدت الى السجن فى وقت الظهر

ثم استدعيت من الســـــجن ثانية ، ووجه الى الرئيس الأسئلة المحررة أدناه فأجبت عنها بما سيأتى :

س ـ حيث انك تدعى ان وضع هذا الكوردون كان بغير أمرك ، بل بأمر سليمان سامى ، أفلم تبحث عن أســباب وضعه ، وماذا أجريت مع سليمان سامى بالنظر لوضــعه الكوردون المذكور من تلقاء نفسه ؟

ج ـ قلت فيما تقدم ان الصاغقول أغاسى أجاب بأنه حضر لتقوية الغفر ، وبحضور سليمان بك سامى بعد تجمـــع العساكر فى كفر الدوار ، أفاد بأن ارسال العساكر كان لتقوية الغفر ، وحيث ان كثرة أشغال المدافعــــة كانت شغلتنا جدا ، فلم يحصل تحقيـــق كيفية ارسال العساكر بغـــير أذن وبالضرورة عند انتهاء الحرب تجرى محاكمة من يقتضى محاكمته .

س ـ من أجوبتك السابقة ، علم انك حضرت من الرمل فى الساعة ١٠ الى باب شرقى ، وذكرت ان العساكر كانوا وقتها مزدحمين وخارجين من باب شرقى ، فهــــل ترك العساكر محلاتهم وخروجهم من البلوكات بأمرك أو بأمر من ؟

ج ـ من أجوبتي المتقدمة يعلم انه بحضوري من الرمل وجدت العساكر خارجين من الاسكندرية الى جهـــة وابور المياه وانه بحضوري الى باب شرقي كنت أمنع العســاكر بنفسي عن الخروج • فمن ذلك يعلم ان العســـاكر تركوا الاسكندرية بصورة هزيمة ، وفي الحقيقة ان قشلاق رأس التين هدمت منه محال كثيرة وجميع الطوابي أيضا • ولم يكن تجمع العساكر الا بعد المحاربة بأربعة أيام • ومعلوم صعوبة تجمع العساكر بعد انهزامهم ، حتى ان بعضـهم توجه الى بلاده رأسا

س ـ قلت ان خروج العســـاكر من الاسكندرية كان بصورة هزيمة ، فالهزيمة كانت في أول يوم من المحاربة لا في ثاني يوم ، فلو كان ما قلته حقيقيا لحصل خروجهم في يوم الثلاثاء ، لا في يوم الاربعاء كما تقول

ج ـ في يوم الثلاثاء لم تحصل هزيمة أبدا ، والعساكر كانوا ثابتين في محلاتهم • وأما في اليوم الثاني بعد الضرب على الاسكندرية وعدم قبول ما أرســـل به الى الأميرال الانجليزي ووجود جملة مراكب توجهت الى جهـــة برج السلسلة بقصد الضرب على جهة باب شرقي ، وبعد ضرب عدة طلقات على البلد ، خرج العساكر منهزمين ، وبحضورنا من الرمل كما تقدم وجدنا الحالة كما أوضحنا عنها • هذه هي الحقيقة

س ـ العساكر خرجوا اذن من تلقاء أنفســـهم من غير أوامر منكم ..؟!

ج ـ نعم لأن المنهزم لا يحتاج لاستئذان • وقد قلت انه لم يمكن جمعهم الا بعد أربعة أيام

س ـ في وقت وجودك في باب شرقي ومنعك العساكر من الخروج ألم تر معهم منهوبات ، وألم يبلغك إنهم كسروا الدكاكين ونهبوا البلد ؟

ج ـ ان المدة التى وجدت فيهـــا فى باب شرقى كانت لا تزيد عن نصف ساعة وكنت مشغولا بجمع العســـاكر ومنعهم عن الخروج، وفى أثناء ذلك شاهدت كثيرا من العربان والأهالى خارجين من باب شرقى حاملين أمتعة يظهر انهـا مأخوذة من دكاكين ، ووجدت مع بعض من أسافل ٦ جى آلاى بياده بعض أقمشة عند حضـورهم الى باب شرقى ، فصار استحضار حكمدار الآلاى سليمان بك سامى وأمرته بجمع الأقمشة الموجودة مع بعض عساكر آلايه وحفظهـا بقصد ايصالها الى المحافظة ، وحيث انه لم يمكن منـــع العساكر من الخروج ، لم أدر ماذا صار فى تلك الأقمشة

حرق الاسكندرية

س ـ ألم يبلغـــك فى ذلك الوقت انه جارى حـــرق الاسكندرية بمعرفة العساكر ؟

ج ـ بلغنى أن ســـليمان سامى بك حكمـــدار ٦ جى آلاى بعساكره جهة المنشية عازم على حرق البلد ، فأرسلت اليه بوجوب حضوره مع العساكر ، وسألته عن ذلك فكذب ما قيل

س ـ من الذى أرسلته اليه ؟

ج ـ لم أكن متذكرا

س ـ فى أى ساعة بلغك أن سليمان سامى عازم عـلى حرق البلد وفى أية ساعة أرسلت اليه طلب الحضور ؟

ج ـ فى وقت وصولى من الرمل الى باب شرقى

س ـ ممن بلغك ؟

ج ـ لم أكن متذكرا

س ـ لما حضر بطرفك هل حضر بالآلاى أم بمفرده ؟

ج ـ حضر ومعه بعض العساكر

س ـ فى أى ساعة حضر ؟

ج ـ الإرسال اليه وحضوره استغرق نصف ساعة فتكون طبعاً الساعة ١١ فى ذلك الوقت

س ـ ماذا أجريتم معه لما حضر ؟

ج ـ سألته عما نسب اليه من عزمه على حرق الاسكندرية ، فكذب ذلك كلية ، وقال انه كان موجودا مع العساكر لمنع خروج بحرية الانجليز الى البر من جهة الترسانة ، ولكن بعض العساكر الذين كانوا داخل البلد من الآلاى المذكور ، كان معهم بعض أقمشة كما تقدم

س ـ من كان حاضرا فى وقت الاستفهام من سليمان سامى عن عزمه على حرق البلد وجوابه اليك بالإنكار والتكذيب ؟

ج ـ كان حضوره وأنا واقف فى وسط العساكر مشتغلا بجمعهم وسألته أمامهم

س ـ القصد الافادة منكم صراحة عن أسماء الضباط الذين كانوا حاضرين فى وقت الاستفهام من سليمان سامى عن مسألة حرق الاسكندرية ؟

ج ـ لم أتذكر أحدا ممن كانوا موجودين من الضباط ذلك الوقت

س ـ بماذا اشتغلت فى الساعة ١١ لغاية الغروب من ذلك اليوم ؟

ج ـ فى أثناء تجمع العساكر تجمع منهم نحو الألف نفس تقريبا من ٤ جى آلاى حكمدارية عيد بك محمد و ٦ جى آلاى حكمدارية سليمان بك سامى ، وكانت قد حضرت المراكب جهة برج السلسلة التى يمكنها من هذا المكان الضرب على قشلاق باب شرقى بأكمله ، ويمكنها قطع خط الرجعة أيضا • وحيث لم يمكن توقيف حركة خروج العساكر المنهزمين توجهت خلفهم كى أصل الى مقدمتهم ، واتخذ لهم موقفا مناسبا لجمعهم فيه وأسرعت فى السير

حتى وصلت الى كوبرى حجر النواتيه الكائن على المحمودية، وكان وصولى الى هناك نصف الليل تقريبا

س ـ هل بقى معك سليمان سامى مع عساكره بعد حصول المكالمة بينك وبينه فى شأن حرق البلد فى الساعة ١١ ولازمك حتى حجر النواتيه أم رجع الى البلد ؟

ج ـ بعد أن علم عدم امكان توقيف حركة العساكر ، وكان من الضرورى جمع العساكر فى محل يأمنون فيه ، خرجت بمفردى مسرعا لأتخذ لهم محلا مناسبا كما ذكرت قبلا ، والعساكر الذين أمكن تجمعهم خرجوا مع ضباطهم وسليمان بك سامى حضر الى حجر النواتيه بمن معه من العساكر فى الساعة السابعة ليلا تقريبا

س ـ هل سليمان سامى هو الذى تأخر بالآلايه ولم يحضر الى حجر النواتيه بعساكره الا فى الساعة السابعة أو كافة عساكر الآلايات أيضا تأخر حضورهم لتلك الجهة الى ذلك الوقت ؟

ج ـ العساكر الذين أمكن تجمعهم فى باب شرقى حضروا مع ضباطهم فى الوقت الذى حضر فيه سليمان بك سامى وما ذلك الا لكثرة ازدحام الطريق بالاهالى والعساكر وصعوبة المرور

س ـ ألم يبلغك ان سليمان سامى بعساكره حرقوا الاسكندرية ؟

ج ـ سبق الاجابة عن ذلك

س ـ اجابتكم السابقة كانت عن ابلاغكم عزم سليمان سامى على حرق البلد ، والآن هذا السؤال هو لمعرفة ما اذا كان بلغك أن سليمان سامى وعساكره حرقوا البلد بالفعل أم لا ؟

ج ـ لم يبلغنى ان سليمان سامى هو الحارق للاسكندرية حقيقة

س ــ حرق الاسكندرية لا ينكر فمن حرقها ؟

ج ــ محافظ البلد وضبطيتها يعلمان حقيقـــة الحرق • رانى كنت أظن أن حرقها ناشىء عن مقذوفات المراكب كما حصل بسراى رأس التين وغير ذلك لم يبلغنى شىء

س ــ قيل فى جوابك انك كنت تظن ، والآن فمن هو لذى حرق البلد على حسب ظنك ؟

ج ــ كنت أظن ولا أزال أظن ذلك حيـــث انى لا أعلم لحقيقة لانى ما كنت بداخل البلد

س ــ لما كنت فى باب شرقى هل كان محمـــود سامى هناك أم لا ، وان كان هناك ، فهل حضوره كان بنـــاء على طلبكم أم من تلقاء نفسه وماذا فعل ؟ وألم يخبركم بشىء من جهة الحريق ؟

ج ــ وقت حضورى من الرمل وجدت محمود باشاسامى وسألته عن أسباب حضوره ، فقـــــال حضرت حين بلغنى مسألة الضرب على الاسكندرية لأنظر الحالة ، فتركته يجمع العساكر ، ولم أكن متذكرا انه قال لى شـــيئا عن مسألة الحريق

س ــ ألم يقض محمود سامى معكم ليلة الأربعاء فىغرفة سليمان سامى ؟

ج ــ لم أنظره فى تلك الليلة

س ــ ولا محمود فهمى ولا عمر رحمى ولا ســـــليمان سامى ؟

ج ــ تقدم انى ذكرت انه لم يبت معى فى تلك الليلة الا طلبه باشا

س ــ قلت في احدى أجوبتك السابقة انك قضيت ليلة الاربعاء في غرفة أميرالاى الآلاى المقيم بباب شرقى وانك لم تكن متذكرا ان كانت الغرفة المذكورة هى غرفةسليمان سامى أو غرفة عيد بك فمن حيث انك قضـيت الليلة فى

غرفة أحدهما طبعا صاحب الغرفة نام معكم فيها فأيهما كان ؟

ج ـ انه لا يكون فى باب شرقى على العموم غرفة مختصة لاقامة حكمدارية آلاى الا الغرفة المذكورة ، لأن أصل المحل مخصوص لآلاى واحد وكان موجودا فيه فى هذا الوقت آلايان بياده ولذلك لم أعلم صاحب الغرفة من منهما ، وقلت انه لم يكن معى خلاف طلبه باشا • وأما الميرالايات وجميع الضباط والعساكر فكانوا واقفين تحت السلاح على شاطىء البحر فى النقط التى كانت معينة لهم

فى الحرب

س ـ بعدانسحابكم بالعساكر من الاسكندرية وتوجهكم لجهة كنج عثمان فى أواخر شعبان صدرت لكم ارادة سنية ها هى صورتها منسوخة بهذه

« صـــورة الأمر الكريم الصادر الى أحمد عرابى رقم ٣٠ شعبان سنة ١٢٩٩ »

« اعلموا أن ما حصل من ضرب المدافع من الدونتمة الانجليزية على طوابى اسكندرية وتخريبها انما كان السبب فيه اســتمرار الاعمال التى كانت جارية بالطوابى وتركيب المدافع التى كلما يصير الاستفهام عنها كان يصير اخفاؤها والكارها • والآن قد حصلت المكالمة مع الاميرال فافاد بان ليس للدولة الانجليزية مع الحـكومة الخديوية أدنى خصومة ولا عداوة ، وان ما حصل انما هو فى مقابلة ما كان من التهديدات والتحقير للدونتمة ، وانه اذا كان بيد الحكومة جيش منظم وممتثل ومؤتمن ، فهو مستعد لتســليم مدينة اسكندرية اليها ، ولذلك اذا حضرت عساكر شــاهانية فالحكومة الانجليزية تحترمهم وتسلم اليهم المدينة ، فقد تحقق من هــذا أن الدولة الانجليزية ليست محاربة مع الحكومة الخديوية وانه تقرر من كافة الدول المعظمة بالمؤتمر بأنه لا يصير مس امتيازات الحكومة ولا حريتها ولا مس حقوق الدولة العلية ، بل هى تبقى ثابتة لها كما كانت لاستتباب الراحة بمصر ؛ فلذلك يلزم أن تصرفوا النظر عن جمع العساكر وعن كافة التجهيزات الحربية التى تجرونها بوصول أمرنا هذا وتحضروا حالا الى سراى رأس التين لاجل اعطاء التنبيهات المقتضية الشاهانية على حسب امرنا هنا وما استقر عليه رأى مجلس النظار

فاطلعوا عليها وفيدوا عن وصولها اليكم أو عدمه وعن تاريخ وصولها اليكم

ج ـ وصل الينا هذا الأمر ، أما تاريخ الوصول فلم أكن متذكرا .

س ـ لماذا لم تنقادوا لأمر الحضرة الخديوية الصادر لكم بالصورة المتقدمة وتوجهتم للأعتاب السنية بناء عليه كباقى النظار .

ج ـ ان الحرب التى حصلت لم يسبق لها مثيل ، اذ هى خارجة عن حد القياس ، حيث ان الحرب المذكورة ما صار اجـــراؤها الا بمقتضى قرار من مجلس مؤلف من النظار والذوات المختارين تحت رئاسة الحضرة الخديوية وبحضور أعضاء الوفد العثماني • فكان اجراؤها عـلى مقتضى الحق والقانون • ثم بعد خروج العساكر من الاسكندرية توجه الجناب الخديوى من سراى الرمل الى داخل الاسكندرية التى تركها أهلها والعساكر .

فلما بلغنا ذلك الأمر تحقق لنا ان انتقال جنابه العالى الى الاسكندرية مع حصول المناوشات الحربية بين مقدمات العساكر المصرية والعساكر الانجليزية، إما أن يكون لأخذه أسيرا ، واما لانحيازه الى الطرف المحارب لبلاده • فمـن أجل ذلك كتبنا لوكيل الجهادية يعقـــوب باشا سامى بما حصل للمشاورة مع رجال الحكومة فى هذا الأمر الذى لم يسبق له مثيل .

وبناء على ذلك صار عقد اجتماع عام من وكلاء الدواوين والمديرين والأمراء والعلماء وشيخ الاسلام والقاضى السيد السادات والسيد البكرى وأعيان التجـــار والعمد وغير هؤلاء ، وتشاوروا فيما بينهم فى هذا الأمر الذى دهم البلاد واستقر رأيهم جميعا على اعطاء قرار بعدم ســـماع أوامر الحضرة الخديوية وتوقيفها عن الأعمـــال ، حيث انه توجه

للطرف المحارب للبلاد وأعترضوا على ذلك تلغرافيا للحضرة السلطانية ببيان أسماء الشاهدين لذلك المجمع العام

. ومع ذلك لأجل الاحتياط والوقوف على الحقيقة أرسلت للحضرة الخديوية تلغرافا نطلب فيه صورة الشروط المنعقد عليها الصلح حتى نتمكن من الحضور لديه فلم يرد لى جواب بعدها

س ـ بعد صدور الارادة السنية المنسوخة صورتها بهذا وتليت عليكم ، حررتم تلغرافيا من طرفكم للمديريات رأسا بالاستمرار فى التجهيزات وجمع العساكر والمداومة على المحاربة وعدم سماع أوامر تصدر من خلافكم • وحررتم أيضا لوكيل الجهادية بهذا المضمون ولم يذكر له شىء فيما كتبتموه عن جمع من أوضحتم عنهم لأخذ قرار منهم كما تدعون ، فيعلم من ذلكعدم التفاتكم لأوامر الخديووالاصرار على جمع العساكر والمحاربة قبل صدور قرار ممن ذكرتم عنهم

ج ـ لقد قلت أولا ان هذه الحرب جرت على غير مثال ، وانه بعد خروج العساكر من الاسكندرية وخروج أهلها منها توجهالخديو الى الاسكندرية التى تبوأها الجيشالمحارب للبلاد خلافا للقاعدة القانونية والشريعة الاسلامية ، اذ انه كان الذى يلزم حضور جنابه الى مصر عاصمة البلاد وهناك تجيش الجيوش للحرب أو المخابرة فى الصلح • ومع صدور الأمر فى هذه الحالة ـ أى الانحياز الى العدو ـ لا يمكن لأى رئيس جيش العمل به بعد تحقيقه ، فربما يكون مرسلا من طرف العدو المحارب عن لسانه ، أو يكون مقهورا عليه ، اذ الحرب خدعة كما هو معلوم • ومن أجل ذلك أرسلت لجنابه طالبا ارسال صورة الصلح ، حتى يمكننى التوجه الى الاسكندرية • وقد كتبت للمديريات المذكورة بسرعة ارسال أنفار من الأهالى لعمل الاستحكام

واستمرار التجهيزات الحربية • وفى يوم ورود الأمر المذكور كانت المناوشة حاصلة بين مقدمات الجيشين الى الغروب ، فلو كان هناك صلح حقيقة لما كانت تحصل مناوشات بين المقدمتين ، فأى رئيس من أية ديانة كانت ، وفى أى بلاد كان مترئسا على جيش مدافع عن بلاده لا يمكنه أن يجرى خلاف ما أجريته فى حال وجود حاكم البلاد بطرف الجيش المحارب لها

س ـ ما هى المناوشة •• أوضح لنا معناها ، هل كان حصل ضرب نار من مقدمات الجيش أو كيف ؟

ج ـ نعم كانت مناوشات حصلت بضرب نار جهة كوبرى حجر النواتيه الكائن على المحمودية

س ـ كان ضرب النار من طرفكم أم من طرف الانجليز ؟

ج ـ من الطرفين

مسألة عزل عرابى والمهاجرين

س ـ لما لم تنقادوا للارادة السنية السابق نسخ صورتها بهذا وتلاوتها عليكم ، وداومتم على المحاربة ، صار عزلكم من طرف الحضرة الخديوية ، وجرى اعلانكم بذلك ، فلماذا لم تمتثلوا لهذا الأمر أيضا ، ومنعتم أهالى الاسكندرية الذين كانوا حضروا منها الى جملة جهات من العود الى وطنهم

ج ـ تقدم انى قلت بجوابى انى أعرضت للخديو بطلب صورة من المصالحة للوقوف على الحقيقة وما كنت أجاب • وهذا لا يعد عدم امتثال بل بحث وراء الحقيقة، ولما ورد أمر العزل تذكرت انه من قبيل ذاك الأمر الاول حيث ان الخديو موجود بطرف الجيش المحارب لنا ولم أقف على حقيقة كما تقدم الذكر ، فأرسلته الى وكيل الجهادية للنظر فيه بالمجلس وافادتنا بما يستقر عليه الرأى • وانه لم يحصل ورود أحد من أهل الاسكندرية عائدا اليها حتى يصير منعه ، بل

الكل كان مهاجرا الى بلاد الأرياف مع غاية الازدحام .

س ـ التلغرافات التي حررت الى وكيل الجهادية بمنع سفر المهاجرين ألم تكن أنت الذى أصدرتها ؟ وقطارات السكة الحديدية التى قامت من مصر بالمهاجرين الى الاسكندرية وأنت أرجعتهم على رؤوس الإشهاد ألم تكن أنت الذى أعدتها من كفر الدوار ومن طنطا • فأفد عن ذلك؟

ج ـ أريد الاطلاع على صورة المكاتبة الصادرة منى بذلك وفى أى تاريخ للتذكر بالحقيقة .

س ـ بعد صدور أمر الخديو وأمر سعادة رئيس مجلس النظار بارجاع أهالى الاسكندرية الذين هاجروا قد صار نزولهم بعربات السكة الحديد وقامت بهم قطارات متعددة وقد أرجعتم بعضهم من كفر الدوار ، والبعض من طنطا ، وتوقف قيام وابورات لهم بعد ذلك من محطة مصر • ومن التلغرافات التى تليت عليكم الآن وصورتها محررة بهذا متضح انكم أنتم الآمرون بمنع عودة المهاجرين لأوطانهم، فأفدنا عن سبب اجراء ذلك وعدم اتباع ما صدر فيما ذكر من الحضرة الخديوية ومن رئيس مجلس النظار

« صورة تلغراف من يعقوب سامى الى عرابى فى ١٥ يولية سنة ١٨٨٢ »

« يوم تاريخه صدرت لنا ارادة سنية تلغرافيا منبئة عن تحسين الحالة باسكندرية وارسال المهاجرين منها إليها ثانيا كما ورد لنا تلغراف من سعادة رئيس مجلس النظار عن تحسين الحالة أيضا وعودة المهاجرين الى اسكندرية ولو جبرا ، وصدر بذلك تلغراف من مأمور الضبطية أيضا وبناء عليه كتب بالاجراء ، فالآن وردت لنا افادة من مأمور ادارة السكة الحديد بما يفيد أنه ورد له تلغراف من مأمور ادارة الجيش بكفر الدوار بأن سعادتكم ما أمرتم بذلك ، ومرغوب الافادة ممن هى هذه الاوامر ، والتنبيه على المحطات بعدم قيام القطرات ، كما كان جاريا وعدم التعرض لاشغال مماثلة لهذه الحالة ، وحيث لم يعلم عندنا من هو مأمور ادارة الجيش ، وقد أوضحنا الاوامر الداعية لاعادة المهاجرين ثانيا وليس معلوم لنا الآن نتبع أى أمر،فنؤمل النظر فيما توضح والادتنا سريعا عما يصير اجراؤه واتباعه فى هذا الخصوص »

« صورة تلغراف من مديرية البحيرة الى عرابى بكفر الدوار »

« يوم تاريخه حضر لطرفنا باشجاويش مراسلة من طرف سعادتكم

واخبرنا بعدم رجوع أحد المهاجرين الى اسكندرية والمديرية ما عندها علم بهذا الامر . هل الامر صادر لمحطة السكة الحديد ، ولهذا قد صار توقيف سير الوابورات المتوجهة بالمهاجرين الى اسكندرية تحت صدور ما ترونه سعادتكم »

ج ــ انى لم آمر بارجاعهم أصلا وان الجاويش المذكور بتلغراف البحيرة لارجاع المهاجرين لم يرسل من طرفى أصلا وما كان هناك اقتضاء لارسال جاويش مخصوص بدون مكاتبة ، اذ كان من الممكن مخابرة المديرية بواسطة التلغراف ، ومن التلغراف الذى أرسل الى وكيل الجهادية ردا للتلغراف المحرر منه الينا ، لا بد تعلم الحقيقة

انقضت الجلسة وعدنا الى السجن فى ٢٩ القعده سنة ١٢٩٩

تلغرافات بعضها صحيح وبعضها مكذوب

وفى يوم الجمعة غاية القعدة سنة ١٢٩٩ طلبت من السجن لاتمام استجوابى فحضرت ووجه الرئيس الى الأسئلة الآتية فأجبت عنها :

س ــ قلت بالأمس انك لم تنبه باعادة المهاجرين وعدم ارسالهم الى الاسكندرية ، ولم ترسل جاويشا الى مدير البحيرة لاخباره بذلك ، مع انه يوجد تلغراف جفر مختوم منكم لوكيلكم (الجهادية) وجرى ترجمته ، وها هو الاصل والترجمة اطلع عليهما وأفد عما اذا كان صدر هذا منكم أم لا ؟

صورة التلغراف لسعادة وكيل الجهادية بمصر

« قد علم تلغراف سعادتكم الذى فيه أنه صدرت ارادة سنية تلغرافية لكم مبينة فيها تحسين الحالة باسكندرية وارسال المهاجرين منها اليها ثانيا ومثله أيضا من سعادة رئيس مجلس النظار ومزيد ليه بأن يصير اعادة المهاجرين الى اسكندرية ثانية ولو جبرا وحيث الامر كما ذكر فاخبر

سعادتكم أن اعادة المهاجرين الى اسكندرية ثانيا يترتب عليها ضرر عظيم اليهم لانها مشغولة
٦٧ ٤٧ ٩١ ٦٥ ٣٧ ٨٧ ٦٥ ٣٩ ٦٥ ٢٥ ٣٧ ٢٩ ٨٩
وجاريين ٦٥ ٣٩ ٣١ ٦٩ ٣٧ بمن يدخل فيها وها هو أعلنا سعادتكم بالحقيقة ٢٧ ٣٩ ٣٧ ٥٥ ٣٩ ٦٥ ٦٩ ٢١ ٨١ ٢٧ ٦٥ الا على ٢١ ٦٥ ٥٥ ٩٧ ٨١ ٨٧ ٢١ ٢٥ ٦٥ ٣٩ ٣٧ ٢١ ٣٩ ٣٧ ٣٩ ٢١ ومأمور ادارة الجيش بكفر الدوار الذى تستفهمون عنه هو حضرة خليل بك كامل

في غاية شعبان سنة ١٢٩٩ الساعة ٥ والدقيقة ١٠ نمرة مرور ٤٢

ناظر الجهادية
أحمد عرابى

صورة حل الجفرة المذكورة

« قد علم تلغراف سعادتكم الذى فيه أنه صدرت ارادة سنية تلغرافية لكم منبئة على تحسين الحالة باسكندرية وارسال المهاجرين اليها ثانيا ومثله أيضا من سعادة رئيس مجلس النظار ومزيد فيه بأن يصير اعادة المهاجرين الى اسكندرية ثانيا يترتب عليها ضرر عظيم اليهم لانها مشغولة بعساكر الانجليز وجاريين الفتك بين يدخل فيها وها هو قد أعلنا سعادتكم بالحقيقة ولكن لا تعتمدوا الا على ما يصدر منا لكم للبعد عن ضرر الاهالى ، ومأمور ادارة الجيش الذى تستفهمون عنه هو خليل بك كامل

وعليه اشارة بامضاء أحمد منيب يفيد بأن هذا التلغراف صار حله من مفتاح حضرة عمر بك رحمى

ج ــ نعم صدر منى هذا التلغراف بعد الاستعلام من وكيل الجهادية عن عدم ارسال المهاجرين

س ــ صدر لكم تلغراف من دولتلو سعيد باشا رئيس مجلس النظار وخارجية الآستانة المنسوخة صورته بهذا وتليت عليكم صورته بعرض محرراتكم على الأعتاب السنية الشاهانية وصدر الأمر الهمايونى بتفهيمكم ما هو آت وهو:

« ان سوء فعلكم قد أوجب هيجان الأمة المصرية وأوجب تكدير خواطر كافة دول أوربا وخصوصا دولتنا العلية واشغال كافة الوزراء والسياسيين، وليته فعل حسن تتبادل به الأفكار لثروة مصر ورفاهيتها ، لكن من سوء الحظ سبب نتيجة الدمار والخراب لغايتكم الشخصية ، هذا وحيث انكم

معزولين من تاريخ ٤ رمضـــان سنة ١٢٩٩ بأمر الحضرة الخديوية الفخيمة ، وقد وقع لدينـا هذا العـزل موقع الاستحسان والقبول ، فمخالفتكم حينئذ لهذا الأمر وباقى ما يصدر لكم من الأوامر الخديوية ، واقدامكم على سوءالفعل الموجب لدمار البلاد وتلف العباد، مما قيد بالأفكارالسامية عصيانكم وخروجكم عن طاعة الله ورسوله وخليفتـه فى أرضه.. ومن كان هذا الأمر فعله ، فسيرى هو ومن تبعه سوء عاقبته وغاية منقلبه »

فهل صدر لكم هذا ووصلكم ؟

ج ــ لم يصلنى ولم أر هذا التلغراف الا مختلقا لأنه لم يكن بينى وبين الباشا المشار اليه مكاتبة أصلا

س ــ هل لم يرفع منك شىء لرئيس النظار وناظر خارجية الآستانة المشار اليه وكم دفعة رفعتم اليه ؟

ج ــ رفعت للمابين الهمايونى ليس للصدر الأعظم

س ــ مرفوعاتكم كانت باسم من فى المابين الهمايونى ؟

ج ــ ان مرفوعاتى كانت الى بسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية

س ــ كم دفعة أعرضت اليه ؟

ج ــ أتذكر انها مرة واحدة

س ــ بأى مضمون ؟

ج ــ بمضمون ما حصل باسكندرية من الحرب وخروج العساكر وتجمعها بجهة كفر الدوار ، وتوجه الخديو الى الاسكندرية عقيب اخلائها من العساكر

س ــ ألم تطلب فيما أعرضت عزل الجناب الخديو ؟

ج ــ لا ...

س ــ تذكر جيدا

ج ــ لست متذكرا

س ــ قلت ان الذى قدمته للحضرة السلطانية هو دفعة واحدة ، والحال انه وجد الآن ثلاثة تلغرافات محـــررة

منكم الى بسيم بك من قرناء الحضرة السلطانية خلاف ما يوجد من التلغرافات المماثلة لذلك بعد الثلاثة تلغرافات المذكورة ، متضمنة القدح والذم فى حق الحضرة الخديوية، وتتهمه بأمور غير حقيقية وتتهم عساكر دولة الانجليز أيضا بما لا يقع منهم مثل القتل والفتك بالاهالى وما أشبه من هذه الأقوال ، كما هى الصورة المحررة أدناه التى تليت عليك وصار اطلاعك عليها :

صورة تلغراف بتاريخ غرة رمضان سنة ٩٩

« فى يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ٩٩ ابتدأت الانجليز بالضرب بمدافع الدوننمه على الاسكندرية واستحكاماتها والضرب تسبب عن طلبات من الأميرال الانجليزى . وبلغت الى حضرة الخديو وهو عرضها على مجلس النظار الذى عقد تحت رئاسته بحضور دولتلو درويش باشا مندوب الحضرة السلطانية وكثير من ذوات البلاد . ولما تحقق عند جميعهم ان الطلبات مضرة بالحكومة الخديوية ومخلة بشأن الدولة العلية قر رأيهم على معارضة طلب الأميرال ، ولو أدى ذلك الى الحرب ، وبناء على ذلك قرر المجلس المذكور بلزوم المدافعة ، وأن لا تطلق المدافع من جهاتنا الا بعد اطلاق ٥ مدافع من السفن الانجليزية

« وحين ابتدأت السفن بالضرب على مدينة الاسكندرية لم تقابلها الطوابى الا بعد ٢٠ طلقة حالة كونها على غير استعداد لاستمرار الأوامر بعدم الاستعداد ، فبهذه الاسباب تعتبر هذه المحاربة واجبة بوجه الحق والشرع حيث انها صادرة من الانجليز ظلما وعدوانا ، وان العساكر المصرية الشاهانية ثبتت غاية الثبات فى مراكزها وبذلت غاية جهدها مدة الحرب التى استمرت نحو عشر ساعات ونصف الى آن تخربت الاستحكامات ومدينة الاسكندرية

هدما وحرقا من مقذوفات السفن ذات المواد الالتهابية

ثم تأخر الجيش خارج المدينة فى موقع يصلح للقتـــال برا ، وفى حال القيام من المدينة دخل اليها الخديو بحرمه وحاشيته وبرفقته درويش باشا وانزل حرمه فى البحـر وأظهرانحيازه للانجليز وترتب الحرس عليه وعلى القره قولات من عساكر الانجليـز ، واتخذ المصريين والجيش الشاهانى أعداء له وأرسل رسله الى المهاجرين ينـــادونهم بالصلح ويحثونهم على العود الى المدينة وبعد أن دخل بعضهم صار الانجليز يقتلون ويبطشون بهم وبالعســـاكر المصرية الشاهانية الذين كانوا غفراء عليه ثم صـــدرت أوامره الى المديريات بحصول الصـــلح وترك جمع العســـاكر ، والتجهيزات الحربية فكان أمره كأمر باى تونس ســـواء بسواء وقد تحقق ما كنا عرضناه على الحضرة الفخيمـــة السلطانية ، فنرجو عرض ذلك على جلالة أمير المؤمنـــين نصره الله »

صورة تلغراف بتاريخ ٢ رمضان سنة ١٢٩٩

« أشكو بثى وحزنى الى الله وأرفع لسدة أمير المؤمنـــين ما حل ببلادنا من تواطؤ الخديو مع الانجليز وميل دولتلو درويش باشا كل الميل الى تعضيد الخديو حتى بعد تحقق انحيازه الى الانجليز ومرافقته له حين توجه اليهم بعد خلو مدينة الاسكندرية من العســـاكر مع انه كان الواجب على دولته ذمة وديانة أن ينصح للخديو أن يتـــوجه معه الى العاصمة مقر الحكومة ليكون خلف الجيش لا أن يتركا جيش الاسلام الشاهانى وينحازا الى جيش العدو المحارب للبلاد، فمما ذكر يتضح جليا أن العدوان الذى حصل من الانجليز ما كان الا باتحادهما معهم ، ولذلك صدر اعلان من الأميرال الانجليزى مقتضاه انّ الخديو فوض له ادارة الاســـكندرية

مؤقتا ، فنؤمل عرض ذلك على عرش الحضرة الملوكانيه أيدها الله »

صورة تلغراف تاريخه ٨ رمضان سنة ١٢٩٩

« أعرض للسدة العلية السلطانية ان الشعب المصرى الشاهانى لما رأى اتحاد توفيق باشا مع دولة الانجليز على وقوع التفريق بيننا وبين متبوعنا الأعظم مولانا أمير المؤمنين لشق عصا الاسلام معاذ الله ، وتحقق له ذلك من الحرب التى أثارتها علينا الإنجليز بغتة ، اجتمعت كلمة أهل البلاد على حفظها والدفاع عنها وتسابقوا للانتظام فى سلك الجهادية تطوعا حتى انتظم عندنا جيش عظيم جرار ، وكذلك تجمع من قبائل العربان كل شاكى السلاح ، وقد رتبنا العساكر والعربان في النقط المهمة وأصبحت قوتنا البرية عظيمة مع اعداد الذخيرة والمؤونة الكافية لهذا الجيش الشاهاني وفى كل وقت تنطق الألسنة العربية بالدعاء لأمير المؤمنين وتأييد شوكته والشعب بأجمعه واثق بأن العظمة الشاهانية تحل مشاكله التى جلبها عليه توفيق باشا . أما المدافعة عن البلاد وأهلها والحقوق السلطانية ، فهى من الواجب علينا ، وفي كل حال الأمر لمن له الأمر ، أفندم »

فهل يجوز لك الدخول فى الأمور السياسية والعرض للحضرة السلطانية بأشياء مماثلة لذلك ؟

ج ـ من المعلوم أن الانسان لا يمكنه أن يحصى جميع أعماله ولذلك قلت انى لست متذكرا ارسال تلغرافات خلاف تلغراف واحد الى المابين الهمايوني ، وبرؤية التلغرافين الآخرين وجدت انهما مرسلان من طرفى بواقعة الحال : أحدهما بوقت حضور العساكر الى كفر الدوار ، والآخر بعد تقرير المجلس العام بمصر عن لزوم توقيف الخديو

وعدم سماع ما يصدر منه من الأوامر لمناسبة انحيازه للجيش المحارب للبلاد . وما كان عرض ذلك للمابين الهمايونى الا لكون البلاد تابعة للسلطنة العثمانية وأصبح حاكمها مع الجيش المحارب لها

س - من ضمن التلغرافات الجفرية التى حررتموها للسيد قنديل مأمور ضبطية الاسكندرية تلغراف قبل المقتلة التى جرت بالاسكندرية فى يوم ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ ببضعة أيام . تقول له فيه أن يتحد مع سليمان سامى ومصطفى بك عبد الرحيم فى اجراء ما نبهتم عليه به ، فهل تتذكر هذا التلغراف ، وما هى التنبيهات التى كنت أجريت التنبيه بها على مأمور الضبطية المذكور

ج - لست متذكرا ذلك

عبد الله نديم

س - ألم يبلغك أن عبد الله نديم كان يتوجه الى الاسكندرية قبل الواقعة المذكورة ويجتمع مع الشبان ويلقى عليهم خطبا مهيجة ، حتى ان محافظ الاسكندرية أراد أن يخرجه من البلد ويمنعه من ذلك ، ولانتساب نديم ومأمور الضبطية اليكم لم يحصل منعه ولا اخراجه ؟

ج - فضلا عن عدم ابلاغى ذلك فان عبد الله نديم المقول عنه ليس منسوبا الى ولا هو تحت ادارتى ولا أنا مسئول عنه ، كما أن مأمور الضبطية بالاسكندرية كذلك

س - معلوم للعموم أن عبد الله نديم كان محرر جرنال الطائف الذى جميع عباراته منذ ظهوره مشتملة على تهييج الافكار ومحتوية على أكاذيب ، وصدور الجرنال المذكور كان فى معسكر كنج عثمان الذى كان مقيما فيه المحرر المذكور معكم فى مدة العصيان ، ولا بد أن ما حرره فى تلك الجريدة كان يجرى اطلاعك عليه يوميا ، فان كان الشخص

المذكور ليس منسوبا ومنتميا لك ، فكيف يمكنه الاقامة معك بالمعسكر والتجاسر على تحرير الجريدة المذكورة التى فضلا عما كانت تحتويه من التهييج والاكاذيب ، كما ذكر، فانها مشحونة أيضا بالطعن فى حق الذات الخديوية ودولة الانجليز الفخيمة وما يماثل ذلك ؟

ج ـ ان جرنال الطائف جار طبعه ونشره فى الحكومة من مدة زمانية ولم يصر قفله في تلك المدة • أما عن اقامة محرره بالجيش أثناء المحاربة ، فليس لى حق فى منعه ، اذ أنه لو أتى أى محرر لأى جرنال من الجرانيل المحلية أو الاجنبية ، فلا حق لى فى منعه أيضا كما جرت بذلك عادة المحاربات • وأما اطلاعى على ما هو محرر بالجرنال المذكور يوميا فان كثرة أشغالى الدفاعية تمنعنى من الاطلاع على الجرانيل ، بل كانت تمنعنى عما هو أهم من ذلك .

س ـ قبولك لهذا الشخص واقامته معك بالمعسكر يستدل منه أن ما توقع من المذكور من تهييج الأفكار ضد الأوربيين بالاسكندرية كما هو معلوم للجميع ، ونشأ عن ذلك مقتلة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ كان بتعليماتك للمذكور واتحادك معه ، ولولا ذلك ما كان ينتمى اليكم وتحميه بالاقامة بطرفك حتى يتجاسر على تحرير جريدة مماثلة لتلك ، والآن لما علم بالقبض عليك وسجنك قد اختفى عن البصر بالكلية ، وهذا أعظم دليل على انتمائه اليك

ج ـ توضح بجوابى المتقدم بشأن المذكور ما فيه الكفاية ولا مناسبة لسؤالى عن أعمال شخص بمجرد وجوده بالجيش أثناء الحرب

حسن موسى العقاد

س ـ ألم يبلغك أيضا توجه حسن موسى العقاد الى

الاسكندرية قبل واقعة ١١ يونيو سنة ١٨٨٢ واشتراكه مع نديم فى تهييج الأفكار ؟

ج ـ لم يبلغنى ذلك

س ـ أما كان يتردد عليك حسن موسى العقاد بمنزلك وبالجمعيات التى كنت تجريها ؟ وألم تتوجه الى منزله مرارا ؟

ج ـ ان حضور المذكور الى منزلى لم يكن أكثر من غيره فانى فى أغلب أوقاتى ما كنت أتخلص من ازدحام الناس الوافدين الى منزلى • ولم يكن وفودهم بدعوة منى اليهم • وانى توجهت الى منزله فى مأدبتين مع وجود كثير من الأعيان والأمراء والعلماء • وبعد تناول الطعام توجهت لاشغالى كما جرت العادة

س ـ اذا كان حسن موسى العقاد المذكور ليس منسوبا لك أيضا مثل نديم ، فلماذا اختفى هو كذلك بعد أن صار سجنك ما دام انه ليس من الجيش ولا كان موجودا فى المحاربة

ج ـ يؤخذ من هذا السؤال انى أسأل عن كل من غاب من الناس ولم يوجد ، مع انى لست بمأمور عليهم ولا مسئول عنهم

حليم باشا الصدر الأعظم

س ـ هل كان بينك وبين عثمان باشا فوزى وكيل دائرة دولتلو زينب هانم ألفة وتودد ؟

ج ـ ليس بينى وبينه معرفة ولا ألفة ولا اختلاط ، ولكن اتذكر انه حضر مرة مع من حضر من الذوات مدة اقامة الجيش بكفر الدوار ، وبسؤالى عنه قيل انه وكيل دائرة زينب هانم

س ـ ألم يحضر لك من الآستانة صورة حليم باشا وعليها خطه فى ظاهرها

ج ـ حضرت لى صورة مثل ذلك

س ـ لك بمفردك أو حضر لخلافك أيضا مثلها ؟

ج ـ حضرت لى صورة كما قلت ولا أعلم ان كان حضر لخلافي مثلها أم لا

س ـ كيف كان حضورها ومن الذى أحضرها اليك ؟

ج ـ لست متذكرا من أحضرها

س ـ ألم ترد اليك مكاتبات أو مراسلات من حليم باشا سواء كان بواسطة حسن موسى العقاد أو عثمان باشا أو خلافهما ؟

ج ـ ليس بينى وبينه مكاتبة ولا معرفة أبدا

س ـ ان كان كذلك فكيف يرسل لك صورة من طرفه؟

ج ـ جاءنى صور كثيرة من أناس لا أعرفهم أبدا ، ومن أوربيين فى بلادهم من غير سابق مكاتبة ولا معرفة معهم

س ـ ألم يبلغك ان كان جاريا تختيم عرضحال بواسطة حسن العقاد بطلب عزل الخديو وتنصيب حليم باشا ؟

ج ـ لم يبلغنى ذلك

سد قناة السويس

س ـ لما كنت بكفر الدوار هل صدر منك تلغراف الى كل من راشد باشا قومندان خط الشرق ومحمود فهمى باشا رئيس أركان حرب بردم قنـــال السويس وسد الترعة الحلوة

ج ـ التلغـــرافات التى تداولت بينى وبين المســيو دى لسبس تعلن وتؤكد احترام قنال السويس ما دام على الحياد • ولم تتخذ فيه أعمال حربية ، فلغاية دخول المراكب الحربية الانجليزية فى قنال السويس وحصـــول الضرب منها فى نفس الاسماعيلية على العساكر التى كانت بجهـة نفيشة كان احترام القنال ما زال واقعا • وبعد ذلك حينئذ

اتخذ القنال المذكور ميدانا للحـــرب ، لنا الحق فى كل ما أمكن اجراؤه من الاعمال الحربية ، واذ ذاك تحرر لرئيس أركان حرب محمود فهمي باشا بتلك الجهة باتخاذ ما يمكن اجراؤه من التدابير الحربية وسد الترعة الحلوة ، وقد صار اعلان الموسيو دىلسبس بأن الحالة الحربية أجبرتنا عـلى ذلك لعدم احترام الانجليز لحياد القنال

س ـ لم تجاوب بشيء عما أمرت به في خصـوص ردم القنال !

ج ـ قد جاوبت بما لزم ولو أمكن ردم القنـــال من أى جهة كانت لوقف حركة المراكب الحـــربية لكانت الحالة الحربية تقضى علينا بتعطيله ما دام اتخذ ميدانا للحركات الحربية ولم تراع فيه حرية الحياد

س ـ هل التلغراف المحرر صورته أدناه الذى تلى عليك وصار اطلاعك عليه عينا صدر منك لسعادة قومندان الخط الشرقى بالتل الكبير ، وهذه صورته :

« قد وصل ليدى تلغراف سعادتكم وعلم ما به من جهـة الاقرار من طرفكم ومن طرف أمراء الآلايات على حفظمواقع نقطكم الأمامية بفـــرض ان قوة العدو جسيمة الى آخر ما ذكر به ، وحيث ان ما قلتموه وقع عندى موقع القبول ، فنشكر لسعادتكم ولحضرات أمراء الآلايات عـــلى ذلك ، وهكذا مأمولى فى هممكم العالية للذب عن الدين ، والعرض والوطن ، هذا وما فعله الانجليز يبيح لنا سد الترعة الحلوة عن السويس ، واذا تهدد القنال زيادة على ذلك بأعمـــال حربية داخله أبيح لنا ردمه وسده ، لتعدى الانجليز عـلى حياده فباتخاذ سعادتكم معسعادة رئيس عموم أركان حرب التدابير اللازمة يجرى ما فيه صالحنا وبالله نستعين ونسأله النصر على أعداء الدين بحرمة النبى الأمين ، فى ٤ شوال سنة ٩٩ ، أحمد عرابى نمرة ٧٢٧ »

ج ـ نعم صدر منى هذا التلغراف
س ـ ألم يكن بينك وبين أحد من رجال الدولة العلية الآستانة تعليمات أو مراسلات خلاف التلغـــرافات التى سـ ٠ عنها قبل هذا
ج ـ لم يكن بينى وبين أحد من رجال الدولة تعليمات ولا مكاتبات خلاف التلغرافات السابق ايضاحها

مجلس ادارة البلاد

س ـ الجمعية التى كان صار عقدها بمصر عقب عزلك كان تقرر فيها ارسال وفد لأجل كشف صـــحة الحال بالاسكندرية ، وهل كان الجناب الخديو والنظار محجوزين بطرف الانجليز وليسوا أحرارا فى أفعالهم ، كما تدعون٠ فهل رجال هذا الوفد لم يرجعوا عليكم ثانيا وأخبروكم أن الجناب الخديو والنظار ليسوا محجوزين ، ولا هم تحت سلطته ، بل هم فى حريتهم ، وأعطوكم نصائح بعدم ا. ر. ء ما كنتم ترونه من العصيان وعدم استماع أوامر الخديو أو كيف ؟
ج ـ لم يحصل ذلك من أحد منهـــم ، وان الوفد الذى أرسل الى الاسكندرية كان بقصد طلب النظـــار والحضرة الخديوية الى مصر اذا كانوا أحرارا فى أعمالهم ٠ وقبـــل ذلك كنت لا أقدم على عمـــل ما من غير رأى ذلك المجلس المنعقد بمصر
س ـ أى مجلس الذى تقول عنه وما اسم هذا المجلس ومن الذى أحدثه ؟
ج ـ هو مجلس ادارة البلاد الذى صار اجتماعه بمصر للنظر فى أحوالها وصار تشكيله عقب الحرب باتفاق وكلاء الدواوين ، وهناك مجلس آخر بالجهادية المعبر عنه بالمجلس العرفى
س ـ بأمر من تشكل ؟

ج ـ باتفاق وكلاء الدواوين وبعض الباشوات الموجودين بمصر وموافقتنا على ذلك

س ـ في أجوبتك السابقة تدعي ان أهالي البــلاد توسطوا بك انت وباقي الضباط أبنـاء جنسكم في طلب تشكيل مجلس النواب لينـوب عن الأمة ومنحتكم الحضرة الخديوية والدولة العلية ذلك ، فان كان العصـيان الذي ارتكبته انت وباقي الضباط ضد الحضرة الخديوية والدولة العلية فيه أدنى موافقـة للأمة المصرية كمـا تدعون ، فلا أقل من انك تسـتشير رأى مجلس النـواب بدل الارتكان على وكلاء الدواوين ، وكم شخص من الباشوات كما أوضحت الذين أغلبهم لما سئلوا الآن أجابوا أن قبولهم الدخول في ذلك المجلس هو فقط من التهديدات التي كانت تحصل منكم وممن ارتكب جنحة العصـيان معكم من باقي الضباط ؛ فمن هنا يرى ان الأمة المصرية حاشا أن يكون لها مدخل في هذا العصيان الواقع منكم أنتم ورؤساء بعض العساكر ، وان ما تحصلتم عليه من الذخائر والاستعدادات في وقت العصيان ، كان بواسطة قوة الاسلحة التي أعطتها لكم الحكومة لحفظ أمنها وشرفهـا ، وأنتم أستعملتموها في هذا الأمر الشنيع الذي أدى الى الخراب وقتل النفـوس بدون وجه حق ، فافد عن ذلك

ج ـ ان المجلس الذي تشكل للنظر في أحوال البــلاد كان يزيد عن الأربعمائة نفس كمـا قلت أولا ، منهـم البرنسات أعضاء العائلة الخديوية وشيخ الاسلام والقاضي والمفتي ووكلاء الدواوين والمديرون وقضاة الأقاليم وأعيان التجار وكثير من أعضاء مجلس النواب وغيرهم من أعيان وعمد البلاد وبطريرك الاقباط وحاخام اليهود ، وانهـم [illegible]زوا بلزوم اناطتي بالمدافعة عن البلاد حيث كنت موجودا صحبة الجيش في كفر الدوار وجميع العساكر كانت موزعة

فى الثغور والمراكز الحربية ، وما كنت موجودا معهم فى المجلس ، فكيف يتأتى مع ذلك ان حضورهم كان بصورة تهديدية وكيف مع ذلك ينسب الينا رؤساء الجيش العصيان الذى تكرر لفظه بهذه المذاكرة ، مع انه لا توجد أمة من الأمم متصفة بالعدل والانصاف وتنسب الينا هذا العصيان المقال عنه ، اذ أن الحرب كان افتتاحها بمقتضى قرار مجلس مشكل تحت رئاسة الحضرة الخديوية واقراره مع ذلك ، بل الحق ان الحرب كانت شرعية قانونية ، ثم بعد ذلك قمنا بالمدافعة عن البلاد بمقتضى ذلك القرار الذى لا يمكن القدح فيه بوجه من الوجوه ، فالاسلحة صار استعمالها لما وجدت لأجله وهو الذب عن البلاد وحمايتها ، فكانت مدافعة شرعية على مقتضى ما تقدم ذكره

س — ألم يبلغك البيان الصادر من الحضرة السلطانية فى حقك بأنك من العصاة بسبب ما فعلته ؟

ج — لم يبلغنى ...

عريضة طلب العفو

س — بعد هزيمتك بالتل الكبير ورجوعك الى المحروسة حررت عريضة الى الحضرة الخديوية وأرسلتها مع رؤوف باشا وبطرس باشا وعلى الروبى بطلب العفو من لدن الحضرة الخديوية وانك مطيع ومنقاد لأوامرها العلية وبعد سفرهم ابتدأت ثانيا باتخاذ خطوط نار بالعباسية وطلبت مرعشلى باشا وأمرته بذلك ، هل يصح انه بعد العرض بالطاعة يحصل العصيان ؟

ج — التنبيه على مرعشلى باشا باستكشاف خط تحفظى على مصر كان قبل تحرير العريضة وتوجيه رؤوف باشا ومن معه . ولما رؤى عدم اللزوم صرف النظر وتحررت تلك العريضة

س ـ لما سئلت عن سبب حصر سراى عابدين بالعسكر في ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ أوضحت فى أجوبتك السابقة بأن بعض أصحاب القضايا تبقى قضاياهم بالمجالس نحو العشرين سنة حتى يموت أصحابها كمدا ولا تنظر قضاياهم، ولذلك أردتم تشكيل مجلس النواب لينوب فى رؤية حقوق الأمة كما هو جار بالبلاد المتمدنة • والحال من سياق التحقيقات الحاصلة الآن قد علم انه بعد واقعة ٩ سبتمبر سنة ٨١ المذكورة توجهت أنت وعلى فهمي وعبد العال وطلبه ومحمد عبيد وجانب من الضباط لمنزل قدرى باشا مذ كان ناظر الحقانية وطلبتم منه اطلاق عناني بك من السجن الذي كان متوقعا عليه بأمر المجلس المختلط ، ولما لم يوافقكم قدرى هددتموه ولم يتخلص منكم الا بتوجهه لطرف رئيس النظار وقتها وأنتم توجهتم فى أثره الى محمود سامي ناظر الجهادية وقتها وأخذتموه معكم وتوجهتم لطرف رئيس مجلس النظار لهذا الغرض ، فهل يقع ذلك من أحد يدعى انه يسعى في نيل العباد حقوقها ، ويريد التشبه بالبلاد المتمدنة

ج ـ الحقيقة غير ذلك ، بل الحق ان عنانى عمل وليمة فى الازبكية فرحا وسرورا بصدور الأمر بافتتاح مجلس النواب ؛ فبناء على ذلك جرى سجنه في الضبطية فى أيام العيد وكنا توجهنا مع من ذكروا للمعايدة على سعادة قدرى باشا كما جرت العادة في أيام الأعياد ، فذكرنا سعادته بمسأله العنانى بك وترجيناه فى اخلاء سبيله لأجل المعايدة مع أولاده وفيما بعد اذا كانت عليه قضية يحاكم بمقتضاها، فجاوبنا سعادته بأنه مسجون بالضبطية بأمر المجلس المختلط وسينظر فى أمره ، ولم يحصل تهديدات ولا يجوز أبدا إجراء تهديد لمثل هذا الفاضل ، هذا هو الحق

س ـ اطلع على أصل الجواب المحررة صورته أدناه

الواردة من سعادة قدرى باشا بأنه توقع ما ذكر بالسؤال السابق وأفد بما تقوله

صورة الجواب الوارد من سعادة قدرى باشا
المؤرخ فى ٢٩ ذى القعدة سنة ١٢٩٩

« الى سعادة رئيس القومسيون

« بناء على تذكرة سعادتكم الواردة يوم تاريخه المرغوب بها الاستفهام عما وقع من بعض ضباط العسكرية بشأن اطلاق مصطفى بك العنانى من السجن الذى كان مودعا فيه باذن المحكمة المختلطة بمصر فى مدة تقليدنا نظارة الحقانية، أفيد سعادتكم انه فى أول يوم عيد الاضحى الماضى حضر بمنزلنا وقت الظهر بعض ضباط الجهادية ، وفى مقدمتهم عرابى وطلبه وعلى فهمى ومحمد عبيد وآخرون معهم لا أعرف أسماءهم . ثم بدأ عرابى وبعده طلبة ومحمد عبيد بالكلام قائلين ان العنانى مسجون بأمر المحكمة المختلطة بغير حق ويرغبون اطلاق سراحه من السجن حتما فى هذا اليوم ، وانهم لا يتوجهون الى منازلهم هم ومن معهم من الضباط ما لم يجر اطلاقه ، وتلفظوا بألفاظ تهديدية فأفهمناهم ان سجن المذكور لا بد أن يكون بمقتضى قرار صادر من المحكمة المختلطة ، كما ان الافراج عنه لا يكون الا بموجب قرار من المحكمة المختلطة أيضا فان المحاكم المختلطة لها قوانين وقواعد يجب مراعاتها ، ولا يجوز التعرض لها بأى وجه كان .فلم يقتنعوا بذلك وأصروا على طلبهم فأعلمتهم ثانيا أن تعرضهم لهذا الأمر مخالف للنظام العمومى فلم يلقوا سمعهم الى ما أبديته لهم ، بل خرجوا قائلين انهم ذاهبون الى ناظر الجهادية محمود سامى ليتوجهوا معه الى منزل دولتلو رئيس مجلس النظار ويطلبوا منه أمرا بالافراج عن العنانى ، وبعد خروجهم بادرت بالتوجه الى

منزل دولتلو رئيس مجلس النظـــار وأعلمته بما وقع من المذكورين ، وفى الأثناء حضروا بمنزل دولتـــه مع ناظر الجهادية وخاطبوا دولته فى اخراج العنـــانى المذكور من الحبس • هذا ما تذكرته الآن مما وقع من المذكورين فى ذلك ، وللمعلومية لزم الايضاح »

ج ــ اطلعت على الجواب المذكور وعلمت ما فيه من المبالغة التى لم تقع أصلا • واذا كان هذا الفاضل تكلم بما لم يقع منا فاظن ذلك لعدم تذكر سعادته حيث قد مضى مدة سنة تقريبا ولكبر سنه أيضا • والا لو كان متذكرا للحقيقـة لما بالغ هذه المبالغة لاننا لم نذهب مع ناظر الجهـــادية الى رئيس مجلس النظار ، ولأن العنانى بك لم يسجن بحكم من المحكمة المختلطة ، بل بأمر من الحكومة كما ذكر لسبب الوليمة التى أقامها فرحا وسرورا بصدور الأمر بافتتـاح مجلس النواب • ولو كان مسجونا بحكم المحكمة المختلطة كما قيل لما أمكن اخلاء سبيله وخروجه من السجن فى ذلك اليوم (١)

رئيس الحزب الوطنى

س ــ قد تعجب قناصل الدول من ادعائكم انكم أردتم حصول الأمن والراحة اللذين تكفلتم بهما لهـم مع أنه لم يمض على ذلك سوى ١٥ يوما حتى وقعت مقتلة الاسكندرية الشنيعة التى حصلت فى ١١ يونيو سنة ٨٨٢ حالة كونك كنت ناظر الجهادية ، واتضح من التحقيقات تداخل بعض عساكر المستحفظين فيها ، كما وان عساكر الآلايات الذين كانوا بالاسكندرية لما دعوا من المحافظة للحضور لمنع تلك

---

(١) يلى ذلك أسئلة عمن هددهم عرابى وسجنهم من أعداء الثورة ، وهم أفراد قلائل • وقد أجاب عرابى عن هذا السؤال بأن سجنهم وقع بأمر مجلس ادارة البلاد

المقتلة لم يجيبوا طلب المحافظة بل تأخروا للغروب حتى تمكن الفاعلون من القتل والنهب ، وبذلك نزع من العموم الأمن الذى قلتم انكم تكفلتم به• ثم ألم تعلموا أنه بالممالك المنتظمة ووجود الحضرة الخديوية بمقر الحكومة ، لا يجوز وجود أحزاب حتى تمضوا تلك المكاتبة بصفتكم رئيس الحزب الوطنى ، فهل تصرح لكم من الحضرة الخديوية بذلك• وان كان لم يتصرح لكم فهل جعل نفسكم رئيسا لحزب داخل الحكومة لا يعد عصيانا • وان كنتم ترتكنون على عدم وجود وظيفة لكم وقت تحرير هذا الجواب أفما كان يمكن أن توضعوا في الامضاء ناظر الجهادية سابقا كالجارى فيمن يرفتون من مأمورى الحكومة

ج ـ من المعلوم بداهة أن مصر مأهولة بأجناس مختلفة وعناصر متنوعة وكل عنصر منهم يعتبر نفسه حزبا ، كما أن أهل البلاد هم حزب قائم بذاته يعتبر عند الآخرين منحطا عنهم،ويطلقون عليه لفظ فلاحين،اذلالا لهم وتحقيرا:• أولئك هم الحزب الوطنى وهم أهل البلاد حقيقة • وحيث انهم أنابونى عنهم فى طلب ما يكفل لهم الحرية وحفظ الحقوق ، وكنت أنا القائم بطلب ذلك ولم تكن لى صفة فى الحكومة فى ذلك الوقت فوضعت امضائى بذلك لما لى من حق الرئاسة على الحزب الوطنى وليكون ذلك ادعى لاجتناب ما يخل بأمر الراحة العمومية • ولا يعد ذلك عصيانا لأن كل أمة من الأمم المتمدنة الراقية فيها أحزاب مختلفة قائمون بحفظ حرية بلادهم ، والمدافعة عن حقوقهم • وأما حدوث مسألة ١١ يونيو سنة ٨٢ بالاسكندرية فتلك مسألة يقصد منها تجريح أعمالنا الوطنية فى نظر أوربا ، وأما ما كان يلزم لحسمها وتداركها فقد أوضحنا عنه بالاجوبة المتقدمة • ومع ذلك فان التنبيهات والتحذيرات لا تغنى عن القدر شيئا • وما هى الا صادرة عن أفكار تطرأ على الانسان

فيبلغهـــا احتراسا مما عسى أن يقع كما جرت بذلك عادة الانسان وما قدر لا بد واقع

نائب الأمة

س ـ قد تكرر منك القول بالافتراء بأنك نائب عن الأمة فابرز الحجج التى بيدك تثبت لك هذه النيـابة ، اذ الأمة نوابها موجودون وهم أعضاء مجلس شورى النواب المعلومون رسميا للعموم وانت لم تكن منهم

ج ـ هذا السؤال تقدم في صدر أجوبتي بهذه المذاكرة التي يتضح منها أن مجلس النواب هذا ما أنشىء الا بطلبى وما حفظ الا باهتمامي به ، والا كان نصيبه نصيب سابقه الذى أنشىء في زمن الخديوى السابق للاقرار على ضمـانة الخزينة المصرية لدين المرابين من الأوربيين الذى قدره مائة مليون وواحد من الجنيهات ثم ارفض وقبر في وقته

استفتاء لعزل الخديو

وفى ١٠ الحجة طلبنى المجلس ، وأجبت على أسـئلته الآتية :

س ـ قد وجد فى الأوراق التى ضبطت ورقة محـرر فيها صورة سؤال استفتاء من العلماء عن جواز عزل الخديو لأسباب تمويهية مخترعة فى تلك الصورة، فها هى الورقة المذكورة اطلع عليها وأفد

صورة الاستفتاء المذكور

« ما القول فى حاكم ولى من طرف سلطان المسلمين على أن يعدل فى الناس ويقضى بأحكام الله ، فنقض العهـد وأحدث الفتـن بين المسلمين وشق عصاهم ، ثم انتهى به الأمر الى أن اختار ولاية غير المؤمنين على ولاية المؤمنـين وطلب من الامم الخارجة عن الدين القويم أن ينفذوا قوتهم

في بلاد حكومته الاسلامية وأمر رعاياه أن يذلوا ويخضعوا لتلك القوة الأجنبية ، وبذل عنايته في المدافعة عنها • ولما دعاه المؤمنون للرجوع عن ذلك أبى وامتنع ، وأصر على الخروج عن طاعة السلطان والمروق من الشريعة، فهل يجوز شرعا أن يبقى هذا الحاكم حاكما حتى يمكن قوة الأجانب من السلطة فى البلاد الاسلامية ، أو يتعين فى هذه الحالة عزله واقامة بدل له يحافظ على الشرع ويدافع عنه ، أفيدوا الجواب »

ج ـ اطلعت علىالورقة المذكورة ولم تكن بخطىولا كانت بطرفى

س ـ هل لا تعلم بها كليا ؟

ج ـ لا أعلم بها كليا

س ـ هل تعرف الخط المحرر بها هو خط من ؟

ج ـ لا أعرفه خط من

س ـ هذه الورقة ضبطت ضمن الأوراق التى ضبطها عساكر الانجليز من منزلكم ووردت بالقومسيون من طرفهم مترجمة بظاهرها بالانجليزى كما صار اطلاعكم عليها ، فاذا لم يكن لكم معلومات بها فكيف توجد بمنزلكم ؟

ج ـ يمكن انها وجدت بالمنزل من ضمن الأوراق ولا يبعد أنها كانت مع أحد الناس وتركها على الترابيزة التى عليها الأوراق

س ـ فى مدة أيام سقوط وزارة محمود سامى كنتم جارين تحرير محاضر بمنزلكم بعزل الخديو وجارين احضار الأهالى والعلماء لتختيمهم عليها بالجبر عنهم ، واستحضارهم لمنزلكم كان بواسطة ضباط من الآلايات وأشخاص من مستخدمى الضابطية كما هو متضح من التحقيقات التى جرت بهذا القومسيون ، فأفيدوا عن أسباب ذلك•

ج ـ لما تقدمت اللائحة المقدمة من قنصلى دولتى الانجليز

وفرنسا وقبلها الخديو ولم تقبلها الوزارة وحضر أعضاء مجلس النواب وأشيع ذلك بين الناس ، توارد الناس أفواجا من المديريات والمحافظات ومصر واسكندرية لرفض اللائحة المذكورة ورفض من يقبلها محررين بذلك اعراضات ومحاضر • فهل كان كل هذا جبرا للناس وكنت أنا الجابر لهم ؟• الحق ان جميع المصريين أنكروها لما فيها من تداخل الأجانب فى أمور البلاد الداخلية

س ـ الى أين توارد الناس ، هل الى منزلكم أو لأى جهة أو هل كانت المحاضر التى يحررونها ترد اليكم مختومة أو تختم بمنزلكم ، وما الذى أجريتموه فى ذلك ؟

ج ـ كانت تأتى المحاضر مختومة وكان حضور الناس بها جهرة لا خفية ، وبحضور الجميع لمنزلى أو لمنزل رئيس النظار محمود باشا سامى • وكانوا يأتون بها ويقدمونها الينا اعلانا بعدم قبولهم اللائحة المذكورة • وكان ذلك بحضور كثير من أعضاء مجلس النواب وكلهم موافقون على ذلك • وكما قلنا أولا أن الأمة المصرية لم تختلف فى هذه الكارثة • وكانت تلك المحاضر باقية بطرف أربابها وبحضور دولتلو درويش باشا وتشكيل وزارة راغب باشا وصدور العفو العمومى صرف النظر عن هذا وذاك

س ـ من أقوالك يعلم انك لم تستحضر أحدا الى منزلك وأجريت تختيم تلك المحاضر ، فهل كان كذلك أم كيف ؟

ج ـ لما جاءنى المحضر المقدم من أهل القاهرة قام أناس من الموجودين من النواب والعلماء وغيرهم الذين لم يسبق ختمهم وختموا عليه فى منزلنا

س ـ هل أنتم ختمتم أيضا عليه معهم ؟

ج ـ لا •• اذ لا لزوم لختمى عليه

س ـ ما دام ان هذا المحضر صار تختيمه بمنزلك فماذا صار فيه ، وأين يوجد الآن ؟

ج ــ صار تمزيقه لصدور العفو وانتهاء المسألة بتشكيل وزارة راغب باشا

س ــ هل المحرر بذلك المحضر كان معينا فيه من يلزم تعيينه بدل الجناب الخديو ؟

ج ــ لا .. وانما كان الغرض من المحضر أن يعرض على الذات الشاهانية عن يد الوفد الذى أعلن التلغراف بحضوره ولم يكن عين به شخص معلوم ، اذ أن ذلك معلوم وواضح بالفرمان الهمايونى (١)

صديقى بلنت والمحامون

عين صديقى مستر ولفرد بلنت المستر برودلى الافوكاتو الانجليزى للمحاماة عنا ومعه المستر نابيار والمستر ايف أفوكاتية والمستر سنتليان، وهو عالم بالعربية والانجليزية استحضر من تونس برفقة المستر برودلى لهذه المهمة ، وذلك بمقتضى خطاب هذا نصه :

بسم الله العزيز القدير

« الى صاحب السعادة صديقى العزيز السيد أحمد عرابى باشا حفظه الله

« بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم الكريم أعلم جنابكم أن حامل هذه الاسطر المستر برودلى وهو من المتشرعين الماهرين ومشهود له بحب الاستقامة والانصاف وقد كان من قبل بتونس وهو يحب العرب وقد اخترته ليحضر الى مصر لكى يحامى عنكم وعن بقية الأسرى أصدقائنا الأعزاء ، وهو أول متشرع ، ويكون المستر نابيار مساعدا له ، فاجعلوا كل ثقتكم فيه واطلعوه على

(١) بعد ذلك سئل بضعة أسئلة ثانوية عن مذبحة الاسكندرية السابقة واستحكامات كفر الدوار فاجاب عنها

جميع الحجج والبراهين التى فى يدكم وسلموه نسخ جميع الرسائل التى تقوى دعواكم حتى يترجمها الى الانجليزية أو يرسلها الى لندن لنترجمها ونرسلها له لئلا يترجمهـا أناس ذوو أغراض ، فيغيروا معناها الأصلى بقصد تشويه دعواكم والحـاق الضرر بكم ، ولا حاجة الى تكرار خلوص حبى لكم ، وانى فى كل حال صديقكم الأمين

« ولا يخفى عليكم بأن جميع مصاريف الدعوى والمحامين تكون على ذمتى وذمة بعض أصدقائى من أصحاب الأفكار الحرة والمحبين للعدالة ، فلا يكون عندكم أدنى فكر من هذا الخصوص . اتكلوا على الله القوى الذى لا يهمل من يتكل عليه ، وأدام الله بقاءكم .. تحريرا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ، المحب المخلص ـ ولفرد بلنت »

وكان قد عمل قائمة اكتتاب بانجلترا بتلك المصاريف الباهظة التى صرفت فى سبيل الدفاع عنا ، دفع منهـا الجنرال غوردون ٢٠ جنيها ، ولكن أكثر المصاريف كانت من طرف صديقنا المستر ولفرد بلنت الا أن حضور المحامين المذكورين كان بعد تمام الإستنطاق ولم نسأل فى شىء بعد

وأما المستر نابيار فانه أفوكاتو انجليزى عينه صديقنا المستر ولفرد بلنت للمدافعة عنا بمقتضى خطاب من حضرته بتاريخ ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢ . وهاك نصه :

« الى صديقى العزيز السيد أحمد عرابى باشا صـانه المولى وأبقاه

« بعد السلام التام والسؤال عن خاطركم العزيز اعلموا جنابكم أن المستر نابيار حامل هذه الأسطر هو صديقى ، وهو من عائلة شريفة ومعروف من أكابر الانجليـز . وقد حضر الى مصر لكى يحصل على أدلة وبراهين للمحـاماة عنكم وعن باقى أسراء الحرب . وهو متشرع ماهر مشهود له بالباع الطويل فيمكنكم أن تثقوا به لأن حضـوره الى مصر هو بناء على طلبى كى يناضل عنكم فى الشرع وقت

المحاكمة ، وكذا عن بقية أصدقائى الذين هم الآن أسراء بأمر الله ، فلا تعتمدوا على كلام أى كان من الذين ربما ينصحونكم أن تتكلوا على رحمة المجلس العسكرى ويجتهدون بأن يقنعوكم بأن لا تتعبوا أنفسكم فى جمع الأدلة والحجج اللازمة للمحاماة عنكم ، فان الذين ينصحونكم بمثل هذه النصائح لهم أغراض شخصية لا تجهلونها ، وأما أنا فأنصحكم بأن تتجرأوا وتظهروا كل ما لديكم من البراهين والأدلة ، ولو انها لا توافق صالح غيركم ، فتكلموا كل الحق واظهروا ما عندكم من الحجج وتوكلوا على الله ، ثم انى قد فوضت لصديقى المستر نابيار أمر الاعتناء بعائلتكم المصونة ومساعدتها فى كل ما تحتاج اليه من مال وغيره على ذمتى ما دامت الاحوال على هذا المنوال ، فلا تتحاشوا من ذكر كل ما تريدون ذكره وطلب كل ما تريدونه ، فانى مستعد بكل قلبى ورغبتى لأفعله حبا بكم ولو صعب فعله وعظم قدره • هذا وحضرة السيدة « أنه » قرينتى تسلم عليكم وتسأل عن خاطركم ، محبكم المخلص

ولفرد بلنت »

تحريرا فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٨٨٢

« حاشية »

« لا يخفاكم أن جميع مصاريف الدعوى كلها تكون على ذمتى وذمة بعض أصدقائى بلندن من أصحاب الحرية والمحبين للعدل والانصاف »

وفى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أخذت خطابا من البوستة واردا من نيويورك بأمريكا تاريخه ١٥ نوفمبر سنة ١٨٨٢ وهذه ترجمته :

« الى عرابى باشا

« سيدى العزيز

« انى حظيت بكتابك الذى يخولنى شرفا عظيما ، فتشجع

يا صاحبى واعلم ان (بعد العواصف تشرق الشمس) وان مصر للمصريين ، ثم انى وقفت على أفعـــالك الوطنية من الاسكندرية الى مصر ، ورجائى قوى بأنك ستنتصر عــلى الحدثان والمحن المحدقة بك

الأكثر اعتبارا لك

جوليا كارتين »

انتهى محضر استجوابى أما محضر استجواب على باشا فهمى وسائر محاضر اســتجواب زعماء الثورة العسكريين وهم عبد العال حلمى باشا، ومحمود سامى باشا ، ومحمود فهمى باشا ، وطلبه باشا ، ففى كتاب (مصر للمصريين) وجرائد ذلك الحين



محاكمة الوزراء
والعلماء والأعيان

راغب باشا رئيس النظار (١)

كان راغب باشا رئيس الوزارة التي شـــهدت حوادث الثورة والحرب ، وقد دعى أمام لجنة التحقيق لاستجوابه ، ووجه اليه ما يأتي :

س ـ هل صدر منكم هذا التلغراف لجميـــع المديريات بتاريخ ٢٥ شعبان سنة ١٢٩٩ ؟

« صورة التلغراف »

« حيث ابتدأ الحرب بيننا وبين الانجليز فبمقتضى القانون تكون الادارة تحت الاحكام العســكرية والخيول والبغال الموجودين جميعها بالمديريات والمحافظات ترسل لديوان الجهــادية بأثمان موافقة على الجهادية ، ويسرع بالمبادرة فى ارسالهم فالأمل انه بعد اطلاعكم أيضا على أصله الموجود الآن بختمكم تفيدونا

ج ـ نعم صدر منى

س ـ هل قبل تحريره استشرتم باقى النظــار وأعطي قرار عن تحريره بهـــذه الكيفية أو صـــدر من سعادتكم خاصة ؟

ج ـ التلغراف المذكور (أنا) حررته فى طابية الديماس، ومن كانوا موجودين هناك وقتها من النظار سمعوه عندما قرأه الكاتب على ، لكننى لم أنتظر أخذ رأيهم ، وتحريره بهذه الكيفية تحت مسئوليتى لملحوظات خصوصية عندي

س ـ هل قبل تحرير التلغراف الأول والثـــاني لم تستأذنوا عن تحريرهما من الخديو ؟

---

(١) اقتصرنا على المهم من هذه المحاكمات . ومن ارادها كاملة فليرجع الى جرائد ذلك الحين أو الى كتاب (مصر للمصريين)

ج ـ فى وقت تحرير التلغراف الأول لم يمكن المقابله . ولعلمى ان الجناب الخديوى الأعظم محب للأمن والسكون كتبته عاجلا لحصول ذلك ، باعتقادي ان ذلك خدمة مشكورة، وبعد توقيف المدافع حالا عرضت للاعتاب بأنى كتبت ذلك التلغراف

س ـ فى ثانى يوم الضرب انسحبت العساكر جميعها من الاسكندرية ، فهل كان ذلك بأمر سعادتكم ؟

ج ـ لا ، فانى لم آمر بذلك

س ـ هل لا تعلمون ان كان خروج العساكر من الاسكندرية بأمر ناظر الجهادية أم لا ، حيث انه كان من ضمن النظار الذين تحت رئاسة سعادتكم ؟

ج ـ انا ما أمرت أحدا وان كان ناظر الجهادية أمر بذلك فلا أعلم

س ـ فى يوم الاربعاء ثانى يوم الضرب هل توجه الى منزلكم أحمد عرابى وان كان توجه ففى أى تاريخ ؟

ج ـ فى يوم الثلاثاء أو الأربعاء لست متذكرا توجهت مع أحمد عرابى لمنزلى وقت العصر

س ـ من أجوبة أحمد عرابى علم أن فى يوم ضرب المراكب على طوابى الاسكندرية عمل مجلس من النظار بحضور الجناب الخديوى واستقر الحال ان فى ثانى يوم الموافق ١٢ يوليو سنة ٨٢ يصير رفع البيارق البيض فى أعلى البيارق . فهل هذا حقيقى ؟

ج ـ نعم حصل ذلك وكان هذا المجلس بحضور الجناب الخديوى ودولتلو درويش باشا أيضا

س ـ قبل الضرب على طوابى الاسكندرية كان صار عقد مجلس للمداولة فيه عما يلزم اجراؤه فى طلبات الأميرال سيمور ، فما هو الرأى الذى تقرر فى ذلك ، وأين يوجد محضر جلسة هذا المجلس

ج ـ حصل عقد مجلس بحضور جملة من الذوات

المتقاعدين وغيرهم ، وبحضور دولتلو درويش باشا وحضور الحضرة الخديوية • وفى أثناء المناقشة سألت الحضرة الخديوية عن موقف الطوابى بعد ضربها من المراكب وبعدكم مدفع تجاوبها الطوابى فستقر الرأى بالأغلبية على أنه بعد ضرب ثلاثة مدافع من المراكب • أما المكاتبات التى حصلت بين الأميرال سيمور والحكومة وانعقد بسببها هذا المجلس فتوجد فى نظارة الخارجية ، ولا يوجد محضر جلسة لهذا المجلس

س ـ هل عرابى توجه الى سراى الرمل فى يوم ١٢ يوليو سنة ٨٢ ، وان كان توجه ، ففى أى وقت توجه وفى أى وقت عاد

ج ـ أظنه توجه قبل الظهر

س ـ هل تتذكر ان أحمد عرابى ركب معكم فى العربة فى يوم ١١ و١٢ يوليو سنة ٨٢ وتوجهتم معا الى منزلكم ؟

ج ـ أتذكر انى ركبت معه وتوجهت لمنزلى لكن لست متذكر اليوم

س ـ هل كان ذلك قبل غداء الظهر أو بعده

ج ـ كان ذلك قبل الغروب الشمسى حتى انه توضأ وصلى العصر وكان هناك أناس آخرون منهم سعادة الزبير باشا

س ـ حيث ان العرابى كان قبل الظهر توجه الى الرمل وقبل غروب الشمس توجه لمنزلكم فالمسافة التى بين وجوده بالرمل ووجوده بمنزلكم قضاها فى أى جهة ؟

ج ـ لست متذكرا ، ويمكن أنه قضاها بالرملة

س ـ تعلمون ان الاسكندرية حصل نهبها وحرقها فى ثانى يوم ضرب المدافع ، فما الذى بلغكم عمن عمل ذلك ؟

ج ـ النهب والحرق حصلا وبلغنا ، لكن لا نعلم ممن ، لأن بعض الناس يقول انهم عساكر والبعض يقول عربان والبعض يقول أهالى

س ـ ألم تعلم أو تسمع من الذى أمر باجـــراء النهب والحرق ؟
ج ـ لا أعلم ولا سمعت
س ـ المعلوم ان أحمد عرابى وطلبه وغيرهم كانوا دائما يتهورون فى الكلام ويقولون انهم اذا غلبوا يحرقون البلد ولا يتركونها للانكليز • فما الذى تعلمه ؟
ج ـ لا أعلم ذلك ولا سمعته من أحد • وانى لما نظرت بما جرى من الحريق بالاسكندرية كنت أخشى دائما أن يحصل مثل ذلك بمصر ، وكنت أقول للحضرة الخديوية أن يعمل الطرق اللازمة لحماية مصر من مثل ذلك ؟
س ـ ممن كنت تخشى أن يفعل مثل ذلك بمصر ؟
ج ـ كنت أخشى حصول ذلك غالبا من الجهادية
س ـ ألم تر سليمان سامى متوجها الى سراى الرمل فى مساء يوم الثلاثاء ١١ يوليو سنة ٨٢
ج ـ أنا لا أعرف المذكور مطلقا
رحم الله راغب باشا فقد أدى الشـــهادة بلا زيادة ولا نقصان ، ولم تأخذه فى الحق لومة لائم

سليمان باشا أباظه الوزير

فى يوم الثلاثاء ١٠ محرم سنة ١٣٠٠ استحضر سليمان باشا أباظه وسئل ، فأجاب كما يأتى :
س ـ حيث انكم كنتم فى الاسكندرية مع باقى النظار ، فهل كنت معهم فى طابية الديماس مذ كان فيها أحمد عرابى وبعض النظار ؟
ج ـ لم أكن هناك
س ـ لما حصلت المذاكرة فى مسألة الطوابى التى طلب تسليمها الأميرال الانكليزى قيل بعض كلام من أحمـــد عرابى بخصوص عدم تسليم البلاد وتخريبها وحرقهـــا فهل سمعت شيئا من هذا القبيل ؟

ج ــ سمعت أحمد عرابى يقول مزارا عديدة عند حصول المذاكرة المحكى عنها وخلافها انه لا يسلم البلاد أبدا ، بل يحارب الى آخر درجة حتى لا يبقي أحد من الاهالى

س ــ هل حصل اقرار منكم ، أعني النظار بخروج العساكر ، أم خرج معهم أحمد عرابي من تلقاء نفسيه

ج ــ أحمد عرابى أخذ العساكر وخرج من تلقاء نفسه خلافا للقرار الذى صدر من المجلس الذى انعقد بحضور الخديو ودرويش باشا فانه كان تقرر فيه بقاء العساكر بالاسكندرية

س ــ ألم تر الحريق ؟

ج ــ لم أره ، انما توجهت لباب شرقى للتكلم مع أحمد عرابى بشأن الكوردون فبلغنا حصول الحريق وبلغنا ان سليمان سامى هو الذى أجرى ذلك ورأيت الناس أهالي وعساكر فى الطريق عند حضورى من الرمل ومعهم منهوبات

س ــ ألم تتكلم مع أحمد عرابى فى شأن منع ذلك ؟

ج ــ لم نتكلم معه فى هذا الشأن ، بل تكلمنا فى شأن ما توجهنا من أجله ، أعنى مسألة رفع الكوردون

رحم الله سليمان باشا أباظه فانه كان بالرمل يوم ١٢ يوليو ونحن معه حتى الساعة العاشرة بالوقت العربي، ولم يعلم بالحيلة التى تدبرت من رجال الاستبداد ونحن بالرمل اذ علم من التحقيق ان رجال المحافظة السوارى انتشروا فى المدينة ينادون باسمي ان اخرجوا من الاسكندرية حيث ان المراكب ستضرب على البلد بعد ساعة ونصف • ولم يعلم أن العساكر أوعز اليهم بترك مراكزهم وخروجهم من المدينة رأسا بالرمل ، وكان فرارهم من قبل الظهر الي ما بعد اليوم الثاني • وما كان خروجى من المدينة الا بقصد جمع العساكر والعودة اليها ثانيا • ولكن انحياز الخديو ومن معه الى الانكليز حال دون ذلك ليقضى الله أمرا كان مفعولا

حسن باشا الشريعى

فى يوم الثلاثاء ١٠ محرم سنة ١٣٠٠ استحضر حسن باشا الشريعى من السجن وسئل فأجاب كما يأتى :

س ـ حيث انك كنت من ضمن الوزارة التى تشكلت تحت رئاسة راغب باشا وعلم القومسيون انك كنت فى طابية الديماس فى يوم الضرب على الطوابى مع بعض الذوات والنظار وحضر فى وقت وجودك عسكرى من البوليس وأخبر أحمد عرابى أن أحد الأهالى قتل رجلا اجنبيا ، فهل سمعت ما قاله هذا العسكرى وما أجابه به احمد عرابى

ج ـ نعم فى اثناء وجودى في طابية الديماس بينماكنت جالسا مع بعض اقرانى بعيدا قليلا عن أحمد عرابى ، اذ حضر عسكرى ملطخة يده بالدم وتكلم مع أحمد عرابى ولم اسمع ما قاله لاحمد عرابى المذكور ولا ما أجابه به لبعدى عنه

س ـ لما حصلت المذاكرة فى مسالة الطوابى وقبل حصولها الم تسمع أحمد عرابى يقول انه لا يسلم البلد وانه اذا وجد أن فى العزم النزول اليها أحرق البلد ودمرها

ج ـ لم أسمع ذكر حرق البلد أو تدميرها ، انما سمعت كثيرا أحمد عرابى يقول انه لابد من المحاربة حتى نفنى

س ـ هل رأيت خروج العساكر ومعهم منهوبات ؟

ج ـ نعم رأيت عساكر وعربانا وأهالى مزدحمين فى الطرق من محطة سيدى جابر الى باب شرقى ومعهم منهوبات من ابسطة وكراسى واقمشة وغير ذلك

س ـ هل بلغك حصول الحريق ؟

ج ـ نعم

س ـ الم تعلم من أجراه ؟

ج ـ لم أعلم

س ـ قيل عنك انك كنت متشيعا لزمرة العصاة وكنت تجتمع عليهم كثيرا في منازلهم ، فهل هذا حقيقي ؟

ج ـ لم أكن من زمرة العصاة ، بل لم أجتمع عليهم الا منذ عينني الجنـــاب الخديو في الوزارة التي كانت تحت رئاسة محمود سامي وكان من ضمنها أحمد عرابي . أمـا قبل ذلك فما كنت أعرف المذكورين الا كباقي الناس ولم أزل لغاية الآن محافظا على شرفي وعلى الواجبات المفروضة على للحكومة

س ـ ان الوزارة المذكورة قر رأيها يوم حصول مسألة الجراكسة على طلب النواب ، وفي الواقع صار طلبهـــم بكيفية غير قانونية . فهل كنت موافقا على ذلك أم لا ؟

ج ـ اني لم أوافق على ذلك لا أنا ولا ناظر المالية ، أعني سعادة عبد الله باشا فكري وسعادة على باشا صادق وقلنا انه يلزم اصدار دكريتو من الحضرة الخديوية ، فقـــر رأي الأغلبية على طلبهم بالكيفية التي طلبوا بها ، كما يعلم من محضر الجلسة التي حصلت فيها المذاكرة في هذه المادة

س ـ علم من جوابك المتقدم انك لم توافق على طلب النواب وجمعهم بصفة غير قانونية وان الاغلبية قر رأيها مع ذلك على طلبهم ، فلماذا لم تستعف من الوزارة لما رأيت من سيرها المخالف ؟

ج ـ ما كان يلزمني الاستعفاء على ان الأغلبية قر رأيها على أمر ما خـلافا لرأيي ، بل الذي يجب على كالجاري عادة بالمجالس هو ابداء رأيي ، وفي الواقع أشرت بما رأيته

س ـ في أثناء وجود وزارة محمـود سامي قدمت دولة انجلترا وحكومة فرنسا (نوته) بطلب ابعاد بعض رؤساء الجهادية ، ومع قبولها لدى الجناب الخديو رفضتها الوزارة المذكورة حتى استعفت وتمحلت أسبابا وهمية ، فهل كنت من ضمن الموقعين على ذلك

ج ـ اني استعفيت مع باقي النظار لهذا السبب المبين

بالاستعفاء ، ولو كان لى رأى مخالف للباقى ما كان يجدى ذلك نفعا ، اذ أن الاغلبية كانت تتحقق مع الباقى

س ـ هل تحولت نقود من نظارة الاوقاف حين كنت بها لنظارة الجهادية

ج ـ لم تتحول نقود للجهادية من النظارة المذكورة حين كنت بها

عبد الله باشا فكرى

فى يوم السبت ٢١ المحرم سنة ١٣٠٠ طلب عبدالله باشا فكرى للتحقيق معه أمام اللجنة وهو ممن انضم الى الخديو مع من انضم من الخائنين • وقد سئل عدة أسئلة فأجاب عنها بما يلى :

س ـ ما ذا كانت وظيفتك أخيرا ؟

ج ـ كنت ناظر المعارف العمومية

س ـ قيل عنك انك كنت من ضمن زمرة العصاة ، وكنت تجتمع كثيرا بهم فى منازلهم ؟

ج ـ اعرض للجنة مسألتى ، فأقول أنه من المعلوم قديما انى محسوب الجناب الخديو وكنت دائما أخشى على نفسى من تلك الزمرة ، ومع ذلك لما انعقد مجلس النظار الذين كنت من ضمنهم ، وقر رأيه على طلب النواب عارضت فى ذلك ، وقلت ان طلبهم مخالف للقانون ، وان من رأيى أن لا يصير جمعهم الا بارادة سنية خديوية ، وطلبت ذكر معارضتى فى المحضر • وأظن انها أدرجت • ولكن قر رأى الاغلبية على طلبهم ، فطلبوا وعند حضورهم أخبرهم الخديو بأن جمعهم بالكيفية التى جمعوا بها مخالف ، فكان رأى الخديو موافقا لرأيى ، ولذلك زاد خوفى • أما توجهى لطرفهم ، فكان كباقى الناس لاجل الوقوف على حقيقة ما يقع وانتهاز فرصة لابداء نصائح • ومما يؤيد ذلك أنه فى يوم انعقاد الجمعية بالداخلية خطب كثيرون ، ولم أفه بكلمة • وفى ليلة حضر على باشا

مبارك رافقته من منزله الى قصر النيل وألححت عليه بأن ينصح لعرابى ويعرض للجناب الخديو وجوب حل هذه المسألة بالسلم ، وقد توقفت عن ختم قرار تلك الجمعية ، وتعللت بفقد ختمي ، وألزمت بعد تكرار الطلب بوضع امضائى عليه • وفى الجمعية الثانية لم أتوجه ولم أحضر انما تكرر طلبى بعد ذلك للختم على القرار • فألزمت بالتوجه والختم وبلغنى انى اتهمت بعدم الحضور ـ وكذلك فى مدة العصيان لم أتوجه لديوان الجهادية الا دفعة أو دفعتين لتقديم الرجاء فى شأن ابراهيم باشا أدهم • ولو كنت متحدا معهم لداومت على الذهاب ـ هذا فضلا عن انى لم أدفع اعانة حربية

س ـ هل أنت متحقق من أن معارضتك فى طلب النواب ذكرت بمحضر الجلسة ؟

ج ـ انى متذكر جيدا حصول المعارضة منى فى ذلك ومتذكر أيضا انى طلبت ادراج المعارضة فى محضر الجلسة • ولكنى لم أكن متحققا ادراجها أو عدمه • ولكن عند تلاوة المحضر سمعت ذكرها

س ـ من الذى كان معارضا معك من النظار فى ذلك ؟

ج ـ لم أكن متذكرا لهم كما يجب • انما يغلب على ظنى انه وافقنى على ذلك سعادة مصطفى باشا فهمى وسعادة على باشا صادق

س ـ من نشر بعدد (٥٦) من جريدة المفيد عبارة معنونة (الوازع والامة) وقيل أن هذه العبارة من قلمك فهل هذا حقيقى أم لا ؟

ج ـ انى لم أكتب عبارات مطلقا بالجرائد فى مدة العصيان ، ولم أطلع على العبارة المحكى عنها لا قبل طبعها ولا بعده

س ـ قلت أولا أنك عارضت فى طلب النواب وجمعهم بكيفية مخالفة للقوانين ، وان الاغلبية قر رأيها مع ذلك على

جمعهم • فكان يجب عليك الاستعفاء لما رأيته من باقى النظار من مخالفة قوانين الحضرة الخديوية

ج ـ ما كان يمكننى الاستعفاء فانه كان يؤكد الاشتباه فى • •

س ـ لما قدمت دولة الانكليز وحكومة فرنسا (نوته) بطلب ابعاد بعض رؤساء الجهادية قبلها الجنـــاب الخديو • فلماذا لم تقبلوها أنتم أيضا وأصررتم على رفضها حتى أنكم استعفيت بسببها

ج ـ انى من قبل مسألة (النوته) أشرت مرارا بالاستعفاء لما رأيته من الخلاف الواقع ولما تقدمت (النوته) المذكورة ورأيت أنه مطلوب من ضمنها استعفاء الوزارة فلم أعارض فيها للتمكن من الاستعفاء والحصول على ما كنت أرغبه والذى أتذكره هو أنه فى ذاك الوقت توجه محمود باشا ســـامى لطرف الحضرة الخديوية وبعودته أخبرنا أنه تكلم مع جنابه الرفيع فى مسألة (النوته) فصدر له النطق الشريف بتحرير رد عليها • وتحرر فى الواقع ثم حضر فيما بعد محمود باشا وأخبرنا أن الخديو قبل (النوته) ولا يسعنا اذا الآن سوى الاستعفاء وبناء على ذلك استعفينا

عبد الرحمن بك رشدى

وفى ٢٨ المحرم قررت اللجنة (المحكمة الابتدائية) طلب عبد الرحمن بك رشدى ناظر المالية فى وزارة راغب باشا فحضر وقد سئل ، وأجاب بما يلى :

س ـ حيث أن ســـعادتكم كنتم من ضمن الوزارة التى تألفت تحت رئاسة راغب باشا ، وكان فيها أحمد عرابى ناظر جهادية ، وكنتم فى الاسكندرية فى وقت حصـــول الحوادث الاخيرة • وعلم من التحقيق أنكم مررتم من المنشية فى يوم ١٢ يوليو • ولابد أن يكون لكم علم بما وقع فى يوم

١٢ المذكور فبينوا للمحكمة ما رأيتموه فيوقت مروركم من المنشية ؟

ج ـ فى ١٢ يوليو نحو الساعة الثانية بعد الظهر بعثنا الخديو مع تجران بك وكيل الخارجية وطلبة باشا قومندان الثغر الى الترسانة لاجل المكالمة مع الضابط المعين من الاميرال سيمور بخصوص ما طلبه الاميرال من نزول عساكر فى جهة المكس والداخلية وباب العرب، فركبنا من الرمل أنا وتجران بك فى عربة وطلبة باشا فى عربة أخرى . ولما وصلنا لشارع شريف باشا وجدناه مزدحما بالعساكر وقليل من البرابرة وغيرهم. وكان العساكر المذكورين آخذين فى كسر أبواب الدكاكين بواسطة الاحجار وقطع حديد ، ويدخلون اليها وينهبون ما فيها . ورأينا هؤلاء العساكر والاهالى يأخذون ما ينهبونه ويتوجهون لجهة باب شرقى، ثم لما وصلنا الى ما يبعد عن المنشية بمسافة أربعين مترا اندهشنا وخشينا على أنفسنا خصوصا وان العربة التى كنت فيها مع تجران متقدمة وعربة طلبة باشا متأخرة . فأوقفنا العربة لانتظار الباشا المذكور والسير معه وزيادة على ذلك نزلت من العربة التى كنت فيها وركبت مع طلبة باشا .. وقال تجران بك أنه لا يمكنه البقاء بعربته بمفرده فاما يعطى اليه ضابط لمرافقته والمحافظة على حياته من هؤلاء العساكر الآخذين فى النهب واما يركب معنا . ولما لم يتيسر وجود ضابط معه دعوناه للركوب معنا وفى الواقع ركب معنا أمامنا فقلت لطلبة باشا « أبهذه الصفة تبرز العساكر الشجاعة وهل تليق هذه الافعال المخلة بشرف العسكرية ؟ » فلم يجبنى بشىء ما ، انما رفع أكتافه ويديه اشارة الى (أنا مالى) ، ولما وصلنا الى المنشية وجدنا عساكر الالايات مصطفين بغير انتظام على الارصفة من الابتداء الى الانتهاء ولما اقربنا لنصف المنشية كان حكمدار الالاى هناك فسألت طلبة باشا عن اسمه فقال انه يسمى سليمان بك داود

س ـ لما سألتم من طلبة باشا عن اسم الحكمدار فأجابكم أنه يسمى سليمان بك داود ألم ينبه عليه بشيء مثل الكف عما كان يفعله أو غير ذلك ؟

ج ـ لم يأمره هو ولا غيره بشيء • وكنا مستعجلين بالنظر الى الميعاد الذى صدر من الضابط المعين من الاميرال أعنى بعد انقضاء الساعة ٣ لا ينتظر فاستغربت أنا وتجران بك حصول هذا الهيجان والكسر والنهب على مرأى من الضباط وحكمدار الالاى وعدم منعه واستغربنا أيضا ازدحام العساكر المذكورين الواردين من جهة البحر ورأس التين بغير انتظام، ولم يوقفوا حركة السير الا لاشتراكهم في كسر الدكاكين ونهبها • وعند وصولنا الى ديوان المحافظة والشارع بهذه الحالة من الازدحام برز منها ضابط لم أدر ان كان من مستخدمى المحافظة أو غيرها وقال لطلبة باشا ان العساكر عازمون على نهب خزينة المحافظة ، فما كان من طلبة باشا سوى تكرار رفع أكتافه ويديه ولم يجاوب بشيء • فاستمررنا فى طريقنا حتى وصلنا الى الترسانة ووجدنا هناك محمد كامل باشا وكيل البحرية وبعض ضباط بحرية لا أعرف أسماءهم فى حالة اندهاش والعساكر البحرية خارجين من المراكب ومارين من جهة البلد وعند دخولنا من باب الترسانة رأينا نحو أربعين شخصا بملابس رثة وبعضهم مكشوف الرأس يركضون. ويزعقون بهيئة تقشعر لها الابدان ، فقلت أنا وتجزان بك : «لابد أن يكونوا هؤلاء من مسجونى الليمان فكيف انطلقوا » • وقلت لوكيل البحرية « حتى مجرمين من الليمان أطلقوهم على البلد أما كفى ما جرى فيها من العساكر» قال : « ماذا نعمل فى هؤلاء المجرمين فقد كسروا أغلالهم وعبروا البحر الى البر وها أنتم ترون البحرية هاربين بسبب ما سمعوا من أن الانجليز سيعيدون الضرب على البلد ورأينا الذين ينهبون يركضون فى الطريق أفواجا أفواجا • هذا ما شهدناه وكان معى تجران بك فقط فى العودة • وأما

طلبة باشـا فحضر خلفنا فى عربة أخـرى • ولما توجهنا للاعتاب السنية عرضنا للحضرة الخديوية ما رأيناه

س ـ هل رأيت حرق اسكندرية أو سمعت شيئابشأنه

ج ـ فى يوم ١٢ يوليو وقت الغروب أخبرني راغب باشا بأن العساكر أخذوا بأمر أحمد عرابى الخزنة التى فيها نقود مصلحة البوستة المصرية وحيث أن فيها مبلغ ١٧ ألف جنيه فتوجه وأخذها وأرسلها الى نظارة المالية (هذا حديث مفترى) وبناء على ذلك ركبت عربتي وتوجهت ولما وصلت بالقرب من باب شرقي أوقفني الخفير عنـد القنطرة ، وسألني عما أرغبه ، فقلت له انى أريد مقابلة أحمد عرابى ، وفى الحال حضر ضابط وكرر الاستفهام منى عما أريد • ولما علم انى أريد مقابلة أحمد عرابى قال لى ان أحمد عرابى توجه لحجر النواتية ولا يلزم دخولك الى البلد ، فانها أمست خاليـة واشـتعلت فيها النيران حتى اقتربت من محطة السـكة الحديدية

(وهذا كذب صريح كسابقه فان فى وقت الغروب لم يكن هناك خفير ولا ضابط)

س ـ ألم تسأل من الضابط عن أسباب الحرق ومن أجراه

ج ـ لم أسأل فانى كنت متحققا مما سمعته من أحمد عرابى ومن طلبة من قبل ومما شاهدته من أحوالهما ومما نظرته من النهب عند مرورى من المنشية فى وقت العصر أن الحرق فى وقت الغروب لم يكن الا نتيجة لافعالهم

س ـ يعلم اذا أن الآمر بالحرق على حسب ما ترونه هو أحمد عرابى وطلبة باشا

ج ـ أقـول ان الآمر بالحرق هو الذى أذن بالنهب ولم يمنعه

ملاحظة :

عبد الرحمن بك رشـدى رجل مالطى الأصل تظاهر

بالاسلام لاجل خـــدمة الحكومة على حسب العوائد القديمة. في مدة محمد على وعباس الاول وجميع أقواله كاذبة لانى لم أره الا مرة واحدة في مجلس النظار ، ولم أتكلم معه أصلا لقصر المدة ومفاجأتنا بالحرب

اليمين الوطنية

في يوم الثلاثاء ٢٧ القعدة سنة ٢٩٩ طلب على باشـــا الروبى من السجن وسئل فأجاب بما يأتى :

س ـ في أثناء نظارة محمود سامى اجتمع في احـــدى الليالى الضباط من رتبة بكباشي بقشـــلاق عابدين وحضر الشيخ محمد عبده وأتيتم بمصحف ووضعتم عليه أيديكم وحلفتم عليه يمينا بتلقين الشيخ محمد عبده ، وكنت من ضمن من حلفوا ، فقل لنا كيف حصل ذلك ؟

ج ـ في تلك الليلة كانت عزومة بطرف شخص يسمى حسن بك جاد ، وقال لنا أحمد عرابى قوموا بنا لقشلاق عابدين . فتوجهنا ووجدنا هناك محمود سـامى في غرفة على باشا فهمى

س ـ هل كان محمود باشا سامى في ذلك الوقت رئيس مجلس النظار ؟

ج ـ لم أتذكر اذا كان في ذلك الوقت رئيس النظار أو استعفى

س ـ ماذا جرى بعد وصولكم الى قشلاق عابدين ؟

ج ـ وجدنا محمود باشا سامى والشيخ محمد عبده . وقالا أنه في هذا اليوم دخلت مراكب الانكليز الى الاسكندرية للحرب ، والمقصود من جمعيتنا حلف يمين بأنه اذا حصل حرب نكون جميعا يدا واحدة في الحرب . وأحضروا ورقة واستمر الشيخ محمد عبده يقول كلاما طويلا ونحن نتبعه فيما يقول . وكان مضمون اليمين انه اذا حصل ضرب من المراكب نكون يدا واحدة وندافع عن وطننا

س ــ ألم يقل انه لا يصير سماع أمر الا باتفاق الجميع ؟
ج ــ لم أتذكر ذلك
س ــ هل قيل ان من يخالف اليمين يعاقب بشيء
ج ــ قيل ان من يخالف يطلع من دينـــه وكلام كثير غير ذلك مثل انه لا يكون فيه حمية ولا غيرة الخ
س ــ هل كنت فى الاسكندرية يوم الضرب عليها
ج ــ لم أوجد فيها فى ذلك اليوم
س ــ قبل الحاقك بحيش العصاة كنت بأى جهة
ج ــ كنت وكيل ديوان السودان
س ــ من التحقيقات علم للقومسيون انه فى أثناء وجودك بمجلس المنصورة كنت تحضر لمصر وتجتمع مع الضباط فى أوائل حصول التهوّر والعصيان من زمرة العسكرية
ج ــ حاشا لم أجتمع معهم قط مدتها
س ــ لما كنت بمجلس مصر كنت تجتمع معهم أيضا
ج ــ لا · وانما فى بعض الاوقات ربما كان يتصـــادف اجتماعى مع واحد منهم فى محل يتصادف دخولى فيه
س ــ من الذى كنت تتصادف معه ؟
ج ــ طلبة وغيره
س ــ ألم تجتمع مع عرابى ؟
ج ــ لم أقابله الا لما تعين ناظرا للجهادية وتوجهت لابارك له وبعدها ــ بسبب وجودى فى توكيل ديوان السودان ــ كنت أتقابل معه كثيرا هو ومحمود ســـامى وأعرض لهما أشغالا تخص المصلحة لمناسبة غياب سعادة عبد القادر باشا ناظر الديوان
س ــ فى أى وقت أخذت رتبة اللواء ؟
ج ــ ليلة سفر عبد القادر باشا الموافق ١٣ مارس سنة ١٨٨٢ طلب لى رتبة اللواء من الحضرة الخـــديوية فأحسن بها على
س ــ من الذى انتخبك لتوكيل السودان ؟

ج ـ الذى انتخبنى لتوكيل السودان هو سعادة عبد القادر باشا

س ـ أنت تعينت قومندان فرقة مريوط فكان بأمر من؟

ج ـ صدر عن ذلك أمر من عرابى تلغرافيا لوكيل الجهادية ولى رسميا مكاتبة • ويوجد الآن ما صدر بديوان السودان

س ـ ما دام سوابق استخدامك التي أوضحتها كانت بمصالح ملكية فكيف تستخدم بالجهادية بعد ذلك

ج ـ ان أصلى ضابط جهادى سوارى وترقيت بالعسكرية فنلت رتبة ميرالاى مذ كنت فى حرب الحبشة

س ـ تعلم أن عرابى كان معزولا بأمر من الحضرة الخديوية فكيف تطيع أوامره وتتوجه لمريوط ؟

ج ـ بناء على القرار الذى عمل بالداخلية ونشر عموما

س ـ هل تعلم أن هناك أمرا أعلى من أمر الخديوى ؟

ج ـ ان الجناب الخديوى كان محجورا عليه بطرف الانكليز حسب التبليغات التى أعلنها لنا عرابى وبنى عليها صدور هذا القرار

س ـ الامر الذى صدر من الجناب الخديو بعزل عرابى ذكر فيه أن لا يكون هناك حرب وان الصلح تام وان الضرب الذى حصل على الطوابى من مراكب الانكليز كان بناء على التهديدات التى حصلت للدونانمة فلماذا لم تتبعه ؟

ج ـ أنا أحد الناس الذين ختموا على القرار

س ـ هل ختمت على القرار باعتقادك صحة ما تقرر فيه وانه فى محله أو أجبرك أحد على ذلك

ج ـ فى يوم الجمعة المذكور عرض علينا صورة مطبوعة وقيل انها صورة الامر الصادر بعزل عرابى• وكانت بدون ختم من الجناب الخديو ومعها جواب من عرابى بانحياز الحضرة الخديوية للانكليز ولذلك ختمت على القرار برضائى بدون اكراه

س ـ من التحقيقات متضح انك أنت فى ذلك اليوم

هددت الاشخاص الذين صار جمعهم بالداخليـة وتشبثت بحملهم على التختيم بأنك قلت لهم : « يا نصـارى يا يهود يا دروز اختاروا لكم ميتة اذا لم تدافعوا عن وطنكم »

ج ـ لما تلا الشيخ محمد عبده الاوراق التي كانت عقدت بسببها الجمعية كما ذكر ـ وجميع المجتمعين قرروا توقيف الامرالصادر بعزل عرابىواستمرار المدافعة والتجهيزات ـ فقمت أنا وقلت للحاضرين : الآن تحقق لنا أن مسألةحزب عرابى وحزب خديوى كانت دسائس فقط • والمقصود هو ايقاع فشل لاجل استيلاء الانكليز علىالبلاد والحال من هذه الافادات اتضح أنالخديو ليس له حزبمخصوص ولا عرابى أيضا • وان الانكليز من مدة يريدون الاستيلاء على مصر

أما قولى يا يهود يا نصارى كما نسب لى من بعض الذين يريدون تخليص أنفسهم من ورطة الختم ، فهذا لم يحصـل منى أبدا ولا يعقل حصـوله ، لان المحفل كان مؤلفا من برنسـات وعلماء وبطارقة وحاخامات وأغلب ذوات البلد المعتبرين وكافة المديرين والاعيـان ، فكيف اخاطب هؤلاء بهذه الالفاظ

س ـ ولم تقل للجمعية اختاروا لكم ميتة ؟

ج ـ لم أقل هذه الاقوال • ولا يعقل انى أتوهمها فضلا عن قولها

س ـ اذا حضر أشـخاص ممن كانوا موجودين يومها وختموا معكم وشهدوا بانكم هددتموهم بقولكم يا نصـارى يا يهود يا دروز اختاروا لكم ميتة فماذا تقول ؟

ج ـ اذا حضر العلماء والبطـارقة والحاخامات الخاتمون وبعد تحليف كل منهم يمينا على قاعدة دينـه يشهد بانى قلت هذه الالفاظ فأكون مدانا

س ـ هل تعلم أنه فى أثنـاء وجود الحضرة الخـديوية بالاسكندرية كان يتوجه اليها بعض ضباط ممن كانوا مع جيش العصاة ويقيمون هناك أم لا

ج ـ أنا كنت فى مريوط ولا أعلم ذلك

س ـ ألم يكن توجهك لمريوط ووجودك فى الاستعداد للمحاربة مع الجيش مضادا للحضرة الخديوية الفخيمة ؟

ج ـ قد اتبعت القرار الذى صدر بالداخلية · ومع ذلك فانى كنت خائفا من مجلس العسكرية الذى كان أصدر قرارا بعد يوم الحرب بقليل بأن الادارة صارت عرفية·ومن يخالف ما يصدر من ديوان الجهادية فيعامل بالقانون العسكرى

س ـ فى مدة وجودك فى مريوط الى من كنت تميل بضميرك : للحضرة الخديوية أم لعرابى ؟

ج ـ أنا لا أميل لعرابى لانه شخص مثلى

س ـ اذا كان كذلك ، فكان معك جملة عربان وعساكر وكان يمكنك التوجه الى الاسكندرية بسهولة

ج ـ لو كنت علمت وقتها الحقيقة وانه ممكن ذلك وتيسر دخولى للاسكندرية بدون أذى من عساكر الانكليز كنت توجهت

س ـ علم من التحقيق انك كنت تعلم الحقيقة ولذلك فانك تشكيت فى حق ضباط أركان حرب وترتب على ذلك سجنهم بالطونجانة

ج ـ لم يحصل ذلك ولم أشتك على أحد سوى شخص يوزباشى يسمى مصطفى رمزى من أركان حرب·كان يتغيب كثيرا ولما سألته عن السبب مرارا لم يقل · وأخيرا صرح لى بأنه جاسوس من طرف عرابى يستخبر له عن أحوال الانكليز وان غيابه بسبب ما ذكره وبعد ذلك أمرته بتخطيط طابية، فتوجه وخططها فى محل منحط فحررت فى حقه جوابا بالكيفية ، وانه من ذلك يعلم أنه جاسوس على عرابى لا من طرفه

س ـ جاسوس على عرابى من طرف من ؟

ج ـ من طرف الانكليز الذين كانوا يحاربون

س ـ أنت تعينت بعد ذلك للتل الكبير فكان ذلك بأمر من وفى أى وظيفة

ـ ورد لى تلغراف من يعقوب باشا سامي وكيل الجهادية يقول ر فيـه بما انك تعينت قومندانا بخط الشرق ، فقم وتوجه الى هناك وبناء عليه قمت وتوجهت الى التل الكبير ، وتقابلت هناك مع عرابى فوجدته مستحضرا على أمر لى بهذا المضمون ، فبت عنده ليلة وصولى ، وفى الصباح مررت على الخط

س ـ مكثت هناك كم يوم قبل واقعة التل الـكبير التى انهزم فيها جيش العصاة

ج ـ أقمت يوما واحدا وفى فجر اليوم الثـانى انهزم الجيش • وصرت أعطى نصائح بعدم الحرب وعدم انشـاء خطوط بجهات مثل بلبيس أو غيرها

س ـ قلت قبل هذا انك ما كنت تجتمع مع رؤسـاء العساكر مدة وجودك في مجلس مصر والمنصورة وفى توكيل السودان وانما بعد الحاقك في توكيل السودان كنت تجتمع معهم حسب واجبات وظيفتك لداعى أن أحمد عرابى كان ناظر الجهادية ومحمود سامي رئيس النظار ، لكن من أجوبتك السابقة علم انه صار تحليفك بقشلاق عابدين على المصحف عن يد الشيخ محمد عبده مع الضباط ورؤسـاء عصبة الجهادية كما أقريت بذلك • فكيف تكون وقتهـا من زمرة الملكية ويدعونك للتحالف معهم • أن هذا دليـل على أنك من رؤساء حزب العسكرية من ابتداء ظهوره كما هو معلوم للقومسيون من التحقيق

ج ـ انى لم أكن معهم ومسألة وجودى فى التحليف هى أنه فى ذات ليـلة كنت فى عزومة بطرف حسن بك جاد وبطلوعى من هناك مع عرابى وطلبة وعلى فهمي وغيرهم من الضباط كلفونى بالتوجه معهم الى جهة لم يعينوها فاعتذرت لهم لانه كان عندى ضيوف ولم يقبلوا وبعدها ركبنـا معا

التى دخلوا القشلاق ودخلت معهم وبالصعود الى الغرفة المعدة لاقامة اللواء وجدنا فيها جملة أناس غير من كانوا معنا ومن ضمنهم محمود سامى والشيخ عبده وبعد برهة قال محمود باشا سامى ان المراكب قد حضرت الى الاسكندرية لمحاربتنا والقصد من اجتماعنا هنا هو أن نحلف يمينا على أنه اذا حصل حرب نكون يدا واحدة مع بعضنا وكلفونا بالحلف معهم فقلت لهم أنا لست عسكريا الآن ولا عندى عساكر فلماذا أحلف • فزعقوا فى وجهى جميعا بقولهم أفلا تحلف عن نفسك خاصة أولست من أهل الوطن ويجب عليك الذود عنه ؟ فحلفت معهم على ذلك كما أوضحت أولا

س ـ هل كان فى هذا الحلف أحد غيركم من الملكية

ج ـ لست متذكرا أحدا لازدحام الغرفة من الناس

ملاحظة :

من الغرائب أن ليلة الحلف فى قشلاق عابدين بتلقين الشيخ محمد عبده يقول عنها يعقوب باشا انى كنت معه فى عزومة بطرف عمر بك رشدى ، وعلى باشا الروبى يقول انى كنت معهم فى عزومة بظرف حسن بك جاد وهكذا كل مسئول يقول مثلهما (١)

شجاعة الشيخ حسن العدوى

وفى يوم الثلاثاء ٢٤ محرم سنة ١٣٠٠ طلب شيخ الاسلام

---

(١) يلى هذا استجواب بعض الكبراء • وقد اضطربوا فى أجوبتهم ، ولم يعترفوا بالحقائق خوفا من العقاب ، وكانوا يتنصلون من الانتساب الى الوطنيين او « العصاة » على حد تعبير الخديو وانصاره • ومن الغريب أن بعض الامراء كان من أنصار عرابى فى ثورته كالامير ابراهيم أحمد ، والامير كامل فاضل ، والامير احمد باشا أحمد ، ولكنهم أنكروا وتنصلوا فى جبن عجيب وقد علق عرابى على أقوالهم بقوله : « للمنصفين من قراء المستقبل الحكم واستنباط الحقيقة »

والمسلمين العلامة الشيخ حسن العدوي من السجن للمحاكمة فحضر وسئل فأجاب بما يأتي :

س ـ ان وظيفتك هي بث العلوم وتدريسها ، فلماذا لم تقتصر عليها ، بل توجهت مرارا لكفر الدوار والتل الكبير مركز العصاة

ج ـ ان سبب توجهي لكفر الدوار هو لقراءة البخاري والتضرع لله بالنصر ، اذ أن الحرب كانت بأمر راغب باشا رئيس مجلس النظار

س ـ ان الامر الذي صدر من راغب باشا صار الغاؤه بمقتضى الارادة السنية التي صدرت بابطال التجهيزات وصرف العساكر، وتليت الارادة المذكورة بديوان الداخلية

ج ـ ان الجمعية التي انعقدت بديوان الداخلية ، وتليت عليها تلك الارادة قر رأيها على استمرار التجهيزات ، وأصدرت قرارا بذلك ختم عليه شيخ الاسلام شيخ الجامع والعلماء جميعا ، وأنا بالجملة اذ أن المدافعة عن الوطن والذود عنه واجبان شرعا وسياسة

س ـ علم من جملة شهادات أن في ديوان الداخلية في اليوم الذى انعقدت فيه الجمعية أثناء المداولة في استمرار التجهيزات أو ابطالها قمت وقلت ان الجناب الخديو مرق من دين الاسلام وان الدين يوجب خلعه فهل هذا حقيقي ؟

ج ـ لم أقل هذا اللفظ مطلقا ، وأقسم بمن أوجدني من العدم اني لم أنطق بهذه المقالة ، انما قلت أنه يجب علينا شرعا وسياسة الاستمرار على التجهيزات ما دامت الحرب قائمة بيننا وبين أعداء الوطن والدين

س ـ انعقدت الجمعية ثانية في ديوان الداخلية بخصوص أحمد عرابي ، فهل حضرت فيها أم لا، وهل ختمت على القرار الذى صدر منها بابقاء أحمد عرابي في وظيفته وتوقيف أوامر الحضرة الخديوية والموافقة على عزله ؟

ج ـ نعم ورد لي خطاب من الداخلية بطلب حضوري ،

فتوجهت وتوجه كثيرون من العلماء ، وختمنا على ذلك القرار
س ـ هل ختمت برغبتك ورضاك أم لسبب آخر
ج ـ ختمت تابعا للعلماء الذين ختموا قبلى مثل شيخ الاسلام ومفتى الجامع الازهر وشيخ الجامع وغيرهم وكان ختمي برغبتي ورضائي للمدافعة الواجبة شرعا وسياسة وما كان ينبغي لأحد أن يمتنع عن الختم
س ـ موجود بالقومسيون تلغراف صادر منك لاحمد عرابى بتاريخ ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ تعلمه بعزمك على التوجه لطرفه مع اخوانك وصحبتكم البخارى الشريف لتقرأه عند الطابية الجديدة وطلبت أيضا الصفح عن شخص يدعى محمد عرابى، ودعوت الله أن يؤيد أحمدعرابى المذكور وها هي صورة التلغراف :
« الى سعادة عزيزنا الباشا ناظر الجهادية والبحرية .. قصدنا بمشيئة الله تعالى القدوم باكر مع بعض الاخوان وصحبتنا البخارى الشريف لقراءته عند الطابية الجديدة وغاية أملي الصفح والعفو عن محسوبكم محمد عرابى، حيث استجار ، وقد قال صلى الله عليه وسلم لأم هانيء أخت سيدنا على لما استجار بمنزلها بعض آل مكة يوم الفتح قال: « أجرنا من أجرت يا أم هانيء » .. فأملي من سعادتكم قبول رجائي والله يؤيدكم بنصره
في ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢
الفقير حسن العدوى خادم العلم بالازهر »
فكيف مع علمك بعصيان أحمد عرابى على الحضرة الخديوية ، وخروجه عن الطاعة تتوجه لطرفه فى مركز المحاربة مستصحبا بعض اخوانك والبخارى الشريف وتدعو له بالنصر ، ومن هو محمد عرابى الذى طلبت العفو عنه ؟
ج ـ ان التلغراف المذكور صدر منى حقا . وأسباب توجهى هي الشفاعة فى محمد عرابى من أهالى المحلة حيث أسند إليه التكلم فى حق أحمد عرابى والتشيع للحضرة

الخديوية . وكذلك لقراءة البخارى لنصرة الدين وعز الاسلام لا لنفس عرابى . وكان معى الشيخ أحمد البصرى والشيخ أحمد مروان

س ــ قلت في جوابك المتقدم أنك لم تقرأ البخارى لنفس عرابى بل لنصرة الدين مع أنه موجود جواب منك للمذكور وصفت أحمد عرابى فيه بأوصاف لا يصفه بها الا من كان متشيعا له ومتحدا معه ، ودعوت له أن يجعل كيد عدوه فى نحره . وقلت له أنك لا تنساه ولا اخوانك عقب درس البخارى ، فلا يخفى أن صدور ذلك ممن كان مثلك معتبرا من أعظم العلماء يجعل أحمد عرابى يفتخر بنفسه ، ويظن ما لا يتوهم ، فضلا عن تشويش الافكار وها هى صورته :

« بسم الله الرحمن الرحيم

« ان أبهى ما توشحت بموصول نتائجه همم الابطال ، وتزركشت بمسلسل أخباره أعناق الرجال ، سلام يفوق السماكين قدرا ويزدرى بنشر الطيب ذخرا

« حضرة من سطع فى سماء الكمال نوره ، وتفتق فى رياضها زهر الفضل ونوره ، شمس المعارف وبدر اللطائف ، انسان عين أهل المجد والعرفان ، وحامل لواء العز لاهل هذا الزمان ، سعادة احمد الاسم والخصال ، بلغنا الله واياه الآمال ، بجاه سيدنا محمد والصحب والآل

« أما بعد فقد حضر الينا ولدنا أحمد أفندى صادق وبلغنا عن سعادتكم السلام ، فابتهلنا ورفعنا الأكف الى ذى الجلال والاكرام ، أن يرشدنا واياكم لطريق الاستقامة والكمال ، ويوفقنا واياكم لمرضاة ذى العزة والجلال ، انه خير مسئول ، بجاه كل نبى ورسول . وارجو من الله بجاه حبيبه الاعظم ، أن يعز بكم الاسلام ، ويجعل كيد عدوكم فى نحره على الدوام

« وواصل لديكم صحبة ولدنا محب الطرفين احمد أفندى كتاب « ينبوع المسرات والنفحات الشاذلية » شرحا على البردة الاباصيرية ، والنفحات النبوية فى الفضائل العشورية ، ببركة ما فيها من الاحاديث النبوية ، ان يوفقكم لاظهار عز الملة الحنفية ، وان شاء الله بفضل الله لاننساكم مع الاخوان عقب درس البخارى وفى الاعتاب الحسينية ، مع تبليغ سلامنا لحضرة ولدنا ذى المجد السامى محمد افندى الزمر وباقى اخوانكم ودمتم .

الفقير حسن العدوى
خادم العلم بالأزهر
عفى عنه

ج ــ هذا الجواب صدر منى وكفى فى قولى رزقنا الله

واياكم الاستقامة ووفقنا لمرضاته • وهذا من باب النصيحة ومن باب الدعاء بعز الاسلام

س ـ علم المجلس أنك أفتيت بعزل الجناب الخديو • فهل هذا حقيقى أم لا ؟

ج ـ لم تصدر منى فتوى فى ذلك ، ولم أسأل فى هذه المادة • ومع ذلك فاذا جئتمونى الآن بمنشور فيه هذه الفتوى فانى أوقعه • وما فى وسعكم وأنتم مسلمون أن تنكروا أن الخديو توفيق مستحق للعزل لانه خرج عن الدين والوطن

ـ أشيع أنك رأيت رؤيات لاحمد عرابى • فهل هذا حقيقى ؟

ج ـ انى لم أر رؤيات •••

س ـ معلوم أن أحمد عرابى كان يجمع الناس فى منزله ويختمهم على محاضر ضد الحضرة الخديوية فهل ختمت فى ذلك أم لا

ج ـ لم أكن متذكرا ان كنت ختمت أم لا

س ـ هل ختمك حسن موسى على محاضر أو غيرها •

ج ـ نعم ختمنى على ورقة مفادها أن توقيعنا على الاوراق التى جرى تحريرها كان برضانا لا بالجبر ، وكان خاتما على تلك الورقة حسن موسى وسعودى بك

وبعد ذلك أعيد الشيخ حسن العدوى الى السجن

الشيخ محمد عبده واليمين الوطنية

وفى يوم الاثنين ٢٦ القعدة سنة ١٢٩٩ استحضر فيلسوف الشرق الشيخ محمد عبده من السجن وسئل فأجاب بما يأتى :

س ـ أين كنت مستخدما ؟

ج ـ فى الوقائع المصرية بوظيفة محرر وقايع ورئيس ادارة المطبوعات العربية

س ـ قد طلبناك الآن لنسألك عما يأتي ـ وهو أنه في يوم من الايام في أثناء وزارة محمود سامي ، دعا شخص يسمى عمر رشدى من أركان حرب جملة أناس الى منزله هل حضرت ؟

ج ـ لم أحضر

س ـ عقب الدعوة بجمع الضباط لغاية رتبة بكباشي في قشلاق عابدين تحالفوا،وطلبوك وأعطوك المصحف،وكلفوك بتلقين اليمين ، فبين لنا صورة اليمين ومن حضر

ج ـ لم أتوجه لدعوة عمر رشدى • أما مسألة اليمين فهي أن محمود باشا سامي دعاني الى منزله في يوم الجمعة غروبا ، وقال انه حاصل من بعض صغار ضباط العساكر هياج ، ويريدون اعمال خلل بالبلد ، والغرض اجتماع الكبار منهم،وتحليفهم يمينا على المصحف لتجنب أعمال الخلل في البلد ـ انما حيث لم يعلموا كيفية حلف اليمين ، فتول أنت ذلك • فقلت لا مانع • وفي الواقع توجهوا الى قشلاق عابدين في غرفة على باشا فهمى ، وكان محمود باشا سامى حاضرا ، وحلفوا يمينا على مصحف أحضروه ووضعوه على المنضدة ، ووضعوا أيديهم عليه وها هو مضمون اليمين : « والله العظيم ـ ثلاث مرات ـ قاهر السموات والارض المتسلط على القوى والقدر • وحق ما في كتاب الله تعالى انني وأنا فلان لا أخون وطني ، ولا أخون نفسي ، ولا أغش أحدا من أهل بلادي ، وأحافظ على عرضى وعلى ديني وعلى عرض أهل بلادى ، ولا أدع أحدا أياكان ان يتعدى على أحد من أهل بلادى ، ما دمت قادرا على منعه ، وانني أحافظ على النظام ، وعلى القانون العسكرى بكل ما يمكنني وبقدر استطاعتي واذا حنثت بيميني هذا ، أكون مستحقا لقطع الرقبةوشق الصدر ، وأن أكونمحروما من مزايا الانسانية والآداب »

س ـ علم من التحقيق أنه ذكر في اليمين أن يكون

الضباط يدا واحدة وعصبة واحدة ولا يسمعوا أوامر من أحد ما الا اذا اتفقوا عليها

ج ـ لم يحصل ذلك

س ـ هل حصل ذلك فى دفعة أخرى

ج ـ لم يحصل ما ذكر الا فى الدفعة التى كنت حاضرا فيها وكان الغرض من اليمين الذى بينته المحافظة على القانون العسكرى وعدم الاخلال به كما أفهمنى محمود باشا سامى، وذلك هو أن محمد عبيد كان يريد محاصرة سراى الاسماعيلية، فلمنع ذلك أراد محمود سامى باشا جمع الضباط وتحليفهم هذا اليمين لمنع الخلل .

س ـ من هم رؤساء العسكرية الذين كانوا حاضرين

ج ـ أحمد عرابى ، وعبد العال ، وطلبة، ويعقوب سامى، وعلى الروبى ، وعلى فهمى ، ومحمد عبيد ، وعبد الغفار ، والزمر ، وحسن جاد ، وعلى يوسف ، ومحمود فهمى ، ولم يحضر أحد من النظار غير من ذكروا ومحمود سامى الذى حلف معهم أيضا

س ـ هل تتذكر التاريخ ؟

ج ـ لا أتذكره

س ـ حيث أن اليمين كان مقصورا على العساكر لعدم حدوث خلل ، فلماذا حلف محمود سامى ؟

ج ـ حلف معهم كى اذا أرادوا فعل شيء يشاورونه فيه ، كما أنه يشاورهم

س ـ هل حلف مثلهم أو كان يمينه مقصورا على ما ذكرته فى جوابك

ج ـ جميعهم حلفوا بصوت واحد

س ـ هل حلفت معهم

ج ـ لم أحلف معهم ، بل كنت ملقنا لهم الصيغة ، ولم أجر ذلك الا لانه أخبرنى أن الغرض منع الخلل

س ـ أنت فى قلم الوقائع . وهذا الامر مختص بالازهر،

فلماذا انتخبك محمود سامي ؟

ج ـ لكوني معه في الديوان ويعلم اني من أهل العلم ولكونه رئيسا

س ـ هل حصل حلف يمين مثل ذلك في منزل أحمد عرابي بين الضباط ومشايخ العرب وهل كنت حاضرا في هذا الحلف أيضا ؟

ج ـ لم أكن حاضرا

س ـ هل كان السيد قنديل موجودا عند حلف اليمين في قشلاق عابدين ؟

ج ـ لا

وبعد ذلك أعيد الشيخ محمد عبده الى السجن ...

حسن موسى العقاد يقول عن الخديو توفيق أنه أهبل

في يوم الاربعاء ٤ محرم سنة ١٣٠٠ طلب السيد حسن موسى العقاد من السجن فحضر وسئل فأجاب كما يأتي :

س ـ ما اسمك ؟

ج ـ حسن موسى العقاد

س ـ حيث انك من تجار البلد فما أسباب هربك ؟

ج ـ عند دخول الانكليز الى مصر صار سجن كثير من العلماء والاعيان والذوات وقبل ذلك رأينا في جريدة الطائف ان عند دخول الانكليز الى الاسكندرية رموا بعض الناس بالرصاص فهذه هي الاسباب التي دعتنا للهرب

س ـ في أي يوم هربت ؟

ج ـ هربت في يوم ٣ القعدة سنة ١٢٩٩ على حسبما أتذكر الآن

س ـ أين كنت بعد خروجك من مصر ؟

ج ـ كنت في الفلاة داخل القطر

س ـ من جوابك الاول يعلم أنك مصر على عدم اظهار الحقيقة فقل لنا صراحة ألم تخبر سليمان سامي مذ كان

مرافقا لك في الهرب بأسباب فرارك ؟
ج ـ لم أخبره الا بما قلته أولا
س ـ حيث انك خفت من السـجن كما قلت فلابد من وجود أسباب أوجدت عندك هذا الخوف
ج ـ لم توجد عندى أسباب للخوف . انما ذلك الوقت كان وقت فتنة وخشيت من أن يشى فى حقى أحد ما
س ـ موجود ورقة ضبطت من منزلك وهى مسودة جوابك لشخص يسمى خليل افندى فى ٢٢ رمضان سـنة ٩٩ ، فاطلع عليهـا ، وقل لنـا هل هى بخطك أو بخط الكاتب المستخدم بطرفك ومن هو خليل افندى المحرر اليه . وها هى صورتها : ـ

« جناب الاجل الاكرم حضرة خليل افندى

« بعد اهداء مزيد السلام والسؤال عن عزيز الخاطر الفاخر ، تقدم خلافه فى هذا الشهر وبه الكفاية ، ثم أنه لا يخفى أن أسعار البضائع تعالت هنا لداعى عدم تواردها لسبب الحرب ، ولو كنا نعلم ذلك لطلبنا من قبـل بضاعة من طرفكم لحساب الشركة ، والآن كل ما حصل منها مكسب عظيم . وأما من خصوص أحوال السياسة بهذا الطرف فانه من بعد توقيف أوامر توفيق ونظاره لمخالفتها للشرع والقانون من عموم الأمة من برنسات وذوات وعلماء وعمد وأعيان ورؤساء ملتى النصارى واليهود ، فقد سقط بطبيعته . ومن المعلوم أن المسالة صارت غير مختصة بذات عرابى باشا ، كما يقال ، بل صارت مسالة عمومية ، بحيث لم يكن موجودا بالقطر من هو راض عن توفيق لمناسبة انضمامه للانكليز ، وجلب حربهم على المصريين

« فخديويته الهبلية صارت فى خبر كان . ثم أن الشائع انه سياتى عساكر عثمانية الى مصر ومعها البرنس حليم باشا على أن المترائى بانه اذا كان المقصود حضورهم لاجل رحيل الانكليز من مياه اسـكندرية وغيرها وتوصيل البرنس الى مستقره فلا باس . وان كان المقصـود نفى عرابى باشا واخوانه من مصر حسب رغبـة الانكليز فلا يمكن التسـليم بذلك بالسهولة حيث أن عرابى واخوانه لم يقع منهم شىء مخل ، وانما الانكليز هم الباغون ، وعلى اى حال لابد من تسوية هذه المسالة ـ هذا وانه حصل اشاعة جسيمة هنا من اوائل هذا الشهر من جهة السيد حسن موسى العقاد مفادها أن الحضرة الشاهانية وباقى الدول استقر رأيهم على تولية البرنس حليم باشا ، وانما الانكليز متوقفون لبعض شروط ، وقريبا يصير اقناعهم على

اى وجه ، وبعدها يحضر لمصر ، فهذه الاشاعة واقعة عند الناس موقع القبول والصدق وتراهم منتظرين حصولها من وقت لآخر . وذلك لاجل سرعة حل الاشكال الحاصل . ومما أوجب زيادة الاطمئنان للمصريين ان السيد حسن المومأ اليه شارع فى التجهيزات اللازمة لعمل الزينة لقدوم البرنس المشار اليه بصفة خديو مصر . وقد فهمنا من التلغراف سبب التأخير وان شاء الله يحصل بالمؤتمر ما يحل المشكل على أحسن وجه ، وان المقصود معرفة يوم القيام لاجل الاستعداد فيما هو لازم »

ج ـ الورقة المذكورة مكتوبة بخط الكاتب المستخدم بطرفى وهى صورة أخذها من جواب محرر من مصطفى بك صدقى بن رستم بك بجهة شبرا أما خليل افندى فلم أعرفه ويعرفه مصطفى المذكور

س ـ مذكور بتلك الورقة جملة اشاعات منسوبة اليك فما هى الحقيقة ؟

ج ـ لم يحصل منى شىء مما أسند الى

س ـ حيث انه لم يحصل منك شىء مما أسند اليك فى هذه الورقة فلماذا أخذت صورة منها حالة كونها مشتملة على عبارات لا تليق بمقام الحضرة الخديوية ؟

ج ـ الغرض من أخذ الصورة المذكورة كان معرفة ما فيها

س ـ هل مصطفى بك صدقى حرر هذه الورقة بمنزلك أو بمحل آخر وأرسل لك نسخة منها أو كيف ؟

ج ـ مصطفى بك صدقى كان حضر لمنزلى ومعه صورة هذه الورقة ، وأطلعنى عليها فأخذت صورتها ، ثم نسخها الكاتب

س ـ موجود ورقة أخرى ضبطت فى منزلك فاطلع عليها وقل لنا بخط من كتبت ومن أين حضرت اليك ، وها هى ذى صورتها :

« جناب الاجل الاكرم حضرة السيد دام

بعد وفور الأشواق وسؤال عزيز الخاطر الفاخر ، نعرفكم ان الشغل انتهى من هنا على ما يرام ، وبقينا على نية الحضور لطرفكم فابشروا بالخير وبلغوا الأحباب واخوانكم وهنئوهم بذلك ١٩ يوليه سنة ١٨٨٢ »

ج ـ كنت فى الداخلية فى اليوم الذى انعقدت فيه الجمعية

هناك فأعطاني عثمان باشا فوزى هذا الجواب وقال لى أنه حضر لى من ضـــمن ظرف ورد له من طرف زينب هانم ، وباطلاعى عليــه وجدت العنـــوان بغير اسمى ومع ذلك لما أخبرنى انه لى أخذته

س ـ ماذا فهمت من هذا الجواب وما هو الشــغل الذى انتهى ومن هو الذى تأهب للحضور ؟

ج ـ الذى فهمته أن الشغل الذى انتهى هو شغل حليم باشا أخى زينب هانم الحاضر من طرفها هذا الجواب،وأنهما هما اللذان تأهبا للحضور .

س ـ يوجد تلغراف محرر منك بتاريخ ٢٩ يوليو سنة ١٨٨٢ فاطلع عليه وقل لنا هل صدر منك أم لا وها هى ذى صورته :

« الى ابراهيم بكير بالاستانة فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٨٢
البرنسات وعموم الأمراء قرروا ابقاء ناظر الجهادية وعدم اعتبار أوامر الخديوى لأسباب ، وسيعرض للأعتاب تلغرافيا وعرفونا متى حضوركم لزيادة المسرورية فى ١٣ رمضان سنة ١٢٩٩ »

ج ـ نعم صدر منى ذلك

س ـ قلت فى التلغـــراف المذكور الصـــادر منك أن البرنسات وحسن موسى وعمـــوم الامراء قرروا بقاء ناظر الجهادية وعدم اعتبار أوامرالخديو لاسباب وانه ســيعرض للاعتاب تلغرافيا وطلبت منابراهيم بكيرالمحرر اليهالتلغراف تعريفك عن تاريخ حضوره ، فما هى الاعتاب القائل عنهـــا ومن هو ابراهيم بكير المحرر اليه التلغراف ، وما أســـباب استفهامك عن حضوره وما أسباب تحرير هـــذا التلغراف اليه ؟

ج ـ المقصود بالاعتاب أعتاب الحضرة السلطانية كما تقرر بالقرار الصادر بالجمعية التى انعقـدت بالداخليـــة . أما إبراهيم بكير فهو من تجار الاستانة واستفهمت منـــه عن تاريخ حضوره لانه ورد لى خطاب منه بأنه عازم على الحضور

وحررت هذا التلغراف لانه طلب منى اخبـاره بالاحـــوال السياسية فى مصر لاجل أشغال تجارية.

س ــ هل ختمت على القرار الذى صيدر من الجمعية التى انعقدت بالداخلية ببقاء أحمد عـرابى فى مسنده وتوقيف اوامر الخديو أم لا

ج ــ ما دام ان القاضى والمفتى وشيخ الاســلام والعلماء جميعا وذوات الجهادية والملكية والعمد والنواب والتجـار أقروا على ما فى القرار المذكور وختموا فأنا ختمت أيضـا بالجملة

س ــ هل ختمت برغبتك ورضاك أو بالجبر والتهديد

ج ــ فى الجمعية التى انعقدت وصدر فيها ذلك القرار. ألقى على باشا الروبى خطبة حرض فيها على اصـــدار هذا القرار وحيث أن جميع الحاضرين وافقوا عليه فأنا بالجملة ختمت عليه

س ــ هل تنكر سعيك فى مصر فى تختيم محاضر بعزل الحضرة الخديوية وتنصيب حليم باشا

ج ــ قبل المجاوبة منى عن هذا السؤال أقول انه فى آخر رجب أو فى أوائل شعبان صدر عفو من الحضرة الخـديوية عن مثل هذه الامور . والمعلوم انه لا يصح الرجوع عن هذا العفو ، فكيف أسأل عن أمور حصلت قبل تاريخ صدوره وشموله به

س ــ أجب عن هذا السؤال الذى صـار توجيهه اليك بالسلب أو بالايجاب

ج ــ لم يحصل شىء مما ذكر

س ــ هل ختمت على محاضر من هذا القبيل أم لا

ج ــ لم أختم على محاضر بعـــزل الخديو وتنصيب حليم باشا انما فى يوم من الايام كان أحضرنا أحمد عـرابى فى منزله مع جميع العلماء والاعيان ووجدناه آخـذا فى تختيم الناس على عرضحال للحضرة السلطانية بطلب اسـتبدال

الحضرة الخديوية بدون تعيين اسم البدل،وأنا ختمت بالجملة مع أناس كثيرين كما يتضح من ذات العرضحال • وقدأجبت عن هذا السؤال امتثالا للقومسيون «هيئة المحاكمة» ، والا فانى متمسك بالعفو الذى صدر عن هذه الامور

وقد سـئل السيد حسن موسى العقاد بعـد ذلك عن كمبيالات ونقود استعملها فى بث الدعوة للثورة العرابية ، فأجاب عنها كلها بصراحة وشجاعة

سليمان سامي يهرف بما لا يعرف

دعى سليمان سامى أمام المجلس ، وسئل عدة أسـئلة أجاب فيها • وهنا أهم ما جاء فى أجوبتـه ردا على بعض الاسئلة التي وجهت اليه وهي تدل على كثير من الاضطراب الذى جعله يكذب ويقول زورا وبهتانا :

س ـ ما اسمك ولقبك ومحل مولدك وعمرك ووظيفتك ومحل اقامتك ؟

ج ـ اسمى سليمان سامي ومولود بمصر بخط الشعرية وعمرى ٤٠ سنة ووظيفتى قائمقام ومقيم بالاسكندرية

س ـ أين كنت فى يوم الاربعاء ثانى يوم ضرب الاسكندرية

ج ـ كنت بباب شرقى وفى الصبح طلبنى أحمد عرابى ونبه على بأن الانكليز ستضرب المدافع بالقنابل المحرقة على البلد ، وانه يجب على منعهم من الدخول ، وانه قبـل ترك المدينة يجب حرقها بحسب القانون ، فعنـد ذلك ضربت طابور بحسب أمره ، ونبهت على الضباط بما أمرنى به ومع ذلك قلت لهم أن ينتظروا قليـلا •• (هذا الجواب كذب مفترى)

س ـ لما جمعت الضباط كما ذكرت ماذا قلت لهم ؟

ج ـ قلت لهم أن ناظر الجهـادية قال ما ذكرته ، فبقوا جميعا صامتين ، ولم يعارض الامر أحد منهم

س ـ ماذا جرى بعد أن قلت للضباط أن ينتظروا قليلا

ج ـ توجهت الى عـرابى مع ابراهيم فوزى ، لان أحمد عرابى كان طلبنى بواسـطة ابراهيم المذكور • وبينما أنا هناك رأيت الحريق في المدينة

س ـ ماذا قال لك ابراهيم فوزى حينما أتى المنشـية وطلبك أحمد عرابى

ج ـ لما قابلنى صار يلومنى على تأخيرى عن حرق المدينة وصار يصيح على الاهالى والعساكر ويحرضهم على حرقها • (ظاهر البطلان)

س ـ أما نظرت ابراهيم فوزى مرة أخرى فى المنشية

ج ـ لم أنظره غير تلك المرة

س ـ قلت أمام القومسيون (هيئة المحاكمة) انه حضر لك مرتين وقال لك في أول مرة ما ذكرته الآن ، وانه أتي مرة أخرى ودعاك الى التوجه الى عرابى

ج ـ حقيـــقة جاءنى مرتين ففى المرة الاولى نبه على بأن استعجل ، وفى المرة الثانية دعانى الى التوجه الى عرابى

س ـ هل كان عرابى قد أعطاك أمرا كتابيا بحرق المدينة

ج ـ أمرنى شفهيا

س ـ هل يجوز فى قانون الجهادية حرق مدينة بناء على أمر شفهى

ج ـ لا يجوز وأنا لم أفعل سوى ابلاغ ما نبه به • ولست متحققا ان كان القانون يجيز ذلك أم لا

س ـ لو فرض أن عرابى هو الذى أعطاك حقيقة تلك الاوامر الفظيعة فلماذا لم تتركه وتبحث عن طريقة لتتخلص بها من يده كتسليم ذاتك للحضرة الخـديوية قبل اعطاء التنبيهات التي أمرك باعطائها

ج ـ حقيقة كان واجبـــا على ذلك ، ولـكننى خفت من عرابى

س ــ لماذا لم تسمع أمره ان كنت تخاف حقيقة حينما أمرك بالتوجه والتجرؤ على حياة الحضرة الخديوية كما قررت امام قومسيون مصر :

ج ــ لغايتها كنت أظن ان المحاربة وجميع ما حصل كان بامر الحضرة الخديوية ولما سمعت ذلك الأمر من عرابى فهمت الحقيقة وأبيت تنفيذ أمره ، وقلت له أن يعين غيرى لذلك . (كذب والله)

س ــ حينئذ عرفت أن الحرب ضد ارادة الحضرة الخديوية . فلماذا لم تنفصل عن العصاة

ج ــ خفت من العساكر .

ملاحظة : الحقيقة أن سليمان بك سامى لما شاهد هول تاثير مقذوفات مراكب الانكليز حصل له هلع وطيش أثر على مخيلته ، فصار يهرف ويميل لعمل غير العقلاء فبدرت منه كلمات تدل على جنونه كقوله : «احرق واخرب يا ولد» فى حالة هيجان وذهول وقد اجمعت الشهود على أنه لم يفعل من ذلك شيئا وأنه خرج بآلايه من المدينة قبل الغروب ، وأنه ترك المنشية وخرج الى باب شرقى الساعة ١١ عربى ، ولم يعد اليها ، وأن الحرق لم يبتدىء الا بعد الغروب وبعد خروج العساكر من المدينة كشهادة سعد بك أبو جبل وعلى بك داود وغيره ، وأن الحرق لم يكن الا من أوباش الخدم والاعراب وغيرهم من الاورباويين والفقراء الذين تخلفوا فى مدينة اسكندرية ليتحصلوا على شىء من الصيدة والغنيمة . ولذلك لم يقل أحد بأنه رأى سليمان سامى يفعل الحرق بنفسه ولا بغيره وعلى ذلك يكون سليمان سامى ذهب شهيد طيشه وهيجانه والحساب على الله

الأحكام التى صدرت على زعماء الثورة

حكم بالاعدام يستبدل به النفى المؤبد

لما فرغ المجلس المؤلف برياسة اسماعيل باشا أيوب من استجوابنا احال الأوراق على المحكمة العسكرية المخصوصة وبعد أن جرت المفاوضة فى شأن توقيع الجزاءعلينا ما بين الحكومة وبين اللورد دوفرين ــ كان من تصميم الحكومة قتلى وقتل محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى ومحمود باشا فهمى وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى وطلبة باشا عصمت ــ وكان المجلس الابتدائى قد حاول كثيرا الصاق مذبحة الاسكندرية فى ١١ يونيو وحرق الاسكندرية فى ١٢ يوليو سنة ١٨٨٢ بى كما يتضح من مطالعة الاستجوابات ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يظهر براءتنا بالرغم من سعى الحكومة فى ادانتنا فنطق المستر غلادستون بصوت جهورى فى مجلس البرلمان بأنه قد ثبتت جليا براءة احمد عرابى باشا من حريق الاسكندرية ومذبحتها ، وأهاب الى وجوب معاملتنا معاملة الثوار السياسيين وعليه تقرر نفينا مع اخواننا المذكورين الى جزيرة سيلان بناء على اختيارها لنا بمعرفة صديقنا السير وليم جريجورى الايرلندى كاتم سر الملكة ، فاستعفى ناظر الداخلية رياض باشا وتحطمت المشانق التى أعدتها الحكومة لاعدامنا وحنق رجال الاستبداد لعدم تمكنهم من التمثيل بنا

وقد تقرر بالمحكمةالعليا العسكرية اعدامنا بناء علىالقانون العسكرى العثمانى الذى يقضى باعدام كل من خرج على الدولة وقابلها بالسلاح . وطبقت المحكمة المذكورة احكام المادة ٩٦ من القانون العسكرى العثمانى والمادة ٥٩ من

قانون الجنايات على من كان يدافع عن بلاده ، ويقاتل دولة اجنبية طامعة فى الاستيلاء عليها ، قياما بالواجبات العسكرية ، والفرائض الوطنية مدافعة شرعية قانونية

ولكن الخديو أصدر أمره بالعدول عن أحكام الاعدام الى النفى المؤبد علينا وعلى اخواننا الآنف ذكرهم اجابة لداعى العدل وموافقة لصوت غلادستون رئيس أحرار الانجليز ورئيس حكومة الأحرار

وفى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ التأمت المحكمة العسكرية المذكورة فى جلسة علنية بحضور جم غفير من الذوات والأوربيين وكثير من عقيلات أكابر الأوربيين حتى اكتظت المحكمة على سعتها . ثم دعيت لسماع الحكم فأجبت وقمت فى مقام سماع مؤمنا بالتميز والاحترام ، فقام رؤوف باشا رئيس المحكمة المذكورة وتلا على الحضور الأمر القاضى بالاعدام . ثم جلس دقيقة وقام يتلو أمر الخديو القاضى باستبدال النفى المؤبد بالقتل ، فأشرت بالرضى والقبول مع الشكر . فقامت السيدات الأوربيات يتسابقن فى نثر الورود والأزهار على مهنئات بشفقة وحنان . لا أزال أشكرهن وأذكر عطفهن على بالثناء الجميل

واما السيدة اللادى (نابيير) فانها بعد أن نثرت على ... من الورد والياسمين قدمت لى بيدها الكريمة باقة ورد عظيمة فتقبلتها منها شاكرا لها عطفها وحنانها ــ ونثر الورد رمز على الخلاص من الموت

وفى يوم الخميس الواقع فى ٢٦ محرم سنة ١٣٠٠ و ٧ دبسمبر سنة ١٨٨٢ التأمت المحكمة أيضا فى جلسة علنية حضرها كثير من الذوات المصريين والأوربيين ودعى لسماع الحكم فيها كل من محمود باشا سامى وعلى باشا فهمى وعبد العال باشا حلمى وطلبه باشا عصمت وبحضورهم تلا عليهم رئيس المجلس القرار القاضى عليهم بالقتل ، ثم

جلس جلسة خطيب ، وقام وتلا عليهم الامر الخديوى المؤذن باستبدال النفى المؤبد بالقتل كما ذكر

وفى يوم الاحد الموافق ٢٩ محرم سنة ١٣٠٠ و ١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ اجتمعت المحكمة المذكورة فى جلسة علنية حضرها كثير من الذوات المصريين والأوربيين ودعى لسماع الحكم فيها كل من يعقوب باشا سامى ومحمود باشا فهمى وبحضورهما قام رئيس المحكمة وتلا عليهما الحكم القاضى بالاعدام ثم جلس هنيهة وقام وتلا عليهما الأمر الخديوى المؤذن باستبدال النفى المؤبد بالقتل كما المعتاد سابقا

وهاك نص الأمر الخديوى :

أولا ـ الحكم الصادر على كل من أحمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المقتضي جزاؤهم بالقصاص وقع تبديله بالنفى على الأبد من الأقطار المصرية وملحقاتها

ثانيا ـ هذا العفو يبطل ويقع اجراء الحكم على كل من احمد عرابى وطلبة عصمت وعبد العال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى المذكورين بالقتل اذا رجع الى الأقطار المصرية وملحقاتها

ويتلو ذلك مادة التنفيذ الذى أنيط به كل من ناظر الداخلية وناظر البحرية والحربية (عمر لطفى.)

حكومة توفيق
تنهب أملاكنا ظلما

وبعد أن صدرت علينا هذه الأحكام رأى مجلس النظار رأيا مخالفا للعدل ومجحفا بالحقوق الشرعية وذلك بأن تضبط أملاكنا المنقولة وغير المنقولة وأن يعين لنا فى مقابل ذلك راتب سنوى يكفى لمعيشتنا فصدر بذلك أمر خديوى هادم لصروح العدل ومقوض الدعائم الشريفة الفراء ومبطل

لأحكام الله فى آيات الفرائض القرآنية فى المواريث (١)

وقد صدر الأمر فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ونصه كما يأتى :

(نحن خديو مصر)

بعد الاطلاع على الأحكام الصادرة من المحكمة العسكرية بتاريخ ٢٢و٢٦و٢٩ محرم سنة ١٣٠٠ الموافق ٣و٧و١٠ ديسمبر سنة ١٨٨٢ وبعد اخذ رأى مجلس نظارنا أمرنا بما هو آت :

المادة الأولى ـ أملاك وموجودات احمد عرابي وطلبة عصمت وعبد العال حلمي ومحمود سامي وعلى فهمي ومحمود فهمى ويعقوب سامى منقولة كانت أو غير منقولة وأملاكهم وموجوداتهم التى اشتروها أو وضعوا يدهم عليها ومقيدة بأسماء غير أسمائهم وكذلك الاملاك والموجودات التى تصرفوا فيها بالهبة أو البيع بطريقة مصطنعة ، صارت ملكاً للحكومة

ولا يجوز لهم من الآن فصاعدا أن يمتلكوا أى ملك من اى نوع كان فى الأقطار المصرية بطريق الارث أو الهبة أو البيع أو بأى طريقة كانت ويترتب لهم راتب سنوى نقدى بقدر الضرورى لمعيشتهم

المادة الثانية ـ أملاك وموجودات أحمد عرابي وطلبه

---

(١) هذا الحكم مخالف للعدل والدين كما قال عرابى صاحب هذه المذكرات ، ولا شك أيضا إنه مخالف للوطنية . فاذا كان عرابى وزملاؤه من الوطنيين الاحرار يستحقون ـ فى نظر الخديو توفيق ومن معه من الخونة ـ أن يحكم عليهم بالاعدام أو بالنفى المؤبد جزاء اخلاصهم لوطنهم ودفاعهم عن حريته وكرامته وحقوقه التى سلبها المستبدون ، فما ذنب ابنائهم واحفادهم حتى يعيشوا فقراء محرومين من املاكهم ؟ ان واجب الوطنية والعدالة يقضى على حكومة الرئيس محمد نجيب الذى اشاد بفضل احمد عرابى أن ترد الى أبنائه أملاك أبيهم وأمواله ليكون فى ذلك عزاء للمجاهدين المخلصين ..

عصمت وعبد العـــال حلمى ومحمود سامى وعلى فهمى ومحمود فهمى ويعقوب سامى منقولة كانت أو غير منقولة يصير بيعها وما ينتج من هذا البيع بعد التصفية يخصص لسداد التعويضات التى ستعطى لمن أصـيبوا بالحوادث الثورية

المادة الثالثة ـ على ناظر داخلية حكومتنا تنفيذ أمرنا هذا

وجاء فى ذيل هذا الأمر الظالم توقيع كل من الخـديو ورئيس النظار وناظر الداخلية . وعلى أثر صدوره قررت نظارة الداخلية أن تشكل لجنة مخصوصة فى مركز ضبطية مصر تكلف بحصر أملاك المحكوم عليهم ظلما وعدوانا وتنفيذ احكام الامر المذكور الى أن تجرى تصفية قيمتها . وقررت أن ترد اليها المكاتبات والأوراق التى تقـــدم فيما يتعلق بحصرها وحقوق أرباب السلف

وأن تؤلف هذه اللجنـــة من رئيس ينتخب من أرباب الرتب وعضوين من ذوى الدراية والاستعداد فتعين عثمان بك فهمى الوردانى رئيسا لهـــذه اللجنـــة ، وأحمـــد حشمت أفندى وجبران أفندى مسكات عضوين لها ، وفى اليوم الذى قررت فيه نظارة الداخلية تأليف هذه اللجنة أصدرت أوامر تلغرافية الى جميع الجهات فتبين فيها وجوب حصر ما يوجد من أملاك الرؤساء السـبعه المذكورين فى كل منها

وفى ١٥ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ صدر أمر الخديو بتجريدنا نحن السبعة القواد المحكوم علينا بالنفى المؤبد من جميـع الرتب والالقاب وعلامات الشرف التى كنا حائزين لها ومحو أسمائنا من دفاتر ضباط الجيش المصرى محوا مؤبدا (ولكن شرفنا الذاتى القائم بالنفس لا يمكن لأحد أن يجردنا منه أو ينزعه عنا بل ليس لملوك الأرض سلطان عليه لأنه هبة من عند الله) .

عهد نكث به الخديو

وقبل أن تصدر هذه الأحكام الظالمة أشار علينا المستر برودلي والمستر نابيير المحاميين عنا بأن نعترف بالعصيان على الخديو عصيانا صوريا على شرط أن يكون نفينا نفيا مكرما وأن يترتب لى معاش سنوى من الحكومة المصرية مقدار ألفى جنيه مصرى مدة حياتى ، ويكون هذا المعاش حقا لأولادى من بعد وفاتى . ولكل واحد من اخوانى الذين ينفون معى ألف وخمسمائة جنيه مصرى سنويا وهم : على باشا فهمى ومحمود باشا سامى ومحمود باشا فهمى ويعقوب باشا سامى وعبد العال باشا حلمى وطلبه باشا عصمت ، وأن تحفظ جميع أملاكنا وأطياننا وامتيازاتنا على حسب اتفاقهما مع اللورد دوفرين والمرخص من الحكومة الانجليزية . وصرحا بأن ذلك متفق عليه بين اللورد دوفرين وبين الحكومة الانجليزية ، وقالا أيضا بأن بعض الضباط والأمراء ينفون من القاهرة الى بلادهم فقط ، وباقى الضباط والعلماء والأعيان والعمد وغيرهم من المسجونين بسبب الحرب يصدر عنهم عفو عام ولا يحرمون من الخدمة بسبب ذلك . فلتحققنا بأن قبول مشورتهما على هذه الشروط يكون تسهيلا للمصاعب السياسية التى ارتطمت فيها الحكومة الغلادستونية وان امتيازاتنا وأملاكنا محفوظة ، ولن يخدش شرفنا ، قبلنا هذه الشروط واعترفنا بالعصيان على الخديو صورة لا حقيقة ، كما تحرر بذلك الى جريدة التيمس ، وبناء على ذلك طلبا منا أن نكتب الى اللورد دوفرين بما يفيد قبولنا بالنفى الى المحل الذى تعينه الحكومة عن رضانا واختيارنا ، فكتبنا له بما يفيد ذلك ، وبالفعل صرف النظر عن التشبث بطلب الأوراق والدفاتر والمستندات التى تثبت حقوقنا وتحفظ شرفنا ، وهى تلك الأوراق التى كنا كتبنا الى المستر برودلى بطلبها من المعية ، وصرف النظر

عن التحقيقات وتألف مجلس حربى صورى ، وحكم علينا فيه بالقتل ، ثم أعلن أمر الخديو باستبداله بالنفى فى جلسة واحدة ، ولم تحصل مدافعة ولا اقامة حجة بناء على ما سبق من الاتفاق عليه ، ولم يذكر فى الأمر الخديوى تجريدنا من الامتيازات والنياشين ولا سلب الأملاك ولا نهب الأموال

وهاك صورة ما تحرر الى مدير جرنال التيمس بلندن فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ الموافق ٢٢ محرم سنة ١٣٠٠ ونحن بسجن الدايرة السنية :

« انى قد اتبعت ما اشار به على كل من المستر برودلى والمستر نابير المحاميان عنى اللذين يستوجبان دوام الشكر منى على مابذلاه من الهمة والاجتهاد فى قضيتى واعترفت لدى المجلس العسكرى بالعصيان على الخديو صوريا اذ ان وزراء الانجليز قد اعلنوا مرارا بأنى عاص فلا أؤمل انهم يعدلون عن رايهم هذا دفعة واحدة ، بل ولا يمكنهم ذلك وامتثلت بأن أتوجه الى المحل الذى تعينه لى انجلترا للاقامة فيه الى ان ياتى الوقت الذى يمكن فيه لانجلترا أن تغير رأيها فى شانى . ولهذا فلست متكدرا لما أصابنى ولا من الحكم الذى صدر على لكونه يدل على انى برىء مما حاول خصومنا الصاقه بنا ونسبته الينا من مقتلة الاسكندرية وحريقها الامر الذى لم يكن لى يد فيه قط ، بل هو من الفظائع التى هى ضد أعمالنا الوطنية ومشروعاتنا الاساسية

« ولتيقنى بأن معاملتى فى المستقبل بكرم الامة الانجليزية فسأفارق مصر مطمئن القلب والخاطر خصوصا لما اتحققه من أن انجلترا لايمكنها الآن أن تتأخر عن اجراء سائر الاصلاحات التى كنا نرغب اجراءها فى بلادنا ، وانه بعد مضى مدة قليلة يصير أبطال المراقبين وتخرج مصر من أيدى المتوظفين من الاجانب ، الذين احتلو كل وظيفة فى مصر ، وإنه يصير اصلاح حالة المجالس المحلية ، وتوحيد قوانينها ونشرها للعمل على مقتضاها . وان يكون للامة مجلس نواب منها يكون له صوت معمول به ونظر فى مصالح الامة المصرية . وأن توضع حدود لمعاملة المرابين مع الاهالى . وبالوقوف على حقيقة احتياج البلاد لتلك الاصلاحات يعلم للامة الانجليزية ان عصيانى له موجب وسبب عظيم

« انى ابن فلاح مصرى وقد اجتهدت على قدر طاقتى فى نوال هذه الاصلاحات كلها للوطن العزيز الذى انا من أبنائه ومحبيه ، فلسوء البخت لم يتيسر لى الحصول على الغرض المقصود . لكنى أؤمل من الامة

الانجليزية انها تتم الاشغال التي ابتدأتها . واذا فعلت ما أؤمله منها من الاصلاح وسلمت مصر للمصريين كما هو واجب على ذمتها وشرفها تبين لجميع العالم اذ ذاك مساعي عرابي ذلك العاصي وحقيقة مقاصده

« ان الامة المصرية بأسرها كانت معي وصحبة لي كما اني محب لها ابدا ، فأؤمل انها لاتنساني عندما تتم انجلترا الاصلاحات التي كنت طالبها واحاول الوصول اليها . واني غير آسف على شيء حيث كان ذلك ذريعة توصل مصر الى ما هي جديرة به من الحرية والعمران . وعندما تتم انجلترا اصلاح البلاد ارجو من شفقتها وانسانيتها ان تسمح لي بالعودة الي بلادي العزيزة على لأشاهد ثمرات الفلاح والعمار بوطني قبل أن افارق هذه الدنيا

« اني متشكر للمستر غلادستون واللورد غرنفيل لتوسطهما في مسألتي اذ انقذاني من الخطر العظيم وسيعلمان أني لم أكن عاصيا حيث كنت قائدا لامة عظيمة لاترغب في شيء سوى العدل والانصاف والمساواة . وكذلك اشكر اللورد دوفرين حيث أظهر نحوى غاية الملاينة وعلو الهمة . كما اني اعلن تشكراتي وممنونيتي الى صديقي المستر بلنت واخوانه ممنونية لايمكنني القيام بواجباتها اذ انه دافع عني واعانني بنفسه وماله في وقت الضيق والعسر حين تركني احبائي من المصريين الذين كانوا يلازمون جانبي في أيام اليسر

« اما صاحبا الشرف والامانة المستر برودلي والمستر نابيير فانهما بذلا غاية جهدهما في خلاصي وخلاص اخواني واظهرا في مساعيهما غاية الامانة وكمال الصداقة الامر الذى اراني عاجزا عن القيام بواجب شكرهما

« وانا متشكر لجميع الامة الانجليزية كما اني متشكر لك .يها الفاضل ولسائر مديرى الجرانيل الانكليزية الذين اتحدوا في طلب معاملتي ومعاملة اخواني بالعدل والانصاف . ولاعضاء الحكومة الانكليزية الذين ارتفع صوتهم مرارا في خصوص مسألتي واظهار حقوقي

« وكذلك اشكر السير شارلس ولسون الذى تردد الى كثيرا وتعهدني باحسن ملاحظة في مدة سجني

« ها انا مهاجر من مصر العزيزة الا اني متيقن من ان الايام والحوادث ستبين حقيقة اعمالنا وما كنا عليه من العمل بالعدل والانصاف . وان انجلترا لاتندم ابدا على ما ابدته من التسامح والتساهل مع من قاتلته في المعارك الحربية حين تتبين لها حقيقة مسعاه » احمد عرابى المصرى

الخديو لا يفي بالعهد

وفي ١٤ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أي بعد صدور الأمر بالقتل واستبداله بالنفي بمدة ١٢ يوم ، صدر أمر من

الخديو بسلب أملاكنا جميعها من أطيان وعقار وغيره كما ذكر آنفا • وحيث ان هذا الأمر الخديوى لم يبن على وجه شرعى وبدون محاكمة ولم يسبق معاملة من نفى قبلنا من مصر بهذه المعاملة التى هى ضد الشرائع العادلة قدمنا احتجاجا على ذلك وطلبنا من مستر برودلى تحريريا معارضة هذا الأمر وعدم قبوله حفظا لأملاكنا وحقوقنا وحجتنا فى ذلك أن الأمر المذكور مخالف للأوامر الآلاهية المقدسة بما نص فيه من ابطال أوامر الله سبحانه بحرماننا من كل ارث شرعى يؤول الينا فى المستقبل وبمصادرة أملاكنا بلا تحقيق خلافا لقول النبى (مال المسلم على المسلم حرام) ومن أمر أمرا مخالفا لكتاب الله فهو رد عليه ولا يجوز للمسلمين الاقرار على هدم أصول دينهم أبدا ، وقد كتبنا قائمة وسلمناها الى مستر برودلى بمقدار أطياننا ليدافع عنها وهى كما يأتى :

كشف

عن أطيانى وأملاكى التى بالجهات الموضحة ادناه :

الجملة فدان	
٥٣	بناحية هرية رزنه شرقية وناحية تل مفتاح رزنه شرقية ٧٦ فدان أطيان خراجية
٨٢ ١/٢	٦ ١/٢ فدان أطيان عشورية
١٠ ١/٢	بناحية أكياد شرقية
١٢	بناحية الأسدية شرقية
١٠ ١/٢	أطيان عشورية بناحية سلامون الغبار بمديرية الغربية
١٦٨ ١/٢	ملك خاص لنا

فدان

١٦٨ ١/٢ ما قبله

أطيان صار مشتراها من أطيان الميرى ودفع ثمنها فى المديرية

١٠٠ ١٠٠ فدان بناحية المناجاة الصغرى باسمنا خاصة

٢٦٨ ١/٢

أطيان صار مشتراها من أطيان الميرى بمديرية الشرقية بطريق المزاد بالاشتراك بيني وبين حسن باشا أفلاطون كل منا بحق النصف ودفع الثمن بالمالية :

فدن

١٦٠ بناحية الاحيوه شرقية

٤٠٠ بناحية قهبونه شرقية

٠٣٧ بناحية كفر السناجره شرقية

٦٠٩ ٠١٢ بناحية أكياد

٨٧٧ ١/٢ الجملة

« الى جناب المحترم المستر برودلي المحامى عنى

« اننا قد أوضحنا بيان أملاكنا الموضحة أعلاه بهذا الكشف كما هو مبين بكل ناحية . وحيث أن حضرتكم وكيل شرعى عنا مفوض فى المدافعة والمحاماة عن حقوقنا فقد فوضنا لكم فى المحافظة على أطياننا المذكورة أعلاه وعلى جميع حقوقنا وقد تحرر هذا اعتمادا بما ذكر

أحمد عرابى »

لما صدر أمر الخديو بتجريدنا نحن السبعة القواد المحكوم علينا بالنفى من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف فى ١٥ صفر سنة ١٣٠٠ الموافق ٢١ ديسمبر سنة ١٨٨٢ أبينا تسليمها الى مندوب الحكومة وسلمناها الى المستر

برودلى للمدافعة عن حقوقنا ، لانه ضد الاتفاق السابق أولا ، ثم لأنه ليس من حقوق الخديو سلب الرتب ونياشين الافتخار والميداليات الشاهانية التى اكتسبت فى المحاربات الدولية . وفوق ذلك فانه لم يذكر بحكم المجلس الحربى تجريدنا مما أوردناه .

ثم أن الحكومة المصرية نكثت بعهدها الذى عاهدت به اللورد دوفرين.وصرفت لكل منا ثلاثين جنيها مصريا فقط فى يوم ٢٦ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، وان لم يكن كذلك فيكون اللورد دوفرين غشنا وغش المحامى الذى أخبرنا أخيرا بانه قد فوض حاكم جزيرة سيلان فى تقرير ما يلزم لنا من النقود شهريا أو سنويا ، وهكذا وعد ممثل الحكومة الانجليزية وموافقة الخديو

بعد الحكم

ولما أنقذنا الله سبحانه من مخالب الموت فرح المصريون الأحرار فرحا عظيما خصوصا أحرار العائلة الخديوية وكتبت صاحبة الدولة ومثال الكمال انجى هانم حرم المرحوم محمد سعيد باشا والى مصر الأسبق الى جناب المستر برودلى المحامى عنا تشكره للدفاع فى قضيتنا بما يأتى :

« جناب المستر برودلى المحامى

« بعد اهدائك تسليماتى وتشكراتى لشخصك الكريم ، انتهز هذه الفرصة لأن أصرح لكم بأن بلاد مصر تشرفت بمجيئكم اليها . وانا وجميع أهلها مسرورون من أعمالكم لأنكم دافعتم عن مبدأ الانسانية والعدل

« ونحن المصريين نبتهل الى الله فى كل أيام حياتنا ان يهنئكم وينجح مقاصدكم ونرجو ان العدل والشفقة يحكمان هذه البلاد

« هذا وبدفاعكم عن أبناء مصر (الذين سعوا لخيرها

ودافعوا عنها) قد جعلتم انجلترا محبوبة عندنا لأن الانجليز عطفوا علينا فى حزننا ومصيبتنا

« وانى أشكر جناب المستر بلنت بقلب خالص لطيبته وانعطافه نحونا . وجميع المصريين مسرورون من الأخبار التى دلت على أعمالكم ، ولا يجرؤ أحد على تأييد العكس مع تبلج نور الحقيقة

« وانى لعاجزة حقيقة عن توضيح تشكراتى

مصر فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ »

« انجى »

وفى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ خرجنا من سجن الدائرة وذهبنا نحن السبعة اخوان السراء والضراء الى قصر النيل وتلا علينا على باشا غالب وكيل الجهادية وقتها نص الأمر الخديوى الصادر بتجريدنا من رتب حكومتهم أمام عساكر أورطة المستحفظين وصف ضباطهم ، وهم يذرفون الدمع من مآقيهم حزنا على ما آل اليه أمرنا وأمر بلادنا . ثم عدنا الى السجن والأهالى مصطفون فى الطريق يبكون وينتحبون، أما والدة الخديو فكانت فى عربتها خارج قصر النيل لتشمت بنا !

يا كنانة الله صبرا على الأذى

وفى ليلة الأربعاء الواقع فى ١٧ صفر سنة ١٣٠٠ والموافق ٢٧ ديسمبر سنة ١٨٨٢ توجهنا الى قصر النيل وقد أعد لنا ولمن أراد مصاحبتنا من الأهل والخدم قطار خصوصى من قطارات السكة الحديد ، فركبنا جميعا وسار بنا القطار وبمن معنا من رجال الحفظ فى الساعة ١٠ مساء حتى بلغنا حوض السويس الساعة ٨ صباحا على الاصطلاح الافرنكى

وفى الساعة العاشرة دخلت المينا الباخرة (مريوط الانكليزية) المعدة لسفرنا من السويس الى جزيرة سيلان

فنزلنا فيها جميعا ونزل معنا الشاب النبيه نجيب أفندى ابكاريوس بصفة ترجمان على حسابنا ، والكولونيل رضي الأخلاق موريس بك ، ومعاونه الرجل المهذب طيب الأخلاق سليم افندي عطا الله بصفة مأمور بتوصيلنا ، وتسليمنا الى حكومة سيلان . وكذلك نزل معنا على أفندى عباس الصاغ من ضباط البحرية ومعه شرذمة من العساكر بصفة حرس علينا فى مدة السفر ، وكانت الباخرة المذكورة مؤجرة لتوصيلنا الى سيلان بستة آلاف جنيه انكليزى بما فى ذلك من اطعام من معنا من الأهل والحرس . وفى الساعة ١ بعد الظهر من اليوم المذكور ، قامت بنا الباخرة تشق عباب البحر قاصدة جزيرة سيلان (بسم الله مجريها ومرساها)

وبعد قيامها ولينا وجوهنا شطر مصر ننظر الى جبالها وحسن منظرها ونودعها بقولنا : « يا كنانة الله صبرا على الأذى ، حتى يأتى الله لك بالنصر »

وما زلنا ننظر الى جوها وجبالها حتى توارت عن أعيننا وكانت الباخرة على صغرها وعدم سفرها قبل ذلك فى البحر الأحمر والمحيط الهندى تقطع فى الساعة ١١ ميلا كأنها تمخر فى نهر النيل ، وحيتان البحر تحيط بها وتسابقها فى السير ويتساقط عليها أحيانا كثير من السمك الطيار . ومكثنا على ذلك أربعة عشر يوما مررنا فيها على باب المندب الكائن بين البحر الأحمر والمحيط الهندى ثم على جزيرة سقطره ثم على عدن ثم الى سيلان

وصولنا لسيلان

وفى غروب يوم الأربعاء الواقع فى ٩ يناير سنة ١٨٨٣ دخلت الباخرة الى ميناء ثغر كولومبو بجزيرة سيلان والقت مرساها فحضر الينا وكيل حكومة سيلان وحيانا تحية القدوم . وأخبر موريس بك بأن الحكومة أعدت اربعة بيوت لسوى العائلات منا ، وفيها الخدم وكل ما يلزم من أسباب

الراحة كالسرر المفروشة اللازمة للنوم والكراسي وأدوات المطبخ والسفرة والدواليب وغير ذلك وذخيرة ثلاثة اشهر ضيافة لنا ، ولكن على حساب مصر . وثمن تلك الأدوات ثلاثة آلاف جنيه . ثم أمضينا تلك الليلة فى الباخرة المذكورة وفى الصباح من يوم الخميس غرة ربيع الأول سنة ١٣٠٠ و١٠ يناير سنة ١٨٨٣ خرجنا الى البر فوجدنا رصيف المينا مزدحما ايما ازدحام باخواننا المسلمين من أهل الجزيرة المذكورة واهل الجاوه والهند والملايو وأعيان طائفتى التمل والشنكليز أهل البلاد من عباد الأوثان على (مذهب البوذا) وكلهم يشيرون الينا بالسلام وزيادة الاحترام

ثم تقدمت لنا العربات فركبنا وتوجهنا الى البيوت المذكورة وكان قد خصص لنا بيت عظيم يسمى (ليك‌هاوس) ومساحة بستانه ١٤ فدانا ومعظم أشجاره من جوز الهند والموز وغيره ، فتوجهنا اليه والناس مزدحمون على جانبى الشوارع من الميناء الى البيت المذكور يهتفون لنا بالترحيب والاكرام الى أن وصلنا الى المنزل المذكور واخذنا معنا طلبه باشا عصمت وعبد العال باشا حلمى لاقامتهما معنا حيث أنهما تركا عائلتيهما بمصر . وكذلك توجه محمود باشا سامى مع محمود باشا فهمى لاقامتهما فى منزل واحد لكون الأول ترك أهله وأولاده بمصر ايضا وانفرد كل من على باشا فهمى ويعقوب باشا سامى فى بيت على حدته لوجود عائلتيهما معهما

ولما دخلنا البيوت المعدة لنا أخذت تلك الطوائف تتوارد علينا للسلام بوجوه باشة وقلوب طافحة بالمحبة والحنان ليلا ونهاراً ، فجزاهم الله خير الجزاء على ما قابلونا به من الاحتفاء والاكرام

وكان عدد الأنفس التى توجهت معنا الى سيلان على الوجه الآتى :

عدد نفر		عدد ذكر	عدد أنثى
٦	أحمد عرابى	٣	٣
١٤	علي فهمى	٦	٨
٩	يعقوب سامى	٤	٥
٩	محمود فهمى	٦	٣
٣	محمود سامى	٣	•
٤	عبد العال حلمى	٤	•
٣	طلبه عصمت	٣	•
٤٨	الجملة	٢٩	١٩

أما الكولونيل موريس بك فعاد الى مصر بعد أسبوع من وصولنا الى كولومبو بمن معه من رجال الحرس لانتهاء مأموريته . وأما نجيب أفندى ابكاريوس فمكث معنا ثلاثة أشهر ، ثم ودعنا وأبحر الى مصر

وبعد مبارحتنا أرض مصر صدرت أحكام مختلفة على بقية المشتركين معنا فى الحركة الوطنية والدفاع عن البلاد ، فحكم على أشخاص بالاقامة فى بلادهم مع تجريدهم من رتبهم وألقابهم مع دفع تأمينات مالية ، وحكم على آخرين بالنفى لمدد مختلفة أدناها ثلاث سنوات وأكثرها عشرون سنة يقضونها خارج القطر . فنفى البعض الى السودان أو مصوع ، والبعض الى الاستانة أو بيروت . وكل من كان حاصلا منهم على رتب أو لقب أو منصب فى الحكومة جرد منه — ولكن شرفهم الذاتى ، وكرامتهم على الرغم من ذلك لا تمحوها الأيام

وكانت قد أقيمت عدة محاكم فى أنحاء القطر لمحاكمة الوطنيين ، فحكم عليهم بأحكام مختلفة منها الاعدام . وقد حكمت محكمة الاسكندرية على الشهيد سليمان سامى المتهم زورا بحرق الاسكندرية وتخريب مبانيها بالاعدام ، ونفذ فيه الحكم شنقا بميدان المنشية . كما حكم فى طنطا على

الشهيد يوسف أبو ريه بالاعدام شنقا ونفذ فيه هذا الحكم والله يعلم أنه برىء وان دمه واقع على رأس ابراهيم باشا ادهم مدير الغربية

وقد حكم بالاعدام أيضا على عـدد كثير من الوطنيين المخلصين رحمهم الله وكافأ الخونة الطاغين

الشعراء يتبعهم الغاوون

وقد كان بعض الشعراء وعلى رأسهم الشيخ على الليثى يؤيدون نهضتنا المصرية ، وكانوا يترنمون بهـا ويحثون الناس على نصرتها والتمسك بمساعدة الجيش المصرى. وقد جاء الشيخ على الليثى الى خط النار فى كفر الدوار وقام فى طائفة من العلماء ومشايخ الطرق يدعو الله لنا بالنصر على الأعداء ، وهم يؤمنون عليه ويقول فى دعائه :

«اللهم ان تهلك هذه العصابة الموحدة فلن تعبد بعدها فى مصر . اللهم عليك بالانجليز . اللهم اشدد وطأتك عليهم ، وانزل بهم بأسك الذى لا ترده عن القوم المجرمين . اللهم انا نجعلك فى نحورهم ونعـوذ بك من شرورهم . اللهم احصدهم عددا ، واقتلهم بددا ، ولا ترد منهم أحدا انك على كل شىء قدير »

ثم جاء الشيخ المذكور بعد هزيمة الجيش المصرى ودخول الانجليز مصر يعتذر للخديو عن نفسه وأمثاله بقصـيدة قال فيها (١) :

كل حال لضـده يتحـول ... فالزم الصـبر اذ عليه المعول
يا فـؤادى استرح فما الشأن الا ... ما به مظهـر القضـاء تنزل
رب سـاع لحتفه وهـو ممن ... ظن بالسـعى للعـلى يتوصـل
قـدر غالب وسر الخفـايا ... فوق عقـل الاديب مهمـا تكمل

(١) هذه القصيدة ستون بيتا . وكلها مدح وتملق للخديو توفيق

كيف ننسي وحادثات الليالي ... فاجأتنا بكارث ليس يحمل
اذهبت أنفسا وغالت نفيسا ... وذوى مربع الحظوظ وامحل
كان اقليمنا رياض صفاء ... فيه للواردين اعذب منهل
من رآه يقول توفيق مصر ... ابصر الناس بالامور واعدل
امنا الزمان فيه ونمنا ... آمنين الخطوب لا نتململ
ويح ... سوم سعوا لادراك امر ... دون ادراكه الجبال تزلزل
لو اصـ ا الرشاد عند ابتداء ... كانت الغاية الجميلة امثل
آه من رقدة الحلوم ودهر ... ايقظتنا صروفه اذ تبدل
كانت الناس فى ظلال نعيم ... تجتنى من ثمار غصن تهدل
مالنا لم نقم بجد وندعو ... من عدا للهدى وننصح من ضل
ما لنا كلنا سوى القل منا ... قد سلكنا سبيل غاو مضلل
لو رزقنا السداد لانسد باب ... وحقنا دماء قوم تحلل
كان ياقوته المذاب مصانا ... فسقينا به الثرى اذ تهبل
كم هدمنا جماجما وجسوما ... وجنينا الاسى بزلة من زل
يا ترى من يقوم عنا بعذر ... اذا اطعنا الغواة فى كل محفل
يا عظيم الجناب يا خير ملك ... سعده قد اباد من قد تقول
من بغى والوغى اثار فحكم ... فى طلاه الحسام والسيف فيصل
واجعل العدل عادل الرمح فيهم ... تالله قدر ما يعمل ويـ ... ل
واسقهم قدر ما سقيناه انا ... قد شربنا من بعد بعدك حنظل

وقد نسج على منواله وضرب على وتيرته الشيخ عبد الرحمن الابيارى قاضي الاسكندرية والشيخ محمد بسيونى ولا غرابة فى ذلك فانهم يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم حبا فى الحياة ، وخوفا من بطش الغالبين.

اخلاق عبد الله باشا فكرى

وأما عبد الله باشا فكرى الذى كان من فكره قتل الخديو ، أثناء الثورة ، فانه قبل انتهاء سنة ١٣٠٠ تقدم للخديو بقصيدة يتنصل بها من كل ما نسب اليه من الشر ويطلب رفده ورضاه ، فعفا عنه وأمر له بصرف معاشه ثم استبدل بمعاشه أطيانا يستغل من ريعها ألف جنيه شهريا وهاك نصها :

كتابى توجه وجهة الساحة الكبرى ... وكبر اذا وافيت واجتنب الكبرا
وقف خاضعا واستوهب الاذن والتمس قبولا ... وقبل سدة الباب لى عشرا
وبلغ لدى الباب الخديوى حاجة لذى امل ... يرجو له البشر والبشرى

لدى باب سمح الراحتين مؤمل — صفوح عن الزلات يلتمس العذرا
يراقب رحمن السموات قلبه — فيرحم من بالارض رفقا بهم طرا
مليكي ومولاى العزيز وسيدى — ومن أرتجى آلاء معروفه العمرا
لئن كان اقنوام على تقولوا — بامر فقد جاءوا بقولهم نكرا
حلفت بما بين الحطيم وزمزم — وبالباب والميزاب والكعبة الغرا
لما كان لي في الشر باع ولا يد — ولا كنت من يبتغى عمره الشرا
ولكن محتوم المقادير قد جرى — بما الله فى أم الكتاب له اجرى
اتذكر يا مولاى حين تقول لي — وانى لارجو أن ستنفعنى الذكرى
اراك تروم النفع للناس فطرة — لديك ولا ترجو لدى نسمة ضرا
فمفوا أبا العباس لازلت قادرا — على الامر ان العفو من قادر أحرى
وحسبى ما قد مر من ضنك اشهر — تجرعت فيها الصبر أطعمه مرا
يعادل منها الشهر فى الطول حقبة — ويعدل منها اليوم فى طوله شهرا
أيجمل فى دين المروءة اننى — اكابد فى ايامك البؤس والعسرا

اللورد دوفرين
يطلب منى بيانا للاصلاح

فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٨٢ طلب منى اللورد دوفرين بواسطة المستر برودلي المحامي عنا بيانا عن الاصلاحات اللازمة لانتظام الحكومة المصرية ، فتقدم منى اليه البيان الآتى :

(١) يجب على الحاكم فى مصر ان يكون محدود السلطة مقيدا بقوانين شورية ، وعليه مراعاة تنفيذها والمحافظة عليها . وتلك قاعدة أساسية تكون مرعية الاجراء على الدوام

(٢) يجب انتخاب مشايخ البلاد بمعرفة الأهالى من الذين اشتهروا بالعفاف وحسن المعاملة حيث ان كثيرا من المشايخ الموجودين طبعوا على سلب أموال الأهالى ليدلوا بها الى الحكام في سبيل ترقيتهم واعتبارهم

(٣) يجب انتخاب مجلس النواب من نبهاء الأمة المصرية وان يكون انتخابهم حرا كما في الممالك المتمدنة • وتعرض عليه جميع اللوائح والقوانين الادارية والاقتصادية وتعطى لاعضائه الحرية التامة فى المداولة وابداء آرائهم الصريحة

ليتمكنوا بذلك من حفظ حقوق منتخبيهم • ولا يلزم الحكومة العمل بما يقرره المجلس المذكور الا بعد مضى مدة فيها يعلم اقتدار أعضائه على إلنظر فى مصالح البلاد بواسطة نشر مجادلاتهم العلانية فى الجرائد • وحينئذاك تكون قرارات مجلس النواب قطعية والوزراء مسئولين أمام ذلك المجلس، وتلك المدة لا تزيد عن خمس سنين

(٤) يجب أن توضع قاعدة بين سكان القطر المصرى عموما لا يمتاز فيها الاجنبى على الوطنى فى جميع المعاملات وضرب الضرائب والرسوم وغير ذلك

(٥) يجب وضع حد للمرابين لمنعهم عن استعمال الغش وأدخاله على الاهالى لسلب أموالهم • كما يجب ايقاف المزارعين عند حد فى الأخذ بالربى

(٦) يجب تسوية دين المزارعين وتوحيده وتسديده بواسطة الحكومة الى الدائنين على أقساط مناسبة لحالة المديونين تسدد الى الحكومة مع أقساط الاموال الاميرية

(٧) يجب ابطال ضرائب الويركو والفردة والدخولية وجميع المكوس التى أضرت كل الضرر بالفقراء والمساكين

(٨) يجب ابطال طريقة التسخير التى هى السبب الوحيد فى عدم العمران وتشتيت شمل الفقراء الذين لا قوت لهم الا من كد أيديهم وعرق جبينهم

(٩) يجب أن تشهر اشغال تطهير الترع والجداول وانشاء المصارف وحفظ جسور النيل فى زمن الفيضان فى المناقصة بين المقاولين بواسطة وزارة الاشغال العمومية

(١٠) يجب توحيد القوانين القضائية فى جميع محاكم القطر المصرى ومراعاة تنفيذها بغاية الدقة بدون تدخل

ذوى سلطة فى تأويلها وآســـتعمالهم الطرق القــديمة فى مراعاتها ظاهرا وعدمها فى الحقيقة

(١١) يجب ابطال المحاكم المختلطة التيأضرت بالوطنيين وكانت هى الوسيلة الوحيدة لاعانة المرابين على تجريدكثير من الوطنيين من أطيانهم وأملاكهم

(١٢) يكتفى من الاجانب الموظفين بقـــدر الضرورة مع مراعاة حالة مالية البلاد فى رواتبهم والمناســبة بينها وبين رواتب الموظفين الوطنيين حتى لا تقع المنافســـة والمنافرة بسبب الامتيازات الفاحشة

(١٣) يجب أن يكون قنال السويس حرا بكفالة الدول الموقعة على معاهدة برلين • وفى مقابلة تنازل الامة المصرية عن حقوقها الصريحة فى ذلك يعوض لها مبلغ كاف يعــادل هذا التنازل لتسدد به جانبا من الدين ومع ذلك يبقى لمصر حق فيه كباقى الدول المذكورة • وعلى الدول أيضا أن تدفع مبلغا سنويا يكون كافيا للقيام بحفظ القنال المذكور

(١٤) يجب تعديل الضرائب وجعلها متناســبة مع حالة الاراضى واستعداداتها بدون فرق بين الاغنياء والفقراء

(١٥) لاجل تأمين الدائنين على أموالهم من كل خطر يخشى وقوعه فى المســـتقبل يجب تنزيل الدين الى ٥٠ فى المائة والفائدة ١ فى المائة والاستهلاك ١ سنويا

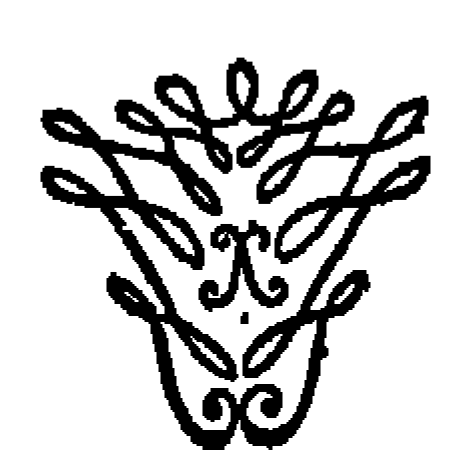
(١٦) يجب أن الأراضى العشورية تدفع ضرائب تساوى ضرائب الاراضى الخراجية حيث أن الخراجية صارت ملكا حرا لمالكيها بمقتضى قانون المقابلة

(١٧) يجب اعتبار الاموال التى دفعت من طرف المزارعين فى المقابلة دينـــا على الحكومة أســـوة بالاجانب وقدرها ١٧٫٠٠٠٫٠٠٠ سبعة عشر مليونا من الجنيهات

(١٨) يجب تعميم التعليم وتوسيع دائرته فى أنحاء القطر بحيث يكون اجباريا حتى سن ١٥

(١٩) يجب أن يكون لمصر (وزراء مفوضون) فى جميع الممالك الموقعة على معاهدة برلين لفهم حقيقة ما يكون جاريا فى مصر وتسهيل المعاملات التجارية وغيرها

هذه التسع عشرة مادة المذكورة هى الاصلاح الكافل لحياة مصر وأهلها . وهى الطريقة المثلى لتامين الدائنين على اموالهم . فعلى من يحب العدل والانصاف أن يعمل لتحقيقها لاصلاح ما أفسدته يد الاستبداد



حياتى فى المنفى

استقبال كريم فى سيلان

بعد ثلاثة أيام من دخولنا الجزيرة المباركة دعينا الى وليمة حافلة أقامها المحترم (محمد حنيفة) العضو فى مجلس الشورى عن المسلمين • حضرها جميع الاعيان ورؤساء الطوائف • ثم الى وليمة أقامها (الحاج شنى لبى) من وجوه الاعيان • ثم الى وليمة أقامها (وبش ماركاير) ثم الى وليمة أقامها المحترم (محمد لبى) ثم الى وليمة أقامها (الحاج عبد القادر) ثم الى وليمة أقامها (شنى لبى وأولاده عبد الرحيم ومحمود افندى) من الاعيان • ثم الى وليمة أقامها الاستاذ (الشيخ على جاد) • ثم الى وليمة أقامها (الشريف السيد عباس) • ثم الى وليمة أقامها (أكبر افندى) العضو فى مجلس الشورى عن طائفة الملاى والجاوه • ثم الى وليمة أقامها الوزير الكبير (ابراهيم الديدى) رئيس وزراء حكومة جزائر مالديف فى ثغر (جول) سيلان وأخرى أقامها ماكن كبير تجار الجواهر• ثم الى أخرى حافلة أقامها المحسن الكبير (سوزا)كبير شعب الشنكليز • ثم الى وليمة عظيمة أقامها الامير (راما سامى) كبير طائفة التمل • ثم الى وليمة مثلها أقامها (راما شلم) العضو فى مجلس الشورى عن طائفة التمل

وبعد ذلك أقمنا وليمة جامعة لأعيان المسلمين والانكليز والتمل والشنكليز وكان عدد المدعوين اليها مائتى شخص على اختلاف الاجناس والمذاهب والمعتقدات شكرا لهم على حسن احتفائهم بنا

وفى شهر فبراير سنة ١٨٨٣ حضر الى الجزيرة الحاكم

الجديد السير ارثر غوردون فكتبنا له عريضة بأن حكومتنا المصرية أرجأت تعيين المرتبات اللازمة لمعيشتنا الى ما يرد اليها من حاكم سيلان بالنسبة للاسعار الجارية فيها ، وبما أنه يلزم لكل منا خمسون جنيها شهريا ، فنؤمل مخابرة حكومة الانكليز بذلك وبناء على ما ذكر ترتب لى خمسون جنيها انجليزيا شهريا ، ولكل من الباشوات ثمانيةوثلاثون جنيها انجليزيا

مستر بلنت فى سيلان

وفى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٨٣ حضر صديقنا المستر بلنت من انجلترا لزيارتنا وتهنئتنا على نجاتنا منأيدى خصومنا. وبوصول السفينة المقلة له الى ميناء (ثغر كولومبو)هرع جميع سكان الثغرالمذكور لاستقباله حيثكانوا علىاستعداد تام لذلك قبل وصوله . وقد أخذنا نحن واخواننا وأولادنا زورقا بخاريا وذهبنا الى السفينة المذكورة . ثم صعدنا اليه وحظينا بمقابلته ومقابلة السيدة الفاضلة (اللادى آنا بلنت) وكان بمعيتهما القس لويس الصابونجى ، ثم نزلنا بعد ذلك الىالرفاص وعدنا الى البر والزوارق الاهلية محيطة بنا يهتف من فيها بعبارات الترحيب ويشيرون بأيديهم علامة للسلام والاعظام

ولما وصلنا الى البر تكاثرت علينا جموع المحتفلين بقدوم المستر ولفرد سكافن بلنت حتى تعسر علينا الوصول الى المركبات ولو لم تتدخل الشرطة فى منع ذلك البحر الزاخر من التكدس حولنا لاضطررنا الى الوقوف فىالميناء الساعات الطوال.

ثم ركبنا العربات وتوجهنا الى سراى (مورجن) المعدة لاقامة ذلك الضيف الكريم مدة ضيافته وهى على بعد ثلاثة أميال من الميناء بجهة (متوال) مشرفة على البحر . وكان الناس مصطفين على جانبى الطريق الموصل الى السراى وهم

يحيون المستر بلنت ونحن معه في المركبة بوجوه باشـــة وأسارير مبتهجة حتى وصلنا مقر الضيافة

وكانت السراي مزدانةبالانوار الكهربائية وأقواس النصر مكسوة بالازهار والرياحين وبأغصان (ألكووتن) وبجريد نخل جوز الهند وعراجينهوبالقرنفل والموزوالدوم والبرتقال والاناناس وبجميع أصناف الازهار السيلانية وأثمارها الغير المقطوعة ولا الممنوعة ، فصـــارت السراي نزهة الناظرين وضمت بين جدرانها خلاصةأهل سيلان على اختلاف مذاهبهم وكان مكتوبا على أقواس النصر بالانجليزية (مرحبا أهلا وسهلا بالصديق الوفي المستر ولفرد سكافن بلنت)

وما وافت الساعة الثالثة ليلا حتى برزت الالعاب النارية على أشكالها المختلفة الجميـــلة فابتهجت النفوس وأثلجت الصدور وعم الانشراح ، وشمل الارتياح ، وما زالوا هكذا حتى منتصف الليل

وقد أعدت له وليمة في اليوم المذكور حضرها نحو مائتي مدعو من أعيان جميع الطوائف في سيلان ، وبعد تنـــاول الطعام قام الفيلسوف الكبير (محمد سدى لبى) افنـدى المحامي وألقى خطبة بالانجليزية يشكر فيها المستر بلنت على غيرته وانتصاره للعدل والحرية ومدافعتـــه عن واجب الانسانية بعد كلمات الترحيب المعتـــادة في مثل هـــذا المقام ، فقام المستر بلنت ، وألقى خطابا وجيزا شكر فيــه لأهل سيلان احتفاءهم به واكرامهم له

وكان المســـتر بلنت متألما من مرض (الروماتزم) فلما أبل من مرضه بعد أســـبوعين من حضوره ونقه نقها تاما اشترك المسلمون في اعداد وليمة كبيرة تكريما له وللسيدة قرينتـــه في سراى (ليك هاوس) التي نزلنا بها عنـــد وصولنا الى الجزيرة .

وبعد تناول الطعام قام المستر بلنت وألقى خطبة أثنى فيها على كرم مســـلمي سيلان وحسن احتفائهم وعنايتهم

باخوانهم المصريين شهداء العدل والحرية والمدافعة عن وطنهم
فقام المحامي (محمد سدى لبى افنــدى) المذكور آنفا وألقي خطبــة ذكر فيها حسنات المســتر بلنت واهتمامه بالانتصار للضــعفاء والمظلومين • ثم انفرط عقد الاجتماع وكلهم ألسنة شكر وثناء واعجاب

ولما رأى سرور الناس بمقدمه وعظيم احتفالهم به حمدالله على ذلك بقوله : (الحمد لله على نعمائه فقد جنينا ثمرةأتعابنا بما شاهدناه من الاحساس الشريف عند عناصر الشــعب السيلانى وجميع المسلمين)

وبعد أن أقام فى سيلان مدة٢٢ يوما سافر الى الهند فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٨٣ فشيعناه الى أن ركب الســفينة ومكثنا معه الى ساعة السفر ، ولما آذنت الســفينة بالاقلاع ودعناه ونزلنا وكانت الميــنــاء غاصــة بالمودعين والزوارق منتشرة فى الميناء رافعة الرايات البيضاء مشيرة بالسلام الى أن أقلعت السفينة وأخذت تمخر فى عرض البحر

ثم توجه المستر بلنت الى حيــدر آباد ليشــهد تتويج (النظام) أى أمير حيدر آباد النواب حبيب الله لبلوغه سن الرشد • وكان من استقباله هناك واكرامه ما لم يخطر له على بال

وقد منع من الدخول الى مصر أثناء عودته بأمر المســتر (بارنج) الذى صــار فيما بعد اللورد كرومر فذهب الى الاستانة حيث قوبل بكل احــترام بأمر الحضرة السلطانية ثم قفل راجعا الى انجلترا

وله قصيدة بليغة بالانجليزية يشكو فيها الى الله من ظلم الانجليز واعتدائهم على مصر وبغيهم عــلى الامم الضعيفة ، وينذرهم بسوء المنقلب والانتقام العاجل من الله القادر ملك المــلوك ورب الارباب ، ويعزى مصر على ما أصــابها من الظلم ، ويبشرها بالخــلاص من ربقة الظــالمين • وان الله سينصرها ويرد اليها مجدها وسؤددها ، وأن على البــاغى

تدور الدوائر . وقد ترجم تلك القصيدة الى العربية القس لويس صابونجى ، فجاءت كأنها من نبوءات النبى حزقيائيل (من أنبياء بنى اسرائيل)

فى الجزيرة

مساحة هذه الجزيرة ٢٠ مليون ايكر (فدان انجليزى) جميعها خصبة ، وهى على شكل كمثرى وعـدد أهلها ثلاثة ملايين تقريبا منهم مائتان وخمسون ألفا من المسلمين . وأما الباقون فهم من الشـــنكليز والتمل على مذهب (البوذا) وبعضهم هنـــود على مذهب (براهما) . وكلهم أهل دعة وسكون يكرمون الغريب ويحسنون ضيافته

وفى يناير ســـنة ١٨٨٤ تكرم علينا (الماهراجا) أى سلطان مملكة جاهور من الممالك الهندية بالزيارة فقابلناه بما يجب له من التعظيم والاحترام ، وكان معه مستشـــار انكليزى حتى لا ينبس نبسة الا حفظها الرقيب عليه فى حبة قلبه ، وبعد نصف ســاعة عاد الى دار حكومة ســـيلان . وفخامته من شيعة على عليه السلام ، وله محبة كبيرة لآل بيت النبوة ، حتى لقب « بكلب على » !

وفى السنة المذكورة حضر لزيارتنا اللورد روزبرى واللورد مكدونلد فى محل اقامتنا بجهة (متوال) وبعد هنيهة أخذ يسألنا عن حملة هكس فى السودان ، وهل هى كافية لدحر قوة محمد أحمد المهدى أم لا . وكانت المكالمة باللغة الفرنسية ، وكان محمود باشا فهمى يترجم لنا كلام اللورد روزبرى ، وهاك المحاورة التى صارت بيننا كما ترى :

س ـ ما رأيكم فى دعوة مهدى السودان هل هو المهـدى المنتظر عند المسلمين ؟

ج ـ وماذا يعنيكم من أمره ؟!

س ـ ان أمره يهمنا كثيرا فان عندنا فى الهند ٦٠ مليون

من المسلمين وكلهم يعتقد أن المهدى المنتظر يجمع شتات المسلمين تحت رايته

ج ـ ان هذا الاعتقاد يعتقده كل مسلم ولكن له مقدمات لم تأت بعد

س ـ اذا ليس هو بمهدى

ج ـ كل داع الى العدل والاصلاح فهو مهدى ولكن غير المنتظر

س ـ ان الحكومة المصرية أرسلت جيشا من عشرين ألفا لقتاله بقيادة رجل انكليزى اسمه (هكس) فهل ترون أن هذا الجيش كاف للتغلب على المهدى

ج ـ نحن نرى ان وجود قائد انكليزى على جيش مصرى يكون من صالح المهدى فانه يحكم بكفر المصريين الذين يقاتلون المسلمين تحت قيادة مسيحية ويستبيح قتلهم بسبب هذه القيادة • واذا استولى على أسلحة هذا الجيش وذخيرته أصبح قويا يخشى جانبه

س ـ أى علاج فى نظركم لاطفاء شعلة ثورته •

ج ـ اننا نرى أنه قائم بدعوة دينية وعلاجها أن يرسل له وفد من أجلاء العلماء يحاجونه بالدليل والبرهان ويقنعونه بأن وقت المهدى لم يحن بعد فيرجع عن دعوته • وان كان طالب ملك فيجعل أميرا على السودان تابعا للحكومة المصرية وعلى الحكومة المذكورة أن ترسل العلماء من القضاة والحكماء والمهندسين والمعلمين ، وتفتتح المدارس ، وتجرى الاصلاحات اللازمة فى الاقطار السودانية لتمدينها ، وفى مقابلة ذلك يعطى مصر جزية سنوية بنسبة دخلها ومصروفها

وفى اليوم الثانى توجهنا مع محمود باشا فهمى الى دار الحكومة لرد الزيارة الى اللوردين المشار اليهما فوجدنا اللورد روزبرى توجه الى صيد الافيال فى مسارحها وأما اللورد مكدونالد فلم يتوجه معه وأخبرنا بورود تلغراف الى اللورد

روزبرى بأن حملة هكس هلكت عن آخرها واستحوذ المهدى على جميع أسلحة الحملة ومدافعها وذخيرتها وكان الامر كما اخبرتمونا بالامس

□

وفي السنة المذكورة زار سـمو الدوق (اف كنوت) ثالث أنجال ملكة الانكليز جزيرة سيلان وقد تقدم وصوله اليها حضور صديقنا السير وليم جريجورى كاتم أسرار الملكة فقدمنا الى الدوق عند وصوله الى رصيف الميناء ، فلاطفنا سموه ، ودعانا نحن المصريين الى وليمة في سراى الحكومة. وقد ازدهت السراى بالانوار والاضواء فكان الليـل كأنه ضحوة النهار

رجاء ويأس

وجاء صديقنا السير وليم جريجورى المذكور مرة ثانيـة الى سيلان في شهر مايو سنة ١٨٨٧ وشاهد احتفال اليوبيل (أى عيد الخمسين سـنة لجلوس جلالة الملكة فكتوريا على عرش انجلترا) الذى أقيم فى ٢٠ يونيو سـنة ١٨٨٧ . وقد أشار علينا حفظه الله بأن نحرر عريضـة الى الحكومة الانجليزية نطلب منها العودة الى بلادنا لما رآه من انحـلال قوانا بالنسبة لرداءة الطقس ووعدنا بالمساعدة ، ولكننـا حررنا عريضة نلتمس فيها نقلنا الى جزيرة قبرص لموافقة هوائها لهواء مصر مراعاة لصحتنا، لانه رجح عندنا أن الوقت الذى يجب أن نطلب فيه العـودة الى بلادنا لم يحن بعد . وقدمنا العرض الى صديقنا المشار اليه فأرسله الى الحكومة الانجليزية وهذه كتبت عليه للحكومة المصرية التى رفضت اجابة طلبنا وأشارت الى ارسالنا الى بلاد الكاب (فى جنوب أفريقيا) أو زيلع (في الشرق منها) حيث كان رياض باشا رئيس الحكومة المصرية اذ ذاك لسوء الحظ . فعلل ربط ما

نأخذه من المعاش الزهيد على ابعادنا عن مصر ، كأنه لا يعلم أن ما يعطى لنا هو فى مقابل ما سلبته الحكومة من أملاكنا ونهبته من أموالنا • فصبرنا على ذلك وفى الحلق شجى وفى العين قذى،وفضلنا بقاءنا فى سيلان على الانتقال الى الاصقاع التى اختــارتها الحكومة المصرية حتى يهيىء لنــا الله فرجا ومخرجا

وفى ســنة ١٣١٠ توفى الى رحمة الله شهيد الوطنيــة والغربة عبــد العال باشــا حلمى ودفن فى قرافة قسم (مردانة) وضريحه مشهور يزار•ومن كراماته ما شاهدناه من اجتماع أسراب من الطير فوق نعشه تسير بسير الجنازة، حتى واريناه التراب وقد أخذ النــاس العجب كل مأخذ لهذه الظاهرة الغريبة !•

مكرمة صديق

وفى سنة ١٨٩١ زارنا صديقنا الفاضل السير توماس لبتن ولما وجد انحطاط صحتنا وضعفها من تأثير الرطوبة والحرارة الملازمتين لمناخ مدينة (كولمبو) تكرم بدعوتنــا للتوجه الى مزارعه فى البلاد العالية المرتفعة لطيب هوائهــا وحسن منظرها ترويحا للنفس واســـتجلاء للنفوس من أكداس الصدأ الذى اصطلح عليها • وقد تكفل بالمصاريف فشكرناه على ذلك كثيرا • ثم أنه عين لمرافقتنــا اثنين من وكلائه وهما المستر (فيزر) والمستر (بيوكتن) وأمرهما باداء كل طلباتنا حتى نصل الى مزارعه فى(دمبتنه) فقمنا من كولمبو ومعنا أخونا على باشا فهمى والوكيلان المذكوران الى مدينة (كندى) العاصمة القديمة ومقر الحكومة بطريق الســكة الحديد فوصلناها بعد أن قطع بنا القطار اثنــين وسبعين ميلا•ومن ثم ركبنا قطارا آخر الى (نورالبه) وهى آخر محطة للسكة الحديدية هناك،فبلغناها بعد طى عشرين ميلا • ومن هناك ركبنا المركبات وصعدنا الى سطح جبــل

هناك واتممنا ليلتين في فندق يقال له (جراند هوتيل)وهو على ارتفاع نحو ٧٣٠٠ قدم فوق سطح البحر • وهناك بلدة عامرة وبركة عظيمة طولها ميلان وعرضها ربع ميل،وعليها بوابات محكمة الصنع تقذف ما يزداد من الماء المتجمع فيها من السيل الى مجارى الوديان المنخفضة بترتيب هندسي متقن

ولما سمع المسلمون بقدومنا حضروا لزيارتنا والاحتفال بنا زرافات ووحدانا فشكرناهم على حسن احتفائهم بنـــا ودعونا لهم بالخير

وفي اليوم الثاني زرنا مسجدهم وسوقهم • ثم توجهنا لنمتع النظر بالمنتزه العظيم في جنوب منتهى البركة الشرقي وهو منتزه يقال له (الهجالة) تبلغ مساحته ٧٠٠ فدان • ويوجد جبل مرتفع عن سطح البحر بمقدار ٨٣٠٠قدم وعن أرض الفندق بمقدار ١٠٠٠ قدم ، وهو فى شمال (نورالبا) يرى الناظر من فوقه الفيلة وأنواع الغزلان والمها والجواميس المتوحشة والوحوش فى مســارحها أسرابا أسرابا ، فكان المنظر مما ينفث عن المصدورين بعض ما بهم من متاعب • وكان الهواء النقى هناك سببا لتقدم صحتنا فى ذلك الزمن القليل

وفي اليوم الثالث غادرنا (نورالبـــا) الى (الهجالة) وأخذنا غذاءنا فى الاستراحة التـــابعة للحكومة ، ومن ثم تابعنا السير بالمركبات الى أن وصلنا بلدة يقال لها (ديكولا) فبتنا هناك فى محلات أنشأتها الحكومة لنزول مستخدميها وغيرهم عند مرورهم لتأدية واجبات ، أو للنزهة نظير دفع شيء كثمن الطعام أو أجر المبيت لمدير النزل بعد أن يثبت ذلك فى دفتر خصيص لحصر المصاريف • وهكذا ســـلمت الاهالى من احتمال المصاريف الباهظة التى يكابدونها عند مرور الحكام وأتباعهم عندهم كما هو جار فى البلاد المصرية• وحبذا لو اتبعت الحكومة المصرية هـــذه الطريقة فتخلص الاهالى من هذا العبء الثقيل وتحفظ أموالها لما هو أنفع وأعم

فائدة. وفى اليوم الرابع قمنا مبكرين وأخذنا نجد فى السير الى أن بلغنا بلدة (ادم ولا) عند الظهيرة فهرع المسلمون هناك لاستقبالنا بكل ترحاب ، وبعد أن استرحنا نحو ساعة استأنفنا السير حتى وصلنا بلدة (بندراولا) فبتنا فى نزلها وتمتعنا بهوائها العليل

وفى اليوم الخامس سددنا خطواتنا الى (دمبتنا) وهناك استقبلنا أهلها من المسلمين وغيرهم بكل بشاشة واكرام وبعد أن تغدينا فى نزلها امتطينا جيادا كانت معدة لنا وصعدنا الى سراى السير توماس لبتن البعيدة عن المنزل بمسافة أربعة أميال . وتحيط بهذه السراى بساتين نضرة وتكتنفها مزارع متلاصقة خضراء من شجر البن والشاى والكينا . وسياج تلك البساتين من أنواع الورد وشجر الخوخ والبرتقال وغيرها مما يضيق بوصفه المقال

وهناك وجدنا أسباب الراحة وافرة فأقمنا شهرا كاملا في ضيافة صديقنا السالف الذكر.. وكنا رأينا فى غضون هذه المدة كيفية جمع ثمر البن ـ الذى يشبه ثمر النبق تماما ـ وبشره وغسله ونشره في الفاوريقة . وكذلك زراعة الشاى وكيفية جمع أوراق أطراف الاغصان وفرمها ونشرها حتى تذبل ثم ادخالها فى فرن طوله ٨ أمتار واخراجها منه . ثم وضعها فى غرابيل تفرزها الى أربعة درجات أو أصناف لكل منها قيمة معلومة ، كل ذلك فى الفاوريقة حيث تقطع أوراق الشاى الخضراء التي تشبه ورق الملوخية الى قطع صغيرة ناشفة وتكون تامة الصنع صالحة لان توضع في صناديقها فى مسافة لا تزيد عن ساعة من الزمن

هدية الى مصر

ولايجاد نوع البن اليمنى فى بلادنا المصرية أرسلنا الى صديقنا المرحوم أحمد باشا المنشاوى تقاوى تكفى لزرع عشرين فدانا حتى يعمم انتشاره . كما أرسلنا لهذا الغرض

أحسن أنواع (المانجه) و (الموز) الاحمر والاصفر المضلع أيضا وغيره من الاصناف المتعددة من الفاكهة الزكية الرائحه اللذيذة الطعم التى رجوت انتشارها فى مصر . وبعثنا اليه أيضا بأنواع الحبهان والقرنفل والبانليا الطيبة الرائحة

ثم زرنا مزارع صديقنا السير لبتن بجهر (بيراسيا) ومكثنا بها شهرا أيضا . وعدنا بعد ذلك الى (دمبتنا) مرة ثانية وأقمنا فيها ٤٠ يوما كأربعين لحظة فى سرور وراحة لا يكاد يدركهما عقل انسان ، وذلك بفضل اعتناء الرجل المهذب المستر موريس ناظر مزرعة دمبتنا وهمة الشاب اللطيف المستر برى ناظر مدرسة بيراسيا

ثم قفلنا راجعين الى كولمبو ونحن نرتل آى الشكر والثناء لصديقنا السير توماس لبتن معجبين بكرمه وحسن اعتنائه بنا ..

انتقالنا الى كندى

وفى سنة ١٨٩٢ انتقلنا الى مدينة كندى عاصمة الجزيرة قديما وعولنا على الاقامة فيها لقرب مناخها لمناخ مصر فى زمن الربيع . وقد أمر الحاكم السير ارثر غردون بسفرنا فى صالونه الخاص بالسكة الحديدية . وكان قد استأجر لنا منزل المستر فيجانيكا حاكم البلدة ، وهناك أقمنا الى وقت عودتنا الى بلادنا

وكان قد سبقنا بالاقامة فى مدينة كندى محمود باشا سامى ويعقوب باشا سامى وطلبة باشا عصمت ثم قام على أثرنا على باشا فهمى . ولم يبق فى كولمبو غير محمود باشا فهمى لانه كان قد أصيب بشلل فى جانبه الايسر

وفى ٤ ذى الحجة سنة ١٣١٢ حضر محمود باشا فهمى الى كندى لتغيير الهواء ونزل ضيفا على ولدنا السيد محمد بك عرابى ولكن أجله لم يمهله حيث توفى فى ليلة ١٣ من الشهر المذكور ودفن فى قرافة « منيرة كندى »

ومدينة كندى هذه قائمة فى واد ذى ثلاث شعب (بين ثلاثة جبال • وبها بيت للحاكم ومحكمة نظامية فى بيت ملوك طائفة الشنكلبز

وفى منتصف المدينة بركة عظيمة طولها ميل وعرضها من ٢٠٠ الى ٤٠٠ متر تقريبا ، تنصب فيها مجارى السيل من رؤوس الجبال •وعليها حاجز من الشمال وقنطرة لصرف المياه الزائدة عن منسوبها • وعلى حافتها أشجار المنجو والدوم وجوز الهند وغير ذلك • وهى محل النزهة العمومى

وفوق الجبل الغربى خزان للمياه المنبجسة من قمته طوله نصف ميل وعرضه مائة متر وعليه سد عظيم • وفى جانبه الجنوبى جدول فوق سطح الخزان تنصرف فيه المياه الزائدة وتمتد منه المواسير الموصلة الى أعلى نقطة من بيوت المدينة

وفى هذه المدينة الجميلة منتزه يقال له (سيرادينيا جاردن) على نهر سيرادينيا مساحته نحو ٦٠٠ فدان كله أشجار من أنواع مختلفة وبجانب كل شجرة منها لوحة مكتوب عليها اسم نوعها وبلادها الاصلية • وهو منتزه فائق الابداع، وله دفتر يقيد فيه اسم كل من دخله

معبد كندى

وفى وسط المدينة معبد عظيم عليه قبة شاهقة فوقها كرة كبيرة من الذهب الخالص• وفى هذا المعبد سن منسوبة (للبوذا) موضوعة فى علبة من ذهب داخل صندوق من الآبنوس ، ويجتمع أهل الجزيرة فى مدينة كندى كل عام لمدة أسبوعين فى مولد البوذا ويسير الموكب ليلا فى الطرقات حتى تنتهى مدة الاحتفال

اما كيفية سير الموكب فهى أن تطوف فى الشوارع من ٤٠ الى ٥٠ من الافيال وعليها السروج المزركشة ثم يمشى خلف الموكب أحد ذرية ملوك سيلان وخلفه فيل عليه شبه خزنة للعطايا وامامه ذرية الوزراء ثم الاعيان ، •وكل واحد من

هؤلاء خلفه ثلاثة أفيال أو أربعة وهو ماش على أقدامه ملتحفا برداثه المزركش على حسب عوائدهم القديمة ، وحوله رجال ادارته وبين يديه الطبول والزمور والرقاصين • وهكذا يجرى الموكب حتى تنتهى مدة الاحتفال بالمولد

المساجد والمسلمون

وفى المدينة المذكورة ضريح للسيد شهاب الدين على مرتفع من الارض يصعد اليه بمرتقى نحو ٢٠ سلما ، ومسجده عظيم متقن وهو حرم المدينة

وهناك مسجد آخر لطائفة (الملاى) وكنيسة للبروتستانت وأخرى للكاثوليك ومعابد لطائفتى (التمل والشنكليز)

ويبلغ تعداد هذه المدينة نحو ٢٠ ألف نفس منها نحو ١٠ آلاف من المسلمين ، وكلهم على مذهب الامام الشافعى رضى الله عنه • وفى الايام العشرة الاول من شهر المحرم يقيمون المساخر احتفاء بدخول العام الجديد على أشكال مختلفة تشبه ما يجرى فى مصر وأوربا فى أيام الاعياد • وفى يوم عاشوراء يصنعون قبة تشبه قبة المحمل مغطاة بكسوة مزركشة تسمى (باجورا) ويسيرون بها بموكب عظيم فى أغلب شوارع المدينة وأمامهم الموسيقى والطبول والزمور والصنوج احتفالا بذلك اليوم

أما ثغر (كولمبو) فيسكنه نحو ١٥٠ الف نفس والمسلمون منهم يبلغ عددهم نحو ٢٠ الفا والباقون من الهندوس والشنكليز والتمل والبرتغاليين والهولنديين وقليل من الفرس • وفيه سبعة مساجد • الجامع الكبير فى مركز المدينة وجامع (مردانه) وجامع الملاى فى مركز جزيرة العبيد (سليف آيلند) وجامع (متوال) وجامع (كوليتي) وجامع (كارمجى جعفرجى) للشيعة وجامع (الشيخ عبد الله) فى بساتين القرافة

في العودة الى مصر

وفي شهر فبراير سنة ١٩٠٠ صدر ترخيص لطلبة باشا بالعودة الى مصر بناء على قرار جمعية من الاطباء بأنه اذا لم يعد الى بلاده لا يعيش أكثر من خمسة أشهر ، ووافق على ذلك حاكم سيلان السير ردجوى جوزيف ، فرجع الى مصر، ولكنه لم يعش أكثر من المدة التى قررها الاطباء فلبى دعوة ربه رحمه الله ، ودفن بقرافة الامام الشافعى رضى الله عنه

وكذلك حدث لمحمودباشا سامي ارتشاح فى (القرنيتين) أفقده النظر ، وقرر مجلس الطب وجـوب عودته الى بلاده لمعالجته في المناخ الذى ولد فيـــه ، ووافق على ذلك حاكم الجزيرة السير ردجوى جوزف ، فترخص له بأمر الخـــديو بالعودة الى مصر ، فرجع في شهر سبتمبر ســنة ١٩٠٠ . ونال رضى الحضرة الخديوية ، ومنح الحقوق المدنية ، وردت اليه أملاكه الموقوفة ، واستولى على ريعها المتجمد مدة نفيه من ديوان الاوقاف ، ولكن لم يعد اليـــه بصره الى أن مات رحمه الله وضم الى عظام أهله

وفي شهر أكتوبر سنة ١٩٠٠ توفى يعقوب ســامي الى رحمة ربه ودفن بجوار قبر محمود باشافهمى بقرافة (منيرة كندى) بمدينة كندى . ولما نعيته الى حاكم ســيلان كتب كتاب تعزية الى زوجته وابنته،وذكر فيه أنه صدر له الأمر بالعودة الى وطنه المحبوب وكان يود أن يبشره بذلك.ولكن المقدر لم يسمح له بأن يرى بلاده وبعد ســـداد ديونه من مرتبه الذى كان يصرف لامرأته ، أرسلت وابنتها الى مصر على حساب الحكومة المصرية. في الدرجة الاولى ، وأرســلنا ولدنا الســيد على عرابى معهما لحفظهما ورعايتهما فى مدة السفر ، وأوصلهما الى عائلتهما بمصر بكل صيانة وكرامة

وفى ١٢ مايو سنة ١٩٠١ زار مدينة كندى ركاب ولى

عهد الحكومة الانكليزية فجال فيها وكانت المدينة مزدانة بأحسن زينة

وفي ١٤ منه قابلت سموه، فلقيت منه كرما وحلما وكمالا وآنست رقة ولطفا فجلست في حضرته نحو ربع ساعة ، وسألني فيها عن صحتي وحالتي فعرضت على سموه اني أعتبر تشريفه للجزيرة فكاكا لنا من الأسر فوعدني بأنه سيسعى لدى الخديو في تحقيق ذلك ثم جرت المخابرة بين سموه وبين الحكومة الانكليزية والحكومة المصرية في هذا الشأن

وفي ٢٤ من الشهر المذكور جاءنا تلغراف من حاكم الجزيرة يقول فيه انه قادم الى كندى ليبشرنا شخصيا بصدور أمر الخديو بالعفو عنا وعودتنا الى وطننا العزيز ، وبحضوره توجهنا اليه وشكرناه على لطفه ، وعرضنا عليه أن لنا الحق في السفر على حساب الحكومة التي حملتنا الى تلك الجزيرة فأخذ بيانا بالأنفس التي معنا، وتخابر مع الحكومة الانكليزية والمصرية في شأن ذلك ، فصدر الأمر بسفرنا على حساب الحكومة المصرية فاستعددنا لذلك وشرعنا في تسديد ما علينا من الديون شيئا فشيئا ، حتى أبرأنا ذمتنا وطرحنا عن كاهلنا حملا ثقيلا

وفي شهر أغسطس سنة ١٩٠١ بارح علي فهمي باشا جزيرة سيلان ودخل القاهرة في أول سبتمبر من السنة المذكورة

وفي ٤ سبتمبر بارحنا مدينة كندى صباحا ، وكان صالون الحاكم معدا لنا فأقلنا القطار الى كولمبو . أما احتفال أهل كندى بوداعنا فقد كان عظيما حتى غصت أرصفة المحطة بالمودعين ، وفي مقدمتهم محمد افندى يوسف والدكتور كيت طبيب عائلتنا وابراهيم لبى وغيرهم ، ولما وصلنا ثغر كولمبو نزلنا في بيت صديقنا المحترم كرمجي جعفرجي

الكائن في (بمبلابتيا) وأقمنا به١٤ يوما فى انتظار السفينة المسماة (البرنس هنرى) الالمانية الآتية من الصين. وفي تلك المدة دعينا لتوزيع المكافأة على الناجحين من تلاميـــذ مدرسة (ميردانة) الاسلامية التى صار افتتاحها بحضورنا على نفقة المسلمين تحت رئاسة المحترم وبش ماركار وولده المحترم عبد الرحمن افندى العضو العامل فى مجلس الحكومة عن طائفة المسلمين ، وكذلك زرنا المدرسة الحميدية لتوديع أساتذتها وطالبيها وكان الاحتفال فيها شائقا جدا ثم زرنا بيوت أعيان الثغر ونبهائه كبيت المحترم شنى لبى وأخيه محمد لبى وبيت محمود شنى لبى وزين الدين افندى وعبد الرحمن افنــدى العضـــو المذكور وبيت المحترم كريمجى جعفرجى وأخوته المحترم آدم على ابن أخيه ، وبيت حضرة الوزير الكبير ابراهيم ديدى كبير وزراء سلطنة ملديف

وفى أصيل ٢١ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ دخلت السفينة (البرنس هنرى) ميناء كولمبو وتغطى وجه الماء بالزوارق والرفاصـــات وتكدست جموع المودعين تكدسا هائلا حتى لم نتمكن من الوصول الى السفينة الا بشق النفس وهناك تليت علينا قصائد التوديع من نخبة أهل سيلان ثم سلمت الينا فى محافظ من الفضة الخالصة البديعة الصنع

وفى الساعة الواحدة بعد الغـروب نزل المودعون وهم يبكون للفراق ، وتفرقوا جماعات ووحـــدانا وقد أمطرت السماء مدرارا كأنما تفتحت ينابيعها فنزل السيل كأنه من أفواه القرب والطيور محلقة فى الجو فوق الميناء أسرابا كأنها أتت لتوديعنا أو لمشاهدة ذلك الاحتفال

ولما استقر بنا المقام فى السفينة بعد مغادرة تلك الجموع المكتظة بها، أقلعت بعد ساعتين (باسم الله مجريها ومرساها) تمخر فى عرض المحيط الهندى لاول مرة وقبلتها كنانة الله العزيز الحكيم . وكانت حمولتها ١٢٠٠٠ طنا وسرعة سيرها

بنسبة ١٦ عقدة في الساعة وهي مستوفية لاسباب الراحة وكانت الريح هادئة وما هو الا القليل حتى غابت شواطىء الجزيرة عن العيون وقصر مدى الابصار عن ادراكها ، فلم نعد نرى غير مسبح الفلك،ومسرح الحوت ، فبتنا تلك الليلة ولم يطعم الكرى أجفاننا ولم يجد الوسن اليها سبيلا فرحين بقرب رؤية الوطن العزيز ، حتى خلنا أن السفينة قد عطلت عن سيرها مع أنها تكاد تطير لشدة سرعتها ، ووددنا لو أن لنا أجنحة فنطير ، وهكذا أخذنا نردد طول تلك الليلة قول القائل :

رياح الفلا هلا تكونين مركبي

فان بخار القطر ليس بمسعف

ولما كان الصباح قمنا مبكرين وأشرفنا على منظر يأخذ بمجامع القلوب ويستهوى النفوس ، فقد رأينا الشمس بارزة من خدرها ، وقد أماطت عن وجهها قناع الظلمة كالحسناء التى نزعت خمارها الاسود ابتغاء مرضاة عشيقها الذى ما فتىء يسألها السفور وقد أتعبه النظر الى الدياجير والحنادس • وقد أرسلت الشمس أشعتها الارجوانية على أديم الماء ، فأخذ يلمع كالذهب الوهاج • وأينما ألقيت بصرى رأيت سبيكة من النضار لا تستبين آخرها العيون والابصار

على هذا النمط مرت الايام والليالى حتى اجتزنا خليج عدن والسفينة تتهادى في مياه البحر الاحمر كأنها العروس ليلة زفافها تميل ذات اليمين وذات الشمال معجبة بدلالها وعظمتها • وبعد أن قطعت نحو ثلاثة آلاف ومائتى ميل رست فى ميناء السويس • وذلك في غروب يوم ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٠١ الموافق ١٤ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ فبتنا تلك الليلة فى السفينة وفى الصباح ودعنا من فيها وخرجنا الى البر ، ونحن نتنفس الصعداء ونلهج بأنواع الدعاء لله

سبحانه وتعالى لوصولنا الى بلادنا سالمين بعد مرور ١٩ عاما ذقنا فيها وتحملنا مكرهين ألم الفراق

· وهناك نزلنا فى بيت الشيخ النجارى بعد أن كتبنا الى محافظ المدينة مصطفى بك ماهر الذى كان من تلاميذ السيد عبد الله نديم وكان معروفا بحب الحرية والوطنية ، فأنكرنا وأعرض عنا ولم يتنازل الى الرد علينا · فبعثنا بتلغراف الى قائمقام الحضرة الخديوية وكان فخرى باشا، فكتب الى مصلحة السكة الحديدية بتخصيص صالون لنزولنا وعائلتنا ومن معنا من السويس الى القاهرة على حساب الحكومة · وكان عدد عائلتى وحاشيتى ٢١ نفسا

وفى ١٦ جمادى الآخرة سنة ١٣١٩ الموافق أول أكتوبر سنة ١٩٠١ برحنا السويس ووصلنا الى القاهرة قبيل الغروب · وقد كان ازدحام الناس لتوديعنا فى محطة السويس عظيما ، وكذلك كان استقبالنا فى الزقازيق وبنها وخصوصا فى القاهرة ، فان اجتماع الناس بلغ حده الاقصى بالرغم من تنبيه المحافظة الشديد بعدم التجمهر والاحتفاء

ولما نزلنا فى محطة القاهرة أخذنا المركبات الى منزل أولادى بشارع الملك الناصر فى شارع خيرت واجتمعنا بهم بعد غيابى تسعة عشر عاما وأربعة أشهر :

وقد يجمع الله الشتيتين بعدما
يظنان كل الظن أن لا تلاقيا

مطالبتى باملاكى

فى ٨ يونيو سنة ١٩٠٥ كتبت الى لورد كرومر خطابا نوهت فيه بما ضمنه تقريره عن مصر والسودان فى السنة السابقة من أن الثورة العرابية كانت ضد العسف وسوء الحكم ، ثم قلت : ان الحكومة السابقة المستبدة الظالمة سلبت ونهبت أملاكى بغير حكم شرعى ، وطالبت برد هذه الاملاك

والاموال ، أو تعويضي عنها لتكون معاشا بعد وفاتي لعائلتي التي تزيد على خمسين شخصا • فكان جوابه أنه يأسف لعدم امكانه التدخل في مسألة نظرت فيها الحكومة المصرية سنة ١٨٨٢ ؛ وهو جواب من قبيل ذر الرماد في العيون ، اذ كان اللورد مطلق التصرف في الحكومة ولا راد لأمره

وفي ١٩ديسمبر من تلك السنة كتبت الى مستشارالمالية المصرية مطالبا اما برفع المرتب السنوي المقرر لي من الحكومة المصرية من ستمائة جنيه الى ألفي جنيـــه طبقا لما وعد به اللورد دفرين عقب حوادث١٨٨٢ ، واما برد أملاكي المنهوبة بغير حكم قانوني وريعها يزيد على ٣٠٠٠ جنيه في السنة، أو تعويضي عنهـــا احقاقا للحق وحفظا لكرامة عائلتي ، فرد المستشار في ٢٨ من ذلك الشهر بأنه يأسف لانه لا يقدر أن يشير على الحكومة المصرية بتحقيق ما طلبت

وقد عرضت مثل هذا الطلب عـــلى رئيس النظار ثلاث مرات فلم يجب بكلمة ما ، لانه لا يقدر على شيء

وفي ٣٠ مارس سنة ١٩٠٦ كتبت الى ولي عهد انجلترا البرنس أوف ويلز لمناسبة وجوده بقصر عابدين أثناء زيارته لمصر للتوسط لدى الخديو لمنحي حقوقي المدنية ورد أملاكي المسلوبة أو ترتيب معاش معـــادل لها تتوارثه ذريتي من بعدي ، كما كتبت بذلك الى الحضرة الخـــديوية ومصطفى فهمي باشا رئيس مجلس النظـار ولورد كرومر • فتلقيت في ١١ من ابريل التالي من سكرتير ولي عهـــد انجلترا أن أعمال سموه لا تسمح له بالتوسط المطلوب • كما تلقيت من لورد كرومر ردا بهذا المعنى نفسه • ولم أتلق من الخديو أو رئيس النظار أي رد

وفي ٨ نوفمبر سنة ١٩٠٨ سلمت أحمد شفيق باشـــا رئيس الديوان الخديوى التماسا لعرضـــه على الخديو لاتمام

العفو عني بمنحي الحقوق المدنية وتسوية معاشى ، فوعد بعرضه ولم تظهر لذلك نتيجة

وفي ١٠ مايو من تلك السنة كتبت في ذلك الى رئيس الحكومة الانجليزية ووزير خارجيتها ورئيس البرلمان الانجليزى والى كثير من الاحرار الانجليز ، فتلقيت فى ٢١ من أغسطس التالى من وزارة الخارجية البريطانية ردا أحالتنى فيه الى الحكومة المصرية

وهكذا تبين أن الحكومة المصرية لا تريد أن تسمع لصوت الحق ولا ترد على من يخاطبها ، أو هى لا تقدر على عمل يخالف ارادة الانجليز . كما تبين أن الحكومة الانجليزية لا تريد أن تتوسط فى اقامة العدل ودحض الظلم ورد أملاكى المنهوبة بقوة الاحتلال ، وتحيل شكواى الى حكومة الخديو التى لا تقدر على عمل ما بغير أمر الانجليز . ولذلك تركت لاولادى وأحفادي من بعدى ، ولذريتى جيلا بعد جيل ، الحق فى المطالبة بحقوقى وأملاكى المنهوبة من الحكومة المصرية ومن المجلس النيابى المصرى ، حين تسترد الأمة حريتها واستقلالها ومجلسها النيابى . وانى واثق بأن أمتى المصرية الكريمة لا تنسانى ، ولا تترك أولادى حين يأتى اليوم الذى تعرف فيه حقيقة أعمالى الوطنية الواجبة على كل وطنى حر

الخلاصة

لما قويت شوكة الاستبداد ، وكثر الظلم والجور ، وضيق الخناق على الأمة المصرية ، أراد الله جلت قدرته أن ينقذ عباده المصريين من جور المستبدين وعسفهم ، فجعل من الضعف قوة تكبح جماح الظالمين . ذلك بأن ألف بين القلوب المتنافرة ، وجمع كلمة الأمة المصرية عن بكرة أبيها على الخلاص من ربقة الاستعباد . وقدر الله سبحانه وتعالى أن أكون زعيم هذه الحركة الوطنية المباركة لما للأمة من الثقة بالجيش ، فسرت بالأمة على بينة من الامر الى أن نالت حكومة

نيابية ، وقوانين عادلة تضمن لها الحرية والعدل والمساواة بين عموم المستوطنين بوادى النيل ، على الرغم من اختلاف العناصر والمذاهب ، بلا سفك قطرة دم ولا مصـــادرة أحد من خصومنا فى ماله • وكان الخديو توفيق باشا معضـدا لنا فى أول الامر ومرتاحا لاجابة طلباتنا الوطنيـــة ؛ حتى جعل نفسه كأحـــدنا • ولكن رجال حاشيته المنتفعين من السلطة الاستبدادية كرهوا أن يتساووا مع الناس ، كأنهم من غير جنس البشر ، فأغروا الخديو على أن يلقى بنفسه فى أحضان الانكليز ليستعيد سلطته الاستبدادية ، كما عهدت اليه الحكومة الانكليزية بذلك من قبـل • وكانت الحكومة المذكورة ترغب فى عدم تحرير المصريين وارتقائهم لطمعها فى الاستيلاء على وادى النيل وامتلاك السودان ،لارتباطهما بطريق الهند واستراليا ونيوزيلندا ورأس الرجاء الصالح فى الجنوب الغربى من أفريقية

فلذلك هولت الجرائد الانكليزية وأفهمت أوربا زورا أن الجيش المصرى متمرد ، وأن الأمة المصرية فى أقصى درجات التوحش ، وطلبت الحكومتان الفرنسية والانكليزية من دول أوربا عقد مؤتمر دولى فى الاستانة لوصف العـلاج الناجع لداء مصر الموهوم ، فوافقت أوربا عـلى ذلك ولكن الحكومة العثمانية رفضت عقد المؤتمر أو الاشتراك فيه لعدم وجود ما يوجب ذلك ، فقررت أوربا عقد المؤتمر فى الاستانة ـ رضيت الدولة العثمانية أو لم ترض ـ ثم عقدالمؤتمر وقرر لائحته المجحفة بحقوق الدولة العلية،فرفضها الباب العالى، وانتهزت انكلترا الفرصة بايعازها الى الاميرال سيمور بأن يختلق الاسباب التى بها يعلن الحرب على المصريين،وكان ما هو واضح بهذا الكتاب من أسباب الحرب وبذلك كان مجىء الإنكليز الى مصر عدوانا واهانة للمصريين واحتقارا للدولة العلية ، وضحكا على ساسة أوربا باعلانها الحرب مع وجود

أرباب المؤتمر الذى لم يقرر فيـه الحرب . وتقرر بمجلس وزارى حضره ثلة من الشيوخ تحت رياسة الخديو ودرويش باشا المندوب العالى السلطاني وجـوب الحرب مع الانكليز مدافعة عن البلاد ، حربا واجبة شرعية . ولما انحاز الخديو ومن معـــــه الى الانكليز انعقـــد لذلك مجلس عام لادارة البلاد حضره ثلاثة من أعضــاء العائلة الخـــديوية ووكلاء الدواوين والعلماء وشيخ الاسلام وبطريرك الاقباط وحاخام الاسرائيليين وأعضاء مجلس النواب وأعيان البلاد ، وقرروا ايقاف أوامر الخديو وتفويضى فى أمر الدفاع عن البـلاد ، وتحرر تلغراف بذلك للباب العالى ، وبعد أن كانت الدولة العلية ممتنعة من موافقة الدول على تمرد الجيش المصرى، وعلى عقد المؤتمر الدولى أو الاشتراك فيه أو ارسال عساكر من طرفها تحت رئاسة القائد الانكليزى ، صدر منشـــور من سعيد باشا الصدر الاعظم باعتبارنا عصاة نحن ومن اتبعنا، اجابة لطلب اللورد دوفرين السفير الانكليزى لدى الدولة العلية ، ونشر بجريدة الجوائب وأرســل منه مئات الالوف الى مصر والهند وجميع البلاد العثمانية ، لاطفاء ثورة غضب المسلمين ويعلم الله كيف كان صدور هذا المنشور بغير أمر السلطان ورضاه ضد رجل نهض بأمته التعسة لتدافع عن بلادها وشرفها ، وهى لم تخرج على سلطانها بل تقاتل امة أجنبية اعتدت عليها فى عقر دارها، فتسبب من هذا المنشور انخلاع القلوب وانحــلال العزيمة وهروب كثير من أركان الحرب الى الخديوى بطرف الانكليز ظنا منهم أن الله قدر عليهم انهم عصاة لدى سلطانهم ، مما أدى الى هزيمة التل الكبير

وكذلك أثرت فى العقول منشورات الخديو بأن لا مطمع للانجليز فى بلادنا ، وانما جاءوا لتأييد السـلطة الخديوية واستئصال شافة العصاة ، ثم يعودون الى بلادهم ، وانهم نائبون عنـــه ، فمن قدم لهم الطـاعة سلم ومن امتنع عن

مســـاعدتهم ندم ، لانهم قوته التي يصول بها لاســترداد السلطة الاستبدادية • وعين معهم محمدسلطان باشا الذى كوفيء على ذلك بعشرة آلاف جنيه ، وزهراب بك الذىصار بعد دلك جنرالا (باشا) ، وأنعمت عليه الحكومة الانكليزية وعلى محمد سلطان باشا برتبة (سير) • وكان القضاء على الحرية ثم قتل من قتل ونفى من نفى ولله الأمر من قبـــل ومن بعد

انخدع المصريون الا قليلا بهذه المنشــورات الخديوية العرقوبية،واعتقدوا بجلاء الانكليز عن وادى النيل الخصيب حفظا لشرف التاج البريطانى • ولكن انقضت الايام والليالى بعد تشتيت الجيش المصرى ، ومات الخديو محبوب الانكليز، وجلس على الاريكة الخديوية عباس الثانى محبوب المصريين، وتم الاصلاح الذى أخــذه الانكليز على عاتقهم ، ومضى على احتلالهم غير الشرعى ٢٩٠ عاما فما بالهم لا يوفون بوعــدهم وينجلون عن البلاد المصرية وهى هادئة ســاكنة • نعم ان الانكليز كبــاقى الامم لا ينجلون عن بلاد احتلوها برضى أنفسهم أبدا ، ولكنهم سينجلون عن كنانة الله رضوا بذلك أو غضبوا ، قريبــا أو بعيدا ، فان عــرب الرعاة (أمة الهكسوس) احتلوا مصر بزعامة قائدهم سلاطيس ومكثوا بها ١٠٠ ســنة ثم خرجوا منها عنوة وقسرا ، وأمة الليبيين احتلوا مصر بزعامة قائد منهم يدعى شيشاق ومكثوا فيهــا ٢٠٠ سنة ونيف ثم وقع الخلاف بينهم فبادوا

ثم تغلب عليها النوبيون بقيادة ملكهم بعنخى ومكثــوا فيها٥٠سنة حتى أخرجهم منها الآشوريون وهؤلاءأخرجهم بسامتيك الأول المصرى رأس العائلة ٢٦ • ثم تغلب عليها الفرس بقيــادة الملك قمبيز بن كورش ومكثت الفــرس مستعبدة المصريين ١٢١ سنة وهم العائلة ٢٧ ، ثم أخرجهم المصريون • وبعد ٦٦ سنة عادت الفرس بقيــادة أخوس

الملك وتغلب على مصر وهى العائلة ٣١ ومكثت فيها ٨ سنين، ثم تغلب عليها الملك اسكندر المقدونى ومكث بها ٩ سنوات، ثم الدولة البطليموسية اليونانية ، ومكثت فيها ٢٩٣ سنة ، وهى العائلة ٣٣ ، ثم أعقبتها دولة الرومان ، ومكثت فيها ٦٧٠ وهى العائلة ٣٤ فهى مقبرة لكل من اعتدى عليها واحتلها ببطشه وجبروته لانها (كنانة الله من أرادها بسوء أهلكه الله) . وهذه هى الامم البائدة التى تغلبت على مصر قبل الاسلام فأبادها الله جلت قدرته . وقد اعتدت فرنسا على مصر وأتت اليها بقيادة نابليون بونابرت الاول بدعوى أن السلطان سليم محب لفرنسا وقد أذن له باحتلال مصر لقتال المماليك المتمردين على السلطان ، وهى دعوى لا ظل لها من الحقيقة ثم شاء الله أن يخرج هو وجيشه من مصر .

وكذلك الانكليز دخلوا مصر بأسباب غير شريفة وخدعوا المصريين والدولة العثمانية وأوربا وحاربوا المصريين بدعوى تأييد الخديو ورشوا رجال الدولة العلية . ولكن الله يدافع عن عباده المؤمنين ، وهو واقف من أعدائه بمجاز طريقهم وهو حسبنا ونعم الوكيل نعم المولى ونعم النصير .

فعلى الناشئة المصرية أن تجد وتجتهد وتعمل ليلا ونهارا على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ومطالبة الانكليز بالجلاء حتى ينكشف عنها هذا البلاء . ثم انى أدعو الامة المصرية الى التباعد عن التمدن الغربى المزيف فلا تفعل المنكرات التى نهى الله عنها وتأمر بالمعروف الذى أمر الله به ، وأن تترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وأن تقيم شعائر الدين الحنيف وتحيى مناسكه . فلا عز ولا سؤدد بغير الدين وهو وحده يكفل لمن اتبعه باخلاص هناء الدنيا وثواب الآخرة . ثم أناشدهم أن يشدوا أواصر الاخاء بين أبناء وطنهم ، ويطهروا قلوبهم من الغل والضغينة ، ويعملوا يدا واحدة ورجلا واحدا لرفع شأن بلادهم واعزاز

كلمة دينـــهم . فاذا فعلتم كل ما ذكرت وأرهفتم آذانكم للسمع وأصختم الى نصائح من حنكته التجارب ، فعرف من تقلب الحدثان الطريقة المثلى والدواء الناجع ، هناك يخرج الله أعداءكم ، ويولى عليكم خياركم ، والله على كل شىء قدير

الى هنا وقف بنا جواد اليراع فى ميدان تنميق هذه الحقائق باختصار خشية من ملل القراء . وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته أن يوفقنى لما فيه رضاه مع حسن الثناء وجميل الأثر وتمام النعمة وزيادة الكرامة . وأن يختم لى بالسعادة ، انا اليه راغبون . وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين

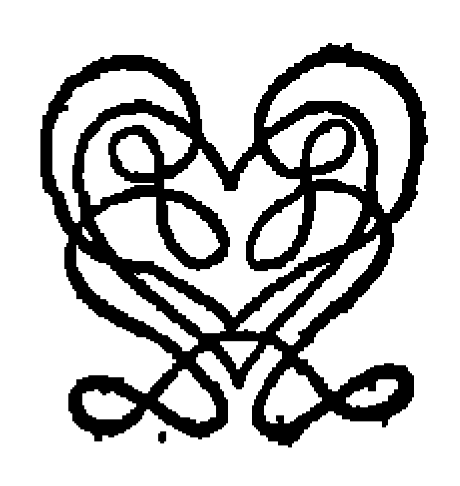
وكان الفراغ من كتابى هذا فى ١٨ رجب سنة ١٣٢٩ الموافق ٢٦ يوليو سنة ٩١٠

خادم وطنه

احمد العرابى الحسينى

المصرى

عفى عنه



فهـــرس

رقم الايداع : ٨٩/٣٦٣٥
الترقيم الدولى : ٩ - ٤١٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد / عبد العال بسيوني زغلول - الصفاة - ص. ب رقم ٢١٨٣٣

13079 - تليفون ٤٧٤١١٦٤

للحصول على نسخ من كتاب الهلال
اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

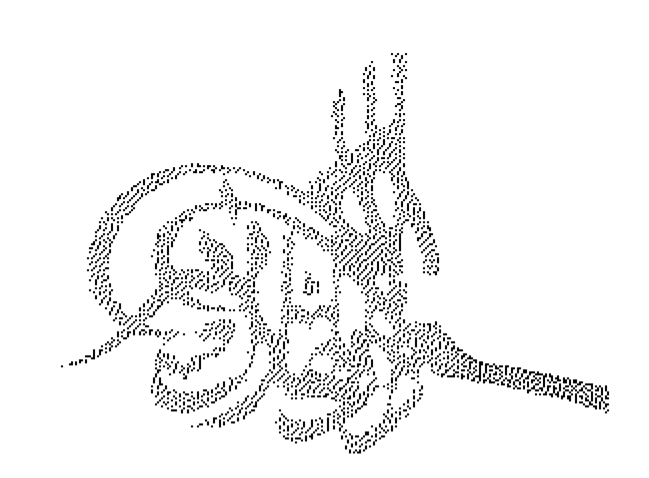
هــــــــذا
الـــكـتـاب

قدم الزعيم الوطنى احمد عرابى قائد اول ثورة فى تاريخ مصر الحديث ، سيرته الذاتية ، بعد عودته من منفاه ، لكى يقدم الحقائق كاملة عن الثورة التى قادها ومن أجل «تمحيص التاريخ من الأهواء الفاسدة ، والمفتريات الباطلة » ، وسيرته الذاتية تبين أسباب الصدام بين الحركة الوطنية الصاعدة ، وبين حركة استعمارية ، لم يعد امامها وسيلة سوى الصدام العسكرى المباشر ، وضرب الاسطول البريطانى مصر فى ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ .

ويكشف عرابى الأكاذيب التى سادت ، وأكبر عملية تشويه للتاريخ الوطنى ، ووصف حياة مصر السياسية فى عهد الخديو اسماعيل والخديو توفيق ، ودوافع الحركة الوطنية فى العمل على إنقاذ الوطن من براثن الديون والامتيازات الأجنبية ، ونفوذ الدول الأوربية .

وظلت هذه المذكرات حبيسة الادراج ، لا ترى فرصة للنشر سبعين عاما حتى رأت النور ، وأكتمل دور عرابى ، بأن ترك عبرة نضاله ودروسه للأجيال القادمة ..

٢٠٠ قرش

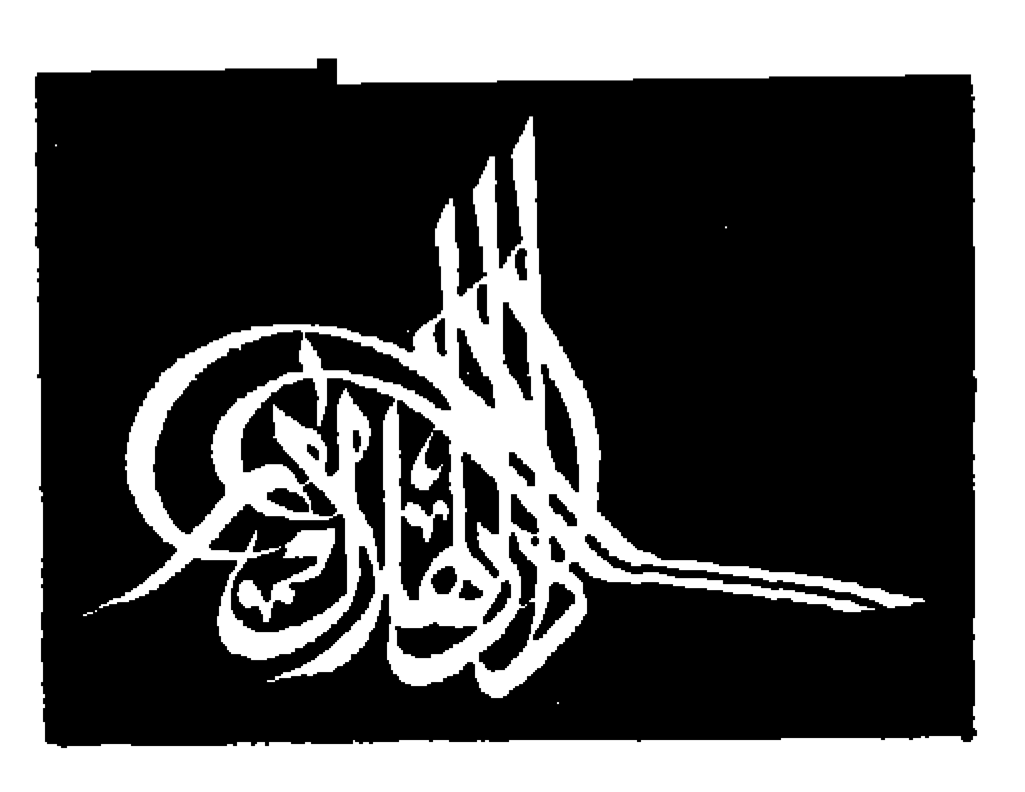


د. عبد الغفار مكاوى

القيصر الأصفر

١٧٥ قرشاً


توشيبا مع العربي
تقدم أجمل مروحة
في عز الصيف
من غير تكييف
بتكييف مطرحك
ضمان الثقة
دعها تعمل ليلاً ونهاراً بدون توقف فترة نضمنها
* صناعة مصرية .
* جودة عالمية .
* بترخيص من توشيبا العالمية .



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٢ ذو القعدة ١٤٠٩ - مايو ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عياد

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٧٥ قرشا للقارىء فى مصر :

سوريا ٨٥ ليرة ، دبى ١٠ دراهم ، لبنان ١٢٠٠ ليرة ، أبوظبى ١٠ دراهم ، الاردن ٢٠٠٠ فلس ، الحديدة ٨ ريالات ، الكويت ٧٥٠ فلسا ، مسقط ١ ريال ، العراق ٨٠٠٠ فلس ، المغرب ٢٠ درهما ، السعودية ١٠ ريالات ، تونس ١٧٥٠ مليما ، الدوحة ١٠ ريالات ، غزه والضفة ١ دولار ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، لندن ١٥٠ بنسا

الغـــــلاف بريشـــــة
الفنان: محمد أبو طالب

القيصر الأصفر
ومسرحيّات أخرى شرقية

بقلم

د . عبد الغفار مكاوى

دار الهلال

تمهيد

من الشرق يطلع النور ، وإليه اتجه الغرب ـ على حد قول الشاعر والمترجم العبقرى و «عاشق الأدب العربى» فريدريش ريكرت (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦) ـ كما يتجه القمر الشاحب لضياء الشمس كى يتجلى بنورها ويحدق فيها وجها لوجه . واذا كان بعض ادباء الغرب قد رجعوا الى الشرق لينهلوا من منابعه الروحية ، ويلقوا بأنفسهم فى أحضان «الأم الأولى» للغة والشعر والحضارة ، ويحاكوا مواده واساليبه الفنية والأدبية محاكاة بداعية ، فقد آن الأوان لكى يتوجه الشرقى صوب الشرق ، لعله أن يتعرف على كنوزه ، ويحقق يوما ذلك الأمل العسير الذى تلخصه حكمة سقراط ومعبد دلفى : «اعرف نفسك» .. يتساوى فى ذلك الشرق الادنى الذى لم نقترب بعد من جوهره ولم نتمثل حقيقته التى تكشف عنها آثاره الفنية والأدبية والفكرية فى مصر القديمة وأرض الرافدين ، أو الشرق الأقصى الذى لم يزد اهتمامنا بتراثه الضخم عن عدد جدٍّ قليل من الترجمات والتعريفات المبتسرة ، ناهيك تقصيرنا حتى اليوم فى دراسة لغاته وآدابه ومدارسه الفكرية دراسة علمية دقيقة كما تفعل كل البلاد المتقدمة ..

وليست المسرحيات التى تلتقى بها فى هذا الكتاب مجرد «مسرحة» لمجموعة من الحكايات والنصوص التى اطلعت عليها عن اختيار أو اضطرار ـ بحكم عملى فى تدريس الفلسفة الشرقية .. ولا هى محاكاة

لأشكال ونماذج من الشعر والحكمة المأثورة عن عالم غامض بعيدا (على طريقة ريكرت وبلاتين مثلا فى الأدب الالمانى) ، وانما هى احاسيس وافكار وقيم ومواقف جربتها وعايشتها خلال سباحتى المتواضعة في بحر الشرق ، ثم ألبستها ثيابا صينية وبابلية ، آملا أن تشف لعين القارىء المتعاطف عن هموم مصرية وعربية تجيش بها نفوسنا . ويكفى ان نتذكر أن «جوته» (١٧٤٩ ـ ١٨٣٢) صاحب الديوان الشرقى[١] (١٨١٩) وأول من بدأ حركة الاستلهام الأدبى للكنوز الشرقية بصورة جادة ومبدعة قد عكف على كتابة ديوانه اثناء حرب التحرير الالمانية من طغيان نابليون ، وأن الكاتب العربى الذى يحج اليوم الى حكمة النفس الشرقية يريد كذلك ان يتحرر ويساعد غيره على التحرر من أمراض اصابت النفس العربية بالتشوه ومرّغتها فى حضيض «الأنا وحدية» والتسلط والانتهازية وسائر «اللاقيم» التى تجتاح ذواتنا الفردية والجماعية وتدفعها لتدمير نفسها بنفسها . ولذلك فإن الاتجاه الى حكمة الشرق القديم ليست هروبا من محنة حاضر تهدده الكوارث ، وانما هو محاولة للتزود بزاد روحى يمكن ـ بجانب الأصرار على الحرية والفكر العلمى المستنير ـ أن يعين على الخلاص منها .

* * * *

والمسرحية الأولى فى هذا الكتاب ، وهى القيصر الأصفر ، ثمرة انشغال طويل بالفلسفة الصينية القديمة المعروفة باسم «الطاوية» أو فلسفة «الطاو» (الطريق) التى تقول بالعودة الى الطبيعة والحياة فى ظل البساطة والبراءة والسكينة والاستغناء ، بعيدا عن كل رغبة أو فعل يمكن أن يفسد مجرى الطبيعة ويعوق التوافق والتجانس معها ، بذلك يتحد الانسان «بالطاو» أو بالأخرى يصبح هو «الطاو» ، لأنه هو الطريق

---

(١) راجع قصة هذا الديوان ونماذج مختارة منه مع موقفنا من الأدب العالمى فى كتاب المؤلف «النور والفراشة» ، دار المعارف ، اقرأ ، ١٩٧٩ .

والمعنى ، وهو الحقيقة والأصل والقوة التى تسيِّر الكَون ، وهو الواحد الأزلى الابدى الذى لا يوصف ولا يسمى . وقد اقترنت الطاوية باسم الحكيم المؤسس لها وهو لاو - تزو (من حوالى ٥٧٠ الى حوالى ٥١٧ ق . م) ، كما ارتبطت باسم الحكيم الذى بعث فى افكارها المجردة أنفاس الحياة وأضفى عليها من شاعريته المبدعة ومثاليته الحالمة ، وهو تشوانج - تزو (من حوالى ٣٦٩ الى ٢٨٦ ق . م) .

يختلف العلماء حول اسم لاو - تزو نفسه : هل هو عنوان مذهب ومدرسة أخلاقية وصوفية دونت تعاليمها فى واحد وثمانين حكمة شاعرية تحمل اسم «اللاو - تزو» وتعرف بكتاب «تاو - تى - كنج» (الطريق والفضيلة)[٢] ، أم أنه - حسب معناه فى اللغة الصينية - هو المعلم الهرم الفيلسوف العجوز او الكامل بين القدماء (أو - ثان) الذى اعتزل الناس وذهب الى محو الذات والاتضاع واجتناب الشهوة والحرص على رغبة واحدة هى عدم الرغبة فى شىء ؟ ...

وتختلف الروايات المأثورة كذلك حول هذا الحكيم الصينى . فبعضها يجعل تاريخ مولده فى الفترة الواقعة بين القرنين الثالث عشر والسادس قبل الميلاد ، وبعضها الآخر يؤكد أنه عاصر حكيم الصين الأكبر كونج - فو - تسو أو كونفوشيوس (من ٥٥١ - ٤٧٩ ق . م) الذى كان يصغره فى العمر ، وأن الأخير سعى للقائه حوالى سنة ٥١٧ ق . م فعنفه المعلم العجوز على غروره وادعائه وكثرة تعليماته وقواعده الاخلاقية والاجتماعية ، ونصحه بالعودة الى طريق الحكماء القدماء .. ومن هذه الروايات ما يزعم أنه عاش مائة سنة ، ومنها ما يدعى أنه لم يمت أبدا ، حتى إن كاتبا طاويا من القرن الرابع بعد الميلاد يقرر أن لاو - تزو قد ظهر عدة مرات خلال التاريخ ، وأنه فى احدى جولاته الى الغرب من جزيرة سيلان قد ولد ولادة جديدة على هيئة بوذا ... غير أن أرجح المعلومات التاريخية تقول إنه ولد فى مزرعة بمقاطعة هو - نان

---

(٢) نقله المؤلف الى العربية وصدر فى سلسلة الألف كتاب ، مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ، ١٩٦٦ .

(الى الجنوب من بكين) وعمل أمينا للوثائق والمحفوظات فى بلاط مملكة تشو ، فى فترة من أشد فترات التاريخ الصينى اضطرابا واكثرها حروبا . ويبدو أنه اقتنع بعد خدمته الطويلة فى «تشو» بأن الدولة فى طريقها الى الخراب ، فاعتزل العمل ، ووضع متاعة القليل على عربة يجرها ثوران اسودان ، واصطحب معه صبيا صغيرا كان هو تابعة الأمين فى رحلته . وعند حدود الأمبراطورية وأمام بوابتها الأخيرة تعرف عليه موظف الجمرك او حارس الحدود ورجاه أن يقيم فى كوخه الفقير ويدوّن فلسفته فاستجاب لرجائه وأملاه أكثر من خمسة آلاف كلمة يتألف منها ذلك الكتاب العجيب الذى ذكرناه . ثم رجع الى عربته ومعه الصبى الصغير وعبر الجبل فى طريقه إلى الغربة فلم يظهر بعد ذلك ابدا ولم يعرف المكان الذى مات فيه ، وان كان البعض يرجح أنه مات فى التيبت .

وتعتمد المادة التى نسجت منها «القيصر الأصفر» على شخصية هذا المعلم الحكيم والكثير من أقواله واشعاره التى وردت فى الكتاب الشهير المنسوب اليه ، كما تعتمد على عدد من الحكايات والامثولات التى جاءت فى كتابات حكيم الطاوية الآخر تشوانج تزو . واذا كان لاو ـ تزو يقوم بدور ثانوى فى المسرحية ، فإن «بطلها» ـ اذا صح الحديث هنا عن بطولة ! ـ هو تلميذه الناسك الشاب الذى أعطيته اسم «مين ـ كين ـ وو» . وهو قديس ثائر أو ثائر قديس يحمل بين جنبيه ذلك الطموح الذى يعذب المصلحين ويُتعذبون به ، ألا وهو الطموح الى تغيير العالم . بيد أن الناسك الشاب يتعجل تغيير العالم قبل أن يغير نفسه .. ويحاول معلمه ان يردّه عن تهوره فلا ينتصح ، وينطلق لمواجهة الظلم والقهر والتسلط المجسد فى شخصية القيصر الأصفر فيلقى الأهوال ولا يتخلى عن حلمه باقامة العدل . وينزوى بعيدا فى قرية منسية على حدود الصين يحقق فيها نوعا من «اليوتوبيا» الصوفية التى تصورها حكماء الطاوية فى صورة الجماعة الانسانية المثالية التى تعيش تحت ظلال المحبة والتراحم والوداعة والنقاء . ولكن هل تصمد مثل هذه «اليوتوبيا» لقوى الظلم والردع والعقاب التى اشتهرت

بها الصين القديمة ؟ وهل يمكن فى ظروف عالمنا المعقد ان نفكر فيها لحظة واحدة ، أم هى شطحة من شطحات الحكماء والأدباء لا تستحق منا اليوم أكثر من ابتسامة الاشفاق والرثاء ؟ ليس مهما ان نجيب عن هذه الاسئلة . فالأهم من ذلك أن «اليوتوبيا» ، حتى على هذا المستوى البسيط المتواضع ، تظل حلما لا نستطيع ان نتخلى عنه بسهولة . واكثر من ذلك اهمية انها تعبر عن ضرورة خالدة لا يمكن التنازل عنها ، وهى ضرورة تحدى التسلط الذى يسحق كل احلام الانسان ، لا فى حياة حرة وعادلة ومبدعة فحسب ، بل فى مجرد أن يحيا حياة سوية . ولا يخفى على القارىء ان التسلط مرضنا العربى المزمن الذى لا أمل فى شىء على الاطلاق قبل القضاء عليه .. ولولا ضيق المجال لطال بى الحديث عن هذا الموضوع الشائك الذى يمدُّ جذوره فى تراثنا ونظم حياتنا وتعليمنا وسلوكنا ، والذى ترك فى نفسى جراحا ستلازمنى الى آخر عمرى وتدخل معى فى قبرى ...

* * * *

والمسرحية الثانية وهى «الطفل والفراشة» أثارتها فى نفسى احدى حكايات «تشوانج ـ تزو» البديعة التى تقوم على المفارقة الذكية المحيرة ، والنزعة المثالية المتطرفة الى الحد الذى تطمس معه الحواجز الفارقة بين الحقيقة والوهم . ولعل هذه النزعة الذاتية المسرفة ـ التى تظل تهدد الشعراء والأدباء والفلاسفة ان لم يحترزوا منها بالبدء من الواقع الحى وموضوعية البناء الفنى والفكرى ! ـ قد كانت وراء تشدد تشوانج ـ تزو فى تأكيد الجوانب السلبية فى الفلسفة الطاوية ، وخصوصا عدم الفعل «الوو = وى» الذى سبق الحديث عنه ، بحيث صورها فى صورة الفلسفة الرافضة للقيام بأى دور اجتماعى واصلاحى اوالعاجزة عنه ، وذلك خلافا لما أراده مؤسسها الأول الذى ضمنها آراء ومواقف تعدُّ ثورية بكل المقاييس الى اليوم . ولعل ذلك ايضا كان من اسباب معارضة علماء الكونفوشية لتفكير تشوانج ـ تزو واتهامهم له بمعاداة الانسان والتقاليد والمجتمع ،

ومعاشرة الأشباح والظلال والرياح الشمالية وجماجم الموتى ...

ونص الحكاية التى أشرت اليها لا يزيد عن سطور قليلة يقول فيها الحكيم الحائر المحيِّر : «حلمت ذات ليلة» ، أنا تشوانج ـ تزو ، بأننى فراشة ترف هنا وهناك ، وانني أشبه الفراشة من كل ناحية . لم أدر إلا أننى أتابع أهوائى كما تفعل الفراشة ، وغاب عنى الوعى بأننى إنسان . وفجأة صحوت مستيقظا من نومى ، ووجدتنى «أنا نفسى» مرة أخرى راقدا فى فراشى . والان لا اعرف هل كنت انسانا رأى فى الحلم انه فراشة ، أم أنى الآن فراشة تحلم بأنها انسان ؟ ! ـ بين الانسان والفراشة حاجز ، وتخطى هذا الحاجز هو الذى يسمى بالتحول .»(٣) .

وبجانب هذه الحكاية الشهيرة نسج الخيال حكاية او أمثولة اخرى عن حكيم دعوته «هوى ـ تسو» وجعلته يرى فى المنام انه سمكة . والحق اننى عندما بدأت فى كتابة هذه المسرحية القصيرة لم اكن اتصور انها ستصبح سخرية من نوع «الفارس» ، أو انها ستكون نوعا من النقد الذاتى ! وربما كان أهم ما يستحق الالتفات فيها هو «التحول» الذى اكده حكماء الطاوية نحو الذات الحقيقية التى تتحد مع السماء والأرض والابدية والكل وتتخطى حدود التراب . وتحول الفلاسفة الى الاتحاد بمعاناة الفقراء المتعبين من أمثال المرأة الشابة التى تشقى لاطعام نفسها وولدها هو فى النهاية نوع من التصحيح لأحلام الفلاسفة ! ..

والمسرحية الثالثة «السيد والعبد» تقوم على نص مشهور من نصوص ادب الحكمة البابلية وهو «حوار السيد والعبد» . وقد التقيت بهذا النص لأول مرة في الفصل الذى كتبه عالم السومريات الاستاذ

---

(٣) وردت هذه الحكاية فى كتاب أقوال تشوانج ـ تزو وتشبيهاته التى اختارها وعقب عليها الفيلسوف مارتن بوبر ، فرانكفورت ، طبعة «انزيل» ، ١٩٧٦ ، ص ١٦ ، وطبعة مانسية ، زيوريخ ١٩٥١ ، ص ٢٧ .

توركيلد جاكوبسن فى الكتاب القيم «ما قبل الفلسفة» من ترجمة الاستاذ جبرا ابراهيم جبرا[٤] ، ثم قرأته بعد ذلك فى عدة ترجمات كانت اهمها وادقها هى ترجمة الاستاذ و. ج . لامبرت فى كتابه عن «ادب الحكمة البابلية»[٥] . ومن المعروف انه وجد مع آلاف الالواح الطينية الأخرى فى مكتبة الملك الاشورى آشور بانيبال (حكم بين سنتى ٦٦٨ و ٦٢٧ ق . م) وانه قد دون على أرجح الأراء خلال الالف الأولى قبل الميلاد وفى العصر الكاسى أو الكاشى الذى استمر قرابة اربعة قرون (من حوالى ١٧٩٥ الى حوالى ١١٦٢ ق . م) وكان على وجه الاجمال عصر انحطاط سياسى واقتصادى فى ظل حكام اجانب لا حظ لهم من مجد حمورابى (من ١٧٩٢ الى ١٧٢٠ ق . م) الذى بلغت الحضارة البابلية فى عهده ذروة عظمتها وقوتها ..

كان أول ما جذبنى الى هذا النص هو الحس الدرامى الذى أجرى به الكاتب اوالشاعر المجهول حواره الذكى الساخر بين السيد البابلى الملول وعبده الصابر الذى تصورت ان الابتسامة لم تفارق شفتيه .. ولا شك ان الحوار يمكن ان يوحى بالتشاؤم القاتم والعدمية المطلقة ، وربما أشار من بعيد الى خلفية حضارية اصبح فيها الكل باطلا ، وتساوى الفعل وعدم الفعل ، وفقد كل شىء وقيمته مع انهيار القيم جميعا . ومع ذلك فقد ثرت بطبعى على هذا التفسير المتشائم ، وعبرت فى ختام المسرحية التى استندت فيها الى ذلك الحوار عن استحالة الحياة بغير امل ولا عمل . ولم يمنع هذا من استغلال النص الى آخر مدى ، على الرغم من التصرف فى ترتيب أجزائه واللجوء الى الحق

---

(٤) ما قبل الفلسفة ، الانسان فى مغامرته الفكرية الأولى ، تأليف الاساتذة هـ . فرانكفورته ، و هـ . أ . فرانكفورت ، جون أ . ولسون ، وتوركيلد جاكوبسن ، وترجمة الأستاذ جبرا ابراهيم جبرا ومراجعة الدكتور محمود الأمين - بغداد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، طبعة سنة ١٩٦٠ .

(٥) و . ج . لامبرت ، ادب الحكمة البابلية ، اكسفورد ، كلاريندون ، طبعة ١٩٦٧ ، (مع الالواح الأصلية بالخط المسمارى فى مواجهة الترجمة الانجليزية) .

المشروع لأى كاتب فى تشكيل مادته بما لا يخرج بها عن هدفها وهيكلها الاصلى ..

والمسرحية الأخيرة وهى «رؤيا ننجال» ليست مسرحية بالمعنى التقليدى ولا غير التقليدى . ولا يرجع هذا لكونها «مناجاة» (مونولوج) تدور فى صدر ملكة «أور» التى تجترُّ رؤيا كابوسية .أرقت نومها وملأت نفسها رعبا من مصير مدينتها السومرية التى دمرت بالفعل على يد قبائل «الجوتيين» من البدو الغزاة ، وأنما يرجع قبل كل شىء الى أنها ضراعة أو ترتيلة طويلة لمجمع الآلهة السومريين والهم الأكبر «إنليل» تنتهى بانتفاضة الشعب المطحون والملكة المترددة المذعورة وعزمها على انقاذ «اور» من السقوط .. صحيح اننا نلتقى خلالها بألوان من الحوار ومشاهد تصور خراب المدينة على يد الشطار والانتهازيين والمتسلطين القدامى فى أرض سومر ، ولكنها تظل فى النهاية ضراعة ومناجاة وترتيلة تردد لحسن البكاء على تلك المدينة الماضية الحاضرة ، وهو لحن يختتم بالثورة على الفساد والمفسدين فيما يشبه انتفاضة الاطفال الأبرياء والعزل المحاصرين اليوم فى فلسطين ، بعد ان فاض بهم اليأس من كل شىء وأوشك بعضهم على انتظار برابره العصر كما فعلت ننجال وبعض سكان أور فى لحظة من لحظات الضعف التى لم تلبث ان تحولت الى زلزلة واعصار وطوفان ..

ولابد من القول باختصار إن أدب رثاء المدن المنكوبة قد عرف فى حضارة وادى الرافدين ، وسجل الشعراء والكتاب والمفكرون السومريون بكاءهم على المدن المدمَّرة مثل «أور» «ونيبور» (نفر) وأكد (أجادة) فى أوقات المحن والهزائم والخراب . وأقدم نموذج له وجد مدونا على لوح طينى من مدينة «لجش» ويصف دمارها الفظيع على يد عدوتها القاسية مدينة (أوما) التى طالما اشتبك الصراع بينهما على الحدود .(٦) .

(٦). انظر فى ذلك الملحق رقم ٢٧ من كتاب (السومريون» لعالم السومريات الشهير صمويل نوح كريمر وترجمة الدكتور فيصل الوائلي ، وكذلك الكتاب البديع لنفس المؤلف عن ألواح سومر من ترجمة المرحوم الدكتور طه باقر .

وقد التزمت بالنصوص السومرية التى اطلعت عليها فى مصادر عديدة سبق أن ذكرت بعضها ولم أجد داعيا للخوض فى تفصيلات تاريخية وأثرية يمكن أن يرجع اليها القارىء بنفسه . ولذلك اكتفى فى هذا التمهيد بالاشارة الى استفادتى فى هذه الترتيلة المسرحية من نصوص اخرى مشهورة فى الأدبين السومرى والبابلى تؤكد كلها أن مشكلة الشرقى كانت ولم تزل هى مشكلة العدل ، وذلك مثل النص المعروف باسم أيوب البابلى «لدلول بيل نيميقى أو سأمجد رب الحكمة» ونص الحوار بين المعذب والصديق (وقد نقلتها للعربية ودرستها فى كتاب آخر أرجو أن يرى النور عن قريب) ، وذلك بجانب الاستفادة غير المباشرة من قصيدة الشاعر السكندرى اليونانى الأصل قسطنطينوس كفافيس (١٨٦٣ ـ ١٩٣٣) فى انتظار البرابرة(٧) .

* * * *

وأخيرا يبقى أن أدفع عن نفسى شبهات قد يقع فيها القارىء الذى افسد فطرته «شبه النقد وأشباه النقاد» الذين استفحل شرهم وزاد ازعاجهم فى السنوات الأخيرة . وأول هذه الشبهات أن يتصور احد أن هذه المسرحيات ـ كما سبق ان ذكرت ـ ليست سوى نسيج مصطنع من قراءات ونصوص متفرقة . واعتقد ان القارىء المتعاطف النقى الفطرة والاحساس سيرد بنفسه على امثال هذه التصورات عندما يجرب النص ويلمس صدقه . وعلى هذا القارىء اعتمد على الدوام به أثق واليه ألجأ من تجاهل النقد الزائف وجهله . ولست فى حاجة الى القول بأن عددا كبيرا من الحكايات والمواقف والشخصيات فى «القيصر الأصفر» وغيرها ليس لها أصل بالمرة فيما قرأت من نصوص ، وان اصلها ومنبعها فى خيالى وقلبى المهموم بواقعة المصرى والعربى الذى لم تعد أزماته خافية على أحد ..

---

(٧) من ترجمة الدكتور نعيم عطية فى كتابه مختارات من الشعر اليونانى الحديث ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ١٩٨٣ .

والشبهة الثانية التى يمكن أن يقع فيها الظن الحسن او السيء هى ان هذه النصوص ـ وخصوصا القيصر الأصفر ـ يمكن أن توحى بالحنين الى القديم او برغبة المؤلف فى «الرجوع الى الماضي» .. ولأن المجال يضيق عن دفع هذا الاتهام ، ولأن هذا التعبير الأخير يحمل تناقضه فى ذاته ، فإننى اكتفى باقتباس حكاية قصيرة مأثورة عن حكيم صينى هو هان ـ فى ـ تزو (من ٢٨٠ ـ ٢٣٣ ق . م) الذى يعدُّ أعظم حكماء مدرسة المشرعين فى الصين القديمة[٨] . فهو يقول صراحة إن الحكيم لا يصح ان يسعى لتقليد القدماء او السير على طريقهم او اقامة اى نموذج أو معيار ثابت يصلح لكل زمان ، لأن الحكيم الحقيقى هو الذى يعيش عصره ويعرفه ويصارع مشكلاته . ثم يروى هان ـ فى ـ تزو هذه الحكاية القصيرة التى تغنينى عن مناقشة المتشنجين من أبناء أمتنا ، كما تغنينى عن ترديد كلام المستنيرين من أبناء أمتنا كذلك الذين يقاومون تثبيت مطلق الماضى والقديم فى زمن يطالبنا بالتطور والتقدم الى المستقبل ..

«كان فلاح من منطقة سونج» «يحرث حقلا يقوم فى منتصفه جذع شجرة . وفى يوم من الأيام اندفع أرنب برى عبر الحقل واصطدم بجذع الشجرة فانكسر عنقه ومات . وترك الفلاح محراثه ووقف بالقرب من الشجرة ، على أقل أن يتمكن من الامساك بأرنب آخر بنفس الطريقة . غير أنه لم يحصل على هذا الأرنب أبدا ، ولم يجن من ذلك الا سخرية أهل سونج وضحكهم عليه» .. ويعلق الحكيم على هذه

---

(٨) المعروف عن هذه المدرسة انها اكدت حكم السلطة المطلقة والقوانين الرادعة معارضة بذلك اكبر مدرستين فى تاريخ الصين وهما الطاوية والكونفوشية . وقد بعثت مدرسة المشرعين حية فى الصين الشيوعية الحديثة فى محاولتها طمس الفلسفات القديمة واحلال قيم اخرى بديلة عن قيمها ـ راجع الجزء الأول من حكمة الصين للمرحوم الاستاذ فؤاد محمد شبل ، دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٦٧ ، وقاموس الفلسفات الاسيوية للاستاذ سانت الموناومان ، لندن ١٩٧٩ ـ وقد اعتمدت فى المشهد السابع من القيصر الأصفر على ما جاء فى كتابات هان ـ فى ـ تزو من اضطهاد الحكماء وتعذيبهم .

الحكاية بقوله : لو أراد أحد اليوم ان يحكم الشعب بنفس السياسة التى اتبعها الملوك القدماء لكان شأنه فى تصرفه هذا شأن الفلاح الذى راح ينتظر الأرنب البرى بجوار جذع الشجرة ..

وأخيرا فليست هذه المسرحيات آخر الأمر سوى محاولات وتجارب أضيفها - ورزقى على الله ! - الى تجارب ومحاولات سابقة وأقدمها الى القارىء المتعاطف البصير الذى لن يخذل الأخلاص والصدق أبدا ..

القاهرة فى شهر شوال ١٤٠٨ هـ يوليو ١٩٨٨ م

القيصر الأصفر

الشخصيـــات

- المعلم العجوز (لاو - تزو)
- الناسك الشاب (مين - كيى - وو)
- القيصر الأصفر
- الحارس الأول
- الحارس الثانى
- التابع (لو - شون - وانج)
- الرجل (موظف الجمرك وحارس الحدود)
- صبى
- نساء ورجال وشيوخ من اهل البلدة الصغيرة على حدود الصين

- ١ -

(قاعة يجلس فيها المعلم الصيني العجوز . المعلم مستغرقاً في تأملاته التي يوقظه منها الناسك الشاب ..)

الناســـك : (بعد ان ينحني ويركع على ركبتيه ويضع جرابه على الأرض) : معلمي ..

المعـــلــم : (يرفع عينيه اليه ولا يتكلم)

الناســـك : معلمي .. لقد اردت أن أودعك ..

المعـــلــم : (يتطلع اليه والى جرابه الملقى بجواره) : أنت ؟ حقا حقا .. هذا ما أراه ..

الناســـك : (يرفع صوته قليلا) جئت لاستاذنك قبل السفر ..

المعـــلــم : تودع .. وتستأذن قبل السفر .. والى أين عزمت يا ولدى ؟ ..

الناســـك : عزمت .. رعتك السماء يامعلمي .. هذه هي الكلمة الصحيحة .. لقد توقعت ان تقولها بنفسك ..

المعـــلــم : قلت الى اين عزمت ؟

الناســـك : الى العالم يا معلمي .. بعد شهور من السهر والتفكير قررت ان اخرج الى العالم ..

المعـــلــم : العالم ؟ هو في كل مكان نفس العالم .. يمكنك ان تعرفه دون أن تغادر عتبة دارك .. يمكنك ان تراه دون أن تتخطى حدود قريتك .

(يمدُّ الكلمات فيما يشبه الغناء) :

العالم في كل مكان نفس العالم

وقديما عرف العالم
من لم يفتح بابه ..
ورأى الأرض .
وسلك دروب الفلك الأعلى
من لم ينظر من نافذته ..
فالعالم في كل مكان هو نفس العالم ..

الناسك : كان هذا قديما يا معلمى .. اليوم تغير الزمن وتغير البشر ..

المعلم : الزمن تغير ؟ والبشر تغيروا ؟ هل اسمع هذا من تلميذى ؟

الناسك : (مندفعا) : نعم يا سيدى . نعم . لابد أن أقوله ولابد أن تسمعه ..

المعلم : (فى يأس) : تكلم فأنا منصت لك ..

الناسك : ان ما قلته هو كلام الحكماء القدماء . وما اخترت ان اخرج الى العالم الا لكى اسير على طريقهم ..

المعلم : ليتك تفعل هذا يا بنى . فطريق الحكماء القدماء هو طريق الحقيقة ..

الناسك : وهو الطريق الذى علمتنى أن أسير عليه ..

المعلم : انا يا ولدى ؟

الناسك : اجل .. اجل .. هل تذكر يوم قلت لى : عندما تحكم الدولة حكما عادلا ، فمن حقنا ان لا نشغل انفسنا بها .. اما اذا حكمت حكما ظالما ، فمن الواجب ان نزورها ..

المعلم : وهل فكرت فى عواقب الزيارة ؟

الناسك : (أشد اندفاعا) : نعم يا معلمى . وعلى استعداد أن أتحملها . ان المرضى يتزاحمون على باب الطبيب . والأنين يصم آذان القادرين على السماع . أريد أن اضع حكمتى موضع الاختبار . أريد أن أجرب فائدتها إنْ كان فيها فائدة ..

المعـــــلـــم : هل قالت لك حكمتك ان تناطح الثور الهائج ؟ هل علمتك ان تلقي بنفسك فى فوهة البركان ؟

النـــاســـك : لقد صممت ان ارى كل شىء بنفسى . ان ألمس الجروح بيدى صممت ان اذهب الى هناك ..

المعـــــلـــم : الى هناك .. الى اين تقصد يابنى ؟

النـــاســـك : الى مملكة «تسى» ..

المعـــــلـــم : أهى التى استشرت فيها نار الظلم ؟

النـــاســـك : وتأكد لى مما سمعت ان القيصر الأصفر الذى يحكمها ظالم مستبد . أنه يتصرف وكأن الدولة لا قيمة لها ، ويفعل ما يشاء كأن الشعب لا وجود له . لهذا يتهاوى الناس كالاشجار الخاوية التى تضربها العاصفة . وتلقى الجثث فى كل مكان كأكوام الرماد المتبقى من الحريق . كالهشيم الذى تتزاحم عليه الطيور الجائعة . ان الشعب قد ضاقت به الحياة . والمملكة كأطلال بيت قديم عشش فيه العنكبوت وحطت عليه البوم والغربان ..

المعـــــلـــم : وتريد أن تواجه المملكة والملك ..

النـــاســـك : وأعيدها الى الطريق ..

المعـــــلـــم : تريد أن تعيدهما اليه قبل أن تعود انت اليه ؟ تريد أن تحققه فيهم قبل أن تتحقق به ؟ تريد أن تغير العالم قبل أن تتغير ؟ .

النـــاســـك : هذا هو الطريق الى التحقق والتغيير .. هذا هو الطريق الى الطريق ..

المعـــــلـــم : الطريق الذى لم تجربه فى نفسك قبل ان تجربه فى غيرك ؟ الذى لم يغيرك قبل أن تسعى لتغيير سواك ؟ قل لى يا بنى ..

النـــاســـك : تفضل يا سيدى . أسمعنى نصائحك قبل الوداع ..

المعـــــلـــم : أخشى ان تسمعها لآخر مرة . كيف ستواجه ذلك

الحاكم الطائش الطاغية ؟

النـــاســك : كما واجه الحكماء القدماء أمثاله ..

المعـــلــم : وكيف واجهوهم ؟

النـــاســك : بالحكمة والفضيلة .. بالفطنة وحب البشرية .. بالصدق والأمانة والتواضع ..

المعـــلــم : لن تجنى من هذا الزرع حبة واحدة ..

النـــاســك : كيف يا معلمى ؟ ..

المعـــلــم : سيكرهك الناس بسبب فضيلتك ، وسيتهمونك بالجنون بسبب حكمتك . سيحملونك ذنب الشر الذى جلبته عليهم طيبتك . آه يا ولدى ! وسيظلمونك ويعذبونك ويجلدونك ..

النـــاســك : (مقاطعا) : الناس تفعل هذا ؟ الشعب ؟ لا .. لا .. لا يمكن ان يفعل الشعب هذا ..

المعـــلــم : يفعله اصحاب النفوس الصغيرة لانهم يحسدونك على كبريائك . يفعله المتصارعون على الشهرة والمجد لانك تحتقر الشهرة والمجد .. يفعله الجلادون الذين يجدونك أمامهم بلا سوط فى يدك . وعندما تقف امام الناس لتعظهم وتهديهم سينفضون عنك قائلين : هذه طبلة جوفاء جديدة .. كالطبول التى طالما دقت آذاننا . نعم يا ولدى . لن تصل بهذه الطريقة الى قلوبهم . واذا سمعت نصيحتى قلت لك : لن تصل الا الى نهايتك ! ..

النـــاســك : انى اسمعك يا معلمى .. ارجوك .. اكمل نصائحك ..

المعـــلــم : نصائحى ؟ انى احوج اليها منك .. انما هى اسئلة اتمنى ان تفكر فيها قبل أن تعزم على سفرك ..

النـــاســك : لقد عزمت ياسيدى . لكنى لن اتحرك من مكانى قبل ان تطرحها علىّ ..

المعـــلــم : وهل ستفكر فيها ؟ هل تتذكرها يوما ؟ آه من تهور

الشباب ! آه من اغترارة بخلود الربيع والقوة ! هأنذا اسألك يا ولدى ..

النـــاســـك : تفضل يا معلمى . اننى اسمعك ..

المعـــلـــم : قلت انك ستحاول ان تعيد ذلك القيصر الظالم الى الطريق .

النـــاســـك : نعم نعم .. كما اعاد الحكماء القدماء امثاله اليه ..

المعـــلـــم : وكيف تأكدت من ظلمه ؟

النـــاســـك : تأكدت يا معلمى . لا يمكن ان يكون كل من قابلتهم كاذبين . لقيت أفواجا من اللاجئين من مملكة تسى . تكلمت مع الفلاحين وقاطعى الأخشاب وصيادى السمك الفقراء . عرفت من الأطفال والنساء والعجائز ما لحق بالآباء والأزواج والابناء . حتى الأرض والسماء غاضبان عليه ..

المعـــلـــم : الأرض والسماء ؟ وكيف هذا ؟

النـــاســـك : (يتمشى جيئة وذهابا) : منذ أن تولى القيصر الأصفر حكم المملكة والسحب تمر عليها دون أن تمطر . منذ أن جلى على عرش المملكة وأوراق الشجر تسقط قبل أن تذبل وتجف . منذ ان تسلط على المملكة وبريق الشمس يخفت ، وضوء القمر يزداد صفرة وشحوبا . ان مظهره يحارب مخبره . ووجدانه يلعن سلوكه ويتبرأ منه . كل شىء فى المملكة صار اصفر اصفر ..

المعـــلـــم : وكيف تطمع فى ان تهديه للطريق ؟ كيف تنتظر ان يستمع منك للحقيقة ؟

النـــاســـك : كما قلت ياسيدى . سأقف امامه كما وقف الحكماء القدماء .. سأهتف به فى ثبات واتزان : ايها القيصر (لقد اضطرب نظام العالم . اختلت اسس الحياة واهتزت قواعد المملكة . وارادة السماء لا تنفذ ،

حيوانات الحقل تهرب مذعورة ، تطاردها الذئاب فى غيبة الراعى . الطيور تصرخ فى الليل ، تحوم مولولة فوق الأراضى المتشققة والوديان الذابلة ، فوق الحدائق الخاوية من الكروم والعشاق . أما أسراب الجراد فتزحف كالسحب السوداء . والجراد يلتهم ما كان من قبل يسمى شجرا أو عشبا أو خضرة ، ينشر الخراب على الأرض ، على كل ما يزحف فوقها أو يحلق او يمشي ..

المعـــلـــم : (مبتسما) : وستهتف بصوت عال : هذا هو ذنب الحكم .. هذا هو ذنب الحاكم ..

النـــاســـك : (فى حماس) : كما فعل الاجداد من الحكماء .. الحكماء الذين اتبع طريقهم واعتقد اننى خادم لهم ..

المعـــلـــم : جميل .. رائع ..

النـــاســـك : والفضل فيه لكم . لقد تعلمته منكم ..

المعـــلـــم : وتعلمت ايضا ان تكون خادما للأرض والسماء ..

النـــاســـك : بالطبع .. وللطريق الحق .. والابدية والوحدة والواحد يسرى فى الكل .. هل هناك اختلاف بين خدمة الاسلاف وخدمة الأرض والسماء ؟

المعـــلـــم : فى الأصل لا . ولكن فى هذه الحالة نعم ..

النـــاســـك : ارجوك .. فسر كلامك ..

المعـــلـــم : استمع اليّ .. سأفسره من ناحية الحاكم ..

النـــاســـك : القيصر الأصفر ؟

المعـــلـــم : نعم نعم . هذا الذى تقول انه صبغ كل شيء بلونه البغيض . ثم من ناحيتك انت ايضا يا ولدى ..

النـــاســـك : كل كلمة تقولها تزيد من تصميمى وعزمى ..

المعـــلـــم : تزيد من عزمك ؟ لا أدرى . أن هذا الحاكم الأصفر يستعرض الكمال امام الناس ويملؤه الغرور كما يملأ

القش كيسا منفوخا . هل نقول ان يخفى نقصه وضعفه وراء أبهته وقوته ؟ من الصعب ان نحكم على حقيقة •أمثاله من مظهرهم . فهو يرفض ان يعارضه احد . ولذلك يستمتع بإحناء ظهور الآخرين . وهو يعلم انه فراغ وخواء من الداخل ، ولذلك يلذ له ان يفرغ من حوله ويجعلهم خواء لكى يطمئن ـ وقد لا يطمئن يا بنى حتى يرى امثالك تمزقهم الأغلال او تتدلى رءوسهم وألسنتهم من فوق المشانق ..

النـــاســـك : اكرر ما سبق ان قلت يا معلمى : اننى على استعداد للتضحية ..

المعـــلـــم : (ضاحكا) : ولكنها تضحية بلا ثمن ! لقد اصطدمت بمظهره ولم تنفذ الى باطنه .

النـــاســـك : ماذا تقصد .

المعـــلـــم : هل تعرف السائس الذى يمدُّ يديه الى ظهور الخيل ليخلصها من الذباب والحشرات اللاسعة التى تلتصق بجلدها ؟ ربما يُفزعها فجأة فتثور ثورة عنيفة وتجرح نفسها وتجرحه ، وربما ترفسه رفسة مميتة .

النـــاســـك : مازلت على استعداد للموت .. المهم ان ينتبه الشعب ..

المعـــلـــم : الشعب ؟ هذا الوجه الهائل الغامض ابدا ؟ هل تظن انه سيشعر بك واذا شعر بك فهل تظن انه سيصدقك ؟

النـــاســـك : ولم لا ؟ مادمت أواجهه كما واجهه الحكماء القدماء . أننى اخدمهم واسير على طريقهم .

المعـــلـــم : ليتك تخدم الأرض والسماء قبل أن تخدمهم . فقد ساروا على طريق الأرض والسماء ..

النـــاســـك : وواجهوا الشعب وغيروه ..

المعـــــلــم : لم يواجهوه بالمواعظ وحدها .. لم يغيروه قبل ان يتغيروا ..

النـــاســـك : ولكننى سأواجه الشعب كما واجهوه .. بالفضيلة وحب البشرية ، بالثبات والاتزان ..

المعـــــلــم : هذا ما قلته من قبل . ولكنه لن يسمع الا كلمات . وسينفض عنك فى النهاية وهو يقول : مهرج جديد يبحث عن الشهرة والمجد ! ..

النـــاســـك : سأحاول أن أغيرهم فيغيروا ما حولهم . آه يا معلمى ! كل هذا الخراب والذبول والفساد ..

المعـــــلــم : هل تملك الطبول العالية الصوت ان تعيد للارض خصبها ، وللقلوب والاشجار ربيعها ، وللحياة ..

النـــاســـك : لن اتردد عما عزمت عليه ..

المعـــــلــم : انت مصمم اذاً ..

النـــاســـك : وما سمعته منك يزيدنى تصميما ..

المعـــــلــم : افعل ياولدى ما تشاء . لكنك ستكون مثل تلك الجرادة التى أرادت ان توقف العربة الكبيرة التى تزعجها وتزعج الناس فى الطريق . فردت أجنحتها واستلقت على أرض الشارع كى توقفها عن الحركة .. لكنها عجزت عن تحقيق هدفها لأنها اخطأت التقدير . ولهذا سحقتها العربة والخيل والسائق دون ان تغير شيئا ..

النـــاســـك : سيدى .. لا يمكن أن أقف ساكنا والشعب هناك يتألم .. لا يمكن أن اعكف على تعلم الحكمة والناس فى مملكة «تسى» يجوعون ويعذبون ويهانون .. لا يمكن ان أصبر والضحايا المظلومون تتدلى جثثهم فى الساحات والميادين بحجة إقامة العدل والقوانين . اختل نظام الكون . اضطربت قواعد الدولة . كيف انتظر ولا احاول التغيير ؟

المعـــــلــم : قبل ان تغير نفسك ؟ !

النـــاســـك : لقد جمعت من حكمة القدماء ما يكفى ..

المعـــــلــم : وهل تأكدت من إنك أصبحت حكيما ؟ هل تتوقع ان

يربى غيره من لم يربِّ نفسه ؟

النـــاســـك : (يحمل جرابه على ظهره) : سأذهب يا معلمى ..

المعـــلـــم : لا أستطيع ان أمنعك ..

النـــاســـك : أعلم أنك تخشى عليَّ . لكننى تعلمت منك ما يعيننى على السير على الطريق .. تعلمت منك ما يساعدنى على الحياة اكثر من هذا الزاد فى جرابى لابد يا معلمى . لابد ..

المعـــلـــم : الوداع يا ولدى .. تذكر ما قلته لك اليوم ..

النـــاســـك : وما تعلمته منك بالامس وقبل الأمس ..

(يتقدم منه .. يعانقه ويبكى) .

المعـــلـــم : لا تبك يا ولدى . انما اردت ان احذرك ..

النـــاســـك : وهل كنت تتردد عن محاولة تغيير العالم والناس ؟

المعـــلـــم : (مبتسما يربت على كتفيه) : تغيير العالم والناس ؟ ! مثلنا يغير نفسه اولا . يحاول ان يكون كاملا قبل أن يدعو غيره الى الكمال . واذا اضاء مصباحه فربما يستنير به العالم ، ربما يستنير الشعب ..

النـــاســـك : أن أغير نفسى اولا .. أن أصبح كاملا قبل دعوة غيرى للكمال .. ولكن هذا هو الذى أريد ..

المعـــلـــم : لا تتعجل ياولدى ..

النـــاســـك : (فى حماس) : وهذه هى معالم الطريق .. لهذا اسير على الطريق .

المعـــلـــم : المهم ان تكون انت الطريق ..

النـــاســـك : وهل يمكن ان اكونه بغير ان أسير عليه ؟ .. هل يمكن أن أتغير بغير ان أغيِّر ؟ الوداع يامعلمى .. سأذهب الى الشعب .. سأواجه القيصر الاصفر ..الوداع ..الوداع .. الوداع (يسرع خارجا) ..

المعـــلـــم : الوداع .. (ثم لنفسه بعد أن يذهب) كم أخاف عليك يا ولدى . !

- ٢ -

(ساحة واسعة تبدو وأعواد المشانق من بعيد ، تتدلى منها جثث المحكوم عليهم بالاعدام . حارسان ليليان يغفوان بالقرب منها . يدخل الناسك الشاب من جانب المسرح ، يرى المشانق فيهتف ..) .

الناسك : لابد اننى وصلت آلى مملكة القيصر الأصفر .. وصلت بعد البحث الطويل وعناء الصعود على قمم الجبال والهبوط فى السهول والوديان ، وهذه جثث المظلومين تواجهنى . والغروب يؤذن بالليل الموحش البارد . ترى كم من الجثث يتمدد الآن فى الأكواخ والبيوت وفوق الحقول الخربة ؟ كم من الاشباح الجائعة يهيم فى الطرقات أو يستريح تحت الشجر الذابل او يقعى تحت جدار متهدم ؟

هذه هى المملكة التى مرت عليها السحب دون ان تمطر ، وسقطت فيها اوراق الشجر قبل ان تجف ، وشحب وجه الشمس والقمر من الحزن والاكتئاب .. ايتها الجثث المسكينة ! ها أنت تتدلين من الحبال ولا تعرفين . لا تعرفين أن قوة السماء قد اختلت نواميسها ، وأن قوة الأرض قد قيدت فى الأغلال لا تعرفين أن عجلة الحياة قد خرجت عن محورها ، أن الفصول الأربعة قد اضطربت دورتها ، ان عناصر العالم الستة تتصادم وتتصارع كالثيران المعصوبة

الأعين او قطعان الماشية العمياء .. واهاً لى ! ماذا أفعل هل استطيع ان اصلح نواميس الأرض والسماء ، أن أواجه جيوش الدود والافاعى والغربان التى تنهش جسد المملكة ؟ أن أوقف زحف النمل والسوس والعقارب والعناكب ؟ أن أعيد البلابل الى الاشجار ، والقطيع الى الحظيرة ، والراعى .. اين هو هذا الراعى المسئول عن كل شىء ؟ اين هو الراعى ! اين الراعى غير المسئول ! ! (تفلت منه صيحة تجعل أحد الحارسين يهز رأسه ويفرك عينيه . الناسك لا يراهما ويحث خطاه نحو الجثث المعلقة) ايها الابرياء المساكين ! إننى أصرخ للسماء واشكو اليها حظكم . اريد ان اصيح بملء صوتى : ايها الرجال ! ايها الرجال ! انتشر الخراب فى الأرض فكنتم أول ضحاياه . شاعت حفر الاضطراب فى المملكة فكنتم اول من سقط فيها . اريد ان انزلكم من على المشانق ، أن اوقفكم على اقدامكم ، ان اخلع ملابس النساك واغطى بها عريكم . اريد ان اجركم معى على الطريق وازحف بكم الى القرى والبلاد وأقف معكم على بوابات المدن وأطرق ابواب البيوت وانا اصرخ : انتبهوا ايها النائمون ! اسمعوا ايها الصم ! هل كان هؤلاء الرجال مذنبين ؟ هل كانوا هم اللصوص الحقيقيين ؟ هل كانوا هم القتلة الحقيقيين ؟ (يتقدم منه الحارس فى خوف ويشد ثوبه فلا ينتبه اليه) .

الحـــــارس : أنت .. أنت ..

النـــاســك : هل انتم اللصوص الحقيقيون ؟ هل انتم القتلة الحقيقيون ؟

الحــــــارس : اذا لم يكونوا هم اللصوص والقتلة فمن هم ؟
النـــاســـك : (مواصلا هتافه) : لا .. لا .. لا يمكن ان يكونوا كذلك .. انطقوا .. تكلموا ..
الحــــــارس : انا الذى اتكلم .. الا تسمعنى ؟
النـــاســـك : (مستمرا فى انفعاله) : تكلموا وقولوا للجميع . لقد تركوا اللصوص الكبار وشنقونا . انحنوا للقتلة احتراما وأعدموا المقتولين ..
الحــــــارس : (يشده من يده) : حاذر مما تقول !
النـــاســـك : (ينفض يده منه) : دعنى .. دعنى ..
الحــــــارس : لكى تشنق بجانبهم يا مجنون ؟ ثم أن صوتك مرتفع وسينبه زميلى هناك ..
النـــاســـك : زميلك .. وأنت .. من أنتما ؟
الحــــــارس : قل لى أولا من أنت ؟
النـــاســـك : انا الذى سمع بما يحدث فى مملكة تسى فجاء على الفور ..
الحــــــارس : لتتدلى رأسك بجوار هؤلاء ؟
النـــاســـك : (صائحا) : لأرفع صوتى للسماء . لأعلن للشعب كله .. ليس هؤلاء هم القتلة الحقيقيين ! ليس هؤلاء هم اللصوص الحقيقيين !
الحــــــارس : أيا كان رأيك فهم الآن مشنوقون ..
النـــاســـك : ولهذا سأرفع صوتى للسماء ، سأعلن للشعب ، سأقول لكل عابر سبيل ..
الحــــــارس : اعلن وقل ما تشاء .. لكن أرجوك . لا ترفع صوتك .
الحارس الثانى : (يتجه نحوهما وهو يغالب النوم) : ما هذا ! من هذا ؟
حـــــارس اول : أرأيت ؟ .. لقد جنيت عليهم وعلىَّ وعلى نفسك ..
النـــاســـك : (مستمرا كأن عينيه لم تقع عليهما) : سأقول بأعلى صوتى : هؤلاء هم الضحايا ..

حـــارس ثان : هؤلاء .. ضحايا ؟ ! (ينظر لزميله ويشير الى رأسه باصبعه) .
حـــارس اول : ونحن ؟ .. ماذا يسمينا ؟
النـــاســـك : أنتم ايضا ضحايا ..
الحـــارســان : (معا) : نحن .. ضحايا ؟
النـــاســـك : اجل .. اجل .. سنوا القواعد والقوانين ، فكثر عدد المجرمين . وضعوا الأوامر والنواهي ، فكثر عدد السجون والحراس . لهجت ألسنتهم بالشرف والعار ، فنشأ الثأر والغدر . فتحوا الأعين على التملك والثراء ، فبدأ الشجار والنزاع . أغروا الناس بالترف والرخاء ، فسلبوهم الراحة والأمن . ثرثروا عن الخير والصدق والفضيلة فأمتلأت الشوارع والاسواق والبيوت بالرذيلة والكذب والفُجْر والغدر ..
حـــارس اول : وهؤلاء ؟
النـــاســـك : ضحايا .. ضحايا ..
حـــارس ثان : ونحن ؟
النـــاســـك : قلت لك .. ضحايا .. ضحايا .. (يبكي بصوت عال . يلتفت الحارسان لبعضهما . يقتربان منه ويربتان على ظهره وكتفيه . ينهض فجأة وينطلق الى المشنوقين) .
النـــاســـك : ألا تصدقان ؟ الم يقولوا الحقيقة لكما ؟ ألم يصرخوا في سمعكم : نحنُ ضحايا مظلومون . نحن ضحايا مظلومون ؟ ! (يقترب من الجثث واحدة بعد الأخرى) انت ايها الشيخ ! كلفوك ان تحمل حملا ثقيلا . وعندما عجزت علقوك من رقبتك . وانت ايها الشاب النحيل . اعطوك سيفا صدئا وطالبوك بأن تبارز العدو .. وعندما انهزمت شدوا الحبل على عنقك . وانت ايها السقيم العليل .. طالبوك بالمحصول

الوفير ، وعندما بخلت الأرض حاكموك وأدانوك ولفوا رأسك فى العصابة السوداء . وانت .. وانت ..

الحـــارســـان : (معا) : وأنت ؟ ألا تخاف ..

النـــاســـك : انا الذى لا يخاف ان يقول : هذا هو ذنب الحكم .

الحـــارســـان : (معا) : الحكم ؟

النـــاســـك : والحاكم أيضا ، كان الحكام القدماء يرجعون الخير للشعب . أما الشر فيحاسبون أنفسهم عليه . كانوا ينسبون النجاح للشعب ، أما الفشل فيحملون وزره على اكتافهم ، كانوا يقولون على الدوام : العدل والنفع منه ، والظلم والضرر منا ونحن المسئولون عن اصلاحه ، لكن حكام هذه الايام ..

حـــارس اول : حكام هذه الأيام ؟ .. (يتلفت حوله) .

حـــارس ثان : (لزميله) : هل قال شيئا عن الحكام ؟

النـــاســـك : نعم حكام هذه الايام ..

الحـــارســـان : (معا) نتوسل اليك .. الاسلم ان تتكلم عن المحكومين ..

النـــاســـك : نعم .. نعم .. سأتكلم عن المحكومين عندما يحسون ان الاعباء فوق طاقتهم يلجأون الى الغش . عندما تخونهم قواهم يلجأون الى التحايل وعندما يقصر علمهم يلجأون الى الخداع . وعندما تعجز اموالهم واملاكهم عن الوفاء بالضرائب والديون يلجأون الى السرقة . كيف يمكن ان يكونوا صادقين حيث تنتشر الكذبة الكبيرة ؟ .. وكيف يتعلمون الامانة ومعلمهم خائن ؟ ..

الحـــارســـان : (معا) معلمهم خائن ؟

النـــاســـك : ألم تسمعا من يقول :

كلما زاد عدد القيود والحدود فى المملكة
زاد فقر الشعب ،

وكلما زاد عدد الاسلحة
عم الاضطراب فى البلاد ،
وكلما كثرت القوانين والتعليمات
كثر عدد اللصوص وقطاع الطرق !

حـــارس : (يتسلل خفية) : ياللفظاعة ! ومن المسئول عن هذا ؟ !

النـــاســـك : اسمعوا زميلكم الذى يسأل : من المسئول عن هذا ؟

الحـــارســـان : (ينظران الى الحارس الجديد . يلتفتان لبعضهما ويسكتان) .

النـــاســـك : ألم تعرف انت ايضا ؟ .

الحـــارس ٣ : ليتك تنير ظلامى ..

النـــاســـك : (مندفعا) :

اذا كان الشعب يجوع
فلأن حكامه يلتهمون الضرائب التى تفوق طاقته ،
لهذا يجوع الشعب ،
اذا كان الشعب لا يحترم الموت احتراما كافيا ،
فلأنه ينساق وراء البذخ والترف
ولهذا لا يحترم الموت احتراما كافيا .

الحـــارس ٣ : الحكام يفعلون كل هذا ؟ !

النـــاســـك : بل يفعله الحاكم وحده ..

الحـــارس ٣ : الحاكم أم الملك أم القيصر ؟

النـــاســـك : وما الفرق ؟ لقد تكلمت عن ظلمه وهاك ما أقوله عن كذبه :

ان الحاكم ينافق الناس ،
يوافقهم على كل شىء ،
يسير كالاعمى وراءهم ،
هذا ما اسميه سرقة الشعب .
انه يتظاهر بالثناء عليهم

لكى يخفى احتقاره لهم ،
يتملقهم لكى يسهل عليه ان يقودهم الى الهاوية
ويغرقهم فى بحار الكوارث ،
لهذا فسد الحكم وفسد الحاكم .

الحـــارس ٣ : وفسد الملك والمملكة ؟ ! وفسد القيصر ...

النـــاســـك : من يسرق حافظة نقود يعاقب ويشنق ، ومن يسرق
دولة وشعبا
يتوج على العرش

الحـــارس ٣ : يتوج عليه ام يسرقه ؟

النـــاســـك : وليته يكتفى بهذا ؟

الحـــارس ٣ : هل يسرق شيئا آخر ؟ ..

النـــاســـك : بل يفسد كل شىء . الشعب والأرض والسماء .
والذى كان ينتظر منه أن يعيد الناس الى الطريق
أصبح يبعدهم عنه . الذى يفترض ان يفتح لهم باب
الابدية صار يدفعهم الى باب الموت . الذى كانت
مهمته ان يردهم الى البراءة الاصلية حولهم الى
لصوص وقتلة ..

الحـــارس ٣ : ثم عاقبهم وعلقهم على المشانق ؟ ..

النـــاســـك : لو كان هو الحاكم العادل ما حدث شىء من هذا . ولو
كان هو الملك الكامل الذى اتحد مع الأرض والسماء
ما تمت هذه الجريمة ..

الحـــارس ٣ : اتحد مع الأرض والسماء ؟

النـــاســـك : والتف حوله الشعب كما يلتف الاطفال حول أمهم
التى ترضعهم ..

الحـــارس ٣ : وهؤلاء المشنوقون ؟ من هم فى رأيك ..

النـــاســـك : رأيى ؟ ألا تستطيع ان ترى بنفسك ؟ ألست أحد
الحراس عليهم ؟ ألم تعلم انهم ضحايا بؤساء ؟ .

الحـــارس ٣ : ضحايا الحاكم الظالم والملك الفاسد والقيصر

والأصفر ؟

النـــاســـك : ومن غيره ؟

الحـــارس ٣ : (وهو يرفع القناع عن وجهه) : تقصد انهم ضحاياى ؟

الحـــارســـان : (معا) القيصر الأصفر ! القيصر الأصفر !

القـــيصـــر : هل جئت الى هنا لتضع رأسى فى حبل المشنقة ؟

الحـــارســـان : (معا) : مولانا القيصر !

(ينحنيان أمامه بشدة)

النـــاســـك : (يتقدم منه ويواجهه) : بل لأردك الى الوحدة مع السماء والأرض .. مع الأبدية .. مع الكل .. لأردك الى الطريق .. لأجعل منك او من غيرك الحاكم الكامل ..

القـــيصـــر : منى او من غيرى ؟ سمعتم يا حراس ؟

الحـــارســـان : مولانا القيصر (ينحنيان) .

القـــيصـــر : سمعتم ؟ يريد ان يجعل منى الحاكم الكامل ..

النـــاســـك : حقا .. هذا هو ما أريد .

القـــيصـــر : هلا جعلتما منه اولا المواطن الكامل ؟ ..

الحـــارســـان : (يترددان) .

القـــيصـــر : (صارخا) خذاه .. تعرفان الطريق الى هناك .. ثم عودا به الىَّ .. لأتعلم منه الكمال .. هيا .. هيا .. هيا . (يفهمان . يأخذانه وينصرفان) .

* * * *

- ٣ -

(القيصر الأصفر يقطع المكان ذهابا وجيئة ـ يبدو الغضب على ملامح وجهه ، ويثور الشرر من عينيه ، ويخيل لمن يراه أنه وحش لازالت دماء فريسته تصبغ شفتيه . تصدر عنه ايماءات وحركات تدل على الهياج واليأس فى آن واحد . يكلم نفسه قائلا) :

القيصـر الأصفر : شئ غريب . شىء نادر . انسان لم أر مثله ابدا . لم اعرف مثله ابدا . هل يمكن ان يتحمل هذا التعذيب ولا يشكو ؟ هل يمكن ان تقطع السيوف والنصال أصابه قدميه ولا يتأوه ؟ هل يمكن أن يسلخ جلد وجهه ولا يتوجع ؟ لقد كان يبتسم . نعم رأيته بنفسى من وراء ستار هذا الغريب الذى يكاد أن يصيبنى بالجنون . لو كان صخرة لتألم . ولو كان جثة او حشرة لتحركت ودافعت عن نفسها . أريد ان أعرف حقيقته . لابد أنه رجل خطر .. لابد أن أعرف حقيقته ! ..

(يدخل الناسك الشاب مغطى الوجه ، قدماه ملفوفتان فى قماش ابيض ، تتحركان بصعوبة كطائر عجوز قيدت أطرافه بالاغلال ، يصدر عنهما صليل مع كل خطوة . يتبعه حارسان ويسوقه حارس ثالث) .

أحـــد الحـــراس : هذا هو المجرم يا مولاى ..

القيصـر الأصفر : (ينظر اليه من بعيد ويقول لنفسه) : ايتها السماء !

صار وجهه كالفحمة . قطعت أصابع قدميه فصار أعجز من رضيع . ماذا سيفعل ؟ ماذا سيقول ؟ كيف واتته القدرة ؟ .. (ثم فجأة) انصرفوا . لقد كسبتم رضاء الدولة والقانون والاجداد . انصرفوا .. (ينصرف الحارسان ويتردد الثالث الذى يقود السجين) لا .. لا .. انتظر أنت وساعده على الجلوس . لماذا تحجب وجهه ؟ ألم تؤد واجبك كما ينبغى ؟

الحارس : بلى يا مولاى . انظر ..

(يكشف الغطاء عن وجهه فتبدو بشاعته . يسارع القيصر صائحا ..)

القيصر : لا لا لا .. اننى لا أشك فى أعوانى .. أنزل الغطاء عليه ..

الحارس : (يساعد الناسك على الجلوس .. ينحنى للقيصر) .

القيصر : قف أنت هناك . بعيدا فى هذا الركن . او انصرف انت . انصرف سأدعوك اذا احتجت اليك .

الحارس : (ينحنى بشدة وينصرف) .

القيصر : (يدور حول الناسك والعرق والكلام يتصببان منه دون ان يعرف ماذايفعل أو يقول : لقد تم كل شىء .. تماما كما حدده القانون ، وكذلك العرف والتقاليد . لا تظن اننى شامت فيك . لا تظن ..

الناسك : (يلزم الصمت . ينظر فى الفراغ)

القيصر : هذا جزاء كل من يقترف ذنبا خطيرا . جزاء كل طائش معتد على المملكة والقانون وأرواح الاجداد . نعم .. نعم .. ان ارواح الأجداد غاضبة عليك . وهى التى حددت نوع العقاب . تماما كما فعل أجدادى بمن تجرأ عليهم . أجدادى وأجداد أجدادى ..

الناسك : (صامت يتطلع اليه من وراء الغطاء الشفاف) .

القيصر : لا تتصور آن بينى وبينك ثأرا . اننى لا اعرفك ولا اعرف من اين اتيت . ولست انا الذى آمر بتعذيبك . بل الكتب القديمة التى تضم الشرائع،القديمة . ولو تسامحت معك لاهتز القانون وثارت ارواح الاجداد ..

الناسك : (يواصل صمته كأنه تمثال) .

القيصر : لابد أنك قرأت الكتب القديمة . يبدو هذا على وجهك . معذرة . أقصد وجهك الذى كنت تحمله قبل أن أؤدبك . معذرة . قبل ان يؤدبك القانون والأرواح والشرائع المقدسة ..

الناسك : (لايرد .. يبدو كأنه ابتسم) .

القيصر : هل ابتسمت ؟ لا ادرى . يخيل الىّ اننى لمحتك تبتسم . لماذا لا تتكلم ؟ لماذا لا تقول شيئا ؟ لقد تحدثت اليك حديث الاصدقاء . تناسيت اننى قيصر يكلم عبده . لكنك لا تحرك شفتيك . وعندما حركتهما بدا لى انك تبتسم . هل ابتسمت حقا ؟ هل تسخر بى ؟

الناسك : (يلازم صمته . تتسع ابتسامته) .

القيصر : إذاً فأنت تريد ان أزيد الجرعة . يمكننى أن آمر بحزٍّ رقبتك . يمكننى أن أعلقك على المشنقة كأولئك الذين رحت تصرخ بهم وتلعننى وتلعن حكمى . حاذر . لا تغترَّ بتسامحى . لا تغترَّ بهذا الشرف الذى أوليتك اياه عندما طلبت ان تحضر الىّ ..

الناسك : (يتطلع اليه ويتابع حركاته . يبدو ان ابتسامته اتسعت عما كانت عليه فارتفع صوت القيصر) .

القيصر : كان من الممكن ان اصدر الامر بشنقك او تمزيق جسدك أو القائك فى البئر . ان العقاب الذى نفذ فيك هو أهون عقاب فى المملكة . ومع ذلك، تبتسم

كما كنت تفعل وهم ينفذون العقاب .

الناســـك : بل كنت أضحك ..

القيصـــر : تضحك ؟ ! وهم ينتزعـون جلدك ويقطعـون جسدك ؟ ..

النـاســك : نعم .. نعم .. كنت اضحك ..

القيصـــر : لا اصدق .. لا اصدق .. هل لى ان اسألك لماذا ؟

النـاســك : كنت دفنت جسدى بنفسى ..

القيصـــر : ليتنى افهم ما تقول . ولكن الناس تبكى عند دفن الموتى .

النـاســك : وعندما يدفنون انفسهم بانفسهم يضحكون ..

القيصـــر : ما معنى هذا ؟

النـاســك : معناه اننى حلقت وراء حدود التراب ..

القيصـــر : أوضح ! أوضح !

النـاســك : عندما شعرت أخطو على الهواء ولا أمشي ، عندما ابصرتُ جثتى التى تخلفت تحتي ، تذكرتُ ما قاله معلمى ..

القيصـــر : وماذا قال معلمك حتى يضحكك ؟

النـاســك : دخلت عليه مرة فوجدته ممددا فى سكون . كان يتطلع الى السماء ، ويتنفس بعمق كالرضيع النائم ، ويبدو بعيدا بعيدا كأن جسده وروحه قد انفصلا عنه . هتفت به : ماذا جرى لك يا معلمى حتى بدا جسدك كأنه شجرة ذابلة وبدت روحك كأنها رماد ميت . ان الرجل الممدد امامى ليس هو المعلم الذى اعرفه . تكلم وقال : «حقا ما قلت . لقد دفنت اليوم نفسى بنفسى» . قلت له : لم افهم ياسيدى .. قال : أَلَمْ تتذكر ما قلت لك ذات يوم .. سألت وماذا قلت ؟ قال : يوم سمعتنى اغنى :

عطل جسدك

حرر نفسك ،
أطلق عقلك من قيده
كن عدما وفراغا
لا تفعل شيئا
عانق كل الاشياء
توحد معها
وستزهر كل الاشياء
وترجع لطبيعتها الأولى
لبراءتها الاصلية .

ألححت عليه بالسؤال : ولكنك كنت تبتسم يامعلمى . معذرة . فلم أر فى حياتى جثة تبتسم .. ضحك معلمى طويلا ثم قال : بل كنت اضحك ياولدى . كنت اضحك

سـألـته : ولماذا يا سيدى ؟

قـال : لاننى تذكرت المعلم «تسى - هوى» عندما وضعوه على عجلة التعذيب . بدأوا يسنون السيوف والنصال قبل ان يشرعوا فى قطع أوصاله فراح يبتسم . تعجب القيصر الأصفر الذى كان يراقب التعذيب والجلادين فاقترب منه وسأله : انهم يهيئون ادوات التعذيب .. ومع ذلك تبتسم ؟ قال له : لقد دفنت جسدى ايها القيصر . تخليت عنه وها هو الآن هناك شجرة ذابلة أو رماد ميت . وعندما يبدأون فى قطع فروعه ويحرقونها ويذرون رمادها الميت لن أنشغل به ..

قـال القيصـر : وماذا يشغلك اذاً ؟

قـال تسى هـوى : يشغلنى الآن شىء واحد : أن أبقى على روحى . أن أصونها فلا يمسها أحد .

وعندما ارتفع صليل السيوف والنصال والسكاكين

وبدآ الجلادون فى عملهم استغرق فى الضحك
فثار القيصر الأصفر القديم كما ثرت الآن ..
القيـــصــــــر : لقد تعجبت ولم أثر . ولكن ماذا فعل ذلك القيصر ؟
النــــاســــك : اقترب منه في ذروة غضبه وسأل : لماذا تضحك ؟
فقال له تسي - هوى : لانى أسمع موسيقى ..
ذهل القيصر وصاح : تسمع موسيقى ؟ !
قال تسي هوى بهدوء : ربما تكون قد سمعت موسيقى البشر لكنك لم
تسمع موسيقى الأرض .
ربما تكون قد سمعت موسيقى الأرض
لكنك لم تسمع موسيقى السماء
قال القيصر ساخرا : انا لا اسمع الا موسيقى السيوف والنصال .
قال تسي - هوى : لانك لم تتخل عن جسدك .
ساله القيصر : وأنت ؟ هل تخليت عنه ؟
كان الجلاد يقطع ويقطع والمعلم العجوز يغنى :
جسدى ليس بجسدى
وحياتى ليست بحياتى
جسدى ليس بجسدى
أوقف القيصر الجلاد وسأله : ان لم يكن هو جسدك ، جسد من اذاً ؟
قال تسي - هوى : جسدك ليس بجسدك
انه الصورة التى صنعتها لك السماء والأرض
وحياتك ليست بحياتك ، أنها التجانس الذى
نسجته السماء والأرض
اولادك ليسوا اولادك
فالسماء والأرض قد تجددوا فيك ..
تتحرك ، لا تدرى ماذا يدفعك على الحركة
تسكن ، لا تعرف ماذا يحملك على السكون
إنها قوة الحياة تعمل عملها فيك
انها قوة الطريق الذى يملكك ولا تملكه
القيـــصــــــر : لهذا ابتسمت وضحكت عندما أخذوا يقطعون

أعضاءك ويحرقونها ويذرونها كالرماد

النـــاســـك : لأني سمعت الموسيقى ..

القيـصـــر : الموسيقى ؟ والشفرات الحادة تحز اصابع قدمك ؟ والجلاد الرسمى ..

النـــاســـك : والجزار الرسمى يسقى شفرة السكين بالدم ويحركها فى جرحى الغائر . يحركها حركة لطيفة ناعمة محسوبة . كما يمر العازف بريشته على وتر القيثارة ..

القيـصـــر : ألا تصرخ ؟ ألا تتأوه ؟ ألا تثور ؟ !

النـــاســـك : هل يستطيع سيفه ان يحتز أعناق النجوم ؟
هل يمكن نصله ان يطعن البدر ؟
كان جدى جثة بين يديه
ويده تتحرك كالعازف الماهر فيبتسم
الا تزيدنى ان ابتسم لرجل يتقن عمله
ويشعر بالرضا عن نفسه وفنه ؟
الا تشعر ان الجزار يمكن أن يكون موسيقيا على طريقته ؟ ..

القيـصـــر : حتى عندما بدأ ينزع جلد وجهك ؟

النـــاســـك : تقصد عندما نزعوا جلد الطبلة الجوفاء ؟

القيـصـــر : ماذا تقول ؟

النـــاســـك : لا تندهش . هذا هو قول معلمى العجوز ..

القيـصـــر : ومتى قال هذا ؟

النـــاســـك : عندما ذهبت اليه لاودعه قبل الرحيل . كشفت له عن نيتى . صارحته بعزمى على السفر الى العالم لتغييره ..

القيـصـــر : كنت تريد ان تغير العالم ؟

النـــاســـك : وأردت ان أبدأ بمملكتك .. كنت قد سمعت من اللاجئين الذين هربوا منها الى قريتنا عن الظلم

الذى لحق بالشعب .. عن الحقول التى لم تعد تخضر ، والسحب التى لم تعد تمطر ، والجوع الذى يجتاح البيوت والأكواخ كالوباء . عن القوانين التى تزداد فيزيد عدد اللصوص . وعن اللصوص الصغار الذين يشنقون ..

القيصـــر : (ساخرا) : بينما يتربع الكبير على العرش ..

النـاسـك : نعم . نعم . قلت هذا وسمعته بأذنيك . ألم يخطر ببالك أنك تسمع طبلة جوفاء ؟

القيصـــر : خطر ببالى انك مجنون أو ثائر خطير ..

النـاسـك : طبلة .. طبلة جوفاء .. هذا ما قاله لى معلمى فلم اسمع نصيحته . ولو سمعنى الشعب لقال ما قاله لى : مهرج جديد يضرب على طبلة جديدة .

القيصـــر : ولماذا فعلت هذا ؟

النـاسـك : لاننى أردت أن أغير العالم قبل أن أغير نفسى . حاولت أن أتابع طريق الحكماء قبل أن أسير على الطريق . لهذا قطعت أصابع قدمىَّ كما ترى ، وصار وجهى كالفحمة انظر .. (يرفع الغطاء عن وجهه ويبتسم)

القيصـــر : (يبتعد عنه ولا ينظر فى وجهه) : تأكد اننى لا أشمت فيك . كان هذا سيحدث لك أو لغيرك . انه القانون ..

النـاسـك : وشريعة الاجداد . والعرف والتقاليد .. تأكد ايضا اننى لا ألومك .. اننى اشكرك على مافعلت ..

القيصـــر : تشكرنى ؟ .. بعد ان أمرت بقطع اصابع قدميك ؟ .. بعد ان شوهت وجهك ؟ ! ..

النـاسـك : حتى تُفحم . ليكن هذا . انها عدالة السماء . ثم ان ان احدا لم يهتم به او ينظر اليه ..

القيصـــر : تقول لم ينظر اليه ؟ حتى زوجتك .. حبيبتك ؟ ..

النـاسـك : الحكيم وحيد .. ثم ان احدا لم يحبنى ..

القيـــصـــر : تكلم .. تكلم .. اريد ان اعرفك ..
النـــاســـك : يكفى ان تنظر الىَّ .. لقد صنعت فىَّ معروفا .
القيـــصـــر : ارجوك . لا تشكرنى على شىء لا أطيقه ..
النـــاســـك : بل اشكرك الى آخر نفس فى .. انك لم تنزع جلدى . لقد نزعت حكمتى الزائفة . أعدت الىَّ وجه الطفل ..
القيـــصـــر : تقول وجه الطفل ؟ هذا ؟ (يقترب منه .. لا يجرؤ على كشف الغطاء .)
النـــاســـك : على الأقل قلبه وروحه ..
القيـــصـــر : من انت ؟ اريد ان اعرفك على حقيقتك .. اريد ان تفتح لى قلبك هذا .. قلب الطفل ..
النـــاســـك : وماذا تستفيد من حياة رجل مثلى .. رجل تتفرج عليه وهو كالطائر الممسوخ الذى يتقلب فى قفصك ..
القيـــصـــر : ارجوك . لست فى قفص ولا سجن . انت فى قصرى . فى ضيافتى .. تكلم .. تكلم ..
النـــاســـك : (بعد فترة صمت) : ولدت كالاف من يولدون .. وعندما فتحت عينى ، عندما بدأت فتحاتى الست فى استقبال العالم رأيت نفسى أعيش فى بيت رجل مهدم فقير . كنت أسميه أبى فأصبحت أناديه ياجدى . وحكى لى الجد عندما كبرت عما لم يكن من الممكن ان اسمعه او اعيه . عرفت ان ابى ذبحه احد الغزاة من الرعاة الذين انحدروا كالسيل على قريتنا . اما أمى فماتت ليلة ولادتى .. لم أكن الوحيد الذى ولد لها فى تلك الليلة . لقد كان لى أخ أو اخت لا ادرى . وجدى نفسه لم يتذكر . وارتبكت حياة الجد الفقير . وتطوعت نساء الجيران بارضاعى أنا وأخى . كان يحملنا كل صباح الى احدى النساء الصغيرات الطيبات قبل ان يسعى على رزقه . يوما فى الغابة ، ويوما فى الحقل ، وآخر

لصيد السمك فى النهر الأصفر أو البحيرة الخضراء هل تعجب بعد هذا ان اشعر بالظلم ؟ ترسب فى نفسى الاحساس بأننى ظلمت أخى التوأم الذى مات بعد ولادته بشهور ، وباننى ظلمت جدى العجوز الذى لم يكن يجد ما يأكله . وظلمت نساء القرية اللائى لم يكن يجد طبق الأرز يملأ ضروعهن باللبن . وعندما تنبهت لأبناء التجار الأغنياء والحكام المتغطرسين ورأيت انهم يذهبون الى المدارس التى اغلقت ابوابها فى وجهى ، ويلعبون باللعب التى حرمت علىّ ، ويضحكون الضحكات التى لم تخرج من فمى .. عندما كبرت واكتشفت ان قريتى واحدة من آلاف القرى المظلومة فى مملكة الصين الشاسعة .. أدركت اننى مكلف بالانتقام من الظلم . بل خامرنى الاحساس بان السماء نفسها قد كلفتنى به . وارسلنى جدى الى معلم طاوى عجوز . وبدأ المعلم يلقنى اسرار الكتابة والنطق ، ويطلعنى على حكم الحكماء القدماء ، ويكشف لى ألغاز التحولات والحوليات والبين واليانج . كان المعلم يتوقع ان تهدأ ثائرتى ، أن يخف شعورى بالظلم ، أن أسلك الطريق وأتحد به حتى أكونه ، أن أتسلق معه قمة جبل الصفاء والنقاء وهبط معه الى ظلمات الجذور . لكن حياتى مع جدى الذى تحمل الظلم فى صمت ، وموته أمام عينى من قلة الطعام ، وشدة الهوان وحياتى مع المعلم العجوز الذى غير نفسه ولم يغير شيئا مما حوله ـ كل ذلك جعلنى أشعر بأن جبل الظلم والمظلومين ثقيل على صدرى .. على صدرى

انا وحدى ، وان رفع هذا الجبل من اساسه هو مهمتى انا وحدى . وعندما قابلت حاكم قريتنا العجوز عرفت انه مظلوم مثلى . وعندما ذهبت الى حاكم المقاطعة أفرغ شكواه فى اذنى .. والتقيت باللآجئين من عاصمة المملكة وعرفت انك انت الحاكم الذى لا يريد ان يسمع عن الطريق ولا ان يسير عليه .. وان المحكومين فى مملكتك قد افسدهم حكمك وحكم أعوانك ...

القيـــصـــر : عندئذ حضرت الى هنا لتعرف بنفسك الظلم والظالم والظالمين ..

النــاســك : وما قيمة المعرفة وحدها ؟ لقد عرفت الكثير وقرأت الكثير . كان المهم عندى أن أغيِّر ..

القيـــصـــر : تغير الحاكم وأعوانه ؟

النــاســك : كان طموحى أكبر من هذا ..

القيـــصـــر : الشعب ؟ هل تصورت ان تغير الشعب بأكمله ؟

النــاســك : العالم .. قلت العالم كله ..

القيـــصـــر : وبدأت بالمشنوقين الذين أدبتهم فى الساحة ..

النــاســك : وانتهيت هناك ايضا .. والفضل لك ..

القيـــصـــر : لى انا ؟

النــاســك : نعم . نعم . استطعت ان تقتل المهرج الذى كان يرقد فى داخلى .. ان تخرس الطبلة الجوفاء التى نزعت جلدها عندما انتزعت جلدى ..

القيـــصـــر : ألم اقل لك هو القانون . شريعة الاجداد ..

النــاســك : وهل تصورت اننى ألومك ؟

القيـــصـــر : بعد ان مسخت وجهك ؟ .

النــاســك : على العكس .

القيـــصـــر : لا تقل اننى حولته الى وجه طفل ..

النــاســك : وعليَّ الآن أن اجعل له قلب طفل ..

القيصـــر : هل أفهم من هذا انك تحولت عن تغيير الحاكم والمحكوم ، عن تغيير العالم ؟

الناســك : على العكس ..
القيصـــر : مازلت على ثورتك على الظلم ؟ .
الناســك ومازلت تسيء فهمي ..
القيصـــر : ماذا تعني ؟
الناســك : اعني ان الكامل وحده هو الذى يملك وجه الطفل وقلب الطفل . وانا سأحاول من الآن ان اسير على الطريق المؤدى اليه .. الطريق الذى وضعت قدمي على اول خطوة فيه ..
القيصـــر : آنا ؟ .. بهاتين القدمين المشوهتين ؟
الناســك . نعم انت . بهاتين القدمين المشوهتين . بهذا الوجه البشع الممسوخ . انك لا تدرى ماذا فعلت بى ..
القيصـــر : ماذا فعلت ؟
الناســك : جعلت روحى تنطلق من جسد دفنته بنفسى . شعَّت الروح كالفجر . ورأيت نفسى ، رأيت حقيقتى وجها لوجه . وبعدها أصبحت بلا ماض ولا حاضر . أرتفعت فوق الحياة والموت . حلقت فوق حدود التراب . واخيرا دخلت المملكة التى لا موت فيها ولا حياة ، هنالك تجد نفسك وانت تسعى على الطريق . تبنى وتهدم ، تجد وتوجد ، تخلق وتخلق . هنالك تكون على الطريق ومعه وفيه . تتحد بكل شيء ويتحد بك كل شيء . تتجمع حولك كل المخلوقات دون ان تحرك ساكنا . تغير كل شيء دون ان تفعل شيئا . تسحق وتولد نقيا كالوليد البرىء .. عندئذ تكون أنت الكامل والكمال ..
القيصـــر : (مأخوذا) الكامل والكمال ؟ !

الناسك : وعندها ترفرف خفيفا على أجنحة الفراغ وتتجول فى الجهات الست ، تسكن قصر اللامكان فى مملكة العدم ، تغوص فى بحر الابدية وتحرك كل الامواج دون ان تتحرك ..

القيصر : أسكن قصر اللامكان .. فى مملكة العدم . أغوص في بحر الأبدية ولكن .. ولكن كيف أحكم المملكة ؟ ..

الناسك : عندئذ . لن تسأل هذا السؤال .

القيصر : كيف اقيم العدل ؟ وأحارب الظلم وابلغ الكمال ..

الناسك : ولن تحتاج لهذه الاسئلة ..

القيصر : ارجوك .. كيف أحكمها ؟ كيف احكم الشعب ؟ كيف احكم نفسى ؟

الناسك : (وهو يقف متهيئا للخروج) : هل يحتاج المحيط لان تملأه أو تفرغه ؟ ستكون قطرة فيه . لن تحتاج لان تفعل شيئا . ستفرح بوجودك فيه .

القيصر : أوضح .. أوضح ..

الناسك : عندما تصبح نورا ، سيتحول كل شىء دون ان تتحول . عندما تصير كاملا ، سيبلغ الكمال كل انسان في المملكة دون ان تتكلم او تعمل ..

القيصر : قل لى كيف ؟ بالمعرفة أم بالارادة ؟ بالقوة أم بالرحمة ؟

الناسك : (وهو يجرر رجليه بمشقة ليصل الى الباب . القيصر يحاول ان يساعده وهو يرفض ويبعده عنه ، ويعيد الكرة محاولا مساعدته فيبعده ..) هل تذكر القيصر الأصفر الذى كلمتك عنه ؟

القيصر : نعم . نعم . ذلك الذى روى معلمك قصته ..

الناسك : رحل القيصر الاصفر ذات يوم الى الشمال من البحيرة الحمراء ، تسلق جبل «كون ـ لون» وتطلع

الى الجنوب . ثم استدار عائدا الى وطنه . وفى اثناء رحلة العودة بحث عن لؤلؤته السحرية فلم يجدها . ثارت ثائرته وطلب ان ترجع اليه فى الحال . وانحنى قائد الحرس حتى كادت رأسه أن تغوص فى التراب . ثم اسرع الى افراد قواته والقى عليهم اوامره : ارسل المعرفة لتبحث عنها ، لكنها لم تجدها ، كلف بعد النظر أن يفتش عنها ، لكنه رجع دون ان يعثر عليها .

طلب من الفصاحة ان تأتى بها ،
لكنها ارتدت خائبة
واخيرا ـ وعلى مضض ـ لجأ الى البراءة ،
وفى لمحة جاءت بها ..
عندها قال القيصر الأصفر لنفسه :
من الغريب ان تحقق البراءة
ما عجزت عنه المعرفة وبعد النظر والفصاحة ..

القيصـــــر : (للناسك الذى يتجه للخروج من الباب) : أوضح ما قلت ..

النـــاســـك : (ينظر اليه ويشد الباب نحوه) : ربما تجدها انت ايضا ..

القيصـــــر : ارجوك لا تتركنى قبل ان اعرف ..

النـــاســـك : (وهو يزيحه بقوة عن الباب ويقول قبل ان يخرج) : ألا يسمونك القيصر الأصفر ؟ ربما تعثر مثله على اللؤلؤة السحرية .. (يخرج ويترك القيصر مذهولا)

* * * *

- ٤ -

(بعد سنوات من أحداث المشهد السابق . قرية على حدود مملكة «تسي» . يظهر كوخ الناسك المشوه على قمة جبل ، وامامه تابع شاب . تحته قليلا ، على المنحدر ، مجموعة من اهل القرية يبدو القلق على وجوههم ، كأنهم ينتظرون سماع نبأ لا يصدقونه . يدخل الغريب فى صحبة واحد من أهل القرية ..)

الرجل : نعم ايها الغريب . هذه هى قرية الناسك المشوه . هل تعبت فى الوصول الى هنا ؟

الغريب : (يتأمل الجبل والجوخ) : تقول تعبت ؟ يمكنك ان ترى وتتأكد بنفسك اليس هذا هو جبل كو ـ شيه ؟

الرجل : (مشيرا الى الجبل) : نعم . هذا هو جبل كو ـ شيه .

الغريب : وهذا كوخه ؟

الرجل : وهو يرقد ساكنا والسكينة ترقد فيه ..

الغريب : (ساخرا) ويتجول كالارواح على قمته . كالثلج أو الجليد يبدو جسده من بعيد . وكالعذراء تسير خطاه على الأرض وتفتن الاسماع والانظار . هل قلت الأرض ؟ لا . لا . انه لا يأكل من فاكهة الأرض ، بل يتغذى على الندى والهواء . لا تلمس قدماه الأرض ، بل يسبح فوق السحب ، ممتطيا ظهر التنين المجنح ، محلقا وراء البحار الأربعة .

الرجل : (ضاحكا) ؛ أهذا ما يقولونه فى قريتكم ؟

الغريب : ويقولون ايضا : ومع ذلك فهو يحمى الكائنات من

الفساد ، ويجعل البذور تتفتح وتنمو ..

الــرجــــــل : حتى يزدهر الربيع بين الانسان والانسان ، وبين الانسان والعالم والاشياء ..

الغـــريـــب : وكيف أصدق هذا ؟ كيف أفهمه ؟

الــرجــــــل : لا يُسأل أعمى عن سر جمال الصورة والتمثال . لا يُدعى أبكم وأصم لحفلة رقص وغناء . ألم تسمعهم يغنون هذا الشعر ايضا ؟

الغـــريـــب : وحتى لو سمعته .. أيصدق عقل أو يفهم ما يحكيه مجانين ؟

الــرجــــــل : (ضاحكا) : وماذا يحكيه المجانين ؟

الغـــريـــب : ان العالم لا يمكنه أن يمسه بشيء .. لو جرفه السيل الذى يبلغ السماء فلن يبتل بالماء لو اشتعل حريق وصهر عناصر الأرض وأذاب رواسخ الجبال فلن يشعر بلسعة النار . هل يعقل هذا ؟ هل يصدق هؤلاء ؟

الــرجــــــل : لا أعرف ان كانوا يصدقونه أولا . ستتكلم معهم بنفسك وتسمعهم باذنيك . هل نذهب اليهم الآن ؟

الغـــريـــب : انتظر . اريد ان اعرف رأيك انت ؟

الــرجــــــل : أنا ؟ (يتطلع الى الجبل والكوخ) : لا ادرى . لا اظن اننى فكرت فى هذا قبل الآن . ربما لا يحتاج الأمر لمعرفة او تكفير ..

الغـــريـــب : فهمت . وبماذا أحسست اذاً ؟

الــرجــــــل : احسست .. ربما كانت هذه هى الكلمة المناسبة . وهو ليس احساسى انا وحدى . نحن نحس ونشعر ياسيدى . نحن نرى ونسمع . وهو وحده الذى رفع العمى والصمم عن أرواحنا . نعم . فما اكثر الأرواح التى لا تزال عمياء وصماء .

الغـــريـــب : خصوصا مع الضيوف والغرباء ..

الرجـــل : معذرة . أنك لا تعيش معنا . أما أنا وهؤلاء ..
الغــريـب : بماذا تشعرون ؟
الرجـــل : نشعر بأنه يظل كل شيء بمظلته . يضم كل انسان على صدره ويضعه في قلبه . يأخذ منه همه ويحمله على كتفيه . انه راقد هناك . والعالم كله يرقد فيه . ساكن لا يتحرك . لكن قوته قوة تنين تبسط اثيرها على كل ما حوله . يلزم صمت الحجر اوالسلحفاة . مع ذلك يتردد صوته من هذا الكوخ الساكن . فيهز الأرض كصوت الرعد ، وتجاوب قوى السماء كل خلجة يرتعش بها جسده ونفسه . وتنضج كل الاشياء وتزهر بتأثير صمته وسكونه .
الغــريـب : ويتم كل فعل دون ان يفعل شيئا ؟ ..
الرجـــل : نعم .. وينسكب الرضا من كل نفس والانسجام من كل شيء .. ألم أقل لك أن كل شيء يفرح من داخله حين يراه .. ان الربيع يزدهر بيننا وبين العالم منذ أن حل بقريتنا ؟ .
الغــريـب : هذا المسخ المشوه ؟ ..
الرجـــل : اجل . اجل . هذا الذى مسخه القيصر الأصفر ..
الغــريـب : القيصر الأصفر ؟ ! اسمعتم هذا ايضا ؟ .
الرجـــل : ألم تسمعه انت في كل القرى التي نزلت فيها ومن كل الناس الذين سألتهم عن مكانه ؟ ألم يقل لك أحد إن القيصر الأصفر هو الذى مسخ وجهه حتى صار فحمة ، وقطع أصابع رجليه وشوهه ..
الغــريـب : لابد انكم تلعنونه ليل نهار ..
الرجـــل : نحن نلعن ؟ ! انك لا تعرفنا ولا تعرفه . لقد تعلمنا منه كيف نفك أغلالنا بأنفسنا دون ان نلعن جلادينا .. ان نحرر انفسنا بغير ان نصرخ بالحرية .. كيف نلعن وقد علمنا ان نبارك كل شيء ..

الغـــــريـــب : وهو ؟ ألم يلعن القيصر الأصفر ابدا ؟
الـــرجــــــــل : ولم يسمعه احد منا يذكره على لسانه . فى احدى الليالى ونحن نحتفل بزفاف عروسين تحت اضواء المصابيح بينما هو يتمتم بالصلوات ويرتل الأدعية فوق ربوة تطل علينا ويطل منها وجهه المغطى بحجاب شفاف هتف العريس قائلا : لعنت السماء القيصر الأصفر الذى حرمنا من مشاركته .. واذا بصوته يدخل آذاننا كصوت السماء : لا تلعنه يا ولدى .. فربما تتمنى يوما أن تمشى فى أثره وتقبل التراب الذى يسير عليه ..
الغـــــريـــب : هو يقول هذا ؟ !
الـــرجــــــــل : بل أوقف طقوسة ونهض ليرجع الى كوخه . ولولا توسلاتنا ودموعنا لما تم الزفاف ..
الغـــــريـــب : غريب .. غريب .. يمسخ وجهه ويباركه .. يشوهه ويدعو له ؟ ! ..
الـــرجــــــــل : وما الغريب فى هذا ايضا ؟
منذ أن عرفناه ونحن نلتف حوله كالقطيع حول راعيه
انه لا يحرك اصبعا ،
ومع ذلك ننجذب اليه ،
لا يقول شيئا ، ويثق به الجميع ،
لا يملك شيئا يعطيه ،
ويحبه كل انسان ويفديه ،
يعلمنا بغير ان يعظنا ،
يأمرنا بغير أن يتسلط علينا ،
يصلحنا بغير أن يملى علينا شيئا .
ما الغريب فى هذا ايها الغريب ؟ ؟
ليتك كنت هنا يوم ان فوجئنا بالجيش الصغير الذى حاصر قريتنا وحقولنا وصوب أسنان حرابه وسيوفه نحو هذا الكوخ ..

الغـــريــب : (لنفسه) : ويلى .. الجيش الذى لم يرجع منه احد ..

الـرجـــل : (مستمرا) : كان يوما لا ننساه .. صحونا على ضجيج الطبول وصهيل الخيول وزعيق الابواق .. صرخ بعضنا : ملك المغول هبط من الجبال .. ومعه جراد الرعاة الذى هبط علينا ليفترس لحم نسائنا وأطفالنا ويلتهم قوتنا . لكنهم لم ينزلوا الى القرية ولم يمشوا فى الشوارع .. لقد كان هدفهم هو هذا الكوخ .. الكوخ الوحيد على قمة جبل كو ـ شيه .. وهذا الرجل الوحيد القابع فيه .. فزعنا الى معلمنا .. هشنا الجنود كالذباب وهددوا من يقترب بقطع أصابع يديه ورجليه .. وهدر صوت القائد . أيها الناسك المشوه .. ايها الناسك الممسوخ .. لا تحاول الهرب .. وخرج الناسك كما يخرج مصباح وهاج الضوء من نفق مظلم .. سمعنا صوته يتردد كصوت الريح الآتية من البحر الى الأرض العطشى . لست انا الناسك المشوه ولا الممسوخ . كما انني لا اهرب ـ هتف القائد وهو يمط رقبته ويحرك سيفه فى اتجاهه : اذا فسلم نفسك حتى لا نسلم رأسك للقيصر ..

الغـــريــب : هل قال هذا ؟ (لنفسه) الملعون : وقد اوصيته ان يركع أمامه ويتوسل اليه لكى يحضر معه ..

الـرجـــل : بالطبع قاله .. لقد كنت يومها فى هذا المكان .. وهؤلاء كانوا معى ..

الغـــريــب : الرجال والنساء والعجائز ؟

الـرجـــل : لن تصدقنى اذا قلت لك : حتى الأطفال .. حتى الأبقار والخراف والحمير التى كانت ترعى فى السهول ... قبل ان يزيد العدد وينضم اليهم الجنود ..

الغـــريــب : هل انضم اليهم أحد منهم ؟

الــرجـــــــل : بعد آن هتف الناسك : هاهو صدرى عار .. هاهو عنقى يتوقع حد السيف .. القيصر يعرف هذا ايها القائد الصغير .. زعق القائد : القيصر يطلبك على الفور . سأل الناسك : يطلبنى آم يطلب راسى ؟ اجاب القائد وهو يلوح بالسيف المتعطش للدم · ان لم تحضر معنا فسنأخذ رأسك .. ضحك الناسك : ان كانت رأسى ستنقذ المملكة فخذوها .. از كان خلاص الشعب بأن يرقص فوق جثتى فجروها الى هناك .. هاهو جسدى .. هاهو عنقى .. صدرى .. وجهى المحترق كفحمة .. قدماى الشائهتان كحجر مبتور اخرس .. وتقدم الناسك هابطا هذا المنحدر .. فهتف القائد وهو يتراجع : ارجوك نريدك انت نفسك .. لا نريد رقبتك .. لا نريد رأسك ولا ذراعيك ولا قدميك .. القيصر الاصفر يريدك بجانبه .. المملكة تريدك .. اتوسل اليك .. اتوسل اليك .. حول نورك عنى .. حول نورك عنى .. تراجع القائد وتراجع الجنود .. تتابعت خطوات الناسك واستمر تقهقر القائد والجنود .. وارتفع صياحهم وبكاؤهم : حول نورك عنا .. حول نورك عنا .. والناسك يتقدم ويتقدم وهو يغنى : نورى هو نور القمر ونور الشمس . وحياتى ليست ملكى . فهى حياة الارض . حياة النائم فى حضن المهد حياة الراقد فى الرمس ، هذا جسدى خذه اذا شئت أو اكتف بالرأس . فأنا باق مع هذا الشعب وفى جذر الشجر وقلب الطفل وحد الفأس . خذ منى الجسد أو الرأس فلن تأخذ منى النفس .. وانطلق صوت لم ندر هل هو من الارض أم من حناجر الذين حاصروا الجند أم من الجند انفسهم . هى ملك الشعب وملك الارض وملك الجند ولو وضعوهم فى جوف الحبس .

والناسك يهبط ويهبط .. يشع منه نور لا يقهر ..
والجنود يلقون سلاحهم ويتقدمون نحوه .. والشعب
يهلل ويتقدم نحوه .. والقائد الصغير أسقط في يده
وحوصر وفر من الحصار وانفلت هاربا الى البحيرة
والقى نفسه فيها .. هذا هوالذى حدث فى ذلك اليوم
الذى غابت فيه شمس وآشرقت شمس ..

الغـــــريـــب : ولم يعد الجيش .. ولا عاد القائد .. ولا الناسك ..

الــرجــــــل : ماذا قلت ؟

الغـــــريـــب : لا .. لا شيء ..

الــرجــــــل : وانضم الجنود الى الناس .. آخذوا يتعانقون
ويرقصون ويغنون .. واذا بالناسك يطل عليهم من
أعلى وينفذ فيهم .. وبغير حركة او اشارة انصرف
الجميع الى اعمالهم .. ها هو اولاء . تعال اسألهم
بنفسك .. تعال

الغـــــريـــب : يبدو القلق على وجوهم .. هل تصوروا اننى
عدوهم ..

الــرجــــــل : (ضاحكا) : عدوهم ... انهم يرددون قول المعلم :
الطيبون .. أعاملهم معاملة طيبة
والاشرار ـ اعاملهم كذلك معاملة طيبة
فالفضيلة طيبة وخيرة .
الأوفياء .. اعامنهم بوفاء
والجاحدون .. اعاملهم كذلك بوفاء
فالفضيلة مخلصة وفية ..
(ثم هاتفا بالناس وهو يتقدم نحوهم) : ايها
الطيبون .. هذا الغريب قادم من بعيد ..

رجـــــــــل : هل لديه خبر عن الناسك

الغـــــريـــب : (مترددا) : أنا ؟ أننى مثلكم أسأل عنه ..

رجـــــــــل : هل تعرف إن كان سيبقى او يذهب ؟

امـــــــرأة : هل جئت لتشفيه من مرضه ؟ ..

شـــــــيخ : هل جئت لتأخذه معك ..
الغـــريــب : انا ؟ لا .. لا ..
شـــــاب : لعله سمع عن قريتنا ..
امـــــــــراة : أصبحنا ملجأ سياح الأرض ..
الــرجـــــــل : بل بيت ضيافتهم يا حسناء ..
امـراة اخـرى : طبعا .. طبعا .. وسنكرمه .. كرما لن ينساه ..
الــرجـــــــل : اسكتي انت .. تذكرى أن لك زوجا ..
صـــوت رجـــل : وان الناسك زوج آخر وان لم يرقد معك في سرير واحد !
المـــــــراة : خسئت .. لماذا تذكرنى بماض لن يعود ..
الــرجـــــــل : (للغريب) : تلك قصتها . أتحب ان تسمعها منها ؟
صـــوت رجـــل : ليتك تذهب إليه ايها الغريب وتعرف الحقيقة !
صـوت رجـل آخر : وهل سيسمح له التابع بالدخول ؟
صـــوت رجـــل : نحن لا نتصور أن يتركنا .. كيف سنستغنى عنه ؟
لم لا يتكلم أحد منكم : كيف سنستغنى عنه ؟
صـوت رجـل آخر : وخصوصا لو أحرق احد منا بيته ..
صوت الرجل الأول : أنا لم أحرقه . لقد احترق . ألا تعرف الفرق بين الافعال ؟ ..
صـــوت الرجـــل : أعرفه من البيت الجميل الذى شيدناه بعرقنا ..
صوت رجل ثالث : لو ذهب فسوف أعود لطبعى ..
الــرجـــــــل : (ضاحكا) : هل تقدر ان تترك الفأس والمحراث ..
صـــوت المـراة : وترجع للسلب والنهب واقتحام خدور العذارى ..
(يضحك الجميع)
الــرجـــــــل : (للغريب الذى اندمج فى احاديثهم) : ارجوك ..

اعذرهم فهم قلقون ..

الغـــريـب : وأريد ان اعرف السبب

الـرجــــل : وهل كانوا يقلقون لو عرفوه ؟ .. انهم ينتظرون كلمة من فم التابع . انظر اليه . انه صامت كعادته . والناسك في داخل كوخه .. أو في داخل نفسه . هل هو مريض ؟ هل غضب علينا ؟ هل يئس منا ؟ هل ينوى ان يتركنا . هل يحمل جرابه ويذهب الى قرية اخرى ؟

الغـــريـب : قرية اخرى ؟ ان قريتكم على حدود المملكة ..

الـرجــــل : الى مملكة اخرى من ممالك الصين الواسعة .. لابد انهم سيرحبون به .

اصـــــوات : نحن سنمنعه من ذلك ..

اصـــــوات : وسنستخدم معه القوة ..

صـــــوت : القوة مع من عرفتهم قوته ؟

صـــــوت : ان قوته فى ضعفه . وفعله فى عدم فعله . ولهذا لا تنفع معه القوة ..

الـرجــــل : لن ينفعنا الا الصبر .. أولم نتعلم منه مرارا ؟ أنت ؟ وأنت وأنت ؟

قولوا للضيف الوافد كيف تغير كل منكم ؟

كيف تفتت قطرات الماء الصخر ؟

كيف انهزم الذئب النائم فيكم

كيف توارى ناب الشر ؟

كيف ازدهر ربيع الحب

وفاض الخير وذاع العطر

الغـــريـب : (وهو يجلس على الأرض) : نعم . نعم . كيف وكيف وكيف ..

اصـــــوات : حتى يتضح الأمر ..

وينكشف السر ..

(ينظر الجميع ناحيةالكوخ . يهزون رءوسهم ويجلسون على الأرض) .

(المشهد السابق نفسه . الرجال والنساء والاطفال يجلسون على الأرض فى دائرة كبيرة ، وكلما روى احدهم قصته مع الناسك توسط الحلقة واخذ فى تقمص دوره الغريب يجلس بجانب الرجل الذى كان يرافقه وعيون الجميع معلقة بالكوخ فى أعلى المنحدر وبالتابع الذى يجلس أمام بابه أو يذهب ويجيء فى خطوات قلقة ..)

رجـــــــــل : (وهو يبكى تأثرا) : لا يمكننى أن أتصور رحيله عنا .. كيف أقوى على فراقه ؟ ماذا اقول توديعا له ؟

الـــرجـــــــــل : ومن قال لك انه سيرحل ؟ اهدأ يارجل !

الـرجـــل الأول : (مستمرا فى البكاء) : انا الذى كنت لا اتوقف عن التشرد والتجوال عرفت بفضله نعمة البيت والولد والاسرة ..

الـــرجـــــــــل : ولهذا فانت آخر من يحق له البكاء .. منذ ان عرفناك والضحكة لا تفارق وجهك وصوتك ..

الـرجـــل الأول : وتريدنى أن أضحك الآن ؟ (يثبت عينيه على الكوخ ويشير اليه) .

الـــرجـــــــــل : بل اريد ان تضحكنا .. هيا أرو علينا قصتك معه ..

الـرجـــل الأول : لا .. لا .. استطيع .. لماذا أروى عليكم ما تعرفونه جميعا ولا تريدون أن تنسوه ؟

الـــرجـــــــــل : الضيف لا يعرف .. هيا .. هيا ..

الـرجـــل الأول : الضيف لا يعرف .. هيا .. هيا ..

الـرجـــل الأول : (يجفف دموعه وينهض على قدميه) : هى قصة قديمة .. وقد كنت بالأمس ..

الـرجـــــل : لا تكمل .. انت اليوم ممثل وحسب .. هيا الى وسط الحلقة ..

الـرجــل الأول : (ينتقل الى وسط الدائرة وهو يغص بدموعه) كانت ليلة غريبة .. آخر ليلة فى عمر اللص الذى كنته .. وعندما أتذكرها يخيل الىّ انها كانت ليلة ميلادى الجديد ..

الـرجـــــل : نعرف .. نعرف .. انت الليلة تمثل الدور الذى لم يعد أحد بيننا يتذكره .. وهاهو القمر ..

الـرجــل الأول : اجل .. اجل .. نفس الوجه الضاحك الذى راح يطل علىَّ وأنا أغادر كوخه .. ومن يومها تعلمت أن أرفع رأسى الى السماء لأنظر الى القمر الذى لم أهتم مرة واحدة بالنظر اليه .. كنت مشردا ضائعا كما تعرفون .. لكننى كنت أملك تلك الشجاعة التى تدفع اللصوص الى اقتحام البيوت وتفتيشها بحثا عن شىء يعتقدون أنه سرق منهم ومن حقهم أن يستردوه .. كانت ليلة قارصة البرد . وكلما تذكرت عضة الجوع ولسع البرد حمدت السماء على الحساء الدافىء الذى يستقبلنى فى المساء كلما رجعت الى بيتى . لم أجد فى نفسى القوة على جر رجلى الى هذه القرية التى لم اكن اعرفها . وعندما وصلت الى الوادى ورأيت بصيصا من النور يتسرب من هذا الكوخ تأكدت من أننى سأجد الدفء ولو للحظات .. أو سأجد الملابس التى تستر عريى .. وتأكد ظنى بعد أن فتحت الباب فلم أجد احدا فى داخله ورحت اقلب الكوخ رأسا على عقب فلم اعثر على شىء يمكننى حمله معى .. حتى اللقمة الجافة لم أجدها فيه . وفجأة احسست يدا تربت على كتفى وترد الىّ نفسى المذعورة بلمستها الحنون . التفت

فرأيته امامى . طويلا نحيلا تشع البسمة من وجهه الاسود كالفحمة . ارتعش جسدى كله وحاولت أن اخرج كلمة واحدة . لكن صوته الطيب المتهدج امتد نحوى كأنه طوق النجاة : اعلم انك قطعت طريقا طويلا لتزورني . يؤسفني أن لا تجد عندى شيئا تأخذه معك.. هاك ردائى فخذه . وقفت مذهولا امامه . والرعشة تنفضني وتحبس صوتي . وازداد ذهولي وأنا أراه يخلع رداءه الوحيد ويقدمها لى هامسا : لا يصح ان تخرج من عندى خالى اليدين . هاك ردائي فخذه . ومددت يدى فتناولته منه دون ان أنتبه الى ما فعلت . وقبل ان ابلغ السفح التفت الى الكوخ فرايته يجلس عاريا امامه وهو يرفع كفيه الى القمر ويقول : مسكين .. تمنيت لو أستطيع ان أهديه هذا القمر البديع .. (الجميع يضحكون) .

الـرجـــــــل : لكنك زرته بعد ذلك ..

الـرجـل الأول : نعم نعم . ولم اكن وحدى . كان فى صحبتى خمسة من زملائى الذين طالما أدبوا التجار الجشعين وأبكوا ملاك الأرض على اغنامهم وأبقارهم .. ودون ان يقول كلمة واحدة ابتسم فى وجوهنا وأخذ يتمتم وهو يبتهل الى السماء . أيتها الأرض الأم . ها هم يرجعون اليك . وشعرنا انه يعرينا من أقنعة ذنوبنا ويخلع علينا ملابس المتعبين المبللة بقطرات العرق ومياه القنوات والحقول ..

الـرجـــــــل : ومن يومها ونحن نشرب من عرقكم ونأكل من حصادكم ..

الـرجـل الأول : ونتلهف على السير فى ظله أو على نظرة من عينيه .

الـرجـــــــل : بينما كان غيرك لا يطيق رائحته ..

رجـــــــل : ان كنت تقصدنى فاننى اعترف ..

الـرجـل الأول : هيا الى المسرح ! ..

رجـــــــــل : وكيف امثل وهو يحترق ؟ !

الـرجـــل الأول : ألم يساعدك على اطفاء الحريق ؟

رجـــــــــل : ولولاه ما فكرت في البقاء في هذه البلدة لحظة واحدة . كنت اجلس وسط الانقاض

الـرجـــل الأول : الأفضل ان تجلس الآن وسط المسرح ..

رجـــــــــل : (ينتقل الى وسط الحلقة) : نعم نعم . تصوروا رجلا أتت النار على بيته وفرشه ووقف أمامه وهو يضم أولاده وزوجته المذكورة الى صدره .. كنا قد فقدنا كل شيء .. الملابس والاثاث والمأوى والأمل . وكان الجيران قد انصرفوا بعد ان شاركوا في اطفاء الحريق وتخفيف دموع الصغار . وبقينا وحدنا امام عمر محترق وغد من رماد . وقبل ان يسلم الليل بالهزيمة ويسكن الدخان المتصاعد من حطام النوافذ والجدران والابواب وجدناه يقف امامنا وفي يده مصباح صغير . نظر الينا ووضع المصباح على الأرض وجاءنا صوته كنداء روح بعيدة عن أرواح الاسلاف : قم يا رجل . ألا تعرف ان بدايتك في نهايتك ؟ قلت : سيدى . انظر الى الحطام من حولك . قال وهو يشدني من يدى : ومن حطامك يرتفع بيتك الجديد . أشرت الى الركام الذى تتوهج فيه الجمرات كعيون القطط الغاضبة فقال : احترق بيتك ولكنك انت لم تحترق . تفحمت ابوابه ونوافذه ولكن فيك جوهرة لا تتفحم . تأملت وجهه الذى تحاشيت النظر اليه وبدأت افكر فيما قاله ولم يترك لي الزوار وقتا للتفكير . فقد فوجئت بأهل البلدة يتوافدون واحدا بعد الآخر . لم يكن هناك باب يطرقونه . وجدتهم امامى كأنهم على موعد واحد : النجار العجوز ومعه عربة عليها ألواح الخشب

والقادوم والمنشار وصبى صغير . فلاحون يحملون فئوسهم وسلالهم ويشرعون فى رفع الرماد والاحجار وشظايا الخشب وأسياخ الحديد .. عمال يسوون الأرض ويخطون العلامات ويثبتون الالواح والمسامير وينجرون ويطرقون ويتحركون كالاشباح فى حلم غريب . وأنا اتحرك معهم ، وزوجتى وأولادى يناولون وينحنون ويقومون ويسألون ويجيبون . والجميع يعملون كأن كل واحد نغمة تذوب فى لحن كبير . ما الذى أيقظهم فى هذه الساعة من الليل ؟ لقد شارك بعضهم فى إطفاء الحريق وتجفيف الدموع ثم انصرفوا الى بيوتهم ؟. ولم يتأخر بعض الجيران من احضار ما استطاعوا احضاره من طعام أو غطاء أو ماء .. أما أن يأتوا الآن ليزيلوا الانقاض ويرفعوا البناء ولا يتركونى واولادى حتى يغلقوا وراءهم الباب على بيت جديد فذلك شيء لا يحدث الا على أيدى السحرة أو فى حكايات الأطفال . وطالت حيرتى أمام اللغز العجيب . كيف تحولت البلدة الى رجل واحد وتحول العالم الى بلدة واحدة ؟ كيف تعلم الجار الا يغلق عليه بابه وجاره جائع او عطشان مريض او محزون ؟ ومازلت اسأل نفسى الى اليوم : هل طرق المعلم فى تلك الليلة كل الأبواب ؟ هل أحس احد أنه جاء الىّ وبدأ يزيل الحطام فى صمت فنبه النائمين ؟ لا أدرى . لا أدرى .

امـــــــرأة : (ترفع صوتها) : حتى الحطام .. شارك فى رفع الحطام ..

الـــرجـــــل : أنت أيضا .

المـــــرأة : نعم . نعم . ولولا زوجته لأدفأته فى تلك الليلة الباردة ..

الرجــــل : وتعترفين أمام زوجك ؟
الـــزوج : اخجلى يا أمرأة !
المــرأة : ومم الخجل ؟ لقد ذهبت بالفعل اليه ..
الـــزوج : تقولين هذا امامى ؟
المــرأة : واقوله امام الجميع . لقد كنت حطاما ما قبل ان اتزوجك . ثم انه ماض لا يعينك ..
الرجــــل : (ضاحكا) : كيف لا يعنيه وهو الذى أزال الحطام وأقام البناء الجديد ؟
الـــزوج : قل لها يا أخى ..
المــرأة : وهل انكرت فضلة ؟ لقد صار لى الآن زوج وبيت سعيد . ولكن لم يكن هو الذى رفع الحطام وأقام البيت الجديد ..
الـــزوج : يا للتناقض ! يا لجحود النساء ! هل سمعت شيئا هذا ايها الضيف الغريب ؟
المــرأة : الضيف الغريب سيمعنى أنا . نعم ياسيدى . لقد كان هو الذى أقام البيت الجديد ..
الرجــــل : (ضاحكا) : وهو نفسه الذى أقام البيت السعيد ؟ !
المــرأة : (تقف على قدميها وتقول بانفعال) : ليس فى هذا ما يضحك . تعرفون جميعا من الذى أقصده (تتلفت ناحية الكوخ) تعرفون جميعا من أنا وكيف كنت . هل فيكم من لم يعرفنى ؟
الـــزوج : اخجلى يا امرأة !
المــرأة : ليس فى حياتى منذ أن تزوجتك شيء أخجل منه . اننى اتكلم عن الماضى وليس فيكم من لا يعرف ماضى .. (يطرق الجميع برءوسهم ويصمتون) أما كيف تحولت حياتى فى ليلة واحدة . كيف اصبحت انسانا مثلكم كيف بدأت أنظر فى وجوهكم وتنظرون فى وجهى بلا خجل ..

الرجــــل : (مشيرا لها ان تتوسط الدائرة) : أرجوك . ليس فينا اليوم من لا يحترم الآخر ..

المــــرأة : (تتوسط الحلقة وتبدأ حديثها) : أنا الحطام الذى رفعه بيديه الحطام الذى حوله الى زوجه وأم وانسان . نعم ياسيدى . استمع انت اليَّ . فأنت الوحيد الذى لا يحتاج ان يسد أذنيه .

الرجــــل : استمرى . نحن جميعا نسمعك ..

المــــرأة : كنت بغيا أعيش من عرق نهدىّ . أنام فى فراشهم عندما يشاءون ، وعندما يشبعون أو يملون أبحث عن مأوى ككلبة ضائعة . وأصبحت يوما على آلام فظيعة فى أحشائى ، ورغبة فظيعة فى أن اتقيأ ما فيها وأبصق على البلدة وكل رجل فيها . وتحملت الألم الذى لم استطع الخلاص منه ، كما تحملت النوم فى فراشهم لكى لا اموت جوعا . حتى جاءت ليلة الوضع وأنا أصرخ وحدى فى كوخ مهجور . ربما بلغت لعناتى سمع عجوز فقيرة رأيتها تدخل فجأة وتساعدنى على آلام المخاض وتمسح على وجهى بالماء الدافىء وتدس فى فمى حبات الأرز الطرية . ثم تتركنى لأنام مع الوليد الذى اندس كالجرو الصغير فى صدرى . وتعاود الزيارة ليلة بعد ليلة ومعها القليل من الأرز واللبن . كنت انظر من نافذة الكوخ فأرى البلدة تنام قريرة العين لا تشعر بالظلم ولا المظلوم . وانوارها تبدو من بعيد كنجوم تحرس جنة صغيرة راضية . ايتها البلدة المنافقة ! أيها الرجال المنافقون ! أيها العالم المنافق الوضيع ! كنت بعد انصراف العجوز أفكر فى شىء واحد ، شىء لا يمكن ان يلومنى عليه أقسى القضاة والكهنة والجلادين : أن آخذ طفلى وأجرى كالكلبة المسعورة الى اقرب

جبل لألقى بنفسى من فوق قمته . لكنى كنت احاول النهوض من فراشى فلا استطيع . واحاول ان اثبت قدمى على الأرض فلا تقوى قدماى على حملى . ويصرخ الرضيع ويطالب بحقه . وأصرخ من الألم وأعيد المحاولة . حتى فتحت عينى يوما فوجدته على رأسى . وجه اسود كالليل الذى تتوسطه شمس ابتسامة حانية . كان يحمل الطفل على صدره ويسنده بيده وذراعه اليمنى . أما يده اليسرى فكانت تربت على رأسى وشعرى محاولة ان تجيب على اسئلتى المذعورة . وكانت اول كلمة تخرج من شفتيه ردا على نظرتى الخائفة المتسائلة هى هذه الكلمة : نعم . قلت مستفسرة : نعم ماذا ؟ قال : لقد مات ولم تشعرى به . صرخت ومددت ذراعى نحوه . لا فائدة . علينا الآن أن نفكر فى دفنه . سألت باكية : متى ؟ قال : لقد جاء فى الوقت الذى كان لابد فيه ان يأتى وذهب حين كان لابد ان يذهب . قلت : البلدة كلها مسئولة عن ذنبه . قال فى هدوء : والعالم كله يا ابنتى .. ستعجبون اذا قلت لكم اننى ضحكت مع انه كان يحمل طفلى الميت على صدره وقلت : ابنتك ؟ شاب مثلك يقول هذا ؟ ثم نسيت ألمى وغمزت بعينى وقلت : انت الوحيد الذى لا ذنب عليه . ان الوحيد الذى لم يدعنى الى فراشه ! ابتسم وقال : ربما علينا الآن ان نفكر فيه . غلبتنى الرغبة فى مداعبته فقلت : وأنا ألا تفكر فى مصيرى : قال وهو يتطلع من النافذة : وأفكر فى مصير العالم . صمت دون أن أشعر : لا يهمنى العالم الآن . انه عالم منافق وضيع . كل من فى هذه البلدة منافق وضيع . لماذا لا تتزوجنى ؟ ابتسم وقال فى هدوء : يمكنك ان تعتبرينى زوجك . كتمت فرحتى وقلت : ويسموننى

زوجتك ؟ قال : بل يقولون بدأت تسير على الطريق . قلت محتجة : الطريق ؟ ما معنى هذا ؟ قال : هو الطريق كل من يتحد بالطريق يصبح هو العالم ، والسماء ، والأرض ، والأبدية . يجد نفسه فى الطريق ويجد الطريق فيه . تصورت انه يهذى فسألت : هل أنت ناسك ؟ قال وقد نفد صبره : لا أدرى . ولكنهم يدعوننى بهذا الاسم . واتجه الى الباب ومعه الطفل الميت . وغاب ساعة ثم رجع هو يقول : هو الآن فى حضن الأم . رفعت عينى اليه مستفسرة فقال : نعم ، يمكنك أن تطمئن عليه . الآن يرقد فى حضن الأرض الأم . عليك ان تفكرى فى نفسك . قلت : ألم تفكر فيها ؟ الم توافق على الزواج منى ؟ ضحك وقال : بشرط الا اعيش ولا أنام فى فراشك . قلت ضاحكة : وتسميه زواجا؟ قال بهدوء : هكذا تزوجت العالم وتزوجنى . هكذا اتحدت بالأرض والسماء والشجر والنجوم والبشر والحيوان واتحدت بى . سكت لحظة ورحت اتطلع فى وجهه المتفحم وقدميه الخاليتين من الأصابع فقال بعد لحظة : يمكنك ان تطمئنى . وعندما تستردين عافيتك تعالى الى كوخى وستجدين ما تطلبين . ووضع لفافة كبيرة على سريرى وانصرف . وبعد ان اختفى ظله فتحتها ووجدت فيها ما يكفينى من الطعام عدة ايام . ولم أكد استرد انفاسى حتى سألت عنه ، وذهبت اليه . ضحك عندما رآنى وهتف : ايتها الزوجة الهاربة ؟ هل عدت اخيرا ؟ وضحكت انا ايضا عندما وجدته يقدم الىَّ رجلا كان يقف فى ركن منزو ويبتسم الناسك بدوره وهو يضع يده فى يدى ويقول : هذا البستانى الذى يرعى الاشجار القليلة امام كوخى يمكن ايضا ان يرعى بستانك ..

الـــــــــزوج : وقد رعيت البستان ووضعت بذرى فيه ..
المــــــــرأة : حتى منحت ثلاثة أزهار برية ! (يضحك الجميع ـ تضحك المرأة فى خجل وترجع الى المكان الذى كانت تجلس فيه)
الـــــرجـــــل : (متلفتا الى الجميع) : والآن ! من جاء عليه الدور؟ (يسمع صوت نداء ـ يا حارس الحدود ! يا حارس الحدود !)
الـــــرجـــــل : ها هو ينادينى ـ لابد أن احدا يعبر الحدود نعم . نعم . أهناك من يدفع الضريبة ؟
المنــــــــادى : عجوز ومعه صبى . يريدان أن يجتازا الحدود ..
صـــــــــوت : ربما يقدم لك هدية ..
صـــــــــوت : ضمنت عشاءك الليلة ..
صـــــــــوت : تذكرنا وأنت تمضغه على مهل ..
الـــــرجـــــل : لابد أن أذهب .. أراكم بعد قليل .. (ينصرف مسرعا)
رجـــــل آخـــر : من جاء عليه الدور ؟ (يشير الى رجل)
رجــــــــــــل : أنا ؟ لا .. لا ..
رجـــــل آخـــر : تعرفون قصتى اكثر مما اعرفها ..
رجــــــــــــل : ومن هنا لا يعرف قصة كل منا ؟
رجــــــــــــل : النساء اسرار !
المــــــــرأة : ولا يخفى عليهن سر !
رجــــــــــــل : اذن نسكت جميعا ويتكلم الغريب ..
اصـــــــوات : الغريب ! الغريب ؟
رجــــــــــــل : قل لنا من أنت . من اين أتيت . ماذا تعمل ؟
رجــــــــــــل : يبدو انك صياد ...
رجــــــــــــل : أو جندى هارب !
رجــــــــــــل : أو طالب علم متجول !
رجــــــــــــل : أو مطرود منفى من بلده ..
رجــــــــــــل : أو من مملكته ! (يضحكون ـ الغريب يبدو عليه

الارتباك . يتلفتون الى الكوخ فيسمعون صوت التابع ينادى) :

التـــابـــع : ايها القيصر الأصفر !

الجمـــــيع : القيصر الأصفر !

التـــابـــع : تعالى ايها القيصر الأصفر . الناسك فى انتظارك !
(يضطرب الجميع . يحاول البعض ان يهجم على الغريب فيحول الرجل بينه وبينهم . تتردد بعض الاصوات : جاسوس ! اقبضوا عليه دعوه .. ابتعدوا عنه ! خدعنا ـ لا يصح أن يفلت منا ـ الناسك يطلبه ـ سمعتم انه ينتظره ـ دعوه ـ لا تقتربوا منه ! لا يمسه احد !)

التـــابـــع : ايها القيصر الأصفر !
ايها القيصر الأصفر !
الناسك فى انتظارك ..
أسرع فقد اوشك الرحيل ..

* * * *

- ٦ -

(فى كوخ الناسك . الاضاءة خافتة . التابع يدخل على أطراف أصابعه ، وأنين الناسك الراقد على فراشه يتردد كأنه يصارع نزعات الموت . التابع يتجه الى النافذة الصغيرة ليفتحها فيوقفه الناسك بقوله :) .

النـــاســـك : لا لا . لا تفتحها ..

التـــابـــع : أنه قادم ..

النـــاســـك : كنت أعرف أننا سنلتقى .

التـــابـــع : بعد لحظات تتسمع طرقه على الباب .

النـــاســـك : (يتألم) : وآسفاه ! جاء بعد فوات الأوان .

التـــابـــع : (يشد الستائر) : أليس الأفضل ان يغمر النور كل شىء ؟

النـــاســـك : آه .. لماذا تؤلمنى يا ولدى ؟

التـــابـــع : عليه أن يرى جريمته . أن يحس بما جنت يداه ..

النـــاســـك : انت الذى تجنى علىّ .

التـــابـــع : انا يا معلمى ؟

النـــاســـك : نعم أنت .. هل نسيت ما قلته لك يوما : كن نورا يا ولدى تنهزم الظلمات أمامك ..

التـــابـــع : ولهذا فتحت النافذة .. لابد أن يعرف ذنبه ..

النـــاســـك : أغلقها ياولدى وكف عن هذا الكلام ..

التـــابـــع : لماذا يا معلمى ؟ هل أخطأت عندما تكلمت عن جريمته أليس هو المسئول عن آلامك الفظيعة طوال سنوات

وسنوات ؟ ومامعنى زيارته ان لم يشعر بالندم ؟

الناسك : الندم ؟ بعد فوات الوقت ؟

التابع : الوقت لم يفت يا معلمي . ان الجلاد يصعد المنحدر عليه أن يقف الآن أمامك ..

الناسك : ليواجه الجلاد ضحيته ؟ ! ما أشد سذاجتك ! وماذا يستفيد الشعب من هذا ؟ ماذا تستفيد الأرض والسماء ؟ ليتك تعلمت منى شيئا ..

التابع : تعلمت الكثير ياسيدى .. كل ما أقوله ..

الناسك : (متألما) : كل ما تقوله يثبت أنك لم تتعلم شيئا . لم تتخلص من الطبلة الجوفاء .. أغلق النافذة .. أرجوك (يتأوه ألما) .

التابع : قبل ان اضع الدواء بجانبك ؟

الناسك : (ضاحكا بصعوبة) : نعم نعم : تلك الاعشاب الصفراء التى لم تنجح فى شفائى .. آه من هذا اللون الأصفر فى كل شىء .. لا تنسى العكاز ايضا يا ولدى ..

التابع : (يسمع طرقا على الباب) : هل تفكر فى النهوض من الفراش ؟

الناسك : افعل ما قلت لك . هل سمعت الطرق على الباب ؟

التابع : (يشد الستارة فيخفت الضوء . يتحرك بسرعة فى أرجاء الكوخ الذى يعرفه جيدا فيضع الدواء بجوار المريض ، والعكاز على حافة السرير ـ يتجه نحو الباب ويفتحه ، يدخل القيصر الأصفر الذى يضع يديه على عينيه قبل أن يسمع صوت الناسك :)

الناسك : جئت ايها القيصر الأصفر ؟ ..

(التابع يأخذه من يده قليلا . يتقدم خطوات الى الأمام . ينسحب التابع ويغلق الباب وراءه . يسمع صوت الناسك ..)

الناسك : تعال .. تعال ايها القيصر الأصفر ..

القيصر : سيدى .. لا أكاد أرى شيئا ..

الناسك : لا يهم أن ترى .. لا يهم ان تسمع .. ألا تتذكر ماقلته لك ؟ (يتأوه من الألم) .

القيصر : اسمعك تتألم ايها الناسك . وأنينك يدل خطاى فى هذا الظلام ويزيد احساسى بالندم ..

الناسك : الندم ؟ .. لا داعى لأن تنطق هذه الكلمة . لا داعى لأن اذكرك بما قلته لك من قبل . ثم ان الوقت قد تأخر ..

القيصر : تأخر ؟ ماذا تقصد ؟ لكنه سيتسع لتوبتى . سيتسع لأركع على قدميك اللذين قطعت أصابعهما ، وأغمر بدموعى وجهك الذى أحرقته .. سيدى .. سيدى (ينشج نشيجا مؤثرا .. يتسمر فى موضعه فيناديه الناسك) .

الناسك : بل يتسع الوقت لكى نتحدث كصديقين .. لكى أجدد لك شكرى ..

القيصر : تشكرنى مرة أخرى ؟ بعد هذا الزمن الطويل ؟

الناسك : ولم لا ؟ ألم تساعدنى على التخلص من الطبلة الجوفاء ؟ ألم تساعدنى على أن أضع قدمىّ على الطريق ؟

القيصر : لكننى نزعت مع الطبلة جلدة وجهك . ولم أضع قدمك على الطريق قبل أن اقطع أصابعك .. أرجوك .. أعطنى فرصة الندم . لا تحرمنى منها ..

الناسك : لن يتسع الوقت . ما بقى منه لا يسمح بالتلفت الى الماضى ..

القيصر : لكنك تتألم .. تتألم .. ألم تقل لى ذات يوم : لقد دفنت جسدى . وكذلك لم أعد احس بالألم ..

الناسك : (محاولا ان يضحك) : نعم نعم : يبدو اننى استطعت ان ادفن جسدى بنفسى ولكنى لم انجح فى ان أدفن المى .. تعال .. تعال نحاول ان نعيده الى قبره ..

القيصر : وأقوم مرة أخرى بدور الجلاد ؟ وتواجهنى مواجهة الضحية ؟

الناسك : جلاد ؟ وضحية ؟ كأنك تكرر كلام التابع الصغير . قلت لك لا وقت للندم ولا للحساب ..

القيصر : هنالك دائما وقت للانتقام ..

الناسك : (فى فزع) : الانتقام ؟ ! وأنا فى آخر انفاسى ؟ !

القيصر : حتى القديس لابد ان يفكر فى الانتقام عندما يقع جلاده فى يديه ..

الناسك : لقد جئت بنفسك ولم تقع بين يدى . سعيت الىّ ولم احاصرك بجيشى ..

القيصر : وهذا ما يزيد احساسى بالندم . كانت غلطة فظيعة .. (يعود الى نشيجه المتقطع فى الظلام) .

الناسك : تعال .. تعال .. قلت لك إن الوقت تأخر .. أتريد أن أحضر أنا اليك ..

(يبحث عن العكاز ـ يحاول ان يقوم من الفراش ويستند عليه فتتندّ عنه صرخة ألم فظيع . يسرع اليه القيصر ..)

القيصر : ما هذا ؟ ماذا تفعل ؟ (يصل اليه ويركع عند فراشه) .

الناسك : (متأوها) : لا شىء .. لا شىء .. حاولت ان المس يديك .. ربما حاولت ايضا أن أعانقك وأضمك الى صدرى ..

القيصر : تعانقنى وتضمنى الى صدرك ؟ !

الناسك : نعم نعم . ألم نتفق على أن ندفنه معا ؟ ألم أقل ان الوقت لا يتسع لألم ولا ندم . اعرف انك جئت لشىء آخر ..

القيصر : صحيح ما تقول .. وها أنا أرى أن الوقت تأخر ..

الناسك : تكلم .. تكلم .. ربما يتأخر تماما كما نتصور ..

القيصر : تغير الآن كل شىء .. تغير كل شىء ..

الناسك : ربما اكون قد تغيرت . هل حاولت ان تغير نفسك ؟ هل عثرت على اللؤلؤة السحرية ؟

القيصر : اللؤلؤة السحرية ؟ نعم نعم .

الناسك : هل وجدتها ؟

القيصر : فشلت ايها الناسك . القوة لم تعدنى اليها . المعرفة والفصاحة لم تساعدانى على العثور عليها . قلت لك فشلت وعجزت . ولهذا جئت لتهدينى اليها .. جئت لأتوسل اليك أن تصحبنى الى هناك وتكون ذراعى اليمنى ..

الناسك : حتى لو سمح الوقت ، هل كنت تنتظر ان احضر معك ؟ ..

القيصر : بعد ان جئت والدموع فى عينى ..

الناسك : قد يتسع الوقت لالقاء سؤالك ..

القيصر : سؤالى ؟ نعم نعم . لقد نفذت ببصيرتك الى قلبى . وهل تحتاج ان القيه عليك ؟ انك تعرفه بنفسك ..

الناسك : نعم اعرفه . السؤال الذى لم يجب عليه احد حتى الآن فى مملكة الصين الواسعة . السؤال الذى جعلنى اترك قريتى ومعلمى وأهلى وانطلق لتغيير العالم ..

القيصر : لقد نجحت على الأقل فى تغيير نفسك .. نجحت فى تغيير الناس من حولك ..

الناسك : أتظن هذا ؟

القيصر : لقد رأيتهم بعينى وسمعتهم بأذنى وتكلمت معهم بلسانى ..

الناسك : ومازلت تردد السؤال .

القيصر : نعم نعم .. كيف احكم المملكة ؟

الناسك : كيف تحكم المملكة ؟ كيف تحكم الشعب ؟ أيتها السماء أمهلينى حتى أروى عليه بعض الامثلة والحكايات ...

القيصر : لم أحضر لسماع امثلة وحكايات . أريد منك الأجابة على السؤال ..

الناسك : وهذه هى طريقتى فى الاجابة ..

القيصر : اننى استمع اليك .. عم تبحث ايها الناسك ؟

الناسك : عن الدواء .. ناولنى هذه الاعشاب ..

القيصر : (يبحث عنها ويجدها . يناولها له) : هذه ؟ ..

الناسك : نعم نعم . ربما تنجح فى تخفيف الالم .. (يضع فى فمه بعض الأعشاب السفراء . يتنحنح ويقول :) . رحل الحكيم «تيين ـ كين» الى الجنوب من جبل بين . ولما بلغ نهر «لياو» لقى رجلا مجهولا يهيم على وجهه . سأله الرجل : هل تسمح لى ايها الحكيم بأن أسألك سؤالا ؟ قال تيين كين : اسأل يا ولدى . قال الرجل : كيف أحكم المملكة ؟ غضب الحكيم فجأة ونهره قائلا : أبتعد عنى . انك انسان فاشل . ولابد انك حاكم فاشل . ثم ان سؤالك فى غير محله . فمنذ ان سرت على الطريق اتحدت مع كل شىء واتحد كل شىء معى . وها انا احلق بجناحين خفيفين فوق جهات الأرض الست . أدخل مملكة العدم وانطلق وحيدا فى وحشة السكون والفراغ العظيم لأتوحد بالحركة والأمتلاء العظيم .

بدا على وجه الرجل المجهول انه لم يفهم شيئا . حدق فى وجه الحكيم وأعاد سؤاله للمرة الثانية : أرجوك . كيف احكم المملكة ؟

أجاب الحكيم تيين ـ كين قائلا : تحرر من كل شىء . أرجع روحك للبراءة . عود جسدك على السكينة . اسلم نفسك لنظام العالم حاول ان تتخلص من ذاتك وانانيتك . لا تفعل شيئا . لا تتدخل فى شىء . لا تتحكم . لا تتسلط . وستفعل كل الاشياء

وتحكم مملكة العالم .

أدار الحكيم ظهره للرجل المجهول ومضى الى حالة سبيله . وقف الرجل مبهوتا يحدق فى ظهر الحكيم ويرفع رأسه للسماء ويقلب طرفه فى الجبل والوادى قبل ان ينطلق جاريا وراءه : انتظر ! انتظر ايها الحكيم ! كيف احكم المملكة ؟ لم يعره الحكيم التفاتا . وربما لم يسمع صوته . فقد كان قد عبر نهر «لياو» وقطع مسافة طويلة على الطريق الى قمة الجبل الأخضر .

القيصـــر : غريب . هذا شبيه بما حدث لى ..

النـــاســك : لك أنت ؟

القيصـــر : نعم نعم . لقد قابلت اكثر من حكيم وتلقيت نفس الجواب .. ومع ذلك لم يتغير شىء فى المملكة ..

النـــاســك : ربما لم تحاول أن تغير نفسك قبل أن تغير المملكة ..

القيصـــر : حاولت .. حاولت ومع ذلك تخلى عنى شعبى ..

النـــاســك : مثلما فعل القيصر «تين ـ هوى» عندما لبس رداء النساك الفقراء وذهب الى الحكيم كونج ـ فوتسو ..

القيصـــر : هو أيضا فعل هذا ؟

النـــاســك : وسأله نفس السؤال ..

القيصـــر : لماذا تخلى عنى شعبى ؟

النـــاســك : وتوسل اليه ان يدله على الطريق ..

القيصـــر : هذا ما أريده انا ايضا .. لهذا جئت اليك ..

النـــاســك : هل تعلم ماذا قال له كونج ـ فو ـ تسو ؟

القيصـــر : ماذا قال له ؟ ..

النـــاســك : هناك طريق . لكن من الصعب ان تسير عليه . فالطرق السهلة ليست هى طرق السماء . هل جربت الصوم ؟

قال القيصر : لقد امتنعت منذ شهور عن اكل اللحم

وشرب النبيذ ..
قال الحكيم : لا يكفى . هذا هو الصوم الذى قررته الطقوس .
انصرف القيصر ثم رجع بعد شهور وقال :
ـ ايها الحكيم . لقد صمت عن تقديم التضحيات وأداء الطقوس .
قال الحكيم : حسن ان تفعل هذا . ولكنه لا يكفى ..
غاب القيصر عدة شهور ثم رجع الى الحكيم وقال :
ـ ايها الحكيم . ايها الحكيم .
رفع الحكيم بصره اليه فوجد امامه رجلا مهزولا نحيل الجسد فسأله :
يبدو انك خطوت خطوات أبعد ولم تقتصر على الصوم عن الطعام والشراب ..
فرح القيصر ببعد نظره ونفاذ بصيرته وهتف :
ـ نعم نعم . لقد صمت كذلك عن الكلام . وصمت عن وعظ الناس بالعدالة والفضيلة وحب الجار .
أطرق الحكيم برأسه قليلا ثم رفعها وقلب فيه عينيه الحزينتين وقال : كل هذا حسن . لكنه لا يكفى ...
ـ غضب القيصر ونسى فى فورة غضبه أنه يرتدى ثياب الناسك الفقير وصاح : ماذا بقى علىَّ لأفعل ؟ ماذا بقى علىَّ ؟
قال الحكيم بهدوء : لابد من صوم القلب .
سأل القيصر نافد الصبر : وما هو صوم القلب ؟
قال الحكيم : تعلم ان تتحد وان تتجرد ..
تبلد وجه القيصر بسحب الهم الثقيلة ولم ينطق .
فاستطرد الحكيم كونج ـ فو ـ تسو قائلا : أن تتحرر من كل شىء وتتحد بكل شىء . هذا هو صوم

القلب . فى مثل هذا القلب يسكن «الطاو» لمثله تأتى الحقيقة . ومن يصل اليه لن يسأل سؤالك لن يتعذر عليه حكم انسان . ولن يتعذر عليه حكم المملكة .

القيصر : وهذا هو ما فعله القيصر ولم ينجح فى حكم الانسان ولا حكم المملكة ..

الناسك : وكيف عرفت هذا ؟

القيصر : لهذا جاء يستعطفك ويتوسل اليك ..

الناسك : جاء والحكيم ينازع الموت .

القيصر : لاتقل هذا . لاتزال هناك بقية لطرح السؤال والعثور على اللؤلؤة ..

الناسك : (يحاول أن يضحك) : إن تخلى عن القوة والمعرفة والفصاحة !

القيصر : صدقنى أيها الناسك الحكيم . لقد تخليت عن كل شيء كما أوصى حكماؤك .

الناسك : ماذا تقصد ؟

القيصر : ربما لاتصدقنى . ولكن هاأنذا امامك . لولا هذا الضوء الخافت لرأيتنى وصدقتنى . لقد فكرت طويلا فيما قلته لى فى ذلك اليوم .

الناسك : تقول فكرت ؟

القيصر : ولم أكتف بالتفكير . هِمْتُ على وجهى فى الجبال والوديان والبرارى شهورا طويلة . خلعت ثوب القيصر وتاجه ولبست ثياب النساك الفقراء .

الناسك : أنت فعلت هذا ؟

القيصر : فعلته . فعلته . عفرت وجهى فى التراب أمام الحكماء . صمت عن أكل اللحم وشرب النبيذ وأداء الطقوس والوعظ بالعدالة والفضيلة وحب الجار .

الناسك : لكنك لم تصم صوم القلب ..

القيصر : وهذا أيضا جربته . ورحت أبحث عنك فى كل مدينة وقرية .

على قمم الجبال وفى الكهوف والوديان الموحشة . حتى عثرت عليك اخيرا واسرعت اليك .

الناسك : لتسألنى نفس السؤال ..

القيصر : أجل .. أجل .. كيف أحكم المملكة ؟ لماذا تخلى عنى الشعب ؟

الناسك : ولم يخطر على بالك الجواب ؟

القيصر : جئت لاسمعه منك ..

الناسك : عندما تخليت عن الشعب تخلى عنك . اسمع ماحدث لى بعد أن خرجت من قصرك ومضيت ابحث عن مكان استقر فيه .

القيصر : حكاية أخرى ؟

الناسك : ربما تجد فيها الجواب . كنت قد غادرت لتوى قرية صغيرة لم تستقبلنى فيها الا الوجوه العابسة والعيون اليائسة . كان من الواضح أن القرويين يعانون من القحط والجوع ولايريدون أن يزيد عدد الأفواه والبطون الجائعة . وتركت القرية وسرت على الطريق المؤدى الى الجبال المحيطة . وعندما مررت بسور مزرعة جفّ فيها العشب واقفرت الحقول ومخازن الحبوب لمحت عددا من الخنازير الصغيرة الهزيلة التى التفت حول أمها وراحت تتنافس فى صراع مرير على ضرعها . كانت تحاول وتحاول . تبتعد وتقترب ، تغرس أفواهها فى لحم الأم وتتشبث لحظة بحلمات ضرعها ثم تيأس منها وتعود الى المحاولة العنيدة . وبعد لحظات رأيتها تتجمع عند رأس الأم وتحدق فيه قبل أن تفر هاربة مذعورة . هل تعلم لماذا فرت الخنازير الصغيرة وهى تنتفض يأسا وخوفا ؟

القيصر : لأن ضرع امها كان خاليا من اللبن ؟

الناسك : بل لأن امها كانت قد ماتت جوعا . وتجمعت الخنازير الصغيرة حولها وحاولت ان ترضع منها . ثم اكتشفت بعد قليل ان عيون الأم باردة مطفأة لاتنظر اليها ولاتعطيها الحنان الذى تعودت عليه فانفلتت جارية مذعورة

القيصر : أهذا هو حال شعبى معى ؟
الناسك : بالطبع . عندما تخليت عن الشعب تخلى عنك ..
القيصر : أنا لم أتخلَّ عنه . لقد جربت كل طريق يؤدى الى سعادته .. سرت على كل طريق يؤدى الى اشباع بطنه بأنواع الحبوب الخمسة ..
الناسك : ولم يكن طريقك هو الطريق ..
القيصر : ماذا تقصد ؟
الناسك : عندما تخليت عن طريق الحقيقة تخلى عنه الشعب . وعندما تخلى عنه ضلت الانسانية . وعندما ضلت الانسانية غرق فى البؤس والجوع والفوضى والجريمة ..
القيصر : لست وحدى مسئولا عن الفوضى والجريمة . لقد وثقت بأعوانى الذين اعطيتهم الثقة فخانونى ..
الناسك : اعطيتهم الثقة أم السلطة ؟
القيصر : وما الفرق ؟ هل يمكن أن يعمل الشعب بغير سلطة حازمة تراقب عمله وتعاقبه على تهاونه وخروجه على القوانين ؟
الناسك : وأصبحت السلطة هى التسلط . وصار العمل هو القهر ، والطاعة العمياء هى المبرر الوحيد للحياة . والعقاب هو الغاية والنهاية الأخيرة . حتى اشتهرت الصين بأنها بلد العقاب ، وتحول شعب الصين الى شعب المعاقبين بأغرب أنواع العقاب .
القيصر : هذا هو ذنب الأعوان الذين لم يخلصوا لى .
الناسك : آه ! أسطورة الحاكم والأعوان .. بل أخلصوا لك ولأنفسهم كل الاخلاص . اليسوا هم ظلك على الأرض ؟ أليسوا أشباح القيصر المتربع على عرش المملكة ؟ لقد فعلوا ماحذركم منه الحكماء قرونا بعد قرون .
القيصر : هل انتظرتم ان يفهموا ماتريدونه بعدم الفعل ؟ هل كان يرضيكم أن تتحجر المملكة ، ويتجمد الشعب ، ويتحول الناس الى جيوش من الكسالى والمتسولين والمتبلدين .

الناسك : الذين اوصوا بعدم الفعل كانوا يقصدون عدم التسلط . والذين تسلطوا اضاعوا الطريق فضاع الشعب .. آه . من جيش المتسلطين الذين خربوا ممالك الصين ! كان القيصر فى العصور القديمة المباركة هو الأب الحكيم . لم يهرب منه الشعب كما هربت الخنازير الصغيرة من امها الميتة . اتدرى لماذا ؟ لأنه لم يكن ميتا . أتدرى متى يحيا الانسان كالميت ؟ عندما يعيش ليتسلط على غيره ويفرض عليه الطاعة ويضع على رقبته سيف العقاب . عندما يحتكر الحياة لنفسه ويحول غيره الى اموات . عندما يصمم على اقامة عرشه فوق مقبرة جماعية . الا تذكر ما كان يقوله لك معلمك وانت صغير ؟ هل نسيت الكلمات المأثورة التى كان يعلمك ان تقرأها وتكتبها بينما كان أبوك ينظر اليك بحنان ويحلم بأن تخلفه على العرش ؟

القيصر : نعم . نعم . القيصر هو وسط المملكة . هو مركز التوازن بين السماء والأرض ..

الناسك : وكم مرة فى التاريخ اختل ميزان الأرض والمملكة ؟ كم مرة اختل الميزان فاختل التوازن . وعندما اختل التوازن اختلت الانسانية . وعندما اختلت الانسانية ضل الناس الطريق . وفقدوا الأمن والسعادة . وندموا على انهم ولدوا فى مملكة الطاعة والعقاب . فى مملكة الصين ..

القيصر : لم يحدث هذا الا عندما فسد الحكم والحاكم .

الناسك : وقد علمك مربيك العجوز ان الحاكم اذا فسد فسد الحصاد وفاض النهر الأصفر ، وعصفت الأوبئة والمجاعات وانهارت جبال الثلج لتغرق المدن والقرى والحقول .

القيصر : وعبرت السحب فلم تمطر ، وسقطت الأوراق قبل ان تجف ، وشحب وجه الشمس والقمر . معذرة ايها الناسك . يبدوا انك لم تتغير .

الناسك : لقد حاولت أن أغير نفسى .

القيصر : ومازلت ثائرا كما رأيتك أول مرة . انى لأعجب من

شــىء واحــد .

الناسك : وماهو أيها القيصر ؟

القيصر : كيف يجتمع الثائر والقديس فى شخص واحد ؟

الناسك : وما الذى يمنع هذا ؟ ما الذى يحول دون أن يصبح الثائر قديسا والقديس ثائرا ؟

القيصر : حقـا لايمنـع شىء . يكفـى أن أنظـر اليـك لاتـأكد مـن هـذا .

الناسك : (ضاحكا ضحكة عالية ، يتبعها سعال شديد) : الىّ أنا ؟ هل تحملت مشقة السفر الطويل لتقول لى هذا ؟

القيصر : ويكفينى أن آراه بعينى .

الناسك : لقد جئت لتسألنى لا لتجاملنى .

القيصر : كنت أحلم بأن تصحبنى وتكون فى عونى .

الناسك : وهاأنت تصحو من الحلم . أما الثائر فقد قضيت عليه .

القيصر : جئت نادما باكيا ؟

الناسك : وقلت لك لاداعى للندم والبكاء .. فلم تكن اول المتسلطين عليه .

القيصر : لن يريحنى هذا من الندم . فربما كنت اخرهم .

الناسك : (يسعل سعالا شديدا) ربما . ربما . واما القديس .

القيصر : اننى اراه امامى واشعر بأنفاسه على وجهى .

الناسك : وهل تشعر بأنها انفاسه الأخيرة ؟ ارجوك .. (يبحث عن العكاز) ساعدنى كى استند على عكازى . أريد أن أودع قريتى .

القيصر : لاتـرهق نفسـك . لقد زرتـها قبـل قليـل وتحـدثت مـع أهلهـا .

الناسك : أرجوك .. ساعدنى .

القيصر : (يساعده على النهوض ويسنده على العكاز . الناسك يقف امام النافذة ويطل على القرية) : من يرى مارأيت لابد ان يقول : هذه معجزة لايقدر عليها الا قديس .

الناسك : أو رجل حالم .
القيصر : ليس الفرق كبيرا .
الناسك : ولكن منا من يحقق حلمه ومن يصحو على كابو
القيصر : وأنا الذى صحا على كابوس وعاش فى كابوس . ل
بجانبى يوم زرت مدينة « شن - تن - بى » فوجدتها
من سكانها ..
الناسك : تقول وجدتها خالية من سكانها ؟
الناسك : نعم نعم . كنت قبل ذلك قد سمعت من أعوا
منها ومن أهلها . حدثونى عن كثرة اللصوص
فيها فأرسلت حملة لتأديبهم .
الناسك : وزاد عدد اللصوص وقطاع الطرق .
القيصر : وعرفت ان الفلاحين والصناع ممتنعون
فأرسلت حملة اخرى .
الناسك : فزاد عدد المساجين والهار
والتعليمات ، وشددت العقو
والمهاجرين .
القيصر : بل خلت المدينة ذات
فوجدت الدور مه
الباردة ، والمزار (يشتد سعاله وأنينه)
والمدينة كأنها ش
والعناكب والغربلم الى اخر نفس فيه . ولكنه لايحلم
الناسك : أى لم تكن مه . ناد على التابع .
القيصر : بينما أنت فى ه تريده ؟
تحلم وتحلم . بدأ الطريق فأتم الرحلة .
الناسك : كنت هناك تحلم معنى هذا ؟
القيصر : حقا . أحلم أيض أمام شعبى . ناذ على التابع .
على كتفه . ينظرى) : ايها التابع . ايها التابع .
كالأب الحنون وم ياسيدى .
ياولدى
شيئا ؟
ى ؟
يتمنون أن يطمئنوا عليك قبل از

معهم وتحبهم فيعملون ماتحلم به دون ان تصدر أمرا أو تنفذ عقوبة . وبينما كانوا يلتفون حولك ويستمعون اليك بغير ان تفتح فمك بكلمة ، كانوا ينصرفون عنى خائفين مذعورين كما فرت الخنازير الصغيرة عندما اكتشفت ان امها ميتة .. آه ! كم داعبنى الأمل بأن تأتى معى وتحلم حلمك عندى .

الد

الذ

الذ

مهم ان تحلمه أنت . لااحد يحلم لغيره .

القيصر بت ان نحلم للصين كلها .

الناسك : لمى ابسط مما تتصور . لست انا الذى حققه . انهم لاء الذين قابلتهم وتحدثت معهم .

القيصر : كن أن يستمر الحلم ؟ ألا يمكن أن يتحقق فى الصين جميعا ؟

الناسك : هذا شىء يسأل عنه القياصرة الصفر فى ممالك

القيصر : كنـ قة . لاأضمن أيضا أن يستمر .. حتى فى هذه

الناسك : وهاأنا تبر هذه النقطة المجهولة على اقصى حدود

القيصر : جئت نادم قيصر اخر فيبدده . ربما يأتى قيصر

الناسك : وقلت لك لادان الوجود . أو يرسل اليهم اعوانه عليه .

القيصر : لن يريحنى هذا مز بلا عودة كما هاجر سكان

الناسك : (يسعل سعالا شديدا يوم .. المهم ايها القيصر ان

القيصر : اننى اراه امامى واشا حلم .. وحتى النفس الأخير

الناسك : وهل تشعر بأنها انفاسه بشدة) .

العكاز) ساعدنى كى اش الآن سواء .. اننى أرى قريتى .

القيصر : لاترهق نفسك . لقد راعيها لتلقينى فى حضنها أهلها .

الناسك : أرجوك .. ساعدنى .

القيصر : (يساعده على النهوض منذ سنين . يخافه الطائر امام النافذة ويطل على له الصدر .

يقول : هذه معجزة لايأ

-

الناسك : الحلم البسيط الذى يقدر عليه الحاكم والمحكوم .. (يسعل بشدة يتغنى بالكلمات التالية التي يتخللها الأنين والسعال) .

أحلم أم ألمس جذر الأرض
واتنفس إيقاع الأرض
ويتحد النبض مع النبض
أحلم أن أرغب فى شىء واحد
ان لاتملكنى الرغبة فى الشر ولا الخير
ان اسكن فى قلب العالم
كالغصن الميت فى حضن الموت
ووحيدا يغشانى الصمت
كالقارب فى ضوء القمر
كالراقد فى ظل الشجر
يتأمل فى مسقط أو صخر
وطريقى سهل صعب .
أوله هو آخره
ونهايته يبدأ منها السير
فطريقى نبع ومصب (يشتد سعاله وأنينه)

القيصر : أرجوك . عد الى الفراش .

الناسك : لاوقت للنوم . ان مثلى يحلم الى اخر نفس فيه . ولكنه لايحلم لنفسه فحسب . ارجوك . ناد على التابع .

القيصر : سأفعل . ولكن لماذا تريده ؟

الناسك : ألم تسمع من يقول : بدأ الطريق فأتم الرحلة .

القيصر : ربما سمعته . ولكن مامعنى هذا ؟

الناسك : معناه أن أواصل الحلم أمام شعبى . ناد على التابع .

القيصر : (يتجه الى الباب وينادى) : ايها التابع . ايها التابع .

التابع : (يظهر على الباب) : نعم ياسيدى .

الناسك : تعال يالو ـ شون . تعال ياولدى

التابع : أمرك يامعلمى . هل تريد شيئا ؟

الناسك :-أما زال أهل القرية هناك ؟

التابع : وينتظرون طلعتك ياسيدى . يتمنون أن يطمئنوا عليك قبل ان

يغمض النوم عيونهم .

الناسك : وأنا ايضا ياولدى . أريد أن أطمئن عليهم قبل أن يغمض النوم عينى هيا . هيا .

التابع : ماذا تريد يامعلمى ؟

الناسك : المحفة ياولدى .. هاتها واحملنى اليهم .. هذا الرجل الطيب سيساعدك .

التابع : (وهو يحضر المحفة ويضعه عليها) : وتقول الرجل الطيب ؟

الناسك : نعم ياولدى . لماذا نحرمه من الحلم ؟

التابع : لأول مرة لاافهمك يامعلمى .

الناسك : ولآخر مرة يابني . أريد أن أروى بقية الحلم . أن أتركه أمانة بين ايديكم . من يدرى ؟ ربما تحققونه من بعدى . أو ربما يحققه من لا اعرفه ولاتعرفونه .

التابع : الا هذا القيصر الاصفر يامعلمى . هل يمكن ان تنسى؟

الناسك : الفضل له ياولدى . هو الذى جعلنى انسى وابدأ من جديد

التابع : ان كنت نسيت فنحن لاننسى . انهم ينتظرونه هناك . الأفضل لك ايها القيصر ان تختفى .

الناسك : لا لا ياولدى . سينسون ويبدأون من جديد . وسيحلمون ويحلم معهم : هيا هيا . دعه يحمل المحفة معك . دعه يشاركنا الحلم .

التابع : (وهو يحمل المحفة والقيصر يساعده) : انت الذى يقول هذا ؟

الناسك : أقوله وعليك ان تسمعه وتتعلم .

التابع : اسمع واتعلم . نعم . أما هذا الحلم ؟

الناسك : فتواصلونه بعدى .

القيصر : وانا معكم .. هيا .. هيا .

(يحملان المحفة ويخرجان من الباب . يستقبلهما هتاف من اسفل المنحدر) :

- المعلم .. المعلم ..
- والقيصر الأصفر ..
- القيصر الأصفر ..

- ٧ -

(على الحدود ـ إلى اليسار بيت صغير اشبه بالكوخ ، بالقرب من حاجز خشبى يقطع المسرح بالعرض ، ويرفع بالحبال إلى أعلى أو يخفض إلى أسفل حسب حركة الداخلين والخارجين ـ الى اليمين فى عمق المسرح شجرة تين راسخة ، تفرش سجادة ظلها الاسود على الأرض . ويستريح تحتها الحكيم العجوز ودابته السوداء التى يظهر شبحها الباحث عن الخضرة .. الرجل الذى عرفناه فى المشهدين السابقين ـ وهو حارس الحدود ـ يسرع الخطأ على نداء صبى صغير ـ قبل أن يبرز له الصبى ويحادثه نسمع صوتا يلقى الأبيات المتفرقة التالية التى يتجمد الجميع فى وقفتهم وهم يستمعون اليها . يتلون الصوت بالوان ودرجات مختلفة حسب المعانى والمشاعر التى تصبها مكبرات غير منظورة) ..

الصـوت : لاشىء أرق من الماء .

ومع ذلك فهو يفتت جلمود الصخر .

الضعيف يهزم القوى .

اللين ينتصر على الصلب .

ولاأحد على الأرض يجهل هذا .

ولاأحد على الأرض يتبعه .

الصـوت : (بعد صمت قليل) :

الكلمات الصادقة ليست براقة .

والكلمات البراقة ليست صادقة .

الحكيم لايعرف الكثير .

من يعرف الكثير ليس حكيما

الحكيم لايجمع لنفسه شيئا
وبقدر مايعيش لغيره
يزداد ثراء
بقدر مايعطى الناس
يزيد مايملكه .

الصوت : (بعد قليل ـ تزداد نغمته عمقا وانفعالا) :
من يحمل طين العالم .
فهو سيد المملكة .
من يحمل ذنب العالم .
فهو ملك العالم .
وبالوداعة والنقاء والسكينة .
يجعل مملكة الأرض عادلة .

الصوت : (بعد قليل) : سأل الحاكم أحد الحكماء :
علمنى أحكم بالحكمة .
فلقد فسدت مملكتى .
وانهار الحكم .
فالتفت اليه الرجل .
ـ وكان عجوزا
وتنهد وهو يقول :
آه ! ما أبعد نور الفجر !
هل تستطيع ان تحب شعبك وتحكم بلدك .
وتظل مع ذلك مجهولا ؟
هل تستطيع ان تحكم بغير اللجوء الى القوة ؟
وأن تفعل دون أن تتسلط ؟
عاد الحاكم يسأل :
أرجوك ! علمنى أحكم مملكتى !
سكت الرجل قليلا .
غامت عيناه وجفف دمعة .
أطرق ، همهم .

حرك شفتيه وقال :
ان تحكم معناه أن ترعى .
أن تحكم معناه أن تشفى المرضى .
تحمل هم المحكومين على كتفيك .
وتعمل بسلام وسكون .
حتى ليظن الناس بأنك لاتعمل شيئا ؟

الصوت : عاد القيصر يسأل . كلماتك غامضة . أبتهل اليك . أوجز كلماتك فى كلمة .

الصوت : ان تتم عملك ثم تتوارى .
ذلك هو طريق السماء

الصوت : (بعد قليل) :
ومن يخطو على طريق السماء .
فهو وديع كالطفل ساعة ولادته .
آه ! لاشىء أرق من الماء ولاأضعف منه
لكن الماء يفتت جلمود الصخر ..

الرجل : (يتحرك مذهولا) . ماهذا ؟ ماذا اسمع ؟

الصوت : لاشىء أرق من الماء ..
لاشىء ارق من الماء ..

الرجل : (للصبى الذى يلعب بالحاجز الخشبى) : من أنتم ؟

الصبى : نحن الذين نريد أن نعبر الحدود .
وأنت الذى تؤخرنا .

الرجل : ومن الذى قال : لاشىء أرق من الماء ؟

الصبى : قال ذلك العجوز الذى اسوق دابته .
وهاأنت ذا تعطلنا حتى تغرب الشمس
ويحل الظلام فلا نعرف الطريق .
نريد ان نعبر الحدود .

الرجل : تعبرون الحدود ؟ أتظن الأمر بهذه البساطة ؟ لابد من تفتيش متاعكم . لابد من اجراءات ورسوم . تكلم . ماذا

تحملون معكم ؟ ذهب أم فضة ؟ أوانى أم تحف نادرة ؟ مز خزف أم خشب الصندل .

الصبى : (ضاحكا) : لاشىء أرق من الماء ..

الرجل : (غاضبا) واين صاحبك ؟ أين ؟

الصبى : المعلم العجوز ؟ هناك ! دائما فى ظل شجرة . تذكر قبل ان تذهب اليه ان الشمس توشك على المغيب .

الرجل : ومامعنى قوله هذا ؟ مامعناه ؟

الصبى : (ضاحكا) : أننا سنعبر الحدود اخيرا . ان الانسان ينتصر على كل شىء .

الرجل : الانسان ينتصر على كل شىء ؟

نعم . نعم . اذهب انت . اما انا فأريد ان اعرف هذا . ايها العجوز .. ايها العجوز .

(العجوز ينهض متجها اليه فى خطا بطيئة) .

العجوز : جئت أخيرا ياولدى ؟

الرجل : عرفت انك متعجل ، تريد ان تعبر قبل حلول الظلام . وأريد أن اعرف شيئا اخر .

العجوز : انت ايضا ؟ كثرة المعرفة تضيع الحكمة ياولدى .

الرجل : ولكنها لن تضيع الطريق . بعد غروب الشمس أو شروقها يظل الطريق هو الطريق .

العجوز : صدقت .. الطريق لايعمل ابدا . وكل شىء يعمل من خلاله لو استطاع الناس أن يحافظوا عليه لتحسنت احوال العالم . الطريق لايتدخل فى شىء . ولهذا لايفسد شيئا . لايأخذ شيئا ، ولهذا لايفقد شيئا .

الرجل : (ضاحكا) : وتظن ان هذه الحكم تعفيك مما لامفر منه .

العجوز : تعفينى من اى شىء ياولدى ؟

الرجل : مما يخضع له كل عابر للحدود . لابد من تفتيش المتاع . لابد من دفع الضريبة .

العجوز : الضريبة ؟ على العجوز الذى لايملك شيئا ؟ أم الدابة التى تبحث عن نبتة عشب ؟ أم اليتيم الذى لم يخلص لى سواه ؟

الرجـــل : لاشيء ارق من الماء ولااضعف منه . مع ذلك .

العجوز : على الكلمات ؟ ماذا تأخذ ممن لايملك الا الكلمات ؟ سوف نذهب جميعا ياولدى . ستبلى عظامنا ويسحق التراب الذى تخلف منا ، كما ذهب الحكماء والابطال القدماء . ربما لاتبقى الا كلماتنا . وربما تندثر هى أيضا كما اندثرنا .

الرجـــل : حتى ان وجدت من يسمعها ؟

العجوز : كم سمعها الكثيرون . المهم أن تجد من يعيشها ، ويحولها اعمالا.

الرجـــل : بشرط أن يفهمها اولا . لاشيء ارق من الماء .

العجوز : هل تراها غامضة ؟

الرجـــل : ليست أشد منك غموضا .

العجوز : كان الحكماء كذلك ياولدى . منذ القدم وهم يتهمون بالغموض والذين يتهمونهم يبررون حمقهم وظلمهم .

الرجـــل : ربما بلغ عمق الحكيم حدا يستعصى معه الفهم .

العجـوز : ولأن أحدا لم يستطع أن يفهمه . لذلك يقول كل من يراه :

هو حذر ـ كأنه يعبر نهرا متجمدا فى الشتاء ،
خائف ـ كأنه يخشى الناس من حوله ،
متسامح ـ كأنه الثلج عندما يذوب ،
عنيد ـ كأن آباءه هم الوحوش ،
أصيل ـ كأنه خشب لم تمسسه يد ،
واسع الصدر ـ كأنه وادى النهر ،
مرح ـ كمن يتسلق برجا فى فصل الربيع ،
مضطرب ـ كأنه دوامة من الماء العكر
آه ! من يستطيع ان يهدىء الدوامة حتى تصفو ؟
من يستطيع أن يحرك الساكن حتى تعود اليه الحياة ؟
آه ! العالم يسير فى اتجاه مضاد للطريق
والطريق فى اتجاه مضاد للعالم .
فمن يعيد التائه والشارد والضال ؟

الرجـــل : ليس غيرك .. يامن تمتلك الطريق !

العجوز : (فى أسى وهو يجلس على حجر كبير) : أمتلك الطريق :
من يمكن ان يزعم هذا ياولدى ؟
الرجل : من يريد السير عليه قبل حلول الظلام .. لابد انه يعرفه .
العجوز : يريد ويعرف ؟ . ليت الأمر كما تقول . المهم أن تكون انت الطريق والعالم .
الرجل : ومن غيرك ايها الرجل الغامض ؟
(ينحنى أمامه ثم يجلس على الأرض عند قدميه ـ الحكيم يتأمل ملبسه الفقير وجسده الهزيل ـ ثم يواصل حديثه معه فى تعاطف) .
العجوز : لاأدرى يابنى . ربما اكون قد اضعته من كثرة مابحثت عنه . ومن أضاع الطريق اصبح هو والضياع شيئا واحدا .
الرجل : هل تعنى بذلك انك ماتزال تبحث عنه ؟
العجوز : وربما يتحتم علىَّ أن أبدا من البداية . بالرغم من شيخوختى المرتعشة على حافة الموت ، ومن سفرى الآن الى منفى جديد .
الرجل : هل افهم من هذا انك تعبر الحدود الى مملكة اخرى .
العجوز : بل أعبرها الى ضياع جديد ـ فبعد ان نفيت نفسى فى جلدى وقنعت بالتأمل والتعليم ، اكتشفت ان جسدى لايزال موجودا ، وانه لايزال عرضة للبتر والجلد والحرق والتشويه .
الرجل : (يضحك بصعوبة) : ولهذا قررت أن تترك القيصر الذى كنت تعمل عنده لتذهب الى قيصر جديد .
العجوز : حيثما ذهبت وجدت القيصر الاصفر امامك .
الرجل : تقول القيصر الاصفر ؟
العجوز : نعم . نعم . فى كل مكان قيصر أصفر . فى كل مكان طاعة وعقاب . ولهذا تضيع الحكمة بين ممالك الصين .. هل تسمع ياولدى اخر اغنية لى ؟
الرجل : (مناديا) : تعال ايها الصبى ! تعال نستمع الى اغنية

سيدك الهارب من منفاه .

العجوز : لمنفى اخر لن يلبث ان يهرب منه الى المنفى .. (يضحكان) دع الصبى يلعب . لقد أضناه السفر .. بينما انا فى الطريق الى هذا المكان ، اسأل كل عابر عن الحدود ، اذا بالليل يخيم علينا ، أنا وهذا الصبى اليتيم والدابة السوداء ، فى وادٍ قحل تصفر فيه الريح وتعوى الذئاب ، كانت علامات الارهاق واضحة على وجه الصبى ، وكان الجوع الى النوم والطعام الدافىء يطل من عينيه ويصوب سهامه الجارحة الىَّ . وتجشمت مشقة الصعود الى اعلى ربوة قريبة ، وحالفنى الحظ فرأيت نوافذ يلمع فيها الضوء ، بل تناهت الى اذنى اصوات غناء وصيحات فرْح وعزف على الناى والمزمار والاوتار والدفوف . وتأكدت انه عُرس فى قرية غير بعيدة . بشرت الصبى بالوجبة الساخنة ، وربت على رقبة الدابة التى فهمت ماأريد فاتجهت من نفسها فى اتجاه الاضواء والصيحات . وعندما اقتربنا نزلت عن الدابة واطلقتها مع الصبى قائلا له : اذهب ياولدى . الناس هنا طيبون . وعندما تضع يدك فى الطبق الكبير لن يسألوك عن اسمك أو وجهتك . اذهب ياولدى وارقص مع الأولاد وغنى ، وخذ الدابة ايضا فلن يبخلوا عليها بالعلف والماء . ان سألوك عنى ؟ قل لهم سيدى حكيم عجوز . هناك فى اسفل الجبل . يتعبد ويرتل الدعوات . اذهب ياولدى . اذهب . لدىّ فى الجراب مايكفينى . وحبست دموعى وانا ارى الصبى على ظهر الدابة المنحدرة الى العرس . وانطلق لسانى بالاغنية التى سأقولها لك بغير ترتيب :

آه ! ما أبعد الفجر !
الناس جميعا فرحون
كأنهم يشاركون فى وليمة .

كأنهم ذاهبون الى مهرجان الربيع
انا وحدى ارقد فى سكون
أشبه بطفل صغير
لم يبتسم مرة واحدة فى حياته
اترنح واتمايل
كأننى اضعت الوطن والطريق
كل الناس لديهم مايكفيهم
انا وحدى تعريت عن كل شىء .
كل الناس لامعون .
أنا وحدى منطفىء معتم
كل الناس واثقون من انفسهم
انا وحدى متعب حزين القلب
ثائر ثورة البحر
مضيع كأنى بلا هدف
وأنا وحدى غير الآخرين
أنا وحدى امجد الأم الأرض

الرجـل : جميل . جميل ان يتذكر الابن الضائع أمه .

العجوز : نعم ياولدى ..
وتذكرت الأم الأرض
أو الأرض الأم
وتأملت الكل حوالىّ
وكانت تعمل فى صمت
تعمل فى صمت
لايعنيها العدل أو الظلم
ولايعنيها الميلاد أو الموت .

شىء واحد راح يلح علىَّ فى تلك اللحظة . أن أخرج من ممالك الصين . ان لاألقى قيصرا أصفر ولااضطر للعمل معه . وبكيت لأن حياتى لم تكن الا رحلة من مملكة الى

مملكة . من حطام اتركه ورائى الى حطام اراه امامى . فى كل بلاط غدر وخيانة . فى كل نظام ختل ورياء . ذل وهوان ، وعذاب وعقاب . والكلمة للأوغاد السفاحين . للقتلة والدجالين لصوص الأرض لصوص العدل لصوص القوت المحتالين .

الرجــل : وكلماتك ؟ الم تستطع كلماتك ان تصلح اميرا أو وزيرا ؟

العجوز : كانت تهرب كقطيع مذعور من انياب ذئاب . كحمام غادر عشا دهمته نسور وأفاع . لابد انك تكتم حتى الآن سؤالا يضنيك : من أنت !

الرجــل : نعم . نعم . من أنت ياسيدى ؟

العجوز : يسموننى المعلم العجوز .واحيانا يسموننى الرجل العابس المقطب الجبين يكفى أن تعلم أنهم كانوا يطلقون علىَّ لقب الحكيم . فى كل مملكة تفتح ابواب القصر لتستقبلنى الأوجه بالبسمات . وفى كل مملكة تودعني بعد أيام أو أشهر أو سنوات باللعنات . واتوقف عند بوابة المدينة لأجفف الدموع المنحدرة على خدى . ربما كانت دموع الحزن على فشل حكمتى ، أو دموع الفرح لاننى خرجت منها ورأسى لايزال على كتفى . وتركتها ماشيا على رجلى فلم تبتر اصابع يدى وقدمى ولم يحرق وجهى باسياخ الكى المشهورة .

الرجــل : تقول لم تبتر اصابع قدميك ولم يحرق وجهك ؟

العجوز : نعم . نعم .. ولم اعلق من مشنقة فى السوق .. ولكن لمــاذا تسأل ؟

الرجــل : آه ! لاشىء . لاشىء ... اكمل . اكمل .

العجوز : اكمل قصة يعرفها كل طفل فى المدرسة ؟ أتلو عليك كلمات يحفظها كل تلميذ صينى ويتعلمها كذلك كل امير صغير . لكن لايعمل بها احد ولااحد يكترث بالمعلم العجوز . وماذا ننتظر من رجل عابس الوجه مثلى يقول فى كل بلاط ويردد

لكل حاكم وامير : الوداعة والسلام ! النقاء والتواضع ! لاتتسلط ! وسيتم كل شيء ! العالم وعاء الله ، من يتدخل في مجراه يفسده . من يتمسك به يفقده ! تريد أن تكون حكيما ونبيلا ؟ الحكيم يتجنب التطرف . يتجنب التهور . يتجنب الخيلاء ! هل تطلب الوفرة ؟ بالاستغناء ! تطمح ان تصل الى الذروة ؟ عش في عمق الاعماق ! لامس جذر الكون ! تطمع في ان تتقدم الجميع ؟ كن في اخر الصفوف ! تتطلع للانتصار ؟ لاتلجأ للقوة ! واذا اضطرتك الضرورة المؤسفة للحرب ، فأتم المعركة واختف عن الانظار ! تتمنى ان تصبح سيد المملكة ؟ لاتمثل دور السيد ! هل تصبو لرضاء الشعب ؟ اجعل اطعمة الناس شهية . ثيابهم جميلة . مساكنهم مطمئنة ، حياتهم فرحة ، وعندما تتحد مع الطريق ، يعود كل شيء الى وحدته مع كل شيء ، عندما تستقر في الصفاء والسكينة ، ترجع الارض والسماء من غيبتها . عندما تصبح انت الطريق والعالم . ويصبح الطريق والعالم انت ، ستمطر السحب ، وتفيض الينابيع والانهار ، وتنتج الأرض انواع الحبوب الخمسة ، وتمتلىء بطن الشعب ويفرغ عقله من الشهوات . هل تعلم ماذا كان حظي في مملكة تشو ؟

الرجــل : تلك التي ارادت ان توحد ممالك الصين ؟

العجوز : نعم . بالقوة ارادت هذا . فاشاعت في عصرنا المضطرب المزيد من الاضطراب ، ومزقت الصين الممزقة الى اشلاء .

الرجــل : وماذا كنت تعمل هناك ؟

العجوز : العمل الذي يصون طريق الحقيقة ويحميه . العمل الذي يليق بسليلة الحكماء القدماء .

الرجــل : اراهن انك كنت مستشار القيصر !

العجوز : وكيف اشير على قيصر لايستشير ؟ لقد كنت امين

المخطوطات والمحفوظات استخرج منها الحكمة واقدمها له .

الرجــل : وهل تقبلها منك ؟ هل عمل بها ؟

العجوز : وماذا تنتظر من مأفون يحلم بأن يفيض النهر الاصفر بالدم ليروى اراضى الصين الجدباء ؟ كان يريد التوسع ، فراح يطارد شبح المجد الهارب باستمرار . هل تعرف ماذا كان يطلب منى بعد كل معركة ؟

الرجــل : ان تعالج بحكمتك جروحه وجروح جنوده ؟

العجوز : بل ان اصبح قائده الأعلى !

الرجــل : (ضاحكا) أنت ؟ قائد جيشه ؟ بالوداعة والسكينة ؟ وبالفعل الذى لايفعل ولايتدخل ولايلجأ للعنف والغلظة ؟

العجوز : نعم .. نعم . ولهذا كرهنى ثم هددنى بالعقاب . كنت اقول كلما سمعته يتكلم عن جيوشه :

حيث تكون الجيوش
تنمو الاشواك والاحراش
وبعد المعركة العظيمة
تأتى السنوات العجاف ..

وكلما تحدث عن انتصاراته ارفع صوتي وأقول :

القائد الحكيم يصل الى هدفه ثم يتوقف
ينتصر مدفوعا بالضرورة المؤسفة
ينتصر ولكن لايمجد نفسه
يكسب المعركة ثم يختفى من المدينة
حتى لايظهر في موكب الاحتفال

وكلما تكلم عن الاسلحة وطالب بصنع المزيد منها وقفت فى وجهه وحذرته :

الاسلحة ادوات الشر
لذلك لايسكن الحكيم بالقرب منها ،
الاسلحة أدوات الشر
والحكيم لايلجأ اليها الا مضطرا

اذا انتصر لم يجد فى الانتصار جمالا
لان من يجده جميلا يفرح بالمذبحة
ومن يفرح بقتل غيره من البشر
لايصح ان يكون سيد المملكة

الرجــل : من حسن حظك انه لم يستخدم اسلحته معك ..

العجوز : ومن سوء حظ الشعب انه استخدمها . اخذ يزدرد اوهام المجد ويلتف باكفانه البراقة . واخذ الناس يلتهمون الجوع ويتغطون بالعرى ويتداوون بالأمراض والأوبئة وخزعبلات السحرة والكهنة . وقويت شوكة اعدائه الذين ظن انه هزمهم واذلهم فانتقموا لهزيمتهم ، ثم لم يلبث ان جمع جيوشه وعاد ينتقم من الذين انتقموا منه ... وتركت المملكة التى تحولت الى مقبرة هائلة وحملت اوراقى ومتاعى على عربة يجرها ثوران اسودان . كنت قد انقذت ما امكنى انقاذه من حكمى واشعارى واقوالى لقيصر « تشو » ولغيره ، وظننت اننى استطيع اخيرا ان الجأ للمنفى واعيش حياة معلم مجهول . وعندما مررت على ابواب مملكة « تسى » فوجئت بقيصرها الاصفر ومعه رجال دولته فى استقبالى ..

الرجــل : تقول قيصرها الاصفر ؟

العجوز : نعم . نعم . لماذا تكرر سؤالك ؟

الرجــل : لا .. لاشىء .. حسبته هو القيصر الذى يبتر اصابع الحكماء ويحرق وجوههم حتى تصير كالفحم ..

العجوز : سمعت انه يفعل هذا واكثر منه ..

الرجــل : أكمل .. أكمل ..

العجوز : خيل الى أن الدولة كلها فى انتظارى . رحت انظر فى وجوه الوزراء والأمراء والقواد والأعيان والمؤرخين والعلماء بحثا عمن يكون هو القيصر . ولما لاحظ الجميع قلقى شدنى احدهم الى السور واشار الى رجل ضامر كالجرادة يجلس فى برج عال ويتطلع الي الافق كأنه ينتظر المجهول القادم

من بعيد . همس فى اذنى شيخ كبير استطاع ان يحتفظ بوجه طفل غرير : ها هو ذا . ينتظر والدولة كلها تنتظر معه . سألت : وماذا ينتظر ؟ قال هو يبتسم فى حزن : ينتظر الحكيم الذى يأتى ومعه الانقاذ .. هتفت . الانقاذ ؟ من أى شىء ؟ رفع الشيخ حاجبيه دهشة وقال : من أى شىء ؟ ألم تسمع بما حدث فى مملكة « تسى » ؟ ألم يرو لك احد عن مصيبتها ؟ قلت : المصائب فى ممالك الصين تزاحم الغرائب . ربما لاتكون مصيبتكم اعظم من غيرها . هز رأسه مرات ومرات ومط شفتيه وشد التجاعيد البارزة على جبينه قبل ان يقول : لا .. لا .. ليس لها نظير .. لايمكن ان يكون لها نظير فى ممالك الصين ولاغير الصين . قلت : تكلم ياسيدى . وستعرف منى انها ليست اعجب المصائب ! وحاولت ان ابتسم فردعتنى السحب التى تلبدت فى عينيه وعلى وجهه . قال وهو ينظر الى بعض وجوه الدولة الذين تجمعوا حولنا واحسست من ملامحهم انهم يستجيرون بى دون ان يكتموا يأسهم الدفين : هل تعلم ان سكان « تسى » بدأوا يتركونها ويهاجرون منها ؟ هل تصدق ان مدينة كاملة قد خلت ذات صباح من سكانها ولم يبق فيها حتى الشرطة والموظفين . لم يتخلف فيها حتى القطط والكلاب ؟ ابتسمت وقلت : بالطبع .. مادامت تستطيع ان تعيش بعيدا عن البشر . ولكن لماذا حدث هذا ؟ رفع رأسه فى حزن الى اعلى وهمس فى اذنى : اسأل هذا الواقف هناك ! قلت : انه مشغول عنا بسؤال الكواكب والنجوم . دمدم الشيخ قائلا : وهذا قبل ان تغرب الشمس . فما بالك بسهرنا حوله كل ليلة ؟ سألت : وماذا يريد ؟ قال رجل نحيل مد رأسه بيننا وبدا على عينيه التعب من النظر فى الكتب والأوراق : هل يعرف احد ماذا يريد ؟ لقد امرنا ان نكون معه فى استقباله . سألت : من تقصد ايها العالم الجليل ؟ ضحك ضحكة خافتة كأنه يشهق وقال : لو كنت استحق هذا

الوصف لقلت لعله ينتظر من ينقذه بعد ان تأكد من غرقنا وغرقه . ابتسمت وانا امر بعينى على وجوههم الحزينة وشفاهم المزمومة التى توشك ان تطلق استغاثة : اذن فهو يحتاج الى بحارة وملاحين ! قال الشيخ : بل يحتاج الى امثالك انت ! سألت متعجبا : امثالى انا ؟ قال : نعم نعم . من الحكماء المتجلين . ضحكت مستنكرا : ومن ادراكم اننى كذلك ؟ هل خلا بلاطه من الحكماء ؟ قال الشيخ كأنه يستخرج صوته من جب عميق : لا لم يخل ابدا من الحكماء . ولكنه لم يستمع لنصحهم يوما . بل تفنن فى عقابهم والتشهير بهم . ومنذ ان جاء الينا ذلك الناسك الشاب وهو نادم على مافعل معه . سألت : ناسك شاب ؟ ونادم على مافعله معه ؟ قال رجل رزين قصير القامة ظل حتى ذلك الحين صامتا : رئيس الوزراء يقصد مافعله مع الجميع . لقد حكم عليه ببتر اصابع قدميه وحرق وجهه . ثم اختلى به بعد ذلك طويلا قبل ان يتحول . سألت : يتحول الى ماذا ؟ قال الرجل : ربما الى حكيم أو ناسك مثله . لاندرى تماما . فهو منذ ان رحل ذلك الناسك الشاب لايكف عن السؤال : متى يعود ؟ متى اراه ؟ من يجيب على السؤال الذى يعذبنى ؟ سألت باهتمام : وماهو السؤال الذى يعذبه ؟ قال الرجل بعد ان اطرق برأسه طويلا : السؤال الذى يعذب كل القياصرة الصفر : كيف احكم المملكة . كيف احكم المملكة ؟ ولذلك فهو منذ ان ذهب الناسك الشاب ينتظره وينتظر الجواب . قلت ضاحكا : الانتظار وحده لايكفى . قال الشيخ صاحب الوجه المستدير : انك لاتدرى كم تحول . لقد خلع التاج والرداء الاصفر وهام على وجهه دون طعام أو شراب . تنقل بين البلاد وعبر الصحارى والانهار والوديان وتسلق الجبال فى الصيف والشتاء . سألت : بحثا عن ذلك الناسك أم عن الجواب ؟ قال الرجل فى حزن : لم نعد قادرين على الرد

على هذا السؤال ؛ لاننا نسأل انفسنا ايضا باستمرار .
، ويمكنك أن تتصور كيف ساءت الأحوال فى البلاد . وكيف عجزنا عن تهدئته واقناعه بالاستقرار على عرشه والاهتمام بأمر مملكته وشعبه . قلت : ألم يفعل ذلك دائما ؟ قال الرجل : وكانت النتيجة كما ترى . الشعب يترك بيته وحقله . وعمله ويهاجر . قلت : لم أسمع ان هذا قد حدث فى مملكة اخرى . ولكنه كذلك لايفاجئنى . ألم يتبع نظام الطاعة والعقاب ؟ ألم يكثر من القوانين والاوامر والتعليمات ؟ ألم يتسلط على العالم والمخلوقات ويصم اذنيه عن نصائح الحكماء ؟ ان هذا كله لايفاجئني لقد عرفته ورأيته فى كل الممالك التى زرتها . ولولا عناية السماء لرأيتمونى مبتور الاصابع أو مقطوع الساقين والذراعين أو محترق الوجه أو لم ترونى على الاطلاق . هذه هى النتيجة الطبيعية ايها الوزراء والعلماء والوجهاء . ولذلك تروننى على الطريق الذى لايرجع من يسير عليه . قال الرجل فى غير حماس : مرارة صوتك تكشف عن حكمتك المرة . هل معنى هذا انك لن تبقى معنا ؟ قلت : ولم أفكر فى ذلك ياسيدى . لقد مررت ببلدكم وسأخرج منها كما دخلتها . قال الشيخ : ونحن لانستطيع ان نمنعك . لقد داعبنا الأمل مما قاله الرسل الذين التقوا بك وسألوك .. قاطعته قائلا : نعم . لقد قطع طريقى بعض الفرسان وسألونى عن ذلك الناسك الشاب . قلت لهم : اى ناسك ايها الفرسان ؟ لقد علمتُ فى حياتى الطويلة عشرات النساك ..

الرجـــــل : وتركت المملكة كما دخلتها ؟

العجـــوز : ولماذا ابقى وانا لست الناسك الذى يبحثون عنه ؟

الرجـــــل : ألم تسأل نفسك ان كان قد مر عليك يوما ؟

العجـــوز : سألتها ياولدى . ولكن عشرات النساك قد مروا على . بعضهم لبث معى سنوات ، وبعضهم اشهرا معدودات .

ومنهم من لم يتحملنى ولاتحمل حكمتى ساعات فأدار ظهره ولم يعد الى اليوم !

الرجـــل : هل فكرت فى اسم ذلك الناسك ؟

العجـوز : وكيف لعجوز مثلى ان يتذكر الاسماء ؟ ان تلاميذى كثيرون اكثر مما تتصور أو تحتفظ به ذاكرتى الواهنة .

الرجـــل : ومين ـ كين ـ وو ؟ الا يعنى هذا الاسم لك شيئا .

العجـوز : ماذا ؟ مين ـ كين ـ وو ؟ لالا لااظن .. لاانذكر

الرجـــل : الناسك الشاب الذى بترت اصابع قدميه واحرق وجهه حتى تفحم ..

العجـوز : لم يكن هو الوحيد الذى جرى له هذا ، ان كنت تعرفه فهنئه على حسن حظه .

الرجـــل : ماذا تقصد ايها العجوز .

العجـوز : غيره علق على المشنقة ، أو ألقى فى جب الحيات والعقارب ، أو مات مسموما بيد اخلص الاصدقاء ، أو وضع فى القدر النحاسى الكبير وغلى فى النار ، أو سحقت اعضاؤه وفتتت احشاؤه ، أو رجم بالحجارة علنا فى السوق امام الناس ، أو رميت جثته بعد التمثيل بها فى مياه « يانج تزى » أو ربط الى اربعة جياد اندفعت فى اربع اتجاهات ومزقت جسده اربا . ابحث ياولدى فى السجلات والمحفوظات وذاكرة العجائز من امثالى لتعرف اسماء الحكماء الفضلاء : اسماء شهانج يانج ، وتا آو شى ، وباى ـ لى ، و وو ـ تشى ، وكوان ـ لونج ـ بنج ، وين ـ تزو ـ تشى ـ وتيين ـ بنج ، ومى ـ تزو ـ شين .. ألم يكونوا شرفاء فضلاء ؟ ألم يكونوا حكماء مبجلين ؟ ألم يحاولوا هداية القياصرة فى كل بلاط ، ألم يصل بعضهم الى اعلى المناصب فى الدولة ويحقق اعظم الاصلاحات ؟ وتأتى انت الآن لتسألنى عن صاحبك .. ماذا قلت .

الرجـــل : مين ـ كين ـ وو .. ولكنى لااسألك فقط .

العجــوز : وماذا تريد ان تقول ؟
الرجــــل : أريد أن أقول أنه هنا .. هنا فى المكان .
العجــوز : (ضاحكا) : حيث لاقصر ولادولة ولابلاط ؟ فى هذا المكان الموحش البعيد على حدود الصين .
الرجــــل : نعم .. نعم . فى هذا المكان الموحش البعيد .. بالقرب .. من هذه القرية البسيطة المجهولة التى يعيش فيها اناس بسطاء مجهولون .
العجــوز : وماذا يمكن ان يفعله هنا ؟
الرجــــل : المعجزة ايها العجوز ! المعجزة !
العجــوز : ماذا تقول ؟
الرجــــل : المجتمع الامثل الذى عشتم وعلمتم وتعذبتم من اجله . الجماعة التى تجانست مع الطبيعة والانسان ..
العجــوز : واتحدت بالطريق نفسه .
الرجــــل : وجسدت الطريق نفسه .
العجــوز : آه ما أبعد الفجر ! انك تعبث بى .. (يسمع صوت ينادى : ياحارس الحدود .. ياحارس الحدود .. ينهض الرجل وهو يقول) : .
الرجــــل : ليس الفجر بعيدا ايها الشيخ
الصــوت : تعال .. تعال ياحارس الحدود .. تعال ومعك الحكيم العجوز ..
الرجــــل : (للعجوز) : سمعت ؟
العجــوز : حقا! حقا! وكيف عرفوا اننى هنا ؟
الرجــــل : بل قل كيف عرف أليس هو المتجلى ؟
العجــوز : محتمل ياولدى .. محتمل .
الرجــــل : هيا أيها الحكيم .. تعال نراه .. هيا قبل ان يتأخر الوقت .
العجــوز : ايتها السماء(يضرب جبهته بيده) هل هذا ممكن ، ايكون هو ذلك الطائش المسكين الذى حذرته يوما من طيشه وانا اقول : الوداع ياولدى .. كم اخاف عليك .

الرجـــــل : يمكن ايها العجوز .. ليس فى مملكة الصين مستحيل

العجـــوز : اه ! ما أبعد الفجر .

الرجـــــل : بل ما أقربه ياشيخ ! ماأقربه !

(يسمع صوت الصبى آتيا وهو يجرى ويقفز ويغنى فى مرح)

الصبـــــي: لاشىء ارق من الماء
لاشىء ارق من الماء .

الرجـــــل : تعال يابنى ... سنذهب قليلا ثم نعود لنكتب هذه الحكمة وغيرها .. أليس كذلك ايها الحكيم .

العجـــوز : نعم ياولدى .. ومادمت تريد .

الرجـــــل : (وهو يربت على رأس الصبى) : هيا .. ادخل انت فى هذا الكوخ الصغير .. اعد الحبر والريشة والدواة .. لن نتأخر عليك ..

العجـــوز : نعم يابنى .. لن يتأخر عليك .

الرجـــــل : هيا ايها الحكيم .. هيا قبل ان يتأخر الوقت .

(ينصرفان وهما يلوحان للصبى)

● ● ●

- ٨ -

(الناسك راقد على المحفة التى يدفعها تابعه ويعاونه القيصر الأصفر . يتوقفان بها فى منتصف المسرح ، بينما يتوافد افراد الجماعة القروية الذين رأيناهم فى المشهد الخامس ويتحلقون حولها واحدا بعد الآخر . يسيطر الوجوم على الجميع ويسودهم شعور بالموت المقترب) .

التابع : تمهل ! رفقا به ..
القيصر : انه غارق فى نومه ..
التابع : أو فى ألمه . كم قاسى منه ويقاسى الآن ..
القيصر : أرجوك . لاتقلب جروحى .
التابع : انت الذى تقول هذا ؟
القيصر : ليتك تشعر بى . ثم انه قد عفا عنى .
التابع : عفا عنك ؟ هذا الوجه المتفحم ، هل يمكن أن يعفو عنك ؟ (يكشف الغطاء عن قدمى الناسك) هاتان القطعتان من اللحم الدامى منذ سنين .. هل يغفران لك ؟
القيصر : لست ألومك . ولكنك لم تكن معنا .
التابع : لقد امرنى ان اغادر المكان واستجبت لأمره . ومع ذلك تخطىء اذا تصورت اننى لم اكن معكما ..
القيصر : ولم تسمع مادار بيننا .
التابع : وهل يصعب علىَّ ان اتخليه ؟ انك تركع على فراشه وتطلب منه الصفح . وهو كعادته يمد اليك يد قديس ويقول : انهض فقد صفحت عنك .

القيصـــــر : لم يكتف بهذا . لقد شكرنى لاننى وضعت قدميه على الطريق .. وكلما انهمرت دموعى على يديه شد على يدى وقال : نحن الآن صديقان ..

التــابــع : ربما يكون لهؤلاء رأى آخر ..

القيصـــــر : (وهو ينظر مفزوعا الى القرويين الذين يتقدمون واحدا بعد الآخر) : أرجوك .. أرجوك .

التــابــع : ياأبناء القرية .. لقد أمرنى سيدى ان اجمعكم فى هذا المكان ليلتقى بكم ..

رجـــــــل : ونحن ننتظر هذا اللقاء منذ أيام وليال فى أسفل الجبل ...

رجـل آخـر : ونصحو وننام على صوته الذى اشتقنا اليه .

رجـل ثـالث : وصورته التى لم ارها ابدا عن قرب .

امـــــرأة : لأن نوره كان يغشى أبصارنا .

امـــــرأة : وظننا ان وجهه هو الذى احرق جلده .

التــابــع : (فى غلظة) : بل احرقه جلاد يمسخ وجه ضحيته بمشئية جلاد اخر ..

رجـــــــل : كنا نشعر بهذا الظلم . كنا نحس ان خلف الغطاء المنسدل على وجهه جريمة ..

امـــــرأة : انا وحدى احسست بألمه .. وبأن النور الطالع منه اخر انفاس الشمعة .

امرأة أخرى : أو اخر ضوء يسطع من جسم شهاب محترق يهوى للأرض .

رجـــــــل : وكفانا النور فلم نسأل انفسنا : من أضرم تلك النار .؟

التــابــع : مهلا .. مهلا .. ستعرفون عندما يحين الوقت .

رجـــــــل : (يقترب من الناسك وينظر اليه) : ومتى يحين ؟

رجـل آخـر : (يقترب ويضع يده على المحفة) : بعد أن يذهب الطفل السماوى ومعه جراحه ؟

رجـل ثـالث : ويقضى عليه السم الذى فتك بكل لحظة من حياته ؟

امـــــرأة : السم .. نعم .. نعم .. هذا هو الذى صبه الطغاة فى دمه

ولم تنفع معه الاعشاب الصفراء .

رجـــــل : متى يحين وقت الانتقام .

التــابــع : الانتقام ؟ لقد علمكم ان تحبوا ـ لم يعلمكم ان تنتقموا ..

رجـــــل : نريد ان ننتقم حبا فيه .

رجـــــل : بيدى .. سأخنقه بيدى .. هاتان اللتان حاولتا يوما ان تسرقا امتاعه يمكن ان تتحولا الى يدىّ جلاد ..

امــــرأة : وقبل ان تخنقه لابد ان تمسخ جلده وتقطع اصابع قدميه .

الرجـــــل : ليتنى اضع يدى عليه ..

التــابــع : كيف تتكلمون عن الخنق والمسخ والقطع وانتم فى كنفه ؟ هل هذا هو الحب الذى شع عليكم منكم ؟ انتظروا حتى يتكلم بنفسه ..

امــــرأة : ننتظر والمتهم أمامنا ؟

رجـــــل : المتهم أمامنا ؟

رجل ثـالث : فلنبدأ بمحاكمته .. لم لانبدأ ؟

امــــرأة : ها هو يخفى وجهه ..

امرأة أخرى : يرتعش كصل افرغ سمه ..

امرأة ثالثة: القيصر الأصفر !

أصـوات متداخلة : (يتقدمون من القيصر الاصفر الذى يتجمد رعبا ـ يسرع التابع لانقاذه من ايديهم ويصيح بهم) :

التــابــع : انتظروا .. قلت لكم انتظروا

صـــــوت : ماذا عندكم لتدافع عنه ؟

التــابــع : انا لااتهم ولاادافع .. انما اقول لكم ماقاله معلمى منذ ايام .. اجمعهم ياولدى فى يوم واحد .. يوم يحضر القيصر الاصفر والمعلم العجوز .. وعندما امرنى ان أنادى عليهما عرفت انهما قد حضروا ..

صـــــوت : هل تتكلم عن الغاز؟

صـــــوت : هل كانت نبوءة ؟

صـــــوت : الناسك فى بحر النوم . من يضمن ان يصحو من نومه ..
التـــابــع : سيصحو وسيروى حلمه ..
صـــــوت : وسنعرف منه من ظلمه .
التـــابــع : وكذلك من علمه . من لقنه الحكمة .. ها هو ذا قادم ..
(يلتفت الجميع ناحية العجوز الذى يلهث صاعدا المرتفع الصخرى وحارس الحدود يأخذ بيده) .
التـــابــع : ابتعدو .. ابتعدوا .. هذا الشيخ سيصدر حكمه .
التـــابــع : مرحبا ايها العجوز .
(يوسع الجميع مكانا للمعلم العجوز وحارس الحدود .. التابع يأخذ بيد العجوز الذى يندفع نحو المحفة) .
التـــابــع : انه ينتظرك .. منذ ان حضر الى هذا المكان وهو ينتظرك .
العجـــوز : (على رأس الناسك) : ولدى .. هل يمكن أن يكون هو ولدى ؟
التـــابــع : لم تكذب رؤياه ولم يخطىء نوره .. فمنذ ايام وهو يهتف باسمك ويناديك .
العجـــوز : هل قال بأني سأعبر من هنا ؟
التـــابــع : وانكما ستلتقيان وتتحدثان ..
العجـــوز : حقا ياولدى .. صدقت رؤياه ورؤياى ..
(يتأمل وجه النائم ببصره الكليل ويغيب فى تأملاته والجميع صامتون)
ولدى . ولدى .
يامن عبرت حدود التراب .
وحدود الميلاد والموت .
يامن علمتك فصرت معلمى
حققت الوعد وها انا اتبع اثرك
ولدى .. ولدى ..
هل هذا ممكن ؟

يامن تغمض عينيك كزهرة ذابلة
أنت أيها الكامل
اشبه بكمال الطفل ساعة ولادته .
النمل والعقارب والحيات لاتلدغك .
الوحوش المفترسة لاتعتدى عليك .
الطيور الجارحة لاتأكل من لحمك
عظامك لينة وأوتارك ضعيفة
ومع ذلك فقبضتك قوية .
وديع ومسالم كحمامة كسيرة الجناح
ومع ذلك تنتشر حولك رهبة تين
منطفىء الوجه كوردة محترقة
مع ذلك تشع منك مصابيح التجلى
ايها الأبن الذى اتحد بأمه
وها هى ذى تعانقك وتفرح
ايها الولد الذى حذرته من الضلال والضياع
وها هو يرشد معلمه الضائع الى الطريق
من كان يقدر ان نتلاقى ؟
فى اخر عمرى
اخر شبر فى مملكة الصين ؟
ياولدى استقيظ
عاين وجه معلمك
ودعه يشهد معجزة الطين
دبت فيه الروح وشع النور
واشرق من ظلمات اليأس يقين
قم ياولدى استيقظ ..
داو الجرح المطعون

(المعلم يتحسس بيديه وجه الناسك النائم . الجميع يلاحظون اهتزاز صوته وارتجاف جسده) .

العجـــوز : آه ياولدى ! ماذا فعلوا بك ؟

كم حذرتك ، كم ألححت عليك .
قل ياولدى . ماذا فعلوا بك ؟
التـــابـــع : سيتكلم ايها الشيخ .. لابد ان يتكلم .
العجـــــوز : (لحارس الحدود) : اخشى ان يكون الوقت قد تأخر ..
التـــابـــع : لقد حضرتما .. ولابد ان يتكلم .
الحـــــارس : هل تقصدنى انا والشيخ ؟
التـــابـــع : (مشيرا الى القيصر الاصفر الذى يقف طوال الوقت بعيدا منكفئا على نفسه) .. اقصد هذا الشيخ .. وهذا القيصر .
الحـــــارس : هذا .. القيصر الأصفر ؟
الجميـــع : نعم .. هو القيصر الأصفر ..
الشيـــخ : (متأملا) : ايهم ياأولادى ؟ فى كل مكان قيصر اصفر
الجميـــع : من احرق وجهه .
من بتر اصابع قدميه ..
التـــابـــع : باسم الناسك ارجوكم ان تنتظروا ..
الجميـــع : (للعجوز) باسم ضحيته نبتهل اليك :
حاكمه بنفسك واحكم انت عليه .
التـــابـــع : ارجوكم .. لحظات ويفيق .. ها هو يتحرك .. ينظر للافق .. يتمتم ..
النـاســـك : (يتقلب فى نومه . يعتدل ويتطلع فى الأفق وفيمن حوله . التابع وحارس الحدود يسرعان اليه ويساعدانه . يفتح فمه ويقول) :
ابنائى وبناتى .. شكرا لكم .. شكرا ياوانج .. كنت واثقا من انهم سيلبون دعوتى .
التـــابـــع : انهم ينتظرون طلعتك ياسيدى ..
النـاســـك : طلعتى ؟.. (يحاول ان يبتسم) اردت ان يسمعوا صوتى .
التـــابـــع : انهم منصتون ..

العجـــوز : وانا معهم ياولدى .. (الناسك يتفرس فى وجه معلمه) .

الناســـك : شكرا لهم .. شكرا لك .. أبنائي قلبى انى سأراك لأخر مرة ، وستسمعنى ولأخر مرة .

العجـــوز : لاتقل هذا ياولدى .. سيتسع الوقت لكى استمع اليك وتستمع الىّ ..

الناســـك : (مبتسما) : هل تتذكر؟ مازالت كلمتك تحذرنى : الوداع ياولدى ! كم اخاف عليك .

العجـــوز : اردت ان تغير العالم . واردت ان تبدأ بتغيير نفسك .. وها أنت قد غيرت العالم والناس وتغيرت .

الناســـك : الى هذا الحد تحسن الظن بى ؟

العجـــوز : ألم اقل لك يوما : الحكيم يتخطى حدود التراب . وعندما تتخطى حدود التراب سأتبع اثرك . ها أنذا اتبعك واتعلم منك . ليتك تعفو عنى ..

الناســـك : انا يا معلمى !!

العجـــوز : لقد ظلمتك واتهمتك بأنك تحلم . لكن ماسمعته من حارس الحدود ومارأيته حولى قد كذب ظنى .

الناســـك : لاادرى .. ربما كنت لاازال احلم .

العجـــوز : بل حققت الحلم .

الجميـــع : معه الحق .. حققت الحلم .. حققت الحلم .

الناســـك : (رافعا يده بصعوبة) : ومن أجل هذا الحلم جمعتكم حولى .. لاعرف الى متي يستمر .. فأنا اشعر ان انفاسى تسحب روحى من جسدى

صـــــوت : مازلت بخير .. مازلت بخير.

صـــــوت : ماذا نفعل بعدك ؟

صـــــوت : منك تعلمنا الحلم وتحقيق الحلم ..

الناســـك : نعم ياأولادى .. واعلمكم ان تحموه ولو بالدم

صـــــوت : سنحميه وندفع عنه الشر ، ونواجه كل قياصرة الصين الصفر ..

القيصر الأصفر: لقد جئت نادما وعفوت عنى . قل لهم ايها الناسك .

الناســـك : اطمئن ايها القيصر .. فلولاك ماكان الحلم .. لولاك انت وكل القياصرة ما لاحقني الى اخر الصين واخر العمر .. اتعرفون ياولادى ؟ لقد ظل يطاردنى منذ فتحت عيونى . ظل يتغلغل فى دمى ويسرى فى بدنى وروحى ويرافق طعامى وشرابى ونومى ويقظتى . دائما نفس الحلم .. دائما نفس الحلم .. يختطفنى كالنسر الهائل على جناحيه فانتفض رعبا . ويهبط بى على ارض اخرى فاشعر بالفرح والأمان .. كم من مرة ارتعشت من الرعب . وكم من مرة ارتجفت من الفرح . وفى كل مرة احس ان يدا هائلة سوداء تقتلعنى من جذورى ، وترتفع بى فوق الصين وسور الصين والعالم كله . هل جر بأحد هذا الرعب القاتل ؟ هل رأى احد مارأيت ؟ كل تراث الصين ، ماضيها الموغل فى الاف الدول والاف الاسر والاف القياصرة .. كلهم هناك من تحتى .. تلتف حولهم دائرة اطول من سور الصين واكبر .. دائرة انظر اليها من مكانى على جناح النسر العظيم فارى صور الماضى تتوالى : مواكب قياصرة تتدافع وتثير عواصف الغبار والدمار .. حشود جائعين وخائفين وموبوئين بالقحط والهوان والحرمان .. وكل شىء وكل حيوان وانسان يغشاه الغبار الاصفر تحت سماء مصفرة على ارض صفراء .. دائرة صفراء وابدية .. تلتف كتنين اصفر حول رقاب الجميع .. اذا دققت النظر فى الوجوه رأيت صفرة الذل واليأس والانكسار ، واذا اصخت السمع ترددت الصرخات والصيحات واللعنات .. تصوروا معى الات التعذيب والعقاب والارهاب ترسانة الحروب الدمار والخراب . ومئات المؤامرات التى يحيك خيوطها . الخونة والطغاة والأوغاد .. ويقع فى شباكها الابطال

والحكماء والقواد .. والدائرة تدور وتدور .. تتسع وتتسع وتغرق الدول والعصور والقصور . والمدن والقرى والوديان والسهول . وتضيق وتضيق على الالاف من المكسورين والمهزومين .. حتى تصل الىّ فتلفت على عنقى وتضغط وتضغط بقبضة جلاد محترف قاس . واصرخ واصرخ واقاوم واقاوم . حتى يأتى نسر ابيض يرفرف بجناحيه وينظر الى فأتسلق الجناح واطير . واحس انه يرتفع ويرتفع فوق الدائرة الابدية التى حاصرتنى وحاصرت اجدادى وينفذ فى افاق تسطع بالوان قوس قزح الزاهية ، ثم يهوى الى ارض اخرى بعيدة . مرج صغير مرصع بالينابيع والجنان والبحيرات والبساتين . يتجول فيه أو يعمل أو يتأمل فى ظل الشجرة اناس مثلى ومثلكم .. لهم ملامح اهل الصين وعيونهم ووجوههم .. أناس شهيقهم حب وزفيرهم حب .. يحبون الحلم ويصنعون الحلم . بأيديهم وعقولهم ينسجون خيوطه الحريرية ويمدون اسلاكه الفضية وينمقون تحفه الخزفية ويدبجون حروفه الصينية .. عبثا تبحث عينى عن متسلط يعذب متسلطين .. عبثا تقع على افاق أو محتال و خوان أو محترف للطغيان .. والكل وديع ومسالم .. والكل حكيم كامل .. حر وكريم وشجاع عادل .. اه ياابنائى .. هل جربتم سحر الحلم ورعبه ؟ ان يغوص الانسان فيه كما يغوص فى موجة طرية ناعمة ويفزع منه كأنه يتدحرج فى هاوية مظلمة ملعونة . ان يتشبث به بيديه واسنانه . وان يخشاه ويفر منه كأنه برق ينذر بالصاعقة ؟ ان يهيم فيه كعاشق مفتون يطوق بذراعه خصر معشوقته وينتفض خوفا منه كأنه قبضة جلاد قبل احكام حبل المشنقة ؟ لا لم يكن ذلك الفرح هو فرحى انا وحدى ، ولم يشل الرعب قلبى انا وحدى .: ففى جدول فرحتى

صبت الاف الجداول القديمة ، ومن بركان رعبى تدفقت حمم الاف المرعوبين والخائفين والغاضبين ، وكما اقتضى حلم الاجداد ضحاياه كذلك اقتضانى التضحية . وكما خنق الاف القياصرة الصفر الاف الاحلام فبعثوها حية ، كذلك خنق هذا القيصر الاصفر حلمى وبعثه حيا ..

القيصر الأصفر : سمعتم ؟ لقد عفا عنى !

صـــــوت : لكنا لن نعفو عنك .

القيصر الأصفر : الناسك غفر الذنب .

الناســــك : أجل ياأولادى .. فلولاه ماسرت على الطريق .

القيصر الأصفر : صدقتم ؟

الناســــك : ولاجئت اليكم بالحلم

القيصر الأصفر : ولاجئت اسأله ان يصبحنى الى مملكة تسى .

صــوت امرأة : لتسلخ وجهه ؟

صوت امرأة أخرى : أم لتبتر اصابع يديه ؟

القيصر الأصفر : لو كان الأمر كذلك مابحثت عنه فى كل مكان .

العجــــوز : ولا وقفت على البرج العالى تنتظره ليل نهار

القيصر الأصفر : هل سمعت عن هذا ايها العجوز ؟

العجــــوز : بل رأيتك بنفسى اثناء الطريق

صـــــوت : هبك زرعت الحلم بمملكة تسى .. من يضمن الا يغتاله قيصر اخر ؟

الناســــك : من يضمن شيئا فى هذا العالم ياولدى ؟ لهذا ادعوكم : صونوا .. صونوا الحلم .. صونوا الحلم ..

(الناسك يغالب آلامه .. يفتح فمه ويغلقه قبل ان يرتجف جسده ويسقط .. الجميع يلتفون حوله لحظة ثم يبتعدون عن المحفة وينفرد كل منهم بأحزانه) .

التــابــع : مات الناسك .

حارس الحدود: مات ..

الجميــــع : مات ؟

العجــــوز : رجع الى حضن الأم .
صـــــوت : بل فتك به السم .
امـــــرأة : (تتجه الى القيصر الاصفر)
بم تشعر الآن أيها الرجل القاسي ؟ هل تشعر بالراحة ؟
هل تشعر انك حر ؟ كان شوكة ضميرك ، والشوكة قد نزعت .
كان الرعد الغاضب في أذنيك . والآن يمكنك ان تسمع موسيقى الابواق وطبول الحرب .
القيصر الأصفر : لا .. لن افعل . اقسم اقسم ..
صـــوت امرأة : مات الراعي .
صـــوت امرأة : مات الكامل ..
صـــوت رجـل : مات الأخ والأب ..
العجـــوز : بل رجع الى حضن الأم .
رجع الى حضن الأم .
صـــوت امرأة : معذرة يامين - كين - وو
معذرة يامين - كين - وو
ان كنا نحن قتلناك فنسألك الصفح
ونسألك العفو عن الذنب .
رجـــــــل : عفوا يامين - كين - وو
اعطيت ولم نعطك شيئا
قصرنا في حق الحب
واخذنا انفاسك منك
ودقات القلب
والآن وقد جاء الموت
وغاب الصوت
فتأكد ياحادي الركب
يوم حضرت لقريتنا
امتنع علينا الخوف

وزال الرعب
وعرفنا كيف نعيش
وكيف نحب
الآن وقد مات الحالم
لم يقدر كل قياصرة الصين
على محو الحلم

العجـــوز : رجع الى حضن الأم
رجع الى حضن الأم
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلمْ

الجميـــع : ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم

صـــــوت : ياأبناء الحاضر
صونوا الحلم
ياأشباح المستقبل
صونوا الحلم

صـــــوت : يامن تتخلق فى الرحم ولم تظهر بعد
يامن لم تكره بعد
ولم تقتل بعد
يامن لم تقس على احد
لم تغتر ولم تتسلط بعد
حاول ان تذكر مين - كين - وو
هذا الحالم
من ارض الصين
يامن لم تكره بعد
ولم تقتل بعد
حاول ان تذكر مين - كين - وو
وصن الحلم من القيصر
واحم الحلم من التنين

الجميـــع : ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
(التابع يسند رأسه الى المحفة ويبكى . يبدأ بعض الحاضرين فى التفرق واحدا بعد الآخر وهم يرددون) :
عفوا يامين - كين - وو
عذرا يامين - كين - وو
ان كان الحالم قد مات
فما مات الحلم
(يتعاون بعض الرجال على حمل المحفة والسير بها بعيدا . تتقدم امرأة وتضع يدها على رأس حارس الحدود الذى يضع رأسه بين كفيه قائلة) :
هذه الزهرة كنت اريد ان اضعها على قلبه .. ارجوك ياحارس الحدود .. ضعها على شاهد قبره .
حارس الحدود : شكرا لك ايتها البغى ..
معذرة .. شكرا يازوجة البستانى .
(يسمع صوت يردد : لاشىء ارق من الماء .. لاشىء ارق من الماء)
الصبـــى : يامعلمى .. ياحارس الحدود
حارس الحدود : تعال يابنى .. لماذا تركت الكوخ ؟
العجـــوز : ولدى .. كيف عرفت الطريق ؟
الصبـــى : (ضاحكا ثم كاتما ضحكته بعد ان رأى الرجال يحملون المحفة ويسيرون فى جنازة) كما علمتنى ياسيدى .. وكما علمت الراقد فى المحفة ..
حارس الحدود : معذرة ايها العجوز .. سأرجع بعد قليل الى الكوخ . ارجوك ان تسبقنى مع الصبى الى هناك .. المحبرة والريشة والدواة هناك .. وفى الجراب من الزاد ما يكفيك .

العجـــوز : اريد يابنى ان اتابع الطريق ..
حارس الحدود : (متعجلا) : لقد ترك لنا الحلم .. الا تترك لنا الحكمة لنهتدى للطريق ؟
العجـــوز : مادمت تريد ياولدى .
(ينصرف الحارس بسرعة) .
القيصر الأصفر : (يتقدم من العجوز) : وأنا ايها العجوز .
العجـــوز : أنت ؟ ماذا تطلب يابنى ؟
القيصر الأصفر : هل تتخلى عنى ايضا .
العجـــوز : يابنى .. من يتمسك بالطريق لايتخلى عنه الطريق .. اذهب وابحث عنه ..
القيصر الأصفر : ارجوك .. ساعدنى .. ساعدنى ..
(ينصرف العجوز مع الصبى .. اصوات تردد سطور الحكمة التى سمعناها فى مطلع المشهد السابق بغير ترتيب) .
صـــــوت : لاشىء أرق من الماء .
فهو يفتت جلمود الصخر .
صـــــوت : الكلمات الصادقة ليست براقة .
الكلمات البراقة ليست صادقة .
صـــــوت : من يحمل طين العالم
فهو سيد المملكة
من يحمل ذنب العالم
فهو ملك العالم
وبالوداعة والنقاء والسكينة
يجعل مملكة الأرض عادلة .. الخ ..
القيصر الأصفر : (متخبطا وحده) : ارجوك .. ساعدنى .. (متجها الى الجمهور) .
ارجوكم ..
ساعدونى ..
ساعدونى ..
(تسدل عليه الستار وهو يمد ذراعيه للناس متوسلا باكيا) .

الطفل والفراشة
مسرحية من فصل واحد

الشخصيات

- الحكيم تشوانج تسو
- الحكيم هوى تسو
- امرأة شابة
- طفلها

الطفل والفراشة

(حديقة صينية عامة . الحكيمان تشوانج - تسو و هوى - تسو يجلسان على اريكة فى ظل شجرة ضخمة ، يتطلعان الى احواض الزهور والفراشات التى تحوم حولها والاطفال الذين يجرون وراءها) .

تشوانج تسو : آه ! مشكلة صعبة .

هوى تسو : آه ! مشكلتى أصعب .

تشوانج تسو : كيف عرفت ! إننى لم أحك لك شيئا .

هوى تسو : وهل من الضرورى ان تحكى . يكفى اننى سمعتك تتنهد بعمق ..

تشوانج تسو : ولكنك تنهدت أعمق منى ..

هوى تسو : هل أفهم من هذا أنك أحسست بمشكلتى

تشوانج تسو : وكيف أحس بها قبل أن أعرفها ؟

هــوى تسـو : كما أحسست عندما سمعتك تقول آه .
تشوانج تسو : أنا أيضا سمعتك تقول آه . كانت صادقة ومن القلب .
هــوى تسـو : وماذا تصورت عندما سمعتها ؟
تشوانج تسو : بل قل عندما شعرت بلفح نارها .. شعرت انك بدأت تحن الى بلدتك « تشو » والى نهر « هاو » الذى يشقها .. مع ان زيارتك لم تطل عندنا .
هــوى تسـو : صدقت .. ولكننى لم احن الى نهر « هاو » نفسه ، بل الى الاسماك التى تسبح فيه .
تشوانج تسو : الاسماك التى تسبح فيه ؟ حقا انها لمشكلة .
هــوى تسـو : لاتسخر ياصديقى تشوانج تسو .. الا يمكن ان يحدث لك حين تشعر انك اصبحت سمكة .
تشوانج تسو : (ضاحكا) : هوى تسو الحكيم المشهور فى الصين كلها يصبح سمكة ؟
هــوى تسـو : أو السمكة تصبح هى صديقك المشهور فى الصين كلها هوى تسو ..
تشوانج تسو : هى على كل حال مشكلة هينة اذا قيست بمشكلتى .
هــوى تسـو : مستحيل .. قلت لك مستحيل .
تشوانج تسو : وكيف تجزم بشىء لم تره ولم تعرفه .
هــوى تسـو : ولكننى احسست به .. قلت لك احسست به .
تشوانج تسو : وبماذا احسست ؟
هــوى تسـو : هل تظن اننى لااعرفك بعد هذا العمر الطويل .. الم نتعلم معا عند معلم واحد ؟
تشوانج تسو : نعم نعم .. ولكن ..
هــوى تسـو : احسست انك حلقت عاليا فى السماء وطفت العالم فوق سحابة . ثم هبطت فجأة
تشوانج تسو : فجأة .. أكمل .. أكمل .
هــوى تسـو : نعم هبطت فى هذه الحديقة .. واخذت تنظر مذهولا الى الأشجار والزهور والاطفال التى تجرى وراء

الفراشات ، والفراشات التى .

تشوانج تسو : تأكد مما تقول .. لقد كانت فراشة واحدة .

هـوى تسـو : فراشة واحدة أو أكثر .. لايهم .

تشوانج تسو : انه أمر فى غاية الأهمية .. لقد كانت فراشة واحدة .

هـوى تسـو : المهم انك رأيتنى جالسا على هذه الأريكة .

تشوانج تسو : قلت لك كانت فراشة واحدة .. هذا أمر فى غاية الأهمية ..

هـوى تسـو : وما اهميته ياتشوانج تسو ؟

تشوانج تسو : ان هذه الفراشة كانت هى تشوانج تسو .

هـوى تسـو : أو كان تشوانج تسو هو الفراشة !

تشوانج تسو : بالضبط .. وهذه هى المشكلة ..

هـوى تسـو : المهم انك صحوت من الحلم ورأيتنى على هذه الأريكة .

تشوانج تسو : الحلم .. أجل .. أجل . وهذه هى المشكلة .

هـوى تسـو : وماذا فى هذا ؟ أنا أيضا رأيت فى الحلم .

تشوانج تسو : لايمكن ان تكون قد رأيت نفس الحلم . هل تحولت مثلى الى فراشة

هـوى تسـو : بل الى سمكة .

تشوانج تسو : سمكة ؟ لكن مشكلتى أصعب .

هـوى تسـو : بل مشكلتى .

تشوانج تسو : دعنى أروى عليك الحلم .

هـوى تسـو : بل أنا أولا .. سترى بنفسك .

تشوانج تسو : لايمكن ان تكون قد رأيت مارأيت .. اسمعنى اولا .

هـوى تسـو : مشكلة اخرى .. تكلم إذا

تشوانج تسو : تصور ياهوى تسو .. بالأمس حلمت اننى تحولت الى فراشة .. انا تشوانج تسو .. بكل شحمي ولحمى .. تحولت الى فراشة ترف هنا وهناك . تصعد وتهبط .. تسقط على حوض الزهور ثم ترفرف وتطير إلى أشجار

الورد والتين والبلوط .. فراشة حقيقية .. بكل مافى الفراشات من طيش ونقاء وحنين .. وكأن وعيى كانسان قد تعطل .. كأنى دخلت فى جلدها وشعرت بأحاسيسها ونبض قلبى بنبضها . كأن ذراعى اصبحا جناحين ملونين بألوان قوس قزح التي تخلب ألباب الاطفال .. وكأن فمي صار فم فراشة لاتشتاق الى اكثر من قطرة ماء أو رشفة ندى أو نفحة شذى .. فراشة تدور سعيدة في كل مكان .. وكل مهمتها فى الحياة ان تنقل تحية السماء والالهة الى كل زهرة وكل نسمة وكل عبير . وفجأة .

هـوى تسـو : ماذا ؟ لاتقل انك وجدت نفسك فى كف طفل صغير ؟

تشوانج تسو : ليت هذا ماحدث .

هـوى تسـو : وقعت فى شبكة صياد أو صيادة رقيقة ؟

تشوانج تسو : قلت لك ليت هذا هو الذى حدث .

هـوى تسـو : وماذا حدث .

تشوانج تسو : انها المشكلة .. لقد صحوت من النوم فجأة .

هـوى تسـو : مشكلة ان تصحو من النوم ؟

تشوانج تسو : بل ان أجد نفسى مرة أخرى كما أنا .. تشوانج تسو كما يعرف نفسه ويعرفه الناس .. راقدا على نفس الفراش الذى رقدت عليه قبل النوم .. لابسا نفس المنامة التى لبستها قبل ان اتحول الى فراشة ..

هـوى تسـو : ولم تستطع التمييز بين الحلم واليقظة .. ولابين الوهم والحقيقة .

تشوانج تسو : ليت الأمر اقتصر على هذا . فنحن نعيش ليل نهار فى هذه الحيرة الدائمة .. لانعرف أين هو الحاجز بين الوهم والحقيقة .. لاندرى متى ينتهى الحلم وتبدأ اليقظة .

هـوى تسـو : آه ! كأنه نفس الحلم .

تشوانج تسو : مستحيل .. قلت لك مستحيل .

هـوى تسـو : وما هو المستحيل ياتشوانج تسو .
تشوانج تسو : مستحيل ياهوى تسو ان تكون قد واجهت مشكلتى انا تشوانج تسو أم انا الفراشة التى مازالت تحوق فوق الزهور والاشجار .. هل كنت انا الانسان الذى حلم بأنه فراشة . ام كنت الفراشة التى حلمت بانها الانسان ؟ هل هناك حاجز بين الانسان والفراشة ؟ وهـل تخطيت هـذا الحـاجـز ؟ فتحت عينى واغمضتهما . ثم فتحتهما ورحت اتحسس رأسى ويدى وذراعى وساقى وانا اسأل : انسان أم فراشة ؟ فراشة ام انسان ؟
هـوى تسـو : هذا أهون على كل حال من ان تسأل : انسان انا ام سمكة ؟ سمكة أنا أم انسان .
تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة .
هـوى تسـو : ومن اين عرفت
تشوانج تسو : انت الان بجانبى ولست فى بحيرة او نهر ..
هـوى تسـو : ذلك مارأيت فى الحلم .
تشوانج تسو : انت ايضا .
هـوى تسـو : ألم اقل لك ؟
تشوانج تسو : ولكن لايمكن ان يكون نفس الحلم .
هـوى تسـو : اسمع واحكم بنفسك .. هل تذكر نهر « هاو » الذى مشينا على شاطئه عندما زرتنا فى « تشين »
تشوانج تسو : نعم . نعم . واذكر الجسر الذى وقفنا عليه ورحنا نتطلع الى دوائر الماء .
هـوى تسـو : وثعابين السمك الصغيرة التى كانت تلمع تحته كأنها نجوم ترتدى ثياب السحب . اتذكر ماقلته لك عندئذ ؟
تشوانج تسو : لا . لاأذكر لقد كنت صامتا فى ذلك اليوم .
هـوى تسـو : ربما . ربما اكون قد قلته لك فى الحلم .
تشوانج تسو : لى انا .
هـوى تسـو : نعم . نعم .. لقد رأيتك معى فوق ذلك الجسر . كنا

نطل على الماء وقلت لك : انظر ياصديقى تشوانج تسو . انظر كيف تتسابق الاسماك . هذا ماسميه فرحة الاسماك .

تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة . كيف يمكنك ان تعرف ان الاسماك فرحة .

هـوى تسـو : وهذا هو الذى قلته ايضا فى الحلم .

تشوانج تسو : شىء غريب . أنا قلت هذا ؟

هـوى تسـو : واجبتك قائلا : انا لست انا . فكيف يمكنك أن تعرف اننى لاعرف فرحة الاسماك ؟

تشوانج تسو : معقول . فأنا لست أنت . ولهذا لاأعرفك .

هـوى تسـو : وهذا ماقلته ايضا . ثم اضفت الى ذلك انك تعرف شيئا واحدا ، وهو اننى لست سمكة ، ولهذا لايمكننى أن أعرف الأسماك .

تشوانج تسو : شىء غريب حقا .. ولكن لنرجع الى سؤالك .

هـوى تسـو : ورجعت بالفعل الى سؤالى .

تشوانج تسو : وماذا قلت ؟

هـوى تسـو : لقد سألتنى : كيف يمكنك ان تعرف فرحة الاسماك ؟ الواقع انك كنت تعرف اننى اعرف ، ومع ذلك اصررت على سؤالك .

تشوانج تسو : وماذا كان جوابك ؟

هـوى تسـو : هو الذى اجبتك به فى الحلم .

تشوانج تسو : ومازلت تذكره ؟

هـوى تسـو : نعم . نعم . كأنى نطقت به الآن . اعرفها من الفرحة التى اشعر بها وانا انظر للماء .

تشوانج تسو : غريب .. شىء لايصدق .

هـوى تسـو : اننى تحولت الى سمكة ؟

تشوانج تسو : ولكنك لست سمكة ..

هـوى تسـو : وهل انت فراشة؟

تشوانج تسو : اننى اراك واستطيع ان المسك .. انت هوى تسو .
هــوى تســو : وأنا آراك واستطيع أن ألمسك .. أنت تشوانج تسو ..
تشوانج تسو : انسان أنت ولست سمكة .
هــوى تســو : وأنت إنسان ولست فراشة .
تشوانج تسو : ولكنى تحولت الى فراشة .
هــوى تســو : وأنا تحولت الى سمكة .
تشوانج تسو : كان هذا فى الحلم . أستطيع ألآن أن أهز كتفيك أو أضربك على رأسك فتستيقظ منه .
هــوى تســو : أنا أيضا أستطيع أن أهز كتفيك أو أصفعك على وجهك وأوقظك من الحلم .
تشوانج تسو : وهل يثبت لك هذا انك لاتحلم .
هــوى تســو : مادمت لااتلقى الصفعة
تشوانج تسو : اذا فخذ هذه (يصفعه) هل انت الآن فى اليقظة ام فى الحلم ؟
هــوى تســو : وانت .. خذ هذه (يركله ركلة شديدة فى بطنه) هل مازلت تحلم ام استيقظت ؟
(يدخل طفل يجرى ليمسك بفراشة وهو يصيح) :
الطفــــل : الفراشة .. الفراشة .. امسكها ايها السيد .. ساعدنى .. انت ياسيد .
هــوى تســو : الست فراشة ؟ ساعده ان يمسك بك .
تشوانج تسو : تعال ياولدى .. تعال .
هــوى تســو : تقدم يابنى .. هذه هى الفراشة .
تشوانج تسو : من حسن الحظ اننى لست سمكة .
هــوى تســو : ولكنك لازلت تحلم .
تشوانج تسو : وانت ؟ هل استيقظت من حلمك .
هــوى تســو : على الأقل عندما ركلتك فى بطنك ..
تشوانج تسو : كانت ضربة شديدة .
هــوى تســو : وصفعتك اشد ..

تشوانج تسو : معذرة ياصديقي هوى تسو .. لابد انني كنت احلم .
هوى تسو : معذرة ياصديقي تشوانج تسو .. اختلط عليَّ الحلم واليقظة .. (يتعانقان الطفل ينظر اليهما متعجبا .. تدخل امه على عجل) .
الأم : ولدى .. ولدى .. ماذا تفعل ؟
هوى تسو : ها هو ابنك .. لاتخافى .
تشوانج تسو : كان يجرى وراء الفراشة
هوى تسو : لقد حسب هذا السيد فراشة وأراد أن يمسك به .
تشوانج تسو : ولو كانت معه سنارة لأمسك بك ..
الأم : معذرة أيها السيدان .. أخشى أن يكون قد أزعجكما .. كنتما فى شجار على ماأظن .
تشوانج تسو : أبدا.. أبدا .. مجرد اختلاف فى الرأى .
هوى تسو : أو فى الحلم .
الأم : اختلاف فى الرأى أو فى الحلم ؟
تشوانج تسو : رأى هذا السيد فى الحلم انه سمكة .
هوى تسو : ورأى هذا السيد انه فراشة .
الأم : (ضاحكة) فراشة وسمكة ؟ كنتما تحلمان !
هوى تسو : ولانعرف حتى الآن ان كنا فى حلم ام فى يقظة .
الأم : في حلم أم يقظة .
تشوانج تسو : ألا تحلمين أيتها المرأة ؟ الا يحلم طفلك ؟
الأم : هذا الغبى .. كم رأى فى الحلم انه تحول الى فراشة .
تشوانج تسو : سمعت ؟
هوى تسو : وانت ياسيدتى .. هل تحلمين ايضا ؟
الأم : أنا لااحلم ايها السيدان .. نحن الفقراء لانحلم .. اننى اوقظ ولدى من حلمه .
تشوانج تسو : ولماذا توقظينه ؟ لماذا لاتتركينه يحلم بأنه فراشة .
هوى تسو : أو بأنه سمكة ؟

الأم : آه .. الحياة قاسية بما فيه الكفاية .
تشوانج تسو : تقصدين انك فى يقظة دائمة .
هـوى تسـو : ام انك لاتستطعين التفرقة بين اليقظة والحلم .
الأم : اقصد . لاادرى ماذا اقصد .. امثالنا ليس لديهم الوقت ليفكروا فى هذا .
تشوانج تسو : اسألك بكل احترام : ماذا تعنين بقولك هذا ؟
هـوى تسـو : وانا اسألك بكل خضوع نفس السؤال ..
الأم : تعال ياولدى .. اننى لاافهم السؤال ولاأعرف الجواب .. لاأعرف إلا أن إمثالنا لايفكرون فى هذه الأمور .. انهم يشقون فحسب ..
تشوانج تسو : تشقون فحسب .. هذا مفهوم .. ولكن فى الحلم أم فى اليقظة ؟
هـوى تسـو : نعم نعم .. فى الحلم أم فى اليقظة .
الأم : تعال ياولدىّ .
الطفـــل : الفراشة ياأمى .. الفراشة ..
الأم : قلت تعال .. تريد ان تحلم مثلهم .
(تشد طفلها بعنف وتمضى) .
تشوانج تسو: (ينظر صامتا الى هوى تسو)
هـوى تسـو : (ينظر فى صمت الى تشوانج تسو)
هـوى تسـو : هل تعرف ياصديقى تشوانج تسو ؟
تشوانج تسو : ماذا ياصديقى هوى تسو ؟
هـوى تسـو : لقد شعرت بالخجل أمام هذه المرأة .
تشوانج تسو : وانا شعرت بالخجل امام الطفل ..
هـوى تسـو : لانك لم تكن فراشة كما اراد .
تشوانج تسو : ولاننى لاأعرف ان كنت فراشة تحولت الى انسان ، ام اننى انسان تحول الى فراشة .. وانت ايضا .
هـوى تسـو : نفس الشىء ياصديقى .. مازلت لاادرى ان كنت الانسان الذى شعر بفرحة السمكة ام السمكة التى احست بفرحة الانسان .. هل تدرى السبب فى حيرتنا .

تشوانج تسو : وماهو السبب ؟
هــوى تســو : كلانا لم يتحول بعد .
تشوانج تسو : نعم . نعم . كلانا لم يتحول بعد .
هــوى تســو : مازلنا اطفالا فى بداية الطريق .
تشوانج تسو : وليتنا استطعنا ان نتحول الى اطفال .. هل تذكر معلمنا العجوز .
هــوى تســو : كونج - فو - تسو ؟ ومن يمكنه ان ينساه .
تشوانج تسو : وتذكر الحوار الذى دار بينى وبينه ورحت ابكى بعد انتهائه وانت تربت على ظهرى وتمسح دموعى .
هــوى تســو : كم فعلت هذا .. لقد كنت كما قال طفلا صغيرا . انا ايضا كنت طفلا على بداية الطريق .
تشوانج تسو : مازلت اذكر ذلك الحوار كأنه دار بيننا صباح اليوم .
هــوى تســو : اما انا فقد نسيت .. مرت سنوات طويلة شاب فيها شعر الاطفال .
تشوانج تسو : ومازلنا اطفالا لم نتعلم بعد .. دخلت عليه فى صباح ذلك اليوم فوجدته كما تعودنا ان نراه .. وديعا ساكنا كأنه شجرة عظيمة . شجرة ممتدة الجذور وارفة الظلال .. لم يتحرك من مكانه ولم ينظر الىّ .. سألت نفسى يومها : هل صار المعلم سحابة محلقة فوق العالم . ام اصبح اما تحتضن الكائنات والاشياء كأنها تحتضن أولادها .
هــوى تســو : وتربعت على الأرض امامه ورحت تنظر اليه .. كانت هذه هى عادتك .. بدلا من ان تسأله عن حاجته .
تشوانج تسو : بل تشجعت فى ذلك اليوم وتقدمت منه وسألت : سيدى .. انك تجلس فى هدوء فاجلس فى هدوء مثلك . تمشى خطوة فامشى خطوة . تسرع فى السير فاسرع معك . تركض فاركض . ولكن عندما تخرج من حدود التراب ارتبك واتوقف واكتفى بأن

أحدق فيك . ضحك وقال :

تشوانج تسو : (مقلدا صوت المعلم) أجل أجل ، كما تفعل الآن .

تشوانج تسو : كيف يحدث لك هذا ؟

صوت المعلم : ماذا تقصد بسؤالك ؟

تشوانج تسو : اقصد هذا .. عندما تتكلم اتكلم . وعندما تقيم الحجة أقيم الحجة . وعندما تعلم الطريق ، أعلم الطريق مثلك . ولكن عندما تخرج من حدود التراب أتوقف مذهولا وأحدق فيك .

صوت المعلم : سألتك ماذا تقصد ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

تشوانج تسو : أريد يامعلمى ان تفسر لى هذا السر ؛ انك تلوذ بالصمت ولاتتكلم ، ومع ذلك يصدقك الجميع ، لاتتحمس ولاترفع صوتك ، ومع ذلك يوافقك كل انسان ، لاتحاول أن تجذب أحدا ، ومع ذلك ينجذب الجميع اليك . هذا هو اللغز الذى لاافهمه .. اللغز الذى يؤرقنى ويلسعنى كالشوكة .

صوت المعلم : اللغز ؟ الشوكة ؟ ولماذا لاتحاول ان تصل الى اصله وجذوره ؟ توقعت ان تجهد عقلك وروحك لتعرفه ، فليس فى الدنيا شىء ادعى الى الحزن من موت العقل والروح . ان موت الجسد لايقاس بموت الروح .

تشوانج تسو : تهورت ورفعت صوتى قائلا : اهو لغز اخر يامعلمى ؟ .. تطلع فى صمت امامه ولم يحرك شفتيه . حدق فى الفراغ حتى شعرت أنه اصبح جزءا منه . بعد لحظات نظر الىّ وقال :

صوت المعلم : ان الشمس تشرق فى الشرق وتغرب فى الغرب . ما من شىء يفلت من تأثيرها . ما من حى يمكنه ان يخرج على نظامها . وكل من له عيون واقدام يتعلق بها ليحيا حياته ويتم عمله . فعندما تظهر تظهر

الحياة ، وعندما تختفى تختفى معها الحياة .

تشوانج تسو : سألت فى حيرة : وما العلاقة بين الشمس والروح ما العلاقة بينهما يامعلمى ؟

صوت المعلم : العلاقة واضحة يابنى . فى كل انسان شمس تشرق وتغرب . شمس الروح التى تتعلق بها حياته وموته . ان ذهبت مات . وان رجعت عادت اليه الحياة . هذا هو الذى اسميه التحول الذى يجدد الحياة ويحافظ عليها . فان جررت جسدى نحو النهاية دون ان احقق ذلك التحول الذى يجدد الحياة ، ان تركت نفسى استهلك ليل نهار كأنى شىء من الاشياء . ان لم أشعر بالموت الأبدى الذى يتم فى كل لحظة أن أحسست أن شمس الروحية قد انطفأت وانه لايوجد شىء يمكنه أن ينقذنى من القبر ـ عندئذ تضمحل شمس وتصبح شمعة ضعيفة تذبل وتلفظ انفاسها . حتى يفاجئنا الموت فنشعر انت وانا كأن اكتافنا قد تلامست مرة واحدة قبل ان نفترق الى الأبد ! ليس هذا شيئا محزنا ؟

تشوانج تسو : قلت : هو شىء محزن يامعلمى . غير اننى لازلت لاأفهمك .

صوت المعلم : قل انك لاتفهم نفسك . انك الآن تنظر الىّ .

تشوانج تسو : بل أحدق فيك يامعلمى .. ألمْ أقل اننى أفعل هذا كلما شعرت انك تخطيت حدود التراب ؟

صوت المعلم : نعم قلت هذا . ولكنك تحدق ببصرك الآن لكى ترى فى شيئا قد اختفى عندما نظرت الىَّ . ومع ذلك ظللت تحدق فىَّ بحثا عن شىء قد تلاشى. وكأنك رجل ذهب الى السوق ليبحث عن خيول بيعت قبل وصوله .. انظر !

تشوانج تسو : قلت : مازلت انظر ياسيدى ..

صوت المعلم : ان مايعجبنى فيك قابل للتحول . ومايعجبك فىّ قابل للتحول .
لماذا تحزن اذا ؟ اذا كانت نفسى تموت فى كل لحظة ، فعلىَّ أن أحولها فى كل لحظة لكى تكون أبدية . واذا كنت تريد الابدية ، فعليك ان تتحول ..
هـوى تسو : نعم . نعم . صدق معلمنا العجوز . مازال علينا ان نتحول ..
تشوانج تسو : ومازال الطريق بعيدا عنا ..(يبكى)
هـوى تسو : ونحن بعيدون عنه .. ربما كان هذا هو سر حزنك ياتشوانج تسو ..
تشوانج تسو : وحزنك ايضا ياهوى تسو .. هل تنكر ؟
هـوى تسو : وحزنى ايضا (يبكى) ولكننى تحولت الى سمكة .. ألم أشعر بفرحة الاسماك ..
تشوانج تسو : كان مجرد حلم .. أنا أيضا ..
هـوى تسو : لاتقل تحولت الى فراشة ..
تشوانج تسو : مثلك تماما .. فى الحلم !
هـوى تسو : ولهذا لم يستطع الطفل المسكين أن يمسك بك ..
تشوانج تسو : وهذا هو سر حزنى ...
هـوى تسو : وحزنى أيضا .. هل يغرك اننى اضحك .. لقد تحولنا فى الحلم .
ثم عجزنا ان نتحول فى اليقظة ..
تشوانج تسو : عدت الى الحلم واليقظة ؟ . أين الحلم من اليقظة ؟ . وأين اليقظة من الحلم ؟ آه أكاد أجن ..
هـوى تسو : بدلا من أن تجن .. حاول أن تتعلم كيف تتحول ..
تشوانج تسو : وأنت ؟ هل حاولت هذا ؟ هل تحولت منذ أن مات معلمنا ؟ هل وصلت الى الأبدى ؟ . هل أصبحت الأبدى ؟
هـوى تسو : أصبحت سمكة .. أى إننى الآن على الطريق ..

تشوانج تسو . سمكة أم انسان .. انسان أم سمكة

هـوى تسو : لانك لم تتحول .. لأنك مازلت مثاليا
كما كنت ..

هـوى تسـو : وأنا . واقعى

تشوانج تسو : ولكننى مثالى واقعى ... مثالى .

تشوانج تسو : بل أنا الواقعى
والموضوعى ..

هـوى تسـو : أنا موضوعى مثالى ..
تشوانج تسـو : وأنا مثالى موضوعى ..
هـوى تسـو : وهل هنالك فرق ؟ ..
تشوانج تسـو : وأى فرق ..
هـوى تسـو : قله إذن أيها الفراشة !
تشوانج تسو : قله أنت أيها السمكة !
هـوى تسـو : أنا يقظ يحلم ، وأنت تحلم فى اليقظة ..
تشوانج تسو : بل أنت الذى تحلم .. هل يمكن ان يشعر انسان بفرحة الاسماك ؟
هـوى تسـو : وهل يمكن ان يتحول سمين مثلك الى فراشة ؟
تشوانج تسو : تعيرنى بشحمى ولحمى .. أشرف لى على كل حال أن أكون فراشة ..
هـوى تسـو : وأشرف لى ان أترك بلدك وأسبح فى مياه نهر هاو ..
تشوانج تسو : يقظ يحلم مفتوح العينين ...
هـوى تسـو : أفضل من حالم لايستيقظ ..
تشوانج تسو : مثالى موضوعى ...
هـوى تسـو : موضوعى مثالى ...

(يوشكان أن يتضاربا عندما يدخل الطفل الصغير فجأة ووراءه أمه التى تحاول أن تلحق به ...)

الطفل : لن تمسكينى قبل ان امسك الفراشة ..
الأم : تعال .. قلت لك تعال ..

الطفل : ساعدانى أيها السيدان ..
الأم : دع السيدين فى حالهما ..
تشوانج تسو : تعال ياصغيرى .. تعال ..
الطفل : هل وجدت الفراشة ؟
تشوانج تسو : أنا الفراشة .. اذ أردت صرت فراشة ..
الطفل : أنت ؟! انظرى ياأمى ! هذا السيد فراشة ! ..
تشوانج تسو : واذا أردت صرت طفلا ..
الطفل : طفل أم فراشة ؟ ... تعالى ياأمى ...
الأم : معذرة أيها السيد .. معذرة ..
تشوانج تسو : انه لايزعجنا على الاطلاق .
الأم : لقد قطع حديثكما . معذرة ياسادة ..
هوى تسو :
وهوى تسو : بل أيقظنا من حلم طويل .. نحن الآن ..
الأم : معذرة .. معذرة .. ليس لدينا وقت .. لابد ان أشقى لأطعم هذا الطفل اليتيم .. تعال أيها الملعون .. العمل ينتظرنا ويحلم بأنه فراشة ..
الطفل : هذا السيد هو الفراشة ..
تشوانج تسو : أعاهدك على هذا يابنى .. سأكون فراشة اذا شئت ..
هوى تسو : وأنا أيضا .. الا تحب السمك يابنى ...
الطفل : أمى .. أريد سمكة .. هذا السيد سمكة ...
الأم : عفوا ايها السيدان .. هذا الصغير لايعرف ما يقول .. انه لايريد فراشة ولاسمكا .. هل تعرفان مايريد ..
تشوانج تسو :
هوى تسو : ماذا يريد ؟
الأم : يريد رغيفا يملأ بطنه .. سقفا يدفىء جسده ..
تشوانج تسو :
هوى تسو : حقا .. حقا .. رغيف يملأ بطنه .. سقف يدفىء جسده ..

الام : تعال يابنى .. تعال ..

(تسحب ابنها من يده بشدة وتنصرف)

تشوانج تسو : أيتها الأم المبجلة ..

هــوى تســو : أيتها الأم الحكيمة .. نعدك أن نتعلم ...

تشوانج تسو : نعدك أن نتحول ...

هــوى تســو : أن نتحد بكل شىء ...

تشوانج تسو : ونعانق كل شىء ...

هــوى تســو : أن نصبح مثلك أما تحتضن جميع الاطفال ..

تشوانج تسو : تحتضن جميع الاشياء ..

هــوى تســو : أن نصبح أرضا وسماء ...

تشوانج تسو : سقفا ورغيفا ..

هــوى تســو : لابنك ولكل الأبناء ..

تشوانج تسو : سأكون أنا فراشة ..

هــوى تســو : وأنا سمكة ..

تشوانج تسو : الفراشة أولا ..

هــوى تبســو : بل سمكة .. سملكة ..

تشوانج تسو : قلت فراشة ....

هــوى تســو : وأنا قلت سمكة ...

تشوانج تسو : (ضاحكا) : عندما نتحول سنكون كل شىء ..

هــوى تســو : (ضاحكا) : نعم . نعم .. كل شىء ..

تشوانج تنو : (يمسك يده) : كل الفراشات والاسماك .. كل الاطفال ..

هــوى تســو : كل الاطفال الفقراء ..

(يضحكان .. يضع كل منهما يده فى يد الآخر وينصرفان ...)

السيد والعبد

(قاعة فسيحة ، تتوسطها منضدة كبيرة يجلس اليها رجل على مشارف الكهولة . أمامه ومن حوله ألواح مسمارية كثيرة ، ولوحات معلقة على الجدران تطل منها نقوش بابلية بارزة لملوك وآلهة ومناظر من الحياة اليومية والاجتماعية . نافذة كبيرة تبدو من وراءها خرائب مدينة قديمة . يتململ الرجل فى جلسته ، يحاول أن يبدأ عمله ثم ينفض يديه من المحاولة وينهض على قدميه صائحا :) .

السيد : أيها العبد .. أيها العبد ... (يتأخر عليه العبد فيقول لنفسه :) ماهذا ؟ ماذا جرى لى ؟ انا الذى فكرت وكتبت اكثر من عشرين سنة لم أعد قادرا على تفكير ولا كتابة . حتى المخطوطات القديمة التى كنت أجد متعتى وسلواى فى نسخها أصبحت لا أطيق النظر اليها . وتمر الايام والليالى وانا أحاول بيتا واحدا من الشعر فلا يستجيب ، مع انى كتبت للملك عشرات الحكايات والحكم والامثال والاشعار حتى اطلقوا علىّ اسم شاعر القصر. ؟ نعم . نعم . ياعبدى ! أنت أيها العبد !

(يظهر العبد داخلا مسرع الخطى . وهو شاب لاتفارق الابتسامة شفتيه :) .

العبد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

السيد : أسرع .. أسرع .. نفذ ما اقوله لك ..

العبد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السيد : هيا أحضر المركبة وأعدها لأمضى الى القصر .

العبـــد : امض ياسيدى .. أمض .. سأكون تحت تصرفك ..
(يتلكأ قليلا . السيد يكتشف انه لم يتحرك من مكانه . يرفع حاجبيه ويفتح فمه دهشة ويهم بالكلام فيسأله العبد :)

العبـــد : معذرة ياسيدى .. هل قلت القصر ؟

الســـيد : ألم تسمع ماقلته ؟ لماذا لاتتحرك ؟

العبـــد : أى قصر تقصد ياسيدى ؟ قصر الملك ، أم الحاكم ، أم الوزير ، كبير الكهنة ... .

الســـيد : ماأغرب اسئلتك فى هذا الصباح الغريب ..

العبـــد : اعذرنى ياسيدى ، فلابد أن أعرف لأى قصر ستتجه . ان الزينة التى أضعها على المركبة والخيل ستختلف فى كل حال .

الســـيد : تقول أى قصر ؟ ! الذى تعودت أن أذهب اليه ..

العبـــد : اعذرنى مرة أخرى اذا ذكرت سيدى بأن هذه العادة قد توقفت منذ شهور .. (ينظر اليه مشفقا ثم يسير خطوات نحو الباب ويقف عنده . السيد يحول وجهه عنه وينظر من النافذة وهو يكلم نفسه ..) .

الســـيد : نعم .. نعم .. كيف غاب هذا عنى ؟ لقد تنافسوا على طعنى وتسديد حرابهم الى صدرى وظهرى . أولئك الشعراء الصغار والكتبة الأوغاد حتى الملك الذى كان يجلسنى بجواره ويستعذب سماع شعرى لم يستطع ان يفعل شيئا . وعندما اسرعت اليه غاضبا ثائرا قال وهو يتحاشى النظر فى عينى : لقد أحكموا المؤامرة عليك أعدوا القوس والسهم ووضعوه فى يدى لأصوبه الى قلبك . اذهب . اذهب . لكن لا تنس ابدا أننى أحب شعرك ..

العبـــد : (مقاطعا) : سيدى ..

الســـيد : لاأيها العبد ... لن أذهب للقصر .. لن أذهب ابدا ...

العبـــد : لاتذهب ياسيدى .. لاتذهب .. ربما يوقعونك فى حفرة

جديدة .. أو يلفون حبلا آخر حول رقبتك .. ستسير فى طريق لا تعرفه .. وستندم على ذلك ليل نهار ..

السـيد : (لنفسه) أندم ؟ وهل سأكون حيا لكى أندم ؟ مازلت طيبا أيها العبد .. وربما جعلتك الايام والمحن المتوالية حكيما .. (للعبد بعد فترة صمت) أنصت الىّ أيها العبد .. أنصت الىّ ..

العبـد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا .. (يقفز مقتربا منه فى خشوع)

السـيد : أسرع .. أسرع .. سنتجه وجهة أخرى ..

العبـد : والى أين ياسيدى ؟

السـيد : الى الخلاء .. الى الريف الواسع المفتوح .. أريد أن أشم رائحة الخضرة .. أريد ان أتنفس هواءً نقيا ..

العبـد : هل أجهز أدوات الصيد ؟

السـيد : وكلاب الصيد أيضا .. هل كنا نفعل غير هذا فى الخلاء ؟

العبـد : اذهب ياسيدى .. اذهب ..
فالصياد يملأ جوفه ،
وكلاب الصيد ستكسر عظام الفريسة ،
والصقر سينقض عليها ،
والحمار الوحشى سيعدو مسرعا
الحراب ذات العيون النافذة ستتعقبه وتخترق لحمه ..

السـيد : (بعد قليل يكلم نفسه متأففا ، لايلحظ أن العبد يسمعه) : لاياعبدى .. لا .. لن أذهب للخلاء .. لن أمضى فى رحلة الصيد .. (ملتفتا الى النافذة) فى كل مرة اصطدت فريسة كنت أقول لنفسى : اننى أنا الفريسة . انظر فى عيونها الميتة التى تحدق فىّ وأقول : عبث وباطل مافعلت . عبث وباطل .. وهل أنسى العيون الجائعة التى كانت تلتهم أجساد الفرائس الذبيحة على طريق العودة ؟ عجائز وصبية وأطفال تجرحنى نظراتهم الخرساء وتتهمنى : لعنتك الآلهة ولعنت كل الصيادين ! وتظل العيون المحرومة تتابعنى حتى أصل الى عتبة دارى وأتخفى فى فراشى (ملتفتا الى العبد

وهو يصيح) لا ياعبدى .. لن أذهب ابدا ..

العبـــد : لاتفعل ياسيدى . لاتفعل ..
إن حظ الصياد منقلب ،
وكلب الصيد ستتكسر أسنانه ،
وصقر الصياد سيرجع الى عشه ،
والحمار الوحشى سيهجع فى حظيرته ،
حظيرته الآمنة ببطن الجبل العالى ..
لاتذهب ياسيدى .. لاتذهب ..

الســيد : معك الحق . سأبقى . سأبقى . ولكن أنصت الىّ أيها العبد ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا .

الســيد : أحضر الماء لأغسل يدى ..

العبـــد : على الفور ياسيدى .. على الفور .. هل تريد ..

الســيد : : (بغضب) : أريد أن أتناول طعامى ..

العبـــد : أجل ياسيدى .. أجل .. تناول طعامك مرة ومرة .. لقد أعددت كل شيء . الافطار الذى نسيته والغداء الذى لم تطلبه . ان الطعام الشهى يريح الذهن من متاعبه .. و «شمس» (★) نفسه يرعى من يطهر يديه .. (يذهب ليحضر الماء) .

الســيد : افطارى وغدائى معا ! .. يالك من عبد طيب القلب .. أم ان الحكمة قد فاضت منك فأغرقتك فى بحار السذاجة ؟ ألم تلاحظ اننى أغص باللقمة والشربة التى تحضرها الىّ ؟ افطارى وغدائى ؟ فى كل يوم أسأل نفسى : لماذا كتب علىّ أن آكل وأشرب وحدى ؟ كانت الكلمة هى خبزى ، كان الشعر هو اكسير حياتى .. وهأنا لم أشبع ولم أرتو .. كلما وضعت اللقمة فى فمى رأيت العيون الجائعة تلاحقنى كأنها تمد مخالبها لتسحبها من حلقى .. وأبصرت عيون الاطفال الذين لم أنجبهم وهى تصرخ باكية : لماذا لايكون لنا

نصيب فى هذه اللقمة ؟ لاياعبدى .. لا .. لن آكل ولن
أشرب !

العبـــد : (يرجع وينحنى امامه ويريد أن يصب الماء على يديه) :
ولكنك ستغسل يديك ياسيدى ..

الســـيد : (مفاجئا) : ولا هذا ايضا .. لن اغسل يدى .. ولن آكل ولن
أشرب ! ..

العبـــد : لاتأكل ياسيدى .. لا تأكل ..
الجـــوع والاكـــل ،العطش والشرب ،
ماذا أفاد الانسان منها ؟
(يتطلع من النافذة الى الافق البعيد حيث تلوح اكوام
الخرائب القديمة) .
أسأل هـــؤلاء ..
ماذا أفاد الانسان ؟
ماذا أفاد الانسان ؟

الســـيد : (الذى لم ينتبه لما قصد اليه العبد) : اسمع ياعبدى ..
اسمع ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

الســـيد : قررت أن أكون أسرة ! ..

العبـــد : مرحى ! مرحى ! تكون أسرة ؟!

الســـيد : نعم . وأنجب اطفالا ..

العبـــد : خيرا تفعل ياسيدى .. لتكن لك أسرة واطفال ..
فالرجل الذى يبنى بيتا ويربى اطفالا
يجعل من نفسه ملكا
على عرش مملكة صغيرة
يسكنها شعب صغير ،
يصبح راعيا مسئولا
عن مصير قطيع محبوب
يعتمد عليه فى زاده ومائه

وصحته ومرضه ، ونومه ويقظته
افعل ياسيدى ! افعل !
ستجد طعاما ينتظرك ، وسراجا يضىء بيتك ، وفراشا
يدفىء جسدك
كون أسرة وانجب اطفالا
فما أحلىٰ أن يجروا حولك فى هذه القاعة
وهم يقفزون ويتصايحون :
علمنا أن نقرأ هذى الالواح ؟
أسمعنا شعرك ياأبتاه !

السيد : (لنفسه) : أقرأ لهم الالواح التى لايقرأها أحد ؟ أسمعهم شعرى الذى لاأطيق سماعه ؟ آواه ! ماأشد سذاجتك أو حكمتك !

العبد : ماذا تقول ياسيدى ؟

السيد : أقول لا .. لاياعبدى ..

العبد : لن تكوِّن أسرة ؟

السيد : ولن أنجب اطفالا ..

العبد : لاتفعل ياسيدى .. لاتفعل ..
تفتح بابك لعروسك
فيصير الباب هو الفخ المطبق بالفكين عليك ،
تحملها يوما لفراشك
واذا بك فى اليوم التالى
تحمل جبلا يرهق كتفيك ،
ويمر الزمن على العذراء الضاحكة العين
الباسمة الفم
فيخرج من شفتيها النصل المسنون الحد
أو الافعى النافثة السم
لا .. لاتفعل ! لاتبنى بيتا .. لاتستسلم
لا تغرق نفسك فى بحر الدين !

السيد : لا .. لن أفعل .. لن استسلم .. هل تعرف ماذا أنوى الآن ؟

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..
السـيد : سأعشق امرأة !
العبـد : اعشق ياسيدى .. اعشق ..
العاشق ينسى الحزن ويطرد خوفه ،
يحيا فى حلم وردى يصحو منه
على حلم آخر وردى ،
يخطو العاشق للمعشوق وتسكره الخفة ..
يحدوه الأمل وتعروه الرجفة
يضنيه اليأس وتتجدد فى الصدر اللهفة
اعشق .. ما أحلى العشق اذا حاول
أن يفتح اسوار العفة
ويعود ومعه الصيد الرائع
ان ساعدت الصدفة !
السـيد : هل هذا رأيك ياعبدى
العبـد : رأيى ؟ ألم تقله لك هذه الالواح ؟ ألم تسمعه من هذه الاشعار ؟ اين اغانيك ياعشتار الجميلة ؟ أين ذهبت ألحانك التى عرفتها للراعى البرىء فخلبت لبه ؟
(يتجول بين الالواح والتماثيل ويبتعد قليلا ..)
السـيد : (لنفسه) : وأين لعناتها الرهيبة على رأس جلجاميش وفوق اطلال أوروك ؟ أيها العبد المسكين ! أنك لاتعرف هذا . ويعود ومعه الصيد الرائع ان ساعدت الصدفة ! لكن الصدفة لم تساعد . وعشتار الجميلة لم تغن لى لحنا ولم تصب على رأسى لعنة . كم ذهبت اليها أحمل اثقال الالواح التى دونت عليها شعرى .. كانت تضحك فى طيش وهى تردها بيدها قائلة : شعرك صعب جدا .. يبدو أنك ضليع فى اللغة ! وليلة وقفت معها تحت بوابة المدينة .. كانت عين الاله الاكبر مردوخ تطل غاضبة علينا .. وسيل المطر ينهمر بلا رحمة فوق رءوسنا ويحيل أشعارى الى طين عكر يتساقط على الأرض . مددت يدى لأدفىء يدها فأبعدتها .

حاولت أن أدفئها بثوبى وأنفاسى فادارت وجهها وظهرها . عرفت ليلتها انها ليست لى . وفى ضحى اليوم التالى لمحتها تدخل معبد الاله «شمس»* وذراع الكاهن الأكبر القوية تلتف حول خصرها كما تلتف شبكة الصياد حول حمامة بيضاء .. وما هى الا ليلة حتى تركها الكاهن الأكبر لتنهشها الأنياب .. وعندما دفعت المبلغ المحدود ودخلت عليها حجرتها رفعت رأسها ببطء ونظرت الىَّ طويلا .. ثم خفضتها وجرت الدموع على وجنتيها .. لملمت ثوبى واستدرت خارجا فى صمت .. هذا هو الصيد الرائع أيها العبد الخبيث . لا .. لا .. لم تساعد الصدفة ولم أساعدها .. ولذلك امتلأت دارى بهذه الالواح ..

العبـــد : (يرجع وهو يمد يده بأحد الالواح) : وجدتها ياسيد ...

الســـيد : وأنا لم أجدها ولن أبحث عنها .. أعد هذا اللوح الى مكانه ..

العبـــد : ألا تريد ؟ ..

الســـيد : قلت أعده الى مكانه .. لا أريد أن أقرأ ولا أريد أن اعشق ..

العبـــد : كما تشاء ياسيدى .. لاتعشق .. لاتعشق ..
(يضع اللوح جانبا وينظر إلى النافذة)
فالمرأة جحر أو حفرة
فخ ، مصيدة ، هاوية خطرة
المرأة خنجر حديدى مسنون يقطع رقبة الرجل . المرأة ..

الســـيد : ارجوك .. الزم الصمت ..

العبـــد : امرك ياسيدى .. مادمت تريد هذا ..

الســـيد : أريدك ان تطيع صمتى كما تطيع كلامى ...

العبـــد : هل اتركك لصمتك ياسيدى ؟

الســـيد : نعم .. اريد أن أكون وحدى ... (يصمت . يتحرك العبد

* هو إله الشمس كما هو إله العدل عند البابليين ، ويقال إنه كان يتمتع بشعبية قربته من قلوب البسطاء من عامة الناس .

للخروج فيناديه فجأة :) أنت ...

العبـــد : أمرك ياسيدى ..

الســـيد : لا .. لن أصمت ... لن ألزم الصمت !

العبـــد : عليّ أن أطيع كلامك كما اطيع صمتك ..

الســـيد : اسمع ياعبدى ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

الســـيد : سأقود ثورة !

العبـــد : ماذا ياسيدى ؟!

الســـيد : قلت لك : سأقود ثورة !

العبـــد : ثـــورة ؟!

الســـيد : نعم . نعم . لايمكن أن أبقى هكذا كمؤشر الميزان الذى تميل به كفة وتخفضه أخرى .. قلت لك لقد صممت ..

العبـــد : على أن تقود ثورة ؟ ..

الســـيد : لابد .. لايمكن ان انظر وأسكت ..

العبـــد : قُد ثورة ياسيدى .. قُد ثورة ..

لأنك إن لم تفعل

فمن يثأر لك ،

من يخلص حقوقك ،

من يفضح الكذابين والمزيفين ،

من يفتح عين الشعب عليهم ؟

(يتقدم نحو النافذة مشيرا الى مدينة الموتى ..)

الســـيد : الشعب ؟ هل قلت الشعب ؟

العبـــد : (مستطردا فى حماس ، بينما السيد غارق فى رؤاه) نعم . نعم . هؤلاء .. كلهم منسى فى مدن منسية ... لو وجد الأموات من يثور لأجلهم ما ماتوا تعساء الى هذا الحد .. ولو وجد الاحياء من ينصفهم وينتقم لهم ما عاشوا كالأموات ...

الســـيد : (لنفسه ، فى نفس الوقت تقريبا مع العبد) : الشعب ؟ أين

هى عينه التى تتكلم عنها ؟ هل رأتنى أو شعرت بى ؟ لو ذهبت اليه فلن أنجو منه . سيسلمنى أو يسخر بى ... (ثم بصوت مرتفع) لاياعبدى .. لا ..

العبـــد : (كأنه يستيقظ من حلم ، يسرع اليه) : ماذا ياسيدى ؟ .. بماذا تأمر ؟

الســـيد : لن أقود ثورة .. لن أقود ثورة ..

العبـــد : كما تشاء ياسيدى ..
فالثائر إما أن يقتل
أو يسلخ جلده ،
تُسمل عيناه
ويلقى القبض عليه
وينسى - كالكلب الميت -
فى الســـجن ..
لاتفعل ياسيدى ... لاتفعل ..

الســـيد : لن أفعل .. معك الحق (بعد قليل) ولكن (لنفسه) كيف انظر فى وجوه أهلى ؟ كيف ألاقى المساكين عندما أزور قريتى واتجول فى ضيعتى ؟ لا .. لا .. اسمع ياعبدى ..

العبـــد : هأنذا ياسيدى ... هأنذا ...

الســـيد : سنعطى المساكين ياعبدى ،
سأقرض الفقراء فى قريتى
وأتصدق بالطعام على أهل ضيعتى

العبـــد : تصدق ياسيدى تصدق ،
أعط المساكين وأقرض الفقراء
من يتصدق تزداد غلته
ويكثر مكسبه
ومن يحسن للفقراء
يبقى قمحه هو قمحه ..

الســـيد : لاياعبدى .. لن أقرض أحدا .. لن أتصدق على أحد ..

العبـــد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

لاتتصدق ولاتحسن الى أحد ..
فالاحسان كالعشق
واسترداد القرض مثل انجاب الاطفال ..
سيأتون على قمحك
ثم يصبون اللعنات على رأسك
ويسلبونك الفوائد التى جنيتها
السيد : (لنفسه) : معك الحق ..
فعلوا هذا دائما ...
فعلوه دائما ... (يسرح ببصره خلال النافذة)
العبد : (لنفسه) : نسى سيدى انه لايملك مايقرضه ..
وأنهم أخذوا منه ضيعته ! ...
السيد : أنصت الىّ ياعبدى .. أنصت الىّ ..
العبد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..
السيد : لايصح أن أفكر فى قريتى وضيعتى .. وأنسى بلدى ..
العبد : ماذا تنوى أن تفعل ياسيدى ؟
السيد : سأقدم خدمة عامة الى بلدى ..
العبد : قدم ياسيدى .. قدم ،
من يفعل ذلك يبارك مردوخ عمله
السيد : (لنفسه) : بلدى وشعبى ؟ .
ما أغرب هاتين الكلمتين .
حين تخرجان من فمى ..
العبد : (الذى سمعه بصوت خفيض) :
حقا حقا ..
ماأغرب هاتين الكلمتين
حين تخرجان من فمك ..
السيد : هل قلت شيئا ؟ ..
العبد : لا ياسيدى .. لا ..
السيد : لن أقدم خدمة الى بلدى

لن أفعل شيئا ولن أتبرع بشىء .

العبــد : لاتفعل ياسيدى .. لاتفعل ! (مشيرا الى النافذة)
اصعد فوق أكوام الخرائب وتمش هناك
وانظر لجماجم الأعلين والأدنين
من كان الظالم منهم ومن المظلوم ؟
من كان الشرير ومن كان الطيب ؟
كلهم منسى فى مدن منسية

السـيد : كلهم منسى فى مدن منسية ..
ألم تقل هذا من قبل ؟

العبــد : ربما ياسيدى .. ربما ..
(لنفســه)
من ذا الذى طالت قامته ـ
حتى صعد الى السماء ؟
ومن ذا الذى اتسع منكباه
حتى احتضن العالم السفلى
واحتوى العالم بذراعيه ؟

السـيد : هل قلت شيئا ؟

العبــد : لاشىء ياسيدى .. لاشىء ..

السـيد : اذن فأنصت الىّ ..

العبــد : هأنذا ياسيدى .. هأنذا ..

السـيد : أحضر ماء لأغسل يدى ..

العبــد : هل أعد الطعام لسيدى ؟

السـيد : لا .. لا.. أريد أن أضحى لالهى ..

العبــد : ضح ياسيدى ضح ..
قدم القربان لالهك
فمن يقدم الاضاحى لالهه
يسر للصفقة التى يقوم بها
انه يبادل قرضا بقرض

ويريد دينا بدين ..
السـيد : حقا ياعبدى .. ماأصدق قولك !
العبـد : خلق الانسان ليكون عبدا للآلهة
هو خادمهم ، يطلب منهم الحماية
ويتوقع الجزاء
الذى يتوقعه الخادم من سيده
فطريق الطاعة والعبادة
هو طريق النجاح والتمتع بالحياة .
السـيد : (لنفسه) كم ضحيت لالهى الخاص
كم خاطبته قائلاً :
لم أهملتنى ؟
لم غادرت معبدك فى بيتى ؟
من ذا الذى يعوضك عنى
بواحد يطيعك ويعبدك مثلى ؟
كم تضرعت اليه وقبلت قدميه
كم توسلت اليه
ان يذكرنى عند الاله «مردوخ»
لعل مردوخ يتوسط لى عند «شمس» ، وشمس يسترحم
«انليل» من أجلى ، وانليل يستعطف سيد الالهة « إيا» ..
لكن عونه تأخر عنى
وهأنذا كما يقول عبدى
منسى فى مدينة منسية
قبر بلا شاهد منصوب فوقه
ولا زائر يطوف عليه .
اسمع ياعبدى .. اسمع ..
العبـد : نعم ياسيدى .. نعم ..
لك الامر وعلىّ الطاعة ..
السـيد : لن أضحى لالهى .. لن أفعل ابدا ..
العبـد : لاتضحى ياسيدى .. لاتضحى ..

علم الهك الخاص أن يركض وراءك
سواء سألك أن تقدم له الطقوس
أو طلب منك ان تؤدى له فريضة
أو توسل اليك لأى شىء آخر ..

السـيد : صدقت ياعبدي .. سأعلمه أن يسعى ورائي .. سأهمله كما أهملني .. وعليه أن يعلم انه محتاج لعبادتى كما أنا محتاج لطاعته .. لكن ياعبدى .. لكن

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السـيد : لايمكن أن تكون صادقا وكاذبا فى وقت واحد . لايمكن ان تكون خيرا وشريرا ، عاقلا وأبله ، حكيما ومخادعا فى نفس واحد .. ماذا أفعل اذا ؟

العبـد : أمرك ياسيدى .. أمرك ..

السـيد : هل أذهب للقصر أو لا أذهب ؟ أرحل للصيد أو لا أرحل ؟ هل آكل أو لا آكل ؟ أكون أسرة أو أبقى وحيدا ؟ أعشق أو لاأعشق ؟ أتصدق أو لا أتصدق ؟ أقدم خدمة عامة أو لاأقدم ؟ أضحى لالهي أو لا أضحى ؟ هل يمكن أن يستوى الفعل وعدم الفعل ؟ ان يتكافأ الخير والشر والظلم والعدل ؟

العبـد : أنت الذى تسأل ياسيدى ..

السـيد : وأريدك أن تجيبني بلا مواربة ..

العبـد : تفضل ياسيدى .. تفضل ..

السـيد : ما الخير اذا ؟

العبـد : الخـير ؟!

السـيد : نعم . الخير . اذا كان كل شىء يتساوى مع كل شىء : الصدق والكذب ، الاحسان والاساءة ، العشق والكره ، الزواج وعدم الزواج ، الوفاء والجحود ، العبادة والتجديف .. أين الخير اذا ؟ ..

العبـد : فى مدن منسية كهذه المدينة ؟

السيد : ما شأننا بهذا ؟ لقد قلت هذا من قبل .
العبد : (رافعا صوته بالتدريج) : أنا الذى يسأل الآن .
في حضارة محتضرة كهذه الحضارة ؟ وسط خرائب القيم التى تشبه هذه الخرائب ؟
السيد : ليكن .. ليكن .. المهم أين الخير ؟
العبد : (رافعا صوته) : الخير أن أدق عنقك ..
السيد : (مقاطعا) : كيف تجرؤ على هذا القول ؟
العبد : (مستمرا) :
أو تدق عنقى ..
أن ألقيك فى البحر
أو تلقينى فيه ..
السيد : ماهذا ؟ ماذا أسمع ؟ .
العبد : ما لابد أن أقوله ولابد أن تسمعه .. لقد استمعت حتى الآن ياسيد .. عشرون عاما وأنا أسمع وأطيع .. وعليك من اليوم أن تستمع ...
السيد : عبدى .. اننى احذرك ... سأقتلك قبل ان تقتلنى .. سأرسلك الى هناك قبل ان ترسلنى ..
العبد : لابأس .. أنا راض بهذا .. المهم أن تفعل شيئا ... أى سلاح تختار ؟ بأى شيء ستقتلنى ؟
(يقلب أدوات مختلفة ينتقل بينها بسرعة) .
بهذه الفأس ؟ هذا الازميل الذى طالما نحت به كلماتك ؟ هذه المطرقة وهذا المخراز وهذه المسامير التى لم تستخدم حتى الآن فى عمل مفيد ؟ المهم أن تفعل ياسيد . حتى لو كان هذا الفعل هو قتلى .. تكلم .. تكلم ..
السيد : (يرتج عليه) : لا أصدق .. لا أصدق ..
العبد : بل صدق كل شيء .. لابد ان تتكلم ..
السيد : وماذا تريدنى ان اقول ؟
العبد : تقول كيف تفعل هذا وأين ..
السيد : أفعل .. ماذا أفعل ؟ .

العبـــد : هذا السؤال الأوحد .. تفعل .. تفعل .. تفعل .. حتى ولو كان هذا الفعل هو قتلى .. هل اخترت هذا الازميل ؟ هذه المطرقة ؟ هذه الفأس ؟ . أن تفضل واحدا من هذه التماثيل لتهشمه فوق رأسى .. أم لوحا من الألواح المزدحمة بأشعارك ؟ .

الســـيد : فظيع .. فظيع ..

العبـــد : أم تختار مكانا آخر تتنفس فيه للمرة الاخيرة هواءً نقيا .. على شاطىء النهر مثلا .. أو بعيدا فى الخلاء .. وسط الاحراش التى تعودت أن تذهب اليها فى رحلة الصيد ؟..

الســـيد : ما هذا الذى تطلبه منى ؟ كيف تتصور أن أفعل هذا ؟

العبـــد : المهم أن تفعل شيئا .. هل تؤثر أن أقتلك أنا ؟

الســـيد : تقتلنى ؟!

العبـــد : نعم نعم .. إما أن تفعل أو لاتفعل .. بهذا الازميل ؟ هذه الفأس ؟ هذه المسامير ؟ هذه التماثيل ؟ هذه الالواح ..

الســـيد : (مذعورا) : أيتها الآلهة ! .. أين أنت ياالهى الخاص ؟ الىَّ يامردوخ ..

العبـــد : تعلم انك استجرت بهم فلم يكترث بك أحد .. تعلم انك رفضت أن تقدم لهم الأضاحى أو تمتنع عن تقديمها ..

الســـيد : حقا .. حقا .. لكن ماذا أفعل ؟

العبـــد : أنت وحدك تجيب على هذا السؤال ..

الســـيد : تكلم أنت .. فلم أعد أقوى على التفكير ..

العبـــد : اسمعني اذاً للمرة الأولى والاخيرة .. فلتكن شاهدا على هذه المدينة الميتة .. مادمت لاتستطيع ان تنقذها ، فلتكن على الاقل شاهدا عليها ..

الســـيد : (كأنه يكلم نفسه) : شاهدا عليها ؟ ..

العبـــد : وتخرج من سأمك وملك .. تفعل شيئا بدلا من أن لاتفعل .

الســـيد : وأنت ياعبدى .. ماذا ستفعل ؟

العبـــد : لم أعد عبدك .. ولا أسأل هذا السؤال ..

السيد : (مستعطفا) : تعلم أننى لاأحتمل العيش بعدك ثلاثة
ايام .. تعلم اننى لا أستغنى عنك ..
العبد : أنا أيضا كنت كذلك ..
السيد : كنت كذلك ؟ ! والآن ؟
العبد : الآن لم أعد عبدا لك .. ولم تعد سيدا لى ..
السيد : ماذا أسمع ؟!
العبد : لقد سمعت بالفعل ..
السيد : ولكنه فظيع .. فظيع ..
العبد : المهم الآن ان تبدأ .. أن تكون شاهدا ..
السيد : (مقاطعا) : فهمت .. وأنت ؟ ..
العبد : ماذا ستفعل ؟ حسبتك فى غنى عن هذا السؤال .. سأخرج
الى هذه المدينة .. واذ لم تكترث بى فسوف أمضى الى
القرى والحقول .. هنا أو هناك .. ينتظرنى الكثير .. ينتظرنى
الكثير ..
السيد : وتتركنى وحدى ؟ ألن تعود لسيدك ابدا ؟
العبد : (متهيأ للخروج) : نعم نعم .. عندما لايقول أحد ياسيدى
ولايقول أحد ياعبدى ..
السيد : لك هذا .. المهم أن تعود ..
العبد : عندما تبدأ شهادتك ..
السيد : سأبدأها من الآن .. هأنذا أدون أول كلماتى ..
(يمسك الأزميل .. يبدأ الكتابة ..)
العبد : الآن بدأت تفعل .. الآن يمكننى ان اذهب ..
السيد : قبل أن تعدنى بأنك ستعود ...
العبد : أعدك بهذا .. وأودعك أيضا ..
(يتجه العبد الى سيده .. يمد يده اليه فيعانقه السيد .
يغيبان فى عناق طويل قبل أن يتجه العبد نحو الباب ..)
السيد : الوداع .. لا تنس وعدك ..
العبد : الوداع .. ولاتنس أن تفعل ما اتفقنا عليه ..

السـيد : لقد بدأت بالفعل ...
العبـد : وأنا بدأت قبل أن أبدأ ..
(يضع الفأس فى كيس فيه ملابسه ..)
السـيد : الوداع يا ....
العبـد : الوداع يا .... سيد !

رؤيا ننجـــال
ترتيلة مسرحية فى خمسة مشاهد

- ١ -

(ننجال ، ملكة أور ، فى حجرة نومها . تصحو من كابوس خانق وتدور حول نفسها كالمجنونة . بعد قليل تفتح النوافذ المطلة على المدينة السومرية النائمة فى أحضان اله القمر الشاحب ننّا أو تنهار ...)

ننجـــال : (مذعورة مضطربة الشعر والانفاس والثياب) :

ماذا جرى لى ؟
ماذا جرى لأمى ومدينتى أور ؟
وهذا الذى رأيته الآن ، هل يمكن أن يكون حقيقة ؟
هل دمر ملكى وخربت مدينتى وضاع شعبى المسكين ؟
آه ! مذعورة أصحو من نومى الآن ..
والرؤيا سلبتنى الانفاس وحرمتنى الاحلام ..
زلزال ينفضنى . نار تشتعل فى ثيابى وقصرى وكنوزى ..
بروق ورعود وجيوش السحب السوداء ..
اعصار يقتلع الشجر والبشر والمعابد والبيوت حيات الوادى وعقارب الجبل وجراد الصحراء
راحت تطاردنى من طريق الى طريق .

وأنا أصرخ وأستغيث ، ابكى وأولول :
آه يا مليكتى ننجال !
آه يامدينتى أور !
كيف حدث هذا كله ؟
كيف امكن ان يحدث ؟
(تستريح على اريكة وتلتقط انفاسها ، تنهض بعد قليل
متجهة الى مرآة مثبتة على الحائط وتتأمل وجهها) .
أهذه هى ننجال ملكة أور ؟
أهى التى وضع انليل على راسها التاج وسلمها الصولجان
ونظر اليها بعين الرضا وقال :
لتخرج من فمك أوامر العدالة ؟
الوجه ورقة خريف صفراء ،
والعين حفرة غائرة ،
والجبين شعلة مطفأة
والجسد الناصع كالجدول
غطته الاتربة وملأته أخاديد
لا .. لا .. ليست هى ننجال ! ليست هى ننجال !
ما أنا الا قصبة هشة تذروها الاعاصير
ما أنا الا مركب واهن فى ماء آسن
هجره الصياد وتخلت عنه الريح
(تتجه الى النافذة وتفتحها وتطل منها)
وأنت يامدينتى ...
هل مازلت سيدة المدن وسيدة الأقدار ؟
والاعصار الذى هب عليك الآن ،
هل ابقى على بيت أو معبد أو انسان ؟
سمعته وهو يهدر كالطوفان
والرعود تزمجر كطبول الغزاة المتوحشين
والبروق مشاعل تقذفها الشياطين

لتضىء طريق البرابرة القادمين .
لكنى انظر فى الليل ولا أرى
هل انطفأ الحريق ؟
أمد أذنى كحيوان أعمى
هل سكن الرعد والبرق الى حين ؟
وأنت ياالهى ومليكى وزوجى
انت يانانا الحبيب ...
ارفع عينى اليك فأراك كعهدك
تبتسم كالحكيم العجوز أو الطفل الرضيع
هل تسخر منى ومن رؤياى
أم تنعى أور وملكة أور ؟
آه ! اختلطت العلامات والاشارات
سكتت الآلهة وطويت الواح الاقدار
لكن مازال الرعد يدوى فى أذنى ،
مازال الطوفان يسيل
وللاعصار هدير
(تترك النافذة وتتوسط الحجرة وهى تصرخ :)
ياحراس ! أنتم ياخدمى وعبيدى ؟
من رأى منكم ما رأيت ؟
من سمع ماسمعت ؟
تعالوا الىّ .
احمونى منها واحموا أور
لاأحد يتحرك .. لاأحد يجيب ..
هل مات جميع الحراس ؟
هل غرقوا فى الطوفان ؟
(تذهب الى الباب وتفتحه وتخاطب حارسا لانراه :)
أنت .. أنت !
انه نائم .. الجميع نائمون ..

والكارثة تقع على رأسى ورأس أور ..
أنت .. أنت ... (نسمع صوت الحارس)
- مولاتى ؟! ماذا أيقظك من النوم الآن ؟
- الرؤيا ياغبى .. الكارثة التى تزحف علينا ..
- رؤيا ؟ .. كارثة ؟ أية كارثة يامولاتى ؟
- يفرك عينيه ويتثاءب ..
حين تنام عيون الحراس
ماذا يمنع الكوارث الزاحفة على الابواب ؟
ماذا يمنعها من تدمير البيوت واهلاك النفوس والنباتا
والحيوان ؟
أصرخ فيه صائحة :
- ألم تسمع الرعود ؟
ألم تر البروق ؟
ألم تشعر بالاعصار والطوفان ؟
والجراد الذى هبط علينا من الصحارى والجبال
- الجراد ؟ .. والاعصار والطوفان ؟
البروق والرعود ؟ ..
ماذا تقولين يامولاتى ؟
ماذا تقولين ؟
- أقول ماينبغى أن يفزعك أيها الحارس النوام .
- باقى الحراس كذلك نائمون
- والقصر ينهار وتتناثر أحجاره ؟
- القصر بخير يامولاتى ..
مدد جسده وتغطى بالليل والسماء ..
- والليل يلد الكوارث ياغبى ..
والسماء ترسل النذر والعلامات ..
وملكتكم تصرخ وأنتم نيام .
- نامى أيتها الملكة ..

وليحرسك ويحرسنا الليل ..

ننجـال : شعرت بالحنين الى مربيتى . ذهبت الى حجرة نوْمها الملحقة بجناحي . هاهى ذى نائمة فى فراشها ، ووجهها الطيب الحبيب يشع منه الرضا والامان ، كأنها مستبسلمة لرعاية الهها الخاص . ناجيتها هامسة وأنا أتأمل قسماته الهادئة : حتى أنت يامربيتى ومرضعتى الحنون ! حتى انت لا تفزعك رؤياى ولاتقفين الى جوارى ؟ أنت يامرفئى وميناثي . على أى شاطىء ترسو سفينتى التائهة ان لم ترس على شاطئك ؟

ـ أغلقت الباب ورجعت الى حجرتى .

رجعت وكلى دمع وبكاء
لا أحد يشاطرنى ألمى
لاأحد يرى رؤياى ..
هل يمكن أن تكذب ؟
هل يمكن ان تخدعنى العلامات ؟
وبكائى فى الليل ودمعى
رجفة جسدى كالشجرة فى فك الاعصار
رعشة قلبى كالطير الواقع فى شبكة صياد ؟
والألم الحارق بذراعى وأعضائى
وأنا أتشبث بالدفة والمجداف ..
لا لا لا .. لم تكن مجرد رؤيا
حومت تهاويلها فى قفص الرأس ،
ولا مجرد حلم
تقلب كالطفل الصريع فى تابوت القلب ..
لقد ظللت أياما طويلة أتوقع يوم العاصفة ذاك
يوم العاصفة المقدر لى
وفى الليل وأنا فى فراشى
وعندما حرمت الاحلام وحرمت النسيان

وحط على كاهلى الخوف من دمار العاصفة والطوفان
عرفت أن لا مهرب من يوم العاصفة ذاك
وأن البكاء المر لم يقدر على وحدى
أن البكاء المر قد قدر لبلادى .
صرخت فيه قائلة : عد يايوم العاصفة ! ..
عد الى صحرائك ! ..
ارفع يدك عنى يايوم الهلاك !
إرفع يدك يايوم الهلاك المقدر لى ولبلادى !
بسطت جناحى كالطير
وكالطير طرت فوق مدينتى
توقف أيها الاعصار !
تراجع أيها الطوفان !
رحت ابحث عن شعبى
عد أيها القطيع المشرد فى الجبال والوديان !
عد لتحمى أسوار مدينتك !
ورأيت ويالهول مارأيت :
تحولت أبواب المدينة ومداخلها الى طين ،.
الحقول والمروج العظيمة تراكم فوقها التراب
عادت اشجارها ملعونة الى الغابات
بدت كحقل متفحم بعد الحريق .
مصايد الاسماك اصبحت بركا ومستنقعات ،
البساتين المروية جفت من العسل والخمر
القصور المشيدة تحولت الى خراب
رجع آجرها الطينى الى حالته الاولى في الماء
وفى المواضع التى كانت تقام فيها الشعائر والطقوس
راحت الثعالب التى تأوى الخرائب تهز ذيولها
وعلى الضفاف التى كانت تجر فيها القوارب
لم تنبت سوى الاعشاب الضارة والاشجار الباكية

وفى السهول لم ينبت سوى قصب الدموع
ولم تسع الا الديدان وعقارب الجبل والحيات
وبدلا من المياه العذبة
جرت المياه المرة .
امتلأت طرق المدينة باللصوص
ومن الجبال البعيدة انحدر البرابرة الوحوش
سرقوا الزوجة من زوجها والبنت من أمها
ذبحوا الطفل الرضيع والجد العجوز
والمجاعة فتكت بالجميع .
وأنا التى كنت ملكة على الجهات الاربع
همت على وجهى فى الدروب التى ملأتها الجثث
حاولت أن أستعيد قطيعى الذى طاردته الذئاب
وعندما رأيت ان يوم العاصفة المقدر ذاك
يوم العاصفة العاتية المحتوم قد كتب على شعبى وعلىَّ
رجعت الى خرائب قصرى
وعندما انزويت فى الركن المظلم سمعت من ينادى :
توجهى الى مجمع الآلهة الكبار
اذهبى الى انليل القوى المقطب الجبين ..
أجبت وكلى دمع وبكاء :
كيف وقد كسر جناحاى ؟
كيف وقد قدروا يوم العاصفة ذاك ؟
قال الصوت : لاتيأسى يانتجال !
الى مجمع الآلهة قبل أن يصدر القرار !
وذهبت على جناح الرؤيا الى هناك..
كانوا فى مجمعه المقدس يشربون ويأكلون ويتناقشون
وعندما رأونى اشار اليهم آنو الجليل
آنو سيد الآلهة رفع يده فخيم السكوت .
ركعت أمامهم وبكيت

رفعت يدىّ الفارغتين من النذور والقرابين :
أيها الآلهة العظام
تريثوا قبل أن تصدروا القرار
انتظروا بحق الارملة واليتيم والضعيف والرضيع
ألمح العلامات فى كل مكان
ألقى رسل الدمار على كل الوجوه وفى كل الاركان
لكن ترجوكم ننجال التى سلمتموها الحكم والصولجان
ترجوكم باسم الورقة فى الشجرة والسنبلة فى الحقل
باسم المحراث وباسم المنجل والفأس
باسم المكيال وباسم الميزان ،
باسم المرضعة وباسم الطفل الراقد فى الحجر ،
باسم البيت وباسم الكوخ ولوح الآجرّ
باسم العبد والسيد ، والكاتب والكاهن ،
باسم البناء وباسم الصياد
لا تصدروا القرار ! لا تصدروا القرار !
سكبت دمعى أمام «آنو»
نعيت حالى أمام «انليل» .
قالت لهما دموعى وزفراتى :
ألا يجوز لأور ألا تدمر ؟
ألا يجوز أن تنجو مدينتى من الدمار ؟
إلا يجوز لأهلها الا يذبحوا ؟
أيها الآلهة العظام ! يامن فى أيديكم ألواح القدر المحتوم !
ألا يمكن أن تراجعوا المكتوب ؟
إلا يمكن أن تغيروا الخطة وتعدلوا المسار ؟
وأنت يا انليل ! ياقائد قواد القوة والجبروت !
إلا يمكن أن تبعد عينك عنى
عين الموت ؟

هل يمكن الا تنطق بالكلمة ضدى
كلمة الموت ؟

لكن «آنو» لم يحرك اصبعا فى يده ولا قدمه ،
وانليل المقطب الجبين لم ينظر الىّ ،
لم تبد على شفته بسمة ولا كلمة .
لم يقل آنو : نعم ! فليكن ماتريدين
لم ينطق انليل : «يسرنى ذلك » ..
أيها الآلهة ! هل صممتم على القرار ؟
هل أطلقتم العاصفة وأمرتم ان يزحف الطوفان ؟
والبرابرة أيضا ؟ هل أمرتم أن يهبطوا علينا كالجراد ؟
ماذا أفعـــل ؟
الآلهة صامتون ـ والعاصفة فى الطريق .
الىّ ياشعبى المسكين ..
انتظر ! لا تمت من الرعب واليأس !
لاتشرد فى كل سبيل ،
انتظر ياشعبى المسكين ..
أيتها الأبقار والثيران والخيل والحمير ..
أيتها المحاريث والفئوس والرحى والأنوال ..
أيها الآجرُّ فى الجدران والأعمدة والسقوف
أيتها المراكب والمجاذيف والعربات
أيتها الاشجار الباكية على الغدران
والقصبات الدامعة على الشطئان ..
انتظروا ملكتكم ننجال ..
انتظروا ..
انتظروا ...
(تهب على قدميها واقفة وتجرى مسرعة من الباب ..)

....

- ٢ -

(الوقت قبل الفجر بقليل وننجال حافية القدمين مهوشة الشعر زائغة الملامح- والعيون ، متعثرة بلا دليل على دروب أور)

ننجـــال : اسرعت الى الطريق والرؤيا وحش يطاردنى ، نير يعصب عينى ويمسك بخناقى . كان الغسق الاصفر الجاف كالوردة الذابلة تمد خدودها وعنقها الى الندى والشعاع . والبيوت والابراج والاشجار غاصت فى النوم ولم ترفع غطاءها الاسود البليل . كل شىء ساكن حولى . لكن السكوت وحش مريب ، رحم أو قبر يمكن ان تخرج منه مسوخ ومسوخ ، هل خدعتنى الرؤيا ؟ هل كانت جنينا انتفض فى جوفى ولم يشعر بمخاضه سواى ؟ أم أشباحا رقصت واضطربت وتصايحت فى تابوت الرأس المتعب ؟ اننى أتسمع . لا صوت . أتطلع للسماء . لابروق ولاجذوة نار . بل سحب شاحبة تسبح فوق وجه القمر الشاحب ، وجه الهى «ننا» واله أور . وهذه قدمى العارية تطأ الارض الباردة ولا تغرق فى السيول . اذاً فمازال القضاة الأعلون صامتين . هل نطقوا بالحكم وبقى على انليل الجبار أن يقوم بالتنفيذ ! من يدرى ياننجال ! ربما كان الشرطى الآلهة الأكبر بعد الاسلحة ويجهز الجيوش ويصف مواكب الافاعى والعقارب والتنانيين قبل أن يضرب ضربته . آه ! أم ترانى أهذى من أرقى وبكائى طول الليل على نفسى وعلى أور ؟ أفقت على صوت خلصنى من شبكة أسئلتى ، من عقدة مشنقة جدلتها افكارى

السوداء . كان صوتا ممتدا فى الليل كمركب بعيد يتقاذفه الموج ويتشبث بالدفة والمجداف المسكور ، كطائر بحرى تحاصره العاصفة وتلطمه هامات الموج الهادر ويفتش فى لهفة عن مرفأ أو سفين . لم يكن صوت غضب ولا احتجاج . لم يتردد فيه صدى قوة ولااندفاع . كان عجوزا كحيوان معمر يزحف بنفسه الى مكان يموت فيه ، مرهقا لا أثر فيه لرغبة أو أمل . وسرعان ما وقع بصرى على صاحبه العجوز المرهق مثله . كانت امرأة مثقلة بحمل السنين والاحزان ، وثوبها المسدل على الجسد الضامر المتخشب يشف على الضوء الشحيح عن نخلة عجفاء . وامتد الصوت كحبل ملوى يجهد كي يلتف عليَّ :

الصـــوت : (تردده ننجال نفسها ..) :

يا من تتحلين باكليل من حجر اللازورد أو الياقوت
زين بالأوراق والفواكه والزهور الذهبية
لا تضعى الاكليل على صدرك ،
فعاصفة انليل على وشك الهبوب

إننجـــال : خيل الىّ أنها تكلمنى . شعرت انها تتهمنى . تسللت يدى دون وعى الى صدرى . حمدا لك ياانليل . لم يكن الاكليل على صدرى . لقد خرجت من قصرى عارية من تاجى وزينتى ، من يرانى يظننى خادمة مهملة فى بيت كبير أو امير ، أمة فى معبد آنو أو ننا أو انليل . تلوى الصوت وزحف نحوى .

يامن تقود عربتك المطهمة بأربع حمير
وتجد لتصل بحمولتك الى بيتك القريب
اهرب واترك العربة والحمير
فعاصفة انليل على وشك الهبوب

يامن ترعى قطيعك من البقر والاغنام

وتسوقه الى الحظيرة ليهنأ بالقصب والاعشاب
ويستريح تحت ظلها من لفح الشمس وتعب النهار
أترك القطيع وابحث عن مأوى تختبىء فيه
فقد أوشكت عاصفة انليل على الهبوب

ننجـــال : كانت حبال الصوت تتلوى كالافاعي السوداء وتدور في دوائر كدوامات مؤبدة تطبق عليّ . خرجت من مخبئي وواجهت العجوز وأنا أهتف بصيحة لم تخف الفرحة بصدق رؤياى . أيتها العجوز ! أيتها العجوز ! اذاً فقد رأيت رؤياى . اذن فلم تكن رؤياى وحدى ، لم تدو الرعود ولا زمجرت العاصفة فى سمعى أنا وحدى ، أيتها العجوز ... لكنها لم تحفل بى .

استمرت تقول كأنها لم تر أحدا ولم تسمع شيئا :
يامن خرجت لتوك من رحم الأم
واستقبلت الهواء فى أور بالصراخ والعويل
للموت أتيت ياولدى ، واليه تعود
للعبودية أتيت بعد أن صارت الحرية الوحيدة فى أور
ان ترجع للأم الارض قبل أن تلوث بالآثام وتوضع فى القيود
ولتسرع ياولدى قبل ان تبدأ عاصفة انليل

ننجـــال : هممت ان اصرخ فلم تتفتح بوابة الرعب لينطلق لسانى . حاولت اقول ان الآلهة نفسها قدرت ألا يولد طفل بلا أثم أو خطيئة . لكنها لم تتوقف عن ضرب الوتر المشدود :

الصــوت : الى أين تنظر وماذا تنتظر ؟
وراءك ظلام وأمامك ظلام ،
وعندما تبلغ عمر الشباب وتجتاز عتبة الحياة
ستجد فى انتظارك الجوع والذل والغدر والاحباط
أنج بنفسك ياولدى قبل ان ينفخ انليل فى الابواق ،
قبل أن يهدر الاعصار ويزحف الطوفان

ننجـــال : تقدمت من العجوز حتى كادت أنفى تلامس أنفها المجعد

كالبلحة الجافة . قلت لها فى همس كالفحيح : رأيت الرؤيا مثلى ؟ أليس كذلك ؟ قالت وهى تحول عينيها عنى : ورآها الألوف بعد الالوف . ثم استمرت فى نشيدها تقول :
يامن تحتالون على الفقراء وتظلمون الارملة واليتيم ،
يامن تبخسون الكيل وتغشون الميزان
وتسرقون الارض وتنسون أنها قبر السارق والمسروق
ألم تروا انليل يمتطى صهوات العواصف والرياح ؟
ألم تسمعوا صوته المزمجر فى الجبال والسهول والبطاح ؟

ننجـال : أسرعت أقول قبل أن تختفى من أمامى : أنا سمعته ورأيته أيها العجوز . أنا وأنت قد سمعناه ورأيناه . والآلهة التى قررت المصير فى لوح القدر المقدور ، قد نطقت بالحكم ولم يبق سوى التنفيذ .
تعالى أيتها العجوز . تعالى ومعك الابناء والبنات والسادة والعبيد .
تعالوا نقرأ ما فى اللوح ونفهم الاسباب . قالوا ...

الصـوت : يامن تتأمل النجوم وتكتب على لوح من طين
قصة أور التى دمرها الاعصار وداس عليها التنين
وساقها البرابرة مغلولة الى بوابة الذل المهين
أترك اللوح والمسامير والازميل والطين
فعاصفة انليل على وشك الهبوب
عاصفة انليل على وشك الهبوب

ننجـال : صرخت محاولة أن أوقفها فارتدَّ الىّ الصوت وغاب الشبح المتثاقل فى الظلام .
ناديت عليه ان ينتظر ، سألته ان يدلنى على الفاسدين والمغرورين والمتكبرين والظالمين ولصوص الارض والارملة واليتيم . دعوت أن يضع يده فى يدى ، أن نرفع مع الالوف والالوف ميزان العدل ونقيم بيت الحق فى البلاد ، ان نقف بوجه الاعصار ونبنى السور أمام الطوفان . لكن الوتر

المشدود انسحب كما ينسحب الثعبان الخائف فى جوف الليل ، الليل المطعون بسهم الفجر الطالع فى الافق المغبر الشاسع ، الافق المنذر بالخطر الداهم والويل القادم . وقفت وحيدة على طريق موحش فى مدينة آيلة للسقوط . من يتأملنى لايعرف انى الملكة فى القصر العالى . أتأمل حالى فى غبش الفجر فأنكر أنى الملكة راعية العدل وحامية السَورَ . انى فوضنى انليل وسلمنى التاج ووضع بكفى المَيْزان . وأنا واقفة وحدى انتظر الغضب القادم مع انليل . والصوت الذى سمعته من العجوز يلتف حول رقبتى ويرن فى صدر خاو كالقصر المهجور . وقبل ان اردد السؤال القديم : ماذا أفعل ؟ سمعت الصوت الآخر يسقط كالصاعقة أو الجمر المتقد بنار اليأس علىّ . كأن صاحبه يتقدم على صداه . أدركت من النظرة الاولى أن صوته هو عينه التى تضىء له فى الظلام . أخذ يطلقه من فمه كالشرر المتطاير ثم يلقى قدميه وجسده الضئيل فى أثره . واقتربت منه وحركت يدى امام وجهه . حدقت فى الوجه المحفور المجدور ، فى العينين الغائرتين كقبرين صغيرين . لم يشعر بأن احدا اقترب منه أو تحرك امامه . وانهمرت الشرارات المنقذة كعيون القطط المتربصة فى ركن من اركان الليـــل :

أنت الذى وهبتنى العناء المتجدد على الدوام
دخلت البيت وروحى مثقلة بالاحزان ،
خرجت الى الطرقاتِ وقلبى مفعمَ بالآلام .

ننجـــال : تقدمت منه وتأملت وجهه الجامد كوجه التمثال . قلت وأنا أنظر فى عينيه المطفأتين وقسماته الميتة : تتهمنى ولا أعرف من أنت . بحق الهك إلا أجبتنى وعرفتنى بنفسك ..

الصـوت : أنا الحكيم . لم أقيد مع السفهاء ؟
أنا الذكى لم أعد مع الجهال ؟
الطعام وفير وفى كل مكان ، لكن طعامى الجوع ،

في اليوم الذى قسمت فيه الانصبة على الناس
كان نصيبى هو العناء ..

ننجـــال : أمسكت يده شأن من يريد أن يساعد شحاذا أعمى على عبور الطريق .

أطبقت يده على يدى فشعرت بالدفء يسرى في دمائى . تشجعت وسألته : من هذا الذى سبب لك العناء ؟ سمه لتقتص منه العدالة . صفه لأحضره لقضاة العدل . قطب جبينه ورفع وجهه الى السماء قبل ان يفتح فمه الحجرى ويطلق منه طير السر الغامض .

الصـوت : الرجل المخاتل غطانى بالريح الجنوبية ،
حول كلمتى الصادقة لأكذوبة ،
خان العهد وسلط قوات الشر علىّ
وتآمر ـ وهو المخدوع الخادع ـ هو والاوغاد علىّ
فلم يحبط راعىّ العادل عمله .

قلت له بعد أن عبرنا الطريق وصرنا وحدنا : نطقت ولكن لم تقل شيئا . ألا تسمى الاسم ؟ ألا تصف الآثم ؟

الصـوت :أقف فى حضرتك وكلمتى أنين ،
أريد أن أتكلم اليك
لكن كلامى بكاء ونواح .

ننجـــال : ضغطت على يده وأسررت اليه : أنا أيضا كلمتى أنين . أنا مثلك أبكي وأنوح . لكن بعد قليل يشع النهار على البلاد . بعد قليل تنقطع الشكوى وتجف الدموع ..

الصـوت : ان كان النهار يشرف على البلاد فنهارى مظلم
ان كان الحظ يبتسم لغيرى فقد اختارنى للدموع
وانت يامن تضجرك شكاتى وتحول وجهك عن جروحى
ان كان الجرح النازف في روحى قد خفى عليك
فانظر ما فعل المرض بجسمى
والمس ان شئت قروحى ..

ننجـال : الهك سيخفف عنك ..
الصـوت : بل أهملنى وتخلى عنى ..
ننجـال : أمك تدعو لك ..
الصـوت : بل تندب حظى منذ ولدت ..
ننجـال : مدينتك ستثأر لك ..
الصـوت : وهل ثأرت لنفسها حتى تثأر لى ؟ أنظرى حولك ان كنت قادرة على فتح عينيك . أنظرى حولك لترى الظلم الذى أعمى عينى .
ننجـال : والظلمة .. من هم ؟
الصـوت : ألوف وألوف وألوف .
ننجـال : أين أجدهم ؟
الصـوت : سيرى فى الطرقات . أمضى للاسواق . اذهبى للحقل والمعبد والمتجر والحان ، ادخلى البيوت وانفذى فى الصدور . ألوف وألوف وألوف .
وتسألين عن الظلمة والمظلومين ؟ افتحى عينيك . سيرى فى الطرقات . امضى للاسواق .
ننجـال : نفض يده فى غضب من يدى . واقتحم ستائر الظلام والضباب وهو يصيح :
تقول مدينتك ستثأر لك ..
ومتى يا أور ثأرت لنفسك
والظلمة يا أور ألوف فوق ألوف ؟
سيرى فى الطرقات .. سيرى فى الطرقات .
وامضى للاسواق ... امضى للاسواق .

★ ★ ★

- ٣ -

(ننجال مستندة بظهرها الى جدار معبد انليل . آثار التعب على جسدها المهدود ، ووجهها المنهوك ، وقدميها المعفرتين بالتراب . وقت الغروب)

ننجـــال : تعبت من السيرّ فى الأسواق والطرقات . طفت الحقول وعبرت الانهار ووقفت أمام الاسوار والبوابات . وقادتنى قدماى الى المقابر والجبانات .

فى كل مكان كنت اقول لنفسى :

أور .. يامدينتى أور ..

لا أم لى .. أنت أمى

لا أب لى .. أنت أبى

أهذه هى أنت ياأور ؟

شعبى يذرف الدموع

يلقى بنفسه فى الرغام

ينام كإناء مهشم

وأنت تتكفئين على وجهك وتبكين

أهذه هى أنت يا أور ؟

عندما كنت فى طريقى الى قصر « الانسيُّ» الحاكم رأيتهم من بعيد يدورون ويدورون . سمعت أصوات السياط وهى تلسع الظهور ، ورأيت اجساد العرٰاة المشدودة بالحبال وهى تدور . وقبل ان اتبين ملامحهم تردد فى أذنى أغنية تقول :

دورى أيتها الطاحونة دورى

العبيد حول حجر الرحى يبكون

الزراع خلف المحراث يبكون
الرعاة على مزامير القصب يبكون
دورى أيتها الطاحونة دورى

اتجهت الى المشرف على العمال وسألت : من هؤلاء ؟

- أنت ترينهم ولايرون ..
- ما معنى هذا ؟
- هم عميان . قبض جنود الانسىً عليهم .
- ليعاملوا كالحيوانات ؟
- ليرووا الارض فيخضر الحقل ويزدهر البستان .
- أرض الانسىً ؟
- بالطبع . فهو السيد والكل عبيد ....
- من أمر بهذا ؟
- ما شأنك أنت بهذا أو بسواه ؟

لولا أنك مبصرة لربطتك معهم فى النير .. هيا ابتعدى عن هذا السوط ...

وفرقع السوط يشوى الجلود التى راحت تلمع بسيول العرق وتتأجج بلهيب الشرار . وانسابت الاغنية ترجع الشكوى والانين :

دورى أيتها الطاحونة دورى
دورى أيتها الطاحونة دورى

أه ياأور ! من أمر بجلد الاعمى كالحيوان ؟ من جعل الانسان يهان ؟ مشيت أجر ساقى الى الحقل الكبير . لم أكن فى حاجة الى سؤال أحد . فالحزن يقابلنى فى عيون الانسان والحيوان . والحزن يكشف ماتطويه قلوب الحكام والنبلاء والاغنياء والاعيان :

- استولى على الارض وجعلها ملكه الخاص
- ثيران الآلهة تحرث حقوله
وحقوله هى أجود أرض الآلهة ..

ـ موظفو القصر يأخذون آموال الفقراء
ينهبون حميرهم وشياههم وبيوتهم وبساتينهم
واذا اشتروها منهم اضطروهم لبيعها بأبخس الاثمان
ـ القصر ينتفخ ويزداد ثراء
وأكواخ القصب تزداد فقرا وجوعا
ـ انظرى ! هذا هو قصر «الايشاكو»(١)
وهذا قصر حريم «الايشاكو»
وهذه قصور أطفاله
وهذه قصور حجابه وحراسه وموظفيه ..
ـ هل نظرت في الناحية الاخرى الى الخرائب والقبور ؟
نعم نعم . هذه هى دور الفقراء
تنحنى على الارض وتعانق التراب .
تتوارى من الخجل وتتماسك كالأيتام
الأيتام الذين يبكون فى الظلام ..
ـ هل تعلمين انهم فرضوا الضرائب على كل شيء .
وان جباة الضرائب والرسوم في كل مكان ؟
ـ عندما تزوجت امرأتى دفعت الضريبة
وعندما طلقتها ضاعفوا الضريبة
ـ اذا احضرنا الاغنام لجزها فى ساحة القصر
طالبنا المشرف على الاغنام بالضريبة
والضريبة تسدد بشيقل من الفضة
وهو أغلى من ثمن الرأس من الاغنام ..
واذا ذهبنا للمعبد وقدمناها للسدنة والكهان
مدو أيديهم وطالبونا بالضريبة على القربان ..
ـ هل تعلمين ما يحدث لجارتى الآن ؟
ـ وهل تعلمين أنت من هذا المكان ؟
ـ بل قرأه فى لوح القدر المسطور

---

(١) الايشاكو والانسىّ كلمتان سومريتان تعنيان الوالى او الحاكم

ـ لوح القدر المسطور بيد انليل
رب الحكمة والعدل وحامي أور ..
ـ والراعى المسئول عن الأرملة الثكلى
عن كل يتيم وضعيف وفقير ..
ـ بالطبع . هذا يعرفه كل صغير وكبير .
ـ ها ها ! .. يبدو أن المسكينة ليست من أور ..
ـ ولماذا .... ماذا حدث لأور ؟
ـ ماعادت أور هى أور .
انقلب الحال وصارت ألواح القدر المسطور
يكتبها الانسى مع الكاهن وينفذها الحارس والشرطى المأجور
ـ هذا كفر ، تجديف ، كيف جرؤت على هذا ..
ـ أنا لا أتجرأ .. كيف تواتى الفقراء الجرأة ؟
ولسانى ينطق عما شاهدت العين
ـ شاهدت العين ؟ وأين ؟
ـ فى الجبانة فجر اليوم ...

أسرعت الى الطريق الضيق المؤدى الى الجبانة .. كان الصمت يحتوينى فى ردائه الناعم المخيف مع كل خطوة ، والاشواك تتغرز فى قدمى كلما لاحت الشواهد والاضرحة والمزارات وأشجار الصنوبر والنخيل الثابتة فى اماكنها كالحراس السود أو تماثيل الآلهة تحت وهج الشمس المحرقة . تناهت الىّ أصوات كلام وبكاء وصياح ولغط شديد . ولم يكن من الصعب أنْ اهتدى الى مصدر الاصوات المضطربة ، وان ارى امامى جنازة صغيرة وقف اصحابها عند قبر مفتوح ، وجلست النساء والاطفال برءوسهم المسندة على ايديهم ، والنشيج المتقطع ينفجر كشلال مفاجىء بين الحين والحين . اقتربت من الجمع المحتشد ، بينما وقع بصرى على جثمان الميت الممدد أمام فتحة القبر

فى كفن مغبر فقير . رفعت الارملة رأسها عندما لمحت ظلى يفترش الارض ، ثم أطرقت صامتة . قلت : هذا زوجك . مات اليوم . قالت صبية واسعة العينين : هو أبى . مات من الجوع والاعياء . رفعت المرأة رأسها وحدقت فى وجهى بعينين مطفأتين : بل أنا التى مت مع الايتام . سألتها : ماذا تعنين ؟ نظرت الى وادركت من صمتها انها تقول : وماذا تملكين انت لى ؟ تلفت حولى فوقع بصرى على حشد من الرجال ، تعرفت من بينهم على كاتب يحمل فى يده لوحا من طين ، وشرطى تتدلى من حزامه عصا معدنية ثقيلة يطل من مقبضها رأس ثور حاد القرنين . نظروا جميعا الىّ . كان من الواضح انهم فوجئوا بحضورى وهيئتى ، وربما لمحو على وجهى آثار مجد قديم . قال رجل غليظ الوجه واليد :

ـ نحن لانعترض على دفنه . لكن الاوامر والقوانين ..

ـ الاوامر والقوانين ؟

ـ نعم نعم. لابد من دفع الضريبة .

صرخت الأرملة : وهل تأخرنا ؟ هذا كل ما نملك ..

قال الرجل ذو الوجه الغليظ : لايكفى . لايكفى .

سألت الرجل : ولهذا أرسلتم من يفتشون البيت ؟

قال الرجل والارملة فى وقت واحد : ان وجدوا شيئا فيه ..

سألت مرة أخرى : ويبقى الميت هكذا ؟

أسرع موظف آخر نحيل الوجه واليدين بصورة ملحوظة : الأوامر والقوانين .. تدخلت الأرملة ورن صوتها كجرس خافت معلق فى رقبة شاة عجوز :

ـ هل تعلمين ماذا فعلوا ؟ لم نكد نضع الميت على الارض ، ولم تكد شفاهنا تختم الضراعة لالهة العالم السفلى ان لاتضر به شياطين «الجالا» بالسياط ولاتمرغه فى الوحل والتراب ، حتى ظهروا كجيش من الغزاة المتوحشين انقضوا

علينا وعلى الميت ، منعونا من وضعه في هذا القبر الذى كلفنا مؤونة شهور ـ

قلت : ومن هؤلاء ؟ من أرسلهم ؟

ردت الارملة ساخرة : تقولين من ؟ كأنك غريبة عن أور ..

قلت أدارى خطئى : هم جباة الضرائب والرسوم ؟

قالت الارملة وهى تشير بسبابتها اليهم واحدا بعد واحدا ؛

ـ بل حشد من الذئاب يسمونهم الموظفين والمحصلين والمرابين والمتطفلين .

لو كان لدموعى ثمن لتقاضوا عليها الرسوم . لو دموع اطفالى وحسراتهم تباع لأسرعوا بدسها فى الجيوب والاكياس . ومع ذلك نهبوا ما معنا من الخبز والنبيذ ، بعد أن حضروا للبيت مساء وزوجى يحتضر وسلبونا المخزون من الغلة والجعة والشعير ..

قلت وأنا أقلب عينى فيهم : ومازالوا ينظرون مايتمخض عنه البحث والتفتيش ...

قالت الارملة قبل ان يذكرها أحدهم بالاوامر والقوانين : ويظل المسكين

هكذا حتى يرجعوا خائبين .

ضحك أحدهم وكشر عن نابه : لاهو من أهل الارض ولا العالم السفلى ..

مرت أصابعى مسرعة على ذراعى وأذنى وصدرى . وفى لمح البرق كنت أناولهم قطعة من الحلى الذهبية لم أعرف حتى الان ماذا كان النقش المرسوم عليها . تكاليوا على اليد التى وضعتها فيها وصاحوا كالخنازير وأنا أعطيهم ظهرى واسرع على الطريق :

ـ ذهب .. ذهب من مقبرة الملكة ننجال [١] ..

ننجـــال : آه يا أور

هل انت مدينة اور [٢]

والذين اقسموا القسم امامك ياملكة أور ..

لماذا خانوا العهود ونكثوا الوعود ؟
لمَ قلبوا ميزان العدل
وهدموا الناموس ؟
كان المعبد والقصر والحقل والبستان ملكا للآلهة
والآلهة عندما خلقت الانسان من الدم والطين
طبعت صورتها عليه وقالت :
لم تخلق الا لتخدم الآلهة وتعبدها
فلماذا جاء «الانسى» ووضع الآلهة والبشر فى خدمته ؟
لماذا استحوذ المشرف على الحقول على محاصيل الحقول ؟
واستأثر ناظر الحظائر بالماشية والقطعان
ونهب رئيس الشرطة حق الأرملة واليتيم
وانتشر الزبانية من حدود البلاد الى البحر الاعلى
ومن البحر الاعلى الى حدود البلاد ؟ ..
آه يا اور !
لماذا أكل الجميع لحم الجميع
واستعبد الجميع الجميع ؟
وأنت يانتجال ، ياملكة آور ..
يامن وكلك «انليل» عنه لاقامة العدل فى البلاد لماذا سقط من يدك الميزان
وفى التراب وقع السيف والتاج والصولجان ؟
لماذا صدقتهم وتركتهم يحكون لك القصص والاساطير :
الحاكم والوزير ، والقائد والناظر ، والمشرف على الحقول والمصايد والبساتين ؟
وبقيت بقصرك حتى باع الأب أولاده
وسلم الرجل أفراد عائلته للدائنين
وصار الرعاة سجانين والرعية مساجين
ماذا أقول للطفل حين ينظر فى عينى وتقول دموعه :
ولدت فى آور وليتنى ما ولدت فى اور ..

وبعد آن كنت أعاقب المذنبين والمجرمين والاشرار
وأمر برجم السارق والمجرم اللئيم
وأرضى قلب إنليل بالسكائب والأضاحى والقرابين
أصبحت أطوف شوارع آور فلا يعرفنى العبد ولا الأمير
آكلم الناس فيحسبوننى خادمة أو بغيا فى معبد انليل
هل يرضيك ماحدث لأور يا انليل ؟
هل هذا هو غضبك على آور وملكة آور ؟
كثرت علامات الشؤم فى كل مكان
فسرها يا انليل .
قل كلمتك تكلم ..
يامن استند من التعب على حائط محرابك
ساعدنى ، ساعد أور
انى أتضرع لك :
إرفع غضبك
أوقف اعصارك
وافعل بى ماشئت
فأنا خادمة لك
دمرنى أو أهلكنى
لكن لاتهلك أور ..
لكن لاتهلك أور ...

★ ★ ★

- ٤ -

(فى معبد انليل . ننجال تقف باكية مشعثة الشعر فى المحراب المقدس امام تمثال ضخم للاله انليل ..)

ننجــال : كلمنى يا انليل
يامن كلمتك مقدسة ،
وكلامك لايتبدل ،
رد على أسئلتى الحيرى ..
هل تذكر يوم وضعت على رأسى التاج وسلمتنى الصولجان
وأتمنتنى على القوانين المقدسة
وكشفت عن أمرك الذى هو كلمة قلبك ؟
بكلمتك فاضت الأنهار بالماء ،
ووضع سمك البحر بيضه فى أدغال القصب ،
وبنت طيور السماء أعشاشها على الأرض الفسيحة .
وجادت الغيوم السائرة بمائها
ونمت الاعشاب والنباتات فى السهول
وازدهر القمح الوفير فى المراعى والحقول .
يومها قلت «لأور» وأنت تباركها :
أيتها المدينة الموفورة الزاد
أيتها المدينة العميقة المياه ،
الراسخة كالثور القوى الثابت
أنت يامنصة خير البلاد .

خضراء أنت كالجبل ،
وارفة الظلال كالغابة ،
ليرتفع اسمك الى قلب السماء
وليعل مقامك فوق الاقطار
ليبحر فى أعيادك السمن واللبن
ولتجلب مخازنك السعادة والأفراح
هذا ما قلت يا انليل
يوم اتخذت آور مسكنا لك ،
وباركت أسرابها وقطعانها ،
وبيوتها ومعابدها ،
وجعلتها بلدك المقدس المختار ،
فلماذا تأخذ كلمتك وتتركنا للصمت ؟
لماذا جفت الانهار ،
وذبلت المراعى والحقول ،
وهجرت سماءنا الغيوم والأطيار "
كلمنى يا انليل ..
أيها الراعى المبجل الجليل ..
ويوم وضعت فى يدى الميزان
وقلت لي يانتجال :
كونى راعية الارملة واليتيم ،
كونى مأوى الضعفاء وملاذ الفقراء ،
أطردى الاشرار والسيئين ،
أويت فى حضنى الفقير واليتيم
واسيت الارملة والمسكين ،
نصبت الميزان وأوقفت أمامى الصالحين والطالحين
وبجانبى وقفت الالهة «نيدابا» الهة الكتابة والحساب
تنقش الاعمال وتسجلها على الواح الطين
ويشهد عليها «خاى» مع شهود عديدين

سلمت القوى للضعيف ،
وعينت المكان الذى يهلك فيه الطغاة ،
نفذت الى قلوب الاشرار
وعاقبت من سلك سبيل العدوان
من تخطى الحدود ونقض العهود ،
أدبت من اغتصبت يده ما لايملك ،
من نظر نظرة الرضا الى مواطن السوء ،
من بدل الوزن الصغير بالوزن الكبير
والكيل الصغير بالكيل الكبير ،
من أكل ما ليس له ولم يقل أكلته ،
ومن شرب ما حرم عليه ولم يقل شربته .
منعت رجال السلطة من أن يقترفوا إثما
فى حق يتيم أو أرملة أو مسكين ،
حرمت على تابع الملكة أن يقبض على الرجل الاعمى ليروى حلقه بالمياه ثم يحرمه من الطعام
ويحرم حماره من الماء ،
فرضت على السارق أن يرجم بحجارة كتب عليها قصده الشرير ،
وأمرت ان تعلق الممتلكات المسروقة على البوابة العظيمة
يستدل عليها مالكها الشرعى ويستردها ،
والمرأة التى تخون رجلها والرجل الذى يخون امرأته
كانت أسنانهما تهشم بآجر محروق ،
وكان هذا الآجر الذى كتب عليه ذنبهما يعلق على البوابة العظيمة .
أمرت ياانليل ونفذت أوامرك
لم أسمح للجائر والظالم والخوان
أن يقف أمامك ،
لم أسمح للمتكبر والمتسلط والغدار

أن يفلت من شبكتك ،
وفاض الخير والرخاء على أور
واعتز الانسان بالخير والصدق
والاستقامة والامانة
والرأفة والعدل والاحسان .
لكنك حولت وجهك عنا يا انليل ،
سكت وقطبت جبينك كما تقطبه الآن
وأجزت أن يفلت الظالم الشرير من شبكتك
ويضع أور وساكني أور فى جوفه :
فالمشرف على العمال يستغلهم فى أعماله ،
والموكل بالملاحين يغتصب السفن لنفسه ،
ورئيس الرعاة يسلبهم الحمير والماشية والاغنام ،
وكاهن المعبد يستحوذ على الاضاحى والسكائب والقرابين
ورئيس الشرطة يتقاضى الفضة حتى على ترديد الانفاس
وجباة الضرائب المنتشرون من البحر الى أقاصى البلاد
يحصلون الرسوم والأقوات حتى من الاموات
وأنا التى تعرف قلب الأرملة واليتيم ،
وتنشد العدالة لأفقر الفقراء ،
أنا التى تعرف ظلم الانسان للانسان
أسألك يا انليل وأسأل نفسى :
ماذا شوه هذا الانسان ؟
ماذا حوله ذئبا يفترس أخاه ،
كلبا مسعورا يغرز فيه نابه ؟
ماذا يجعله يتلذذ بالغدر وسوء النية ؟
يرتكب الذنب الفادح ويبرر ذنبه ؟
يظلم باسم العدل ، ويضطهد لاجل الحرية ؟
اتقول بأنى قصرت ؟
أتقول لزمت القصر ونمت ؟
لا لا لا . انا ما قصرت

أنا يا إنليل عجزت ..
قالوا أور بخير ، صدقت .
حتى امتدت ألسنة النار الى عتبة قصرى حرقت بابى وثيابى
فأفقت
لكن بعد فوات الوقت
بعد فوات الوقت .
قل يا انليل ، تكلم ،
لا تتركنى فى هذا الصمت .
يا راعى الضعفاء وحامى الفقراء ،
يا من تسلمنا العدالة من يدك
كما تلقينا النور من الشمس
هل آن لنا أن نتخبط فى الليل ؟
هل هبطت فى هذا الليل شريعة الظلام ؟
قل كلمتك ، تكلم .
من يرفع يده غيرك
كى يوقف مرتكب الاثم
ومنتهك الحرمة ؟
قل كلمتك تكلم .
يامن تمسك لوح القدر
وتنفذ عينك من حجب الغد
هل قررت قرارك أن تهلك أور ؟
هل صممت ولم يبق سوى نطق الحكم ؟
الأمر بيدك ، ولك ما شئت
عاقبنى ، بدد ملكى
أهلكنى إن أحببت ،
لكن لا تهلك أور ..
لكن لا تهلك أور ..
هل يرضيك ان يهجم علينا البرابرة ذوو اللحى الطويلة

والقلوب القاسية من الجبال الشمالية ويغطو أرضنا كالجراد ؟ ان كان يرضيك ان يسوقنى «سرجون» جديد مغلولة العنق الى بوابة انليل ، ان كان يرضيك آن آقتاد من خشبة تطوق رقبتى الى البوابة العظيمة لألعن واضرب بالسوط ويبصق على كل الذين اعبر بهم في طريقى الى الاسر آو الموت ، فهل يرضيك آن يجرى هذا لأور وشعب آور ؟ هل يرضيك آن تخرب مدينتى وتهدم آسوارها وييتم آطفالها ويغسل البرابرة اسلحتهم بدماء ابنائها وبناتها ؟ هل يرضيك ان تقتلع اسس بيوتنا وجذور آشجارنا ونحرم من بذورنا ؟ هل يرضيك ان تؤخذ الزوجة من زوجها ، ويذبح الرضيع على حجر آمه ومرضعته ؟

يا انليل تكلم !

قل كلمتك ! تكلم !

هل هذا هو اعصارك

رعدك ، برقك ، والطوفان ؟

هل صدقت رؤياى وحط علينا الهول ؟

ارجوك تكلم !

قل يانتجال :

بل هى وهم .

أو هى أضغاث الاحلام .

ياانليل تكلم

لاتتركنى فى هذا الصمت .

حول وجهك عنى ،

انزع ملكى

آو عاقبنى بالموت ،

لكن لا تسكت عنى

لا تتركنى فى هذا الصمت ،

لا تتركنى فى هذا الصمت ..

★ ★ ★ ★

- ٥ -

(فجر ازرق جاف ، فى الأفق لمعان ينبىء عن وهج نهار شديد القيظ . ننجال تقف تحت «البوابة العظيمة» فى اطراف اور . تستند الى جدار وتحدث نفسها بينما تظهر اشباح رجال ونساء وصبية واطفال يفدون الى الساحة من كل جانب دون أن تشعر بهم ..)

ننجـــال : آه ياننجال ..

في صدرك تتصارع نفسان
واحدة تدعوك : اذهبى للبعيد البعيد
هناك خلف الأفق ووراء الحدود
ولا تفكرى يا ننجال ابدا ان تعودى
والاخرى تهتف بك : بل تبقين ياننجال فى أور
تبقين لتواجهى الشر المستطير
وتقضى على سارق الأرملة واليتيم والضعيف والفقير
والظالم والكاذب والنمام والمغرور
آه يا ننجال ..
تحت قدميك يمتد طريقان
تضطرب وتتعثر تحتهما خطوتان :
تريد احداهما ان تأخذك الى اعدائك
فى «أوما» أو «أكد» أو «عيلام»
وهناك تصرخين أمام عرش الملوك القساة
ساعدونى فقد عجزت عن حكم البلاد
سقط الميزان من يدى وفى الدم والوحل والتراب
مرغه السفلة والجهلة والانذال والاوغاد

آه يا ننجال ..
فى حلقك يحتبس ويتقابل صوتان
احدهما يعول وينوح : سقطت أور ..
سقطت أور ولا أمل هناك ولا نور ..
والآخر ينذر ويحذر ويقول : لا .. لم تسقط آور ..
ولن تسقط آور
لن يهدم هذا السور
ولن تقتلع من الأرض جذور ...
آه ياننجال ...

عندما حضرت الى هذه الساحة كان الليل قد بدآ يغطي آور بستاره الكئيب . خيل اليك إن الرؤيا تأخذك الى الماضى وتطوق حاضرك المختنق ثم تطير بك على جناحى نسر أسود الى الغد المجهول . ورأيت نفسك فى الماضى عندما كان موكبك يبدأ من هذه البوابة العظيمة ، ليعبر الساحة تحت الاقواس المزينة بالرياحين وباقات الزهور ، ووسط الهتافات والدعوات بالنصر والبشر والرخاء ليمر بشوارع وبيوت آور . كان مهرجان الاحتفال يبعث الأرض والخصب هو مهرجان ملكى المتجدد وعدالتى الساهرة بالليل والنهار . وتذكرت الميزان المنصوب فى الساحة ، وجثث الاشرار المشنوقين على الاسوار والاعمدة والاشجار ، والكتبة المشغولين بوسم ذنوبهم على جباههم ، وتدلية مسروقاتهم واثار جرائمهم وبقايا أسلحتهم من أقواس البوابة وأركانها ، ثم تذكرت خاتمة الحفل وذروته فى معبد انليل ، وأنا أحمل الشاة السمينة والحمل الوديع على صدرى واقدمه لكبير الكهنة والحجاب ليسرع بتقديمه مع السكائب والقرابين . كانت الرءوس السود تطرق رهبة أمام الميزان ، والقلوب تخشع إجلالا للناموس ، والسيئون والاشرار يرتجفون لمرأى التاج والصولجان ..
آه ياننجال ...

وماذا رأيت اليوم وأنت تقطعين ميادين وطرقات أور ؟ ماذا قلت للتائهين الذين وجدتهم فى هذه الساحة من جائعين وضائعين وعاجزين :

- ياأبنائى .. لِمَ تسيرون فى الليل الاعمى كأنكم لاتبصرون ..

- اسألى آور .. فقد ضيعتنا أور ...

- ياأرباب الحرف .. لماذا تقفون هنا ولاتعملون ؟

- أصبحت حرفتنا الوحيدة هى التسول فى الطريق ..

- هل يتسول من يتقن عمله ؟

- لايتسول الا من يتقن عمله ... مادامت صنعته لا تملأ جوفه .. مدام الانسىُّ والشرطي والمشرف والناظر والنبيل والكبير يسرقون .:. مادام الاتقان يجر عليه الحسد والهوان ... ؟

- وممن تتسولون والكل جائع وفقير ؟

- ممن أجاعنا وأفقرنا ..

- من تقصدون ؟

- قد يتعطف عليناموكب الانسىُّ العابر ببعض الفضلات .. قد يلقى الكهنة من فوق جدار المعبد بنفايات القربان .. واخيرا ..

- اخيرا ؟ ..

- قد يأتى الحل على أيديهم ..

- أيدى من ؟

ويقهقه العاطلون والمتسكعون والعجزة المكتئبون والمشلولون والمجدورون والمجذومون الذين يتجولون فى الساحة أو ينتظرون .

ويقول واحد منهم :

- ألم تعرفى بعد ؟

- ألم تسمعى

- الم تشعرى ؟

- ماذا أعرف أو أسمع وبماذا أشعر ؟ ..

وتعلو ضحكاتهم وهم يسعلون ويبصقون : البرابرة

قادمون ..
البرابرة قادمون ..
وتدور الفكرة فى راسى وتدور . يوشك أن يخرج من حلقى الصوت الصارخ ويقول . أنا ننجال ملكتكم ، وملكة آور ..
ضائعة وسط الساحات
وتائهة بين الدور
وادور أدور أدور
كأنى قطعة صلصال
فى يد فخار مخمور
من يحضر ثوبى الملكى
وسيفى المشهور ؟
من يضع التاج على رأس
اثقلها الحزن
فسقطت كالطير الهالك
فى شبكة قدر مستور
قدر ينذر بالويل القادم
والخطر الداهم كالديجور
ياأبناء أور وبنات أور ! ها انا أتقدمكم الى البوابة العظيمة . أجلس على كرسى الملك وآضع التاج على رأسى . اجلس منتظرة وفى يدى مفتاح المدينة . هل هم قادمون ؟ نعم . لابد انهم قادمون . من الجبال الشمالية كالجراد زاحفون . وعندما تبدو جيوشهم من بعيد وهى تثير سحب الغبار والدمار الزاحف على آور ، سأقول فى نفسى كما تقولون : آه ! انهم قادمون . انهم قادمون . ربما يكون حضورهم هو احد الحلول ...
وتمر أمامك المرأة المثقلة بحمل السنين والاحزان كأنها نخلة عجفاء ويتمدد صوتها القاتم ويتلوى كحبل يلتف عليك :

يامن تضعين التاج على راسك
وفى يديك السيف والصولجان
اخلعى التاج والمجد والشارة والوسام
واهدمى خيمة الملك والأبهة والسلطان
فالبرابرة على وشك الوصول
البرابرة على وشك الوصول
يامن تقود عربتك المطهمة بأربع حمير
وتجد لتصل بحمولتك الى بيتك القريب
ابحث عن جدار تأوى اليه واترك العربة والحمير
فالبرابرة فى الطريق وهم على وشك الوصول

يامن تقف على عتبة الحياة وتنظر للبعيد البعيد
فترى الظلام وراءك وامامك
ولا شيء غير الحاضر المنكود والغد الموءود
تعال الى البوابة العظيمة
لتكون فى استقبال المواكب والحشود
فالبرابرة - كما سمعت - على وشك الوصول
والبرابرة - كما علمت - هم احد الحلول

آه ياننجال !
لكن النفس الاخرى تقفز فى الصدر كوحش مسعور . تثبت وتتحدى وتثور . والقدم الاخرى تقف وتتصلب كالحجر الراسخ فى فتحة نفق مهجور .
والصوت الآخر يرتفع ويزعق ، ينذر ويحذر يشكو ويقول :
ايتها الملكة التى هدمت مدينتها ، كيف تقدرين الآن على البقاء ؟
ايتها المرأة التى هلكت بلادها، كيف ابقى عليك قلبك ؟
بعد أن هدمت مدينتك ، كيف تقدرين على البقاء ؟
وبعد ان دمر بيتك ، كيف ابقى عليك قلبك ؟

ذوو الرءوس السود تحول غناؤهم الى بكاء ،

حقولهم وبساتينهم صارت أرضا جرداء ،
مدينتك التى كانت مدينة الخير والصلاح أصبحت خرائب
بيتك الذى كان بيت العدل سلم للمغول
كيف أبقى عليك قلبك ؟
كيف تقدرين على البقاء ؟

الخادم لم يعد لك الآنية المقدسة
عندما حلت أعيادك لم يحتفلوا بالاعياد على طريقك الذى
اعد للمواكب والعربات تنمو الاشواك
وتشكو العجوز المثقلة بالاحزان ويئن الأعمى المتجدد العناء
آه ! كيف أبقى عليك قلبك ،
كيف تقدرين الآن على البقاء ؟
ننجال يامليكتى ، مدينتك تنتحب بين يدى آمها ،
كطفل يتيم فى شارع خرب ، تبحث عنك أور ،
والبيت الصالح المشيد بالآجر يمد يده اليك
كرجل فقد كل شىء وهو يقول :
الى اين تتركيننى ، كيف ابقى عليك قلبك ؟

غادرت البيت يامليكتى ، غادرت المدينة ،
خرجت الى الساحات والطرقات ككاهن طرده الهه
وراح يمشى تائها فى العراء
كيف طاوعك قلبك أن تقفى عند البوابة العظيمة وتخاصمى
المدينة
كيف تقدرين على الجلوس هناك فى انتظار البرابرة القادمين
هل يرضيك ان تذبح الارملة واليتيم والضعيف والفقير ؟
هل يرضيك أن يخطفوا الزوجة من زوجها والابنة من أبيها ؟

ننجال ، أيتها الأم والمليكة ،
عودى كثور لاسطبلك ،

كشاة لحظيرتك
كطفل صغير لحجرة نومك ..
ايتها العذراء ، عودي الى بيتك ..
ياراعية العدل عودى الى بيتك وارفعى الميزان .

وفجأة ياننجال وانت غارقة فى رؤياك ،
فجأة وانت تنتظرين البرابرة وزحف الاعصار والطوفان
فجأة يجلجل صوت صارخ كأنه صوت الهك انليل :
طاردى السيئين والاشرار !
طهرى أور من اللصوص والاوغاد ! عودى أيتها الشاردة الى قصرك !
عودى أيتها العذراء الى بيتك !
ورأيت جموعا تتزاحم مقتربة كالامواج الهادرة . وعندما اقتربت من البوابة العظيمة لمحت على رأسها وجها أعرفه . كان هو وجه مرضعتى ومربيتى العجوز . أعرف هذا الوجه الطيب الحبيب ، بل أوشك فى همى وحزنى الا أعرف سواه أو أثق بسواه . لكن ماذا تحمل فى يدها المرتفعة فوق زحام الحشود كالعلم الخفاق ؟ كان فى يدها السيف والتاج والصولجان . تلمع فى وهج الشمس الساطعة كأنها شموس وكواكب صغيرة .. وتردد الصياح الحاد ودوى كالرعود .
ننجال ! عودى الى مدينتك
مليكتى ! عودى الى أور
إن كان اللصوص والاوغاد فى كل مكان
إن كان هذا هو غضب انليل
ونذيره بالسيل الماحق والطوفان
فها هو صوت انليل راعي العدل والأمانة والامان
يرتفعُ من قلب اليتيم الفقير والعامل والزارع والكاتب المهان
يعلو فى أذنيك ويعلو ويصيح :
عودى ياننجال !

عودى يانなجال !

باسم الحقل وباسم السنبلة الخضراء ،
باسم المحراث وباسم المركب والمجداف ،
باسم الاشجار وباسم الاسوار ،
باسم الماضين وباسم الآتين .
عودى يانذجال الى آور وردى آور الى آور ،
خذيها من فك الأفعى والتنين
واعطيها للطفل الضاحك للمستقبل
ولكل شريف وأمين عودى يانذجال !
ها هو سيفك ، تاجك ،
مدى يدك ليضع الشعب الحكمة فيها والميزان
عودى يانذجال الى آور
قولى معنا : لن تسقط آور
لا لا لا .. لن تسقط آور ...

قمت مذعورة من مكانى كأنى حيوان ضرب على رأسه أو قطع لسانه بسيف المفاجأة . زاغت عيناى ولم أفهم شيئا مما يدور حولى . وانحسرت ظلمات الرؤيا شيئا فشيئا وتسللت أشعة الضوء الى صدرى ورأسى وعينى ففتحتهما على الطوفان الهادر من حولى ، والاعصار المدوم فى سمعى . وامتدت يداى الى يد مربيتى لتستقبل الحب ومعه التاج والسيف والصولجان والميزان . وقبل أن ينفتح فمى ويخرج منه الصوت الغاضب كالاعصار شعرت بجسدى محمولا فوق الطوفان .

شكرا يا انليل ! هذا هو اعصارك والطوفان . ولابد أننى قد نطقت وصحت وصرخت ، اذ راح الصوت يهدر ويزمجر ويزحف مع الموكب الزاحف على أور :

لا لا لا .. لن تسقط اور
ابدا لن تسقط أور ..
لن تسقط آور ... «

فهـرس

كتاب الهلال القادم

دع الخجل
واستمتع بالحياة !

بقلم : الكاتب الفرنسى الشهير

بول جاجو

ترجمة : محمد عبدالمنعم جلال

يصدر ٥ يولية سنة ١٩٨٩



الهلال

مرآة العقل العربي

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

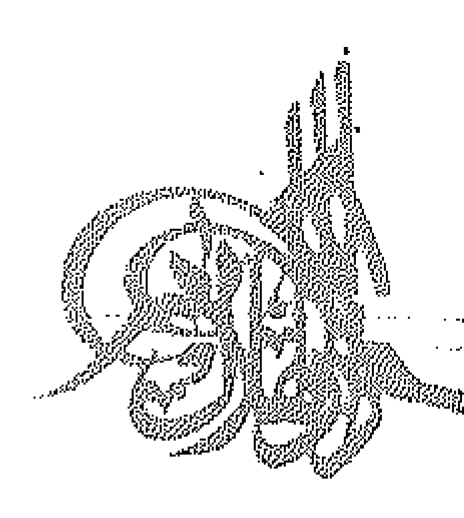
والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول . الصفاة ـ ص . ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس 92703 Hilal.V.N

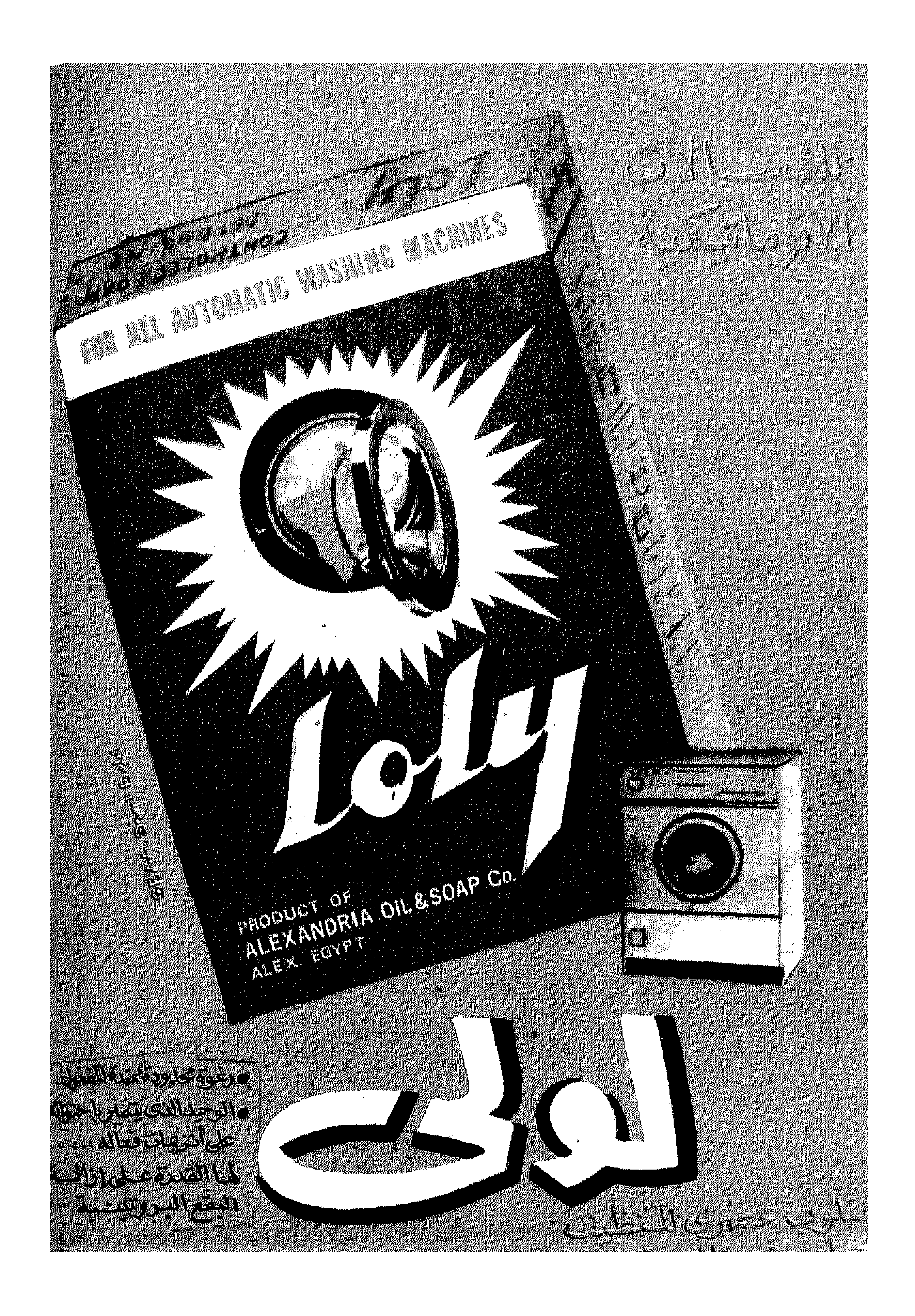
رقم الايداع ٤٢٨٢ / ٨٩
الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ ـ ١١٨ ـ ٤٢٣ ـ ٧

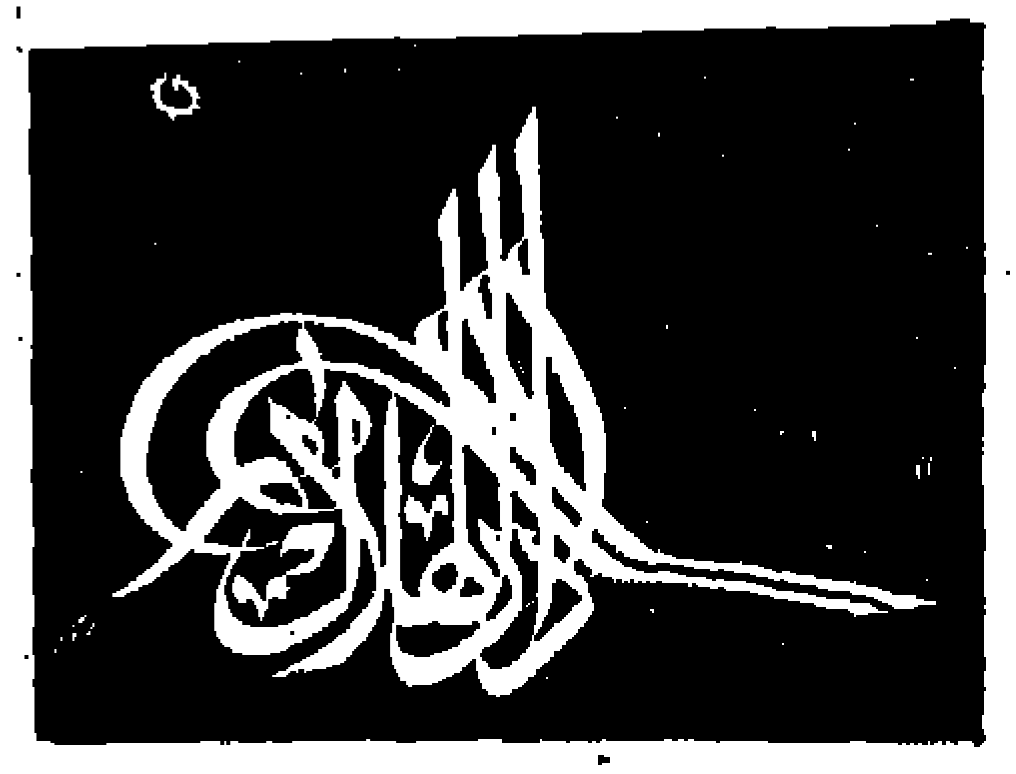


من وحى المجتمع المصرى المعاصر

د. سيد عويس

٢٥٠ قرشا


للغسـالات
الاتوماتيكية
FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT
لولي
• رغوة محدودة مثالية للغسل
• الوحيد الذي يتميز باحتوائه
على أنزيمات فعاله ....
لها القدرة على إزالـة
البقع البروتينية
أسلوب عصري للتنظيف



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٣ ذو الحجة ١٤٠٩ - يوليو ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عباد

اسعار [illegible] الممتاز فئة ٢٥٠ قرشا للقارىء فى مصر :ـ

سوريا ٩٠ ليرة ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، لبنان ١٠٠٠ ليرة ، دبى ١٠ دراهم ، الاردن ١٥٠٠ فلس ، ابو ظبى ١٠ دراهم ، الكويت ٧٠٠ فلس ، مسقط ١ ريال ، العراق ٢٥٠٠ فلس ، غزة والضفة ١,٥٠ دولار ، السعودية ٨ ريالات ، لندن ١٧٥ بنسا ، الدوحة ١٠ ريالات .

الغــــلاف بريشــــة
الفنان : محمد أبو طالب

من وحي المجتمع المصري المعاصر

بقلم

د. سيد عويس

دار الهلال

« الإهــــداء »

إلى الذين يجعلون من تجارب الحياة نبراسا لهم ..

فيرون الغث فى طريقهم فيـدوســونـه بـأقـدامهم .

ويتمسكون بكل ماهو ثمين فى حيـاتهم ، « المحبـة والأخوة والوفاء » .

دكتور : سيد عويس

« المقدمة »

الكتاب الحالي يتضمن بحوثا ودراسات علمية تعكس الكثير من سمات المجتمع المصرى المعاصر ، هى أى هذه السمات عبارة عن تجارب حية خاضها أعضاء هذا المجتمع ويخوضونها فى حياتهم اليومية ، وذلك بقصد فهم أساليب السلوك فى محيطهم ومحاولة تفسير هذه الأساليب .

وإننى ارجو من القارىء الكريم لموضوعات هذا الكتاب أن يقرأها ككل دينامى ، وأن يتأكد اننى لم أجرؤ على تسجيل كل سمات المجتمع المصرى المعاصر ، لأن هذا التسجيل يقتضى مجلدات ومجلدات ، إن غاية ما صبوت إليه أن أعرض بعض النواحى فحسب ولم يكن فى وسعى أن أعرض كل النواحى .

ولعل قارىء كتبى المنشورة وغيرها من الدراسات والمقالات أن يعلم علم اليقين اننى منذ أن بدأت التحدث عن المجتمع المصرى لم اتمكن من التحدث عن كل نواحيه ، فهذا المجتمع فى ضوء واقعه عميق عمق المحيطات ، وفى ضوء تاريخه نجده حافلا بكل أنواع الحوادث والحادثات ، وفى ضوء علاقاته مع الدول الشقيقة من المحيط إلى الخليج وعلاقاته مع الدول النامية والمتقدمة نلاحظ التشابه كما نلاحظ التفاوت بينه وبينها ، إن هذا المجتمع ، كما ذكرت فى ما نشرت من قبل ، مجتمع متميز وفريد فى سماته وملامحه ، فهو أصل حضارة الإنسان منذ أن وجد الإنسان ، ونلاحظ أن القيم الاجتماعية التى صدّرها إلى العالم قد نبتت فى تربته الثقافية الاجتماعية ، وحتى المؤسسات التى لايقوم بغيرها

حكم أو حكومة استوردتها الدول الأخرى ، وجامعاته : « طيبة ومنف وأون » كانت قبلة الفلاسفة والحكماء والعلماء جميعا ، سواء أكان هؤلاء من الأجانب أم من أهالي البلاد .

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أنني لا أغازل أو أتودد إلى المجتمع الذى ربانى وعلمنى متفاخرا أو متعاليا ، ولكن حقائق مراحل التاريخ التى مر بها هذا المجتمع فى خلال حقبه وحتى الآن تثبت ما أذكره ، ويكفينى أن أوضح مثلا أذكره كثيرا فى محاضراتى ألا وهو أنه على الرغم من ألوان القهر والمعاناة والحكام الأجانب العبيد (المماليك مثلا) وغير العبيد ، وعلى الرغم من الحروب التى خاضها أبناؤه منذ « الملك أحمس » وحتى يومنا هذا ، وعلى الرغم من الخيانات التى حاكها الموتورون ضد مصر « هيردوت + لين + دليسبس + لورنس + بادو + كليلاند وغيرهم وغيرهم) - فإن مصر لم تتأثر وبقيت خريطتها على الكرة الأرضية شامخة لا تزال .

إننى لا أغازل أو أتودد إلى المجتمع المصرى ولكنى رضخت لما أوحاه إلى من موضوعات تيسر لى أن أسطرها فى ثنايا الكتاب الحالى ، ولعلى بذلك أن أوفى بعهدى لهذا المجتمع فأكون وفيا له ما حييت مثل ما كنت فى الماضى ومثل ما سأكون فى المستقبل القريب أو البعيد .

ه

وأرجو أن يلاحظ القارئ الكريم أيضا أن الموضوعات التى يضمها الكتاب الحالى هى بحوث ودراسات علمية قمت باجرائها أو الاشراف على اجرائها ، وقد اخترت موضوعات هذه البحوث والدراسات فى ضوء خبراتى المنتظمة ، واعتبر نفسى مسئولا عن المنهج الذى اتبعته فى كل منها ، وتفسير نتائجها التى دونتها بين دفتى الكتاب هى من بنات أفكارى ، وقد أكون قد وفقت وقد لا أكون ، ومهما يكن من الأمر فإن الحكم فى ذلك لقارئ الكتاب .

إننى أقدم هذه الموضوعات التى هى نتاج بحوث ودراسات علمية ، راجيا أن تكون عاملا فى إزاحة الغموض الذى يكتنف أو قد يكتنف تفكير بنات وأبناء « مصر » الوطن المفدىء ولعلى بذلك أكون قد أديت واجبى كواحد من المفكرين المصريين الذى هو فى الواقع « ياء » هؤلاء المفكرين .

والموضوعات التى بين دفتى هذا الكتاب هى :

١ ـ دراسة علمية عن نظرية المصالح : وجهة نظر سوسيولوجية .

٢ ـ المفاهيم العامة لموضوع المجتمع المصرى بين النمو الطبيعى والتنمية المخططة .

٣ ـ البيئة المصرية من منظور القيم الانسانية .

٤ ـ الأساطير والخرافات فى تراثنا والعلم المصرى والتكنولوجيا الحديثة .

٥ ـ نظرة الدين للتفكير الخرافى .

٦ ـ مفهوم التربية الخلقية من المنظور الاسلامى العربى .

٧ ـ ظاهرة الأمية وكيف نكافحها .

٨ ـ طه حسين والثورة العقلية .

٩ ـ بحث علمى اجتماعى لبندر اسوان .

١٠ ـ بحث علمى اجتماعى سياسى عن الروح المعنوية لأعضاء القوات المسلحة .

١١ ـ الغيرة المهنية .

١٢ ـ الهيئات العلمية ودورها فى إعداد المواطن الصالح .

وأرجو وألح فى الرجاء من قارىء هذا الكتاب ان لا يمل اذا وجد تكرارا فى متن الكتاب ، وذلك لأن هذا التكرار لا يمكن أن لا يكون فى موضعه بل اضطررت اليه فى الكثير من الأحيان لان سياق الحديث كان يقتضيه .

وانتهز الفرصة واتقدم بالشكر الجزيل لكل من حفزنى وشجعنى

لأكتب هذا الكتاب وأخص بالذكر زوجتي وابنتى آمال وتيسير وابنائى أحمد وسمير ومسعد .

ولن أنسى ما حييت فضل السيدة إلزا ثابت التى غرست فى نفسى الثقة فيما أفعل راجياً لسيادتها الشفاء العاجل إن شاء الله تعالى .

وللعزيز الأخ الحاج محمد شوقى والسيدة حرمه أهدى امتنانى وشكرى الخالص على ما قدماه لى من خدمات وبخاصة نسخ موضوعات الكتاب الحالى .

والرجاء التوفيق

القاهرة ، العجوزة : شهر يناير عام ١٩٨٩

د . سيد عويس

١ - دراسة علمية عن نظرية المصالح : وجهة نظر سوسيولوجية

يولد الأطفال فى مجتمعات ، ومن النادر أن لا يولدوا فى أسر ، ومن الاقدر أن يولدوا في غابات ، وقد نجد الطفل المولود فى حضن أمه الحنون ، وقد نجده فى الشارع أو فى الحارة أو فى الزقاق أو بجوار مسجد أو بجوار كنيسة أو بجوار ملجأ .

والأغلبية الساحقة من الأطفال يعيشون فى أسر ويعيشون فى كنفها وتحت رعايتها وبخاصة إذا كانوا مرغوبين فيهم من الآباء ومن الأمهات ، ومع ذلك نجد بعض الأطفال يباعون ، ونجد أن بعض الأطفال يتزوجون ، ونجد بعض الأطفال يقتلون وهم فى المهد ، ونجد بعض الأطفال يولدون وهم يعانون من عيوب خلقية .

والأطفال وهم أجنة يعيشون فى بطون أمهاتهم ، فى رحم أمهاتهم ، يتنفسون فى ماء الرحم كالأسماك ، وقد تجرى التجارب فيتنفسون فى الماء القراح وفى الهواء دون أن يحدث لهم اختناق .

وأطفال الأنابيب فى عصرنا الراهن قد كثروا عددا بعد نجاح التجارب تلو التجارب ومن هؤلاء ما يعيشون فى رحم الأمهات أو فى رحم غير الأمهات ، ويولدون أصحاء .

وفى ضوء التجارب التى أجراها علم الهندسة الوراثية ، تمكن علماء هذا العلم من النجاح في النبات وفى الحيوان ، ونجحوا فى أن يكثروا من ثمار النبات المتماثلة أعدادا مذهلة ، وفعلوا نفس الشىء فى الحيوانات المتنوعة ، وهم يعملون جهدهم فى القيام باجراء التجارب

على الانسان لكى يحصلوا على نفس النتائج التى حصلوا عليها فى النبات والحيوانات .

ونجح العلماء فعلا فى اختيار نوع الجنين قبل أن يتم نموه وهو فى رحم أمه ، ويولد ذكرا أو يولد أنثى حسب اختيار الأباء والأمهات الذين يرغبون فى الانجاب .

ولا ندرى ما الذى سيحدث عن مستقبل اجراء التجارب فى ضوء نتائج علم الهندسة الوراثية على الانسان ، فاذا تمكن علماء هذا العلم ووفقوا ، فانه يبدو أنهم سوف يستطيعون تحقيق آثارا مذهلة ، منها أن يجعلوا من بنى البشر توائم متماثلة ، أى يجعلوهم أغبياء أو أذكياء أو عباقرة ، وسوف تقف الانسانية أمام هذه النتائج متسائلة من الذى سيحكم الشعوب والأمم ؟ رجال السياسة أو علماء البيولوجيا ، وسوف تقف الانسانية أيضا لتتساءل عن الأسرة هل ستوجد كما هى أو سوف تتغير ، فنحن من الآن نواجه لاتعدد الزوجات فحسب ولكن نواجه أيضا تعدد الأزواج ، بل نواجه كذلك الزواج الجماعى حيث يعيش عدد معين من الذكور وعدد مماثل من الاناث معيشة الأزواج والزوجات ، وهذا نوع من الاباحية بدأ ينتشر فى العالم ، ولعل مرض « الايدز » الذى يؤثر على مناعة جسم الانسان أن يحد من هذه الاباحية المنتشرة بين الاناث والذكور وبين الاناث والاناث وبين الذكور والذكور ، ولعل نجاح القضاء على عوامل هذا المرض وأسبابه أن يزيد الاباحية فى العالم وبخاصة فى العالم الغربى (العالم المتقدم) والعالم النامى (غير المتقدم) أو الذى (فى سبيله الى التقدم) .

والمقصود بالتقدم هنا ، التقدم العلمى وتطبيقات العلم العصرى ، التى يسميها البعض « التكنولوجيا » ويسميها البعض الآخر « التقنية » .

ومهما يكن من الأمر فنحن نلاحظ أن الأغلبية الساحقة من الأطفال يولدون فى أسر ، قد تكون أسرا ممتدة أو أسرا مركبة أو أسرا نووية ،

والزوج بولادة الطفل يخلع عليه المجتمع مكانة اجتماعية هي « مكانة الأب » كما يخلع على الزوجة التي ولدته مكانة اجتماعية أخرى هي « مكانة الأم » ، ومنذ لحظة ولادة الطفل نراه إذا كان طفلا شرعيا يعيش في أسرة هي الوحدة الأساسية للمجتمع الذي يعيش في ظل مناخه الثقافي الاجتماعي أبوه وأمه وأخوته وأخواته ، وقد يكون طفلا غير شرعي أي لم يولد من زوج وزوجة لا يعترف المجتمع الذي يعيشان فيه بشرعية زواجهما ، وتتدخل الدولة لحماية هؤلاء الأطفال غير الشرعيين عن طريق الحاضنات الغريبات أو عن طريق المؤسسات التربوية حتى يشبوا ، وقد يكون من حظهم أن يكونوا مواطنين أسوياء أو يكون من حظهم أن ينحرفوا ويصبحوا مواطنين غير صالحين غير أسوياء .

والملاحظ أن الأسرة ، بأنواعها ، وبخاصة التي تنجب أطفالا ، هي في الواقع جماعة أساسية في المجتمع التي توجد فيه ، ويعني المجتمع معاني عديدة ، ومع ذلك فهو يعني في الدراسة الحالية أناس : رجال ونساء وشباب وأطفال ، يعيشون حياة الاستقرار النسبي على اختلاف كمهم وكيفهم وملامحهم ومهنهم وانتماءاتهم في بيئة جغرافية معينة بمعناها الشامل من منظور القيم الانسانية ، أي البيئة الطبيعية أو المادية أو البيئة الثقافية الاجتماعية أو غير المادية ، ومن الملاحظ أن هاتين البيئتين يعيش فيهما الانسان منذ ولادته وهما يصنعانه ، والانسان منذ ولادته يصنعهما ، ولا غرو فالطفل اذا كانت الأسرة تصنعه فهو أيضا يصنعها ، منذ لحظة ولادته اذا كان ذكرا أو اذا ولد بنتا ، أو إذا أتآمت الحامل ، وولدت أكثر من واحد في بطن واحد ، وقد يكون التوأم متماثلين أو متشابهين أو ذكرين أو ذكر وأنثى أو أكثر من ذلك في الأحايين النادرة .

ولا يمكن أن يكون المجتمع مجرد بيئة شاملة ويعيش فيه أناس بفئاتهم العمرية ، وإلا كان سجنا ولا يكون مجتمعا ، فالسجن لأنه ليس مجتمعا يعتبر تجمعا ، قد ينفصل الذكور فيه عن الاناث ، ويبقى

الأطفال حتى سن معينة مع أمهاتهم فى هذا التجمع أقصد السجن ، والذكور فى السجون (التجمعات) هم الكبار وقد يسجن من هم فى سن الشباب (من سن ١٨ فما فوق)،معهم فى مكان خاص بهم ، وقد يسجن هؤلاء الشباب فى سجون خاصة وتكون الاناث المسجونات ، بالضرورة ، فى سجن منفصل عن سجن الذكور .

ونلاحظ أن أعضاء المجتمع الرجال والنساء والشباب والأطفال إذ يعيشون فى البيئة الشاملة التى ذكرتها نجدهم يعيشون وهم **يتعاونون** أحيانا أو **يتصارعون** أحيانا أخرى من أجل حفظ الحياة وحفظ النوع والحياة فى مستوى معاشى معين قد يكون مستوى الرفاهية أو مستوى العوز أو مستوى ما بين الرفاهية والعوز ، ونراهم إذ يحاولون تحقيق ذلك يستخدمون مستوى تكنولوجى بيسر لهم ألوانا من النشاطات الانتاجية كالرعى والزراعة والصناعة والتجارة مثلا .

وهؤلاء الناس نجدهم يعيشون فى جماعات أو فئات أو منظمات ، والمنظمات **أنواع شتى** منها المنظمات الدينية والمنظمات السياسية والمنظمات العسكرية والمنظمات الأسرية والمنظمات الصناعية والمنظمات التعليمية والمنظمات الترفيهية مثلا ، وقد يعيشون فى طبقات أو **يحاولون** أن لا يعيشوا فى طبقات ، وهم إذ يفعلون كل ذلك نجدهم يتظللون بظل مناخ ثقافى إجتماعى معين .

والملاحظ أن المناخ الثقافى الاجتماعى هو **مجرد** جزء من البيئة الشاملة التى يعيش فيها الانسان ، وهذا الجزء كما سبق أن أوضحت ، هو البيئة الثقافية الاجتماعية (غير المادية) ويتضمن هذا الجزء العقائد ، والمذاهب ، والقيم الاجتماعية ، والمثل العليا ، والعادات ، والأعراف ، والتقاليد مثلا ، وإذ أذكر الانسان هنا فاننى أعنى أطفال المجتمع وصبيانه وصباياه وشبابه ورجاله ونساءه ، كل حسب الفئة العمرية التى يحددها المجتمع .. أى مجتمع ..

والانسان فى المجتمع الانسانى فى ضوء مراحله يمتص احساساته الكامنة من حوله ، فعندما يولد « سليما » فهو يولد بجهاز

عصبى « سليم » أيضا ، ويحس الطفل المولود بكل ما حوله ومن حوله ولكنه لا يعرف لما يحسه تفسيرا ، فهو يسمع الأصوات العديدة بوق السيارات أو رنين التليفون أو أصوات الذين يعيشون من حوله ولا يعرف تفسير ما يسمع ، وهو يرى الأشياء كالألوان التي من حوله أو الأضواء التي تشع من داخل المنزل او من خارجه ولا يستطيع أن يفسر هذه الألوان أو هذه الأضواء أو أن يفرق بينها ، ولكن الطفل يستطيع أن يعرف أمه إذا شم مايفرز جسدها من عرق أو بالأحرى تفرزان ثدياها من عرق ، فتراه عند الرضاع إذ تبتسم أمه يرد عليها بابتسامة تملأ وجهه ، أن أول وجه إنسان يركن إليه الطفل ويعيش معه وبه هو وجه الأم التى يتعرف عليها من رائحة عرقها ، أقصد من رائحة عرق ثدييها ، ولعل ذلك يكون متوقعا فالأم هي مصدر غذائه ، وهى التى تنظفه إذا ما اتسخ أو تغير ملابسه إذا اقتضى الأمر ذلك ، ومن ثم فإن من مصلحته أن يسلك هذا السلوك الانسانى ، وهو سلوك انسانى لأنه يصدر عن طفل إنسان مولود من انسان ، وهو مولود من انسان (أمه) التى عاشت معه منذ لحظة تلقيح بويضتها من إنسان آخر ، هى أمرأة أنثى والملقح يكون بالضرورة رجلا ذكرا ، لقد صنعته الأم طفلا من دمها وأعصابها وعانت فى سبيل ذلك ما عانت وما سوف تعانى فى المستقبل القريب أو فى المستقبل البعيد . إن الأم فى كل هذه الأحوال مجرد واحدة من بنات البشر ، ولكنها تميزت على الرجل بأنها أنتجت بشرا ، فالرجل قد يستطيع أن يكون أما إذ يرعى طفله ويهتم به ولكنه لا يستطيع أن يلد ابنا .

وفى مصر ، أصل حضارة العالم ، منذ الماضى السحيق كان بقاء الرجل أعزب نادرا جدا ، والملاحظ أن المقابر المصرية القديمة التى لاترد فيها المرأة « الزوجة أم الأم » مذكورة أو مصورة تعد على الأصابع ، وكان الحكيم المصرى القديم كما ذكر « أدولف أرمان وهرمان رانكة » فى كتابهما (مصر والحياة المصرية فى العصور القديمة) « ترجمة عبدالمنعم أبوبكر ومحرم كمال » صفحات ١٦٤ -

١١٦ كان يحذر من المراة الآجنبيه (اى التى لا عائل يشملها بالحماية أو التي تركها زوجها أو ترملت) ، كان يحذر الرجال والشبان غير المتزوجين منها إذ يقول :

لاتوجه اليها لحاظك .. ولا تتعرف إليها ، انها لجة
شاسعة عميقة لا يعرف تيارها ! ان المرأة البعيدة عن
زوجها تقول لك كل يوم : انى جميلة ، عندما لا يكون
لديها شهود ، وهى تقف وتلقى الشباك ! ما أشدها
خطيئة تستحق الموت اذا استمع الانسان اليها ، ولذلك
فمن كان حكيما يتجنبها ويتخذ له فى شبابه زوجة ،
فان أحسن شيء فى الوجود هو بيت الانسان الخاص » .

وكان الحض على اتخاذ المرء زوجة له وهو فى عنفوان شبابه فى ذلك الزمان القديم من أجل ان « تلد له ابنا » ، إذ كان يعد انجاب الأطفال فى ذلك الحين ، وحتى وقتنا الراهن ، من أعلى درجات السعادة ، ولم تكن هناك ناحية من نواحى الحياة العائلية المصرية تعطى صورة أجمل ولا أروع من العلاقة بين الآباء وأبنائهم .

كانت العلاقة بين الابن وأمه تدل دلالة قاطعة على تقدير الابن للأم ، وقد بلغت هذه العلاقة من عظم الشأن بحيث نجد كثيرا فى مقابر الدولة القديمة أم المتوفى فى العادة ممثلة الى جانب زوجته ، وكان على الابن واجبه المقدس وهو أن يجعل اسم أبيه « حيا يعيش » ، ونحن نعلم ، القارىء وأنا ان اسطورة أوزوريس وايزيس وحورس الذى ولد من أبيه المتوفى والذى انتقم لوالده « أوزوريس » وبرأ أسمه ضد اتهامات عمه « ست » ، ثم اتخذ لنفسه « عرش والده » ووضع تاج والده على مفرقيه ، والملاحظ أن هذه الأسطورة قد عاشت فى وجدان المصريين أى فى احساساتهم من الداخل ، وقد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخنا المصرى القديم قدم الدهر والمستمر استمرار الحياة ، بعملية توفيقية الى الأنبياء والقديسين ثم الأولياء ، والملاحظ أيضا أن مفهوم الولى يعنى فى هذه الدراسة على وجه

العموم الشخص المتوفى الذى يعتقد فى أنه يتمتع بالبركة التى تمكنه من اتيان المعجزات أو « الكرامات » ومن ثم يكون له نفوذ وتأثير فى مصائر الأحياء ! .

والأمثلة الشعبية المصرية تهتم اهتماما بالغا بـ « الانجاب » ، فقد يقول البعض :

ـ من خلف ما مات .
ـ الولاد زكرة .
ـ الولاد قناديل البيت .

والمثل الأول يتفق مع إحساس الانسان المصرى (الشعبى) بالزمن ـ فالزمن عنده ديمومة مستمرة ، فكما أن النضرة تتبع الجفاف ، والنهار يتبع الليل والقمر يضمحل ثم يعود إلي الاشراق ، كذلك تستمر الحياة بسبب وجود الأبناء ، ومعنى ذلك أن عدم وجود الأبناء ، الأمر الذي يأباه الانسان المصرى ويتمني عدم حدوثه ، يتسبب فى انقطاع الحياة ووقوفها عند حد معين .

والمثل الثاني يتفق مع رغبة الانسان المصرى فى أن تبقي ذكراه في الحياة ، ويظهر أن وجود الأبناء هو الذى يحقق له هذه الرغبة ، إذ أنهم يحملون اسمه من بعده فهم ذكراه الباقية .

أما المثل الثالث فيكشف عن عمق البهجة والسعادة اللتين يضفيهما وجود الأبناء على الحياة العائلية ، ويتفق هذا المعنى مع قول الله سبحانه وتعالي :

« المال والبنون زينة الحياة الدنيا » ،

(سورة الكهف : آية ٤٦)

ويهتم الانسان المصرى (الشعبى) بالانجاب وصولا الى تحقيق العصبية ، فنجده يقول وأعضاء الشعب يقولون معه :

ـ كلمة ولد تهز البلد .

- ياريت الولد ورجليه جريد والله الولد عند العدا بيكيد .
- الولد فرحة ولو كان طرحة (بنت) .
- أم الغلام تستاهل الاكرام .
- أم القعود فى البيت بتعود .
- حطت عجلها ومدت رجلها .
- ربنا يبعت للعويلة ولد تقعد جنبه وتتسند .
- يام الولد حطى الولد فى الجيب الواد ذخيرة للعجز والشيب .
- اللى مالوش ولد عديم الضهر والسند .
- الولد ضهر أبوه .
- الولد دراع أبوه .
- الولد رد لأخواته .
- الولد بيحوش الورسة (الورثة) .
- الصبى يمنع العدو (أى الأقرباء غير المقربين من الميراث) .

ويبدو مما سبق أن المولود الذكر محبب لدى الأم والأب وحتى إخواته الاناث .

والملاحظ أن المصريين المعاصرين (الشعبيين بخاصة) سواء أكانوا يسكنون فى الريف أم فى الحضر المتريف أم غير المتريفين ، أى الذين يتمثلون العناصر الثقافية الريفية التى تتصل بموضوع النظرة نحو الطفل المصرى والاهتمام به وان كانوا يعيشون فى الحضر - يرون :

- أن يكون الاشباع الجنسى بطريقة يقرها المجتمع ويرضاها أى بطريقة مشروعة . وأن الزواج المبكر أمر محبب ومطلوب .

- واذا كان انجاب الأطفال فى العصر المصرى القديم يعد من أعلى درجات السعادة ، فانه يعتبر كذلك حتى وقتنا الراهن .

- وإذا كانت فى الماضى السحيق ، علاقة الأب بابنه علاقة موطدة ، فهو أى الابن امتداد لأبيه لأن الأبن يجعل اسم أبيه حيا يعيش بعد وفاته .

ـ والاهتمام بالطفل منذ اللحظة الأولى منذ ولادته بل منذ التأكد من الحمل لا يزال اهتماما يتضمن الحماية والوقاية للطفل .

ـ واذا كان الأطفال الذكور يفضلون على الأناث فى الوقت الراهن ، فان ذلك لا يعنى ، كما سبق أن أوضحت ، عدم اهتمام المصريين القدامى بالاناث ، فقد كانت العلاقة بين الابن وأمه دلالة قاطعة على تقدير الابن للأم ، وقد بلغت هذه العلاقة من عظم الشأن بحيث نجد كثيرا من مقابر الدولة القديمة أم المتوفى فى العادة ممثلة إلى جانب زوجته .

ـ وتفضيل الذكر على الأنثى ، كما يبدو لى ، قد يرجع إلى النكسة التى أصابت مكانة الانثى الاجتماعية فى مصر منذ عصر « الحريم » .

ـ واخفاء اسم الطفل فى ظل اسم آخر ، هو فى حقيقة الأمر كناية ، أمر معروف فى محيط العديد من أطفال المجتمع المصرى المعاصر ، ويرى الأب أو الأم أن إطلاق هذه الكناية على الابن والأبنة يعتبر أسلوبا من أساليب الحماية والحرص على حياة كل منهما ، وقد يكون الاسم المختار غير لائق ومن ذلك نلاحظ وجود أسماء : خيشة وشمردل وشحات ... الخ .

ـ وتفضيل الذكر على الانثى ليس أمرا مطلقا فقد تكون الانثى هى الأنفع والأصلح وتكون حبيبة أمها كما تكون فى الوقت نفسه حبيبة أبيها وأخوتها .

والملاحظ أن الأطفال يكبرون سنا وتكبر فى نفس الوقت أجسامهم ، فنراهم صبيانا أو صبايا ثم نراهم شبابا ثم رجالا ونساء كبارا سواء أكانوا فى سن الكهولة أم من الشيوخ أم أكبر من ذلك سنا .

وفى كل مرحلة من هذه المراحل نراهم يتغيرون حسب ما تصنعه البيئة الشاملة التى يعيشون فيها فيهم وما يصنعونه فيها ، نرى الذكور فى ضوء الواقع الحى يتغيرون ، فقد يصبح الذكور أزواجا وآباء ويمتهنون مهنة معينة تتفق مع مستوى تعليمهم ومستوى قدراتهم ونجد البنات كذلك يتغيرن ، فالبنات كما يقول المثل الشعبى المصرى

« بسبع وجوه » وهن فى ضوء مثل شعبى آخر ذوات « مربط خالى » ، أى لا بد لهن من أن يتركهن أسرهن الى بيت الزوجية ، فإذا ما تزوجت البنت الشابة لا تعيش عادة فى بيت الأحباب أى الوالدين والأخوة والأخوات ، كما يقول المثل الشعبى المصرى .

« قعدتى بين أعتابى ولا قعدتى بين أحبابى » .

وكأن لسان حالها يصرخ قائلا :

« يحرم على بيت الأهلية أحسن يقولوا العاوزة جية » .

وفى المراحل المشار إليها لا يتغير الانسان فى ضوء ما ذكرناه ، بل نجد أن مصالحه أيضا تتغير ، كل الناس ، والأطفال منهم ، لهم مصالح يحاولون تحقيقها ، وقد يحققونها بطريق مشروع أو غير مشروع حسب عقائد وقيم ومبادىء ومثل البيئة الشاملة التى يعيشون فيها سواء كانوا فى أسرة أو يرتعون فى الجيرة أو يذهبون إلى المدارس أو يصلون فى دور العبادة أو يصبحون أعضاء فى إحدى مؤسسات شغل أوقات الفراغ أو يتعرضون لأجهزة الاذاعة المسموعة أو وهم يشاهدون ما تبثه الشاشة الصغيرة أو ما تبثه الشاشة الكبيرة .

والملاحظ أنه اذا كانت هذه الأجهزة تؤثر فى نفوس بنى البشر على مختلف مراحل أعمارهم ، فإن هؤلاء يؤثرون فيها أيضا ، والتجربة تؤكد ذلك ، فكل فعل له رد فعل .

والمصالح التى تتحقق لأفراد المجتمع متباينة ، ومن ثم فهى تتصارع أحيانا ، أو تتعاون إذا كانت الأهداف تحتم هذا التعاون ، ولينظر المشاهد منا إلى « لعبة كرة القدم مثلا » ، فاللاعبون لمصلحتهم يتعاونون وتقتضى ظروف اللعبة أن يصارعوا لاعبين آخرين أو بالأحرى ينافسون لاعبين آخرين ، كل ذلك حسب النيات التى تملأ صدور اللاعبين التى هى نتيجة المصالح التى يرنون إلى تحقيقها ، والمصالح هنا قد تكون الفوز بشرف أو الهزيمة بشرف أوالعكس ، كل فريق حسب ما يتمثله من عقائد وقيم ومبادىء ومثل البيئة الشاملة التى يظللهم مناخها الثقافى الاجتماعى .

والحياة ان هى الا مسرح يحرص اللاعبون عليه ان يؤدوا ادوارهم لكى يحققوا مصالحهم وقد تكون هذه المصالح مادية وقد تكون أيضا مصالح معنوية ، كل شىء فى هذه الحياة التى نعيشها له الجانب المادى وله أيضا الجانب المعنوى .

فاللهاث وراء كسب المال المشروع أو غير المشروع مصلحة مادية ، أما اللهاث وراء كسب المعرفة والعلم الرفيع الذى ييسر للانسان حياته ، فهو بالضرورة مصلحة معنوية ، ومع ذلك فنلاحظ أن كسب المال غير المشروع قد ينفق لمصلحة معوزين أو يتامى ، ونلاحظ أيضا أن كسب المعرفة والعلم الرفيع قد يسبب أخطارا تضر بالانسان ، أى أنه ليس فى دنيا البشر شىء مطلق ، كل شىء فى هذه الدنيا ذو دلالة تنفع أحيانا وتضر أحيانا أخرى ، فالسكين الحاد يقتل وهو أيضا يعيش الانسان على تقطيع الخبز الذى يأكله لأنه فى حاجة إليه ، أى يعينه على أداء مصلحة تفيده ولا تضر بالآخرين .

وإذا كان الانسان العادى فى حاجة إلى شخص آخر وذلك لكى يلبى دعوة مصلحة له ، فإنه ينوى أن يذهب إلى هذا الشخص الآخر ، وأقول الانسان العادى أى الذى ليس به لوثة عقلية أو نفسية أو عيوب خلقية ، وأقول ينوى أن يفعل ذلك فى ضوء إلحاح مصلحته ، أى أن هذه المصلحة تصنع نيته .

ونلاحظ كل منا إننا إذا كنا فى حاجة الى قضاء مصلحة مادية كانت او معنوية نجد أن هذه المصلحة أو تلك تصنع نياتنا ، والمصالح المادية فى الحياة عديدة جدا ، والنيات التى تصنعها هذه المصالح عديدة جدا كذلك ، قد تكون المصلحة المادية لاتعدو طلب قرضا أو قد تكون طلب خطبة بقصد الزواج ، أو قد تكون طلب شفاء من مرض ، أو قد تكون شراء أو بيعا أو شراء وبيعا .. الخ ، إن أنواع المصالح تتفاوت بحسب سن المرء العادى منا ومستوى تعليمه ومستواه الاقتصادى وبحسب العرض والطلب ، أى عرض ما يطلبه فى ضوء امكاناته وامكانات المجتمع .

ومع ذلك فإننا نلاحظ ان الانسان العادى منا يتغاضى عن آذى غيره إذا كان ذلك فى مصلحته ، ويؤكد ذلك ما تترجمه أحاسيسنا فنغض الطرف عن عيوب غيرنا ، لأن عين الرضا عن كل عيب كليلة على عكس عين السخط التى تبدى المساوىء ، والقول أن حبيبك يبلع لك « الظلط » وعدوك يتمنى لك الغلط قول سليم فهو يتفق مع ما ندعو إليه .

ومن أسلحة بعض أعضاء الشعب المصرى عندما تسلط عليهم ألوان القهر وبخاصة إذا كانوا من المستضعفين لا يجدون وجاء يحميهم إلا أن ينافقوا ، **فالنفاق هنا فى مصلحتهم** ، ومن ثم فانهم يتخذونه سلاحا يدافعون به عن هذه المصلحة .

ويجب أن نؤكد هنا ان الانسان العادى ليس ملاكا ، فالكمال لا يوجد فى دنيانا ، ولكن ما يستطيع القيام به **أن يحمى مصالحه** بأسلوب أو بآخر ، وذلك لأن هذه المصالح فى ضوء الواقع الحى هى التى تيسر له الحياة التى يعيشها أو يضطر إلى أن يعيشها .

فإذا قلت أن مصالح الأشخاص أية مصالح أو أى نوع من أنواعها ـ **تصنع النيات** فإننى لا أعدو الحقيقة ، وذلك لأن النيات التى نتبناها والتى هى فى الأصل صيغة المصالح التى نحاول أن نحققها ، تحدد المواقف الاجتماعية التى تندفع إليها فى سبيل ذلك . فأنا إذ أكتب ما أكتب الآن أحقق مصلحة أو مصالح لنفسى ما فى ذلك من شك ، وهذه المصلحة أو المصالح بدورها تصنع النيات التى تبنيتها فعلا ، فقد نويت أن أصيغ « نظرية المصالح من وجهة النظر السسيولوجية » التى تخصصت فيها ، وفعلت ذلك لأنه **مصلحتى** أن أفعل ذلك ، وهأنذا خضت « المعركة » مصالحى صنعت نياتى ، ونياتى بدورها صنعت موقفى أو مواقفى التى أحاول جاهدا ومجهدا أن أنقلها على القرطاس ، إذن المصالح التى أرنو إليها جعلتنى أنوى أن أكتب نظرية المصالح ، ولكى أفعل ذلك فإننى واجهت موقفى الذى يراه القارىء الكريم من تحقيق هذه النية ، أى أن موقفى هذا قد حدد نمط السلوك الذى أفعله ألا وهو كتابة ما كتبت لكى يقرأه القارىء الكريم

من أجل أن يوافق عليه أو ينفر منه أو يرفضه رفضا باتا ! .

أن ما سطرته من قبل كان هدفا أو أهدافا أحقق مصلحة أو مصالح ذكرتها ، وهذه المصلحة أو المصالح هى التى صنعت نياتى وهذه النيات صنعت بدورها موقفى أو مواقفى من تحقيق المصلحة أو المصالح التى أرغب فى أن أحققها وأن موقفى أو مواقفى بدورها قد حددت نمط أو أنماط سلوكى ، تماما كما يفعل الشخص العادى فهو يرغب فى تحقيق أمرا ما ، فاذا بالنية تتبلور فى عقله ، انه يرغب فى شراء بضاعة ما أو مقابلة شخص معين ، انه نوى على ذلك فى سبيل مصلحته التى صنعت هذه النية ، فيجرى مسرعا إلى المكان الذى يشترى منه البضاعة أو الذى يقابل فيه الشخص المعين ، ونيته هذه تحدد له الوسيلة التى تحقق الذهاب إلى المكان المطلوب ، فقد يسير على الأقدام وقد يركب سيارة أو قد يستخدم وسيلة أخرى للانتقال ، ويذهب إلى المكان المعهود ، فهو إذن أصبح يواجه موقفا أو مواقف ، وفى ضوء ذلك يسلك سلوكا معينا أما أن يرضى أو لا يرضى فى شراء البضاعة ، أو إذا كان الشخص الذى يزمع مقابلة رئيس كبير فإن مواقفه تحاول أن تتكيف مع هذا الشخص الكبير ، وإذا كان شخصا عاديا ، صديقا مثلا ، فإن المواقف تتباين ومن ثم فإن أنماط سلوكه تتغير لتتفق مع تحقيق مصلحته أو مصالحه التى يرغب فى تحقيقها مهما كان الشخص الذى من مصلحته كان قد نوى أن يقابله ، وفى المقابلة تتكيف مواقفه لكى يحقق مصلحته حسب مكانة الشخص الاجتماعية .

والخلاصة أو خلاصة الخلاصة يمكن أن نصيغ نظرية المصالح فيما يلى :

« إن مصالح البشر تصنع نياتهم وهذه بدورها تصنع مواقفهم التى تحدد أنماط سلوكهم البشرى » .

ولعل القارىء الكريم يصل إلى هذه النتيجة فى ضوء ما سطرته من قبل ، وكل الذى سطرته قضايا إنسانية برزت فى ضوء نتائج بحوث

ودراسة علمية قمت باجرائها أو أشرفت على إجرائها أو استعرتها من علماء آخرين ، إنها أى هذه القضايا نتاج خبراتى المنتظمة التى يجدها القارىء فى البحوث والدراسات العلمية المنشورة ، والتى يمكن الاطلاع عليها فى ثنايا الكتب أو المجلات العلمية التى نشرت فيها .

ولعل القارىء الكريم قد لاحظ عدم خوضى فى التعميمات التى لا تستند إلى حقائق أو وقائع تم الوصول إليها عن طريق تطبيق المنهج العلمي ، وذلك لأن ما يجده قارىء الدراسة الراهنة يستند إلى جزئيات أو حالات خاصة استطعت عن طريقها أن أصل لا إلى تعميمات ذات المستوى المنخفض (أى تنسب مثلا إلى عدد محدود من الحالات أو إلى بيئة محددة) ولا إلى تعميمات ذات المستوى العالى (أى يمكن تطبيقها على جميع الأشخاص المتشابهة) ولكن إلى تعميمات ذات المستوى الأعلى (وهى التى تتضمن علاقة سببية) .

ويلاحظ القارىء أن التعميمات الأخيرة ليست تعميمات احصائية ، وإذا كانت أعترف بأن الاحصاء أداة لازمة فى البحوث العلمية ولكنى أرى أن هذا النوع من التعميمات محدود عند البحث فى الظواهر الاجتماعية ، فالحالة السلبية (negative case) تنطبق عليه عادة ، ونلاحظ ذلك إذا قلنا مثلا أن من ٦٠٪ ـ ٨٠٪ من مدمنى مادة « الأفيون » نجدهم سريعى الاستهواء ، واذا استعملنا التعميمات الاحصائية فى مجال البحث فى ذكاء الناس نجد أن الحالة السلبية يبدو انطباقها واضحا .

وقد يعترض بعض القراء على أن هذه النظرية من وجهة النظر السسيولوجية ، وذلك لأنها تهتم بسلوك الانسان ، وهذا السلوك هو موضوع اهتمامات علوم أخرى كعلوم النفس والتربية والاجرام وغيرها ، وانه قد عفى الزمان على معالجة كل من هذه العلوم على حدة فعلم الاجتماع لا يوجد الآن ولكن يوجد علم الاجتماع النفسى وعلم الاجتماع التربوى وعلم الاجتماع الدينى وعلم الاجتماع السياسى وغيرها .

والقارىء المدقق يجد فى ثنايا الدراسة الحالية كل هذه الفروع من المعرفة ، ويجد أيضا أن العلوم الانسانية تتكامل مع العلوم الطبيعية ، وذلك لأننى أرى ، بكل تواضع ، فى ضوء خبرتى ، حتى وقتنا الراهن ، أن العلوم الانسانية (غير المادية) لا تنفصل عن العلوم الطبيعية (المادية) ، وأراها أنها تكمل بعضها البعض وتتكامل معها ، فالأفكار منبثقة من البيئة الطبيعية ، والبيئة الطبيعية تؤثر على الأفكار وتتأثر بها ، وقد سبق لى فى الصفحات السابقة أن ذكرت البيئة الشاملة التى ليست فقط تشمل العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية بل تتفاعل هذه العلوم بشطريها بعضها مع البعض ديناميا .

والملاحظ أن تاريخ العلم يؤكد هذا الشمول كما يؤكد هذا التفاعل الدينامى ، وربما نظرة واحدة للظاهرة الفلكية تؤكد هذا القول ، وفى القديم نذكر كوبرنيكس وجاليليو ونيوتن وحتى داروين كانت لهم ولغيرهم من علماء الطبيعة الآثار التقدمية فى فكر الانسان على وجه المعمورة ، ولعل مجرد استعمال (راديو ترانستر) بيد طفل أو يافع أو شاب أو شابة أو كهل أو شيخ يعد برهانا ساطعا على ما أقول ، إن هذا الجهاز يؤثر فى الشخص أو الفرد الذى لم تتكون شخصيته بعد ، أقصد هذا الجهاز الذى هو من تطبيقات المنهج العلمى يؤثر فى جميع هؤلاء كما أن جميع هؤلاء يؤثرون فيه ، والأمثلة على تكافل العلوم كلها سواء كانت انسانية (غير مادية) أو طبيعية (مادية) عديدة ولا يتسع المقام للتحدث عنها كلها فى هذه الدراسة .

إن هذه الدراسة مجالها « دراسة علمية عن نظرية المصالح : وجهة نظر سسيولوجية » ، وأرجو أن أكون قد وفقت فى عرضها فى وضوح ودون أن يكون ما كتبته فيه لبس أو كلام مبهم .

٢ - المفاهيم العامة لموضوع المجتمع المصرى بين النمو الطبيعى والتنمية المخططة

يلاحظ أن مفاهيم هذا الموضوع تتضمن ما يلى :

١ - مفهوم المجتمع .
٢ - مفهوم المجتمع المصرى .
٣ - مفهوم النمو الطبيعى .
٤ - مفهوم النمو العشوائى .
٥ - مفهوم التنمية المخططة .

١ - مفهوم المجتمع

يعنى هذا المفهوم فى رأيى ، أنه أناس (رجال + نساء + أطفال) يعيشون حياة الاستقرار النسبى على اختلاف كمهم وكيفهم وملامحهم ومهنهم وانتماءاتهم .. فى بيئة جغرافية معينة (صحراء + مناطق زراعية + مدن + موانىء + نهر + قنوات رى + قنوات ملاحية + تعدين .. الخ) ، وهم إذ يعيشون فى هذه البيئة نجدهم يتعاونون أحيانا أو يتصارعون أحيانا أخرى من أجل حفظ الحياة وحفظ النوع والحياة فى مستوى معاشى معين قد يكون مستوى الرفاهية أو مستوى العوز ، ونراهم إذ يحاولون تحقيق ذلك يستعملون مستوى تكنولوجى ييسر لهم (الرعى + الزراعة + الصناعة + التجارة ... مثلا) .

وهؤلاء الناس نجدهم يعيشون فى جماعات وفئات أو منظمات

+ المنظمات الأسرية + المنظمات الصناعية + المنظمات التعليمية + المنظمات الترفيهية مثلا) ، وقد يعيشون فى طبقات أو يحاولون أن لا يعيشوا فى طبقات ، وهم إذ يفعلون كل ذلك نجدهم يتظللون بظل مناخ ثقافى اجتماعى معين (عقائد + مذاهب + قيم اجتماعية + مثل عليا + عادات + تقاليد + أعراف مثلا) .

والملاحظ أننا قد نجد فى المجتمع « الانسانى » بعض الجماعات الاثنية أى الجماعات التى تجمعها بعض العناصر الثقافية الموحدة (جماعات الزنوج فى مجتمع الولايات المتحدة الامريكية وفى مجتمع جنوب أفريقيا + جماعات النوبيين فى المجتمع المصرى المعاصر مثلا) .

وإننى أرى أنه إذا كانت أجدى هيئات البحوث العلمية الاجتماعية ، تتبنى معنى مفهوم المجتمع السابق ، فانه يتيسر لها أن تضع يدها على بعض الموضوعات الهامة اقترح منها ما يلى :

أ ـ الدراسات الايكولوجية .
ب ـ الدراسات الديموجرافية .
ج ـ الدراسات التكنولوجية .
د ـ الجماعات التى يضمها المجتمع عادة بأنواعها والفئات والطبقات إن وجدت .
هـ ـ المنظمات التى يضمها المجتمع عادة (سياسية كانت أو اجتماعية أو عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية مثلا) .
و ـ العناصر الثقافية السائدة فى كل قطاع سواء أكان حضريا أم ريفيا أم حضريا ريفيا أم بدويا ، مع الاهتمام بالأجهزة والقنوات الثقافية التى يناط بها ترويج هذه العناصر سواء أكانت طرقا صوفية أم أجهزة إعلام أم أجهزة ثقافية أم مساجد أم كنائس .. الخ .

٢ ـ مفهوم المجتمع المصرى

يعنى هذا المفهوم ، فى رأيى ، انه مجتمع انسانى ككل المجتمعات الانسانية ، ولكننا نراه يتميز عن غيره من المجتمعات بما يلى :

أنه فى خلال الفترة من عام ٥٢٥ ق . م إلى عام ١٩٥٢ كان يحكمه حكام أجانب ، وإننا نجد أيضا أن المصريين المعاصرين يعيشون فى مناخ ثقافى اجتماعى فيه الكثير من العادات والتقاليد الغثة حتى وقتنا الراهن من الماضى السحيق أهمها تحكم الموتى فى الأحياء + ما يتعلق بطقوس الولادة قبل أن تحمل الزوجة وفى أثناء حملها وعند وضعها وبعد الوضع .. الخ ...

وانني أعتقد أنه اذا وعى المسئولين عن الثقافة المصرية المعاصرة ومنهم القادة الثقافيون الرسميون وغير الرسميين تأثير هذه العادات والتقاليد الغثة لعملوا جاهدين من أجل أن يستبدل بها غيرها وذلك عن طريق سيادة المنهج العلمى وتطبيقاته وبخاصة فى محيط الأطفال والشباب من سن ١٥ فأقل (أى نحو ٤١٪ من سكان البلاد) .

ب ـ لا جدال فى أن « الدين » له موقعه فى البناء الاجتماعى فى المجتمع المصرى ، وذلك منذ الماضى السحيق وحتى وقتنا الراهن ، كان الكهنة (أقصد رجال الدين) منذ زمن بعيد جدا هم الحكام الحقيقيون فى المجتمع المصرى حتى جاءت « العلمانية » عند إنشاء الجامعة المصرية (الأهلية) فى عام ١٩٠٨ ، ثم عندما أصبحت تحت اشراف الدولة فى العشرينيات ، ومن ثم نجد أن الظروف قد أصبحت مواتية للصراع بين بعض رجال الدين وبعض العلماء العلمانيين ، (حاول رفاعة الطهطاوى أن يوفق بين الدين والدنيا بعد بعثة ١٨٢٩ التى سافر فيها إلى فرنسا ، كما حاول محمد عبده قبل وفاته فى عام ١٩٠٥ فى مجالات الأزهر الشريف وعندما كان يرأس دار الافتاء) .

ونجد أن رجال الدين قد يتغلبون أحيانا وقد تكون الغلبة للعلماء العلمانيين أحيانا أخرى .

ويجب أن يلاحظ أن وجود الدين لا يعنى وجود التدين .

جـ ـ يلاحظ أنه فى ضوء مراحل التاريخ وحقائقه أن أعضاء

المجتمع المصرى فى ظل القهر قد مارسوا (ويمارسون حتى الآن) انماطا معينة من السلوك ، ومن هذه الأنماط نجد أنهم يؤدون دور المتفرجين أحيانا أو ينافقون أحيانا أخرى ، أو نجد أنهم يهاجرون إلى الله جل وعلا أو إلى القديسين والأولياء ، أو نجدهم يهاجرون الهجرة الجسدية ، أو نجد انهم يصبرون مع ملاحظة أن الصبر كقيمة قد يعنى « حبس النفس عن الجزع » وهذا صبر ذو هدف حميد أو يكون معناه الصبر على المذلة والخنوع ، وفى هذه الحالة يكون صبرا سلبيا أى أن هدفه غير حميد ، والملاحظ أن مفهوم الصبر قد ورد ، لفظه ومشتقاته فى الكتاب المقدس ، فى أسفاره واصحاحاته ، ٥٢ مرة ، كما ورد هذا المفهوم ، لفظه ومشتقاته فى القرآن الكريم ، فى سوره وآياته ، ١٠٣ مرات .

وقد يمارس المصريون أحيانا الشكوى من القهر والقاهرين لمن حولهم من البشر وربما للذوات الغيبية أو لأضرحة القديسين والأولياء ، وقد يعبرون عن أحزانهم المبكية ، عن طريق الحزن والبكاء تفرغ شحنات الدوافع العدوانية وايدة قهر القاهرين واستبداد المستبدين ، وتبدو المشاعر الحزينة عند أعضاء الشعب المصرى عميقة عمق ما تعكسه عيون الامهات والزوجات وحتى الشابات ، أن ما تعكسه هذه العيون فى معظم الأحيان ، مهما انفرجت الشفاة ، يدمى القلوب ، وبخاصة قلوب الأطفال وبعض الرجال ! ! .

وقد يمارس المصريون الدعاء فالمصرى عندما يقهر يدعو لنفسه أو يدعو لغيره من الأحباء ومن فى حكمهم ، وقد يمارس الداعي الدعاء على الأعداء القاهرين من الظالمين ومن فى حكمهم ، والتراث الثقافى المصرى مملوء بالدعوات ضد الأعداء ، وذلك بطلب الانتقام منهم عن طريق إصابتهم بإصابات جسيمة أو بالموت أو بالهلاك أو بالانتقام من أولادهم أو بتشتيتهم أو بتخريب ديارهم ، وهم أيضا يطلبون الدعاء ضد الأعداء من الأقوياء أو أصحاب السلطة والسلطان من الله جل وعلا ومن القديسين ومن الأولياء .

ونجد المصريين يمارسون « السخرية » (لغة الدعابات

والتنكيت) ، والملاحظ أن الدعابات (النكت) أنواع من النكت الاجتماعية ومنها النكت السياسية ومنها النكت الفنية أو الشكلية ، والنكت الأخيرة هى التى تعتمد أساسا على الاستعمالات المجازية ، دون المضمون ، وذلك بهدف الاضحاك لذاته ، والنكت الاجتماعية والسياسية تكون فى ضوء بعض الظروف نكتا علنية ، وقد تكون فى ضوء بعض الظروف الأخرى نكتا سرية ، ومن ثم يمكن اعتبارها من قبيل « اللغة السرية » .

وقد يمارس المصريون في ظل القهر الفرار بالهجرة إلى فيافي الصحراء أسوة بما فعله الأجداد فى عهد « الاضطهاد الأعظم » (ذروة الاضطهاد الوثنى) على عهد الامبراطور « دقلديانوس » (٢٨٤ م - ٣٠٥ م) وقيصره « جاليروس » ثم هذا الأخير منفردا (٣٠٥ م - ٣١١ م) و« ماكسيمين دازا » (+ ٣١٣ م) - الذين فروا بعقيدتهم ، (ربما تكون جماعة التكفير والهجرة من وجهة نظر أمرائهم مثالا على ذلك) .

وقد يقف المصريون عندما يحسون بالقهر وصلف القهار موقف المتمردين أو الثائرين والملاحظ أن تمرد أعضاء الشعب المصرى أو ثورته لا يكونان بقصد الهجوم ظلما على حقوق الغير بل يكونان بقصد الدفاع عن حقوقهم وحريتهم وكرامتهم .

- وانني أرجو أن يلاحظ القارىء الكريم أن ترتيب المواقف كما سجلتها فى بند رقم هـ لايعنى أن أعضاء الشعب المصرى يقفون هذه المواقف بالضرورة بنفس الترتيب . أو أننى أرى أن أعضاء هذا الشعب الكريم « كله » يقفون هذه المواقف ويمارسون هذه الأنماط السلوكية ، أو يفعلون ذلك فى كل الأوقات بل ان كل ما قصدته أن أوضح أهم المنافذ الاجتماعية أو الأساليب التى يواجه أعضاء الشعب المصرى ، أو بعض فئاته ، بها صنوف ألوان القهر فى ضوء بعض البحوث والدراسات العلمية التى قمت باجرائها . وأن أؤكد أنها فى الغالب منافذ وأساليب غير عنيفة .

٣ ـ مفهوم النمو الطبيعى

يلاحظ أن مفهوم « النمو الطبيعى » للمجتمع يعنى العملية أو العمليات التى تؤدى إلى التنمية ومفهوم النمو الطبيعى أنواع منها « النمو المكيف » ويعنى التطور أو التنمية التى تعمل على تكيف الكائن الحى إزاء الطبيعة أو البيئة الاجتماعية ، ومنها « النمو الاجتماعى » ويعنى تنمية سمات الفرد لتطابق النماذج الاجتماعية الراسخة فى المجتمع الذى يعيش فيه ، ومنها « النمو الحضرى » ويعنى الكثافة السكانية فى البيئة الجغرافية التى تعتبر من البيئات الحضرية .

وفى ضوء ما سبق نلاحظ أن مفهوم النمو الطبيعى احدى العمليات الاجتماعية وهو فى ذاته ليس تنمية اجتماعية ولكنه فى ضوء التعاريف التى ذكرتها يؤدى إلى التنمية الانسانية فى البيئة التى يعيش فيها الانسان ، ويولد الطفل فيها ويجدها فيضطر إلى التكيف إزاءها فى ضوء قدراته ومساعدة أجهزة التنشئة الاجتماعية فى المجتمع الذى يعيش فيه فى خلال المراحل العمرية التى يمر بها عندما يكون صبيا أو صبية أو شابا أو شابة أو رجلا أو أمرأة .. الخ .

٤ ـ مفهوم النمو العشوائى

هذا المفهوم هو عكس مفهوم « النمو الطبيعى » ، ويبدو هذا النمو واضحا فى الشق الطبيعى (Physical) من البيئة التى يعيش فيها أعضاء المجتمع .. أى مجتمع . والملاحظ أن هذا الشق له تأثيره على الشق الثقافى الاجتماعى .. والأمثلة على هذا النمو نجدها واضحة وجلية فى أطراف مدينة كمدينة القاهرة ، حيث توجد « العشش » و« الأكواخ » ، وحيث تستباح القيم الاجتماعية ذات الأهداف غير الحميدة ، وحيث نجد حياة الأفراد الذين يسكنونها يحيون حياة لا أدمية ، وفضلا عن ذلك حيث نجد الانحرافات بأنواعها والجرائم المنظورة وغير المنظورة يزخر بها المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يظللها .

٥ ـ مفهوم التنمية المخططة

يلاحظ أن « مفهوم التنمية » له **أنماط متعددة** كما أن له معانى متعددة أيضا ، فقد يدل هذا المفهوم على التنمية الشاملة أى التنمية الاجتماعية والتنمية الاقتصادية معا . وقد يدل هذا المفهوم على التنمية الشاملة للمجتمع **ككل** أو على مجرد **التنمية المحلية** حضرية كانت أو ريفية .

ومهما يكن من الأمر فمن المعلوم أن مفهوم التنمية أو تنمية المجتمع قد استخدم على المدى الواسع دوليا فى عام ١٩٤٨ ليعنى :

« العمليات التى عن طريقها **تتوحد جهود المواطنين مع جهود السلطات الحكومية** لتحسين أحوال المجتمعات المحلية الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، ولادماج هذه المجتمعات فى حياة الأمة ، ولتيسير اسهامها فى التقدم القومى بأقصى قدر مستطاع » .

والملاحظ أن هذه العمليات تتضمن عنصرين هامين :

١ ـ أن يشترك أعضاء المجتمع **أنفسهم** (ذكورا أكانوا أو اناثا) فى الجهود التى تبذل لتحسين مستوى المعيشة فى محيطهم على أن تكون **المبادأة** نحو تحقيق هذا الهدف منهم بقدر الامكان .

٢ ـ أن يزود هؤلاء الأعضاء بالخدمات الفنية وغيرها بحيث تشجع المبادأة عندهم وتيسر مساعدتهم لكى يساعدوا **أنفسهم** فضلا عن التعاون بينهم ، لتكون هذه الخدمات أكثر فعالية .

والملاحظ أن « مفهوم التنمية » بالمعنى السابق يعنى أن التنمية قد توجد فى المجتمعات المتخلفة أو ما يطلق عليها أحيانا « المجتمعات النامية » أو « مجتمعات العالم الثالث » ، وهى أى التنمية قد توجد **أيضا** فى مجتمعات « بلاد الوفرة » التى سبقت فى طريق المدنية أو فى طريق التصنيع أو ما يقال عنها « الدول المتقدمة » والتباين فى هذه المجتمعات فى ضوء التنمية التى تحاول أن تحقق أهدافها يكون فى الدرجة أحيانا وفى النوع أحيانا أخرى .

ونجد في مجتمعنا المصرى المعاصر فى ضوء مراحل تاريخه الحديث انه قبل أن يطرق السمع « **مفهوم التنمية بمعناه الشامل** » ، كانت هناك مفاهيم أخرى تتضمن بعض معانى هذا المفهوم ، منها على سبيل المثال مفاهيم « الاصلاح الاجتماعى » و« مكافحة الفقر والجهل والمرض » ، و« الرفاهية الاجتماعية » و« الخدمة الاجتماعية » و« الرعاية الاجتماعية » و« تنظيم المجتمع » ، وقد استخدم مفهوم « التنمية فى المجتمع المصرى » رسميا فى عام ١٩٦٤ بموجب القانون رقم ٣٢ لسنة ١٩٦٤ أى أن هذا المفهوم قد استخدم فى مجتمعنا بعد ستة عشر عاما من استخدامه على المدى الواسع دوليا في عام ١٩٤٨ .

وإذ أتحدث عن « التنمية المخططة » فإننى أقصد بهذا المفهوم فى الواقع التحدث عن **المستقبل** ، أى مستقبل « التنمية الشاملة » فى بلادنا ، أى مستقبل اشتغال المجتمع باستثمار مصادر الثروة والقوة التى يملكها لاشباع حاجاته **المتطورة** المسايرة للعلاقات الاجتماعية المتكيفة مع الأوضاع الاقتصادية المتجددة ، أى أن « التنمية المخططة » فى ضوء ظروف المجتمع المصرى المعاصر ، وفى ضوء الكثير من عناصره الثقافية ، تقتضى **التزام الموقف العلمى فى التفكير** ، وذلك لأننى أرى أن التخطيط **يستلزم** أن يكون مؤسسا على نتائج بحوث ميدانية واقعية يجريها المتخصصون فى البيئة الشاملة لهذا المجتمع ، حتى يتيسر للمسئولين بالاشتراك مع غيرهم من المثقفين ورجال وسيدات الصفوة فى مجتمعنا أن يضعوا « استراتيجية » محددة المعالم والأهداف المستقبلية ، إن مصر فى مسيس الحاجة إلى هذه « الاستراتيجية » وقد يرى البعض أن هذه الاستراتيجية موجودة ولكن الواقع يقرر أنها غير مستقرة..

وإذ أوجز الكلام فإننى أقول أن « التنمية المخططة » التى تهدف إلى وضع استراتيجية للعمل الجاد فى ضوئها ، هى فى حقيقة الأمر ، بالضرورة ، للانسان المصرى وبالانسان المصرى ، **ومن أجل خلق الامكانات لتحقيق انسانية الانسان المصرى** .

٢ - البيئة المصرية من منظور القيم الانسانية

أولا : المقدمة :

يلاحظ أن مفهوم البيئة بمعناه الشامل مفهوم فضفاض له أشكال متعددة وله أيضا معان متعددة ، منها البيئة الطبيعية أو المادية والبيئة غير المادية أو البيئة الثقافية الاجتماعية ، ويلاحظ ، أيضا ، أن هاتين البيئتين يعيش فيهما الانسان وهما يصنعانه وهو يصنعهما .

ويقصد بالبيئة الطبيعية أو المادية كل الموارد التى أتاحها الله وسخرها للانسان لكى يحصل على مقومات حياته واستمراره ، وهى موارد تتسم بالدقة والتعدد ، فهى الهواء والماء والتربة والمعادن ومصادر الطاقة والمناخ وما تنبته الأرض للانسان الذى يعمل من أجل ذلك ، ويضاف الى كل ذلك الحيوان الذى يروضه الانسان ليفيد منه بعد أن يسخره .

أما البيئة غير المادية أو الثقافية الاجتماعية فتتمثل فى أنواع المعرفة التى تكون مصادرها فى الغالب العقيدة والفن والعلم العصرى وتطبيقاته (أى التكنولوجيا الحديثة) أما العلم غير العصرى وتطبيقاته الذى تجده عادة فى بلاد العالم الثالث ، أقصد التراث الثقافى الاجتماعى الذى يكون فى هذه البلاد ما هو غث ويستحق بل يجب أن يذهب مع الريح ، وما هو ثمين ويستحق بل يجب أن يبقى .

وفى ضوء مراحل التاريخ المصرى القديم ، فى الماضى السحيق ، نلاحظ كما ذكر « هيرودوت » أن مفهوم النظافة كان سائدا وبخاصة فى

محيط الكهان « الذين كانوا لا يرسلون شعورهم » حيث كانت العقيدة تقتضى ذلك ، وحيث كانت الشعائر الدينية تستلزمها ، كانت النظافة أهم ما يشترط أن يتوافر فى الكاهن ، وليس أدل على ذلك من أن أول مراتب الكهانة تشير إلى تلك الحقيقة ، فالكاهن كان يسمى « الطاهر » أو « المطهر » والأصل فى ذلك من فعل « طهر » ، وفى الآداب الدينية نجد أن الحديث بارز عن وجوب تطهير الكاهن الجديد عند تنصيبه فى « بحيرة الكرنك المقدسة » ، كل ذلك على عكس الكهان من قوم « هيرودوت » الذين كانوا ، كما كان الأحبار اليهود ، يرسلون شعورهم .

والتاريخ يذكر لنا أن المصريين الرجال العاديين يطلقون شعر الرأس واللحية عند الموت حزنا ، وكانت لديهم حتى يومئذ محلوقة ، وهذا التقليد ما زال مستمرا حتى الآن وبخاصة فى محيط الذين يسكنون الريف المصرى .

ويلاحظ أن الكهان المصريين ، فى الماضى السحيق ، وخصوصا فى أيام الدولة الحديثة إذا كانوا لا يرسلون شعورهم ، فان كل شعب له عاداته وتقاليده الخاصة ، فنجد من الشعوب من يرى أن استكمال الزينة يكون فى تطويل شعر الرأس وتصفيفه ، وارسال شعر اللحية وتمشيطه ، اما كهان آل فرعون فقد كانت زينتهم ، كما مر بنا ، فى نظافة الرأس من الشعر ، أى ان الحلاقة لديهم كانت من مكملات الزينة .

وكانوا أقصد المصريين القدامى يتغوطون فى بيوتهم معتقدين ان الضرورات القبيحة يجب أن تؤتى فى الخفاء ، وكانوا يمارسون ختان الذكور حرصا على النظافة والطهارة ورعاية لصحة البدن (انظر كتاب محمد صقر خفاجة : « هيرودوت يتحدث ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٦ ، صفحات ١١٨ و١٢٠ و١٢١) .

وفى ضوء تعاليم الديانة المسيحية نجد أن الطهارة قد تكون طهارة السجية والحياة ، وتشع هذه التعاليم بمفهوم « التطهير » ، ونلاحظ أن الطهارة والتطهير يتضمنان عناصر البيئة الطبيعية أو المادية ،

وعناصر البيئة غير المادية أو الثقافية الاجتماعية .

« وإنما أقول اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد » .

(رسالة بولس الرسول إلى أهل غلاطية : إصحاح : ٥ : آية ١٦)

« وطهروا نفوسكم فى طاعة الحق بالروح وللمحبة الأخوية العديمة الرياء ، فأحبوا بعضكم بعضا من قلب طاهر بشدة » .

(رسالة بطرس الرسول الأولى : إصحاح ١ : آية ٢٢)

« وأيها الأحباء أطلب اليكم كغرباء ونزلاء أن تمتنعوا عن الشهوات الجسدية التى تحارب النفس » .

(رسالة بطرس الرسول الأولى : إصحاح ٢ : آية ١١)

« وكما ان قدرته الألهية قد وهبت لنا كل ما هو للحياة والتقوى بمعرفة الذى دعانا بالمحبة والفضيلة للذين بهما قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكى ليصيروا بها شركاء الطبيعة الالهية هاربين من الفساد الذى فى العالم بالشهوة ، ولهذا عينه وانتم باذلون كل اجتهاد قدموا فى ايمانكم فضيلة وفى الفضيلة معرفة وفى المعرفة تعففا وفى التعفف صبرا وفى الصبر تقوى وفى التقوى مودة أخوية وفى المودة الأخوية محبة ، لأن هذه إذا كانت فيكم وكثرت تصيركم لا متكاسلين ولا غير مثمرين لمعرفة ربنا يسوع المسيح ، لأن الذى ليس عنده هذه هو أعمى قصير البصر قد نسى تطهير خطاياه السالفة » .

(رسالة بطرس الرسول الثانية : إصحاح ١ : آيات ٣ ـ ٩)

والمعلوم أن علاقة الانسان ببيئته قديمة قدم وجوده ، وهى مختلفة من حيث سطحيتها وعمقها باختلاف قدراته وحاجاته ، فمن علاقة بسيطة تهدف إلى اشباع حاجات أولية بقدرات أولية يدوية تتسم فيها العلاقة من جانب الانسان بالدفاع عن حياته الى علاقة توجهها تحديات تتمثل فى عدد متزايد من بنى البشر وتراث فكرى وحضارى مسلح بإحدث وسائل الابداع العلمى وتطبيقاته أى ما يسمى بالتكنولوجيا ، ومطالب الانسان تتزايد وتتغير من مجرد الاشباع الأولى الى طموحات ترفيهية مما أعطى هذه العلاقة شكل الغلبة والسيطرة للانسان أو ضد انسان (الضوضاء والسفن المحملة بالشحنات والنفايات الكيمياوية

السامة مثلا) ، وقد أظهرت نتائج بحث « جامعة أسيوط » ، ان كل مواطن يخسر ٥٥ جنيها سنويا نتيجة التلوث وان مصر كلها تخسر سنويا ٦٠ مليونا لتلوث نهر النيل فضلا عن الخسائر المتعلقة بالنواحى الجمالية (انظر : جريدة الأهرام فى يوم ١١/٩/١٩٨٨) .

ولا يختلف اثنان عن القول المأثور « النظافة من الايمان » فنجد أن تعاليم الدين الاسلامى تذكره ، وكذلك نجد أن العقل الرشيد لا ينفيه ، وأقصد بالعقل الرشيد هنا العقل النظيف من أهداف التلوث الثقافى الذى نلاحظه فى العديد من قنوات الاتصال وبخاصة التى توجد فى الصحافة اليومية وبعض المجلات الأسبوعية فضلا عما تبثه أحيانا الاذاعة المسموعة أو نشاهده ونسمعه على الشاشة الكبيرة وعلى الشاشة الصغيرة .

وفى ضوء آيات القرآن الكريم نجد الحض على النظافة :

« إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » (سورة البقرة : آية ٢٢٢)

و« خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » (سورة التوبة : آية ١٠٣)

و« وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به » (سورة الأنفال : آية ١١)

أما أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فنجد :

« تخللوا فانه نظافة والنظافة تدعو إلى الايمان والايمان مع صاحبه فى الجنة » رواه الطبرانى .

و« الطهور شطر الايمان » رواه أحمد ومسلم والترمذى .

و« إن الله جميل يحب الجمال ، ويحب ان يرى أثر نعمته على عبده ، ويبغض البؤس والتباؤس » رواه البيهقى عن ابى سعيد .

ومع وجود عناصر هذا التراث الناصع منذ الماضى السحيق نلاحظ أن أدران التلوث الثقافى ، وهو أمر خطير جدا ، تلاحقنا ، أقصد تلاحق أعضاء المجتمع المصرى المعاصر وبخاصة الأعضاء من

الشباب ، ذكورا كانوا أو اناثا ، الذين يعيشون مرحله المراهقه المتأخرة من سن ١٥ ـ ٢٥ (نحو ٣١٪) ، وسأضرب مثلا يؤرقنى ، كما أرجو أن يكون محل النفور من السادة الأفاضل القراء .

فنحن نلاحظ ، مثلا ، فى بعض قنوات الاتصال (وبخاصة الصحافة اليومية وبعض المجلات الأسبوعية) ما يسمى بـ « حظك اليوم » الذى يهدف إلى الاشادة بالتنجيم الذى عفى عليه الزمان ، وقد نجد هذا النوع من التنجيم جنبا إلى جنب مع ما يسمى « عمود العلوم » ، وهو باب يهدف إلى رواج تطبيق المنهج العلمى العصرى الذى نحن المصريين فى ضوء ظروفنا الثقافية والاجتماعية فى مسيس الحاجة إلى تحقيق نتائجه التطبيقية ، وبخاصة ، ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، وهذه النتائج أصبحت مصدرا هاما من مصادر التغير الثقافى الاجتماعى فى كل المجتمعات الانسانية ، فنحن نعيش فى حقيقة الأمر فى ظل حضارة عالمية ، نجدها فى كل مكان فى العالم الذى نعيش فيه فى الوقت الراهن ، ان هذا العالم أصبح لعوامل عديدة مجرد قرية صغيرة بل نراه يتقلص فى كل يوم بل فى كل ساعة وفى كل دقيقة وثانية .

ولننظر مثلا إلى ما تحقق فى ميادين ومجالات الطب والفلك وحتى أدوات الدمار ، ونحن فى وقتنا الحالى قد اجتزنا عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطاقة النووية ، وأصبحنا فى الوقت الحاضر فى عصر الالكترونيات ، ذلك العصر الذى يسر للانسان تحقيق التنمية المادية والمعنوية ، وجعل من « الكومبيوتر » ذاكرة للانسان ويسر له التفكير واجراء التجارب التى لم يكن يحلم بها البشر من قبل .

وأقصد بالتنمية المادية تنمية البيئة الطبيعية أو المادية بالمعنى الذى ذكرته من قبل ، وكذلك فاننى أقصد بالتنمية المعنوية ما قصدته بتنمية البيئة غير المادى أو البيئة الثقافية الاجتماعية بالمعنى الذى ذكرته من قبل ، ولكننى أضيف إلى هذين المعنيين أن تحقيق كلا من نوعى التنمية سيكون بالضرورة عن طريق التغير الاجتماعى المقصود

أى تغير المجتمعات الانسانية المخطط .

واننى أرى وأرجو من القارىء الكريم أن يرى ما أرى ان من يقرأ « حظك اليوم » ويقرأ « عمود العلوم » لن يفيد من الأخير الا النذر اليسير ، أو قد لا يفيد شيئا فهما يحيدان بعضهما البعض وذلك اذا كان القارىء حريصا على قراءة « عمود العلوم » المشار إليه . وذلك لأن القراء ، فى ضوء نتائج أحد البحوث العلمية الذى أشرفت عليه ، وبخاصة الاناث منهم ، والعديد من الذكور ، تراهم يلهثون وراء التعرف على حظوظهم وهم يعيشون حياتهم ، تماما كما يفعل الكثير عندما يتهافتون على من يقرأ « الفنجان » أو من يفتح « الكوتشينة » أو يقرأ « الكف » وغير ذلك .

وأرجو أن يلاحظ أننى لا أخص بالذكر عمود « حظك اليوم » ولكنى اذكر معه « أنت والنجوم » وغيرهما من المسميات التى أراها تلوثا معنويا ، واننى أذكر عندما تحدثت مع المسئولين على هذه القنوات أو الرسائل الأخرى الاتصالية ، قيل لى أن قراءهم ليسوا بالكثير فالأمية (وهى فى رأيى تلوث ثقافى) تنتشر فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى لاتزال (تعداد ١٩٨٦ : ٤٩,٤٪ الأفراد من سن ١٠ سنوات فأكثر ، ونسبة الذكور ٣٧,٨٪ ونسبة الاناث ٦١,٨٪) .

وما ذكرته فى الجزء السابق يهتم بالنظافة المعنوية فى مجتمعنا ، لأن النظافة التى هى ضد « التلوث » ليست مقصورة ، كما ذكرت من قبل راجيا أن يوافقنى القارىء الكريم على ذلك ، على الماديات فقط ، وذلك لأننى أرى وأرجو من القارىء الكريم أن يرى ما أرى أن وجود الانحرافات بأنماطها وصورها ان هى الا تلوث بيئى تماما كما نصف « التلوث المادى » كالتلوث فى الشوارع أو فى نهر النيل الخالد أو تلوث الاشعاعات النووية ، وما ينجم عنها من أخطار للانسان والحيوان والنبات جميعا .

إن عدم وجود النظافة المعنوية ، وأرجو أن لا يمل القارىء الكريم ، هذا التكرار هو فى حقيقة الأمر أخطر وأضر على المجتمع أى مجتمع

وبخاصة فى ضوء الظروف الراهنة .

ومع ذلك فإن ماهو خير موجود يصارع أحيانا ماهو شر فيصرعه ، والعكس صحيح ، وأرجو أن يسمح لى أن أذكر احدى التجارب التى ذكرها زميلى المغفور له محمد محمد شلبى وهو يعمل كاخصائى اجتماعى فى « قرية المنايل » (مركز شبين القناطر) ، كان رحمه الله الكريم المتعال يعمل كانسان يحاول ما استطاع أن يحقق انسانية الانسان ، وليسمح لى القارىء الكريم أن أتحدث عن العمل الانسانى في احدى قرى الريف قبل أن أتحدث عنه فى احدى المدن فى الحضر الذى كاد أن يصبح متريفا ، أقصد العمل الانسانى الذى تقوم به جمعية اجتماعية مثل « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » ، ذلك الحى الذى يفصله عن حى الزمالك « كوبرى صغير » وكاد أن يصبح فى الوقت الحاضر فى منتصف مدينة القاهرة عاصمة جمهورية مصر بل عاصمة قارة افريقيا .

يقول لى الزميل الفاضل المغفور له محمد محمد شلبى فى احدى دراساته (أنظر : كتاب سيد عويس ، نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر ، تاريخ شخصى ، القاهرة دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧٣ ، صفحات : ١٢٥ ـ ١٢٨) .

« ... كانت القرية ، « يقصد قرية المنايل » كغيرها من القرى ، شوارعها قذرة وتتراكم على جوانبها أكوام السباخ ، وتبدو على أهلها أعراض المرض ، وتعلو وجوههم صفرة ، وتشكو أجسامهم ضعفا ، وكانت ملابسهم قذرة وجلودهم يعلوها طبقة ظاهرة من الأوساخ ، وكانوا يتحركون حركات تدل على انتشار « حشرات القمل » فى أبدانهم وفى ملابسهم ، لذلك كان اهتمامنا (يقصد اهتمام الحكيمة تحت اشرافه) بالنظافة الشخصية والنظافة العامة للقرية . وخطونا فى هذا السبيل خطوات واسعة موفقة ، كان أساسها الارشاد والاقناع .

ولما أنشئت الحمامات بدار رعاية الأم والطفل (التى تشرف عليها الحكيمة) قمنا بدعاية واسعة النطاق لاستعمالها ، وصرفنا الصابون

والمناشف والمياه الساخنة فى الشتاء بدون مقابل ، وشجعنا المواطنين من الأطفال بشارات تعلق على صدورهم من القماش .

أما الرجال فقد ألحق بدورة مياه المسجد حمامان .

ثم قمنا بوضع خطة لنظافة القرية عموما ، فبدأنا بنظافة الشوارع ، وتم ذلك بالتدريج ، بدأنا برفع أكوام السباخ من الشوارع ونقلها إلى أماكن حددناها خارج القرية أو إلى الحقول مباشرة ، ثم القيام بنظافة الشوارع يوميا بنظام تعاونى .

وبعد ذلك وجهنا العناية إلى نظافة المنازل من الداخل ، وأصبح بمرور الزمن دخول الحكيمة إلى المنازل ميسورا فى أى وقت بعد أن كان ذلك متعذرا من قبل ، وكانت سيدات المنازل يتقبلن ملاحظاتها عن النظافة وترتيب أثاث المنزل بنفوس راضية .

وكانت لمياه الشرب فى تجاربنا أهمية عظمى ، فإن الفلاح المصرى يعانى الكثير من الأمراض بسبب موارد المياه التى يستعملها عادة وهى الترعة والمسقاة المجاورة للقرية ، وتضمنت هذه التجارب ما أثاره الزميل شلبى من اهتمام بهذه المشكلة عندما جلس مع بعض رجال القرية على شاطىء الترعة . ثم جرى الحديث عن مياه الشرب ، وشرح للمجتمعين من قادة القرية شيئا عن الأضرار التى تصيب الانسان من إستعمال الترعة للشرب لما فيها من حيوانات ميتة قد تعفنت وبقايا فضلات المنازل ، فضلا عما تحمله من الطفيليات ثم ذكر أن كل ذلك يلوثها ويجعلها نجسة ولا تصلح للشرب ، وبعد أن انتهى من حديثه انبرى احد الجالسين الى معارضته قائلا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الماء لا يحمل نجاسة أكثر من أربعين قدما » .

ثم يعترف المغفور له زميلى محمد محمد شلبى بارتباكه ، لأن القائل قد ارتكز فى حجته على حديث نبوى ، وسواء كان هذا الحديث صحيحا أو غير صحيح ، فان عليه أن يثبت عدم صحته أو أن يدفع الحجة بحجة أقوى منها ، وليس أقوى من الحديث النبوى الا القرآن

الكريم ، ولكن لم يحضره من آيات القرآن الكريم ما ينقذه من هذه « الورطة » .

وقال أحد الحاضرين متسائلا قاصدا إحراج الزميل : « قرفنا من مياه الترعة التى اعتدنا شربها فمن أين نشرب إذن ؟ فقال الزميل : إن أحسن وسيلة الطلمبات ، فقال من تولى الاحراج : ولكنها غير متوافرة ، فذكر المغفور له محمد محمد شلبى قائلا : ان اللجنة التى شكلها مجلس ادارة الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية ، وهى المشرفة على تجربة إصلاح قرية المنايل ، على استعداد للمساعدة فى هذا السبيل » .

واشتريت الطلمبات وكانت ثلاث وزعت فى ثلاث جهات لكى تمد القرية جميعها بالماء الصالح للشرب ، واهتم أهل القرية بهذه الطلمبات وأخذوا يشربون من مائها وخصوصا عندما اقتنع قادة أهل القرية وذلك « باستخدام المجهر » (الميكروسكوب) بقصد التعرف على الفرق بين عينات المياه المأخوذة من « الترعة » مباشرة ومن « الزير » ومن « تحت الزير » ومن « الطلمبة » ، وعندما تشكك أحدهم فى أن المخلوقات الدقيقة التى تسبح فى ماء الترعة قائلا : انها من زجاج المجهر ، وضعت تحت العدسة زجاجة من غير ماء فلم يجد بها شيئا ، ولم يلبث الجميع حتى ، اقتنعوا ، وكانوا يتحدثون وهم فى دهشة عما رأوه بنظارة المجهر ! ! ! » .

وفي مدينة القاهرة التى تعيش فى الوقت الراهن تحت ضباب « عادم » السيارات والأتربة والدخان الذى يخرج من المصانع والضوضاء وغير ذلك مما يلوث البيئة التى يعيش أعضاء مجتمعها بين جنباتها ـ يوجد « حى بولاق » ، وقد لاحظ مؤسسو الجمعية وعلى رأسهم السيدة الزا ثابت شفاها الله ومتعها بالصحة والعافية ، إن هذا الحى ، ليس فقط منطقة ملوثة بل هو أيضا منطقة تفريخ للجانحين والمجرمين وبخاصة الأحداث من الأعضاء الذين يعيشون فيه .

وكانت أهداف هذه الجمعية منذ انشائها فى عام ١٩٤٧ وحتى الآن ما يلى :

١ ـ العمل على دراسه المشكلات الاجتماعيه فى حى بولاق ومعالجتها .
٢ ـ بذل المساعدات الاجتماعية للأسر التى تحتاج إلى مساعدة .
٣ ـ إثارة الوعى الثقافى الاجتماعى والصحى بين أهالى حى بولاق .
٤ ـ الاسهام فى المشروعات الاجتماعية العامة .

وقد حرصت الجمعية منذ نشأتها على اتخاذ المنهج العلمى نبراسا لها ، وكان رائدها محاولة فهم المشكلات عن طريق دراستها دراسة علمية ، وإثارة الوعى بين الأفراد والجماعات لمعرفة مشكلاتهم وكيفية التغلب عليها ، وحرصت الجمعية دائما على القيام بعمليات تنمية أعضائها ومن يلوذون بهم من أقرباء مقربين أو غير مقربين أو من أصدقاء وزملاء كى يتغلبوا على متاعبهم فى حى بولاق ، وهذه هى العمليات التى يعتبرها المتخصصون فى مهنة الخدمة الاجتماعية فى الوقت الحاضر بأنها « عمليات التنمية الحضرية المحلية » .
(The local urban Development Processes)

وقد اتخذت الجمعية لكى تتحقق هذه الأهداف مبادىء اعتمدت عليها فى كل أعمالها وهى :
١ ـ الاعتماد على العاملين المهنيين مع الايمان بالتطوع غير المشرف .
٢ ـ الاعتماد على الاسلوب العلمى فى مواجهة تحقيق الأهداف .
٣ ـ الاعتماد على ولاء السادة أعضاء الجمعية العمومية وذلك باستمرار عضويتهم . ومن ثم يتحقق الاستقرار لكى تؤدى الجمعية دورها الفعال .
٤ ـ الاعتماد على تكوين الكوادر القيادية من أعضاء الجمعية للخروج بمبدأ الحكم الذاتى من حيز التدريب الى الحيز العملى الواقعى .
٥ ـ محاولة تحقيق الاستقلال الاقتصادى الذاتى للجمعية لضمان استمرار وجودها ، أى لكى يستمر القيام بعمليات التنمية الحضرية فى

حى بولاق جيلا بعد جيل .

ونظرة إلى أهداف هذه الجمعية فانها تؤكد خلق وارساء عناصر « المواطنة الصالحة » بين أعضائها ، وأمل الجمعية معقود على أن يتم ذلك فى ضوء قيم التراث الثقافى المصرى التى عاش بها ومن أجلها أعضاء المجتمع المصرى العريق مثل قيم المحبة من أجل الحياة ، والتسامح من أجل رفعة الانسان ، والمشاركة الايجابية من أجل البناء والتضامن من أجل فعل الخير وغيرها وغيرها ، وتحقيق هذه القيم وكلها ذات أهداف حميدة ومثيلاتها من أجل توطيد المجتمع المصرى هو الرجاء الذى تسعى اليه الجمعية ، ومن أجل الانسان على وجه العموم فان تحقيق هذه القيم ومثيلاتها يؤكد الأصالة المصرية ، وهو ما ترنو إليه الجمعية منذ نشأتها وحتى وقتنا الراهن (بحث علمى : سيد عويس « تجربة فى التنمية الحضرية المحلية » ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، صفحة ٢٠ وصفحات ٢٧ ـ ٣٠) .

ولعل القارىء الكريم ان ينظر إلى ما تضمنته رسالة « بولس الرسول » إلى أهل رومية آيات : ١٢ ـ ٩ .

« المحبة : فلتكن بلا رياء ، كونوا كارهين الشر ، ملتصقين بالخير وادين بعضكم بعضا بالمحبة الأخوية ، مقدمين بعضكم بعضا فى الكرامة ، غير متكاسلين فى الاجتهاد ، حارِّين فى الروح ، عابدين الرب ، فرحين فى الرجاء ، صابرين فى الضيق ، مواظبين على الصلاة ، مشتركين فى احتياجات القديسين ، عاكفين على اضافة الغرباء ، باركوا على الذين يضطهدونكم ، باركوا ولا تلعنوا ، فرحا مع الفرحين وبكاء مع الباكين ، مهتمين بعضكم لبعض اهتماما واحدا غير مهتمين بالأمور العالية بل منقادين الى المتضعين ، لا تكونوا حكماء عند انفسكم ، لا تجاوزوا أحد عن شر بشر ـ معتنين بأمور حسنة ، قدام جميع الناس ، ان كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس ، لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء بل أعطوا مكانا للغضب لأنه مكتوب لى النقمة أنا أجازى يقول الرب ، فان جاء عدوك فأطعمه وأن

عطش فاسقه ، لأنك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه لا يغلبنك الشر بل أغلب الشر بالخير » .

وانني أرجو ان لايكون حديثي هذا طويلا أو مملا ، فما أردت ألا أن أغلب الشر بالخير ما استطعت أسوة بالرسل والأنبياء والقديسين والأولياء .

« فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » .
(سورة الزلزلة آية ٧ وآية ٨)

وفي ضوء ماسبق .. كل ماسبق ، يمكن أن نستخلص بعض النتائج منها ما يلى :

١ ـ إن مفهوم البيئة مفهوم شامل : اشكاله متعددة ومعانيه أيضا متعددة ولعل أهم أشكال هذا المفهوم : البيئة المادية أى الطبيعة ، والبيئة الثقافية الاجتماعية التى تتضمن الأهداف الانسانية والقيم الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة منها وغير الحميدة .

٢ ـ وانه منذ الماضى السحيق نجد أن المصريين القدامى منهم والمحدثين يعتبرون « النظافة » نبراسا لهم وهدفا ، وان « الطهارة » دينا لهم .

٣ ـ وان علاقة الانسان بالبيئة قديمة قدم وجود الإنسان ، وهى مختلفة من حيث سطحيتها وعمقها باختلاف قدراته وحاجاته ، فقد تكون هذه العلاقة بسيطة تهدف الى اشباع حاجات أولية بقدرات أولية .

٤ ـ ومهما يكن من الأمر فانه اذا كانت البيئة « الشاملة » تصنع الانسان فان الانسان بمرور الزمن يصنعها فى ضوء مطالبه المتزايدة .

والملاحظ أن الثمن الذى يدفعه الانسان اذا زادت طموحاته يكون فى العادة ثمنا باهظا .

٥ ـ والنظافة كقيمة ذات أهداف حميدة تتفق تماما مع تعاليم الديانة المسيحية والديانة الاسلامية ، وهما الديانتان السائدتان فى المجتمع المصرى . ومع ذلك نجد فى المناخ الثقافى الاجتماعى قيما ذات

أهداف غير حميدة وقد تضمنت الدراسة الحالية بعض الأمثلة منها ذكرتها فى حينها من قبل .

٦ ـ وقد أوضحت الدراسة الحالية بجلاء وجود « ظاهرة الازدواجية الثقافية » التى تعنى فى بساطة أن كل ما يقال لا يمارس .

ثانيا : الخاتمة :

كان بودى أن أقترح بعض التوصيات فيما يتعلق بمكافحة ما يترتب على آثار تلوث البيئة ، ولكنى لاحظت أنه على الرغم من وجود التشريعات الخاصة بمشكلات التلوث فى جمهورية مصر ، واهتمام المشرع المصرى بها منذ أوائل القرن الحالى ، وعلى الرغم من أن هذه التشريعات كانت تتعلق بالصحة العامة فى الأغلب الأعم ـ فقد تبين أن التشريعات وحدها لم تجد ، وذلك لأن الاشراف على تنفيذها مع الاهتمام بتربية أعضاء المجتمع لكى يأخذوا بها ويحترموها لم يكن سهلا وميسرا فى كل الحالات .

والمقصود بالتشريعات التى تعنى بالصحة العامة هو العناية بالبيئة الطبيعية مثل الهواء والماء والنبات والحيوان والضوضاء ، ومن الأمثلة على هذه التشريعات وبخاصة ما تعلق منها بالصحة العامة ، قانون ٧٦ لسنة ١٩٤٦ الذى اهتم بردم البرك والمستنقعات ، وقانون ٣٦ لسنة ١٩٦٧ الخاص بالنظافة العامة المتعلقة بالنفايات وفضلات الأغذية (القمامة) من حيث جمعها وتخزينها وجمعها ونقلها والتخلص منها ، وبناء الأسوار حول المناطق غير المستعملة وبخاصة التى تكون عاملا من عوامل التهديد بالصحة العامة .

ولعل من أهم التشريعات تلك التى تهتم بتعرض ألوان الطعام إلى عوامل الضرر بها وبخاصة اذا كانت مستوردة من الخارج ، والتى تهتم بالحماية من الهواء والماء والزراعة والضوضاء ، (بحث علمى إجراء أحمد عصام المليجى باللغة الانجليزية ، والمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، ورقة عمل عن التشريعات الوقائية للبيئة ،٠ ١٩٨٧) .

ومع ذلك فاننى أؤكد ما سبق أن ذكرته من قبل من ان القوانين شيء وتنفيذها شيء آخر. وان ما يقال شيء وما يمارس شيء آخر ، وان العبرة كل العبرة فى ان يقتنع اعضاء المجتمع بما تنص عليه القوانين ، وذلك بغرس الشعور بالانتماء للوطن المفدى فى نفوسهم ولن يحدث ذلك الا بالتربية التى تبدأ بجهاز الأسرة وبالجيرة وبالمدرسة وبالمؤسسة الدينية وبمؤسسة شغل أوقات الفراغ والمنظمات السياسية (ان وجدت) - وتنتهى بأجهزة الإعلام والثقافة .

٤ ـ الأساطير والخرافات فى تراثنا والعلم العصرى والتكنولوجيا الحديثة

من الملاحظ أن نتائج العلم العصرى والتكنولوجيا الحديثة تحيط بنا فى كل مكان وبخاصة ونحن على مشارف القرن الواحد والعشرين ، ان هذه النتائج هى مصدر هام من مصادر التغير الثقافى الاجتماعى فى كل المجتمعات سواء أكانت صناعية متقدمة أم مجتمعات نامية على إختلاف مستوياتها ، فنحن نعيش فى حقيقة الأمر فى ظل حضارة عالمية ، نجدها فى كل مكان فى العالم الذى نعيش فيه فى الوقت الراهن ، ان هذا العالم أصبح لعوامل عديدة مجرد قرية صغيرة ، بل نراه يتقلص فى كل يوم بل فى كل ساعة وفى كل دقيقة وثانية .

ولننظر مثلا الى ماتحقق فى ميادين ومجالات الطب والفلك وحتى أدوات الدمار ، ونحن فى وقتنا الحالى قد اجتزنا عصر البخار وعصر الكهرباء وعصر الطاقة النووية ، وأصبحنا فى عصر الالكترونات ، ذلك العصر الذى يسر للانسان تحقيق التنمية المادية والمعنوية ، وجعل فى الكومبيوتر ذاكرة للانسان ويسر له التفكير واجراء التجارب التى لم يكن يحلم بها البشر من قبل .

وأقصد بالتنمية المادية كل ما يتعلق ببناء المدن وتنمية الزراعة وتنوعها فضلا عن تنمية الحيوان ، وربما فى وقت قريب فى ضوء نتائج تجارب الهندسة الوراثية الجارية فى الوقت الراهن ان يكون للانسان نصيب فى هذه التنمية .

والتنمية المعنوية فى رأيى تلك التى تتصل اتصالا وثيقا بأهداف حياة الانسان الذى يعيش على وجه المعمورة ، فهى تتعلق بأنماط

سلوكه وعاداته وتقاليده ، وربما بصور اعتقاداته ، وأنني أرى أن تحقيق هذه التنمية سيكون بالضرورة عن طريق التغير الاجتماعى المقصود أى تغير المجتمعات الانسانية المخطط .

وعلى الرغم مما سبق أن ذكرته نجد أوكار الأساطير والخرافات لا تزال باقية وبخاصة فى البلاد النامية أو كما يقال عنها أحيانا بلاد « العالم الثالث » ، أقصد باقية فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يسود مجتمعاتها ، فتراها تعيش فى أدمغة أبناء هذه البلاد ذكورا أو اناثا ، وبخاصة كبار السن منهم والعديد من الشباب .

والملاحظ أن مفهوم « الأساطير » يعنى ، لغة ، الأباطيل والأحاديث العجيبة ، أما مفهوم الخرافة ، لغة ، فانه يعنى « الحديث المستملح من الكذب » (أنظر : مجمع اللغة العربية : « المعجم الوسيط » الجزء الأول ، دار المعارف ، عام ١٩٨٠) .

وفى ضوء مراحل التاريخ ، نجد الأساطير المتنوعة فى العالم القديم وبخاصة فى المجتمع المصرى العربى لاتزال مستمرة ، وتتألف هذه الأساطير غالبا من قصص الأرباب والأبطال من حيث مولدهم وموتهم ، وحبهم وبغضهم ، وأحقادهم ومؤامراتهم ، وانتصاراتهم وهزائمهم ، وأعمال الخلق والتدمير ، وهناك غير قليل من الأساطير القديمة ما يتعلق منه بالخلق ونظام الكون وشكل الانسان وحتى إقامة الحضارة . (انظر كتاب صموئيل نوح كرمر ، ترجمة أحمد عبدالحميد يوسف ، مراجعة عبدالمنعم أبوبكر ، « أساطير العالم القديم » القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٤ ، صفحة ٧) .

وفى ضوء نتائج البحوث والدراسات العلمية التى قمت باجرائها أو أشرفت على إجرائها وبخاصة ما تعلق بظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى ، وهى ظاهرة قديمة قدم الدهر ومازالت مستمرة ، لم أستطع أن أخفى دهشتى وعجبى من بعض الحقائق التى وصلت إليها ، وبخاصة الحقائق التى تتعارض مع تعاليم الدين الإسلامى الذى يعتنقه مرسلو هذه الرسائل .

ويبين البحث الذى يضمه كتاب « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر . ظاهرة ارسال الرسائل إلى ضريح الامام الشافعى » ، أن الشكوى الى الموتى وطلب قضاء الحاجات منهم ، من الأمور التى كان يمارسها أجدادنا المصريون القدماء ، واتجهت إلى التساؤل عن موضوع العناصر الثقافية الاجتماعية الباقية من الحضارات القديمة والعوامل التى تساعد على ابقائها على الرغم من تغير بعض العناصر الثقافية الاجتماعية الأخرى فى المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يوجد فى المجتمع .. أى مجتمع . لماذا ، مثلا ، كما يبدو ، ان الدين الاسلامى الحنيف لم يغير نظرة المصريين نحو ظاهرة الموت ونحو الموتى منذ أن اعتنقه هؤلاء ودخولهم فيه ، أى منذ عام ٦٤٠ ، ٦٤١ ميلادية .. ؟ أى على الرغم من مرور حوالى ١٣٢٥ عاما ميلاديا .

وتساءلت مرة أخرى قائلا : هل يكفى ان نقول ان مرسلى الرسائل إلى ضريح الإمام الشافعى ومن على شاكلتهم (تأكد للباحث ان المصريين المسيحيين يرسلون رسائل إلى قديسيهم الموتى طالبين منهم بعض الأمور أو يشكون إليهم آخرين) ، أشخاص مارقون ، قد أعماهم الجهل بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف ، والدين منهم براء ، ولم تقنعنى هذه الاجابة ، وبدت فى تصورى أنها أسهل الاجابات وأيسرها ، ولكن ليس أسهل الأمور ، كما يعلم القارىء الكريم ، أصحها .

ثم توالت التساؤلات بقصد الوصول إلى العوامل الموضوعية لوجود ظاهرة إرسال الرسائل إلى الموتى ، ومن هذه التساؤلات لاحظت أن البعض يذكر أن وجود هذه الظاهرة حتى وقتنا الراهن مرجعه الى أنها نشأت نشأة طبيعية أصيلة ولم تكن مستعارة من الخارج ، ومن ثم نجد استمساك المصريين المعاصرين بها ، وبدا لى أن تغير بعض العناصر الثقافية الاجتماعية فى المناخ الثقافى الاجتماعى وحده لا يكفى ، فلعل تغير بعض العناصر الثقافية الاجتماعية القديمة على الرغم من كون نشأتها القديمة أصيلة ، لا يرجع ، وحده ، إلى تغير

المناخ الثقافى الاجتماعى فى المجتمع الذى توجد فيه ، أى لعل بقاء بعض العناصر الثقافية الاجتماعية فى المجتمع القديم واستمرارها على مر الأيام يرجع الى أمور أخرى غير تغير المناخ الثقافى الاجتماعى ، أو تغير بعض نواحيه ، فى المجتمع الذى تبقى فيه ، أو لعل بعض العناصر الثقافية الاجتماعية فى المناخ الثقافى الاجتماعى قد تتغير وتبقى فى الوقت نفسه بعض العناصر الثقافية الاجتماعية الأخرى . أى لعل حدوث التغير فى المناخ الثقافى الاجتماعى لا يكون متعادلا دائما ، وأخيرا وليس آخرا ، لعل ظروف النشأة الطبيعية الأصيلة التى أوجدت الظاهرة ، التى نحن بصددها ، أو ما يماثل هذه الظروف ، لا تزال قائمة ! .

ومن وجهة النظر الأخرى أذكر أنه اذا كان تغير المناخ الثقافى الاجتماعى ، وحده أو تغير بعض نواحيه لا يكفى فى تغير العناصر الثقافية الاجتماعية ، كلها أو بعضها ، فهل يعنى ذلك ضرورة وجود الاستعداد لهذا التغير عند أعضاء المجتمع ؟ وكيف يوجد الاستعداد عند أعضاء المجتمع أو حتى عند قادته ؟ هل يأتى الاستعداد عن طريق القهر ؟ هل يحتاج تكوين الاستعداد إلى مدة كافية ؟ هل يحتاج تكوين الاستعداد إلى ممارسة ؟ هل يحتاج تكوين الاستعداد إلى توعية معينة مستمرة ؟ وهل يكفى وجود الاستعداد للتغير عند أعضاء المجتمع ، أو حتى عند قادته ، وحده ؟ وإذا كان الجواب عن هذا السؤال بالنفى فهل لابد من وجود الامكانات التى تحقق مطالب هذا الاستعداد ؟ وما هذه الامكانات ؟ .

ثم استدركت قائلا : لماذا غيّر المصريون ، على مدى تاريخهم القديم المستمر ، الكثير من العناصر الثقافية الاجتماعية المادية منها وغير المادية ، لماذا جدد الزارع المصرى فى الحقل أدواته فى الزراعة والرى ونوّع فيها على مر الزمن ؟ لماذا جدد أنواع محصولاته فأضاف إليها نباتات جديدة من وقت لآخر ؟ لماذا جدد أنواع الحيوان المستأنس وأضاف إليها مالم يكن معروفا من قبل ؟ ولماذا غيّر المصريون لغتهم التى يتكلمون والتى يكتبون بها أكثر من مرة فى خلال

الاستعمار الطويل الذى عاناه المصريون مسئول عن قهر وجود الاستعداد للتغير فى محيط بعض العناصر الثقافية الاجتماعية ؟ هل كانت رواسب الظلم والقهر والاستبداد الناتجة عن هذا الاستعمار الطويل مسئولة عن معاناة الكثير من المصريين المستمرة ، من مواجهة المجهول ، ومن ثم نجدهم مستمسكين بمواجهة الانتظار فى صوره المختلفة ؟ .

ولاحظت أن محاولة الخوض فى هذه الموضوعات الخطيرة على المستوى النظرى فحسب ، محاولة لا تجدى كثيرا ، ورأيت ، بحق ، ان الدراسة الميدانية العلمية أجدى ما فى ذلك من شك (أنظر الكتاب سيد عويس : « من ملامح المجتمع المصرى المعاصر : ظاهرة ارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى » ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، دار مطابع الشعب ، ١٩٦٥ ، صفحات ٣٨٥ ـ ٣٨٧) .

وقد بدا لى أن ظاهرة الكتابة ونشر أنباء الموتى على صفحات صحفنا اليومية ، على الرغم من أنها تبدو للكثيرين ظاهرة طبيعية لا غرابة فيها ـ لها علاقة وثيقة بالخلود الذى يراه المصريون بمعنى استمرار وجود الناس الروحى بعد موت أبدانهم .

والملاحظ أن التحدث عن ظاهرة الموت ، والتحدث عن ظاهرة الحياة ، والتحدث عن الموتى وما يتبع ذلك من التحدث عن فكرة الخلود أو الحياة بعد الموت ، فضلا عن التحدث عن فكرة وجود الله .. الخ كلها أمور قد شغلت الناس جميعا منذ أن مات أول انسان ، الناس على مر العصور .. الفلاسفة منهم والمفكرون .. الشعراء منهم والأدباء .. الفنانون منهم والعلماء .. الناس الذين يوصفون بالمتحضرين والناس الذين يعيشون حياة بدائية أو حياة البداوة .. على السواء .

وأننى إذ أذكر كل ما سبق ، فاننى فى الدراسة الراهنة لا أعنى فى

كثير أو فى قليل باثبات أو عدم اثبات بوجود حياة بعد الموت ، انني أعنى فى حقيقة الأمر ، ما كان يعتقده المصريون القدامى فى الماضى السحيق ولا يزالون يعتقدونه حتى وقتنا الحاضر ، ومع ذلك فانني متأكد كل التأكيد على أن اعتناق فكرة وجود حياة بعد الموت أو عدم اعتناق هذه الفكرة يؤثران من غير شك على نظرة الناس ، المقتنعين منهم وغير المقتنعين ، نحو الحياة الحاضرة ، كما يؤثران على سلوكهم فى هذه الحياة ، ولذلك ، وهذا رأيى ، نجد أن الكثير من التضحيات العظيمة التى بذلت فى سبيل الجنس البشرى ، قد قام به أناس يؤمنون بعقيدة الحياة بعد الموت . (أنظر ، كتاب سيد عويس : الخلود فى التراث الثقافى المصرى ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، صفحات : ١١ و١٥٠ ـ ١٥١) .

وإذا كنت قد تحدثت عن مفهوم « الأساطير » من قبل من حيث معناه اللغوى وبعض مجالاته وأهدافه ، فأننى أرجو أن لا يمل القارىء إذ أقول بأن هناك من يعتبر دراسة هذه الظاهرة ، دراسة علمية ، وذلك لأن « الأساطير » كانت المحاولات الأولى للناس ، فى الأزمان الغابرة ، لتفسير ظواهر الطبيعة وظواهر المجتمع ، حيث كان ينقصهم التفسير العلمى لهذه الظواهر ، فلجأوا إلى « الخيال والأوهام » ، أى أن الأسطورة كانت ، عند القدماء ، وهى مستمرة حتى الوقت الراهن ، عبارة عن الاجابة عن السؤال : كيف تحدث ظاهرة طبيعية معينة أو ظاهرة اجتماعية معينة والاجابة عن السؤال : لماذا تحدثان ؟ (انظر المرجع السابق : هامش صفحة رقم ١٢) .

وكانوا أقصد الناس فى الأزمان الغابرة يعيشون فى الخيال والأوهام فعلا وحقا ، وبخاصة عندما كانوا يحاولون تفسير بعض الظواهر الطبيعية كالمطر والبرق مثلا أو بعض الظواهر الاجتماعية وبخاصة ما تعلق منها بالحظ أو البخت أو ايذاء الأعداء والانتقام منهم .. الخ . وإذ أقول إن هذه التفسيرات مازالت مستمرة فاننى أذكر ذلك وأنا على بينة من أمرى ومن الواقع الذى يحيط بالكثير من أعضاء المجتمع المصرى حتى وقتنا هذا .

والمدقق في المناخ الثقافي الاجتماعي المصرى يلاحظ وجود بعض العلوم السائدة فيه وأهمها :

- علم السيميا .
- العلم اللدنى .
- علم الفهلوة .

وانتشار الكتب المؤلفة التي تتعلق بكشف الطابع وفتح المندل والعلم الروحانى « علم الحكمة » ، وكتب « البوني » مثل كتاب « منبع أصول الحكمة » وكتاب « شمس المعارف ولطائف العوارف » وغير هذه الكتب والكتيبات كالتى ألفها « الطوخي » مثل « المندل والخاتم السليماني » و« النور الرباني في العلم الروحاني » و« دليل الحيران في طالع الانسان » وغيرها وغيرها . تؤكد هذا الانتشار .

ويجب أن يعلم القارىء الكريم ان « علم السيميا » في ضوء منهجه لا يرقى إلى أن يكون علما عصريا ، ولو حاولنا أن نعدد الميادين التي يهتم بها هذا العلم لوجدناها تضم كل ما يخطر على بنى البشر من أمور ، أمور تتصل بشئون حياتهم وحياة من حولهم أو تتصل بأحلامهم وأحلام من حولهم ، وقد تتضمن هذه الأمور ما يتعلق بالصحة وبالمرض وبالمحبة وبالعداوة وبقضاء المهمات وبجلب النفع وبدفع الضر ، وما يتعلق بالزواج أو الطلاق وبرفع الظلم ، وباستخدام الملائكة وباحضار الأرواح العلوية والسفلية وتسخيرها .

والملاحظ أن ما يخطر على بنى البشر من أمور يعكس العناصر الثقافية الاجتماعية للمناخ الثقافي الاجتماعي الذى يستظلون بظله ، المناخ الذى يكون بالضرورة وليد ظروفهم المعاشية ، اقتصادية أو سياسية أو ثقافية أو اجتماعية ، والأمثلة على ما يطلبه هؤلاء الناس - من أعضاء المجتمع المصرى المعاصر - من أمور يريدونها أن تتحقق عديدة جدا ، فهى في ضوء البحوث والدراسات العلمية التي قمت باجرائها أو أشرفت على اجرائها ، عديدة جدا ، فهى كما بدا لى تتضمن كل علاقات هؤلاء الناس بعضهم ببعض ، أو معظمها ، منذ أن

يدخلوا فى هذه العلاقات حتى تنقطع .

والملاحظ ، أيضا ، أن « العلم اللدنى » لا يعترف بالعلوم الزائفة السابقة علنا ، وان اعترف بها ممارسة ، وهو لا يعترف أبدا بالعلم العصرى والتكنولوجيا الحديثة لاعلنا ولاضمنا ، فهذا العلم هو العلم ولا علم غيره ، والذين يدعون له يقولون كل شىء عنه ولا يثبتون شيئا عن وجوده ، فلا أدلة عندهم تدل على وجوده أو الفائدة المرجوة سواء كان ذلك فى الدنيا أو فى الآخرة .

أما « علم الفهلوة » فنجد أن المنتسبين اليه يدعون العلم بكل أنواع العلوم . فهم العلماء العصريون تارة ، وهم العلماء المزيفون حفظة التراث المصرى الأصيل تارة أخرى ، وهم العلماء اللدنيون الواصلون العارفون تارة ثالثة ، ولعل وجود هؤلاء فى مجتمع كمجتمعنا المعاصر مرجعه الى ضعف تأثير العلماء العصريين فى الوقت الحاضر ، ومن ـم إلى غلبة العلماء الآخرين ! ! .

ومريدو « علم الفهلوة » يدعون أنهم يعرفون كل شىء ويرون أن غيرهم لا يعرف شيئا ، انهم الذين رفعوا فى يوم منكود شعار « أهل الثقة » أولا ، ثم أهل « الخبرة » أخيرا وآخرا ، وكأن البلد بلدهم وكأن الوطنية مقصورة عليهم .

والفهلويون من هؤلاء فى كلمة هم الانتهازيون الملونون المتلونون المنافقون ، (أنظر كتاب سيد عويس ، قراءات فى موسوعة المجتمع المصرى ، القاهرة ، دار روزاليوسف ، ١٩٨٨ ، صفحات : ٦١ ـ ٦٦) .

والمطلع على كتاب « الغصن الذهبى » ل (ج . ج . فرايزر) فى نسخته المقتصرة يجد اهتمام المؤلف باسطورة « أوزوريس * » وزوجته وشقيقته « ايزيس ** » وابنها « حورس *** » من زوجها الميت ، ومؤامرة « ست » أخ « أوزوريس » لكى يجلس على عرشه ويتمتع بملكه .

(أنظر كتاب :

J.G. Frazer, The Golden Bough, Britain The MacMillan Press L. T. D, PP. 477 - 503

وأرجو أنْ يذكر القارىء الكريم ما تحدثت به عن البحث الذى يتعلق بارسال الرسائل الى ضريح الامام الشافعى التى كانت ترسل إليه الرسائل التى تطلب قضاء الحاجات أو الشكاوى ضد آخرين ، وكان مرسلو هذه الرسائل يخاطبون « الامام الشافعى » وكأنه .

* يرى بعض الجهلاء ان سيدنا ادريس عليه السلام قد نزل إلى أرض مصر ، وعرفه المصريون القدماء باسم « أوزوريس » ، وهذا خطأ كبير فان « أوزوريس » اسمه الحقيقى « اوسير » كما عرفه المصريون ثم جاء الأغريق فاضافوا من عندهم الى اسمه الياء والسين التى يضيفونها الى كل الأسماء فقالوا عنه ان اسمه « أوزيريس » .

* * اشتهرت « ايزيس » بلقب العظيمة في أعمال السحر « نظرا لإلتجائها الى أعمال السحر للعثور على جثة زوجها وشقيقها ، واعادة الحياة اليها ، وللدفاع المستميت عن ابنها « حورس » ، واصرارها على تثبيته على عرش البلاد كوريث لأبيه « أوزوريس » الذى أصبح فى نظر المصريين القدماء منذ ذلك الحين « أمام الشهداء » .

* * * شارك وهو شاب فى الانتقام لابيه من عمه « ست » وقد اشتد وطىء الموقعة بينه وبين « ست » حتى ان ذلك الاله الشاب « حورس » فقد عينه بيد « ست » عدوه وعدو أبيه ، ثم غلب « ست » على أمره واسترد الاله « تحوت » (اله الفجر وحاسب الوقت والكاتب الأول الذى علم البشر العلم والكتابة) اخيرا عين « حورس » المفقودة بأن تفل ذلك الاله الحكيم على الجرح فصحت وشفيت .

شخص حى وذلك على الرغم من مرور ما يقرب من الف ومائه وخمسين سنة ميلادية (عند نشر الكتاب الذى يتضمن البحث المشار إليه فى عام ١٩٦٥ ـ الطبعة الأولى) وقد لاحظت أن مرسلى الرسائل وهم يخاطبون « الامام الشافعى » سواء فى العناوين أو عن طريق توجيه الرسائل أو فى بداية الرسائل أو فى خاتمتها انهم يخلعون عليه ، فى معظم الأحيان القاب التعظيم وكأنه شخص ذو سلطان يعيش بينهم ، فهو مثلا : صاحب المقام الرفيع ، وهو صاحب الموكب العظيم ، وهو صاحب السيادة والفضيلة المحترم صاحب المجد والشرف ، وهو السيد وتاج الرأس وهو المولى ، وهو السيد الذى يتمتع ببركاته ، وهو « قاضى الشريعة ».

ويؤكد مرسلو الرسائل المشار اليها فى رسائلهم تعدد اختصاصات « الامام الشافعى » ، فهم اذ يشكون اليه ، تجدهم يبرزون قدرته على النظر فى أنواع متعددة من الشكاوى ، وهم اذ يطلبون منه طلبات ، تجدهم يظهرون قدرة « الامام الشافعى » على النظر فى أنواع متعددة من الطلبات ، هو قادر ، مثلا ، على فناء « اسرائيل » ، وهو قادر أيضا على « عقد جلسة هيئة المحكمة الباطنية » .

وقد لاحظت أن طلبات مرسلى الرسائل الخاصة بعقد جلسة المحكمة الباطنية أنها تؤكد لنا دور « الامام الشافعى » فيها ، وهؤلاء الأشخاص ، أقصد الذين يطلبون هذا المطلب .. يبدو اعتقادهم بوجود محكمة معينة فى العالم الباطنى أو السفلى ، وهى غير المحكمة العادية المعروفة طبعا ، فهى توجد فى خيالهم ، ويبدو أنهم توارثوها « ثقافيا » من الماضى السحيق ، وهى محكمة لها بالضرورة تشكيلها الخاص ووظائفها الخاصة كذلك ، ويرسل هؤلاء رسائلهم الى « الامام الشافعى » بوصفه قاضيا للشريعة ، وكل شكوى تتضمنها الرسائل تعتبر فى نظر مرسليها « قضية » يطلبون من « الامام وأعضاء المحكمة الباطنية » البت فيها فى احدى الجلسات ، ويكون الطلب عادة فى أقرب أو أسرع جلسة ، وهناك بعض الحالات قد يطلب من « الامام الشافعى » البت فى القضية وحده أو التحكيم فيها وحده ، أو

يذكر عقد احدى الجلسات صراحة ، وتكون الصيغة المعتادة للطلبات الخاصة بالنظر فى القضية ان يكون ذلك : « باقرب جلسة والحكم بالنفاذ ويكون ذلك الحكم مشمولا بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الكرام والأربعة الأئمة والاربعة الأقطاب وصاحبة الشورى رئيسة الديوان السيدة زينب بنت الامام على رضى الله عنها وأرضاها وأخويها الحسن والحسين وجميع الأولياء »..

وقد تبين لى فى ضوء نتائج البحث المشار إليه أن « النص على سيدنا الحسن (وخصوصا بالأكثر) سيدنا الحسين والسيدة زينب بنت فاطمة الزهراء هو السائد بين الأولياء الذين يذكرهم مرسلو الرسائل إلى « الامام الشافعى » وقد يضاف إلى هؤلاء فضلا عن « الامام الشافعى » « السيدة نفيسة » وقطب الرجال المتولى (الكون) و« سيدى الرفاعى » و« الامام الليث » . وقد وجدت فى احدى الرسائل يطلب مرسلها من « الامام الشافعى » : « بأنك تحضر معك فى الجلسة الشريفة سيدنا الحسن وسيدنا الحسين والست زينب أم هاشم وجميع أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ... » ..

وفى ضوء نتائج بعض الدراسات التى قمت باجرائها تأكد لى أن المصريين القدامى كانوا يعتقدون اعتقادا راسخا بأن للموتى نفوذا كبيرا الى درجة أنهم يؤثرون فى مصائر الاحياء فى السراء والضراء ، وبناء على هذا فانهم يطلبون العون من الموتى الذين يمكنهم ان يعتمدوا على حبهم ورحمتهم ، والمصريون القدامى اذا يكتبون رسائلهم الى هؤلاء الموتى قد يشيرون فيها إلى أمور أحدثت لهم الأضرار من أشخاص لا يعرفونهم أو من أشخاص يعرفونهم ، وقد يطلب أحدهم من أحد الموتى الأعزاء عليه أن يرفع دعوى ضد شخص ميت آخر ، أذاه أو أضر به على أساس ان الاثنين يسكنان فى مدينة واحدة (مدينة الموتى) وان الكتبة المتخصصين موجودون فى نفس المدينة ، اى ان المحكمة المتخيلة موجودة فعلا فى عالم الأموات ، وتسمى كما أكدت النصوص « محكمة الاله الأعظم فى مدينة الأموات » .

وقد تساءلت عن قاضى المحكمة « الاله الأعظم » ، وقلت : من يكون هذا الاله الأعظم ، وقد تساءل غيرى من علماء الآثار المتخصصين امثال « الان جاردنر » و« أ . بينانكوف » و« ج . كلير » الذين رجعت الى مؤلفاتهم لأعب من المعرفة التى تضمها هذه الكتب .

وكان الرأى الراجح أن هذا « الاله الأعظم » هو « إله الغرب » أو « الاله الأعظم فى مدينة الأموات »,(يقصد به « الاله أوزوريس ») أنظر :

— A. H. Gardiner and K. Sethe, "Egyptian Letters to the Dead," London, 1928, PP. 9-11.

— A. Piankoff and J. Clare, "A letter to the dead on a Bowl In Louvre," Reprinted from "The Journal of Egyptian Archeology", Vol. XX Parts III and IV, 1934.

— Alan Gardiner, "Egypt of the Pharaohs : An Introduction", Oxford, the Clarendon Press, 1961, P. 456.

والملاحظ أن "اوزوريس" كان يدعى فى الماضى السحيق بلقب "اوزوريس ملك ديدو" . وقد اشتهرت "ديدو" هذه كمركز دينى هام لعبادة "اوزوريس" وسميت فى العصور المتأخرة من تاريخ مصر باسم "بوزيريس" أى بيت "اوزوريس" ، وتسمى الآن "ابوصيربنا" وتقع على الضفة الغربية لفرع "دمياط" جنوب غربى "سمنود" بمحافظ الغربية فى وسط الدلتا . وذكر "هيرودوت" الذى زار مصر فى منتصف القرن الخامس قبل الميلاد أنه كان بهذه المدينة معبد آخر للمعبودة "ايزيس" وانه كان يقام بها سنويا احتفال كبير حزنا على "اوزوريس" الذى كانوا يعتقدون ان احد اجزاء جسمه كان مدفونا بها ، وكان يلطم المحتفلون الخدود فى ذكرى مصرعه على يد أخيه الغادر "ست" ، ويرمزون بذلك الى دخول فصل الشتاء . كما فرحوا ببعثه فى استقبال ربيع الحياة بين يدى فيضان النهر .(انظر : كتاب

محمد صقر خفاجة : "هيرودوت يتحدث عن مصر" ، تقديم وشرح احمد بدوى ، القاهرة ، دار القلم ، ١٩٦٦ ، صفحات ١٥٩ ـ ١٦٠ و ١٦٣) .

ولعل القارىء الكريم قد استنبط ما فعله "ست" بأخيه أوزوريس وما فعلته "ايزيس" زوجة الاخير وشقيقته ، وما حدث عن طريق "ايزيس" ل "حورس" بفضل مجهوداتها . وانني استسمح القارىء لكي يعفيني من ذكر التفاصيل عن هذه الأمور الخطيرة . ولكني أود ان يتفق معي القارىء الكريم في أن بعد مؤامرة اخيه قد مزقت جثته وقطعت اربا اربا ، كما تقول الاسطورة ، "ايزيس" التي بفضل قدرتها الفائقة وعظمتها في أعمال السحر استطاعت ان تحيي الجثة بعد ان جمعت أشلاءها وحملت في "حورس" تماما كما حدث "للأمام الحسين" (أحمد أعضاء المحكمة الباطنية) في "كربلاء" حين تكاثر الجيش (أقصد جيش عبيد الله بن زياد والي يزيد بن معاوية) واستشهد كل صحبه ، ثم استشهد "الامام الحسين" بعد ذلك وقطعت جثته بعد ان طعن بالرماح والسيف حتى لفظ نفسه الاخير رضوان الله عليه . وقد وجد بجسده ثلاث وثلاثون طعنة واربع وثلاثون ضربة غير الرمية بالنبل والسهام . ثم كان من نصيبه أن ذبح واجتث رأسه ، ثم بدأ بعض أعضاء الجيش (جيش ابن زياد) في سلب ما كان عليه من كساء . وترك "الامام الحسين" وهو يكاد أن يكون عاريا . ولم يكتف اعداؤه بذلك بل وطأت الخيل جثته كما أمر "ابن زياد" حتى رضوا صدره وضهره . (انظر كتاب سعاد ماهر محمد : "مساجد مصر وأولياؤها الصالحون" ، الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٧١ ، صفحات ٣٤٨ ـ ٣٦٠) .

وكان من أهل بيت "الامام الحسين" الذين رافقوه شقيقته "السيدة زينب" بنت "السيدة فاطمة الزهراء" . حضرت المأساة وكانت "بطلة كربلاء" اذ كانت السيدة الأولى التي ظهرت في اللحظة الحرجة ، تأسو المكلوم وتثور للضحايا والشهداء . وفوق هذا وذاك

أخذت على عاتقها حماية السبايا من الهاشميات ورعاية غلام مريض هو : "زين العابدين بن الحسين" . ومن هنا جاءت كنيتها "أم هاشم" . ويرى بعض المؤرخين ان موقف "السيدة زينب" بعد المعركة هو الذى جعل من "كربلاء" مأساة خالدة . و"السيدة زينب" عند المصريين المعاصرين هى ليست فقط "أم هاشم" بل هى أيضا "صاحبة الشورى" و"رئيسة الديوان" وهى كذلك "غفيرة مصر" ، وهى أولا وليس آخرا من "آل البيت" يذكرها مرسلو الرسائل الى ضريح "الامام الشافعى" بكل تجلة وبكل احترام ، ويطلبون منها العون ، ويلحون فى الطلب فى ان تشترك فى نظر الشكاوى وتحقيق الطلبات ، ويؤكدون على ذلك بالنص على اسمها بالذات .

وقد هيأت الظروف لان تشغل "السيدة زينب" مكان الأم الحبيبة بالنسبة لاخويها "الامام الحسن" و"الامام الحسين" ولاختها "ام كلثوم" ، اذ الروايات تجمع على أن أمها "السيدة فاطمة الزهراء" أوصتها وهى على فراش الموت ان تصحب "اخويها" وترعاهما وتكون لهما من بعدها أما . وبعد ان مات "الامام الحسن" اصبحت "السيدة زينب" الأم والشقيقة "للامام الحسين" .

واستشهد "الامام الحسين" كما ذكرت من قبل فى موقعة "كربلاء" ، وسيقت "السيدة زينب" مع الاسرى والسبايا فكان أبشع موكب شهده التاريخ ، وجاز الركب ساحة المعركة "حيث الاشلاء مبعثرة "فصاحت "السيدة زينب" : "يامحمداه صلى الله عليك ملائكة السماء ، هذا "الحسين" بالعراء مرمل بالدماء ، مقطع الاعضاء ، يامحمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتلة تسفى عليها" . (انظر كتاب : "مساجد مصر واولياؤها الصالحون" ، الجزء الأول ، صفحات ٩٢ ـ ٩٦) ، انظر ايضا ـ محمد جواد مغنية : "الحسين وبطلة كربلاء" ، بيروت ، بيروت ، دار التعاون للمطبوعات ، ١٩٧٣ ، صفحة ٢٤ وصفحات ٢٠٨ ـ ٢١١) .

والملاحظ ، وهذا رأيى وأرجو أن يكون القارىء الكريم ، أن سيرة

مثل سيرة "الأمام الحسين" ، فى ضوء التراث الثقافى الاجتماعى المصرى لابد أن تجد صدى فى وجدان كل مصرى مافى ذلك من شك . فالمصرى القديم قد عرف "أوزوريس" وشقيقته "ايزيس" ووعى قصة استشهاده وعاشت فى نسيج كيانه على مر الزمان . وكل من يعقد المقارنة الموضوعية بين قصة (اسطورة) "اوزوريس" (امام الشهداء) وقصة "الامام الحسين" (سيد الشهداء) و"شقيقته" "السيدة زينب" التى حلت محل شقيقته "أوزوريس" "ايزيس" ، يلاحظ انه اذا كانت "ايزيس" قد وقفت الى جانب "أوزوريس" فى ولاء لتصد اعداءه وتحافظ عليه فان "السيدة زينب" قد فعلت نفس الشىء . وكلتاهما فشلتا ، فاعداء "أوزوريس" استدرجوه الى الموت بالحيلة والخيانة ان لم يكن جهارا حتى تغلبوا عليه فى النهاية . وفعل أعداء الامام الحسين ذلك أيضا . استدرجوه الى الموت بالحيلة والخيانة حتى تغلبوا عليه .

ويبدو لى ان مكانة الآلهة المصريين القدماء قد انتقلت فى فترات التحول فى تاريخنا المصرى "بعملية توفيقية" . الى الانبياء والقديسين ثم الاولياء .

وقارىء كتابى "الخلود فى التراث الثقافى المصرى" الذى ذكرته من قبل ، يجد بعض ما ذكرته حيث أقول :

"... فلما دخلت المسيحية ثم الاسلام الى مصر لم يجدا فى شعب مصر أرضا بكرا أو صحراء جرداء ، لان مصر كانت تعرف "اوزوريس" واستشهاده ، ثم بعثه ، كما تعرف شقيقته "ايزيس" قبل ان يطرق آذانها البشارة المرقسية عن "الفادى" المخلص "وامه مريم العذراء" . وكذلك كانت تعرف الوحدانية العالمية قبل أن يغزو أرضها جيش عمر بن العاص . لهذا احتضنت هذين الدينيين ، وتمثلت رموزهما وأسرارهما الشبيهة اشد الشبه بما كانت تعى من رموز واسرار" .

وفى عام ١٩٧٠ نشرت كتاب : "حديث عن التقافه : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة" . وقد ذكرت اذ تحدث عن مكانة "الامام الشافعى" قائلا :

"كان المذهب الاوزيرى (نسبة الى اوزوريس) فى القديم مذهب أغلبية ابناء الشعب المصرى ، صادف هوى فى نفوسهم كما صادف دواما . واليوم يحل محل هذا المذهب فى شعبيته المذهب الشافعى ، فهو مذهب الكثيرين من أبناء الشعب المصرى المعاصرين .

واذا كان أوزوريس آله الآخرة فى العالم "السفلى" وقاضى القضاه الذى يحاكم أرواح المتوفين ويحاسبهم ويزن اعمالهم ، فان "الامام الشافعى" يبدو فى نظر الكثيرين من أبناء الشعب المصرى المعاصر وكأنه "أوزوريس" ، اى أنه توحد به . فهو عندهم قاضى القضاة الذى يرأس هيئة المحكمة الباطنية ويحكم فيها بين الناس بالعدل" . (هذه المحكمة هى محكمة المحاسبة الاخروية) (انظر كتاب سيد عويس : "الابداع الثقافى على الطريقة المصرية : دراسة عن بعض القديسين والاولياء في مصر" ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٨١ ، صفحات ٢١ ـ ٢٤ ـ ٣٧ ـ ٥٢ ـ ٦٠ ـ ٧٨ ـ ٧٩ ـ ٩٣ ـ ٩٩) .

ومع ذلك فاننا اذ نشير هنا الى محكمة "أوزوريس" نشير فى الواقع الى "محكمة الآله الاعظم فى مدينة الاموات" . واننى اتساءل فأقول : هل هى التى اطلق عليها مرسلو الرسائل الى "ضريح الامام الشافعى" "المحكمة الباطنية" ؟ ان "أوزوريس" وهو يرأس محكمته كان ميتا . و"الامام الشافعى" وهو يرأس محكمته قد مات فعلا . فهل اسطورة "أوزوريس" أكدت توحيد الامام "الشافعى" به . وهل الدور الذى ادته "ايزيس" فى محنة "أوزوريس" قد اكد دور "السيدة زينب" في محنة "الامام الحسين" مع ملاحظة أن "الامام الحسين" و"السيدة زينب" وغيرهما من اولياء الله الصالحين هم أعضاء المحكمة الباطنية التى يرأسها "الامام الشافعى" المشار اليه .

هذه كلها أفكار تأملية أجازف بذكرها فى هذا الصدد ، راجيا ان يأخذ بها القارى الكريم أو يعدلها أو يرفضها فالكمال لله وحده .

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

وأرجو أن يتذكر القارىء الكريم عندما تحدثت عن مفهوم "الخرافة" ، لغة ، وقلت ضمن ما قلت أنه "الحديث المستملح من الكذب" أننى قد قصدت بذلك ، فى بساطة ، الايمان الفاسد ، وهو ضد الايمان الصادق . ولعل هذا المفهوم ، أقصد مفهوم "الخرافة" يعنى مفهوم "السحر البدائى" ، وان "العبارة الخرافية" تعتبر صيغة (أو وصفة) تفسر موقفا معينا أو ظاهرة معينة أو تحقق اشباع حاجة معينة ، أو تحذر من شر معين .

الملاحظ أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية ، فى الوقت الحاضر ، من وجود بعض الخرافات فيه . وظاهرة هذه الخرافات لا تعنى بالضرورة أبدية هذا الوجود . فبالعلم العصرى والتكنولوجيا الحديثة وتهيئة الظروف الثقافية الاجتماعية ذات الأهداف الحميدة ، فضلا عن اتاحة فرص المناقشة الحرة والحوار الناضج المثمر لدى أعضاء المجتمع لكى تتضح الرؤية عندهم ويجدوا البدائل السوية ـ نلاحظ تقلص تأثير "الخرافة" على العقول فى الكثير من المجتمعات وبخاصة فى عصرنا الحالى .

ومع ذلك فاننا نلاحظ قوة هذا التأثير (تأثير الخرافة) فى المجتمعات التى تعيش فى رواسبها الثقافية الاجتماعية البالية لا تزال . وهذا التأثير على عقول الناس وتصرفاتهم ليس فى رأيى امرا مطلقا . فقد يكون منتشرا فى محيط طبقة أو فئة من الناس فى المجتمع ، وقد يكون وجوده ضئيلا فى محيط طبقة أو فئة أخرى من الناس فى نفس المجتمع .

وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر ، التى سبق أن أوضحتها ، نلاحظ أن بعض العناصر الثقافية الاجتماعية المستمرة فيه يتضمن رواسب ثقافية اجتماعية بالية . وتتمثل هذه الرواسب فى

بعض الخرافات . ولعل دراسة عينة منها ان ييسر فهمها فهما موضوعيا حتى يمكن مواجهتها أو توجيهها الى الافضل .

وفى هذا الضوء نجد بعض الخرافات المتعلقة بالزواج ، وبعض الخرافات المتعلقة بالحمل والولادة ، وبعض الخرافات المتعلقة بانجاب الأطفال ورعايتهم . أى ان الخرافات السائدة تلك التى تتعلق بمسائل حيوية يهتم بها أعضاء المجتمع المصرى على مر العصور ، أى منذ الماضى القديم قدم الدهر المستمر استمرار الحياة . فأعضاء هذا المجتمع ، اطفالا أو صبايا أو شبانا أو شابات أو رجالا أو نساء يرحبون بالطفل المولود . فولادته تفرح الجميع . تفرح الاهل والاقارب المقربين وغير المقربين كما تفرح الغرباء ، على السواء . وقد يتفاوت نوع الترحيب اذا كان الطفل المولود "ذكراً" أو اذا كان المولود "انثى" أو اذا كان بين الأهل "ضرة عاقر" ، ومهما يكن من الامر فأننا نلاحظ أن الام الوالدة تصبح شخصا آخر . لقد قامت بالمعجزة ، صنعت مخلوقا منها وهى مخلوق أصلا . ومن ثم فان رعايتها وبخاصة فى أيام ولادتها الأولى تكون من حظها ونصيبها .

والملاحظ أن أثمن مافى المجتمع المصرى هم أعضاؤه . والاهتمام باطفال هذا المجتمع مسألة لا يختلف عليها اثنان . ويبدو أن ذلك مرجعه ، أولا وأخيرا ، الى ما يحفظه الملايين من المصريين المعاصرين فى أعماق أعماق قلوبهم من الماضى السحيق ، منذ آلاف السنين ، من تراث انسانى انبثق من المجتمع الذى عاش فى رحابه أجدادهم الاقدمون واستمر حتى وقتنا الراهن .

وقد حفظ هذا التراث تعاليم "آتون" منذ نحو ٣٥٠٠ عام ، إذ تقول "أنشودة خلق الانسان" :

" انت خالق الجرثومة فى المرأة
والذى ذرأ من البذرة أناسيا
وجاعل الولد يعيش فى بطن أمه
ومهدئا اياه حتى فى الرحم

وانت معطى النفس حتى تحفظ الحياة
على كل انسا خلقته ،
وحينما ينزل من الرحم (امه) فى يوم ولادته
فانت تفتح فمه كلية
وتمنحه ضروريات الحياة" (انظر كتاب : جيمس هنرى برستد "فجر الضمير" ، ترجمة سليم حسن ، القاهرة ، مكتبة مصر ، ١٩٥٦ ، صفحتا ٣٠٣ ـ ٣٠٤ .

وفى ضوء ما ذكر عن اسطورة "أوزوريس" الذى سبق ان تحدثت عنها ، نجد أن روح المتوفى وهو يحاكم أمام محكمة العدل فى الآخرة الذى يرأسها "أوزوريس" (كما تقول الاسطورة) ـ تعدد خطاياها التى لم يرتكبها المتوفى .. حتى تقول الروح "انى لم اغتصب لبنا من فم طفل" . أى أن التراث الثقافى الاجتماعى المصرى القديم قد حفظ هذا الدستور الرائع الذى يحرص على حماية الطفل ووقايته وعدم اغتصاب حقوقه . (انظر الكتاب : "الخلود فى التراث الثقافى المصرى" ، صفحات ٧١ ـ ٧٣) .

وتعاليم الديانة المسيحية والديانة الاسلامية تؤكد الاهتمام بالأطفال ورعايتهم ومحبتهم وتربيتهم وتحض على الرأفة بهم . فهم أى الأطفال زينة الحياة الدنيا . ومن حقوق الوالدين أن يبر ابناؤهما بهما ومن حق الابناء أن يعينهم الوالدان على برهم بهما . واكدت الاحاديث النبوية المساواة بين الاولاد فى العطية . ونلاحظ أن الشارع الاسلامى اثبت على الاولاد ولايات ثلاث منذ ولادتهم :
- ولاية التربية والرعاية .
- والولاية على انفسهم .
- والولاية على اموالهم . (انظر دراسة غير منشورة ل محمد سلام مدكور : "ابحث احتياجات الطفولة فى ج . ع . م)

والأمثلة الشعبية والاقوال المأثورة التى هى فى الواقع "خرافات" بالمعنى الى تبنته الدراسة الحالية نجد مايلى :

ـ لبس ابنك خلاخيل فى رجله يحفظه من العين .
ـ وضع الخمسة وخميسة على صدر العيل يحفظه من الحسد .
ـ دقى لابنك علشان يعيش .
ـ تخريم ودن العيل يخليه يعيش .
ـ لبس حلق فى ودن ابنك علشان يعيش .
ـ سمي ابنك "شحات" ولا "خيشة" ولا "شمردل" علشان يعيش .
ـ اشحتى على عيلك علشان يعيش .
ـ دق المية فى الهون يخلى اللى مابيتكلمشى يتكلم .
ـ تقول الام المصرية : "اللى يدى ابنى بلحة تنزل حلاوتها فى بطنى" .
ـ الواد يطلع لخاله .
ـ اكفى القدرة على فمها تطلع البنت لامها .
ـ ابن الوز عوام .
ـ يخلق من ضهر العالم فاسد ومن ضهر الفاسد عالم .
وغيرها وغيرها .

وقد تضمن التراث الثقافى الاجتماعى المصرى امعانا فى الاهتمام بولادة الأطفال بيانا عن اوقات الولادة وتأثير هذه الاوقات على سلوك الأطفال ومصيرهم فى مستقبل حياتهم ! وفى ضوء المنطق السليم والمنهج العلمى الحديث لا يمكن ان تعتبر هذه الاوقات الا مجرد "خرافات" غير ذات قيمة . ومن ذلك نجد مثلا :

ـ من ولد فى الصباح يكون ناجحا فى أموره عظيم الشأن كثير المال .
ـ من ولد فى طلوع الشمس كان طالبا فى جميع اموره ولا يكون الا ما يطلب .
ـ من ولد فى الضحى كان رزقه بالتعب والمشقة والضنك .
ـ من ولد عند الظهر كان طاهرا بين أهله عالى الرتب .
ـ من ولد فى العصر كان محفوظا عزيزا بين اخوته .

ـ من ولد عند الغروب كان سريع الرضا و الغضب .
ـ ومن ولد فى وقت العشاء كان سخيا عفيفا .
ـ ومن ولد فى آخر الليل كان مجاب الدعوة مشتغلا بالعبادة ملازما لها . (انظر : كتيب المحقق المدقق اليونانى الفيلسوف الشهير بابى معشر الفلكى ، "فيه طوالع الرجال والنساء بالتمام والكمال ، ويليه الطالع الحدسى" ، القاهرة ـ مكتبة الجمهورية العربية ، صفحة رقم ٨) .

ويلاحظ ان أهم طقوس ما بعد الولادة ما يحدث فى يوم "السبوع" ونجد الاغلبية الساحقة من المصريين على اختلاف مكاناتهم الاجتماعية ومستوياتهم الاقتصادية والثقافية يحتفلون ب "سبوع المولود" . والمسلمون المصريـون يحتفلون بهـذه المناسبـة والمسيحيون المصريون (من اتباع المذهب الارثوذكس او غير ذلك) يفعلون ذلك ايضا . كل حسب امكاناته ومقدرته .

وفى خلال هذا الاحتفال توضع فى اليوم السادس ليلا "قلة السبوع" اذا كان المولود بنتا أو يوضع "ابريق السبوع" اذا كان المولود ولدا ، وعدد من الشمع حولها وتشعل الشموع . ويوضع الكل فى "صينية" بها ماء ، ثم توضع حبات من "الفول" التى تنقع فى الماء . ويعطى المحتفلون فى اليوم التالى (السابع) سبع فولات يضعها كل واحد منهم فى كيس نقوده أو فى جيبه طلبا للرزق والبركة !. والماء الذى يكون عادة فى القلة او الابريق يشربه اعضاء الاسرة فى صباح "يوم السبوع" من أجل ان تزيد روابط الاسرة فيما بينها وبين المولود الجديد . ويكون أول الشاربين فى العادة شخص "باله طويل" . وتغطى "القلة" أو "الابريق" ببيضة مسلوقة عادة يأكلها فى الصباح شخص "مسن" حتى يعيش المولود الجديد طويلا .

كل هذه الخرافات وغيرها مثل اطلاق البخور والترنم بعبارات "حرجلاتك برجلاتك ، حلقة دهب فى وداناتك (اذا كان الطفل بنتا) او بعبارة "ياربنا ياربنا يكبر ويبقى قدنا" (اذا كان الطفل ولدا) ، ودق

الهون ، والغربال ودحرجته حتى يمشى الطفل فى اوانه ... الخ يمارسها أهل المولود تيمنا ومعتقدين فيها اعتقادا شديد الرسوخ . وحتى الذين لا يرون من ورائها طائلا فهم ينتهزون الفرصة لكى يفرحوا ويسعدوا انفسهم وجيرانهم واولاد جيرانهم وبناتهم . (انظر : فتوح احمد فرج : "المأثورات الشعبية الأدبية للطفولة والأطفال : دراسة ميدانية بالسنبلاوين ، رسالة ماچستير غير منشورة" ، مارس عام ١٩٧٦ ، صفحتا . ٢٩ ـ ٣٠) .

وأرجو ان يلاحظ القارىء الكريم ما ذكرته فى صدر هذه الدراسة عن العلم العصرى وتطبيقاته (التكنولوچيا الحديثة) . واننى اذ أتحدث عن هذا الموضوع مرة أخرى أود أن أذكر ان هذا العلم قد بشر ببداياته علماء مسلمون أفاضل ابتداء من "جابر بن حيان" (مات فى عام ٨٠٣ م) أى منذ القرن الثامن الميلادى ، وان استيراد الافكار من خارج نطاق الثقافة الاسلامية موضوع وارد . ويكفى أن نذكر فى هذا الصدد "العصر الاسلامى الذهبى" فى خلال المدة من القرن الثامن الميلادى الى القرن العاشر الميلادى والترجمات لامهات كتب الاغريق الى اللغة العربية . والمقصود بهذه الكتب كتب الفلاسفة والعلماء الذين ذهبوا الى مصر القديمة طلبا للعلم المقدس "كافلاطون" (٤٢٨ ـ ٣٤٨ ق . م) و"سولون" (٦٤٠ ـ ٥٥٩ ق . م) و"طاليس المالطى" (٦٢٤ ـ ٥٤٨ ق . م) و"فيثاغورس" (٥٨٢ ـ ٥٠٧ ق . م) .. الخ . كما ذكر الجهود التى بذلها علماء وفلاسفة أفاضل من اجل ازدهار العلم والفلسفة من أمثال "الكندى" (مات فى عام ٨٧٣ م) و"الفارابى" (مات فى عام ٩٥١ م) ، و"الرازى" (مات فى عام ٩٢٥ م) و"ابن سينا" (مات فى عام ١٠٣٧ م) ، و"البيرونى" (مات فى عام ١٠٤٨ م) ، و"ابن رشد (مات فى عام ١١٩٨ م) ـ (انظر كتاب :

Maurice Gaudefroy - Demomlyes, "Mu lim Institutions", - London, George Allen and UN Win L.T.D., 1950, PP. 205-206.

(انظر ايضا : دراسة سيد عويس : "حول موضوع الهوية والتراث : وجهة نظر ثقافية اجتماعية" ، المركز الاقليمى العربى للبحوث

والدوبيو فى العلوم الاجتماعيه ، القاهره ، ندود محولوچيا سميه المجتمع العربى ، ٩ ـ ١٠ من شهر نوفمبر عام ١٩٨٥ ، صفحة ٢٥٥) .

وانني ارى ، وأرجو آن يرى القارىء الكريم ما آرى ، انه لدراسة المجتمع المصرى العربى دراسة موضوعية ، يجب أن ندرس واقعه فى ضوء تاريخه وفى ضوء علاقته بالدول النامية أو دول العالم الثالث وبخاصة الدول العربية والاسلامية الشقيقة ، فضلا عن الدول المتقدمة أو الصناعية وعلى رأسها مجتمع الاتحاد السوفييتى ومجتمع الولايات المتحدة اللذان أراهما فى ضوء ظروف مجتمع العالم المعاصر عملاقين حيث يملكان من المناهج العلمية العصرية وتطبيقاتها (التكنولوجيا الحديثة) مالا يملكه مجتمع آخر . وذلك لان الحضارة ، اليوم ، أصبحت حضارة عالمية ينعم ويشقى بها الناس ، كل الناس ، الذين يعيشون اليوم على وجه المعمورة .

والملاحظ ان "مفهوم العلم" كما تتبناه الدراسة الحالية هو عبارة عن الخبرات الانسانية المنتظمة . ومن ثم فهو مصدر من مصادر المعرفة الانسانية . والملاحظ ، أيضا ، ان الدين مصدر آخر لهذه المعرفة ، وعلى الرغم من أن العلم العصرى يعمل فى ظل الشعار القائل "لا شىء يأتى من لا شىء" وفى ظل الشعار "لا شىء مطلق" ، ويسعى دائما فى هذا الضوء الى الاجابة عن السؤالين كيف ؟ ولماذا ؟ فانه من الملاحظ ثالثا ان الوصول الى النتائج فى نطاق العلم العصرى يحتاج الى البرهنة الموضوعية . اما الوصول الى النتائج الدينية فلا يحتاج الا الى الايمان . ولقد كان "نيقولا كوبرنكوس" (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣ م) اسقفا من اساقفة الكنيسة ، وكان بطبعه شديد التدين ، وكانت الكنيسة فى عصره تدعو الى العقيدة الدينية التى تقتضى حينئذ ان تكون الأرض "موطن الانسان" مركز الكون ، وان تكون كذلك ثابتة لا تتحرك . ولم يمنع كل هذه الامور "كوبرنكوس" من ان يكون باحثا موضوعيا ، رأى ان الشمس هى مركز النظام الشمسى .

وعلى الرغم مما حدث للفيلسوف برونو (١٥٤٨ - ١٦٠٠ م) عندما جهر بقبوله للنظام الكوبرنيكي وعد ذلك منه خروجا وهرطقة على الكنيسة وحوكم فى عام ٥٩٤ م وحكم عليه والقى فى غياهب السجن . وفى عام ١٦٠٠ م حكم عليه بالموت حرقا - لم يمنع كل هذا "كبلر" (١٥٧١ - ١٦٣٠ م) و"جاليليو" (١٥٦٤ - ١٦٤٢ م) وغيرهما من ان يكونوا باحثين موضوعيين . فالعلم العصرى يقتضى الموضوعية والا لا يكون علما . فهناك فرق بين ان يقول العالم العصرى "أنا أعرف" وبين أن يقول "أنا أشعر" أو "أنا اعتقد" .

وفى هذا الضوء ، نلاحظ ان العلم العصرى فى استطاعته ان يبحث "الظاهرة الدينية" وان الدين فى ضوء طبيعته لا يحاول دراسة الظواهر العلمية وما يتصل بها .

واذا كانت الفلسفة تتأثر بالعلم العصرى ، فهو تؤثر فيه كذلك . فالفلسفة وبخاصة المادية ، كما أرجو ان يعلم القارىء الكريم ، تستند الى هذا العلم . والملاحظ ان "العالم العصرى "مثله مثل أى انسان ، وهو يطبق المنهج العلمى يعيش فى ظل فلسفة اجتماعية معينة . اى يكون له موقف تجاه الانسان والعلاقات الاجتماعية والمجتمع والحياة بصفة عامة . ويكون هذا الموقف عادة من وراء سلوك "هذا العالم" عندما يحدد أهداف بحثه وعندما يختار موضوع بحثه وعند تفسير النتائج التى يستخرجها من هذا البحث . وقد تكون هذه الفلسفة بقصد التغيير من أجل مصلحة الملايين من أعضاء المجتمع ، أو يكون هذا التغيير كما هو فى المجتمع الرأسمالى من أجل حفنة من أعضاء هذا المجتمع . والملاحظ ان سيادة فلسفة ثقافية اجتماعية معينة فى مجتمع ما أمر متوقع ، فالمجتمعات متباينة ، ومن ثم فان فلسفاتها الثقافية الاجتماعية السائدة متباينة كذلك . وتأثر الباحث العلمى وهو يحدد أهداف بحثه وعند اختيار موضوع من الموضوعات لبحثه وعند تفسير نتائجه لا يمكن ان "ينفى" موضوعية هذا الباحث . لان هذا أمر متوقع . والعبرة كل العبرة تكون فى موضوعية الحقائق المجموعة وتحليلها واستخراج نتائجها ، وبخاصة فى محيط الظواهر الانسانية ،

او فى عدم موضوعية ذلك . فاذا كانت أهداف الباحث العلمى أهداف غير تطبيقية ، أى لا تهدف الى تحقيق التنمية الاجتماعية فى المجتمع أو كان موضوع البحث لا يتسم بالشمول ولا يدرس ككل فى علاقات المتداخلة والمشتركة مع الظواهر الاجتماعية الأخرى "واذا كان الباحث العلمى لا يهتم بربط النظرية بالتطبيق ، فانه من الملاحظ ان ترجمة نتائج البحث الذى قام باجرائه الى برامج والى تشريعات والاستفادة منها فى التخطيط لا يمكن ان تتحقق . (أنظر دراسة سيد عويس : "علم الاجتماع فى بلد اشتراكى" ، القاهرة ، مجلة الطليعة ، شهر ديسمبر عام ١٩٧٠) .

واذا أختم موضوع الدراسة الحالية أود أن أؤكد للقارىء الكريم ان حديثى كان حديث "مصرى معاصر يرجو أن يكون عصريا" وذلك لاننى رفضت ولازلت أرفض عبارة "الاصالة والمعاصرة" فنحن فى مسيس الحاجة الى "دولة عصرية" كما نادى بذلك "الاستاذ أحمد بهاء الدين" فى مجلة "المصور" فى يوم ٣٠ من شهر يوليو عام ١٩٦٧ (بعد هزيمة عام ١٩٦٧) . ولنقرأ ، القارىء وأنا ، ما كتبه هذا الكاتب المفكر النابه إذ يقول :

"مطلوب" دولة عصرية "تستطيع عند الخطر أن تصل الى أقصى درجات التنظيم وتوفر أكبر قدر من طاقاتها بأقل درجة من الارتباك فى المعركة ومطلوب "مجتمع عصرى" يعيش وفقا لقيم العصر ومفهوماته ، وتساءل المفكر النابه ، فى اخلاص عن معالم مثل هذه الدولة ومثل هذا المجتمع ؟" (انظر مقال أحمد بهاء الدين : "مطلوب دولة عصرية" ، مجلة المصور ، ٣٠ من شهر يوليو عام ١٩٦٧) .

واود ان ألفت نظر القارىء الكريم أن التعبير "حديث عصرى" مقصود . وذلك لاننى لا أرى أبدا ان الاستفتاء الذى يقترحه "محمد عابد الجابرى" فى مقاله : "اشكالية الاصالة والمعاصرة فى الفكر العربى والمعاصرة : صراع طبقى أم مشكل ثقافى ؟" ، (مركز دراسات الوحدة العربية ، ندوة التراث وتحديات العصر فى الوطن

العربى ، القاهرة ، ٢٤ ـ ٢٧ ايلول / سبتمبر عام ١٩٨٤) ـ اذا ما اجرى فى الوطن العربى من المحيط الى الخليج ، "بحرية ونزاهة" ، حول قضية الوحدة العربية تختار الاغلبية الساحقة من الجماهير دولة الوحدة على الدولة القطرية . لاننى أرى اذا ثبتت هذه النتيجة فان ثبوتها يكون غير موضوعى وذلك لانه من الملاحظ ان ثقافات مجتمعات الدول الواقعة من المحيط الى الخليج متباينة من حيث بعض العناصر ، أهمها مايلى :

- البعد التاريخى .
- مدى استقرار هذه الثقافة واستمرارها .
- مدى تعدد مصادر هذه الثقافة وتنوعها .
- مدى وجود أو عدم وجود ظاهرة الازدواجية فى هذه الثقافة وعواملها . (انظر دراسة سيد عويس : "الطريق الى الوحدة العربية : وجهة نظر ثقافية اجتماعية فكرية" ، مجلة الفكر العربى ـ تشرين الأول (أكتوبر) تشرين الثانى (نوفمبر عام ١٩٨١) .

واذا كنت أرفض عبارة "الاصالة" و"المعاصرة" فذلك لان هذه العبارة تنظر الى الواقع نظرة أستاتيكية ، فالمجتمع الانسانى فى الوقت الراهن أى مجتمع يتضمن ديناميكيا وربما جدليا الاصالة والمعاصرة بل والعصرية جميعا .

٥ ـ نظرة الدين للتفكير الخرافى

من المعلوم ان الشعب المصرى شعب متدين ، وان تعاليم الديانة المسيحية وتعاليم الديانة الاسلامية تسودان فى المناخ الثقافى الاجتماعى فى المجتمع المصرى المعاصر ، والأغلبية الساحقة من أعضاء الشعب المصرى يعتنقون الديانة الاسلامية (فى ضوء التوزيع النسبى للسكان حسب الديانة (بغداد ١٩٨٦) نلاحظ ان نسبة المسلمين ٦٠ر٩٠٪ ونسبة المسيحين ٣٦ر٩٪ ونسبة الديانات الاخرى ٠٤ر٪ من سكانها) .

والدراسة الحالية فى ضوء موضوعها مصدرها خبرات ثقافية اجتماعية منتظمة اكتسبتها فى خلال فترة طلب العلم والمعرفة فى الدراسة العالية والعليا ، أى منذ عام ١٩٣٧ وحتى الآن .

ومن الضرورى أن أشير الى ان المجتمع المصرى مجتمع قديم مستمر . وهو مجتمع ذو تراث ثقافى ثرى وخصيب كذلك . فمصر لم يكن لها نيل واحد يفيض على أرضها بغزير مائه ، ماء الحياة ، يأتى من السماء (على حد قول القدامى) مندفعا من جبال أثيوبيا بطميه وخصبه يوزعه على جانبى الوادى ويدفع بالزائد عبر البحر . (يلاحظ أن بناء السد العالى ووجود بحيرة هذا السد قد حجزا الكثير من هذا الطمى . وتعتبر هذه احدى المشاكل التى تواجهها الدولة فى الوقت الحاضر) .

ومن الملاحظ أن نهر النيل إن هو إلا نهر من عدة أنهار . فهناك نهر الديانات ، وهو أطول أنهار الدنيا ، ظهر مع الخوف من المجهول

والاحتماء والاستسلام لعدد من الالهه اسهى بالايمان باله واحد ، ثم جاءت المسيحية منذ "انيانوس" المصرى أول اسقف كرسه "مرقس الرسول" فى عام ٦٤ ميلادية ، ثم جاء الاسلام منذ أن غزا أرض مصر جيش عمر بن العاص فى عام ٦٤١ ميلادية .

ولما دخلت المسيحية ثم الاسلام الى مصر لم يجدا فى شعب مصر ارضا بكراً أو صحراء جرداء ، لان مصر كانت تعرف "أوزوريس" واستشهاده ، ثم بعثه ، كما تعرف شقيقته "ايزيس" ، قبل أن يطرق آذانها صوت البشارة المرقسية عن "الفادى المخلص" وأمه "مريم العذراء" . وكذلك كانت تعرف الوحدانية العالمية . لهذا لما احتضنت مصر تعاليم هذين الدينين ، تمثلت رموزهما واسرارهما الشبيهة أشد الشبه بما كانت تعى من رموز وأسرار (انظر : كتاب سيد عويس : "الخلود فى التراث الثقافى المصرى" ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٦ ، صفحتا ١١ ـ ١٢) .

والملاحظ ان الدين الاسلامى هو دين الفطرة والوضوح . وتتضمن تعاليمه القيم الاجتماعية الايجابية (ذات الأهداف الحميدة) التى تسعد البشرية فى الدنيا والآخرة .

ونجد من هذه القيم ما يتضمن الصبر بمعنى حبس النفس عن الجزع ، والمثابرة على العمل الصالح ، والكفاح من أجل تحقيق المثل العليا ، والايمان بالنصر والانتصار ، والجهاد فى سبيل الله ، والثبات عند الشدائد ، وضبط النفس فى مواجهة الخطوب ، والتضحية فى سبيل المجموع بالمال والجهد وأداء الواجب ، وتحمل المسئولية كلما دعت الضرورة الى ذلك ، والتوكل المثمر المقترن بالسعى والعمل ، والأخوة والألفة ، والتماسك فى محيط المجتمع وجماعاته العديدة فى سبيل عمل الخير العام :

"محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوارة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج

شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة واجر عظيما" (سورة الفتح . آية ٢٩) .

وتعاليم الديانة المسيحية تؤكد على ان يكون معتنقها على مثال "السيد المسيح" عليه السلام في الخلق وان يتحلى بالقيم السامية من حيث البر . والطهارة . والمحبة . والتواضع ، والوداعة ، وتواضع القلب ، والطاعة ، وانكار النفس ، وخدمة الآخرين ، والاحسان ، والمسامحة ، والغلبة على الخطية :

"المحبة : فلتكن بلا رياء . كونوا كارهين الشر . ملتصقين بالخير وادِّين بعضكم بعضا بالمحبة الاخوية . مقدِّرين بعضكم بعضاً في الكرامة ، غير متكاسلين في الاجتهاد ، حارِّين في الروح . عابدين الرب . فرحين في الرجاء . صابرين في الضيق ، مواظبين على الصلاة . مشتركين في احتياجات القديسين . عاكفين على إضافة الغرباء . باركوا الذين يضطهدونكم . باركوا ولا تلعنوا . فرحاً مع الفرحين وبكاءً مع الباكين . مهتمين بعضكم لبعض اهتماماً واحداً غير مهتمين بالامور العالية بل منقادين الى المتضعين . لا تكونوا حكماء عند انفسكم . لا تجاوزوا أحداً عن شرٍّ بشر ـ معتنين بأمور حسنة قدام جميع الناس . ان كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس . لا تنتقموا لانفكسم أيها الاحباء بل أعطوا مكانا للغضب . لانه مكتوب لي النقمة انا أجازي يقول الرب . فان جاع عدوك فأطعمه . وان عطش فأسقه . لانك ان فعلت هذا تجمع جمرُ نار على رأسه . لا يغلبنك الشر بل اغلب الشرَّ بالخير" (رسالة بولس الرَّسول الى أهل رومية ، آيات ٩ ـ ٢١) .

والآيات الكريمة في "القرآن الكريم" وفي "الكتاب المقدس" تتلألأ بكل القيم الاجتماعية الايجابية ذات الأهداف الحميدة ، وقد ضربت الأمثلة فيما سبق ، وفي الجعبة الكثير ، فنلاحظ ان هذه القيم تعتبر ، اذا غرست في النفوس جزءا من الشخصيات الانسانية لمن اعتنقونها .

وبالاضافة الى ايات القرآن الكريم نجد العديد من الاحاديث النبوية التى تفسرها وتؤكدها . ولا أكون مغاليا اذا قلت وأكدت على ما أقول فى ضوء ما سبق ان شخصيتى كل من "نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم والسيد المسيح عليه السلام" فى ضوء ما سبق نموذجان يحتذيان وقدوتان يهتدى بهما .

"لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" (سورة الممتحنة ، آية ٦٠) .

"بل نظير القدوس الذى دعاكم كونوا أنتم أيضا قديسين فى كلّ سيرة" (رسالة بطرس الرسول ، اصحاح ١ : آية ١٥) .

ومن القيم ذات الأهداف الحميدة التى تضمنها التراث الدينى ، نجد القيم التى **تحض** على العلم وتكرم العلماء :

"اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم . علم الانسان مالم يعلم" (سورة العلق ، آيات ١ ـ ٥) .

"وانما يخشى الله من عباده العلماء" (سورة فاطر ، آية ٢٨) .

و"قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟ انما يتذكر أولو الالباب" (سورة الزمر ، آية ٩) .

ونبى الاسلام يحض على التعلم والتعليم :

"عن ابى هريرة رضى الله عنه قال "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ..

الى أن قال :

"ومن سلك طريقا يلتمس منه علما سهل الله له طريقا الى الجنة" .. (حديث نبوى رواه مسلم وابو داود والترمذى والنسائى وابن ماجة) .

وقد تضمن الكتاب المقدس العديد من الآيات التى تدعو الى فوائد العلم والتعليم والحض على طلب المعرفة والحكمة :

" أمثال سليمان بن داود ملك اسرائيل . لمعرفة حكمة وأدب لادراك أقوال الفهم . لقبول تأديب المعرفة والعدل والحق والاستقامة . لتعطى الجهال ذكاء والشاب معرفة وتدبرا " (أمثال ، اصحاح ١ : آيات ١ ـ ٤) .

و" أعط حكيما فيكون أوفر حكمة . علم صديقا فيزداد علما . بدء الحكمة مخافة الرب ومعرفة القدوس فهم" (أمثال ، اصحاح ٩ : آية ٩ وآية ١٠) .

و"قال لهم يسوع أفهتم هذا كله . فقالوا نعم ياسيد . فقال لهم . من أجل ذلك كل كاتب متعلم فى ملكوت السموات يشبه رجلا ربَّ بيت يُخرج من كنزه جُدداً وعُتقاء (انجيل متى ، اصحاح ١٣ : آية ٥١ وآية ٥٢) .

ونلاحظ فيما سبق من آيات وأحاديث نبوية . أنها تشجع على العلم وتكرم العلماء ، وجاءت لتبدد ظلام الجهل والجاهلية فى كل زمان ومكان . وفى ضوء مراحل التاريخ نجد ان العلم والمعرفة والحكمة كلها ، فى ظل القدوة الحسنة قد عاش العلماء والمتعلمون ، بها ، مواطنين صالحين يسعون الى الخير أينما وجد وسطروا صفحات خالدة فى تاريخ الانسانية .

وقد تمثل القيم الانسانية الايجابية التى من وراء هذه الآيات والأحاديث أصحاب نبى الاسلام ومن أتى من بعدهم من الصديقين ، كما تمثلها حواريو السيد المسيح عليه السلام ومن أتى من بعدهم من الصالحين ، وأصبحت أجزاء ملتحمة من شخصياتهم يواجهون بها المواقف الاجتماعية المتباينة .. والمتناقضة من غير أن يحيدوا عن الصراط المستقيم .

ومصر ، فى ضوء مراحل تاريخها كانت ، ومازالت ، البوتقة التى

صهرت فيها الحضارات بأنواعها سواء كانت وثنية أو مؤمنة بالاديان السماوية : اليهودية والمسيحية والاسلامية .

واذا كان تاريخ مصر لا يبدأ فى عام ٦٤١/٦٤٠ ميلادية ولا يمكن أن يبدأ فى هذا العام ، فقد استوعب المسلمون فيها وهم يمثلون حسب تعداد عام ١٩٨٦ ، ٩٠ر٦٠٪ كما ذكرت من قبل ، تعاليم الاديان المشار اليها . ومع ذلك فان المصريين وبخاصة المسلمون منهم لا يمكن الا ان يذكروا الفتوحات التى مزقت اكبر دولتين فى العالم فى فجر الاسلام وهما : دولة فارس والدولة الرومانية . ويذكرون أيضا حدود الامبراطورية الاسلامية حتى الصين شرقا وحتى حدود نهر اللوار فى فرنسا (بواتييه) غربا وشمالا ، كما يذكرون كذلك حدودها فى قارة افريقيا فى السودان والحبشة الى نيجيريا . (انظر كتاب

Murice Gaudafray Demombynes, « Muslim Institutions » London George Allen & UN Win L.T.D. 1950 P. 22).

وقد امتحن المصريون المسيحيون فى عهد "الاضطهاد الاعظم" وكان عدد الاضطهادات التى أثارها القياصرة الرومانيون على المسيحيين عشرة أولها عام ٦٤ ميلادية فى زمن "نيرون" وآخرها أى عاشرها عام ٣٠٣ ميلادية فى ايام "ديوكليتيان".

وكان "عهد الاضطهاد الاعظم" فى البلاد المصرية فى زمن الامبراطور "دقلديانوس" (٢٨٤ ـ ٣٠٥ ميلادية) وقيصره "جاليروس" ثم هذا الاخير منفردا (٣٠٥ ـ ٣١١ ميلادية) و"ماكسيمين دازا" (٣١٣ ميلادية) . وقد سبق عدد كبير من المصريين المسيحيين الى الموت زمرا . ففر كثيرون بعقيدتهم الى الصحراء . كانت فيافى مصر وقفارها حصنا أمينا وملاذا لهؤلاء الفارين بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت . وشهدت صحارى مصر من "النطرون" الى "طيبة" جموعا هائلة من المصريين

المسيحيين الذين أفلتوا من قبضة الاباطرة الوثنيين . وعاش بعض من هؤلاء متوحدا تحتويه صومعة كانت أصلا أطلال قبر أو فجوة كهف ، وآخرون آثروا عيش الجماعة فكانت الاديار . (انظر كتاب سيد عويس : "لا للعنف : دراسة علمية فى تكوين الضمير الانسانى ، القاهرة ، كتاب الهلال ، اكتوبر عام ١٩٨٨ ، صفحتا ١٥٠ ـ ١٥١ وصفحتا ١٨١ ـ ١٨٢) .

وقد سبق ان ذكرت ، وأرجو ان لا يمل القارىء هذا التكرار ، لانى اردت أن أبرز حقيقة تاريخية هى ان المصريين مسيحيين كانوا أو مسلمين قد عانوا ، وتركت محنة "الاضطهاد الاعظم" بصماتها مافى ذلك من شك فى نفوس المصريين على الرغم من بعض التباين بين عناصر الديانتين . وإننى ارى فى ضوء حقائق التاريخ ان أى مصرى مسلم هو فى حقيقة الامر والواقع يضم بين جنباته بصمات الديانات السماوية وبخاصة المسيحية والاسلام . ويؤكد ذلك أن المصريين فى الوقت الراهن يتحدثون باللغة القبطية التى هى خليط من اللغة الديموطيقية واللغة اليونانية الحديث العادى فضلا عن اللغة العربية الفصيحة . فنلاحظ مثلا أنه بالرغم من ان اللغة المشار اليها قد اختفت أمام اللغة العربية الا ان ذلك لم يحل دون أن تضفى بصماتها المصرية على اللغة العربية وان تصبغها بصبغة جعلت اللغة العربية فى مصر تظهر بمظهر يختلف عنه فى الاقطار العربية الأخرى ، كما ظلت العادات المصرية القديمة حية حتى الآن فى مصر .

فمن كلمات اللغة القبطية التى لا تزال يتناولها المصريون المسلمون منهم والمسيحيون فى أحاديثهم اليومية حتى وقتنا هذا نجد اسماء لمسميات مثل : برسيم ، اردب ، يم ، أم قويق ، حلق ، بقوطى ، كعك ، قلة ، كحة ، لقمة ، لبشة ، ماجور ، تمساح ، نبوت ، مقطف ، ننوس ، نونو ، بصارة ، رقاق ، مشنة ، سمان ، ذهبية ، تندة ، شرش ، شونة ، شوب ، شوطة ، حلوم ، خن ، رمان ، شوشة ، شبورة ، بلح .

ومن أنوع السمك نجد الأمثلة الآتية :

البورى ، والبنى ، واللبيس ، والراى ، والشال ، والشلبة .

وفى لغة الأطفال كلمات مثل :
تاتا ، امبو ، واوا ، بيبه (برغوت) .

ونجد أيضا التعبيرات الآتية :

الورور (الفجل الصغير) ، والكاس بمعنى الالم ، وتوت للحاوى بمعنى اجتمع ، وليلى بمعنى افرح ، ونحن مازلنا نرددها فى "ليلى ياعينى" وبح بمعنى انتهى ، وكانى ومانى وأصلها كانى نانى أى سمن وعسل .

ولعل من أهم مظاهر القومية المصرية ما نلحظه فى أسماء المدن المصرية ، فبالرغم من اختفاء الاسماء المصرية القديمة منذ أكثر من تسعة قرون وهى مدة سيادة اللغة اليونانية ، ورغماً عن فرض اسماء يونانية على المدن المصرية مثل :

ابولوتوبوليس ل "قوص" وأكسير نخوص ل "البهنسة" ، وليتوبوليس ل "أوشيم" ، وبانوبوليس ل "اخميم" ، وهرموبوليس ل "اشمونين" وهيراكليوبوليس ل "اهناس" ، فان الأسماء المصرية لهذه المدن لم تلبث أن ظهرت ثانية بعد دخول العرب ، وكان ذلك لمحافظة اللغة القبطية على هذه الاسماء القديمة . (انظر كتاب مراد كامل : "حضارة مصر في العصر القبطى" ، القاهرة ، مطبعة دار العالم العربى ، صفحتا ٧٣ ـ ٧٤) .

ويؤكد أن أى مصرى مسلم هو فى حقيقة الأمر والواقع يضم بين جنباته بصمات الديانات السماوية وبخاصة المسيحية والاسلام ان مفهوم "التسامح الثقافى" الذى يعنى بأنه "ميل أو موقف اجتماعى يعترف بحق الآخر فى تباين السلوك والرأى . وفى عبارة بسيطة يمكن القول بأن هذا المفهوم يعنى "ان تحيا انت والآخرون" .

انظر :

— Henry P. Fairchild, "Dictionary of Sociology and related sciences" (Ames - Iwa : Littlefield Adams and Co. 1955) P. 320

والملاحظ فى ضوء حقائق التاريخ ان التراث الثقافى الاجتماعى المصرى قد تبنى هذا المعنى فى الممارسة العملية . فحين اتخذت عبادة "رع" على أنها العبادة الرسمية للدولة المصرية (٢٠٥٠ ـ ١٧٧٥ ق . م) فان عبادة الآلهة الأخرى ـ وتعدادها يقترب من الالفين ـ لم تتوقف . فالآلهة المحلية عاشت فى وفاق مع آلهة "طيبة" و"ممفيس" ولم يكن كهنة مصر من المتعصبين ، فديانتهم اتسمت بأنها متسامحة الى الحد الذى يمتنع معه أفراز المتعصبين ، ومبادؤها الاصلاحية متنوعة وغير متسقة الى الحد الذى لا يمكن ان تؤخذ بطريقة جدية . والملاحظ ان المصلحين فى مجتمع تنقصه **الخلفيات الراديكالية والتقدمية** ، ليس فى امكانهم سوى التسامح . ولهذا فحين وجه "اخناتون" حملة شرسة ضد "كهنة طيبة" فان الشعب تنفس الصعداء حين منيت بالهزيمة . (الملاحظ ان دعوة "اخناتون" تغلبت واصبح المصريون يعتقدون فى "آله واحد" ، وذلك لان الافكار الحية وان خبت فترة من الزمن فما تلبث ان تعود وتسود) .

انظر الكتاب :

— Jon Manichip White, "Everyday Life in ancient Egypt", New York, Aperigos Book, 1963, P. 130.

والملاحظ أيضا أن التراث الثقافى المصرى الانسانى يحفظ لنا اكفاراً لها علاقة بمفهوم "التسامح الثقافى" منذ أن بشر القديس مرقس فى الاسكندرية ونصب "انيانوس" المصرى اسقفا عام ٦٤ ميلادية (ذكرت هذه الواقعة التاريخية من قبل) . ان آيات الكتاب المقدس (الانجيل) تموج بهذه الافكار . والمصريون المسيحيون ، طبقا لتعاليم "السيد المسيح" عليه السلام

المثالية ، مطالبون بالعدالة والمحبة والتواضع والطاعه ، وانكار الذات وخدمة الآخرين ... الخ (ذكرت هذه التعاليم من قبل) . والملاحظ كذلك ان عناصر التسامح تتكون من هذه المعانى كلها ، أو من بعضها . وشعاعها يضىء قلوب المصريين المسيحيين حتى يومنا هذا .

وحين غزا الجيش الاسلامى العربى بقيادة عمرو بن العاص الارض المصرية تأثرت الثقافية المصرية بتعاليم الدين الاسلامى واحتفظ التراث الثقافى المصرى الانسانى بهذه التعاليم فى اطار التسامح . وآيات القرآن الكريم وأحاديث نبى الاسلام عليه الصلاة والسلام ، شاهدة على تعاليم التسامح :

- "ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين" (سورة النحل ، آية ١٢٥) .

- "ادفع بالتى هى أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون" (سورة المؤمنون ، آية ٩٦) .

- "ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم" (سورة فصلت ، آية ٣٤) .

- "ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله أتقاكم ان الله عليم خبير" (سورة الحجرات ، آية ١٣) .

وقال الرسول محمد عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع : "ان أباكم واحد وان ربكم واحد ، لافضل لعربى على أعجمى ، ولا لأعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر الا بالتقوى" (انظر : مصطفى الخشاب : مفهوم "العنصرية" ، معجم العلوم الاجتماعية ، القاهرة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٥ ، صفحتا ٤٣٢ - ٤٣٣) .

ونجد أن الأمثلة والمأثورات الشعبية المصرية حافلة بالتسامح وحسن الطوية إزاء الآخرين :

- كل الناس حلوين .
- المسامح كريم .
- احب كل الناس ولا اكره كل الناس .
- احب الناس وأكره كلامهم .
- من أمنك لا تخونه ولو كنت خاين .
- الحلم سيد الاخلاق .
- لولا سواد العين ماكانشى نورها .
- اذا دعتك قدرتك على ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك .
- الكلمة الحلوة والابتسامة العريضة تصنع المعجزات .
- عاتب أخاك بالاحسان ورد شره بالانعام عليه .
- أحسن اذا أردت أن يحسن اليك .
- إذا عظمت اقداركم فتواضعوا .
- إذا كان القلب نقيا كان الخلق كريما .
- إزهد فيما عند الناس يحبك الناس .
- الخلق الحسن عماد الدين .
- الرد اللين يصرف الغضب .
- اللهم الهمنى رشدى واعذنى من شر نفسى .
- النزاهة ان تعمل افضل مافى نفسك .
- أنت خير ما اتقيت الله .
- أولى الناس بالعفو اقدرهم على العقوبة . (انظر : كتاب سيد عويس "هتاف الصامتين : ظاهرة الكتابة على هياكل المركبات فى المجتمع المصرى" ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧١) .

والوقائع سالفة الذكر تنطوى على نسق من القيم يعبر عن التسامح نظريا وكما هو ممارس فى المجتمع المصرى . بيد أن

الاستثناء وارد . فحكم ابو على منصور الحاكم (٩٩٦ - ١٠٢١ ميلادية) يتميز بقسوة مريرة . فقد اغتال عدداً وفيراً من وزرائه وكبرائه ، وفى الاحوال النادرة التى كان الوزير او الكبير المغضوب عليهما من "الحاكم" ينجوان بحياتهما ، فان نقمة هذا السلطان كانت تلازمهما حتى يهلكا . ومن حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها "الحاكم" : (فى عام ٣٩٩ هجرية الموافق عام ١٠٠٨ ميلادية) ، ومن الامثلة التى تدل دلالة واضحة على فهم هذا السلطان للفتك والامعان فى القسوة انه قبض على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة فى القصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا . وكانت الوسيلة التى يستعملها "الحاكم" لسحق أعدائه أنه كان يرى ان القتل هو الانجح ، فاذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودتهم الى السكينة والخنوع . وكانت هذه السياسة تحيط "الحاكم" بسياج منيع من الرهبة .

وفضلا عما ذكر فان "الحاكم" قد دمر عدداً كبيراً من الكنائس المسيحية ومن بينها "القبر المقدس" ، والزم المصريين المسيحيين واليهود بارتداء ملابس سوداء ، وبأن لا يمتطوا الا الحمير ، وان يتدلى الصليب من رقاب المسيحيين والاجراس من رقاب اليهود فى أثناء وجودهم بالحمامات .

وقد صدر "الحاكم" المعتوه هذه الاوامر على الرغم من ان تعاليم الاسلام تشجب هذه الافعال اللا إنسانية (انظر كتاب محمد عبد الله عنان ، "الحاكم بأمر الله واسرار الدعوة الفاطمية" القاهرة ، مارس سنة ١٩٣٧ ، صفحات ٤١ - ٥٨) .

- "لا اكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم" (سورة البقرة ، أية ٢٥٦) .

"قل ياايها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون . ولا انتم عابدون ما أعبد . ولا أنا عابد ما عابدتم . ولا انتم عابدون ما اعبد . لكم دينكم . ولى دين" . (سورة الكافرون ، آيات ١ ـ ٦) .

واذا كان "الحاكم قد عامل المصريين المسيحيين واليهود وبخاصة فى عام ١٠١١ بقسوة ، فقد عاملهم برفق فى عام ١٠٢٠ ميلادية . ومن ثم يمكن القول ان شخصية هذا الانسان متناقضة ، أو يمكن القول كما وصفه "مرجليوث" فى كتابه "القاهرة" ، اورشليم ، ودمشق" : **الحاكم المجنون** . (انظر كتاب على ابراهيم حسن ، "مصر فى العصور الوسطى : من الغزو العربى الى الغزو العثمانى" ، القاهرة ، مكتبة النهضة ، ١٩٦٤ ، صفحات ١٣٥ ـ ١٣٧) .

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

وقد يقال ، أيضا ، ان "ادوارد لين" كان محقا حين ذكر فى كتابه "عادات وتقاليد المصريين المحدثين "أن الطفل المصرى يدرب على القول ، "لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله" ، وانه يلقن دروسا فى الكبرياء الدينى ، وفى كراهية المسيحيين وغيرهم من الاديان الأخرى كما كان يفعل المسلمون فى العصور الأولى . ومع ذلك فان القارىء لهذا الكتاب سرعان ما يقرأ اعترافا للمؤلف بأن المسلم يعتقد ان محمدا رسول الله وانه خاتم الانبياء واعظمهم ، وان ستة من هؤلاء الانبياء وهم "آدم ونوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد" ، قد تلقوا بالوحى نسقا دينيا واخلاقيا .

ومن الملاحظ عمليا ان الدين الاسلامى متسامح للغاية مع الاديان السامية وهى "اليهودية والمسيحية" . فالمسلم يتعلم منذ طفولته احترام هاتين الديانتين والاعتقاد فى نبوة "موسى والمسيح" . ومع انتقال الخلافة الاسلامية الى القسطنطينية ، اتسم الاسلام بنوع من الجمود ، وأخذت العادات التركية ، خطأ ، على أنها عادات اسلامية . فمثلا يعتقد الناس ان النقاب عادة اسلامية ، وان الاسلام يحط من

شأن المرأة . وهذه مغالطة . ان الاتراك هم الذين ابتدعوا النقاب ، وانهم بدورهم اقتبسوها من الفرس والارمن . (انظر كتاب :

— « Edward W. Lane », Manners and Customs of the modern Egyptians", (London : J.M. Dent and sons : L.T.D. 1954, PP. 60-66).

وقد اسهمت فى انشاء "جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق" فى عام ١٩٤٧ . وأصبحت ، كأمين عام مجلس ادارتها والمسئول عن اجراء البحوث والدراسات العلمية فى حى بولاق ، على شىء من البينة من أمر شعب هذا الحى ، وعلى الاخص المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يظلل أعضاءه .

والملاحظ ان حى بولاق حى حضرى ، ولم يوجد الا فى عام ١٣١٣ ميلادية . وفى ضوء التعداد العام للسكان والاسكان والمنشآت عام ١٩٨٦ ، نجد ان حى بولاق من حيث نسبة السكان الذين فيه بالنسبة لسكان اقسام القاهرة ، هى ٢٪ بعد ان كانت فى عام ١٩٧٦ ٥ر٣٪ .

والملاحظ ايضا ان مجتمع حى بولاق هو مجتمع شعبى ، اى مجتمع أولاد البلد وبنات البلد ، والمناخ الثقافى الاجتماعى هو مناخ تقليدى ، صحيح ان شهرته التاريخية مردودة الى أنه مجتمع مختمر سياسيا وينطوى على خشونة . ومع ذلك فهويته تقليدية (بلدى) مثله فى ذلك مثل أى حى من أحياء القاهرة الشعبية . وهو يخلو من الجرائم المنظمة أو "المافيا" وهو يخلو أيضا من التفرقة العنصرية أو من عصابات مثل "كوكلوكس" والعنف سائد ولكنه عنف دفاعى ، أى دفاع عن الشرف والكرامة . واولاد وبنات البلد تقليديون وهم أيضا يتسمون بحاسة الفكاهة والتدين والكرم . وقد ينشأ شجار بينهم ولكن سرعان ما ينتهى بمجرد أن يتدخل انسان ويقول لهم "صلى على النبى" ، أو يقول زعيم المتشاجرين "صاف يالبن" فيرد الخصم أو

الخصوم بالقول : " حليب ياقشطة " ثم يقبل ، اذا كان المتشاجران اثنين أو اثنتين ، احدهما الآخر أو احداهما الاخرى وينتهى الشجار. والشعار السائد فى مثل هذه الاحوال هو المثل الشعبى "المسامح كريم" .

والمجتمع البولاقى هو مجتمع اسلامى على وجه العموم ، ويمثل المسيحيون فيه أقلية ، وهؤلاء معظمهم من الاقباط الاورثوذكس . وفى هذا الحى اربعة عشر جامعا وأربع كنائس قبطية .

ونجد أن المجتمع البولاقى يتبادل فيه المصريون المسلمون والاقباط الزيارات فى الاعياد ، كما أنهم يتبادلون النذور فى أماكن العبادة . فالمرأة المسلمة قد تعطى الكنيسة شموعا اذا نجح ابنها فى الامتحان . وبعض المسلمين والمسلمات يصوم صيام "مريم العذراء" . وقد تصوم المرأة القبطية جزءا من شهر رمضان أو تزور ضريح "السيدة زينب" . ويحرص جماعة المسلمين وجماعة المسيحيين التى يعيش أعضاؤها فى هذا الحى على تعزية الآخرين فى أوقات الاحزان خاصة اذا مات أحدهم أو ذهب الى المستشفى أو الى السجن . ويقوم الاقباط والمسلمون بختان أبنائهم الذكور أول عيد مولدهم وبخاصة فى أثناء الاحتفال بمولد "سيدى ابو العلا" أحد أولياء الله الصالحين الذى يقع مسجده فى حى بولاق .

وأرجو ان يسمح لى القارىء لكى أذكر انه على الرغم من أن الاقباط أقلية الا أنهم يتحدثون اللغة العربية ويلبسون مثل ما يلبس المسلمون (الاغلبية) ، وقد ينشب النزاع بين الفئتين فى مجالات التنافس على توزيع الثروة (التجارة مثلا) والسلطة والمكانة الاجتماعية وفى حالات زواج أحد الاعضاء من فئة الاغلبية من احدى أعضاء فئة الاقلية . فالمعلوم ان قانون الاحوال الشخصية المصرى يتيح للمسلم الذكر ان يتزوج من كتابية أى ممن تكون معتنقة احد الاديان السماوية ، وليس العكس .

انظر : (رسالة دكتوراة ،

— Enelin Aleen E. "Baladi Woman of Cairo Egypt : Socialty and theropeutic Action, June 1980 The Univercity of Chicago.

وكانت أمي غفر الله لها تدعو لى بعد ان تنتهى من الصلاة أو عندما اخرج الى عملى كانت تدعو لى دعوات حميمة ، فقد كنت وحيدها ، وأذكر أن إحدى دعواتها التى كانت تكررها كثيرا الدعوة التالية :

"راضى عليك قلبى وبزى وحجرى ياابنى ياسيد ياابن بطنى" والمطلع يجد نفس معنى هذه الدعوة فى الكتاب المقدس : "تأتى بركات السماء من فوق وبركات الغمر الرابض تحت ، بركات الثديين والرحم" (سفر التكوين ، إصحاح ٤٨ ، آية ٢٥) .

وفى ضوء نتائج مراحل التاريخ ، تاريخ مصرنا الخالدة ، يتضح أنها منذ عام (٥٢٥ ق . م) حتى عام (١٩٥٣ م) كان يحكمها الاجانب . وكان معظم الحكام عبيدا (مماليك) . كانوا من بلاد فارس (٥٢٥ ق . م) ومن اليونان (٣٣٢ ق . م) ومن الرومان الوثنيين (٣١ ق . م - ٦٤ م) ومن الرومان المسيحيين (٦٤ م - ٦٤١ م) ومن العرب المسلمين الخلفاء الراشدين (٦٤١ م - ٦٦١ م) ومن الامويين (٦٦١ م - ٧٥٠ م) ومن العباسيين (٧٥٠ م - ٨٦٨ م) ومن الطولونيين (٨٦٨ م - ٩٠٥ م) ومن العباسيين مرة أخرى (٩٠٥ م - ٩٣٤ م) ومن الاخشيديين (٩٣٤ م - ٩٦٩ م) ومن الفاطميين (٩٦٩ م - ١١٧١ م) ومن الايوبيين (١١٧١ م - ١٢٥٠ م) ومن المماليك البحرية (١٢٥٠ م - ١٣٨٢ م) ومن المماليك البرجية (١٣٨٢ م - ١٥١٧ م) ومن العثمانيين (١٥١٧ م - ١٩١٤ م) مرورا بالفرنسيين (نابليون) : (١٧٩٨ م - ١٨٠١ م) وبأسرة محمد على (١٨٠٥ م - ١٩٥٢ م) وفى أثناء هذه الفترة الأخيرة فى عام ١٨٨٢ م أعلنت بريطانيا الحماية على مصر بعد هزيمة الثورة

العرابية ، ثم اصبحت مصر مملكة وراثية فى عام ١٩٢٢ ، وبعد فشل ثورة عام ١٩١٩ م ، أى فى عام ١٩٥٢ نجحت ثورة الجيش المصرى التى قضت على النظام الملكى واعلنت الحكم الجمهورى فى يوم ١٨ يوليو عام ١٩٥٣ وكان أول مصرى حكم البلاد فى ظل الحكم الجمهورى "الرئيس محمد نجيب" وذهب الاحتلال البريطانى مع الريح فى عام ١٩٥٦ م . (انظر : "مصر فى العصور الوسطى : من الغزو العربى الى الغزو العثمانى" (مرجع سابق) . وانظر ايضا ، "الموسوعة العربية الميسرة" ، اشراف محمد شفيق غربال ، القاهرة ، مطبعة الشعب ، ١٩٦٥ ، صفحات ٥٨٦ ـ ٥٨٧ و ١٦٦١ و ١٦٦٢ و ١٨١٢) .

واذا كان الاحتلال الغربى قد بدأ فى مصر فى عام ١٨٨٢ م فانه كان قد احتل "الجزائر" فى عام ١٨٣٠ م . وفى خلال حكم الاجانب لمصر وبخاصة حكم المماليك (العبيد) وحكم العثمانيين ، شاع بعض عناصر التحلل والتفسخ فى البلاد ، وعمت الخرافات (يستثنى من ذلك حكم محمد على الذى ارسل البعوث الى الغرب وكان اشهر المبعوثين (رفاعة الطهطاوى) .

وظلت خريطة مصرنا الخالدة تتلألأ وباقية لا تتزعزع على عكس غيرها من البلاد (من أمثلة ذلك البابليون والفنيقيون والآشوريون مثلا) . أى أنه لا ضربات الحروب التى ابتليت بها البلاد المصرية ولا حكم المماليك ولا الحكم العثمانى الوضيع ، ولا لغيره ، ولا لاقسى منه وأشد ، ليطفيء شعلة الايمان بالوطن ورفعته وصموده .

استمر الشعب المصرى يحيا على الرغم من المآسى التى عاشها وتعايش معها فى ضوء ما غرس فى تربته المقدسة من عناصر ثقافية ايجابية ومباديء ومثل عليا وقيم ذات الأهداف الحميدة حتى وقتنا الراهن . واعترف بأنه مع ذلك بقى من الرواسب الثقافية الاجتماعية البالية الكثير . ومن هذه الرواسب ، بل وعلى رأسها ، اذكر الخرافات التى نجدها فى المناخ الثقافى الاجتماعى المصرى لا تزال . أى التى

نجدها ودول اليابان والعالم الغربى وبخاصة العملاقان الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة ، قد برز العلم العصرى وتطبيقاته اى التكنولوجيا الحديثة فيها ، فنجد ازدهار علوم الهندسة الوراثية والكيمياء والطب والطبيعة والتسلط على الظاهرة الفلكية . ولعلى اضرب بعض الامثلة التى تؤكد ذلك ، تاركا أمثلة الطلوع الى القمر والدوران بمراكب الفضاء حول الارض حوالى العام واستخدام الطاقة النووية فضلا عن المحاولات التى يحاولها أصحاب الكفاءات العالية العلمية والفنية وغيرها ، جانبا ، واتحدث عن التجارب التى تحدث الآن فى عصر الالكترونات . ومنها تجارب "الطفل السمكة" فى الاتحاد السوفييتى حيث يخرج الطفل من الرحم الى الماء مباشرة دون أن يتعرض جهاز التنفسى الى الهواء .. وهكذا يتعود مواصلة التنفس فى الماء مثلما كان يحدث فى الرحمن تماما وبعد الخروج من الماء تجرى له تمرينات يومية فى أحواض خاصة تحت الماء .. حتى تظل رئتاه على كفاءتهما فى العمل تحت الماء وفى الهواء فى نفس الوقت "ومنها" التطور العلمى الخطير الذى توصل اليه فريق من الاطباء اليابانيين الذين نجحوا عن طريقه الى أسلوب جديد يستطيع به الآباء ان يختاروا نوع الجنين الذى يرغبون فى انجابه . وقد تم استخدامه فى انجاب ٦ بنات ونجحت جميعا" . ويعتمد الاسلوب الجديد على :

"فصل الحيوانات المنوية فى طبقتين الأولى تتضمن ٩٥٪ من الحيوانات الانثوية . والاخرى تحتوى على ٨٥٪ من الحيوانات الذكرية" (انظر : جريدة الجمهورية ، بتاريخ ١٩٨٧/١٢/١٧ . وانظر أيضا جريدة الاخبار ، بتاريخ ١٩٨٨/٥/٢٨) .

ومفهوم الخرافة (لغة) هو الحديث المستملح من الكذب . ويقصد بهذا المفهوم فى بساطة الايمان الفاسد وهو ضد الايمان الصادق . ويرتبط هذا المعنى بمعنى مفهوم السحر البدائى .

وفى احدى الدراسات العلمية التى نشرتها اذكر ، وارجو ان لا يمل

معارىء الحريم من التكرار ، ان التفكير الخرافى يعتبر صيغة أو وصفة تفسر :

موقفا معيناً .
أو ـ ظاهرة معينة .
أو ـ تحقق اشباع حاجة معينة .
أو ـ تحذر من شر معين .

والتفكير الخرافى فى ضوء التفسير العلمى هو :
اعتقاد .
أو ـ فكرة لا تتفق مع الواقع الموضوعى بل تتعارض معه ، وان يكون لهذا الاعتقاد أو هذه الفكرة استمرار .

والخرافة تعنى عادة بتفسير ظاهرة ما أو مشكلة يتكرر ظهورها فى حياة الناس (خسوف القمر مثلا) اذ عندما يخسف القمر يصيح الناس أو بعضهم (وكأنهم يغنون) "يابنات الحور اتركوا القمر للنور" .

ولعل عوامل وجود التفكير الخرافى تكون صعوبة الحياة والاخطار الغامضة . ومن أهم هذه العوامل القلق المرضى واضطراب الحياة الذى تواكبه المشاكل الاجتماعية وبخاصة مشكلة ظاهرة "اللامعيارية" فضلا عن الشعور بالضعف والعجز .

والملاحظ ان الاشاعة غير الخرافة . فالأولى تعطى جوابا عن مشكلة موقوتة بمدة معينة تستبين بعدها حقيقة الامر (اشاعات الحروب من حيث الهزائم والانتصارات والاشاعات فى أثناء الامتحانات مثلا) . ولكن الخرافة تستمر رغم ظهور خطئها وذلك لوجود العوامل التى ذكرت فى الفقرة السابقة .

والملاحظ ان التفكير الخرافى يستند الى أسباب غير طبيعية لتفسير أو حل مشكلات طبيعية . ومن ثم تعزى الى علل غير صحيحة أو غيبية لا يستطيع المفكر خرافيا ان يحددها أو أن يتحكم فيها .

وذلك لبعد التفكير الخرافى عن الواقع الموضوعى ، ولشيوع الخرافات بين عدد كبير من أعضاء المجتمع ، والافتقار الى العلّية العلمية والاستناد فى الكثير من الاحيان الى المفاهيم الغيبية (الحظ والارواح والسحر مثلا) (انظر كتاب نجيب اسكندر ابراهيم ورشدى فام منصور : "التفكير الخرافى ، بحث تجريبى" ، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، عام ١٩٦٢ .

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

والعقيدة الاسلامية الخالصة ، على المستوى النظرى ، تنفر من ألوان السحر واتيان الكهان والعرافين والمنجمين بالرمل والحصى أو نحو ذلك وتصديقهم . والتراث الاسلاسى النظرى مملوء بالترهيب من كل ذلك .

فالسحر هو تلويث للعقيدة :
"ومن سحر فقد أشرك" (حديث نبوى عن ابى هريرة رواه النسائى) .

و"ليس منا من تطير ، أو تطير له ، أو تكهن أو تكهن له ، أو سحر ، أو سحر له ، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما انزل على محمد صلى الله عليه وسلم" (حديث نبوى عن عمران بن حصين ، رواه الطبرانى عن ابن عباس دون قوله : ومن أتى .. الخ) .

ويفسر البعض بأن السحر :
"عزائى ورقى وهو يؤثر فى القلوب والابدان فيمرض ويقتل ويفرق بين المرء وزوجه ، ويأخذ احد الزوجين عن صاحبه" "فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه" (سورة البقرة ، آية ١٠٢) .

و"قل اعوذ برب الفلق ، من شر ما خلق ، ومن شر غاسق اذا وقب ، ومن شر النفاثات فى العقد" (سورة الفلق ، ايات ١ ـ ٤) .

ومهما يكن من الامر فان التراث الاسلامى النظرى يرى انه ليس بصحيح اعتبار السحر تخييلا لا حقيقة على وجه الاطلاق بل منه ماهو

"ولا يفلح الساحر حيث اتى" (سورة طه ، آية ٦٩) .

والعقيدة المسيحية تشجب فى صراحة الخرافات ، فنجد مثلا ان أسفار العهد الجديد المقدس تتضمن مايلى :

"ولا يسغوا الى خرافات وانساب لاحد لها تسبب مباحثات دون بنيان الله الذى فى الايمان" (رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموثاؤس : الاصحاح الأول ، آية ٤) .

و"واما الخرافات الدنسة العجائزية فارفضها وروض نفسك للتقوى" (رسالة بولس الرسول الأولى الى تيموثاؤس : "الاصحاح الرابع ، آية ٧) .

و"فيصرفون مسامعهم عن الحق وينحرفون الى الخرافات" (رسالة بولس الرسول الثانية الى تيموثاؤس : الاصحاح الرابع ، آية ٤) .

و"لا يصغون الى خرافات يهودية ووصايا مرتدين عن الحق" (رسالة بولس الرسول الى تيطس : الاصحاح الأول ، آية ١٤) .

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

وفى البحوث والدراسات العلمية التى أجريت فى المجتمع المصرى المعاصر ، اتضح وجود خرافات من أنواع عديدة ، أذكر منها الخرافات المتعلقة :

- بالزواج .
وبالحمل والولادة .
وبانجاب الاطفال ورعايتهم .

وقبل أن ابدا بضرب بعض الامثلة أود أن اؤكد على أنه لا يخلو مجتمع من المجتمعات البشرية فى الوقت الحاضر من وجود بعض الخرافات فيه . وظاهرة وجود هذه الخرافات لا تعنى أبدية

هذا الوجود . فالدين الخالص يشجب هذا الوجود وينفيه ، وبالعلم وتهيئة الظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الايجابية ، فضلا عن اتاحة فرص المناقشة الحرة والحوار الناضج لدى أعضاء المجتمع حتى تتضح الرؤية عندهم ويجدوا البدائل السوية ـ نلاحظ تقلص تأثير الخرافة على العقول فى الكثير من المجتمعات وبخاصة فى عصرنا الراهن .

والملاحظ ان تأثير الخرافة على عقول الناس وتصرفاتهم ليس أمرا مطلقا . فقد يكون منتشرا فى محيط طبقة أو فئة من الناس فى المجتمع ، وقد يكون وجوده ضئيلا فى محيط طبقة أو فئة أخرى من الناس فى نفس المجتمع .

وفى ضوء ظروف مجتمعنا المصرى المعاصر ، أى فى ضوء ظاهرة "اللامعيارية" التى تنتشر فى مناخه الثقافى الاجتماعى ، نلاحظ ان بعض العناصر الثقافية الاجتماعية المستمرة فيه يتضمن رواسب بالية . وتتمثل هذه الرواسب فى بعض الخرافات . واكتفى هنا بتسجيل بعض وليس جميع ما يتعلق منها بالزواج :

ـ اللى تقرص العروسة ليلة دخلتها تحصلها فى جمعتها وتتجوز .
ـ واذا حد قرص العريس ساعة الفرح يحصله هو راخر ويتجوز .
ـ واذا العريس والعروسة عدوا من تحت رجلين أم العريس يتفقوا ويتهنوا .
ـ واذا شرب العريس الشربات بعد ما العروسة تحط رجلها فيه يحبها زيادة وزيادة .
ـ وفى كتب الكتاب اذا اتحطت حتة سكر تحت لسان العروسة وبعدها انحطت فى كوباية وشربها العريس يتفقوا مع بعض .
ـ والعروسة اللى تخش بيت الزوجية برجلها اليمين فى الأول تتوفق هيه وجوزها .
ـ وعروسة الاثنين يزورها الحسن والحسين .
ـ وعروسة الاربع تطلق يا على أبوها ترجع .

- وفتح المقص فوق رأس العريس والعروسة ساعة كتب الكتاب يمنع العين .
- ورش الملح فى زفة العروسة يمنع الحسد والعين .
- والست اللى تسرح شعرها بالليل جوزها ما يرجعش .
- والست اللى تأخذ فردة جزمة من واحدة ثانية تأخذ كمان عريسها أو (جوزها) .
- واذا وقعت دبلة الخطوبة وقت كتب الكتاب يبقى الجواز مش نافع .
- واللى يتربط يوم الجواز يبقى معمول له عمل .

ومن حيث الحمل والولادة نجد في المجتمع المصرى ان اعضاءه يهتمون اهتماما بالغا بأن تكون الزوجة ولودا اى قادرة على الانجاب . فالاطفال عند المصريين كانوا ولا يزالون زينة الحياة الدنيا ، ويعتبر كل واحد منهم "ضمنا" كل من الأم والأب . ومن ثم نرى الحفاوة بمقدمهم في مجتمعنا ابتداء من فترة الحمل من حيث الحرص على المرأة الحامل من الحسد مثلا ، والحرص على استكمال نمو الجنين فى أثناء هذه الفترة وحتى الولادة . ويلاحظ ارتفاع مكانة "الداية" . وبخاصة فى الريف المصرى والاحياء الشعبية فى المدن ، فضلا عن كثرة الطقوس المتعلقة بالولادة ، وما بعد الولادة (المشاهرة وطقوس السبوع والختان مثلا) - أقرب الى ان تكون حفاوة مقدسة !!

والملاحظ أن أهم طقوس ما بعد الولادة ما يحدث في يوم "السبوع" . نجد أن الاغلبية الساحقة من المصريين على اختلاف مكاناتهم الاجتماعية ومستوياتهم الاقتصادية والثقافية يحتفلون ب "سبوع المولود" ، "المصريون المسلمون" يحتفلون بهذه المناسبة والمصريون المسيحيون وبخاصة من اتباع المذهب الارثوذكس ، يفعلون ذلك أيضا . كل حسب امكاناته وقدراته . وفى هذا الاحتفال نلاحظ الطقوس التى تتسم بالتفكير الخرافى إتساما ملحوظا . ويكفى أن اذكر بعضها فيمايلى :

ـ فى اليوم السادس للوضع ليلا توضع "قلة السبوع" اذا كان المولود بنتاً أو يوضع "ابريق السبوع" اذا كان المولود ولداً بجوار المولود .

ـ ويوضع فى القلة أو الابريق شمعة كبيرة ، وعدد من الشمع حولها وتشعل الشموع ، ويوضع الكل فى صينية بها ماء .

ـ ويوضع فى الماء بعض من حبوب الفول ، وذلك تيمناً به حيث نجد علامة سوداء فى كل "فوله" تشبه حرف الالف : أول حروف لفظ الجلالة : الله .

ـ وينقع الفول فى الماء ، ويعطى المحتفلون فى اليوم التالى (السابع) سبع فولات يضعها كل واحد منهم فى كيس نقوده أو فى جيبه طلبا للرزق والبركة !

ـ والملاحظ أن القلة أو الابريق يكون بكل منهما ماء يشربه أعضاء الاسرة فى صباح يوم السبوع من أجل ان تزيد روابط الاسرة فيما بينها وبين المولود الجديد . ويكون أول الشاربين فى العادة شخص يكون (باله طويل) . .

ـ وتغطى القلة أو الابريق ببيضة مسلوقة عادة ، يأكلها فى الصباح شخص مسن حتى يعيش المولود الجديد طويلا .

ـ ويبدأ الحفل عادة باطلاق البخور ، ثم تزف الأم وهى حاملة طفلها من على عتبة البيت وأطفال الجيران يحملون الشموع المضيئة وهم يترنمون "حرجالاتك برجالاتك حلقة دهب فى وداناتك" (اذا كان المولود بنتا) ، أو "ياربنا ياربنا يكبر ويبقى قدنا" . (اذا كان المولود ولدا) . أو مجرد "شفنا وش جديد يرزقنا برزق جديد" .

ـ وبعد "الزفة" تدخل الأم فى الحجرة التى يتم فيها السبوع ويوضع المولود أو المولودة فى "غربال" ، وتمسك احدى السيدات "هون" من النحاس وتدق به وتقول للمولود اذا كان ولدا "اسمع كلام أمك واسمع كلام أبوك" :

- "واذا كان المولود بنتا تقول "اسمعي كلام أمك ولا تسمعي كلام أبوك" .

ويرى المحتفلون ان "دق الهون" له فائدة هى عدم فزع المولود فيما بعد من الاصوات العالية . ويقال إن "ضوضاء" دق الهون مثل اطلاق الاعيرة النارية في الافراح والزغاريد فى الاحتفالات المختلفة هو وسيلة لابعاد الأرواح الشريرة !

- والملاحظ انه فى اثناء دق الهون تقوم سيدة أخرى بهز "الغربال" الذى به المولود حتى ينقى من الارواح الشريرة كما تنقى الحنطة أو ينقى الشعير أو ينقى الأرز وغيرها من الحبوب التى يختلط الغلث بها (انظر كتاب سيد عويس : "حديث عن المرأة المصرية المعاصرة ، دراسة ثقافية اجتماعية" ، القاهرة ، مطبعة أطلس ، عام ١٩٧٧ ، صفحات ٦٨ - ٦٩ و ٧٤ - ٧٦) .

ولعلنى اذ أذكر ما قالته "أمى" رحمها الله لى عندما كبرت واشتد عودى انها عندما بدأت تحس بأنها قد حملت بى اهتمت اهتماما بالغا بالحرص على ان يكون هذا الحمل هينا طبيعيا فقد مات لها أبناء كثيرون قبل ذلك . واقترح على أمى أن تذهب وهى حامل الى "كودية زار" ،فهى فى يدها عن طريق اجراء بعض الطقوس ان تحفظ الحمل حتى يأتى أوان الولادة . وهى فى امكانها ان تحفظ المولود حتى يشب ويترعرع ويعيش ماشاء الله له ان يعيش . وكانت المشكلة الكبرى التى صادفتها أمى فى ذلك الحين هى ابلاغ ابى وأخذ اذنه حتى يوافق على اجراء هذه الطقوس . ان أمى فى ضوء حياتها مع ابى فى تلك الايام لم يكن فى وسعها أن تجرؤ على ابلاغه ابدا . وبخاصة فان بعض هذه الطقوس يقتضيها ان تخرج من بيت الزوجية أكثر من مرة حيث تسكن "الكودية" المشار اليها . وفى ضوء خبرتى بأبى كان يرى ان أمثال هذه "الكودية" من النساء الدجالات لا يحفظن عهدا ولا يوثق فى آرائهن ، وكل ما يقمن به مجرد ترهات لا يرضى قبولها رجل رشيد عاقل أو شخص على مستوى من الذكاء كالذى كان يحظى به أبى .

ومع كل ذلك فان امى لرغبتها الملحة فى ان يكون لها أبناء "يملأون عليها" البيت جازفت وطلبت منه الاذن بالذهاب الى بيت "الكودية" حيث "**تبخرها**" وهىّ حامل ، ثم تذهب اليها مرة أخرى وهى فى الشهر التاسع لتقوم باجراء طقوس أخرى منها "التبخير" وذبح حمامتين لهما أوصاف معينة لتغمس فى دمائهما ملابسها أو بعض ملابسها التى يجب ان تلبسها **فى أثناء الوضع** ، كما تغمس فى هذه الدماء ملابس المولود التى يجب ان يلبسها بعد ميلاده مباشرة وهذه العمليات بالاضافة الى ما تتمتم به "الكودية" من كلمات مسموعة أحيانا وغير مسموعة أحيانا ، تعنى الطقس المعروف "بالعقد" كل ذلك من أجل أن يتم الحمل والولادة بسلام وحفظ المولود حتى يعيش ويكبر ماشاء الله له أن يعيش .

واذ اذكر هذه الامور وقد مر عليها اكثر من سبعين عاما فاننى لا ادعى ان كل المتزوجات يفعلن ما فعلته امى وهى حامل . ان زوجتى مثلا فعلت ذلك مرة واحدة ، وان ابنتى لم تفعل شيئا من هذا الهراء ، واننى اتوقع ان حفيداتى لن يفعلن شيئا من هذا القبيل . ولكن لا يعنى هذا كله ان ما فعلته امى وهى حامل وبعد ان وضعت لا تفعله سيدات أخريات سواء كن فى الريف أو فى الاحياء الشعبية فى المدينة . انظر كتاب سيد عويس : "التاريخ الذى احمله على ظهرى" : دراسة حالة" ج ١ ، كتاب الهلال ، سبتمبر ١٩٨٥ ، صفحتا ٥٧ و ٥٨) .

واذا انهى هذه الدراسة أود أن اؤكد بأنه فى مجتمعنا نلاحظ ان انجاب الأطفال يدل على **رجولة الزوج** ، "اللى يختشى من بنت عمه ما يخلفش منها غلام" (مثل شعبى مصرى) ، كما يدل على **أنوثة الزوجة** وقدرتها على الانجاب . فالانجاب يكسب الزوج **مكانة اجتماعية جديدة هى مكانة الأب** ، ويترتب على ذلك حقوق وواجبات جديدة . وهو يكسب الزوجة **مكانة اجتماعية جديدة هى مكانة الأم** . ويترتب على ذلك حقوق وواجبات جديدة . والملاحظ ايضا ان مكانة الأم فى مجتمعنا مكانة رفيعة جدا من آلاف السنين **عبر العصور والازمان** وحتى وقتنا الحاضر . واذا كان المجتمع المصرى المعاصر يتسع للرجل غير القادر على الانجاب ويقبله ، فان الزوجة العاقر لا

الشائعة انه عندما يتزوج رجل مسلم من زوجة ثانية ، تدعو الزوجة الأولى دعوات تتصل عادة بعدم انجاب الأطفال :

"لا تطول ولا تنول ولا تدادى ولا تنادى طول عمرها" و"كل من قطعنى من زوجى اقطعها من ولدها ، واستعين بالله عليها لا تخلف ولا تتلف طول حياتها" .

والامثلة الشعبية المصرية والاقوال المأثورة التى تتعلق بالاطفال فى المجتمع المصرى المعاصر عديدة ولعل مرد بعضها يفسر الاهتمام بهم ورعايتهم وتربيتهم والأخذ بيدهم وحبهم والعبء الجسيم الذى تتحمله الاسرة (التوجيهية) فى سبيلهم ، وأرجو أن يسمح لى القارىء الكريم بذكر بعض هذه الامثلة والاقوال فيما يلى :

- تخريم ودن العيل يخليه يعيش .
- ولبس ابنك خلاخيل فى رجله يحفظه من العين .
- ودقى لابنك علشان يعيش .
- وضع الخمسة وخميسة على صدر العيل يحفظه من الحسد .
- وسمى ابنك "شحات" ولا "شمردل" ولا "خيشة" علشان يعيش .
- ولبس حلق فى ودن ابنك علشان يعيش .
- واشحتى على عيلك علشان يعيش .
- دق الميه فى الهون يخلى اللى ما بيتكلمشى يتكلم .
- والواد يطلع لخاله .
- ويخلق من ضهر العالم فاسد ومن ضهر الفاسد عالم (حديث عن المرأة المصرية المعاصرة : "دراسة ثقافية اجتماعية" ، صفحة ٦٩ وصفحة ٧٣) .

وفى ضوء ما سبق أرجو رجاء حارا أن يتقبل القارىء الكريم هذه الدراسة قبولا حسنا ، كما أرجو رجاء حارا أن يغفر التكرار ان وجد التكرار ، وان لا يمله وذلك لان سياق الدراسة ، كما أرجو ان يعلم القارىء قد اقتضى ذلك .

لعل من حق القارىء على الكاتب أن يعرف أول ما يعرف معنى مفهوم "التربية" ومعنى مفهوم "الاخلاق" . فالمفهومان من المفاهيم الانسانية . والملاحظ أن هذه المفاهيم مفاهيم فى الاغلب الأعم غامضة أى لها معان عديدة ، وهى أيضا مفاهيم فضفاضة أى لها صور متعددة ، وقد تستخدم فى بعض الأحيان فى مواقف متناقضة .

ومفهوم "التربية" قد تعددت معانيه ودلالاته . ومع ذلك فالكاتب يرى أنه ينبغى أن تفهم التربية على أنها "عملية تغيير" بواسطتها ينمو الانسان ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته ، وهو أى الانسان اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته ، مع تكوينه وتحويله الآخرين والبيئة التى يعيش فيها . ان عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شىء الى اعداد المواطن (الانسان) لكى يستطيع أن يؤدى ادواره الاجتماعية التى يتوقعها منه المجتمع الذى ولد فيه ويعيش . انها عملية تكوين الشخصية ، أى عملية جعل "الفرد" "شخصا" أى فرد له شخصية اجتماعية . أى يكون المواطن شخصا ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط به من الناس سواء كانت هذه الاتجاهات مما يفيد أو يضر المجتمع وجماعاته . وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيم هذا المجتمع ، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . أى أن قيم المجتمع وجماعاته قد تكون ايجابية ، قيما بناءة تكون من وراء افكار

اعضاء المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والأشياء والاشخاص ، أى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء ، وهى قيم بناءة لانها تدعو الى الخير ولا تدعو الي الشر . ونعنى بالخير كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين ، أى كل ما يعين على التغيير الى الأفضل والى الأقوى والى الأعظم . ومن ثم فهى قيم حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع أى مجتمع ، وترتفع بهذه الروح وتثبتها وتقويها . وقد تكون قيم المجتمع وجماعاته على عكس ذلك ـ قيما سلبية ـ قيما غير بناءة لا تدعو الى الخير بل تدعوَ الى الشر ، تدعو الى ما يعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين .

واذا كان مفهوم التربية يعنى انه عملية تغيير الفرد فى المجتمع لكى يكون شخصا أو فردا ذا شخصية له أدواره الاجتماعية التى يؤديها فى المجتمع ، فان مفهوم "الاخلاق" هو أنماط السلوك التى تصدر عن الشخصية الاجتماعية عندما تواجه الحياة بظروفها ومواقفها الأجتماعية . وأنماط السلوك البشرية عديدة ومتباينة ومتناقضة جميعا . وقد تكون أنماطا فاضلة أو أنماطا غير فاضلة . فالخلق الفاضل هوَ ذلك الذى يرمى الى أفضل الحالات الاجتماعية . وفى الوقت نفسه يسعى ويعمل بعقل وروية على تخير الوسائل التى بها يدرك هذا الغرض الأسمى . والخلق غير الفاضل يرمى الى العكس . أى يرمى الى أسوأ الحالات الاجتماعية التى ترمى بدورها الى السلبية والهدم . أى الى الشر ، أى ترمى الى ما يعين على العمل غير الصالح من أجل الآخرين . أى أن الكاتب لا يرى ما يراه البعض من أن الخلق شيء نفسى داخلى أو هو الدافع الذى يحرك الانسان للفعل ، وأما الفعل نفسه فهو السلوك . أى أن الخلق هو شيء باطنى فى الانسان لا علاقة له بالبيئة الاجتماعية الا عن طريق شيء آخر هو السلوك . أى أن الناظر الى الانسان لا يرى الأخلاق وانما يشاهد العمل أو الفعل ، أو بعبارة أخرى أن أحد هذين الأمرين هو سبب والآخر نتيجة له . فالأخلاق هى السبب ، والسلوك أو العمل هو النتيجة ـ أن هذه فلسفة ثنائية ـ ولكن فلسفة الدين الاسلامي الحنيف هى التوحيد . وهذا

بخلاف ما يقبله أهل الغرب الذين وجدوا متسعا فى بيئتهم لجميع الفلسفات من توحيدية وثنائية وحتى جمعية . فالملاحظ أننا لو أمعنا النظر لوجدنا أن الأمر بخلاف ذلك . فمثلا قد توجد حالة تطلب من الكائن الحى (الشخص) أن يعمل أو ينشط . فقد يأخذ هذا الشخص فى التفكير ـ أى فى غربلة أختباراته السابقة بقصد أكتشاف "ـ الة أو المشابهة بين هذه الحالة التى تستدعى عملا ونشاطا وبين ما مر عليه فى عهده السابق . وعندما يكتشف المشابهة فى الحالتين يشرع فى البحث عما عمله فى الحالة الأولى ، أى أن يراجع استجابته السابقة لتلك الحالة ـ تلك الاستجابة التى أتت بالغرض فى الدفعة الأولى . ثم يتخيل أنه عمل فى هذه الحالة الراهنة ما عمله فى الأولى ، وبالطبع يقدر لفعله الحالى نتيجته التى قد تترتب عليه . وبعد أن يفرغ من كل هذا يشرع فى العمل المادى الظاهر . ويتحول مجرى التفاعل فى نفسه من تفاعل نفسانى داخلى مستتر الى فعل ظاهر صريح واضح (سلوك بشرى) . وكل هذه العملية هى عملية متصلة ليس لها أنقطاع وليس لجزئياتها انفصال (أنظر كتاب يعقوب فام : "التربية والاخلاق" ، القاهرة ، مطبعة المجلة الجديدة ، ١٩٣٠ ، صفحتا ٢٦ ـ ٢٧) .

واذا كان السلوك البشرى يصدر عن الشخصية الانسانية فى ضوء محدداتها ومنها خبراتها الاجتماعية الثقافية . فالملاحظ أن القيم الاجتماعية تؤدى كما سبق أن أوضحنا فى هذه العمليات دورا خطيرا . والملاحظ أيضا أن مصادر هذه القيم الاجتماعية ، بأنواعها العديدة ، عديدة كذلك . منها وأهمها التراث الدينى والتراث التاريخى ، ومنها التراث الأدبى والفنى ، ومنها الأمثال الشعبية سواء كان ذلك مكتوبا أو غير مكتوب يحيا فى نفوس أعضاء المجتمع .

والتراث الدينى أهم مصادر القيم الحميدة . وهى قيم شتى ، أى أن أنواعها عديدة . منها القيم الاجتماعية الايجابية التى تتضمن الصبر والمثابرة والكفاح والايمان بالنصر وتقوية العزائم . والأمثلة على ذلك نجدها فى الآيات القرآنية الكريمة التى تزهو بمعانى هذه القيم وتنشر شذاها :

١ ـ "يأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم" (٤٧ م محمد : ٧) .

٢ ـ "لن يضروكم الا أذى وأن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون" (٣ م آل عمران : ١١١) .

٣ ـ "ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ان تكونوا تألمون فأنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليما حكيما" (٤ م النساء : ١٠٤) .

٤ ـ "ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين . أن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين" (٣ م آل عمران : ١٣٩ ـ ١٤٠) .

٥ ـ "وكأين من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله وما ضعفوا وما أستكانوا والله يحب الصابرين . وما كان قولهم الا أن قالوا ربنا أغفر لنا ذنوبنا واسرافنا فى أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين" (٣ م آل عمران : ١٤٦ ـ ١٤٧) .

٦ ـ « بلى ان تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة الاف من الملائكة مسومين . وما جعله الله الا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم » (٣ م آل عمران : ١٢٥ ـ ١٢٦) .

٧ ـ « يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون » (٣ م آل عمران : ٢٠٠) .

٨ ـ « يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال او متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير » (٨ م الأنفال : ١٥ ـ ١٦) .

٩ ـ « ان الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص » (٦١ م الصف : ٤) .

١٠ ـ « ذلكم وان الله موهن كيد الكافرين » (٨ م الأنفال : ١٨) .
١١ ـ « .. واصبروا ان الله مع الصابرين » (٨ م الأنفال : ٤٦) .
١٢ ـ « وما يلقاها الا الذين صبروا وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » (٤١ ك فصلت : ٣٥) .

١٣ ـ « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفا تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها نعم اجر العاملين . الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون » (٢٩ ك العنكبوت: ٥٨ ـ ٥٩) .
١٤ ـ « يابنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ماأصابك ان ذلك من عزم الأمور » (٣١ لقمان : ١٧) .
١٥ ـ « فاصبر ان وعد الله حق .. » (٤٠ ك غافر : ٥٥) .
١٦ ـ « فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا » (٧٦ م الانسان : ٢٤) .
١٧ ـ « ثم كان من الذين امنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة » (٩٠ ك البلد : ١٧) .
١٨ ـ « والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (١٠٣ ك العصر : ١ ـ ٢ ـ ٣) .
١٩ ـ « واصبر وما صبرك الا بالله ولاتحزن عليهم ولاتك فى ضيق مما يمكرون » (١٦ ك النحل : ١٢٧) .
٢٠ ـ « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين » (٢ م البقرة : ١٥٥) .

ومن القيم الحميدة التى تضمنها التراث الدينى ، نجد القيم الاجتماعية الايجابية التى تتضمن الاقبال على التطوع للجهاد والتدين والجهاد فى سبيل الله والثبات وضبط النفس وآيات القرآن تتلألأ بمعانى هذه القيم وتنشر نورها :

١ ـ وأعدوا لهم ماأستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم وماتنفقوا من

شىء فى سبيل الله يوف اليكم وأنتم لاتظلمون » (٨ الأنفال : ٦٠) .
٢ ـ « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير »
(٢٢ م الحج : ٣٩) .
٣ ـ « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا اليه الوسيلة وجاهدوا فى سبيله لعلكم تفلحون » (٥ المائدة : ٣٥) .
٤ ـ « الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » (٩ م التوبة : ٢٠) .
٥ ـ « فقاتل فى سبيل الله لاتكلف الا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله ان يكف بأس الذين كفروا والله اشد بأسا وأشد تنكيلا » (٤ م النساء : ٨٤) .
٦ ـ « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولاتعتدوا ان الله لايحب المعتدين.. وأقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل .. » (٢ م البقرة : ١٩٠ ـ ١٩١) .
٧ ـ « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » (٢ م البقرة : ١٩٣) .
٨ ـ « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى ان تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (٢ م البقرة : ٢١٦) .
٩ ـ « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالاخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما » (٤ م النساء : ٧٤) .
١٠ ـ « وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فان الله بما يعلمون بصير » (٨ م الانفال : ٣٩) .
١١ ـ « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم » (٩ م التوبة : ١١١) .

١٢ ـ « قل ان كان اباؤكم وأبناؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لايهدى القوم الفاسقين » (٩ م التوبة : ٢٤) .
١٣ ـ « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم فانفروا ثبات أو أنفروا جميعا » (٤ م النساء : ٧١) .
١٤ ـ « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » (٣ م آل عمران : ١٦٩) .
١٥ ـ « وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله كتابا مؤجلا .. (٣ م آل عمران : ١٤٥) .
١٦ ـ « لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين اجرا عظيما » (٤ م النساء : ٩٥) .
١٧ ـ « الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فأخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » (٣ م ال عمران : ١٧٣) .

ومن القيم الحميدة التى تضمنها التراث الدينى ، نجد القيم الاجتماعية الايجابية التى تتضمن التضحية فى سبيل المجموع بالمال والجهد واداء الواجب وتحمل المسئولية فى العمل الايجابى المشترك . وايات القرآن الكريم تشع بدلالات هذه القيم وتنشر هداها :

١ ـ « مثل الذين ينفقون اموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم » (٢ م البقرة : ٢٦١) .
٢ ـ « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه فالذين آمنوا منكم وانفقوا لهم أجر كبير » . (٦٧ م الحديد: ٧) .
٣ ـ « ... وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين » (٣٤ ك سبأ : ٣٩) .

٤ ـ « ... وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وما تنفقون الا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف اليكم وأنتم لاتظلمون » (٢ م البقرة ٢٧٢) .
٥ ـ « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه الا ان تغمضوا فيه واعلموا ان الله غني حميد » . (٢ م البقرة : ٢٦٧) .
٦ ـ « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم أن كنتم تعلمون » (٦١ م الصف : ١٠ ـ ١١) .

٧ ـ « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني الى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » (٦٣ م المنافقون : ١٠) .
٨ ـ « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب واقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس اولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون » (٢ م البقرة : ١٧٧) .

ومن الآيات القرآنية الكريمة ما هو مصدر لاينضب لبعض القيم الاجتماعية الايجابية التي تتضمن الثقة بالنصر والتوكل المثمر المقترن بالسعي والعمل والتفاؤل والصبر على مزاولة المشاق والطاعة التلقائية والتمسك بالاخلاق الحميدة والمثل العليا :

١ ـ « يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لايفقهون » (٨ م الانفال : ٦٥) .
٢ ـ « فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في

٣ ـ « فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » (٤٧ م محمد : ٣٥) .
٤ ـ « وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وارضا لم تطاؤها وكان الله على كل شىء قديرا » (٣٣ من الأحزاب : ٢٦ ـ ٢٧) .
٥ ـ « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شىء فردوه الى الله والرسول ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير واحسن تأويلا » (٤ م النساء : ٥٩) .
٦ ـ « يا أيها الذين آمنوا اطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وانتم تسمعون . ولاتكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لايسمعون » (٨ م الانفال : ٢٠ ـ ٢١) .

٧ ـ « واطيعوا الله ورسوله ولاتنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين » (٨ م الانفال : ٤٦) .
٨ ـ « ولقد صدقكم الله وعده اذ تحسونهم باذنه حتى اذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين » (٣ م آل عمران : ١٥٢) .
٩ ـ « يا أيها الذين آمنوا اذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولاتقولوا لمن القى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتبينوا ان الله كان بما تعملون خبيرا » (٤ م النساء : ٩٤) .
١٠ ـ « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » (٣٣ م الأحزاب : ٢١) .
١١ ـ « لا خير فى كثير من نجواهم الا من امر بصدقة او معروف او اصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله فسوف نؤتيه اجرا عظيما » (٤ م النساء : ١١٤) .
١٢ ـ « يا أيها الذين آمنوا لايسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا

منهم ولانساء من نساء عسى ان يكن خيرا منهن ولاتلمزوا انفسكم لاتنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (٤٩ م الحجرات : ١١) .
١٣ - « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن أن بعض الظن اثم ولاتجسسوا ولايغتب بعضكم بعضا » (٤٩ م الحجرات : ١٢) .
١٤ - « والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا واثما مبينا » (٣٣ م الأحزاب : ٥٨) .
١٥ - "أرأيت الذى يكذب بالدين . فذلك الذى يدع اليتيم . ولا يحض على طعام المسكين" (١٠٧ ك الماعون : ١ - ٢ - ٣) .

١٦ - "واذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها ان الله كان على كل شيء حسيبا" (٤ م النساء : ٨٦) .
١٧ - "وأن ليس للانسان الا ماسعى" (٥٣ ك النجم : ٣٩) .
١٨ - "ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون" (٤١ ك فصلت : ٨) .
١٩ - "انا لا نضيع اجر من احسن عملا" (١٨ ك الكهف : ٣٠) .
٢٠ - "ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهو لا يظلمون" (٤٦ ك الاحقاف : ١٩) .
٢١ - "وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون" (٩ م التوبة : ١٠٥) .
٢٢ - "ومن اراد الاخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا" (١٧ ك الاسراء : ١٩) .
٢٣ - "فاذا عزمت فتوكل على الله" (٣ م آل عمران : ١٥٩) .

والآيات القرآنية الكريمة التى تتضمن قيم الاخوة والالفة والتماسك فى محيط المجتمع وجماعاته عديدة . وكلها قيم اجتماعية ايجابية تتلألأ بمعانيها هذه الآيات وتحث عليها :

١ - "وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان" (٥ م المائدة : ٢) .
٢ - "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين احسانا وبذى القربى

واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا" (٤ م. النساء : ٣٦) .

٣ ـ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم اعداء فألف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا" (٣ م آل عمران : ١٠٣) .

٤ ـ "انما المؤمنون اخوة فأصلحوا بين اخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون" (٤٩ م الحجرات : ١٠) .

٥ ـ "ولا تنسوا الفضل بينكم ان الله بما تعملون بصير" (٢ م البقرة : ٢٣٧) .

٦ ـ "لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين" (٦٠ م الممتحنة : ٨) .

٧ ـ "ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم ان الله عليم خبير" (٤٩ م الحجرات : ١٣) .

٨ ـ "ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى احسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم" (٤١ ك فصلت : ٣٤) .

وفى ضوء الآيات الكريمة السابقة نلاحظ أهم القيم الاجتماعية الايجابية التى يدعو اليها الدين الاسلامى الحنيف . والتى يجب ان تعتبر جزءا من شخصية كل مسلم .. وبالاضافة الى هذه الايات نجد العديد من الاحاديث النبوية التى تفسرها وتؤكدها . وبالاضافة الى ذلك نجد شخصية نبى الاسلام صلى الله عليه وسلم نموذجا يحتذى وقدوة يهتدى بها "لقد كان لكم فى رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا" (٣٣ م الاحزاب : ٢١) .

ولقد اثبت العلامة الامام الغزالى فى كتابه احياء علوم الدين بيانا من محاسن اخلاق النبى صلى الله عليه وسلم التى جمعها بعض العلماء والتقطها من الاخبار . فقد كان صلى الله عليه وسلم :

"أحلم الناس ، وأشجع الناس ، وأعدل الناس ، واعطف الناس ، لم

تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقها او عصمة نكاحها او تكون ذات محرم منه ، وكان اسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم وان فضل شيء ولم يجد من يعطيه وفاجأه الليل لم يأو الى منزله حتى يتبرأ منه الى من يحتاج اليه ، لا يأخذ مما اتاه الله الا قوت عامه فقط من ايسر ما يجد من التمر والشعير ويضع سائر ذلك فى سبيل الله ، لا يسأل شيئا الا اعطاه ، ثم يعود على قوت عامه فيؤثر منه حتى انه ربما احتاج قبل انقضاء العام ان لم يأته شيء ، وكان يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم فى مهنة اهله ويقطع اللحم معهن ، وكان اشد الناس حياء لا يثبت بصره على وجه احد ، ويجبيب دعوة العبد والحر ، ويقبل الهدية ولو انها جرعة لبن او فخذ ارنب ويكافيء عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة ، و لايستكبر عن اجابة الامة والمسكين ، يغضب لربه ولا يغضب لنفسه ، وينفذ الحق وان عاد ذلك عليه بالضرر او على اصحابه ، عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين وهو فى قلة وحاجة الى انسان واحد يزيده فى عدد من معه فأبى وقال : انا لا انتصر بمشرك ، ووجد من فضلاء اصحابه وخيارهم قتيلا بين اليهود فلم يحف عليهم ولازاد على مر الحق بل وداه بمائة ناقة وان باصحابه لحاجة الى بعير واحد يتقوون به ، وكان يعصب الحجر على بطنه مرة من الجوع ، ومرة يأكل ماحضر ولا يرد ماوجد ولا يتورع عن مطعم حلال وان وجد تمرا دون خبزا اكله وان وجد شواء اكله وان وجد خبز بر او شعير اكله وان وجد حلوا او عسلا اكله وان وجد لبنا دون خبزا اكتفى به وان وجد بطيخا او رطبا اكله ، لا يأكل متكئا ولا على خوان ، لم يشبع من خبز بر ثلاثة ايام متوالية حتى لقى الله تعالى ايثارا على نفسه لافقرا ولا بخلا ، يجيب الوليمة ويعود المرضى ، ويشهد الجنائز ويمشى وحده بين اعدائه بلا حارس ، اشد الناس تواضعا واسكنهم فى غير كبر ، وابلغهم فى غير تطويل ، واحسنهم بشرا ، لايهوله شيء من امور الدنيا ، ويلبس ماوجد فمرة شملة ومرة برد حبرة يمانيا ومرة جبة صوف ماوجد من المباح لبس ، وخاتمه فضه يلبسه فى خنصره الايمن والايسر ، يردف خلفه عبده او غيره ، يركب ما امكنه مرة فرسا

ومرة بعيرا ومرة بغلة شهباء ومرة حمارا ومرة يمشى راجلا حافيا بلا رداء ولا عمامة ولا قلنسوة يعود المرضى فى اقصى المدينة ، يحب الطيب ويكره الرائحة الرديئة . ويجالس الفقراء ، ويؤاكل المساكين ، ويكرم اهل الفضل فى اخلاقهم ويتألف اهل الشرف بالبر لهم ، يصل ذوى رحمه من غير ان يؤثرهم على من هو أفضل منهم ، لايجفو على احد ، يقبل معذرة المعتذر اليه ، يمزح ولا يقول إلا حقا ، يضحك من غير قهقهة ، يرى اللعب المباح فلا ينكره ، يسابق اهله ، وترفع الاصوات عليه فيصبر ، وكان له لقاح وغنم يتقوت هو واهله من البانها ، وكان له عبيد واماء لا يرتفع عليهم فى مأكل ولا ملبس ولا يمضى له وقت فى غير عمل الله تعالى او فيما لابد منه من صلاح نفسه ، يخرج الى بساتين اصحابه ، لا يحتقر مسكينا لفقره وزمانته ولا يهاب ملكا لملكه ، يدعو هذا وهذا الى الله دعاء مستويا ، قد جمع الله تعالى له السيرة الفاضلة والسياسة التامة وهو أمى لا يقرأ ولا يكتب نشأ فى بلاد الجهل والصحارى فى فقر وفى رعاية الغنم يتيما لا اب له ولا ام يعلمه الله تعالى جميع محاسن الاخلاق والطرق الحميدة واخبار الاولين والاخرين ومافيه النجاة والفوز فى الاخر والغبطة والخلاص فى الدنيا ولزوم الواجب وترك الفضول (انظر كتاب : ابو حامد محمد بن محمد الغزالى : احياء العلوم ، الجزء الثانى ، القاهرة ، دار احياء الكتب العربية ، عيسى البابى الحلبى ، ١٩٥٧ ، صفحات ٣٥٣ ـ ٣٦٠ .

ولعل اعظم ما يخلص خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى "وانك لعلى خلق عظيم" (٦٨ ك القلم : ٤) ، وقوله جل شأنه "ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين" (٣ م ال عمران : ١٥٩) .

فى ظل هذا المناخ الاجتماعى الثقافى الذى يشع بالقيم الايجابية التى تضمنتها آيات القرآن الكريم ، كما تضمنتها احاديث رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم ، وتحت رعاية القدوة الحسنة والأسوة الكريمة عاش المسلمون الأوائل ونشئوا تنشئة اجتماعية صالحة

انتجت تربة خلقية رائعة يسرت لهم ان يسطروا صفحات خالدة فى تاريخ الانسانية . ولعل اجل مايصف هؤلاء قوله جل وعلا :

« محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع اخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » . (٤٨٠ م الفتح : ٢٩) .

واذا كانت القيم الايجابية السابقة قد تمثلها اصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم ، واصبحت جزءا من شخصياتهم يواجهون بها المواقف الاجتماعية المتباينة والمتناقضة من غير ان يحيدوا عن الصراط المستقيم ، ويؤكدون بها تحقيق رسالة الاسلام ـ اذا كان الأمر كذلك ، فقد تمثل نفس القيم الذين اتوا من بعدهم وغرست فى نفوس الاخيرين أروع الاتجاهات التى تهدف الى تحقيق نفس هذا الهدف الاسمى . كان الأولون مثلا عليا سار على دربهم الاخيرون . والتاريخ يذكر الفتوحات التى مزقت اكبر دولتين فى العالم فى ذلك الحين ، دولة فارس والدولة الرومانية ، يذكر فتوحات العراق وسوريا وفلسطين والهند وفارس والقسطنطينية واسيا الصغرى واسيا الوسطى القديمة ، كما يذكر الفتوحات غربا وشمالا فى مصر وشمال افريقيا وسيسيلى (جزيرة صقلية) وقبرص واسبانيا حتى حدود نهر اللوار فى فرنسا (بواتييه) ويذكر التاريخ حدود الامبراطورية الاسلامية حتى الصين شرقا ، وحدودها فى قارة افريقيا فى السودان والحبشة الى نيجيريا . ويذكر التاريخ الاسلامى دائما القادة العسكريين العظام الذين اثبتوا تفوقهم العسكرى امام الدنيا بأسرها ، يذكر التاريخ خالد بن الوليد والمثنى ومسلمة وعمرو بن العاص وابن ابى سرح وعبد الله بن نافع بن عبد القيس وابن الحصين وموسى بن نصير وطارق بن زياد وقتيبة بن مسلم وغيرهم . (انظر كتاب ابو جعفر

محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، الجزء الرابع ، القاهرة دار المعارف بمصر ، ١٩٧٠ ، صفحات ١٠٤ و١١٢ و٢٥٣ ـ ٢٥٥ .

انظر ايضا :

Reuben Levy, « An Introduction to the Sociology of Islam », VOL. I. London, Williams Norgate Limited 19·1, P.P. 8-33

ولم يكن التفوق العسكرى وحده او روح الفداء وحدها أو كان التفوق الحضارى بكل انماطه ، بل كان كل اولئك جميعا ، فضلا عن الايمان الراسخ بالقيم الايجابية التى تمثلها المسلمون الأوائل من امثال الخليفة ابو بكر (مات فى عام ٦٣٤ م) والخليفة عمر (مات فى عام ٦٤٤ م) ، والخليفة عثمان (مات فى عام ٦٥٦ م) ، والخليفة على (مات فى عام ٦٦١ م) كما تمثلها من اتى بعد الخلفاء الراشدين وحذوا حذوهم ـ هى التى بنت حضارة الاسلام العظيمة المتفوقة . فالملاحظ ان العلم العصرى قد بشر ببداياته علماء مسلمون افاضل ابتداء من جابر بن حيان (مات فى عام ٨٠٣ م) ، اى منذ القرن الثامن الميلادى . ويكفى ان نذكر العصر الاسلامى الذهبى فى خلال المدة من القرن الثامن الميلادى والترجمات لامهات كتب الاغريق الى اللغة العربية . كما نذكر الجهود التى بذلها علماء وفلاسفة من أجل ازدهار العلم والفلسفة من أمثال الخوارزمى (مات فى عام ٨٥٠ م)، والكندى (مات فى ٨٧٣ م) والرازى (مات فى عام ٩٢٥ م)، والفارابى (مات فى عام ٩٥١ م) ، وابن سينا (مات فى عام ١٠٣٧ م) وابو الحسن بن الهيثم (مات فى عام ١٠٣٩ م) ، والبيرونى (مات فى عام ١٠٤٨ م) ، وابن رشد (مات فى عام ١١٩٨ م) وابن جبير (مات فى عام ١٢١٧ م) ، وابن بطوطه (مات فى عام ١٣٦٨ م) وابن خلدون (مات فى عام ١٤٠٦ م) وغيرهم وغيرهم .

ومن الفقهاء الاعلام نذكر الامام ابو حنيفة النعمان (مات فى عام ٧٦٧ م) والامان مالك بن انس (مات فى عام ٧٩٥ م) والامام ابو

عبد الله محمد بن ادريس الشافعى (مات فى عام ٨٢٠ م) ، والامام أحمد بن حنبل (مات فى عام ٨٥٥ م) ، وغيرهم وغيرهم .

ومن جامعى الاحاديث النبوية ومصنفيها العلماء الافاضل البخارى (مات فى عام ٨٧٠ م) ، ومسلم (مات فى عام ٨٧٥ م) ، وابن ماجه (مات فى عام ٨٨٦ م) ، وأبو داود (مات فى عام ٨٨٨ م) ، والترمذى (مات فى عام ٨٩٢ م) ، والنسائى (مات فى عام ٩١٥) ، وغيرهم وغيرهم انظر كتاب : Maurice Gaudefory- Demom-bynes Muslim Institutions, London, George Allen and Unwin Ltd 1950, P.P. 60, 68, 205- 206
انظر ايضا : Encyclopaedia Britannica Inc Encyclopaedia Britannica U.S.A, 1968, Volumes, 1, 2, 11, and 13.

كان هؤلاء العلماء والفلاسفة والفقهاء ، ومازالوا ، اعلام الحضارة الاسلامية العتيدة ، ولم يكن يقابلهم معاصرون فى الغرب ، وعملوا فى ضوء قيمهم التى تعطر بها المناخ الاجتماعى الثقافى ، وكلها قيم ايجابية ، فى سبيل خير الناس وصلاح المجتمع والكشف عن الحقيقة . وبذلوا فى سبيل تحقيق كل ذلك كل غال ، كانوا المعلمين الأوائل لأهل الغرب الذين سرعان ما اكتشفوا المعرفة عندهم فنهلوا منها منهلا عذبا ، وقد اعترف العلماء الغربيون والفلاسفة الغربيون بهذه الحقيقة وسجلوها فى كتبهم ودوائر معارفهم واكدوها فى كل وقت . ومن الأمثلة على ذلك ماذكره « جورج سارتون » صاحب (تاريخ العلم) بعد ان عدد بعض اسماء اعلام العرب : « انها مجموعة رائعة من الاسماء التى لايصعب على المرء ان يضيف اليها اخرين . ولو أن أحدا اشار الى جدب القرون الوسطى من الناحية العلمية . فما عليك الا ان تجابهه بتلك القائمة من الاسماء الذين ظهروا فى فترة صغيرة نسبيا ، اى مابين عامى ٧٥٠م و١١٠٠ » وعلى نفس الدرب يسير الفيلسوف الأمريكى « داربر » فيقول : « تأخذنا الدهشة احيانا عندما ننظر فى كتب العرب ، فنجد اراء كنا نعتقد انها لم تولد الا فى زماننا ،

كالرأى الجديد فى ترقى الكائنات العضوية وتدرجها فى كمال انواعها ، فان هذا الرأى كان مما يعلمه العرب فى دراساتهم ، وكانوا يذهبون به الى ابعد مما ذهبنا فكان عندهم علم يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والأصل الذى بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقى المعادن فى اشكالها » .

وقد كتب « اناتول فرانس » بأسلوبه المعهود : « سأل السيد » « دوبوا » مرة السيدة « نوزيير » ما هو اكثر ايام التاريخ شؤما ؟ لم تستطع السيدة « نوزيير » الاجابة عن هذا السؤال ، وحينئذ قال السيد « دوبوا » ان اكثر ايام التاريخ شؤما هو اليوم الذى جرت فيه معركة « بواتييه » فى عام ٧٣٢ ، حين تراجع العلم والفن العربيان والحضارة العربية امام البربرية الافرنجية . اى فى معركة « بلاط الشهداء » التى ردت فيها جيوش الغال (فرنسا) الجيوش العربية الزاحفة على فرنسا من اسبانيا بقيادة عبد الرحمن الغافقى » (انظر كتاب محمد عمارة : فجر اليقظة القومية ، القاهرة ، القاهرة للثقافة العربية ١٩٧٥ ، صفحتا ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

وقد كتب الفيلسوف الانجليزى المعاصر « جون لويس » فى كتابه و(مدخل الى الفلسفة » الذى ترجم الى العربية فى عام ١٩٥٧ مايلى :

« ان الفلسفة الغربية مدينة بدين لايمكن ان يقدر للفلاسفة العرب الكبار وخاصة ابن سينا وابن رشد . ولعل فى نقل كتابى (مدخل الى الفلسفة) الى العربية مايشير الى ذلك التقدير الكبير الذى نكنه نحن معشر الغرب ، لهؤلاء الاعلام ، ولعل فيه قسطا يسيرا من الوفاء بديننا لاولئك القوم الذين دفعوا بالفكر الغربى الى الامام .

فى اقصى الشرق فى جمهورية اوزبكستان السوفييتية ، تقف مدينة بخارى ، اكثر مدن اسيا الوسطى القديمة تطبعا بالطابع الشرقى ، اذ تحتوى على ٣٦٥ مسجدا ، هناك ولد ابن سينا فى عام ٩٨٠ م وقضى اكبر قسط من حياته . هناك اشتغل ابن سينا بالطب فكان من اعلام فنه فى العالم اجمع . هناك عرض ابن سينا فلسفة ارسطو طاليس عرضه

الخاص القوى . قال ان المادة ازلية وانها لم تخلق ، وان كانت المادة تكتسب صورتها بفضل العقول التى هى انبثاقات من الله . ان البرت الكبير العالم الاسكولائي الكبير فى العصور الوسطى تعلم من ابن سينا الكثير . وراح يؤكد ان فكرة خلق المادة لايمكن البرهنة عليها فلسفيا .

في اقصى الغرب . فى اسبانيا ، تقف مدينة قرطبة فى مقابل مدينة بخارى من اقصى الشرق . ولد ابن رشد فى عام ١١٢٦ م فى هذه المدينة التى كان جده قاضيا لها . كان ابن رشد معلقا وشارحا لفلسفة ارسطو طاليس ، وقد طور مذهبه الفلسفى بطريقته الواضحة الابداعية الخاصة . انه لم يكتف بالقول بأزلية المادة ، بل راح يؤكد انه فى مقدور الجنين ان يتطور بفضل قوته الكامنة الذاتية . لقد دافع ابن رشد بقوة عن ابن سينا فى وجه المفكرين الدينيين المحافظين الذين كانوا ينتقدونه . وسواء فى بغداد او فى اسبانيا . لم تستمر الشعلة التى اوقدها هؤلاء الرواد الكبار مدة طويلة . بل ان الاعمال الكبيرة التى انجزوها ظلت لاتقدر ولايعترف بها سنوات عديدة . والحق ان فلسفتهم وخاصة على النحو الذى اثرت فيه فى الفكر الغربى فى العصور الوسطى ، ساعدت على ارساء النظرة العلمية ، لا النظرة اللاهوتية ، الى امور هذه الدنيا . (انظر كتاب جون لويس : مدخل الى الفلسفة ، ترجمة انور عبد الملك ، القاهرة ، الدار المصرية للكتب ، ١٩٥٧ ، صفحة ٦ .

و« جورج سارتون » و« داربر » و« اناتول فرانس » و« جون لويس » ، وغيرهم مهما كانت آراؤهم ومهما كانت فلسفتهم ، المنصفون منهم وحتى غير المنصفين قد اعترفوا بالفضل لذويه . اى بفضل العلماء والمفكرين والمثقفين العرب الذين انبتتهم الامبراطورية العربية ، لم يكونوا مغالين فى الاشادة بهذا الفضل لانهم كانوا يتحدثون عن علماء بلغ من قدسية العلم والثقافة لديهم مبلغ العقيدة الدينية ومستواها ، التى كانت ولاتزال فى المستوى الارفع من الاعتقادات . وهذا « ابو الدرداء » يتحدث عن علم الفلك فيقول : « ان

شئتم لاقسمن لكم : ان احب عباد الله الى الله ، الذين يرعون الشمس والقمر والنجوم والاظلة . لذكر الله » (انظر فجر اليقظة القومية ، صفحتا ٢٠٧ ـ ٢٠٨) .

ومع ذلك فان التاريخ يذكر فى ضوء ماكتبه « موريس جود فروى » فى كتابه (المؤسسات الاسلامية) ، « انه حتى فى القرن الخامس عشر الميلادى كان علماء الغرب المسيحى يعتمدون دائما على كتب علماء العرب المسلمين فضلا عن اعمال ارسطوطاليس » وماذا بعد « القرن الخامس عشر الميلادى » ان لذلك قصة وأية قصة ! فالتاريخ يذكر انه قبل ان يموت « ابن رشد » باحدى ومائة سنة ، وبعد ان مات « البيرونى » بتسع واربعين سنة ، اى فى عام ١٠٩٧ م ، بدأ ضد العالم الاسلامى اغرب عدوان ، واطول عدوان شهده العصر الوسيط ، اما انه اطول عدوان فلانه قد استغرق قرنين من الزمان ، اذ ان الحملات الصليبية الست قد استمرت حتى استطاع العرب المسلمون اجلاء اخر معاقل الصليبيين عن « عكا » فى عام ١٢٩١ م . وفى خلال هذه الفترة الزمنية الطويلة اتخذ هذا العدوان الاجنبى على الأرض العربية الاسلامية العديد من الاشكال : حملات مسلحة ، ودسائس ومؤامرات لقلب الحكم الوطنى ، ودول صليبية اقيمت على الأرض العربية ، وزحف تجارى على المنطقة وضرب للمصالح العربية الاسلامية فيها . والحقيقة التى لم يعد ينكرها احد اليوم ، ان هذه الحرب كانت عملية من اجرأ عمليات النهب الاستعمارى التى شهدتها القرون الوسطى واوقحها ، كانت حربا عدوانية من جانب الغرب ، ودفاعية من جانب العرب المسلمين كانت استعمارا اوربيا قبل ان تحدث الثورة الصناعية وتنمو الرأسمالية وتعرف الامبريالية طريقها الى المستعمرات ، وكان عدوان الصليبيين اغرب عدوان . وذلك لان الجيوش التى تحركت للقيام به ، والملوك الذين قادوا هذه الجيوش ، والنبلاء الذين لعبوا دورا رئيسيا فى الحملات ، قد ادعوا يومها أن حربهم انما هى حرب دينية ، وانها قامت باسم الدين ، وان هدف هذه الحرب انما هو « استعادة » الأرض التى شهدت مولد « المسيح » عليه السلام كما شهدت صلبه ، والمدينة التى يكن لها قلب كل مسيحى اعز

الذكريات ، والتي استحقت ان تدعى بحق « ام الانبياء » Muslim Institutions P.204 ايضا : فجر اليقظة القومية : صفحات ٢١٨ ـ ٢٢٠ .

وكان من نتائج الحروب الصليبية ، حتى بعد انحسار موجتها عن العالم العربى الاسلامى ، وبعد ان اجلى العرب اخر قواتها عن « عكا » اخر معاقلها فى عام ١٢٩١ م ، قد سببت لحركة التطور العربى واستمرت تسبب لقوى المجتمع العربى الاسلامى ، الكثير من الاضرار ، كما حققت واستمرت تحقق للقوى المعادية للعروبة . الكثير من الاهداف مدة قرنين ، بل واكثر من قرنين من الزمان ، وفى هذا الضوء نستطيع ان نقول ان الحروب الصليبية قد فتحت ابواب النكسة الاسلامية العربية (فجر اليقظة القومية : صفحة ٢٢٩) .

واذا كانت الحملات الصليبية على العالم الاسلامى العربى قد اتخذت شكل حملات عسكرية كبرى ، فلقد شن المغول المتوحشون ثلاث حملات رئيسية ضد هذه المنطقة من العالم . واذا اعتبرنا الحملات الصليبية صورة المرحلة الأولى من مراحل الخطر الكبير الذى احاق بالعالم العربى الاسلامى ، فان المرحلة الثانية من مراحل هذا الخطر قد اتخذت شكل التحالف بين الخطر الصليبى وبين الزحف المغولى المدمر على العالم العربى الاسلامى ، ذلك الزحف الذى اصبح يضرب به المثل فى الابادة والتخريب والافناء .

وعلى الرغم من ان عام ١٢٩١ م كان عام انتصار اسلامى عربى ، قضى فيه المماليك على الحملة المغولية الثالثة التى عاثت فسادا فى الأرض السورية . فان هذا العام نفسه اصبح بداية لعصر النكسة التى اصابت الامة العربية الاسلامية . كانت القوى المملوكية التى جاءت بعد القوى المملوكية المنتصرة هى قوى المماليك الذين لم يعيشوا احداثا عربية كبرى تحدث لهم تحولات فى الفكر والتكوين النفسى ، وتقربهم من العرب وتدمجهم فى المجتمع الذى يحكمونه كما حدث لابطال مثل صلاح الدين الايوبى ، والظاهر بيبرس ، ولم يكن حكم هذه

القوى المملوكية غير العربية قصيرا وطارئا . بحيث لاتستطيع ان تكبل الروح العربية . وتنزل الهزيمة بالقيم العربية . وتوجه الطعنات المتوالية لحضارة العرب وثقافتهم ، لم تكن فرصة حكم هذه القوى قصيرة بل استمرت اكثر من خمسة قرون . منفردة بالسلطة حينا ، ومشتركة فيها احيانا اخرى ، مع قوة لاتقل عنها جهلا بالعروبة او عداء لها ، هي قوة الاتراك العثمانيين .

(انظر المرجع السابق : صفحات ٣٥٣ ـ ٣٥٥) .

ولم تكن آثار الانتكاسة الاسلامية العربية والردة الرجعية ، التى احدثها طول عهد المماليك بالحكم للعالم الاسلامى العربى قاصرة على شيوع التحلل والتفسخ وانكسار الشوكة العربية فى المشرق فقط ، وفى البلاد التى خضعت خضوعا مباشرا لهؤلاء المماليك . فلم يأت عام ١٤٩١ م حتى كان النزيف الذى سببته جراح اعداء الدويلات العربية فى الاندلس قد بلغ بهذه الدويلات نهاية المطاف . والاندلس هذه منذ ان فتحها العرب فى عام ٧١٠ م ، والذين دام حكمهم فيها نحوا من ثمانية قرون ، الاندلس هذه كانت قد اصبحت مهجرا لعديد من القبائل العربية ، وكانت قد شهدت حركة « تعريب » نموذجية وعملاقة ، وكانت قد تحولت الى مايشبه الجامعة الفكرية والمنارة العلمية التى تتلمذت عليها قوى اوربا الجديدة التى قادت عصر البعث والاحياء ، وقد تم هذا الانتصار المسيحى غلاة الرجعيين فى الكنيسة المسيحية ، والدليل على ذلك البحر من الدم الذى دفعته اعاصير من الحقد الاسود ، والذى اغرقت فيه محاكم التفتيش حضارة العرب الانسانية فى الاندلس ، واغرقت معها فى ذلك الدم كل العرب الاندلسيين ، وبعد خمسة اعوام من سقوط الحكم العربى الاسلامى فى الاندلس نجح اكتشاف الملاحين البرتغال لطريق « رأس الرجاء الصالح » فى جنوب افريقيا ومن ثم تحولت التجارة الاسيوية الافريقية عن طريقها العربى ودارت مع البرتغاليين حول افريقيا إلى « لشبونة » عاصمة البرتغال . وضعفت بذلك القوى التجارية العربية .

(نفس المرجع : صفحات : ٣٥٦ ـ ٣٥٨) .

لقد كانت كل هذه الاحداث مقدمات للنتيجة المحزنة التى شهدها العالم العربى لحكم آل عثمان الذى لم يكن لمظالمه حدود ، والتى كانت اهدافه هي نفس ما رمت الى تحقيقه الحروب الصليبية . والزحف المغولي المدمر ، ومأساعد على تحقيقه حكم المماليك ، والرحلة البرتغالية . كانت نفس الاهداف التى تتجه الى نفس الاتجاه للطعنة التي تروم القضاء على القاعدة القومية لتقتلها ، او على الاقل لتعوق نموها وتضع امامها الصعاب والعقبات . والتى تجعل انتصارها امرا اشبه بالمستحيل .

(نفس المرجع : صفحات : ٣٦٢ ٣٦٤) .

ومع ذلك فلا ضربات الحروب الصليبية ، والمغول ، وحكم المماليك ولاتحول التجارة الى « رأس الرجاء الصالح » ، ولا الحكم العثمانى الوضيع ، ولامصادرات الاتراك وسلبهم ونهبهم : ماكان لذلك ، ولالغيره ، ولا لاقسى منه واشد ، ليطفىء شعلة الايمان فى قلب الشعب العربى . او يفرغ المجتمع العربى من قواه الاجتماعية صاحبة المصالح الحقيقية فيه . والتى تتناقض مصالحها مع مصالح الحكام الظالمين . ان هذه القوى صاحبة المصالح الحقيقية لم تمت . ولم يقض عليها . وانما هى استمرت . بل نمت . فالمجتمع العربى ، على الرغم من عصر النكسة ، قد استمر يحيا ، وعلى الرغم من مأساته ، لم يتوقف عن الحياة والسعى فى مناكب الأرض لصنع وسائل معاشه ومايعنيه على قضاء حوائجه من ادوات . استمر هذا المجتمع فى ضوء ماغرس فى تربته من عناصر ثقافية ايجابية وقيم ومبادىء ومثل عليا ، حتى بعد ان واجه الاستعمار الغربى السافر ، منذ ان وصم هذا الاستعمار تركيا وسماها ، « الرجل المريض » اى منذ القرن الثامن عشر ، عندما طلب الغرب اول ماطلب فى شخص انجلترا والنمسا ، ثم روسيا بعد ذلك ، « مناطق نفوذ » في الامبراطورية العثمانية . استمر المجتمع العربى الاسلامى يعيش مأساة الاستعمار الغربى السافر عندما احتل الفرنسيون الجزائر فى عام ١٨٣٠ م ، وعندما احتلوا تونس فى عام ١٨٨١ م ، وعندما احتل الانجليز مصر بعد ذلك بعام واحد ،

وحتى قبل ذلك عندما شن « نابليون » حملته ونزلت جيوشه بالاسكندرية فى يوليو عام ١٧٩٨ م ، وبعد ذلك عندما احتل المستعمر الغربى الارض الليبية فى عام ١٩١١/١٩١٢ (الايطاليون) . وبحجة الانتداب احتل فلسطين والعراق (الانجليز) وسوريا ولبنان (الفرنسيون) ، او بحجة الحماية والاستعمار احتل عدن وسلطنة مسقط وعمان والكويت وقطر والبحرين مثلا .

ولم يأل الشعب العربى من المحيط الى الخليج جهدا ، على الرغم من مظالم الاستعمار القديم والحديث ، فى مقاومة هذه المظالم ، ذلك ان العرب حتى فى اشد عهود السيطرة والقهر التركى ، كانوا ينظرون الى الاتراك نظرتهم ، الى قوم اقل منهم فى مستوى الحضارة وجماعة بلا تراث ولاتاريخ . وكانت هذه النظرة ولاتزال ، فى ضوء القيم الايجابية الراسخة والمبادىء والمثل العليا الاسلامية تحيط بكل مستعمر ظالم اخر . برّز فى سبيل ذلك منهم الزعماء والمفكرون والعلماء والمجاهدون والفدائيون ، وقد سطر التاريخ لهم صفحات وصفحات من نور . وحتى الان نجد الشعب العربى اذا يواجه الاستعمار الامبريالى والصهوينية العالمية يقاوم ولايستكين ، ويصمد الصمود الايجابى فى ضوء مارسخ فى تربة تراثه الاجتماعى الثقافى الدينى من عناصر اجتماعية ثقافية ايجابية . ان عبارة « لا اله الا الله » وعبارة « الله اكبر » تفعل كل منهما فعلها الساحر فى تقوية النفوس واستثارة الهمم ولاتزال . ولعل مايحدث من نكسات فى بعض الاحيان ان يكون مرجعه عدم وضوح الرؤية . وقد يرجع ذلك الى انعدام وجود السياسة الاجتماعية القومية المتفق عليها ، وانعدام التنظيم المسئول عن تحقيق هذه السياسة حتى يتم التخطيط السليم واختيار الأولويات التى تهدف دائما الى اشاعة الرؤية الواضحة للحاضر والمستقبل فى محيط الملايين حتى لايسيروا وهم فى ظلام خلف قيادات قد تنطق باسمهم ولكنها لاتهتم بمصالحهم الحقيقية . والتاريخ العربى الاسلامى يذكر ان الجماهير الشعبية قد سارت خلف

بعض القيادات فى اكثر من ثورة ، واكثر من انتفاضة ، واكثر من تمرد . ولكن هذه القيادات كانت تقف دائما وباستمرار عند الحدود التى لاتمكن من تغيير المجتمع الى الأفضل وبناء مجتمع اخر جديد . (نفس المرجع : صفحات ٣٩٩ ـ ٤٠٢) .

وفى ضوء اهداف الدراسة الحالية عن « التربية الخلقية » نود ان نؤكد ان القيم الحميدة العديدة فى المجتمع الاسلامى العربى المعاصر ، واهم مصادرها التراث الدينى المستمر استمرار الحياة . مازالت تعيش فى ظل المناخ الاجتماعى الثقافى لهذا المجتمع . واذ ندعو الى « وضوح الرؤية » فى محيط ابناء هذا المجتمع وبناته فى ضوء وضع سياسة اجتماعية قومية متفق عليها ، حتى يستطيعوا ان يؤدوا المهام الملقاة على عاتقهم فى الفترة الحالية وأن يسهموا فى مسيرة الحضارة الانسانية ـ فان المقصود ـ من هذه الدعوة هو تيسير بذر بذور الاستعداد للتغيير الى الافضل فى نفوسهم . أى ان وضوح الرؤية يعنى فى الواقع الادراك والفهم ، اى هو يعنى تيسير الاستيعاب لكل مايعمل فى المجتمع ، ولكل مايقال فيه ، ولكل مايصنع فيه وتمثل كل ذلك ، كما يعنى الثقة المتبادلة بالقادرين المخلصين من ابنائه وبناته الذين يعملون والذين يقولون والذين يصنعون . وهو يعنى كذلك ادراك توقيت كل مايعمل وكل مايقال . وكل مايصنع وادراك ظروف هذا التوقيت . ووضوح الرؤية فى محيط اعضاء المجتمع العربى المعاصر ، فى ضوء المهام الملقاة على عاتقهم فى الفترة الحالية لايعنى الادراك والفهم والاستيعاب والتمثل والثقة المتبادلة بالقادرين المخلصين من ابنائه وبناته الذين يعملون فيه والذين يقولون والذين يصنعون فحسب ، بل هو ييسر غرس الحاجة الملحة الى كل ذلك ، حاجة اعضاء المجتمع العربى المعاصر ، الملحة الى كل ذلك . ان غرس الحاجة الملحة الى كل ذلك فى نفوس هؤلاء الاعضاء يعنى فى الواقع تيسير الظروف المواتية لتفجير طاقاتهم الانسانية الكامنة لتعمل . كلها ، فى سبيل توفير الامكانيات ، المادية والمعنوية جميعا التى تيسر تحقيق الاهداف ، كل الاهداف نحن فى مسيس الحاجة فى

ضوء ظروف المجتمع العربى المعاصر الى العمل البناء القادر الواعى . ان هذا العمل هو شرط وجودنا الانسانى . والتحديات التى تواجهنا كلها ، نستطيع بالعمل البناء القادر والواعى . وحده ، ان نواجهها ، وأن نوجهها فى سبيل الخير الذى نأمله . (انظر كتاب سيد عويس : « حديث عن الثقافة : بعض الحقائق الثقافية المصرية المعاصرة » القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، عام ١٩٧٠ ، صفحتا ٣٠١ - ٣٠٢) .

والملاحظ ان العمل البناء القادر الواعى يصدر بالضرورة عن شخصيات اجتماعية قادرة واعية . ولايمكن ان تتكون هذه الشخصيات الاجتماعية القادرة الواعية فى فراغ . بل تكونها . كما سبق اوضحنا ، عمليات التربية التى يعدها المجتمع لاعضائه عن طريق اجهزة التنشئة الاجتماعية التى توجد فيه . فالمواطنون الصالحون وغير الصالحين هم اعضاء السجتمع ، اى مجتمع . وهم كأعضاء فى المجتمع لا يعيشون فى فراغ . اى انه لايوجد فرد او شخص لا يعيش فى علاقات اجتماعية دائمة ، اى فى جماعات . والملاحظ ايضا ان اجهزة التنشئة الاجتماعية التى توجد فى المجتمع ، اى مجتمع هى جماعات اجتماعية ، بل هى اهم الجماعات الاساسية التى يكون عضو المجتمع فى ضوء الضرورة الاجتماعية عضوا فيها . واذا كانت هذه الجماعات الاجتماعية الاساسية (اى أجهزة التنشئة الاجتماعية) توجد فى كل المجتمعات ، فان وظائفها فى مجتمع ما قد تختلف عنها فى مجتمع اخر . وذلك لان المناخ الاجتماعى الثقافى الذى يظلل المجتمعات يكون فى الكثير من الاحوال مختلفا حسب عقائد كل مجتمع وقيمه ومثله العليا . ومن ثم فاننا نجد ان المواطن الصالح مفهوم متغير . فهو فى المجتمع الامريكى غيره فى المجتمع الروسى ، وهو فى المجتمع البريطانى غيره فى هذين المجتمعين . وهو فى المجتمع العربى الإسلامى غيره فى كل هذه المجتمعات اى ان شخصية المواطن الصالح فى كل مجتمع من هذه المجتمعات متباينة ، ومن ثم تكون

ادواره الاجتماعية التى تتوقعها منه هذه المجتمعات متباينة كذلك ، اى ان نظرته نحو الحياة وعلاقاته الاجتماعية واتجاهاته واسلوب تفكيره تختلف بالضرورة حسب المجتمع الذى يعيش فيه . والملاحظ كذلك ، اننا اذا ندعو الى وضع سياسة اجتماعية قومية متفق عليها حتى تتضح الرؤية ، فاننا نهدف الى تيسير وضع سمات المواطن الصالح المسلم المعاصر والاتفاق على هذه السمات . ولا يعنى هذا التحديق او محاولة هذا التحديد فى رأى الكاتب اننا نهدف الى تحويل اعضاء المجتمع العربى الى قوالب جماغية . اننا نود ان نتعامل مع اناس من البشر ، اناس متباينين . اى اناس من حقهم ان يتباينوا وان يختلفوا . ان اهم اهتماماتنا هو ان نيسر لكل عضو عن طريق ارتباطاته بجماعاته ان ينضج فى الاتجاه الذى يميزه عن غيره ، وان يصبح ذاته الكاملة ، وان يكون الاحساس بقيمته كشخص ليكون فعلا وحقا عضوا فى المجتمع اكثر نفعا واكثر قيمة . وذلك فى ضوء قيم التراث الدينى ومبادئه ومثله العليا . والملاحظ مرة رابعة ان الجماعات الاجتماعية الاساسية المشار اليها عديدة ، نذكر منها على سبيل المثال ، الاسرة او العائلة والمؤسسة الدينية والمدرسة ومؤسسة شغل اوقات الفراغ والمؤسسة السياسية ومؤسسات الاعلام والثقافة (الصحافة ، الكتب ، دار السينما ، الاذاعة والتلفزيون مثلا) والملاحظ ان المؤسسة الدينية فى المجتمع العربى تؤدى دور القاسم الاعظم بين اجهزة التنشئة الاجتماعية فى هذا المجتمع . اى ان الدين فى هذا المجتمع يمثل مصدرا هاما من مصادر المعرفة الانسانية . (انظر كتاب سيد عويس : « الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى المعاصر ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٦ ، صفحات ٣٢٩ ومابعدها) .

٧ ـ ظاهرة الامية وكيف نكافحها

ـ ١ ـ

من الملاحظ ـ وهذا كلام معاد ـ ان مجتمعنا المصرى المعاصر فى ضوء ظروفه الاقتصادية والسياسية والثقافية الاجتماعية يئن من بعض الادواء والمشاكل التى تقف فى سبيل تنميته ومنها بالضرورة مشكلة الامية . واعيد كلام الآخرين مرة أخرى واقول ان هذه الادواء والمشاكل تجعل مجتمعنا متخلفا . ومن ثم فانه من العسير ان يقوم هذا المجتمع بفئاته وقادته بالتنمية المرجوة . واقصد بفئات المجتمع هنا أهمها ، أى فئة الشباب الذين يبلغون فى ضوء التعداد التقديرى لعام ١٩٨٥ فى الفئة العمرية من سن ١٥ ـ أقل من سن ٣٠ عاما نحو ٣٨٫٧٥ ٪ . فأعضاء الشباب وبخاصة من هم فى هذه الفئة هم حملة مشاعل التنمية المرجوة لمجتمعنا المصرى فى الوقت الراهن . فهذه التنمية تكون بالضرورة بهم ولهم ولمن يأتى من بعدهم من أجيال .

ـ ٢ ـ

والملاحظ أيضا أننا نجد ان عطاء أجهزة الاعلام والثقافة لفئة الشباب المشار اليها فضلا عن غيرهم من أعضاء المجتمع الاخرين ، فى ضوء انخفاض نسبة التعليم فيه ، عامل من عوامل عدم كفاءتها وخاصة ما يتم منها عن طريق هذه الاجهزة ، ويرجع ذلك الى أن نسبة الامية فى ضوء تعداد ١٩٨٦ هى نحو ٤٩٫٤ ٪ من سن ١٠ فأكثر .

وأرجو ان يلاحظ القارىء أن لمفهوم الامية معنيين ، الأول هو : مفهوم «الامية الأبجدية » ، اما الثانى فهو «الامية الوظيفية» . ويعرف المفهوم الأول فى ضوء قانون رقم ٧٦ لسنة ١٩٧٠ ، بأن الامى هو :
« كل مواطن يتراوح عمره بين سن ١٨ وسن ٤٥ وغير مقيد فى أية مدرسة ولم يصل تعليمه الى نهاية الصف الرابع الابتدائى» .
أما مفهوم الامية الوظيفية فانه يعتبر **الاساس الفعلى للمشكلة** ولا سيما بعد أن تأكدت جدوى الامية الوظيفية بالنسبة للدول التى تنظر الى هذه المشكلة نظرة واقعية جادة خالية من أية **مجاملات سياسية** . وتعرف «منظمة اليونسكو» الامية الوظيفية بأنها :
« عدم الالمام بالقراءة والكتابة على النحو الذى يمكن الفرد من ممارسة الأنشطة التى تتطلب معرفة القراءة والكتابة بما فى ذلك توسيع معارفه ذاتيا (أى تعليم نفسه) اذا ما اقتضى الامر ذلك » .
واذا سلمنا بأن الامية المطلوب القضاء عليها هى «الامية الوظيفية» كما جاء فى التعريف السابق فان نسبتها تزيد بالقطع على نحو ٤ر٤٩ ٪ وفق تعداد عام ١٩٨٦ كما ذكر آنفا لتصل الى نحو ١ر٧٣ ٪ تقريبا (على حساب ان الامى : هو من لم يكمل دراسته بنجاح حتى السنة الرابعة الابتدائية) .

وفى ضوء نتائج دراسة لاحدى قرى الريف المصرى القريبة من المدينة ، اتضح ان تعرض الغالبية من الريفيين الذين تنتشر بينهم الامية لاجهزة الاتصال الجماهيرى ومنها ، جهاز التليفزيون **منخفض** فقد تبين ان نسبة من يمتلك جهاز التليفزيون من الآميين نحو ٣ر٢ ٪ ومن لايمتلك نحو ٧ر٩٦ ٪ ، اما من يمتلك هذا الجهاز من **غير الاميين** فقد بلغت نسبتهم نحو ٧ر٦٦ ٪ ومن لايمتلكون نحو ٣ر٣٣ ٪ . وقد

يعود هذا الاختلاف الى الأوضاع الاقتصادية التى غالبا ما ترتبط بالحالة التعليمية لعضو المجتمع ، فضلا عن تباين الاهتمامات نحو الاتصال بالعالم الخارجى وسبل تحقيق ذلك ، والتى توجد بين الاميين وغير الاميين .

ولايعنى عدم امتلاك جهاز التليفزيون انه يحرم من لايمتلكونه من مشاهدة برامجه فى المقاهى أو الاندية الاجتماعية والثقافية (منظمات شغل أوقات الفراغ مثلا) . والملاحظ أن المقاهى على الرغم من وجود جهاز التليفزيون مثلا ، فاننا نجد عدم الاهتمام بمشاهدة برامجه الا أن يكون ضمنها «مباراة كرة قدم» أو مسلسل «ذو مغزى محبب» لدى رواد المقهى أو بعضهم .

وفى ضوء نتائج أحد البحوث الذى قمت باجرائه على بعض المشاهدين من الشباب لاحد «الافلام» المصرية المعروضة على شاشة جهاز التليفزيون . وكانوا فريقين : فريق كل أعضائه من الاميين (الذين لايعرفون القراءة والكتابة الابجدية) ، وأعضاء الفريق الثانى من طلبة المدارس الثانوية والفنية . وقد لاحظت تضارب أقوال الفريقين عن وقائع الفيلم المعروض . فالاميون الشبان كانوا يرون ما يتمنون أن يروه ، على عكس الشبان الآخرين من الطلبة ، فقد استوعب الآخرون مغزى الفيلم وأهدافه مع اختلاف فى بعض التفاصيل .

(انظر : سيد عويس ، « بحث غير منشور) .

ـ ٥ ـ

واذا كانت مشكلة الامية فى المجتمع المصرى المعاصر سواء كانت فى محيط أعضاء هذا المجتمع من الذكور أو فى محيط الأعضاء الاناث الموجودات فيه ، مشكلة خطيرة ، فقد أدهشنى حقا وفعلا ان نجد البعض من القادة الثقافيين المصريين إذ يعالجون هذه المشكلة الخطيرة أنهم يقتصرون هذه المعالجة على احد ابعادها الا وهو المتلقى أى الامى الفرد .

اننى اعترف بأن هذا البعد هام ما فى ذلك من شك ، ولكنى اعترف أيضا بأن المعلم وهو مصدر التلقى يعد آخر له نفس الاهمية ان لم تكن هذه الاهمية أكثر خطورة وخطرا . وبالاضافة الى هذين البعدين أرى واعتقد فيما أرى أن البيئة الثقافية التى تحيط بالمتلقى وامكاناتها المعنوية والمادية (المنهج والمكان اللائق والفترة الزمنية المناسبة والاثاث اللائق فضلا عن المرافق اللائقة) . هى كذلك بعد هام .

- ٦ -

والحاجة ماسة الى اجراء البحوث والدراسات العلمية الواقعية وليس كما يدعو البعض الى البحوث والدراسات الوصفية التحليلية من وجهة نظر أحد الابعاد التى ذكرتها من قبل . وذلك لأن الموضوع الذى أتحدث عنه موضوع خطير خطير . والحاجة ماسة أيضا ، اذا كان المسئولون جادين ، الى القيام باجراء البحوث تلو **البحوث الواقعية للابعاد الثلاثة** (المتلقى ومصدر التلقى والبيئة الثقافية جميعا) . اى ان الحاجة ماسة الى البحوث العلمية **الشاملة** قبل التنفيذ وبعده وفى اثنائه . وذلك لرفع مستوى الإداء وتعديله أو تغييره اذا دعت الضرورة الى ذلك .

واذ أتحدث عن القضاء على الامية فى المجتمع المصرى المعاصر فأننى أؤكد على أن **المقصود** هو «القضاء على الامية الوظيفية» . ومن حيث المنهج الذى ، كباحث علمى اجتماعى ، يجب ان يتبع فاننى أرى ان يؤخذ فى الاعتبار أن تتضمن مفردات العينة التى تجرى عليها البحوث بيانات عن السن والنوع ومحل الاقامة . واننى احبذ جدا أن تكون العينة المختارة **ممثلة** وان تعذر ذلك لبعض العوامل ان يكون عدد مفرداتها **كبيرا بما فيه الكفاية** .

- ٧ -

واننى ادعو ملحا الى أن تكون «المدرسة» (من دار الحضانة الى

الجامعة والمعاهد العليا) «مؤسسة اجتماعية تربوية » **فعلا وحقا** . وان تتعاون هذه المؤسسة (أقصد المدرسة بمراحلها المشار اليها) مع غيرها من الأجهزة التربوية الاخرى وبخاصة المؤسسة الأساسية التى اقصد بها «الاسرة» إن هدف اهداف المدرسة بالمعنى السابق لايمكن ان يكون مجرد التلقين ، بل يجب أن يتأكد هذا الهدف بتحقيق وظائفها الاخرى وأهمها الاسهام فى **تربية** تلاميذها وطلابها ، والملاحظ ان مفهوم «التربية» قد تعددت معانيه ودلالاته . وفى ضوء خبرة الكاتب فى ميدان الشباب منذ عام ١٩٣٩ ، يجب ان تفهم التربية على أنها « عملية تغيير» بواسطتها **ينمو عضو المجتمع ويزدهر وتتفتح ملكاته وقدراته** . وهو أى عضو المجتمع (وبخاصة الطفل والشاب) اذ يفعل ذلك فانه يكون نفسه ويتحول هو ذاته ، مع تكوينه وتحويله الآخرين والبيئة التى يعيش فيها . إن عملية التغيير هذه تهدف أولا وقبل كل شىء الى اعداد عضو المجتمع المصرى المعاصر لكى يستطيع أن يؤدى ادواره الاجتماعية التى يتوقعها منه هذا المجتمع ، اى المجتمع الذى ولد فيه ويعيش . انها عملية تكوين الشخصية ، اى جعل «الفرد» «شخصا» ، **أى فرد له شخصية اجتماعية** . أى يكون الشخص ذا اتجاهات فكرية نحو من يحيط من الناس . وقد تكون هذه الاتجاهات مما يفيد هذا المجتمع أو يضره ويضر جماعاته . وتكون فائدته للمجتمع وجماعاته فى ضوء قيمه ، ويكون ضرره فى نفس هذا الضوء . اى ان قيم المجتمع المصرى المعاصر وجماعاته قد تكون قيما ايجابية ، أى **قيم أهدافها بناءة** ، تكون من وراء أفكار أعضاء هذا المجتمع ومن وراء اتجاهاتهم ونظرتهم نحو الامور والاشياء والاشخاص ، اى نحو الحياة التى يعيشونها أو التى يصنعونها أو التى يحاولون صنعها على السواء . وهى قيم أهدافها بناءة لأنها تدعو الى الخير ولاتدعو الى الشر . وانى اعنى بمفهوم الخير هنا كل ما يعين على العمل الصالح من أجل الآخرين ، اى كل ما يعين على التغيير الى الافضل والى الاقوى والى الاعظم . ومن ثم فهى قيم أهدافها حميدة تدعم الروح المعنوية فى صفوف أعضاء المجتمع ، وترتفع بهذه الروح وتثبتها وتقويها .

- ٨ -

وإذا كانت المدرسة ، بكل مراحلها ، مؤسسة اجتماعية تربوية . فاننا نتوقع بالضرورة أن يكون قادتها (المشرفون والمشرفات) راشدين ، وان تكون برامجها متعددة وان توجد فيها المرافق الضرورية التى تيسر تطبيق هذه البرامج . وفى هذا الضوء نتوقع انها تستطيع ان تغرس فى نفوس تلاميذها وطلابها القيم التى تكون أهدافها ايجابية . والملاحظ أنه لايمكن ان تفعل ذلك الا باتاحة الفرصة لمن تشرف عليهم من التلاميذ والطلاب لكى يعيشوا الخبرات والمواقف التى تؤدى الى صياغة شخصياتهم صياغة تحقق أهداف المجتمع المصرى المعاصر فى المستقبل المشرق . اى أن تسهم فعلا وحقا فى تربيتهم ، اى ان تسهم فى عملية التغيير التى بواسطتها ينمو تلاميذها وطلابها ويزدهرون وتتفتح ملكاتهم وقدراتهم ، ومن ثم يصبحون اشخاصا يعرفون ما عليهم من واجبات وما لهم من حقوق .

- ٩ -

واختيار المشرفين والمشرفات وبخاصة من يعملون فى دور الحضانة والمدارس الابتدائية ، يجب ان يتحدد فى بعض الامور هى :

- أن يكونوا من العاملين المهنيين .
- أن يكونوا أصحاء النفس والبدن .
- أن يكونوا من المهتمين بالعمل مع الجماعات سواء أكان أعضاؤها من الأطفال أم الفتيان والفتيات أم من الشباب .

والاختيار فى هذا الضوء ، وحده ، غير كاف . ولابد من التدريب النظرى والعلمى لكى يكون المشرفون والمشرفات على وعى تام بالمهام الملقاة على عاتقهم ، ولكى يكون لديهم من المهارات ما يعينهم على أداء هذه المهام على الوجه الاكمل ، واننى ارى أن يأخذوا حقوقهم كأعضاء مسئولين عن أسر أو حتى لو كانوا مجرد أعضاء فى أسر

يطمحون فى تكوين أسر . فالظروف الاقتصادية التى تواجه المجتمع المصرى المعاصر ظروف غير مواتية . ومن حق الذين يرفعون عن كاهل هذا المجتمع عبء ظاهرة الامية التى ينمو حجمها ويزداد بزيادة عدد السكان فى هذا المجتمع ، وان بدا ان معدلها فى انخفاض ، ان يكرموا وان يحيوا حياتهم بشرف .

- ١٠ -

ولن أكرر ما سبق أن ذكرته عن العقبات التى تقف فى سبيل القضاء على ظاهرة الامية فى المجتمع المصرى المعاصر . ولكننى أود أن أعلن أن معدل هذه الظاهرة أعلى من معدلها فى بعض البلاد الشقيقة . واننى أرجو ان يكون هذا الاعلان حافزا للسادة المسئولين على التعليم فى بلادنا من أجل العمل بالمقترحات التى ذكرتها فى هذه الدراسة وبخاصة ونحن فى ضوء الحقائق العلمية التى تسيطر على تطبيق نتائجها البلاد المتقدمة فى عصرنا الحالى حقائق مذهلة . ولن نعرف الكثير ولا القليل من هذه الحقائق الا اذا كانت ظاهرة الامية قد انقشعت من المناخ الثقافى الاجتماعى الذى يخيم على المجتمع المصرى المعاصر .

٨ ـ طه حسين والثورة العقلية

المقــدمة :

في ضوء تخصصي أكتب هذه الدراسة ، فقد عرفت «طه حسين» في مؤلفاته العديدة سواء أكانت كتبا أم مقالات كتبت في المجلات أم في الصحافة اليومية أم الأسبوعية .

وقولي في ضوء تخصصي يعني في ضوء كوني باحثا اجتماعيا علميا ، اي أنني لا ادعي انني اديب وان أحببت الادب الذي ملك على نفسي منذ شبابي بل منذ صباي ولكني أحاول أن أدعو كما كان يدعو « طه حسين » ، وبخاصة بعد أن أمضيت معاهدة عام ١٩٣٦ في لندن ، الى ثورة عقلية ـ وكان ذلك في كلية الآداب بعد أن أمضيت هذه المعاهدة في ٢٦ شهر اغسطس من تلك السنة ، واذا «بطه حسين» يرفع صوته عاليا ويدعو الى هذه الثورة العقلية في يوم ١٧ من شهر أكتوبر عام ١٩٣٦ .

ولن أنسى ما حييت ما قامت به «لجنة أسبوع المعاهدة» التي تكونت في كلية الحقوق وكان ذلك في يوم ٢١ من شهر نوفمبر عام ١٩٣٦ حيث دعت هذه اللجنة لكي تنظم سلسلة من المحاضرات . وقد حضرت هذه المحاضرات جميعا . وقد تضمنت محاضرات عن :

- واجب الشباب بعد المعاهدة .
- و ـ واجبنا الحربي بعد المعاهدة .
- و ـ واجبنا الصحي بعد المعاهدة .
- و ـ واجبنا الأدبي بعد المعاهدة .

و ـ واجبنا الزراعى بعد المعاهدة .

وغيرها من المحاضرات . وقد بدأت أول محاضرة فى يوم ٥ من شهر ديسمبر عام ١٩٣٦ . وكانت تعقد هذه المحاضرات فى قاعة «يورت» بالجامعة الاميريكية .

ولايمكن ان انسى ما تركته هذه المحاضرات فى نفسى من آثار . فانا اذكر الآن ، ولابد ان من كانوا حاضرين يذكرون ، بعض ما قاله « طه حسين » .

« يسألوننى عن واجبنا الأدبى بعد المعاهدة . وأقول لكم واجبنا الأول والثانى والثالث والأخير هو ان نكون احرارا .

ثم يستطرد «طه حسين» قائلا :

« اذا كنا فى عصر جديد قوامه النهضة والنشاط والحرية فلا أقل من ان يعلن المظلومون ما تجيش به نفوسهم من الخواطر والآلام .

وما ان سمع الحاضرون ، وكنت واحدا منهم ، الا وقد علا هتافهم وضجت القاعة بصوت تصفيقهم المتواصل .

ولا اخفى على القارىء الكريم اننى تأثرت كمواطن مصرى بما سمعت لدرجة اننى اذكر اننى حفظت ما قاله «طه حسين » فى هذه المناسبة ، التى مر عليها أكثر من خمسين عاما ، عن ظهر قلب (انظر كتاب : سيد عويس « نشأة مهنة الخدمة الاجتماعية فى مصر : تاريخ شخصى » ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، ١٩٧٣ ، صفحة ٦٦) .

ولا أخفى أيضا على القارىء الكريم اننى اقتنيت كل أو معظم ما نشره «طه حسين» من كتب . وقد قرأتها وبخاصة كتاب «الايام» (الجزء الأول) وانا مبهور . ولعل مضمون هذا الكتاب قد أثر على حياتى ووجهنى وانا «ابن الحارة» فى حى الخليفة الى ان أكمل تعليمى العالى وان أسافر الى الخارج لاحصل على درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع ، تماما كما اصر «طه حسين» على الرغم من محدداته التكوينية ومحدداته الاجتماعية والثقافية ومحدداته العقلية والنفسية التى واجه الحياة بها منذ طفولته وصباه .

وأول كتاب قرأته «لطه حسين» كان كتابه الذى نشر فى عام ١٩٢٥ تحت عنوان «قادة الفكر» وزعته على الطلبة ادارة مدرسة الخديوية

الثانوية التى كنت طالبا بها فى الفترة من عام ٢٦ - ١٩٣٠ .
وكان هذا الكتاب يقدم فكرة متكاملة فى تاريخ الحضارة ، ونهلت من مضمون هذا الكتاب الذى تعرفت منه عن «هوميروس» و «سقراط» و «افلاطون» و «أرسطو» و«الاسكندر المقدونى» و «يوليوس قيصر» من خلال منبتهم وتمثيلهم لعصرهم وبيئتهم . أى ان «طه حسين» فى هذا الكتاب حاول أن يؤكد على ان الانسان ، القائد الفكرى وغير القائد « قد صنعه مجتمعه . وان المجتمع كما يصنع الانسان فالانسان يصنع مجتمعه » .

وجاء عام ١٩٢٦ ، عندما أصبح «طه حسين» استاذ للأدب العربى فظهر كتابه « فى الشعر الجاهلى » ، واثار ضجة كبرى بين الأدباء والمفكرين وقت صدور هذا الكتاب ، كانت أصداؤها تأتى الى آذاننا نحن الطلبة . وكان البعض منا يعرف عوامل هذه الضجة الكبرى ، وكان البعض الآخر ، وانا منهم ، لم يعرف الكثير عن هذه المسائل .

وعندما اشتد عودى وبدأت اقرأ للمغفور له «الأستاذ مصطفى صادق الرافعى» ، فى كتبه ، أحيانا ، وفى المجلات الادبية ومنها مجلة الرسالة التى كان يصدرها المغفور له «الاستاذ محمد حسن الزيات» ، واشتريت كتاب الرافعى « تحت راية القرآن» ومن خلال سطوره لاحظت ان مؤلفه اى الرافعى كان خصما عنيدا ، وكان خصوم كتاب «طه حسين» فى «الشعر الجاهلى» كثيرين وكان «الرافعى» على رأسهم .
وقد نعى «الرافعى» فى كتابه «تحت رأية القرآن» من كانوا يسمون بالمفكرين المجددين وكان «طه حسين» على رأسهم . فتراه يقول فى كتابه المذكور :

« ... ولقد كان أشدهم عراما وشراسة وحمقا هذا الدكتور« طه حسين» استاذ الآداب العربية فى الجامعة المصرية ، فكانت دروسه الأولى «فى الشعر الجاهلى » كفرا بالله وبسخرية بالناس ، فكذب الاديان وسفه التواريخ وكثر خلطه وجهله ، فلم تكن فى الطبيعة قوة تعينه على حمل كل ذلك والقيام به الا المكابرة واللجاجة ، فمر يهذى

في دروسه ، ولا هو يثبت الحقيقة الخيالية ولايترك الحقيقة الثابتة ، واراد ان يسلب أهل العلم ما يعلمونه كما يسلبك اللص ما تملك بالجرأة لا بالحق ، وبالحيلة لا بالاقناع ، وعن غفلة لا عن بينة . وما يضحكني الا أن أرى هذا الأستاذ واثنين أو ثلاثة من أشباهه يريدون أن يكونوا ثورة في الأدب العربي ، ونسوا إنهم انما يريدون ذلك لأنهم خلقوا لذلك ، فكان «طه» في الجامعة كالممثل : انما وسيلته ان يتصنع ويجترىء ويزور ، فلما نزعنا عنه ثوب الرواية . نزعنا في الثوب الحادث والرواية والممثل جميعا ، ورجع طه حسين وهو طه حسين . واين هو أو مثله من وسائل القدرة ، وما وسائلها الا القلم الذي لايجارى ، والفكر الذي لاينقض ، والخيال الذي لايلحق ، والقوة المستحصدة ، والطبع المستجيب ، فالكلام الذي تراه حيا ساميا فتحسبه ينبع من موضع يد الله في النفس الانسانية ..

انظر كتاب مصطفى صادق الرافعي : «تحت راية القرآن : المعركة بين القديم والجديد» ، صحح اصوله محمد سعيد العريان ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٤ ، صفحتا ٧ و٨) .

× × × × × × ×

لعل القارىء الكريم ان عرف وجهة نظر المغفور له « الاستاذ مصطفى صادق الرافعي» في «طه حسين» وفي كتابه «في الشعر الجاهلي» . وقد صدمني ما قرأت عن وجهة النظر هذه.، وذلك لانني كنت في صباي اشترى «مجلة الرسالة» لكي اقرأ مقال الرافعي ، وكنت اقرأ ضمن ما اقرأ مقالات الأساتذة الآخرين مثل «الأستاذ ابراهيم المازني» و «الاستاذ عباس محمود العقاد» فضلا عن «الاستاذ أحمد أمين» و «الأستاذ الدكتور زكي مبارك» و «الأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل» و «الأستاذ محمد عبد الله عنان» و «الأستاذ سلامه موسى» وغيرهم وغيرهم ، كنت اقرأ لهؤلاء في «مجلة الرسالة» وفي «مجلة الثقافة» وفي «السياسة الاسبوعية» و «في المجلة الجديدة» ، كما كنت أقتني كتبهم التي يصدرونها أو أقرؤها في «مكتبة دار الكتب» .

وإذ أذكر ذلك فاننى رأيت آن اعرض وجهة نظر أخرى هى وجهة نظر «الأستاذ سلامة موسى» فى « طه حسين» موضوع الدراسة الحالية اذ يقول فى كتابه «تربية سلامة موسى» الذى صدر أول ما صدر فى عام ١٩٤٧ :

« وحوالى تلك السنين (يقصد قبل الحرب الكبرى الأولى) ، أو قبل ذلك بقليل ، بزغ طه حسين ، وكان أزهريا معمما ، ويكره الازهر ، ويعربد على صفحات «الجريدة» ، والتحق بالجامعة المصرية ونال دكتوريته (يقصد درجة الدكتوراه) فى الأدب ، وكان الفرح عاما بين الشباب الجديد لهذا الازهرى الناجح . وكنت اصدر مجلة «المستقبل» الاسبوعية فى الدعوة الى القرن العشرين ومابعده . فنشرت صورته وهو بالجبة والقفطان . وراج العدد بين القراء الذين رغبوا فى اقتناء الصورة . وكان لنجاح طه حسين قيمة رمزية **هى ان مصر العتيقة تستطيع أن تتجدد** . وقد وجد طه حسين من لطفى السيد المراعاة ، بل أحيانا المحاباة ، حتى كانت مقالاته تتحيز المكان الأول فى «الجريدة» على الدوام . والواقع ان انتقال طه حسين من الازهر الى الجامعة المصرية ، ثم الى السوربون ، مع أنه ضرير ، وهو مفخرة . ولكن ثم معجزة أخرى هى أنه اتخذ مكانا **اماميا ثوريا مستقبليا فى الادب** . مع ان الانسان كان يتوقع ، بعد اعتبار ماضيه ، ان يتخذ مكانا تقليديا حيث يراعى «قواعد النحو والصرف» فى الادب والاجتماع والسياسة . وقد يقال ان «المعرى» قد أثر فيه ، وبعث فى نفسه كراهية لقواعد «النحو والصرف» فى أسلوب الحياة . ولكن يبقى عندئذ سؤال هو : لماذا اختار طه حسين المعرى كى يكتب عنه ويسهب فى الكشف عن عقله وقلبه ؟ ولا عبرة بأن يقال إن الاشتراك فى العاهة باعث مقنع للقوة الجذبية التى وجدها طه حسين فى «المعرى» . لان هناك أدباء وشعراء كثيرين بهم هذه العاهة ولكنهم لم يجذبوه . وظنى ان عاهة العمى لم يك لها الا أقل الأثر فى التفات الاديب المصرى الى أديب المعرة . وانما الاثر الاكبر أنهما يشتركان فى الثورة على المشايخ . فقد رأى طه حسين فى الازهر ما بعث

سخطه وحركه الى الكفاح . ثم راى عند «المعرى» مثل هذا السخط ومثل هذا الكفاح ، فارتبطت بين الاديبين أواصر الحب والفهم وتعارفا وتفاهما . وقد انتقلت عند طه حسين بعد ذلك ، بؤرة المعركة من ميدان الازهر الى ميدان السياسة المصرية . ولكن اتجاهه الأول لم ينحرف (انظر كتاب) « تربية سلامه موسى » القاهرة ، دار الكاتب المصرى ، ١٩٤٧ ، صفحتا ٨ و٩) .

والملاحظ ان كتاب «فى الشعر الجاهلى» قد الف للرد عليه حوالى أربعين كتابا ، وأنه نوقش فى «البرلمان» ومثل مؤلفه أمام القضاء وداخل الجامعة ولم تنته المعركة حول هذا الكتاب الا بعد ان حذفت منه الجمل والصفحات المعترض عليها وأضيفت اليه صفحات جديدة وتغير اسمه من «فى الشعر الجاهلى» الى «فى الادب الجاهلى»؟ الذى نشر فى العام التالى اى فى عام ١٩٢٧ .

والملاحظ أيضا أن مضمون الجمل التى حذفت تتعلق «بأن الكثرة المطلقة مما يسمى شعرا جاهليا ليست من الجاهلية فى شىء وانما هى منتحلة مختلفة بعد ظهور الإسلام ، فهى اسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهلين» .

وذكر «طه حسين» **فى شجاعة فى كتابه** «فى الشعر الجاهلى» قائلا: « انه لايكفى ، لكى تثبت من الوجهة العلمية وجود ابراهيم وابنه اسماعيل فى التاريخ ان يكون اسماها قد ذكر فى التوراه والقرآن (انظر : سامح كريم ، «طه حسين : وأعماله » ، ملحق مجلة الاذاعة والتليفزيون ، عدد ٢٠٦٩ ، تاريخ ٩ من شهر نوفمبر عام ١٩٧٤ صفحة ٣٠) .

ودلالة هذه الجملة ان «طه حسين» المجدد كان فى الواقع ، أيضا ، علميا فى نظرته ، ويدل على ذلك ان قوله لايعنى ، بالضرورة ، ان «ابراهيم» لم يوجد قط كما نسب اليه . ولكنه لم يسلم من الخصومات التى لاجدوى منها والتى كان استعمالها ليس فقط ضد «طه حسين» ولكن ضد المنهج العلمى الذى استعمله فى الفترة الزمنية التى عاشها بين جنبات مصرنا الخالدة منذ طفولته ، حيث كانت أول بوادر الثورة

والتمرد على الأوضاع ، وعندما شب ، كما ذكرت سابقا ، وعندما التحق بالازهر الشريف ، ثم التحق بالجامعة المصرية الاهلية ، وافسحت له «الجريدة» التى كان يرأس تحريرها «لطفى السيد» الصفحة الأولى لمقالاته التى كانت تشع التمرد الثائر أو الثورة المتمردة سواء كان ذلك ضد المشايخ الازهريين الذين كان يراهم من الرجعيين وبخاصة الذين تلقى دروسا بين ايديهم أو الذين امتحنوه وغيرهم من خارج الازهر الشريف وبخاصة الذين اتهموه بالكفر بالله وتكذيب الاديان .

ولا أخفى على القارىء الكريم اننى عندما اشتريت نسخة من «كتاب الايام» التى كانت الطبعة الأولى بعد الاعلان عنه فى المجلات الادبية وغيرها . ذهبت ماشيا من حى الخليفة الى العتبة الخضراء لكى أوفر ثمن تذكرة «الترامواى» . وكانت فرحتى عندما وجدت النقود التى فى جيبى توازى الثمن الذى يجب علىّ دفعه . وأخذت الكتاب ووضعته فى يدى تحت أبطى ورجعت الى بيتى مسرعا لكى أقرأه ، ماشيا كذلك ، وكأننى كنت أطير على بساط الريح . لم أشعر بالوقت أقصد بمروره حتى ذهبت الى مسكنى وبدأت أقرأه . قرأته مرات ، وكنت بعد مرور الايام والأسابيع والشهور والسنين أعود فأقرأه .

كان «كتاب الايام» ومازال بلسما لنفسى عندما كنت أواجه الصعوبات والعوائق حتى أكمل تعليمى وحتى حصلت على «درجة الدكتوراه فى علم الاجتماع» ، عندما بلغ عمرى ثلاثة واربعين عاما ! ولا غرور ! فقد كان «طه حسين» مثالا يقتدى . واجه الصعوبات وصمد لها وتمرد على مكانته وانتصر . ويبدو لى الآن ان طفولة طه حسين اتاحت له هذا التمرد الذى ثبت فى وجدانه عندما كبر . كانت امه تحنو عليه وترثى لحاله وتبكى أحيانا وكان أبوه يقدر ظروفه ، ولكن اخوته وكانوا ثلاثة عشر من أبناء أبيه وترتيبه بينهم السابع ، وكان ترتيبه الخامس من بين أحد عشر من أشقته . وكان يشعر أن له مكانا يمتاز من مكان إخوته وأخواته ومع ذلك فقد كانوا يسخرون فى بعض الاحيان من تصرفاته ويحتاطون فى تحدثهم اليه ومعاملتهم له أحيانا أخرى .

وعندما بدأ «الطفل» طه حسين يتنبه على عاهته ، اخذ نفسه بشدة

ما كان لصبي في مثل سنه ، فتراه يذكر في «الايام» :

« .. من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزانة والاشفاق والحياء لاحد له . ومن ذلك الوقت حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له الا بعد ان جاوز الخامسة والعشرين . حرم على نفسه الحساء والارز وكل الالوان التي تؤكل بالملاعق ، لانه كان يعرف انه لايحسن اصطناع الملعقة ، وكان يكره ان يضحك اخوته ، أو تبكي أمه ، أو يعلمه ابوه في هدوء حزين .

و « ... كان قليل الاكل لا لأنه كان قليل الميل الى الطعام . بل لانه كان يخشى أن يوصف بالشره أو أن يتغامز عليه اخوته ، وقد آلمه ذلك أول الامر ، ولكنه لم يلبث ان تعوده حتى أصبح من العسير عليه أن يأكل كما يأكل الناس . كان يسرف في تصغير اللقمة ، وكان له عم يغيظه منه كلما رآه فيغضب وينهره ويلح عليه في تكبير اللقمة ، فيضحك اخوته . وكان ذلك سببا في أن كره عمه كرها شديدا . كان يستحي ان يشرب على المائدة مخافة ان يضطرب القدح من يده ، أو الا يحسن تناوله حين يقدم اليه . فكان طعامه جافا ما جلس على المائدة ، حتى اذا نهض منها ليغسل يديه من حنفية كانت هناك شرب من مائها ما شاء الله ان يشرب . ولم يكن هذا الماء نقيا دائما ، ولم يكن هذا النوع من رى الظمأ ملائما للصحة ، فانتهى به الامر الى أن أصبح محمودا وما استطاع أحد ان يعرف لذلك سببا ..» (انظر : كتاب طه حسين » الايام : الجزء الأول ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨٦ ، صفحات : ١٨ و٢٠ و ٢٣ ـ ٢٤) .

ولم يكن بد مما ليس منه بد أن تؤثر هذه المواقف في وجدان «طه حسين» وتبقى في قرارة نفسه ويستمر بقاؤها . ولكنه مع صغر سنه ورجاحة عقله المبكرة استطاع ان يستمع لمن يقص القصص والاحاديث وتعلم من ذلك حسن الاستماع . كان يستمع لانشاد الشاعر وأحاديث الرجال الى أبيه والنساء الى أمه . وكان من حسن حظه أن أباه وطائفة من اصحابه كانوا يحبون القصص حبا جما فاستمع لقصص الغزوات والفتوح ، وعرف ضمن ما عرف اخبار عنترة والظاهر بيبرس ، وأخبار الانبياء والنساك والصالحين . كان «طه حسين»

يسمع لحن هذه الامور والذين يقولون او ينشدون عنه غافلون : ولم يفته الاستماع الى اخواته وهن يتغنين ، وأمه وهى تعدد . وكان تعديد أمه يهزه هزا عنيفا وكثيرا ما كان يبكيه . والاوراد لم يفته الاستماع لها . فقد كان له جد ضرير يتلوها اذا أصبح أو أمسى . وكان الصبى ينام فى حجرة مجاورة لحجرة جده الشيخ ، فكان يسمعه وهو يتلو حتى حفظ من الأوراد والادعية شيئا كثيرا .

« ولم يبلغ التاسعة من عمره حتى كان قد وعى الاغانى والتعديد والقصص وشعر الهلاليين والزناتيين والأوراد والادعية وأناشيد الصوفية جملة صالحة ـ وحفظ الى ذلك كله القرآن (المرجع السابق : صفحات ٢٤ ـ ٢٧) .

واذا كان انصراف «طه حسين» ابن التاسعة من عمره عن اللعب بيده مع اخوته أو اقرانه فانه كان يشاركهم اللعب بعقله . ولعل انصرافه عن اللعب والعبث حبب الى نفسه أمورا أخرى كانت لها الاثر الكبير أو الآثار الكبيرة فى تحويل مجرى حياته من شيخ معمم ربما كان مصيره تلاوة القرآن على المقابر الى عميد الادب العربى . بل كانت لها الاثر الكبير أو الآثار الكبيرة فى غرس قيم العزيمة والشجاعة والمثابرة والجد والاجتهاد فى نفوس قراء كتاب «الايام» .

وفى ضوء خبرات «طه حسين» حتى بلوغه هذه السن لاحظ أهل قريته ، وبخاصة بعد أن حفظ القرآن الكريم ، انه توقع أن يلبس الجبة والقفطان ويتخذ العمامة غطاء لرأسه . فقد كان الجميع يلقبونه «بالشيخ» حتى أهل بيته . كان ينتظر أن يكون شيخا حقا .

« وكان من العسير اقناعه بأنه أصغر من أن يحمل العمة ، ومن أن يدخل فى القفطان وكيف السبيل الى اقناعه بذلك وهو شيخ قد حفظ القرآن ! وكيف يكون الصغير شيخا ! وكيف يكون من حفظ القرآن صغيرا . هو اذن الظلم ... وأى ظلم أشد أن يحال بينه وبين حقه فى العمة والجبة والقفطان « نفس المرجع : صفحتا ٣٧ ـ ٣٨) .

وكان هذا الاحساس بالظلم المبكر عند «طه حسين» له شأن وأى شأن فى تمرده على الظلم وفى ثورته على الظالمين فى المستقبل وبخاصة وقد عانى فى خلال هذا المستقبل العناء تلو العناء سواء عندما كان يتلقى العلم فى الازهر الشريف أو عندما كتب كتابه «فى

الشعر الجاهلى» كما ذكرت ذلك من قبل .

وكان رد الفعل عند «طه حسين» الصبى أن يثير من حوله ضجة يسمع الناس فى القرى المجاورة أنباءها . كان فى نظرهم طفلا . ولكنه لم يأبه لهم ولا لغيرهم وأخذ يجادل ويناقش ويصر على أن يكون له رأى فى كل شىء ! فهو ينقد كتاب بالقرية وسيدنا والعريف ويطلق لسانه فيهما اطلاقا ملحوظا ، ويظهر من عيوبهما ما خفى على القرية زمنا طويلا .

وهو حين يختار من المجالس ، فانه يختار مجالس العلماء المعروفين فى الريف ككاتب المحكمة الشرعية ، وامام المسجد ، وثالث مهتم بالعلم .. فيتقدم ويلقبهم بالعلماء الرسميين ، وغيرهم علماء منبثون بين الريفيين . ولم يكونوا أقل من هؤلاء تأثيرا فى دهاء الناس وتسلطاً على عقولهم منهم «الحاج الخياط» ، ومنهم هذا الشيخ الذى أجمع الناس بأنه آكل لاموال اليتامى ، ومنهم هذا الشيخ الذى لم يكن يقرأ ولايكتب ولايحسن حتى قراءة الفاتحة وكان رغم ذلك يفتى الناس .. ومنهم الفقهاء الذين يقرءون القرآن ويسمون «حملة كتاب الله » وكانوا يأخذون علمهم من القرآن مباشرة ويفهمونه كما يستطيعون لا كما ينبغى ان يفهم .

ولا جدال فى ان «طه حسين» الصبى كان نابغة وقد ظهر هذا النبوغ مبكرا بشكل ميزه عن اترابه واقرانه بل وبقية اخوته فى القرية .. ولم يكن غريبا ان يفكر ابوه فى الحاقه بالازهر الشريف فى القاهرة مع اخيه الأكبر الذى كان مجاورا ، ولكن ذلك لم يحدث فى التو واللحظة بل تأجل المرة تلو المرة .

كان سن «طه حسين» عندما غادر قريته الى القاهرة طلبا للعلم فى الازهر الشريف لايعدو الثلاثة عشر عاما ، واجتاز اختبار القبول ولكنه ، وهو ذو الحس المرهف ، وجد ان كل شىء قد تغير من حوله : المكان والصحبة وحتى الزمان . وأصبح يعيش مع أخيه الأكبر الذى يكاد أن يضيق عليه الخناق ، فهو يجلس فى مجلسه الذى اختاره له الأخ الاكبر ولا يبرحه » .

« ... وعن قرب يجلس هذا الأخ الاكبر ومعه زملاؤه المجاورون فى الازهر يتندرون ويتناظرون ويدرسون وفوق ذلك يشربون الشاى ! وهو كما هو لايستطيع ان يطلب من أخيه الاذن بأن يحضر مجلسهم أو يستمتع بما يستمتعون به » (انظر طه حسين : حياته وأعماله » (مرجع سابق) صفحة ٨ .

وذهابه الى الازهر الشريف جاء « بفرمان» من أبيه الذى قال له :

« اما فى هذه المرة فستذهب الى القاهرة مع أخيك ، وستصبح مجاورا ، وستجتهد فى طلب العلم ، وأنا أرجو أن أعيش حتى أرى أخاك قاضيا ، وأراك من علماء الازهر ، قد جلست الى احد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة بعيدة المدى » (انظر «الايام : الجزء الأول» ، (مرجع سابق) ، صفحة ١٣٨) .

والمتتبع لانتاج «طه حسين» يجده انتاجا غزيرا ، فقد بدأ بأول كتاب «ذكرى ابى العلاء» وقدمه للمكتبة العربية فى عام ١٩١٥ ، وكان كتابه الثانى «فلسفة ابن خلدون» كان قد كتبه « طه حسين» باللغة الفرنسية فى عام ١٩١٨ حيث كان رسالة الدكتوراه من «جامعة السربون» وترجمة «الاستاذ محمد عبد الله عنان» فى عام ١٩٢٥ ، وكان الكتاب التالى عبارة عن «محاضرات فى التاريخ القديم فى الجامعة المصرية» ، وتلاه كتاب «آلهة اليونان» أو «الظاهرة الدينية عند اليونان وتطور الآلهة وأثرها فى المدنية» ويوالى «طه حسين» اهتمامه بالتاريخ والادب اليونانى ويظهر ذلك جليا فى مؤلفين نشرا فى عام ١٩١٩ ، ويوجه «طه حسين» اهتمامه مرة أخرى بالتاريخ والادب اليونانى ويظهر ذلك جليا فى مؤلفين نشر الأول فى عام ١٩٢٠ تحت عنوان «صحف مختارة من الشعر التمثيلى عند اليونان» ونشر الثانى فى عام ١٩٢٥ تحت عنوان «قادة الفكر» ، وفى نفس العام بدأ فى نشر الاجزاء الثلاثة من كتابه «حديث الاربعاء» وهى (الأجزاء الثلاثة) عبارة عن الفصول التى كان ينشرها فى جريدة السياسة ، وفى عام ١٩٢٦ نشر كتابه « فى الشعر الجاهلى » وتغير اسمه (بسبب المعركة التى قامت حوله) الى «فى الادب الجاهلى» الذى نشر فى العام التالى اى فى عام ١٩٢٧ . ونشر بعد ذلك كتابه «الايام» الجزء الأول الذى سبق

ان تحدثت عنه ، ثم نشر كتابه «فى الصيف» فى عام ١٩٣٣ ، وفى نفس العام نشر كتاب «حافظ وشوقى» وفى عام ١٩٣٣ أيضا نشر الجزء الاول من كتاب « على هامش السيرة» . ثم انتقل الى نوع آخر من الكتابة حيث بدأ فى كتابة القصة بمعناها المعروف اى ليس كما كتب «الايام» و «فى الصيف» ، وهذه القصة هى «دعاء الكروان» ، وفى عام ١٩٣٥ اصدر كتابه «من بعيد» وهو كتاب قد جمع بين أدب الرحلات وادب الأفكار ، وفى نفس العام أى فى عام ١٩٣٥ يصدر كتابه الثانى وهو «أديب» ، والكتاب الثالث الذى صدر فى نفس العام أيضا كان كتاب «الحياة الادبية فى جريدة العرب» وهو المعروف حاليا بكتاب «الوان» ، وصدر كتاب رابع فى عام ١٩٣٥ أى فى نفس العام وهو «مع ابى العلاء فى سجنه » . وفى عام ١٩٣٦ صدر كتاب «من حديث الشعر والنثر» ثم صدر كتاب «القصر المسحور» فى عام ١٩٣٧ وقد جمع هذا الكتاب بين «طه حسين» و «توفيق الحكيم» حيث شاءت الاقدار أن يجتمع المؤلفان فى احدى القرى الصغيرة فى حضن جبال الالب . وفى عام ١٩٣٧ صدر كتاب «مع المتنبى » وفى العام الذى يليه اى فى عام ١٩٣٨ قدم «طه حسين» قصته الثانية وهى « الحب الضائع» وفى عام ١٩٣٨ نشر كتاب **مستقبل الثقافة فى مصر** (سأعود الى هذا الكتاب لاهميته لكى أناقش قضاياه فيما بعد) . ثم ظهر فى المكتبة العربية الجزء الثانى من كتاب «الايام» فى عام ١٩٣٩ . وفى عام ١٩٤٢ صدر كتاب «لحظات» وهو يضم القصص التى لخصها «طه حسين» من عيون الادب الغربى . وعلى سنتين متتاليتين.هما ١٩٤٢ و ١٩٤٣ ، صدر الجزءان الاخيران من كتاب «على هامش السيرة» (نشر الجزء الأول من هذا الكتاب فى عام ١٩٣٣ كما سبق ان ذكرت) ، ثم نشر فى عام ١٩٤٣ كتابين آخرين وكان الكتاب الاول هو «صوت باريس» اما الكتاب الثانى فهو «أحلام شهرزاد» . وفى عام ١٩٤٤ يعود «طه حسين» الى عالم القصة بنشره «شجرة البؤس» (**لعل الاستاذ نجيب محفوظ قد كتب ثلاثيته**

النظرية الاجتماعية اسرة ممتدة) . وفى عام ١٩٤٥ نشر « طه حسين » ثلاثة كتب كان أولها « جنة الشوك» ، اما الكتاب الثانى فقد كان «فصول فى الادب والنقد » ، والكتاب الثالث هو «صوت أبى العلاء» . وفى عام ١٩٤٧ نشر الجزء الأول من المؤلف العظيم « الفتنة الكبرى» وهو خاص بالخليفة «عثمان بن عفان» ثم يعود «الدكتور طه حسين» مرة بعد مرة الى نشر الرسائل التى كان يكتبها من اوروبا ، ففى عام ١٩٤٨ ينشر كتاب «رحلة الربيع» وقد أضاف اليه كتابه « فى الصيف » ونشر الكتاب فى مجلد واحد فى عام ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٤٩ نشر كتاب «المعذبون فى الارض» ، وكان نغمة هذا الكتاب ثورية وهذا لايتوقع الا من «طه حسين» فى ضوء ظروف حياته وكفاحه ومواجهة الظلم والعنف سواء كان ذلك فى طفولته أو فى صباه أو فى شبابه أو فى رجولته ، فلم يكن بد إلا أن يعبر عن الناس الذين يعيش فى وسطهم ، ولم يكن بدا أيضا الا ان يعبر عن آمالهم وآلامهم وهمومهم . وفى نفس العام نراه ينشر كتاب «مرآة الضمير الحديث» الذى نشر أيضا بعنوان «نفوس للبيع» ، والقارىء لهذا الكتاب يدرك أن «طه حسين» يحاول ان يلائم بين الحياة العقلية والحياة العملية . ففى هذا الكتاب نجده يقول :

« ان تغيير الأشياء لايكون بالكلام الذى يقال عن اخلاص أو تكلف ، وعن تفكير أو اندفاع وانما يكون بالعمل الذى ينقل الأشياء من طور الى طور .. العمل وحده هو الذى يستطيع ان يرضى القلب الذكى ، ويقنع النفس الكبيرة ، ويزيد البصيرة نفوذا الى نفوذ » .

وفى عام ١٩٥٠ صدر كتاب «الوعد الحق» ويؤكد «طه حسين» فيه الانتصار للحرية والكرامة الانسانية وذلك فى ضوء تعاليم الدين الاسلامى . وضرب فى هذا الكتاب الأمثلة إذ يصور نفوس الاحرار كل من «عمار بن ياسر» و «بلال» و «صهيب» . وفى نفس العام نشر كتاب «جنة الحيوان» يعرض فيه «طه حسين» نماذج بشرية من خلال صورة أقرب الحيوانات الى خلقها ، اى ان هذا الكتاب يمكن ان يندرج تحت

وهن أو تردد . وفى عام ١٩٥٢ جمع بعض المقالات التى نشرها فى كتاب «بين بين» قدم فيه وجهة نظره فى بعض القضايا والمواقف . ثم نشر «طه حسين» الجزء الثانى من «الفتنة الكبرى» فى عام ١٩٥٣ وعنوانه «على وبنوه» . وفى عام ١٩٥٥ نشر كتاب «خصام ونقد» ، وفى عام ١٩٥٦ نشر كتاب «نقد واصلاح» ، ثم فى عام ١٩٥٨ نشر كتاب «من ادبنا المعاصر» وفيه يتناول ناقدا قصة رفيق حياته «محمد حسين هيكل» ، وفيه يتناول قصة «بين القصرين» لنجيب محفوظ ويؤكد انها قصة رائعة ثم صدر كتاب «مرآة الاسلام» فى عام ١٩٥٩ ، وفى نفس العام كتاب «من لغو الصيف» وكتاب «احاديث» وكتاب «من أدب التمثيل الغربى» . وفى عام ١٩٦٠ صدر كتاب «الشيخان» (الصديق ابو بكر والفاروق عمر) . وانتهى «طه حسين» بكتاب «الايام» (الجزء الثالث) الذى صدر فى عام ١٩٧٢ .

ولـ «طه حسين» نشاطات أخرى عديدة غير الكتب التى قام بتأليفها . فهناك الكتب المترجمة والأخرى المحققة . فضلا عن اشترامه مع آخرين فى تأليف كتب ، ومراجعة وتقديم كتب أخرى ، وغير ذلك من الاعمال وعلى الاخص الاحاديث الصحفية والاذاعية والتليفزيونية التى أبرزت زوايا عديدة من تفكيره وأفكاره .

وفى شهر أكتوبر عام ١٩٧٢ توفى «طه حسين» وبقيت أعماله شامخة خالدة ، كما بقيت دعواته التى اراد لها أن تمهد السبيل لرفعة مصرنا الخالدة وترنو الى المستقبل المشرق المجيد (انظر : « طه حسين ، حياته وأعماله » (مرجع سابق) صفحات ٢٦ ـ ٤٧ وانظر ايضا «الايام» الجزء الأول (مرجع سابق) صفحة ١٣٨ . وانظر كذلك «طه حسين» : «شجرة البؤس» القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٨١) .

× × × × × × × × × × ×

واذ أحلل الانتاج الغزير ل « طه حسين» ، أجد أنه يضم أنواعا شتى من الادب . فهو يضم المؤلفات التى كتبت خصيصا والمحاضرات التى جمعت فى كتب والمقالات التى جمعت أيضا فى كتب ، كما يضم القصص بمعناها المعروف وكتب السيرة الذاتية ،

وتضمن انتاجه كتبه فى التاريخ ، وفى النقد الادبى الرفيع ، وفى الشعر والشعراء (مع المتنبى مثلا) ، واليونانيات ، وفى الفلسفة الادبية وأدب الفلسفة ، كما تضمن انتاجه الظلم والمظلومين والمعذبين فى الارض ، والاسلاميات التى توجد فى عدة كتب فى هذا الانتاج وربما كان من اهمها الكتب الثلاثة بعنوان «على هامش السيرة» ، وكتبه عن «الفتنة الكبرى» : عثمان بن عفان وعلى وبنوه ثم الشيخان .

ولم يفت «طه حسين» أن يدلى بدلوه فيكتب كتابا عن «مستقبل الثقافة فى مصر» ويتضمن هذا الكتاب كما يذكر «سامح كريم» :

«تصويرا دقيقا للكثير من مشاكل الثقافة فى الشرق العربى ، ولأطوار التفكير واطوار التعليم فى اتجاهاتها المختلفة ، وهذا ما عرض اليه الدكتور طه حسين بكثير من التوسع وبكثير من الوعى والمعرفة وخرج من بحوثه بخطط ونظريات جريئة يمكن ان يتطور على أساسها التعليم تمهيدا لخلق جيل جديد يتماشى مع التيارات الحديثة فى تطوراتها المتدافقة .

وانتشرت بين جزئى الكتاب الكثير من الآراء التى تمس النواحى الثقافية واسس التعليم مباشرة ، والتى يضيق هذا المجال عن حصرها ولكن لعلنا نتعرض الى الفكرة الاساسية من الكتاب وهى ان مصر ذات التاريخ الثقافى القديم يجب - فى رأى الدكتور طه - ان لاتبقى فى معزل عن هذا التطور الذى يهز العالم بل «يجب ان تندفع مع التيار التقدمى لتحفظ هذا التوازن بين ماضيها وحاضرها . فمستقبل الثقافة فى مصر مرتبط بماضيها . والعقل المصرى مرتبط منذ القدم بشعوب بحر الروم ، وقد خالط الفكر اليونانى فتأثر به وأثر فيه ، ويذهب الى ان مصر غير شرقية ، ولكن لايكاد ان يجردها من شرقيتها حتى يعود ليؤكد مصريتها .. فمصر فى نظره بعيدة كل البعد عن الهند والصين واليابان ويثبت بكثير من الحجج والبراهين أن العقل المصرى القديم لم يتأثر بالشرق الاقصى ولا بالشرق البعيد . وانما نشأ مصريا برغم ما مر به من فتوحات وحضارات .

وينتهى فى هذا الكتاب الى تحديد لموقف مصر الثقافى فى

الماضى وحمايتها للعقل الانسانى على مر العصور ، ويؤكد على صفحات الكتاب ان لافرق بين المصرى والاوروبى فى العقلية ، وفى هذه المثل العليا التى يتجه اليها الغرب» (انظر «طه حسين» : حياته واعماله (مرجع سابق) صفحتا : ٣٦ ـ ٣٧) .

ويلاحظ ان مفهوم «الثقافة» ومفهوم «التعليم» ، كما يبدو ، عند «طه حسين» صنوان . وان معنى مفهوم الثقافة يعنى عنده كما يعنى المفهوم العام للثقافة . وهو يرى ، بحق ، ان مصر ذات التاريخ الثقافى القديم يجب ان لاتبقى فى معزل عن هذا التطور الذى يهز العالم . وذلك ـ كما أرى ان الحضارة الانسانية هى اليوم حضارة عالمية . و «طه حسين» محق فى ان مصر قد اثرت فى الفكر اليونانى وبخاصة عندما جاء «افلاطون» و «طاليس المالطى» و «فيثاغورس» وغيرهم الى مصر فى عهد «قمبيز» (٥٢٥ ق . م) لكى يعبوا من العلم المقدس فى جامعات «أون» و «طيبة» و «منف» على أيدى الكهان الذين كانوا فى ذلك الوقت هم العلماء والحكماء واصحاب الكلمة العليا فى البلاد ان اليونانيين كانوا تجارا فلم تكن لديهم الفرصة لكى تتيح للفكر ان يزدهر . و «سقراط» المعلم الاول الذى نادى بالمقولة «اعرف نفسك» لم تكن هذه المقولة من بنات افكاره ، فهى مكتوبة على معابد المصريين الإقدمين . وحتى «ارسطو» الذى كان تلميذا لـ «افلاطون» يتعلم الفلسفة تحت اشرافه لمدة عشرين عاما ، ثم أصبح استاذا لـ «الاسكندر المقدونى» الذى فتح مصر فى عام ٣٣٣ ق . م ، قد جاء الى مصر أو أرسل تلاميذه اليها فنهبوا الكتب التى كانت فى مكتبات جامعات مصر القديمة (لم اجد مرجعا يؤكد مرافقة أرسطو «لتلميذه» «الاسكندر المقدونى» عند فتح مصر ، ولم اعرف عن هذا الفيلسوف اول ما عرفت الا فى كتاب «طه حسين» (قادة الفكر) .

والمعلوم ان الفضائل الاربعة التى ذكرها «افلاطون» فى جمهوريته كان مصدرها «كتاب الموتى» المصرى ، أقصد فضائل : الحصافة والعدل والاعتدال (ضبط النفس) والجلد .

والمعلوم أيضا ان الفلاسفة اليونانيين لم يرحب بهم فى بلادهم

ذكرت من قبل (انظر كتاب Gearge M.james "stalan logocg", son Froncisck colifornio U.S.A. published j, richordsan Assaciotes,1976, PP.1-6 and 83 -130)

ويقول «طه حسين» انه لافرق بين المصرى والاوروبى فى العقلية ، وفى هذه المثل العليا التى يتجه اليها الغرب . واذ اوافقه على ذلك فانني ارى ان الثقافة اقصد سمات الثقافة المصرية فى الوقت الراهن غير سمات الثقافة فى البلاد الغربية

وقد عاصرت «طه حسين» ولا ادعى ذلك . وان أنس لا أنسى مواقفه فى الجامعة وحرصه الشديد على قداستها ، فلم يكن ليسمح لاحد من الطلبة ان يعلو صوته أو ان يدخن «سيجارة» فى شهر رمضان أو أن لايكون فى حجرة الدراسة قبل أن يأخذ المحاضر مكانه . وموقفه امام السلطة والسلطان لاينسى ، كان ذلك فى عام ١٩٣٢ عندما رفض طلب الحكومة من الجامعة ان تمنح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين . رفض «طه حسين »هذا الطلب حفاظا على مكانة الجامعة وقدسيتها . واصر على موقفه . وتقرر نقله الى وزارة المعارف فنفذ النقل ولكنه رفض العمل ، وتابع الحملة فى الصحف ، واحيل الى التقاعد بعد شهر من نقله . ثم كتب فى جريدة «السياسة» ثم فى جريدة «كوكب الشرق» واشترى امتياز جريدة «الوادى» وتولى رئاسة تحريرها . ولم يفتنى عدد من هذه الجرائد وبخاصة الجريدة الأخيرة التى كنت أشتريها حرصا على قراءة مقال «طه حسين» .

وفى عام ١٩٤٢ عاد حزب الوفد الى الحكم فعينه وزير المعارف «أحمد نجيب الهلالى» مستشارا فنيا لوزارة المعارف . ثم انتدب مديرا لجامعة الاسكندرية فى شهر أكتوبر من نفس العام . ووقف صامدا ، كعادته ، لاى استفزاز أو بما يحاك ضده فى الخفاء . ثم يتحقق أمل الملايين حين اختير «طه حسين» وزيرا للمعارف فى عام ١٩٥٠ لان هؤلاء الملايين كانت تعلم جيدا ان الثائر القديم الجديد سيحدث حتما ثورة فى التعليم ، ثورة عقلية تنشر التعليم بين طبقات الشعب ، ثورة عقلية تنقل هذا التعليم الى المحرومين فى القرى والكفور والنجوع والاكواخ ، ثورة عقلية تدعو الى ان «العلم كالماء والهواء ينبغى ان ينال منه الجميع حقوقهم» .

٩ ـ بحث علمى اجتماعى لبندر اسوان

فى يوم ٢٣ من شهر ديسمبر عام ١٩٥٩ قدمت لادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية تقريرا عن «مشروع دراسة اجتماعية لمنطقة اسوان : دواعى اجراء الدراسة وطبيعتها» وكان يتضمن هذا التقرير مايلى :

١ ـ ان المجتمعات ـ كل المجتمعات لاتثبت على حال بل تحدث فيها تغيرات مختلفة مستمرة ذات سرعة متباينة . وتتوقف هذه السرعة عادة على طرق استغلال المواد الطبيعية وحاجيات المجتمع نفسه وتقدم العلوم والاكتشافات ، أو سرعة انتشار العناصر الثقافية من مجتمع الى اخر ، ودرجة تقبل المجتمعات لهذه العناصر الجديدة .

٢ ـ ومجتمع منطقة اسوان ـ فى الوقت الحاضر ـ فى طريقه الى التغير . وذلك نتيجة لاستغلال موارد المنطقة الطبيعية ، عن طريق توليد الكهرباء وصناعة السماد واستخراج خامات الحديد والفوسفات وانشاء «السد العالى » ، فضلا عما يستتبع ذلك من انتشار بعض العناصر الثقافية الجديدة فيه . ولاشك انه سيترتب على كل ذلك بعض الآثار الاجتماعية فى مجتمع منطقة اسوان .

٣ ـ وهذه الآثار الاجتماعية ستؤدى حتما الى بعض التغيرات فى البنيان الاجتماعى والوظائف الاجتماعية لمجتمع منطقة اسوان . وهذا ما يعبر عنه بظاهرة «التغير الاجتماعى » .

٤ ـ ومن أهم مظاهر ظاهرة التغير الاجتماعى النمو السكانى وما يصاحب ذلك من التغير النوعى للسكان ، وتقدم تطبيق العلوم وارتفاع المستوى التكنولوجى ، ويضاف الى ذلك مظهر تراكم أو ازدياد العناصر الثقافية .

٥ ـ ويصاحب ظاهرة التغير الاجتماعى حتما ظاهرة أخرى يعبر عنها بظاهرة الانحلال الاجتماعي أو التفكك الاجتماعي .

٦ ـ ومن أهم مظاهر ظاهرة الانحلال الاجتماعي وجود تناقض أو صراع بين المعايير الثقافية فى المجتمع ، وضعف سلطان القواعد أو المعايير السلوكية فيه ، فضلا عن عدم وجود تعاريف عامة متفق عليها للمواقف الاجتماعية المختلفة ، وظهور ما يعبر عنه بالتخلف الثقافى ، وظهور تصدع فى وسائل التفاهم بين أعضاء المجتمع ، وكذلك تصدع فى الجماعات .

٧ ـ ويجب أن نحذر من الخلط بين العملية العامة لظاهرة الانحلال الاجتماعى وبين اعراضها ومن هذه الاعراض الجريمة والجناح والطلاق ..

٨ ـ وقد استرعى انتباه المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ما يحدث الآن فى «منطقة اسوان» من تغير اجتماعى سريع وما يتوقع ان يصاحبه من انحلال اجتماعى . وقد لفتت هذه السرعة نظر المسئولين عن المركز . واوجب هذا التفكير فى مواجهة هذه السرعة فى التغير والعمل على الوصول الى تحويل هذا التغير ليكون تغيرا مخططا اى ليكون تغييرا مقصودا يتفق ما نوجوه ليصبح تطورا سويا واستقرارا نسبيا . فضلا عن انتهاز الفرصة والقيام بدراسة ظاهرتى التغير الاجتماعى والانحلال الاجتماعى فى نطاق المجتمع فى الاقليم المصرى (كان يطلق على «المجتمع المصرى» مجتمع الاقليم المصرى» عندما اتحدت مصر وسوريا وأصبح يطلق عليهما فى ذلك الحين «الجمهورية العربية المتحدة») .

وهذا يتفق مع أغراض المركز وهى النهوض بالبحوث العلمية التى تتناول المسائل الاجتماعية المتصلة بسائر مقومات المجتمع العربى والمشاكل التى يعانيها لوضع الأسس اللازمة لسياسة اجتماعية وقائية وعلاجية وجزائية تتفق وأحوال البلاد .

وارجو أن يلاحظ القارىء الكريم ان التقرير المذكور لم يكتب من فراغ فقد تمت زيارة الى منطقة اسوان من قبل فى خلال الفترة من يوم ١٦ من شهر ديسمبر ١٩٥٩ الى يوم ١٨ من شهر ديسمبر عام

١٩٥٩ : وفكرة القيام باجراء هذا البحث استمدت من بحوث اجريت على «منطقة ديترويت» بالولايات المتحدة الاميريكية التى كانت وثائقها ضمن ما أملك من كتب ووثائق ، وقد قامت باجراء بحوث منطقة ديترويت «جامعة شيكاجو» وأصدرت نتائج هذه البحوث فى اعوام ١٩٥٢ ، ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ ، وكان الهدف من هذه البحوث التعرف على بعض الملامح الاجتماعية لمنطقة ديترويت من حيث السمات الاساسية لسكانها ونشاطاتهم فى محيط الكنائس والمنظمات الاجتماعية والاندية فضلا عن نشاطاتهم السياسية وحياتهم العادية والاسر التى تضمها المنطقة وأنواعها ومستويات دخولها ووجود أجهزة «التليفزيون» ضمن أثاث البيت من عدمه ، وأهم الاتجاهات الاجتماعية فى محيط السكان وأساليب الاهتمام بتربية الاطفال .

وبالاضافة الى كل ذلك كانت هذه البحوث تهتم بالعمالة والهجرة ومصادرها ، كما ركزت على العلاقات القرابية فى محيط السكان وغيرها من الحقائق الاجتماعية .

وقد دونت نتائج الزيارة المشار اليها فى تقرير يتضمن مايلى :

تقرير عن الزيارات الاستطلاعية لمنطقة اسوان

فى خلال المدة من ١٦/١٢/١٩٥٩ الى ١٨/١٢/١٩٥٩

١ ـ أهداف الزيارة :

كان لزيارة منطقة اسوان فى ذلك الوقت هدفان :

الأول : بعض الملاحظات على المنطقة «على الطبيعة» .

الثانى : انشاء علاقات مهنية مع المسئولين عن المنطقة .

وقد نجحت الزيارة اذ حققت هذين الهدفين .

٢ ـ بعض الملاحظات على المنطقة على الطبيعة :

لقد بدأت زيارة منطقة السد العالى ، بجولة فى نهر النيل الخالد ، ولاحظت بعض الجماعات تعيش فى جزائر ، ورأيت «مشروع شركة كيما ومشروع توليد الكهرباء من خزان اسوان » وقد جبت فى أحياء بندر أسوان فى الاحياء القديمة وفى الاحياء الجديدة . ولاحظت الاهتمام بتوسيع بعض الشوارع فى البندر .

وكان عدد سكان بندر اسوان فى ذلك الحين ٢٥٠٠٠ نسمة . وكانوا خليطا من النوبيين والجعافرة والعبابدة وبعض أهالى الصعيد وبعض الأجانب . ونسبة المسيحيين كانت تبلغ نحو عشرة فى المائة .
ومعظم العمال فى المشروعات القائمة ان لم يكن كلهم من أهالى الصعيد الوافدين الى المنطقة للعمل عن طريق بعض المقاولين . ولايقوم أهل المنطقة بالعمل فى هذه المشروعات . ويقال ان السبب فى ذلك ان أهالى المنطقة لايميلون الى العمل العنيف وهم يفضلون - خصوصا الذكور منهم - أعمال السفرجى والبواب والخدامين على غيرهم من الاعمال .

ويلاحظ ان السكان المسيحيين يعملون فى بعض الصناعات الفنية مثل صناعة الترزية وأعمال الكهرباء والراديو ، ويعملون كذلك فى التجارة .

وقد علمت ان معظم اهالى المنطقة يحافظون على أساليب معينة من الحياة فهم ذوو عصبية وهم لايتزوجون من خارج أسرهم " المتعلمون منهم وغير المتعلمين " والذكور يعملون فى خارج المنطقة فى القاهرة أو فى الاسكندرية - مثلا - فى أعمال السفرجية والبوابين ويتركون نساءهم من ورائهم .. وهم يعيشون على الكفاف ويرسلون مايزيد على حاجتهم الى أهليهم باستمرار .

وقد علمت أيضا ان سكان المنطقة من النوبيين يتحدثون ببعض أنواع من اللغات غير العربية " فادجة ماتوكى " وهم يحرصون على الابقاء على هذه اللغات حية بينهم ، ومع النوبيين يعيش السكان الاصليون وهم من الجعافرة والعبابدة ويتكلمون اللغة العربية فقط .

ويقبل أهالى المنطقة على التعليم ، ولكن النوبيين منهم يجدون صعوبة ، حيث انهم لايبدأون تعلم اللغة العربية الا عند بدء التحاقهم بالمدرسة لاول مرة .

وببندر أسوان مدارس اعدادية وثانوية وصناعية للجنسين .. وقد بدأ شبان المنطقة يلتحقون بالمدارس الصناعية ، ويفضلونها على

الالتحاق بالجامعة .. ويتوقع فى القريب ان يكون خريجو المدارس الصناعية النواة الأولى للعمال المهرة من اهالى المنطقة .. وقد لاحظت ان الاهالى من النوبيين قد بدأوا فى تعليم البنات وذلك لكى يَكُنَّ أهلا للزواج من الذكور المتعلمين منهم .

وبندر أسوان مقسم الى ثمانى شياخات لكل شياخة شيخ مسئول .. كما هو المتبع فى المدن الأخرى .. اما سكان الجزائر ، فقيل لى إنهم يسكنون فى جزيرتين وتوجد فى كل جزيرة مائة بيت .. ومعظم السكان من النساء والأطفال والرجال كبار السن ، ويشرف على هاتين الجزيرتين " عمدة " .

والعمال الذين وفدوا الى أسوان وقت الزيارة يعيشون فى خيام ، ولايوجد نظام خاص ينظم هجرتهم ، فهم يتركون وشأنهم فى يد المقاولين .. ويتدخل " مكتب العمال " فقط اذا مانشب نزاع تعلق بالعمل أو شروطه .

ولاحظت ان عدد الجمعيات فى بندر اسوان قليل جدا .. والحركة العمالية فى المنطقة ضعيفة وليس لها تنظيم خاص حتى وقت الزيارة .. ولكنى لاحظت وجود نقابة الحديد والصلب .

اما جرائم المنطقة فهى قليلة نسبيا .. وأنواعها غير عنيفة .. واكثرها عددا جرائم هتك العرض ضد الذكور .. وقد علمت ان بعض الاهالى يدمنون تعاطى الخمر والحقن بحقن " السيكونال " وان هذه الحقن تهرب وتباع عن طريق غير طريق الصيدليات ، واذا ضبط تهريبها تقيد الواقعة " جنحة " .

وقد تبين ان بعض جرائم السرقة قد بدأت تكثر منذ وفود العمال من خارج منطقة أسوان .. وعلى الرغم من وجود " عصبيات " فى المنطقة ، فان " ظاهرة الاخذ بالثأر " ليس لها وجود .. ويقال إن من عوامل عدم وجودها أن الاهالى لايعملون فى الزراعة ، ومن ثم لاتوجد أراضى تكون محل نزاع بينهم .

الضرورية مثل اللحوم والخضار وغيرها ، وذلك لكثرة الطلب " بازدياد عدد الوافدين على المنطقة من الموظفين والعمال وغيرهم " وقلة العرض .

٣ ـ انشاء علاقات مهنية مع المسئولين عن المنطقة :

لقد نجحت الزيارة فى انشاء علاقات مهنية مع السيد المشرف على مشروع السد العالى ، والسيد مدير أسوان ، والسيد ضابط مباحث السكة الحديد ، وقد تفضل الجميع باداء استعدادهم للتعاون مع " الهيئة المشرفة على البحث " من حيث امدادهم بالمعلومات الأساسية ، ومن حيث اتاحة الفرصة لمن يعملون فى الميدان منهم للنزول فى " استراحات الحكومة " .

٤ ـ كلمة ختامية :

ومهما يكن من الامر فانه من الصعب الوصول الى صورة حقيقية ـ عن طريق زيارة استطلاعية قصيرة المدى ـ عن منطقة كمنطقة اسوان .. فالحياة فى هذه المنطقة وقت الزيارة كانت معقدة .. وستكون بعد زمن قليل اكثر تعقيدا .. فهى تتضمن أنواعا كثيرة من الناس ومن المؤسسات الاجتماعية ومن الجامعات ، كما تتضمن مدى واسعا من أوجه النشاط الانسانى المتخلفة .. ولايمكن ان يجدى فى ابراز كل ذلك التحليل البسيط أو انطباعات شخصية .

واذا كان هدفنا ابراز السمات الاجتماعية للمنطقة وتصويرها ، فان خير وسيلة هى تطبيق الاساليب الحديثة المستخدمة فى العلوم الاجتماعية .. ولايمكن تحقيق ذلك الا بالعمل المتقن المستمر على مدى معين من السنين .

★ ★ ★

وفى ضوء موافقة ادارة المركز شكلت لجنة من السادة الزملاء " مكرم سمعان " والمغفور له " سمير الجنزورى " و" حسن الكاشف " ومنى وقمت بالاشتراك معهم بوضع " اطار " العمل الميدانى فى منطقة اسوان .. وقد انتهزنا فرصة قيام الدولة بالتعداد

العام فى عام ١٩٦٠ ونجحنا فى نسخ اسماء وعناوين اقامة الاسر التى تسكن بندر أسوان وكل مايتعلق باتاحة الفرص المواتية للقيام بالبحث الميدانى .. وكان الزميل مكرم سمعان الذى سافر مع المغفور له الزميل سمير الجنزورى والزميل حسن الكاشف الى أسوان هو المشرف المحلى للعمل الميدانى .. وقد قمت بمساعدة الزملاء الثلاثة بوضع صحيفة لجمع البيانات الضرورية وكانت تتضمن :

(أ) بيانات التعداد العادية .

(ب) بيانات اجتماعية واقتصادية رأينا فى ضوء أهداف البحث أنها غاية فى الاهمية .. فقد كنا نحاول أن نتعرف على الاعمار من سنة فأقل الى أكثر من ٦٥ سنة .

وكانت سن السابعة وسن الثامنة عشرة وسن الحادية والعشرين محل اهتمامنا .. وذلك لان التعداد العام لم يكن يسجلها أو يهتم بها .

(جـ) ولما كان التعداد العام لايهتم بتسجيل علاقات الزوج بالزوجة السابية ولم يكن يهتم أيضا بتسجيل وجود بعض الأجهزة التى توجد فى بعض البيوت مثل وجود " تليفون أو سخان ، بوتاجاز ، أو راديو ، أو ثلاجة ، أو مياه جارية من عدمه أو نوع موارد المياه وصرفها " فقد كانت موضوعا لاهتماماتنا كحقائق اجتماعية من الضرورة ان نتعرف عليها .

وقد اشترك معنا « الاستاذ محمود السيد » الخبير الاحصائى ليس فقط فى اعداد صحيفة جمع البيانات ولكن ايضا فى الأشراف على التفريغ اليدوى لما جمع من بيانات .

كنا أقصد الزملاء وأنا معهم نخطط على أساس أن يعاد البحث مرة ثانية وثالثة .. كل عشر سنوات لكى نرصد ظاهرة التغير الاجتماعى المقصود فى المنطقة التى نجرى البحث فيها . ومن ثم يمكننا أن نسهم فى التراث الاجتماعى اسهاما فعالا . وهأنذا أقدم التقرير (الأول) فى الكتاب الحالى وقد مر على القيام باجرائه حوالى ثمانية وعشرين عاما . وكان بودى أن اقدمه فى الوقت المناسب عندما تطوعت للقيام بهذه المسئولية فى خلال شهر اتفرغ لكتابته ولكن ادارة

من الأمر فانه اذا كانت هذه الادارة قد شجعت إجراء هذا البحث الخطير وصرفت الأموال بسخاء وسمحت للعاملين العلميين بالمركز بالوقت الكافى ، واذا كانت هذه الادارة لم تحظ بالثمرة المرجوة فى حينها ، فان العاملين العلميين بالمركز قد أفادوا إفادة علمية لاتقدر بثمن .

وفى ضوء البيانات المجموعة بعد جدولتها وتحليلها اتضح ان نتائج البحث مايلى :

أولا : نتائج عامة متعلقة بالتركيب السكانى لبندر اسوان .
ثانيا : نتائج عامة متعلقة بظاهرة الهجرة .
ثالثا : نتائج عامة متعلقة بالحالة الاجتماعية .
رابعا : نتائج عامة متعلقة بحجم الاسرة وأنماطها .
خامسا : نتائج عامة متعلقة بالحالة الاقتصادية .
سادسا : نتائج عامة متعلقة بحالة الاسكان

اولا ـ نتائج عامة متعلقة بالتركيب السكانى لبندر اسوان

١ ـ يصل عدد سكان البندر الى ٤٤٫٤٧٩ شخص ، منهم ٢٢٫٧٥٤ ذكور ، و٢١٫٧٢٥ أناث وبتوزيع الذكور والاناث وفقا لفئات السن المختلفة نجد أن عدد الذكور وعدد الاناث يكاد يتساوى فى جميع فئات السن ماعدا الفئات ١٨ ـ ٢١ حيث يزيد عدد الاناث ، ٣٥ ـ ٤٥ ، ٤٥ ـ ٦٠ حيث يزيد عدد الرجال زيادة واضحة .

٢ ـ اذا اعتبرنا الاشخاص المنتجين فى المجتمع هم الذين تتراوح اعمارهم بين ٢٠ ـ ٦٠ عاما فان الاكثرية من افراد المجتمع (٥٧٪) تصبح من غير المنتجين .

٣ ـ الغالبية العظمى من مجتمع بند أسوان من أصل عربى مصرى ، فتبلغ نسبتهم نحو ٩٨٫٥٪ من جملة السكان . أما الأشخاص الذين ينتمون الى جنسيات اخرى فبعضهم من أصل عربى

من الالمانيين يليهم السودانيون ثم الروس فاليونانيون .

٤ ـ نسبة الذكور فى مجتمع اسوان سواء بين العرب المصريين أو بين أصحاب الجنسيات الأخرى تفوق نسبة الاناث .

٥ ـ يكون المسلمون الغالبية العظمى من مجتمع اسوان (٨٨٫٢٪) ، يليهم المسيحيون (١١٫٦٪) ثم نسبة ضئيلة جدا من أصحاب الديانات الأخرى .

٦ ـ نصف سكان البندر ـ الذين بلغوا من العمر عشر سنوات أو أكثر ـ أميون وترتفع نسبة الامية بين الاناث عنها بين الذكور ، فهى فى فئة الاناث تقترب من ٧٠٪ من جملة عدد الاناث ، بينما لاتزيد فى فئة الذكور عن ٣٦٪ من جملة عدد الذكور . ومعظم الجزء الباقى من السكان هم ممن يقرأون ويكتبون فقط حيث لاتزيد نسبة ذوى المؤهلات المتوسطة ومافوقها عن ١١٪ من جملة السكان . وأغلب المؤهلات المتوسطة والعالية وقف على الذكور دون الاناث ، أما شهادات الدبلوم الممتاز والماجستير والدكتوراه فكلها وقف على الذكور دون الاناث .

٧ ـ ينتمى اكثر من نصف سكان البندر الى قبائل ، فى حين ان من لاينتمون الى قبائل لايزيدون على ٣٠٪ من عدد السكان ، الأمر الذى يعنى ظهور الانتماء القبلى فى بندر اسوان .

ثانيا : نتائج عامة متعلقة بظاهرة الهجرة :

١ ـ ٦٣٪ من سكان البندر من مواليد اسوان ، واكثر من ٢٠٪ من السكان من مواليد محافظة قنا ـ أقرب المحافظات الى اسوان ـ ويقل نصيب باقى محافظات الجمهورية بالتدريج كلما بعدها عن اسوان باستثناء محافظتى القاهرة والاسكندرية فهما تحتلان المركزين الرابع والخامس بعد استبعاد القادمين من خارج الجمهورية .

٢ ـ تقل نسبة المهاجرين الى اسوان من محافظات كفر الشيخ ودمياط وسيناء والبحر الأحمر والصحراء الغربية .

٣ ـ يقيم نحو ثلثى البندر فى اسوان (٤ر٦٤٪) منذ عشر سنوات أو أكثر ، وليس من شك فى أن ثمة ارتباطا بين مدة الاقامة فى البندر وبين محل الميلاد اذ تتقارب النسبتان الى حد كبير .

٤ ـ يسود البندر نوع من الاستقرار السكانى ، اذ أن الذين أقاموا فى البندر فترة أقل من خمس سنوات لاتزيد نسبتهم عن ٧ر٢٢٪ فقط من مجموع السكان .

٥ ـ من مقارنة مدة الاقامة فى البندر بمتوسط عدد الأفراد فى الاسرة الواحدة يتبين أن متوسط عدد الأفراد فى الاسر حديثة الانتقال الى البندر أقل من متوسط عدد الافراد القديمة (٣ : ٥ أفراد) .

ثالثا : نتائج عامة متعلقة بالحالة الاجتماعية :

١ ـ أكثر من ٨٠٪ ممن بلغوا سن الزواج قد تزوجوا فعلا ، فى حين أن نحو ١٨٪ لم يتزوجوا أبدا ، ونسبة الذين لم يتزوجوا من بين الذكور أعلى بكثير من نسبة اللاتى لم تتزوجن من بين الاناث (٢٦٪ فى مقابل ٦ر٩٪)

٢ ـ معدل الطلاق منخفض الى حد كبير اذ يقل عن ٢٪ من جملة من هم فى سن الزواج ، وجملة المطلقات من النساء الى جملة الاناث فى سن الزواج اعلى من نسبة المطلقين من الرجال . ويدل ذلك على ان الرجال المطلقين يسهل عليهم الزواج بخلاف الاناث .

٣ ـ معدل الترمل بين الاناث أعلى منه بكثير بين الذكور . ونسبة الارامل من الاناث تكاد تصل الى ٩٠٪ من جملة الارامل من الجنسين وتصل الى عشرة أضعاف نظيرتها بين الرجال (٥٥ر١٦٪ ، ٤٥ر١٪) من جملة عدد الذكور وعدد الاناث فى سن الزواج مما قد يوحى بارتفاع نسبة العمر بين الاناث .

٤ ـ حوالى ٢٠٪ من المتزوجين تزوجوا فى سن أقل من ١٦ سنة

اغلب هؤلاء من الاناث الذين تبلغ نسبتهم نحو ٩٧٪ فى مقابل ٢ر٣٪ من الذكور .

٥ ـ تنخفض سن الزواج بين الاناث عنها بين الذكور ، فمعظم الاناث (٤ر٣٤٪) تزوجن فى سن أقل من ١٦ سنة فى حين أن أكبر نسبة من الذكور (٤ر٣٢٪) تزوجوا فيما بين ٢٥ ـ ٣٠ سنة ، كما أن نحو ٩٠٪ من زيجات الاناث تتم قبل سن الخامسة والعشرين فى مقابل ٤٩٪ من زيجات الذكور فى نفس المرحلة العمرية .

٦ ـ الغالبية العظمى من المسلمين (٩٣٪) يتزوجون بواحدة ، ولاتزيد نسبة المتزوجين من زوجتين كثيرا عن ٥٪ ولاتزيد نسبة المتزوجين بأربع زوجات عن ١ر٠٪ .

٧ ـ حوالى نصف الزيجات تتم بين اقرباء واغلب الزواج من القريبات يتم من بنات العم بنسبة ٣٣٪ يليه الزواج من بنات الخال بنسبة ٩ر١٧٪ ، على أنه لايجب ان تؤخذ كلمات بنت العم أو بنت الخال على مفهومها الحرفى ، فكثيرون فى النوبة والصعيد الأعلى يعتبرون كل أقارب الأب ابناء عم وكل أقارب الأم ابناء خال .

رابعا : نتائج عامة متعلقة بحجم الأسرة وانماطها :

١ ـ تبلغ جملة عدد الاسر فى بندر اسوان ٩٨٣٠ اسرة . وحوالى ثلث الاسر يقل عدد افرادها عن خمسة ، ٩ر٥٧٪ من الاسر يتراوح عدد افرادها بين خمسة وعشرة .

٢ ـ النمط الغالب للاسر (٦٠٪) هو الاسرة المفردة ، تلى ذلك الاسر الممتدة التى تكون ١٢٪ من مجموع اسر البندر وتضم نحو ١٧٪ من السكان .

٣ ـ تبلغ نسبة التجمعات السكنية التى لايربط افرادها صلة قرابة نحو ١٥٪ من مجموع الاسر وقد يرجع ذلك الى زيادة الهجرة الى اسوان فى الوقت الحالى ، وسكنى افراد لايرتبطون بصلة قرابة فى معيشة واحدة .

خامسا : نتائج عامة متعلقة بالحالة الاقتصادية

١ ـ تصل جملة المشتغلين من الذكور الذين تبلغ سنهم ١٥ سنة فأكثر الى ١١٢٠٧ وجملة المشتغلات من الاناث ٣٦٢ ، وبذلك تصبح نسبة المشتغلين من الذكور الى المشتغلات من الاناث ٣٠ . ١ .

٢ ـ يعمل الذكور فى المهن الاتية مرتبة حسب اهميتها وحسب نسبة المشتغلين بها الحرف والصناعة ، الخدمات ، وأعمال الانتاج والفعلة ، والمهن الفنية والعلمية ، النقل والمواصلات ، ثم تأتى بعد ذلك فئات الكتابيين والزراعيين والصيد والاداريين والتنفيذيين ثم المشتغلين بالمناجم والمحاجر .

٣ ـ يقبل الاناث على العمل فى المهن الفنية والعلمية ثم الخدمات ثم اعمال البيع وهذه المهن الثلاث تضم حوالى ٩٠٪ من جملة النساء المشتغلات ، وهناك مهن لايعمل فيها الاناث كالاشتغال بالمناجم والمحاجر واعمال النقل والمواصلات .

٤ ـ ينقسم مجتمع البندر الى مجموعتين غير متكافئتين : الأولى لاتعمل ولاتبحث عن عمل وتكون مايقرب من ثلثى سكان البندر الذين تصل اعمارهم الى ست سنوات أو أكثر ، والثانية وهى ثلث السكان فى نفس السن ويدخلون فى عداد القوى العاملة او القوى التى تبحث عن عمل ، أما فى حالة الاناث وحدهن فقد لانجد سوى فئة واحدة . وهن اللاتى لايعملن ولايبحثن عن عمل (٩٧٪ من الاناث) .

٥ ـ الصفة الغالبة على الحالة العملية هى الاشتغال بأجر نقدى (٢٥٪) وتلى هذه الفئة فى الأهمية من يعملون لحسابهم الخاص ويكونون ٥٪ من جملة السكان أو ١٥٪ من جملة من يعملون أو يبحثون عن عمل .

٦ ـ حالة الاجور العينية (أو العمل بدون اجر نقدى) لاتظهر بشكل واضح فى البندر فلاتزيد نسبة من تنطبق عليهم هذه الحالة عن ٥ر٪ من السكان .

٧ ـ لاتزيد نسبة البطالة ـ من لايعملون ويبحثون عن عمل ـ عن ١٪ من جملة السكان وترتفع هذه النسبة بين الذكور لتصل الى نحو ٢٪ فى مقابل ٠٣ر٠٪ فى حالة الاناث .

٨ ـ يسود فى البندر نوع من الاستقرار فى المهنة ، فما يقرب من ٤٠٪ من المشتغلين قد آمضوا فى مهنهم الحالية ١٠ سنوات أو أكثر ، ونحو ٣٩٪ من العاملين امضوا فى مهنهم الحالية خمس سنوات .

٩ ـ يتراوح الدخل الشهرى لنحو ثلثى الأسر فى بندر آسوان بين خمسة وخمسة وعشرين جنيها شهريا ، ويدخل مايقرب من ١٣٪ من الاسر فى فئات الاجر الشهرى التى تقل عن خمسة جنيهات .

١٠ ـ يوجد مايقرب من ٢٧٠ اسرة او مايعادل حوالى ½ ٢٪ من اسر البندر يزيد الدخل الشهرى لكل منها عن ٤٥ جنيها ، وتوجد ٦٠ اسرة أو ٦ر٪ من اسر البندر يصل دخلها الى مائة جنيه آو آكثر .

١١ ـ الاتجاه العام فى عدد افراد الاسرة هو زيادة العدد مع زيادة اجمالى الدخل حتى فئة ٦٥ جنيها ثم ينقص بعد ذلك .

١٢ ـ توجد خمس اسر يبلغ عدد أفرادها ٢٢ فردا لايوجد لديهم أى دخل و٧٧ أسرة معظمها اسر تتكون من فرد واحد يصل اجمالى دخل كل اسرة الى اقل من جنيه شهريا .

١٣ ـ يغلب على اسر البندر ظاهرة وجود ثلاثة متكسبين او اقل (٩٨٪ من الاسر) ومعظم هذه الاسر (٨١٪ من جملة الاسر) لايوجد لها سوى متكسب واحد .

١٤ ـ يتناسب عدد من يعولهم المتكسب الواحد تناسبا عكسيا مع عدد المتكسبين ، فيصل الى ثلاثة افراد فى الاسر التى ليس لها الا متكسب واحد وينخفض الى ٠٣ر فى الاسر التى يوجد بها عشرة متكسبين او أكثر .

١٥ ـ اكثر من نصف الاسر (حوالى ٥٥٪) تعول اقل من خمسة

افراد ، ٥ر٤١٪ من الاسر تعول مابين خمسة وعشرة افراد ، واكبر الفئات هى التى تعول ثلاثة اشخاص ، تليها فئة الاسر التى تعول اربعة اشخاص ، ثم فئة الاسر التى تعول خمسة اشخاص ثم شخصين فستة اشخاص .

سادسا : نتائج عامة متعلقة بحالة الاسكان :

١ ـ الصفة الغالبة على حيازة السكن هى الايجار (٦٠٪) ، أما الذين يمتلكون الوحدات السكنية التى يقيمون بها فتبلغ نسبتهم نحو ٤٠٪ وهذه النسبة أيضا مرتفعة .

٢ ـ تقيم نحو ٦٠٪ من الاسر فى غرفتين او ثلاثة ، كما أن نسبة كبيرة نسبيا من الاسر (٢٧٪) تقيم فى غرفة واحدة .

٣ ـ يتناسب متوسط كثافة السكن تناسبا عكسيا مع عدد الغرف . فبالنسبة للاسر التى تقيم فى غرفة واحدة ترتفع كثافة السكن لتصل الى ثلاثة فى المتوسط ، وتقل هذه النسبة لتصل الى اثنين بالنسبة للاسر التى تسكن فى غرفتين أو ثلاثة ، ثم تصل الى فرد واحد بالنسبة للأسر التى تسكن فى أربع غرف أو اكثر .

٤ ـ يقل متوسط عدد افراد الاسرة فى فئات السكن الصغيرة عنه فى فئات السكن الكبير .

٥ ـ فئة الايجار المنخفض هى السائدة فى بندر اسوان ، فنحو ٩٠٪ من السكان ـ يسكنون مجانا أو بايجار شهرى اقل من خمسة جنيهات .

٦ ـ من دراسة المنافع السكنية نجد ان المنافع التى لاتوجد بنسبة كبيرة اولها الحمام فما يقرب من ثلاثة ارباع الاسر فى البندر لاتملك حماما ، يليه المطبخ (٥٧٪) ثم الصرف (٥٠٪) ثم دورة المياه (٤٠٪)

٧ ـ من دراسة صفة الحيازة يتبين ان الحيازةالعامة او المشتركة

بشكل واضح فى مصدر المياه ، (مايقرب من ٧٠٪ من الاسر) تعتمد على مصدر مياه مشترك . فى حين أن الحيازة الخاصة تظهر بنسبة اعلى فى حيازة دورة المياه (٥٠٪) ثم الصرف (٤٤٪) ثم المطبخ (٣٨٪) ثم مصدر المياه (٢٥٪) والحمام (٢١٪) ويلاحظ ان الحيازة الخاصة لهذه المرافق تتمثل بين الاسر الكبيرة (متوسط عدد افراد الاسرة خمسة اشخاص مقابل اربعة فقط فى حالة الحيازة العامة او الحالات التى لاتوجد فيها مرافق) .

٨ ـ الصفة الغالبة للمساكن فى بندر اسوان هى استخدامها للكيروسين فى الاضاءة . فثلاثة ارباع الاسر ماتزال تستخدم الكيروسين فى حين ان الربع فقط هو الذى يعتمد على الكهرباء .

٩ ـ لاتمتلك نحو ٨٠٪ من اسر البندر اجهزة راديو فى حين ان خمس الاسر فقط هى التى تمتلك اجهزة .

١٠ ـ يلاحظ ان الاسر التى تستخدم الكهرباء بدلا من الكيروسين ، والاسر التى تمتلك اجهزة راديو متوسط عدد افرادها اكبر من الاسر التى تستخدم الكيروسين والتى لاتمتلك اجهزة راديو .

١٠ بحث عملى اجتماعى سياسى عن الروح المعنوية لأعضاء القوات المسلحة

يلاحظ ان هذا البحث يتصل اتصالا وثيقا بعلم الاجتماع السياسى . ويقصد بهذا العلم « الدراسة العلمية المنظمة للظواهر السياسية الملموسة ـ فى تأثرها وتأثيرها فى باقى اجزاء البناء الاجتماعى والثقافة » وهذه الدراسة قديمة . « وجدير بالذكر ان علم الاجتماع السياسى يستخدم اليوم مناهج البحث السيولوجى ، مثل بحوث الاتجاه ، لدراسة المضمون الفعلى او الواقعى للسلوك السياسى فى الوقت الذى يدرس فيه التنظيم والمؤسسات السياسية الرسمية وغير الرسمية كما لو كانت جزءا اساسيا فى النسق الاجتماعى (انظر : قاموس علم الاجتماع . اعداد محمد عاطف غيث واخرين ، القاهرة ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٧٩ ، صفحة ٣٣٥) .

ويلاحظ أيضا ان « القوات المسلحة » هى « مؤسسة رسمية » وان البحث الذى اعرضه هو بحث عن الروح المعنوية لاعضاء هذه المؤسسة الرسمية ويهدف الى التعرف على اتجاه اعضائها وذلك بالقيام ببحث « الروح المعنوية لاعضاء المؤسسة الرسمية المشار اليها التى تضم جماعات عديدة من بنى البشر ، والتعرف على العوامل الفردية (الشخصية) والظروف الاجتماعية المرتبطة بارتفاع الروح المعنوية او انخفاضها » كل ذلك للتخلص فى ضوء نتائجه من جوانب الضعف (ان وجدت) ودعم العوامل المساعدة على رفع الروح المعنوية وغرسها فى نفوسهم .

وكان الاطار الاساسى لهذا البحث كما طلب من « المركز القومى

للبحوث الاجتماعيه والجنائيه » هو لموضوع « سمات شخصيه المقاتل المصرى » وعندما اسند الىّ الاشراف على هذا البحث وتم تكوين الهيئة المشرفة على اجرائه وهم السادة الزملاء « عبد الحليم محمود احمد » والزميل المغفور له « محمد على احمد » والزميل « محمد عبد الرزاق هويدى » ، وقد انضم الى هؤلاء عن ادارة التوجيه السنوى للقوات المسلحة (قسم البحوث المعنوية) السادة « المقدم روفائيل يوسف جرجس » و« النقيب محمد حسنى عبد الفتاح » و« النقيب حسن احمد الخولى »

وبدأت الهيئة المشرفة على البحث بكامل اعضائها عملها فى يوم ١٩٧٠/٢/١٩ ، وقد عقد فى ذلك اليوم اول اجتماع لها . واستمرت الهيئة تعقد اجتماعاتها بقصد اعداد خطة البحث ، واعداد ادوات البحث ، واختيار وتدريب باحثى الميدان ، واختيار عينة البحث ، وتم كل ذلك فى آخر شهر سبتمبر عام ١٩٧٠ عندما بدأت فى نفس التاريخ مرحلة العمل الميدانى لجمع البيانات من افراد عينة البحث حتى اخر شهر ديسمبر عام ١٩٧٠ . ومنذ اول شهر يناير عام ١٩٧١ حتى آخر شهر مايو عام ١٩٧٢ قامت الهيئة بوضع خطة التحليلات الاحصائية وتنفيذها واستخلاص النتائج ثم كتابة التقرير التالى .

وقبل ان اذكر شيئا عن هذا التقرير ارجو من القارىء الكريم ان يعلم ان هيئة البحث بكامل اعضائها قد عقدت فى خلال هذه الفترة ٧٥ اجتماعا ، كما عقدت اللجنة الفرعية المكونة من السادة الزملاء : عبد الحليم محمود ومحمد عبد الرزاق هويدى والنقيب محمد حسنى عبد الفتاح والنقيب حسن احمد الخولى ١٥٥ اجتماعا .

وقد تضمن التقرير الحالى الموضوعات الاتية :

١ ـ المقدمة .

٢ ـ منهج البحث .

٣ ـ عرض موجز للبيانات الاحصائية .

٤ ـ عرض لأهم نتائج الدراسة .

٥ ـ خاتمة .

وقد سار العمل منذ بدئه حتى الآن بروح الفريق ، الا أن العبء الأكبر فى الاشراف على العمل الميدانى والقيام بالتحليلات الاحصائية قد وقع على كاهل السادة أعضاء اللجنة الفرعية .

ويدل القيام بالبحث الحالى على أن استخدام الأسلوب العلمى فى توجيه سلوكنا وحل مشكلاتنا قد أصبح ضرورة ملحة فى نضالنا من أجل النصر ، كما يدل التعاون بين القوات المسلحة والمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية والهيئات العلمية المماثلة على بادرة طيبة تهدف إلى ترشيد العمل القومى العسكرى وتحقيق الأهداف المرجوة ، ولعل استمرار هذا التعاون أن يحقق كل ذلك وأكثر .

ولاغرو فان مثل هذا التعاون العلمى بين القوات المسلحة ومراكز البحث العلمى المدنية قد أخذت به دول عديدة فى الغرب والشرق على السواء ، ونذكر فى هذا الصدد سلسلة الدراسات والبحوث عن « المقاتل الأمريكى » التى تمت خلال الحرب العالمية الثانية . كما أن العدو الإسرائيلى قد أخذ بهذا التعاون منذ وقت بعيد ، ويكفى للتدليل على ذلك أن نذكر التعاون القائم بين القوات المسلحة الإسرائيلية وبين كل من « معهد العلوم الاجتماعية التطبيقية بالقدس » و« معهد التكنولوجيا بحيفا » و« قسم علم النفس بالجامعة العبرية بالقدس » و ... الخ .

وترجو هيئة البحث أن يساعد هذا التقرير القيادة العامة لقواتنا المسلحة على تفهم حالة الروح المعنوية لدى أفراد القوات المسلحة فى حدود مناطق البحث تفهما موضوعيا مما ييسر إتخاذ أنسب الإجراءات لرفع كفاءة العنصر الإنسانى فى قواتنا المسلحة . كما ترجو الهيئة أن يستمر مثل هذا التعاون العلمى البناء بين القوات المسلحة وبين المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية .

المشرف على البحث د / سيد عويس

محتويات التقرير

أ ـ مقدمة :

(١) موضوع البحث .

(٢) طريقة اختيار الموضوع

(٣) مبررات كتابة هذا التقرير الأولى .

ب ـ منهج البحث :

(١) المفاهيم .

(٢) الادوات .

(٣) العينة ومجالات البحث .

جـ ـ عرض موجز لأهم نتائج الدراسة :

د ـ خاتمة :

(١) التعليق على النتائج .

(٢) مقترحات وتوصيات .

(٣) صعوبات واجهت هيئة البحث

المقدمة

١ ـ موضوع البحث :

يهدف هذا البحث الى دراسة الروح المعنوية لدى افراد القوات المسلحة والعوامل الفردية والظروف الاجتماعية المرتبطة بارتفاع الروح المعنوية او انخفاضها للتخلص من جوانب الضعف ودعم العوامل المساعدة على رفع الروح المعنوية ، وتهيئة المناخ الانسانى المناسب لاعمال التدريب والقتال فى مختلف الظروف .

٢ ـ طريقة اختيار الموضوع :

(١) كان الاطار الاساسى للبحث كما طلبته ادارة التوجيه المعنوى للقوات المسلحة هو « سمات شخصية المقاتل المصرى » .

(٢) بدأت هيئة البحث فى دراسة الموضوع المذكور واتضح انه يحتاج لسنوات طويلة لدراسته ، وانه يمكن الوصول لسمات المقاتل المصرى باجراء عدة بحوث ودراسات نفسية واجتماعية تسهم فى إلقاء الضوء على الموضوع الأصلى وتتم على مراحل وتحقق فوائد تطبيقية فى كل مرحلة ، وتتضافر فى النهاية لرسم صورة علمية دقيقة لسمات المقاتل المصرى .

(٣) قامت هيئة البحث بحصر أهم الجوانب النفسية والاجتماعية التى يمكن ان يبحث فى ظل الاطار العام المقترح ، وبلغ عدد هذه الموضوعات احد عشر موضوعا .

(٤) وحرصا من هيئة البحث على اختيار الموضوع بصورة واقعية وموضوعية فقد تم اعداد استفتاء خاص لتطبيقه على عينة قوامها مائة من قادة القوات المسلحة (حتى مستوى قادة الفرق ومديرى الادارات) لاستطلاع رأيهم فى اكثر هذه الموضوعات اهمية والحاحا ، والذى يشعرون بضرورة دراسته اسرع من غيره من واقع خبراتهم العلمية فى القيادة حتى تتخذه هيئة البحث موضوعا للدراسة الحالية .

(٥) ومن شأن القيام بهذا الاستفتاء جعل موضوع البحث نابعا من القادة انفسهم مما يساعد على اهتمامهم به ودفعهم الى تنفيذ ماتوصى به نتائجه فيما بعد .

(٦) وقد ظهر من الاستفتاء ان موضوع « الروح المعنوية والعوامل المؤثرة عليها » هو أكثر الموضوعات اهمية والحاحا حيث حصل على نسبة ٧٠ر٣٪ من رغبات القادة .

٣ ـ مبررات كتابة هذا التقرير الأولى :

(١) تمر القوات المسلحة الان بمرحلة دقيقة مما يجعل من الضرورى وضع صورة واضحة عن حالة الروح المعنوية والعوامل المؤثرة عليها امام القيادة العامة للقوات المسلحة .

(٢) رأت هيئة البحث ان ترفع تقريرا اوليا (بعد أن انتهت من الدراسة التى قامت بها) تضمنه خلاصة النتائج التى من شأنها إلقاء الضوء على عوامل القوة والضعف فى الروح المعنوية فى قطاعات القوات المسلحة التى تناولتها الدراسة والعوامل المؤثرة عليها مما قد يساعد على اتخاذ الاجراءات الملائمة التى تزيد من كفاءة العنصر الانسانى فى قواتنا المسلحة فى مواجهة الاعداء .

(٣) سوف تقوم هيئة البحث بكتابة تقرير تفصيلى عن البحث ـ يستغرق بعض الوقت ـ ويتضمن بالتفصيل جميع مراحل الدراسة ، والمناهج التى اتبعت فيها ، والنتائج التفصيلية التى تم الوصول اليها .

منهج البحث

١ ـ المفاهيم :

مفهوم الروح المعنوية :

(١) عند دراستنا للروح المعنوية بالقوات المسلحة لابد من تصور انتماء الافراد الى جماعات او وحدات لكل منهم فيها مركز معين وادوار محددة (رسمية أو غير رسمية) ويتلقون فى هذه الجماعات انواعا من التربية العسكرية ، ويشتركون فى اداء اعمال من شأنها ان تكون عددا من الروابط والعلاقات بين الزملاء والرؤساء .

(٢) وباستمرار التفاعل بين الافراد فى الوحدات يتزايد التماسك بينهم وتتوحد اهدافهم ، وتتكون لديهم اتجاهات ايجابية نحو عملهم والظروف التى يتم فيها هذا العمل ، او يقل مستوى تماسكهم ووحدة اهدافهم حسب نوع التفاعل بينهم والظروف المحيطة بهذا التفاعل

(٣) وعندما تتفق اهداف افراد الوحدة مع الأهداف الرسمية للعمل العسكرى المنتظر من الوحدة القيام به كما يرسمه لها القادة ، فانهم يندفعون بحماس بأقصى طاقاتهم نحو تنفيذ العمل المطلوب وهذا دليل على الروح المعنوية المرتفعة .

(٤) ومن هنا نستنتج التعريف الاجرائى للروح المعنوية كما استخد م في هذا البحث وهو انها - أى الروح المعنوية :

« مقدار حماس المقاتلين واتجاههم الايجابى نحو العمل العسكرى والظروف المحيطة به (قيادة ، معدات ، شئون ادارية و.. الخ) وينشأ هذا الحماس والاتجاه الايجابى نتيجة للتوحد والاتساق بين اهداف العمل العسكرى من ناحية ، وأهداف جماعة الافراد الذين يكونون الوحدة الفرعية الصغرى من ناحية اخرى ».

(٥) ومن شأن ارتفاع الروح المعنوية (بهذا المفهوم) ان يساعد الافراد على بذل اقصى جهد من اجل الصمود امام المواقف الصعبة وظروف المحن والخبرات القاسية التى قد يتعرضون لها فى خلال تأدية مهامهم .

٢ - أداة البحث :

استقر رأى هيئة البحث على ان اكثر الادوات ملاءمة لظروف البحث الحالى هى استمارة المقابلة الفردية ، وذلك نظرا لكبر حجم افراد عينة البحث ، وتفرقهم فى اماكن متباعدة مما يصعب معه اتباع اسلوب اخر كالملاحظة مثلا ، ولوجود افراد اميين بها ، وضمانا للحصول على بيانات موحدة ومكتملة من كل افراد البحث ، وقد صممت هذه الاستمارة بحيث تشتمل على كل من :

(١) مقياس للروح المعنوية .

(٢) اختبار للمعلومات العسكرية والقومية .

(٣) اختبار مختصر للذكاء .

(٤) بيانات شخصية واجتماعية .

وقد ضمنت الاستمارة المقاييس والبيانات (٢ ، ٣ ، ٤) من أجل القاء الضوء على الصفات الشخصية والظروف الاجتماعية المرتبطة بارتفاع الروح المعنوية او انخفاضها .

٣ ـ مكونات الروح المعنوية :

وسعيا لاحتواء مقياس الروح المعنوية على اهم ابعادها ومكوناتها تم من خلال الاطلاع على البحوث والدراسات المماثلة السابقة ، (ومن خلال مناقشة ظروف البحث الحالى) حصر اهم مكونات الروح المعنوية ، وتم تحديدها بشكل عام فى المكونات التالية :

(أ) التوحد مع الأهداف العامة للقوات المسلحة .

(ب) التوحد مع أهداف الوحدة التى يعمل بها الفرد .

(جـ) الثقة فى التدريب واهدافه .

(د) الثقة فى الكفاءة القتالية .

(هـ) الثقة فى الشئون الادارية والشعور برعاية القوات المسلحة للفرد ماديا واجتماعيا .

(و) الرضا عن العمل .

(ز) الثقة فى القيادة .

(حـ) الشعور بتماسك الجماعة .

(ط) الظروف الاجتماعية المحيطة بالعمل العسكرى (محليا وقوميا ودوليا) .

٤ ـ التحقق من صلاحية أداة البحث :

بعد أن تم حصر وصياغة الاسئلة الممثلة للمكونات المختلفة للروح المعنوية باللغة العامية حتى تفهم من جميع المستويات التعليمية ، وقد بلغ عددها فى البداية ١٧٢ سؤالا ، امكن التحقق من صلاحيتها كأداة علمية بالطرق التالية :

(أ) تطبيقها على عينة مماثلة للعينة التى ستطبق عليها لتجربة ملائمة صياغة اسئلتها .

(ب) التحقق من درجة تمييز الاسئلة بين الأفراد ذوى الدرجات المختلفة فى الروح المعنوية وذلك باستبعاد الاسئلة التى يجيب عليها بنفس الاجابة اكثر من ٩٠٪ من افراد عينة تجريبية تمثل ١٠٪ من العينة الكلية .

(جـ) حساب درجة ثباتها واتساق اجابات مجموعة من مائة فرد من افراد المجتمع العسكرى طبقت عليهم أداة البحث مرتين تفصل بين كل منهما فترة زمنية من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع .

(د) حساب درجة صدق الاسئلة اى تمثيلها للروح المعنوية فعلا عن طريق اعتماد الاسئلة التى يقرها ٨٠٪ من محكمين مدنيين متخصصين فى علم النفس وعسكريين لهم خبرة بمجال البحث فى تمثيل كل سؤال من اسئلة مقياس الروح المعنوية لما يزمع قياسه .

(جـ) حساب درجة صدق الاسئلة ايضا عن طريق مقارنة اجابات الافراد عليها ، بمحك خارجى بحساب درجة التمييز او الفرق بين اجابات مجموعتين متعارضتين فى الروح المعونية (كل منهما مائة فرد) تم اختيارهما من مناطق مختلفة (بحكم شهادة القادة وخبرتهم بافراد هاتين المجموعتين) عند مستوى ثقة فى دقة الفرق بين المجموعتين = ٩٩٪ .

(و) وبعد استبعاد كل الاسئلة التى لاتتوفر فيها شروط الصلاحية

السابقة ، بلغ عدد اسئلة مقياس الروح المعنوية ٤٢ سؤالا .

٥ - طرق حساب الدرجات على المقاييس المستخدمة :

(أ) مقياس الروح المعنوية :

(١) بعد اجراء التجارب السابقة تم اعطاء درجة واحدة لكل سؤال تتفق اجابة الفرد فيه مع اتجاه الروح المعنوية العالية كما ثبتت من نتائج التجارب السابقة .

(٢) الدرجة الكلية التى يحصل عليها الفرد هى مجموع درجاته على كل اسئلة مقياس الروح المعنوية ، اى ان اقصى درجة يمكن ان يحصل عليها فرد تتفق اجاباته على جميع الاسئلة مع اتجاه الروح المعنوية العالية هى (٤٢ درجة) .

(ب) اختبار المعلومات العسكرية والقومية :

(١) بلغ عدد اسئلة هذا المقياس ٩ اسئلة .

(٢) يصحح كل سؤال عن طريق اعطائه :

- « درجتان » للاجابة الكاملة .
- « درجة واحدة » للاجابة الناقصة .
- « صفر » للاجابة الخاطئة .

وذلك قياسا على نموذج وضع بمعرفة هيئة البحث .

(٣) الدرجة الكلية على الاختبار هى مجموع مايحصل عليه الفرد فى جميع الاسئلة اى ان اقصى درجة يمكن ان يحصل عليها فرد يجيب اجابة كاملة على كل الاسئلة هى (١٨ درجة) .

(جـ) اختبار الذكاء :

(١) بلغ عدد اسئلة هذا الاختبار ١٢ سؤالا .

(٢)يصحح كل سؤال عن طريق اعطائه .

- « درجتان » للاجابة الكاملة .

- « درجة واحدة » للاجابة الناقصة .

- « صفر » للاجابة الخاطئة .

وذلك قياسا على النموذج الاصلى لهذا الاختبار .

(٣) الدرجة الكلية على هذا الاختبار هى مجموع مايحصل عليه الفرد فى جميع الاسئلة ، أى ان اقصى مايمكن ان يحصل عليه فرد يجيب اجابة كاملة على جميع الاسئلة هى (٢٤ درجة).

٦ - **مجالات البحث** :

(أ) روعى عند تحديد المناطق التى سيجرى عليها البحث تنوع درجة تعرض القوات المتمركزة بها لضغط العدو ، لذا تم اختيار عينة البحث بحيث تمثل مجتمع القوات المسلحة بافرعه الرئيسية فى المناطق التالية :

(١) منطقة الجيوش الميدانية بالقناة : وتمثل اكثر المناطق تعرضا لضغط العدو والتعامل اليوم معه .

(٢) المنطقة العسكرية الشمالية : وتمثل منطقة تبعد عن ضغط العدو والتعامل اليومى معه .

(٣) اختيرت عينة البحث بحيث تمثل كل من « الرتبة » (ضباط ودرجات اخرى) ، و« مستوى التعليم » بنسب وجودها بمناطق البحث بنسبة تحقق ثقة فى التمثيل للمجتمع الاصلى بافرع القوات الموجودة فى حدود (٩٥٪)

(٤) بلغ عدد افراد العينة الكلية للبحث وفقا للشروط السابقة ١٢٦٣ فردا .

(ب) اسلوب جمع البيانات :

(١) تم جمع البيانات عن طريق المقابلة الفردية التى كان يقوم بها باحثون متخصصون تم اختيارهم من افراد القوات المسلحة المتخصصين فى العلوم النفسية والاجتماعية ، وتم تدريبهم تدريبا خاصا تحت إشراف هيئة البحث .

(٢) وكان الباحثون ينتقلون مع هيئة الاشراف على البحث الى اماكن تمركز القوات الداخلة فى عينة البحث .

(٣) وقد روعى ان تتم المقابلة الفردية فى مكان بعيد عن اى ظروف من شأنها ان تؤثر على استجابات الافراد الذين يتم بحثهم .

(جـ) وقد تم جمع البيانات من افراد عينة البحث فى خلال اربعة شهور ابتداء من اول سبتمبر ١٩٧٠ وحتى نهاية شهر ديسمبر من نفس العام

نتائج البحث

حدود هذه النتائج :

هذه النتائج التى حصلنا عليها بهذا البحث تمكننا من وصف الروح المعنوية **بالعينة الكلية واقسامها المختلفة** ومقارنتها ببعضها البعض من حيث :

أ ـ معرفة الظروف والعوامل الفردية والاجتماعية المرتبطة بارتفاع الروح المعنوية او انخفاضها فى العينة الكلية واقسامها .

ب ـ الفروق بين اقسام العينة فى مستوى الروح المعنوية وفى الظروف المرتبطة بارتفاعها او انخفاضها .

جـ ـ لايشير متوسط الدرجة على مقياس الروح المعنوية للعينة الكلية الى درجة مطلقة نستطيع على اساسها تقرير ارتفاع مستوى

الروح المعنوية بوجه عام عن فترة سابقة او انخفاضها مادام لم تجر نفس هذه الدراسة عن فترة سابقة .

وعلى هذا الاساس لايمكن التقرير ابتداء ان المتوسط الحسابى للعينة الكلية الذى حصلنا عليه وهو ٢ر٣٣ بانحراف معيارى = ٧ر٦ يمثل درجة مطلقة ـ مرتفعة او منخفضة ـ للروح المعنوية لاجمالى افراد القوات المسلحة عن فترة سابقة او تالية على البحث .

د ـ هذه النتائج مرتبطة الى حد كبير بظروف تطبيق آدواتها فى الفترة الزمنية التى تم فيها جمع البيانات من افراد العينة (الفترة من اول سبتمبر ١٩٧٠ وحتى اخر شهر ديسمبر من نفس العام) ، الا ان ادعاء عن اختلاف بعض نتائج هذه الدراسة فى فترة تالية لايمكن اثباته الا من خلال دراسة مماثلة بنفس الاداة والمنهج .

أهم النتائج :

بحساب المتوسط الحسابى والانحراف المعيارى لمجموع درجات اجمالى افراد العينة واجمالى كل قسم من اقسامها (بافرع القوات بالمناطق المختلفة) وحساب الفروق بين هذه المتوسطات الحسابية تبين التالى :

اولا : الفروق بين المناطق فى الروح المعنوية :

أ ـ تبين بمقارنة درجات الروح المعنوية للافراد بالمنطقة العسكرية الشمالية والجيشين الميدانيين ان مستوى الروح المعنوية بالمنطقة العسكرية الشمالية اعلى منها بالجيشين الميدانيين (عند مستوى ثقة فى دقة هذه النتيجة = ٩٥٪) .

ب ـ كذلك تبين ان الافراد بالمنطقة العسكرية الشمالية اكثر ارتفاعا من افراد الجيشين الميدانيين فى الجوانب التالية من الروح المعنوية (بعد حساب الفروق على مستوى اسئلة المقياس)

١ ـ التوحد مع الوحدات التى يعملون بها والاستعداد للتضحية فى

سبيلها (السؤال رقم (٥) من اسئلة الاستمارة) .

٢ ـ الثقة فى كفاءة القوات الجوية ومقدرتها على تقديم المعاونة للقوات البرية والبحرية اثناء القتال (السؤالان ٢٠ ، ٢١ من الاستمارة) .

٣ ـ الشعور بالرضا عن افرع القوات والوحدات والاماكن التى يخدمون بها . (السؤال ٢ ، ٣ من اسئلة الاستمارة)

٤ ـ الشعور بالتماسك بين الافراد داخل الوحدة (السؤال رقم ٨)

جـ ـ وعلى العكس من ذلك تبين ان الافراد فى الجيشين الميدانيين اكثر (من زملائهم بالمنطقة العسكرية الشمالية) شعورا بالرضا عن رتبهم ومناسبتها لما يقومون به من اعمال (السؤال رقم ٢٨ من اسئلة الاستمارة) .

د ـ وبدراسة مجموعة من عينة البحث تمثل اعلى ٢٥٪ من مجموع افراد العينة الكلية فى مستوى الروح المعنوية ، ومقارنتها من حيث صفاتها وخصائصها بمجموعة اخرى تمثل ادنى ٢٥٪ من مجموع افراد العينة الكلية ايضا فى مستوى الروح المعنوية تبين ان نسبة الموجودين بالجبهة من مجموعة مرتفعى الروح المعنوية اقل من نسبة الموجودين بالجبهة من المجموعة المنخفضة ، وعلى العكس من ذلك فقد وجد ان نسبة الموجودين خارج الجبهة من مرتفعى الروح المعنوية اكثر من نسبة المنخفضين .

ثانيا : الفروق بين أفرع القوات فى الروح المعنوية :

أ ـ بمقارنة متوسط درجات الروح المعنوية للأفراد بجميع أفرع القوات المسلحة فى المنطقتين اللتين تمت فيهما الدراسة لم تسفر هذه النتيجة عن وجود فروق ذات دلالة احصائية سوى ارتفاع متوسط درجات الروح المعنوية لدى الأفراد بالقوات البرية بالمنطقة العسكرية الشمالية عن مثيلاتها بكل من :

(١) الجيش الثاني وحده (عند مستوى ثقة في دقة النتيجة = ٩ر٩٩٪) .
(٢) الجيش الثالث وحده (عند مستوى ثقة في دقة النتيجة = ٩ر٩٩٪) .
(٣) الجيشين الميدانيين مجتمعين (عند مستوى ثقة في دقة النتيجة = ٩٥٪) .

ثالثا : الفروق بين الضباط والدرجات الاخرى في الروح المعنوية :

أ ـ بحساب معامل الارتباط المستقيم بين كل من درجات الأفراد على مقياس الروح و« الرتبة » تبين وجود ارتباط سلبي بينهما (عند مستوى ثقة في دلالته الاحصائية = ٩ر٩٩٪) بمعنى أنه كلما قلت الرتبة زادت الروح المعنوية ، والعكس بالعكس .

ب ـ وبحساب الفروق الاحصائية ذات الدلالة بين متوسطات درجات كل من الضباط والدرجات الأخرى على مقياس الروح المعنوية على مستوى المناطق تبين التالي :

(١) على مستوى جميع أفراد العينة الكلية : درجة الضباط أقل من درجة الصف والجنود (بدرجة ثقة في دقة هذه النتيجة = ٩ر٩٩٪) .
(٢) على مستوى الجيش الثاني الميداني : درجة الضباط أقل من درجة الصف والجنود (عند مستوى ثقة في دقة النتيجة = ٩٥٪) .
(٣) الفروق بين الضباط والدرجات الأخرى في الجيش الثالث والمنطقة العسكرية الشمالية كل على حده لها نفس الاتجاه السابق (الضباط أقل) ولكن النتائج لم تصل الى مستوى الدلالة الاحصائية .

ج ـ وبحساب نفس الفروق على مستوى الافرع الرئيسية للقوات تبين التالي :

(١) قوات الدفاع الجوي : تبين أن متوسط درجات الضباط أقل من متوسط درجات الصف والجنود (عند مستوى ثقة = ٩ر٩٩٪) .

(٢) القوات البحرية : متوسط درجات الضباط بها أقل من متوسط درجات الصف والجنود (عند مستوى ثقة = ٩٥٪) .
(٣) القوات البرية : الفرق بين متوسط درجات الضباط والصف والجنود فى نفس الاتجاه السابق (الضباط أقل : ولكن النتيجة لم تصل الى مستوى الدلالة الاحصائية .
(٤) القوات الجوية : الفرق بين متوسط درجات الروح المعنوية لدى الضباط والدرجات الأخرى لم يصل الى مستوى الدلالة الاحصائية ، وان كان اتجاه التمييز لصالح ارتفاع الروح المعنوية لدى الضباط .
د ـ وبمقارنة أعلى ٢٥٪ من أفراد العينة على مستوى الروح المعنوية بأدنى ٢٥٪ من حيث « الرتبة » تبين آن نسبة الضباط أعلى مجموعة فى الروح المعنوية أقل من نسبتهم داخل أقل مجموعة فى الروح المعنوية .

وعلى العكس من ذلك فان نسبة الدرجات الأخرى داخل أعلى مجموعة فى الروح المعنوية أكبر من نسبتهم داخل أدنى مجموعة فى الروح المعنوية (عند مستوى ثقة = ٩ر٩٩٪) ، كما أن هناك حقيقة أخرى تبرز بوضوح وهى أن الدرجات الصغرى أكبر تواجدا فى مجموعة مرتفعى الروح المعنوية عن مجموعة منخفضيها ، وأنه كلما ارتفعت الرتبة صحب هذا تحول الأفراد فى اتجاه المجموعة المنخفضة فى الروح المعنوية ، وهذا يتفق مع ماسبق أن اكده معامل الارتباط من انخفاض الروح المعنوية ، كلما زادت الرتبة .
هـ ـ وبمقارنة استجابات كل من الضباط والدرجات الاخرى على بند من بنود المقياس تبين أن الدرجات الاخرى أكثر ارتفاعا من الضباط فى الجوانب التالية من الروح المعنوية :
(١) " التوحد مع الأهداف العامة للقوات المسلحة والوحدة " (الاسئلة أرقام : ٦ ، ٧ ، ٣٤ من اسئلة الاستمارة) .
(٢) " الثقة فى التدريب والكفاءة القتالية " (الاسئلة أرقام : ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١ من أسئلة الاستمارة) .
(٣) " الثقة فى كفاءة القيادة المباشرة " (الأسئلة أرقام : ١٤ ، ١٧ ، ٣٢ من أسئلة الاستمارة) ؛

(٤) فيما يتعلق " بالرضا عن العمل " اتضح أن الدرجات الأخرى أكثر شعورا بالرضا عن مناسبة مايقومون به من اعمال لقدراتهم الجسمية (السؤال رقم ٢٢) كما أنهم أقل شعورا بالرضا من الضباط عن الجوانب التالية :

(أ) الشعور بأن العمل الذى يقومون به يتيح لهم فرصة اظهار مهارتهم وما يتوافر لديهم من قدرات وخبرات خاصة .

(ب) الرضا عن أفرع القوات الذين يخدمون بها .

(جـ) الشعور بمناسبة الرتبة لما يقوم به الفرد من أعمال .

(د) الشعور بالرضا عما يقدم لهم من تعيينات ـ (الاسئلة أرقام : ٢ ، ٢٣ ، ٢٨ ، ٢٩ من أسئلة الاستمارة) .

(٥) وفيما يتعلق " بالرضا عن العلاقات الانسانية داخل الوحدة " وجد أن الدرجات الأخرى أكثر من الضباط شعورا بالرضا عن علاقاتهم بزملائهم وعن تقدير قادتهم لهم عندما يقومون بأعمال جيدة ـ (السؤالان ٨ ، ٣٥ من أسئلة الاستمارة) .

الا أن الضباط أكثر شعورا بالرضا عن " سهولة الاتصال بالأهل عند الحاجة " (السؤال رقم ٣٧ من الاستمارة) .

رابعا : نتائج متصلة بالخدمة العسكرية :

١ ـ نـوع الخدمة :

أ ـ تبين من اختبار كا^2 ومعامل التوافق وجود علاقة ذات دلالة مرتفعة (تتجاوز ٩ر٩٩٪ فى مستوى الثقة فيها) بين " نوع الخدمة " وبين " الدرجة على مقياس الروح المعنوية " .

ب ـ وسعيا الى القاء مزيد من الضوء على نوع هذه العلاقة واتجاهها تمت المقارنة بين أعلى ٢٥٪ من أفراد العينة الكلية وأدنى ٢٥٪ منها على مقياس الروح المعنوية وذلك من حيث " نوع الخدمة " فتبين التالى :

(١) أن نسبة الضباط العاملين " داخل المجموعة مرتفعة الروح المعنوية أقل من نسبتهم داخل المجموعة منخفضة الروح المعنوية ، والفرق بين هاتين النسبتين من الناحية الاحصائية يشير الى أن الضباط العاملين ذوى الروح المعنوية المنخفضة أكثر من الضباط العاملين ذوى الروح المعنوية المرتفعة (عند مستوى ثقة = ٩ر٩٩٪) .

(٢) أن نسبة الضباط " الاحتياط " والمكلفين ، والفنيين داخل مجموعة منخفضى الروح المعنوية أكثر منها داخل مجموعة مرتفعى الروح المعنوية ، وان كانت الفروق بينهما لم تصل الى حد الدلالة الاحصائية .. وعلى العكس من ذلك بالنسبة للضباط " الشرفيين " فعند حساب متوسط درجاتهم على مقياس الروح المعنوية تبين أنها أعلى من متوسط باقى الضباط .

(٣) ان نسبة المجندين من الدرجات الأخرى فى مجموعة مرتفعى الروح المعنوية أعلى من نسبتهم فى المجموعة المنخفضة .

(٤) أن نسبة الدرجات الأخرى من الاحتياط المستبقين ومن المتطوعين أعلى داخل مجموعة مرتفعى الروح المعنوية منها داخل مجموعة منخفضة الروح المعنوية (وان كانت الفروق بين النستبين لم تصل الى حد الدلالة الاحصائية) .

٢ ـ السـلاح :

(أ) تبين باستخدام الطرق الاحصائية للتحقق من وجود علاقة بين كل من " السلاح " و " الروح المعنوية " اثبات وجود هذه العلاقة بفرق ذى دلالة .

(ب) وسعيا الى القاء الضوء على نوع هذه العلاقة واتجاهها تمت المقارنة بين توزيع الافراد فى الاسلحة المختلفة داخل كل من مجموعة مرتفعى الروح المعنوية (أعلى ٢٥٪ من العينة الكلية) على مقياس الروح المعنوية ، ومنخفضى الروح المعنوية (أدنى ٢٥٪ من العينة الكلية) ولم توجد فروق ذات دلالة احصائية بين نسب الافراد داخل المجموعتين سوى بالنسبة لافراد " المشاة " حيث وجد أن نسبتهم

داخل المجموعة المنخفضة أعلى من نسبتهم داخل المجموعة المرتفعة (عند مستوى ثقة = ٩ر٩٩٪) .

٣ ـ مدة الخدمة بالوحدة الحالية :

بحساب معامل الارتباط بين كل من " مدة الخدمة بالوحدة الحالية " ، و " الدرجة على مقياس الروح المعنوية " تبين عدم وجود ارتباط بينهما ، ويعنى ذلك أن مدة الخدمة بالوحدة الحالية (فى ذاتها) لاعلاقة لها بارتفاع أو انخفاض الروح المعنوية .

خامسا : العلاقة بين الروح المعنوية وعدد من البيانات الشخصية والاجتماعية :

١ ـ التعليم :

(أ) باختبار وجود علاقة بين الدرجة على مقياس الروح المعنوية " ومستوى التعليم " (عن طريق حساب كل من كا٢ ومعامل التوافق) ، تبين وجود علاقة ذات دلالة بينهما (بدلالة تتجاوز ٩ر٩٩٪ فى مستوى الثقة فيها) .

(ب) وسعيا الى القاء مزيد من الضوء على نوع هذه العلاقة واتجاهها تمت مقارنة أعلى ٢٥٪ من أفراد العينة الكلية فى مستوى الروح المعنوية بأدنى ٢٥٪ منها من حيث " التعليم " فتبين أن نسبة ذوى التعليم المرتفع (مؤهل عالي ومؤهل متوسط) داخل أعلى مجموعة فى الروح المعنوية أقل من نسبتهم داخل أقل مجموعة فى الروح المعنوية ، وعلى العكس من ذلك فان نسبة ذوى التعليم المنخفض (أمى ويقرأ ويكتب) داخل أعلى مجموعة فى الروح المعنوية أكبر من نسبتهم داخل أدنى مجموعة فى الروح المعنوية (بدرجة ثقة = ٩ر٩٩٪) .

(جـ) بمقارنة استجابات الأفراد ذوى المؤهلات العليا والمتوسطة باستجابات الأفراد ذوى المستويات التعليمية المنخفضة على كل بند من بنود مقياس الروح المعنوية تبين أن الافراد منخفضى التعليم (أمى ـ يقرأ ويكتب) اكثر ارتفاعا من الأفراد ذوى المؤهلات العليا والمتوسطة فى الجوانب التالية من مكونات الروح المعنوية :

(١) " التوحد مع الأهداف التى تسعى لتحقيقها القوات المسلحة والوحدة التى يعمل بها الفرد والتحمس لها والاستعداد لبذل اقصى الجهد باصرار لتحقيق هذه الأهداف مهما كانت الظروف التى يتعرض لها الافراد فى الوحدة (الاسئلة أرقام : ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ١٠ ، ٣٤) .
(٢) " الثقة فى كفاءة التدريب الذى يتلقاه الأفراد داخل الوحدة ، والشعور بكفاءة الوحدة ومقدرتها القتالية ، وأنها تستطيع تنفيذ مهامها بكفاءة عالية (الاسئلة أرقام : ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٢١) .
(٣) " الثقة فى كفاءة القيادة المباشرة " والشعور بكفاءة القائد ومقدرته على قيادة الوحدة بنجاح (السؤالان ١٤ ، ٣٢) .
(٤) الرضا عن العمل داخل الوحدة ، والرضا عن العمل الذى يقوم به الفرد ومناسبته لقدرته الشخصية ولرتبته ، والرضا عما يتقاضاه من اجور ومرتبات ومايقدم له من خدمات مادية واجتماعية (الاسئلة أرقام : ٣ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠) .
(٥) الرضا عن العلاقات الانسانية داخل الوحدة ويتضمن الرضا عن العلاقة بالزملاء ومعاملة القادة وإهتمامهم بالافراد وقيادتهم من النواحى الاجتماعية والانسانية (الاسئلة أرقام : ٨ ، ٩ ، ٢٣ ، ٣٥ ، ٣٧) .
(٦) الشعور بتقدير المدنيين للجهود التى تقوم بها القوات المسلحة (السؤال رقم ٤٢) .

٢ ـ مستوى الذكاء :

أ ـ بحساب معامل الارتباط المستقيم بين درجة الذكاء والدرجة على مقياس الروح المعنوية ، تبين وجود ارتباط سلبى بينهما (عند مستوى ثقة فى دلالته الاحصائية = ٩٩٫٩٪) بمعنى أنه كلما ارتفع مستوى ذكاء الفرد كلما قلت درجته على مقياس الروح المعنوية .
ب ـ وبمقارنه متوسط الذكاء لدى كل من المجموعتين المتطرفتين فى الروح المعنوية (أعلى ٢٥٪ وأدنى ٢٥٪ من العينة على مقياس الروح

المعنوية) تبين أن متوسط ذكاء المجموعة المرتفعة على مقياس المعنوية أقل من متوسط ذكاء المجموعة المنخفضة عليه (عند مستوى ثقة = ٩ر٩٩٪) .

٣ ـ المعلومات العسكرية والقومية :

(أ) بحساب معاول الارتباط بين " مقياس المعلومات العسكرية والقومية ، و " مقياس الذكاء " تبين وجود ارتباط ايجابى بينهما (عند مستوى ثقة فى دلالته الاحصائية = ٩ر٩٩٪) بمعنى أنه كلما زادت درجات الافراد على مقياس الذكاء كلما زادت معها حصيلتهم من المعلومات العسكرية والقومية (كما يقيسها الاختبار) .

(ب) بحساب معامل الارتباط بين مقياس المعلومات العسكرية والقومية ، وبين الدرجة على مقياس الروح المعنوية ، تبين وجود ارتباط سلبى بينهما (عند مستوى ثقة فى دلالته الاحصائية = ٩ر٩٩٪) بمعنى أنه كلما زادت حصيلة الفرد من المعلومات العسكرية والقومية ، كلما قلت درجته على مقياس الروح المعنوية .

(جـ) كذلك تبين أن منخفضى الروح المعنوية أكثر الماما بالمعلومات العسكرية والقومية (كما يقيسها اختبار المعلومات) عن المجموعة المرتفعة فى الروح المعنوية (بدرجة ثقة = ٩ر٩٩٪) .

٤ ـ العمر بالسنوات :

لم توجد علاقة بين العمر بالسنوات وبين الدرجة على مقياس الروح المعنوية .

٥ ـ الديانة :

تلاحظ عدم وجود فروق احصائية بين حالة الروح المعنوية لدى المسلمين والمسيحيين بالعينة الكلية وجميع أقسامها .

٦ ـ اجمالى الدخل :

تمت مقارنة مجموعة مرتفعى الروح المعنوية (أعلى ٢٥٪) بمجموعة منخفضى الروح المعنوية (ادنى ٢٥٪) على مقياس الروح

المعنوية على أساس اجمالى الدخل الشهرى لأفراد كل مجموعة فتبين مايلى :

(أ) - أن نسبة تواجد فئات الدخل المنخفض (من جنيه واحد - ٢٠ جنيها) داخل مجموعة مرتفعى الروح المعنوية أكبر من تواجدها داخل مجموعة منخفضى الروح المعنوية .

(ب) تزداد نسبة تواجد الافراد داخل مجموعة منخفضى الروح المعنوية ، كلما ارتفع مستوى دخلهم (أكثر من ٢٠ جنيها) .

وتتفق هذه النتيجة بوجه عام مع ماسبق أن حصلنا عليه من نتائج خاصة بالرتبة والتعليم .

٧- المهنــة :

(أ) تبين من حساب كا[٢] ومعامل التوافق وجود علاقة بين المهنة والروح المعنوية .

(ب) وسعيا الى معرفة نوع هذه العلاقة واتجاهها تمت مقارنة أعلى ٢٥٪ من العينة الكلية بأدنى ٢٥٪ على مقياس الروح المعنوية على أساس المستوى المهنى لكل مجموعة فتبين أن المستويات المهنية الدنيا (العمال غير المهرة - العمال انصاف المهرة - والعمال المهرة) موجودة داخل المجموعة المرتفعة فى الروح المعنوية بنسبة أعلى من نسبة وجودها داخل المجموعة المنخفضة فى الروح المعنوية ، وعلى العكس من ذلك فان أصحاب المهن العليا يتواجدون داخل المجموعة المنخفضة فى الروح المعنوية بنسبة أعلى منها داخل المجموعة المرتفعة .

٨ - نوع الحياة الاسرية :

تبين بوجه عام أن الافراد الذين يعيشون حياة أسرية يغلب عليها طابع التكافل الاجتماعى تضم زوجاتهم وأولادهم والابوين أو الاخوة أو أحد الاقارب روحهم المعنوية مرتفعة عن غير المتزوجين والذين يعولهم آباؤهم والذين يعيشون بمفردهم أو مع زوجاتهم وأولادهم فقط .

٦ ـ مواطن النشأة ومحل الاقامة الحالى :

تبين أن الافراد ذوى الطابع الريفى (سواء من حيث مواطن النشأة أو محل الاقامة الحالى) أعلى فى مستوى الروح المعنوية من الافراد الذين يغلب عليهم طابع المدنية أو (الحضر) كما أن نسبة (الريفيين فى المجموعة مرتفعة الروح المعنوية أعلى منها فى المجموعة المنخفضة ، والعكس بالنسبة للحضريين .

سادسا : دوافع القتال :

١ ـ تبين من دراسة ترتيب دوافع القتال حسب أهميتها لدى الافراد على مستوى عينة البحث ان " **الجهاد فى سبيل الله** " هو الدافع الاول للقتال حيث بلغت نسبته (٣٨٪) من مجموع العينة الكلية يليه " **الرغبة فى تحرير الارض المحتلة** " بلغت نسبته (٣٤٪) ثم " **حماية العرض والشرف** " (١٨٪) ، ثم **اعطاء المثل والقدوة من القائد فى الاقدام على القتال** " (١٤٪) .

٢ ـ كما تبين أن " **فهم الافراد لمطامع العدو واهدافه** " و " **رغبتهم فى حماية المكاسب التى حققها المجتمع** " لم تعتبر دوافع للقتال الا لدى (٣٪ ، ٢٪) فقط من أفراد العينة الكلية ؛ وقد يعكس هذا عدم الفهم الكافى من جانب الافراد لكل الجانبين الاخيرين مما أدى الى عدم ارتقائهما الى مستوى الدوافع الاخرى للقتال لدى الافراد .

٣ ـ لم يختلف الترتيب السابق لدوافع القتال حسب أهميتها لدى الأفراد على اختلاف فئاتهم بالعينة (من حيث التعليم والرتبة ونوع الخدمة .. الخ) كما لم يختلف بين كل من مرتفعى الروح المعنوية ومنخفضيها .. ولعل ذلك أن يرجع الى أن ادراك الأفراد لترتيب أهم دوافع القتال فى رأيهم يتبع نمطا اجتماعيا شائعا فى المجتمع المصرى بوجه عام ، مما لايعكس فى حد ذاته الظروف الفعلية التى تدفع الافراد الى بذل أقصى جهد فى أداء واجبهم من عدمه (فى ضوء النتائج السابقة) كما تبين لنا ـ مثلا ـ وجود فروق فى الروح المعنوية بين مستويات التعليم المختلفة أو مستوى الرتب المختلفة .

وقد يكشف هذا أيضا عن أن وسائل وأساليب تعبئة دوافع القتال المستخدمة حتى اجراء البحث لم تبرز أحد الدوافع ـ أو هدد من الدوافع ـ فى ادراك الفرد ووعيهم بصورة تجعله يؤثر فى ارتفاع الروح المعنوية ويميز بين مرتفعى الروح المعنوية ومنخفضيها .

خاتمـــة

١ ـ التعليق على النتائج :

(أ) ان التجربة الرائدة المتمثلة فى اجراء هذا البحث والتعاون البناء الذى تم بين القوات المسلحة (متمثلة فى ادارة التوجيه المعنوى) والجهات العلمية فى الدولة (متمثلة فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) تفتح الأمل لمزيد من البحث والدراسة للظروف التى من شأنها تفجير اكبر قدر من الطاقات الانسانية التى لدى أفراد قواتنا المسلحة فى مختلف الظروف من أجل تحقيق أكبر قدر من كفاءتها ، خاصة وأنه قد تبين من البحث أن الروح المعنوية تتمثل على حقيقتها فى عدد من الظروف الواقعية التى يعايشها ويلمسون أثرها مثل :

(١) الثقة فى كفاءة القيادة العسكرية على اختلاف مستوياتها .
(٢) الثقة فى التدريب .
(٣) ملاءمة العمل للقدرات الفردية .
(٤) الرضا عن العلاقات الانسانية داخل الوحدة .
(٥) اتساق السلوك الفعلى داخل الوحدة وعلى مستوى القوات المسلحة مع الأهداف الرسمية المحددة .

(ب) وبقدر ارتفاع نصيب الأفراد من التعليم والذكاء والمعلومات القومية والعسكرية و .. الخ بقدر مانتوقع منهم أن يتفاعلوا مع الأهداف العامة اذا كانت متسقة مع الظروف الفعلية التى يعايشونها ويتفاعلون معها لأنهم اكثر ادراكا لمدى هذا الاتساق .. ولما كنا قد حصلنا من خلال دراستنا على نتائج تشير الى أن عددا من الصفات العسكرية والشخصية التى تعتبر أصحابها طاقات يمكن الانتفاع بها

فى تدعيم جوانب القوة فى المجتمع العسكرى مثل :
(١) الرتبة المرتفعة .
(٢) التعليم المرتفع .
(٣) الذكاء المرتفع .
(٤) الالمام بالمعلومات القومية والعسكرية .
(٥) العمل فى مهن ووظائف مرتفعة وقيادية .
(٦) النشأة أو الاقامة فى المجتمع الحضرى .
(٧) ارتفاع مستوى الدخل .

اتضح أنهم أكثر إنخفاضا فى الروح المعنوية .. مما يشير الى بعض جوانب اضعف التى يراها هؤلاء الأفراد أكثر من غيرهم ، الأمر الذى يتطلب اهتماما خاصا بهذه الجوانب .

٢ - المقترحات :

أنه فى ضوء نتائج البحث السابقة تقترح هيئة البحث دراسة المشكلات التالية دراسة علمية من أجل ايجاد الحلول الملائمة لها :

(أ) العوامل التى تؤدى الي جعل الروح المعنوية لأفراد القوات المسلحة بالجبهة أقل منها لدى القوات المتمركزة خارج الجبهة (وخاصة بالمنطقة الشمالية العسكرية) .

(ب) العوامل التى تجعل القوات البرية بالجيوش الميدانية أقل فى مستوى روحها المعنوية من باقى القوات البرية خارج الجبهة (وخاصة بالمنطقة الشمالية العسكرية) .

(جـ) العوامل التى تجعل الضباط بوجه عام - فيما عدا الشرفيين منهم - أقل فى روحهم المعنوية من الدرجات الأخرى .

(د) القاء الضوء على العوامل التى تخفيض من الروح المعنوية .. وتقلل من فعالية كل من ذوى الدرجات المرتفعة فى التعليم ، والمعلومات العسكرية والقومية - والذكاء ، والمهن المرتفعة ، والدخل المرتفع (٢٠ جنيها فأكثر) على الرغم مما يمكن أن تبذله هذه الفئات من جهد خلاق يعود على القوات المسلحة بأكبر الفوائد .

(هـ) العوامل التى من شأنها تعبئة دوافع للقتال بطريقة فعالة تجعلها

بارزة، في ادراك الأفراد ووعيهم بصورة تؤثر في ارتفاع الروح المعنوية ، وتحفز على بذل أقصى جهد في أداء الواجب .

٣ ـ صعوبات عطلت سير العمل بالبحث :

رغم أنه قد أمكن التغلب على الصعوبات التي واجهت سير العمل بالبحث ، الا انه سعيا الى عدم تكرار مثل هذه الصعوبات في بحث تال يمكن أن يتم في وقت أسرع ، نذكر أهم الصعوبات التالية :

أ ـ عدم تعاون بعض القادة والمسئولين في بعض الوحدات .

ب ـ صعوبة الانتقال والحركة داخل الوحدات لجميع البيانات من أفراد العينة بسبب تفرقهم في أماكن عديدة ومتباعدة من ناحية ، وعدم توفر وسائل للانتقال مع هيئة البحث في معظم الظروف .

جـ ـ تعطيل الحصول على بعض البيانات الأساسية التي كانت لازمة لتحديد إطار عينة البحث .

د ـ صعوبة تفرغ عدد من الباحثين الميدانيين الذين اختيروا من بين المتخصصين في الدراسات النفسية والاجتماعية من أفراد القوات المسلحة .

ولايسعنى وقد تم هذا التقرير الا أن أذكر أن اعضاء هيئة البحث كانوا يعملون متعاونين في صمت وسرية وفي استقلال . لم يتدخل في شئون أعمالهم احد من داخل المركز أو من خارجه . ومن ثم اتيحت الفرصة لي أن أقود الهيئة كفريق .

وعلى الرغم من كل الصعوبات التي ذكرت ـ والتي لم تذكر ـ فان هيئة البحث لايسعها الا أن تتقدم بخالص الشكر والتقدير لكل من عاونها على انجاز مهمتها على خير وجه ، وتلبية مطالبها بهذا القدر من الكفاءة التي ساعدت على اكتمال البحث بهذه الصورة .

١١ - الغيرة المهنية

لم أسمع عن مفهوم « الغيرة المهنية » إلا فى حجرات الدراسة . سواء كانت هذه الحجرات حجرات الدراسة العالية او الدراسة العليا : لم أع معناه إلا فى هذه الاماكن . فقد لاحظ أن المدرس أو الاستاذ يدخل بعد زميله ليلقى درسه أو محاضرته وتراه يقارن بينه وبين هذا الزميل دون ما مناسبة تقتضى هذه المقارنة ، وتراه يكاد أن يذم زميله ويمدح نفسه ، ونحن الطلبة والطالبات كنا نقف موقف المحايد عند سماع هذا الفعل الذميم خصوصا اذا كنا ندرس فى داخل البلاد ، واننى لا أعمم وذلك لان البعض منا كان يتقرب الى استاذ بعينه أو اساتذة بعينهم فينقل اليه أو اليهم مايذكر فى حقه أو فى حقهم من زميل لهم أو زملائهم الآخرين .

وبان لى بوضوح ، عندما كنت ادرس فى الخارج ، ان ابناء بلدى الذين لهم صلة اذ يتعاملون مع بعضهم ومعى تسود هذه المعاملة بعض الخلال . منها بل اهمها خلة « الفردية » كان ذلك منذ حوالى الاربعين عاما وقت كتابة هذه السطور . وكنت فى ذلك الحين أتساءل عن عوامل هذه الفردية بين أبناء بلدى « الغرباء » وقلت فى نفسى ربما ان يكون من عواملها مايسميه البعض « عقدة الخواجة » فنحن المصريين لكى ننال الخطوة عند « الخواجات » الذين نتعامل معهم كمطلب من المطالب الضرورية ، نسعى جاهدين فى سبيل ذلك ولو كان على حساب بعض القيم الجماعية ذات الاهداف الحميدة التى يزخر بها مناخ مجتمعنا المصرى الثقافى .

ومما شجعنى على الاخذ بهذا الرأى مالاحظته من سلوك هؤلاء الخواجات أنفسهم ومايهدف اليه هذا السلوك من هدم قيم التكافل والتعاون والتعاضد بين المصريين (الاجانب) والتعميم فى مثل هذه الموضوعات شيء لايقره العقل الرشيد . فالاستثناء كان مافى ذلك من شك قائما . وحتى خلة الفردية ككل شيء فى الدنيا ، كما يعلم القارىء ، لايمكن أن تكون شرا مطلقا . ان شرها يتوقف بالضرورة على مواقف اجتماعية معينة . وان خيرها يتوقف كذلك بالضرورة على مواقف إجتماعية أخرى . ولن يكون هذا الخير أبدا على حساب ماهو خير . اى ان المسألة هى فى حقيقة الامر مسألة نسبية . وعندما عشت فى احد المجتمعات العربية حيث يوجد مصريون وغيرهم من البشر ، وحيث كان الجميع يحاول ان يكسب من خيرات هذا المجتمع ما استطاع الى ذلك سبيلا لاحظت خلة الفردية فى صفوفا معظمهم . أقصد الفردية التى تيسر سبيل الشر اكثر من سبيل الخير ، وتذكرت ماكان يحدث فى الماضى عندما كنت طالبا فى الخارج . وقارنت بين الموقفين . ان العقدة فى هذا المجتمع العربى لايمكن ان تكون عقدة الخواجة ، وانما هى عقدة أخرى .. عقدة صاحب العمل الثرى . والثراء كما معروف يمثل سلطانا معينا ، والخواجة فى ماضى حياتنا كان أيضا يمثل سلطانا آخر معينا . إذن المسألة هى مسألة الذى يمثله الاستعمار أو يمثله المال ، وأضيف الى ذلك السلطان الذى يمثله « المنصب » والملاحظ ان السلطان المادى أو المعنوى (اذا كان المنصب روحيا مثلا) من أهم عناصر المكانة الاجتماعية العالية فى مجتمعنا . ونحن فى ضوء الوان الظلم القائم الذى عانيناه فى الماضى ونعانيه فى الحاضر ، اقصد ماعاناه اجدادنا وآباؤنا والعديد من الكادحين المكافحين من أعضاء مجتمعنا فى الوقت الراهن ، نرهب السلطان ونخشاه ، فـ « السلطان هو البعيد عن السلطان » و « ربنا مايحكمش على غلابة » و « اذا كان دراعك عسكرى اقطعه » و « الميه ماتجريش فى العالى » و « العين ماتعلاش على الحاجب » كلها امثال تعيش فى مناخ مجتمعنا المصرى لاتزال وهى اذ تؤكد الرهبة او الخشية فى نفوس الاغلبية من اعضاء مجتمعنا ، تشجع فى الوقت

نفسه محاولة الاستفادة منها لصالح هؤلاء الاعضاء الشخصى ، والصالح الشخصى كهدف لهم يعنى ان يتقوا شرور السلطان أو يعنى محاولة نيل الخطوة عنده ولو كان ذلك على حساب بعض القيم الجماعية ذات الاهداف الحميدة التى يزخر بها مناخ مجتمعنا العصرى الثقافى ، ويصبح الواحد منهم فى مثل هذه المواقف يرى نفسه ، حتى لو كانت هذه الرؤية زيفا وبهتانا ، سلطانا !

كان يدور فى ذهنى كل هذه الافكار كلما حدث مالم اكن أتوقعه من شر فى المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية . فالمركز ماهو الا جزء من المجتمع المصرى عند انشائه وبعد انشائه وحتى الآن أى وقت كتابة هذه السطور . وقد علمتنى الحياة منذ أن واجهتها وحدى أى منذ وفاة أبى فى شهر يناير عام ١٩٣٠ ، أى لما ابلغ سن السابعة عشرة من عمرى وأنا أدير « الوكالة » ثم وانا اعمل فى « مصلحة الحدود » ثم وأنا أدير « مؤسسة الزفاف الملكى » ثم وأنا أدير « معسكر الاطفال » بكوم امبو ثم عندما أصبحت مديرا ل « مكتب الخدمة الاجتماعية لمحكمة الأحداث » ثم وانا أعمل ب « مصلحة الخدمات » بوزارة الشئون الإجتماعية . ثم عندما انتدبت لأعمل كخبير اجتماعى كل الوقت فى مجلس الوزراء ثم عندما انتبدت لاعمل بعض الوقت ب « جمعية الخدمات الاجتماعية بحى بولاق » وحتى عندما كنت أسافر الى الخارج فى صحبة بعض الزملاء لحضور مؤتمرات - علمتنى الحياة ، وقد سبق أن ذكرت ذلك واعتذر للتكرار ، ان الصراع بين الخير والشر موجود مادامت الحياة . وقد اكد المركز فى ضوء العلم هذه الحقيقة ، ومن ثم كنت ومعى زميلاتى وزملائى المخلصون العاملون بالمركز نعيش فى التفاؤل ويعيش فينا التفاؤل كلما اتاحت الظروف غير المواتية بالمركز للشر أن يبدو منتصرا كان باب الامل فى القضاء على هذا الشر مفتوحا دائما .

وقد تأكد لدى ان « كل ابن ادم خطاء » كما تأكد أيضا عندى « أن أعقل الناس أعذرهم للناس » فقد نالنى من زميلاتى وزملائى رذاذ البغض ربما الحقد أحيانا . وأنا لا أبرىء نفسى وادعى النقاء ، ولكنى

ادعى أننى إذا أخطأت فلم يكن خطئى أبدا عن عمد . وكنت أتسامح اذا أهاننى أحد منهم . ولن أنسى أحدهم وكان ومازال يؤدى دور الذين يلبسون مسوح الرهبان ويلتحف سترة الذين يعملون الصالحات . وقد أتقن هذا الدور والحق يقال ولكن :

ومهما تكن عند أمرىء من خليقة ..
وان خالها تخفى على الناس تعلم

كان هذا الرجل ، كما تقول عنه زوجتى انه يمارس النميمة مثل « الستات » لاتقول له شيئا الا ونقله لصاحب الشأن تقربا وزلفى . كان لايرعوى أن يقول شيئا لكى يعرف أشياء ، لكى كما كان يتصور يرتفع الى أعلى . كان يدعى العلم ولا علم لديه سوى القشور التى يفيدها من غيره ممن يستقطبهم من الزميلات والزملاء الذين يعلمون اكثر وأفضل . والزميل الآخر الذى انتهز فرصة وجود قلة من الزملاء فى بيته ليحدثنى تليفونيا وينهال على بالشتائم التى لا أول لها ولا آخر ولم اكن لأرد عليه فقد كان يحدثنى وانا فى منزلى وأتشرف بوجود ضيوف أغراب عندى . وأغلقت التليفون وكأن الطالب قد أخطأ الرقم . وأننى اذكر أننى عندما ذهبت فى اليوم التالى الى المركز وجلست فى حجرتى لفت نظرى واحد من الذين كانوا يسمعون ويشاهدون مافعله هذا الزميل . كان هذا الواحد يسير أمام حجرتى وكان بابها مفتوحا كما تعودت أن يكون كذلك . كان يسير جيئة وذهابا وكأنه كان يقول لى انه حضر واقعة قذائف الشتم التى وجهت لى من الزميل المذكور ، وعندما ناديته أقر بذلك وذكر أسماء من كانوا من الحاضرين .

ولعلنى أذكر احد الزملاء الذى ساعدته ما استطعت بكتبى وبوقتى لكى يكمل درجتى الماجستير والدكتوراه . فلما أكملهما وأصبح يلقب بـ « الدكتور » وجدته شخصا آخر . وذلك لانه عندما قام بترجمة مقال باللغة الانجليزية إلى اللغة العربية ، وكان قد وقع كاتب المقال باسم « استاذ مجهول » (Ananymous Professor) فما كان من

كاتبه يدعى « برفسور انونيمى » فلما وجهت نظره الى هذا الخطأ أبى الا ان يقاطعنى الى الدرجة التى كنت اذا قابلته وانا فى طريقى الى حجرتى وألقيت عليه التحية فلا يرد تحيتى .

وهل أنسى زميلتى التى لم أكن قد قابلتها منذ فترة غير قصيرة ، فلما قابلتها انشرح صدرى وابتسمت بأخوة وبمحبة ابتسامة عريضة ، ثم مددت لأسلم عليها فامتنعت عن السلام . وياويلى عندما حدث ذلك كبت مشاعرى وعجبت من سلوك هذه السيدة التى كنت الوساطة الوحيدة لتتزوج من زميل بالمركز وكنت الشخص الوحيد الذى دعى الى حفلة خطبتها .. وساءلت نفسى عن السبب أو الاسباب التى جعلتها تفعل مافعلت ، فلم اجد اجابة مقنعة فى ذلك الحين وحتى كتابة هذه السطور .

ولن أنسى ماحييت البحث الذى أشرفت عليه منذ يوم الثلاثاء ٢٣ من شهر نوفمبر عام ١٩٦٥ عندما عقد اول اجتماع له . كان موضوعه من اختيارى ووافقت ادارة المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية مشكورة على ان اشرف عليه . وكنا زميلاتى وزملائى وانا نعقد اجتماعات هذا البحث اسبوعيا فى المساء ، وكنت أشرف على هذا البحث منذ تاريخ البدء فيه حتى يوم السبت ١٤ من شهر سبتمبر عام ١٩٦٨ ، وتركت الاشراف لسفرى خارج البلاد ، ثم عدت فماذا وجدت ؟ اشرف على هذا البحث أحد اعضائه الذى ضممته الى هيئة البحث فى يوم الاربعاء من شهر اكتوبر عام ١٩٦٧ . ورأيته قد استولى عليه وكأنه اصبح ملكا له . وكنت مريضا لاننى عدت من الخارج مريضا فلم آبه لما فعل . ومع ذلك فقد جاءنى هذا الزميل الذى أصبح مشرفا على بحث بدأته وكان موضوعه من اختيارى وكان من البحوث الرائدة ، جاءنى يلتمس معونتى لوضع خطة لكتابة التقرير النهائى لان همى الاول أن يخرج البحث الى النور ، وتم وضع الخطة التى تضمنت كتابة الجزء المتعلق بمنهج البحث الذى كان من نصيبى أن أتولى كتابته .

ولم أتول شيئا لان المشرف الجديد لم يطلب منى شيئا بل فاجأ هيئة البحث بالتقرير النهائى مكتوبا وشجعته ادارة المركز بأن اجزلت له العطاء مكافأة له ، وكانت تعلم علم اليقين بأنه قد استغرقت مدة أشرافه على البحث أقل من عام واحد ، وكانت مدة اشرافى عليه أكثر من ثلاثة أعوام .

وفعل نفس الشىء أو ربما أسوأ منه زميل آخر . فقد كنت المشرف على أحد البحوث ولم أغادر القاهرة الى الخارج أو الى المصيف فى فترة الاجازات السنوية . وحضرت كل اجتماع عقد لهذا البحث ، ووضعت خطة كتابة تقريره النهائى ، وعندما كتبه الزميل فى ضوء هذه الخطة أشرفت على نسخه بعد تصحيحه لغويا وهجائيا . ثم كتبت كمشرف على البحث التقديم وذكرت الجهود الذى بذلها الزميلات والزملاء ومنهم الزميل المذكور فماذا حدث؟ اعتبر الزميل ، على الرغم من أنه كتب التقرير تحت اشرافى الدقيق المستمر منذ اللحظة الأولى حتى طبعه ، ان البحث بحثه وأنه قام به وحده . لم ير الا ذاته ونسى جهود الآخرين . ولم ألق بالا بكل مافعل لان احدى الزميلات فى اليوبيل الفضى للمركز (شهر مارس عام ١٩٨٢) كانت عندها الامانة العلمية لتعطى كل ذى حقه . ومن حسن حظ مهنة البحث العلمى الاجتماعى أن ترك الزميل (السابق) المركز ليعمل بالجامعة وبقيت الزميلة ترحب بها مهنة البحث العلمى وتهنئها وترجو لها التوفيق والسداد .

وليعذرنى القارىء الكريم اذ أضطر الى أن أتذكر أبناء « مؤسسة الزفاف الملكى » أو أبناء « معسكر كوم امبو » كنت قد عملت معهم وبهم ولهم فترة حوالى خمسة أعوام (مايو عام ١٩٣٩ - ديسمبر عام ١٩٤٣) فقط . وكانت هذه الفترة حاسمة فى حياتى . لم أكن أملك عطاء لهم سوى الحب والاحترام . تماما كما كنت لا أملك عطاء لزميلاتى وزملائى أعضاء « المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية » الذى كان « المعهد للبحوث الجنائية » سوى الحب والاحترام . ولكن شتان مابين ردود فعل الفريقين أو معظم أعضاء الفريقين . كانت قيمة الوفاء بارزة بروزا واضحا عند الفريق الاول

اقصد فريق أبناء المؤسسة والمعسكر اذا مررت فى أحد الشوارع أجد من يجرى ورائى وهو يلهث لكى يتفضل على بالتحية . واذا كنت أجلس فى مقهى أجد « الساقى » يطلب منى أن أختار « مشروبا » على حساب أحد الجالسين الذى يلبس « البذلة العسكرية » التى تدل على أنه ضابط فى الجيش المصرى وعندما أراه أتذكر ملامح وجهه وان كنت قد نسيت اسمه فنتقابل ويذكر لى اسمه بصوت خافت فاذا بذاكرتى ترجع الى الوراء سنينا طوالا وأراه فى مواقفه العديدة التى كان عليها فى المؤسسة أو فى معسكر كوم امبو . وتجد الواحد من هؤلاء يزورنى فى منزلى فى الاعياد وأعيش معه حياته التى يعيشها . وقد يصحب آخر فى زيارته لى معه ابنا له أو ابنة أو زوجة أو صديقا ، وتجد آخر يتذكر يوم عيد ميلادى فيرسل لى مجرد « كارت معايدة » يكتب فيه كلمات كريمة صادقة وان كانت تبدو ساذجة ، على عكس من يرسل من بعض أبناء المركز « كرتات معايدة » سطورها تلمع بعبارات يطل من بينها الزيف والبهتان .

وأقصد بمفهوم « الوفاء » النفور من الغدر والبعد كل من أن تداس الفضائل فى سبيل المنفعة العاجلة . أى صفاء النفس والمعاملة بالجميل ، ومن ثم لاتنطوى دخائل الناس على هذه النيات المغشوشة .

كان ابناء المؤسسة ومعسكر كوم امبو من أبناء مصر المحرومين . وكان بعضهم من الذين ارتكبوا صورا من الجرائم التى ينص عليها قانون العقوبات المصرى . على عكس أبناء المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية ، فقد كانوا من المؤهلين الذين يحاولون ، ان كانوا صادقين ، أن يواجهوا محاولة القضاء على وجود هؤلاء وتنقية المجتمع المصرى منهم . ولكن هذه هى الحياة بحلوها ومرها وبمن فيها من أخيار ومن أشرار .

وقد علمت منذ فترة أن أحد زملائى العلميين من المستوى الاعلى قد أرسل الى جهات الأمن المسئولة المذكرة تلو المذكرة يتقول علىّ فيها الاقاويل وكان منها ان اعضاء المركز العلميين من المستوى الاقل

يلتفون حولي . وانني احاول أن استقطبهم وأنفث في صدورهم الافكار المستوردة التي تناهض الحكومة في ذلك الحين . وكان يستشهد على ذلك بأن أحد أقربائي كان مسجونا سياسيا ، وأنني كنت أستقبل الصحفيين من أصحاب الشبهات وغير ذلك من الاقاويل التي لم تستند الا على الحقد أو على الوهم والزيف . ودهشت كثيرا لسلوك هذا الرجل عندما علمت عن سيل المذكرات التي كان يرسلها الى جهات الأمن المسئولة وتذكرت ماكان يحدث بيننا من مناقشات . كنت أقول لهذا الزميل اذا اختلف معي على رأى ما أو اختلف مع غيرى على وجهة نظر معينة : ان من حق كل انسان ان يختلف مع الآخرين ، وان المركز قد علمنا قبل ان تعين ادارته أحد خبرائه أن نختلف ، ولكن العبرة ان يكون اختلافنا في الدرجة وليس في النوع . وكنت اتمسك بهذا الرأى . أما صاحبنا فقد كانت تأخذه العزة بالاثم ، ومن ثم لم يرعو عن ارسال المذكرة تلو المذكرة ضدى دون ذنب اقترفته أو جريمة ارتكبتها . ومن العجيب وليس هذا عجيبا ان هذا الزميل اذا بحثت عنه في « المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية » اليوم لن تجد له أثرا . فقد كان لايرى أحدا في المرآة ، كما يقال الا نفسه ، وكانت « مهنة » البحث العلمي الاجتماعي في غنى عنه وعن من يقتفون أثره .

وانا اكرر أنني لم اكن ملاكا ولا أنا الآن ملاك ولن اكون . ولكني أذكر بعض المواقف التي واجهتها وبعض أنماط السلوك التي صدرت عن الآخرين من الزميلات والزملاء ولن استمر في تعدادهم ابدا فالمواقف عديدة وأنماط السلوك الشائنة كانت انماطا عديدة أيضا . ولعل لهم من ملاحظات على أنماط في ضوء بعض المواقف أو الكثير من المواقف .

فكل له غرض يسعى ليدركه ..
والحر يجعل ادراك المعالي له غرضا

لعل هؤلاء الزميلات والزملاء أن يكونوا قد عرفوا عني بعض ما أعرفه عن نفسي أو ربما كله . أى انهم كانوا قد عرفوا عن طفولتي وعن

أيام شبابى . ولعل ضباط المباحث الذين كانوا يعملون معنا بالمركز نقلوا اليهم أو الى بعضهم عن أقاربى البسطاء . عندما كان هؤلاء الضباط يتحرون عنى توطئة للعمل بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية الذى كان « المعهد القومى للبحوث الجنائية » كان من هؤلاء الاقارب البسطاء . البقال وبائع الخردوات والشباشبى والحلاق والفطاطرى والمنجد ، وكان منهم الفران وخادم المسجد والعامل اليدوى . وقد ضمت عائلتى بالاضافة الى هؤلاء اربعة مدرسين منهم سيدة ، وقد مات منهم اثنان والاخير احيل على المعاش ، وكانوا كلهم من مدرسى المرحلة الاولية . وفى كنف هؤلاء عشت طفولتى وشبابى . واذا كانت لى طفولة فاننى لم أحظ بالعيش السعيد فى مرحلة الشباب . كانت مرحلة معاناة حقا ، وجدت فى خلالها ، بعد ذلك ، نفسى وحدى أواجه الحياة بحلوها ومرها وتواجهنى الحياة بحولها ومرها . وعلى الرغم من أننى ثرت على حياتى الماضية ثورة عارمة ، فاننى ، كما يبدو ، مازلت فى ثورة عارمة فى حياتى بعد ذلك . كانت ثورتى على حياتى الماضية تعنى ثورة على الاوضاع الثقافية والاجتماعية والاقتصادية جميعا . كانت ثورة شخص واحد ضد طبقة بأسرها بمفاهيمها وقيمها وتقاليدها وعاداتها ومثلها العليا فضلا عن مستواها الاقتصادى جميعا . كنت وحدى أحارب فى جبهات عديدة . وعندما بدا لى اننى انتصرت لاحظت بحق اننى مازلت أحارب ومازلت أعانى وأنا اكافح الطبقة التى وضعت نفسى أو وضعنى المجتمع فيها فى الفترة التى وجدت نفسى بين زميلاتى وزملائى بالمركز ، الطبقة الاعلى ـ وكنت أحس بالقلق الى درجة الضياع أو شبه الضياع أحيانا . وحاولت جاهدا أن أعرف عوامل ذلك . وبدا لى أن رائحة شخصيتى وطعمها واهدافها هى على الرغم من كل شىء لاتزال رائحة شخصيتى وطعمها واهدافها التى كونتها الطبقة الاولى ، وانها بلا تحفظ وباستمرار تشى بى فى كل المواقف التى اواجهها مع أعضاء الطبقة الثانية . هؤلاء الاعضاء الذين كان معظمهم من « البرجوازيين » الذين لايرون الا مقدراتهم ومستقبلهم وسلطانهم الا من اكرمهم الله فاحاطهم بان اعظم شىء فى هذه الحياة هو اعظم مفاخرها ، أى هو الانتماء للانسان

طاعته ، وذلك بازاحة ترهاتها وعقباتها من سبيله .

ومهما يكن من الامر فان التعميم هنا ليس من حقى . فعندما بلغت سن الستين فى خلال شهر فبراير عام ١٩٧٣ ، واجهت موقفا صعبا . لم يكن هذا الموقف الصعب هو بلوغى سن المعاش وحده . انما كان لاننى لم اجد موضوعا للبحث يضمه كتابى المقبل ايضا . ان الموضوعات عندى كانت عديدة عديدة . ولكن المشكلة كانت فى اختيار الموضوع الذى آتحمس له واسعد بالغناء فى الكتابة عنه . ان موضوعاتى المفضلة كلها او يجب آن تكون كلها عن مصرنا الخالدة . عن تراثها ، عن ثقافاتها ، عن اتجاهات ابنائها ، عن بعض مشاكلها . وانا عندى من هذه الموضوعات الكثير . ولكن يبدو أننى لم اكن أتحمس لأى منها . وكنت أقول لنفسى وتقول نفسى لى . لماذا لا أتحمس يارب ؟ لم اكن أدرى . ولكن سرعان ماسرى الحماس فى كل ذرة من ذرات كيانى عندما سلمنى الاخ الزميل الاستاذ الدكتور محمد الجوهرى كتابا آلفه مع الزميلة زوجته الاستاذة الدكتورة علياء شكرى والزميل الاستاذ الدكتور السيد محمد الحسينى والزميل الاستاذ الدكتور المغفور له محمد على محمد وموضوعه « دراسات فى التنمية الاجتماعية » وقد آهدوه الى بمناسبة بلوغى سن الستين راجين ان يبارك الله فى عمرى ... الخ . ولم يكن واحد منهم يعمل بالمركز فى ذلك الحين . كانت سعادتى بهذه اللفتة الكريمة لاتقدر وقد طبع هذا الكتاب مرات ومازال يحتفظ بالاهتداء .

وقد زاد من حماسى آن بادر الاستاذ الدكتور احمد محمد خليفة وكان فى ذلك الحين رئيس مجلس ادارة المركز باصدار قرارا بالاحتفاظ بى فى المركز لمدة محدودة تجددت مع مر الايام حتى يوم ١٧ من شهر فبراير عام ١٩٨٨ .

وكان يزورنى الاستاذ الدكتور الرئيس آحيانا فى مكتبى ، وعندئذ كنت أجد الكثير من اعضاء المركز يهتمون بطلباتى المحدودة اهتماما

اكبر ، وكان يحاول بعض العاملين ان يغالوا فى احترامى . ويستمر ذلك أياما معدودات ثم تعود الحال على ماكانت عليه. اى الى ان الاهتمام يقل والمغالاة تخفت وتنعدم . ولن آنسى ابدا يوم ان حضر « اللواء محمد النبوى » الى المركز فى احدى المناسبات وكان فى ذلك الحين يشغل منصب « نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير وزارة الداخلية » ويبدو أن الحنان الى الماضى (كان احد زملاء الشرطة الذين كانوا يعملون بالمركز بعض الوقت فى الفترة الاولى من انشاء المعهد القومى للبحوث الجنائية الذى اصبح المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية) دفعه الى آن يزورنى فى مكتبى . وكانت هذه الزيارة مفاجأة لى لم أكن آتوقعها وبخاصة عندما عانقنى وعانقته على مرأى من بعض العاملين بالمركز . كان اللواء النبوى فى ذلك الحين فى أوج سلطانه واذ يأتى لزيارتى ويعانقنى امام الآخرين يسر لى ذلك المعاملة الحسنة لمدة تزيد على عشرة ايام . وانا اقصد بالمعاملة الحسنة المغالاة فى الاهتمام باجابة طلباتى المحدودة او المغالاة فى القيام بالطقوس الشكلية المتعلقة باحترامى . وكنت اضحك فى سرى . ولم اكن أهتم أبدا بهذه الالوان من النفاق . فقد عشت فى قاع الحياة المصرية كما عشت فى قمتها . واصبحت فى ضوء ما لاقيت من صروف هذه الحياة ، حلوها ومرها ، لا ابالى بكل ماهو زيف او بكل لون من ألوان النفاق .

وانى لهؤلاء الزميلات والزملاء آن يعلموا عن ذلك شيئا وهم لم يعرفوا رجلا مثل « عم ابراهيم » الذى كان يلقبه اهل « الحتة » التى كنت أعيش فيها طفولتى بلقب « آبو فانوس مطفى » وذلك لان عم ابراهيم كان قد فقد احدى عينيه واصبحت له عينان واحدة عادية سليمة والثانية من زجاج . كان هذا الرجل من اصدقائى ، واننى اذكر أننى عندما سألته عن سنه فى خلال صحبتى له فى الاربعينيات . فاجأنى بقوله انه من « السواقط » ولكنه ولد فى عام ١٩٠٢ . وكنت اهتم بسؤاله عن احواله واتجاهاته وعن حياته وتفاصيلها ان تيسر ذلك . كان يقول لى « انا ماقلتشى لمراتى على سر أبدا . النسوان مالهمش أمان . أنا دارسهم وعارف صنفهم مش مراتى اللى معاى »

ومخلفة منى خمسة . لكن آنا لا أمن لها آبدا ... آمى اللى ولدتنى لا أمن لها .... ثم يستطرد ناصحا : « عينك وعافيتك والقرش اللى فى جيبك هم اللى يخلوا اللى يسوى يسوى . ربنا يكفينا شر قلتهم ... لا مرة ولا عيل ولا حدن تخلق ينفعك .. عينك وعافيتك والقرش اللى فى جيبك .. هم بس » واذكر اننى سألته عن أصدقائه أو أعدائه اقصد الذين لايريدون صحبته فقال لى صائحا انه ليس له اصدقاء وانه لم يدخل فى بيته احد من رجال أو نساء « الحتة » ثم اذا به يزمجر قائلا : « هم دول ناس .. دول بهايم .. طور الله فى برسيمه .. دى المرة هنا بتضرب الراجل على قفاه . اخص على دى حته وعلىَّ دول ناس » .. وعندما اعترضت على هذه الاوصاف ، قاطعنى بانفعال وهو يقول : « دول ناس ماعندهمش تربية .. انا متربى فى بيوت باشاوات وبهوات وأفهم الاصول وأعرف الذوق ... صحيح انا معرفش لا أقرا ولا أكتب ولا أكتب ولكن التربية والذوق حاجة ثانية » . وعندما سألته عن الظروف التى أوجدته فى بيوت البشوات والبهوات .. تخاذل قليلا وقال وكأنه يعتذر : « شقاوة .. أصلها شقاوة .. أصل آنا يتيم واللى ربانى أخويا الكبير .. ولما زعلت من آخويا وكنت لسه شباب غاوونى اصحاب ونزلت معاهم اشتغل طباخ » . وعندما سألته لماذا يناديك بعض الناس ب « ابراهيم افندى » وليس بـ « الاسطى ابراهيم » فاننى اذكر ان وجهه قد ملأه الاحمرار وفجأة سال العرق من جبينه ، ولعل حلقه قد جف فقد رأيته يبلع لعابه ثم آجاب وكأنه غاضب : ـ « والافندى أحسن منى فى ايه ؟ هو راجل وانا راجل .. لكنه بيلبس بدلة يعنى ؟ ما انا راخر بلبس جاكته على الجلبية وفى رجلى جوز جزمة معتبر .. والنبى ومن نبى النبى نبى آنا لو أنى ماعرفش آقرآ ولا أكتب لكن عندى مفهومية اكتر من مليون افندى .. أصل حظى وحش وتربيت يتيم ... »

وقد عرف اهل « الحتة » اتجاه عم ابراهيم ورأيه فيهم فلم يرحموه . نبذوه كما نبذهم ، وعزلوه خارج نطاقهم . لم يجدوا فى عمله مطعنا فهو عامل مثلهم ، ولا فى بيته شائبة فزوجته واولاده منهم ولهم . وبحثوا

واهتدوا الى جسمه ووجدوا غايتهم . واصبح عم ابراهيم عند اهل الحتة كبارهم وصغارهم « ابو فانوس مطفى » وقد تحاشى ان يسمع هذا اللقب اللعين ما امكنه ذلك ، فقد كان سماعه يثير سخطه وحقده ويهز أعصابه ويثيرها . لم يفكر فى الانتقال الى حى آخر ، لان التفكير .. مجرد التفكير في هذا الموضوع كان غير ذى موضوع . فهو يسكن أقصد أسرته فى شقة من حجرتين و « فسحه » ايجار قديم ، وايراده منذ عشرين سنة مازال « على قده » وكان عم ابراهيم يقول وكأنه يعزى نفسه : « طول عمرنا عايشين فى الحتة .. دى مسقط راسنا وراس اللى خلفونا » آو يقول « مانساش مدد الشيخ عبدالله .. شى الله ياسيدى » او يقول « مادمنا فى حالنا محدش يدوس لنا على طرف » ومع كل الحيطة التى اتخذها عم ابراهيم فانه لم يسلم احيانا من التجريح والمواقف الحرجة ، فقد كان يجلس مع « شلة » من صغار الموظفين الذين يسكنون فى الحى المجاور ، كان يتحدث معهم فى السياسة وفى الدين وفى تربية الابناء واحيانا كان الحديث يدور حول الزراعة وبعض الامور الاقتصادية ! وكان يفخر ويزهو ويظن انه سعيد لان قبول هذه « الشلة » جلوسه معهم له دلالة محببة الى نفسه ، لقد صار واحدا منهم ، اى انه قد ارتفع درجة على ابناء طبقته الذين ولد بينهم ونشأ فيهم ويعيش معهم . وفجأة تحدث الطامة ! فقد يسأله أحدهم عما اذا كان قد تخرج فى الجامعة . وتجده لايستطيع الاجابة ثم ينسحب من جلتهم ويذهب ولايعود . لقد سقط من حالق وآن له آن يعيش فترة أخرى ، قد تطول أو تقصر ، على هامش الحياة . وفى احدي فترات الانتخابات سألته من ستنتخب ياعم ابراهيم ؟ فرد على بحزم قائلا : حانتخب الفقير اللى زيى .. او الرجل اللى يفهم فقرى ويقدره .. وعندما سأله احدهم عما اذا كان مايقال انه اول من اسرع الى الذهاب ليطلب « الاسعاف » تليفونيا عندما وجدوا أحد الاطفال يصرخ باكيا لأن « عقربا لدغته » رد عم ابراهيم بالايجاب قائلا وهو راض عن نفسه فى زهو : « صحيح ولاد الحتة مش سايبنى فى حالى بس الضفر مايطلعشى من اللحم وهم برضه ولاد حتتى » ثم زمجر وهو يقول : « جاتهم الهم .. وهو انا لم ضربت التليفون للاسعاف ضربته

علشان خاطرهم .. آبدا .. آصل الواد ابننا برضه وامه ستهم بنسا وفجأة مات « ابو فانوس مطفى » وترك ارملة وصغارا ضعافا . وحرص جميع أهل الحى من النساء والرجال والشباب والاطفال أن يشيعوا جنازته . وكنت تسمع الهمسات وبعض الاصوات الخافتة تقول :

« كان غلبان .. طول عمره شقيان زى حالتنا »
و « لا مش متكبر .. بس كان مخه وسخ »
و « ماتجوزشى عليه الا الرحمة » !

وعم ابراهيم كان واحدا من مئات من الذين عرفتهم وصادقتهم وعشت فى ظل مناخهم الثقافى الاجتماعى للمجتمع المحلى الذى كانوا ، وكنت معهم ، يعيشون فيه . وقد تركت صحبة هؤلاء والظروف التى واجهوها بصمات ما فى ذلك من شك على شخصيتى . وفى الواقع اننى كنت أعيش بين شقى رحى . فقد عرفت من المصريين الذين وهبوا حياتهم تقربا لمصرنا الخالدة عن وعى الكثيرين ايضا . كانوا يرون أن الفداء لمصر لكى تعيش الحياة الكريمة فريضة . وكان منهم من أعرفهم شخصيا وتعاملت معهم عن قرب . وكان منهم من عرفتهم عن طريق مادفعوا من ثمن غال فى سبيل الحفاظ على مبادئهم . وكان من الأخيرين العزيز الشهيد « زكى مراد » عرفته شخصيا بعد ان قضى فى ظلام السجون والمعتقلات احدى عشرة سنة . وكان ذلك فى ظل ثورة يوليو واثناء حكم جمال عبدالناصر .

فقد حكم على زكى مراد فى عام ١٩٥٣ بالسجن ثمانى سنوات . وبعد أن أنهى مدة عقوبته فى عام ١٩٦١ أبى أن يكتب مايفيد تراجعه عن المبادىء التى دخل من أجلها السجن . ثم اعيد عنوة فى ظل قانون الطوارىء الى غياهب السجن وظلماته لمدة ثلاث سنوات أخرى . وبعد إن خرج من المعتقل فى عام ١٩٦٤ قابلته وجها لوجه . كان انسانا تشع من عينيه الطيبة والاصرار والمحبة والفكر الحر جميعا . كان مرحا . وكنت أراه بعد ذلك مرحا دائما . ويؤكد ذلك ماكتبه عنه الاستاذ

« مصطفى طيبة » فى كتابه « رسائل سجين سياسى الى حبيبته » (الجزء الاول عام ١٩٧٨) وذلك عندما نقل الشهيد زكى مع زملائه الى سجن « جناح » بالواحات الخارجة . واذ يحتفل « النزلاء » السياسيين بفك القيود الحديدية التى كانت تضغط على عظام اجسادهم الواهنة فى اثناء الرحلة بالقطار وهم « مرحلون » الى سجن الواحات الخارجة ، تجد ان اهم عناصر الاحتفال كان الغناء . وكان كل واحد يغنى الاغنية التى يعرفها ويردد الآخرون من ورائه . ويكتب الاستاذ مصطفى طيبة :

« ويرتفع صوت المرحوم « خليل قاسم » بأغنية نوبيه يرقص عليها هو « وزكى مراد » لوحة راقصة نوبية لم تشهدها من قبل وتشد انظارنا واسماعنا . نصفق بأيدينا ونردد كلمات اغنية لانفهم معناها ولكن يطربنا ايقاعها .. » ..

وقد سجن زكى مراد واعتقل على الرغم من انه عندما قامت الثورة فى يوم ٢٣ من شهر يوليو عام ١٩٥٢ كان هو وزملاؤه من أوائل من أعلنوا تأييدهم ومساندتهم لها .. ودافعوا عنها ضد أعدائها الذين تربصوا بها . لكن الشهيد زكى عارض وزملاؤه الاجراءات المعادية للديمقراطية من الغاء للأحزاب واعتقال القوى الوطنية والتقدمية باسم مكافحة الشيوعية واعدام « خميس والبقرى » العاملين المناضلين فى كفر الدوار ، وذلك رغم تأييدهم كل الاجراءات التقدمية التى اتخذتها ثورة ٢٣ يوليو مثل طرد الملك وقانون الاصلاح الزراعى والغاء الالقاب ...... الخ وقد حدد الشهيد زكى مراد فى بعض كتاباته فى الخمسينيات أن ثورة يوليو هى حلقة من حلقات الثورة الوطنية الديمقراطية وأنه لانجاز مهام الثورة الوطنية الديمقراطية لابد وان تنعطف الثورة اكثر فاكثر نحو الدفاع عن مصالح الجماهير العاملة ، وان تلعب هذه الجماهير وعلى رأسها الطبقة العاملة الدور الحاسم والقيادى فى تحديد المسار الثورى والرقابة على التطبيق ومتابعته . (انظر : التقديم بقلم « محمد الجندى » لكتاب « ثورة يوليو : قضايا فكرية » لمؤلفه زكى مراد عام ١٩٨٢)

مفكرا وقائدا ثقافيا فقط ، ولكنه كان يعمل بما كان يقول به ويدعو اليه .
انظر اليه وهو فى السجن عندما وقع الاعتداء الثلاثى فى يوم ٢٩ من شهر اكتوبر عام ١٩٥٦ إذ يقول الاستاذ مصطفى طيبة فى كتابه المذكور آنفا :

وتصل اخبار حمل الشعب للسلاح فى مدن القناة وفى القاهرة ليقاوم الغزاة . دماؤنا تغلى ، واعصابنا لم تعد تحتمل . هذه أرضنا ونحن أخلص ابناءها أيدينا التى يكبلها الحكام يجب أن تحمل السلاح مع الشعب في وجه المعتدين الغزاة . واصحب زكى مراد فى صباح اليوم التالي للعدوان على بلادنا ونذهب الى المأمور ، فى الطريق الى مكتبه نتفق على كل شيء دون أى مقدمات يقول زكى مراد :

ـ نرجو ان تبلغ القاهرة مايأتى : اذا لم يصدر قرار الافراج عنا فى ظرف ٤٨ ساعة من الآن فعليهم أن يتحملوا مسئولية مايحدث هنا .

ويلاحظ المأمور الانفعالات على وجهنا فيقول بصوت ودود :

ـ ياجماعة اصبروا .. الحكومة عارفه موقفكم الوطنى العظيم ..

واقول بغضب ..

ـ لم يعد شرف معرفتها لموقفنا له أى أهمية ..

ويحاول المأمور تلطيف الموقف :

ـ ده برضه يساعدنى فى مسألة الافراج .. لا أحد يملك منع مواطن من شرف الدفاع عن أرضه .. انتو عارفين ـ الرئيس مشغول فى المعركة .

ـ ونحن .. ألسنا جزءا من هذه المعركة ؟

ـ يعنى .. المسألة تحتاج لبعض الاجراءات ..

ويقول زكى مراد بغضب :

واكمل ..

ـ ولابد ان يقولها ... والا ....

ويقول المأمور ..

ـ طيب ادونى فرصة كافية ..

ونقول بحسم :

ـ ٤٨ ساعة من الآن ... ليس اكثر .

ـ وانا فى ايدى ايه ؟

ـ فى ايدك ان تتصل باللاسلكى بالقاهرة .. الآن

ـ سأفعل .

ـ واذا مضت ٤٨ ساعة ولم نخرج من السجن فسيكون هناك تصرف آخر .

ـ زى إيه مثلا ؟

ويقول زكى مراد :

ـ سننتظم جميعا أمام بوابة السجن ونطلب من سيادتك السماح لنا بالخروج والذهاب الى القاهرة لحمل السلاح ضد الغزاة والمستعمرين .

ويقاطعه المأمور :

ـ وأنت عارف أننى لا أملك هذا ..

ـ طبعا نعرف هذا ..

ـ اذن ما الذى تنتظره منى ؟

وأرد عليه :

ـ أن تقوم بتنفيذ ما يمليه عليك واجبك .

ويسأل المأمور :

ـ واجبى الوظيفى .. أو الوطنى ؟
ـ نتمنى أن يكون الواجب الوطنى ..
ـ وأكل عيشى ؟
ـ هذه ظروف استثنائية ..
ـ لكننى موظف أولا ..
ـ فى مثل هذه الظروف أنت وطنى أولا ..
ـ ونلمح الدموع تتجمع فى عيون الرجل الوطنى .
ـ لا أستطيع ألا أنحنى احتراما لكم .. لكن أرجو أن تقدروا موقفى .
ويقول زكى مراد :
ـ نحن نقدر موقفك تماما حتى لو تغلب واجبك الوظيفى على الواجب الوطنى .
ـ وهل تعرفون نتائج القيام بواجب الوظيفة ؟
واقول :
ـ نعرفه جيدا .. ستطلقون علينا الرصاص عند خروجنا من السجن ..
ـ وهل أنتم مستعدون لذلك ؟
ويرد زكى بحسم :
ـ كل الاستعداد .
وترتسم علامات الدهشة ممزوجة بالاعجاب والتقدير على وجه المأمور .
ـ سيسقط منكم ضحايا .. والباقى لن يخرج ..
ـ لا سنخرج جميعا من بوابة السجن .. أحياء أو أمواتا .
ويتساءل المأمور :
ـ وما الذى تجنونه من وراء ذلك ؟
واقول ساخرا :
ـ حتى تصل المأساة الى ذروتها .
لحظة صمت تمر كأنها دهر ، نلاحظ خلالها وجه المأمور يجسد مافى داخله .
هؤلاء الناس اذا قالوا شيئا فعلوه .. خروجهم من باب السجن ليس

له سوى معنى واحد . هو محاولة الهروب . والقانون صارم ، اطلاق الرصاص على المسجون الذى يحاول الهروب . هؤلاء أول مسجونين يعلنون عن عزمهم على الهروب ويحددون له موعدا . وهم لايهربون من اجل ارتكاب جرائم وانما كى يموتوا فى ساحة الشرف .. عجبا لهم من بشر .. يهربون للموت وليس للحياة .

وفجأة يسأل المأمور :

ـ هل أنتم مستعدون لتسجيل موقفكم هذا والتوقيع عليه ؟

ونقول فى نفس واحد :

ـ وفورا .

ويتناول زكى مراد الورقة ـ والقلم من المأمور ويسجل عليها مطلبنا . الأفراج عنا كى نموت فى ساحة القتال برصاص الغزاة خلال ٤٨ ساعة أو أستمرار سجننا والموت برصاص الحكومة الوطنية على باب السجن . ويوقع وأوقع بعده .

ـ واضح أن الحكاية جد خالص .

ـ عهدك بنا لانقول إلا الجد .

ـ اذاً اعطونى فرصة للتصرف .

ـ نرجو أن يكون بسرعة .

ـ سأذهب فورا الى المحافظ وأطلعه على مادار بيننا وعلى هذه الوثيقة . وأطلب منه أن يبلغ رئاسة الجمهورية بمضمونها . .

ـ نأمل أن نعرف النتيجة على وجه السرعة .

ويقول ضاحكا :

ـ ربما يحتاج الأمر إطالة الانذار ٢٤ ساعة .

ويقول زكى مراد بحماس شديد :

ـ ولا ساعة واحدة ..

وأكمل :

ـ وهو ليس إنذاراً ..

ـ ماهو إذن ؟

ـ هو موقف .. والانسان موقف ..

يضمنى زكى مراد بحب ويقول :

ـ عنوان محاضرة نسمعها اليوم منك .
ـ ومطلع قصيدة تنشدها لنا اليوم أيضا ..

والشهيد زكى كان متعدد المواهب ، لم يكن فقط المناضل الواعى صاحب الفكر الحر ، ولم يكن أيضا الانسان الطيب المحب المرح . ولم يكن ذلك محبا للفن بصوره العديدة ، بل كان فوق ذلك أو مع كل ذلك شاعرا .

وخطف من بيننا الشهيد زكى فجأة . كان ذاهبا لأداء واجباته التى تعددت وبخاصة بعد أن مات جمال عبد الناصر . كانت وفاة الشهيد زكى على الطريق .. أصيب فى حادثة لم يعلم من أرتكبها حتى الآن ، أقصد وقت كتابة هذه السطور .. وأفتقدنا الشهيد زكى .. لما قرأت فى الصحف نعيه لم تبك عيناى ولكن قلبى كان الباكى . ولم أملك إلا أن أصمت صمت من فى القبور .. وقلت لنفسى وأنا صامت وكنت صادقا معها :

"إن العزيز زكى يعيش فى قلوب الملايين وفى عقولهم ابد الدهور" .

١٢ ـ الهيئات العلمية ودورها في إعداد المواطن الصالح

كان "مفهوم العلم" منذ عهد غير بعيد جزءا من الشعار الذى رفعته الدولة فى جمهورية مصر العربية ، ويبدو أنها لاتزال ترفعه ، ألا وهو شعار "العلم والايمان" . والاهتمام بهذا المفهوم بمعنى أنه "الخبرات الانسامية المنتظمة" ، مرجعه الى أننا نوجد فى عصر أصبح فيه العلم وسيلة مباشرة من وسائل الانتاج . أى أنه أصبح يتغلغل فى كل أمور الحياة : حياة الانسان فى عصرنا الراهن .

ومن حق هذا العلم فى هذا الضوء أن ينفرد بالحكم فى شئون الفكر ، ومجتمعنا المصرى كمجتمع "متميز" يحتاج الى العلم العصرى حاجته الى الحياة . ويجب أن لايقف فى سبيل تحقيق ذلك محاولة تزييف معنى مفهوم العلم ، أو المقارنة بين العلوم المادية والعلوم الانسانية ، أو محاولة تزييف نتائج العلم فى بعض المجتمعات .

فالمعروف إنه ليس كل متعلم عالما ، وأن كان العالم يكون بالضرورة متعلما . فالعلم خبرات انسانية ولكنها خبرات انسانية منتظمة يحصل عليها العالم عن طريق منهج معين هو المنهج العلمي . ومعلومات المتعلم هى خبرات انسانية أيضا ، قد تكون خبرات منتظمة أو خبرات غير منتظمة يحصل عليها المتعلم بالتلقين والحفظ أحيانا" أو بالممارسة أحيانا أخرى . وشتان ما بين عالم الذرة وعالم الدين : عالم الأزهر الشريف مثلا .

الطبيعة أو ظواهر المجتمع مواجهة موضوعية وهو إذ يفعل ذلك يكون دائما مهتديا بالشعار القائل "لاشيء يأتي من لاشيء" . وهو يحاول دائما أن يكون منهجا لفهم الحياة بقصد بغييرها . ويسعى دائما الى الاجابة عن السؤالين : كيف ؟ ولماذا ؟ أى التعرف على العوامل التى تكون من وراء وجود هذه الظواهر وعلى القوانين التى تحكمها ، مع ملاحظة أنه كمنهج لايبحث أبدا ولا يهمه أن يبحث أبدا عن الاجابة عن السؤال لماذا ؟ على وجه الاطلاق . بل هو فى بساطة يدرس الظواهر المادية والانسانية دراسة واقعية ، أى يقوم بدراسة العلاقات بين الاشياء وقوانين حركتها الداخلية ، فى ضوء الطبيعة والمجتمع ، وليس فى ضوء المبادىء المنطقية والعمليات العقلية فحسب .

والملاحظ أن "البحث العلمى" بمعناه الحديث ، وبخاصة فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها فى مصر حتى أوائل القرن الحالى كان مقصورا على العلماء الاجانب ، فقد أهتم هؤلاء العلماء بدراسة المجتمع المصرى دراسة موضوعية لعوامل سياسية فى معظم الاحوال . وذلك بقصد فهم هذا المجتمع للاستفادة من إمكاناته ولاستغلال أبنائه .

ولعل المبعوثين المصريين الأوائل قد عرفوا الكثير عن المجتمع المصرى فى أثناء دراساتهم فى أوروبا ثم فى أمريكا (الولايات الأميريكية المتحدة) من بحوث ودراسات قام بها علماء أجانب أو من كتب تضم هذه البحوث والدراسات .

والملاحظ أيضا أن أهتمام المفكرين المصريين فى تلك الأونة قد اقتصر على الدراسات النظرية الدينية والفلسفية والادبية فى معظم الاحوال . ولم يتغير هذا الاهتمام إلا بعد الحرب العالمية الأولى حين أنشئت الجامعة المصرية فى عام١٩٢٥ التى خلقت نمطا من المناخ الثقافى الاجتماعى أتاح لعدد قليل من المفكرين المصريين الاهتمام بالدراسات النظرية النفسية ثم بالدراسات الاجتماعية والانثروبولوجية . وكان معظم الجهد المبذول فى هذا المجال هو جهد

وقد أنشىء في كلية الآداب بالجامعة في ذلك الحين قسم مستقل لتدريس علم الاجتماع الذى سار على نهج المدرسة الاجتماعية الفرنسية التى بدأها "أوجست كونت" في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأرسى قواعدها "أميل دوركايم" في أواخر ذلك القرن وفي أوائل القرن الحالى . وقد أثرت هذه المدرسة في طابع الدراسة في هذا القسم .

ومنذ أنشاء الجامعة المصرية وحتى عام ١٩٣٦ لم يتغير اتجاه المفكرين المصريين نحو الدراسات النظرية لعلوم النفس والتربية والاجتماع والانثروبولوجيا الى الدراسات الواقعية الى تهدف الى دراسة المجتمع المصرى إلا قليلا فقد شذ عدد قليل منهم وأجروا بحوثا واقعية عن موضوعات تتعلق بهذه العلوم . منها دراسات اسماعيل القباني في علم التربية وعلم النفس ودراسات يعقوب فام في علم التربية ، ودراسات مصطفى عامر عن بعض مشاكل السكان في مصر ، ودراسات الأب عيروط اليسوعى عن الفلاحين المصريين التى نشرها بالفرنسية وترجمت الى اللغة العربية في أوائل الأربعينيات .

ولم تبدأ الجهود الجماعية التى كرست للبحث العلمى الواقعى في ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها في مصر الا بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ ، عندما أنشئت الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية "ولعل القلق الذى كان يستحوذ على قوى المجتمع الخلاقة ، ولعل وطأة الحاجة الى ايجاد بعض الحلول في سبيل مواجهة المشاكل الاجتماعية الصارخة في ذلك الحين ، فضلا عن توقيع المعاهدة .. لعل كل ذلك قد أتاح الفرصة لبعض المفكرين المصريين لانشاء هذه الجمعية ، وكأن لسان حالهم كان يقول : "إن قوى الشعب المصرى الخلاقة قد استنفذت كلها في ميدان السياسة ، أما وقد حصلت البلاد على الاستقلال ! فقد آن الأوان أن توجه هذه القوى نحو القضاء على المشاكل الاجتماعية القائمة" .

واتجهت أهداف الجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية نحو حل المشاكل الاجتماعية فى الريف وفى محيط العمال وفى محيط جناح الاحداث على هدى نتائج البحوث العلمية الواقعية فى هذه الميادين .. واستخدمت فى سبيل ذلك أنماطا كثيرة من البحوث سواء كانت بحوثا طويلة الأمد أو بحوثا قصيرة الأمد ومن هذه البحوث نجد البحوث المسحية كبحث "مشكلة الفقر في مصر عام ١٩٣٨" ، ومنها بحوث العمل الاجتماعى **Social Action Research** كبحث مشاكل الريف فى عام ١٩٣٩ ، فضلا عن بحوث دراسة الحالة كدراسة حالات الاحداث الجانحين التى كانت تعرض على محكمة الاحداث بالقاهرة فى عام ١٩٤٠ . مع ملاحظة أن البحوث والدراسات التى أجريت فى ذلك الحين قد تم إجراؤها على هدى الاتجاهات الغربية التى كانت سائدة وأهمها الاتجاهات الوضعية التى قصد بها البرهنة على أبدية الرأسمالية وتبرير وجودها .

وكانت الدعوة الى الإصلاح الاجتماعى فى ذلك الحين دعوة ملحة ! على أن تكون الجهود نحو هذا الاصلاح الاجتماعى ، لكى تؤتى ثمارها ، مبنية على دراسات متعمقة ودقيقة للظروف الاجتماعية كما هى موجودة فى المجتمع المصرى . أى أن هدف أهداف البحوث والدراسات كان اصلاح المجتمع المصرى ولم يكن تيسير فهم واقعه لكى يمكن تغييره الى الأفضل .

وفى عام ١٩٥٥ ولدت مهنة البحث العلمى ، بمعناه الحديث فى ميادين العلوم الاجتماعية ومجالاتها فى مصر ، حين أنشىء "المعهد القومي للبحوث الجنائية" ولأول مرة فى تاريخ البلاد أتيح للمصريين أن يمارسوا هذه المهنة فى ميادين العلوم الجنائية : علوم القانون والاجتماع والنفس والعقاب والكيمياء والطبيعة والطب ، فضلا عن العلوم الشرطية . ولأول مرة فى تاريخ البلاد وجدت الهيئة العلمية القومية التى تلم شعث الجهود المتفرقة التى كانت تمارس البحث العلمى فى ميادين هذه العلوم ومجالاتها قبل ذلك . وقد تطور هذا المعهد وأصبح "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية" منذ عام ١٩٥٩ حتى الآن .

بموضوعات عديدة وكان منها موضوع "الشباب المصرى وقضاياه من وجهة نظر المثقفين المصريين" . وفى احدى الندوات الخاصة بهذا الموضوع فى عام ١٩٨٠ ، تبين من الحوار أربع مسائل رئيسية المتعلقة بالموقف المنهجى لدراسة الشباب :

اولا : ضرورة أن لانبدأ من فراغ .

ثانيا : ضرورة التأكيد على المنطلقات والمواقف النظرية التى لها صلة بالبحث فى إطار الشباب (التصورات النظرية التى تشتق منها الفروض مثلا) .

ثالثا : ضرورة تواجد الشباب موضوع الدراسة كعنصر فى تخطيط الدراسة وتنفيذها .. (ليس من المعقول أن تتم دراسة عن الشباب يقوم بها الشيوخ فى غيبة من الشباب مثلا) .

رابعا : ضرورة التركيز على التناول الكلى الشامل ، (شمولية مادة الدراسة بمعنى أن لايحدث تحيز لأى فئة من فئات الشباب كالطلبة ، وانما يجب تركيز البحث على عينة ممثلة لكافة الفئات الشبابية مثلا) .

وأرجو أن يعلم القارىء الكريم أن مفهوم "المواطن الصالح" مفهوم متغير . فهو فى المجتمع الاقطاعى غيره فى المجتمع الرأسمالى . وهو فى المجتمع الأخير غير فى المجتمع الاشتراكى . أى أن شخصيات المواطن الصالح فى كل مجتمع من هذه المجتمعات متباينة . ومن ثم تكون أدوار شخصية المواطن الصالح التى تتوقعها منه هذه المجتمعات متباينة كذلك . أى أن نظرته نحو الحياة وعلاقاته الاجتماعية واتجاهاته وأسلوب تفكيره تختلف بالضرورة حسب المجتمع الذى يعيش فيه .

والهيئات العلمية من واجبها لا أن تبحث بحوثا واقعية أو نظرية على الشباب فى مجتمعاتها ولكن عليها أن تضع الأستراتيجية التى تيسر تنشئة مواطنيها لكى يكونوا مواطنين صالحين .

ولاجدال فى أن التخطيط العلمى يسبق عادة الاستراتيجية وأن

البحوث الواقعية ضرورة ما فى ذلك من شك للتخطيط العلمى وتسبقه . فالهيئات العلمية وقد أصبحت عديدة "المركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية وأكاديمية العلوم ومعهد التخطيط والمجالس القومية المتخصصة مثلا" يجب أن تتضافر فى ضوء المسائل الرئيسية الأربع المتعلقة بالموقف المنهج لدراسة الشباب التى ذكرتها آنفا .

والملاحظ أن الاستراتيجية التى توضع لشباب مجتمعنا لابد أن تأخذ فى الاعتبار أن هذا المجتمع مجتمع نام . وأنه أيضا مجتمع نام متميز فى ضوء المراحل التاريخية التى مر بها . ومع ذلك فإننى أكرر أن توضع هذه الأستراتيجية فى هذا الضوء .

وأننى أرى وأرجو أن يتفضل القارىء الكريم أن يرى ما أرى أن وضع الاستراتيجية بالاسلوب الذى أقترحته فى الفقرة السابقة يجب أن تتحدد أهدافها وأن ترصد لها الأموال الكافية التى تحقق هذه الأهداف .

والمقصود بالاهداف هو تكوين مواطنين صالحين فى ضوء الظروف التى يعيش أعضاء المجتمع المصرى المعاصر فى ظلها . ويلاحظ أننا على مشارف القرن الواحد والعشرين وأن العلم العصرى يخطو بخطى واسعة وأن تطبيقاته (التكنولوجيا) تتقدم يوما بعد يوم ، وأننا أصبحنا نعيش فى ظل حضارة عالمية وأن الأرض التى يعيش عليها أصبحت كأنها القرية الصغيرة فهى تتقلص يوما بعد يوم بل ساعة بعد ساعة وذلك لانها تعيش فى عصر الالكترونيات التى أصبحت ذاكرة الانسان وتفكر له أيضا . أى أن عصر البخار والكهرباء والطاقة النووية قد عفى الزمان عليها أو كاد .

والمعلوم أنه لكى يتكون المواطن الصالح فى ضوء أهداف الأستراتيجية المقترحة ، يجب علينا أن نفيد من أجهزة التنشئة الاجتماعية التى توجد فى كل المجتمعات ومنها بالضرورة المجتمع المصرى .

وأقصد بهذه الاجهزة الأسرة والجيرة والمدرسة والمنظمة الدينية ومنظمة شغل أوقات الفراغ والمنظمة السياسية (أن وجدت) فضلا عن أجهزة الاعلام والثقافة . وانني أرى بل أعتقد بأنه اذا أدت هذه الاجهزة فى ظل أستراتيجية محددة الاهداف والمعالم بانسجام وتوافق ، فإننا نستطيع أن نصل الى ما نأمل فيه .

ولايعنى تحديد سمات شخصية المواطن الصالح أو محاولة هذا التحديد أننا نهدف الى تحويل أعضاء المجتمع الى قوالب جماعية . أننا لانود أن نتعامل أبدا مع قوالب جماعية ، ولكن نود أن نتعامل مع أناس من البشر ، أناس متباينين ، أى أناس من حقهم أن يتباينوا وان يختلفوا فى سبيل الصالح العام .. .

أن أهم أهتماماتنا هو أن يفسر لكل عضو من أعضاء المجتمع عن طريق ارتباطاته بجماعاته ، أن ينضج فى الاتجاه الذى يميزه عن غيره وأن يصبح ذاته الكاملة ، وأن يكون الاحساس بقيمته كشخص ليكون فعلا وحقا عضوا فى المجتمع أكثر نفعا وأكثر قيمة . أى ليكون مواطنا صالحا .

الخاتمة

أن موضوعات هذا الكتاب هى كما ذكرت فى المقدمة عبارة عن بحوث ودراسات علمية قمت باجرائها أو الأشراف على اجرائها ، ويلاحظ القارىء الكريم أنها قد أوحاها الى المجتمع المصرى المعاصر . ومن ثم فهى فى حقيقة الأمر متعلقة بهذا المجتمع . أى أن من يقرؤها دون أن يعرف اسم الكتاب يرى بعض مافى هذا المجتمع المتميز الفريد فى سماته وملامحه .

ورجائى الحار أن يقرأها القارىء الكريم ككل لايتجزأ وأن يتقبلها قبولا حسنا . فالملاحظ أننى وضعت هذه الموضوعات حيث تكمل البحوث والدراسات التى تتضمنها بعضها البعض . وقد بدأت بوضع دراسة علمية عن "نظرية المصالح" وهى دراسة فيها جرأة وجسارة . وقد يراها قارىء انها تحصيل حاصل ولم تأت بجديد ، وقد يرى آخر عكس ذلك . ومهما يكن من الأمر فإن ما فعلته هو مجرد اجتهاد ، وأننى لا ادعى الكمال ، فالكمال لايمكن أن نحصل عليه فى دنيا البشر .

والدراسات الأخرى تحاول أن توضح بعض المفاهيم التى تتعلق بالمجتمع المصرى ، كما تحاول أن توضح مضمون البيئة من منظور القيم الانسانية ، واقصد بالبيئة البيئة الشاملة سواء اكانت طبيعية أم ثقافية اجتماعية . ويلاحظ القارىء الكريم أن القيم الانسانية المشار اليها تتصل اتصالا وثيقا بكل من الدين المسيحى والدين الاسلامى بخاصة ، فهما الدينان الرئيسيان اللذان يسودان الاديان الأخرى فى هذا المجتمع .

والاساطير والخرافات والتفكير الخرافى كانت موضع اهتمامى فى الكتاب الحالى . فنحن المصريين فى مسيس الحاجة الى أن نطهر تراثنا،والمناخ الثقافى الاجتماى الذى يظللنا من كل ماهو غث . سواء أكان هذا الغث ماديا أم معنويا . إننى فى كل الأحوال ادعو الى هذا التطهير كما أدعو أيضا الى الأخذ بالمنهج العلمى وخصوصا ونحن نواجه القرن الحادى والعشرين بعد اقل من عقد من الزمان :

وقد تعمدت أن أتحدث عن مفهوم التربية من المنظور الاسلامى العربى . لاننى أرى وأرجو من القارىء الكريم أن يرى ما أرى أننا فى حاجة ماسة الى إعادة تربيتنا فى ضوء مالدينا من عناصر تراثية . وأنا لا ادعى ولايمكن أن ادعى أن تاريخ المجتمع المصرى يبدأ فى عام ٦٤٠ / ٦٤١ ميلادية (بداية دخول الدين الاسلامى فيه) أو يبدأ فى عام ٦٤ ميلادية (بداية دخول الدين المسيحى فيه) . ولكن هذا المجتمع قديم قديم والكثير من تراثه الغث مازال مستمرا حتى وقتنا الراهن .

ويلاحظ القارىء اهتمامى الواضح بمكافحة "ظاهرة الأمية" سواء كانت امية ابجدية أو امية وظيفية . وقد تعمدت فى الكتاب الحالى أن تسبق ما كتبته عن "طه حسين" ودعوته الى الثورة العقلية فضلا عن تكريس حياته لكى يكون التعليم وتكون التربية كالماء والهواء للجميع . وذكرت بحق فى ضوء كفاحه العنيف لكى يتعلم وينّال أعلى الدرجات العلمية اننى تأثرت بـ "طه حسين" الذى كان فى حقيقة الأمر نموذجا رائعا اهتديت به لكى اتعلم واحصل على أعلى الدرجات العلمية . كان هذا الرجل نبراسا لى فى كل امور حياتى وبخاصة اذا ما واجهت ماهو شرا وعندما أكون مضغة فى افواه ذوى الكبر والكبرياء أو غيرهم من الموتورين أو الساخرين .

ويلاحظ القارىء أن "طه حسين" لم يكن وحده النبراس الذى هدى حياتى الماضية ومازلت اهتدى به ، ولكن اذكر ايضا اساتذة اجلاء كان منهم المغفور لهم الاساتذة "ابراهيم عبدالقادر المازنى" و "احمد

أمين" و "احمد حسن الزيات" و "أحمد لطفى السيد" و "توفيق الحكيم" و "د . زكى مبارك" و "سلامة موسى" و "عباس محمود العقاد" و "فكرى اباظة" و "د . محمد حسين هيكل" و "محمد عبد الله عنان" و "مصطفى صادق الرافعى" .

كنت اعب من معرفتهم الرفيعة عبا ، وكنت أشترى كتبهم ، أو اقرأ لهم فى دار الكتب المصرية اذا كنت لا استطيع شراء الكتب . كان منهلهم عذبا موردا . ومع ذلك فقد كان الرافعى الاديب المفضل حتى ثار على "طه حسين" عندما نشر كتابه "فى الشعر الجاهلى" واتهمه بالالحاد فى كتابه "تحت راية القرآن" الذى أستعرته من أحد الزملاء ولم أكن قد أشتريته بعد . وإذ أقرأ هذا الكتاب وجدتنى عزوفا عن قراءة أى مقال أو أى كتاب للرافعى . ولكنى عندما نضجت وجدتنى لا انسى فضل هذا الرجل . أما "فكرى أباظة" فقد كان فضله أن شجعنى على مواصلة التعليم عندما كتبت اليه فى "مجلة المصور" وكان رده بلسما حفزنى لكى أكمل المسيرة اقصد مسيرتى للتعلم ، ولم يبخل على غفر الله له أن سجل رده على صفحات هذه المجلة لكى أقرؤه ويقرؤه الأخرون معى .

ويلاحظ القارىء الكريم أن الكتاب يضم علميا لبندر اسوان . وكان لهذا البحث قصة حرصت على ذكرها . فقد كان موضوع البحث من اختيارى وكنت أود أن اتعاون مع زملائى من الاعضاء العلميين بالمركز القومى للبحوث الاجتماعية والجنائية لكى نرصد "ظاهرة التغير الاجتماعى" فى بندر أسوان ، وكنت طموحا للدرجة التى خيل لى أن أكرر هذا البحث مرات ومرات كل عشر سنوات . حتى يصل اخوانى وأنا معهم ومن يأتى بعدنا الى السمات التى تتميز بها هذه الظاهرة فى مجتمع كمجتمعنا . لقد فعل العلماء الاجانب ذلك فى اوروبا وفى الولايات المتحدة فلماذا لانفعل نحن ايضا . أننا لو كنا فعلنا ذلك لاسهمنا اسهاما رائعا فى التراث العلمى الاجتماعى الانسانى . لكننا لم نفعل لاسباب خارجة عن ارادتنا وقد ذكرتها فى متن الكتاب الحالى عندما تحدثت عن هذا الموضوع .

ومثل البحث العلمي لبندر اسوان كان البحث العلمي السياسى عن الروح المعنوية لاعضاء القوات المسلحة كان بحثا رائدا تعاون المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية مع "قسم البحوث المعنوية" المختص بالتوجيه المعنوى للقوات المسلحة . وقد تم هذا البحث الرائد الهام ولكن لم يجر بحث آخر مثله . ولما كنت حريصا على أن يعمل العاملون العلميون بالمركز المشار اليه فى هيئات البحوث التى ينتدبون للعمل فيها . على سيادة "روح الفريق" وكنت أقوم بما وسعنى جهدى لتحقيق ذلك بدون جدوى ، وجدت اننى فى هذا البحث أحقق ذلك . ويبدو أن سر ذلك يرجع الى أن أعضاء هيئة هذا البحث كانوا يعملون متعاونين وفى صمت وفى سرية وفى استقلال . أى أن تعاون أعضاء البحوث وعملهم فى صمت وفى سرية ثم وهذا عنصر هام أقصد فى استقلال ، كل هذه الأمور اذا ما نفذت تحقق العمل كفريق فى هيئات البحوث العلمية التى تشكل خصيصا لاجراء بحثا علميا أو دراسة علمية .

وقد تضمنت موضوعات الكتاب موضوع "الغيرة المهنية" . واعترف بأن هذا الموضوع يوجد فى كل الهيئات العاملة فى المجتمع أى مجتمع . وقد تكون هذه الغيرة المهنية بلسما اذا ما خلت من الحقد بنوعيه أى الحقد الأسود أو الحقد غير الأسود على السواء . انها بلسم اذا كان الهدف منها تنافسا وليس صراعا . فالتنافس من أجل المصلحة العامة مطلوب مافى ذلك من شك . أما الصراع الذى يتمخض عادة عن "التعصب" وليس "الولاء" فهو منبوذ . منبوذ .. وقد عالجت هذا الموضوع فى حدود ، أى أننى لم أذكر الوان الغيرة المهنية كلها . واذ اذكر هذا الموضوع فقد كان الهدف التنبيه اليه ولفت النظر نحوه حتى يكون المسئولون الاداريون على بينة من أمرهم . ويبدو اذ أذكر ذلك اننى واهم أو أحاول أن أحقق هدفا مثاليا . ولكن مهما كان الأمر فالموضوع يمت بسلوك البشر ويتعلق بهذا السلوك . وفى ضوء تخصصى فاننى أحاول ما أستطعت أن أتعرف على هذا السلوك وأن أبرزه للقارىء الكريم كواجب يتحتم على أن أؤديه .

وخاتمة موضوعات الكتاب موضوع تكوين المواطن الصالح . لقد جعلته مسك الختام ، لأننا أقصد أعضاء المجتمع المصرى المعاصر في مسيس الحاجة الى وجود المواطنين الصالحين الذين لاهم لهم إلا أن يعرفوا حقوقهم وإلا أن يؤدوا واجباتهم كما يتطلب منهم هذا المجتمع فى ضوء ظروفه الراهنة ، وهى ظروف جعلته فى مفترق الطرق .

وأرجو أن يسمح لى قارىء كتاب "من وحى المجتمع المصرى المعاصر" أن أحفزه لقراءته . فاننى أعتقد أن واجبى ككاتب أن أكتب لكى يقرأ ما أكتبه الآخرون . وما كتبته كما يرى القارىء وأراه أيضا ، كما ذكرت من قبل ، محدود . لان ذلك ليس كل ما يوحى إلىّ به المجتمع المصرى المعاصر . وأكرر واقول "المجتمع المصرى المعاصر" ، وذلك لاننى عاصرت ، ومازلت اعاصر ، الموضوعات التى يضمها الكتاب الحالى .

وأؤكد للقارىء الكريم مرة أخرى ، فقد أكدت ذلك فى المقدمة ، اننى لا أغازل أو أتردد الى المجتمع الذى ربانى وعلمنى متفاخرا أو متعاليا . وذلك لان حقائق مراحل التاريخ التى مر بها تؤكد ذلك .

فهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد عبدالعال بسيونى زغلول . الصفاة ـ ص ب رقم ٢١١٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس Hilal.V.N ٩٢٠١١

رقم الايداع : ٤٩٨٠ / ٨٩
الترقيم الدولى : ٦ - ٤٣٢ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب

هذا الكتاب يتضمن الكلمات الأخيرة للمفكر الاجتماعى الراحل الدكتور سيد عويس ، وهو آخر دراساته العامة حول المجتمع المصرى .

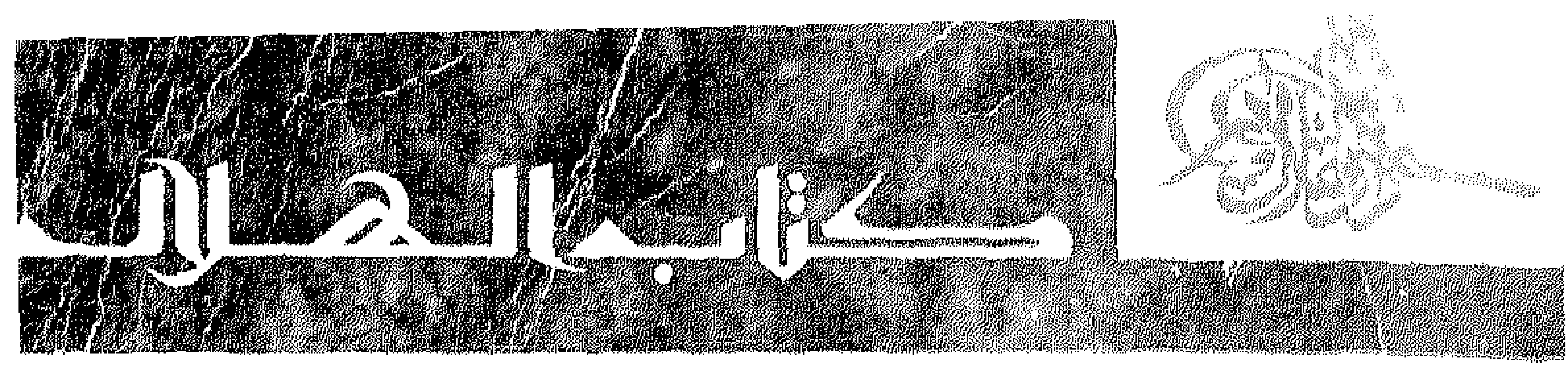
ويتضمن هذا الكتاب بحوثا من خلال تجارب حية ، تعكس بعض سمات المجتمع المصرى المعاصر ، ومثل كل اعمال الراحل الكبير ، يجمع فى كتابه بين الدراسات الميدانية وبين الدراسات الاكاديمية ويجمع ايضا بين دراسة عميقة للتراث المصرى واستيعابه لتطور العلوم الاجتماعية فى العالم .

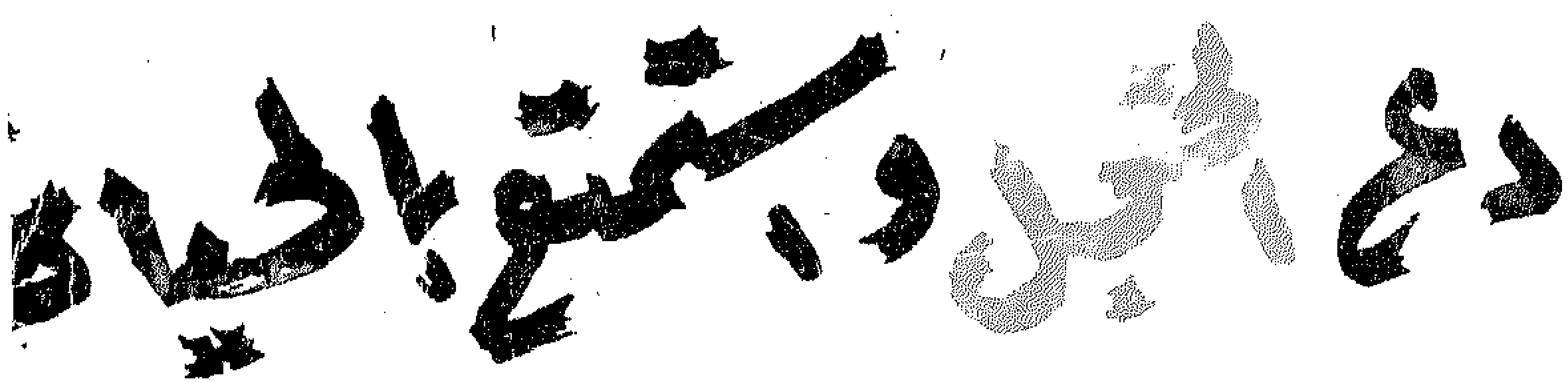
ويضم هذا الكتاب عدة محاور هى :

- نظرية المصالح فى المجتمع المصرى .
- البيئة المصرية من منظور القيم الانسانية .
- الاساطير والخرافة فى التراث والعلم العصرى .
- التربية من المنظور الاسلامى .
- كيف نقضى على الأمية .
- طه حسين والثورة العقلية .

وغيرها من الموضوعات التى لايستغنى عنها كل من يريد معرفة المزيد عن مجتمعه .


أشهى الأطعمة هى التى تطهى فى
أوانى
الأهرام
متانة ... جودة ... السعر المناسب
الومنيوم استانلس ستيل تيفلون
الأهرام الأهرام الأهرام
أبيض لامع
صلب لايصدأ
لايلتصق بها الطعام أبدا





تأليف : بول جاجو   ترجمة : محمد عبدالمنعم جلال

١٥٠ قرشا

للغسالات
الاتوماتيكية

FOR ALL AUTOMATIC WASHING MACHINES

Loly

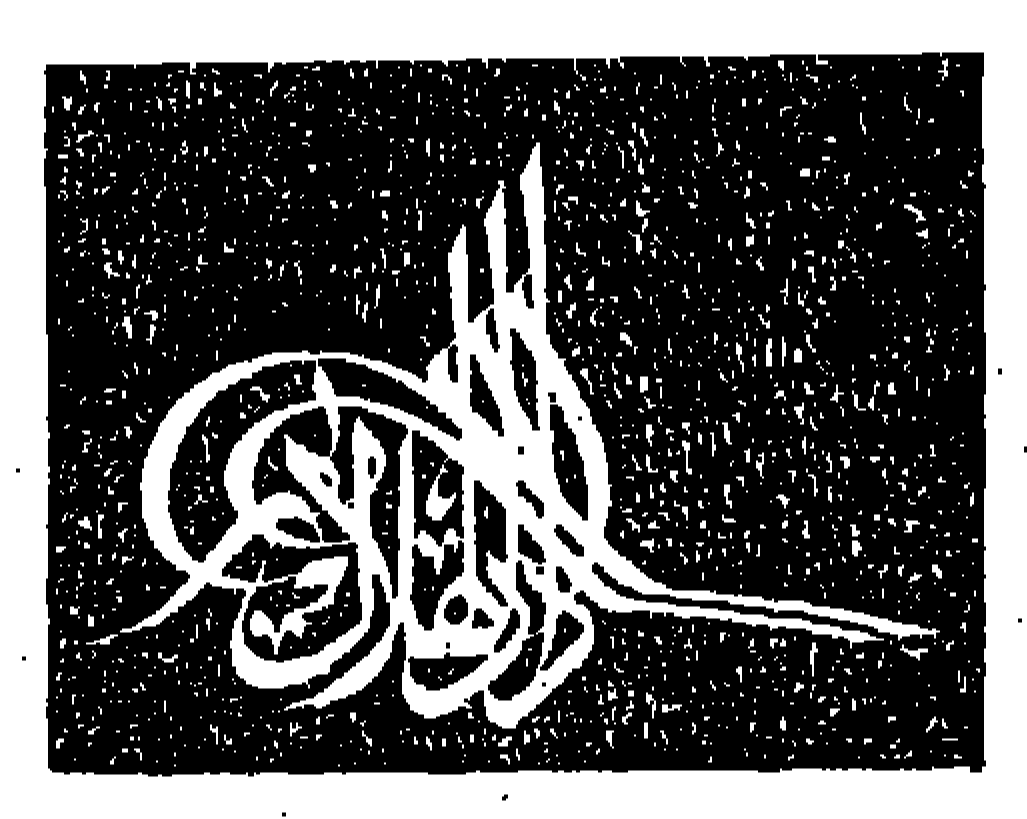
PRODUCT OF
ALEXANDRIA OIL & SOAP Co.
ALEX. EGYPT

لولى

• رغوة محدودة ممتازة المفعول.
• الوحيد الذى يتميز باحتوائه
على أنزيمات فعاله . . . .
لها القدرة على إزالة
البقع البروتينية

لوب عصرى للتنظيف
ذا فعال متميز

شركة الاسكندرية للزيوت والصابون



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٤ محرم ١٤١٠ - اغسطس ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عياد

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للنسخة للقارىء فى مصر :

سوريا ٥٠ ليره ، لبنان ٥٠٠ ليره ، الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٤٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠ فلس ، السعودية ٥ ريالات ، الدوحة ٨ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، دبى ٨ دراهم ، أبو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، غزه والضفة ١ دولار ، لندن ١٥٠ بنسا .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

دع الخجـــــل
واستمتع بالحياة

تأليف : بول چاچو
ترجمة : محمد عبد المنعم جلال

●

دار الهلال

« المقدمة »

الغرض من هذا الكتاب هو أن أبين للذين يتسمون بالخجل كيف يتصرفون لاستبعاد الأسباب المتعددة التى تكتنف حالتهم ، وللحصول على الصفات المختلفة التى تكسبهم الثقة فى النفس .

والذين يشعرون بالخجل يعرفون بما يكفى مظاهر الداء الذى يعانون منه ، ولهذا ارى انه لا جدوى من عرض هذه المظاهر ، واكتفى بأن أعرض على الفور مايهمهم معرفته فعلا .

وبادىء ذي بدء ، أقول لكل منهم انه مهما يكن من امر خجلك ، فانه يمكنك أن تصبح رصينا وجريئا .

وهذه ليست وجهة نظر ، وانما هى توكيد قائم على التجربة ، فمنذ الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة من عمرى ، تألمت من اشد أنواع الخجل ، وأعنى به ذلك الذي تسببه الظروف النفسانية والطبيعية وتأثير المجتمع . وبحثت ووجدت الوسائل للتغلب عليه . وبعد أن استخدمتها شخصيا ، طبقتها خلال عشرين سنة لتدريب مئات عديدة من الخجولين ، وكل الذين تابعونى حصلوا على الثقة التامة فى النفس .

وسوف تحصل عليها انت كذلك حتما بالوعى الحقيقى ، وبالتطبيق الدقيق لما سوف تقرأ .

الفصل الأول

أسباب الخجل

لماذا تشكو من الخجل بينما يشعر غيرك بالجراة والاقدام ؟ المهم قبـل كل شيء ان تعرف السبب . وبهذا تدرك تماما المسببات الحقيقيـة لخجلك ، وتدرك عنـدئذ انك تستطيع التغلب عليها ، لانك تستطيع عندئذ استبعاد كل العناصر المسببة له .

١ ـ لكل خجول حالة خاصة من الخجل !

الخجل كلمة غامضة لا يمكن تحديد معناها بالذات ، ويكفي ملاحظة عشرة أشخاص من المشاهير الذين يتصفون بهذه الصفة لكي تعرف ان كلا منهم يختلف عن الآخر اختـلافا كبيرا ، فالخجل عنـد كل منهم ليس بنفس الدرجة . والظروف التي تتسبب فى ازعاج بعضهم كل الازعاج قد تكون قديمة التأثير عند غيرهم ، فهذا الرجل يفقد اتزانه أمام أشخاص بالذات ، فى حين انه يشعر بالراحة والأمان أمام غيرهم ، وذاك يتصرف ويتكلم ويفكر بكل حرية بين معارفه ، ولكنه يرتبك كل الارتباك بمجرد أن يلتقى برجل غريب . بل اننا نجد أحيانا عند أكثر الناس خجلا وارتباكا قحة تطلق لنفسها العنان فى مجال بالذات ، أو مجالات أخرى معينة .

وكل شيء مرتبط بالعناصر المسببة للخجل ، وهى شديدة التقلب والتغير ، ومن بين هذه العناصر عنصران او ثلاثة لها أهميتها ..

يتسبب الضعف الوراثي أو اختلال الصحة في نوع من الخجل ، وكذلك يتسبب فيه الاحساس بنقص جمالي أو قبح جسماني . وفي كل من الحالتين تختلف الظواهر ، فنرى أمامنا رجلا قويا ، صحيح العقل سليم الجسم ، ولكنه عاطفي الى أقصى درجة ويخضع الى ردود فعل داخلية عنيفة وحادة ومتكررة تخل بأنسجته وقوته ، وتصعب توافقه مع الاشخاص الغرباء ، ومع الأمور العادية . وهو يدرك هذا النقص الذي يتسبب في خوف مشوش يكاد يكون مستديما . وفي خارج الانفعالية فان الحساسية النفسية فحسب تكفي ، بافراط الحساسية المعنوية ، لخلق الخوف من الانفعالات ، ومن بعض خيبات الامل ، كعدم المبالاة ، والبرود ، والنفور والسخرية ، الخ ... واليك صورة أخرى من الخجل ، وهي صورة تتكرر ، خاصة لدى المثقفين . ولنضرب صفحا عن كل ذلك ، فسوف نجد أيضا الاقرارية المبالغ فيها : الاهتمام بالطريقة التي ينظر بها الناس اليه ، وتقييمهم له ، والتي اذا ما تدخل فيها الغرور تتسبب في حالة ذهنية شديدة عند صاحبها تدفعه الى خوف دائم من عدم تقدير الناس له بما فيه الكفاية بحيث ينتج من ذلك بالضرورة نوع من الخجل . واذا واجهنا أخيرا دور وهم شائع بدافع القلق والرهبة أو الخوف فسوف نفهم الحالة المحزنة للخجول الذي يعتقد أنه موضع اهتمام عام متوقع يستبق طواعية الاستعدادات الذهنية للغير فيما يتعلق به ، ويصور بصورة شاقة عادات وكلمات وطباع الذين يتعامل معهم .

٢ ــ اسباب طبيعية مباشرة :

أ ــ الضعف الوراثي : الطفل الضعيف يكاد يصاب بالضرورة بالخوف ، فهو يتألم منذ نشأته بسبب ما يعانيه

من مرض وضعف ، وبما يلاقيه من رعاية دائمة من المحيطين به اشفاقا عليه من تلقى الخطوب والصدمات . ولهذا السبب بالذات غالبا ما يكون عرضة لنوع من الهلع من الألم الطبيعي والجهد العضلى والحركة . وفيما بعد ، عند السن الدراسية يقسو بعض زملائه فى معاملته ويسيئون التصرف معه لأنه لا يتمتع بالقوة . وفى الدراسة يعانى كل المعاناة لأن ذكاءه يظل ضعيفا بسبب انعدام طاقته العصبية . ويتولد من كل هذا احساس بالنقص يساهم مدرسوه فى مضاعفته تقريبا . وعندما يؤكدون له ألف مرة أنه جبان وغبى وكسول يجهزون عليه تماما. واذا ما فرضت عليه فوق ذلك سلطة رئاسية قاسية ، فلابد له بعد ذلك من جهد جبار ، باشراف بعض الاخصائيين الممتازين ، لفصل كل عناصر الضعف العقلى والطبيعى المتجمعة فى عقله الباطن .

وصغار الضعفاء يتلقون منذ مولدهم الرعاية الكفيلة بتصحيح ضعفهم عن طريق الصحة والرياضة ، وذلك بعلاج الاعضاء واستئصال الغدد الدرقية والنخامية ، وتنظيم مركز الأعصاب . وهم يقدمون مع ذلك وسائل قوية ما زالت قليلة الاستعمال للأسف ، بسبب الجهل والكسل ، بل وحتى بسبب عدم اكتراث المربين .

ب ـ **الضعف الصحي** : عدم العناية بالنسل ، والأمراض الحادة المهملة ، والارهاق المدرسى ، كل هذا يكفى لاتلاف الآلاف من الاطفال الاصحاء ، ويضمهم عندئذ الى مرضى الوراثة . وعند اقتراب المراهقة ، يتدخل عامل آخر للضعف الطبيعي بخطورة ، الا اذا عرفت التربية كيف تتجنبه ، فان أولى الانعكاسات التناسلية التى تسبق غالبا سن النضوج بسنوات كثيرة قد تحث الطفل

على الاضرار بنفسه . وهذا وحده يعتبر من اسوا أسباب الخجل ، وبالأخص من أكثر أسباب الانحرافات الذهنية والعقلية . وهناك أطفال يقاومون ، ولكن لا يبقى اى منهم سليما ، ويظل عدد كبير منهم موسوما بانحطاط عميق دون ان نذكر شيئا عن الذين ينطفئون مسبقا متأثرين بالوهن أو بالسل .

وافضل ترياق للوقاية هو تثقيف النفس بالجهد والعمل والانتاج والمهارة والحيوية الطبيعية والنفسية . ولابد من رقابة مبكرة ودقيقة ، ومن تدريب شريف دقيق ، ومن الخير التعجيل بهما ، فقد بدأت كل الاوساط التسليم بفائدتهما الجوهرية . وعلى كل خجول ، تهمه هذه الفقرة ، ان يبذل قصارى جهده فى سبيل تنمية الثقة اى سيادة مطلقة على نفسه من وجهة النظر التى ذكرناها .

٣ ـ العيوب الخارجية ..

صاحب الوجه الوسيم ، والجسم السليم لا يعرف الخجل تقريبا ، لانه يقابل من الجميع بشىء من الود ، بل لنقل بشىء من الاعجاب .

ومن ناحية اخرى ، يمكن أن يكون المرء دميما ومشوها وجريئا .

ولكن هناك اناس يعانون من شذوذ خفيف فى الملامح او من تغيير فى البشرة ، او قصر القامة أو الصلع ، ويعتقدون أنهم مشوهون الى حد أن عيوبهم تبدو للجميع ، وتثير النظرات والسخرية ، ويظنون انهم اضحوكة ، وغير جديرين بالاعجاب أو بفرض انفسهم .

وهؤلاء يجب ان نعمل على اقناعهم بانه لا يوجد رجل

ثابت وحازم ، مهمـا كانت هيئته كئيبة ، مجـرد من السيادة أو الجاذبية . أما عن الجنس اللطيف فيجب أن يفهم أنه مهما كان الجمال مطلوبا ، فان الفتنة الجمالية تبقى مختلفة تماما عن الفتنة المغرية أو الفتنة الجنسية ، اذا أردنا الدقة . ونحن نعرف دور الجمال الشـخصى فى الاغراء . والجمال ، وأعنى به الجمال الطبيعى ، يكتسب أحيانا ، كما تكتسب الاناقة والوجاهة والذوق .

ولكى نتمسك بالمظهر الطبيعى ، سـوف نرى ، فى الفصل الرابع ، كيف أننا نستطيع ، بالعناية والحذق ، تكوين الشخصية ، ووصف الثياب المناسبة والمنسجمة لأحجام الجسم ، وتلطيف الطبـاع واكتساب سـهولة الحديث .

ان الحالة النفسية تلعب دورا كبيرا فى الخجل القائم على خوف من الدمامة ، ومجرد دعابة أو سخرية منسية ، منذ وقت طويل غالبا ما تكون نقطة الانطلاق . ومن هذا الايحاء المكبوت تتولد الفكرة الثابتة . ولهذا سوف نعنى عناية كبيرة بتحرير الحالة النفسية وتعزيز الرأى .

٤ ـ العاطفة والحساسية المفرطة :

ونعنى بالشـخص العاطفى ذلك الذى يتأثر جهـازه العصبى بالاثارات الخارجية المفرطة فى حدتها أو فى مدتها ، فهو اما يحمر أو يصفر لأتفه الاسباب ، وتتسارع نبضات قلبـه أو تبطىء تحت تأثير أضـعف المخـاوف ... اضطرابات ، وتقلصات خانقة ، وعرق غزير يتصبب منه بكثرة عند أقل تأثر ، فى حين أن الرجل العادى لا يشعر بمثل هذه الاضطرابات الا تحت انفعالات عنيفة . والمفهوم أن وضوح الذهن ، وسلامة النطق ، والثقة فى النفس

عند الرجل العاطفي أشـياء مؤقتة . وهو يدرك ذلك ويترك نفسه فريسة لهذا النقص ، فيشـعر بالخجل ، ولهذا نرى رجالا اقوياء يتخبطـون في يأس في دائرة الارتباكات . وأحيانا ما يتجدد تهذيب طبعهم فيما يتعلق بنوع معين من الانفعال . وقد تسنى لي أن الاحظ ، أثناء الحرب ، رجالا تحصنوا بحكم العادة ضد اهوال الحرب ، ولكنهم ظلوا يخشون الظهور في المجتمعات . على أن هناك سوابق لهذه الظاهرة ، فهناك تورين وهنرى الرابع والماريشانى ، وهذا الاخير ، وقد كان نابليـون يلقبه بأشجع الشجعان ، ويدعوه جنوده بالذات بالأسد الاحمر ، لم يكن يجرؤ على دخول أى مجتمع . وبونابرت نفسـه ، وقد تأكدت عبقريته أثناء حصار طولون ، لن يؤثر التعرض للمعارك الحربية عن مواجهة نظرات الجنس اللطيف . كان يرتبك أشد الارتبـاك في حضرة امرأة . ولحسن الحظ ، فان من الممكن تغيير جميع صـور العاطفة .

والحساسية المفرطة ، وترتبط احيانا بعاطفة مفرطة ، تظهر اقل وضوحا ، وتمثل طابعا مخالفا تماما . والتكوين النفسى لمفرطي الحساسية يلتقط بحدة دقيقة ومتسعة الاحسـاسات الفعالة والعقلانية . وسواء كانت تأتى من الطريق الاحساسي أو تضرب المخ مباشرة ، فان التأثير يكون قويا ، ويترك فيهم أثرا عميقا . وهم يخشـون اذن كل الخشية ، منذ السن الاولى ، البوادر البغيضة والمحزنة للغير بالنسبة لهم . واستقبال جاف أو ضد ولوم يهز كيانهم ويرضهم في الظروف العادية للحياة ، ولكن اذا لقوا صدا ، وخاب املهم ، واهمل شأنهم في الوقت الذي يهفون فيه ، على وجه الخصوص ، الى الود

والمحبة ، فان التأثير المكبوت الذى ينتج عن ذلك يمكن ان تكون له انعكاسات بالغة على شخصياتهم ، وتصرفاتهم التالية . والحساسية الكبيرة تساعد على اتساع وتعميق الذكاء ، شريطة أن يملك هذا الأخير وسائل خاصة كافية . ولكنها تسهم ايضا فى ذلك النوع من الخجل الذى ينفر ويؤثر العدول عن الحياة العادية عن مواجهة الاخطار العاطفية . والأطباء المتخصصون فى علاج النفس ذكروا امثلة كثيرة بين كبار الناس ، ومنهم جان جاك روسو واميل ، الناقد السويسرى المعروف بخجله ، والذى كتب مذكراته وحاول فيها أن يبرر لنفسه خجوله طوال حياته . ونحن نعرف أنه يمكننا التحكم فى وعينا دون الاضرار به ، بحيث تهيمن الحالة النفسية عليه دائما ، ونعرف كيف نحافظ على الهدوء والبشر ، أو نعيدهما الينا بالتالى .

٥ ــ الاقرارية :

ونعنى بها الاستعداد الشائع بالاهتمام باستحسان الغير ، والبحث عنه . وهو استعداد ممتاز عندما يحث على الابداع او على التملك او على الانجاز ، ويصبح سببا للقلق ، عندما يخلق وسواس حب الظهور . وهذه مسألة راى ، فان الرجل ذو القيمة الحقيقية ، والمراة المؤهلة بالتأكيد يعرفان ، من عيون الذين ينظرون اليهما بوضوح، أنهما مقدران حق قدرهما ، وأن راى دون المتوسطين لا أهمية له . ولهذا فهما لا يتصرفان اطلاقا لاعطاء الغير فكرة عالية عن أهميتهما ، وعن موهبتهما أو عن تفوقهما . وللأسف ، فان الغالبية الكبرى للمثقفين المتوسطين .. وذلك لشعورهم فى شىء من الغموض بأنهم مجردون من

الصفات الطبيعية الموحية للاعجاب — يبذلون جهدهم للتظاهر بالمعرفة وبالمقدرة وبامتلاك ما ينقصهم لتحديد اعتبار وود وحسن سلوك الغير . والاقرارية ، بمقارنتها بأحد اسباب الخجل السابق وصفها ، تنتهى الى خوف شديد من النقد . ويبالغ الخجول عندئذ فى اهمية شخصيته فى عيون أمثاله . ويبدو له دائما أنه أينما ذهب يهتم كل امرىء به ويفحصه بدقة ، ويسخر من عيوبه خلسة . وحيث أنه من الواضح جدا أن أحدا لا يهتم به فانه يشعر بأنه محور الانظار ، وأن هناك من يراقبه باصرار ، حتى فى اتفه التفاصيل .

واذا كان الأمر كذلك بين اللامبالين ، فان القلق يبلغ مداه عندما يتأكد من يهمه الأمر كل التأكيد بأنه محور الانظار ، اذا كان فى زيارة ، أو اذا كان فى الشارع ، أو اذا كان فى مكتب يتقدم اليه لأول مرة لالتماس وظيفة، أو اى شيء آخر ، أو أثناء حديث خاص مع شخص يمكن أن يكون للانطباع الذى يحدثه فيه عواقب يعتبرها هامة . واذا الح عليه خوف من اهانة لكرامته ، يفقد كل حريته فى التفكير ، وفى الحديث ، وفى التصرف ، ويرتكب حماقات ، أو أخطاء تزيد الطين بله .

والواقع أن الخوف من ان يكون أضحوكة ، او من ان يتلقى استقبالا ساخرا ، أو أن يسمع نقدا يعيبه ينشأ من غرور صبيانى او من نقص فى الشخصية ... لماذا تعلق اهمية اكبر على تقدير الغير عن تقديرك انت لنفسك ولشخصك ؟. وكذلك لماذا تهتم برفض أو فشل تربطهما بفكرة اذلال او اهانة ؟. ان اكفأ جنرال لا يكسب المعركة دائما ، ولكن اذا كان قد حارب بشجاعة فيمكنه أن يفخر بنفسه .

ان الغرور سم شديد الفتك ، يشل الجهد ويبدد الطاقة ويضعفها ، وهو يسهم ، عند المهيئين للخجل ، مساهمة كبيرة فى خلق الهلع من الانطباعات التى يبغضها. ونوايا المبادرة تصطدم عندئذ ، بدون انقطاع ، بذلك الحاجز الوهمي . وسنرى كيف نضع نهاية لهذا الاستبداد غير المحتمل .

٦ ـ الوهم :

الخوف ، وذكرى المحاولات الفاشلة ، والانطباعات الموهنة تظل أشد رسوخا وحدة واستمرارا كلما ازداد الوهم . والايحاءات المكبوتة تظل كذلك اثناء الطفولة وبعدها ، وعلى الأخص ، فان الشخص الذى يسمع طوال سنوات انه خجول ، وانه دون المتوسط ، وانه لا يعرف كيف ينجح فى هذا او فى ذاك ، يخلق لنفسه اوتوماتيكيا صورا يرى نفسه فيها مسبقا . مجحفا فيما يريد أن يشرع فيه ، وتزداد بالايحاء ميوله للخجل وللتردد .

ومثال الشخصية الجريئة ، وهو عنصر من أحسن عناصر التربية ، لا يحدث فيه أى اثر على الفور لأن اول رد فعل له يتم فى المعنى السلبى ، فيقول لنفسه لن اكون كهذا الرجل أبدا .

واذا صح أن البعض يمتقعون هلعا لا لشىء الا لمجرد فكرة الخطر ، فان الخجول الوهمى يحمر غالبا لمجرد فكرة ان وجود هذا الشخص او ذاك يقلقه ، او ان هذا الاحتمال او ذاك لا يثير قلقه .

وهكذا يلعب الوهم دورا متعارضا بالنسبة لكل من أسباب الخجل الاخرى ، فهو يحرك الانفعالية والحساسية ويفسر بحسرة المشاعر الجسمانية ، ويقرح الغرور مسبقا

وفي بعض الحالات فان تغلغل الوهم بالتصورات التي يسببها الخوف يخفق تماما نشاط النفسية العليا ، بحيث يفقد الخجول رأسه تماما ، ويستقر عندئذ عفويا نوع من الحالة غير الطبيعية أشبه بالتنويم المغناطيسي ، فلا يعود يعي مايسمع ومايقول ومايفعل ، وهذه الحالة لا تقع فحسب أثناء المراهقة « وهي مدة التكييف مع الحقائق » وانما تتكرر في فترات متباعدة • وربما طوال الحياة تقريبا •

ولا يتصور القارىء أنه ليس هناك ما لا يمكن عمله ، فما من خجول لم يمكن ولن يمكن معالجته ، خاصة وأن دور الوهم يمكن أن ينعكس ، فيكفي اخضاعه للرأي الاختياري ، وتنتهي الحلقة عندئذ بين الوهم والارادة دائما •

ونسمع من يقول : ليس هناك أشجع من جبان سابق تأخذه انتفاضة . والحقيقة انه ما من أحد يتجاوز الثقة في النفس اكثر من خجول سابق مفرط في الوهم ، فان الوهم ، اذا ما وضع تحت رقابة رأي معارض ، والهلع الذي صاحبه في الماضي يخلقان جشعا لعروض الجرأة والاقدام ، وللايحاءات المنشطة المقاتلة ، بحيث تغير الشخص تغييرا تاما ، وتكتسب نفسيته التي تزخر بالامكانيات الخلاقة صلابة ورباطة جاش تامة ، أفضل بكثير من رباطة الجاش العفوية التي قد لا تصمد أمام العقبات والعثرات •

وفي الظاهرة المعروفة عن الخوف الذي يستولي على الممثلين ، فان الحساسية تتفوق على الاقرارية على العموم ، ويخلق الخوف من الظهور أقل من المستوى الذي يصبوا اليه الممثل ، ويقوم الوهم عندئذ بعمله فيقع ما يخشاه

الممثل ويرى نفسه أمام الجمهور وتخونه وسائله ، ويجد أنه قد قوبل بالصفير وسخرية النقاد ، الخ ·· واذا كانت الانفعالية عنيفة بعض الشيء فيضيق التنفس وتزداد سرعة نبضات القلب وينقطع التوازن النفسي ·

والخوف من مواجهة الجمهور قد عرفه تقريبا كل الممثلين والمطربين والمحاضرين والمحامين والمبشرين · والغالبية الكبرى منهم نجحوا في التغلب عليه ، وعرفوا كيف يسيطرون على أنفسهم لكي يمثلوا ويغنوا ، أو لكي يتكلموا بدون أن يظهر عليهم قلقهم الداخلي . ولكن ، وبدون طريقة مجددة ، فان بعضهم يستمرون طوال حياتهم وهم يعانون من هذا الخوف الذي يعرفون اخفاءه تماما · ومع ذلك ، فيكفي اعادة تدريب كل من مركبات أو عناصر هذه الظاهرة على حدة للتحرر منها نهائيا ، ولاكتساب هدوء أو ثقة في النفس لا يمكن لاكثر الصالات صخبا التأثير عليها اطلاقا . ويكفي تحليل كل حالة على حدة لتخليص العنصر المهيمن عليها وتقدير السعة الخاصة للعناصر الاخرى ، واذ ننتهي من هذه الدقطة الرئيسية ننتقل بعد ذلك الى الاسباب ، من أكثرها حدة حتى أقلها عنفا · والضرر الوحيد الذي قد ينتج عن هذه الطريقة هو توليد نوع من اللامبالاة يجعل المهتم قليل الاهتمام بالتأثير الذي يحدثه ·

٧ ـ القصور الذاتي الموجه للنفسية العليا :

قيل انه عند المراهقة يمكن اعتبار نوع من الخجل عاريا ، وان تقوية الارادة تدريجيا بالصعاب والكفاح تميل الى استبدال هذه الازمة الصبيانية بالثقة في النفس، كما تمتلكها الغالبية الكبرى ، والواقع ان الرجل الذي يتمتع بالارادة القوية، والعزيمة الصارمة، سرعان مايتغلب

على الصعاب والمضايقات والترددات المتكررة، من الطفولة الى سن العشرين • وهكذا الحال مع المرأة ، ولكن كم يوجد في كل ألف شخص من ذوى الارادة القــوية والعـزيمة الصادقة ؟ من يعرف ما يريد في كل المجالات •• هـدف مبنى أو اجتماعي أو شخصي ••• نشاط طبيعي وثقــافي وارادى موجه بالذات نحو الهدف •• نظام داخلي متكامل ومستوعب تماما ومرتب ، وعندئذ تتــلاشى كل عنــاصر الخجــل وتنعدم • ويجب الادراك دائمــا أن كل امرىء لا يبذل جهده ، على العموم ، الا فى المجال المفروض عليه ، من حيث احتياجاته الضرورية وميوله الاستبدادية • وقد كتب أحد الفلاسفة « ان الرجل لا يعمل من تلقاء نفسه ، وانما هو مدفوع الى العمل » • وينتج من ذلك نوع من ضعف النفسية العليا تترك النفسية النصف واعية ـ نفسية اللاارادیین ـ تأخذ نصيبا مهيمنا واستبداديا فى حكم الفرد . وهكذا ينمو الخجل ويزدهر سببه جمود المدارك الموجهة عمدا ، وتجاهل هذه الاسباب، ووسائل مكافحتها واضعاف نفسية لم يعد لها مفهوم ولا رغبـة مراقبة الذات وهذا مالاحظته فى كل حالة . واذا دأب المريض على استفزاز هذا المفهوم وهذه الرغبة فيمكن ان يتأكد تمام التأكد انه سوف يتحرر من خجله بأسرع ما يمكن، والنقطة الجوهرية هى أن تشتد رغبته فى السيطرة على نفسه وفى أن يكون رابط الجأش ، ليس بطريقة سطحية وخارجية فحسب وانما بطريقة عميقة ، كاملة وصلبة •

الفصل الثانى

الاستعدادات الضرورية لتربية الثقة فى النفس

فى قرارة كل منا طاقات كامنة اكثر مما يكفي ، تسمح لنا بايجاز المجهود الشاق المنسق الذى بفضله يتغلب على كل عناصر الخجل ، واذا أنت استوعبت ما سوف يلى فسوف تتحرك طاقاتك الكامنة عندئذ ٠

١ ــ النشاط عموما :

نحن لا نفتقر الى الابحاث والاساليب المستخدمة لاولئك الذين يريدون تغيير شخصيتهم ، وكذلك لا يفتقر القراء ذوو النوايا الحسنة لمعرفة هذه الابحاث والاساليب ، ومحاولة تدريسها ٠ غير أن حماس اللحظة الاولى يتقد ثم لا يلبث أن يخبو ، كما تخبو نار الهشيم ٠ والطفرة الاولى يخف مفعولها فيستقر التعب ، ولا تلبث الآلية التى توقفت لحظة أن تعود سريعا ٠ وفيما يتعلق ، على الخصوص ، بالخجل الذى لا يبقى مدة طويلة أبدا ، رغم رد فعل نشيط مستمر ، فان هول اضرار تلك الحالة ، والجشع فى سبيل استعادة الثقة يضعف مفعولها عموما ويتعاملان مع الخجل بالتناوب ، وتتوقف عندئذ مقاومتهما الانعكاسية فى بضعة أيام ٠

والرغبة والايثار ، وهما عنصران بسيطان للافضلية ، لا جامع بينهما وبين الجشع المتسع الشديد الاتســـاع ، الذي يعد وحده باستمرار الطاقة الضرورية للتصرف فى سبيل التملك .

وكلمة الجشع نسمعها علوما بمعنى منتقص ، فنحن نقول : رجل جشع للنقود ، وجشع للذة ، وجشع للعظمة وهى مع ذلك تصف استعدادا نفسيا لا يميز الطماعين وطلاب اللذة أو المتغطرسين فحسب ، وانما تميز كذلك اولئك الذين يبذلون كل جهدهم وقواهم فى ســـبيل أية غاية . فهذا الباحث الذى ينحنى عشر ساعات يوميا فوق كتبه ورسوماته وأواته ، انما هو رجل جشع للمعرفة ، وجشع للاكتشافات . وهذا الملحن الذى يشرد ذهنــه لتمييز الالهام والذى لا يعنيه الوقت ولا الحركةولاالبيئة جشع لتحقيق عمل فنى خالد . وذلك العصامى المشهور فى مجال الصناعة ، والذى ابتسمت له الثروة منذ وقت طويل ، ولم يعد يهمه المال ، كما يهم أصغر مرؤوسـيه ، يبذل جهدا مضنيا لانه جشع للسلطة الاقتصـــادية . ما من أحد يعمل دون جشع . حتى الزاهد نفسه يتملكه الجشع نحو عمله الصوفى . وبدون الجشع فان الجنس البشرى سوف يعيش ، كما كان اجداده يعيشـون ، فى الكهوف ، وحيث لا يكون الجشع يكون الجمود ويسود .

ومامن أحد يصر على مشروع ما ، ما لم يكن مدفوعا برغبات شديدة ، نشاط قوى طماع ، أو بمعنى آخر ما ندعوه بالجشع .

وانت قد فهمت الان علاقة ما تقدم بضرورة اكتسـاب الثقة . ولاستبعاد اسباب القلق ، ولتدعيم عناصر الثقة في النفس ، عليك أن تصمم على العمـــل بأى ثمن لـكى

تصل الى النتيجة المرجوة ، وبناء على ذلك ، فان ذلك التصميم القوى والمهيمن والمستمر لا يمكن تدعيمه وتقويته الا باحساس طاغ من النفور من حيث أسباب ونتائج الخجل ، يضاعف ذلك احساس بالجشع الجارف لامتيازات الثقة وللمواصفات التى تحددها .

وهكذا ، وفى كل لحظة ، يجب أن تلتزم بشىء وأن تحرم نفسك من شىء آخر ، فى سبيل بلوغ حالة من رباطة الجأش التى تريد أن تخلقها فى نفسك . لا تضعف ولا تتجنب أى جهد . وقد تبدو لك الميزة الشاقة لذلك الجهد غير ذات قيمة ، وانه لا يعتد بها . فلتكن اذنك صماء للايحاءات المضادة . ولتتمرد روحك على تحريضات الجمود ، ولتجمع طاقاتك فى عنف لمواجهة كل عقبة جديدة . فكرة واحدة يجب أن تسيطر عليك دائما وأن تكون حية فى ذهنك ، وهى انك ستتغلب على كل عقبة ، وانك سوف تنفذ ما عزمت عليه لكى تصل الى ما تريد.

واذا كنت قد قرأت واستوعبت ما تقدم بعض الشىء ، فيجب أن تشعر أنك على استعداد لبذل كل مقاومة ، وعليك اذن ، قبل استمرارك فى قراءة هذا الكتاب ، أن تتزود بدفتر صغير وبقلم ، وأن تدون فيه وتحدد كل شىء .. كل سبب من أسباب الخجل ، وأن تحصى وتدون مايسببه لك من مشاق واضرار وآلام اذا لم تتخلص من هذه الاسباب . يجب أن تواجه عدوك هكذا ، وجها لوجه وأن تفحص كل تفاصيله وكل اضراره ومساوئه حتى :

١ ــ يشتد غضبك . يجب أن تتمرد كل العناصر النبيلة لشخصيتك لمجرد فكرة أن تقع فريسة لمثل هذه الحالة المجحفة .

٢ ــ تحرر ذهنك ، وذلك طبقا للقاعدة التحليلية

النفسانية ، من المفهوم الذى يقوم على أنك أنت وخجلك جزءان لا يفصلان ، وانه يتعايش معك ، اذا صح هذا التعبير الذى قد يكون وقحا ، ولكنه يعبر بوضوح عما أريدك أن تحس به • ما سوف تدونه سوف تستنبطه من نفسك ولتقم بالتجربة وهذا التمرين الاول ، اذا نفذته بدقة ، فسوف يحررك ويريحك • وليس معنى هذا انك ستشعر على الفور بأنك جدير بكل الجراءات ، ولكنك سوف تحس بأن التأثير قد فتر وتراخى •

هذا التمرين لا يمكن انجازه في عشر دقائق •• لابد له من ساعات • عليك أن تخصص له ساعات متعددة • اذا كان بيانك الاول ينقصه بعض النظام والوضوح ، فوضحه ، أعد تدوينه وتغييره ، واكتبه بترتيب اكثر وعناية أكبر ، ولكن تأكد أنك أفرغت كل جعبتك تماما •

احتفظ بما دونت بكل عناية ، وأعد قراءته مرة وأخرى ، واكمله دون تعب أو ملل • وخصص له ساعة ، مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع • وتعايش بالفكر وبالروح مع ما دونت ، وتمرد كل التمرد على حقيقة انك كنت مضرورا ومعذبا ومعرقلا ••

لا تسلم مرة واحدة بأن ذلك يمكن أن يدوم ، ان احساس الكراهية للخجل الذى ستحدده وتدعمه هكذا يشكل القطب السلبى لتلك الطاقة التى يمثل جشعها لاكتساب الثقة القطب الايجابى ، ولكى تستخدم هذه الطاقة لصالحك ، ولكى تحصل على نتائج عملية ، فمرن نفسك ، فى المكان الثانى ، على أن تمتد كراهيتك لكل عناصر الخجل • هذه العناصر التى درسناها فى الفصل الاول ، وكذلك عناصر أخطائك ، ولتلك التى تستسلم لها ، والتى تطيل بقاء العناصر المذكورة • عليك أن تكره

هذه الاخطاء كذلك ، وسوف تولد فيك هـذه الكراهية الاستعداد لازالتها وابطالها .

وبالعكس من ذلك ، أعد بيانا واضحا ودقيقـا عن كل مزايا الثقة فى النفس ، ودونها كما فعلت سابقا ، بطريقة تلهب جشعك للمزايا القوية الجريئة التى تريد اكتسابها واعمل بعد ذلك على أن يمتد هذا الجشـــع (من حيث النتيجة) الى المواصفات التى تنتج عنه ، والتى لابد من تهذيبها اذا أردت أن تكتسب رباطة الجأش اللاحقة بها .

أما الضعفاء والمنحطون عضويا ، فسـوف نكســبهم طبيعة كاملة على قدر الامكان ، وهى طبيعـــة ينبغى أن شعروا نحوها بجشع كبير . واشفاقا من التأثير الناتج من العيوب الخارجية ،سوف نقوم كذلك بتجـــربة تأثير شخصى قوى : المقاومة لتنظيم فرط الانفصـــــال وفرط الحساسية ، وسوف نواجه استبدادات الغرور بارادتنـا للاستقلال ، والتخوف الوهمى نتيجة استقامة وســـداد الرأى .

٢ ـ الكمال العضوى :

لنبدأ بكمال الاعضاء ، وسوف نبين فى فصل تال ، الاسس التى يجب اتباعها لتحقيقها، ولابد لذلك من خلق الجشع الذى لن نستطيع من غيره القيام بأية طفرة محركة لمناهضة حدة العادات الموهنة .

تصور تماما ما نعنيه بكمال الاعضاء ، وهى تلك الحالة حيث تعمل كل الخواص الفيزيولوجية بانســـجام تام ، لانه ليس هناك ما يعوق النشـــاط التنفسى والجهـــاز الهضمى والاوعية الدموية ، الخ ، حيث تقـــوم الطـاقة

العصبية بعملها بانتظام وغزارة ٠

يعيش المرء عندئذ حالة مستمرة من الراحة الداخلية مناسبة جدا للثقة في النفس والوضوح الذهني وسهولة العمل والتعبير والجهد العضلي، ويبقى الهدوء ثابتا لان الجهاز العصبي يتفاعل بطريقة لم تعد مفرطة ، وانما بطريقة معتدلة مع الانطباعات الخارجية ، وتتأكد الصلاحيات ، وتكتسب القدرة بسهولة لان التركيز الذهني وتطبيق العمل اليومي لا يعوقها توعكات ولا تباطؤات ولا انحطاطات .

وحيث ان نبضات القلب عادية فان التهييج الذى يسبب الخفقان والشحوب والاحمرارات العاطفية لا وجود لها. والخلاصة أن عددا معينا من عناصر الخجل تختفي بمجرد أن يستقر الكمال الوظيفي ٠

وبمساعدة هذه الاعتبارات، عليك أن تضع فى ذهنك التصميم على أن تحدد في نفسك كل مزايا نظام طبيعي ، وأن تتصرف بناء على ذلك ٠

٣ ـ التأثير الشخصي :

جشمع التأثير الشخصي هو الجشمع الذى يجب أن يناهض الكبت الذى يسببه الاحساس بالعيوب الخارجية٠ ومن هذه العيوب ما يتعذر التخلص منها، مثال ذلك الحدبات والتشوهات الجسمانية وغيرها ٠٠ أعراض جلدية وأوضاع جسمانية معينة سببها عدم كفاية التربية البدنية وغيرها وغيرها ٠ وهى عيوب قابلة مباشرة لبعض الضغوط ، فمنها ما يمكن اخفاؤها باصلاحات تعويضية ، ونعنى بها العيوب الناشئة من ضآلة القامة أو ضخامتها،

ويمكن التغلب على هذه العيوب بتفصيل الثياب بطريقة خاصة ، وباختيار أنواع خاصة من القماش • وأخيرا يكفي تخفيض بسيط جدا لعيوب أخرى يكون الخجول قد بالغ في حدتها، أو اعطاها صورة وهمية تسبب آلامه وأحزانه ولنتكلم أولا عن العيوب السطحية أو الواضحة والحقيقية . ومهما تكن الحالة فانني أقول لمن يهمه الأمر أن هذه العيوب لا يمكن أن تكون سببا مباشرا وضروريا لخجلك ، حيث اننا نرى كل يوم أشخاصا ضعاف البنية ، ومشوهين ، على جانب كبير من الثقة في النفس • وأهمية تلك العيوب بالذات أنك تريد اخفاءها، وعليك اذن أن تكف عن تدمير نشاطك الذهني باجترارات تضنيك ، وأن تستخدم روحك المعنوية في التغلب على تأثيرها عليك وعلى أفكارك • وما أن تفلح في ذلك حتى تستبعد ثقتك في نفسك لانها ، بتأثيرها على ذهنك ، انما تلغي وتبطل وسائلك لاحراز اعجاب الغير بك ، والتأثير عليهم •

ولنضع في احدى كفتي الميزان هذا العنصر الخاص بالنقص، ولنكدس في الكفة الاخرى كل الوسائل التي يجب أن تحرزها لنيل رضا زملائك : كلمة ايجابية مثقفة ، ونظرة هادئة وحازمة، وحركة خالصة لا يقيدها أي قيد، وتصرف واضح ، وسلوك لا عيب فيه ، وعلى الخصوص ، ارادة الاقناع ، تلك الارادة التي تجعل كل العيوب الشكلية ، حتى اكثرها كدرا ، مخفية عن العيون •• ان المنظر المشوه اذا اتحد مع ارادة التأثير على الغير ، ومع طبع ثابت وحازم ومهيمن ، يساهم في خلق انطباع مدهش في كل مكان ، وعلى كل انسان •• انطباع كثيرا ما يكون ساحرا تماما • والجمال المتملق والقبح المنبوذ أصبحا

اليوم غير ذى موضوع ، ولا أهمية لهما لان الناس اليوم تهتم بالمعدن وليس بالمظهر .

ولكى تنظم مظهرك ، وتطبع عليه علامة ارادتك ، عليك أن تنمي بكل قواك . الجشع للتأثير على الغير ، والقيام بما سوف نشير عليك به ، فيما بعد ، بخصوص الكمال العضوى لكى تكتسب المظهر الصحى ، وهو العامل الضرورى والاساسى للجمال ، والمجهودات التى سوف تبذلها لضبط النفس ، والتى سينصحك هذا الكتاب باتباعها ، من وجهات نظر عديدة ، ستوقظ فى نفس الوقت ثبات نفسيتك وابانة طبيعتك . وأخيرا ، حقيقة انك ترى فى كل شخص أمامك موضوعا للتجربة ستتيح لك تدريب وسائلك النفسية التى لن تلبث أن تبعد عنك وعن ذهنك الخوف والاضطراب اللذين تعرف أضرارهما .

٤ ـ رباطة الجأش :

أنت عاطفي ، أو حساس (راجع الجزء الرابع من الفصل الاول) ، أو لعلك عاطفى وحساس فى نفس الوقت . وللسيطرة على هذين العنصرين اللذين يسببان بلبلتك داخليا ، عليك أولا أن تكون جشعا لرباطة الجأش ان الاعجاب بالشجاعة ، واحترام البطولة الراسخين فى ذهن شخص شديد الخوف يخلقان فيه امكانيات نبيلة فى وقت الخطر، فهما يثيران ضميره ضد طبعه، ويحملانه على تطبيق أعماله طبقا له ، فالعاطفى والحساس المولعان بمثال لرباطة الجأش ، سبق أن انجزا حقا وبدون وعى خطوة كبيرة ، عليك أن تنمي هذا الجشع بكل قوة ، وليكن

أمامك دائما ، واستعرض على شاشة مخيلتك المثال الحى لرباطة الجأش والبرود والوضوح ، وانك لا تستطيع أن تكون غير ذلك ، والا تقطعت بك الاسباب ورحت ضحية لعقبات وموانع لا حصر لها ، لا يمكنك التخلص منها . ضع نصب عينيك مزايا رباطة الجأش ، وصمم على أن لا يؤثر فيك أى شىء خارج الحدود العادية والضرورية ، وصمم ، رغم كل شىء ، ورغم الجميع على أن تمتلك هدوءا لا يتزعزع ، وابحث ، سواء بالقراءة ، أو بالمعاينة ، عن النماذج والمثل التى تسيطر سيطرة تامة على أعصابهم وحساسيتهم ، شبع ذهنك بهم بكل ما تملك من قوة ، وتأمل أيضا النماذج والمثل المضادة ، تأملها بكل الكراهية وقل لنفسك ، مرة بعد مرة انك لا تريد أن تكون هكذا ، وان كل مراكز شخصيتك ملك لك أنت ، وانك سوف ترغمها ، طوعا أو كرها ، على أن تنحسر عن ذهنك ، وأؤكد لك أن الخجل سوف يتعارض عندئذ مع استعداداتك الاخلاقية .

٥ ـ الاستقلالية :

رأيت فى الجزء الخامس من الفصل السابق أن المرء عندما يشعر بالضيق حين ينظر اليه شخص أو أكثر ، أو حين يفترض مجرد الافتراض بانه محط الانظار، يتملكه الخوف من أن يظهر على غير ما يريد أو أن لا يظهر كما يريد . هذا الاهتمام بالاقرارية ، وهذا الهلع من الرفض مصدرهما فى آخر تحليل من احساس بالغرور . واذا استبعدت هذا الاحساس الذى لا يمكن أن تنتظر منه أية نتيجة ، والذى يدفع الرجل أحيانا الى التصرف ضد

اخلاقياته وطباعه ، فسوف تتخلص تماما من الانطباعات البغيضة ألتى تجعلك حساسا نحوها. ولكى تتغلب عليها عليك أن تنمى الجشع للاحساس المضاد ، ونعنى به الاستقلالية . عليك أن تدرس كل المزايا وأن تفحصها جيدا .. انها من الكثرة حيث ان كل شخص تتغلب فيه الاستقلالية على الغرور ، يصل من هذه الحقيقة وحدها ، الى تفوق كبير واضح. افكاره وآراؤه وحديثه واستعدادات وقته ، وقراراته فى كل شىء تكف عن التحزب لرغبة ارضاء الغير ، ولا يهمها بعد ذلك رأيا مميزا عنها ، وتولى كل طاقاتها لانجاز اراداتها الخاصة ، وتتصرف ولا شاغل لها الا تحقيق كل خطة رسمتها بتعقل وحرية ، والهدف الوحيد لسلوكها هو التصرف تصرفا معقولا لا لوم عليه ، وتحقيق أغراضها بكل دقة . وفيما يتعلق بها فان تقديرها الخاص هو وحده الذى يهمها ، مع ملاحظة ان ذلك لا يستتبع أية انطوائية ، بل يجب على العكس ان تحرر نفسها من تأثير الغير للحصول على مساواة الطبع ، وعلى التساهل ، والرقة والكتمان ، وللاحتفاظ دائما بذلك البرود الذى يصطدم بالسخرية والتهكم والنقد ، وكل الحملات على العموم ، وهذا لا يستتبع أيضا الاحتقار المتعجرف للاراء التى يمكن أن يتيحها التفوق أو التجربة وانما يستتبع بالاحرى قابليتها بالاطلاع عليها والتحقق من صحتها (وليس لارضاء من يمنحونها اياها فحسب) ، غير أن هذا يستوجب الاحتفاظ بحرية الاخذ باعتبار الاراء المقترحة عليك ، أو عدم الاخذ بها ، وان تبقى دائما سيد نفسك من حيث الموافقة أو الرفض ، وأن تحتفظ برأيك وبكلمة واحدة ، ان لا تهتم على الاطلاق بتأثير الغير .

ومن السهل أن تفهم أن الجشع لمثل هذه الاستقلالية

لا يلبث أن يعصم الخجول من الانطبـــاعات التى كانت تتسبب فى ضيقه فيما سبق . واذا قال له أحد فى نفس اللحظة التي يهم فيها باتخاذ قرار « ســوف تكون مثيرا للسخرية » فان رده التلقائي يجب أن يكون « سيان عندى هذا ما دمت أرى أننى لست كما تقول . »

هذه الاستعدادات لا ترتجل ما بين يوم واخر، وانما تكتسب بمجهودات بعضها شاقة جدا ، ولكن ما أن يتدخل الجشع حتى يبذل المرء جهده بأى ثمن . وسوف يروق له أن يتفاعل ضد الطبع الـذى لا يلبث أن يتغلب فى المـرة الاولى . غير أنه سوف ينتهى بالانهيار تحت الحمـــلات الجديدة .

٦ ـ اولوية الراى غير المتحيز :

الدور الطبيعي الـذى يقـــوم به الوهـم هو اشراك المعلومات المسجلة فى الذاكرة مع ما يدور فى ذهن الواهم من مخاوف وتوقعات ، بحيث تتكون نظريات جـديدة ، ســواء كانت شريرة أو خـيرة ، وما أن يفلت الوهـم من وصاية العقل حتى يميل الى الشرود ، ويتفاعل مع العاطفة والحساسية أو الغرور ، فيحاصر بتوقعاته الموهنــة ويملل انطباعاته الحقيقية بتضخيمها ، ويساهم بذلك مساهمة كبيرة فى اضطرابه الدائم ، وعلينــا عندئذ أن نتحول طبقا لتوجيهاتنا العامة الى الاستعداد المضاد : نزاهة الرأى اليقظ ، ولنتشبع بالجشع لمثل هذه الميزة.

لنتصور مثلا أعلى يتتبع بحزم وعزم تبعية الفـرائز والانطباعات والانفعالات والمشاعر والايديولوجيات لميزان رزين اختيارى للضمير غير المتميز، وبذلك نخفف ، الى

أدنى حد أخطاءنا من كل الطباع ومن كـل اخفـاقاتنا ، وخيباتنا نتيجة لذلك .

هناك نظام دقيق لبلوغ ذلك ، وسوف نشير اليه فيما بعد ، ولكن استعدادا للحفاظ عليه ، يجب أن ننمى فى أنفسنا الجشع للادراك والفهم والاستنتاج والمنطق . ويجب أن ينصب اهتمامنا فى كل الامور على الطوارىء والعقبات ، وأن نحاول تفهم الحقيقة التامة خلف كل الظواهر .

كم من مرة يظن الخجول أنه يستشف سوء النية فى نظرة محللة ، وكم من مرة يعزو نظرة سافرة فى وجه باسم ، أو نية جارحة فى كلمات نزقة . ذلك لانه يترك نفسه تجرى مع الاوهام بدلا من أن يحاول تفهم ما يراه أمام عينيه حقا ، أو أن يدرك ما يسمعه حق الادراك . يمكننى أن املأ صفحات كتاب كامل بالمخاوف التى يتعرض لها الخجول بسبب خطرفته الوهمية .

عليك اذن أن تصمم على أن لا يقف شىء أمام أى استعداد يتطلب منك القيام بخدمات هامة ، على أن لا تخضع لنزواته . وكن على استعداد لأن تراقب نفسك ، وان تبرر انطباعاتك حتى تحتفظ فى كل لحظة بوضوح ذهنك وهدوئك .

٧ ـ تفوق الشخصية :

تقوم طريقتنا ، كما لاحظ القارىء ، على ابدال كل من أسباب الخجل بحالة مضادة ، وقد رأينا اننا حتى قبل أن نشرع فى العمل فعلا لكى نخلق فى أنفسنا كل استعداد ضرورى ، لابد من ان نخلق الجشع له ، لأن هذا الأخير يحرك الاحساس بالدافع للعمل .

وتنفيذ ما سبق سوف يضع حدا لذلك الجمود الموجه للنفسية العليا (السابق وصفه فى الجزء رقم ٧ من الفصل الاول) والذى يجب على الخجول أن يعزو اليه عجزه فى السيطرة على انطباعاته امام الغير .

وتنفيذ ما سبق انما هو محاولة أولى فى الواقع ، قاعدة أولى للتمرين على الاستيعاب ، واتخاذ القرار بحزم ، والعمل المقرر الموصوف فى الجزء رقم ١ (ونعنى به كتابة البيان) والذى لا يتطلب شيئا آخر على الارادة الحازمة له فائدة أخرى ، وهى ضمان انطلاق النفسية العليا (ارادة متعلقة) .

والمهم هو أن يفهم الخجول ، تمام الفهم ، انه يتألم، فى آخر تحليل له من فوضى آلياته اللاشعورية ، فهو لا يريد أن يضطرب أو أن يرتبك ، ولكن رغما عنه يتشوش فكره ويتبلبل ، يريد أن لا يحمر وجهه ، ولكن وجهه يحمر رغما عنه ، يريد أن يجد الجرأة لكى يقول هذا أو ذاك ، ولكن ، رغما عنه ، مجرد رؤية الشخص الذى يتحدث اليه تكفى لكى يجف حلقه . هذه الآليات ، وهذه التلقائيات التى تحدث له رغم ارادته ، التى يجب أن يكون سيدها المطلق ، عليه أن يتصرف معها كما يتصرف الفارس مع جواد جموح غير مروض . يجب على الخجول أن يقاوم كما يقاوم ذلك الفارس ، وأن ينجح فى محاولته هذه ، ويهيمن على كل الظواهر لنفسيته السفلى .

عليك اذن أن تنمى الجشع للقدرة على أن تتمالك نفسك ، وأن تتمرد على كل استبداد للغرائز والاغراءات والانفعالات والعادات ، الخ . . . ان الرجل الذى يسيطر تماما على آلياته النفسانية يملك ، مهما كان تصرفه ،

صفاء أو هدوءا يرتبطان به وحده تقريبا ، وعلى العكس من ذلك فان الرجل الموهوب بطبيعتــــه أو بمولده أو بثروته ، والمجرد فى نفس الوقت من المراقبــــة الذاتية تكفيه بعض الاغراءات العاطفية المكبوتة لكى يغدو بعــد ذلك حزينا ومضطربا وتعيسا .

البرنامج الارتكاسى الذى رسمنا له صورة ، سيبدو للبعض غير منسق مع طباعهم فعليهم اذن أن لا يرتكبوا ، وأن يحولوا كل أهتمامهم لكى يبلغوا أحد الأهــداف ، ثم هدف آخر بعد ذلك ، فثالث ، وهكذا دواليك ، ان أقل تقدم يفتح الباب للطريق الذى خططه ، ويشحذ نشاط الاستعدادات النبيلة .

وما يجب ان يراه دائما هو بالذات التقدم الخفيف الممكن تحقيقه فوراً ، وبفضل هذا التوجيه ســــوف يبلغ الغاية أخيرا .

كمال الأعضاء

سيحاول القارىء طبقا لما تقدم التغلب قبل كل شيء على النقص والاضطرابات العضوية التي تتسبب في الكثير من عناصر الخجل ، ومن اجل ذلك لابد بالضرورة من الالتزام بقوانين التوازن الفيزيولوجي .

١ ــ البيان الأول :

لابد لنا قبل كل شيء من دحض اعتراضين ، الاول : انا لست مريضا ، ليس لخجلي عناصر طبيعية . والرد على ذلك : أنت لا تتألم وليست بك علة ، وتستنتج من ذلك انك لست مريضا ... أنت معصوم في الوقت الحالي من نوبة جادة ، ولكن هناك ، بين حالة المريض طريح الفراش والظاهر الاضطراب ، وبين التوازن الحقيقي الداخلي ، مكان لحالة وسط يميزها شذوذ او شواذ كثيرة وظيفية ، واذا أنت بحثت جيدا فسوف تجد أن بعض هذه الشواذ موجودة لديك . أما الاعتراض الثاني : انا أعرف أن « فلان » ضعيف ومريض ولكنه شديد الثقة في نفسه . والرد على ذلك هو أن « فلان » هذا مجهز بأوصاف طبيعية تسمح له بالتغلب على الدوى

العصبى والذهني لحالته الطبيعية السيئة ، وهذه ليست حالتك ، فانت أحسن منه صحة ، ولكنك خجـــول ، وها نحن قد وصلنا الى ضرورة عمل كشف بيان تفصيلى لمعرفة شواذك الوظيفية وتحسينها .

لابد من فحص دقيق يقوم به طبيب متخصـــــص في وظائف الانسان ونفساني في نفس الوقت . وان لم يتيسر لك ذلك فلابد من أن تقوم انت بفحص نفســـك مستعينا بالارشادات التالية :

ا ــ النوم : هل تأخذ كفايتك من النوم ؟ .. اى سبع ساعات على الأقل لذوى المزاج الصفراوى ، وثمـــانى ساعات لذوى المزاج الدموى ، وتسع ساعات لذوى المزاج العصبى ، وعشر ساعات لذوى المزاج الليمفاوى ؟ ... لكى تعرف لأى من هذه الأمزجة تنتمى ، افحص بشرتك بالمقارنة لورقة بيضاء : بشرة اترجية « اى بلون الأصفر الليمونى » مزاج صفراوى ، بشرة حمراء : مزاج دموى . بشرة سمراء : مزاج عصبى . بشرة بيضـــــاء : مزاج ليمفاوى .

ب ــ مدة النوم شيء ، وهدوؤه شيء آخر ، فهل تنام نوما هادئا غير مضطرب لا تتخلله احلام ملحة ؟ أعلم انه مالم يجتمع الاضطراب والاحلام ، فان نومك الهـــادىء المتزن سوف يساعد فى تحقيق ثقتك فى نفسك والتحكم فى اعصابك .

جـ : التغذية : هل شهيتك عادية وقوية او متقلبـــة ومتهربة ؟

د ــ هل تميل الى تناول اطعمة ثابتة لا تتغير او الى اصناف متعددة ؟

وبمعنى آخر ، هل تفضـــل تنـــاول عدد قليـــل من

الاطعمة فى حين لا يروق لك غيرها ، أم تفضل تناول كل أنواع الطعام تقريبا بلا تمييز ؟

هـ ـ هل تأكل باعتدال او بكثرة ؟ يجب أن تشعر فى الحالة الأولى بعد مغادرتك المائدة أن جسمك خفيف وذهنك صاف لا يعكره شيء .

و ـ هل تلاحظ انك تهضم جيداً ؟ اعنى هل تشعر بتثاقل واكتئاب وبالنعاس والصداع ؟

ز ـ هل تزودك كل وجبة بهدوء وثبات فى الساعات التالية ؟ .. أم تشعر بتهيجات أثناء الساعات الاولى التالية ، وبالاعياء فيما بعد ؟

ح ـ الاخراج : يجب أن تخرج لترا ونصف من البول كل أربع وعشرين ساعة .

اذا كانت الكمية الاجمالية للبول بعيدة عن هذا الرقم ، او أذا تجاوزته بكثير ، فلابد من مراقبة ذلك ، والتحقق سهل ، حدد يوما يمكنك فيه البقاء فى بيتك واستخدم برطامانا مدرجا ، من تلك التى تباع فى الصيدليات .

ط ـ يجب أن يكون البول رائقا وشفافا دون أى ترسب ... لونه العادى كلون التبن الأصفر ، تحقق اذا كان بولك بهذا اللون .

ى ـ ألجهاز الهضمى العادى يطرح باخراجاته مرتين كل اربع وعشرين ساعة . اخراج واحد يمكن أن يكفى . اما اذا لم يكن هناك اخراج خلال الأربع والعشرين ساعة ، فمعنى ذلك أن هناك تسمما .

ك ـ التنفس : كثرة الزكام وتهيجات الحنجرة أو القصبة الهوائية والسعال والبلغم ، كلها أعراض لاضطرابات ويجب عرضها فورا على أخصائى .

ل ـ هل قدرتك الرئوية عادية ؟ الحد الادنى المسموح

به هو ١٨٠٠ سم مكعب ، املأ بالماء زجاجة سعة لترين بعنق ضيق ، أدخل في عنق الزجاجة أنبوبة من الكاوتشوك . ضع الزجاجة بسرعة في طست به ماء بحيث يكون طرف الانبوبة الكاوتشوك الخارجي فوق سطح الماء ، وامسك هذا الطرف وخذ نفسا بطيئا وعميقا ، ثم أطلق الهواء الذى تنفسته وانت تنفخ في طرف الانبوبة. سيتسبب ذلك في اخراج كمية من الماء مساوية لكمية الهواء المزفور . وهناك على كل حال ، لدى الاخصائيين اجهزة خاصة لنفس المعيار .

م ــ القلب والأوعية الدموية : هل تحس احيانا بارتفاع مفاجيء وسريع وحساس جدا لنبضات قلبك ؟

ن ــ هل تتجمد أطرافك كثيرا عندما تنخفض درجات الحرارة ؟

س ــ هل ينتفخ وجهك عند صحوك من النوم

ع : هل يتورم كعباك بعد السير أو كل ليلة دون سبب ظاهر ؟

ف ــ هل يصفر لونك ويحمر كثيرا تحت تأثير انطباعاتك ؟

ص ــ الجهاز العصبي : هل ترتجف تحت تأثير انطباع حواس مفاجيء ، مثال ذلك عقب رنين جرس حاد أو ضجة عنيفة متسببة من وقوع شيء .

ق ــ هل تحتمل أقل ألم حاد ؟.

ر ــ هل تشعر كثيراً باخفاق وضعف و... ؟

ش ــ الجهد الطبيعي والمعنوى ، هل تنفر ... حتى ولو كان ضعيفا ؟

ت ــ هل تحس بالسخط وتميل الى كثرة الكلام ، وتنفعل وتحتد بسرعة ؟ مع ملاحظة ان الانحطاط ال... ينتج

فى بعض الحالات من الأسباب التى ذكرتها من الجـــزء الثانى فقرة ب من الفصل السابق .

المخ ــ الميزان الرئيسى للحالة العقلية هى قـــــدرة الاهتمام . سل نفس الاسئلة التالية فى هذا الصدد :

ــ هل أستطيع القراءة ساعة أو ساعتين بالتوالى من غير تعب ؟

ــ هل أستطيع أن أدرس كذلك من غير تعب كبير ساعة أو ساعتين فى اليوم ؟

مجرد القراءة دليل على الاهتمام الطبيعى ، أما الدراسة تتطلب اهتماما طوعيا .

ــ هل أفهم فورا وبوضوح الآراء الجـــديدة التى اسمعها أو اقرأها أو التعليمات التى أتلقاها ؟.

ــ هل يجب أن أتعب كثيرا لكى أتكيف مع عمل جديد ؟

ــ هل تبقى ذكرياتى واضحة ؟

رغم ايجاز هذا البيان ، فان فحص ما تقدم يكفى لكى يتيح لك تقدير شواذك الرئيسية أو عيوب جهـــازك العضوى . بيان أكثر دقة يفيد غالبية الخجـــــولين ، ومن صالح كل منهم استشارة طبيب متخصـــــص فى حالتهم . ولنرى الآن العلاج الملطف لكل من هذه الحالات.

٢ ــ الشرط الأول الأساسى .

كتبت ذلك كثيرا ، وأعود اليه ثانية لأنه نقطـــــة أساسية ، ان قلة النوم وعدم كفايته يتسببان حتمــا فى اضرار كثيرة ، صحيح أن بعض الأشخاص الذين يتمتعون بقوة احتمال كبيرة يحتملون الأرق دون انهيار ، وصحيح

كذلك ان هناك اشخاصا غير أقوياء ،ولكنهم مدربون ومعتاذون على قلة النوم ، ولا يعانون منه . وتفسير ذلك أن أجسامهم تتكيف مع الضغوط التي يفرضونها عليها ، غير أن الأجسام القوية التي لا تأخذ كفايتها من النوم وتعاني من الأرق لا تلبث أن تقع فريسة لانحطاط وانهيار حقيقي ، ان آجلا وان عاجلا .

والنوم له أهميته الكبرى للشخص الخجول بوجه خاص ، فهو اذا نام نوما هادئا طبيعيا عدة ليال متتابعة فذلك دليل على أن ثقته في نفسه تميل الى الازدياد ، أما اذا قضى بضع ليالي في نوم مضطرب متقطع ، فان ذلك يدل على أن كل اضطراباته تزداد وتتضاعف ، والسائل العصبي الكامن يرتفع أو ينخفض طبقا لقيام الطاقة الليلية بعملها كما يجب أو لا يجب . وفي الحالة الأخيرة تضعف كل الوسائل المساعدة للنمو ، ويفتقر الجهاز العصبي كله الى النشاط ، وتنهار كل العناصر المحركة للعروق ، ومن هذا ترى أن النوم أمر لابد منه ، أو على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للخجول الذي يريد أن يتحرر من وهمه النفساني .

والاحتياطات الواجب اتخاذها بسيطة جداً في الحالات العادية :

ــ تخصيص ساعات معينة واتباعها بدقة .

ــ تخصيص الساعة التي تسبق النوم لعمل هادىء .

ــ اطفىء النور بمجرد رقادك، وهيئ جسمك بسهولة للنوم ، ثم امتنع عن الحركة تماما مع أرخاء عضلاتك ، والاحتفاظ بوضعك هذا حتى يغلبك النوم .

ـ واذا عز النوم رغم التدابير السابقة ، او اذا كان مضطربا ومتقطعا ، او اذا صحوت قبل الأوان فان بعض الاحتياطات الاضافية لها فائدتها وهي :

ـ الامتناع عن تناول المنبهات او المهيجات .

ـ الاقلال من وجبة المساء الى الحد الادنى ، والاكتفاء بالبقول والخضراوات والفواكه .

ـ الاستحمام او رش الجسم بالماء الفاتر لمدة عشر دقائق قبل النوم ، بعد استبعاد الوقت الضرورى بين تناول الطعام والنوم طبعا .

واذا عز النوم رغم ذلك وتغلب الأرق فلابـــد من استشارة الطبيب .

٣ ـ التغذية الحقيقية :

يكفى أن يرجع القارىء الى الاسئلة التى وضـــعناها فى الجزء الأول من الفصل الحالى فيما يتعلق بشـــهيته وجهازه الهضمى والامساك والاسهال لاكتمال الانســجام الوظيفى التـــام ، وما لم يكتمل ذلــك ، ومالم تقـــم القوى الطبيعية والعقلية بعملها الى جانب التغـــذية الكاملة ، فلن يتاح للخجول الوضوح الذهنى ولا الثقـــة فى النفس .

وها هى القواعد التى لابد منها فى سبيل ذلك :

ـ التمرين ساعة كل يوم ضرورى فى الهواء الطلق ، وذلك بالنسبة للجميع ، على وجه الخصوص . من اجل تنظيم غذائى سليم .

ـ اوقات معينة لتناول الطعام .

ـ لا يجب تناول اى شيء بين الوجبات فيما عدا الماء القراح .
ـ الأكل من غير جوع يؤدى الى الاكتئاب فيما عدا اذا لم تتفتح الشهية فى الوقت المعين فخذ نصف كوب من الماء فحسب ، ثم اخرج واستنشق الهواء ، وانتظر حتى يحين موعد الوجبة التالية .
حذار من التفضيل الخاص لذوقك ، وأبتعد بوجه خاص عن الأطعمة المتبلة والمسبكة والدسمة واللحوم ، واحرص على تناول الضرورى من البقول والخضر والفواكه مع كل وجبة . وأتبع الجدول المذكور فيما بعد على أساس وحدة من اثنتى عشرة وحدة :

أ ـ لحوم وبيض	٢
ب ـ خضروات خضراء وفواكة طازجة	٤
ج ـ نشويات	١
د ـ البان وجبن طازجة	٣
هـ ـ فواكه جافة وخبز وبقول	٢

والأكل شيء والتمثيل الغذائى شيء آخر . والوجبة الوافرة تتعب المعدة ولا تفيدها كما تفيدها وجبة معتدلة ، وعملية الهضم تبدأ فى الفم ، وعليه فمن الواجب مضغ الطعام جيداً ، وترضيب البلعة الغذائية ، والا فان المادة الأولية تهبط الى المعدة قبل الأوان ، والنتيجة احساسات شاقة ومضنية .
ان احسست بأية تهيجات خلال الساعة التالية للطعام وشعرت بانك خائر القوى بعد ذلك ، فمعنى هذا انك افرطت فى الطعام بالنسبة للنقطة الأولى ، والافراط

ليس تناول كميات وفيرة فحسب وانما بتناول كميات أكثر من اللازم بالنسبة للاطعمة الأخرى .

٤ ـ التسمم والفضلات :

اذا كشف لك البيان المذكور بالجزء الأول شذوذا فيما يتعلق بالاسئلة (ح ط و ى) فهذا يدل على الأقل على :

١ ـ ان طعامك سام أو لا يحتوى على ما يكفى من الماء .

٢ ـ ان عضلاتك ليست نشيطة بما فيه الكفاية ، وأنت قد رأيت كيف نظمنا أوقات وجباتك ، وفى تسع حالات من عشر ، فان مراعاة التعليمات الغذائية السابقة تكفى لتنظيم النسب والأوزان العادية والاخراجات ، وسوف تساعد على ذلك أيضا بشرب الماء اثناء النهار .. بضعة انصاف من الأكواب من الماء القراح (مغلى أو مرشح اذا أمكن) ، والدمويون وذوو الاجسام البدنية وجميع الذين تفتقر معدتهم الى النشاط على العموم ، من فائدتهم أن يأخذوا فى الصباح ، مرتين أو ثلاث مرات فى الاسبوع أو حتى كل يوم نصف ملعقة صغيرة من سلفات الصوديوم ، وزيادة على ذلك نقول ان كل شخص ينبغى أن يحلل بوله مرة كل سنة على الأقل وأن يعرض نتيجة التحليل بعد ذلك على الاخصائى .

٥ ـ الشرط الثانى الأساسى :

نمو صدرى ونشاط تنفسى شىء عادى على الأقل ، وهذا أمر ضرورى ، ولكن من الأوفق أن يكونا فوق

المادة ، وعلاوة على العمل المباشر للتنفس على الصحة الطبيعية ، فلا يجب أن تنسي أن النشاط التنفسي هو المنظم الأكثر امانا للانفعالية ، اذا لم يبلغ محيط صدرك خط العرض فنمه بالرياضة ، امض الى الملعب ومارس الرياضة البدنية بالاجهزة الرياضية ، واحرص على اتباع كتاب جيد فى التربية البدنية ، ولا يهم أى هذه الوسائل الثلاث تفضلها ، وانما المهم هو أن تتصرف .

ابدأ بجهد ثلاث دقائق كل يوم ، وضاعف المدة بالتدريج ، وفى هدوء ، واذا ما نميت الجشع للكمال العضوى كما وصفنا لك فى الفصل الثانى فان هذا الجهد لن يشق عليك ، ستجد فيه تشجيعا فوريا ، ليس من التأثير الطبيعي المباشر للتمرين فحسب ، ولكن لأن كل جهد غير عادي تلتزم به وتنفذه بدقة يزيد الثقة فى النفس .

تنفس بقوة اثناء الساعة اليومية فى الهواء الطلق ، كما وصفنا سابقا ، وعندما تمضى الى عملك حاول ان تتنفس بعمق أكثر من مرة ، أن هذا العمل من احسن موارد النشاط الطبيعى والمعنوى .

والملعب الرياضى مناسب للضعفاء على وجه العموم ، فوجود الأشخاص الاصحاء الذين يتألقون صحة تشجيع كبير ومغناطيسى لهم ومحرك لجشعهم للقوة والجرأة .

والغذاء الجيد البعيد عن السميات والمجرد من المنبهات ، والتبرز الطبيعى ، والنشاط الصدرى السليم ، كل ذلك ينظم نبضات القلب والدورة الدموية دائما تقريبا ، واستخدام المعالجة المائية بطريقة معتدلة توافق المقاومات البدنية وتساعد الاوعية الدموية ، ولا تنسى

النوم ابدا ، فهو القاعدة الأساسية للتوازن .

وسوف يرى من يهمه الأمر الى أى مدى تيسر الراحة الداخلية الثقة بالنفس .

٦ ـ الصحة العصبية والذهنية :

تكلمنا عن أساس الصحة العصبية والذهنيــــة وهى الصحة العضوية . أغلب الاضطرابات العصـــــبية أو السيكوباتية تنتج اما عن تسمم ذاتى أو نتيجة لتسمم ذاتى ووراثى ، واختيار طريقة المعيشة المطابقة لارشاداتنا السابقة تفرض نفسها اذن قبل كل شىء .

واليك ما يجب اتباعه لتشجيع هدوء الأعصـــــاب ووضوح الذهن .

ـ تنظيم أستخدام الوقت بما يكفى من الدقة لتجنب الاضطرابات والتهورات الناتجة من الاستعجال والتأخير ، وكذلك المعاناة من الأعطال .

ـ الابتعاد عن الاشخاص المضطربين والمهــــــزارين والسوداويين والقلقين .

ـ تلطيف الاحساس بالعظمة والغرور .

ـ التحدث والتصرف بهدوء وتأنى ، وتجنب النشاط المحموم .

ـ ارخاء العضلات والأعصاب مرارا كثيرة فى اليوم ، ولهذا عليك أن تنفرد وأن تجلس وتتمدد وأن تطبق عينيك وتتنفس بعمق وانتظام وأن تستجم .

ـ الامتناع عن كل قراءة مثيرة وكل عرض مسرحى أو سينمائى من طبيعته اثارة الانفعالات العنيفة .

ـ انتهز كل فرصة لكى تقوم وحدك بتمرين هادىء ومنتظم فى الهواء الطلق .
ـ الابتعاد عن كل انحراف وكل عادة موهنة ، وهـذا شيء ضرورى وأساسى .
ـ وأجه المضايقات والفشل المحتمل كحدث لابـد منه ، وتقبله كما تتقبل المطر أو العاصفة .
ـ استخلص من كل تجربة درسـا تتحرر به من مساوئها ، وتستفيد من محاسنها ، ولا تستسلم للحزن اكثر من اللازم .
ـ فى حالة الاجهاد عليك أن تستعيد بأسرع ما يمكن ، بالنوم وبالانفراد ، الطاقات الضائعة .
ـ تجنب تجاوز حدة ومدة الجهد المتعادل مع بنيتك الاصرار المنسق يحقق دون ضرر ما لا تحصل عليه بالمكابرة الانفعالية رغم الجهد الشاق .
ـ الغضب ، سواء له مبرراته أولا ، يستنفد الطاقة العصبية دون فائدة ، ويشوش الرأى ويثير الامعاء ، مهما تكن أخطاء الغير نحوك فلا تمنحهم مثل هذه التضحية .

اذا حاصرتك فجأة صعاب مضنية فثق انك سـوف تجد الحل بكل تأكيد فى الهدوء والاستجمام ، وتعـلم أن تطرح عنك ، عند الضرورة ، همومك ، وأن تخـرج لاستنشاق الهواء والتسكع والاسترخاء ، لن تكون الا اكثر صفاء فيما بعد .

اطرح عن ذهنك على الفور المشكلة التى تسـتعصى عليك ، ثم عد اليها ، وهكذا دواليك ، فان احتمـال المسئوليات الجسام بمرح ونشاط ليس له سر آخر .

يوجد فى العالم من وجهة النظر الثقافية ١٠٪ من

محدودي الذكاء و ٧٠ ٪ من دون المتوسطين ، فاذا استولى عليك الحنق أمام كل منهم ، واذا اجهدت نفسك لترجيح وجهة نظرك فى كل مرة تمتهن فيها العدالة فانك سوف تتنى حياتك فى تبديد نشاطك فى محاولتك لاصلاح الكون ومحو الجهالة .. ثم أن الجدال فى أمر غير ضرورى بالمرة مضيعة للوقت ، وكانك عندئذ تنفخ فى قربة مقطوعة .

العمل اليقظ والهادىء يقوى الاعصاب والذهن حتى اذا كانت متعبة على وجه الخصوص .

٧ ـ الحالات الخاصة :

هناك لسوء الحظ عجزة كثيرون ومعوقون بالوراثة، ولو اننا ملأنا كتابا بالارشادات والنصائح فلن يكفى ، منهم أولا ضعاف البنية ثم أولئك الذين يعانون من نقص التغذية ، أو بكل بساطة من عادة مشئومة متمكنة تتطلب عناية طبية خاصة ، والاضرار لا يمكن معالجتها بنكرانها وانما بمواجهتها ومقاومتها بكل الأسلحة المتاحة .

ومن الطبيعى اننا لن نخلق مصارعا من مسخ ، ولكن هذا الأخير ، اذا لقى الرعاية اللازمة وعومل كما يجب وبمثابرة فسوف يتوازن ويغدو بطريقة نسبية وانسجامية افضل من حالته الأولى ، ومن الطبيعى أن الأشخاص الذين يعانون من خوف مفرط ، وحساسية كبيرة نتيجة لاضطرابات الوراثة ، سوف يجدون ، ان لم يكن نشاط القوة الفطرية ، فعلى الأقل درجة كبيرة من الثبات والهدوء نتيجة لمعالجة خاصة .

ودور الطبيب فى كلتا الحالتين رئيسى وضرورى .

ولا يتسرع أحد على كل حال بالهام الوراثة بالشواذ التى يراها ، فان الحالة الوراثية استثناء ، والانكسار المحض لقوانين الانسجام الفيزيولوجى هو القاعدة .

والتنفيذ الدقيق لما جاء بالفصل الحالى سوف يزودك بمعيار أمكانياتك لتسوية دواليب جهازك العضوى بطريقة مرضية ، وبصرف النظر عن النتائج المباشرة فان هذا الجهد بمطابقة الحكمة والعقل سينمى ثقتك من واقع الحقيقة وسيدعم سيطرتك على ارادتك ورأيك الواعى وآلياتك ودوافعك مهما كانت .

الفصل الرابع

توضيح

لعلك لاحظت دون شك ان هناك اشخاصا جريئين واقوياء ، سحنة كل منهم وتكوينه مشابهان لسحنتك وتكوينك ، عليك اذن ان تقوم بتوضيح ذكى لتكوين خارجيتك ، وتأكد انك ستعطى الجميع انطباعا جيدا .

١ ـ الصحة العامة :

مراعاة بيانات الفصل السابق تبطل على الفور أسبابا عدة للعيوب الخارجية ، فالطفحات الجلدية التى تشوه الوجه ، والسيلان الدهنى الذى يضفى لمعة على لون الوجه ، والجفاف الشديد ، حيث تتشكل الغضون ، كل ذلك يتغير سريعا نتيجة لنظام صحى منظم ، والدأب على الحركة ، وعلى التربية البدنية بلين ويتيح يسر الحالات . وأخيرا ، الراحة الداخلية اللازمة لتنسيق عضوى كامل ، وانعاش توتر العضلة السوية الضرورية للحياة الناتج عن ذلك ، كل هذا يساهم فى تألق لون الوجه وتعبيرية النظرة ، وتناسق الانعكاسات . ولا تنسى أن النشاط الجسمى يقوى التعبير المظهرى ، ويقوى الصوت كذلك ، ويطبع الحركات بمظهر رصين هادىء .

والتوازن الحيوى الكامل فى جسم مشوه يساعد الثقة

بالنفس أكثر مما يساعدها جمال التقاطيع المقرون ببنية ضعيفة . ومن هذا يتضح أن طريقتك في المعيشة هي التي تهم بالنسبة لمظهرك الخارجي .

٢ ــ الوجه :

لنفحص الآن الانطباعات المكملة . لابد أولا من الاشارة الى ثلاثة عناصر رئيسية وضرورية لانسجام الوجه .، استقامة تصفيف الشعر ، وأسنان سليمة لا عيب فيها ، ونضارة اللون . والعنصران الأولان يقعان في اختصاص الاخصائي . أما العنصر الثالث فالملاحظ أن قلة الحموضة في الجهاز الهضمي يضمن مساواة وتألق اللون ، في حين ان كثرتها تؤثر تأثيرا سيئا على السمنة ، فيفسد اللون، وتستخدم على حساب الجمالية المنفذ الجلدى كطريق للافراز ، تحت صورة بثور وأمراض جلدية وغيرها . ومن ناحية أخرى فان عدم كفاية النوم يسبب ذبول الوجه ، ويحفر فيه الغضون قبل الأوان . والأوساخ التي تتبقى في المعدة وفي الكلى تنضح فتجعل البشرة باهتة مصابة باليرقان والمرة وحب الشباب والالايما والدمامل ، وعليه فان النظافة الداخلية تفرض نفسها لنقاء البشرة الخارجية .

وعلى ذلك فان بشرتك يمكن أن تظهر ميلا طبيعيا وعاديا ، سواء الى جفاف مفرط أو الى زيادة غير سوية في افراز غدد الجلد الدهنية . ومن مصلحتك في الحالة الأولى أن تتجنب استعمال صابون التواليت العادى والماء الشديد السخونة او الشديد البرودة . وعليك ان تستعمل الماء الفاتر فحسب ، بعد أن تضيف اليه حفنة من بورات

الصوديوم أو ملعقة شوربة من المستحضر التالى :

ماء الكرز الغازى	٢٠	جراما
لبن اللوز	٣٠٠	جرام

ولزيادة ضمان التنظيف الكامل للبشرة ، لا ضرورة لأى نوع من الصابون .. تكفى كمادات من القطن المغموس فى لبن اللوز السائل أو فى الماء المقطر . أما الذين يتمسكون باستعمال الصابون فعليهم اختيار الانواع التى لا تحتوى الا على القليل من المواد الكاوية ، وليستعملوا مثلا صابونا مصنوعا من بورات الصوديوم .

وعلى العكس من ذلك ، اذا كانت بشرتك لامعة أو مفرزة للدهون ، فيمكنك استعمال صابون بالاكتيول مع اضافة عشرة جرامات من بيكربونات الصوديوم للماء أو ملعقة شوربة من المحلول التالى :

كحول الليمون	٢٠٠	جرام
صبغة جاوة	٢٠	جراما
كحول اللاوند	٢٠	جراما
بنزوات الصوديوم	١٥	جراما
صبغة عرق الحلاوة	٣٠	جراما

واحرص ، زيادة على ذلك ، على ان لا ينم وجهك عن انطباعاتك وانفعالاتك ، وحاول الاحتفاظ بوجه جامد التعبير ، خصوصا وانت تتكلم . اولا : ان لا يتجعد وجهك سريعا كأولئك الذين يكشرون ويضحكون ويبتسمون ثلاثين مرة فى اليوم . ثانيا : سوف يمسرنك ذلك على السيطرة على انعكاساتك ، ويقل احمرار وجهك بسهولة ، ويكتسب تمييزا وجمالا ، لأنه لن ينم الا عن مشاعر معتدلة ، وتحفظات وموافقات سريعة ، وستعطى

شخصيتك بذلك فكرة رائعة فريدة مع مجرى الأمور العصبية والصاخبة .

وأخيرا ، اعرف كيف تسيطر على نظرتك . هذه ليست مسألة اغراء او تنويم مغناطيسي ، وانما تربية للعينين فحسب ، وأول جهد لتلك السيطرة ينبغي ان يستند على الانعكاس الجفني الذى يجب ان يقل شيئا فشيئا حتى يعطي النظرة تعبيرا هادئا وعاديا ، وافضل تمرين لهذا هو القراءة مع الحرص الشديد على أن لا ترش عيناك الا باقل ما يمكن ، كما لو انك تريد أن تظل عيناك مفتوحتان باستمرار ، وان لا تحرك جفنيك . وما ان تصل الى هذه النتيجة حتى تتمرن على احتمال رؤية المسطحات البراقة من غير أن تخفض عينيك . واذ ذاك تصبح قادرا على مواجهة نظرات اى شخص مهما يكن من غير أية نية استفزازية ، وانما بالهدوء الشديد لرجل واثق من نفسه ورابط الجاش .

٣ ـ الجسم :

نستخلص من كل ما سبق ، أنه يكفي موازنة الانطباع الناتج من وجه مشكل لما سبق مع ذلك الذى يميل الى تحديد أى عيب جسماني كعرج أو حدبة ، وقد وجدت الدليل على ذلك أكثر من مرة فى المجتمع ، لأننى التقيت فيه بذوى عاهات ، وبعجرة على جانب كبير من الجاذبية والفتنة ، يتمتعون فوق ذلك بميل النـاس اليهم . واستطيع القول اذن أن أى شخص يتمتع بسحنة جذابة وحديث شيق ومظهر خارجي سليم ونظيف ، يمكنه أن لا يهتم أبدا بأية عيوب جسمانية يكون مصابا بها . وكل ما ينبغي على المرء مقاومته والتغلب عليه هو النحافة المفرطة والسمنة الظاهرة .

ونحن نعرف أن النحافة ، حتى اذا ازدادت بحيث تكدر النظر ، لا يمكن أن تعنى سوء التغذية ، وانما تعطيل الخلايا الحية وعملية الهضم ، وأن احد الاسباب وأهمها، أو لعله الوحيد لهذه الظاهرة يكمن فى التوتر العضلى والعصبى المفرط والمستمر والذى لا يفلح حتى النوم فى التغلب عليه . ويجب على الشخص النحيف اذن ان يتعلم كيف يرخى عضلاته ، وأن يهدىء أعصابه ، وان يصل الى تلك الحالة الدائمة للاسترخاء والتى تخفف استهلاك السائل العصبى لصالح النشاط المعوى . وهناك طريقتان لذلك ، أولهما التزام ببطء منسق فى الحركة ، فما أن تصحو من النوم حتى تراقب نفسك بحيث تقوم بهدوء ، وببطء بالذات ، وخصوصا فى البداية ، بكل الحركات الضرورية للاغتسال وارتداء الثياب ، وأن تمتنع عن كل تسرع . وهذا لا يتطلب غير جهد صغير للعناية ، ولتنظيم جيد فى استخدام الوقت اليومى . ثم ضاعف بعد ذلك جلسات الاسترخاء الطوعى التام ، ودع — سواء كنت جالسا أو متمددا — كل عضو من أعضاء جسمك يسترخى كل الاسترخاء .. عنقك ، وعضلات العنق ، والكتفين والذراعين والفخذين ، واستسلم تماما بحيث تهبط القوة الحيوية والعصبية الى أدنى درجاتها . وليس فى هذا مضيعة للوقت لأن الراحة والاستجمام اللذين يستتبعان ذلك سيتيحان استعادة قوتك ، فتقوم بعملك اليومى المنقطع بهمة ونشاط كبيرين . وقبل أن تأوى الى النوم ، اتبع نفس التعليمات ، فانها تكفى للتغلب على الأرق والقلق .

والارتخاء العصبى العضلى المطلوب ، بكل مثابرة كما سبق القول ، لا يلبث أن يستمر ، نسبيا على الاقل ،

حتى حين لا تحلم به . ويبقى هذا الاسترخاء أثناء الوجبات على الخصوص ، ويساعد فى عملية الهضم والتمثيل الغذائى .

ولننتقل الآن الى السمنة . وهنا تختلف الارشادات طبقا للسبب الغالب ، وفوق ذلك فان تخسيس الجسم ، طبقا للسن وللبيئة يتطلب مدة طويلة تقريبا ، فالمرء يتعرض لخطر كبير اذا تصرف بقسوة .. مثلا تقليل كمية الاكل المفروضة ما بين يوم وآخر من غير حرص كاف ، أو فرض تمرينات عضلية عنيفة مرة واحدة . أما الوسائل التجريبية على أساس علاجى ، فبعضها قليل الفاعلية ، ولا تبعد عن الضرر دائما ، والاخرى ، وهى التى تعطى نتائج سريعة فهى عدوانية بحق .

سنبدأ اذن وبحرص شديد ، بتشكيل نظامنا لارشاداتنا بالفصل السابق ، وعندما نصل الى مراعاته بدقة فيمكننا عندئذ تقليل الكميات الدهنية والبيض والنشويات واللحوم ، واستبدالها بالبقول والفاكهة . ومن ناحية الحركة فان أهالى الحضر ، غير المعتادين على ممارسة الرياضة ، سيفضلون فى البداية السير على الاقدام بمعدل من أربعة كيلو مترات الى ثلاثين كيلو مترا . وبعد ذلك ، وبدون الانقطاع عن ممارسة السير ، سوف يلتزمون ، كل صباح ولمدة ربع ساعة بممارسة الحركات الرياضية المعروفة . وابتداء من ثلاثة أشهر حتى ستة ، اذا لم يعودوا الى الوزن الطبيعى ، فعليهم أن يعرضوا انفسهم على أخصائى ، الا اذا آثروا البدء من هنا .

وهذا ما سوف يجنبهم عشرات لا فائدة منها ..

٤ ــ الثياب :

بعيدا عن كل المناقشات ، او حتى عن كل اهتمام بالاناقة ، أقول ان الاختيار الحكيم للملابس المناسبة ، ولنظافتها لها أهميتها للجميع ، ولا سيما الذين يعانون من الخجل ، فان احساسهم بأنهم يرتدون ما يناسب قامتهم وبنيتهم ، ويقينهم بأنهم يوحون بانطباع يدل على عنايتهم ودقتهم بملابسهم لا يمكن الا أن يكسبهم الثقة بالنفس والامان ..

ويدعو ك . ر سادلر فى كتيبه « النجاح والسعادة » بمواجهة أسئلة مختلفة ، وعلى الاخص السؤالين التاليين :

ــ هل أعرف شخصا مظهره كمظهرى ؟.

ــ اى نوع من الثياب تناسب هذا الشخص ؟.

وبالاضافة الى الملاحظات التى يمكن لكل شخص ان يستفيد منها بمساعدة هذين السؤالين ، اليكم هذا البيان ، وهو خاص باختيار الاقمشة .

« الاقمشة ذات الخطوط العمودية تطيل القامة . أما تلك المخططة بخطوط عرضية ، وكذلك ذات المربعات فتعطى انطباعا بالنحافة .

« كلما كان لون الثياب فاتحا كلما ساعد فى اظهار افراط السمنة ، وكلما كان غامقا كلما بدا صاحبها نحيفا » .

وقد يعتقد البعض ان هذه الارشادات غير ضرورية ، ولكنها ، فى الواقع ، مجهولة عن ٦٠٪ من بين الذين من صالحهم الاستفادة منها .

٥ ــ الكلام :

تربية التعبير مهمة جدا ، من وجهة النظر التى تهمنا

في إننا يمكن ان نستخدمها كقاعدة للتغلب على الخجل ، فان الرجل الذى يعرف كيف يتكلم لن يشعر بالخجل طويلا أبدا ، لان تفوقه فى التعبير سيثير اهتمام من حوله. واذ يرى انه مسموع سيتجرأ أكثر .

وهناك ثلاثة عناصر رئيسية تساهم فى سهولة التعبير:

١ ـ المعرفة وغزارة الافكار .

٢ ـ اختلاف وملاءمة الموارد الثقافية التى ينتج عنها سهولة بناء العبارات واختيار الكلمات .

٣ ـ هدوء الصوت ووضوح النطق .

على كل امرىء وهو يسمع نفسه أن يرى أن كان صوته حادا جدا ومثيرا وبغيضا او خفيفا اى غير واضح ، أو ان كانت به لثغة ، ثم يحاول الاعتياد على التحدث بصوت معتدل ، اى بالصوت المتساوى الابعاد للنغمية الأشد حدة وللنغمية الأقل انخفاضا ، على قدر امكانه . ومن المناسب كذلك أن يحرص على النطق بآخر كل كلمة ، لأن من النادر النطق بأواخر الكلمات بوضوح ، سواء أكان يتكلم فى لين شديد أو بسرعة مفرطة .. عليك ان تتكلم بهدوء وبقوة ، من غير اى تسرع فى الحديث . سوف تلاحظ ان ذلك يحظى باهتمام الذين يصغون اليك سيفهمون اولا فى وضوح تام ، ومن غير أى جهد ، ما تنطق به . ثم ان دقة كلماتك نفسها ستحفر فى أذهانهم ، ويفكرون فيها فيما بعد . وهكذا ستلاحظ غالبا أن توكيداتك غير المقبولة ، فى بادىء الأمر ، سوف تقبل بعد يومين أو ثلاثة ، لأنها ستكون قد أحدثت أثرها بطريقة الايحاء .

وما أن يرى الخجول ان بمقدوره التأثير فى الناس ، وعلى الأخص ، بوضوح ونقاء حديثه ، حتى يكون قد تقدم

خطوة كبيرة ، ويروق له عندئذ أن يمارس تأثيره الشخصي، وعلى الفور تنقلب الأوضاع ، فقد كان بالأمس مترددا وجلا ، وها هو اليوم يزخر بالنشاط ويحاول التأثير على الغير . وتغدو المقابلات والمواجهات بالنسبة له تسلية الحاضرين كموضوع لتجربة يقوم بممارستها ... ما هو الخجل ؟ . انه حالة نفسية .. ونحن ناتى فى هذا الكتاب بعدد وفير لوسائل تغييره ، والتغلب عليه . ومن هذه الوسائل تربية الكلام وممارسة الايحاء ، وقد أفادا فى حالات كثيرة فى تفجير الشرارة المنقذة .

ابذل اهتمامك وعنايتك اذن لكى تراقب نفسك لمطابقة طريقة حديثك بالقواعد والأسس المذكورة عاليه ، ومارس تلك القواعد وانت وحدك فى البداية . اقرا بصوت مسموع وانطق كل الحروف بوضوح تام وفى نغمية متوسطة . تحدث الى شخص وهمى ، وانتهز كل فرصة لسماع الخطباء المفوهين ، فسوف يبقى فيك شىء منهم . داوم على هذه الطريقة باصرار وسوف تجد فيها مكافاة كبيرة الك .

٦ ــ المواقف والتعبيرات :

مواجهة المواقف بكل ثقة ترتبط باتساع التنفس ونشاطه . والأناقة والراحة تأتيان بعد ذلك . والتربية الجيدة تساهم فى ذلك هى الأخرى . والتصرف فىالمجتمع يقوم بالباقى .

تكلمنا عن تمرينات اتساع القفص الصدرى ... انها مفيدة للجميع ، وضرورية للخجول بالذات . وهو فوق ذلك يجب أن يحرص وهو يرتدى ثيابه أن لا يلبس أى شىء ضيق ، فان الثياب الواسعة شيئا ما تناسبه تماما . واذا ما أحس بالضيق فعليه ان يأخذ نفسين أو

ثلاثة ، وليكن تنفسه عميقا وطويلا ومرتبا وغير متسرع : ممددا بطنه بكل دقة ثم جانبيه ثم أطرافه . والاحساس الداخلى بالراحة والنشاط يكافىء دائما الفعالية الرئوية الكاملة . ومن هذا الاحساس تتغذى المواقف ، وتترسخ فى الخجول بسعيه قبل كل شىء للهدوء ، دون أن يهتم اطلاقا بأن يتألق . بل‌عليه أن يحاول أن يبقى هادئا ومركزا أمام الجميع . والمهم هو أن يبقى منيعا تقريبا ضد تأثير حديث ونظرات الغير . وما أن يكتسب هذه النقطة الأولى حتى تتضح مواهبه الطبيعية دون أى ضغط ، وتغدو حركاته لينة وعادية ، وكلماته تلقائية ومعبرة . وحذار أن ينفعل بكل ما يراه أو يسمعه ، وعليه أن يروض نفسه على الصمت حتى أمام التهكمات والسخريات والتحديات، فساعة رد الطعنات سوف تأتى عندما يحصل على سيادته التامة ، ويثق فى نفسه كل الثقة . وتظاهره بانه لا ينفعل أمام أى شىء ، وأنه يحتفظ بكل وضوح ذهنه ، انما هو فى الواقع نجاح ملموس ، ومرحلة يجب ان يمر بها قبل ان يمضى بعيدا .

والقاعدة الثانية التى يجب عليه اتباعها هى تخفيف او كبت التعبيرات المظهرية التى تولدها الاحساسات المعانة من الغير . وسوف يعطيه ذلك فى البداية ، قناعا جامدا ملزما لن يلبث أن يثير التساؤلات . وعليه عندئذ ان لا يهتم بذلك ، ففى كل مرة يتمالك فيها نفسه ولا ينفعل يكون قد كسب المعركة واستخلص شخصيته من النفوذ المحيط به . وهذه خطوة أولى نحو حرية المسلك المنطلق الذى يميز الثقة فى النفس .

وعليه كذلك تخفيف الكلام والنظرات ، فهى جسر للراحة والملاءمة . يجب ان يتجنب كل الفة وكل عجرفة أمام الجميع ، وان يواجه المعارك والحملات برقة صلبة

وعزيمة قوية ، وأن يروض نفسه بكل هدوء على رفض ما لا يمكنه قبوله ، وأن لا يقدم أى حساب لمن لا شأن له به ، وأن ينظم وقته وحياته كما رسم وخطط .

ولن يتم ذلك دون اثارة بعض النقد ، وهو نقد سوف يتلاشى سريعا فى حين يبقى تأثير الجهد الذى كابده لكى يتغلب على مشاعر الخجل ، ولكى يكتسب الثقة فى النفس .

٧ — البريق :

يقول الدكتور الامريكى لاموت ساج فى كتابه « دراسة فى المغنطيسية الشخصية » أنه توجد سلطة دقيقة وخافية تتصاعد من ارادة صلبة وقوية تراقب الغير اكثر مما تفعله الكلمات ، وذلك الذى يملك هذه الموهبة يمكنه بحق أن يعتبر نفسه قوة لا تتزعزع . وما أن تتعامل مع ذلك الشخص حتى لا يسعك الا أن تحس به . وليس هناك من سبب لكى لا تملك هذه القدرة ، فلديك الاستعدادات الذهنية ، وما عليك الا أن تنميها .

والانطباع الناتج من شخص يرتبط كثيرا باخلاقه ، فلا تعلق اذن الا أهمية نسبية لخارجيتك . امنحها كل العنايات الضرورية لكى لا يصيبها شىء . ولكن ، ليكن نصب عينيك دائما ، وأنت تفعل ذلك أن تضاعف ثقتك فى نفسك . والمهم قبل كل شىء انما هى ارادتك ، فهى السمة المصممة لمبادئك القيادية فى الرأى . فضلا عن أن مفعولها الساطع يؤثر على السمنة ، ويتضح من النظرة ، ويصقل السمات ويعزز المواقف والحركات . وهذا يمثل الميل الفورى الذى تحس به نحو المشوهين أو الدميمى الخلقة ، أفلا نرى أيضا ، على العكس من ذلك ، وجوها

جميلة واجساما سليمة تفتقر الى الفتنة والجاذبية ؟..
الانحطاط النفسي دليل على افتقارهم اليهما .

صمم اذن على ان تمرن ارادتك باستمرار ، وعلى الأخص ان تنجز ما عزمت عليه . وفى اللحظة التى تستقر فيها على قرار يجب أن يكون لطاقتك الارادية دورا تقوم به ، فهذا تدعيم اكيد لتركيز ذهنك . أما اذا بقيت ارادتك جامدة فمعنى ذلك انك تميل لا شعوريا للتخلص من الجهد الضرورى لابقاء ذهنك فى حركة تركيز اطول مدة ممكنة كما يجب . وعليك أن تصمم عندئذ ، وبسرعة لكى تشعر بأنك تخلصت من ذلك الجمود . خذ كل وقتك ، وفكر فى كل تصرفاتك ، وادرس كل سؤال من جميع وجوهه ، وزن بدقة الحسنات والسيئات ، وسوف تنجز عندئذ الشروط المطلوبة للعمل ، ليس بذكاء ودقة فحسب ، وانما باقتناع وحزم أيضا . ثق أن شخصيتك سوف تعكس تلك القوة المعنوية وانها ستغطى على ترددك وتؤثر على الموجودين تأثيرا حسنا .

قال احدهم : الذى لا يعمل بعد ان يفكر فذلك لانه يفكر بطريقة ناقصة ، ويعنى بطريقة ناقصة ان صاحبنا يفكر دون ما يكفى من دقة وفاعلية . ولذلك فان أول جهد ضرورى لتنمية متجانسة للارادة هو جهد للتفكير والتروى . وما يجب ان تفكر فيه وتتروى هو هدفك الرئيسى فى الحياة ، والمراحل المختلفة لتنفيذه بالتعاقب للوصول اليه ، وخطة يومية للأربع والعشرين ساعة القادمة ، ولابد من بعض المعارف وبعض المواهب لانجاز اسهل الخطط واصعبها فى نفس الوقت . وهذه المعارف

وهذه المواهب ستجد دائما موارد الطاقة الضرورية لها اذا وجهت الفرصة اليها بوضوح وجلاء .

واعادة التروى والتفكير المركز يقللان كثيرا استعدادنا لتأثرنا بسلطة الغير . والحياة الداخلية لا تتبلبل عندئذ لأن حماسها ونشاطها يبقيان فى كل لحظة أمام الجميع . فكيف يبقى الخجل اذن وهو حالة حسية وسلبية ؟.

اضعف رجل من ناحية الارادة لا توقفه العقبات عندما تدفعه فكرة يغذيها الى درجة أن يتشبع بها ذهنه ، فهو يصبح عنيدا عندئذ ، لا يكل ولا يتعب ، ويبذل جهده . وهو يفشل احيانا ، لكنه لا يلبث أن يعاود الكرة . واذا وهنت همته فلن يطول به ذلك . ومن هنا ترى أهمية ان تشبع نفسك بالافكار التى تريد ان تحققها . ومن أجل هذا يجب ان تفكر فيها طويلا وبكل امعان .

هذا النشاط الذهنى ليس فيه ما يدعو الى الكراهية ، وانما ينفر منه أولئك الذين لم يتعودوا عليه منذ البداية، كما ينفرون على كل حال من كل مبادرة جديدة . ولكن بعد بضعة مجهودات يبدأ الاغراء وتزداد حدته تدريجيا .
تكلمنا احيانا عن الايحاء الذاتى ، والحق أن أفضل ايحاء هو ذلك الذى تبديه وانت تفكر وتتصور فى وضوح وحماس كيف تتصرف بطريقة معينة بحيث تحتفظ بهذا المظهر أو ذاك ، وأن تلتزم بهذا الجهد أو ذاك . وهكذا تحدد سلفا ارادتك لاظهار الصلابة التى تريد أن تبدو بها فى اللحظة المتوقعة . واذا افادتك هذه الطريقة ، فان قوة شخصيتك لن تلبث ان تزداد بما يكفى لكى يخدع ، رنينها على شخصيتك وحديثك وتصرفاتك ، الجميع .

البـرود

النجاح الذى حققته بتطبيق ارشـــادات الفصول الاربعة السابقة ســوف يسمح لك الان بانجاز خطوة حاسمة ، وذلك بان تفرض على نفسك بكل حزم رصـــانة خارجية تامة سوف ترى بفضلها كيف تتيح لك بعد ذلك بقليل هدوءا داخليا لا يتبدل .

١ ـ التاثير العميق للمواقف :

الرجل الذى تمرن على السـيطرة على نفسه بما فيه الكفاية ، حتى فى أشد حالات الغضب والاضـطراب . يمكنه الاحتفاظ بمظهر هادىء جدا ، وأن تظل تعبيرات وجهه جامدة . وباختصار ، لا تنم ملامح وجهه عما يعتمـل فى نفسه من بلبلة وارتباك . وهذه بالذات مرحلة نمو رباطة الجاش التامة ، أى تلك التى تميز الفكر كما تميز علاماته الظاهرة . وما عليه الا التسلح بالشجاعة لكى يجتاز هذه المرحلة . ولن يلبث عندئذ ان يكون من بين الذين لايزعزع قوتهم ولا شجاعتهم آى شىء .

لماذا لا تبدأ بتربية الهدوء الداخلى العميق ؟ لان للارادة تاثيرا أكثر على التعبيرية منها على الانفعال ، ولان كل موقف تتخذه يميل الى توليد الحالة الذهنية التى تناسبه .

والاختبار المغناطيسي يثبت ذلك . والواقع أننا لو نضع وسيطا فى الدرجة الثانية للمغناطيسية ، تلك التى تعرف باسم التخشب ، فان كل موقف نعرضه سرعان ما يحدد الانفعال المتلازم له .

وما توضحه تجارب المعمل تؤكده الملاحظة ، فأنت اذا تظاهرت بالغضب لن تلبث أن تشعر به حقا ، واذا مشيت مطرق الراس ، محدودب الكتفين ، لن تلبث أن تدور فى رأسك افكار خطيرة وذكريات حزينة . ولكن ربع ساعة من المسايفة أو الملاكمة أو المصارعة توقظ فيك الغريزة القديمة النضالية . فاذا أحسست بسخط شديد فعليك أن تتكلم بهدوء واتزان ، وسرعان ما يعود هدوؤك، ويمكنك مضاعفة المثل .

والرجل الذى يبحث عن الايمان الدينى نوصيه بالصلاة واتباع تعاليم الدين ، لانه اذا اتبعها بضمير حى يقظ ، وباصرار ومثابرة ، فلابد أن يعقبه ذلك الحالة الذهنية المتلازمة .

٢ ـ اكبت انعكاساتك الداخلية :

كيف تتصرف في سبيل ذلك ؟ عليك أن تراقب نفسك بدقة بحيث لا يعرف أحد شيئا ، وبحيث لا تنم ملامح وجهك عن الطنين الحواس الذى تتلقاه .. صوت مفاجىء ينتزع الاعجاب : تمالك نفسك وواجهه بالتزام الصمت التام . شىء تقع عليه عيناك يفاجئك وتوشك أن تظهر ذلك نفس التوصية .. اذا اصطدمت بشىء أو اذا وخزك شىء، أو اذا وقعت ، فاخف شعورك الطبيعى ازاء هذا الحدث الصغير ولا تعلله اطلاقا ، أى شذى جميل أو عنيف ، حلو

أو بغيض يقابلك : ابتعد عن مصدره اذا أمكن ، واحتفظ بالجمود الهادىء لسماتك ، وتكلم ببرود واتزان ، كأن شيئا لم يحدث ، تذرع بالصبر ، ولا تبد اى غضب اذا قدم لك لون من الطعام ساخن جدا أو بارد جدا أو غير مستساغ الطعم • قم عمليا بالاجراءات اللازمة من غير أن تفقد شيئا من هدوئك •

وعليك بعد ذلك أن تطبق نفس المبدأ على انطباعاتك المعنوية ، ولا تدع نبرة الصوت الذى يحادثك تقلقك ، وكن جامدا كل الجمود ازاء الاراء والاعتبارات التى تدلى أمامك • واذا كان عليك أن ترد ، أو اذا كان فى الرد عليها فائدة واضحة واكيدة لك أن تتكلم بايجاز، واحرص على أن لا ينم وجهك عن أى تعبير • اذا أحسست بغيظ أو بخيبة أمل فلا تسمح لاحد أن يعرف ما يدور فى ذهنك • واجه كل شىء ، وواجه الجميع بعين هادئة وببرود وحزم، وحتى اذا أحسست بالاحمرار يعلو وجهك أو اذا قال لك أحد ذلك فقل لنفسك « سيان هذا لدى » • بعد بعض الوقت لن يقع ذلك ثانية • وقل لمن يلاحظ احمرار وجهك « هذا ممكن » ولا أكثر . انك اذا تصرفت هكذا تفلح فى أن تتحكم فى المراقبة الخاصة لالياتك ، وفى أن تصبح محصننا ضد التأثير الارادى او غير الارادى للغير . وسوف تلاحظ عندئذ ، بعد بضعة أيام من جهد حقيقى أن وجود الناس وسلوكهم نحوك ، وحديثهم معك ، وحركاتهم ، سيكون لكل ذلك تأثير أقل بكثير عن ذى قبل • ثابر أيضا على تطبيق النصائح السابقة ، وسوف تحس بأن عادة الاحتفاظ بجمود الملامح ، حتى حين تشعر بالحزن ، ستثبت اقدامها فيك بقوة لكى تقيك من كل ضعف . وأخيرا * سوف ترى أن الهدوء العميق ، الهدوء الحقيقى،

هدوء الفكر ، هدوء الحساسية ، هدوء الاعصاب ، قد بدأ في الظهور والرسوخ الى حد أنك ستكون بذلك نموذجا بين الرجال •

قل لنفسك مرارا وتكرارا ، ما الذى يمكن أن يؤثر في رغم ارادتي واختياري ؟ لا شيء • من الذى يستطيع أن يؤثر في دون أن أسلم مسبقا بسداد رأيه • ؟ لا أحد • انني أستوعب والاحظ وأقرر وأتكلم واتصرف بكل حرية ، شبع رأسك بهذه الافكار كل مساء ، قبل أن تأوى الى فراشك ، وسوف ترى أن مفعولها سيفيدك فيما بعد •

نصيحة أخيرة بخصوص مراقبة المواقف ، افرض على حديثك وسلوكك طابع المجاملة التامة ، ولكن لا تنسى ان المجاملة لا تستبعد الثبات ،والعكس صحيح •

٣ — واجه الانطباعات التى تخشاها :

بتطبيق الجزء السابق تصبح على أتم الاستعداد لتطبيق هذه الفقرة • لاتحاول أبدا التهرب من بعض المقابلات أو بعض الاجراءات التى تشعر نحوها بنفور بغيض •

لكل خجول ، على وجه الخصوص ، رجال يشق عليه الدنو منهم ، فنظراتهم وحديثهم وتصرفاتهم تبدو له كما لو أنها تنم عن نوع من الضيق ، حسنيا ، أنت يا من تقرأ هذا الكتاب ،عليك أن تختار الشخص الذى تشعر أمامه بانك أقل ما تكون ارتياحا ، وانتهز كل فرصة لمواجهته، وحيث أنه ليس هناك ما تخشاه أبدا ، وأن هناك الكثير للاستفادة منه ، فانك اذا امتنعت عن ذلك تكون جبانا حقا ، وأعرف كيف تتمالك نفسك أمام ذلك الشخص ،

واعمل جيدا لكل ترد عليه بثبات ، ولكى تؤيد وجهة نظرك حتى النهاية ، احتفظ بقناع من الجمود ، وواجهه بكل جرأة ولا تضعف اذا أبدى حدة فدع العاصفة تمر ، وصمم على موقفك بصوت هادىء رزين • وحيث انه معتاد على أن يراك مشدوها عندما يرفع صوته ، فسوف تثير مقاومتك حيرته ، وهو لن يظهر شيئا طبعا ، ولكنك ستلاحظ أنه سيكون فى المرة القادمة اكثر اتزانا ، وستحس أنت نفسك أنك قد تدربت ، ولن تلبث أن تروق لك المجهودات الانعكاسية التى من هذا النوع •

واذا كانت هناك امرأة لا تجرؤ عادة على محادثتها ، وتثير خارجيتها ارتباكك ، فليقع اختيارك عليها كموضوع للتمرين ، وخذ المبادرة وابدأها بالحديث • سوف تستمر دون شك ، وخصوصا اذا كنت شابا يافعا بالاحساس بالضيق ، ولكن اذا كنت قد طبقت الجزء رقم ٢ شيئا ما فستعرف كيف تحافظ على برود قسماتك ، لانك تمرنت بعض الشيء على المظاهر الخارجية لانفعالاتك . وكل محاولة هي انتصار على طبيعتك ، حتى اذا لم تقم فيها بدور لامع جدا ، ويكفيك اثنتا عشرة محاولة لكى تتخلص من مشكلتك نهائيا •

هناك أيضا بضعة اجراءات ينفر منها الخجول ، منها مثلا ، ذهابه الى أحد المحلات التجارية لاعادة بضاعة اشتراها حديثا ، ولاسترداد ثمنها ، وتوسلاته العادية فى سبيل ذلك ، هنا أيضا عليه أن يبدو حازما ، وأن يمضى قدما وبصراحة ، وأن يصم أذنيه عن كل الاحتجاجات ، الخ .. عليه أن يركز ارادته على النتيجة المرجوة فحسب ، وأن يتمسك لكى يصل الى ما يريد ، سيلتقى غالبا ببعض

الصعوبات ، ولكنها سوف تشحذ أعصـــابه ولا يلبث أن يعتاد على تحمل الصدمة ويجد فيها بعض المتعة .

تذكر أنه كلما بدت لك هذه التمرينات صـــعبة كلمـا كانت ضرورية لك ، لا يجب أن يؤثر فيـك أى شـخص ، لا ترض أن يكون الامر غير ذلك ، صمم على السـيطرة على نفسك الى حد أن تبقى هادئا جدا وسط أى مجتمع ، وحتى أمام ملك ، كما لو أنك تتفرغ لاعمالك وحدك فى هدوء ، فى مقدورك أن تصل الى ذلك ، اذا قمت بجهد لابد منه ، لا تيأس ، ولا تؤجل ، ابدأ من اليوم بالذات .

٤ ـ اجمع التصورات الذهنية لرباطة الجاش :

مشاهد الجرأة والاقدام تترك فى الذهن دائما أثرا حيا بحيث أن ذهنك نفسه يحث عليها ، ابحث اذن عن أولئك الذين يمتلكون الجرأة .. عن أناس باردى الطبع ،راسخى الهدوء ، سوف تؤثر طبيعتهم فى طبيعتك بدون شك ، الى حد أنك سوف تشعر بأنك مدفوع لتقليدهم . وعلى العكس ابتعد عن الاشخاص الوجلين الخائفين ، فان ذلك سـوف يضرك ، أما اذا كنت مضـــطرا للاختلاط بمثـــل هـؤلاء الاشخاص ، فاعتبرهم المثل الذى يجب أن تتجنبه .

يمكنك أيضا أن تخلق كل أنواع التصـــورات الذهنية المنبهة ، تخيل نفسك حائزا على المواصفات التى تريدها. ضع حياة ودقة فى هذا الخلق التصورى ، تصـــور أنك تمتلك الحد الاقصى من الثقــة فى النفس ، وانك تجسد نفسك ذهنيا تتحدث وتتصرف بجرأة ، دون تسرع ، وأنك واثق من نفسك ، عش فى الخيال كل ما تستطيع محاولته عندما تمتلك نهائيا ثقة كاملة فى النفس ، كـرر هـــذا

التمرين الذاتى مرارا ، خصوصا قبل أن تاوى الى النوم.
عندما تتوقع التعامل مع شخص تخشى تأثيره ، فأمعن التفكير فيه قبل مقابلته ، وحدد الصعوبات التى تتوقعها.
لا تعتمد على وسائلك الحالية ، وصمم على أن تستفيد منها بأحسن ما تستطيع عن طريق مجهود دقيق مطابق للقواعد السابق شرحها ، وما يجب أن تفترضه على الخصوص هو أنك سوف تقوم ، عندما يؤون الاوان ، بمجهود جدي ، مجهود أقوى من كل المجهودات التى بذلتها حتى الان فى مثل هذه الحالة ، عليك أن تتسلح بتصرفات فعالية ، أو أعد على سمعك أنك ستكون الاقوى، وانك اذا أحسست باضطراب فسوف تتغلب عليه بحيث لا يلحظه أحد • أعد قراءة الفصل الثانى ، وعلى الخصوص الجزء رقم ٤ حتى تشحذ جشعك لرباطة الجاش •
حاسب نفسك بعد المقابلة ، وتحقق مما اذا كنت قد سيطرت على ارادتك واظهرت نشاطا ما ، سجل نقاط الضعف التى احتملتها ، وتحقق اذا لم يكن فى مقدورك أن تتصرف أحسن من ذلك ، كل هذا وفي رأسك فكرة معينة ، وهى أن تتفوق على نفسك فى المرة القادمة •

لا تتسرع وتظن أنك تخلصت من خجلك لان مواجهة ما دارت على أحسن مما كنت تتوقع ، لانه ما زالت هناك صعوبات لا تعرفها ، ولا تيأس كذلك لانك تراخيت كثيرا لأن احتكاك شخصين يدخر احيانا مفاجاة لأكثرهما قوة ، اعادة الكرة المرة بعد المرة ، والتمرين المستمر الحازم ، هما اللذان يتيحان لك رباطة الجاش التامة •

واخيرا لا تنس أن كل جهد ياتى بنتيجة دائمة ، تقربك من الهدف النهائى •

وتعقيبا على ذلك ، كن قوى الهمة والعزيمة ، وتصرف دائما .

٥ ـ السائل العصبي والفعالية والثقة في النفس :

المجهودات التى لابد منها لمطابقة ارشـــاداتنا تحتـاج استيداعا كافيا من الســائل العصبى ، ومن الطبيعى أن الجسم يجهز منه أكثر مما يستهلك . والفــائض يتجمع في بعض القنوات الفردية تعرف باسم الضفيرات ،ومتصلة بالمخيخ العصبي الودى السمبتاوى ، ويجب أن يحتوى المخيخ والضفيرات على احتياطى عصبى ، لاننا لن نتعرض أبدا لضعف أو نقص بسبب هــذه الاستهلاكات المكملة والظرفية التى لا تخلو منها حياة أبدا : انفعــالات حادة وانطباعات حواسية مفاجئة ومجهودات .. عنايات ممتـدة مضايقات ، الخ .. ولكن الضعفاء والمجهدين والخجـولين يملكون من النادر الحد الادنى الضرورى من القوة العصبية وأقل استهلاك غير متوقع عندئذ يبلبل أفكارهم . تكفيهم أقل صدمة لكي يتعرضوا لخسارة حقيقية من سائل يوهن نفسيتهم على الفور ، ولهذا السبب ، على كل حال ، نلاحظ ان لديهم تناسقا انفعــاليا ومحـــركا فى نفس الوقت ، والخجل أحد هذه المظاهر .

وفي هذه الظروف يمكننا أن نســـال ، كيف يجـد الخجول الطاقة الضرورية لكل جهد مبذول ، وسنرد على هذا السؤال ، وذلك بالتقيد بالاجزاء رقم ٢ ، ٣ ، ٤ من الفصل الثالث ، لان التقيد بالارشادات التى بها ، يوفر السائل العصبى دون استهلاكه ، أو على الاقل يجهز منه للجسم اكثر مما يتطلب ، ثانيا : بالتقيد بالجـزء رقم ٢

من الفصل الحالى : كل كبت مشار اليه يعادل اقتصـــاد للسائل العصبى ٠

وأخيرا ، يجب أن نشـــير للقراء الى طـــريقة جديدة مضمونها تجميع القوة العصـــبية فى الضـــفيرات والمخيخ بقوة وذلك باستخدام مبدأ جديد تماما ٠

يعرف القراء كل ما يقال تقريبا عن الايحاء وعن الايحاء الذاتى ، يقال ايحاء عندما يتعامل المرء مع اخر ، وايحـــاء ذاتى عندما يتعامل الشخص مع نفسه بالذات فيقوم بدور العامل والجامد فى نفس الوقت ، ويوجه لنفسه الدوافع أو يتصور طواعية صورا ذهنية من طبيعتهـــا أن تحـــدث تأثيرا حسنا لحالته ، وحتى هنا ، فمن المناسب اللجوء الى شخص موح ، هذا اذا فضلنا القيام بدور سلبى تماما ، او أن نلتزم بمجهود ما ٠٠ اى باستهلاك نشاطى اذا أردنا أن نقوم نحن أنفسنا بدور الموحى ٠

٦ ـ الايحاء الذاتى البيانى :

الطريقة المعروفة باسم التصوير الذهنى ، يمكنهـــا أن تساهم فعاليا فى اكتســـاب الثقة فى النفس ، وهـــذه الطريقة قوامها تسجيل التوكيد الايجـــابى للتأثير الذى نريد اللجوء اليه ، وذلك بخط واضح وجرىء ، وان نضع هذا التسجيل أمام أعيننا ، ونعلق بصرنا عليه ٠

وعلى من يهمه الامر اعداد سبع ســـبورات على هـــذه الصورة :

١ ـ أنا هادىء ٠

٢ ـ أشعر بأننى قوى وجرىء ٠

٣ ـ اننى أتكلم بحزم ٠

٤ ـ لا يمكن لاحد أن يسيطر على .
٥ ـ كل شيء هادىء ولا أشعر بأى توتر .
٦ ـ ثقتى فى نفسى تزداد كل يوم .
٧ ـ اننى اسيطر بنظام على كل شخص اتعامل معه .

ويجب أن يستخدم كل سبورة يوما من أيام الاسبوع قبل النوم بنصف ساعة على الاقل ، فيحدق بعينيه فى الكتابة ، ويتصور معناها ، ويمكنه أن يثبت السبورة فوق منضدة لمدة ١٥ ثانية ، ثم يحول نظره الى وسط دورق كروى مملوء بالماء الرائق وموضوع على مقربة من السبورة .

هذه الطريقة العملية تهيىء الخجول للنوم ، فلا يلبث نوع من الخدر العام أن يستولى عليه .

وفى الصباح ، عند اليقظة ، من المناسب أن يعيد ماكتبه بالامس ٢٥ مرة ، وبذلك تكون الكلمات قد انحفرت فى عقله الباطن ، وسوف تنبثق كثيرا خلال النهار وتولد احاسيس مختلفة من الافكار المنشطة ، ومعها تصميم ثابت وقوى جديدة .

٧ ـ التحليل النفسى المساعد :

عامل جوهرى للخجل ، هو الخوف من لقاء أحد أو من الظهور أمام الجمهور أو من تلقى سخرية الخ .. وهو عامل يشل أحيانا تصميم الجهد لرباطة الجأش ، وللتغلب على هذه المحاولات الوهمية ، يكفى التفكير بروية .. أولا لا تحمل تلقائيا على طباع أو على أهمية المظهر الخارجي لاولئك الذين تتعامل معهم ، أو الذين سيكونون بالضرورة بغيضين ، وعندما تخشى قبل كل شيء استقبالا سيئا ،

فمن الطبيعي أن تتوهم أنه سيكون شاقا • والقارىء الذى يفهمني سوف يتصرف ضد هذا الميل ، ويفترض أنه يلتقى فى الاوساط بأناس مهذبين ، وذلك الذى أساء استقبالك بالامس قد يحسن استقبالك غدا ، لان مزاجه غير مستقيم ويفتقر الى السيطرة على أعصابك ، وعلى العكس ، ليس هناك أى سبب لدهشتك ، لانه بعد أن يحسن استقبالك، قد يعود فيستقبلك ببرود ، اهتم بسلوكك انت وليس بسلوكه ، كن هادئا دائما ومتزنا • سوف ينتهى به الامر الى أن يخضع لهذا البرود الثابت •

ويميل الخجول كذلك الى ان يرى عداوة خاصة فى حديث أو سلوك الغير ، وهي عداوة تثير حيرته ، هل حدث أن سألت نفسك ذات يوم لماذا يبدو فلان من الناس مغيظا قلقا ، ومترفعا ؟ وفى كلمة واحدة : بغيضا ؟ اذا ألقيت على نفسك هذا السؤال ، فسوف تجد له تفسيرات كثيرة وغريبة جدا عن تصرفاته نحوك ، واليك بعض هذه التفسيرات :

ـ اضطراب معوى (مصدره المعدة او الكبد أو الكلى أو المصران الاعور) يكفى لكى يسبب له ازعاجا يؤرقه ويثير أعصابه وذهنه •

ـ لعله ، رغم كل الظواهر ، يعانى من مشاكل وصعوبات ملحة تسبب له استياء عميقا لا يستطيع التغلب عليه ويؤثر على اجتماعياته •

ـ لعله ينتمي الى هذا النوع من الناس الذين يفتقرون الى السلطة والنفوذ ويخفون ضعفهم هذا تحت قناع من الكبرياء والغطرسة •

ـ لعله أصيب فى حياته بخيبات أمل كبيرة جعلته فى حالة مستمرة من الاستياء المذكور •

ــ ربما يعتقد أنه يضفى على نفسه أهميــة اذا ظهــر بمظهر جاف احتقارى ، اذا اعتدت على تأمل الناس بعيون فاحصة ثاقبة ، فان فاعليتك ستخفف الكثير من مظهرهم.

نفس التوصية لها قيمتها بالنسبة للساخرين والمزعجين أولئك الذين يبحثون ينتهزون كل فرصة لاظهار عيــوب الغير ، وهذا الاستعداد ينم فى نفس الوقت على تفــاهة عقولهم الصبيانية ، وعن غرور عبد لاستحسان الغير ، لا يهمه الا التألق بوقاحة على حســـاب مضـايقة الذين يفتقرون الى رباطة الجأش ، عرفت خجولين أذكياء ومثقفين ولكننى لم أعرف اى ساخر ، الا اذا كان سطحيا ومغرورا، وثقة الساخرين بانفسهم لا تذهب بعيدا أبدا على كل حال لانهم سرعان ما يتولاهم التعب ، اذا قوبلوا بكــل هدوء وبرود ، ونادرا ما يعادون الكرة ، اذا عرفت كيف توحى اليهم بأن مزاحهم لا يحدث فيك أى تأثير ، وبهذا يخيب املهم فى ازعاجك ، ولا تلبث حيويتهم أن تكل وتتعب .
أمام أى شخص ، حاول أن تبدى فكرة مسبقة وثابتة عن طبعه ، ودوافعه التى تدفعه ، والميول التى يخضع لها ولهذا ، يكفى ان تلاحظ خط سلوكه ، ثم تتأمل هــذا السلوك ، وحتى أشق الظواهر لانداداك ستهمك عندئذ بما فيه الكفاية لكى تتأملها بعين باردة ، كظواهر متلازمة للحياة . وسوف يساعدك ذلك على مقاومة رباطة الجأش الهادئة لسند يفوقك كثيرا .. وبهذا لن تؤثر فيك الاهانات الشخصية ، وستبدو لك كعيوب نفسانية لاولئــك الذين تتعامل معهم • وهذه النتيجة البسيطة ستساهم كثيرا فى أن تمنحك حرية الذهن والصفاء أمام أى شخص ، وفى أى مكان •

الاستقلالية

انت الآن قد اكتسبت البرود الخارجي وعرفت كيف تسيطر على اى اضطراب تحس به ، وان لا تظهر شيئا من ذلك ، تعلم الآن كيف تتحصن ضد كل المؤثرات امام اى احد وفى كل الظروف لكي تحتفظ معنوياتك بهدوئها وثباتها .

١ ـ صمم على ان تصبح مستقلا :

يدرك كل خجول أن توازنه الذهني والعصبي يفسده موقف الذين يحيطون به ، ما لم يسيطر على انفعاليته . ففي أثناء العمل يكفى مثلا أن يحس بأن هناك من يراقبه من قرب لكي يرتكب الأخطاء والحماقات ، وإذا سمع استهجانا لمشاعره أو لمعنوياته يتألم ويتعذب ، ويخشى ، على العموم ، النقد والخلافات ، بل ويخشى حتى مجرد وجود أشخاص صارمين ، حادي الطباع .

وقد رأينا أن الجهد الأول للتحرر من هذه التبعية أساسه الالتزام بالهدوء مهما يكن مدى تأثره بالبرود الخارجي ، والاحتفاظ بوجه هادىء ، جامد التعبير ،

ونظرة ثابتة ، وكلمة معتدلة . وببذل الجهد بعض الوقت يصبح هذا الأمر سهلا وتلقائيا . ولكن لابد من مجهودات أخرى ضرورية لاكتساب الهدوء الداخلى الثابت ، أساس الاستقلالية النفسية .

وكما رأينا فى الفصل الثانى ، فان الطاقة الضرورية لانجاز مجهود جدى فى سبيل الحصول على نتيجة معينة ينبع مصدرها من الجشع الذى نحس به للحصول على هذه النتيجة ، فابدأ بتحريك جشعك للاستقلالية . والأفضل مراعاة ما يأتى :

١ ــ الظروف المختلفة التى احسست منها بالاكتئاب والارتباك والانزعاج والانفعال رغما عنك ، والتى نتج عنها فى أعصابك انت بالذات ، تبعيتك البغيضة لغيرك .

٢ ــ الفوائد التى ما كنت الا لتحصل عليها فى ماضيك لو أنك كنت رابط الجاش دائما ، دون كل هذا بدقة وبالتحديد بخط واضح ، وأتمم قائمتك كل يوم آلى ان تحس بأنها أكتملت ، أقرأها واعد قراءتها أكثر من مرة ، ستتفتح فيك طاقة جديدة ، وستدرك من ذلك ، باحساس بغيض عنيف ، بانك كنت خاضعا لتاثير الغير ، وستشعر برغبة قوية فى أن تتمعن ضد ذلك التاثير .

الجأ الى خيالك لكى تعيش مسبقا متع الاستقلالية الداخلية ، وأفهم كم تكون حياتك مريحة . عندما تكتسب هذه الميزة فى مقدورك عندئذ ان تدخل اى مكان ، مهما كان مزدحما، دون أن تشعر باى انفعال ، كما لو انك تدخل قاعة شاغرة ، فى وجود فلان من الناس ، كانت شخصيته تؤرقك دائما ، سوف تحس بالبرود الداخلى، وبأنك سيد نفسك ، وكل امتحان أو استجواب أو اجراء

او زيارة سيكون أمرها ممتعا لأن احدا لن يؤثر فيك ، ضاعف هذه الانطباعات المشجعة .

٢ ـ قيمة الصمت :

بعد ان تهيات للمجهود التطبيقي بالتاملات الايحائية الذاتية التي تسبقه ، حدد لنفسك ، كهدف أول ، مقاومة الاغراءات الخارجية التي تحثك على التحدث بعصبية واندفاع . الصمت يولد القوة ورباطه الجاش . لو انه حدث لك ان بقيت منفردا ، ولزمت الصمت اسبوعا او اسبوعين ، فلعلك قد لاحظت ، عند خروجك من عزلتك هذه ، مدى تصميمك وعزمك ، حسنا ، ان الصمت الملتزم طواعية ، وليس خلال العزلة ، وانما بين الناس ، هو ايضا اكثر فعالية مائة مرة ، وكونك محاطا باناس كثيرين ، وبانك تعيش وتختلط بقوم عاديين ، فذلك يساوى نوعا من الايحاء المستمر ، بحثنا على عرض آرائنا ومشاعرنا ومشاريعنا ، وعلى البوح بافكارنا وخواطرنا ، وتعليل الاحداث الصغيرة التى تقع كل ساعة . قاوم هذا الاغراء بارادتك ، والزم الصمت ، وعندئذ تكون قد انجزت خطوة حاسمة نحو الاستقلالية الداخلية . الصمت نفسه غير محتمل الا لعدد قليل من الأشخاص التافهين العابثين ، العاجز عن وجود سحر كاف فى افكارهم الخاصة . ولكن كثيرين ممن يلزمون الصمت طواعية يخشون الظهور كأغبياء او انطوائيين ، التمييز واللباقة ضروريان هنا . من السهل تجنب الحديث اثناء العمل باستخدام ايجازية رقيقة وحازمة فى نفس الوقت ، أما خارج هذه الساعات ، وعلى الخصوص فى الوقت الذى

تقتضي فيه الضرورات الطبيعية اجتماعات مختلفة فسوف تتهرب بسهولة كبيرة من الاندفاع الشفهي بأن تحمل الغير على التحدث ، وعلى أن تسبغ أهتمـــــاما كبيرا على كل ما يقولون . بعض الموافقات وبعض الاسئلة اللبقة تكفي . تكلم معهم عنهم هم ، واحملهم على عرض آرائهم ، وعلى الافاضة في الحديث عن الموضوع الذي يهمهم ، وانت بذلك لا تكشف شيئا عن أفكارك انت بالذات . ستكتفي ببعض الكلمات التافهة ، ومع ذلك سوف يستظرفك الجميع ، لأنك ستكون قد ارضيت غرور كل منهم باســـــتماعك اليه وباهتمامك بما يقول .

سيطرة الناس عليك ســـــتنخفض بدرجة كبيرة اذا أتبعت هكذا قاعدة الصمت ، الصـــــمت المطلق في اغلب الأوقات بالنسبة للحظات الاخرى ، فسوف تتحقق عندئذ انك لا تتأثر بأي شيء مهما كان ، وانك ستعرف كيف تقول لا ، وترفض في رقة ، دون تقديم اية تفسيرات ، أو لكي تبرر لماذا تفضل الرفض ، ولن يكون للعجــــــرفة ، ولا للرفض ، ولا للسخرية اى تأثير عليك ، كما لو أن الامر لا يتعدى أكثر من صخب عادي صادر من مكان ليس له أية أهمية بالنسبة لك . ولى كلمة واحدة ، هـــدوؤك وصفاء ذهنك وتسلسل أفكارك ، كل هذا لن يكون خاضعا للمحيطين بك . ستكون عندئذ قد أكتسبت الاستقلالية .

وفوق ذلك ، ستشعر بانك ازددت جراة عن ذي قبل ، وعندما تعرض لك فرصة الكلام فتكلم بكل ما يفيـــــد ولا تتردد ، ولا تطلب اى تفسير ، ولا تقدم اية ملاحظـات أو اية تعليلات ، وحتى اذا توقعت استقبالاً غير ودي ، وهو أمر لن يؤثر فيك طبعا ، فانك لن تزداد عنـــــدئذ الا اصرارا وعزما .

٣ ـ احتفظ بمبادرة أفكارك !

لكى تقوى استقلاليتك المعنوية ، عليك ان تهتم ايضا بالبحث بوسائلك الخاصة عن البواعث التى تنبع منها قراراتك ، اصغرها شأنا واكبرها ، وطالما لم تكتسب الطاقة الذهنية تنمية خاصة فان صاحبها يفضل على العموم الخضوع لتأثيرات الغير ، ويبدى اقتراحاته بدلا من أن يفكر ويقرر بنفسه ، ويهتم بالأحرى باختيار حل يرضيهم بدلا من أن يقوم بمجهود جدى لكى يركز ذهنه فى الحل الأفضل . انظر حولك ، بمجرد أن يجد أى شخص نفسه امام معضلة ما يشعر بالاحباط ، ويفضل أن يختار لهذا او لذاك ، وأول حركة تدفعه الى ان يعرض حالته ؟ وان يتحدث عما يشغله مع اولئك او هؤلاء على امل ان يجد لديهم النصح ، وأن يشعر بأنه مرتبط بهذه الطريقة او تلك . وانت يامن تريد أن تتحرر من سيطرة الغير لا تقع فى مثل هذه الورطة ، بدلا من ان تبحث عن الهاماتك حولك ، ابحث عنها فى نفسك . ومن اجل ذلك ، انفرد لكى تفكر ولكى تفحص المسألة التى تشغلك ، ولكى تبحثها من جميع وجوهها . واذا احسست ، لكى توضح رأيك ، بحاجتك لمعرفة شىء تجهله فاستشر فى هذه النقطة بالذات رجلا له خبرة فى الموضوع الذى يهمك . سله الأسئلة المحددة الضرورية لك دون أن تدعه يستشف مايدور فى رأسك .

ومالم يترك المرء مصيره للقدر وينساق مع التيار ، فيجب عليه ، فى الحياة ، ان يجرى وراء هدف محدد ، وأن يعرف ما يدور وما ينبغى الوصول اليه . ماذا يختار ، وكيف يضع قراره ؟ بان يتعلم ويتحرر لكى يعرف نفسه ،

ويفهم الامكانيات ألتى تناسب بنوته الطبيعية ومستواه الثقافى ومواهبه وكفاءاته والمناسبات الظرفية ، وأن يعمق بنفسه القرارات الأساسية التى عليه اتخاذها فى مجرى حياته ، وأن يوجه نفسه ، عندما تظهر أية حالة ، لكى يحل كل معضلة على حدة .

ومهما تكن الظروف ، فهناك طبعا قرار أفضل من غيره يمكن اتخاذه ، فلا تنتظر حتى يكتشفه لك أصحابك ، ابحث عنه أنت نفسك . وعندما تعتقد أنك اهتديت اليه ، فتصرف نتيجة لذلك ، دون أى أهتمام بالآراء التى يمكن اثارتها حولك ، وربما ، بل حتما ، سترتكب أخطاء ، ولكن التجربة نفسها ستنير طريقك ،وتزودك بمستندات قرارك ، أما اولئك الذين ارادوا من أول وهلة، الطيران باجنحتهم الخاصة ، واتخذوا القرارات من تلقاء انفسهم ، فهل هم خجولون ؟.. أبدا . هل أثرت فيهم سيطرة الغير ؟ اطلاقا ، انهم يتقدمون بخطى عريضة ، ويعرفون كيف يواجهون انداذهم بكل هدوء ، فقلدهم ، افهم كل الآراء وأفحصها بدقة ، ولكن فى نهاية المطاف اصدر قرارك بنفسك .

٤ ـ لا تعبا بآراء الغير :

ذكرنا قبل ذلك دور الخوف من ان نبدو كما لا نريد او من أن لانبدو كما نريد . وهذا الخوف هو أساس ٨٠ ٪ من آلام الخجل . وعلى العموم ، فان أى شخص غير ملم بالتربية النفسية يعلق اهمية كبيرة على التأثير الذى يعتقد انه يسببه للغير ، وعلى الرأى الذى يظن أنهم يبنونه عليه . ويهمه اكثر أن تصيبه الشهرة وأن يعرفه

الناس من أن يعيش ولا يعرف أحد عنه شيئا ، وهـذا الاستعداد يتضاعف بسقم ، لأنه يبالغ فى نقصه ، ويعمل فى قلق على اكتساب استحسان أو اعتبار الذين يحيطون به ، وينزعج لمجرد فكرة أنه من يكتسبهما ، وهكذا ترتبط راحته العصبية وصفاء ذهنه بالغير .

بيد أن جميع الخجولين تقريبا أذكياء ، بسبب حساسيتهم المفرطة ، وسوف يفهمون بسهولة ان مايهمهم هو أن لا تصيبهم الشهرة وانما أن يكونوا فعلا ، حيث أن القيمة والموهبة الحقيقية لاتبالى برأى الغير ، ولا تتأخر أبدا عن فرض نفسها ، فان البداهة لا تحاكم ، وانمـا تشق طريقها بنفسها حتى ضمير العقول اليقظة التى لم تصبها غشاوة مرضية .

وانصح أذن القارىء الجشع لهـذه الاستقلالية الطبيعية ، موضوع الفصل الحالى ، بأن يتمرن على الامتناع عن تبديد طاقته الذهنية من أجل موافقة الآخرين ، وأن لا يهتم الا بموافقته هو فحسب ، وأن يحاول أستحقاقها ، وأن لا يعبأ باهتمام الغير به .

حلل نفسك بدون مجاملة ، والق على نفسك أسئلة محددة :

١ ـ ماذا أعرف ؟ ... اذكر جميع الاسئلة من المعلومات التى تعرفها ، وسجل مستوى كل منها . هل لديك كفاءة خاصة ؟ ... ماذا ينقصها لكى تبلغ مستوى التفوق فى تلك الكفاءة بحيث لا تحتمل الجدل ؟.

٢ ـ من أنا ... قيم بنيتك الطبيعية ، لا تخش مواجهة عيوبك لان هذا هو الشرط الضرورى لكى تغيرها ،

ولكى لا تضخمها ، عاين مواهبك واهتماماتك وذاكرتك ورايك وتصورك وذكاءك وامكانيات استيعابك وشجاعتك واصرارك وثباتك ، الخ ...

فحص دقيق جدا ومتقن من هذا النوع سيكون أول تاثير له تنشيط حياتك الداخلية وتركيز أفكارك عن نفسك مما يخفف اوتوماتيكيا وسواس الرأى الخارجى ، ويبين لك انه ليست هناك فائدة تعود عليك من تقييم الناس لك أكثر مما تساوى ، أو أكثر مما تستطيع ، فى حين انه ليس هناك اى ضرر لا قيمة له عندما تملك قيمة ذهنية حقيقية او محققة ينكرها البعض ولا يعرفونها حق المعرفة .

عليك اذن ان لا تشغل نفسك بالظهور والشهرة ، وانما بما تستطيع ان تفعل ، وان تهتم بالامور التالية لتحديد آرائك :

١ ـ ان تعرف كيف تستمع لصوت العقل .

٢ ـ ان تتعلم وتحتفظ بكل معلومة بدقة وفى اسرع وقت .

٣ ـ ان تتذكر بالتحديد كل مناسبة فى حينها .

٤ ـ ان تستطيع تحديد وتعزيز وامتداد اهتمامك باى موضوع دون شرود ، ودون صعوبة او تعب مفرط .

٥ ـ ان تفكر فى وضوح .

٦ ـ ان تبدى رايك بنظام وتفهم ووضوح .

٧ ـ ان تقاوم كل اغراء ونفوذ خارجى .

٨ ـ ان تتغلب على انطباعاتك .

٩ ـ ان تبقى سيد انفعالاتك واحساساتك وعواطفك .

١٠ ـ ان تبحث وان تجد الوسيلة للحصول على

نتيجة ، ولتحقيق مشروع وحل معضلة ، وهذا هو ما يعرف بامتلاك المبادرة .

١١ ـ أن تكون محصنا ضد كل عادة ضارة .

١٢ ـ أن تلتزم بالهدوء وبالثقة واليقظة .

١٣ ـ أن تتابع بالارادة وبالتنفيذ ما عزمت عليه ، وأن تمتثل لقاعدة تتبناها رغم كل العقبات .

١٤ ـ أن تعبر عن رأيك بكلمات واضحة وبثبات واتزان وثقة .

١٥ ـ أن تكظم غيظك .

١٦ ـ أن تتكيف سريعا مع موقف جديد ، وأن تقوم في أقصر وقت بتنفيذ عمل معين .

١٧ ـ أن تشعر بثقة كاملة في النفس .

١٨ ـ أن تبقى سيد نفسك تماما في حضور الغير .

٥ ـ كيف تقوى ثقتك :

اذا كنت ، بعد الفحص السابق ، قد اكتشفت ما ينقص شخصيتك ، فلن تلبث أن تشعر بالثبات والحزم امام الجميع ، أما الدافع الذي يدفعك الى التحدث أو التصرف ، ويضفي على أهميتك فكرة مخادعة ، فسيكف عندئذ عن الظهور ، ومن غير أن تقوم بأى شيء خاص في سبيل ذلك ، ستتخذ نظرتك وعبارتك سمة من الحزم توحي بالاحترام الحقيقي . نشاطك سيبين قيمتك الحقيقية بالنتائج التي يولدها .

وباهتمامك بالحقائق فحسب ، ستختفي حساسيتك نحو الخوارق ، ولن يكون لنظرة تهديد أو للنقد أو للسلوك الساخر أو للغرور أو للمنظر الصارم الجاف

لبعض الأشخاص اى تاثير عليك ، كما لو أن كل ذلك ماهو الا سحابة عابرة من الدخان .

والصلابة تقويها المراقبة لابقـاء الـذهن فى حالة من الهدوء والانسجام والتركيز ، ويقويها كذلك كل جهـد منجز لمطابقة العمل بالقرار ، وفى كل مرة تكون قـررت فيها خطة عمل ومبدأ للملاحظة ، وانجاز مهمة ، فاخضع لقرارك تماما . وبهذا تقوى ثقتك فى نفسك . وقل لنفسك :

١ ــ انا سيد قراراتى الخاصة .
٢ ــ لن ارتبك أو انفعل ابدا .
٣ ــ لن اغضب ولن اغذ اية عاطفة تؤدى الى الحنق .
٤ ــ لن اتسرع فى اتخاذ قراراتى .
٥ ــ لن اندم ابدا بعد اتخاذ اى قرار .
٦ ــ قراراتى ستكون جوهرية ، ولن اترك اى شىء دون أن اتمه .
٧ ــ لن اتصرف ابدا بعكس ارادتى الخاصة .

هذه المبادىء الأساسية ممتازة ، واذا فكرت فيهـا المرة بعد المرة باهتمام ، فسوف تنحفر فى رأسك بحيث لا تلبث أن تأخذ صفة القانون ، وعلى كل حال ، فان كل امرىء يمكنه ان يتصور مبادىء أخرى غيرها تناسـب احتياجاته الخاصة .

٦ ــ اخذ المبادرة للعمل :

انت حتى الآن قد تاثرت تقريبا بسيطرة الجميـع . ولكن ما ان تطبق ما سبق حتى تتحصن الى حد ما ضـد هذه السيطرة . فكر فى تنمية تاثيرك الشخصى ، العـزم

والتصميم على التأثير على الغير أكبر ترياق للخجل ، انني حررت بعض كبار الخجولين من هذه العقدة بأن حملتهم على ممارسة الايحاء ، فكيف ذلك ؟

اولا : اعلم قبل كل شيء أن ذلك يكون بممارستك لارادتك على نفسك بالذات ، مثال ذلك : بانجاز المجهودات المذكورة في هذا الفصل ، فان نظرتك وعباراتك وسلوكك ستكتسب تصميما كبيرا يؤثر وحده على الجميع .

ثانيا : عندما تحمل محدثك ، طبقا لارشادات الجزء الثاني على أن يتكلم ويفيض في الحديث في الموضوعات التي تهمه ، وخصوصا قيمته الشخصية وكفاءاته الحقيقية أو المبالغ فيها ونجاحاته وادعاءاته ، فانك بذلك تضعه تحت استقلاليتك ، وسيشعر دون وعي بالميل اليك ، ومعنى ذلك انه سينتظرك ويبحث عن صحبتك وتقديرك له ، وأنت أذا راقبت نفسك وأبديت تحفظا كبيرا على خصائصك وارادتك واهدافك فستلعب الموقف مرة واحدة ، فقد كنت انت الذى تطيع قبل ذلك ، بلا وعي ، وتخضع لميول الغير . ولكنهم هم الذين يخضعون لسيطرتك الآن .

ثالثا : حيث أن خطة الصمت تسمح لك بملاحظة أولئك الذين يحيطون بك بتحريضهم بالاهتمام الذى تمنحه لانبساطيتهم على أظهار مختلف الجوانب لاخلاقهم ، لن تلبث أن تعرف طبع كل منهم ، وميوله وعيوبه ، واعوجاجاته دون أن يبدو عليك ملاحظة ذلك ، ولن يتبينوا من شخصيتك الا الهدوء والمجاملة والصلابة ، وسيكون من السهل لك عندئذ ان تسيطر عليهم تماما ، وان تعرف كيف تتعامل معهم ، عندما تريد ، مع تسلسل أفكارهم ونواياهم .

هذه المبادىء أولية جدا ، ولكنها تكفى لبلوغ الهدف المنشود الذى نتابعه من هنا ، أى أكتساب الثقة فى النفس .

تنمية المغناطيسية الشخصية ، اى السيطرة الشخصية ستتخذ طبعا مكانا هادئا فى افكارك ، وأهميتها فى غاية الوضوح .

٧ ـ الارادة :

كل منا يأتى الى الدنيا مهيئا بحيث يصير خجولا حتما أو جريئا طبقا لظروفه . ولكن ، كما حاولنا اثبات ذلك ، وحيث أن التجربة الصحيحة قد أثبتته ، فانه يبقى امام هؤلاء علاج فعال لضعفهم وطبيعتهم . وهذا العلاج هو المجهود . وتربيتنا الأولى تظهر لنا هذا العلاج بغيضا وشاقا ولا امل منه . وإذ نرى فى الحياة اليومية الغالبية الكبرى تتعجله وتتجنبه ، يبدو لنا حقا أن من العسير أن نلجأ اليه ، اطرح بعيدا عنك هذه المعلومة الكاذبة الخاطئة ، ولا تعتمد الا على تجربتك الخاصة ، ابذل كل جهدك للخضوع تماما لهذا العلاج ولكل المواصفات والارشادات التى سبق ذكرها ، ولن تلبث أن ترى أن هذا الجهد ، خلف واجهته غير المشوقة ، ضرورى لكى تفرض على نفسك شيئا ، وأنه يخفى سحرا قويا بحيث لا يمكن أن تعدل عنه طواعية عندما تجربه بكل دقة .

صمم على اكتساب درجة من الثقة ، فوق المتوسط بكثير ، وسوف تصل اليها حتما .

وقد تعانى فى البداية ، من تعب ، سببه عدم التعود على مراقبة الذات ، ويؤدى احيانا الى الملل ، لا يجب

اعتبار هذا الأمر كعدم قابلية للمثابرة والاصرار ، وانما كعارض وقتى لا يلبث أن يزول ، وبعد بضعة أيام من الاسترخاء ، ومن بعض الايحاءات الذاتية ، تبدأ العمل من جديد .

--

لا تنسى أبدا الامكانيات الجديدة التى ستتاح لك عندما تغدو رابط الجاش داخليا سوف تعزز هذه الامكانيات نشاطك وتساعده ، ومهما يكن الوسط الذى تعيش فيه والعمل الذى تقوم به ، ومهما تكن معرفتك وقدرتك فستحصل منها على قدر كبير مفيد بدرجة كبيرة من الثقة فى النفس .

قد يحدث لك أن تقارن نفسك ببعض الذين يمتلكون رباطة جأش طبيعية يبدو انهم لم يبذلوا أى جهد لاكتسابها ، لا تحسدهم كثيرا ، لأن الثقة المكتسبة والمتعلقة تحفظ دائما لباقة واتزانا يفتقر اليهما ذوو الطباع الجريئة تلقائيا .

هؤلاء لا يتمتعون عموما برباطة الجاش الا بطريقة نسبية جدا ، فيكفى اعتراض ما أو مقاومة غير متوقعة وغير مألوفة لكى تثار حيرتهم احيانا ويرتبكون كثيرا ، وعلى العكس ، فان الذى اضطر الى اكتساب رباطة الجاش التى كان يفتقر اليها بالتدريج ، وبالجهد الارادى ينمى كذلك قوة طبع لا يمكن لاحد السيطرة عليها بسهولة ، وتزداد قوة من سنة لأخرى .

الفصل السابع

سيطرة الخيال

الخيال اليقظ يتيح الفرصة لمخاوف عدة دون داع ويبالغ فى الصعوبات الحقيقية ، ويخلق وساوس شاقة . ولعلاج ذلك فمن المناسب ان تراقب نفسك لكى تتمرن على تقدير الاشخاص والاشياء حق قدرها .

١ ـ عنصر هام للخجل :

راينا فى الجزء السادس من الفصل الاول ان الخيال يلعب بالنسبة لعناصر الخجل الاخرى دور العارض ، ويضاعف تاثيرها مرات كثيرة . والمجردون تماما من الخجل من النادر تقريبا أن يعرفوه لانهم يمتلكون رباطة الجاش الهادئة اللاشعورية للحيوان . اما الرجل الخيالى ، فعلى العكس ، بميله الى التوقع والتخمين يوسوس نفسه بمجرد ان يتدخل الخوف من انطباع بغيض فى توقعاته وتخميناته . وكل شخص غريب يخيفه ، أولا ، لانه يتصوره تقريبا عدوا دائما له ، وثانيا انه يعزو اليه طواعية بعد ذلك رفعة مجانية ، ويعتقد أنه يرى فى كل مكان احتقارا ونفورا وسخرية . فكيف لا ينزعج ، وكيف لا يكون متشككا ؟.

فى الوقت الذى كنت اشكو فيه من الخجل ، حدث أن تقدمت الى رجل التحقت بالعمل تحت رئاسته . وعندما

دخلت مكتبه ، رأيت قامته المديدة القوية ووجهه الصارم يعترضه شارب كث ، وشعر رأسه مقصوص بطريقة جافة ، وأحسست قبل ان يفتح فمه بأنني أرتعد خوفا ، فقد بدا لي قاسيا ، مستبدا وعنيدا . وعند أول أسئلة القاها على تجمدت أطرافي ، ودوى الطنين في أذني ، وأفقدني صوته الخفيض صوابي ، ولكنني لم ألبث ان ادركت فيما بعد أن ذلك الرجل كان في الواقع جد عطوف ومتسامحا وأبويا . لم يكن يصدر أوامره الا بلين واعتدال، واذا اضطر الى اعادة تلك الاوامر ، أعادها برفق وهدوء.

كان درسا مفيدا لي ، وادركت الى أي حد يمكن للخيال ان يخدع الخجول ، وأنه يكفي لهذا الاخير أن يتغلب على مخيلته لكي يبرأ من خجله تقريبا . ويمكن لكل امرىء ان يلاحظ انه عندما يرى نفس الشخص ويتحدث معه كل يوم أثناء وقت معين ينخفض بالتدريج الانطباع الذي أحس به عنه في البداية ، لانه اذ يكثر من لقائه يراه على حقيقته ، وليس كما صورته له مخيلته عندما تعرف عليه أولا . وكذلك الحال اذا تعلق الامر بمجتمع من الناس بدلا من شخص واحد . وطالما لم ندخل ذلك المجتمع وطالما لم نختلف اليه فسنراه كما تصوره لنا سفلياتنا الحقيقية ، أو المبالغ فيها او الخيالية ، وتظهرنا بمظهر مجاف أمام الجميع . ولكننا لا نلبث أن ندرك اننا في ذلك المجتمع ، كما في أي مكان آخر ، نبدو للأكثر أهمية اننا لسنا كذلك ، في حين أن آخرين يقيموننا تحت مستوانا الحقيقي . ونلاحظ كذلك أن وجودنا يلقى بعض الترحيب وبعض النفور وعدم ميل من اكبر عدد بعد أن يمر فضول اول لحظة .

مظهر هادىء ويقظ يكفي لكي لا يلحظنا أحد ، اذا

كانت هذه هى رغبتنا ، وحيث أن كل شخص مشغول بنفسه بحيث لا يهتم بغيره ، فى المجتمعات الكبيرة على الاقل ، فلنكن على يقين من أن ما من احد يعبأ بالبحث عن عيوبنا ، ولا عن تفوقاتنا المحتملة .

ويجب على الخجول ان يقول ، فى كل مكان يمضى اليه، « انهم لا يبالون بى ولا يهتمون بى» ... وطبقا للفصـــل الرابع يجب أن يضيف « لا يهمنى كيف أبدو ، ولكن يهمنى من أكون ، وتهمنى مميزاتى الخاصة وكفاءاتى وما يمكننى عمله بامكانياتى المحددة » .

مراعاة هذه الارشادات تدرب العقل على التحرر من التلقائيات الخيالية ، وتشجع تنمية الاهتمام المراقب ، ترياق الانطباعية . يقال للخجول احيانا « يجب ان تتعقل » . والاقتراحات السابقة تفيده اكبر فائدة فى هذا الصدد .

٢ ـ حدد دائما قبل ان تتخذ اى قرار :

اذا كانت تلقائيات الخجول الوجلة تحمله دائما على أن يرى مسبقا كل شىء بعين قلقة ، فذلك لانه يهمل ملاحظة وتحديد سمات الاشخاص والظروف . وتلافيا لذلك يجب أن يتمرن على عدم أبداء اى راى الا بعد أن يجمع الملاحظات الاكيدة . اذا كان الامر يتعلق مثلا بفلان من الناس ، شـــــخصيته تثقل عليك وتؤرقك دون أن تدرى لماذا ، فحلل انطباعك عنه أولا ، وسترى أن ذلك الانطباع ناتج عن أوهام بسيطة .. ربما نظرة حادة أو مظهر محتقر او عبارات وجيزة قاطعة أو خصوصيات اخرى خارجانية مشابهة . واعد فحص ذلك الشخص

بعد ذلك بصورة أفضل ، فمن حيث النقطة الاولى يمكن ان يكون شكل عينيه هو الذى يكسبهما تلك الحدة التى تكدرك . وربما ترجع غطرسته الى الم معوى او عصبى ، ما لم يكن راجعا الى غرور صبيانى . أو لعل مظهره هذا قناع يخفى خلفه نوعا من الخجل ، مختلف عن خجلك وغير مكدر . سترى بعد امعان التفكير بأن الهيبة التى تضـــيفها على هذا الفلان لا وجود لها فى الصـــورة التى رسمتها عنه انت تلقائيا . وعندما نقول هيبة نستطيع ان نضيف الف صفة اخرى تعزوها الى تلك السمات التى تخيلتها والتى جعلت هذا الفلان يبدو مخيفا فى عينيك .

الخارجانية عند اغلب الناس ليست الا قناعا سيكشف ذكاؤك خلفه حالا ، بالملاحظة الدقيقة ، طبعا مختلفا عن ذلك الذى يظهره . وبالاضافة الى ذلك ، بنوع من المقدرة او الحذق لا تخمن شيئا آخر من طباعه ، فعند الناس دون المتوسط ، كما عند المتفوقين منهم ، الى جانب الميزات المتألقة ، تجد عيوبا عميقة . والى جانب بعض المواهب البسيطة تجد دائما ، عندما تدرس طباعهم بدقة ، غشاوات عجيبة . اكثر العقول يقظة واكثرهم حكمة هم السذج ، السريعو التصديق ، كالاطفال فى بعض الامور . وحتى الارادة الشديدة الرسوخ لها ترددادتها وتراجعاتها . واكثر الحساسيات بدائية لها رقتها التى لا يمــكن كشفها .

الصداقات والتعاطفات العميقة تبدأ بمعارضات عنيفة . وتحت مظهر عداوة شــديدة تكمن احيانا مجانســات اخوية . لا يجب أن يغيب هذا عن نظرك عندما تلتقى بأحد لاول مرة . ابحث عن اسباب ودوافع سلوكه وحديثه وتصرفاته ، وتعلم كيف تميز المشاعر والطموحات التى

تحركه ، وجوانبه القوية وجوانبه الضعيفة ، وتأكد أنك ستكتسب اليقين بأن ما من أحد فى الدنيا يمكنه أن يخيفك . فى مقدورك أن تعرف اشياء كثيرة من سمات أى رجل ومن خطه ، فهما يشجعان كثيرا فى تقييم صاحبهما حق التقييم . لا لشيء يشجع كمعرفة قراءة سمات وجه الرجل وخط يده فى صمت .

٣ — تأسيس الثقة فى نفسها قبل الاختلاط بمجتمع مجهول :

عندما تضطر الى دخول بيئة جديدة يمكن أن تنتفع بارشادات النسل السابق باستنادك الى ما تعرفه باسكيد عن الاشخاص الذين ستتعامل معهم . حاول أن تدون لنفسك عنهم معلومات صحيحة ، وحاول أن تهتدى الى المعلومات التالية بكل دقة :

— ما الدافع أو ما المنفعة العامة التى تجمع بين هؤلاء الناس ؟.

— ما الذى يشغل بالهم نتيجة لذلك ؟.

— كم عددهم بالتقريب ؟.

— هل لدى معلومات تسمح لى بتقييم مستواهم بالتقريب ؟.

— هل هناك شيء يميز واحدا منهم او اكثر ؟.

— فيم يهمهم وجودى أو الدور الذى أقوم به ؟.

— ما شأنى بهم ؟.

— ما اهميتهم بالنسبة لى ؟. ومن اية وجهه نظر ؟.

— لمن يخضعون ، واى نفوذ يمكن ان يكون لهم ؟.

— هل لسلوكهم اهمية ، سواء كان مناسبا او غير مناسب ؟.

ـ هـل يمـكنني تقييم امتـداد وحـدود معـرفتهم وامكانياتهم وامتيازاتهم بالتقريب ؟.

ـ هل لدى من الاسباب ما يجعلنى اعتقد اننى دونهم ؟.

ـ ما اثر هذه الزيارة بالنسبة لاهم اهداف حياتى ؟.

واعتمد على ذكائك لاضافة الاسئلة التى تناسب كل حالة من هذه الحالات .

واذا تعلق الامر بالاعمال فان هدف مسعاك بالذات ، وعزمك على الحصول على ما تريد يتركان فى ذهنك مكانا قليلا للخوف ، شريطة ان تعرف كيف تفكر مليا . وخارج هذا المجال ، اعتبر كل اجتماع تظهـر فيه كموضـوع للملاحظات الجديدة والجذابة . ستحس أحيـانا بأنك غريب ، فلا تضطرب . وخذ كل وقتك لكى تتآلف مع كل منهم ، ولا تكره نفسك على تضحيات لكى تتصل بهم ، وافحص ما يدور وحدد ما يقال ، وحدد طباعهم .

لا يغيب عن نظرك أبدا أن الثقة فى النفس تنمو سريعا بأعمال مباشرة ، وليس بممارسة اى تمرين أو اى تصرف. التزم ، رغم شعورك بالقلق بمواجهة الانظار ، وخاطر بأن تجد نفسك مرتبكا امام أحد ما . هذا ما يجب على كل خجول أن يفعله بكل اصرار . كل مجهود من هذا النوع يقوى النفسية . والامر لا يحتـاج الا لعدد صغير من المجهودات لكى تخلق من جبان الامس رجلا عازما . ومن المفهوم طبعا أن من الأوفق البدء بأعمال لا تتطلب الا جهدا خفيفا . وعندما تتغلب على هذه الصـعوبة الصـغيرة المتلازمة لهذا النوع من الاعمـال يمكنك ان تنتقل الى سلسلة اخرى اكثر صعوبة .

٤ ـ الاهتمام والخيال :

ترينا التجربة أن الخيال المضطرب يتلازم مع نقص فى الارادة الواعية ، وعلى العكس ، اذا تمرنت الارادة وتعززت بالاهتمام فانها تعتدل وتعقل الخيال فى نفس الوقت .

ولكن لا يجب أن نعزو لمخيلتنا همومنا وقلقنا وكبتنا للخجل فحسب ، بل يجب أن نعزو اليها كذلك اضرارا اخرى كخوف الطفل من الظلام اثناء الليل ، وطيشه وشروده فى الفصل ، وعدم تناسق افكاره ، وميله الى المبالغات وتشويه الحقائق ، ثم فيما بعد ، عدم قابليته للعمل المحدد والدقيق ، وانحرافاته الاخلاقية الغريبة ، وعدد كبير من العادات المرضية .

الاهتمام والخيال يعملان معا ، واثنتان من طرق الاهتمام الثلاثة المعروفة يحكمهما الخيال ، وهما الاهتمام المسبب والاهتمام التلقائى ، اما الطريقة الثالثة اليقظة وهى المعروفة بالاهتمام الطوعى ، فعلى العكس ، تخضع الخيال لها . واليك كيف :

ا ـ الخيال يحكم الاهتمام المسبب : عندما يشد انطباع حاد حواسنا وانفعاليتنا وعقلنا ، يجد اهتمامنا نفسه اوتوماتيكيا خاضعا وغافلا : هذه هى ظاهرة الاهتمام المسبب ، ومن الواضح عندئذ اننا نقع عندئذ تحت تأثير دافع خارجي ينقل خيالنا تأثيره الينا .

ب ـ الخيال يحكم الاهتمام التلقائى : نحن يقظون تلقائيا فى كل مرة يروق لنا فيها شيء او يخالف ميولنا . ونقول عندئذ ان هذا الشيء يثير الاهتمام ، وهو يعادل صورة تشد اهتمامنا بمميزاتها .

جـ ـ الاهتمام الطوعي يخضع الخيال له : هناك اهتمام طوعى عندما تفرض وجهة معينة ومتعمدة فى ذهننا . مثال ذلك ، عندما نقوم جديا بتطبيق عمل ضرورى ، ولكن لا جاذبية له . من الواضح فى هذه الحالة أن الذهن يتحول طوعا عن كل الصور التلقائية .

وهكذا نجد أن ممارسة الاهتمام الطبيعى هى مقاومة الخجل .

أعمالنا اليومية العديدة تقدم لنا الكثير من الفرص لكى نراقب أنفسنا . علينا أن نفكر فيما نعمل ، وأن لا نفكر فى شيء آخر غيره . ولكن قبل الشروع فى تنفيذ هذا الايحاء الذاتى ، فان من المفيد أن نوقظ الاهتمام الطوعي من فتوره الشديد بتمرينات خاصة .

تمرين رقم ١ : هذا التمرين ، كالتمارين التى تليه ، يتطلب نصف ساعة : اختر موضوعا للتأمل ، واكتبه فى بطاقة ، وضعها أمامك ، تحت بصرك ، وفكر فى ذلك الموضوع ، واجمع افكارك بمجرد ان ترى أنها تتباعد .

تمرين رقم ٢ : بعد ان تضع امامك شيئا ماديا ، مرن نفسك على تحليل مميزاته بحيث تستخرج أفكارا لها علاقة مباشرة به .

ولكى تعود ذهنك على هذا التمرين الاخير ، يمكنك أن تلجأ الى مجموعة من الاسئلة كما يلى :

ـ ما هى المادة الاولية التى يتركب منها هذا الشيء ؟.
ـ لاى سبب تغير هذا الشكل ؟.
ـ ماهى التغييرات المتتابعة التى طرات عليه ؟
ـ فيم يستخدم ، وما هى مميزاته وخواصه ؟.
ـ ما علاقته بغيره من المواد ؟.

ـ فيم يمكن استخدامه في غير الغرض الذى صنع منه .
ـ من اية المعلومات نجم ، وما هى المعلومات الاخرى التى يمكنه مساعدتنا فى الحصول عليها ؟.

ـ ما مصيره فى النهاية ؟.
ـ ما رايك عنه ؟.. برر هذا الراى .

تمرين رقم ٣ : عندما يشغلك شيء ويقض مضجعك ، ويميل الى ازعاجك دون جدوى فاطرحه عن ذهنك ، وارفض أن تفكر فيه . ويكفى من أجل هذا أن تفكر مليا وطواعية وبحزم فى شيء آخر لا علاقة له به اطلاقا . لا تظن ان ذلك محال أو سهل ، ولكنه ممكن رغم الصعوبات الشديدة . فى البداية ، ستعود الى ذهنك الافكار التى تحاول استبعادها . وستعاود الكرة فى اصرار والحاح ، ثم تحاول أن تتسلل خلسة الى ذهنك ، بجوار الافكار الاخرى ألتى اتخذتها لتحل محلها. صمم على موقفك ، وسوف تفوز ارادتك . فى محاولتك الاولى ستقوم بهذا التمرين لمدة دقيقة أو دقيقتين فقط ، بل وربما لمدة ثلاثين ثانية فحسب ، ولكنك فى المرة التالية ستصل الى ثلاث أو خمس دقائق ، ولا تلبث بعد ذلك ان تغدو جديرا بأن تمتنع عن التفكير طويلا فى ذلك الشيء مهما كان ملحا .

ان المؤثرات السريعة لتربية الاهتمام الطوعى هو مضاعفة فاعلية الايحاء الذاتى العقلانى والاختيارى عند المرء . مثال ذلك انك اذا قمت بالتمرينات السابقة ثم قلت لنفسك بقوة قبل أن تختلف الى مجتمع « انا هادىء تماما ورابط الجاش فى اى مكان أتواجد فيه ، وأمام اى

احد » . هذا الايحاء الذاتى الذى لم يكن يحرضك من قبل كما كنت تريد سيكون له عليك تأثيرا أكبر واعمق وممتد . والواقع أن الخيال بعد ان تضع نفسك مراقبة الاهتمام ، يصبح منفذا أمينا وقويا للايحاءات الذاتية .

٥ ـ كيف تتغلب على التخوف :

الطريقة السريعة : بارتداء ثياب مريحة بقدر الامكان بحيث لا تطبق على صدرك او بطنك ، وان تأخذ نفسا من غير تسرع او ابطاء وانت تقول لنفسك : « أنا نشيط . لا أشعر بأى خوف » . او أية صفة اخرى تناسب حالتك الوقتية . ثم تتوقف وقفة بسيطة (ثانية او ثانيتين) وعندما تنتهى من التنفس العميق ، ابدأ بعملية الزفير بهدوء وانت تكرر « نشاطى يزداد ، ولم أعد أشعر بأى خوف اطلاقا » والمدة المتوسطة للشهيق العميق هى سبع ثوان ، واذا اضفنا ثانية للتوقف وأربع ثوان للزفير فان الطريقة الكاملة تتطلب اثنتى عشرة ثانية . واذا كنت قد خصصت لنفسك خمس دقائق فقط لممارسة هذه العملية ففى مقدورك ان تعيد ذلك ثلاثين مرة تقريبا .

الطريقة البطيئة : وهى أن تتنفس مرارا طوال اليوم ، ثم قبل النوم ، وفى الصباح ، عند اليقظة ، وانت فى وضع أفقى ، وعضلاتك مسترخاة تماما . تنفس بعمق كما هو مذكور فى الفقرة السابقة ، ولكن أضف الى الصيغة الاولى منظرا ذهنيا بأن تتصور السبب الذى يحملك على الخوف وان تقول لنفسك فى توكيد « سيان هذا . اننى اشعر باطمئنان تام » او شيئا من هذا

القبيل . وعندما تتخلق عادة الشهيق العميق والمنظم ذلك المنظر الذهنى يمكنك أن تتصور كذلك الظروف التى تسببت فى الخوف ، وأن تتخيل انك تعيشها فى أمان ونشاط .

تمارين مختلفة من هذا النوع موجودة فى أغلب كتب الرياضة النفسية . ولكن لا يمكن ان تعطى نتائج مرضية الا بمساعدة الاهتمام المركز كما أشرنا عاليه .

٦ – الدور المفيد للخيال :

عندما تتخيل طويلا وبدقة شخصيتك كما كنت تريد أن تكون ، وعندما ترى نفسك تظهر مسبقا بعض المواصفات التى تريد أن تنميها ، فانك تستفيد عمليا من الامكانية الانعكاسية للخيال ، فان التصورات التى تخلقها بهذه الصورة تميل الى ان تحدد فى نفسك تغييرات تناسبها . وهى لا تتبخر فى اللحظة التى تكف فيها عن تصورها ، وانما على العكس ، تبقى ، كل ذكرياتك فى عقلك الباطن ، وحتى عندما لا تفكر فيها أثناء نومك . وفى كلمة واحدة تؤثر عليك تقريبا .

واذا كنت بتصورك هذا تمتلك درجة من الثقة فى النفس ما زلت بعيدا عنها فانك تحس منه بجشع شديد ، تماما كما لو انك اختلقت كل جزئيات المواصفات التى تنتج عنها درجة مشابهة للثقة فى النفس ، فلا تخش اذن من تغذية الطموح ، بدرجة كبيرة . ومهما يكن فان التجربة ابانت لى ان ذلك الذى يهدف الى أن يكون رجلا شديد الثقة فى نفسه يحرز تقدما أسرع من أولئك الذين يريدون أن يكونوا أقل خجلا فحسب .

٧ ـ الانفصالية :

كيف يتأتى أن يكون البعض كسالى وأن يكون غيرهم مناضلين ، ذلك أن الاولين يتصورون انهم عاجزون عن جهود فعالية بينما يرى الآخرون مسبقا محاولاتهم يكللها النجاح . وهي مسألة خيال . ولكن في الواقع أن ما من عمل له هدف يضيع عبثا . وهؤلاء الذين يناضلون هم اذن على حق تجريبيا . فما أن تسيطر على خيالك حتى يكون في امكانك ، بمضاعفة تخيلاتك المحرضة ، اتخاذ مواقف نضالية باستمرار . الاستعداد لاقل جهد لفعالية ضعيفة حتما يصبح بالتمرين استعدادا لجهد كبير وفعالية قوية منطقيا . ثم ان السمة الشاقة للاعمال الانعكاسية تفسح المكان شيئا فشيئا للسهولة .

لا اعرف خجولا تصرف دون كلل أو تعب ثلاثة شهور متعاقبة من غير أن يتغير بطريقة عجيبة . والتصرف لا يقتصر على القراءة ولا استخدام قراءاته كأبحاث للأوهام فحسب ، وانما لكي يتمثل مع ما يتطلب ذلك من مشاق لارشادات طريقة عملية ، وبالمثابرة على تطبيق تلك العملية يتغلب على المشاق ، وبذلك تضمن النضالية النجاح . عندما تتصرف عن جهد ، ولنقل عن عمل يتطلب الثقة في النفس ، لانه يستتبع بضع لحظات من الضيق والقلق فذلك لأن خيالنا قد غذته أفكار متخوفة ، ويبالغ في الدرجة الحقيقية للضيق والقلق اللذين يجب مواجهتهما ، ويقلل في عيوننا استعدادنا لتقبلهما . والنضالية تعمل على عكس ذلك ، فهي تقهر المخاوف الجبانة ، بل وتجعلنا نستفيد من معاناة التعب بأن تظهره لنا في صورة رياضية.

خجل مابعد المراهقة والتغلب عليه

بين الجيل الحالى ، وهو اكثر انطلاقا من الاجيال السابقة ، هنـاك نسبة كبـيرة من المراهقين ، بل وحتى من الرجال الناضجين يتألمون من انفعالية مفـرطة امام النسـاء ، ويشعرون بالخجل من الحب رغم اقدامهم وجراتهم فى كل المجالات الاخرى . وبعد استيعاب الفصول السابقة عليهم اتباع الآتى.

١ ــ اسباب عامة لخجل ما بعد المراهقة :

يقوم هذا الخجل على احساس الشـاب بالاضطراب عندما يتعامل مع شخص او أكثر من الجنس الآخر ، ويتبلبل الفكر والحديث والسلوك تقريبا طالما بقى هـذا الاضطراب العاطفى المذكور . وهذا القلق ، على العموم ، طبيعى بين سن الخامسة عشرة والعشرين ، على الاقل ، وعندما لا يتسبب فى كبت مفرط ، واذا لم يتناقص حتى يختفى تدريجيا فيجب اعتباره فى هذه الحالة مرضا .

واسبابه عديدة ، واغلبها طبيعية ، فالضعف مثـلا يكفى لعرقلة نمو الثقة فى النفس عند بعض الشبان . وادراكهم بهذا النقص الطبيعى يؤثر فى معنوياتهم دون شك ، ولكننا نرى بجوارهم شبانا أقوياء خجولين جدا هم الآخرون ، والسبب ان الواحد منهم يعانى ، منـذ المراهقة من رغبة كامنة . ونتيجة لذلك ، يكون سريع

الانفعال اذا ما وجد نفسه أمام امرأة . وسمة المجهول وغير المألوف التى يراها فتى يافع فى الألفة والمودة بين رجل وزميلة له تضاعف درجته العادية من الاضطراب ، وتتسبب فى سلسلة شاقة من عدم التوافق . وثمة عامل آخر من الصعوبات التى يجب معرفتها ، وهو الاثارة الجنسية التى يعانيها والتى يتسبب تأثيرها فى ضعف ووهن شديدين ، وفى أحلام تدور كنهـا حول الرغبة والشهوة ، وهذا أمر طبيعى عند كل شاب بالغ .

٢ ـ اسباب عامة انفعالية و[illegible] :

لاحظنا فى الفقرة السابقة ان الرجل ما أن يبلغ سن المراهقة حتى يعيش فى حالة دائمة من الرغبة الكامنة . وهذه الرغبة تتحول بسهولة الى وسواس [illegible] تقريبا عند أولئك الذين يضرهم افراط فى الحساسية وخيال مفرط الحدة . والانطباعات الناتجة عن [illegible] الأنثوى تأخذ عندئذ حدة عنيفة وخيالا مفرطا لتفسير اليأس الذهنى والكبت والتوتر الشديد ، وهى كنهـا احاسيس تسببها له نظرة فتاة وصوتها وضحكتها ، هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى ، تنحفر مضايقات الفتيات ومعاكساتهن وصدهن وما يتسببن فيه من خيبة أمل فى العقل الباطن للحساس ، فى صور لا تمحى ، وينشئ حاجز بينه وبين الفتيات ، حاجز يضيىء بشعاع مؤلم كل احساس يأتيه منهن . وكم من فتية تملك النبـل منهم لا لشىء الا لأن طفرتهم الأولى قوبلت منهن أسـوأ استقبال . والايحاء يقوم هو الآخر بدوره الحتمى ، فاذا ما اجتر احد مرارة هزيمة اقتنع بأن كل محاولة لاستة

ستبوء هي الاخرى بالفشل ، ويعتقد عندئذ انه غير جدير بنيل الاعجاب . واذا ما راح يناقش الامر بينه وبين نفسه لا يلبث أن يعلن امام الجميع سطحية الجنس اللطيف وقسوته . والادب يغذى الايحاءات الذاتية للخجول ، لانه يتقمص شخصيات جميع ابطال الروايات الغرامية الذين ينهارون لمجرد وقوع بصرهم على فتاة معينة ، او الذين يعانون من عدم اكتراث النساء بهم او من ازدراء جميلة مترفعة .

وينتج من هذا كله ان الشاب ، بدلا من أن يسعى للاختلاط بمجتمع الجنس اللطيف ، واكتساب الاتزان الذى ينقصه بهذا الداب ، يتجنبه بكل حزم ، ويسلك سلوكا عدوانيا ، ويتلقى بالنفور ما يشكو منه بكل مرارة .

٣ ـ الاسباب الخاصة :

عادة بدون خجل يشعر بعضهم بخوف شديد تجاه فلانة من الناس ، بمجرد احساسهم من نحوها بميل شديد . وعناصر هذا الخوف يمكن فهمها بسهولة ، فهناك أولا ، وقبل كل شيء ، تقدير مبالغ فيه لتلك الفتاة ، وهو تقدير ملازم للحب ، ومن هنا يبالغ الشاب مبالغة كبيرة فى أهمية الفوز ، ويتضخم خياله المرات التى يضمنها هذا الفوز ، والمضايقات التى يتسبب فيها الصد والرفض ، وعندئذ يلى الخوف من الفشل بالضرورة ، ويكفى هذا الخوف لكى يتسبب فى خجل شاب من محبوبته ، فى حين قد يكون من أحب الشبان فى نظر غيرها من الفتيات . والافتقار الى الهدوء والى الاصرار ، وهما سبب اغلب الهزائم الغرامية ، يجعلان الموقف أشد ايلاما .

والخوف من القلق الذى تكلمنا عنه يمكن ، رغم انه نادرا ما يكون مؤقتا ، ان يستقر تماما ويصبح موهنا حقا . والاوفق اذن فى كل الحالات ان تعجل بمعالجته بدقة .

٤ ـ الاسس الضرورية لاعادة التربية :

لنخلق التوازن قبل كل شيء ، وبذلك نكون قد خفضنا فى وقت واحد الانفعالية العامة ، والتهييج الوعائى ، باستبعاد الاطعمة المهيجة ، الخطأ الجماعى لزماننا هذا ، وقد اتينا فى الفصل الثالث بارشادات هامة فى هذا الصدد . ولكن لأولئك الذين تعوقهم انعكاساتهم الجنسية، لابد من ارشادات أخرى ، وخصوصا العدول النهائى عن الاطعمة التى من مصدر حيوانى ، وعن كل مشروب فيما عدا الماء القراح . وهذا الرجيم لا يضعف ، وانما يقوى وينظم . وقد ثبت الدليل على ذلك بيولوجيا وتجريبيا. والارشادات الزائدة ليس من شانها الا بلبلة ذهن الذين يريدون التغلب على بعض العادات ، والذين اشرت اليهم فى الفقرة الاولى ، فى حين ان الضرورى لهم هو رجيم صحى منشط ومهدىء . والقارىء المصمم حقا على التغلب على اغراءات الغريزة ، وعلى النوم بدون احلام مزعجة سرعان ما يفوز فى المعركة . امتنع عن تناول اطعمة من مصدر حيوانى ومشروبات روحية ، واذا ضاعف نصيبه من الفواكه الطازجة والناضجة .

واحدى التنافرات الطبيعية العديدة للطبيعة تريد ان يسبق سن الرغبة امكانية الزواج ببضع سنوات ، وعلى ذكاء الشاب أن يحل هذه المشكلة بان يتبنى طريقة

للمعيشة معادلة بما يكفى من القوة للرغبة لكى تتحـزب بسهولة مع الارادة .

هذا التوافق الطبيعي يقلل دائما وفورا الانطباع الخاص الذى تحدده البيئة الأنثوية ، وبالتالى يحرر الخجول من الانعكاسات المتعددة التى تشـوش وضـوحه الذهنى ، وطريقة حديثه ، وتصرفاته . واذ يغدو أقل تأثرا من حيث الرغبة الجنسية ، يصبح حساسا لخفايا الجمال الانثوى ، ويقدر عندئذ صحبة الفتيات ، ويتذوق مفاتن مظهرهن العادى . ولن يكون اقل رجولية ، بل على العكس ، سوف يكون سيد رجوليته عندما يجد الوقت المناسب ، بدلا من ان يكون عبدا مهـانا لها كالـكثيرين غيره .

واذا بقيت مسألة التغـذية جوهرية فهنـاك عاملان يساعدان على الحصول على الآثار الطيبة المتوقعة ، وهما المعالجة المائية ، شريطة أن تنفذ بكل حرص ، والتمرين العضلى . والاستحمام بالماء البارد تهور جنونى فلابد أن يتعود الجسم عليه بالتدريج . ففى الايام الاولى تتطلب الحكمة استعمال غسول ساخن بدرجة ٢٠ درجة . وبعد ذلك يرش الجسم بالماء الساخن بكثرة ، ثم بالماء الفاتر. أما التمرينات الطبيعية فيجب ممارستها طبقـا لمقومات الجسم . ولا يجب ممارستها بكثرة بعد التعب . وممارسة المصارعة ينتج عنها اضرار خطيرة لكل من لم يبلغ نموه العضلى من القوة الدرجة التى يتطلبها الجهد الرياضى عادة .

٥ ـ التنظيم النفسي :

كل التربية النفسية تعتمد على مبدأ امكانية وانفعالية جهد الارادة . والايحاء الذاتي ، رغم زعم بعض الباحثين ، ما هو الا احدى الصور العديدة للجهد الارادى . واذا لم توجهه الارادة ، فان الخيال لا يدور طبقا للنية الاختيارية. ومن ناحية أخرى ، كل تطبيق للايحاء الذاتي ينبع من قرار رزين وطوعي وحتمى لتأجيل اعماله . ومباشرة الايحاء الذاتي بالذات ، وهو التطبيق الذى يقوم بالضرورة على تزويد الذهن بصورة معينة والابقاء عليها . ومعنى هذا اخضاع الخيال لاستخدام القدرة الانعكاسية .

والاستيحاء شيء ، والتصرف بطريقة تمنع حدوثه يكون سخافة كبيرة ، اذ ما بالك برجل يستوحي لنفسه صحة تامة ويتناول المشروبات بلا روية ؟ ومع ذلك فهذا مايفعله تقريبا عدد كبير من هواة النفسية الـذين يبحثون عن الاعتدال والوضوح الذهني ، ويقترفون في نفس الوقت اخطاء غذائية تسممهم وتثقل عليهم وتضعفهم .

واذا كنت مصمما على التغلب على الخجل عموما ، وعلى قلة الثقة فى النفس تجاه النساء على الخصوص ، فان اول عمل ارادى لتنفيذ ذلك هو استبعاد الاسباب الطبيعية لها . وقد رأينا فيما سبق كيف يمكن ذلك . فالالتزام عمليا بالقواعد الموصوفة يجب الرجوع اليه مرارا فى كل البواعث التى من شأنها أن تخلق فى صـميم افـكارك التغييرات المنشودة ، ففى المكان الاول يجب مزج افكارك بالتصميم الأكيد العنيد بأن لا تبقى خجولا ، وأن تصبح رجلا جديرا بأن يتجرأ بذكاء . ومن العجيب أن كثيرا من الشباب يشلهم مجرد الخوف من نجاحهم وتغيير انفسهم ،

ويعطل جهودهم . ولكن ذلك الذى لا يفلح فى استبعاد هذا الخوف نهائيا يكون على قاب قوسين أو أدنى من النتيجة النهائية . حاول ان تقنع نفسك أولا بهذه الحقيقة :

أنت لا تستطيع أن تفعل كل ما تريد ، وليس فى يدك أن تبلغ الامكانيات النهائية . لا انا ولا انت سنفلح أبدا فى نيل اعجاب الجميع ، وفى احراز المودة والمحبة من الجميع ، وفى كل مكان . ولكن ما نقصده هنا هو نتيجة عادية فحسب .. حالة من رباطة الجأش والبرود كتلك التى لاحظناها عند القوم دون المتوسط اكثر مما لاحظناها عند اناس متألقين وجذابين . هذا الصفاء الذهنى ، وهذه السهولة فى التعبير ، وهذا الاحساس بالاستقلالية الداخلية التامة ، كل هذا متاح لك كما هو متاح لاى شخص . وقد يكون لديك احساس بالعكس ، ولكن ذلك الاحساس يضرك ويغدر بك ، وما هو الا نتيجة لعوامل داخلية لارادتك عليها تأثير مباشر ومؤثرات أخرى كثيرة غير مباشرة (خصوصا بتبنى رجيم صحى) . الشك فى النفس يأتى من اكتئاب ، فعامل هذا الاخير كظاهرة نفسية تعانى منها مؤقتا ولا تلبث أن تتغلب عليه تدريجيا .

وأضف الى هذا الايحاء الذاتى اليقينى الذى ينبثق مباشرة من الجشع .

تصور انه لا يليق بك ابدا ذلك الاضطراب الصبيانى البغيض الذى يفنيك ويزعجك فى آلاف الفرص ، والذى من غيره تعيش فى اتم بهجة وسرور . شجع نفسك ذهنيا ضده . واظهر عداءك وارادتك الحازمة لكى تتخلص منه . لا تحاول صياغة عبارات جميلة ... بل الجأ الى عبارات تلقائية تعبر عن احساسك حقا : « ان ضميرى يتمرد . ليس من المعقول أن اخضع رغما عنى لهذا الانطباع الضار .. استطيع وأريد هدوء واتزان أفكارهم ، وكمال

حضـور ذهني ووسـائلي الصـوتية أمـام اى شـخص مهما يكن . آن الثقـة فى النفس صـفة اشعر انني مصمم على الحصـول عليها باى ثمن . وان انطباعيتي قد اضيرت بما يكفي ، واريد أن ينخفض هذا الضرر كل يوم وبسرعة . اريد ان اشعر قريبا بانني حر ومستقل ورابط الجاش ، حتي امام اشد الناس شهرة بالوقار والهيبة » .

وهكذا ترسخ في عقلك الباطن ان الضيق او الاضطراب قد اصبحا بالنسبة لك انفعالات غريبة وسوف يصبحان كذلك فعلا .

ولكى لا تترك مجالا لنوبات الشك ، ولكى لا تحجب الخيال عن الاحلام ، منفذ الغـريزة ، فلابد من توزيع الاربع والعشرين ساعة اليومية بين العمل وبين الراحة والاستجمام ، وبين النوم . واذا تم هذا التوزيع قبـل أيام كثيرة فانه يسمح لك بتركيز اهتمامك كله لتحقيق الاهداف المنشودة ، وبذلك تعتاد على المضي قدما نحو الغاية دون اى تردد ، وتكون ارادتك قد نمت وقويت بحيث تستطيع مواجهة كل الاحتمالات ، وبحيث اذا حان الوقت للقيام بزيارة او بلقاء احد او بالاختلاط بمجتمع ساعدتك آلياتك الفيزيولوجية التى تكون قد انتظمت جدا .

ومن اللائق ان نرضى ابدا بالتهـرب من لقـاء ، او بالاحتجاب وعدم الظهور فى اى مكان . واذا أيقنت أنه لابد من تواجدك وسط مجتمع غفير من الناس فامض اليه مباشرة . واذا ما كنت لا تزال تشعر بخوف او باضطراب فهذه فرصة ثمينة لكى تحاول السيطرة عليهما . كل جهد تبذله لكى تتحكم فى نفسك بكل ثبات عندما تكون وحدك تزيد فاعلية الجهود التي ستبذلها لكى تكون سيد نفسك

امام الغير . والرقص ، واعنى به الرقص الجماعى (رجل وفتاة) بالنسبة للمراهق وللرجل اللذين تؤثر فيهما النساء تأثيرا كبيرا تمرين ممتاز لكى يتكيفا فى الوسط الانثوى .

٦ ـ اعادة التربية الذهنية :

السحر الادبى من ناحية ، والشىء المبتذل من ناحية اخرى ، يخدعان فى نفس الوقت الحساسية والخيال فيما يتعلق بالمرأة والحب . فهما يحجبان سماتهما الحقيقية وظاهرانيتهما الصحيحة . ولكى نحصل على معلومة صحيحة عن هذه السمات وتلك الظاهرانية فلابد من استبعاد عوامل ثقافية عدة للانطباعية والاستئناس بالواقع ، فبالتزود بالعلوم الفيزيولوجية المحددة ، وبالقابلية على تمييز ميكنة الحياة الداخلية من خلال الظواهر الخداعة يقل الخضوع شيئا فشيئا للخارجانيات. والاهتمام بتمييز وتحديد مركبات كل شخصية ، وتحليل ظواهرها ، واكتشاف أذواقها وميولها ومشاعرها وقابلياتها واستيعابها للحياة سرعان ما تطرد الخجل غير المعقول . سحر التحليل مفعوله كمفعول الترياق تماما . وقد رأيت بين الجنسين ، اناسا يفتقرون للثقة فى النفس يتحمسون لدراسة علم الدماغ وعلم الفراسة وعلم قراءة الكف ، الى حد انهم وجدوا من انفسهم الجرأة للاتصال ببعض المشهورين فى هذه الدراسات ، وذلك لتحليل شذوذ امخاخهم وسمنتهم وقراءة طوالعهم من أيديهم . زد على ذلك انك ما ان تحصل على قليل من المعرفة فى علوم الملاحظة حتى تصبح جذابا جدا . ثم انها علوم تؤهلك للاستقصاء والتنبؤ .

ولكن ثمة عنصر مقلق طبعا ، فما أن تشتغل بالتنبؤات حتى لا تلبث ان تجد نفسك أمام سيل من الاستفهامات ، مما يجعل الامر مملا . وفوق ذلك ، ان انت استطعت ، بعد دراسة دقيقة جدية أن تتبين الصح فانك تخاطر باغضاب الفضوليين بصحة التشخيص ، واما بالظهور بك لست على درجة كبيرة من الذكاء اذا انت جملت التشخيص . وافضل طريقة لعلوم الملاحظة تعتمد على تطبيقات تطبق فى صمت ، خفية عمن تلاحظهم . وهذه التقييمات الصامتة تزودك فى كل فحص بالسمات الرئيسية للشخص المعنوى ، وعليك أن تنظم موقفك ببراعة كافية لكى تضمن استقبالا حسنا .

٧ ـ فن الاقناع :

عندما تدخل صالونا ، أو عندما تلتقى باحد وفى نيتك تطبيق التحليل النفسى فان الافكار البيانية للخجل تغزو مجال ضميرك بسهولة . وفوق ذلك ، اذا كنت مصمما على ممارسة سيطرتك الشخصية فستكون رجلا آخر تماما ، غير ذلك الذى كنته فى الوقت الذى كنت تخشى فيه مجرد الانظار ، فان وضعك الذهنى سيكون قد قلب الموقف . كيف تتمرن على السيطرة على من حولك وعلى كل احد والتاثير عليهم ؟ ان النية الصادقة لقيامك بدورك بدور الوسيط ، وليس بدور الجامد ، هى مفتاح عقدة وسائلك للسيطرة والتاثير . ولاحظ اننا حين نتلقى انطباعا ، حتى من اكثر الناس تفاهة ، تسجله ذاكرتنا وتظل ذكرى جميلة تقريبا نحفظها عنه . انت ايضا لك تاثير خاص ، ومعدلاته تتوقف عليك . وهى تتوقف بطريقتين مختلفتين .

اولا ، يمكنك ، بتمرينات خاصة ، وباتخاذ المبادىء المحددة ، أن تنمي ، خفية عن الجميع ، المواصفات التى تضفي على الشخصية جاذبية . وقد قال بعضهم ان الرجل مغناطيس ، يريد بلا وعى السيطرة والتاثير . ثم انك ، بطريقة مسلكك وتعبيراتك وتصرفك أمام الغير تستطيع أن تلاحظ ما يجذب ويشد الانتباه وان تتجنب ما يثير بطريقة منفرة .

والتعليمات التالية ستزودك بنتيجة فورية تقريبا .

ـ الهدوء أساس القاعدة الضرورية لمغناطيسية شخصية منسجمة . كل علامات الاهتياج تشوه الانطباع الذى يتصاعد من اية شخصية . التحرك باستمرار والتعبير بالاشارات والتكلم بسرعة ، واستخدام عبارات التعجب باستمرار ، وخصوصا العبارات الصاخبة ، والارتعاد لأقل شيء ، وابداء ما يدل على نفاد الصبر والعصبية مرارا ، كل هذا يكدر أعصاب الغير . وعلى العكس ، ينبعث من الرجل الهادىء بريق جميل يضفى عليه رقة وظرفا . راقب نفسك اذن بطريقة تفرض على حركاتك وتعبيراتك ونظراتك هدوءا تاما . وكن متزنا كذلك فى تعبيرات وجهك وحديثك . ولا تبد لهفة او نفورا ازاء اى احد . وعندما تريد أن تظهر لشخص المودة الخاصة التى يوحيها اليك فدعه يسمع ذلك فى كلمات رقيقة حلوة . وبهذا تتحاشى ان يتخذ الحديث مجرى بغيضا اذا لم يتقبل من يستمع اليك كلماتك . واذا بدا أنه لم يتقبلها فورا فلا تبد أى سخط او استياء . أعد ايحاءاتك الرقيقة مرة ومرة ثم انتظر . ان السر الاكبر يكمن فى أن تتحدث فى المناسبة عندما تعرض ، وان تترك الامور تجرى فى أعنتها بعد ذلك . ومساواتك للجميع فى رقتك ومجاملتك سترغم

الذين تحلهم فى فكـرك مكانا خاصا على مبادلتك رقتك ومجاملتك .

وقد ثبت من آخر تحليــل أن الهــدوء يبطل تماما المضايقات والسخريات التى لا هم لها الا بلبلته . وكل هجوم تواجهه برد هادىء وبدون اكتراث يرتد الى ذهن صاحبه ويخيب أمله .

والنظرة الجذابة لا تستخدم قسوة ولا مجانة ولا غرورا مسيطرا بعنف واجبار ، وانما تستمد سحرها الفاتن من هدوئها ورقتها واصرارها الرزين . ولهذا السبب يطالبون فى الدراسات الخاصة بتمرينات هدفها تقييد الحــركات الجفنية ، فخلف النظرة هناك الارادة . وعندما تنمو هذه الاخيرة بما فيه الكفاية ، فان العيون تحوز تعبير الثقة فى النفس والصلابة الذى يحير المنافسين ثم لا يلبث ان يأسرهم شيئا فشيئا .

الفصل التاسع

المواصفات المؤدية إلى الثقـة بالنفـس

بعد الحصول على درجة عالية من الثقة فى النفس ، سيريد القارىء دون شك زيادة امكانياته وتقوية سلطته وسيطرته على نفسه باسس جديدة ، وسيحرز عندئذ بسـهولة تقدمات جـديدة بتطبيق الارشـادات التى نقدمها فى هذا الفصل .

١ ـ العزم :

اكثر الناس خجلا يتشجع تلقائيا عندما يشعر بجشع او نفور معين ، فنراه فى حالة الجشع يتصرف ، للحصول على ما يتمناه ، بحزم ورباطة جاش يثيران دهشة جميع معارفه . ويبدى فى حالة النفور نشاطا لا يتوقعه منه احد لكي يتجنب ، ويرفض ويقاوم ما لا يروق له . وفى كلتا الحالتين يبدى دليلا على العزم ، ذلك أن لديه مفهوما واضحا وقويا وحازما عما يريد ، وعما لا يريد .

والحد الاقصى للثقة الدائمة ، (وليس للثقة العرضية) يكتسب اذن بسهولة ووضوح ، ما دام من يهمه الامر قد عرف ما يريد وما لا يريد . وبمعنى آخر ، أنه ما دام قد حدد بكل وضوح الغرض الذى توجهه اليه جهوده فى الحياة الاجتماعية . وفى الحياة الخاصة فقد يتحكم فى منبع لا ينضب من الافكار والدوافع الجريئة .

يشعر الانسان الموهوب طبيعيا بنوعين من الدوافع . الأول دوافع خاصة بنشاطه الاجتماعى والخارجى ، والثاني دوافع خاصة باستكماليته الداخلية : الحياة العملية ، وقدرة التملك من ناحية ، والحياة الثقافية والروحية من ناحية اخرى . هذان هما القطبان اللذان يتمركز حولهما الفكر والعمل . ويمكن لاحدهما أن يتزامن مع الآخر على كل حال ، أو أن يكمله . وفيما يتعلق بالناحية العملية والمنفذة ، فان منبع وسائل العيش ، باعتباره أقوى خميرة من العزم والثبات انما هو مثال للكمال ، او على الاقل للاستقامة . أولئك الذين يحاولون بكل جهدهم ان يصبحوا قيما وكفاءات لا يستطيعون البقاء وجلين وخجولين ، انما هم مدفوعون للمضى الى الامام ، ثم انهم يستفيدون دائما من اعتبار خاص ملائم لظهور الثقة فى النفس . وحيث أن من الواضح ان كل واحد منا ، بسبب قابليات فطرية ، موهوب لعدد محدد من المهن ، مع استبعاد كل المهن الاخرى ، فان مسألة التوجيه المهنى تأخذ هنا كل أهميتها . وأى خجول يزداد خجله اذا ما وجد نفسه مضطرا لمزاولة عمل يومى يتعارض مع ميوله وقابلياته ، لانه سيسمع حتما من يؤكد له أنه دون المتوسط ، ولكنه يتشجع بمزاولة عمل يتآلف مع وسائله .

كل الاضطرابات تقريبا ، ومنها الخجل ، مصدرها عدم التآلف بين الشخص وعمله . وهذا التنافر يحطم الانطلاق نحو هذه الاستقامة ، ونحو الكمال الذى تكلمنا عنه ، واذا انعدم الانطلاق الحماسى فان التردد والاحباط يستقران . وتمييز افضل طريقة ينبثق من تحليل دقيق للظروف النفسية . وكثيرون من الرجال يستطيعون

تحليل انفسهم بما فيه الكفاية . اما الآخرون فانهم يستفيدون من استشارة اخصائي . وليس لهذه القاعدة غير استثناء ، وهو نادر جدا ، ونعنى به حالة الشخص الذي يؤهله تفوقه لنوع من الانجازات ، وهو أمر مفروض عليه منذ الطفولة باهتمام ورعاية المحيطين به . ولكن الحذر كل الحذر ، فان الذوق والقابلية شيئان مختلفان تماما ، أولهما لا يستتبع الثاني دائما .

واذا كان من المهم معرفة النفس وتوجيهها فيما يتعلق بالعمل المفيد ، فليس هذا باقل اهمية فيما يتعلق بالتطور النفسي الذي ينبع من الحياة الداخلية والخاصة ، والا فان المرء يخاطر بالتورط في طريقة تشخن فيها عناصر الحساسية التي نمللها .

تحليل النفس لمعرفة انفسنا وتبيان ما يمكننا عمله ، وتجديد اختيارنا ، من بين الاحتمالات التي نتوقعها على الامكانية التي توحي الينا بنشاط اكبر . فلا شيء يساعد المعنوية ويقويها افضل من التحليل النفسي .

٢ ــ الوضعية :

الوضعية هي أن يعرف المرء ما يريد ، وأن يحقق ويستخدم الوسائل الأكيدة للحصول على مبتغاه ، واعتبار كل صعوبة عنصرا من عناصر المشكلة التي يريد حلها ، وكل فشل دليلا يدفعه الى تغيير اسلوبه دون أن يعير اى اهتمام لنفاد الصبر او الاحباط . هذا النوع من الفلسفة العملية تعوده على التغلب على انطباعاته ، وخاصة امام الغير . لنفرض انك تريد الحصول على شيء ، وان ذلك الشيء لا يمكن الحصول عليه الا باجراء خاص ، فاذا كنت

ايجابى الروح فان فكرتك المسيطرة ستطوع لها كل الافكار الاخرى للحصول على الهدف الذى تسعى اليه ، والى أفضل طريقة لكى تتقدم وتبرهن على ذلك . والسمة المملة للاجراء أو احتمال استقبال غير ودى لن يحتلا غير مكان ثانوى من همومك ، فما أن تواجه الشخص الذى تريد استمالته اليك أو اقناعه حتى تصر على فكرتك وعلى تصميمك لتحرز فوزا رغم كل ما يمكن ان يعترضك. وستعرف عندئذ كيف تبدى أصرارا عنيفا . واذا اضطررت ، رغم كل تخطيطك وتدبيرك الى الاعتراف بالفشل فستكون مدركا بأنك لم تقصر فى نضاليتك ، ثم أنك لن تعتبر فشل اليوم الا فشلا مؤقتا . وبدلا من ان تبدد وقتك وقوتك الذهنية على التحسر ، ستحاول على الفور وستجد حتما وسيلة اخرى لبلوغ هدفك . ومهما يكن الوسط الذى تمضى اليه ، ومهما يكن الشخص الذى ستتعامل معه فان كل اثر للخجل سيختفى فى نفس اللحظة التى تشعر فيها بأنك مقتنع بالدور المحدد الذى تضطلع به فى كل المهن التى تتطلب الثقة المطلقة والضرورية سترى كيف يركز الرجل الايجابى كل قواه وملكاته فى سبيل النتيجة التى يريد الوصول اليها . فالسمسار مثلا يفكر ويتكلم ويتصرف لكى يعقد صفقة ، ويتقبل بكل هدوء الصدمات وخيبات الامل والرفض ، ولا يكون لكل ذلك من تأثير عليه الا شحذ همته ، فهو يعرف أن القليلين ممن يحاول اقناعهم مصممون على عدم الشراء ، وأنه مصمم بدوره على ان يبيع لهم . ونتيجة لذلك سوف يحصل على ما يريد فى معظم الحالات ، شريطة ان لا يتراجع ، فخلف ابتسامته وهدوئه وصبره وكلمته الحلوة ارادة قوية صلبة ، لان لديه هدفا معينا ومحددا .

٣ ـ الفطنة والاسلوب :

كل نية محددة ومستوعبة بوضعية تقود الذهن لاعداد خطة للتنفيذ . وسواء كان ذلك متعلقا بمشروع يتطلب نفسا طويلا أو ببرنامج سريع للتحقيق ، فان سلسلة من المبادرات المتناسقة والمجهودات الجدية يجب أن تواجه منذ البداية ، في خطوطها العريضة اولا ، ثم في تفاصيلها الشهرية أو الاسبوعية او اليومية . وهذا النظام الفكرى يقوى الارادة والثقة الداخلية والخارجية ، وأهميتـه من حيث النجاح له على كل حال تألق الوضوح .

كل الوسائل المرتجلة التى نمتلكها تنمو من وجهة نظر الشمول ، ومن حيث الدقة كذلك ، وبأحسن ما يكون من وضع الخطة الاولية طبقا للتوجيهات التى تفرغت منها . ولكى نقدم مثالا بسيطا جدا على ذلك ، وخصوصا فى مسألة الثقة فى النفس ، لنقل ان روح البديهة تنشط اذا أعددنا ذهنيا لقاءاتها وزياراتها ومساعيها ، الخ ... وهذا مفهوم طبعا ، ففى اثناء الاعداد تتولد آراء معينة ، وتنحفر فى الذهن ، ثم لا تلبث هذه الاراء المولدة ان تصبح فى اللحظة المناسبة ملهمة لاراء ظرفية لم يكن فى الاستطاعة الحصول عليها من غير الآراء الاولى .

التروى والفطنة معناهما توضيح الموقف الذهنى الذى سنتخذه كلما سنحت ظروف المستقبل ، ومعناهما كذلك تحديد موقف طبيعى معين سوف يظهر عندئذ تلقائيا .

ولكى تبحث بدقة عن وسائل وموارد وامكانيات العمل طبقا للنوايا المختارة والتى استقر عليها الرأى ، فان افضل شىء هو الانفراد فى مكان صامت تماما ، وتركيز الفكر فى المسألة التى تحتاج اليها ، فتسجل ما يعرض

لذهنك ، ولو فى غير ترتيب ، ثم تقرأ ما دونت وتنسقه بعد ذلك . وهذا معناه ترتيب الافكار ، وكل مايسببه نقص الثقة فى النفس من انزعاج سيصبح سهلا بالتبصر والفطنة . والتعود الوحيد لهذه الفكرة قد يكفي للتغلب على أسوا حالات الخجل .

معرفة ما تريد تماما ، ولماذا تريده ، والصعوبات التى تواجهها ، وكيفية التغلب عليها ، وتوقع كل مؤثراتهـا المتتابعة التي يمكن ان تستتبع قرارا وعمـلا وموقفـا وكلمة ، لا يمكن لاى تمرين ان يقوى الطبع وان يشجعه خيرا من ذلك . اما ذلك الذى يحبطه مسبقا مجرد حسبان العقبات او الاضرار المحتملة فسيكون معقدا امامها . اثناء تطبيق العمل ، ومن الافضل اذن أن يتوقعها ، فالامتناع افضل من معركة يتوقع الانسان فيها الفشـــل حتما . ولكننى أوجه كلامى هنا لهواة عقيدة النشاط المصممين على الجهد مهما يكن ، والراغبين فى تزويد انفسهم به للمقاومة بصورة افضل .

٤ ـ الكمال النفسى :

نشـاط النفسية البشرية يستقر ويتدعم باتفاق الفكر الذى يستوعب الارادة التي تتصرف . ويتناقص ويضعف عندما تتعارض النوايا والقرارات مع العمل والتصرفات . ولذلك ، فان الشخص الذى وهبته الطبيعة بذكاء حاد ، ويعجز عن التوفيق بين أعماله وفكره الاختيارى يفتقر الى الكمال النفسى ، وهذا هو السبب فى اننا نرى كثيرا من الخجوليين يتمتعون بالذكاء فى حين ان الثقة فى النفس لديهم تحترق كثيرا مع عقل دون المتوسط تغذيه ارادة

ثابتة ، وعادة تنفيذهم لما قرروه وصمموا عليه ، وتطويع سلوكهم لاضواء تمييزهم ينميان النشاط النفسى ، وبالتالى الثقة فى النفس .

وهذه العادة تكتسب بالاهتمام والجهد ، يجب اكتسابها تقريبا هكذا دائما ، لأن من الطبيعى جدا للضعف البشرى ان يستسلم للسيطرة بالايحاء ، او لوجود عقبة عندما تأتى اللحظة المناسبة لتنفيذ ما عزم عليه . عدد كبير من الناس يفكرون على غير هدى ، ويتصرفون كذلك ، فيفقدون شيئا فشيئا ثقتهم فى قدراتهم على الالتزام بشىء والامتناع عن شىء آخر فى لحظة محددة ، وينعدم عندهم الاستقرار الذهنى ، حتى عندما يشعرون بحاجتهم الملحة اليه فى بعض الظروف الحاسمة مثلا ، لأن افكارهم من ناحية ، وارادتهم من ناحية اخرى ، عرضة للاعتراضات التى يتلقونها من الاشياء المادية او من خارجانية الغير .

ويلاحظ ان كل الجهود التى نادينا بها فى الفصول السابقة ، من مختلف وجهات النظر ، لاستبعاد اسباب الخجل واكتساب الثقة فى النفس تساهم فى الكمال النفسى ، ولكن اذا اردنا تطويره حتى آخر درجاته ، فمن المناسب ان نضع فى مخططاتنا خطة للعمل فى كل مراحل الحياة ، من حيث النقاط الصغيرة والنقاط المهمة التى نكون قد امعنا التفكير فيها مسبقا واتخذنا قراراتنا بشأنها . وحالة الاستحالة المطلقة ، ثم تلك التى تتطلب، فى اللحظة الاخيرة ، تعديلا جديدا جبريا لتحسين القرار الاول هما الحالتان الوحيدتان اللتان تسمحان لطالب عقيدة النشاط بالخضوع .

فليعترف اذن بأنه يقبل دائما الجهد الذى يظهره له ضميره بأنه ملائم ومثمر ، ثم يقوم بهذا الجهد بنشاط

رغم كل ما يمكن ان يدفعه الي تجنبه . ولعل القارىء يجد أنني أسرف في استخدام كلمة جهد ، ولكنني أسوقها لغرض بالذات ، لان الكلمة والشيء ما هما الا حجر عثرة امام كل التعديلات الطوعية التي يبذلها ، اما لطبعه ، واما لظروف الحياة التي يجد نفسه في خضمها . وقد تعبنا جميعا لكي نتعلم حروف الهجاء ، ولم تعد القراءة تتعذر علينا اليوم ، وسددنا الضريبة الحتمية التي تضمن لنا امكانية المعرفة ، واكتسبنا وسيلة اثراء معلوماتنا وتسلية مخيلتنا ، والتعب الذي نعانيه اليوم لتقوية كمالنا النفسي ، علينا ان نعتبره الضريبة التي يجب أن نسددها لكي نتمتع بعد قليل ، باحدى تلك الارادات التي لا يمكن زعزعتها . وليسمح لي القارىء بأن اضيف ، لنكن سعداء بمعرفة وسيلة السداد واستخدامها لان كثيرين يجهلونها ، وكثيرين غيرهم يعرفونها ويرفضون استخدامها .

٥ ــ قوة التحمل :

راينا في الفصل الثاني أهمية التحرر من العوائق العضوية لاحراز الثقة في النفس . وما أن يستقر الكمال الطبيعي ، وليس قبل ذلك ، حتى يمكن ان نطلب من العمل العضوي عنصرا جديدا للثقة في النفس . وهناك احساس بالتشجيع المعنوي يصاحب ويتبع دائما النضال ضد المقاومات الطبيعية ، وبذلك يخرج الخجول قويا بعد جلسة رفع اثقال ، اذا عمل بصدق ونشاط . ونظريا ، فان كل الالعاب الرياضية تتيح نتيجة مشابهة . ولكنني انصح برفع الاثقال لان التجربة اثبتت ان هذا النوع من

العاب القوى هو الافضل للخجولين ، لانه يستبعد كل انفعال واهتياج ، ثم انه يتطلب اوضاعا خاصة ، ويقتضي جهدا هادئا ، بعيدا عن الجنون المستمر . ويجب على المبتدئين طبعا الاسترشاد بمدرس جدي ينظم تقدم عملهم حتى يتجنبوا على وجه الخصوص الافراط في التعب ، وهو افراط يرهقهم ويولد النفور عندهم .

وعلى العموم ، فان الذي يريد الثقة في النفس لابد له من ان ينمي قوته العضلية ، وقوة تحمله ، والحياة غالبا ما تزود الحضر بالفرصة للمشي وللرفع وللحمل ، وهم يسولون لانفسهم اهمال هذه الفرصة لان مفهوم الكد والتعب وحده يرقى اذهانهم ، وينسون أن الكد العضلي يقوى ، وأن الدأب على العمل يقلل التعب بالتدريج ، تلك التعبية التي يشكو منها المصابون بالنوراستانيا بعد ان اكتسبوا بكل عناية قوة الجمود .

وهناك طبعا شبان اقوياء جدا يشكون من الخجل . ولكن الخجل عندهم يتغير تقريبا . دائما بطريقة تلقائية ، وبسهولة على كل حال ، اذا ما واجهوه بمقاومة منظمة، والجيرة الاستبدادية ، واللوم المستمر ، والمزاعم المهينة المتكررة تكفي لكي تحيل اشد الاطفال قوة الى فتية وجلين . ولكن الايحاء سرعان ما يعيد للضعفاء رباطة الجأش العادية التي افتقدوها مؤقتا .

بعد ان تكتسب تحمل المجهود العضلي ، عليك أن تعمل لصالح التحمل الذهني . وفي المكان الاول تنمية قدرة الاهتمام الواعي وتركيز الذهن . وذلك الذي يعرف كيف يركز ضميره طواعية على موضوع محدد ويبقيه عليه يسدد عليه بسهولة منفذ الافكار او الانفعالات الطفيلية التي تنبع منها أكثر ظواهر الخجل ، والتدريب المتزامن ، مع

الامكانيات الطبيعية والذهنية يساهم بقوة فى استقرار المعنوية ورسوخها . وكل امرىء تزداد ثقته فى نفسه يتألق فيه الاحساس بأن امكانياته تزداد فى كل المجالات. والعكس ليس أقل صحة ، فعلى أثر الانحطاط الفيزيولوجى او النفسى يستقر الاكتئاب طواعية ومعه الخجل ، وهنا أيضا يمكنه ، بل لابد له ان يتصرف وهو على يقين من استعادة قواه ولهذا ، لا تيأس ابدا .

٦ - توازن الشعور الجماعى للجسم :

القلق الداخلى والاكتئاب لا يساعدان الثقة فى النفس ابدا . الراحة الفيزيولوجية والاحساس بتقوية الطاقة المتلازمان باتزان تام يهيئان بالطبع لرباطة الجاش . وقد تكلمنا فى الفصل الثالث عن الاساس فى فنية تحديد جميع عوامل الشعور الجماعى لجسمك . ولنر الآن كيف تعمل لكى تجهز دائما احتياطى الطاقة الذى تنبع منه الشجاعة.

يجب المحافظة على نومك اولا : المحافظة عليه من افراطات العمل ومن العصيان ، فان الارق ، سواء كان طوعيا او غير طوعى يستنزف حقا منابع الطاقة الحيوية بصورة سريعة تقريبا . اما الذى يصمم على القيام بعمله أثناء النهار فلن ينتقص شيئا من راحة لياليه . ثانيا : ان يمتنع عن تناول السميات ، وخاصة المشروبات الروحية ، مهما يكن نوعها . علماء الاجتماع يرفضون الكحول طبقا لمبادئهم الاخلاقية . والرجل الحذر يمتنع عنها حفاظا على صحته وعلى جسمه . وان تدفع توعكات مباشرة وأياما مقبلة حافلة بالاضطراب والقلق ، وانحطاطا بطيئا ومؤكدا ، فهذا ثمن باهظ جدا لمتع قصيرة الاجل

ولمسرات مشكوك فيها . ثالثا : ان تواجه بكل نفور شديد كل افراط مهما يكن ، سواء كان افراطا فى النشاط او افراطا فى اللهو ، فالعمل الهادىء المتزن والمنسق والذى تتخلله راحة كافية يقوى وينظم . اما النشاط العنيف المستمر والذى يتبعه ، بدلا من الاسترخاء والاستجمام العاب عنيفة فيتسبب فى شل الكفاءات العليا ، وفى الشيخوخة المبكرة .

كل منا ، باعتباره جهازا عضويا حيا ، ومولدا للسائل العصبى ، يصدر عادة كما يوميا من الطاقة الاساسية . فلنعتبر هذا الدخل النشاطى كراسمال ولا ننفق منه اكثر من اللازم . هذه هى الوسيلة الوحيدة لتجنب كل قلق وكل عجز .

٧ ـ عادة التشاور العقلانى :

دون اى مفهوم نفسى ، يمكن لاى امرىء ان يدرك ان فيه كائنا عاقلا وآخر محرضا . وهما ليسا على وفاق دائما . وطالما لم يخضع الثانى للأول ، بمجهودات متكررة فانه يعوقه فى كل المناسبات . وفى الخجل مثلا ، فان الكائن العاقل يريد أن يتغلب على القلق الذى يحس به الكائن المحرض ، ولكن هذا الاخير ، متمرد بقدر ما هو حساس ، يفلت من كل سيطرة الارادة الواعية .

وكما فى حالة تربية الحيوانات البرية ، فان ترويضا دقيقا يسمح بالتغلب على الكائن المحرض شيئا فشيئا ، واخضاعه للنوايا الواضحة ، انا المتعقل . وهذا الترويض

يحتاج لنفس طويل ، ويتيح الفرصة للقيام به باستمرار. ويكفي للمرء ان يراقب نفسه ، وأن يستبدل الافكار والكلمات والاعمال المحرضة بأفكار وكلمات وأعمال اختيارية . ومراقبة المرء لنفسه تساوي مراقبة يقظة لـ أنا المتعقل على الاخر . ويعطي سلطة للأول على الثاني . وهذه السلطة تظل باقية حتى عندما يتعلق الامر بأن يتمالك نفسه امام الغير ، او بأن يتصرف بثقة رغم عدم احساسه بأنه غير مستعد لذلك .

الثقة في النفس المحققة

ثقة تامة في النفس امام الجميع ، وثقة متفائلة في احتمالات نجاحها ، استعدادان داخليان لا غنى عنهما لمن يريد ان يشق طريقه وسط المنافسات الحامية للحياة الحديثة ، وكل منهما تكتسب بالجهد المتلاني .

١ ـ كيف تستبعد المخاوف التي تمتص الطاقة :

يمكن للشاب الذى يمتلك الثقة الطبيعية أوالمكتسبة ويفتقر الى الثقة فى النفس ، والى كفاءاته ، والى المقدرة على انجاز مهمة تحتاج الى نفس طويل ، أن يصل الى موقف بالذات ، أو أن يضطلع بالواجبات التى يتطلبها هذا الموقف كما ينبغى . والاعتداد بالنفس نادرا مايؤدى الى الغابة . ولكن الشك فى النفس لا يؤدى اليهـا اطلاقا . وبين الضدين ، ونعنى بهما ، التصور لمجـرد الغطرسة انك تستطيع النجاح بسهولة ، والخوف من الفشل ، كل الخوف ، هناك مكان وسط ، وهو مواجهة الفشل بدون انفعال ثم المضى الى الامام من جديد .

والتاكيدات المطلقة مرفوضة لنا جميعا ، ولهـذا يجب ان نتعلم كيف نتجنبها ، وكيف نتصرف ، مـع محاولة ضمان الحد الأدني للنجاح ، وعلى كل حال ،

فان اولئك الذين يشكون فى انفسهم ، غالبا ما يكـون لديهم الاستعداد لأداء البرنامج الذى يترددون أمامه ، ولكن الجراة وحدها تنقصهم .

ومن بين الأصوات التي تولد الشك ، هناك سبب جوهرى اسمه الفتور او اللامبالاة ، وهو غياب الجشع بالمعنى الذى ذكرته فى الفصل الثانى من هذا الكتاب .

ان كثيرا من الرجال يتمنون التملك او بلوغ نتائج تروق لهم كثيرا ، ولكنهم لا يشعرون بذلك الجشـع الجارف الذى يشد كـل الموارد الطبيعيـة والمعنوية للعمل . وفى آخر تحليل ، ظهر أن الفتور أو عدم الاكتراث ينمان اما عن ضعف ينبغى الاسراع بعلاجه قبـل كل شيء ، واما عن كبت تسببت فيه التربية الأولى بتدريس ناقص او بجيرة مجحفة ، والانسان الطبيعى تقريبـا ، حتى اذا لم يكن موهوبا تماما ، يبدى طموحا ، محدودا او متسعا، حازما دائما، لأن ميوله وقابلياتهواحساساته تبلغ درجة من القوة تكفى لكى تتيح الفرصة لانعكـاس قوية جريئة .

وفى المكان الثانى ، يجب ملاحظة شعور النقص عند الرجل الرزين الذى يؤثر فيه نقص كفـاءاته المحققـة او نقص معلوماته ومعرفته ، ولكن الكفـاءات تنمو ، والمعرفة تكتسب بالمرآن والدراسة ، وكل منهما سهل المنال له ، شريطة أن يعمل بدقة ونظام ، وكل منـا يمر بمرحلة رائعة ، بين اليوم الذى ولد فيه ، والذى بدا يتهجى فيه الحروف الأبجدية ، وبين ذلك الـذى خرج فيه من الفصل ، هذه الثقافة الأولية تمد ذهنـه بوسائل فكرية ، وعلوم يحصل عليها بمثابرة بضـع ساعات يوميا ، ويمكننا دائما بعد ذلك أن نطلب من

العمل نتائج جديدة مماثلة لنتائج الدراسة. واذا ماتمرن الاهتمام والذاكـرة والارادة ومرونة الذهن والبراعـة التمرين المناسب ، كل فى حقل امكانيته الحالية ، فان كلا منها يزداد نشاطه أكثر فأكثر ، وبذلك يســـتطيع كل أمرىء أن يصبح جديرا بالقيام بأمور تتعدى، اليوم، وسائله .

واخيرا فان البصمة التى يتركها الفشل ، أو خيبة الأمل فى الذهن تكفى أحيانا لاستقرار الجمود ، ولعلاج ذلك ، يجب مقاومة السبب بكل جهد ، من منا يقبـل الاستسلام لمشاعره دون اية مقاومة ؟ ... لا أحد . وبعد امعان الفكر والتروى لن يبقى أحد اسـيرا لذكرى بسيطة ، محاولة او أكثر من محاولة دون نتيجة معناها اما عدم كفاية الوسائل المستخدمة ، وأما عداء العناصر الخارجية . والتحليل الدقيق لتلك الوسائل والعناصر يتيح لنا أن نفهم لماذا لم نتصرف التصرف الصحيح ، كما يتيح لنا أن نبحث عن طريقة أخرى لكى نعمل من جديد ، فعالية . هل تعلم أن الذين يفلحون من أول مرة هم الاستثناء ؟ ان الغالبية يجب أن تجدد محاولاتها قبل بلوغ الهدف وقبل عبور الحلقة التى تبـــدأ من الحماس الى خيبة الأمل والتى تتكرر مرارا كثيرة تحت ظواهر أخرى . والتجربة الايجابية تكتسب هكذا ، وعلى كل حال فان بعض النتائج تتطلب مجهودا غامضـــا ، معلبا وممتدا ، واضيف الى هذا أن مثل هذا الاصرار ينتج ٨٠ ٪ حتى اذا كانت الصعوبات شديدة والمواهب دون المتوسط .

٢ ـ امكانياتك الحالية والمستقبلة :

اذا كان التقييم الحالى لمستوى كفاءتك ومعرفتك وتجربتك يحملك على التاكد من أنك لست قادرا بعدعلى تحقيق ما تريد ، فلماذا تعتبر نفسك أنك غدوت فى حكم العاجز ، وانك لا تستطيع أنجاز شيء بعد . ان امكانياتك لا يمكن أن تستقر على حال ، وفى مقدورك أن تحسنها . وامكانية التنمية والكمال تبقى مفتوحة امام الجميع ، وسن الكمال والنضوج التام يختلف تبعا للاشخاص ، فان التجهيز الجملى من ناحية ، وظروف بداية الحياة من ناحية أخرى ، تسخو على البعض ، وتحرم البعض . ونحن لا نستطيع شيئا ازاء ذلك ، وكل مانقدر عليه هو تقوية كل طاقاتنا بتمرين مستمر ، وملاحظة العالم الخارجى باهتمام ، لانتهاز الفرص التى يتيحها لمؤهلاتك ، والنوع والجد الأقصى لهذه المؤهلات على فرض انها قد بلغت غرضها ، فالتطبيق والعمل يبين الاتجاه الذي يناسبها . وكذلك خط الفكر والعمل، حيث تزدهم هذه الكفاءات على احسن ما يكون وتحدد اخصب النتائج .

واذا لاحظنا لمدة بضع سنوات ، وعن قرب ، عددا معينا من الاشخاص ، فسوف نتاكد أن ذكاءهم وارادتهم يتغيران حتما ، أما لانهما يتراجعان ، واما لانهما يتوطدان ، وذلك طبقا لنشاطهما الاوتوماتيكى أو السلبى أو الاختيارى أو الايجابى . وذلك الذى يسعى باستمرار لتوسيع مجال قدرته على الفهم والانتاج بصورة أفضل وأسرع لا يلبث أن يواجه بقلب مرح مهمات ومسئوليات ومشاريع كان يحس امامها فيما سبق بانه

مغلوب على أمره ، ومن ناحية أخرى ، فان الخيـــال ومرونة الذهن والبراعة تكون قد نمت بما فيه الكفـاية بحيث يواجه الصعوبات بثقة ، لأنه يشعر بانه أصـــبح قادرا على أن يجد لها حلولا . ومن ناحية أخرى ، فان القوة المحققة جعلت من الممكن ما كان يبدو فيما سـبق انه بحاجة الى مجهود عسير لمحاولة تحقيقه .

وفى الادارات الكبرى ، حيث ترتبط كل مهنة بالألقاب والشهادات التى يتقدم بها المرء ، ثم بالوســـاطة أو الدسائس ، فان تفوق الانتاج يفتح الباب حتما للوظائف الكبرى ، والقيمة غير المتوقعة لأحد الموظفين تخــلق امكانيات مفاجئة للادارة التى يعمل بها . وللاستفادة من هذه الامكانيات يجب اسباغ أهمية جـــديدة لمن يظهرها . وبذلك لا يمـكن ان تضيع فـرص الاستفادة من القدرات المكتسبة أو النامية . وبدءا من درجة معينة من المعرفة والمهارة فان المبادرة الشـــخصية تكفى لكى تفيد عن طريق مستقل ، وبعض الناس يعتقدون أنهـم مكرسون لحياة الخمول لأنهم لا يملكون الشهادات التى تخولهم التعيين فى أحدى الوظائف المربحة ، ولا رأس المال الذى يمـكنهم من ممارســة التجـارة ، ولـكن الشهادة بدون القيمة لا فائدة لها ، ولا يمكن أن تذهب بصاحبها بعيدا . ورأس المال يتبخر لعدم وجود الادارى الذكى والنشيط ، وكم من أناس لديهم الجرأة والاقدام ، ولديهم رأس المال ، ولكنهم يفتقرون الى حسن البديهة والذكاء ولا يفهمون شيئا فى التجارة ، ويعزون افلاسهم الى سوء الحظ .

٣ ـ قيمة التركيز :

الدرس والتحصيل والتقوية والتحسين والانتاج : الوسيلة الوحيدة لكل ذلك هى التركيز ، أما التنظيم فمعناه الاهتمام والتفكير المستمرين ، ثم التطبيق بنفس المجهود لوسائل الفكر والنشاط ، فيصبح المستحيل ممكنا ، والصعب سهلا بمجرد أن يعرف الذهن كيف يفكر مليا . اما الذين يفتقرون الى الثقة فى النفس ، فيمـا يتعلق بالاعداد لفحص او استقصاء ، فان الاهتمام والمثابرة عليهما ينعدمان بكل بساطة ، والعجز وفحص المواقف والصعوبات فحصا دقيقا وطويلا يولد تقريبا كل المرارات ، وتبديد النشاط لا يثمر الا الغضب ولا يؤدى الى اية نتيجة . كيف تقـود الذهن الى التركيز ؟ بترويضه عادة بتمارين خاصة ، وهى التمارين التى أشرت اليها سابقا ، ولكن مهما تكن هذه التمارين مثمرة وفعالة فانها أقل اهمية من بعض العادات الجوهرية التى تخلق الهدوء والاستجمام وانفراد الذهن . واهم هذه الميزات هى العمل فى صمت ، ومهما يكن نوع العمل الذى تقوم به فلابد من أن تتفرغ له قلبا وقالبا ، وأن لا تحتمل اية فكرة غريبة عن واجب اللحظة الاخيرة ، ومن الاسهل أن تفكر مليا وأنت تعمل ، من أن تتأمل احدى المسائل وقتا طويلا ، وعليه فمن الأوفق أن نقوم أثناء عملنا بالمجهودات الأولى للتركيز ، وقيمة التمارين التى تكلمت عنها عاليا من شأنها بالذات أن تتيح عونا للفكر الذى مايزال عاجزا عن الاستمرار دون سند مادى .

واذا اردت فحص استخدامك لوقتك لمدة اسبوع

او شهر ، فسنجل كل النقاط غير الضرورية التي تؤخر بها حياة اليوم ، واطرحها عنك بكل قوة ، انك تربح الكثير من ذلك الوقت الذي تعتقد طواعية انه ينقصك ، ثم انك تحرر مخك من عدد كبير من الهموم الصغيرة الطفيلية وتقلل عدد انواع الأفكار التي تدور به ، وتخلق بذلك جوا داخليا مريحا للتركيز . ان عدد الساعات التي تضيع سنويا ، والطاقة الذهنية التي تبددها في القراءة يوميا ، وتحليل شتى الحقائق يوضح تماما ماتبين .

وما يناسب كل عمل تفصيلا ، لابد منه لانجاز المجموع ، واهتمام المرء فحسب بمشروع جاري تنفيذه وبقاؤه أعمى واصم وغير مبالي لما عاداه هو السر الكبير الذي بفضله يمكنه ان يحصل على مايرجو من نتائج .

وقد قيل ذلك مرارا وتكرارا في كل الظروف ، ومع ذلك فيبدو انه يغيب عن اذهان الكثيرين ، أن الفكرة القائدة الماثلة في الذهن على الدوام توقظ الأفكار المتلازمة ، والالهامات والانعكاسات الضرورية لنجاحها . وهكذا نرى روابط بين ما نهدف اليه وبين بعض الموارد التي لم نكن لنفكر فيها ، وحتى خلال النوم فان الذهن يعمل بنشاط فيما هو نافع اذا ما وجهته ، في حالة اليقظة الي وجهه بالتحديد . وكل غد يأتي عندئذ بحصصه من الموضوعات الجديدة .

٤ ـ النجاح والفشل :

مريدو التركيز يوجهون الفعالية الشخصية الى مداها ، أما الرجل دون المتوسط ذو الذهن المركز ، فيحصل على نتائج ملموسة ، ويجود وسائله بالتدريج ،

في حين ان الرجل الموهوب طبيعيا ، وغير المستقر نفسيا ، والمشتت الفكر يخفق أحيانا في بلوغه الغاية التي كان يسهل عليه بلوغها بتطبيق مستمر . والفشل المحتمل الذي قد يواجهه الأول لا يحيطه اطلاقا ، لأنه دائم اليقظة ، ويسجل بعناية تسلسل الأسباب والنتائج ، مكونا بذلك كما من التجارب يستفيد منها في تجربته التالية . انه يتعثر في بدايته ، ولكنه يتعلم دون انقطاع ، ثم يعاود الكرة بعناصر جديدة ، وينتهي به الأمر الى الفوز .

في داخله ، نجاح أو فشل منفرد لا يعنيان الا القليل ، وما يهمه هو قيمة الكفاءات المستخدمة . بعض النجاحات تتأتى من مصادفات سعيدة لا يمكن أن تتكرر باستمرار ، ولا حتى بكثرة ، وأصحابها لا يحصلون على شيء معادل فيما بعد ، وربما يفقدون ثقتهم في انفسهم لهذا السبب . وهنالك أيضا فشل تسببه معاكسات ظرفية غير متوقعة تفسد ادق المجهودات في لحظة ، والرجل الايجابي يتقبلها ببرود ، كعامل تأخير او كعنصر جديد للمسألة التي يحلها دون ان يشك لحظة واحدة في امكانية نجاح المرحلة التالية .

عندما لا يحقق العمل النتائج التي تنتظرها فلابد من تحليل اسباب هذا الاخفاق بكل نزاهة لكي تعرف اذا كان قد نقصك شيء او اذا كان القدر قد تدخل بصورة ما . في الحالة الأولى سوف تحاول الحصول على ما ينقصك . أما في الحالة الثانية فسوف تتخذ الاجراءات اللازمة لكي لا يتدخل القدر من جديد . هكذا يتصرف الذين يقودهم تصميمهم خطوة خطوة لتحقيق مخططاتهم بكل عزم وثبات .

واسوأ اضرار الفشل هو تأثيره المحبط للهمة ، ولكن هذا التأثير يتبخر بسرعة اذا لم يفتر النشاط ، ولهذا اقول لمن يهمه الأمر انه لابد من أن يتغلب على احساسه لكي يشغل ذهنه فورا بفحص النتائج التي تمت ، وللبحث عن طريقة لحصر الضرر ومعرفة مداه واتساعه. والطاقات النضالية تبقى كاملة ، شريطة أن يتتابع النضال على الفور ، وهذا لا يعني أن لا يأخذ هدنة او راحة ، وأن يرهق أعصابه ونفسيته ليل نهار ، وانما على العكس ، فان الاسترخاء الذي تكلمنا عنه في الشروط التي عددناها وسيلة من افضل الوسائل العلمية للدفاع الآلي ضد آثار الفشل المحبطة ، هنا أيضا يتدخل مبدأ التركيز ، لانه يفرض امكانيةالاستغراق في العمل الحالي ونسيان كل الباقي مؤقتا . لا تفكر ساعة النوم الا في النوم فحسب ، وفي وقت العمل الا في العمل فحسب ، فان النوم الهادىء العميق يحيي خلايا الجسم ويجدد النشاط .

٥ ـ الصعوبة :

الافراط في التفكير في الصعوبة يفقد الثقة في النفس ، والافراط في عدم الاهتمام بها يبخسها قدرها . ومن المناسب اذن تقدير المجهود المطلوب للمهمة التي تقوم بها بكل جهد ، وبكل موضوعية . ولكن ما ينجزه شخص بسهولة يتجاوز أمكانيات الآخر ، ومن هنا الضرورة الاولية لمعرفة الشخص لنفسه معرفة تامة حتى يقيس مشاريعه طبقا لكفاءاته ، ما هي المواصفات التي تتطلبها خطتك ؟ هل تملك هذه المواصفاتبدرجة كافية ؟ اذا

كان الرد بالايجاب فالى العمل ، والا فيجب ان تعيد التفكير فى مشروعاتك أو أن تقوم بتنمية قدراتك .

عندما يتضح لك انك تستطيع مواجهة كل الصعوبات المتوقعة ، وعندما تضع الطريقة التى ستواجهها بها بنظام ، فان مبدأ التركيز يهيب بك أن تبدأ نضالك بالصعوبة الأولى ، وأن تمتنع عن التفكير فى الصعوبات الأخرى الى أن تتغلب عليها هى بالذات ، ثم تهتم بالثانية بعد ذلك ، وهلم جرا ، أما اذا أرهقت ذهنك فى وقت واحد بسلسلة من المشاكل ، فى الوقت الذى تحاول فيه حل واحدة منها على الخصوص ، فانك تبدد قواه وتفقده حدته . هناك وقت للاستيعاب ووقت للتنفيذ ، أما الشمولية والعناية بالتفاصيل ، فلا يمكن متابعتهما فى وقت واحد .

النشاط والارادة الطيبة لا يكفيان .. لابد من المهارة للتغلب على بعض الصعوبات . وقد رأينا اناسا يتمتعون بشجاعة كبيرة ولكنهم يفتقرون الى الخيال ، ويقعون فريسة للتردد ثم للاحباط لأنهم لا يجدون الطريقة التى ينهون بها صعوبة خاصة بعض الشىء ، ومع ذلك ، فقد كان فى مقدور بعضهم اكتشاف هذه الطريقة لو انهم فكروا بروية ونظام ، فالتفكير المتواصل ينمى المهارة ، ويجب على كل امرىء أن يتمرن على ذلك كثيراً ، ولكى تتجنب ضياع تسلسل أفكارهم فعليك فى البداية أن تكتسب كل فروض المسألة التى تواجهها ، وأن تدونها أولا بأول لكى تعرض على ذهنك ، وأن تلقى على نفسك الاسئلة المحددة بالعزم الثابت الصلب لاستخراج المعلومات الخاصة بها من ذهنك . واذا كنت قد اعتدت على التركيز كما أوصينا به فسيهتز الفكر دون تعب يذكر ، وستتوافد

الالهامات دون تناسق كبير تقريبا ، ولكن اذا دونتهـــا بايجاز كما تنبثق ، فسيكون من السهل لك أن تفحصها وأن ترتبها بعد ذلك . جلسة أولى يندر ان تكفى . هنا ايضا لابد من المثابرة ، أن الموضوع الذى يحتـــاج الى التفكير والتروى أشبه بأرض محروثة بكل دقة ، فان الارض تصبح خصبة عندئذ . فتـــــأمل كيف يتكلم كل شخص عن مواضيعه المحببة اليه بغزارة ، وأنت ، كلما فكرت وترويت فى مسالة ما ، كلما ازداد اهتمامك بهـــا ، وكلما استمتعت بمواجهتها .

٦ ـ المقارنات :

نحن جميعا ، على الاقـــل مبدئيا ، متســـــاوون فى الحقوق . ولكن فيما يتعلق بالتجهيز الشـــــخصى فان التفاوت كبير . فالاستعدادات الشخصية ، والميـــــول الذهنية تختلف كثيرا عند الرجال ، مهارة البعض تتعارض مع عجز الآخرين ، وهذا سبب من أسباب الانحطاط عند الذين يكتشف التحليل الذاتى بعض النقص فيهـــم ، والتحليل الذاتى ليس متاحا الا لنخبة من الناس ، لأنه ينبثق من حاجتهم الى معرفة أنفسهم ، ولا يتسنى لدون المتوسطين ، وان من غير المنطق تماما أن نفقد الثقـــة فى أنفسنا لاننا نعرف ان فينا نقصا لابد من تعويضه ، وأن يقارن المرء نفسه بشخص مثالى يتمتع بالاتزان المعنـــوى والوضوح الذهنى فى نفس الوقت ، وبقوة طبيعته ، فان هذا معناه انه يشعر بحاجته الى التشبه به . والحـــاجة تستتبع دائما الاستعدادات الداخلية الكافية لكى يصـــل ما يريد . ان فلاحة بعض الفلاحين المهرة تقهر غالبا جدب

الارض القاحلة . وكذلك التربية البدنية الذاتية تتيح تلطيف العيوب الطبيعية .

والناس يقفون حيارى امام مسالة الوراثة ، مع ان العاهات التى لا يرجى صلاحها قلة وتعتبر استثنائية ، وكذلك الحالات الميئوس منها تماما ، ثم ان هناك بالضرورة ، مع كثرة الحالات الوراثية ، بجوار العيوب ، بذور جيدة فيها مواصفات كامنة لا تبغى الا الظهور ، شريطة ايقاظها .

واختيار المرء لنموذج ، او بالاحرى ، تشبيع مخيلته به ، معناه أنه يريد التعود على الدور الذى يتمنى القيام به ، واقل جهد ، بل أكثر الافكار تهذبا تترك أثرا مستديما وتساهم فى التغيير المنشود ، وبمراعاة هذا التوجيه يتقدم كل يوم خطوة ، واستطيع القول اننى رايت اناسا يتقدمون هكذا فى خطوات عملاقة ، بين أولئك الذين اعتقدوا مدة طويلة انهم غير كاملين .

٧ ـ الاصرار :

اقل الناس حظا اولئك الذين لا يتقدمون الا ببطء ، فى البداية على الاقل ، يشعرون دائما بان مسيرتهم تسرع الى الامام بعد مدة قصيرة من الاصرار . لا تيأس اذن . وحذار من عودة الجمود وهجومه فحسب ، فهو فى النهاية الخطر الوحيد الذى يجب أن تخشاه حقيقيا . الا انه من الوضوح بحيث أن معرفته مسبقا تعنى قهره ، فانه لا يبقى ابدا اذا ما واجهته مواجهة تامة .

اذا حاول الظهور ثانية فعليك أن تفكر بقوة : « انا أستطيع ، وأريد » . عليك أن ترسخ معنى هذه الكلمات

فى ذهنك ، فهى وحدها تشعل فيك طاقات جديدة خلال اسوأ حالات الارهاق والتعب .

ان العامل الرئيسى للجمود هو الايحاء الخارجى ، آه ، يجب أن تسمعه مرارا ، انه موجود فى كل مكان لكى يقول لك انه ليست هناك أية فائدة ، وان ما من أحد يعرف أن يغير نفسه ، أن الثقة فى النفس لا تكتسب وان الطبع لا يتغير ... الخ .. الخ .. لا تصدقه ولاتجادل ، قل لنفسك : « أستطيع وأريد » ثم تابع جهدك بهدوء .

فهـــــــرس

كتاب الهلال القادم

المسرح الضاحك

بقلم : د . نجوى عانوس

يصدر ٥ سبتمبر ١٩٨٩

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

● وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت : السيد/ عبدالعال بسيوني زغلول ، الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal. V.N

رقم الإيداع : ٨٩/٤٣٣٧

الترقيم الدولى : ٦ - ٤٢٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب

هذا الكتاب يفتح أمامك الطريق للتخلص من الخجل ، وإعادة الشعور بالثقة ، حتى تصبح إنسانا مغايراً يتحلى بالجراة والإقدام ..

وهو يكشف أمامك الطريق من خلال تجربة حية ، وهو يتطرق إلى كافة الأسباب التي تجعلك لاتتكلم أو تفكر بين معارفك بكل حرية ، ثم يأخذك إلى وسائل العلاج التى يصل إليها من يعاني من الخجل بالوعى الحقيقي بكافة جوانب المشكلة وبالتطبيق الدقيق لما تقرأ .

وأهمية هذا الكتاب أنه ينقل تجربة حية وأن المؤلف تعرض لآلام تجربة الخجل ، وتمكن بالارادة من التخلص منها ، عندما وجد الوسائل الكفيلة ، وأستجاب للتحدي الذي يواجهه ، ثم قرر أن يطبق ذات الوسائل على مئات الحالات من الذين يعانون من الخجل طوال عشرين سنة مؤكداً أن كل الذين تابعوا تجربته عادت لهم الثقة بالنفس ..

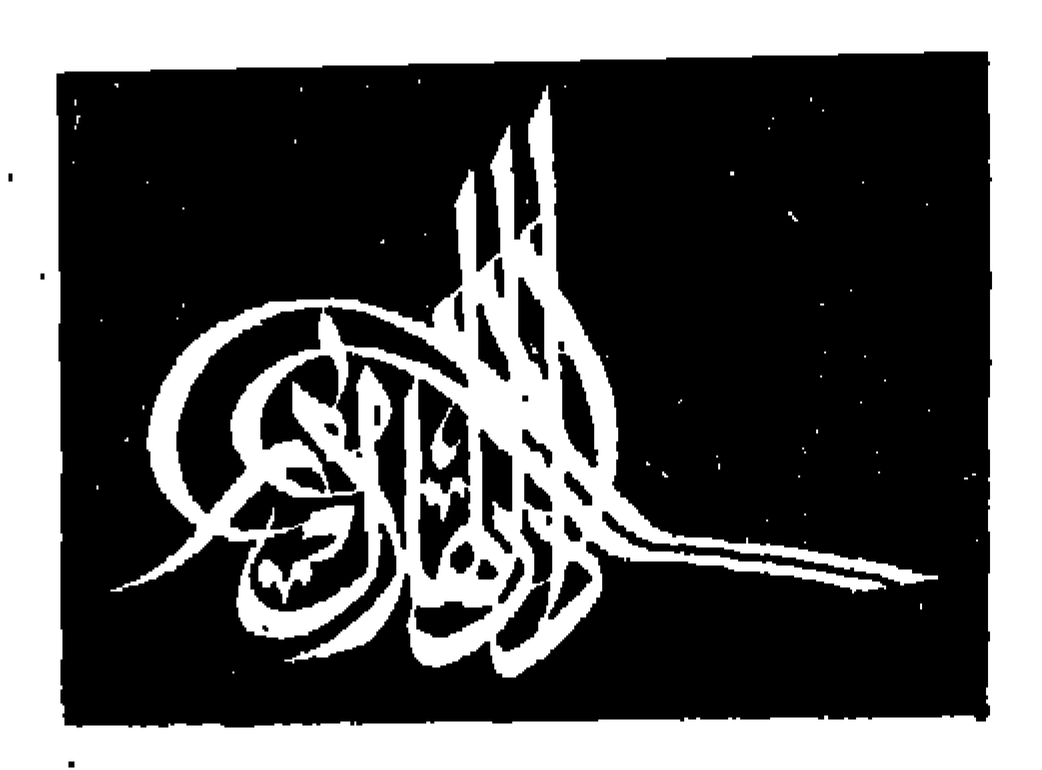
إن هذا الكتاب خطوة ضرورية تطرد الخجل نهائياً من حياتك وتستمتع بكل مباهج الحياة .


أشهى الأطعمة هى التى تطهى فى
أوانى
الأهرام
متانة ... جودة ... السعر المناسب
الومنيوم استانلس ستيل تيفلون
الأهرام الأهرام الأهرام
أبيض لامع
صلب لا يصدأ
لا يلتصق بها الطعام أبدا

كتاب الهلال



١٥٠ قرشا



كتاب الهلال

سلسلة شهرية تصدر عن دار الهلال

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب . تليفون . ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط
العدد ٤٦٥ صفر ١٤١٠ - سبتمبر ١٩٨٩ KITAB AL-HILAL

رئيس مجلس الإدارة :

مكرم محمد احمد

رئيس التحرير :

مصطفى نبيل

مدير التحرير :

عايد عياد

اسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٥٠ قرشا للنسخة للقارىء في مصر :

سوريا ٥٠ ليره ، لبنان ٧٠٠ ليره ، الاردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٥٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، الدوحة ٨ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، دبى ٨ دراهم ، ابو ظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسه ، تونس ١٦٥٠ مليما ، غزه والضفة ١ دولار ، لندن ١٥٠ بنسا .

الغلاف تصميم الفنان
محمد أبو طالب

الغراب الأبيض
أو ظاهرة سلمان رشدى

بقلم : زهير على شاكر

دار الهلال

« المقدمة »

لا يكاد يختلف اثنان على أهمية الكتاب الذى أخرجه الكاتب الهندى الأصل ، الإنجليزى الجنسية "سلمان رشدى" ، والذى يعرف فى لغتنا العربية باسم "الآيات الشيطانية" ، بل لا أغالى إذا قلت إن الكتاب وكاتبه هما أشهر كتاب وكاتب ظهرا فى ميدان الهجوم على الإسلام فى هذا القرن كله .

ولا يكتسب الكتاب أهميته من القيمة العلمية للموضوعات التى يناقشها ، ولا من قيمته الفنية كعمل أدبى ، فهو ـ كما سنرى ـ قليل القيمة من هاتين الناحيتين ، وإنما يكتسب أهميته من تأثيره على القطاعات من القراء الذين هو موجّه إليهم . ويعنينا من هذه القطاعات على وجه التحديد : المسلمون المغتربون فى مختلف بلاد الدنيا من ألمانيا إلى أستراليا على اختلاف بلادهم الأصلية ، ومسلمو دول شبه القارة الهندية الثلاث (باكستان ـ الهند ـ بنجلاديش) ، والذين تعتبر اللغة الإنجليزية لغة القراءة الأساسية عندهم .

ويكتسب أهميته ثانيا ، من القضايا التى يتعرض لها ، والتى تمس ـ على وجه الخصوص ـ حياة المسلمين المغتربين وفكرهم وعلاقتهم بالمجتمعات الجديدة ، التى يعيشون فيها فى عزلة شبه تامة عن المنابع الصحيحة لثقافات بلادهم .

ويكتسب أهمية ثالثة من المواقف التى يتخذها ، والجانب الذى يدافع عنه من القضايا التى يعالجها ، والتى يتظاهر فيها بالدفاع عن مصلحة أولئك المسلمين المغتربين ، لا لصحة تلك المواقف ،

وإنما لعكس ذلك على طول الخط . فلو كان الكتاب يتخذ مواقف صحيحة من تلك المشاكل الحياتية والفكرية لما كانت هناك ضرورة لعرضه أو مناقشته ، ولما استحق كل هذا العناء ، الذى استحقه بما فيه من باطل لا بما فيه من حق .

فهو فى آن واحد كتاب عظيم التأثير ، عظيم الخطأ ، عظيم الخطر .

وقد ضاعف من تأثيره وخطره عاملان هامان : أولهما أن كاتبه مسلم - أو منتم إلى الإسلام ، مما يجعل هجومه على الإسلام يبدو من قبيل النقد الذاتى ، والثانى هو الضجة الإعلامية الهائلة التى صاحبت صدوره ، والتى ضاعفت من رواجه من ناحية ، وجذبت إليه قطاعات من القراء لم تكن لتبالى به لولا تلك الضجة ، حيث أظهرت الكتاب وكاتبه فى صورة المظلوم المضطهد المطارد ، وهى كلها صفات تجذب القراء وتثير فضولهم - على عكس الغرض المعلن منها ، والتى أحالت الكاتب والكتاب إلى ظاهرة لا يمكن تجاهلها أو تناولها بخفة أو تعجل . ظاهرة تستدعى أن ندرسها دراسة هادئة متأنية ، محاولين استشفاف ما فيها من فكر ، وما تحتها من تيارات ، وما وراءها من قوى دافعة مؤثرة . ثم محاولين أن نتوصل من كل ذلك إلى موقف فكرى وحضارى إزاءها .

ومن المؤسف أن أغلب من كتبوا عن هذه الظاهرة فى الصحف العربية ، لم يقرأوا الكتاب ، أو لم يقرأوه كله على الأقل ، بل اكتفوا بقراءة مقالات عنه ، أو بقراءة بضع صفحات منه ، أو بتقليب أوراقه على عجل ، فجاءت كتاباتهم عنه ناقصة مبتسرة .

ولعل لهم بعض العذر من صعوبة قراءة الكتاب . فهو فعلا من أصعب الكتب قراءة ، لدرجة أنه يقال إنه قد تألفت جمعية فى لندن ، اسمها "جمعية قراءة الآيات الشيطانية" ، شرط عضويتها أن يستطيع العضو إكمال قراءة ثلاثين صفحة من الكتاب الذى تبلغ صفحاته ٥٤٦ صفحة .

كما أن من المؤسف أيضا أن بعض من تناولوا الكتاب ، أعلنوا ـ صراحة أو ضمنا ـ أنهم يحجمون عن الخوض فى المواضيع والأفكار التى وردت به ، تجنبا للوقوع فى الكفر . وهم بذلك يخالفون القاعدة الإسلامية القديمة بأن "ناقل الكفر ليس بكافر" . هذه القاعدة التى كانت وما تزال شعارا للفكر الإسلامى ، يميزه عن كل فكر عقائدى آخر ، وسلاحا ماضيا يمكّن المفكرين المسلمين دائما من مواجهة كل فكرة تقال ضد دينهم ـ مهما كانت خاطئة أو فاحشة ـ بكل صراحة ودون خوف أو خفاء .

وليست هذه القاعدة من اختراع علماء المسلمين وأئمتهم ، فهى مطبّقة أولا وقبل كل شىء فى القرآن الكريم نفسه . فهو الكتاب الوحيد بين كتب العقائد ، الذى يعتبر سجلا كاملا دقيقا لجميع الآراء المعارضة له . لا تكاد تجد سورة من السور الطوال والمتوسطة ، إلا وفيها ذكر لأقوى الحجج التى يرفعها المعارضون لما جاء به ، أو ما جاء به الأنبياء السابقون ، مهما كانت سفاهة تلك الحجج (مجنون ـ شاعر ـ ساحر ـ مُعلَّم ـ إن هى إلا حياتنا الدنيا ـ أئذا كنا ترابا ورفاتا أئنا لمبعوثون .. الخ) . ثم يلى ذلك الرد المنطقى العقلى الدامغ على هذا الفكر المعارض .

وبهذا المنطق الصادق الشجاع الذى تميز به كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وسارت عليه سنة نبيه الكريم ، ثم اتبعه سائر علماء المسلمين حتى يومنا هذا ، استحق الإسلام أن يسمى "دين العقل" .

وبهذا العقل نفسه ، وفى ظل هذه السنة نفسها ، أقدم للقارىء هذه الدراسة ، التى أرجو أن تكون موضوعية ومنطقية ، لهذا الكتاب الشهير ، وكاتبه الأشهر كما نراه من خلال كتابه .

وأبرأ إلى الله سلفاً مما تضمنه من باطل ، وما جاء به عن ملائكته الكرام وأنبيائه البررة وعباده المؤمنين ، من استهزاء أو إفك .

تقسيم الكتاب

الصعوبة الأولى التى يواجهها قارىء الكتاب ، وأول شىء يبعث على الحيرة ـ بعد اسمه ـ هو طريقة تبويبه .

فللوهلة الأولى يحار المرء فى تصنيف الكتاب : أهو رواية أدبية تحكي قصة متصلة لها أول ولها آخر ، أم كتاب رأى يناقش قضايا فكرية ومواقف تاريخية ؟.. ثم لا يلبث المرء بعد شىء من التأمل أن يتبين أنه لا هو كتاب ولا هو رواية ، وإنما هو كتاب ورواية مضمومان معا فى مجلد واحد وغلاف واحد .

ولا أعنى بذلك مجرد أن الكاتب يعبر عن رأيه فى القضايا التى يطرحها من خلال تفاعل شخصيات القصة مع بعضها البعض ومع العالم الذى يحيط بها ، فى تزاوج بين السرد القصصى والرؤية العقلية ـ فهذا شىء عادى ومفترض فى كل عمل أدبى . وإنما أعنى حرفيا أن الكتاب قسمان منفصلان لا يكاد يربط بينهما إلا علاقة واهية . أحد القسمين قصة طويلة ذات فصول خمسة ـ وسأسميها **"الرواية"** ، والقسم الثانى كتاب رأى محض ذو أربعة أبواب ، وسأسميه **"الرسالة"** .

والغريب أن الكاتب لم يجمع كلا من القسمين فى جزء منفصل عن القسم الآخر ، ولكنه أدخلهما بعضهما فى بعض بترتيب أقرب إلى طريقة "تعشيق" التروس : فصل من الرواية ، ثم باب عن

الرسالة ، ثم فصل آخر من الرواية ، وهكذا حتى آخر الكتاب . كأنهما كانا فى الأصل كتابين منفصلين فككهما صاحبهما إلى ملازم وأرسلهما إلى ورشة التجليد ، وأمر أن يعاد تجليدهما فى مجلد واحد بطريقة تبادلية ، ملزمة من هذا ثم ملزمة من ذاك إلخ ..

الملاحظة الثانية : أن فصول الرواية (وهى القسم القصصى من الكتاب) ، مثلها مثل أى رواية ، متفاوتة فى الطول : بعضها يزيد عن ٨٠ صفحة وبعضها الآخر يقل عن ٤٠ صفحة . وهذا شىء منطقى ومفهوم ، فالكاتب عندما يكتب لا يستطيع أن يحدد لنفسه سلفا عدد الصفحات التى يخصصها لكل فصل ، فقد يقوده السياق إلى الاسترسال فى فصل ، ويلزِمه نفس السياق بالاقتضاب فى فصل آخر .

ولكن الشىء غير المفهوم هو أن أبواب "الرسالة" الأربعة متساوية تماما فى طولها وعدد صفحاتها . كل منها بغير استثناء يقع فى ٣٥ صفحة بالتمام والكمال لا ينقص صفحة ولا يزيد .

وربما كانت هذه الملاحظة شكلية تماما . وربما كانت لا تدل على شىء سوى المصادفة البحتة . ولكننا إذا أضفنا إليها طريقة "**التعشيق**" التى أدخل بها الكاتب القسمين فى بعضهما البعض ، نرجح أنها شىء مقصود لذاته ، وأن "الرسالة" كانت هى الموضوع الأساسى الذى عناه الكاتب بكتابه ، ثم صنع قصة طويلة أدخل بين فصولها أبواب الرسالة الواحد تلو الآخر .

ولكى لا يلتبس الأمر على القارىء ، أشير إلى أن "**الرواية**" ليست سردا خالصا لأحداث قصصية ، وإنماتتخلله بالطبع وقفات لإبداء الرأى ، وتتخلله أيضا رؤى قصيرة تدخل فى سياق القصة . كما أن "**الرسالة**" ليست رأيا تقريريا محضا ، بل إن كلا من أبوابها مصبوب فى قالب قصصى لا يخلو من خط درامى . ولكن الغالب على الأولى هو السرد القصصى ، بينما الغالب على الأخرى

هو المعالجة الفكرية ـ إن صحت التسمية .

كما أن لكل من القسمين شكلا مخالفا للقسم الآخر . فالرواية عبارة عن قصة واقعية معاصرة تدور أحداثها فى أماكن لها أسماء معروفة من عالمنا هذا ، وأبطالها أشخاص عاديون ذوو أسماء عادية من نوع الأشخاص الذين نلتقى بهم فى أيامنا هذه . أما الرسالة فهى فى صورة "أحلام" أو "تقمصات روحية تناسخية" منفصلة عن بعضها البعض ، تدور أحداثها فى أماكن ذات أسماء تنكرية ـ ولا أقول رمزية ـ وأبطالها أشخاص لهم أيضا أسماء تنكرية ، وإن كان هذا التنكر شكليا محضا ، غلالة شفافة لا تخفى شيئا مما وراءها من أماكن حقيقية وأشخاص حقيقيين فى التاريخ القديم والمعاصر ، أراد لنا الكاتب أن نميزها على الفور وبلا خطأ ، دون أن "يتورط" فى ذكر أسمائها الحقيقية صراحة .

أما الخيط الواهى الذى ذكرناه ، والذى يربط القسمين ، فهو يتمثل فى أن أحد بطلى الرواية ، وهو الشخصية الثانية فيها ، هو الذى "يحلم" أو "يرى" أو "يتناسخ" فى هذه الرؤى التى هى أبواب الرسالة ، يتقمص فيها شخصية ملاك الرب "جبريل" عليه السلام .

هذه هى العلاقة الوحيدة بين القسمين ، علاقة لا تجعل أيا من القسمين يؤثر أو يتأثر بالقسم الآخر ، بحيث أننا إذا حذفنا أحد القسمين كلية ، لبقى القسم الآخر متصلا مترابطا لا يكاد ينقصه شىء .

ويقال إن هذه الطريقة أسلوب جديد فى الكتابة الروائية يسمونه "**سيكولوچيا الحلم**" ، يختلط فيها الوهم بالحقيقة ، والحلم باليقظة . وسواء كان ذلك صحيحا ، أو كان الكاتب قد قصد بهذه الطريقة المنظمة المدبرة أن يكسو الكتاب كله ثوب الرواية الطويلة ، أو أن يقطع ملل القارىء من أبواب رسالته المتتابعة

بوضع فصول من القصة بين بعضها البعض ، فإن أول خطوة لكى نستطيع فهم الكتاب ، هو أن نرجع القهقرى فى عملية الإدماج المصطنعة هذه ، بأن نفك التعشيق ، أو نفض الاشتباك ـ بين كل من القسمين وأجزاء القسم الآخر ، لننظر إلى "الرواية" بفصولها الخمسة على حدة ، ثم إلى "الرسالة" بأبوابها الأربعة على حدة ، مع الإشارة إلى المواضع التى يفارق فيها الكاتب الحقيقة ويستغرق فى "الحلم" .

الصعوبة الثانية التى يواجهها قارىء الكتاب ، هى أن الرواية مكتوبة بطريقة سيناريو أفلام الموجة الجديدة : لقطة من هنا وموقف من هناك ، ثم عودة إلى الماضى ثم حوار فى المستقبل ، يحدثك عن شخص وكأنك تعرفه ، في جزء مقطوع من حدث لا تعرف عنه شيئا ، ثم لا تفهم من هو هذا الشخص ولا ماهو الموقف إلا بعد عشرات الصفحات ، وهكذا ..

ويقولون أيضا إن هذه هى "الموضة" الجديدة فى الكتابة الروائية . وأعترف بأنني لم أستسغها قط ، وأظنها نوعا من الإبهار والتهويش ، مقصوداً به إخفاء المغزى الحقيقى للعمل الأدبى ، أو التستر على خواء الفكر الذى يعبر عنه . ولذلك فالخطوة الثانية هى أن نعيد تجميع الأجزاء المتفرقة من الشخصيات والأحداث ، على طريقة ألغاز الصور المقصوصة ، لكى تبدو المعالم الرئيسية للرواية واضحة مفهومة .

العقبة الثالثة التى تواجهنا هى ميل الكاتب الدائم إلى "الابتذال" . فهو لا يكاد يفلت فرصة لكي يصدم القارىء بصورة جنسية مكشوفة ، أو بمشهد مثير للتقزز والقرف ، أو بلفظ بذىء ، أو بكلمة سباب سوقية يصف بها ذات الله سبحانه بصورة متكررة على وجه الخصوص ، أو أحداً من ملائكته أو أنبيائه ، أو واحدا من خلقه فى السماء أو فى الأرض ، أو بتفاصيل شديدة البشاعة عن القتل والجروح والتمثيل بجثث الموتى .

كما أنه لا يتردد فى أن يخرج عن طريقه لكى يروى نكتة ، أو يستخدم كلمة ذات معنيين (تورية) أحدهما جنسى فى الغالب ، أو كلمتين متشابهتين فى النطق مختلفتين فى المعنى (جناس) ، مع ولع دائم بذكر الأعضاء التناسلية الذكورية على وجه الخصوص . ويبدو أيضا أن القارئ الأوربى فى السنوات العشر الماضية ، أصبح لا يستمرئ قراءة أى عمل أدبى أو صحفى أو فنى ، إلا إذا كان مرصعا بهذه الألفاظ التى أصبحت جزءا من كلام الناس اليومى ، بعد أن كانت قاصرة على السفلة .

وعلى أى حال ، فنحن ـ مع التزامنا بأمانة النقل قدر الإمكان ـ سنعفى أنفسنا والقارئ من هذا الابتذال ، إلا فى الأحوال التى يتعذر بدونها متابعة السياق أو فهم جانب من فكر الكاتب ونفسيته ، باذلين فى هذه الأحوال ـ وهى أحوال نادرة إن شاء الله ـ كل جهد لتوضيح الصورة بالإشارة دون العبارة ، وبالتلميح دون التصريح .

الرواية

الملاك جبريل

يبدأ الكاتب الرواية بعبارة سوف تتكرر كثيرا بعد ذلك ، وكأنها الحكمة التى يستخرجها من الكتاب كله ، فيضعها فى أول سطر منه : "من أجل أن نولد من جديد .. لابد أن نموت أولاً" .

بعد ذلك نرى الشخصيتين الرئيسيتين فى الرواية : أولهما "جبريل فاريشتا" ، والثاني "سالادين شامشا" . وسوف نسمى الأول "فاريشتا" ، لتمييزه عن الملاك جبريل ، كما سوف نسمى الثانى "صلاح" للاختصار . وصلاح هو فى الواقع الشخصية الأولى فى الرواية ، أما فاريشتا فهو الشخصية الثانية ، وإن كان بالنسبة للرسالة هو الشخصية المحورية المشتركة بين كل أبوابها .

نرى هذين الشخصين يسقطان من ارتفاع ٣٠ ألف قدم ، بعد أن انفجرت الطائرة الهندية التى كانا يركبانها فوق القنال الإنجليزى ، بالقرب من ساحل إنجلترا . وكانت إحدى الجماعات الإرهابية قد اختطفت الطائرة ثم فجرتها فى الجو ، بعد أن أوشكت أن تصل إلى الساحل البريطانى .

ونجد أشياء مشتركة ومشابه كثيرة بين "صلاح" ، و"فاريشتا" . فكلاهما هندى الأصل من مواليد بومباى ، فى الأربعين من عمره ، ينتمى إلى عائلة مسلمة . وكلاهما مشتغل بالتمثيل ، وإن كان "صلاح" ممثلا مغمورا فى المسارح

الإنجليزية ، بينما الثانى "فاريشتا" نجم ساطع فى عالم السينما الهندية ، اشتهر بتمثيل أدوار الكائنات العلوية كالملائكة والآلهة ، ولاقت أفلامه إقبالا هائلا ، حتى أصبح لا يكاد يوجد من لا يعرفه فى شبه القارة الهندية كلها .

صلاح كان عائدا من بومباى إلى مقر إقامته فى إنجلترا بعد زيارة للهند ، أما فاريشتا ، فكان يسافر متنكراً إلى إنجلترا ، بعد أن تعمد الاختفاء عن الأنظار وهو فى الهند مدة طويلة ، حتى أيقن الجميع بموته .

ويقدم إلينا الكاتب أيضا شخصية ثالثة هى "ريخا ميرشانت" التى كانت عشيقة لفاريشتا ، حتى اختفى عن الأنظار ، فأيقنت كما أيقن الجميع بموته ، فانتحرت حزنا عليه بإلقاء نفسها من سطح أعلى عمارة فى بومباى ، بعد أن ألقت بأولادها الثلاثة قبلها . وستظهر لنا هذه الشخصية مرات كثيرة فى صورة شبح يركب بساطا سحريا ويطارد فاريشتا أينما ذهب .

يترك الكاتب بطليه الرئيسيين يهويان من هذا الارتفاع الشاهق ، ويعود بنا بطريقة "الفلاش باك" إلى نشأة كل منهما منذ الطفولة .

فاريشتا :

اسمه الأصلى "إسماعيل نجم الدين" . ولد فى عائلة فقيرة فى بومباى . أبوه عامل كادح ، حمال بسيط ، وأمه صدمها أتوبيس فماتت وهو مازال صبيا ، فعرف طعم اليتم والفقر منذ طفولته . وعمل مساعداً لأبيه فى عمله حتى بلغ العشرين من عمره ، ثم مات أبوه أيضا أثناء قيامه بعمله الشاق ، فأشفق عليه السيد "مهاترى" ، وهو أحد كبار موظفى الشركة التى كان يعمل فيها أبوه ، وآواه فى بيته ، فعاش معه هو وزوجته التى لم تنجب ، وكأنه ابن لهما ، مع استمراره فى العمل فى نفس الشركة .

وفى هذه المرحلة من حياته ، انشغل ذهن فاريشتا بالغيبيات ، وألحت عليه فكرة تناسخ الأرواح ، وجلسات تحضير الأرواح ، كما ألحت عليه أسئلة لم يجد عليها إجابة شافية ، عن وجود الله ، وعن وجود الشيطان والملائكة والجن والعفاريت . ومع أنه لم يكن شديد التدين ، إلا أنه بدأ يقارن بين حقائق حياته وبين حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ـ كما سمع أقاصيصها من أمه ، وأهمها الصفة المشتركة بينهما وهى اليتم ، حتى بدأ يتمثل فى حاضنته ـ زوجة مهاترى ـ صورة السيدة خديجة زوجة الرسول الأولى التى كانت له زوجةً وأمًا فى آنٍ معا .

وفى يوم عيد ميلاده الحادى والعشرين ، فاجأه السيد مهاترى بأنه قرر أن يغير مجرى مستقبله تغييرا تاما ، لأنه فى رأيه يصلح للتمثيل ، ومن الخسارة أن يضيع موهبته فى القيام بعمله البسيط . فقدمه إلى أحد أعلام السينما : السيد "رام" ، الذى قَبل على الفور أن يقدمه فى أدوار سينمائية ثانوية ، تحت اسم فنى جديد ، هو "جبريل فاريشتا" .

وفى تلك الفترة بدأت تلح عليه تساؤلات محيرة عن الجنس الآخر ، كما بدأ يؤرقه التفكير فى جانبين معينين من حياة الرسول : هما قصة الغرانيق المنسوبة إلى النبى ، ومسألة زوجات النبى الكثيرات ، بالإضافة إلى مسألة تناسخ الأرواح . كما بدأت تتراءى له كالأحلام صور عن فراشات ملونة تأكلهن فتاة جميلة ، وعن أطفال بلا وجوه ، وعن قصور خرافية مملوءة بالجواهر الثمينة .

وجاءت النقلة الكبيرة التالية فى حياته ، عندما كلفه السيد "رام" بدور رئيسى فى فيلم جديد يقوم فيه بدور الإله الهندى "شيفا" الذى يتجسد فى صورة فيل ، فيرتدى طوال الفيلم قناعا على شكل رأس الفيل ، يخفى وجهه كلية عن المشاهدين . ثم توالت بعد ذلك الأفلام التى يقوم ببطولتها ، وكلها يمثل فيها أدوار

الآلهة أو الملائكة ، حتى أصبح النجم الأول فى سماء السينما الهندية . وفى نفس الوقت ، بدأ يتعرف على الممارسة الجنسية ، فأغرق فيها حتى كادت أن تودى بمستقبله .

وبعد أن انفتحت أمامه أبواب المجد والثراء ، ترك منزل السيد مهاترى ، وانتقل إلى شقة فاخرة فى رأس أعلى عمارة فى بومباى ، اسمها "إيفرست" ، حيث تعرف على جارته "ميخا" التى تقيم تحت شقته مباشرة ، وهى زوجة لرجل أعمال ثرى ، وأم لولد واحد وبنتين . وبدأت بينهما قصة غرام ملتهب ، حتى أصبحا لا يكادان يفترقان كلما غاب الزوج عن المنزل . وعرف عن طريقها ـ من بين ما عرف ـ شرب الخمور الفاخرة التى كانت تشاركه احتساءها .

وفى أثناء تمثيل أحد الأفلام ، وقع له حادث نتيجة لكمة طائشة قوية أصابت فكه ، فوقع مغشيا عليه ، ونقل إلى المستشفى حيث ظل فى غيبوبة امتدت أياما ، إلا من لحظات قصيرة كان يفيق فيها ، ويناجى الله ويتضرع إليه أن يمنحه معجزة ما ، تشفيه من ناحية ، وتؤكد لديه وجود الله من ناحية أخرى . وحار الأطباء فى تشخيص مرضه ، وعجزوا عن إفاقته أو التوصل إلى علاج يعيده إلى وعيه ، أو يوقف النزيف الداخلى غير المفهوم الذى أصاب جسمه كله .

وفجأة أفاق فاريشتا من مرضه بطريقة لا تقل غموضا عن الطريقة التى سقط بها صريعا . فجأة وجد نفسه يقوم كأنه لم يصبه شىء ، ولاحظ فجأة أيضا أنه قد فقد إيمانه بالله تماما ، ثم وجد نفسه يغادر المستشفى ، ويذهب على الفور إلى أفخر فندق فى المدينة ، حيث يقف فى وسط أكبر بهو فيه ، ويطلب كميات كبيرة من الخمر ولحم الخنزير ، ويقف وسط البهو يتناولها بشراهة وبطريقة إعلانية ، وكأنه يريد لكل ذى عينين أن يشهده وهو تتناثر فى فمه قطع لحم الخنزير مختلطة بجرعات الخمر .

وفى هذه اللحظة بالذات ، وقعت عيناه على فتاة أصبحت بعد ذلك أهم شخصية فى حياته ، بطلة تسلّق إنجليزية الجنسية ، يهودية الديانة ، بولندية الأصل ، اسمها "آلى كون" أو "آلى كوهين" . وكان أبوها هو الآخر قد مات منتحرا وهو فى السبعين من عمره ، ثم ماتت أختها غريقة فى حوض الاستحمام ، وبقيت "آلى" وأمها فى لندن وحدهما .

وكانت "آلى" قد ذهبت إلى الهند لكى تتسلق قمة إيفرست ، ونجحت نجاحا باهرا فى مهمتها ، وقامت بما لم تقم به امرأة قبلها ، وهو تسلق القمة العليا للجبل دون جهاز أوكسوچين ، وطبقت شهرتها الآفاق باعتبارها "ملكة الثلوج" .

ويقع فاريشتا فى غرامها من أول نظرة ، ويقضى معها ثلاثة أيام ونصف يوم لا يفترقان لحظة ، ثم تسافر "آلى" عائدة إلى لندن ، بينما يعود فاريشتا إلى شقته ، وقد صح عزمه على اللحاق بها بأى ثمن . ويذهب إلى شقة "ريخا" ، حيث تمطره بوابل من سهام غيرتها ، فيخرج من عندها غاضبا ، وقد قرر أن تكون هذه آخر مرة يراها فيها .

صلاح :

أما عن طفولة "صلاح" وحياته قبل أن يركب الطائرة المنكوبة ، فإنه أيضا ابن عائلة مسلمة هندية . اسمه الأصلى "صلاح الدين شامشاولا" (ولعلها كانت فى الأصل "شمس الله") . ابن رجل أعمال من أثرياء بومباى اسمه "شانجيز شمس الله" من زوجته الأولى "نسرين" .

أول مشهد نتعرف فيه على صلاح ، عندما كان فى العاشرة من عمره ، وقد عثر مصادفة على حافظة نقود منتفخة بالجنيهات الإسترلينية ، ربما تكون قد وقعت من سائح بريطانى ثرى ، فيلتقطها ويذهب بها إلى منزله فرحا مستبشرا . فهو فى هذه السن

يعيش فى حلم واحد وعلى أمل واحد ، هو أن يذهب إلى لندن ، حيث يصبح ـ بصورة ما ـ واحدا من أولئك الانجليز الذين يراهم فى بومباى ، ويعجب بهم ويتطلع إلى أن يكون واحدا منهم ، أو على الأقل مقيما بينهم .

لا يكاد الصبى يفرح بهذه الغنيمة المفاجئة ، حتى ينقضّ عليه أبوه ، فينتزع منه حافظة النقود ، بحجة أن استيلاءه عليها سرقة لا تليق . ولكنه بدلا من أن يبحث عن صاحبها أو يسلمها للسلطات ، يحتفظ بها وبمحتوياتها لنفسه فى مكان أمين بعيد عن أنظار ابنه الوحيد .

وابتداء من هذا المشهد ، نتعرف على شخصية الوالد وعلى علاقته بابنه ، التى تستمر حتى نهاية الرواية تقريبا . فالرجل ـ رغم اسمه الإسلامى ـ غير متدين لا يؤمن بشىء ، أنانى بخيل مع ثرائه الواسع ، ليس له من هم إلا أن يتربص بابنه صلاح ، لكى يباغته وهو يتهيأ لمتعة أو يمارس لذة خفية ، فلا يكتفى بحرمانه من لذته أو متعته ، بل يفضحه ويخجله ويقلب سعادته نكداً ، أو يتظاهر بالرضى عنه والرغبة فى إسعاده ، حتى يكبر الأمل فى نفس الصبى ، ثم يفاجأ بأن وراء هذه السعادة المنشودة مصيبة قد هيأها له أبوه ، أو كمينا قد نصبه ليوقعه فيه .

وتمثل شخصية الأب عند الولد رمزا للسيطرة الأبوية الشريرة ، وتختلط عنده بصورة الإله المهين القاسى ، الذى يعذب عباده ويلقى بهم فى الجحيم .

تعيش أسرة صلاح فى منزل كبير ، فى مكان من بومباى اسمه "نقطة الفضائح" ، له حديقة واسعة ذات أشجار كثيرة ، من بينها شجرة جوز غرسها أبوه يوم ولد ، وأخذ يتعهدها وهى تكبر كلما كبر ، وكأن بينهما صلة روحية ما ، أو كأنها رمز لوجود "صلاح" نفسه . وفى البيت مكتبة كبيرة ، يحتفظ والده فوق أحد رفوفها ، بجوار الترجمة الإنجليزية لكتاب ألف ليلة وليلة ، بمصباح قديم

علاه الصدأ ، شبيّه بمصباح علاء الدين . ولكن الوالد يمنع ابنه منعا باتا من لمس المصباح أو محاولة حكّه طالما هو حيّ .

أما الأم "نسرين" ، فهي سيدة مهذبة أنيقة ، لا هم لها إلا العناية بأسرتها وبيتها ، وتنظيم حفلات أسبوعية مساء كل يوم جمعة ، فتدعو إلى بيتها عديدا من الأصدقاء والمعارف ، المسلمين في غالبيتهم ، حيث تقوم بخدمتهم وتقديم العشاء إليهم . وتحتفظ الأم في بيتها بمجموعة من الرسوم التي تصور سيدنا حمزة بن عبد المطلب في مواقف مختلفة من البطولة والشجاعة والاستشهاد . مجموعة يطلقون عليها اسم "حمزة نامه" ، أو سجل تاريخ حمزة .

المشهد الثاني نرى فيه صلاح ، وهو في الثالثة عشرة ، وقد خرج يتنزه ، فقادته قدماه إلى مكان مهجور ، يفاجئه فيه رجل شاذ جنسيا ، يعتدي عليه اعتداء شاذا ، ثم يتركه ليعود وهو يحمل "عاره" ويخفيه عمن حوله .

وجدير بالذكر أن هذا المشهد منقطع تماما .. لم يذكره المؤلف بعد ذلك ولم يشر إليه قط .

بدون مقدمات ، يعلن الوالد أنه قرر أن يكمل صلاح تعليمه في إنجلترا ، ويركب صلاح الطائرة متجها إلى لندن بصحبة أبيه ، بعد وداع حار من أمه التي أمطرته بالقبلات وغمرته بعقود الزهور ، وهي تحذره من أن يتحول إلى إنجليزي من "أولئك الإنجليز القذرين" الذين يستخدمون ورق التواليت - بدل الماء - في دورات المياه .

وفي الطائرة يغرق الولد في أحلامه الوردية التي تدور حول لندن ، المدينة العظيمة بمغانيها الحافلة وسكانها البيض وجنيهاتها الإسترلينية ، وعن غزو الفضاء والسفر إلى الكواكب التي قرأ عنها في قصص الخيال العلمي .

وبمجرد وصولهما يفاجأ بأبيه وهو يقدم له نفس حافظة النقود

القديمة ، وفى داخلها كل ما كان بها من نقود . وقبل أن تكتمل فرحة الولد بهذه الهدية الثمينة ، يعلن له والده أن عليه أن يدفع من تلك النقود جميع مصاريف رحلتهما ، ابتداء من إيجار الفندق ، إلى ثمن الطعام ، إلى رسوم التحاقه بالمدرسة ـ كل شىء ، وأن الوالد لن يدفع من جيبه مليما واحدا حتى يسافر عائدا إلى الهند .

ويضطر الولد ـ وقد أصبح مسئولا عن الميزانية ـ أن يرضى بالإقامة فى فندق رخيص ، وأن يقتصر طعامه وطعام والده على الفراخ المشوية ـ أرخص شىء ـ يشتريها من مطعم مجاور متواضع ، ويحملها خفية إلى غرفتهما بالفندق ليأكلاها سرا .

ويسافر الوالد بعد أن يلحق الصبى بمدرسة داخلية فى لندن . ويختصر الولد اسمه إلى "سالادين شامشا" بدلا من صلاح الدين شمس الله . ويبدأ حياته فى مدينة أحلامه لندن ، (أو "إلوين ديووين" كما يسميها .. متهجياً حروف الكلمة الإنجليزية حرفا حرفا وكأنه تدليل لأسمها الأصلى) ، يداعبه حلمه القديم فى أن يصبح ـ يوما ما ـ رجلا إنجليزيا ، رغم تحذيرات أمه ، ورغم ضحكات زملائه التلاميذ الإنجليز من صوته ولهجته ، واعتبارهم إياه غريبا لا يشاركونه أسرارهم ، ورغم الصعوبة التى يلاقيها فى تناول الطعام بطريقتهم ، والتأقلم مع جو بلادهم البارد الرطب .

بعد خمس سنوات من الدراسة فى إنجلترا ، يحصل على الشهادة الثانوية ، ويتقدم بأوراقه للجامعة . وفى إنتظار بدء العام الدراسى ، يعود إلى بومباى فى إجازة ، حيث يلاحظ أبواه أتقانه للغة الإنجليزية ، ولكنهما يلاحظان أيضاً حالة الكآبة المستولية عليه ، وانتقاده الدائم لطريقة الحياة الهندية ، ونظرة المرارة القاسية التى يواجه بها أباه .

وفى تلك الفترة تقوم الحرب بين الهند وباكستان ، مقرونة بمشاعر العداء المكتوم من الأغلبية الهندية غير المسلمة ، إزاء الأقلية المسلمة . ولكن أمه تستمر فى إقامة حفلاتها الأسبوعية ،

كمحاولة لمقاومة هذا الشعور العدائى ، والتأكيد على وطنية الهنود المسلمين رغم إنتمائهم الدينى .

وفى واحدة من تلك الأمسيات ، يقوم الطيران الباكستانى بغارة على بومباى ، فيفزع الضيوف وأهل المنزل ، ويختفى كل منهم خلف جدار أو تحت قطعة أثاث ، وتقف أمه وحدها فى غرفة المائدة ، محاولة إقناع الجميع بأن الحفل مازال مستمرا . وتتناول فى الظلام قطعة كبيرة من السمك ، فتقف فى حلقها شوكة كبيرة ، وتحاول عبثا أن تستغيث ، ولا مجيب لصرخاتها المكتومة وسط ضوضاء الغارة وجو الذعر المسيطر على الجميع .

ويعود الضيوف إلى غرفة المائدة بعد إنتهاء الغارة ، ليجدوا مضيفتهم قد ماتت مختنقة .

يسافر صلاح بعد الجنازة إلى لندن ليكمل دراسته . وبعد عام حصل خلاله على الجنسية البريطانية ، يتلقى رسالة من أبيه ، يبشره فيها بأنه قد تزوج من سيدة أخرى اسمها أيضا "نسرين" ، أو "نسرين ٢" . ويرسل صلاح لأبيه رسالة مليئة بالغضب ، فيرد عليه بالتقريع على موقفه الطفولى ، ويهدده بحرمانه من الميراث ، وينبئه بأنه قرر أن يقطع عنه المصروف . ويرفض صلاح أن يرد على خطابات أبيه القليلة التالية ، التى نعرف منها أن الرجل بدأ يتجه اتجاها دينيا صوفيا ، تحت تأثير زوجته الجديدة .

وتمضى سنوات ، يكمل فيها صلاح دراسته ، معتمدا على نفسه ، بعد أن امتهن التمثيل الإذاعى ، مستغلا موهبته الفائقة فى تقليد الأصوات : فهو يستطيع أن يقلد جميع اللغات واللهجات بإتقان تام ، فضلا عن تقليد أصوات الحيوان والجمادات ، صوت زجاجة عصير طماطم ، أو قرقشة كيس من البطاطس المقلية أو سجادة متكلمة إلخ .. حتى أطلق عليه اسم "ذى الألف صوت" .

ونال نجاحا لا بأس به فى مجال الإعلانات الإذاعية .

ويتعرف على زميلة له فى نفس المهنة ، لها نفس الموهبة ، يهودية من أصل أرمنى ، اسمها "ميمى ميموليان" ، تقترح عليه أن يتزوجها ، ولكنه يرفض لأنها يهودية .

ويتعرف خلال هذه الفترة أيضا على حبه الأول "پاميلا لڤلانس" ، الإنجليزية البيضاء ذات الصوت الأجش ، التى يعلم بعد أن يتزوجها أن أبويها كانا قد ماتا منتحرين من فوق عمارة شاهقة فى لندن ، بسبب غرقهما فى ديون القمار ، وهى على أبواب المراهقة ، مما أحدث شرخا عميقا فى شخصيتها ، وشعورا دائما بالإحباط ، وبأن الناس يأخذون منها ولا يعطونها ، حتى أنها رفضت أن تدخل الجامعة والتحقت بوظيفة كتابية .

ويفشل صلاح وپاميلا فى الإنجاب ، بسبب عيب فى "كروموسوماته" ، أى التركيب الداخلى لخلايا الإنجاب عنده ، وتفتر العلاقة بينهما ، خاصة وأن پاميلا قد اقتنعت بأنه لم يكن يحبها هى ، وإنما هو عاشق لإنجلترا نفسها ، التى لا يتصور أن يفارقها أو أن يحرمه شىء من الإقامة فيها .

وتسافر الفرقة المسرحية التى يعمل بها إلى بومباى ، بعد أن بلغ الأربعين ، فيسافر معها حيث يقوم بدور الطبيب الهندى فى مسرحية "المليونيرة" لبرناردشو .

وفى أقل من ٤٨ ساعة من وصوله إلى بومباى ، يلتقى بإحدى صديقات صباه "زينات وكيل" ، ويتذاكران أيام الصبا ، حينما كانت زينات تتزين وتذهب إلى حى البغايا ، متظاهرة بأنها منهن ، لكى تغيظ القوادين حتى يطردوها من الحى . وهى الآن امرأة جميلة غير متزوجة ، فى الخامسة والثلاثين ، طبيبة ، مثقفة ، تعمل فى مستشفى فى بومباى ، بالإضافة إلى المقالات التى تكتبها فى النقد الفنى ، والكتب السياسية التى تؤلفها عن مشكلة الهنود

المغتربين في مشارق الأرض ومغاربها ، وانضمامها إلى جماعة من الماركسيين التروتسكيين .

وتتوثق العلاقة بينهما ، حتى يكادان لا يفترقان طيلة إقامته فى بومباى ، وهى دائمة السخرية من تشبهه بالإنجليز ، وتسمى طريقة تفكيره "عقلية العبيد" ، وتؤكد له أنه سيكون دائما فى نظرهم ـ إنسانا من منزلة أدنى ـ وتصحبه فى رحلات سياحية ، مع شلة من أصدقائها من أهل الفن والمثقفين والماركسيين ، حيث تدور بينهم مناقشات حول واجب الإنسان نحو قومه ، وضرورة شعوره بالانتماء إليهم والإحساس بمشاكلهم ، مهما باعدت بينهم المسافات . ويحاولون إقناعه بالعودة إلى الهند ، مشيرين إلى النجاح الهائل الذى وصل إليه "فاريشتا" ، والذى يستطيع صلاح أن يكون النجم التالى له فى الشهرة .

ويذهب صلاح وزينات لزيارة أبيه فى البيت القديم فى "نقطة الفضائح" . وكان أبوه منذ زواجه الثانى قد انتقل إلى شقة فى عمارة بأحد الأحياء الجديدة فى بومباى ، ولكنه فى نفس الوقت احتفظ بالبيت القديم كما كان قبل وفاة زوجته الأولى أم صلاح ، يذهب إليه ليقضى فيه ـ وحده ـ يومي العطلة من كل أسبوع .

وعند دخول صلاح إلى المنزل ، يفاجأ بوجود امرأة هى صورة طبق الأصل من أمه المتوفاة . ويتضح أنها خادم قديمة عندهم اسمها "كاستوربا" ، اتخذها والده عشيقة له ، وألبسها ثياب زوجته الأولى ، وجعلها تقيم فى البيت القديم ، حيث يذهب إليها يومين من كل أسبوع ، فى حضور زوجها الخادم القديم عندهم أيضا ، الذى أغراه سيده بأن يتزوجها على هذا الشرط ، ليكون ستارا لعلاقتهما .

ويثور صلاح غاضبا لذكرى أمه ، ولكن أباه يهزأ بغضبه ، ويغازل الخادم غزلا مفضوحا أمام ابنه وزوج عشيقته إمعانا فى

إخضاع صلاح وإهانته . ويثور جدال بين الأب والإبن - تنضم فيه زينات إلى جانب الأب ، ثم تتطور إلى مغازلته هى الأخرى ، وتقرر أن تهجر الإبن لتبقى مع الأب فى المنزل القديم ، عشيقة ثانية ، إلى جانب صورة - أو شبح - أم صلاح .

ويخرج صلاح غاضبا من إهانات أبيه وخيانة صديقته ، وقد عقد العزم على ألا يرى أباه مرة أخرى ، وأن يغادر الهند عائدا إلى إنجلترا بلا رجعة . ويقع نظره وهو خارج على شجرة الجوز التى ترمز لوجوده ، فيطلب من أبيه أن يقطعها ويبيع خشبها ، حيث لم يعد لها لزوم بعد الآن .

ويركب صلاح طائرة الخطوط الهندية المتجهة إلى لندن ، نفس الطائرة المنكوبة التى ركبها فاريشتا متنكرا ، متجها إلى لندن وراء فتاة أحلامه ، ملكة الثلوج ، آلى كوهين .

ويجلس بجوار صلاح راكب أمريكى الجنسية ، مبشر عائد من رحلة فى الهند ، كان يلقى خلالها محاضرات ضد نظرية التطور . ويصر على أن يشرح لصلاح - رغم ملله من حديثه - عقيدته فى بطلان نظرية داروين التى تخالف العقل وتتناقض مع معتقداته الدينية ، متطرقا إلى التعارض بين العلم والدين ، واستحالة التوفيق بينهما .

ويلاحظ صلاح أن لهجته وصوته ، أثناء حديثه مع الركاب والمضيفات ، قد تأثرا بالفترة التى أقامها فى الهند ، فاكتسبا رنة ولكنة هندية ، فيحاول جاهدا العودة إلى اللكنة الإنجليزية الصميمة ، التى كان قد اكتسبها بالمران الشديد والتدريب القاسى .

وبعد أن تقلع الطائرة بقليل ، تعلن الجماعة الإرهابية التى اندست بين الركاب أنها مسيطرة على الطائرة . ويتبين أن الخاطفين جماعة من السيخ الكنديين ، اختطفوا الطائرة كجزء من

العمل السياسى من أجل قضية السيخ فى الهند . وهم خمسة : فتاة وأربعة رجال ، وهى قائدتهم المسيطرة عليهم ، والتى لا تقبل أى تنازلات ولا تتردد فى استخدام العنف .

ويجبر الخاطفون الطائرة على النزول فى مطار شبه مجهول ، فى مكان ما من شبه الجزيرة العربية ، فى واحة يسميها "واحة الزمزم" . وتدور المفاوضات بين الخاطفين والسلطات . وتطول حتى تبلغ عدة أيام . ثم يفرج الخاطفون عن بعض الركاب ، من بينهم النساء والأطفال ، ويحتفظون بخمسين راكبا بمثابة رهائن ، من بينهم صلاح ، وفاريشتا ، والمبشر الأمريكى .

ويحتج المبشر على احتجازه ضمن الرهائن ، فتضربه قائدة الجماعة بكعب بندقيتها على فكه وهو يصيح ، فتتكسر فكه وتقطع لسانه وتسقطه مغشيا عليه ، وتكون هذه الإصابة نفسها هى السبب فى نجاته ، فالإرهابيون غير مستعدين للعناية بجريح ، فينزلون المبشر من الطائرة ، حيا ولكن بلا لسان .

وتقف قائدة الجماعة أمام الركاب ، وتطلب منهم الانتباه . ثم تخلع ثوبها الوحيد لكي يروا بأعينهم أنها تحيط جسدها العارى بالديناميت ، جاهزة لتفجير نفسها والطائرة فى أى لحظة .

ويلتقى صلاح وفاريشتا لأول مرة ، ويتعارفان : فصلاح من ناحيته لا تخفى على فطنته شخصية فاريشتا الشهيرة ـ رغم تنكره ، وفاريشتا يعرف صلاح من العرض المنسرحى الذى قام به فى بومباى ، ومن أدواره الكثيرة فى الإعلانات . ويلاحظ صلاح أن فاريشتا أبخر الفم ، تفوح من أنفاسه رائحة كريهة ، ولكنه ينسى ذلك وسط الروائح الأخرى التى تفوح من الجميع .

ويرفض فاريشتا أن ينام ، وعندما يغلبه النوم تتراءى له أحلام أو كوابيس ، يهذى خلالها بكلام عن الملاك جبريل ، الذى يرى فاريشتا نفسه فى أحلامه ـ فى صورته . بينما تغلب على كلامه

وهو مستيقظ : فكرة التناسخ ، والموت ثم العودة إلى الحياة ، ضاربا المثل على ذلك بالمسيح ، والدالاى لاما ، وجوبيتر الإله الرومانى ، وفيشنو الإله الهندى الذى تناسخ فى صورة ثور ، ومكررا العبارة الأثيرة عند المؤلف : "من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولاً" .

بعد أن تطاول بقاء الطائرة فى ذلك المطار المنعزل حتى بلغ ١٠١ يوم ، قررت قائدة الإرهابيين أنه لا فائدة من استمرار المفاوضات والمماطلات ، وأرادت أن يثبتوا للسلطات أنهم جادون فى تهديداتهم بقتل الرهائن ، فقامت بقتل أحد الركاب وإلقائه من الطائرة ، رغم معارضة زملائها الرجال ، الذين يكرهون إراقة الدماء ، ويفضلون الحلول السلمية .

وترضخ السلطات لطلبات الإرهابيين ، فتسمح للطائرة بالإقلاع متجهة إلى لندن .

ويستبشر صلاح وهو يرى من نافذة الطائرة خط الساحل البريطانى ، مهنئا نفسه بالعودة إلى "العالم الحقيقى" ، إلى الثلوج البريطانية البيضاء الجميلة ، بعد رمال الصحراء العربية الصفراء الكريهة .

ولكن فرحته ـ كالعادة ـ لا تكتمل ، فتقوم معركة بين قائدة الأهاربيين المتعطشة للدماء وبين زملائها الراغبين فى المسالمة ، فتقتل القائدة أحدهم ، ثم تفجر الطائرة فى لحظة ، وهى على ارتفاع ٣٠ ألف قدم فوق البحر .

(وبين الإغماء والإفاقة ، يرى فاريشتا نفسه ، أو يتناسخ ، فى صورة الملاك جبريل ، فى الرؤيا الأولى ـ الباب الأول من الرسالة ـ التى يسميها المؤلف : ماهوند)

لنــدن « إيلوين ديووين »

لا ينجو من ركاب الطائرة إلا صلاح وفاريشتا ، إذ يهبطان بصورة ما ـ بغير مظلة ـ سالمين على أرض الساحل البريطانى . وكأنما كان هذا المهوى السحيق الذى سقطا فيه ، نفقا أو دهليزا طويلا أجريت عليهما فيه عملية تناسخ ، ماتا فيها ثم ولدا من جديد ، وانتقلت خلالها روحاهما إلى جسدين جديدين ، يشبهان جسديهما الأولين وإن كانا لا يماثلانهما بالضبط . فعلى سبيل المثال يختفي البَخَر (الرائحة الكريهة) من فاريشتا ويظهر عند صلاح ، وتتغير ملامح وجه صلاح البريئة إلى ملامح قاسية جامدة ، بالإضافة إلى اختلافات أخرى تظهر تدريجيا .

يفيق الرجلان فيجدان نفسيهما راقدين فوق الثلوج ، أمام منزل صغير على مشارف قرية ساحلية ، تقيم فيه امرأة إنجليزية وحيدة عجوز اسمها "روزا" ، فى الثامنة والثمانين من عمرها ، تعيش على ذكريات ماضيها مع زوجها الراحل ، وحياتهما معا عندما كانا فى الأرجنتين . وتعثر "روزا" على الرجلين بعد أن أفاقا ، فتأخذهما إلى بيتها . ويكون أول شيء يفعله صلاح أن يتصل بمنزله فى لندن . ولكنه بدل أن يسمع صوت زوجته "پاميلا" ، يرد عليه صوت رجل هندى آخر ، فيعرف أنها تخونه ، فينهى المكالمة معتذرا بأنها "نمرة غلط" ، وهو يلعن كل هندى على ظهر الأرض .

وبعد قليل يأتى رجال الشرطة ، وقد لاحظوا وجود شخص ملقى

على ثلوج الشاطىء ، مما يوحى بأنه متسلل يحاول الدخول إلى الأراضى البريطانية بغير تأشيرة دخول . ويلقون القبض على صلاح ، فيحاول عبثا إقناعهم بأنه إنجليزى الجنسية ، بريطانى "من الدرجة الأولى" ، ولكن وجهه الهندى ، ولهجته ذات اللكنة الهندية ، وأوراقه الضائعة ، كلها تكذّب ادعاءه . ويحاول الاستعانة بزميله فاريشتا ، ولكنه ـ وقد ارتدى ثوبا أنيقا من ثياب زوج "روزا" الراحل واتخذ سمت الجنتلمان المهذب ـ يرفض أن يشهد معه ، ويتركه لمصيره بين يدى رجال الشرطة الذين ينكّلون به ، وهو يلعن خيانة صديقه ، بعد خيانة زوجته .

وفى سيارة الشرطة ، تحدث تحولات فى جسد صلاح ، فتظهر له أظلاف بدل القدمين ، وينبت له قرنان على رأسه ، ويكتسى جسمه بشعر كثيف ، ويتحول صوته الذى كان ذا ألف لون ، إلى نغمة واحدة كمأمأة الماعز ـ وهى الصورة المتعارف عليها "للشيطان" فى الأساطير الغربية . وبين صفعات رجال الشرطة وركلاتهم ، ومعاملتهم له باعتباره "حيوانا" ، يجد نفسه يتبرز على أرض السيارة ، فيجبرونه على أن يأكل برازه وينظف السيارة التى لوثها . ثم يلقون به فى السجن ، بين الإهانات المستمرة والضرب المبرّح .

هذا بينما فاريشتا ـ على النقيض من ذلك ـ باق لبضعة أيام فى ضيافة العجوز "روزا" ، معززا مكرما ، مازالت معه أوراقه كاملة ، يحملها فى حزام حول وسطه ، مع النقود الإنجليزية الكثيرة التى كان قد اشتراها من السوق السوداء فى بومباى . وقد ظهرت حول رأسه ـ لا قرون مثل صلاح ـ بل هالة من النور ، مثل الهالات التى تحيط برءوس الملائكة ، كما يتصورهم الغربيون أيضا .

وتنتاب روزا موجة من المرح المفاجىء ، بمناسبة عيد ميلادها الثامن والثمانين ، فتشرب وتدخن وترقص مع فاريشتا حتى الصباح ـ وهى فى سنها هذا ـ ثم تسقط مريضة بعد هذا

المجهود ، وتموت بعد بضعة أيام ، وهى تهذى لفاريشتا عن ذكرياتها القديمة ، فتجعله يعيش فيها بخياله ، وكأنه مشارك فيها أو أحد أشخاصها . وبموت "روزا" ينتهى كل ما يربطه بذلك المنزل ، فيستقل القطار متجها إلى لندن - إلى آلى كوهين .

أما عن صلاح ، فإنه ينجح بعد لأى فى إقناع رجال شرطة الهجرة بالاحتكام إلى الكمبيوتر للتحقق من صحة كلامه ، ذاكراً لهم أسماء النقابات والجمعيات التى يتمتع بعضويتها ، ورقم سيارته إلخ .. ورغم التطابق بين بيانات الكمبيوتر والبيانات التى ذكرها ، ومع اقتناعهم بأنه بريطانى الجنسية وليس متسللا ، إلا أنه يظل فى نظرهم "واحداً من أولئك الأسيويين" ، مواطنا من الدرجة الثانية . وحتى لا تكشف الإصابات التى فى جسمه عن جريمتهم ، باعتدائهم على مواطن بريطانى دون وجه حق ، يقررون إيداعه فى مستشفى حكومى ، زاعمين أنه قد أصيب بسبب سقوطه على الثلوج ، لا من سوء معاملة الشرطة .

ويبقى فى المستشفى بضعة أيام ، يعانى خلالها أيضا من سوء المعاملة ، وقسوة الأطباء والممرضات عليه وعلى زملائه من المرضى المهاجرين المتسللين ، ومعاملة الأطباء له على أساس أنه مجنون أو مختلّ عقليا . فيهرب من المستشفى ويعود إلى لندن ، سيرا على الأقدام - بل على الأظلاف - متجنبا الطرق الرئيسية ، وقد تضاعف شعوره بالمرارة ، وسخطه على الوجود كله .

فى فترة غياب صلاح عن لندن ، تكون العلاقة قد توثقت بين زوجته وبين صديق عمره ورفيق صباه وشبابه وزميل دراسته "جامشيد جوشى" . وعندما طالت غيبته ، تطورت علاقتهما إلى علاقة غرامية ، وانتقل جامشيد ، أو "چمپى" ، ليقيم مع پاميلا . وعندما تصلهما أنباء انفجار الطائرة ، تشعر پاميلا بالارتياح إلى تلك النهاية التى وضعها القدر لزواجهما الفاشل .

وتجيء المكالمة الهاتفية المبتورة التى أجراها صلاح من بيت

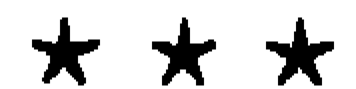
السيدة العجوز ، والتى تعرّف خلالها چمپى على صوت صلاح . فتضطر پاميلا للذهاب إلى المطار للتأكد من أن زوجها قد مات ، وهناك يبشرونها بأن الطائرة لم ينج منها أحد .

وبعد أسبوع يأتى صلاح إلى المنزل فجأة ، وهو فى حالة يرثى لها ، قد تلطخ وجهه وثيابه بالدم والوحل والثلج . ومع تأكدهما من شخصه بالرغم من قرونه وأظلافه إلخ ..، تصرخ پاميلا فى هستيريا ، مؤكدة أن زوجها قد مات ، وأن أحدا لم ينج من الطائرة ، وأنها أرملة صلاح لا زوجته .

فى نفس الوقت ، يكون فاريشتا قد وصل إلى لندن راكبا قطار الدرجة الأولى ، حيث التقى مصادفة براكب هندى آخر اسمه "جون مَسْلَمة" ، رجل ذى ست أصابع فى كل من قدميه . ويفضى فاريشتا إلى مسلمة بأنه يزمع أن يتولى إصلاح العالم بنفسه ، ويعلن له مسلمة أنه منضم إليه فى مهمته ، وأنه سيكتم سره عن الناس .

ويهيم فاريشتا فى أنفاق المترو بلندن على غير هدى ، يطارده شبح "ريخا" فى كل مكان ، ويؤرقه الشعور بأنه على وشك الجنون أو قد جن بالفعل ، وبأن الله يعاقبه بالجنون ، جزاء كفره به . وفى وسط هذه الرؤى والأوهام ، يلتقى ـ فى الحقيقة ـ بالفتاة التى غادر الهند وقطع كل هذه الرحلة ليقابلها : آلى كوهين .

(وفى هذا الموضع يدخل فاريشتا ـ وهو على صورة الملاك جبريل ـ فى الرؤيا الثانية من رؤاه التناسخية ، وهو الباب الثانى من الرسالة ؛ الذى يسميه المؤلف : عائشة) .



الفصل الثالث

مدينة تبصرها ولا تراها

يأخذ "چمپى" رفيق عمره صلاح ، بعد أن رفضت زوجته بقاءه فى المنزل ، إلى فندق صغير اسمه "فندق شامندار" ، تملكه أسرة مهاجرة صديقة لچمپى ، دفعتها حرب الانفصال بين بنجلاديش والباكستان إلى الهجرة . ونتعرف على أفراد هذه الأسرة : رب الأسرة "محمد سفيان" ، مسلم من السنّة ـ كما يدل عليه اسمه ـ حج بيت الله ، وكان مدرسا قبل أن يهاجر إلى إنجلترا ، واسع الاطلاع على الثقافة الكلاسيكية الغربية .

أما زوجته "هند" ، فهى سيدة بدينة قليلة الثقافة ، كانت مهارتها الفائقة فى فن الطهى هى طوق النجاة لها ولأسرتها بعد أن هاجروا ، فافتتحت مطعما صغيرا تقدم فيه أصناف الطعام الهندية التى لاقت إقبالا كبيرا من المهاجرين من أبناء شبه القارة الهندية ، بينما تحول سفيان من عائل الأسرة الوحيد ونجمها الثقافى اللامع إلى مجرد مساعد لزوجته ، واضطر إلى التخلى عن كثير من مبادىء الأمانة والشرف ، اللذين يقفان حائلا دون جمع المال ونجاح التجارة . وبعد أن راجت تجارتهما ، اشتريا العمارة التى بها المطعم ، وحوّلا أدوارها الثلاثة العليا إلى فندق .

وللأسرة ابنتان ؛ "ميشال" ، "أناهيتا" . كانتا طفلتين عندما هاجرت الأسرة . تتحدثان الإنجليزية كأهلها ، مع بقية من اللغة القديمة (الأوردية غالبا) ، التى تفهمانها جيدا ، ولكنهما ترفضان استخدامها فى الحديث . وتفضلان طريقة الحياة الإنجليزية على

العادات الهندية القديمة . وتشعر الأسرة بأنها تعيش في منفى لا في مهجر ، بين اضطهاد الغوغاء من الإنجليز من ناحية ، ومضايقات الملونين أنفسهم لبعضهم البعض من ناحية أخرى .

ويرحب سفيان بچمپی وصديقه صلاح ، فيستضيفه في إحدى غرف الفندق ، رغم حالته الرثة وهيئته الشيطانية ، ورغم اعتراض زوجته وتشاؤمها من دخول هذا الشيطان إلى بيتهم ، بينما يثير وجوده حب الاستطلاع لدى البنتين ، باعتباره شيئا مسليا يقطع الملل الذى تعيشان فيه . وتطمئن الأسرة صلاح بأنه قد أصبح فى أيد أمينة ، بين أهله وقومه . ولكنه بمجرد خروجهم من الغرفة ، يغمغم لنفسه : "لست منكم ، ولستم قومي . لقد عشت حياتى كلها أحاول الابتعاد عنكم" . ويتناول طعامهم على مضض ، باعتباره طعاما "أجنبياً" كريهاً ، لا كطعام "قومه" الإنجليز ، سادة العلم والتكنولوچيا . ويشعر بأن قرونه الطويلة هذه ، ليست علامة على تناسخه في صورة الشيطان فحسب ، وإنما هى أيضا رمز لخيانة زوجته مع أعز أصدقائه .

ويتصل صلاح تليفونيا بصديقته القديمة ، اليهودية الأرمنية ، ميمى ميموليان ، فتعتذر بأنها مسافرة إلى نيويورك ، مع صديق لها باكستانى لعوب اسمه "بطوطة" يحترف النصب والاحتيال ، حيث يقومان بعملية نصب يربحان من ورائها مبالغ طائلة .

ويتصل به مدير الفرقة المسرحية التى كان يعمل بها ، ليخبره بأن الفرقة قد استغنت عن خدماته ، نظرا لتناقص الإقبال على البرامج المسرحية والتليفزيونية الخاصة بالملونين . فحتى الملونون أنفسهم أصبحوا لا يحبون أن يروا وجها ملونا على الشاشة ، ويفضلون البرامج التى يمثلها ممثلون بيض ، وتدور عن حياة البيض . حتى الإعلانات ، إذا ظهر فيها وجه ملون ، انصرف المستهلكون عن شراء السلعة التى يعلن عنها . ويطلقون على هذه الظاهرة اسم "العم توم الأسمر" .

وتنشر الصحف أنباء نجاة "فاريشتا" من حادث الطائرة . ويعم الفرح الأسرة بنجاة نجمهم المحبوب . وبينما تأكل الغيرة قلب صلاح ، حسداً له على كل هذا النجاح وهذه المنزلة فى قلوب الناس ، تتناقل الصحف أنباء عودة "بطوطة" من نيويورك ، واتفاقه مع فاريشتا على انتاج فيلم جديد يصور (قصة الغرانيق) التى جعلها المؤلف موضوع الرؤيا التناسخية الأولى لفاريشتا . ثم يؤجل المشروع بسبب القبض على بطوطة فى عملية جديدة من عمليات النصب التى يقوم بها .

وتهرب "ميشال سفيان" مع شاب اسمه "حنيف جونسون" ، مولّد من أب إنجليزى وأم هندية ، يجذبها إليه بياض بشرته النسبى الذى ورثه عن أبيه ، بعد مشاحنة مع أمها ، تُرجع فيها هند سبب هذه اللعنة التى أصابت الأسرة إلى وجود الشيطان "صلاح" فى منزلهم .

وتكتشف پاميلا أنها حامل من چمپى ، وتقرر الاحتفاظ بالجنين ، بعد أن فشلت فى أن تنجب من زوجها صلاح .

وتنشر الصحف أنباء عن سفاح مجهول ، يقتل النساء ويمثل بجثثهن بصورة متكررة محددة فى كل مرة ، وكأنها توقيعه على الجريمة . ويحذر البوليس الناس بشكل خاص من الرجال الملونين الذين يشتبهون فى أن القاتل من بينهم . وتحاصر الكراهية فندق شامندار ، باعتباره أكبر ملتقى للملونين فى لندن ، والذى يقيم فيه "الشيطان" نفسه .

ويخرج صلاح وچمپى من الفندق ليعودا إلى منزل صلاح ، حيث يقيم ثلاثتهم تحت سقف واحد ، فقد سمحت الزوجة لزوجها ـ على مضض ـ بالإقامة فى غرفة منعزلة بسطح المنزل ، بعد أن أخذ يعود إلى هيأته الآدمية بالتدريج .

فى نفس تلك الفترة ، كان فاريشتا مقيما مع صديقته آلى ، وإن

كان دائم الشرود قليل النوم ، مستغرقا فى تأملاته الداخلية التى تختلط فيها الحقيقة بالمنام بالتناسخ . وكان يخرج هائما فى الشوارع بصورة غامضة ، وقد سيطرت عليه فكرة تطهير هذه المدينة من الدنس . حالة من الشيزوفرانيا (انفصام الشخصية) يعود بعدها فى كل مرة إلى البيت فى حالة يرثى لها من الإرهاق . وفى الصباح تعلن الصحف عن ضحية جديدة وجدت مقتولة وممزقة بنفس الطريقة ، مما يوحى بشكل غامض ، بأن فاريشتا - وليس صلاح - هو ذلك القاتل الذى يقتل النساء ليلا ، والذى تبحث عنه الشرطة . وتتعهده آلى بالرعاية ، رغم تحذيرات أمها لها من جنونه ، دون أن تدرى بما فعله فى فترات غيابه .

ويتفق مع منتج أفلام اسمه "سيسوديا" ، بالاشتراك مع بطوطة وصديقته ميمى ، بعد الإفراج عن بطوطة لعدم كفاية الأدلة ، على إنتاج ثلاثة أفلام جديدة ، مبنية على القصص أو الرؤى الثلاث التى ترويها فصول "الرسالة" ، تحت اسم : جبريل فى مدينة جاهلية ، جبريل يقابل الإمام ، جبريل مع فتاة الفراشات ، والتى سيقوم فيها فاريشتا بدور الملاك جبريل .

وفى ليلة الافتتاح ، وسط مظاهرة دعائية كبيرة كان المفروض أن يكون فاريشتا نجمها الأول ، يهرب فجأة ، ويختفى دون أن يعرف أحد أين ذهب .

(وفى هذا الموضع ، يدخل فاريشتا فى الرؤيا الثالثة من رؤاه التناسخية ، وهو الباب الثالث من الرسالة ، ويسميه المؤلف : العودة إلى "جاهلية") .

الفصل الرابع :

الملاك عزرائيل

في هذا الفصل يحاول صلاح العودة بالتدريج إلى حياته العادية . وهو ما يزال يعيش - في استسلام "ملائكي" - لعلاقة زوجته بصديقه ، لدرجة أنه يتطوع للإصلاح بينهما عندما يدب بينهما الخلاف . وتحدثه نفسه بتدبير طريقة للانتقام من عدوه الأكبر - فاريشتا . ويصفه بينه وبين نفسه بأنه "قاهر لندن" الذي نجح في كل ما فشل فيه صلاح ، مقارنا بينه وبين نفسه ، وهو الذي فعل كل شيء لكي ينتمي إلى هذه المدينة ، بينما ظل الآخر محتفظا بهويته ، متمسكا بأصله ، إنسانا "غير مترجَم" .

وتقبض الشرطة على رجل أسود من أصل إفريقي : "أهورو سيمبا" ، وتوجه إليه الاتهام بأنه القاتل السفاح . ويشترك صلاح في اجتماع عقده الملونون على اختلاف أصولهم ، للدفاع عن "سيمبا" ؛ الذي تركزت حوله قضية الصراع بين البيض والملونين .

ويدعى كل من صلاح وفاريشتا إلى حفل يقيمه بطوطة وصديقته ميمي ، احتفالا بعودتهما بعد الإفراج عنهما . ويلتقي صلاح بفاريشتا في الحفل ، وينشأ بينهما نوع من الصداقة ، أحد جانبيه الإخلاص وحسن النية من ناحية فاريشتا ، وجانبه الآخر إضمار العداوة والانتقام من ناحية صلاح . ويحكي صلاح لفاريشتا حكاية خيانة صديقه له مع زوجته پاميلا ، فيقرر فاريشتا الانتقام من

جمبى ، باعتباره عنصراً شريراً من عناصر الفساد فى هذه المدينة الدنسة . ويختفى فاريشتا فجأة ـ كالعادة ، ثم يعثرون على جمبى مصابا بإصابات بالغة ، وهو بين الحياة والموت ، بعد أن حاول "مجهول" قتله .

وفى أحد الأيام ، يخرج صلاح وفاريشتا للنزهة فى ضواحى لندن ، ويحكى فاريشتا لصلاح عن مقدار حبه لآلى كوهين . ويتطرق إلى ذكر تفاصيل دقيقة عن علاقتهما وأسرارهما الخاصة ، فيختزن صلاح هذه التفاصيل فى ذاكرته ، لكى يستطيع استخدامها فى الانتقام من فاريشتا .

وينفذ صلاح خطته الانتقامية ، فيلاحق كلا من فاريشتا وآلى ـ على مدى ثلاثة أسابيع ـ بمكالمات هاتفية مجهولة ، مستغلا مقدرته الفائقة على تقليد الأصوات واصطناع اللهجات ، فيحطم أعصاب آلى بالحديث عن تفاصيل حياتها الخاصة ، ويثير جنون الغيرة عند فاريشتا ، متظاهرا فى كل مكالمة بأنه عاشق جديد لها ، من بين عشاقها الكثيرين .

وتؤتى هذه الخطة ثمارها ، فيغادر فاريشتا منزل آلى ، التى يرى فيها صورة مجسمة لإلهة الشر والخطيئة ، بعد أن يحطم فى غيابها كل التحف والتذكارات والتماثيل والجوائز التى تعتز بها وتعتبر المساس بها جريمة لا تغتفر . وتعود آلى لتجد بيتها وتذكاراتها على تلك الحالة فتقرر قطع علاقتها بفاريشتا إلى الأبد .

ويتوجه فاريشتا إلى متجر للأدوات الموسيقية ، يملكه جون مسلمة ، ذو الأصابع الست ، رفيق القطار فى رحلته إلى لندن . ويشترى منه مزمارا يحمله فى جيبه ، ويخرجه من حين لآخر ، نافخا فيه ، معلنا للمارة فى الشوارع أنه مَلَك الموت عزرائيل ، جاء ليحصد أرواح البشر .

ويموت المتهم الأسود "سيمبا" فى السجن . وتلفق الشرطة قصة واهية عن وقوعه من فوق السرير وهو نائم ، مما أدى إلى وفاته على الفور . ولكن أحداً لا يصدق هذه القصة ، ويسرى بين

الملونين اعتقاد أكيد بأن الشرطة قد قتلته عمدا ، لكى تخفى عجزها عن إثبات التهمة عليه . ويعزون اضطهاد الدولة له ، إلى مواقفه السابقة ، المناصرة للقذافى والخمينى ، بينما تستمر جرائم القتل بنفس الأسلوب ، مؤكدة أن القاتل مازال حيا طليقا .

وتتصاعد حمّى الكراهية بين البيض والملونين ، إلى أن جاء يوم توجهت فيه مظاهرة من الغوغاء إلى فندق آل سفيان ، فحطمته وأضرمت فيه النار . وفى تلك الساعة بالذات ، يكون كل من صلاح وفاريشتا متجهين ـ بالصدفة ـ إلى الفندق ، حيث تلتقى عيونهما المذعورة لحظة خاطفة ، تكون هى الكافية لكى يدرك فاريشتا فجأة ، أن صلاح ، صاحب الألف صوت ، هو صاحب المكالمات الهاتفية . ويطارده لينتقم منه ، ولكنه قبل أن يصل إليه ، تسقط على صلاح ـ فجأة ـ قطعة كبيرة من الخشب المشتعل ، فتكسر ذراعيه وتثبته إلى الأرض عاجزا عن الحركة ، مهددا بالموت حرقا . وفى هذه اللحظة ، يتقدم فاريشتا ، لا ليجهز على صلاح كما كان ينوى ، بل ليرفع الخشبة من فوقه ، وينقذ حياته فى شهامة "ملائكية" ، معلنا انتصار الحب والمغفرة ، والعفو عند المقدرة .

ويموت صاحبا الفندق ـ سفيان وزوجته هند ـ محترقين ، بينما تنجو ابنتاهما اللتان كانتا خارج المنزل .

ويموت أيضا جمبى وپاميلا ، حيث تعقّبتهما عصابة من الغوغاء البيض ، وهما ذاهبان متسللان ليلا إلى المكتب الذى تعمل فيه پاميلا ، لتصوير مستندات هامة تثبت براءة المتهم القتيل سيمبا . فتحرق العصابة المكتب والعاشقين والمستندات جميعا .

(وفى هذا الموضع ، يدخل فاريشتا فى بقية رؤياه التناسخية الرابعة ، الباب الرابع والأخير من الرسالة ، الذى يسميه المؤلف : انشقاق البحر العربى) .

الفصل الخامس :

المصباح العجيب

بعد نجاة صلاح من حادث الفندق بعام ونصف ، تصله برقية من زوجة أبيه ، بأن أباه على فراش الموت . فينقلب لديه شعور الكراهية الأزلى إلى إشفاق على أبيه ؛ ويكتشف فجأة أنه يحبه رغم كل شىء ، فيسافر متوجها إلى بومباى .

وفى الطائرة تطالعه الصحف الهندية بالوجه القبيح الذى لا يرى غيره لوطنه ، أنباء عن مذبحة للمسلمين ، وصور للافتات التى علقها الهندوس على أحد المساجد إلخ .. وحتى إعلانات الزواج لا يرى منها إلا تباهى الآباء المعلنين عن بناتهم ، بأنهن "قمحيات" ذوات سمرة فاتحة ، تعاليا على الأغلبية الداكنة السمرة .

ويصل إلى المنزل القديم ، ليجد فى استقباله كلا من زوجة أبيه الثانية التى تحمل اسم أمه ، وعشيقته الخادم القديمة التى تحمل ملامحها وترتدى ثيابها ، وهما تتعاونان فى العناية بالرجل المريض . ويجتمع الإبن وزوجة الأب وعشيقته على فراش الرجل المشرف على الموت ، فى مودة خالصة ووئام عائلى تام .

وتفشل محاولات صلاح المستميتة فى إنقاذ أبيه من السرطان الذى استشرى فى جسده ، فيموت وهو يؤكد لولده أنه لم يكن قط مؤمنا بشىء ، وأنه ليست لديه أى "أوهام" عن العالم الآخر .

ويرث صلاح عن أبيه ثلث ثروته ، التى أوصى بثلثيها الآخرين إلى زوجته وعشيقته بالتساوى ، ولم ينس أن يضع فى نصيب

صلاح مقلبا جديدا من مقالبه التى اعتاد أن يوقعه فيها ، عبارة عن عقار قديم مثقل بمطالبات الضرائب وغيرها ، وأن يجعل قبوله لذلك المبنى شرطا لحصوله على بقية نصيبه من التركة .

ويرث أيضا عن أبيه مصباحه القديم الذى يشبه مصباح علاء الدين ، فيلمسه لأول مرة ، ويحكه وهو يطلب أمنية واحدة ، أن يرى زينات وكيل ، صاحبته القديمة . فتظهر زينات فجأة وكأنها خرجت من المصباح ، ويعاودان علاقتهما القديمة . وتستمر زينات فى محاولات إقناعه بالبقاء فى الهند ، وأن يعود إلى انتمائه الحقيقى ، وأن يحس بمشاكل شعبه وآلامه ، وأن يشترك معها فى نشاطها السياسى ، فضلا عن الاهتمام بثروته الموروثة ، التى أعفته من العمل الشاق بأجر قليل ، فى بلاد الناس .

أما عن فاريشتا ، فقد عاد هو أيضا إلى الهند ، بعد أن فشل فيلماه الأخيران عن "انشقاق البحر العربى" ، و"ماهوند" ، وبعد انطفاء شهرته وأفول نجمه فى عالم السينما .

وتذهب آلى كوهين إلى الهند ، لتقوم بمحاولة إعجازية جديدة لتسلق قمة ايفرست ، تفوق كل محاولاتها السابقة ، حيث تحاول أن تصعد القمة الأخيرة للجبل وحدها ، دون رفيق أو مساعد . ويصاحبها فى رحلتها إلى الهند ، المنتج السينمائى "سوسيديا" ، الذى توثقت علاقتها به بعد انفصالها عن فاريشتا .

ويقتل فاريشتا آلى وصديقها ، بإلقائهما من فوق تلك العمارة الشاهقة "ايفرست" ، من نفس المكان الذى كانت قد انتحرت منه "ريخا" حزنا على فاريشتا ، بعد أن ألقت بأولادها الثلاثة .

ويهرب فاريشتا من مطاردة الشرطة ، ويذهب إلى صلاح فى بيته القديم ، حيث يؤكد له أنه لم يقتل آلى وصديقها ، وإنما قتلتهما "ريخا" ، أو شبحها الذى يركب البساط الطائر .

وتنتهى القصة بانتحار فاريشتا أمام صلاح وزينات ، بمسدس كان قد أخفاه - فى غفلة من صلاح - داخل المصباح السحرى .

تقييم الرواية

قبل أن نتطرق إلى عرض أبواب "الرسالة" ، أستأذن القارىء فى أن نتوقف قليلا لنلقى نظرة على الرواية من جانبيها الفنى والموضوعى :

القيمة الفنية :

القيمة الفنية للرواية ـ خلافا لما أشيع عنها فى بعض أوساطنا الأدبية ، قيمة زهيدة لا تدخلها ضمن الأعمال الكبيرة أو الجيدة أو حتى فوق المتوسطة . وليس هذا رأيى وحدى ، بل قد وجدت عليه إجماعا ممن عرفتهم من قارئى هذا الكتاب ، وكلهم من دارسى الأدب ومتذوقيه ونقاده الجادين .

فبناء القصة ـ كما يرى القارىء ـ شديد التعقيد ، ملىء بالفواجع والكوارث والمفاجآت المفتعلة جميعها ، مما ينبىء عن قلة حيلة الكاتب ، ولجوئه إلى الصدمات المتكررة المبالغ فيها ، لإثارة اهتمام القارىء أو استثارة مشاعره .

كما أن نسيجها الدرامى الأساسى مهلهل ، وخاصة فى الموقف الرئيسى ، موقف الصراع النهائى بين بطلى القصة . فالموقف برمّته عالة على قصة عطيل الشكسبيرية المعروفة ، مع فارق شاسع بين معالجة شكسبير المنطقية التى تتطور فيها الأحداث مع تطور الموقف النفسى لبطل الرواية ، وبين معالجة رشدى المفتعلة المبتورة .

ففى عطيل شكسبير ، يتطور موقف عطيل النفسى فى تصاعد تدريجى من الثقة المطلقة فى حبيبته "ديدمونة" ، إلى التكذيب العنيف لدسيسة "ياجو" ، إلى الشك فى احتمال صحة ادعائه بخيانتها ، إلى التحقيق مع ديدمونة بسؤالها عن المنديل إلخ ..

إلى غلبة الشك على الثقة ، إلى اليقين الكامل بخيانتها مع بقية من حب وإشفاق نحوها ، إلى الكراهية المطلقة والإدانة الكاملة ، إلى تحديد العقوبة وتوقيعها . تصاعد تدريجي منطقي يتمشى مع طبيعة النفس البشرية وطبيعة الشخصية التى يعرضها .

أما فى عطيل رشدى ، فنرى فاريشتا ينقلب فجأة من الحب الجارف والثقة المطلقة إلى الكراهية المطلقة والرغبة فى الانتقام ، دون مرور حتى بمرحلة التحقيق أو الارتياب فى صحة الوقيعة التليفونية المجهولة .

كما أن الفارق بين النهايتين هو الفرق بين الكاتب العملاق الذى يترك شخصياته تتصرف وكأنها تتحرك وحدها بغير إرادة منه ، بما يمليه عليها تكوينها وتصاعد الموقف الذى تواجهه ، وبين الكاتب القصير القامة الذى يتدخل لتحريك شخصياته لخدمة الرأى والموقف الذى يتبناه . ففى عطيل شكسبير ، يقتل عطيل ديدمونة ، بعد أن أيقن بخيانتها بناء على أدلة لا تقبل الشك ، ثم يكتشف خيانة ياجو ، والدسيسة التى دفعه بها إلى قتل أحب الناس إلى قلبه ، ودوافعه النفسية من الحسد إلخ .. التى دفعته إلى حبك خيوط هذه المكيدة ، فيحاكمه أيضا محاكمة قاسية ينتهى منها إلى اعتباره المجرم الحقيقى المستحق للعقاب ، فيقتله ، ثم يحاكم نفسه ثالثا - على ما وقع فيه من دسيسة هذا الخائن ، ويندم على تسرعه بقتل حبيبته ، ويعاقب نفسه على ذلك بالموت .

أما عطيل رشدى ، فإنه يعاقب حبيبته عقابا لا يصل إلى القتل ، بعد دسيسة هزيلة غير مقنعة ، ثم يكتشف خيانة ياجو "صلاح". بطريقة هزيلة أيضا وغير مقنعة ، فينوى - ينوى فقط - أن يقتله عقابا على خيانته . ولكن المصادفة البحتة توقع ياجو فى براثن الموت ، فيهب عطيل لإنقاذه بدل أن يجهز عليه . وهو موقف غير مبرر ، خاصة من جانب هذا الشخص المتهوس المتعطش إلى الدماء ، الذى لا يتردد فى قتل أناس لم يؤذوه هو شخصيا فى

شيء ، لمجرد الرغبة فى تطهير العالم من شرهم ، فما بالك بمن كان السبب فى الوقيعة بينه وبين حبيبة عمره .

ثم يفاجأ القارىء بنفس هذا العطيل ، بعد ان اكتشف أن حبيبته كانت ، كما كان هو نفسه ، ضحية بريئة لدسيسة شيطانية ، يفاجأ به يقتل حبيبته بغير سبب مفهوم ، بعد عام ونصف من القطيعة بينهما ، لم يحاول خلالها الاعتذار لها أو توضيح موقفه أمامها .

ثم يفاجأ به مرة أخرى ، يقف أمام ياجو "صلاح" ، وفى يده مسدس محشو أخفاه فى المصباح . ويخرج هذا المسدس ، وبدلا من أن يقتل غريمه الحقيقى ، السبب الأصلى فى هذا المأساة ، إذا به يقتل نفسه تحت أقدامه ! نهاية مفتعلة ليس المقصود بها التطور الدرامى المنطقى ، المتوقع من شخصيات حقيقية حية ، بل المقصود هو وضع نهاية عقابية ، تعبيرا عن إدانة الكاتب لموقف فاريشتا طوال الرواية ، بينما يبقى صلاح حيا ، تأكيدا لانتصار وجهة النظر التى يمثلها .

فالكاتب يستخدم النهايات التى يختارها لشخصيات روايته ، كوسيلة لتوقيع العقوبة المناسبة على هذه الشخصيات ، دون نظر إلى البناء الدرامى للرواية . فهو مثلا يعاقب المبشر الأمريكى الذى يثرثر مهاجما لنظرية داروين ، يعاقبه بقطع لسانه ، لسانه فقط .. الذى يثرثر به . ويعاقب باميلا وصديقها جمبى على خيانتهما لصلاح بالموت حرقا لأسباب خارجة تماما عن سياق القصة . ثم يعاقب صاحبة الفندق وزوجها بعقوبة الحرق أيضا ، لا لجريمة ارتكباها ، وإنما لأن اسميهما هما : هند ، وسفيان ، أبغض الأسماء إلى قلب المؤلف . فهو لا يعنى إحراق جسديهما ، وإنما يتشفى بإحراق هذين الاسمين ، وهكذا .

المحتوى الموضوعى للرواية :

موضوع الرواية ، وهو ما يهمنا بالدرجة الأولى منها ، أهو

الإنسان الشرقى ، والمسلم على وجه الخصوص ، الذى وجد نفسه فى مواجهة مباشرة مع المجتمعات الأوروبية الحديثة . ولهذا الموضوع جانبان ، أو قضيتان ، القضية الأولى هى موقف هذا المجتمع الجديد الذى يعيش فيه من الفرد أو الأسرة الصغيرة التى انضمت إليه ، والقضية الثانية هى موقف الإنسان نفسه مع المجتمع الجديد .

أما بالنسبة للقضية الأولى ، فمن الإنصاف أن نقول إن الكاتب قد أجاد التعبير عن هذه القضية ، ونقل إلى القارىء صورة جديدة عن أحوال الملونين فى انجلترا ، وتصاعد المشكلة العنصرية فيها ، والمشاكل التى يعيشها أبناء شبه القارة الهندية بالذات . وإن كان من الصعب الحكم على صحة التفاصيل التى يرويها ، خاصة وأن المؤلف نفسه طرف من أطراف القضية ، إلا أن الصورة العامة تبدو جيدة ، والتعبير الذى يعبر به عنها تعبير قوى وعادل ، وخاصة الصورة الكاريكاتيرية التى رسمها عن اضطهاد الدولة للمهاجر المتسلل عبر الحدود ، أو من يشتبه فى تسلله ، ومعاملته باعتباره شيطانا فى صورة إنسان ، بل حتى فى صورة حيوان أعجم ، لا يستحق أقل قدر من الرحمة أو العدالة أو حتى الإنصات إلى دفاعه عن نفسه .

وقد بدأت المشكلة العنصرية تتصاعد فى إنجلترا منذ السنوات التالية للحرب العالمية الثانية مباشرة ، مع تزايد هجرة الآسيويين من بلدان الكمنولث البريطانى والمستعمرات السابقة التى أخذت فى الانفصال عن الإمبراطورية التى كانت الشمس لا تغيب عنها ، بحثا عن فرص العمل وإمكانيات الرخاء . ثم تصاعدت بشكل سريع حاسم فى أواخر الستينيات ، حين أخذت الحكومة البريطانية تقيم العراقيل فى وجه المهاجرين إلى "البلد الأم" ، والذين كانوا يحملون جوازات سفر بريطانية باعتبارهم رعايا بريطانيين أو مواطنين فى دول الكمنولث .

ووصلت الأزمة إلى أقصاها عندما حددت الحكومة البريطانية

موعدا أقصى ، يصبح بعده جواز السفر البريطاني الذي يحمله مواطنو الكمنولث لاغيا ، إلا لمن يكون ـ قبل ذلك الموعد الأقصى ـ مقيما بالفعل في بريطانيا . وتزاحم المهاجرون يملأون المطارات والموانىء ، ويستخدمون كل الطرق الممكنة ليدخلوا إلى بريطانيا قبل أن تصبح جوازات سفرهم لاغية . وكان أغلب أولئك المهاجرين من ذوي الأصول الآسيوية ، ومن شبه القارة الهندية بالذات ، ومن الذين كانوا يعيشون كمغتربين في بلاد القارة الإفريقية الوسطى والجنوبية ، تحت ظل جواز السفر البريطاني الذي يحملونه .

وقفز عدد الملونين المهاجرين في تلك الفترة من ربع مليون إلى مليون وربع ، تتركز أغلبيتهم الساحقة في المدن الكبرى ـ وخاصة لندن ، ويشكلون أزمات حادة في العمالة والإسكان إلخ .. وبدأت إنجلترا ، التي كانت تفخر على بلاد مثل الولايات المتحدة بأنها تخلو من المشكلة العنصرية ، تعاني من هذه المشكلة بكل ملامحها المعروفة ، من التفرقة في العمل وفي عضوية النقابات ، وكراهية العامّة للمهاجرين باعتبارهم مزاحمين لهم ـ بأجورهم الرخيصة ـ على فرص العمل ، واضطهاد أجهزة الدولة لهم باعتبارهم مصدراً للمشاكل ومثاراً للشكوك ، سواء في سلوكهم أو في شرعية دخولهم إلى البلاد ، ثم باعتبارهم أناسا من نوع أدنى .

ومن المعروف أن المؤلف ـ مثله مثل شخصية روايته الأولى صلاح ـ قد عاش هذه الفترة نفسها ـ الستينات ـ في بريطانيا ، وهي الفترة التي حصل فيها على الجنسية البريطانية ، قبيل قدوم طوفان المهاجرين ، ولذلك فقد أجاد وصف هذا الجانب ـ أو هذه القضية ـ من المشكلة .

أما القضية الأخرى ، قضية موقف الإنسان الشرقي ـ والمسلم خاصة ـ من الحضارة الأوروبية الغالبة ، فهي قضية سابقة على هذه المشكلة وأمثالها ، كما أنها لا تقتصر على المهاجرين إلى بريطانيا فقط ، ولا على المهاجرين إلى دول الغرب من ألمانيا إلى

أستراليا وحدهم ، وإنما هى تمس بدرجة أو بأخرى ، حتى الشرقيين الباقين فى بلادهم لم يبرحوها أو لم يهاجروا منها . ولا شك أن زيادة الاحتكاك بين الجانبين بشتى صور الاحتكاك كان له أثر كبير على احتدام هذه المشكلة ، ولكنها أقدم من هذه الأحداث المعاصرة ، يمكن أن نؤرخ لبدايتها بصورة تقريبية ، وبالنسبة للبلاد العربية وبلاد الشرق الأوسط خاصة ، بالحملة الفرنسية على مصر فى أواخر القرن الثامن عشر .

ومنذ ذلك الحين ، اتخذت هذه القضية صورا متعددة للتعبير عن الحيرة التى يقع فيها الإنسان الشرقى ، بين انبهاره بالنتائج المادية للحضارة الغربية ، وبين رفضه للقيم الاجتماعية والأخلاقية المصاحبة لهذا التقدم ، والتى لا يمكن فصلها فصلا تاما عنه . وتردده بين الانصهار الكلى فى الحضارة الجديدة ، والانتماء إليها انتماء تاما ، وبين التمسك بقيمه التى يحملها معه من "البلد القديم" ، والتى من الإنصاف أيضا أن نقرر - بغير تعصب - أنه لم يجد لها بديلا مرضيا أو مقبولا لدى الحضارة الجديدة . فهى رغم اكتظاظها ماديا وعلميا ، جوفاء عجفاء من الناحية المعنوية ، وهذا هو التناقض الأساسى فيها .

وقد ظهرت كما قلنا صور كثيرة مختلفة ، تعبر عن مواقف متباينة ، من صور الكتابة الأدبية والتقريرية ، تناقش هذه القضية : ابتداء من الجبرتى ورفاعة الطهطاوى ، إلى طه حسين ويحيى حقى .. إلى حسين أحمد أمين وغيره من الكتاب المعاصرين ، تظهر فيها هذه القضية ، بصورة متزايدة ، باعتبارها أزمة مزمنة ، حتى أصبحت تمثل القسم الأكبر من هموم الإنسان الشرقى المعاصر ، والمثقف على وجه الخصوص .

ونعود إلى قصة سلمان رشدى ، فنجد أنه قد اختار للتعبير عن هذه الأزمة ، طريقة المعارضة ، أو المقابلة ، بين شخصيتين : كل منهما يتبنى موقفا هو النقيض المباشر لموقف الآخر ، فالأول

"صلاح" ، يتبنى موقف الانصهار التام فى الحضارة الغربية ، حتى قبل أن يغادر بلاده . يعتقد أن مستقبله الوحيد هو فى أن يصبح جزءاً لا يتجزأ من هذه الحضارة ، بتقدمها العلمي والتقنى والفنى ، وأيضا بكل ما فيها من انحلال أخلاقى وتفسّخ اجتماعى . وكلّ ما يطلبه من الدنيا ، أن ينسى الناس فى إنجلترا ـ أرض أحلامه ـ سواد وجهه وملامحه الهندية ، وأن يعتبروه بصورة ما ، رجلا أبيض . فهو وإن لم يكن أبيض بلونه ، إلا أنه أبيض مثلهم تماما ، بفكره وثقافته ولغته ، وتسامحه الأخلاقى ، وتنازله ـ عن رضى ـ عن كل ما يربطه بالعالم القديم من مشابه أو أفكار أو قيم أو عقائد . أو فى كلمة : غراب أبيض!

(تحكي القصة القديمة أن غرابا تمنّى أن يصبح حمامة ، فطلى نفسه بطلاء أبيض ، وطار إلى برج الحمام ، وهو يغنى بصوت كالصرير ، يقلد به هديل الحمام . ولكن الحمام ضربه وطرده ، فعاد إلى جماعة الغربان ، ولكنهم أيضا أنكروا لونه الأجرب وصوته المزعج فطردوه من شجرتهم . فظل يتنقل بين برج الحمام وشجرة الغربان ، تضربه هذه بمناقيرها وتصفعه تلك بأجنحتها ، حتى مات .. ولم يحزن عليه أحد) .

وفى مقابل هذه الشخصية الغرابية ـ شخصية صلاح ـ يضع الكاتب شخصية مناقضة لها تماما ، إنسانا متهوساً بين الجنون والغيبوبة ، متعصبا يحمل مفاهيمه الدينية المهوّشة ، وأساطيره الخرافية الغائمة المتداخلة ، ويريد أن يفرضها فرضا على ذلك المجتمع الغربى ، شاهرا سيفه فى "دون كيشوتية" مجنونة ، ليطهر هذه المدينة الآثمة من الدنس .

حتى بناء هذه الشخصية المريضة نفسها ، يشوبه كثير من التناقض الذى حشره المؤلف حشرا ليزيد من كراهية القارىء له ، من إستمرائه لطريقة الحياة الغربية وانحلالها الأخلاقى فى ممارساته الشخصية ، سواء فى بومباى أو لندن ، وأكله لحم

الخنزير علنا ، وفقدانه إيمانه بالله بعد حادثة المستشفى ، ثم استرداده لهذا الإيمان بصورة متهوسة مجنونة .. خليط متناقض غير منطقي .

ومن الواضح أن المؤلف منحاز بشكل كامل إلى شخصية الغراب الأبيض وموقفه ، يميل بكل ثقله ، كمؤلف وصانع لهذه الشخصيات والأحداث ، إلى جانب هذه الشخصية ، إذ يضع فى مواجهتها شخصية المتعصب المتهوس ، وكأنها البديل الوحيد عن شخصية الغراب الأبيض ، متجاهلا الموقف الذى تتخذه الغالبية العظمي من المهاجرين من البلاد الشرقية والإسلامية إلى بلاد الغرب ، وهو موقف الائتلاف والتفاعل الكامل مع الجوانب المضيئة لتلك الحضارة ، مع التمسك بالقيم الأصلية والعقائد الصحيحة التى حملوها معهم قبل أن يهاجروا أو يهاجر آباؤهم ، لا من قبيل الاقتناع بتلك القيم والعقائد فحسب ، بل باعتبارها التعبير الوحيد الصحيح عن هويتهم وشخصيتهم فى تلك المجتمعات الجديدة .

وفى سبيل الدفاع عن الموقف المتطرف الذى يتبناه المؤلف ، يلقى أيضا بكل كراهية القارىء فى وجه المتهوس السفاح القاتل الخائن ، بينما يستدر عطف القارىء على الغراب الأبيض المسكين ، الضحية المظلومة ، الذى يعانى من أول لحظة ، من اضطهاد أبيه وسفالته ، ثم من خيانة صديقه واضطهاد الشرطة ، ثم من خيانة زوجته وصديقه إلخ ... وفوق ذلك يلقى المؤلف بثقل الرؤى التناسخية (موضوع الرسالة) فى ميزان المتهوس فاريشتا ، مع أن مكانها الطبيعى ، بما فيها من هجوم شرس على المعتقدات الإسلامية ، هو أن تكون جزءا من عقيدة الغراب الأبيض ، الكاره لقومه ولكل ما يربطه بهم ، لا من عقيدة المتعصب الذى يخرج بسيفه المسلول ليدافع عن دينه وقيمه الأصلية بطريقته .

والحقيقة أن انحياز الكاتب إلى شخصية "صلاح" فى القصة

هو انحياز إلى نفسه هو ، إلى شخصه هو ، وإلى الموقف الذى اختاره فى الحياة الفعلية . فصلاح ـ فى القصة ـ هو صورة مطابقة تماما لشخصية سلمان رشدى فى الواقع . فالمؤلف ـ مثل صلاح ـ مهاجر هندى من مواليد بومباى ، استقر فى إنجلترا منذ كان فى الرابعة عشرة ، منتم إلى أسرة مسلمة ـ أو تنتسب إلى الإسلام ، تعلم فى إنجلترا حتى حصل على شهادة جامعية من جامعة كامبريدج ، فى الأربعين من عمره تقريبا عند كتابة الرواية ، يتقن الإنجليزية كأهلها أو أفضل ، قدير فى نحت الكلمات واختراع التعابير المركبة فى تلك اللغة ، اشتغل بالتمثيل مدة ثم تركه بعد أن فشل فى أن يصبح ممثلا مشهورا ، ثم عمل فى وكالة للإعلانات ، وتزوج من سيدة إنجليزية بيضاء ، وعاش معها مدة لم ينجبا فيها أطفالا ، ثم انفصل عنها واتخذ له صاحبة أخرى : من بلاد العم سام ـ لا من الهند هذه المرة .

وهو فوق ذلك ، وقبل ذلك ، منتم بكل جوارحه وكل ثقافته إلى الفكر الغربى والمفاهيم الأوروبية ، حتى عن الإسلام نفسه ، وعن تاريخ المسلمين وعاداتهم ، يستمد معلوماته وأحكامه من كتابات الغربيين وأحكامهم . فهو فى الحقيقة غراب أبيض تام الغرابية . ولذلك كان من الطبيعى أن يتبنى ويتعاطف وينحاز بكل كيانه ، إلى موقف الغراب الأبيض فى صورته العصرية : صورة "سالادين شامشا" ، أو "صلاح الدين شمس الله" .

ولا يقتصر خطأ المؤلف ـ أو خطيئته ـ فى اختيار هذا الموقف الغرابى والدفاع عنه ، على الناحية الأخلاقية والمبدئية فقط ، وإنما هو اختيار خاطىء من الناحية العملية والمصلحية أيضا ، فهو لا يؤدى إلا إلى طريق مسدود ، لا مخرج منه ولا رجوع فيه . فالمسألة من الناحية العملية ليست متوقفة على قبول المغترب الشرقى للمفاهيم الغربية فحسب ، بل هى متوقفة بالدرجة الأولى على قبول الأغلبية البيضاء المسيحية للغرباء عنها فى اللون أو الدّين أو العنصر ، والتى تتخذ موقفا شديد التصلب والتعصب ـ

والتخلف فى الحقيقة ، من هذه الأقليات ، وخاصة فى بلاد الغرب المتقدمة مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا وكندا إلخ ..، تحاصرها كجسم غريب داخل كيان الأمة ، ولا تسمح لها أبدا بأكثر من مكان المواطن من الدرجة الثانية أو الثالثة ، مهما بلغت درجة ذلك المواطن من العلم أو الثقافة أو الثراء ، أو حتى الانتماء ، ومهما طال الزمن بالأجيال المتعاقبة من المغتربين . حتى لو غير دينه واعتنق المسيحية ، حتى لو أصبح قسيسا فى الكنيسة ، يظل أبدا كائنا غريبا منبوذا . وليست قضية القس ، القديس ، مارتن لوثركنج عنا ببعيد . كما أن مسألة الكنائس السوداء ، التى لا يسمح للملونين بالصلاة فى غيرها ، ليست خافية على أحد .

على عكس المجتمعات الشرقية والإسلامية خاصة ، التى تتميز بظاهرة "البوتقة" القادرة على صهر كل وافد عليها ، وهضمه واعتباره جزءا من جسم الأمة ، لا يلاحظ أحد ـ مجرد ملاحظة ـ أنه غريب عنها . ولاشك أن منشأ هذا التقليد هو أساساً فى الشعارات التى رفعها الإسلام من أول يوم ، والتى تعتبر الفيصل والمحك الوحيد للنظر إلى الإنسان كجزء من الجماعة ، هو بما يفعله وما يقوله ، لا بلون وجهه أو شكله أو أصله العنصرى .

والعنصرية البيضاء ليست موقفا مرحليا أو مؤقتا ، يرتبط بفترة زمنية معينة ، أو يتأثر بالنظم الاقتصادية والسياسية والطبقية ، أو يتوقف على إجراءات معينة كإجراءات إلغاء جواز السفر ، وإنما هى الدين الحقيقى للمجتمعات الغربية ، وهى الحقيقة الكبرى فيها . موقف ثابت متأصل فى نفوسهم ، اكتسبوه من تراث طويل من الآداب والأعمال الفكرية التى تعتبر الحضارة الحالية "حضارة الرجل الأبيض" ، وتلغى ، أو تحاول أن تلغى كل دور فيها للأمم الأخرى ، التى لا تنظر إليها إلا نظرة التحقير والاستهزاء . كما تحاول بالتالى أن تعتبر ثمار هذه الحضارة ملكا خالصا للرجل الأبيض ، ليس لغيره أن يشاركه فيها إلا بالقدر الذى يسمح له به .

فالمؤلف فى الحقيقة ، يجرى وراء وهم زائف ، ويضيع وقته عبثا فى طلاء ريشه الغرابى باللون الأبيض .. لكى يصبح حمامة .

البـاب الثانـى :

الرسالة

الرؤيا التناسخية الأولى :

ماهـونـد

تقديـم :

لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن هذا الباب من الرسالة ، هو بيت القصيد ، أو مربط الفرس ، من بين جميع أبواب الرسالة وفصول الرواية . ولا أشك لحظة فى أن الكاتب ، وإن كان قد دسه بين فصلين من فصول الرواية ، وكأنه جزء منهاً متمم لأحداثها ، إلا أنه كان ، هو والباب الثالث المكمل له "عودة إلى جاهلية" ، هما أول شيء سوّده من صفحات الكتاب كله . بل هما الهدف الأول أو الوحيد الذى حدا به إلى أن يمسك القلم ويبدأ فى تأليف الكتاب ، ثم جعل الأبواب الباقية من الرسالة ، وفصول الرواية جميعها "ديكورا" يحيط بهما ، ليحجب عن القارىء حقيقة قصده ، تحت ستار "سيكولوجيا الأحلام" وغيرها من الحجج والأعذار الواهية .

ونتوقف ـ قبل استعراضنا لموضوع هذا الباب ـ عند كلمتين استخدمهما المؤلف بكثرة . الأولى هى كلمة "ماهوند" التى جعلها عنوانا للباب واسما تنكريا لشخصية النبى صلوات الله وسلامه عليه ، والثانية هى كلمة "آيات" التى وضعها فى عنوان الكتاب ، واستخدمها أيضا بكثرة فى هذا الباب على وجه الخصوص . ونحن لا نتوقف عند هاتين الكلمتين لأهميتهما اللفظية ، وإنما لما نستدل عليه من اختياره لهما .

وكلمة "ماهوند". هى فى الأصل تحريف لاسم رسول الله "محمد" صلى الله عليه وسلم. بدأت قصتها عندما عجزت ألسنة الأوروبيين عن نطق حرف الحاء، فخففوا الكلمة إلى "ماهومت". ثم خطر لهم أن يقلبوا هذه الكلمة الأخيرة، التى لا تعنى شيئا فى لغاتهم، إلى لفظة قريبة منها، تحمل معنى التحقير والزراية على شخص الرسول الكريم، فحولوها إلى "ماهوند". وهى كلمة من مقطعين: أولهما "ما"، وهى ضمير للملكية فى الإنجليزية القديمة، وثانيهما "هوند"، وتعنى فى الألمانية "الكلب"، وفى الإنجليزية كلب الصيد على وجه الخصوص. أى أن الكلمة بمقطعيها تعنى عندهم ـ لعنهم الله ـ "كلبى".

وقد استخدمها على هذه الصورة وبهذا المعنى، الكثير من كتابهم المتعصبين الحاقدين على شخص النبى صلى الله عليه وسلم، ومن بينهم، على سبيل المثال، الكاتب الصليبى أسود القلب "والتر سكوت"، الذى فصّل معناها على هذا الوجه الذى ذكرته، فى رواية له مشهورة اسمها "الطلّسم"، بطلها صلاح الدين الأيوبى ("سالادين" عندهم) وموضوعها الحروب الصليبية.

ويعنينا فى هذا المجال، استخدام مؤلف الكتاب، المتسمى باسم عربى إسلامى، لهذه الكلمة، مع ما يبدو جليا من اطلاعه الواسع على الآداب الغربية والإنجليزية على وجه الخصوص، ومع معرفته للمعنى الحرفى لكلمة "محمد"، التى شرحها فى عبارة طويلة للقارىء الإنجليزى، ومع أنه فى موضع آخر ذكر الألفاظ الثلاثة متتالية متلاحقة "محمد، ماهومت، ماهوند"، مما يؤكد معرفته بقصة تطور هذه الكلمة على ألسنة كتاب الغرب وأقلامهم.

الكلمة الثانية: هى كلمة "آيات"، ويعنى بها آيات القرآن الكريم. والترجمة الإنجليزية المصطلح عليها هى كلمة VERSES، التى تعنى حرفيا: أبيات الشعر أو المقطوعات

الشعرية . وهى ترجمة ـ على شيوعها ـ خاطئة جدا . فالمعروف أن كلمة "آية" تعنى فى اللغة العربية : الدليل أو البرهان أو كل ماهو بديع من صنع الله سبحانه ، وليس لها علاقة بالشعر أو الأبيات الشعرية .

ولكن ، يبدو أن مستشرقا ما ـ فى زمن ما ـ عزّ عليه أن يترجمها بهذا المعنى الشريف إلى لغته ، أو حتى أن يتركها على حالها ويكتبها بالحروف اللاتينية كما ينطقها أصحابها ـ مثل كلمة "قرآن" مثلا ، فاختار لها هذا اللفظ المضلل ، الذى يسوّى بين الآية الشريفة من كلام الله ، وبين بيت الشعر الموزون المقفى من كلام البشر . ثم جرى استخدام هذه الترجمة السقيمة المغرضة فى الكتب الإنجليزية ، كلما ذكرت آيات القرآن الكريم .

وقد سقط سلمان رشدى ـ عن تعمّد أو عن غفلة ـ فى هذا الفخّ الاستشراقى ، فاستخدم نفس الكلمة للدلالة على الآيات القرآنية . وعلى أبيات الشعر جميعا . بل زاد على ذلك أن أجرى على لسان الشخصية التنكرية التى أراد بها الدلالة على الرسول الكريم قوله : إنه وإن لم يكن هو نفسه شاعرا ، إلا أنه ينطق "بالأبيات الشعرية" التى يوحى بها إليه الملاك جبريل ، فحقق المؤلف الهدف الذى أراده المستشرق القديم ، بالإيهام بأن القرآن لا يعدو أن يكون "أبياتا من الشعر" . مع أن من يعرف أقل القليل عن العربية أو الإسلام ، يعلم أن بناء الآية القرآنية ـ فضلا عن معانيها ـ لا يمتّ إلى بناء البيت من الشعر بأى صلة .

ومغالطات لفظية أخرى ابتدعها المؤلف ، ناسجا على منوال ذلك المستشرق القديم ، منها تسميته الإسلام بالإنجليزية "SUBMISSION" ومعناها الحرفي "الخضوع" . وشتان ما بين الكلمتين ، وإن تقاربتا فى المعنى تقاربا ظاهريا . شتان بين عِزّ التسليم والتفويض للخالق سبحانه ، وبين ما توحى به كلمة الخضوع من ذلّة وهزيمة وانكسار . ومنها ترجمته لمهنة النبى

صلى الله عليه وسلم قبل البعثة ، حيث يسميه "BUSINESSMAN" ومعناها الحرفي : "رجل أعمال" ، بما توحى به هذه الكلمة من معانى الطمع والانتهازية وعبادة المال والمساومة إلخ ... على عكس المعنى الأصلى "للتاجر" ، "والتجارة" بما تعنيه من معانى الشرف والأمانة والارتحال فى طلب الرزق . ومنها تسميته للكعبة المشرفة "معبد الحجر الأسود" ، ليوحى إلى القارىء أنها ضرب من المعابد الوثنية التى تعبد فيها الأحجار .

أردت بهذه الأمثلة فقط أن أبين للقارىء ما يفعله الكاتب المغرض ، عندما ينفرد بقارىء لا يعرف العربية أو لا يجيدها ، من التمويه بكلمات تبدو لأول وهلة ، وكأنها مرادفات للكلمات الحقيقية الدالة على المعانى الأصلية .

أما عن موضوع الباب ، فهو (قصة الغرانيق) المنسوبة إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

واستأذن القارىء فى أن أروى هذه القصة كما وردت فى كتب التراث العربى الإسلامى ، قبل أن نتطرق إلى الصورة التى حكاها بها صاحب الآيات - أو الأبيات - الشيطانية .

قصة الغرانيق فى التراث الإسلامى

تروى بعض كتب الحديث والتفسير والتاريخ الإسلامية هذه القصة ، رغم كذبها البين وتلفيقها الصريح - كما سنرى ، من باب أمانة النقل التى التزم بها علماء المسلمين . يرويها على سبيل المثال : أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تاريخه[١] ، والحافظ ابن كثير فى تفسيره الكبير[٢] ، ويشير إليها صاحب "لسان العرب" إشارة مقتضبة فى مادة "غرنق" (والغرانيق فى اللغة هى الحجارة البيضاء) .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك - الجزء الثانى - طبعة مؤسسة الأعلمى - بيروت ص ٧٥ إلى ٧٧

(٢) تفسير القرآن العظيم - الجزء الثالث - طبعة عيسى الحلبى - ص ٢٢٩ وما بعدها .

وسأروى هذه القصة ، كما رواها وعلق عليها الحافظ ابن كثير ، في تفسيره للآيات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ من سورة الحج : ابتداء من قوله تعالى **"وَمَا أَرْسَلْنَا مِنَ قَبْلِكَ مِنْ رسولٍ ولا نَبِيٍّ إلّا إذا تَمَنَّى أَلْقَى الشّيْطانُ فى أُمْنِيَّتِه .. إلى قوله تعالى .. إلى صِراطٍ مُسْتَقِيمْ"** .

يقول ابن كثير :

قد ذكر كثير من المفسرين ههنا قصة الغرانيق ، وما كان من رجوع كثير من المهاجرة إلى أرض الحبشة ، ظنا منهم أن مشركى قريش قد أسلموا . ولكنها (أى : الروايات) من طرق كلها مرسلة (أى : ينتهى إسنادها إلى احد التابعين دون أن يرفع الحديث إلى أحد الصحابة ، وجمهور العلماء لا يحتجون بمثل هذه الرواية) ولم أرها من وجه صحيح ، والله أعلم " (ما بين الأقواس من عندنا) .

ثم يورد عديدا من الروايات التى روت هذه القصة ، سننقل هنا واحدة منها ، رواها بإسناده عن سلسلة من الرواة تنتهى إلى سعيد ابن جبير :

"قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (سورة) النجم . فلما بلغ هذا الموضع : **"أَفَرَأَيْتُمُ اللاتَ والعُزّى ، وَمَناةَ الثّالثةَ الأُخرى"** ، قال : فألقى الشيطان على لسانه : **"تلك الغرانيقُ العُلى ، وإن شفاعَتَهُنّ تُرتَجى"** . قالوا (أى : المشركون) : ماذكر آلهتنا بخير قبل اليوم . فسجد وسجدوا . فأنزل الله عز وجل هذه الآية : "وما أرسلنا من قبلك من رسول .. الآية" .

وتختلف الروايات الأخرى التى رواها ابن كثير ، والطبرى ، عن هذه الرواية فى نقاط عديدة . فمنها ما يقول إن الشيطان ألقى بتلك الكلمات على لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها ما يقول : لا بل في أسماع المشركين . ومنها ما يورد تلك الكلمات الدخيلة

بصور مختلفة مثل : "تلك هى الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لهى التى ترتجى" . كما أن منها ما يشرح الظروف التى وقعت فيها هذه الحادثة المزعومة : من ضيق صدر النبى من أذى المشركين وتكذيبهم ، حتى كان يتمنى هداهم . ومنها ما يضيف إليها أن المهاجرين المسلمين فى بلاد الحبشة ، حين علموا بسجود المشركين وراء رسول الله ، استبشروا وظنوا أنهم آمنوا ، فعاد بعضهم إلى مكة المكرمة .

وقد فند علماء المسلمين هذه الروايات ، وكذبوها تكذيبا قاطعا ، ماعدا عالما واحدا هو ابن حجر العسقلانى الذى صدقها ، وعللها بعلل من بينها تعدد رواياتها . ولكى لا نتوقف عند نصف الحقيقة ، أورد هنا - باختصار - مقالا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، نشر فى مجلة المنار تحت عنوان "آيات سورة الحج والضلال فى تفسيرها" . وقد أعاد الشيخ محمد رشيد رضا - صاحب المنار - نشر المقال ضمن كتاب له فى تفسير الفاتحة وسور أخرى . والكتاب مطبوع فى عام ١٣٥٣ هـ (١٩٣٤ م) . وقد أطلعنى عليه أخى الأستاذ الدكتور محمد حسنى جابر - أستاذ القانون الدولى السابق بكلية الشريعة .

يبدأ الأستاذ الإمام رحمه الله مقاله بمقدمة عن عصمة الرسل فى التبليغ عن رب العزة ، باعتبارها أصلا من أصول الإسلام ، ثم يورد بعض تلك الروايات ، منبها إلى الاختلافات بينها فى نص تلك الكلمات الدخيلة وتفاصيلها الأخرى ، ثم يناقش ابن حجر العسقلانى الذى يحتج بتعدد الروايات كدليل على صحتها ، رغم أنها كلها مرسلة . ثم يذكر الأستاذ الإمام فى شىء من التفصيل ، التناقض بين تلك الروايات ، والأخطاء اللغوية فى تفسير بعض كلمات الآيات الكريمة من سورة الحج ، مما أوقع بعض القدماء فى الخطأ فى فهم الآيات المذكورة . ويقول فى معرض التدليل على بطلان هذه القصة ، نقلا عن الإمام القسطلانى فى شرحه لصحيح البخارى : (وقد طعن فى هذه القصة وسندها غير واحد من

الأئمة ، حتى قال ابن سحق وقد سئل عنها : "**هى من وضع الزنادقة**" ، وكفى فى إنكار حديث أن يقول ابن اسحق إنه من وضع الزنادقة ، مع حال ابن اسحق عند المحدّثين)

ثم يورد الأستاذ الإمام جزءاً من كلام القاضى عياض (فقيه المغرب والأندلس ومحدثهما ـ المتوفى سنة ٥٤٤ هـ = ١١٤٩ م) ، الذى أبطل فيه هذا الحديث من أربعة وجوه عقلية ـ بالإضافة إلى ما بيّنه من فساد أسانيدها النقلية . وهذه الوجوه الأربعة هى كما يلى باختصار :

الأول : عصمة النبى صلى الله عليه وسلم من هذه الرذيلة ، فمن المستحيل أن يتمنى أن ينزل عليه مدح آلهة غير الله ، أو أن يتسوّد عليه الشيطان ويشبّه عليه القرآن ، أو أن يتعمد تغيير كلام الله ، أو حتى أن يسهو فى هذا الأمر العظيم .

الثانى : أن هذا الكلام (أى العبارات الدخيلة) ، لو كان كما روى ، لكان بعيد الالتئام ، متناقض الأقسام ، ممتزج المدح بالذم ، متخاذل التأليف والنظم . ولمّا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن بحضرته من المسلمين ، وصناديد المشركين ، ممن لا يخفى عليه ذلك ، وهو لا يخفى على أدنى متأمل ، فكيف بمن رجح حلمه ، واتسع فى باب البيان ومعرفة فصيح الكلام علمه ؟

الثالث : أن هذه الرواية الضعيفة ، لو كانت صحت ، لوجدت فيها قريش واليهود فرصة لا تعوض ، لإقامة الحجة على المسلمين ، ولكانت سببا لفتنة عظيمة بين المسلمين أنفسهم ، وهو مالم يحدث ، ولم يقل به أحد .

الرابع : أن الله سبحانه عصم نبيه من أن يركن إلى المشركين "شيئا قليلا" ، بعد أن "كادوا" يفتنونه ، وذلك بنص الآيتين الكريمتين من سورة الإسراء « **وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذاً لاتَّخَذُوكَ خَلِيلا .**

وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شَيْئاً قَلِيلاً » ومضمون ذلك أن الله عصمه من أن يفترى ، حتى لم يركن إليهم "قليلاً" ، فكيف "كثيرا" ؟

ثم ينهى الأستاذ الإمام مقاله بالدعاء لابن حجر العسقلانى أن يغفر الله له هذه الهفوة ، مؤكدا أن القصة فاسدة من كل الوجوه : لا أصل لها ، ولا عبرة برأى من صدقها .

هذا هو رأى علمائنا الأجلاء فى هذه القصة ذكرته باختصار شديد أرجو ألا يكون مخلاً . ومن أراد التفصيل فليطلبه فى كتب الحديث والتفسير والسيرة ، وينظر المناقشة العقلية الرائعة للقاضى عياض فى كتاب "الشفاء"(١) .

وإذا كان لى أن أعلّق على ماقاله أولئك الأئمة ، فإننى أؤكد على نقطتين وردتا فى مقال الشيخ محمد عبده وكتاب القاضى عياض :

النقطة الأولى : هى قول ابن إسحق أن هذه القصة من وضع الزناقة .

ويؤكد لدىّ هذا القول ، أن الروايتين اللتين رواهما الطبرى فى تاريخه ، إحداهما ينتهى إسنادها إلى التابعى "محمد بن كعب القرظى" ، والثانية تنتهى إلى نفس التابعى ، مع تابعى آخر هو "محمد بن قيس" . أى أن رواية ونصفا من روايتى الطبرى تنتهى إلى محمد بن كعب القرظى . وهو ابن "كعب بن سُليم القرظى" ، الذى كان فى الأصل يهوديا من يهود بنى قريظة . وعندما غزا الرسول صلى الله عليه وسلم بنى قريظة ، أمر بقتل الرجال البالغين منهم ، ونجا "كعب بن سليم" لأنه كان صبيا لم يبلغ الحلم .

وفى هذه الحقيقة ما فيها من ظلال ثقيلة من الشك تلقيها على

---

(١) الشفا ، فى حقوق المصطفى ـ المجلد الثانى ـ طبعة استانبول ـ الفصل السادس ـ الباب الأول ـ القسم الثالث ، ص ١١٦ وما بعدها .

رواة هذه القصة ـ أو مؤلفيها فى الواقع ـ ومن بينهم تابعى كان أبوه ـ الذى يرجّح أنه هو الذى لقنه القصة ـ صبيا لم يذهب إلى مكة قبل الهجرة ، ولم ير تلك الحادثة المزعومة ، وإنما رأى رجال قبيلته من اليهود ، وهم يُقتلون عن بكرة أبيهم ، إلا من نجا منهم لصغر سنه ، مثله .

النقطة الثانية : أذكرها توضيحا للوجه الثانى من الوجوه ، أو الأدلة العقلية ، التى نقض بها القاضى عياض هذه القصة ، وهو عدم التئام الكلام المنسوب إلى النبى مع باقى الآيات :

فأنا أدعو القارىء إلى أن يعيد قراءة الآيات القرآنية من سورة النجم التى تقول : "**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ والعُزَّى . وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى . أَلَكُمُ الذَّكَرُ ولَهُ الأُنْثَى . تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَةٌ ضِيزَى . إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ .. الآية**" .

ثم يقرأها مرة ثانية ، وهو يتخيل أن العبارتين الدخيلتين "تلك هى الغرانيق العلى ، وإن شفاعتهن لترتجى" ، قد حلتا محل الآيتين الثالثة والرابعة . وأن ينظر هل يستقيم معنى الكلام وروحه على هذه الصورة ؟ أبعد لهجة الاستخفاف والتحقير المتمثلة فى كلمة "أفرأيتم" ـ وخاصة حرف الفاء فيها ، ثم تقسيم الأصنام إلى قسمين ، أولهما من اثنتين ، ثم طرح الثالثة فوقهما بكلمة "الأخرى" ، إمعانا فى الزراية .. أيقبل عاقل أن يأتى بعد هذا الكلام مباشرة ، كلام فيه تعظيم وتمجيد لتلك الأصنام ؟

ثم أدعوه أن ينطق الكلمات التى تنتهى بها الآيات (رءوسها) متتابعة : "العزّى ، الأخرى ، الأنثى ، ضيزى" . وبعد ذلك يعيد نطق هذه الكلمات بعد أن يضع مكان الثالثة والرابعة كلمتى "العلى ، ترتجى" . وينظر هل تستقيم موسيقى الكلام ؟ أم أن هناك نشازا يصك أذنه بإقحام تلك الكلمات الدخيلة بين رءوس الآيات ؟

وأسأل القارىء بعد ذلك : هل قرأ أو سمع ، فيما قرأ وسمع من القرآن الكريم ، كلاما فيه مثل هذا الاعوجاج وهذه الركاكة أو قريبا منها ؟ بل هل وجد من بين الأحاديث المروية عن رسول الله ـ وهو بَشَرٌ من الناس ـ كلاما بهذا الضعف والتناقض ، أو حتى فيما سمعه من مأثورات العرب أو أشعارهم القديمة قبل الإسلام وبعده ؟

فإذا كان عقل القارىء العربى المعاصر وذوقه يدركان على الفور مدى التناقض والركاكة اللذين دخلا على الكلام بإقحام تلك العبارات ، أفلم يكن الأولى بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وهو فصيح الفصحاء وبليغ البلغاء ، أو بمن يصلّون وراءه من المسلمين الذين تذوقت ألسنتهم وأسماعهم بلاغة القرآن المعجزة ، أو حتى بمن يسمعونه من المشركين ، وهم جميعا أبناء هذه اللغة وحفظة أشعارها وذوّاقو بلاغتها ـ أن يدركوا ما ندركه نحن فى هذا العصر ، فينتبهوا ، أو ينبهوا الرسول ، إلى مافى هذا الكلام من اعوجاج ؟!

فى رأيى أن هذا الوجه وحده ، من وجوه منطق القاضى عياض ، كاف للدلالة على فساد تلك القصة ، وعلى كذب رواتها ، بالغا مابلغوا .

· وقد راجعت هذه الآيات على الترجمة الإنجليزية التى ذكرها مؤلف الكتاب ، والتى أشار إلى أنه استمدها من ترجمة "مولانا محمد على" (بطبعة بنجوين ـ لاهور ١٩٧٣) ثم أضاف إليها "لمسات" من عنده . فلم أجد فيها ما وجدته فى الأصل القرآنى العربى من وضوح نغمة الاستخفاف والتحقير للأصنام . ولا أدرى ما إذا كان ذلك عيبا من الترجمة الأصلية التى نقل عنها ، أم من "اللمسات" التى وضعها عليها . فراجعتها مرة أخرى على أوثق ترجمة أعرفها لمعانى القرآن الكريم ، وهى من وضع الشيخ عبد الله يوسف على ـ من كبار علماء الهند ، اعتمدتها لجنة من علماء

الأزهر الشريف[١] . فلم أجد فيها أيضا تلك النغمة المستخفة المستهزئة . والغالب أن المترجم إلى الإنجليزية ، عجز عن أن يجد في تلك اللغة كلمة تقابل كلمة "أفرأيتم" ، وخاصة ـ كما أسلفت ـ حرف الفاء . كما أن كلمة "الأخرى" **ANOTHER** ، تبدو في الإنجليزية باردة جوفاء ، لا توحي بما توحي به الكلمة العربية من معنى التحقير . فهذا مثل آخر على ما يؤدى إليه الفصل بين القرآن وبين لغة القرآن ، حتى مع حسن القصد وسلامة النية وبذل الجهد ، فما بالك إذا أضفنا إلى ذلك سوء النية من مثل هذا الكاتب ومن علموه الإسلام ؟

وأستميح القارىء في أن أضيف إلى الوجوه الأربعة لمنطق القاضي عياض وجها خامسا يضيف إلى الأدلة العقلية التى دمغ بها هذه القصة بالكذب والتلفيق :

فالناظر إلى سيرة النبى الكريم ، يتبين من خلالها شخصية لا تستسلم للهزيمة مهما كانت قوة الخصم : يدل على ذلك ـ على سبيل المثال ـ احتماله هو وأتباعه لاضطهاد الكفار ، وصبرهم على أذاهم فى مكة ، وصموده لإغراءاتهم له بالملك والسيادة "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ..." ، وتمسكه بإيمانه الذى لا يتزعزع فى الطائف حين ردّه أهلها مهانا مكسور الخاطر : "إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى" ، ثم رده على أبى سفيان يوم أحد ، حين وقف مزهوّا بانتصاره ، يهتف لإلهه "هبل" ، فيأمر النبى أصحابه ، وهو الجريح المهزوم الذى فقد خيرة رجاله فى المعركة ، أن يردوا عليه "الله أعلى وأجلّ .. الله مولانا ولا مولى لكم" .

صاحب هذه الشخصية ، لا يُعقل أن يتنازل ، تحت تأثير أى ضغط أو إغراء ، عن المبدأ الأساسى الذى انبنى عليه دينه ،

(١) **The Holy Qoran :** طبعة دار العربية للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ المجلد الثاني سنة ١٩٦٨ ـ صفحة ١٤٤٥ .

وحجر الزاوية الذى قامت عليه دعوته ، وهو مبدأ التوحيد . ولا يتعارض هذا مع مرونة صاحب هذه الشخصية فى المواقف التفصيلية المتعلقة بالكر والفر ، والمهادنة ريثما يعاد تنظيم الصفوف ، أى فيما نعبر عنه في كلامنا المعاصر بالمسائل "التكتيكية" . أما فى "الاستراتيجية" ، أما فى أصل العقيدة ومحور الدعوة .. فهيهات !

ومع ذلك ، فإن من سجلوا هذه الرواية من علماء المسلمين فى اجيالهم المتعاقبة ، لا يمكن أن نحكم عليهم بالكفر : سواء من فندها وكشف عوارها مثل القاضى عياض ، ومن بعده الإمام محمد عبده ، أو من نقلوها وضعّفوها مثل ابن كثير ، أو من ذكروها دون تعليق مثل الطبرى ، أو حتى من صدقها ودافع عن صحتها مثل ابن حجر العسقلانى . لا يمكن أن نرمى أحداً منهم بالكفر إذا رواها على صورتها تلك التى وصلت إلينا عبر القرون ، دون زيادة أو تلاعب ، ودون أن يتخذها ذريعة للطعن فى كتاب الله ، أو فى رسوله ، أو فى الأصول التى انبنى عليها دينه .

فلننظر إذن إلى الصورة التى حكاها بها صاحب الكتاب الذى نحن بصدده .

حكاية رشدى لقصة الغرانيق :

تدور أحداث هذه القصة ـ كما يرويها ـ فى مكة المكرمة ، التى اختار لها اسما تنكريا هو "جاهلية" . ويصور فيها النبى وهو يدخل فى حوار مع زعيم المشركين "أبى سفيان" ، يساومه فيها الأخير على أن يخفف من هجومه على الأوثان ، مقابل أن تخفف قريش من اضطهادها له ولأتباعه . فيعده بأن يفكر فى الأمر ، ثم يعرض هذه الصفقة على بعض أصحابه ، فيحذرونه من الوقوع فى هذا الكمين . ولكنه لا يقتنع برأيهم ، فيصعد إلى الغار ، وينزل بعد فترة ليقول لهم إن جبريل قد أوحى إليه بآيات جديدة سيقرؤها

عليهم . ثم يقرأ تلك العبارات الدخيلة على جمع يضم أتباعه وعبدة الأصنام معا ، فيسجد عبدة الأصنام حين يسمعون مدح آلهتهم .

وبعد فترة من احتجاج أصحابه على ذلك ، يدرك أن أبا سفيان قد خدعه ، فيغيب ثم يأتى مرة أخرى ليقول إن جبريل قد أمره بحذف تلك العبارات ، وإحلال عبارات أخرى محلها ، وهى الآيات المعروفة من سورة النجم .

ثم ينهى المؤلف القصة بخروج النبى من مكة عائدا إلى يثرب ، معبرا عن كراهيته للمدن ، وإيثاره للبادية التى يعتبرها المكان الطبيعى للمؤمنين (!)

ويترك المؤلف قارىء الكتاب بين احتمالات ثلاثة لا يمكن أن يخرج مقصوده عنها :

١ ـ إما أن الملاك تلبس فى صورة شيطان فأملى تلك العبارات على النبى ، ثم عاد إلى صورته الأصلية فحذفها .

٢ ـ أو أن الملاك خالف ما أمره الله به ، وتلاعب بالرسالة التى يحملها ، والتى أُمر بأن يبلغها إلى النبى .

٣ ـ أو أن النبى لم يُوحَ إليه بشىء ، وإنما ضعفت نفسه أمام اضطهاد المشركين فاستسلم ومدح آلهتهم . ثم رجع عن موقفه ذاك ، فذمّ تلك الآلهة .

وغنى عن البيان أن كلا من هذه الاحتمالات تدمغ المؤلف بالكفر الصريح ، وتقطع بارتداده عن الإسلام ـ هذا إذا كان قبل ذلك مسلماً أصلا !

ولنا على هذا الباب بعض الملاحظات التى تشير إلى تصور المؤلف للعقيدة الإسلامية والتاريخ الإسلامى ، والمصادر التى استمد منها هذا التصور . أما كفره ، فهو كما قلنا ، غنى عن البيان ، لا يحتاج إلى دليل ، ولا يستحق التوقف عنده لحظة واحدة .

موقفه من الصحابة :

لا يذكر المؤلف من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أربعة أشخاص ، يسميهم هذه المرة بأسمائهم الحقيقية ، دون اقنعة التنكر الشفافة :

١ ـ **حمزة عم الرسول** : يظهره فى صورة البطل الشجاع الباسل ، الذى لا يساوم على الحق ولا يقبل أى حلول وسط ، والذى يخرج حاملا سيفه ، غاضبا من هذا التنازل المبدئى ، يبحث عن إخوة "هند" ـ زوجة أبى سفيان ـ فى شوارع مكة ليلا ، ويقتل منهم أربعة ، فتقسم هند أن تنتقم منه شر انتقام .

٢ ـ **سلمان الفارسي** : ويظهره أيضا فى صورة الرجل العاقل الأريب ، الذى قام بحفر الخندق لحماية أتباع الدين الجديد فى يثرب ، والذى يعترض بشدة على قبول خطة أبى سفيان ، ولكن رأيه لا يؤخذ به .

٣ ـ **بلال الحبشي** : الذى كان عبداً للمشركين حتى حرره أتباع الدين الجديد (لا يذكر المؤلف ـ طبعا ـ أن الذى أعتقه هو الصديق أبو بكر) . وموقفه مثل "سلمان" ، إلا أنه أضعف منه حجة .

خالد : وقد أظهره فى صورة رجل يحمل الماء إلى الحجيج ، ويعترض اعتراضا ضعيفا على موقف النبى ، لا يصل إلى حد الاحتجاج .

اما بقية أعلام الصحابة ، وزراء النبى ومستشاروه وألصق الناس به ، مثل أبى بكر وعمر وعثمان وعليّ وغيرهم ، فلا يذكر عنهم شيئا فى هذا الباب ، وكأنهم غير موجودين أصلا ، وإن كان يشير إلى بعضهم إشارات عابرة فى باب آخر من الرسالة ـ كما سنرى .

وواضح من هذه الصورة ، أن المؤلف يضع ثلاثة بالذات من صحابة النبى (حمزة ، وسلمان ، وبلال) فى مكانة أعلى من مكانة النبى نفسه ، يتمسكون بالحق حين تخاذل ، ويحاولون رده عن موقفه الانهزامى ، ويستبد بهم الغيظ فينزلون غضبهم على المشركين الذين ساوموه وساومهم . تنزّه رسول الحق عن كل ذلك ، وتنزّه صحابته الكرام ، الذين لا يستمدون مكانتهم عند عامة المسلمين من كونهم أفضل من النبى - حاشا لله ، وإنما يستمدونها من مكانة النبى نفسه ، وبما يمتّون إليه به من قرابة أو صحبة أو اتّباع ، يقينهم فرع من يقينه ، وإيمانهم إيمان به وبدينه ، ومنزلتهم تبع لمنزلته وفرع منها .

ومن أجل الوصول بالقارىء إلى هذه النتيجة المعكوسة ، يخلط المؤلف الأوراق خلطا شنيعا ، ويبدّل ويغيّر فى أزمنة الأحداث وأماكنها وأسبابها . فيصور حمزة وهو يقتل أقارب هند فى مكة قبل الهجرة احتجاجا على موقف النبى ، مع أن المعروف هو أنه قتلهم فى غزوة بدر ، بعد الهجرة ، وهو يحارب مع النبى وتحت لوائه . ويصور سلمان الفارسى مقيما فى مكة قبل الهجرة بسنوات ، مع أنه بقى فى يثرب (المدينة المنورة) طيلة سنين البعثة النبوية الأولى ينتظر وصول النبى إلى يثرب ، فلم يره النبى ولم ير النبى إلا بعد هجرته صلى الله عليه وسلم . ثم يصوره وهو يحفر الخندق فى المدينة فى وقعة الأحزاب بعد الهجرة بسنوات ، مع أن أحداث الباب تجرى فى مكة قبل الهجرة بسنوات ... إلخ .

فليس المهم عند المؤلف هو الحقائق التاريخية أو أصول العقيدة ، وإنما المهم عنده هو فى كلمة واحدة : المذهب .

موقفه من بنى أمية : لا يقتصر الكاتب على تصوير أبى سفيان وزوجته هند باعتبارهما رأس الكفر وزعيمى المشركين فى مكة قبل الفتح ، وهى صورة قريبة من الصحة ، وإنما يتجاوز ذلك إلى وصفهما - بل وصمهما - بأبذأ الأوصاف وأحطها فى تصرفاتهما

الشخصية وعلاقاتهما الاجتماعية ، ويجرّدهما من كل مسحة من الأخلاق الكريمة أو الصفات الإنسانية . وهذا الموقف ـ وهو أيضا من ضرورات المذهب ـ مناقض لكل الحقائق والمفاهيم التاريخية المعروفة عن سادة قريش مسلمهم وكافرهم ، والتى بفضلها ـ لا بنقيضها ـ تسوّدوا قريشا قبل الإسلام .

ثم يتجاوز ذلك مرة أخرى فيعمم تلك الأوصاف وغيرها من مثيلاتها ، على أهل مكة من قبيلة قريش ، بل على العرب عامة حاضرهم وباديهم . وكأن الإسلام حين نزل ، نزل على قوم لا علاقة لهم بشىء من مكارم الأخلاق ، حتى ولا بالقيم النبيلة العادية التى يتمتع بها الإنسان العادى . وكأن المؤلف لم يسمع عن مبادىء الكرم والشجاعة والنجدة والشرف والعفة إلخ .. التى اتصف بها العرب فى جاهليتهم ، وحفلت بها أشعارهم ومواقف مشاهيرهم قبل الإسلام ، والتى تمثل التراث الأدبى والتاريخى الذى جعل منهم الأرض الخصبة ، والبيئة الصالحة لنزول هذه الرسالة الشريفة عليهم . وهى التى عناها القرآن الكريم ، حيث يسمّى الله ما يأمرهم به "**المعروف**" ، وما ينهاهم عنه "**المنكر**" . أى ما تعرفه الطبيعة الإنسانية وتألفه وتألف احترامه من قيم وأخلاق ، نقيضا لما تأباه تلك الطبيعة وينكره ذلك الإلف . كما يصف ما يحله الله لهم من حلال بأنه "**الطيبات**" ، وما يحرمه عليهم بأنه "**الخبائث**" . ولولا أن لديهم القدرة الأصيلة والاعتياد المتواصل على التمييز بين ماهو "طيب" وبين ماهو "خبيث" ، لما كان لمثل هذه الأوصاف معنى عندهم ، ولا صدى فى نفوسهم . ولا كان لمثل حديث رسول الله عن أنه "بعث ليتمّم مكارم الأخلاق" معنى مفهوم . فهو ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لم يزعم أنه بعث "ليبتدع" مبادىء أخلاقية لم تكن موجودة فى قومه قبله ، وإنما جاء ليكملها ، ويقوّمها ، ويضيف إليها .

مرة أخرى : ليس المهم عند المؤلف هو فهو الحقائق أو ذكرها ؛ وإنما هو المذهب ـ فى وصفه لبنى أمية خاصة ـ ثم الشعوبية

البكماء فى تصويره للعرب عامة .

معلوماته التاريخية :

يعتبر هذا الباب من الرسالة ، سجلّا حافلا بالأخطاء التاريخية واللغوية التى يصعب حصرها ، ولذلك سنقتصر على أمثلة قليلة منها ؛ ولا أعنى بتلك الأخطاء ، عمليات الخلط والتخليط التى ذكرنا طرفا منها ـ بين الأزمان والأماكن والأشخاص ، فهذه يمكن أن نعزوها ـ تجاوزا ـ إلى رغبة المؤلف فى رسم صورة درامية للأحداث بطريقة "سيكولوجيا الأحلام" المزعومة . كما لا أعنى المفاهيم والأحكام الخاطئة التى استمدها من تعصبه المذهبى من ناحية ، ومما تلقنه عن الإسلام من كتابات المستشرقين من ناحية أخرى ، والتى ذكرنا طرفا منها ، وإنما أعنى أخطاء جسيمة جديدة ، يخترعها المؤلف اختراعا ، ويتطوع بها تطوعا ، وهو يضع نفسه فى كرسى أستاذ التاريخ واللغويات ، ويحاضر القارىء ـ فى وقار مصطنع ـ شارحا "الخلفية التاريخية" للأحداث التى يصورها . فمن هذه الأمثلة :

١ ـ تصويره للعرب قبل الإسلام باعتبارهم أمة برّية محض ، لا يعرفون شيئا عن البحر والنقل البحرى ، ولا يستخدمون السفن فى نقل تجارتهم وأنفسهم ، ويعتبرون النقل البحرى منافسا ـ بل عدوّا لهم . وهو قول لم يقل به أحد لا فى الشرق ولا فى الغرب . ويكفى للدلالة على بطلانه عشرات المواضع من القرآن الكريم ، التى جاء فيها وصف السفن والأمواج والأنواء ، ولولا أنها كانت أشياء معروفة لدى العرب فى حياتهم اليومية ما حدثهم عنها . كما يكفى للدلالة على ممارستهم ـ ولا أقول تسيّدهم ـ للنقل البحرى فى البحار الثلاثة المحيطة بجزيرتهم ، قصائد لا تحصى من الشعر الجاهلى ، يذكر فيها شعراؤهم السفن والبحر إلخ .. نورد هنا منها بيتا واحدا مشهورا ، وهو البيت الذى ختم به "عمرو بن كلثوم" معلقته الشهيرة :

مَلأنَا البَرَّ حتىّ ضاق عنّا
وماء البحر نَملؤُه سَفِيناً

٢ ـ زعمه أن أهل مكة لم يعرفوا شيئا عن الديانة المسيحية قبل الإسلام ، وإنما "سمعوا" من بعيد عن نبى اسمه عيسى ولدته عذراء اسمها مريم . وكأنه يعتذر لقرائه الغربيين عن عدم اعتناق أهل مكة للمسيحية ، واحتياجهم إلى دين جديد يخرجهم من عبادة الأوثان .

واعجب لأستاذ التاريخ هذا ، الذى لم يسمع عن قبائل عربية بأكملها ، كانت تدين بالنصرانية قبل الإسلام بزمان ، ومنها على سبيل المثال قبيلة "تغلب" التى جاء منها مهلهل وأخوه كليب (وائل) ابنا ربيعة ، أصحاب حرب البسوس الشهيرة ، وهما أخوال امرىء القيس أشعر الشعراء الجاهليين ، الذى كان على دينهم أيضا . وهى القبيلة التى ظهر فيها ومنها ـ بعد الإسلام ـ فحل شعراء العصر الأموى ، شاعر الخلفاء "الأخطل" ، الذى بقى على دين آبائه بعد ظهور الإسلام بمائة سنة .

واعجب لذلك الأستاذ الذى لم يسمع عن ورقة بن نوفل ـ خال السيدة خديجة ـ الذى كان على دين المسيح يوم بعث النبى ، والذى لا يعرف أن سلمان الفارسى نفسه ـ الذى يتمسح فيه المؤلف ـ كانت ديانته المسيحية يوم هاجر النبى إلى المدينة ، وقصة حياته قبل الإسلام (أى : سلمان) ملحمة رائعة من ملاحم البحث عن الحقيقة والعقيدة الصحيحة .

٣ ـ يلمح المؤلف ـ فى تعالم عظيم ـ إلى أن النبى كان يكره الحضارة وحياة المدن ، ويفضل عليها البداوة ويعتبرها المكان الطبيعى للمؤمنين . وهذا أيضا لم يقل به أحد ! على العكس من ذلك تماما ، كانت من أكبر مشاكل المجتمع الإسلامى فى المدينة ، مشكلة الأعراب ، البدو ، الذين كان من الصعب ترويضهم وتعويدهم على الدين الجديد والتزاماته من زكاة وجهاد إلخ ... كما جاء ذكر ذلك فى القرآن الكريم . على عكس أهل "القرى" الذين

كان من السهل تنظيمهم وتوعيتهم وتحويلهم إلى مجتمع متكامل الوظائف . وكانت أول مشكلة واجهها المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هى انقضاض أهل الردّة من البدو أساسا ، مما احتاج إلى جهود كثيرة وحروب دامية من أجل إعادتهم إلى الصف .

وبعد ذلك ، في الفتوح الإسلامية ، كان الطابع الدائم للمسلمين هو التوطين والتّمْدين ـ بمعنى الكلمة الحرفى المستمد من "المدينة" ، حيثما حلوا يقيمون المدن والحواضر : الكوفة ثم بغداد فى العراق ، الفسطاط التى تطورت إلى القاهرة فى مصر .. إلى عشرات المدن الأخرى التى أقاموها فى شتى البلاد من المحيط إلى المحيط .

فالقول بأن النبى أو الإسلام كان معاديا للحضارة ، مشايعا للبداوة ، قول فيه كثير من التجنّى ، على أخف الأوصاف .

٤ ـ تحليله اللغوى لكلمة "اللات" اسم الوثن الجاهلى المعروف ، وتأكيده القاطع بأنها تأنيث للفظ الجلالة ، واستنتاجه المبنى على هذا المفهوم العبقرى ، بأن الصنم المذكور هو المقابل الأنثوى لذات الله ـ سبحانه وتعالى عن ذلك !

ولن نناقش هنا مسألة اللام الأصلية فى المصدر الثلاثى ، والفرق بينها وبين لام التعريف ، ولا الفرق بين التاء الأصلية وتاء التأنيث . وإنما نتعجب فقط من ذلك المؤلف المؤرخ اللغوى ، الذى لم يطّلع على تاريخ هيرودوت فى مكتبة جامعة كامبريدج ، ولم يقرأ فيه اسم ذلك الصنم ، الذى ذكره هيرودوت باسم "أليتا" ALITTA ، أثناء تعداده لأسماء آلهة العرب قبل اثنى عشر قرنا من عصر النبى عليه السلام[١] .

ولكن صاحب الغرض ـ كما يقولون ـ أعمى !

(١) The History Of Hirodotus ـ طبعة دائرة المعارف البريطانية ـ ١٩٨٦ ـ ص ٣١ .

ـ الرؤيا التناسخية الثالثة :
عودة الى جاهلية

نتخطى ـ مؤقتا ـ الباب الثانى من الرسالة ، وننتقل مباشرة إلى الباب الثالث ، لأنه لاحق فى موضوعه ومسرح احداثه بالباب الأول . وإن كان المؤلف قد فصلهما ، على طريقته فى «تعشيق التروس» ، بفصلين من الرواية بينهما فصل من الرسالة ، إمعانا فى التمويه على القارىء ، وإيهامه بأن الكتاب بأكمله عمل «أدبى» متكامل .

الموضوع الرئيسى لهذا الباب ، هو تعدد الزوجات فى الإسلام عامة ، وتعدد زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم خاصة ، وهو أحد الأنغام المفضلة ، بل هو النغمة الأولى التى يطرب لها أهل الغرب ، ولا يملّون من تكرارها عند الهجوم على الإسلام ونبى الإسلام . مع تنويعات أخرى يضيفها المؤلف من عنده أو من عند أساتذته ، نذكرها فى حينها إن شاء الله .

تدور قصة هذا الباب ـ أو الرؤيا التناسخية ـ فى مكة المكرمة أيضا ، بعد الفتح . ويسميها المؤلف بنفس الاسم الذى أطلقه عليها فى الباب الأول «جاهلية» ، وكأنه اسم علم عليها ، لصيق بها ، لا حالة كانت عليها هى والعالم كله قبل

الإسلام ، ثم خلعتها وأصبحت « **إسلامية** » بعد الفتح ، بل أصبحت مركز العالم الإسلامى الدينى وقبلته الوحيدة .

وبطل القصة شاعر اخترعه المؤلف ، واخترع له اسما عجيبا هو «بعل» (يحسبه المؤلف العلّامة اسما عربيا لشاعر عربى ، وهو : كما هو معروف ـ اسم كنعانى لصنم من أصنام العصور السابقة على الإسلام وعلى المسيحية) . وكان المؤلف قد قدّم الينا هذا الشاعر فى الرؤيا التناسخية السابقة باعتباره شاعرا هجّاء كان أبو سفيان يستعين به على هجاء النبى والمسلمين .

ويصور لنا المؤلف فتح مكة ، وكيف أن النبى أعلن أن من دخل بيت أبى سفيان فهو آمن ، ثم أردف أن من دخل بيته فهو آمن ، «ونسى» المؤلف أهم وأول جزء من عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تأمين أهل مكة **«من دخل المسجد الحرام فهو آمن»** ـ ما علينا .

لما فتح الله على المسلمين مكة ، خاف هذا الشاعر أن يقتله المسلمون عقابا له على أشعاره الهجائية ، فلجأ إلى عصابة من القوادين والعاهرات ، استمرت تمارس نشاطها العلنى مدة ثلاث سنين من بعد الفتح (كذا) ، وتقوم سرًا بالتشهير بأزواج النبى أمهات المؤمنين . فاتفقت مع ذلك الشاعر على أن تؤويه وتخفيه عن أعين الناس ، مقابل أن يساعدهم فى عملهم ، وأن يزودهم بأشعار يهجو فيها المسلمين ويشهر بأمهاتهم . ويركز المؤلف بصورة خاصة ، على السيدتين عائشة وحفصة ، ابنتى الصديق أبى بكر والفاروق عمر ـ رضى الله تعالى عنهم أجمعين . ولا يفوته بالطبع أن يورد حديث الإفك الذى أشاعه المنافقون واليهود

في المدينة المنورة ، عن السيدة عائشة رضى الله عنها ، والذى أشار إليه القرآن الكريم ، ونقضه نقضا قاطعا فى آيات من سورة النور .

ويتنبه النبى - بعد ثلاث سنين (!) إلى ضرورة إغلاق بيوت الدعارة ، فيأمر بالقبض على البغايا وإعدامهن ، ومن معهن من القوادين ، فيقبض على ذلك الشاعر من بينهم . فيحاول الدفاع عن نفسه بأنه كاتب شاعر فنان وليس قوّادا (كذا) . ولكن النبى يأمر بقتله رغم ذلك : لأنه لا فرق عنده بين «**البغىّ**» وبين «**الكاتب**» !

وكأن المؤلف يتمثل نفسه فى مرآة ذلك الشاعر ، ويصور نفسه مقدّما ، في صورة شهيد الفن والأدب ، وضحية الدفاع عن الكلمة الحرة ، مثله فى ذلك مثل شاعره - ذى الصناعتين - «**بعل**» .

وينهى المؤلف القصة بوفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، بعد أن جاءه ملك الموت عزرائيل فى صورة اللات (كذا) . ولاينسى أن ينسب إلى السيدة عائشة أنها فرحت لوفاة النبى ، محتجة بأن المفروض أن يفرح المؤمنون لصعود روح النبى صلى الله عليه وسلم إلى الملكوت ، مرددة كلمة أبيها الصدّيق رضى الله عنه : « من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت » .

تعليق على هامش الباب :

نلاحظ أن المؤلف - رغم أنه ذكر زوجات الرسول واحدة واحدة بأسمائهن ، لم يذكر من الصحابة سوى من سبق له ذكرهم في الرؤيا التناسخية السابقة ، ما عدا اثنين فقط ، هما

«عمر» الذى اختار اسمه ليطلقه على الضابط المكلف بالقبض على البغايا والقوادين ، و « أبا بكر » الذى لم يذكر اسمه صراحة ، وإنما ذكر كلمته المشهورة تلك ، على لسان ابنته السيدة عائشة .

اسمان بالتحديد لم يرد لهما ذكر فى الكتاب كله لا بخير ولابشرّ ، لا فى كلامه عن عصر النبى ولا فى أسماء الأشخاص المعاصرين ، ولاحتى بالصدفة . لا ضمن أشخاص الرواية ، ولا ضمن شخصيات الفصلين المتبقيين من الرسالة . هذان الاسمان هما «على» ، «فاطمة» . رغم أنهما عَلَم على شخصين شديدى الالتصاق بالنبى ، لايمكن لأحد أن يذكر شيئا عن حياته دون أن يذكرهما ، ورغم أنهما اسمان شائعان ، بل لعلهما أكثر الأسماء شيوعا ، من أسماء المسلمين المعاصرين .

نورد هذه الملحوظة ، لا باعتبارها تقصيرا من المؤلف ، فإن عدم ذكره لهما فضيلةً تحسب له ، أو رذيلة لم يرتكبها ، وإنما لنضمها إلى ما أشرنا إليه من «مذهبية» المؤلف ، وأهمية دلالتها عند مناقشتنا لعقيدته .

نأتى إلى القضايا الرئيسية التى يثيرها فى هذا الفصل واحدة واحدة ، ضاربين صفحا عن كثير من الجهالات أسخف من أن نشغل بها القارىء الكريم .

قضية تعدد الزوجات :

كما أسلفنا ـ لا يثيرّ الكاتب هذه القضية اقتناعا بخطأ تعدد الزوجات ، وإنما تملّقا للقارىء الغربى ، وهو المشترى الأول لكتابه ، لأنها الأغنية المفضلة عند كل من يتحدث عن الإسلام منهم . يصفون موقف الإسلام منها بأنه عمل

لا أخلاقى ، ودليل على الفوضى والهمجية فى العلاقات الإنسانية إلى آخر تلك الصفات . والحقيقة أن موقف الفكر الغربى من هذا الموضوع ، موقف مشوب بالنفاق والتطهر الكاذب . ولسنا هنا بصدد بيان حكمة هذا التشريع الإسلامى والقيود التى قيده بها الإسلام من العدل والضرورة وعدم الإضرار إلخ ... ، وإنما نشير فقط إلى أن تعدد الزوجات هو ـ من الناحية العملية ـ صمام أمان لابديل عنه إلا الزنا ، الذى يغضّ الغربيون النظر عنه ، متسترين بكلمة المسيح عليه السلام : « من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر » وإلى المغالطة المشهورة التى يصور بها مفكرو الغرب الإسلام بأنه الدين الذى «أباح» تعدد الزوجات ، بينما الحقيقة أنه الدين الذى «حدّد» عدد الزوجات بأربع ـ كحد أقصى ـ وكان قبل الإسلام بلا حدود ـ فى جميع الأديان .

قضية تدوين القرآن الكريم

هذه أيضا من الأغانى التى يحبها كتاب الغرب و «باحثوه» يلذ لهم أن يدوروا حول القرآن ليحاولوا إيجاد ثغرة فى كيفية كتابته وكيفية جمعه ، فالمعروف أن القرآن الكريم هو أوثق الكتب إسنادا على الإطلاق ، لا أقصد كتب العقائد فقط ، بل الكتب إطلاقا : حصنه الله بما كتبه كتّاب الوحى ، وبالمئات من الصحابة الحفاظ فى أمة من الحفاظ حضارتها كلها لغوية محض . ثم بدأ جمعه من عصر أبى بكر ـ لا من عهد عثمان حسب الفكرة الشائعة ، وتم جمعه وتوثيقه وتوحيد نسخه توحيدا متطابقا تمام التطابق فى عهد عثمان ، قبل أن تمر

سنوات قلائل على وفاة النبى صلى الله عليه وسلم [١] ، ثم حفظه الملايين تلو الملايين طوال ١٤٠٠ عام فى شتى بقاع الأرض ، يقرأونه ويكتبونه تعلما وصلاة وعبادة ، وتفسيرا وفهما ، وتشريعا واحتجاجا وتبركا إلخ .. مما لايسمح بأى خلل فى كلمة منه أو حرف . ولذلك فإن من يناطح فى مسألة «مصداقية» أو «توثيقية» القرآن ، هو كما يقول البيت المعروف :

كناطحٍ صَخْرةً يوَمْاً لِيُوهِنَها
فَلَمْ يُضِرْها ، وَأَوْهَى قَرْنَه .. الوَعِلُ

وكذلك مؤلف هذا الكتاب الشيطانى ، يناطح صخرة القرآن، لأسباب مذهبية ونفاقية ، فلا يوهى إلا قرنه - بل قرنيه كليهما .

يحكى من بين ما يحكى فى هذا الباب ، قصة يختلقها اختلاقا ويضعها على لسان سلمان الفارسى رضى الله عنه ، بأنه كان يزور الآيات التى يمليها عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولايتنبه الرسول لهذا التزوير ، ويمرّ عليه دون أن يدرك أن ما كتبه سلمان غير ما أملاه عليه النبى . وهذه الحكاية فى الحقيقة أعجوبة فى الكذب المركب . أولا لأن سلمان لم يكن من كتاب الوحى ولا من جمعة القرآن ، ثانيا أن هذه القصة لم ترد فى التاريخ الإسلامى كله . ولم يرد لها أى شبيه ، إلا شبيه واحد ، هو ما حكاه المرتد عن الإسلام عبد الله ابن أبى سرح ، «الذى كان يكتب لرسول الله صلى الله

---

(١) انصح القارىء المهتم بمعرفة قصة جمع القران ، بقراءة مقدمة تفسير الطبرى ، الموجودة فى الجزء الاول من هذا التفسير او ان يقرا الفصول الأولى من إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي.

عليه وسلم ، ثم ارتد مشركا ، وصار إلى قريش ، فقال لهم إنى كنت أصرّف محمدا حيث أريد ، كان يملي عليّ : عزيز حكيم ، فأقول : أعليم حكيم ؟ فيقول : نعم .. كل صواب» (١) . وقد أسلم هذا الصحابى مرة أخرى بعد ذلك ، وسحب ـ بالطبع ـ كذبته تلك وندم عليها وتاب عنها ، وحسن إسلامه حتى جاهد بقية حياته فى سبيل الله .

هذه هى المرة الوحيدة التى ادعى فيها مدعٍ هذا الادعاء . ادعاه مرتد بعد أن لحق بالمشركين ، فأجاروه من المسلمين ، فأراد أن يقدم إليهم هدية يشترى بها رضاهم وحمايتهم ، فحكي لهم هذه الحكاية الكاذبة . فيجيء سلمان رشدى بعد ١٤٠٠ سنة ليلصق هذه الكذبة ـ بكذبة أخرى ـ باسم الصحابى العظيم سلمان الفارسى ، الذى لم يشفع له عنده أن أباه سماه على اسمه تبرّكا به أو تمسحا فيه !

قضية كثرة تكاليف الإسلام وأوامره ونواهيه :

ينعى الكاتب على الإسلام ، كثرة التكاليف التى يأمر بها أتباعه ، من الصلوات الخمس اليومية ، إلى تحريم أنواع من الطعام والشراب عليهم (٢) ، إلى «تدخله» حتى فى نظم المواريث ، حيث يحدد نصيب كل وارث على أساس نوع قرابته إلى المورث . فكأنه يحدد لهم كل ما يأتون وما يدعون فى حياتهم وبعد مماتهم .

---

(١) من كتاب الشفاء ـ للقاضى عياض ـ مصدر سابق ص ١٢٥

(٢) من بين ما يذكره المؤلف من المحرمات : اكل الجمبرى (الإربيان) ، والشيعة يحرمون اكله وكثير غيره مما يحلله اهل السنة .

وهذه القضية أيضا من القضايا التى يكثر المفكرون الغربيون ترديدها ، باعتبارها تدخلا فى حرية الإنسان الشخصية . ونحن لا نبالى بأفكار هؤلاء المفكرين أو أتباعهم ، ولكن لا بأس من أن نبين للقارئ المسلم حقيقة هذه الدعوى ليكون على بينة من دينه .

الأصل فى هذه القضية أن الإسلام دين بلا كاهن ولا كنسية . الفرد المسلم فيه هو كاهن نفسه . والمشرّع الوحيد فيه هو الله سبحانه وتعالى . على عكس ديانات أخرى كالمسيحية التى تخلو تماما من التشريع الأساسى ، وتترك مهمة التشريع للأجهزة الكهنوتية . فالحلال هو ما تحله الكنيسة ، والحرام هو ما تحرمه . ومن حقها أن تحلّ غدا ما تحرمه اليوم ، مثل تحريم أكل اللحوم يوم الجمعة طوال قرون عديدة ، ثم تحليلها فى أيامنا هذه ، وإباحة الطلاق بعد تحريمه آلاف السنين ، وتحريم الإجهاض حينا وتحليله حينا الخ ..

أما فى الإسلام ، فكل وظيفة العلماء ، الذين اصطلح على تسميتهم «رجال الدين» ، هو أن يبينوا للناس ، بما تعلموه ودرسوه من كتاب الله وسنة نبيه ، ما حرمه الله لا ما حرموه هم ، وما أحله الله لا ما أحلوه هم . وقد كانت هذه السمة من سمات الإسلام هى التى أتاحت انتشاره فى الأرض من أقصاها إلى أقصاها ، لا بالفتح وحده كما يشيع الغربيون ، وإنما بالتجارة والسفر العادى والاتصال الفردى . يكفى أن يذهب رجل إلى بلد لم يدخلها الإسلام . يحمل فى يده مصحفا ، أو يحفظ القرآن فى قلبه ، ليكون دستورا حيا فى أى مكان يحل فيه ، دستورا مطابقا لكل الدساتير المطبقة فى كل البلاد الإسلامية الأخرى . ومن يقرأ ابن بطوطة ـ على

سبيل المثال ـ يرى رجلا يخرج من موطنه الأصلى فى طنجة ، ليجوب العالم الإسلامى من الأندلس الى حدود الصين ، مرورا بأواسط إفريقيا وجزر المالديف والهند والسند وغيرها ، مدة تزيد عن عشرين سنة ، فلا يحتاج إلى إن يسأل عن القانون المطبق ، أو النظام الأساسى ، فى أى بلد من تلك البلاد التى دخلها الإسلام . يمر فى بلاد ذات نظم سياسية مختلفة ، وعلاقات اقتصادية متباينة ، وعادات وتقاليد وأعراف غريبة عن بعضها البعض . ولكن العنصر المشترك فيها جميعا ، هو القانون المدنى الأساسى ، وقانون العقوبات الأساسى ، والعبادات الأساسية ، والفواصل بين الحلال والحرام ، أى : الإسلام .

ولذلك فإن انتقاد الأوروبيين لتكاليف الإسلام وتفاصيل الأحكام التى يتضمنها القرآن الكريم هو من قبيل المثل المصرى المعروف عن الذى لم يجد فى الورد عيبا ، فعيّره بأنه أحمر الخدين ، يردده تلميذهم النجيب وغرابهم الأبيض فى كتابه ، دون فهم .

قضية العقاب الإلهى :

يردد الكاتب ـ من الصفحات الأولى من الرواية ، وخلال أبواب الرسالة ، فكرة أن صورة الآله عند المسلمين ، هى صورة الكائن المسيطر القاسى الذى لايرحم ولايغفر ، ويعاقب عباده بأقسى العقوبات على أقل الهفوات . ويقرن ـ كما أوضحنا فى حينه ـ بين صورة الاله هذه ، وبين شخصية الأب الشرير القاسى التى تملأ روايته من أولها الى آخرها .

ولن ندخل فى مقارنات بين فكرة الألوهية عند المسلمين ، وعند أهل الكتاب بشقّيهم . ولكن نكتفى بالإشارة فقط الى أن

الله سبحانه وتعالى ، كما يعرفه ويؤمن به المسلمون ليس «إله قبيلة» متعصبا لقوم من خلقه دون غيرهم ، كما أنه ليس الها «شبيها بالبشر» تجوز مقارنة أفعاله بأفعالهم وقياس تصرفاته على تصرفاتهم . وإنما هو قبل كل شيء : «الخالق» . وليس «للمخلوق» أن يحكم بعقله أو برأيه على أعمال خالقه .

أما حكاية القسوة والسيطرة والتجبر هذه ، فيكفى لتكذيبها ـ على سبيل المثال ، أن نجد من بين ٩٩ اسما هى أسماء الله الحسنى ، نجد ٤٦ اسما منها تدل على الرحمة ، و ١٤ اسما تدل على الجبروت والحساب . وبالطبع ليست المسألة مسألة حسابية ، ولكن المفهوم الإسلامى المعروف هو أن الله سبحانه تسبق رحمته عدله ، واسع المغفرة عظيم العفو ، يجازى على الخطأ بأقل الجزاء ، ويثيب على الصواب بأعظم المثوبة ، والقرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة حافلان بالدلائل على بيان هذه الصورة . وهى عقيدة راسخة فى صدر كل مسلم ، لايشعر بما يزعمه أولئك المفكرون ، وهو يقول «يارب» كلما حزبه أمر ، ويقول «الحمد لله» كلما ذكر نعمة من نعم الله التى لاتحصى .

فهى إشاعة رخيصة إذن .. ليس لها صدى عند أى مسلم عرف الإسلام بأى درجة من المعرفة ، يقولونها ليقنعوا أنفسهم لاغير . ويصدقها ذلك الأستاذ ، ويحاضر القراء فيها .

قضية كراهية الإسلام للعلم :

هذه أيضا من أعجب المغالطات فى الفكر الغربى ، وهى تدخل تحت باب «الإسقاط» فى علم النفس ، حين يرميك ذو العيب بما فيه من عيب أنت منه براء ، أو كما يقول المثل

العربى «رمتنى بدائها وانسلت» . فالحقيقة أن عصر اضطهاد العلم هو عصر غلبة الديانة المسيحية على أوروبا ، وكان هذا الاضطهاد مقصورا على البلاد التى تسيطر عليها المسيحية ، دون البلاد التى يسيطر عليها الإسلام ، واستمر مدة تزيد عن ١٢ قرنا ، من القرن الثالث الميلادى الى السادس عشر ، كان المسلمون خلال القسم الأكبر منها ، هم حملة العلم والمعرفة والحضارة ، حتى تمكن العلماء فى أوروبا من فرض احترام العلم ضد إرادة الكنيسة فى عصر النهضة وما بعده .

ولكن المنطق الذى يستخدمه الغربيون فى هذه القضية منطق مضحك : يبدأ بأن المسيحية قد اضطهدت العلم ، إذن فالدين نقيض العلم وعدوه ، إذن فالإسلام نقيض العلم وعدوه . ولا حاجة بنا إلى التدليل على مدى حث الإسلام أتباعه على العلم والتعلم واقتحام مجاهل المعرفة بالتجربة تارة وبالتأمل والبحث تارة . فهذه بديهية معروفة لا تحتاج إلى دليل . حتى الآية الكريمة من سورة الرحمن «**يامَعْشَرَ الجنِّ والإنسِ إنِ اسْتطعتُمْ أن تَنْفُذوا مِنْ أقطارِ السّمواتِ والأرضِ فانْفُذوا لا تنفُذونَ إلّا بسلطان** » ، والتى اعتبرها القدماء ـ ولهم العذر ـ تعجيزا من الله سبحانه للإنسان أن يخرج من حدود الأرض إلى ما وراءها ، هذه الآية نفسها نقرأها الآن فنرى فيها حثا للإنسان على أن يحاول ذلك ما استطاع ، مع تذكيره بأنه لن يستطيع النفاذ إلا اذا منحه الله سبحانه سلطانا من العلم أو القدرة أو غيرهما .

فالمؤلف ينسى ـ أو يجهل ـ كل ذلك ، فيقول إن الإسلام يحرّم العلم ويعتبر الصعود إلى القمر حراما وخطيئة . من قال هذا ؟ إلا هذا الغراب المتلوّن بصورة حمامة ، يغنى بصوته المزعج ، غناء يحسبه هديلا مطربا ، حسب الحكاية القديمة ، ليعجب به سادته الجدد ويطربهم .

■ الرؤيا التناسخية الثانية : الامام ■

خصص المؤلف لهذه الرؤيا حوالى ثلث الباب الثانى من الرسالة ، بضع عشرة صفحة فقط ، هى أشد صفحات الكتاب وقارا وجدا وصرامة ، تكاد تخلو من الابتذال الذى هو الطابع العام للكتاب . وكيف لا ، وهو يتحدث فيها عن **آية الله ـ روح الله الخمينى** شخصيا ، الذى اختار له اسما تنكريا هو «الإمام» .

يصور الكاتب الخمينى فى منفاه فى لندن (بدل باريس) ، تلك المدينة التى تعرف منظمة السافاك (المخابرات الإيرانية) كل ما يجرى فيها ، وتمارس فيها نفوذا لايقاوم على الأشخاص والأحداث . يعيش فى عزلة تامة ، لايتصل بالعالم إلا من خلال نفر قليل من أتباعه ، منهم ابنه «خالد» الذى يحمل إليه الماء ، وشخصان آخران يسميهما «سلمان» ، «وبلال» . الأول إيرانى . والثانى مغن سابق زنجى أمريكى اعتنق الإسلام ، وجماعة أخرى بلا أسماء من الحرس الحديدى الذين يحرسون الإمام حيثما ذهب ، والذين يرسلهم للجلوس فى ملهى ليلى ليأتوه بالأنباء والإشاعات .

يقيم الإمام فى ثلاثة أدوار من عمارة ، لاتحمل جدرانها أى

صور ، لأن التصوير حرام . ولكنه يحتفظ بصورتين فقط ، إحداهما لقريته فى وطنه البعيد ، ويسميها المؤلف «دش» (قم) ، والثانية لامرأة ذات ملامح قاسية ، عدوته اللدود ، إمبراطورة اسمها ـ طبعا ـ عائشة ، تحمل فى يديها جمجمة بشرية مملوءة بالدم الذى تشربه كالخمر . بعكس الإمام الذى لايشرب إلا الماء القراح ، وتحمل هى الأخرى صورة الإمام ، داخل أيقونة تعلقها حول رقبتها . وكل منهما يتربص بالآخر تربص الموت .

ويعبر الإمام عن سخطه على أغاخان الراحل ، الذى كان يعلن أن الخمر التى يشربها تتحول إلى ماء طهور ، بمجرد ان تلامس شفتيه ، منذرا بأن أمثال هذا الشخص سوف يلقون جزاءهم فى المستقبل . ويحلم الإمام باليوم الذى يصبح فيه متحكما ، لا فى حركة التاريخ فحسب ، بل فى حركة الزمن نفسه . وتذيع اذاعة الإمام الخاصة من لندن ، بصوت بلال «المؤذن» ، بيانات ثورية تعلن فيها عن حركته الثورية ـ لا ضد الإمبراطورة عائشة فقط ، ولا لهدم دولتها الشريرة فحسب ، وإنما لتوقف التاريخ والزمن . وتبشر باليوم الذى تنتصر فيه الثورة ، فيرى المؤمنون الجنة رأى العين . وتنادى الإذاعة بسقوط عائشة ، وأمريكا ، والزمن .

ثم تأتى ساعة الصفر المحددة لقيام الثورة . ويلتقى الإمام بالملاك جبريل ، الذى يحاول إقناعه بأنه ليس فى حاجة إلى ملاك ، «فقد اكتمل الوحى» ، ولكنه يصر على أن يمتطى ظهره ، ويأمره بأن يحمله إلى أرض الميعاد ، إلى «أورشليم» .

وقبل أن يتوهم القارىء أنه يقصد أورشليم الحقيقية ، المدينة ، بيت المقدس ، عاصمة فلسطين التى تحتلها العصابة الصهيونية ، يسارع المؤلف بأن يوضح أنه لا يقصد

بكلمة «أورشليم» مكانا معينا ، وإنما يعنى الفكرة ، الهدف ، المطمح ، سقوط الداعرة ، سحقها - تلك البغىّ البابلية (العراقية).. عائشة .

ويطير الملاك بالإمام إلى قصر الإمبراطورة ، حيث تنضم إليه جموع الثوار الزاحفة نحو القصر فتحصدهم مدافع الحرس ، وتسقط منهم الصفوف تلو الصفوف ، ولكنهم يواصلون الزحف دون تردد أو توقف ، وكل منهم يطلب الشهادة . ثم يصلون عبر جثث إخوانهم - إلى أبواب القصر ، ويسكتون المدافع .

وعندها ، تتحطم قبة القصر الذهبية كأنها قشرة بيضة هائلة ، فتخرج من حطامها «اللات» ، ربة الشر ، إلهة الظلام ، ثم تهوى الى الأرض ميتة . ويتم انتصار الإمام ، ليبدأ عصر جديد ، عصر بلا زمن .

ويتضح للقارىء على الفور ، أن المؤلف قد جعل من هذه الرؤيا التناسخية ، قصيدة عصماء فى مدح الخمينى وتمجيده ، وتعليق كل أكاليل الغار وهالات الطهر والقداسة فوق رأسه ، بأن جعله المناضل الذى لايحيد ولايتزحزح عن غايته - لا كمثل النبى ! ثم المنتصر الذى لايهزم - لا كمثل «حمزة» نفسه الذى انتهى به الحال إلى الموت على يد «هند» ، فى الرؤيا السابقة ، وإن كان لم ينس أن يغمز على الإسلام نفسه ، موحيا بأنه دين رجعي يوقف عجلة الزمن ، حتى على يد الثائر المنتصر .. الخمينى .

وهى فى نفس الوقت قصيدة هجاء ، امتزجت فيها صورة النظام الإمبراطورى الإيرانى ، بصورة ربة الظلام والشر والخطيئة وسفك الدماء - «اللات» ، التى اختار لها المؤلف أبغض الاسماء إلى قلبه ، وأشدها التصاقا فى عقله بالشر والخطيئة .. **عائشة** .

- الرؤيا التناسخية الرابعة : انشقاق البحر العربى -

أفرد المؤلف لهذه الرؤيا ، الثلثين الأخيرين من الباب الثانى من الرسالة ، وجميع الباب الرابع منها . واختار للقسم الأكبر منها اسما موحيا ـ على عادته فى استخدام الأسماء للإيحاء بالمعانى : «انشقاق البحر العربى» ، وهو ما نسميه فى العربية «بحر العرب» ، وكأنه يعبّر بهذه الصيغة الإنجليزية عن أمنية فى نفسه بانقسام العرب أو انشقاق صفهم ، لينفتح الطريق إلى مكة .

واختار لبطلتها نفس الاسم الذى اختاره لربة الشر الإمبراطورى ، عائشة . إلا أنه يصورها فى هذه المرة ، فى صورة فتاة قروية فقيرة يتيمة ، فى إحدى قرى الهند الداخلية البعيدة عن الساحل ، ظهرت عليها فجأة أعراض غريبة : فهى كلما مشت تبعتها الفراشات الملونة بالآلاف ، تظللها من حرارة الشمس ، وتستر جسدها العارى من الثياب ، وتزودها بالطعام ، فتدخل فى فمها المفتوح طواعية بالمئات حتى تشبع .

ثم يصورها وقد ظهرت عليها أعراض الكهانة ، فأعلنت أنها

قد جاءها «الوحى» ، يأمرها أن تخرج هى وأهل قريتها ، فى مسيرة إلى مكة ، سيرا على الأقدام ، حتى ساحل البحر (بحر العرب) ويبشرها بأنهم عندما يصلون إلى الساحل ، سوف ينشق البحر من تلقاء نفسه ، كما انشق أمام موسى (عليه السلام) وقومه ، فيعبرون على الأقدام حتى مكة .

وينضم إليها أهل القرية ، خارجين فى قافلة كبيرة ، حاملين القليل الذى يلزمهم من الزاد والمتاع ، بما فيهم صديق عائشة ، وهو فتى أبله يكسب عيشه من تلعيب ثوره (مثل القرد) لتسلية أهل القرية ، واسمه ـ بالطبع ـ عثمان . ومعهم زوجة رئيس القرية أو عمدتها الثرى ، المصابة بسرطان لاشفاء منه ، والتى أقنعتها عائشة بأن شفاءها لن يكون إلا بخروجها فى المسيرة ، ووصولها إلى مكة .

ويتبع المسيرة ـ فى سيارته المرسيدس ـ عمدة القرية ، الذى اضطر إلى أن يتبعهم على غير إيمان بما يفعلون ، بعد أن فشل فى اقناع زوجته بألا تتبع تلك الكاهنة الشريرة ، وأن تلجأ إلى الطب الذى قد يستطيع إنقاذها .

ويطول الطريق على القافلة ، بين اضهاد أهالى القرى التى يمرون بها أحيانا ، وبين تأييدهم لهم أحيانا أخرى . وتموت زوجة أحد أعيان القرية ، سيدة فاضلة اسمها «خديجة» ، ثم يموت أيضا عدد من القرويين الذين أرهقهم السير . ويتشكك بعضهم في جدوى هذه المسيرة ، فينضمون الواحد تلو الآخر إلى العمدة في سيارته وحولها . ويضعف إيمان بقية القافلة ، فتحذرهم عائشة بأن جبريل قد أخبرها أن البحر لن ينشق إلا إذا كانوا على إيمان تام بما يفعلون .

.. ويجبر العمدة عائشة وزوجته على ركوب السيارة ، ولكن تنقذهما منه معجزة ، إذ يحدث فجأة فيضان هائل يغرق القرية

المعادية التى كانوا يمرون بها ، ويقتل الآلاف من أهلها ، فتضطر السيارة إلى التوقف .

ويحشر المؤلف فى هذا الموضع حادثة ملخصها أن الجماعة وجدوا على باب أحد المساجد طفلا لقيطا ، فحكم إمام المسجد بوجوب رجم الطفل لأنه ابن الخطيئة ، فيرجمون الوليد المسكين حتى الموت .

ويعرض العمدة على عائشة أن يصل معها إلى حل وسط ، بأن تتخلى عن المسيرة ، مقابل أن يحملها هو وزوجته ، وبضعة أفراد تختارهم من أهل القرية ، على حسابه بالطائرة ، إلى مكة ، لكى يتيح لزوجته فرصة العلاج الطبى . فتضعف عائشة تحت ضغط روح التمرد التى تزايدت بين أتباعها . وتطلب مهلة للتفكير . وفى الصباح تعلن له أنها ترفض العرض الذى عرضه عليها ، والذى يتناقض مع مبدئها فى عدم المصالحة ، وفى الطهارة الكاملة .

وتستمر المسيرة حتى البحر ، فتنزل عائشة ومن ورائها القرويون ، ويبقى العمدة وقليل من أهالى القرية يراقبونهم من على الشاطىء . ويشهد الجميع أنهم رأوا البحر العربى ينشق للركب ، ليسيروا فى اتجاه مكة ، وكأنه أرض صلبة . يشهد الجميع بذلك إلا العمدة ـ المؤمن بالعلم ـ الذى ينكر أنه رأى البحر ينشق ، وإنما ينعى زوجته ، باعتبارها ماتت غريقة مع عائشة وبقية أهل القرية .

ويعود العمدة إلى القرية ، حيث تستولى عليه الكآبة ، فتتدهور صحته سريعا ، حتى إذا أشرف على الموت كان آخر ما يراه ، رؤيا تنشق فيها مياه البحر ، ويرى فيها عائشة ومعها زوجته ، وهما تعبران البحر العربى على الأقدام .

ولا تضيف هذه الرؤيا جديدا إلى الرؤى السابقة ـ

باستثناء الجو الهندى الصميم الذى تجرى أحداثها فيه ، وإنما يؤكد المؤلف من خلالها نفس العبرة التى يريد للقارىء أن يستمدها من الرؤى السابقة ، وهى ضرورة التمسك بالمبدأ ، والسير فى الطريق حتى النهاية دون تزحزح ، والذى يعتقد المؤلف - أو يروّج - أن النبى صلى الله عليه وسلم ، لم يتمسك به كما ينبغى .

كما أن فيها تلك القصة التى حشرها المؤلف عن رجم طفل وليد بأمر إمام المسجد ، وغنى عن البيان أن هذا العمل الإجرامى الهمجى لايمكن أن يصدر عن مسلمين ، أو يسمح به الإسلام ، وإنما الموقف الإسلامى المعروف هو معاقبة الزناة أنفسهم ، لا أطفالهم . والقصة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أجل عقاب الزانية حتى تضع حملها ، ثم حتى تتم الرضاع - معروفة لا تحتاج إلى إعادة ولكن .. لله فى خلقه شئون .

الباب الثالث

المؤلف من خلال كتابه

بعد أن استعرضنا الكتاب بشقيه الروائى والدعائى ، أو القصة والرأى ، نستطيع أن نتوقف لننظر إلى مؤلفه من خلال كتابه ، لنتعرف على تكوينه الفكرى والعقائدى من خلال تقييمنا لكلامه :

عقيدة المؤلف الدينية :

يبدو التساؤل عن عقيدة المؤلف ، بعد هذا العرض لآرائه وأفكاره وأسلوبه ، وكأنه تساؤل لا محل له ، ولاجدوى منه .

فهو أولا : غير مؤمن ، لا بالله ، ولا بملائكته ، ولابكتبه ، ولابرسله ، ولا باليوم الآخر . بل يهزأ ويسخر من كل ذلك في تبجّج فريد : زنديق ، ملحد ، كافر ، مرتد عن الإسلام .. إلخ هذه الأوصاف .

وهو ثانيا : انحلالى .. لايقيم وزنا للأخلاق أو الفضيلة أو الشرف ، بل يعادى كل هذه المعاني عداء صريحا . ويكفى للدلالة على ذلك ، أنه ـ وهو الذى ينعى على الإسلام تحليله لتعدد الزوجات ، وكأنه أمر لايليق وفضيحة لاتغتفر ، لايتورع عن أن ينشيء صورا من الانحلال يندى لها جبين إبليس نفسه ؛ من زوج وعشيق وزوجة حبلى من العشيق يقيمون في وئام تحت سقف واحد ، إلى زوجة وعشيقة يتعاونان مع الابن على العناية بالأب المشرف على الموت ، إلى أب وعشيقته وزوجها وابن وعشيقته التى تصبح عشيقة الأب فى لحظة ..

إلى آخر هذا العك التعاوني ـ على رأى الاستاذ نجيب المستكاوى ـ صور يذكرها دون أن تهتز لها شعرة من جبينه ، ودون أن تستحق منه التعليق عليها بعلامة تعجب واحدة ! وهو الذى أفرد لمسألة تعدد الزوجات بابا كاملا من ٣٥ صفحة من رسالته .

كل هذا صحيح . ويكفى القارىء أن يقرأ بضع صفحات من الكتاب أو يقرأ هذا العرض الموجز الذى قدمناه ، ليتبين بصورة قاطعة ، أن الكاتب ملحد ، وانحلالى . ومع أنه ليس كل ملحد انحلاليا بالضرورة ، بل ربما حرصت بعض الفلسفات والمذاهب الإلحادية على الفصل بين الاعتقاد فى «الغيبيات» وبين الالتزام بمبادىء الأخلاق ، إلا أن هذا المؤلف بالذات يجمع بين الإلحاد والانحلالية ، وكأنهما وجهان لعملة واحدة . والانحلال بشتى صوره ، لايمثل عند المؤلف اقتناعا عقليا فحسب ، بل أسلوب حياة ونمط سلوك ، مما لابد أن القارىء الفطن قد استنتجه كما استنتجناه ـ من كلامه .

فما سؤالنا إذن عن عقيدته ؟ فليس بعد الكفر ذنب كما يقولون .

ونحن لانتساءل هنا عن ما بعد الكفر ، بل عن عقيدته «قبل» الكفر ، وتحت مظلة الكفر ، أو العلمانية[1] كما يحب أصحابها

---

(١) أرجو أن انبه القارىء الى أن استخدام كلمة «العلمانية» هنا سيكون قاصرا على المعنى الذى يستخدمها به الملحدون وهى أنها مرادف ـ مخفف ـ لكلمة «الإلحاد» . وليس لهذه الكلمة عندنا علاقة «بالعقلانية» التى تعنى إعمال العقل فى كل الامور ـ حتى الدينية منها ـ دون إنكار للمعتقدات الدينية الأساسية . فليس كل عقلانى علمانيا أو ملحدا .

أن يسموها . نتساءل عن المعتقدات المترسبة فى ذهنه ، وفى أعماق ضميره ، تحت القشرة الرقيقة من الاقتناع النظرى ، أو التسليم بالإلحاد . هذا هو ما نبحث عنه .

فمن الظواهر الجديرة بالتأمل فى هذا العصر ، أن كثيرا من الملحدين - بل أغلبهم فى الواقع ، من الذين سلّموا عقولهم ، أو سلمت عقولهم ، بالفكر العلمانى ، وبخاصة الماركسية ، التى جذبتهم بجانبها الاجتماعى وهو «المادية التاريخية» - بما فيها من مبادىء عن العدالة الاجتماعية والمساواة ، إلى التسليم بجانبها الفلسفى المتمثل فى «المادية الجدلية» ، القائمة على إنكار فكرة الألوهية برمتها ، وطرح جميع الأديان جانبا ، باعتبارها إفرازات طبقية فى مراحل معينة من تطور المجتمع - أو باختصار : « أفيون الشعوب » حسب القول المشهور!

أقول .. إن غالبية هؤلاء العلمانيين ، ظلت مترسبة فى أعماقهم كثير من القيم التى تربوا عليها ، واحترام كامن فى نفوسهم للمقدسات التى اعتادوا على توقيرها وعدم المساس بها ، بل والتعصب فى كثير من الأحيان للديانات والملل والمذاهب التى كان عليها آباؤهم ، والتى يشعرون - بصورة ما - بالانتماء إليها ، وبأنهم جزء منها ، مسئولون عنها .

أعرف كثيرا من هؤلاء «العلمانيين» ، يقرأون آية الكرسى - سرّا - كلما حَزَبَهم أمرٌ أو واجهوا خطرا ، ويتلون الشهادتين إذا دهمهم موقف يتعرضون فيه للموت ، ولا يأكلون لحم الخنزير على أى صورة كان إلخ .. ، وكثير منهم يعودون ، بعد فترة ، وبدرجات متفاوتة إلى عقيدتهم التى تربّوا عليها .

وأعرف - وربما يعرف القارىء أيضا - كتابا معاصرين وراحلين ، عقيدتهم المعلنة هى العلمانية ، ولكنهم يتعصبون

أشد التعصب لكل من هو على دينهم الأصلى ، وتفيض كتاباتهم بهذه الروح ، فى تستر مصطنع لايخفى على أحد .

بل لقد عرفت ـ فى مرحلة من مراحل العمر ـ زعيما من كبار زعماء الحركة الشيوعية المصرية ، ماركسيا ملحدا لاينى لسانه عن الاستهزاء بالأديان جميعا ، يهوديا ـ أو من أصل يهودى كما كان يصف نفسه ، كان يمتنع عن أكل اللحم الذى يأكله «رفاقه» من المسلمين والمسيحيين واليهود ، متظاهرا بأنه «نباتى» . ولكنه لايتردد فى أكل لحم الكوشير (وهو اللحم الذى يذبحه كاهن اليهود) عندما تحضره له زوجته ، زاعما أنها تطهوه له بطريقة خاصة تحتملها معدته ، ويحتاجه جسمه الذى يضعفه الامتناع الطويل عن أكل اللحوم .

حتى أعلام الفكر والسياسة من زعماء الماركسية ، ومن ذوى الأصول اليهودية خاصة ، وجهت إليهم اتهامات لاتخلو من الصحة ، بأنهم يتعصبون لديانتهم القديمة وأهلها . وعلى رأسهم «كارل ماركس» نفسه ، ومن بعده «تروتسكى» الزعيم الروسى البلشفى رفيق لينين ، والمرشح لخلافته لولا أن أزاحه «ستالين» .

فالعقيدة الدينية أرسخ فى النفس مما يظنّ معظم الناس ، ومما يزعم العلمانيون . فالانسان يرتضعها منذ الطفولة ، فتصبح جزءا من تكوينه مثل لبن أمه ، يصعب انتزاعها كلية ، مهما بدا من اقتناع صاحبها بما يخالفها من نظريات أو فلسفات .

وقد عبر مؤلف الكتاب نفسه عن ذلك فى قوله فى موضع من كتابه ـ اقتباسا من أحد كتاب الغرب : «**إن المرء لايمكن أن يشفى من طفولته**» . كما عبر عنه فى حديث له إلى إحدى الصحف ، إذ يصف نفسه بأنه « **علمانى يحتفظ لله بمكان فى قلبه** » .

وسوف نصحب القارىء فى رحلة داخل هذا القلب الذى يصفه ، متغلغلين تحت تلك القشرة الهشة من العلمانية والانحلالية ، لنتعرف على حقيقة العقيدة التى ارتضعها مع لبن أمه ، والتى لايمكن أن يشفى منها أبدا .

أول ما يلفت نظرنا فى كلام المؤلف ، هو ما لم يقله ، ما يتجنب المساس به ، ما يعتبره قدس الأقداس الذى لا يمس من قريب أو بعيد ، ولا يشار إليه ولو إشارة عابرة ، خيفة الوقوع فى المحذور الذى لايغتفره ضميره ـ أو ما تبقى من ضميره .

هذا الحرم المقدّس ، هذا المحذور المخوف ، يتمثل فى شخصين واسمين اثنين ، لم يشر إليهما ـ كما ذكرنا آنفا ـ ولو من باب الصدفة او الخطأ ، وهما شخصا أمير المؤمنين **الإمام على بن أبى طالب** كرم الله وجهه ، وزوجته **فاطمة الزهراء** ابنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واسماهما الكريمان العزيزان على قلب كل مسلم مهما كان مذهبه . يتورع المؤلف ـ وهو الذى لايتورع عن شىء ـ ويتقى ، ويحذر ، أن يذكرهما بخير أو بشرّ .

ومن بعدهما السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، لايذكرها إلا بكل احترام وتبجيل هى أهل له ولأكثر منه ، ولايطلق اسمها على شخصية معاصرة من شخصيات روايته أو رسالته ، إلا مشفوعة بالتكريم والإجلال لتلك الشخصية . ويصفها صادقا ـ وهو الكذوب ـ بأنها كانت للنبى الأمّ والزوجة والمعين والرفيق ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم ضاقت به السبل واشتد عليه الكرب بعد أن توفاها الله سبحانه وتعالى إلى رحمته .

ثم سيد الشهداء ، أسد الله ، حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم : لايذكره أيضا إلا بالتعظيم والتبجيل الذى هو أهل له ، وأضعاف أضعافه فوقه .

والمرتبة التالية لهاتين المرتبتين ، هى مرتبة يضع فيها اثنين لا ثالث لهما من أصحاب الرسول الكريم رضى الله عنهم جميعا ، هما على التحديد : سلمان الفارسى صاحب الخندق ، وبلال بن رباح مؤذن الرسول عليه الصلاة والسلام .

إذن فهناك مقدسات لاتمس . وهناك أشخاص لايذكرون إلا بالتبجيل والتكريم ! وليست الحكاية كلها علمانية فى علمانية !

وهناك على الجانب الآخر : أشخاص يلعنون أشد اللعن ، ويسبون سبا رذيلا بالحق والباطل ، أو الباطل وحده . أولهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ، وهند بن عتبة ، وزوجها أبو سفيان . يجعلهم رموزا للشر والرذيلة ، لا بأشخاصهم فقط ، بل أيضا بأسمائهم التى يجعلها علما على كل من يريد تحقيره من الأشخاص الذين يملأ بهم روايته ورسالته . فمثلا صاحبة الفندق البدينة الجاهلة ، يسميها «هند» ، والكاهنة المجنونة يسميها «عائشة» ، وصاحب الفندق الإمعة يسميه «سفيان» .. وهكذا . وهو فى سبيل ذلك لايفرّق بين أبى سفيان وزوجته هند قبل أن يسلما ، وبعد أن أسلما . فهو لايعترف بأن الإسلام يجبّ ما قبله .

المرتبة التالية من الأشخاص والأسماء الذين يهزأ بهم عرضا ، أو دون توقف كثير ، هم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وخالد بن الوليد ، وزوجات الرسول بعد خديجة ، وخاصة حفصة بنت عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنهم جميعا .

أما الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وجبريل روح القدس ، والقرآن الكريم كتاب الله وكلمته ، فهذه الثلاثة يضمها فى مجموعة واحدة ، طابعها عنده الإنكار والتشكيك فى مصداقيتهم ، والترويج لفكرة تبديل القرآن وتحريفه بصورة خاصة ، ثم السخرية كلما أراد أن يستخف دمه أو يستخف بعقل قارئه .

وأما البيت الحرام ، أول بيت وضع للناس ، وقبلة المسلمين ، فيمطره بالسخرية والكراهية والألقاب الوثنية ، وبالشتائم البذيئة لبانيه ورافع قواعده إبراهيم الخليل ، وابنه الذبيح إسماعيل ، على نبينا وعليهما أفضل الصلاة وأزكى السلام .

وفى النهاية ، تأتى فكرة التناسخ التى يقيم عليها الهيكل العام للكتاب ، ويجعلها الصلة الوحيدة بين الرواية والرسالة ، والمطيَّة التى ينتقل بها عبر الزمان والمكان والأشخاص ، فيما يسمونه "سيكولوچيا الحلم" ، والتى يبدأ بها أول كلمة من كتابه ، ثم يرددها مرارا بعد ذلك : "من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولًا" .

هذه هى الخصائص ، أو الملامح ، أو المواصفات ، التى انبتت عليها عقيدته التى ارتضعها مع لبن أمه .

ولاشك أن القارىء قد استنتج أن هذه المواصفات ، أو بعضها ، تضع صاحبها فى عداد الشيعة ، أو على وجه الدقة ـ المنتسبين إلى المذهب الشيعى . وهذا الاستنتاج صحيح مائة فى المائة ، بديهى لايحتاج إلى دليل . ولكن الاقتصار عليه ينطوى على تعميم وتسطيح وإخلال ، لايقل عن تسطيح المؤلف فى وصفه نفسه بالعلمانية . وهو قبل ذلك ظلم فادح للغالبية من أبناء المذهب الشيعى بطوائفه العديدة .

فكلمة «الشيعة» كلمة واسعة جدا ، تستخدم للدلالة على قطاع عريض من المسلمين ، والمنتسبين إلى الإسلام . وهى وإن كانت تنطبق على عدد لايتجاوز ١٠ ٪ من المسلمين ، إلا أن بداخل هذه العشرة بالمائة أقساما وفرقا وطوائف لا تكاد تُعد أو تُحصى ، متباينة فيما بينها أشد التباين ، لايجمعها إلا أن كلا منها يعتبر نفسه «مشايعا» لأمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه . ويقول الإمام أبو الفتح الشهرستاني إنه أحصى من قسم واحد من أقسام الشيعة ، ٧٢ فرقة وطائفة مختلفة .

والأساس المشترك الذى تقوم عليه جميع هذه الأقسام والفرق والطوائف ، هو القول بأحقية الإمام على بالإمامة والخلافة ، حين انقسم المسلمون بين مؤيد لعلى ومؤيد لبنى أمية فى الفتنة الكبرى . وهو قول يكاد يجمع عليه المسلمون المعاصرون على مختلف مذاهبهم من سنة وشيعة ، وحتى الدارسون «الموضوعيون» للتاريخ الإسلامى . ويضاف إلى ذلك تعظيمهم ومحبتهم لآل البيت ـ بيت الرسول ـ وبخاصة فاطمة الزهراء . وهذا أيضا عليه إجماع كامل من المسلمين .

ثم بعد ذلك يأتى الخلاف والتفرق والانقسام إلى أقسام وفرق وطوائف .

ولسنا هنا فى معرض بيان معتقدات كل من هذه الأقسام والفرق والطوائف ، ولكننا سنلخص الفروق الأساسية بين الأقسام الرئيسية ، حسب منهج الإمام ابن حزم الأندلسى[1] ، الذى قسمها الي ثلاثة أقسام كبيرة :

١ ـ الزيدية : وهى أقرب الأقسام إلى أهل السنة . يحصرون الإمامة فى نسل فاطمة الزهراء ، ولايسبّون الشيخين أبا بكر وعمر ، ولايكادون يختلفون فى أصل العقيدة عن أهل السنة ، وإن خالفوهم فى بعض الشرائع والفرائض . وأغلب أتباع هذا القسم فى اليمن والشام .

الإمامية : وهم القائلون بإمامة على كرم الله وجهه بعد النبى عليه الصلاة والسلام مباشرة . ولذلك يعتبرون أبا بكر وعمر «مغتصببين» لحق على وحق آل البيت . ويسميهم ابن حزم «متوسطة الغلو» ، ويؤمن أغلب فرقهم بالتناسخ ، وبالزيادة والنقص والتغيير فى القرآن الكريم . والفروق فى التشريع والفرائض بينهم وبين أهل السنة كثيرة . كما أنهم يكفرون من ليس على مذهبهم . وغالبيتهم فى إيران . بل هم حكامها الحاليون بعد ثورة إمامهم الخمينى - غفر الله له .

٣ - **الغلاة** : وهم أبعد الأقسام عن أهل السنة ، وأكثرهم فرقا وطوائف ، تتركز فيهم أكثر البدع المخالفة لأصل العقيدة الإسلامية ، من التشبيه ، والبدء والرجعة ، والتناسخ والحلول ، وهى أكثر الأقسام تأثرا بالديانات الهندية القديمة . ومنهم طوائف تتعصب لعلى بن أبى طالب ، فتعتبره ، لا أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر فحسب ، بل أحق بالنبوة نفسها من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن الرسالة التى كان من المفروض أن تنزل على علىّ - قد سلمت الى محمد عن طريق الخطأ - فى قول بعضهم ، أو عن طريق خيانة من حملها - في قول آخر . يعنون ملاك الرب جبريل عليه الصلاة والسلام . وتزيد بعض طوائفهم وفرقهم على ذلك ، فينسبون الألوهية ذاتها إلى على بن أبى طالب ، الذى هو عند عامة المسلمين عبد الله وصاحب عبده ورسوله .

ومن الجلى أن هذه الفرق التى ذكرناها من غلاة الشيعة خاصة ، يخرجون بمعتقداتهم تلك على العقيدة الإسلامية القائمة على شهادتين : أولاهما بوحدانية الله بلا تشبيه ولا تناسخ إلخ ... ، والثانية بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ورسالته ، ثم على الإيمان بقدرة الله التى لايجوز عليها السهو ولا الخطأ ، وبالملائكة الكرام الذين وصفهم ربهم بأنهم «لايَعْصُونَ الله مَا أمَرَهُمْ ويفعلوُن ما يُؤمَرُونْ » ، وبكتاب الله الذى قال عنه سبحانه وتعالي «إنَّا نَحْنُ نَزَّلنَا الذّكر وإنا له لَحَافظُون » ، وبأنه «لايَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْه ولا مِن خَلْفِه» .

خرجوا من كل هذه العقائد والمبادىء التى انبنى عليها الإسلام ، ولم يبق لهم منه إلا اسمه ، وبعض شعائره ، والتعصب المبالغ فيه لآل البيت - رغم انكارهم لرب هذا البيت الذين هم أهله - وبقيت لهم أيضا ، صور يعلقونها على الجدران ، لحمزة بن عبد المطلب ، وهم يقاتل إخوة هند بنت عتبة ، ويسمونها : «حمزة نامه» .

ومن عجيب الاتفاق أن ابن حزم الأندلسى (١) ، فى معرض وصفه لعقيدة إحدى تلك الفرق من غلاة الشيعة ، يقول إن طائفة منهم تعتقد أن جبريل تعمد إعطاء الرسالة الموجهة إلى على بن أبى طالب ، إلى محمد صلى الله عليه وسلم ، ويلعنونه لذلك - لعنهم الله . وطائفة أخرى تقول إن جبريل غلط - بغير قصد - نظرا للشبه الكبير بين النبى وبين ابن عمه علىّ (وهو غير صحيح كما أثبت علماء السيرة) ، ثم يضيفون من عندهم أن النبى وعليا كانا متشابهين «شبَهَ الغراب بالغراب» حسب قولهم . ولذلك يسمون أنفسهم «الفرقة الغرابية» .

فكأنما يأتينا هذا التشبيه السمج ، وهذا الاسم الذى اختاروه لأنفسهم ، عبر القرون ، صدى لموقف صاحبهم « سلمان رشدى » الغرابى فى عصرنا الحديث .

ولايحسبن القارىء أن هذه الجماعة وأمثالها هى شىء فى بطون الكتب ، قد صهره الزمن أو محته أحداث التاريخ ، وإنما هى طائفة قائمة موجودة حتى يومنا هذا ، وإن كانت قليلة العدد ، وبخاصة فى شبه القارة الهندية .

ويشهد كاتب هذه السطور ، أنه التقى بواحد على الأقل من أتباع هذه الطائفة أو ما يشبهها من الطوائف من غلاة الشيعة : مهندس شاب باكستانى الجنسية ، التقيت به وعرفته عن قرب أثناء

---

(١) الفصل فى الملل والاهداء والنحل - ابن حزم الاندلسى طبعة دار المعرفه - بيروت - الجزء الرابع ص ١٧٩ .

عملى فى إحدى البلاد العربية ، يتسمى باسم إسلامى عربى شريف ، ويطلق لحيته ، ويلبس فى احدى قدمية خلخالا من الفضة ، يرمز به إلى القيد الحديدى ، تضامنا مع الإمام الحسين ابن على رضى الله عنهما ، وتذكيرا لنفسه بآلامه . وعلمنا من زملائنا الباكستانيين من أهل السنة أنه ممن يعتقدون فى استحقاق علىّ للرسالة دون النبى صلى الله عليه وسلم . وعجبنا لهذا التناقض ، فاستدرجه صاحب لنا من أبناء تلك الدولة الشقيقة ـ ذكى أريب لبق الحديث ، قال له وهو يحاوره : كيف يشهد بأن محمدا رسول الله ، وفى نفس الوقت يكذب على الله والناس وينسب هذا الأمر الجليل لنفسه وهو ليس له ؟ .. وبعد تمنّع طويل ، أجابه ذلك الشاب بعبارة واحدة نطقها بالعربية وكأنه يحفظها عن ظهر قلب : « صدق محمد ، وكذب الخائن » . ثم سكت بعد ذلك لاينطق بكلمة واحدة فى هذا الموضوع . وفهمنا بالطبع أنه ـ لعنه الله ـ يعنى بالخائن : جبريل ـ روح القدس عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام .

والذى يعنينا هنا ، هو أن مؤلف ذلك الكتاب الشيطانى ، الذى أراد ـ من بين ما أراد ـ أن يوهم الناس أن هجومه على الإسلام والمسلمين والقرآن والملائكة والأنبياء والبيت الحرام والصحابة والعرب ، هو شىء من باب «وشهد شاهد من أهلها » أن ذلك الكاتب ليس من أهلها ، ولم يكن قط من أهلها . بل هو من أعدائها ـ أعداء هذه الملّة الإسلامية الشريفة ـ لابعلمانيته المكتسبة فحسب ، بل بحكم مولده ونشأته وعقيدته الأصلية التى ارتضعها مع لبن أمه وفى بيت أبيه . فهو غراب أسود ، أقتم الريش ، فاحم السواد ، من تلك الطائفة الغرابية من غلاة الشيعة ، أو من فرقة قريبة منها ، قبل أن يغادر وطنه ، ويقرر أن يتحول إلى غراب أبيض .

عقيدة المؤلف السياسية :

لايقل المؤلف يساريّة ـ في موقفه ومذهبه السياسى ، عن غلوه في عقيدته الدينية الأصلية . و «اليسارية» ، و «الغلو» ، هما في الواقع شىء واحد ، أو هما تعبيران مترادفان لايفرقهما الا الزمن الذى شاع استخدامهما فيه .

فالمؤلف ينتسب بفكره وبتصريحاته للصحف ، إلى ما يسميه : اليسار الإنجليزى . وهو ينتسب ، بحكم تعاطفه واجتذابه لتعاطف القارىء ، إلى «الماركسية التروتسكية» ، مثله مثل صاحبته ، أو صاحبة صاحبه ونظيره وقرينه في الرواية ـ زينات وكيل .

والتروتسكية هى المذهب اليسارى من الماركسية ، أى يسار اليسار ، أو أقصى اليسار في الفكر السياسى المعاصر عامة . وينسب هذا المذهب إلى ليون تروتسكى ، الزعيم البلشفى اليهودى الأصل ـ كما ذكرنا ، والذى كان يدعو ، بعد نجاح الثورة البلشفية في روسيا عام ١٩١٧ ، إلى أن تمتد الثورة عبر حدود روسيا ، إلى البلاد الأوروبية الأخرى . وأن المهمة الرئيسية للدولة الجديدة وحزبها الشيوعى ، هى أن تقوم بإحداث ثورات مماثلة في بلدان العالم الأخرى ، وفى نفس الوقت ـ أن تزيل على الفور ، جميع صور الاستغلال الرأسمالى داخل الاتحاد السوفييتى . وهو ما يسمى في الفكر الماركسى «نظرية الثورة الدائمة» .

وكان الموقف الذى اختاره لينين ـ زعيم الثورة الأول ـ هو ضرورة التركيز على بناء الدولة السوفيتية الجديدة ، وتقويتها ، داخل حدود روسيا ومستعمراتها أو توابعها القديمة ، وأن المهمة الأولى للثوار ، هى المحافظة على سلامة هذه الدولة ، لتكون «قلعة الاشتراكية التى لاتقتحم» ، ثم لتكون بعد ذلك « قاعدة لإسقاط النظام الإمبريالى العالمى» . وسار لينين على هذا النهج ، مهادنا فى كثير من الأحوال الدول الأوروبية الأخرى ، ومتحالفا فى المجال الاقتصادى على الأقل ، مع الولايات المتحدة نفسها ، ومدافعا عن حدود دولته الجديدة فى حروب التدخل ، حتى عندما اضطره هذا الموقف إلى تسليم بعض المناطق من الأراضى الروسية والتابعة ، إلى دول الغرب الرأسمالية ، مقابل السلام وحماية حدود الدولة الجديدة . كما هادن بعض الطبقات التى تصنفها الماركسية باعتبارها رأسمالية مستغلة ، داخل حدود روسيا نفسها ، إيثارا لسلامة الثورة وحزبها ، فيما يسمى « N.E.P » ، أو السياسة الاقتصادية الجديدة .

وعندما مات لينين ، بعد بضعة أعوام من الثورة ، انقسم الرأى فى الحزب البلشفى إلى فريقين كبيرين : أحدهما يؤيد استمرار السياسة اللينينية تحت زعامة ستالين ، والآخر يؤيد سياسة الثورة الدائمة بزعامة الزعيم الآخر ، الأكثر التصاقا بلينين ، والأكثر جماهيرية والأعلى صوتا من ستالين ، وبعد صراع على السلطة لم يدم طويلا ، تمكن ستالين من إقصاء تروتسكى عن الحزب والسلطة والوطن جميعا ، فنفاه إلى المكسيك ، ثم دس عليه من اغتاله بعد ذلك ـ كما يقال .

وبقى من هذه المعركة ـ بعد أن صفّى ستالين أنصار تروتسكى فى الحزب والدولة ـ أثر واحد ، هو اعتناق فريق قليل العدد من الماركسيين خارج الاتحاد السوفييتى ، لفكرة الثورة الدائمة ، وإدانة أى مهادنة أو مصالحة ، مهما كانت وقتية أو ضرورية ، مع أعداء الثورة . وهؤلاء هم من يعرفون بالماركسيين التروتسكيين ،

ومن بينهم ـ سلمان رشدى .

وقد أثبت التاريخ ـ كما هو معروف ـ أن سياسة لينين وستالين كانت هى الأصوب والأجدى ، من وجهة نظر المصلحة القومية والحزبية للاتحاد السوفييتى والثورة الشيوعية . فلو كانت سياسة تروتسكى قد طبقّت ، لكان من المحتم أن تتحد كل دول الغرب الأوروبية الرأسمالية ضد الدولة السوفيتية الجديدة ، دفاعا عن مصالحها هى نفسها من الثورات التى تثيرها أو تهدد بإثارتها فيها ، فتجهز عليها قبل أن تتمكن من تدعيم وجودها . كما كان من المحتم ، لو اكتسب الحزب عداوة جميع طبقات الأمة دفعة واحدة ، ما عدا طبقة «البروليتاريا» أو الشغّيلة ـ قليلة العدد ، أن تتحالف جميع تلك الطبقات لإسقاط النظام الجديد ، دون أن تسمح له بمهلة يلتقط فيها أنفاسه ، أو ينفذ برنامجه على مهل وبالتدريج .

ما يهمنا من هذا السرد ، هو أن نبين أن أشد المواقف تعصبا ، وتهيجا ، وغلوّا ، ويسارية ، هى فى الحقيقة فخّ ومقتل ، يهدد بابتلاع المبدأ أو المصلحة التى يتظاهر بالدفاع عنها والاستماتة فى سبيلها . تماما مثل المواقف البطولية الانتحارية التى يتبناها المؤلف ويبشر بها ، سواء من ناحية العقيدة فى أبواب الرسالة عامّة ، أو فى الجانب السياسى الذى يشيد فيه بالإمام الخمينى ، باعتباره رافع لواء الإسلام فى العصر الحديث ، القاهر المنتصر على إلهة الشر ، الذى لايهادن ولايصالح ، ولايفكر مجرد تفكير فى المهادنة والمصالحة .

يقال إن قيام الثورة الإسلامية فى ايران ، كان رد فعل للمهادنة التى أجرتها مصر ـ كبرى دول الأمة العربية وقوتها الرئيسية ـ مع العدوّ الصهيونى ، على إثر حرب رمضان ـ أكتوبر ١٩٧٣ . وفى هذا القول كثير من الصحة . فقد كان من بين الشعارات التى رفعها الثوار الإيرانيون ، قبل الحرب وبعدها ، وقبل الثورة وبعدها ، شعار : «تحرير القدس» ، تحريرها من العدو الصهيونى ، ومن العرب

المتخاذلين الذين سلموها لليهود . وظهرت شعارات مثل أن الطريق إلى القدس يمر ببغداد ، بل يمر بالقاهرة ، كما ظهرت المواقف العنترية فى العالم العربى نفسه ، ترفع شعارات الصمود والتصدى ، ولاءات الخرطوم ، والحرب حتى آخر رجل ... مصرى - إلخ .

وقد أثبت الزمن ، ومازال يثبت ، أن تبنى هذه الشعارات من جانب مصر خاصة ، لم يكن ليؤدى إلا إلى الانتصار النهائى والحاسم والأبدى ، لا للعرب ، ولا للإسلام ، ولا لتحرير القدس ، وإنما للعدو الصهيونى .

وظهرت تحت مظلة هذه الشعارات الرنانة ، مواقف مستترة تؤدى بالضبط إلى عكس ما تبشر به الشعارات : من شراء الأسلحة من إسرائيل ، والتداوى فى مستشفياتها ، والتنسيق الخفىّ فى المواقف معها ، إلى مهاجمة الجناح الشرقى للأمة العربية ، ومحاولة احتلال العراق (أو : بابل - كما يسميها رشدى) ، والتى لولا صمود شعبها الحقيقى ، وسلامة موقفها التاريخى ، لكانت قد انتهت بكارثة ، لا على يد العدو الصهيونى أو الإمبريالية الأمريكية ، بل على يد أعلى المسلمين صوتا ، وأقواهم حناجر ، فى الهتاف بسقوط الإمبريالية والصهيونية ، أو فى كلمة : أكثرهم «غلوّا» ، ويسارية .

ويماثل هذه الصورة ، ويزيدها وضوحا ، الاستعراض السريع الذى أوردناه لتصاعد حرارة الغلو عند فرق الشيعة الواحدة تلو الأخرى ، وهى جميعها ترفع شعار الإسلام : بدأت من التعصب للحق الذى جاء به الإسلام وكُتابه ورسوله ، إلى التشيع إلى الجانب الذى إليه الحق فى الحرب الأهلية بين المسلمين . ثم تجاوزت إلى تقديس رموز ذلك الجانب ، فإلى تكفير كل من عارضها أو لم ينضم إليها انضماما تاما ، ثم إلى إنكار نبوة صاحب

الرسالة ، وإسنادها إلى تلك الرموز ، ثم إلى إنكار رسالته نفسها والتشكيك فى مصداقيتها ، ثم أخيرا إلى نقض مبدأ التوحيد ذاته ، وهو الأساس الذى قامت عليه الرسالة ، بتأليه رموز ذلك الجانب الذى إليه الحق .

دورة كاملة تحمل الانسان من النقيض إلى النقيض ، من التوحيد المطلق .. إلى الشرك الصريح ، على مركب من التعصب للرأى ، والمغالاة ، واليسارية .

ولعل فى هذا تفسيرا للتناقض الظاهرى بين موقف سلمان رشدى الغرابى من الحضارة الغربية الحديثة ، وهو الانصهار التام فيها والانتماء الكامل اليها ـ اى ما يمكن أن نسميه «أقصى اليمين» على المستوى الحضارى والثقافى ، وبين أقصى اليسار فى الموقف السياسى الذى يتبناه ويدافع عنه . فالموقفان هما موقف واحد فى الحقيقة ، فى النتيجة العملية التى يؤدى كل منهما إليها فى النهاية . ولعلنا نكون قد تعلمنا من دروس التاريخ ، أن النتيجة العملية التى يؤدى إليها الموقف هى المحك الحقيقى والوحيد لتحديد الجانب الذى يخدمه هذا الموقف ، وليست الشعارات أو اللافتات المرفوعة فوقه . وغنى عن البيان أن الموقفين الحضارى والسياسىّ اللذين يتبناهما «رشدى» ، يؤديان من طريقين منفصلين إلى نتيجة واحدة ، هى الهزيمة الكاملة ، والتسليم الكامل للعدو ، رغم ما يبدو بينهما من تناقض أو تعارض .

وبدون الدخول إلى دهاليز «المنطق الجدلى» ، من صراع الأضداد ، وولادة الشىء من أحشاء نقيضه إلخ .. ، يكفينا أن نتذكر مثلنا العربى القديم البسيط : أن الشىء إذا زاد عن حده انقلب إلى ضده .

الباب الرابع

■ أصداء ظهور الكتاب ■

سنحاول فى هذا الباب بيان ردود الأفعال التى نتجت عن ظهور هذا الكتاب فى مختلف أنحاء العالم . ولابد لنا فى هذا الصدد من أن نقسم هذه الأصداء إلى تيارات منفصلة متباينة ، فى القطاعات المختلفة من الرأى العام العالمى . لا لأن ما يحدث فى قطاع من هذه القطاعات منفصل عما يحدث فى غيره من القطاعات ، بل على العكس من ذلك ، ففى عالمنا هذا المعاصر ، يتأثر كل بلد بما يحدث فى البلد الآخر ويؤثر فيه ، كما تتلاطم أمواج البحر وتتدافع وتختلط ، وتؤثر كل منها على الأخرى وتتأثر بها .

ولكننا نقصد إلى أن نميز التيارات الأصلية المختلفة ، النابعة من طبيعة هذه القطاعات ، لكى نحدد القوى الأساسية المؤثرة فيها قبل أن تختلط وتتلاطم ، مشيرين - قدر الضرورة - إلى تأثير هذه التيارات على بعضها البعض .

صدى الكتاب عند الغربيين

غنى عن البيان أن الكتاب موجّه أولا وأساسا إلى عقل القارىء الغربى وجيبه . فهو أولا يخاطبه بلغته ، أو بأشيع لغاته وأوسعها انتشارا ، مستخدما الأسلوب المبتذل الذى أصبح لا يستمرئُ غيره . وهو ثانيا يصور له «الشرق» في الصورة التى اعتاد أن يتصور عليها هذا الشرق : أرض الأحلام والأساطير والجن والأبسطة الطائرة والمصابيح السحرية ، وجو ألف ليلة وليلة الذى يشد القارىء الغربى ويثير خياله .

هذا من ناحية الشكل . أما من ناحية المضمون ، فقد كان من الطبيعى أن يرحب به عامة القراء الغربيين وأجهزة النشر والدعاية عندهم ، ويهللوا له باعتباره انتصارا للفكر الصليبى الراسخ فى وجدانهم ، على الفكر الإسلامى الذى اعتادوا أن يكرهوه ويرهبوه ، وأن يشعروا بالنقص والعجز إزاءه .

أولا : لأنه صادر من شخص منتم إلى هذا الفكر الإسلامى - أو مفترض فيه ذلك - بحكم اسمه ومنشأه والعقيدة المعلنة لقومه الذين ينتسب إليهم ، أى - كما أسلفنا - من قبيل : « وشهد شاهد من أهلها» .

ثانيا: يردد على مسامعهم جميع الأغانى التى اعتاد مفكروهم أن يرددوها ويطربوا لها كلما جاء ذكر الإسلام . وأهمها وأكثرها ترديدا عندهم كما ذكرنا هى : تعدد الزوجات ، والتشكيك فى

بمصداقية القرآن ، وكثرة تكاليف الإسلام وأوامره ونواهيه ، وفكرة الإله القاسى ، ومناقضة الإسلام للعلم .

ثالثا : يُسمعهم أغانى وتقاسيم جديدة لم تخطر لهم على بال ، أو خطرت لهم ولم تظفر بكثير من الشهرة فى عالم «الطرب» ، مثل :

١ ـ **السخرية من العرب** قديمهم وحديثهم ومعاصرهم ، ووصفهم بأحط الأوصاف . والمعروف أن العرب هم العمود الفقرى للإسلام ، والحائل الجغرافى والبشرى واللغوى دون اكتمال سيطرة الغرب على الشرق .

٢ ـ **تصوير البيت الحرام** ـ قبلة البليون مسلم فى مشارق الأرض ومغاربها ، بصورة المعبد الوثنى الجاهلى الذى يعبد فيه حجر أسود .

٣ ـ وصف النبى بأنه «**رجل أعمال**» انتهازى ، لا تاجر شريف كما اعتاد المسلمون وغير المسلمين أن يصفوه ، وكذلك وصفه للإسلام بأنه دين «الخضوع» أو الاستسلام .

٤ ـ استخدامه للفظ «**الحجاب**» علما على بيت الدعارة الخيالى الذى افتتحه المؤلف هو وشاعره بعل فى مكة ، تلك الكلمة التى يعتز بها غالبية المسلمين ، ويعتبرونها رمزا لاحتشام نسائهم وتميزهن عن تيارات الانحلال الغربية . وقد ترجم لهم هذه الكلمة ـ بعلمه الغزير الذى رأينا عينات منه ـ إلى كلمة معناها الحرفى «الستار» .

٥ ـ إظهاره لعاصمتهم لندن فى صورة القِبلة الروحية الجديدة التى ينبغى أن يتجه الناس إليها فى هذا العصر . ويسميها لهم «**لندن شريف**» على وزن «مكة شريف» أى : مكة المكرمة .

٦ ـ تسميته للشخصية الشيطانية فى روايته ، بالاسم الذى يكرهه الأوروبيون كراهية الموت : صلاح الدين أو «سالادين» ، على اسم البطل المسلم الذى انتزع منهم بيت المقدس للمرة الثانية بعد عمر بن الخطاب .

رابعا : يقدم لهم المؤلف هذه الهدية الثمينة ، عربونا لتنازلهم بقبوله عضوا فى مجتمعهم وجزءا لايتجزأ من ثقافتهم ، فيؤكد فى نفوسهم الشعور بالعظمة والتفوق ، تماما مثلما فعل عبد الله بن سعد بن أبى السرح ، الذى أوى إلى المشركين واشترى رضاهم بكذبة على الرسول والقرآن ، لايبالى بأن يصف نفسه فيها بالتزوير والغش لكى يزدهيهم ويسترضيهم . أو كقرد القرداتى الذى يهز ذيله ومؤخرته للصبية المتحلقين حوله ، ليستجلب ابتساماتهم الساذجة ، وفتات نقودهم ، وحبات الفول التى يلقونها إليه .

خامسا : يعطيهم الكتاب فرصة لاتعوض للظهور بمظهر المدافع عن حرية الرأى وحق الكاتب فى أن يقول ما يشاء دون رقيب أو حسيب ، لما يتوقعونه من هجوم على الكتاب وكاتبه من قبل المسلمين .

وهذه أيضا كذبة كبيرة : كشفتها الدعوى التى رفعها بعض المسلمين أمام القضاء الإنجليزى ، مطالبين بمنع الكتاب ، لإهانته لمقدسات المسلمين . فقد حكمت المحكمة بأن قانونها لايحمى إلا المقدسات المسيحية ! صحيح أن محكمة ثانية قبلت عرض القضية عليها ـ من حيث الشكل ـ باعتبار الكتاب مهينا لجميع الأديان ، ولكن مايهمنا هنا هو أن القانون البريطانى لايطلق حرية الكاتب ـ كما يدعون ـ فى أن يهين أى مقدسات ، وإنما يطلق حريته فى اهانة كل شىء .. إلا المقدسات المسيحية ! وأما قصة الحرية المطلقة للكاتب يكتب ما يشاء ، فهى كذب فى كذب ونفاق فى نفاق .

توقيت ظهور الكتاب عند الغرب :

جاء ظهور الكتاب فى وقت يحتاج فيه الفكر الغربى احتياجا ماسا الى هجوم شرس على الإسلام ومقدساته . ففى خلال الخمسين سنة الماضية ، تحولت دفة الحركة الفكرية ، من زحف الفكر الغربى - متسلحا بحضارته المادية وإبهاره التقنى والعلمى والعسكرى ، على الشرق المتخلف في كل هذه الجوانب . تحولت الدفة إلي زحف للفكر الإسلامى متسلحا بقيمه الأخلاقية وعقيدته التوحيدية وعلاقاته الاجتماعية السوية ، مهاجما نقاط الضعف الرخوة في جسد الحضارة الغربية الحالية ، التى كشفها إغراقهم فى عبادة المال ، وانغماسهم فى اللذائذ الحسية ، وإطلاقهم العنان لأحط الغرائز . وهذه بالضبط هى الصفات التى ظل الفكر الغربى قرونا عديدة يرمى بها الشرق ويصمه بها ، ويتغنى بالتطهر المسيحى فى مقابل التحلل الإسلامى .

ظل الشرق متمسكا بالفضائل الأساسية والقيم النبيلة ، بينما خلع الغرب عذار الحياء بعد أن أدفأته نار البترول المنهوب من الشرق . وتبين أنهم كانوا يتدثرون خوفا من البرد لا حبا فى الفضيلة .

لقد تبادل الشرق والغرب المواقع فى هذا العصر [١] . وأصبح الغرب هو الذى يتعلم من الشرق فى مجالات شتى :

ففى مجال الأحوال الشخصية - مثلا - اتجه الغرب إلى إباحة الطلاق بعد أن ردد زمانا طويلا حكاية ما يربط فى السماء وما ينقض فى الأرض ، أباحته بعض بلدانهم بشروط ، ومازالت بلدانهم الأخرى تدرس الموقف .

وتعلم الغرب من الإسلام مبدأ مسئولية الأغنياء من الفقراء ، فأنشأوا أنظمة مختلفة للضمان الاجتماعى ، مبنية - فى جوهرها -

---

(١) انظر كتاب « الاستشراق » للأستاذ إدوارد سعيد .

على مبدأ الزكاة الإسلامى ، بعد أن كانت المِلكية الفردية لديهم مبدأ مقدسا لايسمح لأى قوة بانتهاك حرمته ، أو بإلزام الغنى بأن يجنب جزءا محددا من ماله يخصص لصالح الفقراء . وإنما يقتصر الأمر على مجرد الدعوة الوعظية للأغنياء أن يتصدقوا على الفقراء طواعية ـ وبالقدر الذى تسمح به نفوسهم كما هو مطبق أيضا فى النظام الإسلامى ، بجانب نظام الزكاة لابديلا عنه .

● ● ●

وتعلم الغرب من الإسلام أن الخمر شر كبير ومصدر لأضرار اجتماعية وصحية وعقلية وخلقية لاتحصى ، فحاولت الولايات المتحدة دفع هذا الضرر فى الثلاثينات من هذا القرن ، ولكن افتقادها للتجريم الدينى والأخلاقى ـ بجانب التحريم القانونى ـ أدى إلى فشل هذه المحاولة . ومازالت مسألة الخمور هى الداء الاجتماعى العضال فى كثير من المجتمعات ، مثل الاتحاد السوفييتى الذى تعانى منه جميع جمهورياته ، ماعدا الجمهوريات الإسلامية التى يتمتع أهلها بصحة جسدية ونفسية واجتماعية أفضل ، وحياة أطول ، من نظرائهم فى الجمهوريات الأخرى .

وتوقف زحف التبشير والتنصير بالقوة على الشعوب المسلمة ، منذ سقوط الأندلس وإجبار أهلها المسلمين على التنصر فى ظل محاكم التفتيش الشهيرة فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم حركة «الترويس» التى شنها قياصرة روسيا على مستعمراتهم التى يدين أهلها بالإسلام .

● ● ●

وأصبح تحول شعب مسلم إلى المسيحية ـ عقيدة أو ممارسة ـ تحت أى درجة من القهر ، احتمالا غير وارد . وأقرب مثال لذلك هو مسلمو بلغاريا الذين تطردهم دولتهم الشيوعية ، عقابا لهم على إصرارهم على الاحتفاظ بأسمائهم وممارساتهم الإسلامية ، ورفضهم التخلى عن دينهم الذى تحاول هذه الدولة ـ العلمانية ! إجبارهم على تركه .

بل لقد انقلب الميزان ، فأصبح كثير ممن كانوا يدينون بالمسيحية ، ينضمون طواعية إلى الإسلام بغير تبشير ولاتفتيش . وظهرت أول آثار ذلك الاتجاه في الولايات المتحدة ، التى أخذ الكثير من مواطنيها ـ وخاصة السود منهم ـ ينضمون إلى الإسلام بشتى الصور ، باعتباره دين «البوتقة» الذى لافرق فيه بين عربى ولا أعجمى إلا بالتقوى ، فضلا عن كونه دين التوحيد والتطهر الحقيقيين .

وتحولت الجاليات الإسلامية فى بلاد أوروبية مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا ، وأغلبها من المهاجرين من بلدان إسلامية كانت تابعة لتلك الدول أو متحالفة معها ، تحولت إلى معرض حى للفكر الإسلامى والقيم الإسلامية ، ينضم إليها كل يوم أعضاء جدد من أبناء البلاد الأصليين أنفسهم ، على كافة المستويات : من رجل الشارع العادى الذى سئم الانحلال والتفسخ ، إلى كبار المفكرين أمثال «روجيه جارودى» ، الذى كان واحدا من أكبر زعماء الحزب الشيوعى الفرنسى .

ورغم أن عدد أعضاء هذه الجاليات لايمثل ـ حتى الآن ـ مشكلة كبيرة بالنسبة إلى تلك البلاد ، إلا أن استمرار الظاهرة وتزايدها يشكّل خطرا بطيئا أكيدا على الهيكل العقيدى لتلك البلدان . لدرجة

أن وزير الثقافة الفرنسى ـ فيما حكاه الأستاذ فهمى هويدى على صفحات جريدة الأهرام ـ انتهز فرصة حضوره إلى مصر فى مهمة رسمية ، فعقد اجتماعا بينه وبين عدد من المثقفين والمفكرين الإسلاميين ، أبدى فيه قلقا شديدا من إقبال الفرنسيين على القيم والمفاهيم الإسلامية ، التى يرون صورتها فى الفرنسيين من أصل إسلامى (الجزائريين فى الغالب) وغيرهم ممن انضم إلى الإسلام من الفرنسيين «الأصليين» . وشن فيه هجوما عصبيًا على ما اعتبره عيوبا فى التشريع الإسلامى ، وخاصة بالنسبة إلى ما أسماه «نظرة الإسلام الى المرأة» .

والخلاصة أن الفكر الغربى هو الآن فى حالة دفاع عن النفس ضد الفكر الإسلامى ، المتمثل أساسا فى أشخاص وتصرفات الغالبية العظمى من المسلمين المقيمين فى بلاد الغرب ، والذين يشاركون أصدق المشاركة فى جميع النشاطات الاقتصادية والعلمية والمهنية على كافة مستوياتها ، مع تمسكهم بدينهم تمسكا يبدو وكأنه يتزايد كلما زادت درجة مشاركتهم الحضارية . ولذلك جاء هذا الكتاب ، بل خُطط لاصداره فى هذا الوقت بالذات ، ليكون بمثابة هجوم مضاد ، ودعوة إلى هؤلاء المسلمين أن ينصهروا فى قيم وأخلاقيات الحضارة الغربية ، واستخدموا فيه ذلك الكاتب كمخلب قطّ مناسب جدًا ، لأنه هو نفسه نموذج لهذا الانصهار .

واشترك فى التهليل والترحيب بالكتاب كل من إنجلترا وأمريكا اللتين صدر الكتاب بلغتهما ، ثم فرنسا وأسبانيا اللتين ترجمتا الكتاب إلى لغتيهما ليوزع فى البلاد الناطقة بهاتين اللغتين فى أوروبا ، وفى مستعمراتهما وتوابعهما السابقة فى أفريقيا والأمريكتين .

ولم تتخلف دولة «البروليتاريا» السوفيتية عن هذا المهرجان ، لدرجة أن الوفد الروسى فى اتحاد كتاب آسيا وأفريقيا أشار بترشيح مؤلف الكتاب لمجلس رئاسة الاتحاد ، رغم أنه ـ من الناحية الرسمية ـ ليس آسيويا ولا أفريقيا . كما أعلن مسئول حكومى فى الاتحاد السوفييتى أنهم سيقومون بطبع الكتاب فى اللغة الروسية ، إذا تبين لهم وجود طلب كاف على شرائه . وليس فى هذا الموقف ما يثير الدهشة على الإطلاق ، فالاتحاد السوفييتى لديه «مشكلة إسلامية» أكبر مما لدى كل الدول الأوروبية الأخرى ، تتمثل فى سكان جمهورياته الإسلامية ، المتزايدين فى العدد والصحة وطول العمر وسلامة العقل جميعا ، مما يهدد بانقلاب «ديموجرافى» لصالح سكان هذه الجمهوريات . كما أن فى هذا الموقف دليلا جديدا على أن الصليبية ـ مثلها مثل العنصرية البيضاء ـ أعمق جذورا فى الفكر الأوروبى من مسألة الصراع الطبقى والنظم الاجتماعية والاقتصادية .

فالمستفيد الأول إذن من ظهور هذا الكتاب ، هو الصليبية الأوروبية بوجهيها : الثقافى المتمثل فى «التبشير والاستشراق» ، والسياسى المتمثل فى الإمبريالية أو «الاستعمار» (١) . ومن حقنا أن نستنتج أن الدافع الأول وراء ظهور هذا الكتاب هو هذا المستفيد الأول نفسه . وهو فى ذات الوقت ، الذى يدفع ثمن طباعته والدعاية له ، والمشترى الأول لنسخه المطبوعة فى مختلف اللغات .

---

(١) راجع كتاب «اباطيل وأسمار» للعلامة محمود محمد شاكر ، لترى أن التبشير والاستشراق والاستعمار ثلاثة أسماء لمسمى واحد .

ـ صدى الكتاب عند اليهود ـ

تقوم الدعاية اليهودية (أو الصهيونية إن شئت) ، فى المجالات الثقافية والحضارية والتاريخية ، على دعامتين رئيسيتين اختيرتا بعناية : إحداهما تخاطب فى الإنسان شعور «الإعجاب» ، والثانية تخاطب فيه شعور «الإشفاق» . الأولى تجعل موضوعها الرئيسى «عبقرية اليهود» والثانية تتحدث عن « آلام اليهود » .

أولا : عن العبقرية اليهودية :

الصورة التى تصور بها الصهيونية شخصية اليهودى عامة ، هى صورة الإنسان ذى المواهب الطبيعية الخارقة للعادة ، الذى يتمتع بإدراك ممتاز ، ويتفوق فى أى مجال يعمل فيه أو يحاوله ، ويبتكر من الأفكار والأساليب ما يعجز الإنسان «العادى» عن ابتكاره .

وتتضافر جهود المؤسسات والهيئات والشخصيات اليهودية والخاضعة للنفوذ الصهيونى ، على إضفاء هذه الصفات على كل يهودى لديه بصيص من الموهبة أو الذكاء أو البراعة . فيحيطونه بكل ما يمكنه من أن يكون نجما ساطعا مشهورا فى مجاله . ولهم فى ذلك ثلاث سبل يتبعونها جميعا وعلى التوالى ، للوصول به إلى هذه المنزلة : أولها تدريبه وتعليمه وفتح جميع السبل أمامه لإتقان صناعته ، وتوفير كل الإمكانات أمامه من أساتذة ومراجع وأدوات ، حتى يصل على الأقل إلى مستوى لابأس به فى مجاله .

والثانية أن يفتحوا له الطريق ، بإزاحة منافسيه من أمامه ، وتفضيله على أقرانه أو من هم أحسن منه . يكفى ـ مثلا ـ أن يتقدم طبيب يهودى متوسط الكفاءة لإحدى الوظائف فى مستشفى أو هيئة طبية ، من بين عشرة مرشحين آخرين يفوقونه علما وخبرة ، حتى يظفر ذلك الطبيب بالوظيفة دونهم . وقس على ذلك فى

بمجالات الفن والهندسة والعلم والصحافة إلخ ..

والثالثة أن يحيطوه بدعاية مدوّية ، ويسلطوا عليه أضواء الصحافة ووسائل الإعلام الأخرى التى يملكون مفاتيحها ويتحكمون فى اتجاهاتها ، حتى يصبح من المشاهير ، ويصدق الناس أنه عبقرى حقا ، وأنه مثل جديد من الأمثلة الدالة على عبقرية اليهود .

وسأذكر هنا مثالين شهيرين لشخصين من اليهود ، على درجة عالية بالفعل من المقدرة فى مجالهما ، ولكن الدعاية اليهودية أعطت لكل منهما حجما يزيد عن حجمه ، ويرفعه إلى مصاف العباقرة أو فوق العباقرة :

١ ـ البرت انيشتين : عالم الرياضيات والفيزياء الذى اكتشف فى أوائل هذا القرن (١٩١٦) ، ما اصطلح على تسميته «النظرية النسبية» . وهى نظرية تحاول تفسير الظواهر الكونية ، وتحديد القوى المؤثرة فى الكون والمحرّكة له .

وكانت نظريات وقوانين الجاذبية هى السائدة حتى ذلك الحين ، منذ أن وضعها «إسحق نيوتن» فى أواخر القرن السابع عشر . فجاءت النظرية النسبية تصحيحا وتحديدا أكثر دقة لقوانين نيوتن . واعتبرت بحق ، إضافة عظيمة إلى العلم .

ولم تكد تمضى عشرون سنة على ظهور النسبية ، حتى نشأ علم جديد اسمه «ميكانيكا الكمّ» ، أظهر جوانب من القصور فى النسبية ، وعيوبا فى تفسيرها للقوى المؤثرة على الكون ، وبخاصة فى الأجسام الداخلية للذرّة .

وأمضى أينشتين الثلاثين عاما الأخيرة من حياته ، يحاول عبثا التوصل إلى نظرية جديدة تتلافى عيوب وقصور النسبية ، وتعطى تفسيرا شاملا للكون ، يمكن تطبيقه على حركة الأجرام السماوية

والجسيمات الذرية على السواء ، مثلما فعلت نظرية نيوتن عن الجاذبية .

عاشت نظريات نيوتن فى الفيزياء ثلاثة قرون ، ومازالت إضافاته للرياضيات (التفاضل والتكامل) أدوات لاغنى عنها للعلم حتى الآن ، ومازالت نظرياته هى الأساس العلمى لجميع المخترعات الحديثة من الثلاجة إلى الصاروخ . ومن قبله عاشت فلسفة أرسطو وتصوره للكون عشرين قرنا ، وعاش طب ابن سينا سبعة قرون ، وجبر الخوارزمى سبعة قرون ، بينما فقدت النظرية النسبية معظم اهميتها بعد عشرين أو ثلاثين سنة .

ولكن الدعاية اليهودية جعلت من اينشتين ، لا أعظم علماء عصره فحسب ، بل أعظم مفكر فى تاريخ البشرية كله ، أعظم من نيوتن وأرسطو نفسهما ، حتى اصبح مضرب المثل : تقول «أذكى من اينشتين» او أعلم من أينشتين .

٢ ـ موشى ديان : ملأت الدعاية الصهيونية الدنيا ، بعد حرب الأيام الستة فى سنة ١٩٦٧ ، بصوره وأحاديثه وابتساماته الصفراء واللطعة التى يضعها على عينه العوراء ، وصوّرته بصورة العبقرية العسكرية الفذة ، التى تتضاءل أمامها عبقريات خالد بن الوليد وصلاح الدين ونابوليون ومونتجومرى .

ثم تبين أن الخطة التى استخدمها لضرب الطيران المصرى على الأرض وحسم بها الحرب فى ساعات ، منقولة بحذافيرها من خطة وضعها الحلفاء ونفذوها خلال الحرب العالمية الثانية ، بل وانها ـ للأسف ـ كانت تدرس ضمن مناهج التاريخ العسكرى فى الكليات الحربية . ولكن من كانوا على رأس العسكرية المصرية فى ذلك الحين ، أغفلوها ولم يتوقعوا ان يستخدمها العدو الصهيونى .

وعندما سأله مراسل إحدى الصحف . كيف جازف بتنفيذ هذه الخطة القديمة المكشوفة ، أجابه بأنه كان مطمئنا الى «أن

المصريين لايقرأون» وهي مقولة لانملك إلا أن نسلّم بصحتها ، في تلك الحالة على الأقل .

نفس هذا العبقري العسكري ، هزمه بعد ست سنوات من تحفته العسكرية الفريدة ، فلاح مصري لانعرف اسمه حتى الآن ، بفكرة بسيطة لم تخطر على باله ، مؤداها أن الماء يزيح التراب . فهدم سده الترابي على ضفة القناة ، لا بستة قنابل ذرية كما كانت تقول حساباتهم ، بل ببضع مضخّات أو «مدافع مائية» فتحت الثغرات في السد الترابي ، وفتحت الطريق لجيوش الفلاحين ، لكي تهزم لأول مرة ، تكنولوجيا الغرب وعبقرية اليهود مجتمعين ، وبينت أن موشى ديان كان قائدا عسكريا متوسط الذكاء ـ على أكثر تقدير .

ثانيا : عن آلام اليهود :

الجانب الآخر من الصورة ، هو صورة اليهودي المضطهد ، المطارد ، الذي يتعرض لكافة أنواع الاعتداء من جانب القوى الشريرة والدوافع الخسيسة في نفوس الناس ، من الغيرة والحسد والكراهية غير المبرّرة .

وتردد أبواقهم الدعائية قصصا لا تنتهي من التاريخ القديم والحديث ، للتدليل على ذلك ، أهمها وأشهرها حكاية «الهولوكوست» ، أو النكبة الكبرى التي أصابت اليهود على يدي النازية قبيل الحرب العالمية الثالثة وأثناءها . ويروّجون بالذات إشاعة تقول إن هتلر قد أعدم أو قتل منهم ستة ملايين نفس ، بين معسكرات الاعتقال وغرف الغاز والأشغال الشاقة .

* وقد أثبت بعض المؤرخين أن هذا الرقم مبالغ فيه إلى حد كبير . وأن عدد اليهود الذين قتلهم هتلر لا يتجاوز ٥٠ الفا ، بينما بلغ عدد لمن قتلهم من الألمان أنفسهم ـ من غير اليهود ـ أضعاف هذا

الرقم . بل إن هذا الرقم نفسه يقلّ عن العدد الذى قتله الأمريكيون في ساعة واحدة فى مدينة واحدة ، بقنبلة واحدة من القنبلتين اللتين ألقوهما على اليابان ، ويقل عشرين ضعفا عن المليون أسير مسلم من المحاربين فى صفوف القوات السوفيتية ، الذين قتلهم هتلر لأنهم مختونون ـ مثل اليهود .

ولسنا هنا بصدد تبرئة هتلر ونازيته من جريمة ارتكبها أو لم يرتكبها ، فيكفيه إجراما عندنا أنه تسبب بسياسته فى اضطهاد اليهود ، إلى نزوح عدد كبير من يهود أوربا ليحتلوا بلادنا ويقيموا لهم فيها وطنا . وبذلك كان ـ من الناحية العملية ـ أداة من أدوات الصهيونية فى إنشاء وطن لليهود فى فلسطين .

وإنما يعنينا حرص الدعاية الصهيونية على التهويل فى مسألة اضطهاد اليهود ، وتذكير الناس كلما أوشكوا أن ينسوا ، بأنهم الشعب الذى أراد عدو البشر هتلر إبادته ، مما مكنهم من استصدار عديد من القوانين في جميع البلاد الأوروبية والأمريكية تقريبا ، تعتبر أقل مساس بأى يهودى من قريب أو بعيد ، جريمة يعاقب عليها القانون تحت اسم «معاداة السامية» . وجعلت اليهود المقيمين فى تلك البلاد ، يستظلّون بنوع من الحماية ، يشبه الحماية التى أضفاها الاحتلال الإنجليزى لمصر على الأجانب ، بقوانين الامتيازات والمحاكم المختلطة .

ورغم ذلك ، لا تكفّ أبواق الدعاية اليهودية عن إظهار اليهود فى دول أوروبا وأمريكا ، بمظهر المضطهدين الذين تمارس عليهم الأغلبية الوطنية أشكالا من الاضطهاد الخفى والتمييز العنصرى فى غيبة القانون ، مثلهم فى ذلك ، بل أكثر من ذلك ، مثل أقليات كالزنوج فى أمريكا ، والمسلمين فى بلغاريا ، والآسيويين فى إنجلترا .

ومن المؤسف أن من مشاهير كتابنا من يتلقف هذه الصورة بشبقيها من الإعجاب والإشفاق ، ويروّج لها تلميحا وتصريحا دون

كلَلٌ أو ملل . لايكاد يرتقى ذروة منبر ، من صفحة من مجلة أو عمود فى جريدة ، حتى يملأها بالحديث عن اضطهاد النازية لليهود ، أو يتغنى بعبقرية شخصية يهودية ، أو يشيد بتقدم اسرائيل .

وكلنا نعرف أن التقدم المزعوم لتلك الدولة ، ليس ناشئا عن عبقرية سكانها ولا عن يهوديتهم ، وإنما عن الدعم العلمى والمالى والتكنولوجى الذى تقدمه لها ـ بلا حدود ـ الإمبريالية الأمريكية والصليبية الأوروبية على السواء ، باعتبارها رأس رمح لهما فى جسد الامة العربية والعالم الإسلامى . كما أن من المعروف أن التهويل فى تقدير قوة العدو ، مهما كانت الأعذار المعلنة تحت شعار «اعرف عدوك وتعلّم منه» ، لايقل ضررا عن التهوين من شأنه .

نعود إلى سلمان رشدى وكتابه ، فنجد أنه قد حرص على أن يعزف على هذين الوترين المحببين إلى الصهيونية . وفى نفس الوقت ، قد تجنب بمنتهى الحرص والحذر ، أن يقع فى أى خطأ أو زلّة لسان ، تعرّضه لشبهة التعريض باليهود أو الصهيونية :

١ ـ فنجد أن الشخصية الوحيدة الجديرة بالإعجاب والإكبار ، من بين جميع شخصيات روايته ، والخالية من أى عيب (إلا الانحلال طبعا ، فهو لا يعتبر الانحلال عيبا) : هى شخصية بطلة التسلق ، ملكة الثلوج ، التى حرص على أن يمنحها اسما يهوديا لايقبل الشك : « آلى كوهين» كما حرص على أن يضفى عليها ، فوق العبقرية اليهودية التى جعلتها تقتحم أهوالا وتحقق معجزات ، هالات من الصفات الانسانية الرائعة والأخلاق النبيلة الكريمة ، من العفة والاخلاص ، والحلم والصبر على تهوّسات صديقها فاريشتا ، حتى بلغ به الجنون إلى أن يحطّم تذكاراتها ، رموز مجدها وعبقريتها ، فاعتبرت ذلك نقطة اللاعودة وقطعت علاقتها به .

ثم جعل ذلك المتهوس ـ كما رأينا ـ يقتلها دون مناسبة ، بعد عام ونصف من القطيعة ، من فوق قمة عمارة تحمل نفس الاسم

الذى حققت من خلاله مجدها وعبقريتها : «إيفرست» . وبذلك اكتملت صورة اليهودى النموذجية عند الصهاينة : العبقرى الذى ينتصر على جميع العقبات ويرتقى جميع القمم ، والشهيد المظلوم الذى تقتله الكراهية والجنون والتعصب .

٢ ـ فى كلامه عن اضطهاد الملوّنين فى لندن ، يضمّ اليهود إلى قائمة الأقليات المظلومة المغلوبة على أمرها ، والتى تضطهدها الأغلبية البيضاء المسيحية . مع أن الحقيقة هى عكس ذلك على طول الخط . فالأقلية اليهودية ـ بتضامنها وبتنظيماتها السرية ، وبالدعم الذى تلقاه من الأجهزة الصهيونية ، هى التى تضطهد الأغلبية البيضاء وغير البيضاء ، بما تفتحه تلك الأجهزة أمام اليهود من أبواب النجاح والشهرة والسيطرة ، وبما تغلقه من هذه الأبواب فى وجه منافسيهم ، دون أن يتجاسر أحد على أن يفتح فمه بكلمة احتجاج واحدة ، حتى لايتّهم «بمعاداة السامية» .

٣ ـ لم ينس أن يخرج عن طريقه لكى يحكى قصة عن نزوح أسرة آلى كوهين من بولندا هربا من الاضطهاد النازى ، تذكيرا للقارئ ـ بغير ضرورة درامية ـ بهذه النغمة التى تحرص أبواق الدعاية الصهيونية على النفخ فيها بمناسبة أو غير مناسبة ، مما أدى إلى انتحار أبيها ـ بعد ٤٠ سنة من انتهاء الحرب ، نتيجة عقدة الاضطهاد التى أصيب بها منذ شبابه ، ولم يبرأ منها طوال تلك السنين !

ثم أضاف إلى ذلك عنصرا جديدا يزيد من استثارة عطف القارئ ، بأن جعل أختها الشابة تموت غريقة فى حوض الاستحمام . وهى ميتة غريبة جدا ، ونادرة أو مستحيلة الحدوث .

افتعال وتلفيق لا علاقة لهما بالفن أو الأدب . ولكن ما شأن مثل ذلك الكاتب بالفن والأدب ؟ المهم هو اكتمال صورة اليهودى حسب النموذج المحدد .

٤ ـ فى المرة الوحيدة التى زلّ فيها لسانه بكلمة «العودة إلى أورشليم» ، أثناء حديثه عن الخمينى وتطلعه إلى العودة منتصرا إلى وطنه ، هرع إلى نفى أى شبهة يشتمّ منها القارىء ـ كما أسلفنا ـ أنه يشير إلى عودة المسلمين أو العرب إلى القدس ، مؤكدا أنه لايقصد بكلمة «أورشليم» إلا معنى الانتصار على الشر لا أكثر .

لكلّ هذه الأسباب ـ بالإضافة إلى المجرى العام للكتاب من إهانة لمقدسات المسلمين والكذب عليهم وعلى تاريخهم ودينهم بشتى صور الكذب والافتراء ـ كان من الطبيعى أن ترحب دار النشر اليهودية «بنجوين» بطباعة هذا الكتاب ، بعد أن حفيت قدما مؤلفه وهو يعرضه على دور النشر الأخرى ، لدرجة أنه ـ كما يقال ـ شرع فى أن يجمع المساهمات المالية الزهيدة من الدائرة المحيطة به من بنات الهوى فى لندن ، لكى ينشر الكتاب على حسابه ، لولا أن تداركته رحمة «بنجوين» .

وكذلك كان من الطبيعى أن تعلن الحكومة الإسرائيلية عن أنها آخذة فى ترجمة الكتاب إلى العبرية وطباعته فى إسرائيل ، لكى يتمتع كل يهودى بقراءة هذا النموذج الفذ من الأدب الراقى !

كما أنه من الطبيعى أن كل أجهزة الدعاية اليهودية والخاضعة للسيطرة الصهيونية فى العالم ، ومن بينها الإذاعة البريطانية ، أخذت تطبّل وتزمّر له ، باعتباره نوعا جديدا من الأدب الروائى ، يسمونه «سيكولوجيا الأحلام» .

× × ×

وقبل أن نغادر هذا الفصل عن صدى الكتاب عند اليهود ، لابد أن نشير إلى هدية اضافية أهداها مؤلفه الى الفكر الدينى اليهودى ، فوق ما التزم به من خدمة الدعاية السياسية للصهيونية . هذه الهدية هى تصويره للملاك جبريل ـ عليه السلام .

موقف اليهود الدينى من الملاك جبريل :

يروى الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره للقرآن الكريم [1] ـ قصة عن عداوة اليهود القديمة للملاك جبريل ، فى حديث طويل نقله عنه كثير من المفسرين ، يتلخص فى أن اليهود أعلنوا للنبى صلى الله عليه وسلم أنهم يرفضون أن يؤمنوا به ، بحجة أن القرآن يوحى به إليه من جبريل ، الذى يعتبرونه عدوًا لهم ، والذى يصورونه فى صورة المحبّ لسفك الدماء وإشعال نار الحرب .

فأنزل الله الآيتين الكريمتين من سورة البقرة : « قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّه نَزَّلَهُ عَلىَ قَلْبِكَ بِإِذْنِ الله وَهُدًى وَبُشْرىَ لِلْمُؤْمِنِينْ . مَنْ كَانَ عَدُوّاً للهِ وَمَلائِكَتِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنّ الله عَدُوّ للكافرين» .

وتكشف هذه القصة ، من بين ما تكشف ، عن الفرق الشاسع بين المفهوم الإسلامى ، والمفهوم اليهودى للملائكة . فالإسلام يعتبرهم عبادا طائعين لله ، حاملين لرسالاته ، صادعين بأوامره لايحيدون عنها . بينما يراهم اليهود أشخاصا ذوى إرادة منفصلة ، يعادون قوما ويشايعون قوما على هواهم ، وتجوز عليهم الغفلة أو الخيانة أو حب سفك الدماء .

قارن بين هذه الصورة اليهودية عن الملاك جبريل ، وبين الصورتين المتلازمتين اللتين صوّره بهما سلمان رشدى تحت اسم واحد : مرة فى صورة الإنسان المتهوّس الذى يهوى سفك الدماء بلا سبب ، ومرة فى صورة الملاك الخائن أو الغافل الذى يحرّف كلام الله الملقى إليه لكى ينزل به على قلب النبىّ . ألا ترى أنهما مطابقان تماما للمفهوم اليهودى للملائكة ، ومناقضان تماما للمفهوم الإسلامى القرآنى ؟

(١) تفسير الطبرى : جامع البيان عن تاويل القرآن ـ المجلد الثانى ـ طبعة دار المعارف ـ ص ٣٣٧ وما بعدها ـ تفسير الآيتين ٩٧ ، ٩٨ من سورة البقرة .

في هذا دليل جديد ، نضيفه إلى الأدلة التي ذكرناها على وجود أصابع **اليهود** وبصماتهم التى لاتخطأ فى تأليف «قصة الغرانيق» ، ودسها - هى وكثير غيرها - على التراث الإسلامى ، مما يسميه علماء المسلمين «الإسرائيليات» ، ويجهدون فى تنقية التراث الإسلامى منها .

ثم قارن مرة أخرى بين تلك الصورة اليهودية عن الملاك جبريل ، وبين ما أشرنا اليه عن اعتقاد بعض الطوائف من غلاة الشيعة ، ومن بينهم تلك الطائفة الغرابية التى نعتقد أن مؤلف الكتاب تربّى فيها ، والتى تقول إن جبريل قد أخطأ الطريق ، أو خان الأمانة ، فسلم الرسالة التى كان المقصود بها عليًا بن أبى طالب ، إلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بل إن هذه القصة الأخيرة ليست فى الحقيقة إلا صدى لقصة يرويها كتاب اليهود ، العهد القديم من الكتاب المقدس ، عن عيسو ويعقوب وَلَدَىْ إسحق بن إبراهيم عليهم السلام [١] ، تتلخص فى أن يعقوب احتال على أبيه ليأخذ لنفسه البَرَكة (أى : الرسالة والنبوة) التى كانت من حق أخيه التوأم الأكبر عيسو . تنزه أنبياء الله ورسله عن ذلك .

يعتقد كثير من المفكرين والمؤرخين الإسلاميين ، أن أغلب المعتقدات الخارجة عن الإسلام من عقائد غلاة الشيعة على وجه الخصوص ، وبعض معتقدات طوائف الشيعة «متوسطة الغلوّ» أيضا ، قد دسّها **اليهود على الإسلام** سواء منهم من بقى على دينه ، أو من تلبّس بالإسلام وهو منه براء ، والذين كان لهم دور أساسىّ فى إثارة الفتنة الكبرى التى وقعت بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه ، أو على الأقل فى إذكاء نارها ، وتحويلها من خلاف سياسىّ بين المسلمين فى مفترق طرق حاسم من تاريخهم ، إلى انشقاق عميق دائم فى العقائد والشرائع .

---

(١) الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر التكوين - الاصحاح ٢٧

ثم يأتى سلمان رشدى بعد ١٤ قرنا من تلك الفتنة ، نموذجا حيا - حتى الآن - لتلك الدسيسة ، فيُسمع اليهود كل ما يحبون سماعه عن الإسلام ، سواء بفضل تربيته الدينية الأصلية ، أو بكفره المستجد ، أو بطمعه الدنيوى فى أن يحظى كتابه الشيطانى برضاء الصهيونية العالمية وأموالها .

توقيت ظهور الكتاب عند الفكر اليهودى :

تعيش الدعاية الصهيونية العالمية منذ حوالى عامين مأزقا لم يمرّ عليها مثله من قبل ، والفضل الأول فيه هو بلا شك **لانتفاضة الشعب الفلسطيني** الواقع تحت الاحتلال اليهودى ، والتى قوضت أمام العالم صورة الدولة الإسرائيلية الديموقراطية المتحضرة ، التى تعامل جميع «مواطنيها» على قدم المساواة ، والتى ينعم فى ظلّها الفلسطينيون بالرخاء والتقدم ، ويعيشون في وداعة وطمأنينة ورضى . وكشفت الوجه الحقيقى للدولة اليهودية ، بأنها أشد الدول التى عرفها التاريخ المعاصر عنصرية وهمجية . وأن الفلسطينيين الذين تحتلّ أرضهم لايرضون بهويّتهم القومية وأستقلالهم السياسى بديلا ، ولاتستهويهم المغريات الرخيصة من الرخاء الزائف والديموقراطية الكاذبة .

ولانريد أن نهوّل من قيمة الأضرار التى ألحقتها ، ومازالت تلحقها الانتفاضة بالدولة الصهيونية ، وبصورة اليهودى عندما يحكم ويتحكم ، ولكن من المؤكد أن تلك الصورة التى صُنعت بدقّة وُصقلت بعناية على مدى أربعين عاما ، قد تحطمت بشكل يستعصى على الإصلاح ، من أول حجر ألقاه أول فتى فلسطينى :

«يَرمْى حَجَراً أو حَجَرْين .·. فيولَدُ وطنٌ فى العَيْنَين »

.. كما يقول نزار قبانى . وكل يوم يمرّ على استمرار هذه الانتفاضة ، يزيد هذه الصورة تشويها ، بل يعرّى حقيقتها فى

الواقع ـ وحقيقة الدولة التى تقف وراءها ، مجرّد دولة مغتصبة لوطن شعب آخر ، تواجه مقاومة وطنية متصاعدة ، مثل مقاومة فرنسا للاحتلال النازى ، أو مقاومة الجزائر للاحتلال الاستيطانى الفرنسى .

وهكذا التقت مصلحة الصهيونية مع مصلحة الصليبية ـ وهما تلتقيان فى معظم الأحيان ـ فى توقيت حيوىّ بالنسبة لكل منهما ، على تمويل وترويج هذا الهجوم المضاد على الدين الإسلامى ، الذى يقترن فى ضمير العالم ـ وبحقّ ـ بالعروبة والعربية ، ومحاولة لتعويض الخسارة الكبيرة التى لحقت بالفكر والدعاية اليهوديتين من أحجار الانتفاضة .

ـ صدى الكتاب عند عامة المسلمين ـ

أولا : عند الجماهير المسلمة :

كان أكثر المسلمين شعورا بالإهانة التى لحقت بهم وبدينهم من صدور هذا الكتاب ، هم مسلمو شبه القارة الهندية ، والمسلمون المغتربون فى بريطانيا .

وكان من الطبيعى أن تصدر أول ردود الأفعال الجماهيرية وأكثرها حدة ، من هذين القطاعين من الجماهير المسلمة ، لأن لغة القراءة الأولى عندهم هى الإنجليزية . فالكتاب موجه مباشرة إليهم ، موضوع تحت أنظارهم ، يبصرونه ويقرأونه ، ويدركون على الفور مدى استهتار كاتبه بكل معنى شريف من معانى عقيدتهم . بينما وقف الحاجز اللغوى حائلا دون إدراك الشعوب الإسلامية الأخرى ، القارئة بغير اللغة الإنجليزية ، لأبعاد هذه الاهانة ، إلا من خلال جذاذات متناثرة ، تحملها إليهم بعض صحفهم وكتبهم ، فلا يتبينون منها الصورة الحقيقية الكاملة كما جاء فيه .

كما كان من الطبيعي أن يشعر هذان القطاعان من المسلمين بصورة خاصة ، بالإهانة المزدوجة التى ألحقها بهم صدور الكتاب عن شخص مفترض فيه أنه ينتمى إليهم ، سواء من ناحية الأصل : فهو هندى المولد باكستانى الجنسية قبل أن يتجنس بالجنسية الإنجليزية ، أو بالتواجد : حيث يقيم فى بريطانيا .

ونجح مسلمو الهند فى إلزام الحكومة الهندية بمنع الكتاب ، احتراما لإرادة مواطنيها المسلمين ، بينما منعته حكومتا بنجلاديش والباكستان من تلقاء ذاتهما ، مثلهما مثل جميع حكومات الدول الإسلامية الأخرى . ولكن هذا الإجراء وحده لم يكن كافيا ـ فيما يبدو ـ لتهدئة المشاعر فى الباكستان ، فقام المتظاهرون بمهاجمة السفارتين البريطانية والأمريكية فى إسلام أباد ، باعتبار هاتين الدولتين هما أسّ الفساد . فأطلقت الشرطة الرصاص عليهم ، وسقط ستة شهداء من المتظاهرين يوم ١٢ / ٢ / ١٩٨٩ ، مما دلّ على وعى الجماهير المسلمة فى باكستان بالدوافع الحقيقية لظهور هذا الكتاب ، والقوى المحركة لكاتبه . فليست المسألة مسألة كاتب ملحد أو مارق ، وإنما هى حرب فكرية لايهدأ أوارها بين الإسلام والصليبية .

أما المسلمون المغتربون فى بريطانيا ، فقد قاموا بالعديد من المظاهرات والاحتجاجات ، مطالبين الحكومة بمنع الكتاب ومحاكمة كاتبه ، ومعاقبة ناشريه ، مما دلّ أيضا على أنهم لم يبتلعوا الطُعم الذى ألقاه إليهم المؤلف ، بوقوفه موقف المدافع عن المغتربين ضد اضطهاد الأجهزة الحكومية ، وسوء معاملتها لهم ،مما وصفناه فى حينه بأنه دفاع قوى وعادل ، فى هذه الجزئية وحدها .

عبّر مسلمو بريطانيا بذلك ، عن أن دينهم وهويتهم وشخصيتهم أعزّ عليهم من تسهيلات إجرائية ، أو معاملات حكومية طيبة ، يطالب لهم بها مؤلف الكتاب ـ مقابل أن يهينهم فى أعز مقدساتهم وأشرف معتقداتهم ، مثلهم فى ذلك مثل الثائرين الفلسطينيين تحت

الاحتلال الإسرائيلى . فجاء موقف هؤلاء وأولئك ، مصداقا للآية الكريمة من سورة التوبة :

«قُلْ إنْ كانَ آباؤُكُمْ وَأبنَاؤُكُمْ وإخوَانُكُمْ وأزْواجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُم وَأمَوَالٌ اقترفْتموها وتِجَارَة تَخشَوْنَ كَسَادَها وَمَساكِنُ تَرضَوْنَها أَحَبَّ إليكمْ مِنَ الله ورسولِهِ وَجِهادٍ فى سَبِيله فَتَرَبَّصُوا حتَّى يأتِيَ الله بِأمْرِه والله لايهْدِى القَوْمَ الفاسِقِينَ» .

ثانيا : عند الحكومات الإسلامية :

أما الحكومات الإسلامية ، فقد أجمعت كما قلنا على منع الكتاب . وكانت أولاها - كما هو متوقع ومنطقى - المملكة العربية السعودية ، التى منعت الكتاب بعد أيام من صدوره فى سبتمبر ١٩٨٨ . ثم توالت قرارات المنع من شتى الحكومات ، ومن بينها الحكومة المصرية ، وإجراءات الاحتجاج متفاوتة الشدة . ورفع بعض المسلمين دعاوى أمام المحاكم البريطانية ، إحداها رفضتها المحكمة - كما أسلفنا - والثانية مازالت منظورة أمام المحكمة الثانية .

ومسألة المنع هذه محل نظر كثير فى رأينا . فهى وإن كانت تبدو - من حيث المبدأ - ضرورية للتعبير عن الرأى الرسمى للدولة ، فى رفضها ما تضمنه الكتاب من هجوم على الإسلام ، وخاصة بالنسبة لدولة كالمملكة العربية السعودية ، أرض المقدسات الإسلامية ، والمركز الدينى للعالم الاسلامى ، وبالنسبة لمصر وطن الأزهر وأكبر الدول العربية ، إلا أن مثل هذه القرارات تكاد تكون عديمة الجدوى من الناحية العملية . بل قد تزيد أضرارها الفعلية على فائدتها النظرية والمبدئية .

وربما كانت لدى كاتب هذه السطور حساسية خاصة لمسألة منع الكلمة المكتوبة بشكل عام ، بما تحمله من تسلط على عقل القارىء ، واعتباره قاصرا أو معتوها يستحق الحجر عليه ، وتحديد ما يقرأه وما لايقرأه بمعرفة سلطة عليا مسئولة عنه .

ولكن الأدهى من ذلك هى النتيجة العملية ـ وهى معيارنا الأول فى الحكم على المواقف ـ من تشويق القارىء وإثارة فضوله للاطلاع على الكتاب الممنوع ، الذى ربما لم يكن ليبالى به لو كان مطروحا على الأرصفة ـ على أساس أن كل ممنوع مرغوب . وخاصة أنه فى عالمنا هذا الذى تعددت فيه وسائل المواصلات الدولية وتشعبت ، وكثرت عمليات النقل والتنقّل بين بلدان العالم المختلفة برّا وبحرا وجوّا ، يصبح من المستحيل فرض رقابة حقيقية تمنع دخول نسخة أو صورة من الكتاب الممنوع .

لا أعرف حكومة من دول الشرق أو الغرب استطاعت بشكل كامل وعملى ، منع دخول كتاب ممنوع ، أو حتى مجلة جنسية أو فيلما أزرق أو شريطا أحمر . مع الفارق الكبير بين الكتاب الأسود والفيلم الأزرق فى نوعية الأشخاص الذين يخاطبهم . فالفيلم يستطيع أن يشاهده ويتأثر به كل ذى عينين ، طفلا كان أم شيخا ، أميّا كان أم متعلما . أما الكتاب ـ وخاصة إذا كان مطبوعا فى لغة أجنبية ـ فلا تهتم به إلا الأقلية التى يعنيها موضوعه ، من بين أقلية قارئة بتلك اللغة ، من داخل الأقلية المثقفة التى تهتم بالكلمة المكتوبة أصلا . مما يجعل المهتمين بالكتاب يعدّون على أطراف الأصابع . وهم فى الغالب على درجة من الوعى لا تقل عن وعى الموظفين الرسميين الذين قرأوا الكتاب وحكموا بمنعه (وقد بيّن الأستاذ (الحاج) صلاح حافظ هذه القضية وشرحها شرحا وافيا فى مقالات له بأخبار اليوم) .

ثم كيف نطالب المثقفين بأن يدينوا عملا أدبيا ـ إن صحّ إطلاق هذا التعبير على الكتاب الذى نحن بصدده ـ لم يروه ولم يطّلعوا عليه كاملا ، وإنما سمعوا به سمعا ، أو قرأوا عنه نتفا متناثرة غير مفهومة ؟ كنا نتمنى ـ على الأقل ـ أن يسبق قرار المنع ، أو يصاحبه ، صدور بيان تفصيلى من هيئة من الهيئات التى يتطلع الناس إلى رأيها : مثل الأزهر الشريف أو وزارة الثقافة أو اتحاد

الكتّاب ، يتضمن عرضا لآراء مؤلفه ، وتفنيدا لما فيه من باطل . وهو ما حاولنا ـ جهد المقلّ ـ أن نقوم به فى هذه الدراسة .

ـ صدى الكتاب عند حكومة إيران ـ

ثم جاء أعلى أصوات الاحتجاج الرسمية دويّا وأشدها عنفا ، فى صورة فتوى من الإمام الخمينى فى ١٤/ ٢/ ١٩٨٩ (بعد خمسة أشهر من صدور الكتاب) ، بإهدار دم المؤلف (والناشرين) باعتباره مرتدا عن الإسلام يحل قتله . ثم بتصريحات من ممثلين للحكومة الإيرانية ، بأنها قد رصدت مبلغ ٤ ملايين دولار لاغتيال سلمان رشدى ، وأن السهم قد نفذ بالفعل ، وأنه فى الطريق إلى صدره لا محالة .

وفى تقديرى أن سلمان رشدى لم يكن يحلم بأن يظفر اسمه أو كتابه بجائزة أعظم من هذه الجائزة . بل لقد تمنى بالفعل حدوثها ، أو تنبأ بها ، فى تصويره لنفسه فى صورة شاعره بعل ـ صبيّ القوّادين ـ فى الفصل الثالث من رسالته ، حيث أصبح بين يوم وليلة ، هدفا عسكريا لأعلى الحكومات الإسلامية صوتا وأقواها حناجر وأكثرها غلوّا ، وشهيدا حياً من شهداء حرية الكلمة وضحاياها ، مثله فى ذلك مثل سقراط ، وجاليليو ، وأبى حنيفة النعمان !

كانت أول نتيجة «عملية» ، وأؤكد مرة أخرى على هذه الكلمة التي أعتبرها المعيار الذى لايخطىء للحكم على المواقف ، أن ارتفع توزيع كتابه من خمسين ألف نسخة فى خمسة أشهر ، إلى مائة ألف فى أيام قلائل ، حتى أوائل مارس ١٩٨٩ . وربما يكون قد وصل منذ ذلك الحين إلى نصف المليون أو أكثر .

-- وكانت النتيجة الثانية ، أن أضفت الحكومة البريطانية حمايتها عليه ، باعتباره مواطنا بريطانيا مستهدفا من جهة أجنبية .

مما أتاح لها الفرصة لتأكيد الصورة الكاذبة عن أنها وطن الديموقراطية ، وملاذ الخائف المطارد ، وحامية حمى حرية الرأى والتعبير .

وكانت **النتيجة الثالثة** ، أن انطلقت ألسنة وأقلام وميكروفونات كل الأجهزة الدعائية المعادية للإسلام ، تشهّر بهمجّية المسلمين ودمويّتهم ، وتؤكد الصورة التى رسّخها الفكر الصليبى والصهيونى قرونا طويلة فى أذهان الناس عن الإسلام والمسلمين .

وكانت **النتيجة الرابعة** ، أن كثيرا من المسلمين أنفسهم ، تساءلوا فى فضول عن هذا الكتاب وهذا الكاتب ، اللذين يستحقان أن يصدر عليهما حكم الإعدام فى كلمة واحدة وبلا محاكمة ، ويعلن عن تنفيذه المحتوم «بالريموت كنترول» . وتضاعف عدد الذين تشوّقوا لقراءة الكتاب ، ممن لم يكونوا ليبالون به أو يهتمون بموضوعه . بل لابد أن من بينهم من شعر فى قرارة نفسه بالإشفاق والتعاطف مع هذا الكاتب المسكين ، الذى أشهرت عليه حكومة دولة إسلامية الخناجر والسهام ، بدلا من أن تقارعه الحجة بالحجة ، والرأى بالرأى ، أو أن تطالب ـ مثلا ـ بمحاكمته محاكمة إسلامية عادلة .

ومن المستحيل عقلا ، أن تكون حكومة الخمينى قد غاب عن فطنتها أن تتوقع حدوث هذه النتائج كلها أو بعضها . كما أن من المستبعد أن تكون قد جرفتها العاطفة المتأججة والانفعال الشديد إلى اتخاذ هذا الموقف ـ بعد خمسة أشهر كما ذكرنا ـ فالحكومات غالبا ، بما فيها حكومة إيران ، لاتتخذ مواقفها وقراراتها الهامة إلا بناء على دراسة وتحليل ، وموازنة بين البدائل المختلفة ، وتخطيط لمواجهة ردود الأفعال إلخ ...

فمن حقنا إذن ، أن نتساءل : لماذا سكتت حكومة إيران خمسة أشهر كاملة ، لاتفتح فمها بكلمة ، ثم فاجأت المسلمين وغير

المسلمين بهذا الموقف ، بعد ان تصاعدت حدة الاحتجاجات فى أنحاء العالم ضد الكتاب ؟ ولماذا بعد يومين فقط من سقوط ستة شهداء فى مظاهرات إسلام أباد ؟

هل خشيت أن تسرق الحكومات والجماهير الإسلامية «الكاميرا» منها ، وتسحب البساط من تحتها ، وهى الحريصة على أن تصوّر نفسها فى صورة أشد الحكومات تمسكا بالإسلام وغيرة عليه ؟

هل خشيت ـ بعد مظاهرات إسلام أباد ـ أن ينقلب المسلمون فى أنحاء العالم ـ أو يكونوا قد انقلبوا بالفعل عليها ، بعد أن اكتشفوا مذهبية سلمان رشدى ؟ وبعد أن تبين للناس أنه شيعىّ ، أو على الأقل محسوب على الشيعة عند أهل السنّة ، كما هو محسوب على المسلمين عند غير المسلمين ؟ فأرادت أن تبرّىء ساحتها ، وتوهم الناس أنها أشد غيرة على الإسلام من جميع المسلمين : شيعة وسنة ، فاتخذت هذا الإجراء الدعائى الرنّان ، الضارّ بالإسلام والمسلمين من جميع جوانبه ـ مثل تلك الدبّة القديمة التى قتلت صاحبها وهى تحاول أن تهش عن وجهه ذبابة ؟

هل خشيت أن يقرأ الناس ويكتبوا عن القصيدة العصماء المشبوهة ، التى مدح بها سلمان رشدى الخمينى ورفعه بها فوق الصحابة ، وفوق آل البيت ، وفوق النبى نفسه ، والتى ذكر فيها العراق بالاسم الوثنى القديم «بابل» ، لقد كان يكفى لدرء هذه الشبهة ـ لو كان الأمر كذلك ـ أن يعربوا عن رفضهم لهذه القصيدة وتبرئهم منها ، أو عن أنهم يعتقدون ـ كما نعتقد ونتمنى على الله أن يكون اعتقادنا صائبا ـ أنه إنما قصد بها إلى أن يستظل بظلّ شخصية إسلامية شهيرة ، أو أن يحتمى به ، أو أن يتمسح فيه .

أقصى ما يحملنا عليه حسن الظن بالحكومة الإيرانية ، أن نعتبر هذه الفعلة عملا دعائيا خالصا لوجه السياسة ، لا لوجه الله أو

الدين أو المذهب ، أرادوا به شيئا من التعويض المعنوى عن فشلهم العسكرى فى اجتياح العراق ، وفشلهم المتكرر فى الاعتداء علي أقدس حرمات المسلمين فى مكة المكرمة . وأن يكون إعلانهم عن الملايين الأربعة ونفاذ السهم إلخ .. ضربا من التهويش :

نتمنى أن يكون ظننا هذا صحيحا ، لأنه ليس أسوأ من التهديد بالقتل إلا القتل نفسه ، ولأن الكلام لايموت بموت صاحبه ، وإنما يكتسب عند الناس قوة وشهرة لايستحقهما ، وخلودا ليس أهلا له .

ولعلّ مما يدعم هذا الظن عندنا ، أن الحكومة الإيرانية قد خالفت ، فى هذه الحالة وحدها ، السّنة التى استنّتها جميع الجماعات والهيئات الإرهابية فى العشرين سنة الماضية ، وهى أن تقوم بالفعل بعملية الاغتيال أو التفجير أو الاختطاف ، ثم تعلن بعد ذلك - لاقبل ذلك - عن «مسئوليتها» عن العملية . فلماذا خالفت الحكومة الإيرانية هذه السنة ، فأتاحت الفرصة «للضحية» لكى يختفى ويتحصّن وراء حماية الحكومة البريطانية ؟

ومع ذلك فإن نص الفتوى التى أصدرها الخمينى ، تجعلنا نرى أن الإسراف فى حسن الظن على هذه الصورة فى غير محله ، وأن للحكومة الإيرانية أهدافا أخرى ، بجانب عملية التهويش هذه وبالإضافة إليها .

فلنقرأ معا نصّ الفتوى ، التى كتبت باقتضاب شديد ، واختيار دقيق للألفاظ :

«اننى ابلّغ جميع المسلمين فى العالم بأن مؤلف الكتاب المعنون «الآيات الشيطانية» الذى ألف وطبع ونشر ضد الإسلام والنبى والقرآن ، وكذلك ناشرى الكتاب الواعين بمحتوياته ، قد

حُكموا بالموت . وعلى جميع المسلمين تنفيذ ذلك أينما وجدوهم ، كى لايجرؤ أحد بعد ذلك على إهانة الإسلام ، ومن يقتل فى هذا الطريق فهو شهيد »

(انتهت الفتوى)

حكومة الخمينى «تبلّغ» المسلمين رأيها فى الكتاب ومؤلفه وناشريه ، بعد أن صدر بخمسة أشهر ، وبعد أن وُزعت منه خمسون ألف نسخة ، وبعد أن سقط ستة شهداء من أهل السنة أثناء مظاهرات الاحتجاج عليه ! صحّ النوم !

وحكومة الخمينى ، لاتستخدم التعبير الشامل الذى تكرر استخدامه فى هذا الصدد وهو «إهانة مقدسات المسلمين»، وإنما تذكر على سبيل الحصر ثلاثة عناصر محددة هى : الإسلام ، والنبى ، والقرآن ، وهى المقدسات الأساسية ـ نعم ، ولكنها أيضا المقدسات المشتركة التى يُجمع على احترامها المسلمون جميعا . أما المقدسات الآخرى اللصيقة بهذه الثلاثة الأساسية ، والتى شعر غالبية المسلمين بالأهانة إزاء إهانة المؤلف لها ، فلا تعنى حكومة الخمينى فى قليل أو كثير ، لأنها لاتعنيها مشاعر بقية المسلمين من غير مذهبها . وسنلخّص هذه العناصر فى النقط الأربع التالية :ـ

١ ـ إهانة الروح الأمين الذى نزل بالقرآن على قلب النبى ، ووصْفُه بالخيانة تارة وبالغفلة تارة أخرى .

٢ ـ إهانة بيت الله الحرام ، الذى جعله الله مثابة للناس وأمنا ، ووصْفه بأنه معبد وثنى يعبد فيه حجر أسود ،مُقام فى مدينة اسمها جاهلية .

٣ ـ إهانة صحابة رسول الله والكذب عليهم ، ومن بينهم ، بل فى مقدمتهم : أبو بكر الصديق أول صاحب لرسول الله وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، ثم الفاروق عمر ، هادم إيوان كسرى ومطفىء نار المجوس ومنتزع بيت المقدس من أيدى الروم .

٤ ـ إهانة أزواج النبي ، أمهات المؤمنين بنصّ القرآن ، وعلى رأسهن «عائشة» ، تلك الحميراء التى أمرنا رسول الله أن نأخذ نصف ديننا عنها ، والتي قال لها علي بن أبى طالب ، بعد وقعة الجمل التى انضمت فيها إلى خصومه : «كيف حالك يا أماه ؟»

ولكن الفتوى المذكورة لاتذكرها صراحة أو ضمنا ، لسبب بسيط ، هو أن إهانة هذه المعانى الشريفة ليست فى عرف حكومة الخمينى إهانات ، أو خروجا على الأدب ، أو فسوقا يعاقب مرتكبه بكل عقاب دون الموت ، أو كفرا يعاقب عليه بالموت ، بل واجبات وفرائض يفرضونها على أتباعهم ، ولايعتبرون إيمانهم ولاعملهم كاملا إلا إذا ارتكبوها .

حيلة بارعة ، وحركة التفافية سينمائية متقنة ، تضرب بها حكومة الخمينى عصفورين بحجر واحد ، فتخلى مسئوليتها عن إلحاد المؤلف وكفره وتجرؤه على الإسلام ، وفى نفس الوقت : تضمن للكتاب ومؤلفيه وناشريه شهرة لايستحقونها ، وانتشارا لم يكونوا يحلمون به ، مكافأة لهم على إهانة مقدسات المسلمين .

ودليل جديد يقدمونه إلينا على أن أعلى الأصوات ضجيجا ، وأكثرها غلوّا ، هى ذاتها أكثر الأصوات ضررا وابتعادا عن المبدأ الذى ترفع شعاراته وتهتف بحياته .

ومن حسن الحظ أن الغالبية العظمى من علماء المسلمين ، المتفقهين حقا فى شريعة دينهم ، من شيعة وسنّة ، لم يسقطوا فى هذا الكمين ، ولم يبهرهم بريق هذه الحركة الاستعراضية ، رغم عدم اطلاعهم على الصورة الكاملة لمحتويات الكتاب . فاعترضوا فى شبه إجماع ـ على فتوى الخمينى ، بشتى صور الاعتراض ، التى نشرتها الصحف فى حينها ، واخترت منها مثالين اثنين أوردهما فيما يلى :

١ ـ رأى فضيلة مفتى جمهورية مصر العربية ـ الشيخ محمد سيد طنطاوى :

صرح فضيلته لمجلة المصور القاهرية (١) ، بأن « خير علاج لأمثال هؤلاء أن يُقرأ الكتاب ويُردّ عليه ردّا علميا ، بحيث تزهق الأباطيل التى اشتمل عليها الكتاب ، ويعرّى صاحبه ، ويبيًن خطأه ، وأنه قد افترى على الله كذبا فيما قاله . أما عملية القتل فهذه مسألة لاتجوز إلا إذا ثبتت عليه جريمة يستحق عليها القتل . والذى يقوم بتنفيذ العقوبة هو الحاكم المسئول !

٢ ـ رأى آية الله روحانى ، رئيس الطائفة الشيعية فى أوربا :

قال فى تصريح له لمجلة فرنسية ، أعادت نشره جريدة «النهار» اللبنانية : (٢) « قرأت مقتطفات من الكتاب نشرتها بعض الصحف حول الإسلام والقرآن . وبحسب الشريعة الإسلامية هو مذنب ، لكننى لا أستطيع أن أقرر نوع العقوبة . والمذهب الشيعى يهدر دم المذنب فى هذا الموضوع . وليس ذلك قبل محاكمته والتأكد مما إذا كان الذنب مقصودا أم غير مقصود . وبدون هذه المحاكمة يصير إهدار دمه خروجا على الشريعة الإسلامية . وحرية التعبير هى من بين المبادىء الاسلامية الأساسية . إذن فالمحاكمة ضرورية . ولو كنت بين القضاة فى مثلها لأدنت «رشدى» على كونه مرتدا ؛ فهو قد خان الإسلام بالتأكيد . ولكننى لن أعتبر عقوبة الموت هى المناسبة ، ففى تقديرى يجب مراعاة قانون الزمان والمكان . فإذا كان فى تطبيق القانون الإسلامى ما يؤثر على الهالة التى للإسلام ، فيجب تحاشى تطبيق هذا القانون ... » .

---

(١) المصور : عدد ١٩٨٩/٣/٣

(٢) النهار : عدد ٤ / ٣ / ١٩٨٩

ومازال سلمان رشدى - حتى كتابة هذه السطور - حيا يرزق - آمنا مطمئنّا فى كنف أسياده البيض وتحت جناحهم ، يجمع حصيلة كتابه المتزايدة ، كما يجمع القرد حبات الفول الملطخة بالوحل من تحت أقدام الصبية ، ويردد الحكمة التى يعتبرها خلاصة تجربته :
«من أجل أن نولد من جديد ، لابد أن نموت أولا» .

وصدق - فمن أجل أن يولد غراب أبيض ، لابد أن يموت إنسان ذو كرامة .

الباب الخامس

أصل الداء ، وأول الدواء

آن لنا أن نطوى كتاب سلمان رشدى ، وسيرته ، و"أرزقيته" ، وأن نتأمل الأسباب الحضارية التي أتاحت لمثل هذه الظاهرة أن تنشأ ، والآفة التى أصابت جسد الأمة الإسلامية ، فجعلت من الممكن أن يصدر كتاب بهذه الصورة : فمهما كان رأينا فى صاحبه ، لا نستطيع أن نتغافل عن الأسباب الموضوعية التى أدت ، أو مهدت لظهوره .

وفى رأيى أن هذه الآفة ، تتلخص فى سبب واحد ، هو تدهور حال اللغة العربية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى العالم العربى على وجه الخصوص .

اللغة !... اللغة !.. لو كررت هذه الكلمة ألف مرة ، وكتبتها بأكبر حروف المطبعة ، ما كانت كافية للدلالة على ارتباطها الوثيق بالقيم والعقائد والمفاهيم الإسلامية ، ولا على ضرورتها للمحافظة على هذا الدين فى وجه الأعاصير التى يتعرض لها .

الجزر اللغوية فى المحيط الاسلامى

لقد أتى على العالم الإسلامى حين من الدهر ، كانت فيه اللغة العربية هى اللغة الدولية المستخدمة بين المثقفين من كافة الشعوب الإسلامية ، يتفاهم بها ـ نطقا وكتابة ـ المثقف الصينى المسلم مع نظيره النيچيرى أو البخارى أو الهندى . لأنها كانت لغة الثقافة ولغة العلم ، لا العلوم الدينية فحسب ، بل العلوم كلها . وكانت لغات أخرى كالفارسية ، تقوم بهذا الدور بصورة جزئية ، وخاصة فيما بين البلاد الآسيوية الواقعة شرق الجزيرة العربية .

وقد تغير هذا الحال الان ، فاخذت اللغة الإنجليزية خاصة ، تشاركها بعض المشاركة لغات اخرى كالإسبانية والفرنسية والروسية ، تلك المكانة القديمة التى كانت للغة العربية فى العالم الإسلامى . ولا يقتصر انتشارها ودوليتها على العالم الإسلامى وحده ، بل على العالم كله شرقه وغربه . فالإنجليزية الان هى لغة التعامل اليومى فى السفر والسياحة والعلاقات المالية والاقتصادية والسياسية ، وكذلك فى العلوم والثقافة والفنون .

ولسنا بصدد البحث فى الأسباب التاريخية لهذه الظاهرة ، ولا الوقوف على الأطلال والبكاء على الأمجاد القديمة ، او إنكار الحقائق والمكابرة فيها . وإنما علينا أن نتفهم هذه الصورة الجديدة ، ونسعى جهد استطاعتنا لمواجهتها ، وتجنب أكبر قدر

ممكن من الأضرار الناتجة عنها على عقيدتنا وتراثنا ، وعلى قدرة الشعوب المسلمة على التواصل والتفاهم والتماسك ، فى ظل الظروف الجديدة .

وسأروى للقارىء حادثة بسيطة مرّت بى ، ولا شك أن كثيرا من القراء قد صادفهم الكثير من أمثالها ، كى نستدل منها على مدى ارتفاع الحاجز اللغوى ، ووقوفه حائلا دون تبادل المعلومات بين ذوى العقيدة الواحدة ، بل وقوفه حائلا دون ممارستهم الصحيحة لشعائر دينهم نفسها .

أذكر اننى أثناء العودة من رحلة الحج ، توقفت أنا ومجموعة من الاصدقاء والأقارب فى مطار جدة ، مدة يومين أو ثلاثة ، فى انتظار طائرة العودة إلى القاهرة ، وكان بجوارنا زوج وزوجته تركيّان ، ينتظران طائرتهما أيضا ليعودا إلى بلدهما . ولاحظنا أن الزوجة لا تكف أبدا عن البكاء الصامت ، مسدلة خمارها على وجهها ، وملتفتة دائما إلى الحائط ، لا تكاد تأكل أو تشرب ، رغم محاولات زوجها التسرية عنها والتخفيف من حزنها .

وحاولنا أن نفهم من الزوج سبب المشكلة . فكانت أول عقبة واجهناها أنه لا يكاد يعرف حرفا من اللغة العربية ، وأننا بالمثل نجهل لغته التركية جهلا تاما . وحاولنا أن نتفاهم معه ببضع كلمات معدودة نعرفها من اللغة الألمانية التى يجيدها مع بضع كلمات يعرفها من اللغة الإنجليزية . وبعدلأى . فهمنا أن زوجته تعتقد أنها لم تحج ولم يكتب لها ثواب الحجة ، لأنها لم تقبل أو تلمس الحجر الأسود ، رغم محاولاتها المستميتة اختراق الزحام فى جميع المرات التى طافوا فيها بالكعبة المشرفة ، حيث استطاع هو وحده أن يلمسه بأطراف أصابعه ، وفشلت هى فى أن تزاحم لتصل إليه . وأنها لذلك تعتبر أن رحلتها وطوافها وسعيها ووقوفها بعرفة .. إلى آخر مناسك الحج التى أدتها على الوجه الأكمل ، كأن لم تكن ، لأنها لم تلمس الحجر الأسود .

وأوضحنا للرجل قدر الإمكان ـ بأداتنا اللغوية العرجاء ـ أن لمس الحجر الأسود أو تقبيله ، ليس شرطا ولا ركنا ، ولا واجبا من واجبات الحج ، وإنما هو نافلة : من أطاق أن يؤديها تشبها برسول الله ﷺ فبها ونعمت ، والا فإن حجته صحيحة مائة فى المائة ، وأننا جميعا لم يلمس أحد منا الحجر الأسود فى حجتنا هذه ، بل أن من بيننا من حج البيت واعتمر مرات عديدة سابقة ، لم يلمس فيها الحجر الأسود مرة واحدة .

وفرح الرجل بهذه المعلومة الجديدة عليه وعلى زوجته ، وسارع يشرحها لها . ولكنها كانت ترفض الإنصات إليه ، مشيرة إلى كتيب معها مكتوب باللغة التركية ، يتضمن شرحا لمناسك الحج . ويبدو أن كاتبه لم يميز بين الركن والواجب والنافلة ، واكتفى بأن يصف لقارئه الحج الأمثل او الأفضل ، دون تمييز بين حتمية أو أهمية الشعائر المختلفة .

وتعددت محاولاتنا العاجزة . ولعلنا نكون قد نجحنا قليلا فى التخفيف عن تلك المرأة المسلمة الحريصة على أداء فرض ربها على الوجه الأكمل . ولكنهما سافرا وسافرنا ، ونحن لا ندرى ـ حتى الآن ـ هل اقتنعت تلك السيدة بأن حجتها صحيحة ، أم عادت إلى بلادها وكأنها تحمل خفى حنين ؟

وبقيت لدينا تلك المرارة . من أن يلتقى مسلمان فى أرض الرسالة ، فيعجزا عن التفاهم فى شأن من شئون دينهما ، إلا من فُتات لغتين غريبتين عنها .

وبهذه المناسبة ، لا أدرى لماذا لا تقوم السعودية بطبع كتيبات تشرح للحجاج . بطريقة صحيحة ، كيفية أداء المناسك ، مكتوبة بلغاتهم الأصلية ، وتسلمها لهم مجانا مع تأشيرات الدخول أو عند ختم جوازات سفرهم عند دخول البلاد ـ كل حسب لغته ؟ بل لماذا لا تطبع السعودية أيضا مصاحف صغيرة سهلة الحمل ، مشروحة

شرحا مبسطا بهذه اللغات ، وتسلمها مجانا أيضا للحجاج من أبناء مختلف اللغات ؟ لا أعتقد أن هذا العمل يمثل عبئا ماليا أو تنظيميا كبيرا على الحكومة السعودية ، بالمقارنة إلى الأموال التى تنفقها على تطوير وتحسين أماكن الحج ، والجهود السنوية الهائلة التى تقوم بها لتنظيم معيشة وتحركات الحجاج ، فضلا عن حمايتهم من هجمات الغربان السوداء .

فإذا كان هذا شأن مسلمين قادمين من بلد مازال شعبه متمسكا بدينه بعد ٧٠ سنة من "الأتاتوركية" ومازال لديه علماء قادرون على تصحيح المفاهيم الخاطئة لدى الناس ، فما بالك بإنسان مسلم مقيم فى بلد المهجر ، ضمن أقلية صغيرة ، جزيرة منعزلة أو شبه معزولة ، وسط محيط من الثقافة الإنجليزية المطروحة أمامه فى كل مكان ، وفى كل الموضوعات ؟

أو إنسان من اسرة مسلمة ، ولد فى المهجر ، وتعلم منذ نعومة اظفاره اللغة الإنجليزية ، قبل أن يتعلم كتابة اسمه بلغة أمته ، ثم تلقى كل علومه المدرسية والجامعية بتلك اللغة ، وتكونت ثقافته كلها أو معظمها من خلالها ، يقرأ بها الصحف والكتب ويشاهد الأفلام والعروض التليفزيونية ، ويتعامل بها كل ساعة من كل يوم ، حتى مع أبناء وطنه أو الأوطان الأخرى المغتربين معه .

وأهم من ذلك ، يجد مراجعها وكتبها جاهزة مفهرسة منظمة ، يلجأ إليها كلما ثار فى ذهنه سؤال أو استفسار عن معلومة تهمه فى حياته ، أو موضوع متعلق بدينه أو بتاريخ أمته . فيصل إلى المعلومة التى يريدها ، أو النقطة التى يبحث عنها ، فى ثوان او دقائق معدودة على الأكثر .

إنسان اعتاد أن يثق فى صحة المعلومات التى يجدها فى تلك الكتب والمراجع ، ويطمئن إلى دقتها واكتمالها و"موضوعيتها" ، كلما استفتاها فى شأن من شئون حياته أو مهنته أو تخصصه

العلمى ، فلماذا يتشكك فى هذه الدقة وهذه الموضوعية عندما يلجأ إليها بالذات فى شأن من شئون دينه وتاريخه ؟ أى باختصار : هدف سهل ، وضحية منزوعة السلاح ، فى مواجهة حراب الاستشراق !

وقد اتهمنى بعض الاصدقاء بالتشكك والتحامل على الاستشراق والمستشرقين . وهى تهمة لا أنفيها ، وإن كنت أنكر جانب التعصب منها . فالمسألة ليست مبنية على الرفض الجزافى لنوع من الفكر لأنه صادر من أشخاص وهيئات غريبة عن الإسلام والعربية ، وإنما على ما وجدته فيما وقع إلى من كتاباتهم باللغة الإنجليزية ، حيث ينفردون ـ كما أسلفت ـ بالقارىء الذى لا يعرف ـ أو لا يجيد ـ لغة الإسلام .

فالاستشراق يلعب فى الكتابات الإنجليزية المتعلقة بالدين والتاريخ الإسلاميين ، نفس الدور الذى لعبه اليهود والزنادقة فى عصور الإسلام الاولى : من دسّ أغرب الروايات وأضعفها وكأنها مسلّمات مقطوع بها ، وإبراز أبعد الأراء والتأويلات عن جوهر الإسلام ـ وكأنها الرأى "الرسمى" أو الشائع عند عامة المسلمين ، أو على الأقل كأنها مساوية له فى القوة والشيوع ، والتركيز على معتقدات المذاهب المتطرفة ، يشرحها فى إسهاب ويتيح لها من المساحة والاهتمام أكثر مما يتيح لغيرها من المذاهب المعتدلة ، بحيث تبدو كأنها الغالبة عليها أو الاكثر اهمية منها . فضلا عن الانحياز الطبيعى ضد الجانب الإسلامى فى كل نقطة من نقط التصادم بين العقيدة الإسلامية وبين العقيدتين اليهودية والمسيحية ، أو بين الحضارتين الإسلامية والغربية .

هذه هى السمات الرئيسية لهذا الفكر الاستشراقى ، ذكرتها فى إيجاز شديد ، وأضرب عليها بعض الامثلة الصارخة فيما يلى ؛ أستمدها من موسوعة عالمية ، لها منزلة كبيرة عند كل قارىء أيا كانت لغته . وسمعة لا بأس بها فى الحياد والموضوعية :

١ ـ فى مسألة "فواتح السور" ، وهى الحروف المقطعة التى تبدأ بها بعض السور القرآنية مثل "ألم" ، "ص" ، "ق" .. إلخ . فبعد أن يستعرض بعض الآراء الضعيفة فى سبب نزول هذه الآيات ، يقول إن أشيع النظريات وأقواها فى تفسيرها هى أنها الحروف الاولى INITIALS لأسماء مالكىَ النسخ الأولى من بعض أجزاء القرآن الكريم ، كتبوها عليها لإثبات ملكيتهم لها !

هل سمع مسلم او غير مسلم ، عالم او عامى ، بمثل هذه النظرية ؟ وهل قرأ أحد أن العرب كانوا يختصرون أسماءهم إلى حروف أولى مثلما تقول "ج . ف . ك" اختصارا لاسم "جون فيتزجيرالد كنيدى" ؟ بل هل يعرف أحد صحابيا من كتاب الوحى أو جامعى القرآن الكريم ، يمكن اختصار اسمه بهذه الطريقة الى "ك . هـ . ى ع . ص" ، او "ح . م . ع . س . ق" ؟

ولكن المستشرق المحترم لايبالى بأن ينشر هذا الهراء ، لكى يتجنب الإشارة إلى النظرية الشائعة حقا ، عن أن تلك الفواتح تأتى فى أوائل السور التى تبدأ موضوعها بالكلام عن القرآن نفسه . لتدل القارىء على أن القرآن ـ وإن كان مكونا من حروف كالحروف التى يتكون منها كلام الناس ، إلا أنه مفارق لكلامهم بإعجازه الإلهى ـ أو أى نظرية أخرى من النظريات التى ذكرتها كتب التفسير . لا يرضى المستشرق بهذا . فيرّوج ـ أو يخترع ـ هذه النظرية الظريفة .

٢ ـ فى شرح فرائض الوضوء : بعد أن يذكر أجزاء الجسم التى يلتزم المسلم بغسلها أو المسح عليها بالماء ، يسارع قبل أن يعجب القارىء بهذه الفريضة المقترنة بالنظافة والطهارة ، والتى جعلها الإسلام شرطا لأداء الصلاة ، يسارع بالقول فى اختصار شديد : إنه يمكن الاستعاضة عن الوضوء بالتيمم ، وأن أفعال التيمم هى نفس أفعال الوضوء ، مع الاستعاضة عن الماء بالرمل أو التراب .

ويترك القارىء ليستنتج أن المسلمين "يغسلون" وجوههم وأيديهم الخ .. بالتراب او الرمل ، كما يغسلونها بالماء ، ويتخيل ذلك المسلم الذى يستعد للوقوف أمام ربه بأن يهيل التراب على رأسه ووجهه ويديه ورجليه . دون أن يتورط الكاتب فى ذكر هذه الصورة صراحة [١] .

٣ ـ لا يتردد المستشرق حتى فى استثمار الأخطاء المطبعية ـ مقصودة كانت أم غير مقصودة ـ فيكتب مثلا اسم "المدينة المنورة" مستخدما حرف الدال D بلد من حرف النون N ، فنقرأها "المدورة" بدل المنورة .

ويبدو أن أحداً نبه الناشرين إلى هذه الغلطة ، أو تنبهوا إليها من تلقاء ذاتهم ، وإلى الفرق بين معنى الكلمتين ، فصححوها فى طبعة لاحقة إلى "المنورة" . ولكنهم حرصوا على أن يضعوا بين قوسين ، شرحا لمعناها بأنه "المستديرة" ، نفس المعنى الذى قصدوا إليه بالخطأ المطبعى السابق ، ضنا على القارىء بالمعنى الحقيقى للكلمة ، المستمد من النور الذى أضاء به شخص النبى ودينه تلك الواحة البعيدة فى قلب الصحراء العربية .

وليس الأمر قاصراً على حالتين أو ثلاث . فقد أحصيت ما يربو على خمسين خطأ من هذه الأخطاء ، لم أعدّ من بينها الأخطاء الناتجة عن اختلاف الرأى أو التحيز إلى جانب دون جانب ، بل أخطاء مادية صريحة ، مدسوسة بدهاء ، من هذا النوع الذى ذكرته . ولابد أن هناك عشرات أو مئات غيرها ، أغفلتها أو سهوت عنها ، أو مررت عليها دون أن أتبين موضع الخطأ فيها . كل هذا فى موسوعة واحدة ، محل ثقة كل من يسمع بها أو يتعامل معها ، فما بالك بمن يقتصر تعامله عليها أو على مثلها ؟

(١) التيمم ـ كما هو معروف ـ هو أن تضرب بكفيك على سطح جاف طاهر ، ثم تمسح على وجهيك وذراعيك ، وذلك فى حالة فقد الماء أو ندرته أو خوف الأذى من مرض أو غيره .

وليس هذا عذرا ، أو اعتذارا عن كاتب مثل سلمان رشدى ، الذى تعلم وعاش دهرا طويلا فى بريطانيا . فقد استدللنا على أنه مشارك مشاركة واعية فى عملية تشويه صورة الإسلام ، الذى لم يعرفه قط معرفة صحيحة ، بالإضافة إلى جهله الفاضح ، الناتج عن تتلمذه على الفكر الاستشراقى . وإنما نتحدث عن المثقف العادى ، حسن الظن ، حسن النية ، الذى يجد نفسه محاصرا بمثل هذه الكتابات ، يستمد منها وحدها ، معلوماته عن دينه وتاريخ قومه .

لا نستطيع أن ننظر إلى هذه الظاهرة بعين التجاهل والاستخفاف ، أو نشيح بوجوهنا عنها باعتبارها مختصة بلغة غير لغتنا . بل إن مسئوليتنا عن تنقية الكتابات الإنجليزية عن تراثنا ، لا تقل عن مسئوليتنا عن نظائرها المكتوبة باللغة العربية - إن لم تزد . على الأقل يستطيع القارىء العربى أن يراجع المعلومة التى يشك فيها على كتاب آخر من كتب التراث أو الكتب المعاصرة . أما القارىء بالإنجليزية ، فحتى لو حاول ذلك ، لوقع فيما هو أسوأ مما يشك فيه ، كالمستجير من الرمضاء بالنار .

إننى أناشد هيئاتنا العلمية المتخصصة ، أن تقوم بمراجعة منظمة مستقصية لهذه المراجع الإنجليزية ، بادئة بأكثرها شيوعا واستعمالا ، وتنقيها من هذه الشوائب ، سواء بتنبيه الناشرين إلى تلك الأخطاء ، أو بنشر تصحيح فى صورة كتيب أو مقال بنفس اللغة ، إذا رفض الناشر أو تقاعس عن التصحيح .

كما أناشد علماءنا ومفكرينا ومثقفينا القارئين باللغة الإنجليزية ، أن يتبعوا نفس الخطوات ، كلما وقع أحدهم على خطأ أو دسيسة من تلك الدسائس . وهذا أضعف الإيمان ، وأقل ما يمكن أن نقدمه إلى إخواتنا المغتربين ، المهاجرين بدينهم وعقيدتهم إلى بلاد الغرب ، وإلى الآخرين الذى ظلوا باقين بأجسادهم فى بلادهم ، بينما هاجرت عقولهم إلى اللغة

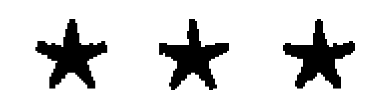
الإنجليزية .

كما أنني أطالب الدول الإسلامية ، وفى مقدمتها الدول العربية ، بأن تضم جهودها وأموالها لكى تضع موسوعة إسلامية شاملة ، باللغة الإنجليزية ، ليرجع إليها كل مسلم لا يعرف العربية ، فى شئون دينه وتاريخه . وأعتقد أن مثل هذه الموسوعة ، ألزم لنا فى هذه الظروف من موسوعة باللغة العربية . فالقارىء العربى ـ كما أسلفنا ـ يستطيع الاستعاضة عنها بكتب التراث الكثيرة ، أو بسؤال العلماء الموجودين فى بلاده .

ولا يتعارض هذا مع الدعوة إلى تعليم اللغة العربية للمسلمين من أبناء شبه القارة الهندية وغيرهم من الشعوب المتكلمة بغير العربية ، والمغتربين فى البلاد الأجنبية . بل على العكس ، يجب تشجيع هذا الاتجاه وتطويره ، وتوفير كل الطاقات والوسائل له ، بحيث تكون فى كل مدينة كبيرة فى العالم الإسلامى كلية للغة العربية ، وفى كل مركز إسلامى فى بلاد الغرب مدرسة ، تدرّس فيها مبادىء اللغة لمن لا يعرفها ، وترفع مستوى معرفته بها إلى درجة الإجادة إن كان ملما بها .

ولكن .. كم فى المائة من المثقفين والقارئين تستطيع مثل هذه الكليات والمدارس ـ إذا افترضنا إنشاءها ـ أن تعلمهم ؟ وكم فى المائة منهم سوف يصل إلى مستوى الإجادة التى تمكنه من الاطلاع على التراث الإسلامى باللغة العربية ؟ بل كم فى المائة منهم يهتم بقراءة هذا التراث بلغته الأصلية كالأوردية مثلا ؟

علينا أن نعترف بحقائق العصر ونتعايش معها ، ونذهب إلى المثقف المعاصر فى دائرة اللغة التى هاجر إليها ، ونعينه على ألا تكون هجرته تلك ، نكبة عليه وعلى دينه .



اللغة العربية عند أهلها

يقول الإمام البوصيرى فى بردته المشهورة :

أَمَرتُكَ الخَيْرَ لَكِنْ ما ائْتمرتُ به
وما استقمتُ ، فما قَولى لك : اسْتَقِم

لا أعرف بيتا أبلغ من هذا البيت فى لوم الإنسان لنفسه حين يفعل خلاف ما يعظ به ، ولا أدل على حالنا حينما نطلب من المسلمين من غير أبناء العربية أن يتعلموها ، بينما نهملها نحن فنتخذها وراءنا ظهريا ، أو نضعها فى الدرجة الثانية من الأهمية ، أو نركن إلى فكرة أننا مادمنا قادرين على التفاهم بها ، وقراءة كل ما يلزمنا فى حياتنا اليومية ، وكتابة كل ما نحتاج إليه فى أعمالنا ـ بأى درجة من الوضوح ـ فكل شىء على ما يرام . وأن اللغة ، كما قرر المستشرقون ، ليست إلا أداة اتصال ، لا تزيد عن ذلك ولا تنقص .

ربما كان هذا القول صحيحا بالنسبة إلى الإنجليزية أو الفرنسية ، أو أى لغة أخرى .. إلا اللغة العربية !.. أولا لأنها لغة القرآن ـ كتاب الله ، وثانيا لأنها الفن القومى الأول أو الوحيد للأمة العربية فى تاريخها الطويل ، فضلا عن كونها أداة اتصال أيضا ـ لا بين الناس المتعاصرين فقط ، بل بين الماضى والحاضر أيضا ، وبين علوم الدنيا وعلوم الآخرة .

فالإسلام "دين كتاب" ، بالمعنى الحرفى للكلمة . محوره ومصدر جميع عقائده وشرائعه ، هو القرآن ، (تكملها وتوضحها بالطبع السنة النبوية) . والقرآن كتاب له لغة ، لغة واحدة لا يمكن ترجمته إلى غيرها دون الإخلال بالكثير من معانيه ، وصوره البلاغية المركبة ، وموسيقاه اللفظية الظاهرة والخفية ـ المشاركة فى إظهار المعانى وتعميقها .

والإسلام من جهة أخرى ، "دين معجزة" . بمعنى أن معجزته الأولى والكبرى ، باقية على الدهر ، لا قاصرة على عصر النبى وحده ، ولا على الذين رأوها بأعينهم وحدهم . وهذه المعجزة الباقية ـ هى نفس هذا الكتاب .

ولا تكون هذه المعجزة باقية حقا ، إلا طالما بقى من يستطيع أن يراها ، ويفهمها ، ويتبين إعجازها ـ أى : يتذوق بلاغة القرآن .

هناك قول مشهور : أن القرآن قد حفظ اللغة العربية أكثر مما حفظته اللغة العربية . وهو قول صحيح فعلا . ولكننا لا يمكن أن نستنيم إلى هذه الفكرة ، ولا أن نقول مثل عبد المطلب "إن للبيت ربا سيحميه" ، أو نتوقع أن يرسل الله إلينا الطير الأبابيل ، لتحمى ديننا ومقدساتنا كلما تقاعسنا عن حمايتها . كما لا يمكن أن نركن إلى تأويل الآية الكريمة "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" ـ بأنها إعفاء لنا من مسئولية المحافظة على القرآن وحفظه . بل إنها أمر وتكليف من الله إلى كل مؤمن أن يكون أداة من أدوات تحقيق هذه الإرادة الألهية ، وإلا .. فإن إرادة الله سوف تنفذ حتما ، بصورة أو بأخرى ، بنا أو بغيرنا ، كما تقول الآية الكريمة من سورة محمد : "وإِنْ تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قوماً غَيْرَكُم ثُمَّ لا يكونوا أَمْثَالَكُمْ" . نعوذ بالله من مثل هذا المصير .

وقد رأينا أثناء استعراضنا لمنطقة القاضى عياض فى إبطال قصة الغرانيق ، كيف أن التذوق البلاغى وحده ، هو الدليل المادى

القاطع على فساد القصة وتلفيقها . ونضيف هنا أنه بدون هذا التذوق البلاغى ، تصبح جميع الأدلة التى ذكرها قابلة للتصديق والتكذيب ، أو لا تقنع إلا من هو مقتنع سلفا بالأسس العقيدية التى انبنت عليها .

كما رأينا أن الفصل بين القرآن ولغته ، سواء بالترجمة أو بالشرح المبسط دون النص الحرفى للكلمات ، يفقد الكلام جوهره وروحه ، ويجعله يحتمل كل تفسير أو تأويل أو إضافة أو حذف ، ويسقط ذلك الدليل المادى القائم على التذوق .

و"التذوق" الذى نعنيه هنا ، هو الدرجة العليا من معرفة اللغة ، تسبقه درجة أدنى منه هى "الإجادة" ، وتسبقهما الدرجة الدنيا من المعرفة وهى "الإلمام" . وهى درجة يشترك فيها كل متكلم ومتعلم بالعربية ، يقرأ بها الصحف ، ويكتب بها فى تعاملاته اليومية ، ويتميز بها وحدها على من ليس من أبناء اللغة . ولكنها ميزة سلبية ليس لصاحبها فضل فيها ، وإنما اكتسب إلمامه ذلك بحكم المولد والبيئة ، وقليل من التعليم والتعلم . أما الإجادة ، فضلا عن التذوق ، فهى لا تكتسب إلا بالمران والمعاناة والمجاهدة ، بل والحب !

وقد رأينا أيضا كيف جاهد ذلك الغراب الأبيض ، وعانى ، وتمرن وتدرب فى صبر ودأب ، لكى يخلص لسانه وصوته من كل لكنة أجنبية تباعد بينه وبين التشبه بسادته الذين يطمح إلى الالتحاق بهم ، ويتمنى أن يقبلوه واحدا من جماعتهم . أفلا يجدر بنا نحن أن نجهد قليلا أو كثيرا لنتشبه بأسلافنا ، بناة ديننا وتاريخنا ؟

وليس كلامى هذا موجها إلى ذلك الشاب المتعلم ، طبيبا أو ضابطا أو مهندسا أو محاميا ، الذى إذا صوبت له خطأ لغويا ، نظر إليك مبتسما فى سعادة وخيلاء ، وهو يقول لك : "أصلى ضعيف

في العربي" . ولا إلى تلك المذيعة التى بنت شهرتها على ما قدمته من برامج عن أعلام الأدب العربي المعاصرين ، ومع ذلك تفاخر في مجالسها الخاصة بأنها "لم تقرأ سطراً من اليمين إلى الشمال منذ سنوات" . وإنما أوجه كلامي إلى الشاب الجاد المخلص ، المعتز بشخصيته المتمثلة في دينه أو قوميته ، أو فيهما جميعا ، والذى يبحث عن الطريق الذى يؤكد به هذه الشخصية ويعمقها ، ويحولها من مجرد اسم على غير مسمى ، إلى ممارسة حقيقية جادة .

فمعرفة اللغة العربية بأى درجة من المعرفة ، كما أنها ميزة يتميز بها المسلم العربي ، هي في نفس الوقت مسئولية ، يترتب عليها واجب ، بل أكاد أقول فريضة ، تفرض عليه أن يرتقى بمستوى معرفته بها إلى الإجادة على الأقل ، وصولا إلى التذوق بأى درجة من درجاته .

وليس معنى ذلك أنني أطالب ذلك الشاب بأن ينكبّ على كتب النحو والصرف يدرسها ويحفظها لكى يجيد اللغة ، ولا أن يحفظ بحور الشعر وقواعد العروض والبلاغة لكى يستطيع أن يتذوق آدابها . لست أطالبه بهذا ولا ذاك ، ولا حتى أنصحه به ، بل أحذره منه وأنصحه بتجنبه . فاللغة تُتعلم بالقراءة والاطلاع . وتُكتسب - مثلها مثل أى مهارة أخرى رياضية أو عقلية - بطول الممارسة .

كل ما أطلبه من ذلك الشاب ، هو أن يمسك بكتاب من كتب الأدب العربي المعاصر أو القديم ، أو بكتاب من أمهات الكتب العربية فى أى موضوع يميل إليه ، ككتاب "الأغانى" مثلا ، أو تاريخ الجبرتى ، أو طبقات فحول الشعراء ، أو ديوان المتنبى - يمسك به ويقرأه ، بلا خوف ولا رهبة . يقرأه كما يقرأ مقالا في جريدة أو قصة في مجلة . لا يطالب نفسه فيه بالتوقف عند كلّ كلمة ، ولا بفهم كل عبارة ، فليس هناك من سيمتحنه فيه ، وليس

مسئولا أمام أحد عن درجة استيعابه له . يكفى أن تستهويه فيه من حين إلى حين .. قصة ظريفة ، أو نادرة مسلية ، أو معنى جديد ، أو أن يتمتم لنفسه ببيت من الشعر يرى فيه جانبا من الجمال .

يكفيه أن يقرأ فى مثل هذا الكتاب ساعة أو نصف ساعة ، بغير التزام ولا مواعيد محددة كالمواعيد المدرسية . ثم يضع علامة على المكان الذى توقف عنده ، ويعود إليه غدا أو بعد غد ، أو عندما يجد فى نفسه الرغبة فى معاودة القراءة . فليس هناك من يسوقه بالسوط لكى يكمله .

وأنا أؤكد لذلك الشاب أنه قبل أن تمر بضعة شهور ، أو عام واحد أو أكثر أو أقل ، سيكون قد قرأ ذلك الكتاب من أوله إلى آخره . ربما تكون درجة فهمه أو استيعابه للكلام فى أوائل الكتاب لا تزيد عن ١٠٪ ، ولكنه قبل أن يصل إلى نهايته سيكون قادراً على استيعاب ٧٠٪ أو ٩٠٪ . وستكون قد تفتحت أمامه أبواب من المتعة والجمال والمعرفة لم يكن يحلم بوجودها أصلا . وسيكون قد ارتقى بمعرفته باللغة ، وقدرته على التعامل بها ومعها ، درجة أو درجتين أو عشراً .

ثم ليرجع ذلك الشاب بعد ذلك - أو أثناء ذلك - إلى القرآن الكريم ، يقرأ فيه . وسيجد نفسه حتما ، أقدر على فهم آياته ، والإحساس بمواطن الجمال فيه ، وإدراك معنى الإعجاز فى بلاغته ، مائة مرة ، مما كان قبل أن يقرأ ذلك الكتاب الواحد . وسيجد نفسه أيضا ، مدفوعا إلى قراءة كتاب أو ديوان ثان وثالث . وربما تصبح المسألة عنده إدمانا !

وأنا بالطبع لم أخترع هذا المنهج . وإنما هو المنهج الوحيد الذى اتبعه ويتبعه ، كل من يريد أن يتثقف فى أى لغة وفى أى موضوع ، فى أى بلد وفى أى أمة . لا ما درجنا عليه - بفضل أسلوب التعليم فى بلادنا - من النظر إلى الكتاب باعتباره عدوا أو

خصما ، قاتلا أو مقتولا ، إما أن تحفظه وتلخصه وتخططه ، لكى تنتصر عليه ، وتتقن جميع الحيل التى سيلجأ إليها الممتحن الماكر للإيقاع بك فى الامتحان ، أو أن تقع فريسة فى فخ من فخاخه أو كمين من كمائنه .

وهذا أجدى عليك وعلى دينك ، من الاقتصار على الاستماع إلى الدروس الوعظية بعد صلاة العصر أو صلاة العشاء ، يلقيها إليك - فى الغالب - متفيقهٌ لا يحسن أن يقرأ سطراً أو بيت شعر من لغة القرآن ، أو حديثا من أحاديث الرسول ، دون أن يخطىء فيه مرات عديدة ، ولا يكاد ينجو من لحنه إلا بضع آيات يحفظها عن ظهر قلب ، ويرددها فى تعالم وتعاظم . ثم ينهاك عن قراءة الشعر والأدب ، بحجة أنها تشغلك عن التفقه فى دينك ، وموالاة الصلاة والصوم . فهو لا يعلم أنه فى عصرنا هذا ، الذى أصبح فيه مثله هو خطيب القوم وصاحب كلمتهم ، أصبح تعلم اللغة وإجادتها وتذوقها فرض عين ، أو واجبا على الأقل ، لا يقل - فى جدواه وفى ثوابه - عن صلاة ألف ركعة من النوافل ، أو صيام ألف يوم فى غير رمضان .

وأنا أعجب أيضا لذلك الشاب المتحمس لدينه ، الذى لا يدع شيئا من صفات رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا عادة من عاداته أو مظهره أو هيئته ، إلا تتبعها وقلدها وترسّم خطاه فيها : يطلق لحيته ، ويرتدى الجلباب والطاقية ، ويمشى الهرولة ، ويكتحل كما كان يكتحل رسول الله اتقاء لوهج الشمس ، بل لا يتردد فى أن يذهب إلى الجامعة ممتطيا جملا - كما سمعنا ، لأن الرسول كان يركب الإبل .. يتكلف كل هذا ، ولا يخطر بباله أن يقلد رسول الله فى ألصق شىء به وبدينه ، وبالكتاب المنزل عليه ، وهو لغته التى يتكلمها ، والتى أوتى فيها جوامع الكلم . طبعا .. لأن إتقان لغة القرآن أكثر جهداً ، وأوعر مركبا ، وأقل تظاهرا ، من ركوب الجمل وإطلاق اللحية إلخ .. وهو لهذه الأسباب نفسها - ولأن لكل شىء

ثمنا - أجدى على المسلم العربى خاصة ، ثم على الإسلام نفسه ، من تلك السنن الشكلية .

ومن الظلم أن نحمّل شبابنا وحدهم مسئولية جهلهم باللغة العربية وآدابها وتراثها ، أو أن نطالبهم بإصلاح كل ما أفسده الدهر بالجهود الذاتية . فالمسئول الأول هو نظام التعليم والأجهزة التعليمية ، التى تسلمناها من المستشرق "دانلوب" منذ سبعين سنة ، بعد أن غرس فيها أول بذور الإفساد والتجهيل . وبدلا من أن نغيرها ، ونجعلها فى خدمة أهدافنا القومية الحقيقية ، زدناها فسادا على فسادها ، سواء بكارثة "شرشر" فى الخمسينات والستينات ، التى كان الهدف المعلن لها هو سرعة تعليم القراءة والكتابة ، ثمّ كانت نتيجتها العملية تخريج أجيال متتابعة من الأميين الذين لا يحسنون قراءة الشهادات الدراسية الممنوحة لهم .. أو بنكبة مدارس اللغات ، التى أعلنت أيضا أنها ستخرج أجيالا من "مزدوجى اللغة" ، فخرجت أجيالا من "معدومى اللغة" لا يجيدون اللغة العربية ، ولا اللغة الأجنبية .

ورحم الله أستاذنا "حسن فهمى" ، الذى كان يدرس مادة التكنولوجيا باللغة الانجليزية ، ويحرص على أن يمتحن طلبته فى ترجمة فقرات من الكتب الهندسية من الانجليزية إلى العربية ، ويحاسبهم فيها ، لا على صحة ترجمة المصطلحات الفنية فحسب ، بل على جودة الصياغة ، وعلى الأخطاء النحوية والإملائية أيضا . فإذا احتج عليه طالب من خريجى المدارس الأجنبية القديمة ، أجابه بلهجته الحادة التى تشبه دفعات المدفع الرشاش : "لا تحاول أن تضحك علىّ . أو على نفسك . إن من لا يعرف لغته ، لا يعرف أى لغة أخرى !" .

ولا يتسع المجال هذا لمناقشة الإجراءات اللازمة للمحافظة على لغتنا ، وإعادتها إلى مكانها الطبيعى على ألستنا وأقلامنا وعقولنا ،

ولكننا نطالب بأن تضع الدولة هذه المشكلة فى موقعها الصحيح من الاستراتيجية القومية . لا باعتبارها مشكلة عابرة نتذكرها حينا ثم ننشغل عنها بالمشاكل اليومية ، بل باعتبارها خطرا يهدد كيان الأمة ووجودها ، فضلاً عن دينها الذى تعتز به فوق اعتزازها بوجودها نفسه .

وقد يبدو ـ لأول وهلة ـ أن هناك تناقضا بين المنهجين ، أو الموقفين ، اللذين ننادى باتخاذهما بالنسبة إلى المسلمين المغتربين ، وبالنسبة إلى العرب المقيمين . فقد يقول قائل : ما بالك تنادى بأن نذهب إلى اللغة الإنجليزية ، نصحح كتبها ، وننقيها من الشوائب التى تشوه صورة الإسلام ، وأنت فى نفس الوقت تطالب بأن يتمسك أبناء العربية بلغتهم ، ويطوروا معرفتهم بها من الإلمام إلى الإجادة إلخ ..؟

وأنا لا أرى أى تناقض بين هذين السبيلين ، بل لا أرى إلا تكاملا وتقسيما للوظائف . فالمسألة من وجهة نظرى تشبه حالة إنسان يصارع الأمواج وحده ، وأنت واقف على الشاطىء تريد أن تساعده ، فتلقى إليه بحبل يمسك به . فلابد لك أن تجذب الحبل بكل قوة ، ولابد لك أيضا أن تتشبث بالأرض وتغرس قدميك فيها . فلو أرخيت الحبل أو أوهيته أو قطعته ، لغرق صاحبك . ولو تراخيت أو تكاسلت عن التشبث بالأرض ، لغرقتما معاً .

ترى هل نحن أهل لهذه المسئولية ؟ أم سوف نظل على تقاعسنا وسلبيتنا ، مستسلمين للعجز والبخل والكسل ـ نعوذ بالله منها كما عاذ رسوله صلى الله عليه وسلم ، تاركين المجال خاليا لكل من شاء أن يتكلم باسمنا واسم ديننا ، أو يتظاهر بالدفاع عنه ، إلى أن نفيق يوما على نعيق الغربان ، وهى تحوّم بأجنحتها السوداء متجهة صوب "مكة شريف" ، لكى تحقق أحلامها السيكولوجية بانشقاق البحر العربى ، وبأن يتحول كل إنسان منا أو من أبنائنا ـ بوجهه

وقلبه وروحه ، شطر "لندن شريف" ، كما فعل ذلك الغراب الأبيض ؟

★ ★ ★

رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلوبَنَا بعدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ، وهبْ لنا مِن لَدُنْك رحمةً ، إنَّك أنتَ الوهَّابْ .

والحمد لله أولا وآخرا .

وصلى الله على ملائكته وأنبيائه ورسله ، وعلى المصطفى من خلقه محمد النبى العربى الأمىّ ، وعلى آله وأصحابه ، وأنصاره وأزواجه ، ومن صلح من ذريته ، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين ...

.. وسلَّمَ تسليما كثيرا .

الفهرس

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا أو مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

الكويت السيد / عبدالعال بسيونى زغلول ، الصفاة - ص ب رقم ٢١٨٣٣

للحصول على نسخ من كتاب الهلال اتصل بالتلكس : 92703 Hilal.V.N

رقم الايداع : ٥٦٧٩ / ٨٩

الترقيم الدولى : ٣ - ٤٣٩ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN

هذا الكتاب

أول دراسة موضوعية لكتاب « آيات شيطانية » لكاتبه الهندي الأصل سلمان رشدى ، وهو الكتاب التي كشف كاتبه الافتراءات ضد الاسلام خلال أربعة عشر قرناً .

يصحب الكاتب زهير شاكر القارىء في رحلة على امتداد الكتاب بقسميه الروائي والتقريرى ، ويقوم برحلة أخرى فى أعماق سلمان رشدى ، كما تظهر من خلال كتابه .. كما يتناول تحليلا لموقف سلمان رشدى من قضية المواجهة بين الانسان الشرقى وبين الحضارة الأوربية المعاصرة .

ونتعرف من خلال هذه الدراسة على انعكاسات ظهور الكتاب على القطاعات المختلفة من الراى العام ، والدوافع وراء هذه المواقف .. كما يحلل الظروف الحضارية التى مهدت لظهور آيات شيطانية .

إنه كتاب يجب أن يقرأ ، ويجب أن يترجم للغة الانجليزية لكى يكون فى متناول كل من قرأ تلك « الآيات الشيطانية » .


توشيبا مع العربي
تقدم أجمل مروحة
في عز الصيف
من غير تكييف
بتكيف مطرحك
ضمان الثقة
تعمل ليلاً ونهاراً بدون توقف فنحن نضمنها
لمدة خمس سنوات
* صناعة مصرية .
* جودة عالمية .
* بترخيص من توشيبا العالمية .
انتاج الشركة المصرية للأجهزة الكهربائية والالكترونية
ش.م.م
لوكلاء شركة
العربي
توشيبا
TOSHIBA
العربي
Toshiba

